



GENERAL UNIVERSITY  
LIBRARY

---

---

DATE DUE

NEW YORK UNIVERSITY  
BOBST LIBRARY

C  
I  
R  
C

DEC 13 1985

22 15

C  
I  
R  
C

70 WASHINGTON ST.  
NEW YORK, N.Y. 10012

VAR-2520.

(val:4)

# تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الرابع

العصر العباسي الثاني

في الشرق ومصر والمغرب والأندلس

٤٤٧ - ٦٥٦ / ١٠٥٥ - ١٢٥٨

تأليف

الدكتور حسن إبراهيم حسن

مدير جامعة أسيوط سابقاً ، وأستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة  
وأستاذ الدراسات الإسلامية وتاريخ الشرق الأدنى بجامعة  
بنسلفينيا وكاليفورنيا والرباط سابقاً  
وأستاذ التاريخ الإسلامي بمعهد الدراسات الإسلامية العليا  
جامعة بغداد

الطبعة الأولى ١٩٦٨

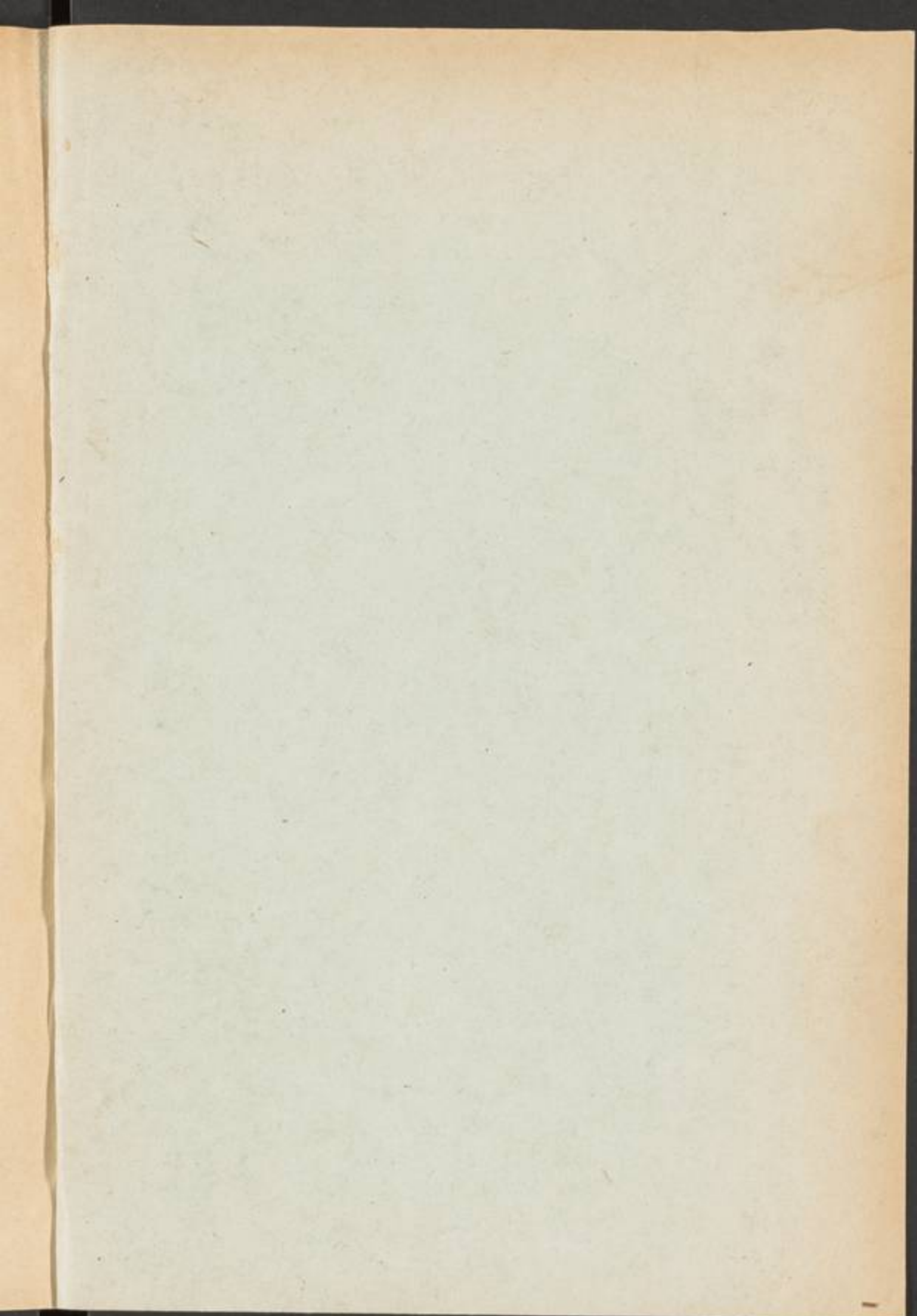


مكتبة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

لاصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة



Hasan, Hasan Ibrāhim.

# تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

Tarikh al-Islām al-Siyāsī.

الجزء الرابع

العصر العباسي الثاني

v. 4

في الشرق ومصر والمغرب والأندلس

٤٤٧ - ٦٥٦ / ١٠٥٥ - ١٢٥٨

تأليف

الدكتور حسن إبراهيم حسن

مدير جامعة أسيوط ، وأستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة  
وأستاذ الدراسات الإسلامية وتاريخ الشرق الأدنى بجامعة  
بنسلفينيا وكاليفورنيا والرباط سابقا  
وأستاذ التاريخ الإسلامي بمعهد الدراسات الإسلامية العليا  
جامعة بغداد

الطبعة الأولى ١٩٦٧



مركز النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

لاصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

Near East

DS

223

.H 34

v. 4

c. 1

مطبعة السنة المحمدية  
١٧ شارع شريف باشا الكبير - عابدين  
٩٠٦٠١٧ ن



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة الكتاب

يسرني أن أقدم إلى قراء العربية الطبعة الأولى من الجزء الرابع من كتابي «تاريخ الإسلام: السياسي والديني والثقافي والاجتماعي» الذي طالما انتظره القراء الكرام عقب ظهور الطبعة الأولى من الجزء الثالث من هذا الكتاب سنة ١٩٤٥ .

ويتناول هذا الجزء تاريخ الإسلام في مدة قرنين وتسع سنين (٤٤٧ — ٦٥٦ هـ) ، ويبدأ من السنة التي قبض فيها السلاجقة على أزمه الحكم في الدولة العباسية إلى أن زالت الخلافة العباسية من بغداد على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

وكان لهذا العصر ، على الرغم من ضعف الخلافة العباسية ميزاته ومظاهر حضارته . فقد ظهرت فيه دول كثيرة كان لها أثر كبير في تقدم الحضارة الإسلامية . ذلك أن بغداد ، بعد أن كانت مركزاً لهذه الحضارة ، ظهرت إلى جانبها مراكز أخرى مثل القاهرة وبخارى وغزنة ومراكش ، ازدهرت فيها الحضارة والعلوم والآداب ، وبفضل تشجيع الخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء رجال العلم والآداب ، وبفضل اتساع أفق الفكر الإسلامي وذبوع العمران ورفق المجتمع الإسلامي .

وقد قسمت هذا الجزء إلى اثني عشر باباً ، بحثت في الباب الأول منها الدولة السلجوقية من ظهور طغرلبيك إلى وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ . وتكلمت في الباب الثاني على عصر سنجر السلجوقي وإخوته (٤٨٥ — ٥٥٢ هـ) ، فبينت مميزات هذا العصر ، ولا سيما في عهد سلطنة بركياروق ومسعود وسنجر الذي انتهى بموته سنة ٥٥٢ هـ عصر السلاجقة العظام . وعالجت في الباب الثالث الدول المستقلة التابعة للخلافة العباسية كدول الأناضول في دمشق والموصل وحلب والجزيرة وديار بكر وكرمان والموصل وغيرها . كما تكلمت على دولة خوارزم والدولة المرابطية في المغرب والأندلس والدولة الأيوبية في مصر .

وبحثت في الباب الرابع غزوات المغول وسقوط بغداد على أيديهم في سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، وزوال الخلافة العباسية التي عاش العالم الإسلامي في ظلها زهاء خمسة قرون . وبحثت في الباب الخامس الدول الإسلامية المستقلة غير التابعة لحكم العباسيين ، كالدولة الغورية ، والدولة الفاطمية في عصرها الأخير ، والدولة الصليحية في اليمن ، والدولة الموحدية في المغرب والأندلس .

وبحث في الباب السادس العلاقات الداخلية ، كعلاقة العباسيين والفاطميين بالبيزنطيين ، وعلاقة العباسيين بالفاطميين ، وعلاقة الفاطميين بالمغرب وصقلية ، وعلاقة الفاطميين والعباسيين باليمن ، وأخيراً بحثت علاقة المسلمين بالصليبيين ، فبينت العوامل التي أدت إلى قيام الحروب الصليبية ، ودعوة المسيحيين إلى هذه الحروب ، وما تبع ذلك من تنظيم الحملات الصليبية على البلاد الإسلامية ، وأخيراً بحثت العوامل التي أدت إلى انتهاء الحروب الصليبية من المشرق وانتصار المسلمين عليهم ، وما كان لهذه الحروب من أثر في الكنيسة وفي كرسى البابوية ، وما كان من تأثيرها في الحياة الداخلية والاقتصادية عند ملوك أوروبا ، وفي العلاقات الخارجية بين الدول المختلفة ، وفي علاقات القارة الآسيوية بأوروبا ، وما تبع ذلك من اكتشاف الأراضي الجديدة من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر .

وقد بحثت في الباب السابع الحركات السياسية والدينية واتجاهاتها المختلفة ، وما كان لها من أثر في السياسة والدين والأدب والاجتماع وغير ذلك ، فتناولت الكلام على طائفتي القرامطة والدرزية ، ثم على طائفة النصيرية ، ثم على طائفتي التزارية في فارس والشام ، والطيبية في اليمن ، ثم على الدعوة المرابطية ، وأخيراً على الدعوة الموحدية .

وقد عرضت في الباب الثامن لنظم الحكم السياسية والإدارية والمالية والحربية والقضائية ، فتسكمت على الخلافة عند الفقهاء والفلاسفة والأخلاقين ثم على كل من هذه النظم . ثم عرضت في الباب التاسع للحالة الاقتصادية ، مبيناً ما بلغه المسلمون من تقدم في مضمار الزراعة والصناعة وما كان من اهتمام الخلفاء والسلاطين بتيسير الطرق البرية والبحرية التي كان لها أثر بعيد في تقدم فن الملاحة ، وأصبح كثير من المدن الإسلامية مراكز تجارية هامة بين الشرق والغرب وزخرت أسواقها بمختلف السلع .

وفي الباب العاشر ألممت بحالة الثقافة ، فتناولت مراكز الثقافة ومعاهدها كالمسجد والزاوية والكتاب والمدرسة والمارستان وبيت الحكمة والمكتبة وديوان الإنشاء والرباط ، ثم بحثت أنواع العلوم كعلوم التفسير والحديث والفقهاء وعلم الكلام وعلم اللغة والأدب من نظم ونثر ، فتسكمت على أمراء الشعر في العصر العباسي الأخير وفي مصر واليمن والمغرب والأندلس ، كالطغرأى وعمارة النبي والهيا زهير وابن زيدون وابن عمار ، كما تسكمت على الشعر الفنى كالزجل والموشحات ، ثم تناولت أمراء النثر كأبي القاسم الحريري صاحب المقامات المشهورة ، والقاضى الفاضل والفتح بن خاقان . ثم بحثت أنواع العلوم العقلية وما كان من اهتمام الخلفاء والسلاطين والأمراء بالطب والفلك وعلم النجوم والرياضيات والفلسفة والتاريخ والجغرافيا .

وفي الباب الحادى عشر تكلمت على الفن فى المشرق ومصر والمغرب والأندلس من تخطيط المدن كمرآكش والرباط وقرطبة والقاهرة، والمنشآت المعمارية من قصور وحمامات ومدارس، والمنشآت الحجرية كالأسوار، والمنشآت الدينية التى تتمثل فى المساجد كالجامع الأزهر فى القاهرة، وجامع القرويين بفاس، ومسجد الكتبية بمرآكش، ومسجد ومنازة حسان بالرباط.

وأخيراً تناولت فى الباب الثانى عشر الحياة الاجتماعية فى العالم الإسلامى فى هذه الحقبة، فبحثت فى طبقات المجتمع، وبجاسل الغناء والطرب، وقصور الخلفاء والأمراء ودور العامة، والملابس والطعام واللباس، والأعياد والمواسم والمواكب والحفلات، وأوقات الفراغ، وبينت ما كان للمرأة من أثر فى المجتمع الإسلامى.

وقد سرت فى هذا الجزء على النهج الذى سرت عليه فى الأجزاء الثلاثة السابقة من هذا الكتاب، فبحثت هذا العصر من نواحيه المختلفة: سياسية ودينية وثقافية واجتماعية، ليسهل على القارئ الإسلام بتاريخ هذا العصر الحافل بالأحداث الهامة ومظاهر الحضارة الإسلامية.

ويجد القارئ فى الهوامش وفى آخر الكتاب تنبيهاً على المصادر لمن أراد التوسع فى بحث مسألة من المسائل التاريخية التى لم يسمح المجال بالتوسع فيها. كما ذيلت الكتاب بثبت ذكرت فيه المصادر التى اعتمدت عليها مرتبة بحسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين، عربية وإفريقية، وذيلته بفهرس شامل لأسماء الأعلام من الرجال والنساء والأماكن والحوادث التاريخية الهامة.

وأرجو أن أكون بهذا قد حققت ما ينشده القارئ من معلومات فى الموضوعات التى تناولتها بالبحث فى هذا الجزء.

وأخيراً أعتذر للقارئ عن وقوع بعض أخطاء مطبعية نتجت عن طبع هذا الجزء أثناء وجودى ببغداد مما استدعى إعادة طبع بعض الملازم. ويرى القارئ قائمة بالتصويبات التى لا يخفى معظمها على فطنة القارئ. رجاء الرجوع إليها.

## محتويات الكتاب

صفحة	
ج	مقدمة الكتاب . . . . .
و	محتويات الكتاب . . . . .

### الباب الأول

#### العصر الساجوقى الأول

من ظهور طغرل بك إلى وفاة ملكشاه

٤٢٩ - ٤٨٥ / ١٠٣٨ - ١٠٩٢

١	(١) ظهور السلاجقة . . . . .
٣	نسب سلاطين السلاجقة في العراق . . . . .
٤	(٢) طغرل بك . . . . .
٦	البيت العباسى . . . . .
٨	تسلسل نسب الخلفاء العباسيين . . . . .
١١	ثورة البساسيري . . . . .
١٩	أخلاق طغرل بك وصفاته . . . . .
٢٠	(٣) ألب أرسلان . . . . .
٢٣	وفاة ألب أرسلان - صفاته . . . . .
٢٥	(٤) ملكشاه . . . . .
٣٠	(٥) الوزير نظام الملك . . . . .

### الباب الثانى

#### عصر سنجر وإخوته

٤٨٥ - ٥٥٢ / ١٠٩٢ - ١١٥٧

٣٤	(١) مميزات هذا العصر . . . . .
٣٦	(٢) محمود بن ملكشاه . . . . .

صفحة	
٣٨	(٣) بركياروق بن ملكشاه . . . . .
٤٣	(٤) محمد بن ملكشاه . . . . .
٤٥	صفات محمد بن ملكشاه وأخلاقه — وفاته . . . . .
٤٦	(٥) محمود بن محمد بن ملكشاه . . . . .
٥٠	صفات محمود وأخلاقه — صفاته . . . . .
٥٢	(٦) مسعود بن محمد بن ملكشاه . . . . .
٥٨	(٧) نهاية عصر السلاجقة العظام . . . . .

### الباب الثالث

#### الدول المستقلة التابعة للخلافة العباسية

	أولا — دول الأتابكة :
٦٠	من هم الأتابكة ؟ . . . . .
٦٢	(١) أتابكية دمشق . . . . .
٦٥	بيت زنكي . . . . .
٦٦	(٢) أتابكية الموصل . . . . .
٦٧	(١) آقسنقر . . . . .
٦٨	(ب) عماد الدين زنكي . . . . .
٧٠	(ح) علاقة عماد الدين زنكي بالخلافة والسلطنة . . . . .
٧٦	(٣) أتابكية حلب . . . . .
٧٧	(٤) أتابكية سنجار . . . . .
٧٩	(٥) أتابكية الجزيرة . . . . .
٧٩	(٦) أتابكية إربل . . . . .
٨٠	(٧) أتابكية ديار بكر . . . . .
٨٢	(٨) بيت أرتق في كيفا . . . . .
٨٤	(٩) شاهات أرمينية . . . . .
٨٦	(١٠) أتابكية أذربيجان . . . . .
٨٧	(١١) سلاجقة كرمان . . . . .

صفحة	
٨٨ . . . . .	(١٢) سلاجقة سورية
٨٨ . . . . .	(١٣) سلاجقة العراق وكردستان
٨٩ . . . . .	(١٤) سلاجقة الروم
٩٠ . . . . .	(١٥) السلاجقة الداשמندية
٩١ . . . . .	(١٦) أنابكية كرمات
٩٣ . . . . .	(١٧) أنابكية فارس
٩٤ . . . . .	(١٨) أنابكية لورستان
٩٤ . . . . .	ثانياً — دولة خوارزم ٤٧٠ — ٦٢٨ / ١١٧٧ — ١٢٣١
٩٨ . . . . .	خوارزمشاه علاء الدين محمد ٥٩٦ — ٦١٧ هـ
١٠٢ . . . . .	جلال الدين منكبرتي
	ثالثاً — الدولة الأيوبية ٥٦٧ — ٦٤٨ / ١١٧١ — ١٢٥٠
١٠٤ . . . . .	صلاح الدين الأيوبي (تسلسل نسب الأيوبيين ١٠٦)
١١٣ . . . . .	خلفاء صلاح الدين
	رابعاً — الدولة المرابطية ٤٤٨ — ٥٤١ / ١٠٥٦ — ١١٤٧
١١٥ . . . . .	(١) قيام الدولة المرابطية (تسلسل نسب المرابطين ١١٧)
١١٨ . . . . .	(٢) يوسف بن تاشفين
١١٩ . . . . .	(٣) موقعة الزلاقة
١٢٢ . . . . .	(٤) بعد موقعة الزلاقة
١٢٥ . . . . .	(٥) علي بن يوسف بن تاشفين ٥٠٠ — ٥٣٧ هـ
١٢٩ . . . . .	(٦) نهاية الدولة المرابطية

### الباب الرابع

#### غزوات المغول — سقوط بغداد

١٣٠ . . . . .	(١) معنى تتر ومغول
١٣٢ . . . . .	(٢) حالة المغول قبل ظهور چنكيزخان
١٣٤ . . . . .	(٣) حالة البلاد الإسلامية في أوائل القرن السابع الهجري
	(٤) چنكيزخان

صفحة	
١٣٦ . . . . .	(١) اليساق
. . . . .	(ب) غزوات چنكيزخان
١٣٩ . . . . .	(١) رأى المؤرخين فى غزوات چنكيزخان
١٤١ . . . . .	(٢) غزو التتار بلاد خوارزم
١٤٧ . . . . .	(٥) وفاة چنكيزخان
١٤٩ — ١٤٨ . . . . .	تسلسل نسب المغول
. . . . .	امبراطورية المغول بعد چنكيزخان
١٥٠ . . . . .	(٦) أجتاى : فتوحه فى آسيا وأوربا
١٥٢ . . . . .	(٧) كيوك
١٥٣ . . . . .	(٨) مانجوخان
١٥٤ . . . . .	(٩) كويىلاى خان
١٥٤ . . . . .	(١٠) سقوط بغداد

### الباب الخامس

#### الدول الإسلامية المستقلة

#### غير التابعة لحكم العباسيين

#### أولاً — الغوريون والغزنويون

١٦٣ . . . . .	(١) ظهور الغوريين (نسب الغوريين ١٦٥)
١٦٦ . . . . .	(٢) علاء الدين حسين الغورى
١٦٧ . . . . .	(٣) غياث الدين محمد — زوال الدولة الغزنوية
١٦٩ . . . . .	وفاة غياث الدين محمد — صفاته
١٦٩ . . . . .	(٤) شهاب الدين محمد — حروبه مع الخوارزميين والخطا
١٧٢ . . . . .	وفاة شهاب الدين محمد — صفاته
١٧٣ . . . . .	(٥) غياث الدين محمود — نهاية الدولة الغورية
	ثانياً — الدولة الفاطمية
١٧٧ . . . . .	(١) المستنصر والمستبلى
١٨١ . . . . .	(٢) الأمر والحافظ

صفحة	
١٨٤ . . . . .	(٣) سقوط الدولة الفاطمية
١٨٩ . . . . .	(٤) حملات شيركوه على مصر
١٩٣ . . . . .	(٥) صلاح الدين وسقوط الدولة الفاطمية
١٩٧ . . . . .	ثالثاً — الدولة الصليحية في اليمن
٢١٠ . . . . .	رابعاً — اليمن قبل عهد الأيوبيين
٢١٠ . . . . .	(١) بنو نجاح في زبيد
٢١٢ . . . . .	(ب) بنو مهدي
٢١٤ . . . . .	خامساً — اليمن في عهد الأيوبيين
. . . . .	سادساً — بنو رسول وبنو الرسي في اليمن
٢١٥ . . . . .	(١) بنو رسول
٢١٦ . . . . .	(ب) بنو الرسي
٢١٧ . . . . .	جدول بنى الرسي
٢١٩ . . . . .	سابعاً — الدولة الموحدية في المغرب والاندلس
. . . . .	(١) عبد المؤمن بن علي
٢١٩ . . . . .	(١) مولده ونشأته
٢١٩ . . . . .	(ب) بيعته
٢٢٠ . . . . .	(ح) غزواته
٢٢١ . . . . .	(د) أخلافه — وفاته
٢٢٢ . . . . .	(٢) أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن
٢٢٤ . . . . .	(٣) يعقوب المنصور
٢٢٥ . . . . .	(١) موقعة الأرك
٢٢٨ . . . . .	(ب) بين يعقوب المنصور وصلاح الدين
٢٢٩ . . . . .	(ح) إصلاحات يعقوب المنصور — أخلافه — وفاته
٢٣٠ . . . . .	(٤) الناصر لدين الله
٢٣١ . . . . .	(١) موقعة العقاب
٢٣٢ . . . . .	(ب) سقوط الدولة الموحدية



## الباب السادس العلاقات الخارجية

صفحة	
٢٣٤	(١) علاقة العباسيين والفاطميين بالبيزنطيين
٢٣٥	(٢) علاقة العباسيين بالفاطميين
٢٣٧	(٣) علاقة الفاطميين بالحجاز
٢٣٨	(٤) علاقة الفاطميين بالمغرب وصقلية
٢٤١	(٥) علاقة الفاطميين والعباسيين باليمن
	(٦) علاقة المسلمين بالصليبيين
٢٤٣	(١) أسباب الحروب الصليبية
٢٤٥	(ب) الدعوة إلى الحروب الصليبية
٢٤٥	(ح) الحرب الصليبية الأولى
٢٤٨	(د) الحرب الصليبية الثانية
٢٥٠	(هـ) الحرب الصليبية الثالثة
٢٥١	(و) الحرب الصليبية الرابعة
٢٥٢	(ز) لماذا انتهت الحروب الصليبية؟ نتائجها

## الباب السابع الحركات السياسية والدينية

٢٥٤	(١) القرامطة
٢٥٨	نهاية القرامطة
	(٢) الدرود
٢٥٩	(١) دعاة الدرود
٢٦١	(ب) أهم مميزات الدرزية
٢٦٥	(٣) النصيرية
٢٦٨	(٤) الدعوة النزارية في فارس والشام
٢٧٩	(٥) الدعوة الطيبية في اليمن
٢٨٢	(٦) الدعوة المرابطية

صفحة	
	(٧) الدعوة الموحدية
٢٩٢	(١) مولد ابن تومرت ونشأته
٢٩٤	(ب) دعوة ابن تومرت
٢٩٦	(ج) ابن تومرت وعلي بن يوسف المرابطي
٢٩٨	(د) هرب ابن تومرت
٢٩٩	(هـ) بيعة ابن تومرت
٣٠٠	(و) الحكومة الموحدية
٣٠١	(ز) غزوات ابن تومرت

## الباب الثامن

### نظم الحكم

	(١) النظام السياسي
	(٢) الخلافة
٣٠٣	١ - الخلافة عند الفقهاء والفلاسفة والأخلاقين
٣٠٦	٢ - الخلافة العباسية في عهد سلاطين السلاجقة
٣٠٧	٣ - عود النفوذ إلى الخلفاء العباسيين - المقتدى والمسترشد
٣٠٨	٤ - احتفاظ الخلفاء العباسيين بسلطتهم الدينية
٣٠٩	٥ - زوال الخلافة العباسية في بغداد
٣١٠	٦ - تعدد الخلافة في المغرب والأندلس وغيرها
	٧ - المرابطون والخلافة العباسية
٣١٠	(١) موقف المغرب من الخلافة العباسية قبل المرابطين
٣١٣	(ب) المرابطون والخلافة العباسية
٣١٦	٨ - الخلافة الموحدية
٣١٧	٩ - الحفصيون والمرينيون
٣٢٠	١٠ - الخلافة الفاطمية
٣٢٢	١١ - علاقة الأيوبيين بالخلافة العباسية

صفحة

(ب) الوزارة

- ٣٢٤ . . . . . ١ - الوزارة في عهد السلاجقة  
٣٢٩ . . . . . ٢ - الوزارة في مصر  
٣٣٠ . . . . . ٣ - الوزارة في المغرب  
٣٣١ . . . . . ٤ - الوزارة في الأندلس  
٣٣٢ . . . . . (ح) الكتابة  
٣٣٥ . . . . . (د) الحجابة  
٣ . . . . . النظام الإداري  
(١) الإمارة على البلدان  
٣٣٦ . . . . . ١ - علاقة المسجد بإدارة شؤون الدولة  
٣٣٧ . . . . . ٢ - نظرية الإمارة على البلدان  
٣٣٩ . . . . . (ب) الدواوين  
٣٤١ . . . . . دور الضرب  
٣٤٢ . . . . . (ح) البريد  
٣٤٥ . . . . . (د) الشرطة  
٣ . . . . . النظام المالي  
(١) موارد بيت المال  
٣٤٦ . . . . . ١ - الخراج  
٣٤٧ . . . . . ٢ - نظام الالتزام  
٣٤٩ . . . . . ٣ - الجزية  
٣٥٠ . . . . . ٤ - الزكاة  
٣٥٠ . . . . . ٥ - الفيء والغنيمه  
٣٥٤ . . . . . ٦ - العشور  
٣٥٤ . . . . . ٧ - الضرائب في العصر العباسي الثاني وفي مصر  
٣٥٩ . . . . . ٨ - النظام المالي في الأندلس  
٤ . . . . . النظام الحربي  
(١) الجيش في العصر السلجوقي  
٣٦٠ . . . . . (ب) أسلحة الجيش  
٣٦٣ . . . . .

صفحة

٣٦٤	(ح) إمرة الجيش
٣٦٦	(س) إمرة الجيش
٣٦٨	(هـ) الجيش في المغرب
٣٧٢	(و) إمرة الأسطول
٣٧٣	(ز) البحرية في مصر
٣٧٥	(ح) البحرية في المغرب

٥ — النظام القضائي :

٣٧٧	(أ) القضاء في العصر العباسي الثاني
٣٧٨	(ب) القضاء في عهد الفاطميين والأيوبيين
٣٧٩	قانون الوراثة في عهد الفاطميين
٣٨٢	(ج) القضاء في الأندلس
٣٨٣	(د) المظالم
٣٨٤	(هـ) الحسبة

## الباب التاسع

### الحالة الاقتصادية

٣٨٧	١ — الزراعة
	٢ — الصناعة
٣٩١	(أ) النسيج
٣٩٣	الزخرفة في العصر الفاطمي
٣٩٤	(ب) بناء السفن
٣٩٤	(ج) صناعة المعادن
٣٩٥	(د) قصب السكر والزيت
٣٩٦	(هـ) صناعة الصابون والشمع
٣٩٦	(و) صناعة الزجاج والبلور والخزف
٣٩٨	(ح) صناعة الجلود

صفحة	
٤٠٠	٣ — التجارة . . . . .
٤٠٤	(أ) طرق التجارة . . . . .
٤٠٦	(ب) مراكز التجارة . . . . .
٤١٢	(ج) الأسواق . . . . .

## الباب العاشر

### الثقافة

٤٢٠	١ — مراكز الثقافة . . . . .
	٢ — معاهد الثقافة :
٤٢١	(أ) المسجد . . . . .
٤٢٣	(ب) الزاوية . . . . .
٤٢٤	(ج) الكتاب والمدرسة . . . . .
٤٢٦	(د) المدارس . . . . .
٤٢٧	(هـ) بيت الحكمة . . . . .
٤٢٧	(و) قاضي القضاة وداعي الدعاة . . . . .
٤٣٠	(ز) المكتبات . . . . .
٤٣٤	(ح) ديوان الإنشاء . . . . .
٤٣٦	(ط) الرباط . . . . .

### (١) العلوم النقلية

٤٣٩	تقسيم العلوم :
٤٤٠	١ — علم القراءات . . . . .
٤٤٢	٢ — التفسير . . . . .
٤٤٦	٣ — الحديث . . . . .
	٤ — الفقه :
٤٥٠	(أ) فقه الشيعة . . . . .
٤٥٤	(ب) الفقه في اليمن . . . . .
٤٥٥	(ج) الفقه في المغرب والأندلس . . . . .

صفحة

• - علم الكلام :

- ٤٥٨ . . . . . (١) التوحيد في الإسلام  
٤٦٧ . . . . . (ب) علم الكلام في المغرب والاندلس  
٤٧٠ . . . . . ٦ - النحو . . . . .  
٤٧٤ . . . . . ٧ - علم اللغة . . . . .  
٤٧٤ . . . . . ٨ - الأدب . . . . .

(١) الشعر :

- ٤٧٧ . . . . . ١ - تهيد . . . . .  
٤٨٠ . . . . . ٢ - الطفراني . . . . .  
٤٨١ . . . . . ٣ - شعراء اليمن . . . . .  
٤٨٣ . . . . . ٤ - الشعر في العصر الفاطمي الاخير  
٤٨٥ . . . . . الشعراء بين سنتي ٥٤٩ و ٥٦٧ هـ  
٤٨٦ . . . . . ٥ - عمارة اليمنى . . . . .  
٤٨٩ . . . . . البهاء زهير . . . . .  
٤٨٩ . . . . . ٦ - الشعر في الاندلس . . . . .  
٤٩١ . . . . . (١) ابن زيدون . . . . .  
٤٩٢ . . . . . (ب) ابن عمار . . . . .  
٤٩٤ . . . . . (ج) الشعر الفني : الزجل والموشحات

(ب) النثر :

- ٥٠١ . . . . . ١ - أبو القاسم الحريري . . . . .  
٥٠٨ . . . . . ٢ - القاضى الفاضل . . . . .  
٥٠٨ . . . . . ٣ - النثر في المغرب والاندلس . . . . .  
٥١٠ . . . . . (١) ابن عطية . . . . .  
٥١١ . . . . . (ب) ابن أبي الحصال . . . . .  
٥١٣ . . . . . (ج) الفتح بن خاقان . . . . .

(ب) العلوم العقلية

١ - الطب :

- ٥١٥ . . . . . (١) الطب في العصر العباسي الثاني

- صفحة  
٥٢١ (ب) الطب في العصر الفاطمي ٥٢٠ (ح) الطب في المغرب والاندلس  
٥٢٢ (د) المدارس الطبية . . . . .  
٢ — الفلك والنجوم :  
٥٢٤ (١) الفلك والنجوم في العصر العباسي الثاني . . . . .  
٥٢٨ (ب) الفلك والنجوم في مصر والمغرب . . . . .  
٣ — الرياضيات . . . . .  
٥٣٠ (٤) الفلسفة :  
٥٣٥ (١) أبو حامد الغزالي ٥٣١ (ب) ابن باجة ٥٣٧ (ح) ابن طفيل  
٥٤٠ قصة حى بن يقظان . . . . .  
٥٤٢ (د) ابن رشد . . . . .  
٥٤٣ ابن رشد وأرسطو . . . . .  
٥٤٧ (هـ) محيي الدين بن عربي . . . . .  
٥ — التاريخ :  
٥٥٠ (١) مؤرخو المشرق الإسلامى . . . . .  
٥٦٢ كتاب التراجم . . . . .  
٥٦٤ التواريخ المحلية . . . . .  
٥٦٦ (ب) مصادر العصر المغولى الأول . . . . .  
٥٧١ (ح) مصادر تاريخ الفاطميين والايوبيين . . . . .  
٥٨٠ (د) مصادر المغرب والاندلس . . . . .  
٦ — الجغرافيا . . . . .  
٥٨٣

## الباب الحادى عشر

### القرن

- ١ — تخطيط المدن :  
٥٨٩ (١) تقسيم المدن ٥٩١ (ب) مدينة قرطبة ٥٩٢ (ج) مدينة القاهرة  
٥٩٥ (د) مدينة مراکش ٦٠٠ (هـ) مدينة الرباط  
٢ — المذنبات المعمارية :  
٦٠٢ (١) القصور ٦٠٣ (ب) الحمامات ٦٠٦ (ج) المدارس

٣ - المنشآت الحربية :

- (١) أسوار القاهرة ومناظرها ٦٠٩ (ب) قلعة الجبل ٦١١ (ج) جسر الجزيرة ٦١٥  
٤ - المنشآت الدينية - المساجد

- (١) الجامع الأزهر ٦١٦ (ب) مساجد العصر الفاطمي الأخير ٦١٩  
(ج) جامع القرويين بفاس ٦٢٠ (د) مسجد الكتبية بمراكش ٦٢١  
(هـ) مسجد ومنارة حسان ٦٢٣

الباب الثاني عشر

الحالة الاجتماعية

١ - طبقات المجتمع :

- (١) في عهد العباسيين ٦٢٥ (ب) في عهد الفاطميين والأيوبيين ٦٢٧  
(ج) في المغرب ٦٢٨ (د) في الأندلس ٦٢٩  
٢ - مجالس الغناء والطرب  
٣ - قصور الخلفاء والأمراء والوزراء ودور العامة  
٤ - الطعام  
٥ - الملابس  
٦ - المرأة  
٧ - الأعياد والمواسم والمواكب والحفلات

- (١) الأعياد والمواسم والمواكب ٦٤٣  
(ب) الخطبة في الأزهر ٦٤٥  
(ج) الحج ٦٤٩  
(د) حفلات الزواج ٦٥١  
٨ - أوقات الفراغ ٦٥٣  
المصادر  
الفهرست ٦٥٧  
خطاً وصواب ٦٧٠



# الباب الأول

## العصر السلجوقي الأول

من ظهور طغرل بك إلى وفاة ملكشاه

٤٢٩ - ٤٨٥ / ١٠٣٨ - ١٠٩٢

### ١ - ظهور السلاجقة :

ينتسب السلاجقة إلى سلجوق (بفتح السين) بن تغلق (بضم التاء) أحد رؤساء الأتراك. وكانوا يسكنون بلاد ما وراء النهر في مكان يبعد عن بخارى بعشرين فرسخاً<sup>(١)</sup>. وكان عدد السلاجقة، كما يقول ابن خلسكان، يحل عن الحصر والإحصاء، لا يدبنون بالطاعة لسلطان، وكانوا إذا قصدهم جمع ورأوا أنه لا طاقة لهم به، دخلوا المفاوز وتحصنوا بالرمال فلا يصل إليهم أحد<sup>(٢)</sup>. والسلاجقة نوع من الأتراك الغزّ ويتصل نسبهم بالجد الأكبر بسلاطين الأتراك العثمانيين الذين أسسوا إمبراطوريتهم في آسيا الصغرى، ثم في سورية ومصر والبحر الأبيض المتوسط وأوروبا وشمالي إفريقيا عن طريق سلاجقة الروم. وقد اتسع سلطان السلاجقة حتى فاق سلطان البيت الغزنوي. وكان عصرهم أكثر ازدهاراً وملكهم أعظم رقعة وقوتهم أعز سلطاناً ومنعة. وقد أخذوا في سنة ١٠٢٩/٤٢٠. ويتاحون الجزء الشمالي والشرقي من بلاد الفرس حتى أفلقوا بال السلطان محمود الغزنوي. وإلى السلاجقة يرجع الفضل في تجديد قوة الإسلام وإعادة تكوين وحدته السياسية. ولهم أهمية خاصة في التاريخ، لقيام الحروب الصليبية في أيامهم، وظهورهم على مسرح هذه الحروب، وكذلك ظهور التتار الذين قضوا على الدولة الخوارزمية<sup>(٣)</sup> أولاً ثم على الدولة العباسية.

(١) والفرسخ أربعة أميال.

(٢) ابن خلسكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٥٥.

(٣) بضم الحاء وفتحها وفتح الباء وكسرهما وسكون الزاي.

كان تقاق (١) أبو سلجوق كما وصفه ابن الأثير (٢) شهما ذا رأى وتدبير . وكان زعيم الأتراك الغز ، يرجعون إليه في أمورهم ولا يخالفون له قولاً ولا يعصون له أمراً ، وقد اتفق أن جمع ملك الترك عسكره وأراد المسير إلى البلاد الإسلامية . فهام تقاق واحتدم النقاش بينهما فأغلظ له الملك القول ، فلطمه تقاق فشج رأسه . وأحاط بتقاق خدم الملك وأرادوا أخذه ، وحال أصحاب تقاق دون ذلك . ثم تمّ الصلح بينهما . وقد انجبت تقاق ابنة سلجوق . ولما شب عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال ظهرت عليه أمارات النجابة ونجائب الذكاء ، وعرف بعلو الهمة وسعة العقل والكرم حتى استمال قلوب رجال الدولة إليه ، فقربه ملك الترك إليه ولقبه بلقب « سبأشي » ومعناه قائد الجيش ، ولكن زوجه الملك أوجست خيفة من سلجوق لما رآته من طاعة الناس له وانقيادهم إليه ، وحملت الملك على قتله .

ولما نمت هذا الخبر إلى سلجوق خشى على حياته ، فسار على رأس جماعته إلى دار الإسلام وتحول إلى الدين الخنيف وصح لإيمانه وأقام هو وعشيرته بنواحي جند (٣) ، وأخذ يغير على بلاد الأتراك الذين كانوا لا يزالون على الكفر . وكان ملكهم يأخذ الخراج من المسلمين الذين يعيشون في بلاده . وقد طرد سلجوق عمال هذا الملك وضم بلاده إلى البلاد الإسلامية . وقد استنجد السامانيون بسلجوق لمساعدتهم على رد ما أخذه الترك من بلادهم ، فأرسل إليهم ابنه أرسلان على رأس جيش استرد هذه البلاد . وكان لسلجوق من الأولاد : أرسلان وميكائيل وموسى .

توفي سلجوق بجند بعد أن بلغ من العمر مائة وسبع سنين ، ثم قتل ابنه ميكائيل وهو يغزو بلاد الأتراك الكفار ، وترك من الأولاد بيغو ، وطغرليك ، وشغرى بك داود ، فدانت لهم عشائرهم بالطاعة ، ثم عموا شطر بخارى ، فحشى أميرها خطرهم ، فأساء جوارهم وأراد الإيقاع بهم ، فالتجسوا إلى « بَغْرَاخان » ملك تركستان واحتموا به ، واستقر الأمر كما يقول ابن الأثير (٤) بين طغرليك وأخيه داود على ألا يجتمعا عند بَغْرَاخان حتى لا يحيق مكره السيء بهم .

(١) يضم التاء ومعناه القوس الجفديد .

(٢) السكامل في التاريخ ج ٩ ص ١٧٦ .

(٣) بفتح الجيم وسكون النون .

(٤) السكامل ج ٩ ص ١٧٦ .



وقد برهنت الأيام على بعد نظر السلاجقة ، فقد حال بُغراخان دون اجتماع هذين  
الآخوين عنده ، فلم يوفق ، فاحتال على أسر طغرلبيك وتم له ما أراد ، فثارت ثائرة داود  
وقصد بغراخان في عشائره ليخلص أخاه وأحل الهزيمة بجنده . وأطلق أخاه وعاد إلى جند  
وبقوا هنالك حتى زالت الدولة السامانية . ولما ملك «إيلك خان» بخارى عظم نفوذ أرسلان  
ابن سلجوق ( عم داود وطغرلبيك ) الذي سار إلى أذربيجان ، ولكنه لم يلبث أن أسر  
وحبس . وقد دارت بين السلاجقة والغزنويين في عهد مسعود ( بن عيين الدولة محمود  
الغزنوي ) معارك طاحنة في عهد مسعود ، انتهت بإقطاع دهستان لداود ونسا ( بفتح النون )  
لطرلبيك ، وفراوة ( بفتح الفاء ) لبيغو ، ولقب كل منهم بلقب دهقان ، وبعث إليهم بالخلع .  
ولكن هؤلاء الإخوة من عشيرة السلاجقة لم يطمئئوا إلى دعوة السلطان مسعود وأخذوا  
يخادعون بإظهار الطاعة له ، وطلبوا إليه أن يطلق عمهم أرسلان ( بن سلجوق ) . ولكن  
هذا الصلح لم يتم وانشغل مسعود ببلاد الهند .

## ( ٢ ) طغرلبيك

وفي سنة ٤٢٩ هـ ( ١٠٣٧ م ) استولى طغرلبيك بن ميكائيل بن سلجوق على مرو  
حاضرة خراسان وذكر اسمه في خطبة الجمعة بلقب ملك الملوك . وفي شهر شعبان من  
هذه السنة التقى جيش طغرلبيك بجيش الغزنويين عند باب مدينة سرخس وانتصر عليهم  
انتصاراً حاسماً وشنت شملهم وطاردهم في كل مكان وغنم أموالهم ، فكانت هذه الموقعة  
كما يقول ابن الأثير « هي التي ملك السلجوقيون بعدها خراسان ودخلوا قصبات البلاد » .  
وفي هذا الشهر استولى طغرلبيك على نيسابور وأقيمت له الخطبة على منابرها وذكر اسمه  
مقروناً بلقب السلطان الأعظم<sup>(١)</sup> . واستقر بدار الإمارة وجلس للظالم يومين في الأسبوع  
على ما جرت به العادة في هذه البلاد .

وقد ذكر ابن الأثير بصدد كلامه على فتح نيسابور أن السلاجقة رأوا الكافور  
فظنوه ملحاً . ويذكر ابن الأثير أن طغرلبيك أقام نوابه على الأقاليم المختلفة . ويرجع  
انتصار السلاجقة في موقعة سرخس الحاسمة إلى أنهم قسموا جيشهم إلى ثلاث فرق كلنا  
تبع الجيش الغزنوي إحداها طوقته الفرقتان الأخريان . وقد صمم السلطان مسعود

(١) المصدر نفسه ج ٥ ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٩ .

الغزنوى على ملاقاته السلاجقة بنفسه لجمع جيشاً جراراً ، ثم رحل عن غزته حاضرة سلطنته ميمما شطر خراسان . وقد ذكر ابن الأثير ( ١٧٩ / ٩ ) أن هذا الجيش بلغ مائة ألف سوى الخدم والأتباع .

استمرت الحروب بين السلاجقة والغزنويين ثلاث سنين ، ثم وقع الخلاف بين جند مسعود الغزنوى على المساء وازدحوا عليه ، وأصبح بعضهم يقاوم بعضاً . وكثر القتل بينهم واشتد النهب ، وتخلى بعضهم عن السلطان وفارقوه وأنحوا بذلك الفرصة لجند داود السلجوقى ، فغنموا غنائم لا تحصى . وسار طغرل بك إلى نيسابور فاستولى عليها فى أوائل سنة ٤٣٢ هـ . ولم يلبث أن قتل السلطان مسعود بخلفه أخوه محمد الذى لم يبق فى الحكم طويلاً وقبض عليه أخوه داود بن مسعود وقتله هو وأولاده إلا عبد الرحيم<sup>(١)</sup> . وفى سنة ٤٣٣ هـ استولى طغرل بك على جرجان وطبرستان وأقيمت له الخطبة فى هذه البلاد وفى السنة التالية استولى على خوارزم وكانت من أملاك الغزنويين وقصد إبراهيم بنال ( أخا طغرل بك لأمه ) همدان<sup>(٢)</sup> واستولى عليها .

وفى سنة ٤٣٣ هـ ( ١٠٤١ - ١٠٤٢ م ) استولى السلاجقة بقيادة طغرل بك على بلاد الديلم وكرمان<sup>(٣)</sup> ، وانتقل السلاجقة فى فتوحهم من نصر إلى نصر حتى جاءت سنة ٤٣٨ هـ التى حاصر فيها طغرل بك مدينة أصهبان وصالحه صاحبها على مال يؤديه إليه وعلى أن يقيم له الخطبة بأصهبان وأعمالها<sup>(٤)</sup> . وفى السنة التالية عقد الصلح بين أبى كاليجار البويهى والسلطان طغرل بك السلجوقى الذى تزوج بابنة أبى كاليجار ، وتزوج أبو منصور ابن أبى كاليجار بابنة الملك داود أخى طغرل بك<sup>(٥)</sup> .

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٨٠ .

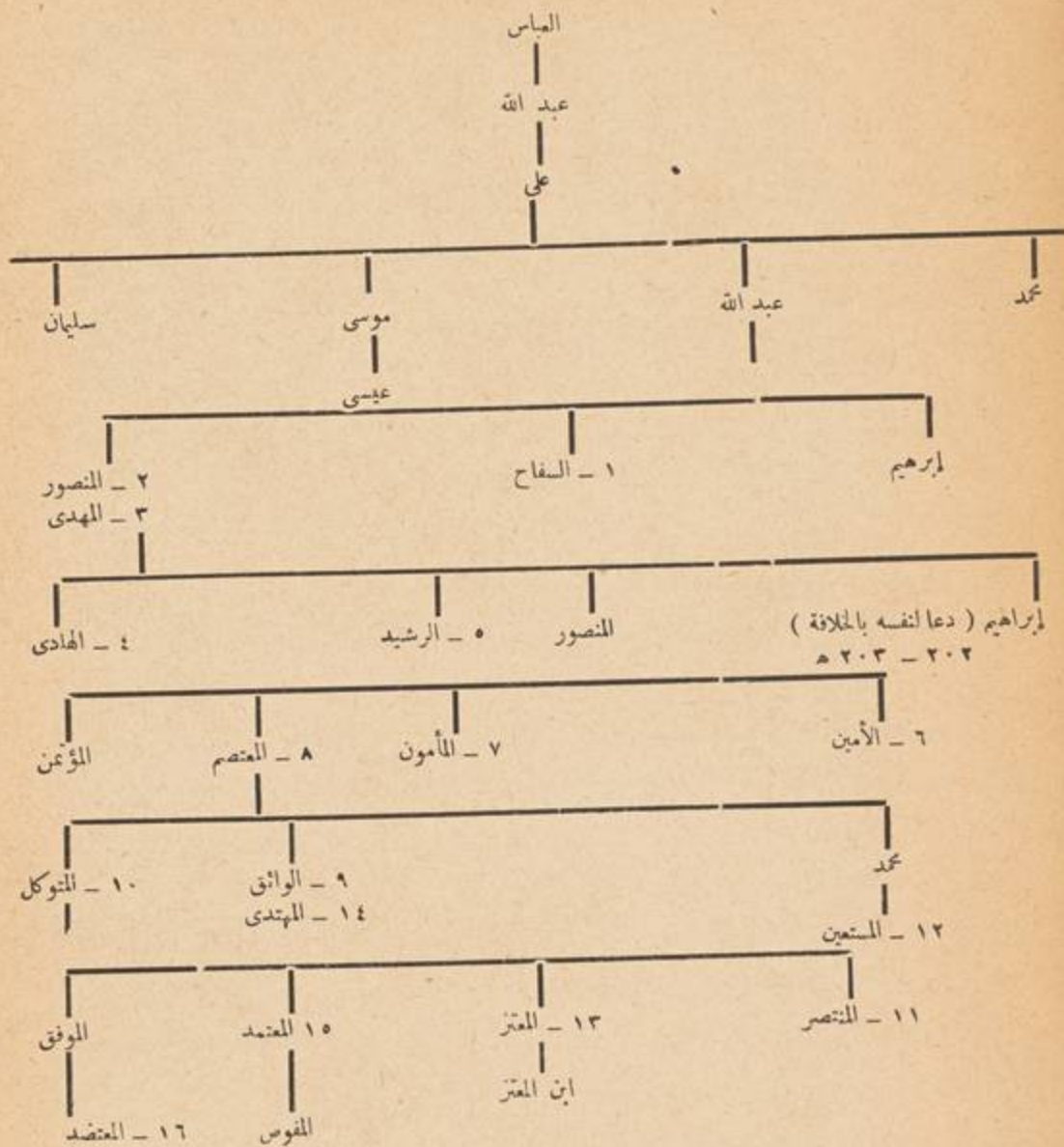
(٢) ذكر ابن الأثير ج ٩ ص ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٦ ) فى حوادث سنة ٤٣٥ هـ أن أبى كاليجار البويهى أعاد همدان لى أملاكه وبني سور مدينة شيراز التى بلغ طولها اثني عشر ألف ذراع وعرضه ثمانية أذرع وله أحد عشر باباً . وقد فرغ من بناء هذا السور سنة ٤٤٠ هـ .

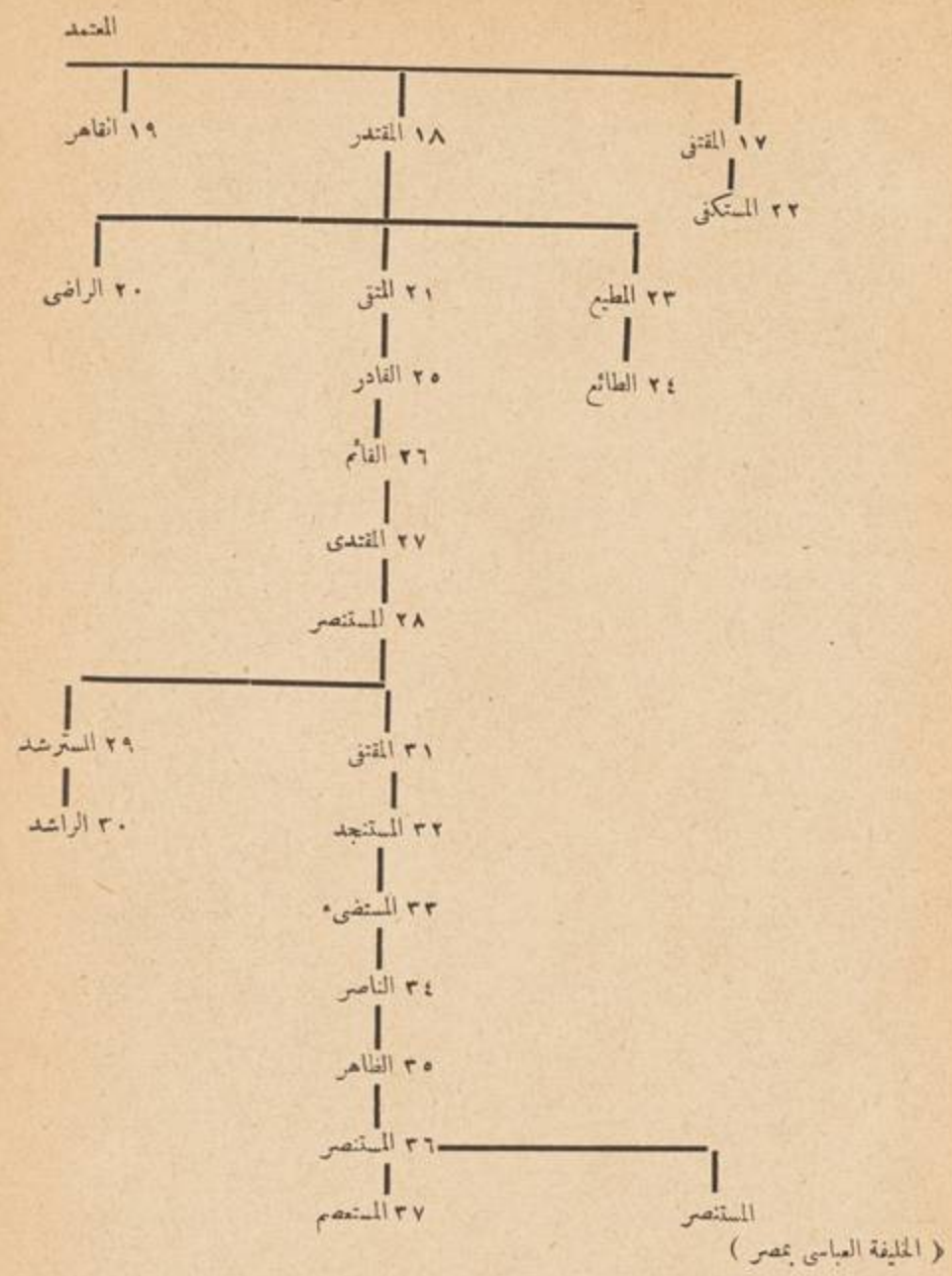
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ١٩٠ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ١٩٦ ، ١٩٩ . وقد ذكر ابن الأثير ( ج ٩ ص ٢٠٧ ) أن طغرل بك لما ظفر بأخيه إبراهيم بنال أكرمه وأحسن لآلبيه ورد إليه كثيراً مما أخذ منه ولكنه اختار المقام معه .

(٥) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٠٧ .

### البيت العباسي





تسلسل نسب الخلفاء العباسيين

١٣٢ — ٦٥٦ / ٧٥٠ — ١٢٥٨

٧٥٠ م	السفاح	٥١٣٢	١
٧٥٤	المفصور	١٣٦	٢
٧٧٥	المهدى	١٥٨	٣
٧٨٥	الهادي	١٦٩	٤
٧٨٦	الرشيد	١٧٠	٥
٨٠٩	الأمين	١٩٣	٦
٨١٣	المأمون	١٩٨	٧
٨٣٣	المعتصم	٢١٨	٨
٨٤٢	الواثق	٢٢٧	٩
٨٤٧	المتوكل	٢٣٢	١٠
٨٦١	المقتدر	٢٤٧	١١
٨٦٢	المستعين	٢٤٨	١٢
٨٦٦	المعتز	٢٥٢	١٣
٨٦٩	المهتدي	٢٥٥	١٤
٨٧٠	المعتد	٢٥٦	١٥
٨٩٢	المعتضد	٢٧٩	١٦
٩٠٢	المستكفي	٢٨٩	١٧
٩٠٨	المقتدر	٢٩٥	١٨
٩٣٢	القاهر	٣٢٠	١٩



٩٣٤ م	الراضى	٨٣٢٢	٢٠
٩٤٠	المتقى	٣٢٩	٢١
٩٤٤	المستكفى	٣٣٣	٢٢
٩٤٦	المطيع	٣٣٤	٢٣
٩٧٤	الطائع	٣٦٣	٢٤
٩٩١	القادر	٣٨١	٢٥
١٠٣١	القائم	٤٢٢	٢٦
١٠٧٥	المقتدى	٤٦٧	٢٧
١٠٩٤	المستظهر	٤٨٧	٢٨
١١١٨	المسترشد	٥١٢	٢٩
١١٣٥	الراشد	٥٢٩	٣٠
١١٣٦	المقتفى	٥٣٠	٣١
١١٦٠	المستنجد	٥٥٥	٣٢
١١٧٠	المستضى	٥٦٦	٣٣
١١٨٠	الناصر	٥٧٥	٣٤
١٢٢٥	الظاهر	٦٢٢	٣٥
١٢٢٦	المستنصر	٦٢٣	٣٦
١٢٤٢ — ١٢٥٨	المستعصم	٦٤٠ — ٦٥٦	٣٧

على أن الخلاف قد دب بين أفراد البيت الساجوقى . فقد طلب طغرل بك من أخيه إبراهيم ينال أن يسلم إليه مدينة همذان وما بيده من القلاع التى ببلاد الديلم . فامتنع إبراهيم عن إجابة أخيه إلى ما طلب . ويذكر ابن الأثير أن طغرل بك أمر بأخيه فضرب بين يديه وسملت إحدى عينيه وقطعت شفتاه ، ثم دارت الحرب بينهما وملك طغرل بك ما كان بيده من القلاع ، وتحصن إبراهيم بقلعة حصينة فصار إليه طغرل بك على رأس

جيش كشيء بتألف من مائة ألف مقاتل وأوقع الهزيمة بإبراهيم ، وأقيمت الخطبة له في سائر ديار بكر ، كما أبرمت الهدنة بين طغرلبيك وإمبراطور الروم وتبوءت بينهما الهدايا ، وعمر مسجد القسطنطينية وأقيمت فيه الصلاة وذكرا اسم طغرلبيك في الخطبة « ودان الناس كلهم له وعظم شأنه وتمكن ملكه وثبت » .

هزم السلاجقة مودود بن مسعود الغزنوي في خراسان ، ثم رد طغرلبيك على كتاب الخليفة العباسي القائم ، وضمنه ما حل بالبيت السلجوقي من حيف وظلم على يد البيت الغزنوي ، وعبر عن شكره على ما أفاضه عليه الخليفة من خلع وما منحه لإياه من ألقاب ، وأرسل طغرلبيك إلى الخليفة « عشرة آلاف دينار عينا وألقاباً نفيسة من الجواهر والثياب والطيب وغير ذلك . وأرسل خمسة آلاف دينار للعاشية وألفي دينار لرئيس الرؤساء<sup>(١)</sup> » . « وأرسل طغرلبيك إلى الخليفة رسولا يبالح في إظهار الطاعة والعبودية ، وإلى الأتراك البغداديين يعدهم الجميل والإحسان . . . فأنكر الأتراك ذلك . . . فقولوا في الجواب . وكان رئيس الرؤساء يؤثر بحيشه ويختار انقراض الدولة الديلية »<sup>(٢)</sup> .

ثم أخذ السلاجقة في تقسيم البلاد الشاسعة التي دخلت تحت حوزتهم : فأصبحت بُسْت ( بضم الباء وسكون السين ) وهرارة ( بفتح الهاء ) وسستان ( بكسر السين الأولى وسكون السين الثانية ) في يد موسى بن قطلش بن أرسلان بيغو ( بكسر الباء وسكون الياء ) ابن سلجوق ، وغدت مرو والعراق في يد أبناء أخيه شغرى ( بفتح الشين وسكون الغين ) بك داود وطرغل على التوالي . أما أبناء شغرى فقد أصبحت في يد قاورت ( بضم الواو وسكون الراء ) وكرمان وتون وطَبَسْ ( بفتح الطاء والباء ) وياقوتى أذربيجان وأهر ( بفتح الالف مع الهمزة والهاء وسكون الباء ) وزنجان ( بفتح الزاي وسكون النون ) ، على حين انتخب الابن الثالث وهو ألب أرسلان ليكون مع عمه طغرل الذي اتخذ الرى حاضرة لدولته . وأعطيت همدان لإبراهيم بنال<sup>(٣)</sup> بن ميكائيل بن سلجوق ، على حين تسلم موسى بن قطلش ( بضم القاف وفتح الطاء وسكون اللام وكسر الميم ) جرجان ( بضم الجيم ) ودامغان . ولما تسلم الخليفة القائم كتاب طغرلبيك أرسل إليه كتاباً رقيقاً . وبعد قليل أمر الخليفة بذكر اسم طغرلبيك في الخطبة ونقشه على السكة قبل اسم السلطان البويهى الملك

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢١٦ ، ٢٢٨ .

(٢) Browne, Lit. Hist. of Persia, Vol. II, p. 172.

(٣) وقد قتله طغرل بعد قليل ( ٤٤٩ / ١٠٥٧ - ١٠٥٨ ) لاتهامه بتدبير مؤامرة للغدر به .

الرحيم ، خطب له يوم الجمعة ثمان بقين من شهر رمضان سنة ٤٤٧ هـ . ثم أرسل طغرل بك رسولاً من قبله يستأذن الخليفة في دخول بغداد ، فأذن له ودخل بغداد لخمس بقين من هذا الشهر ( ديسمبر ١٠٥٥ م ) بصحبة الوزير رئيس الرؤساء في موكب نخم يضم القضاة والاشراف والنقباء وأعيان الدولة وأمرام أجناد السلطان البويهى الملك الرحيم (١) .

وفي الخامس والعشرين من شهر ذى القعدة قدم لطغرل بك فرس فركبها حتى وصل إلى دهليز « قصر السلام » . ثم نزل ومشى والأمراء بين يديه حتى وصل إلى إيوان الخليفة . فأسدلت الستارة . ولما ظهر وجه الخليفة القائم ، وعلى كتفه بردة الرسول وبيده القضيب النبوى ، قبل طغرل بك الارض ، فأمره الخليفة بالصعود ومعه محمد بن المنصور الكندرى ( يضم الكاف والذال وسكون النون ) مفسراً ومترجماً . ثم وضع لطغرل بك كرسى جلس عليه ، وفُسر له تفويض الخليفة إليه . ثم تَوَجَّح وطُوقَ وسُورَ وأُفيضت عليه سبع خلع سود من طراز واحد تمثل مملكة الاقاليم السبعة ، وعُمَ بعمامة مذهبة ، وجمع بين تاجى العرب والعجم ، وقُدِّ سيفاً محلى بالذهب ، ثم عاد وجلس على الكرسى وسأل مصالحة الخليفة ؛ فدَّ إليه يده مرتين فقبلها ووضعها على عينه . ثم قلده الخليفة سيفاً آخر كان بين يديه ، فتم له بذلك تقليد السيفين ، بمعنى أنه تقلد ولاية الدولتين ، تخاطبه الخليفة « بملك المشرق والمغرب » . ثم أحضر عهده وقال الخليفة : هذا عهدنا يقرؤه عليك محمد بن منصور بن محمد (٢) صاحبنا ووديعتنا عندك . فاحفظه واحرسه فإنه الثقة المأمون ، وانفض في دعة الله محفوظاً وبعين الكلاة (٣) ملحوظاً (٤) ، وذلك في الخامس والعشرين من شهر ذى القعدة سنة ٤٥١ هـ .

### ثورة البساسيرى

وبعد دخول طغرل بك بغداد بقليل واجه كثيراً من الاضطرابات التى أثارها الجنود الأتراك في دار الخلافة ، والقلاقل التى سادت الموصل وديار بكر وسنجار ( بكسر السين ) وغيرها ، ولم يكن بد من أن يقضى طغرل بك عليها بنفسه . وبعد قليل عاد طغرل بك إلى بغداد

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٢٨

(٢) لقب عميد الملك وجمع بين السيف والقلم ثم لقب سييد الوزراء . البندارى : تاريخ دولة آل ساجوق ص ١٦ .

(٣) يقال كلاه الله بعين العناية أى حرسه .

(٤) البندارى : تاريخ دولة آل ساجوق ص ١٣ - ١٤ .

لمواجهة الثورة التي قام بها الأتراك بزعامة أبي الحارث البساسيري الذي أقام الدعوة للخليفة الفاطمي المستنصر على منابر بغداد وغيرها نحواً من سنة .

وقد تبدلت سياسة البويهيين نحو الفاطميين منذ عهد أبي كاليبجار ( ٤٣٥ - ٤٤٠ هـ ) الذي اتخذ من تقربه إلى الفاطميين وسيلة لإرهاب العباسيين ، كما حال دون تقرب العباسيين من السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بني بويه . حتى إن أبا كاليبجار تقرب من المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الفاطميين في فارس ، الذي تقلد فيما بعد منصب داعي الدعوة في مصر ، وانهم باعتراف عقائد الإسماعيلية مذهب الفاطميين . وقد دأب الخليفة المستنصر الفاطمي على مناوأة الخلفاء العباسيين . لذلك نراه يؤيد أبا الحارث البساسيري في ثورته على الخليفة العباسي القائم ، ويعدّه بالمسال والرجال ، ويبعث داعيته الجريء هبة الله الشيرازي لإثارة حماسة جند البساسيري ، وحثهم على إذكاء الثورة في وجه الخليفة العباسي ، ولم يدخر الخليفة الفاطمي وسعاً في إمداد البساسيري بالأموال الضخمة والجند من بلاد الشام (١) .

ولم يكف الخليفة الفاطمي بذلك ، بل عمل على توحيد كلمة الأتراك بزعامة البساسيري والعرب بزعامة ديبس بن علي بن مزيد أمير عرب الفرات ، واقبه بألقاب منها الأمير ، وسلطان ملوك العرب ، وسيف الخلافة ، وصفي أمير المؤمنين ، ومنحه ولاية مايفتح من البلاد شرقي نهر الفرات (٢) . وكان من أثر تدخل الخليفة الفاطمي أن انتصر البساسيري وأنصاره على جيوش الخليفة العباسي في موقعة سنجار سنة ٤٤٩ هـ (٣) .

ولم يقف نشاط الفاطميين في مناوأة العباسيين عند هذا الحد ، فقد قام المؤيد في الدين بدور هام في نشر الدعوة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي في بلاد العراق ، واعتمد في ذلك على تأييد السلطان أبي كاليبجار البوهي الذي عرف بميله إلى الفاطميين . أما الخليفة العباسي القائم ( ٤٢٢ - ٤٦٧ / ١٠٣١ - ١٠٧٥ ) فقد وجد في المؤيد في الدين خطراً يهدد دولته ومذهبه السني في فارس ، فعمل على القضاء على جهوده ، وبعث إلى أبي كاليبجار يطلب إليه تسليم داعي الفاطميين ، ويهدد بدعوة السلاجقة إلى دخول بغداد .

(١) السيرة المؤيدية للمؤيد في الدين ، مخطوط بمكتبة القاهرة ، ورقة ١٨٤

(٢) انظر عهد المستنصر إلى ابن مزيد في كتاب السيرة المؤيدية للمؤيد في الدين ، ص ١٩١ - ١٩٣

(٣) ابن منجب الصيرفي : الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٤٤ .

وقد بين المؤيد في الدين في سيرته ما بذله من جهود في سبيل نشر الدعوة الفاطمية وإقامة الخطبة للخليفة الفاطمي في شيراز ، وإحلال اسمه محل اسم الخليفة العباسي ، وكيف أثار هذا العمل غضب الخليفة العباسي الذي طلب من أبي كاليبجار تسليم هذا الداعي إليه ، فلم يحفل السلطان البويهي بذلك . بل إنه ذكر اسم الخليفة الفاطمي في الخطبة بدل اسم الخليفة العباسي (١) .

ومن هذا ندرك مدى علاقة المودة التي قامت بين أبي كاليبجار البويهي وبين الفاطميين وكيف اتخذ من هذه العلاقة سلاحاً بشهره في وجه العباسيين ، حتى يحول بينهم وبين التقرب إلى السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بني بويه في ذلك الحين (٢) .  
وكان من أثر ذلك أن أصبح أبو كاليبجار يسمع محاضرات المؤيد في الدين ويدرس كتب الإسماعيلية (٣) .

وقد نقل هارولد باون (٤) عن كتاب Fārs-nāme أن الدعوة لطائفة الإسماعيلية أو السبعية ، الذين كانوا يعرفون بالباطنية في ذلك الوقت ، قد وجدت طريقها إلى قلوب الديلمية في فارس على يد ذلك الداعي التقدير ، الذي نجح في تحويل أبي كاليبجار إلى عقائد هذا المذهب . وفي الحق أن الديلم قد أصبحوا — كما يقول المؤيد في الدين (٥) — « إلى صاحب مصر داعين وباسمه مبايعين » ، وأصبحوا « يتخذون المؤيد أباً لهم وأخاً وصاحباً ، واتخذوه الشكل سرّاً ومفترعاً في كل شيء (٦) » ، وأخذ أكثر ندماء أبي كاليبجار البويهي يدينون بعقائد المذهب الإسماعيلي (٧) .

وكان من أثر ذلك أن ثار إبراهيم ينال على أخيه طغرل بك ، وانتهر البساسيري فرصة نشوب الحرب بينهما ، واستولى على بغداد في شهر ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ ، وقتل الوزير

(١) السيرة المؤيدية مخطوط من ٩٥ — ٩٦

(٢) المصدر نفسه ، مخطوط من ٩٢ .

(٣) المصدر نفسه من ١١٥ .

(٤) Harold Brown, The Last Buwayhids, J. R.A.S. (1929), p.234. (٤)

(٥) السيرة المؤيدية من ٤ .

(٦) السيرة المؤيدية من ١٣ .

(٧) المصدر نفسه من ١٩ .

ابن مسلمة ، لكن الخليفة « استدم بدمام<sup>(١)</sup> قريش لثماه من القتل » . ودخل البساسيري بغداد ، كما يقول أبو المحاسن بالرايات المستنصرية ، قال إليه أهل الكرخ وأغلبهم من الشيعة ، وزيد في الأذان حيي على خير العمل ، وأقيمت الخطبة للخليفة الفاطمي على منابر بغداد ، ثم قبض البساسيري على الخليفة العباسي وحبس<sup>(٢)</sup> .

كان أبو الحارث البساسيري من قواد بني بويه الأتراك ، وقد زاد نفوذه وتفاقم خطره في عهد الملك الرحيم ، حتى أصبح الخليفة العباسي والسلطان البويهي معه مسلوب السلطة ضعيفي الجانب . ومرعان ما استولى البساسيري على البلاد ، وانتشر ذكره وطار صيته ، وتهيبته أمراء العرب والعجم ، ودعى له على كثير من منابر العراق والأهواز ونواحيها ، وجي الأموال ، وغدا الخليفة القائم لا يقطع أمراً قبل الرجوع إلى رأيه<sup>(٣)</sup> . وقد عزأ ابن الأثير<sup>(٤)</sup> تبدل العلاقة بين الخليفة القائم والبساسيري إلى تقريب الخليفة أبا القنائم وأبا سعد صاحب قريش بن بدران العقيلي اللذين وصلوا سراً إلى بغداد وأنسب ذلك إلى رئيس الرؤساء (وزير القائم) ، ورماه بأنه خرب البلاد وأطمع الغز (وهم فرع من السلاجقة) .

وكان ابن مسلمة الذي يعرف برئيس الرؤساء قد وزر للخليفة القائم ، وكان يكره بني بويه لتشييعهم . ويسمى جهده في إحلال السلاجقة السنيين محلهم في حكم بغداد ، وبذلك يستطيع العباسيون القضاء على الفاطميين . يؤيد ذلك هذه الرسالة الممتعة التي بعث بها المؤيد في الدين الشيرازي ، وكان سفيراً للفاطميين إذ ذاك في العراق ، إلى وزير طبرلبك ، ليوقع الخلاف بين السلاجقة والعباسيين من جهة ، ويقرب بين الفاطميين والسلاجقة من جهة أخرى . وهاك بعض ما جاء في هذه الرسالة : « يعلم سيدي الأجل عميد الملك (أبو نصر محمد بن منصور الكندري) أنني كنت خاطبت حضرته وهو يومئذ مقيم بالرى ، خاطباً لمودته وطالباً لانشاج الحال<sup>(٥)</sup> بيني وبينه ، لما كان يبلغني من محاسن أوصافه وجميل خلالته وخصاله ، ولأن يكون التعارف بيننا

(١) اللدعام : الحرمة يريد أنه تمنع منه بذمة قريش لثماه من القتل . في الأصل واستدم بزمم قريش وهو تحريف . والمعنى هنا استعاذ بشرف قريش من شر القتل .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦ ، ١٢ .

(٣) الخطيب البغدادي : كتاب تاريخ بغداد ج ٩ ص ٣٩٩ - ٤٠٠ .

(٤) ج ٩ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٥) الانشاج : الاشتباك أي الائتلاف أو الصداقة .

سلماً إلى التعارف بين سلاطيننا ، خلد الله ملكهم ، وتأكد سبب العودة بينهم ، انتهاء منا إلى ما قال الله سبحانه وتعالى ( لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ) ( سورة النساء : ٤ : ١١٤ ) وانفق من الأمر سبق ابن مسلمة إلى باطله ، حتى عمل سحره ونفذ كيده ، وحصل الركاب العالى ( السلطان طغرل بك ) ببغداد . وإنبت السكتب يميناً وشمالاً بكون قصده لقضاء حق الخليفة ( القائم ) والسلام عليه والتبلغ بعده إلى مصر (١) .

أما الخطيب البغدادي فيرى أن الخليفة القائم قد صح عنه سوء عقيدة البساسيري . وشهد عنه جماعة من الأتراك أنه عرفهم وهو إذ ذاك بواسط ، عزمه على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة ، فمكاتب الخليفة طغرل بك يستنصه على المسير إلى العراق . وقد ذكر الذهبي (٢) أن الخليفة القائم نوى إليه أن البساسيري كان يكاتب الفاطميين في مصر ، وطلب إلى الملك الرحيم أن يعيد البساسيري . وكان ذلك من أهم العوامل التي أدت إلى استيلاء طغرل بك على العراق .

وفي الحق أن العداء الذي قام بين الخليفة العباسي والبساسيري كان عداً بين العباسيين والبويهيين ، وبعبارة أخرى بين السنيين والشيعة . وقد كشف الخليفة القائم عن حقيقة تقرب بني بويه من الفاطميين على يد المؤيد في الدين الشيرازي ، وأدرك الخطر الذي يهدد الخلافة العباسية السنية من ناحية الخلافة الفاطمية الشيعية . وليس من شك في أنه كان بين جند بني بويه من الديلم والأتراك عدد غير قليل ، على رأسهم البساسيري ، يرى وجوب تحويل الخلافة إلى الفاطميين . فعمل الخليفة العباسي القائم على الحد من نفوذ البساسيري وأنصاره ، وعزم على إبعادهم عن بغداد ، وتمهيد السبيل لدخول السلاجقة إليها . ولم يكن استنجد الخليفة العباسي بالسلاجقة إليها أمراً مستبعداً ؛ فقد جرى الخلفاء العباسيون على هذه السياسة ، فاستعانوا بالفرس على العرب في تأسيس دولهم ثم استعانوا بالأتراك على الفرس منذ عهد المعتصم ، وراسلوا بني بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك ، وكتبوا إلى طغرل بك السلجوقي ليخلصهم من تحكم البساسيري وأنصاره حينئذ أراد تحويل الدعوة إلى الفاطميين في مصر ، بل إنه أوفد الرسل إلى خوارزم شاه ليقيم شر السلاجقة . وكانت العوامل التي دفعت الخلفاء العباسيين إلى الاستنجد ببني بويه والسلاجقة وخوارزم شاه هي نفس العوامل التي دفعتهم إلى الاستنجد بالتتار .

(١) الخطيب البغدادي . تاريخ بغداد ج ٩ ص ٤٠٠ .

(٢) تاريخ الإسلام ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، مخطوط منصور رقم ٣٩٦ تاريخ ج ٣ ورقة ٢٢ .

ومها يكن من شيء فقد أرسل الخليفة العباسي إلى طغرل بك رسولا يدعوهُ إلى دخول بغداد<sup>(١)</sup>. ويقول ابن الأثير<sup>(٢)</sup> في حوادث سنة ٤٤٧ هـ إن طغرل بك « أظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة ، والمسير إلى الشام ومصر ، وإزالة المستنصر العلوي صاحبها ». وقد أعد طغرل بك لذلك الأمر الخطير عدته . ولما وصل إلى حلوان هاجت بغداد وماجت ، وانتثر عقد نظامها ، وأجفل الناس إلى غربها ، وعسكر الأتراك بظاهرها ، وسمع الملك الرحيم بقرب طغرل بك من بغداد ، فأصعد من واسط إليها وفارقه البساسيري في الطريق لمراسلة وردت من القائم في معناه إلى الملك الرحيم ، أن البساسيري خلع الطاعة وكاتب الأعداء ، يعني المصريين ، وأن الخليفة له على الملك ( الرحيم ) عهد ، وله ( أى الملك الرحيم ) على الخليفة مثلها . فإن أثره ( يعني طغرل بك السلجوقي ) فقد قطع ما بينهما ، وإن أبعدهُ وأصعد إلى بغداد ، تولى الديوان تدير أمره . فقال الملك الرحيم ومن معه : نحن لأوامر الديوان متبعون وعنه ( يعني البساسيري ) منفصلون »<sup>(٣)</sup>.

على أن الأتراك الذين رضوا بإبعاد البساسيري أدركوا أن الخليفة إنما قصد إقصاءه ليفسح الطريق لدخول طغرل بك . ثم وصل الملك الرحيم إلى بغداد في منتصف شهر رمضان ، وأظهر إخلاصه للخليفة ، وقبل وساطته بينه وبين طغرل بك . فكان الملك الرحيم في ذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار ، لأن الخليفة قد عقد النية ووطد العزم على الاستعانة بالسلاجقة وإزالة سلطان بني بويه . وقد أشار الخليفة على الملك الرحيم وأنصاره بأن يدينوا بالطاعة لطغرل بك الذي دخل بغداد دون كبير عناء<sup>(٤)</sup>.

على أن زعزعة الحالة المالية في مصر ، وعودة المؤيد في الدين إليها ، وقيام المناقسة بين العنصرين العربي والتركي في جيش البساسيري ، وعودة طغرل بك إلى بغداد بعد أن قضى على فتنة أخيه إبراهيم ينال — كل ذلك قد ساعد على القضاء على ثورة البساسيري وقتله بعد أن أقام الخطبة للفاطميين على منابر بغداد نحواً من سنة .

(١) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨ — ٩ .

(٢) الكامل : ج ٩ ص ٢٢٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٤) ابن الأثير الكامل ج ٩ ص ٢٢٨ . انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية

ص ٤١١ — ٤١٣ .



وسرعان ما ردت طغربك الخليفة إلى قصره معزراً مكرماً ( ٤٥١ هـ ) وحارب البساسيري وانتصر عليه وقتله وحمل رأسه إلى بغداد<sup>(١)</sup>. ولما رجع الخليفة إلى قصره لم يتم بعدها إلا على فراش مصلاه ، ولزم الصيام والقيام ، ولم يضع رأسه بعدها على مخدة .

وقد ذكر المؤرخون أن البساسيري لما سجن الخليفة العباسي أخذ الخليفة يكتب قصته وأنفذها إلى مكة فعلق في الكعبة ، وفيها يشكو إلى الله فعل البساسيري وبطلب إليه أن يجازيه على بغيه وعدوانه . وإليك نص هذا الكتاب عن السيوطي<sup>(٢)</sup> : « اللهم إنك العالم بالسرائر المطلع على الضائر . اللهم إنك غنيٌ بعملك وإطلاعك على خلقك عن إعلامي . هذا عبد قد كفر نعمك وما شكرها وألغى العواقب وما ذكرها . أطفاه حلك حتى تعدى علينا بغيا وأساء إلينا عتواً وعدواً<sup>(٣)</sup> . اللهم قلّ الناصر واعتزّ الظالم . وأنت المطلع العالم المنتصف الحاكم ، بك نعزّ عليه وإليك نهرب من يديه . فقد تعزّز علينا بالخلقين ، ونحن نعزّ بك . وقد حاكناه إليك ، وتوكلنا في إنصافنا منه إليك ، ورفعنا ظلامتنا هذه إلى حرمك ووثقنا في كشفها بكرمك ، فاحكم بيننا بالحق وأنت أحكم الحاكمين » .

كان أمراء بني بويه يقيمون في بغداد ويجمعون كل السلطة في أيديهم . ثم جاء السلاجقة العسكريون يحكمون العراق ويستأثرون بالسلطة . وكان الخلفاء العباسيون يعيشون في أيام السلاجقة من إقطاعات مقررة يديرها عمال على رأسهم الوزير وكاتب الإنشاء كما كانت الحال في أيام بني بويه<sup>(٤)</sup> . ولم يكن هؤلاء الخلفاء شيء سوى ذكر اسمهم في الخطبة ونقشه على السكة ، كما كانوا يقضون أوقانهم في بناء القصور وترميمها<sup>(٥)</sup> .

على أننا إذا دققنا النظر وتبعنا الحوادث التاريخية فإننا نستطيع أن نهتدي إلى هذه النتيجة وهي أن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين كانت بصفة عامة أحسن بكثير من معاملة بني بويه لهم . ولعل ذلك كان راجعاً إلى هذه الحقيقة وهي أن السلاجقة

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٤٢ - ٢٤٤ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٣) يعني اعتداء .

(٤) البنداري : زبدة الفكرة ص ١٩٤ .

(٥) Le Strange; Baghdad during the Abbasid Caliphate. p. 327 .

( م ٢ - تاريخ الإسلام - ج ٤ )

كانوا يدينون بعقائد المذهب السنّي مذهب العباسيين . فقد أصبح السلاجقة كثيرهم من الشعوب التركية يتمسكون بعقائد المذهب السنّي بمجرد تحويلهم إلى الإسلام . وقد عرفوا بشدة تحمسهم لهذا المذهب وتمسكوا كثيرهم من الأتراك بعقائد المذهب الحنفي .

وقد وصف ابن الأثير<sup>(١)</sup> الاجتماع الذي عقد بين السلطان طغرل بك عند ما عاد إلى بغداد سنة ٤٤٩ هـ على أثر إخضاعه الموصل وقضائه على مناوأة دُبَيْس (بضم الدال وفتح الباء وسكون الياء) بن مزيد وقريش بن بدران وبين الخليفة القائم (٤٢٢ - ٤٦٧ / ١٠٣١ - ١٠٧٥) فقال :

« وجلس الخليفة يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة جلوساً عاماً ، وحضر وجود عسكر السلطان وأعيان بغداد ، وحضر السلطان في المساء وأصحابه حوله في السميريات<sup>(٢)</sup> . فلما خرج من السميرية أركب فرساً من مراكب الخليفة ، فحضر عند الخليفة ، والخليفة على سرير عال من الأرض نحو سبعة أذرع ، وعليه بردة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبيده القضيب الخيزران ؛ فقبل السلطان الأرض وقبل يده وأجلس على كرسي ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : قل له إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك حامد لفعلك مستأنس بقربك ، وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده وردّ عليك مراعاة عبادته . فأتق الله فيما ولاك واعرف نعمته عليك في ذلك واجتهد في نشر العدل وكفّ الظلم وإصلاح الرعية . وأمر الخليفة بإفاضة الخلع عليه ؛ فقام إلى موضع لبسها فيه ، وعاد وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه ، وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب ، وأعطى العهد وخرج . وأرسل إلى الخليفة خدمة (هدايا) كثيرة ، منها خمسون ألف دينار وخمسون مملوكاً أتراكاً من أجود ما يكون ومعهم خيولهم وسلاحهم إلى غير ذلك من السلاح وغيرها . كما تظهر هذه العلاقات الحسنة في ارتباط البيتین السلجوقي والعباسي برباط المصاهرة في كثير من المناسبات .

(١) الكامل ج ٩ ص ٢٢٧ .

(٢) بضم السين مع التشديد وفتح الميم وسكون الياء ضرب من السفن .

تقدمت السن بالسلطان طغرلبك إذ بلغ السبعين ، وكان عقيالاً منجيباً ولدأ . ولكن أطعاه لم تقف عند حد ، فملك هذه الدولة الشاسعة الأرجاء ، بل إنه بعد وفاة زوجته في سنة ٤٥٤ ( ١٠٦١ - ١٠٦٢ م ) خطب ابنة الخليفة القائم ( وقيل أخته ) . ثم غادر طغرلبك بغداد إلى بلاد الجبل ، فوصل إلى الرى ومعه ابنة أخيه أرسلان خانون زوجته الخليفة . فرض في الطريق ومات في شهر رمضان سنة ٤٥٥ هـ ( ١٠٦٣ م ) بعد أن حكم الدولة العباسية سبع سنين وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً . وكان وزيره الكندرى على بعد سبعين فرسخاً من الرى ، فطوى هذه المسافة في يومين ، ولم يكن طغرلبك قد دفن بعد ، فتولى الوزير الكندرى دفنه ، ووزع جميع ما كان يملكه على الجنود ، وأجلس سليمان ابن داود أخا طغرلبك على العرش ، وكان عمه ألب أرسلان قد أوصى بأن يخلفه من بعده .

### أخلاق طغرلبك وصفاته — وفاته

كان طغرلبك ، على ما وصفه ابن الأثير ، عاقلاً حليماً من أشد الناس احتمالاً وأكثرهم كتماناً لسره ، وكان يحافظ على الصلاة ويصوم يومى الاثنين والخميس ، وكان يلبس الثياب البيض ، وكان كريماً ، فقد روى المؤرخون أن أخاه إبراهيم ينال أسر بعض ملوك الروم فافتدى نفسه بأربعمائة ألف دينار ، فأبى إبراهيم وحمله إلى السلطان طغرلبك . فأرسل إمبراطور الروم إلى الأمير نصر الدولة بن مروان يطلب وساطته عند طغرلبك فى إطلاق سراحه . فأرسل السلطان ذلك الرومى بصحبة أحد رجاله دون أن يأخذ منه فداء . وقد قدر الإمبراطور هذا الصنيع وعبر عن إعجابه به وتقديره إياه ، فرد مع رسوله إلى طغرلبك « مالم يحمل فى الزمان المتقدم ، وهو ألف ثوب ديباج ، وخمسمائة ثوب أصناف (١) ، وخمسمائة رأس من الكراع ، إلى غير ذلك ، وأنفذ مائتى ألف دينار ، ومائة لينة فضة ، وثلثمائة شهرى (٢) (بكر الشين) . وثلثمائة حمار مصرية ، وألف عنز بيض الشعور سود العيون والقرون . وأنفذ إلى ابن مروان عشرة أمناء مسكا (٣) ، وعمر ملك الروم الجامع الذى بناه مسلمة بن عبد الملك بالقسطنطينية وعمر منارته وعلق فيه القناديل ، فى محرابه قوساً ونشابة ، وأشاع المهادة » (٤)

(١) يعنى من التصف المتنوعة

(٢) جاء فى القاموس فى مادة شهر : الشهرية (بالكسر) ضرب من البرادين وهو يناسب المعنى هنا

(٣) لعله يقصد الأوعية المحكمة التى يؤمن على ما فيها

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٠

وقد ذكر البندارى<sup>(١)</sup> أن أبا الحسن على الماوردي أفضى القضاة وصاحب كتاب الأحكام السلطانية الذي يعد أول كتاب وضع في النظم الإسلامية بوجه عام والمتوفى سنة ٤٥٠ هـ لما حمل رسالة الخليفة القائم إلى طغرلبيك سنة ٤٣٣ هـ ، كتب إلى الخليفة كتاباً ضمنه الطعن في طغرلبيك والقدح فيه وذكر مساوئه . ولكن هذا الكتاب وقع من غلام الماوردي وحمل إلى طغرلبيك ووقف على ما تضمنه ، ولكنه ختمه وكتب ما فيه ، واستمر في إكرام الماوردي واحترامه . وكان طغرلبيك يدارى هفوات الناس بحلمه ، كما كان كثير الصدقات حريصاً على بناء المساجد كثير التعبد والتهجد ، وكان يقول : إني أستحي من الله أن أبني داراً ولا أبني إلى جانبها مسجداً .

وكذلك روى البندارى<sup>(٢)</sup> عن عميد الملك الوزير الكندري أن طغرلبيك لما مرض مرض الموت قال : إنما مثلي في مرضي مثل شاة تشد قوائمها لجز الصوف ، فتظن أنها تذبج فتضطرب . حتى إذا أطلقت تفرح ، ثم تشد قوائمها للذبج ، فتظن أنها لجز الصوف وتسكن فتذبج . وهذا المرض شد القوائم للذبج . وتوفى وله من العمر سبعون سنة على ما تقدم .

(٣) ألب أرسلان ٤٥٥ - ٤٦٥ / ١٦٠٣ - ١٠٧٢ .

خلف طغرلبيك ألب أرسلان ابن أخيه داود صاحب خراسان ومعه وزيره نظام الملك برغم نص طغرلبيك على تولية سليمان بن داود لأن أمه كانت عنده ، خفق رغبتها في ابنها . وقد جلس على عرش السلطنة بمساعدة الوزير الكندري ( بضم الكاف والذال وسكون النون ) المعروف بعميد الملك ، كما أن أخاه ألب أرسلان وعمه قطلش ثارا عليه وحلت به الهزيمة ، وجلس ألب أرسلان على عرش السلطنة<sup>(٣)</sup> بمساعدة وزيره نظام الملك . وقد أدت هذه المحاولة إلى قتل الوزير الكندري الذي قبض عليه وأرسل إلى مرو حيث اعتقل نحواً من سنة ، ثم قتل بيد غلامين أرسلهما إليه السلطان الجديد بعد أن وزر للسلطان طغرلبيك ثمانين سنين وشهوراً ، وكان عمره إذ ذاك نيفاً وأربعين سنة<sup>(٤)</sup> .

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٦ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٤) البندارى ص ٢٧ - ٢٨ .

وكان الوزير الكندري فصيحاً بالعربية شاعراً ، ولما شعر بدنو أجله قال لمن شهر السيف عليه : فل لنظام الملك : « بثما عودت الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان ، ومن حفر قلبياً (بترأ) وقع فيه » ودعا الله أن يُحل لعنته به وبالسلطان وأن يلقى كل منهما نفس المصير<sup>(١)</sup> .

وقد استجاب الله لدعاء الوزير الكندري ، فقد حلت لعنته بالوزير نظام الملك وقتل على أيدي الباطنية ، وقتل السلطان ألب أرسلان ببلاد ما وراء النهر كما سيأتي . وهكذا ظهر هذا الوزير الذي لا يضارعه وزير شرقي آخر ، كما يقول « براون »<sup>(٢)</sup> ، بهذا العمل الذي ينم عن القسوة وسفك الدماء ، وحلت به لعنة سلفه ، وختمت حياته بنفس الطريقة التي ختمت بها حياة سلفه . وفي العصر السلجوقي الذي يشتمل على خمس وخمسين سنة ( ٤٣٠ — ٤٨٥ هـ ) أسندت مقاليد الدولة إلى أحد مشهورى الوزراء الذين أنجبتهم بلاد الفرس ، وهو نظام الملك الذى اشتهر بحكمته وحزمه .

اختلف المؤرخون فى السنة التى ولد فيها ألب أرسلان ؛ فذكر بعضهم أنه ولد سنة ٤٢٠ هـ<sup>(٣)</sup> ( وقيل سنة ٤٢٤ هـ أو سنة ٤٣١ هـ ) . وكان عهده رغم قصره ( ٤٥٥ — ٤٦٣ هـ ) حافلاً بجلائل الأعمال . فى السنة الأولى من حكمه أخضع ختلان بفتح الخاء وسكون التاء ) وهراة ( بفتح الهاء ) وصغانيان ( بكسر الصاد والنون ) فى الشمال الشرقى ، وكان أصحابها قد شقوا عليه عصا الطاعة ، وردّ البيزنطيين فى آسيا الصغرى على أعقابهم بعد أن فتح كثيراً من قلاعهم وغنم غنائم لا تحصى وأسلم كثير من أهالى هذه البلاد . وقد اشترك ملكشاه بن ألب أرسلان والوزير نظام الملك فى هذه الحروب سنة ٤٥٦ هـ<sup>(٤)</sup> . وبعد قليل أخضع ألب أرسلان جند حيث دفن جده الأ كبر سلجوق مما جعل لها أهمية خاصة فى نظره ، وقع الثورة التى قامت فى فارس وكرمان . وفى سنة ٤٥٧ هـ أخذ فى بناء المدرسة النظامية ببغداد ، وفى السنة التالية ولى عهده ابنه ملكشاه ،

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٢ .

Lit. Hist. of Persia, vol, II p. 175.

(٢)

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٣ — ١٥ . وقد ذكر ابن خلكان ( ج ٤ ص ١٦٢ ) أن ألب

أرسلان ولد سنة ٤٢٤ هـ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٧ .

فبايحه أمراء دولته ، وذكر اسمه في الخطبة في جميع البلاد التي دانت لسلطانه ، وأقطع بلاده أفراد البيت السلجوقي (١) .

كذلك أقطع ألب أرسلان من بلاد خصومه الفساطميين حلب ومكة والمدينة ، وأقيمت الخطبة بحلب للخليفة العباسي القائم وللسلطان ألب أرسلان (٢) ، ولعل من أهم الأحداث التي وقعت في عهد السلطان ألب أرسلان ذلك الانتصار الحاسم الذي أحرزه على جيش البيزنطيين في ملازجرد (٣) سنة ٤٦٣ هـ ، وكان هذا الجيش يتكون من مائتي ألف مقاتل (٤) في أقل تقدير ( من الروم والروس والغز من جميع العشائر والآكراج والخزر والفرنجة والأرمن ) ، على حين لم يزد جيش السلاجقة على ١٥,٠٠٠ ، وما تبع هذا الانتصار من أسر لإمبراطور الروم .

وقد ذكر جهره المؤرخين (كابن الأثير والبنديارى وصاحب كتاب راحة الصدور) ما كان من أسر امبراطور الروم ديوجينيس رومانوس (Diogenes Romanus) ، ذلك أن أحد غلمان سعد الدين جوهر — آئين ( ويسميه ابن الأثير كوهرائين ) هو الذي أسر الإمبراطور ، فأراد قتله ، فقال له خادم مع الملك : لا تقتله فإنه الملك . وكان هذا الغلام قد عرضه جواهر — آئين أحد أمراء ألب أرسلان على الوزير نظام الملك فرده استحقاقاً له . فأثني عليه جواهر — آئين ، فقال نظام الملك مازحاً : عسى أن يأتينا بملك الروم أسيراً . ومن أعجب المصادفات أن هذا الغلام هو الذي أسر الإمبراطور . فلما أسره

---

(١) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ١٠ ص ١٩) أنه أقطع مازندران الأمير إيتاخ بيغو وبلخ أخاه سليمان بن داود ، وخوارزم أخاه أرسلان أرغون ، ومرو ابنه الآخر أرسلان شاه ، وصغانيان وطخارستان أخاه لياس ، وولاية بفسور ونواحها مسعود بن أرتاش ( أحد أقارب السلطان ) ، وولاية اسفزار مودود بن أرتاش .

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٢ ، ٢٣ — ٢٤ .

(٣) بكسر الجيم ( ويسميا ابن الأثير ملاذ كرد على مقربة من أخلاط غربى آسيا الصغرى .

(٤) نقل براون ( ج ٢ ص ١٧٧ هامش (١) عن مخطوط راحة الصدور التي صنفها الراوندى سنة ٥٩٩ هـ ( ١٢٠٢ م ) أن عدد جنود الروم بلغ ٦٠٠,٠٠٠ . وذكر البندارى ٣٠٠,٠٠٠ وابن الأثير : ٢٠٠,٠٠٠ . ويتناول كتاب راحة الصدور تاريخ السلاجقة . وكانت نسخه الخطبة الفريدة في حوزة ( شيفر ) ( وهي الآن بالمكتبة الأهلية بباريس في الملحق الفارسي ) . وقد نشر براون ( Vol. II, p. 297 ) وصفا هذه المخطوطة في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية بانجلترا ( ١٩٠٢ ) ص ٥٦٧ — ٦١٠ ، ٨٤٩ — ٨٨٧ ) . وقد طبع محمد إقبال هذه المخطوطة سنة ١٩٢١ في لندن ضمن سلسلة جب التذكارية . انظر براون : تاريخ الأدب في إيران ترجمه الدكتور إبراهيم أمين ج ٢ ص ١٣٥ هامش ٢ ، ص ٢٠٩ هامش رقم ٢ .

أحضره عند جواهر - آئين ، فقصده السلطان ألب أرسلان وأخبره بنبأ أمر الإمبراطور ، فأمر بإحضاره . فلما أحضر ضربه السلطان ثلاثة مقارع بيده وقال له : ألم أرسل إليك في الهدنة فأبيت ؟ فقال : دعني من التوبيخ وافعل ما تريد . فقال السلطان : ما عزمتم أن تفعل بي إن أمرتني ؟ قال : أفعلُ القبيح ، قال السلطان : ما تظن أنني أفعل بك ؟ قال : إما أن تقتلني وإما أن تُشَهِّرني في بلاد الإسلام ، والآخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائباً عنك . قال : ما عزمتمُ على غير هذا . فقدها السلطان بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها ، وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم ، وقد استقر الأمر على ذلك وأنزله في خيمة وأرسل إليه خمسة عشر ألف دينار<sup>(١)</sup> يتجهز بها ، وأطلق سراح جماعة من أمرائه وقواده ، وخلق عليه وسير معه عسكرياً أوصلوه إلى مأمته وشيعه السلطان فرسخاً<sup>(٢)</sup> .

وفي هذه السنة فتح إنسز أحد أمراء ملكشاه بن ألب أرسلان مدينة الرملة وحاصر بيت المقدس ، وكانت بأيدي الفاطميين ، ففتحها واستولى على ما جاورها من البلاد عدا عسقلان<sup>(٣)</sup> .

### وفاة ألب أرسلان — صفاته

وفي أوائل سنة ٤٦٥ هـ ( ١٠٧٢ م ) سار ألب أرسلان إلى بلاد ما وراء النهر على رأس مائتي ألف مقاتل استدعى نقلهم أن يعقد على نهر جيحون جسراً وعبر عليه في أكثر من عشرين يوماً . وقد أتاه أصحابه بمستحفظ قلعة يسمى يوسف البرزومي ( بفتح النون . مع التشديد وسكون الراء وفتح الزاي )<sup>(٤)</sup> . وقد وقفت هذه القلعة في وجه ألب أرسلان

(١) ذكر ابن الأثير عشرة آلاف ونقل براون عن كتابه راحة الصدور أنه خمسة عشر ألف .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٤ - ٢٥ . البنداري : تاريخ آل سلجوق ص ٣٧ - ٤٢ .

(٣) المصدر نفسه . ج ١٠ ص ٢٥ .

(٤) أو البرزومي أو الخوارزمي (بضم الخاء وفتح الواو وسكون الزاي) . وقد ذكر صاحب كتاب راحة الصدور الاسم الأول وذكر الاسم الثاني صاحب كتاب سلاجقة كرمان (ص ١٢) وذكر الاسم الثالث ابن الأثير والبنداري (ص ٣٧) Browne, vol. II, p. 179

وحمل هذا المستحفظ غلامان حتى قرب من السلطان فأمر بأن تضرب أربعة أوتاد لتشد أطرافه الأربعة إليها ، ويعذبه ثم يقتله ، فقال له المستحفظ : أمثلي يقتل هذه القتلة ؟ فغضب ألب أرسلان وأخذ قوسه وجعل فيها سهماً وأمر بحل قيده ، ورماه بهم فأخطأه . وكان مدلاً برميه ، فنزل عن سريره فعثر ووقع على وجهه ، فبادره يوسف بسكين كانت معه ، وجرح سعد الدولة آئين ، وانتقل السلطان إلى خيمة أخرى ، وضرب خادم أرمني يوسف بمرزبة على رأسه فقتله . وحضر الوزير نظام الملك وأوصاه ألب أرسلان بأن يكون ابنه ملكشاه ولي عهده (١) . وما يؤثر عن ألب أرسلان أنه قال حين أيقن بدنو أجله : مامن وجه قصدته وعدو أردته إلا استعنت بالله عليه . ولما كان أمس ، صعدت على تل عال فارتجت الأرض تحتي من عظم الجيش وكثرة العسكر ، فقلت في نفسي أنا ملك الدنيا وما يقدر أحد عليّ ، فعجزني ( فأعجزني على الأصح ) الله تعالى بأضعف خلقه . وإني أستغفر الله تعالى وأستقبله (٢) من ذلك الخاطر (٣) .

وكان ألب أرسلان يطعم في السير بهذا الجيش الجرار إلى أقصى بلاد الصين ، فقال : فرأيت عسكري في أجل حال فقلت : أين من له قدر مصارعتي وقدرة معارضتي بهذا العسكر إلى أقصى الصين « نخرجت على منيتي من السكين » (٤)

وتوفي ألب أرسلان في اليوم العاشر من سنة ٤٦٥ هـ ، شمل جثمانه إلى مرو ودفن بجوار أبيه وله من العمر أربعون سنة وشهوراً . وكانت مدة سلطنته تسع سنين وستة أشهر وأياماً . وقد ترك من الأولاد ملكشاه الذي خلفه في السلطنة وإباز ونكش وأرسلان أرغون وبوري برس ( برش ؟ ) وتثنش وثلاثا من البنات منهن سارة وعائشة (٥)

كان ألب أرسلان ، كما وصفه ابن الأثير (٦) ، كريماً عادلاً عاقلاً ، وكان رحيم القلب مقرأً بأنعم الله عليه . وكان يتصدق على الفقراء ، ولا سبأ في شهر رمضان الذي كان يتصدق فيه بخمسة عشر ألف دينار . وقد اشتمل ديوانه على أسماء كثير من الناس في جميع البلاد

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٢ .

(٢) أي أطلب منه أن يقبلني ويعفني من الذنب الذي ارتكبته باعتراري بقوتي .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ١٠ ص ٢٧ - ٢٨ .

(٤) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٥ .

(٥) ابن الأثير : ج ١٠ ص ٢٨ . البنداري ص ٤٥ .

(٦) ج ١٠ ص ٢٨ .



التي دانت له كانوا ينعمون بصلاته وعطاياه . ولم يعرف عن عهده وقوع جنابة أو مصادرة ، بل كان يكتفى بجمع الخراج مرتين تيسيراً للزارعين ، وكان ألب أرسلان يكره السعيات ؛ فقد كتب إليه بعض السعاة ظلاماً تركت على مصلاة . وهي خاصة بوزيره نظام الملك ذكر فيها فداحة الرسوم والأموال التي كان يستأثر بها اشخصه . ولما قرأ ألب أرسلان هذه الرسالة سلبها إلى وزيره وقال له : خذ هذا الكتاب فإن صدقوا فيما كتبوه فهذب أخلاقك وأصلح أحوالك ، وإن كذبوا فأغفر لهم زلتهم وأشغلهم بهم يشتغلون به عن السعاية بالناس . وقد عرف ألب أرسلان بحسن السمعة والمحافظة على العمود ، حتى أذن له الناس بالطاعة ودانوا له بالولاء وقصدوه من كافة أرجاء بلاده الشاسعة الأطراف التي امتدت من أقاصى بلاد ما وراء النهر إلى أقاصى بلاد الشام . ولا يجب فقد « عظمت مملكته ( كما يقول ابن خلكان )<sup>(١)</sup> ورُهِبت سطوته ، وفتح من البلاد ما لم يكن لعمه طغرل بك مع سعة ملك عمه » . وكان ألب أرسلان حريصاً على ردع جنده وكفهم عن أخذ أموال الرعية . وقد بلغه أن بعض خواص ممالكه سلب إزاراً ، فأمر بالمملوك فصلب . وكان ذلك رادعاً للناس عن التعرض لمال غيرهم .

#### ٤ — ملكشاه

( ٤٦٥ - ٤٨٥ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢ )

أسس طغرل بك وإخوته ملكاً عظيماً ، وجاء بعده ابن أخيه ألب أرسلان بن داود ، فانتصر على الروم وأسر إمبراطورهم مقابل فدية كبيرة ، وهادته خمسين سنة . ولما قتل ألب أرسلان سنة ٤٦٥ هـ ، خلفه ابنه ملكشاه الذي اتسع ملكه اتساعاً عظيماً ودعى له على منابر البلاد الممتدة من حدود الصين شرقاً إلى أقاصى بلاد الشام غرباً ومن البلاد الإسلامية في الشمال إلى جنوبي بلاد اليمن ، وأدى له أباطرة الروم الجزية .

ولد ملكشاه سنة ٤٤٧ هـ ، وكان في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره حين آلت إليه مقاليد هذه السلطنة الشاسعة الأرجاء . وكان مليح الوجه . وأسند الوزارة إلى نظام الملك وزاد أعطيات الجند . وكان ألب أرسلان قد أوصى ابنه ملكشاه أن يعطى عمه قاورت بن داود ( وكان بكرمان ) أعمال فارس وكرمان وبعض المسال

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦١ .

الذى عينه ، وأن يعطى أخاه أياز بن ألب أرسلان . ما كان لداود وهو خمسمائة ألف دينار<sup>(١)</sup> .

وقد بدأ عهد ملكشاه بقيام الاضطرابات في أطراف البلاد التي كانت خاضعة لحكم السلاجقة . فقد استولى التكين ( بفتح الألف مع الهمزة وسكون اللام وكسر التاء والسكاف ) صاحب سمرقند على ترمذ وشتت جيوش أياز أخى ملكشاه ، وأسر إبراهيم الغزنوى عمه عثمان ونقله مع خزانته إلى غزنه ، ولكن جموستكين ( بضم الجيم وسكون الشين وكسر التاء ) ( وكان من أكبر أمراء الدولة السلجوقية ) ومعه أنوشتكين<sup>(٢)</sup> جد ملوك الدولة الخوارزمية التي سيأتى الكلام عليها ، تتبع آثارهم ونهب بعض بلادهم . ولعل أشد هذه الاضطرابات خطراً تلك التي أثارها قاورت عم السلطان ملكشاه وأول ملوك السلاجقة بكرمان الذى سار إلى الرى مطالباً بالسلطنة . وقد التقى الجيشان على مقربة من همذان ودارت بين ملكشاه ومعه وزيره نظام الملك وبين قاورت معركة حامية الوطيس دامت ثلاثة أيام وثلاث ليال انتهت بهزيمة قاورت وتشيتت شمل جنده الذين ولوا الأديار وأسره وقتله وسمل عيون ابنه أميرانشاه وسلطان شاه . أما سلطان شاه فلم يتم سمل عينيه للدرجة التي تحول دون قدرته على أن يخلف أباه فى حكم كرمان . وتقديراً للخدمات الجليلة التي أداها الوزير نظام الملك فى هذه الأزمة الخطيرة وما ظهر من كفايته وشجاعته وحسن سيرته ، منحه السلطان ملكشاه لقب أتابك وقال له : « قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك ، فأنت الوالد ، وحلف له ، وأقطعه إقطاعات من جملتها طوس مدينة نظام الملك ، ثم لقبه بلقب « أتابك » ومعناه « الأمير الوالد » ( أو مرى الأمير )<sup>(٣)</sup> .

وفى السنة التالية ( ٤٦٧ هـ ) مات الخليفة القائم ( وكان فى السابعة والسبعين من عمره

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٨ - ٢٩

(٢) بفتح الألف مع الهمزة وكسر التاء .

(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٩ - ٣٠

بعد أن ولى الخلافة أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر وأياماً (١). وفي عهده (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) مات ابن سينا الذى يسمونه شيخ الفلاسفة ، ومهيار الديلبى الشاعر ، وأبو الحسين البصرى شيخ المعتزلة ، وأبو الحسن الماوردى قاضى القضاة وصاحب كتاب الأحكام السلطانية ، وابن حزم الظاهرى صاحب كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل . والخطيب البغدادى صاحب كتاب تاريخ بغداد ، وابن رشيق صاحب كتاب العمدة ، وابن عبدربه الذى خلف لنا كتابه العقد الفريد المشهور فى عالم الأدب والتاريخ .

وعلى الرغم من أن السلطان ملكشاه السلجوقى وجه همته إلى الأعمال الحربية مثل أبيه ، شجع العلم ونشر الحضارة ، وحفر الترع وأقام الجسور وحصن المدن ، كما ولع بالفلك وشجع دراسة العلوم الدينية والعقلية بمعونة وزيره المشهور نظام الملك الذى أسس المدرستين العظيمتين اللتين تعرفان باسمه فى بغداد ونيسابور ، وتعرف كل منهما باسم المدرسة النظامية ، كما أسس المدرسة الحنفية ببغداد .

وفى سنة ٤٦٧ هـ أسس ملكشاه المرصد وعين فيه جماعة من أعيان المنجمين ، نخص بالذكر منهم عمر الخيام (عمر بن إبراهيم الخيامى) وأبا المظفر الأسفزارى وميمون بن النجيب الواسطى وغيرهم . وقد بطل هذا المرصد بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ . ويذكر ابن الأثير أن ملكشاه ووزيره نظام الملك جمعا جماعة من المنجمين وجعلوا النيروز أول نقطة من الحل .

خلف الخليفة القائم ابنه المقتدى (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ) . وبعد سنة استرد الخليفة المستنصر الفاطمى نفوذه ، فى مكة . على أن ذلك التفوذ لم يدم أكثر من سنة وفقد هذا الخليفة الفاطمى دمشق . وبعد سنتين (٤٧٤ هـ) تزوج الخليفة المقتدى ابنة السلطان ملكشاه الذى مات ابنه داود فى السنة نفسها ، فجزع عليه جزعا شديداً وحزن حزناً عميقاً وحال دون غسله . ولما دفن لم يطق السلطان المقام وخرج للصيد وأمر بالنياحة عليه عدة أيام (٢) . وبعد ثلاث سنين ولد له ابن آخر هو سنجر (٣) (بفتح السين والجيم وسكون النون) ، تخفف السرور بالمولود الجديد حزنه على ابنة المفقود . وفى سنة ٤٨١ هـ ولد لملكشاه ابن آخر هو بركياء روق .

(١) كانت أمه أم ولد تسمى قطر الندى (وقيل علم) وكانت أرمنية (وقيل رومية) (ابن الأثير

ج ١٠ ص ٣٥)

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٦ - ٤٥ .

(٣) لإشارة إلى سنجار (بكرالسين) القريبة من الموصل .

وفي ذلك الوقت استجاب الله لدعوة الوزير الكندري . فقد وردت الأنباء إلى بغداد بوفاة جمال الملك ابن الوزير نظام الملك ، وكان يتولى بلخ ، وأعمالها . وقد قيل في سبب قتله إن جَعْفَرَك أحد مضحكي السلطان ملكشاه كان يسخر من الوزير نظام الملك في خلواته مع السلطان . ولما بلغ ذلك جمال الملك ، طوى المراحل إلى والده وإلى السلطان وهما بأصبهان ، فاستقبله أخواه نحر الملك ومؤيد الملك ، فأغلظ لهما القول ، لإغضابهما عما بلغه من سخريته جَعْفَرَك بأبيهم . ولما مثل جمال الملك بين يدي السلطان رأى هذا المضحك يساره ، فانتهره فلما خرج جعفر ك أمر جمال الملك بإخراج لسانه من ففاه وقطعه فمات ، ثم سار مع السلطان وأبيه إلى خراسان ، وأقاموا بنيسابور مدة ، ثم أرادوا العودة إلى أصفهان وتقدمهم الوزير نظام الملك ، وقد أوعز السلطان إلى أحد خدم جمال الملك بقتله ، ففسد له السم في إناء ملؤه بالفقاع ، فشربه فمات ، ثم لحق السلطان بوزيره وعزاه في ابنه (١) .

زار السلطان ملكشاه بغداد مرتين في عهده . فكانت الزيارة الأولى في سنة ٤٧٩ هـ (مارس ١٠٨٧ م) بعد أن فتح حلب وحصص وغيرهما من البلاد التي تمتد من الرها إلى بلاد الشام . وكان الوزير نظام الملك بصحبة السلطان . وفي الغد خرج السلطان ملكشاه إلى الحلبة ولعب بالجوكان والكرة (البولو) ، وزار مشهد موسى الكاظم الإمام السابع عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية وأضرحة معروف السكرخي المتصوف ، وأحمد بن حنبل ، وأبي حنيفة وغيرها من المشاهد المعروفة ، كما زار مشهد علي بن أبي طالب ، ومشهد ابنه الحسين . وهذا يدل على بعد نظر السلطان ونظر وزيره وعدم تحيزهما لمذهب خاص .

وقد أرسل السلطان ملكشاه إلى الخليفة المقتدى كثيراً من الهدايا النفيسة . ثم مثل بين يدي الخليفة فخلع عليه ، ثم خرج ، وظل الوزير نظام الملك يقدم الأمراء ، كل أمير باسمه وإقطاعه وعدة عساكره ، « وفوض الخليفة إلى السلطان أمر البلاد والعباد » ، وخلع الخليفة الخلع على الوزير نظام الملك . كما زار الوزير المدرسة النظامية ببغداد وخزانتها ، وألقى على الطلاب درساً في الحديث وأملى عليهم جزءاً آخر . وأقام السلطان

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٥ .

يبغداد إلى شهر صفر سنة ٤٨٠ هـ ، ثم رحل إلى أصبهان<sup>(١)</sup> .

وفي ذلك الوقت زوج السلطان ملكشاه أخته زليخة خاتون من محمود بن شرف الدولة ( وأقطعه الرحبة وحران وسروج والرقعة والخابور ) ، كما زوج ابنته من الخليفة العباسي المقتدى ، على حين ولدت زوجته ترکان خاتون ابناً أسماه محموداً قدر له أن يلعب دوراً قصيراً في الاضطرابات التي سادت البلاد بعد موت أبيه ، لأن ابنه الآخر أحمد الذي عزم السلطان على أن يخلفه من بعده مات بمرض وهو في الحادية عشرة من عمره بعد مولد أخيه محمود بسنة . وفي الوقت نفسه عقد السلطان ملكشاه مع البيت الغزنوي محالفة كان من أثرها أن تزوجت ابنة السلطان ملكشاه من السلطان مسعود الثاني الغزنوي وكان في مقتبل العمر .

وأما زيارة السلطان ملكشاه الثانية لبغداد فقد كانت في سنة ٤٨٤ هـ ( أكتوبر ١٠٩١ م ) . أي قبل وفاته بسنة . وفي المدة التي تخللت هاتين الزيارتين فتح السلطان ملكشاه بخارى وسمرقند وغيرهما من مدن بلاد ما وراء النهر ، وتسلم وهو في كاشغر الجزية من إمبراطور الروم . ولم تكن أحوال الدولة السلجوقية في يوم من الأيام أعظم ازدهاراً منها في ذلك الوقت . فقد ذكر « براون » نقلاً عن كتاب راحة الصدور أن الملاحين الذين نقلوا ملكشاه وجيوشه على سفنهم عبر نهر جيحون قد تسلبوا من الوزير نظام الملك حوالات وتسلبوا قيمتها النقدية من العامل السلجوقي بأنطاكية ليدركوا مدى اتساع أملاك السلطان . وفي اللاذقية التي تعد ميناء سورية اليوم ركب السلطان ملكشاه جواده على ساحل البحر الأبيض المتوسط وشكر الله سبحانه على ما حباه من سعة الملك ، كما منح رجال حاشيته إقطاعات في سورية وآسيا الصغرى ، على حين أتجه جيشه النظامي الذي بلغ ٤٦٠٠٠ مقاتل ( دونت أسماؤهم في ديوان الجيش ) نحو حدود الصين<sup>(٢)</sup> . كما ملك ملكشاه بلاد اليمن واستولى على عدن<sup>(٣)</sup> .

وكان ملكشاه كما وصفه ابن خلكان « أحسن الملوك سيرة حتى كان يلقب بالسلطان

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٥٧ - ٥٨ .

(٢) Browne, Vol. II, pp. 183, 184.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٧٥ .

العادل» (١) ، وكان يجلس للظالم بنفسه ويقضى بين الناس بالقسطاس المستقيم ، كما كان بابه مفتوحاً لكل قاصد بحيث يستطيع أى شخص من أفراد شعبه أن يتصل به فى سهولة ويسر لرفع ظلامته أو التعبير عما لحقه من اضطهاد . وكانت السبل فى أيامه آمنة ، والقوافل تسير من بلاد ما وراء النهر إلى أقصى بلاد الشام فى أمن وطمأنينة (٢) ، كما حفر ملكشاه الآبار فى طريق مكة وبنى منارة القرون بالسيعى فى طريق مكة ، وبنى منارة أخرى ببلاد ما وراء النهر ، وأسقط المكوس عن حاج بيت الله ، وقد سارت مهارته فى الصيد على كل لسان (٣) .

### الوزير نظام الملك

وفى السنين التى تميزت بازدهار العهد السلجوقى كان نظام الملك ساعد ملكشاه الأيمن ومدبر ملكه ومستشاره الأمين ، « فصار الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان إلا التخت والصيد » على حد تعبير ابن خلسكان (٤) . وكان نظام الملك هو وأولاده الإثني عشر يقبضون على زمام الأمور ، وقد ذهبوا كما ذهب البرامكة فى العصر العباسى الأول من قبلهم ضحية الدسائس والمؤامرات التى دبرها لهم حسادهم المنافسون .

وكان نظام الملك أبو الحسن على بن إسحاق من أبناء الدهاقين بطوس ، وقد توفيت أمه وهو رضيع ، فكان أبوه يطوف به على المرضعات فيرضعنه حسبة (٥) ، حتى شب وتعلم العربية وعرف بعلو الهمة واشتغل بالعلم فتفوق فيه ، وسمع الحديث . وقد أسندت إليه بعض أعمال الدولة ، ثم أخذ يترقى فى سلكها ، وكان يطوف بلاد خراسان ووصل إلى غزنة فى صحبة بعض الحكام ، ثم انصل بخدمة أبى على بن شاذان متولى الأمور ببلخ ، من قبل داود أبى السلطان ألب أرسلان ، فظهرت كفاية نظام الملك وأمانته ، وتقرب إليه وتحسنت أحواله لديه . فلما حضرت أبا على بن شاذان الوفاة أوصى به ألب أرسلان ، وزكاه عنده ، فأسند إليه أعماله . ثم أصبح وزيراً له ومشيراً حتى ولى

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ .

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٣٧٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٧٩ .

(٤) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٩٦ .

(٥) دون مقابل أى ابتغاء مرضاة الله .

السلطنة بعد عمه طغرل بك ، فأسند إليه الوزارة ، وعهد إليه بنفشته ابنه ملكشاه وقال له :  
هذا حسن الطوسى ( يعنى نظام الملك ) فسنهه واتخذته ولداً لا تخالفه .

وكان نظام الملك عالماً دينياً جواداً عادلاً حليماً كثير العفو طويل الصمت . وكان  
مجلسه حافلاً بالفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح ، وقد اشتهر ببناء المدارس  
في البلاد وخصص لها النفقات العظيمة وأملى الحديث ببغداد ونيسابور وغيرهما من  
مدن خراسان .

وكان نظام الملك منقطعاً للعبادة يؤدي الصلوات في أوقاتها ، إذ كان يأمر مؤذنه بالصلاة  
إذا حان وقتها ، وينبهه إذا حان وقت الأذان ، كما أسقط المسكوس والضرائب وأزال  
على المنابر لعن الأشعرية (١) الذى كان من آثار عهد البويهيين الشيعة . وكان الوزير  
عماد الملك السكندرى قد حسن للسلطان طغرل بك لعن الرافضة ، فوافق على ذلك ، فأضاف  
إليهم الأشعرية . وكان يجلب أهل العلم ويجلسهم في المسكن اللائق بهم . وما يؤثر عن  
نظام الملك أنه تمنى لو كانت له قرية ومسجد ينفرد فيه للعبادة . ثم تمنى بعد ذلك أن تكون  
له قطعة أرض يتقوت من ريعها ومسجد يعبد الله فيه . وقد تمنى في أواخر أيامه أن يمنحه الله  
رغيفاً يقبله به ومسجداً يعبد الله فيه . ومن هنا ندرك ميل نظام الملك نحو الزهد والتقشف  
في نهاية حياته وصدوفه عن الدنيا وزخرفها .

وكان من عادة نظام الملك أن يشرك الفقراء معه في الطعام ويقربهم إليه . وقد أثر  
عنه أنه كان ليلة يتناول الطعام مع عميد خراسان ، وجلس إلى جانب العميد شخص  
فقير قد قطعت يده . ولاحظ نظام الملك أن العميد يتأفف من الأكل مع هذا الفقير ،  
فأمر العميد أن ينتقل إلى الجانب الآخر من الساط ، وقرب هذا الفقير إليه  
فأكل معه .

مات نظام الملك في العاشر من شهر رمضان سنة ٤٨٥ هـ بعد أن تقلد الوزارة لآلب  
أرسلان وملكشاه نحواً من ثلاثين سنة . وقد تضاربت أقوال المؤرخين في أسباب قتله :  
(١) قيل إنه كان على مقربة من نهاوند ، وكان صائماً ، وبعد أن غربت الشمس

---

(١) كان الأشعرية سنيين مؤولين ينتقون مع الشيعة في كثير من الآراء : ويبدو من هذا أن  
السلاجقة كانوا يسرون على السنة السلفية ، أى على تهيج السلف الصالح . وقد اتخذ الأشعرية مذهباً وسطاً  
بين المعتزلة وبين السلف الصالح . ولذلك أطلق عليهم أهل السنة والجماعة .

تناول طعام الإفطار ثم خرج إلى خيمة لزيارة أهله ، فاعترضه صبي ديلبي من الباطنية يحمل في يده ظلامه ، وسأله أين يتناولها ، فد نظام الملك يده ليأخذها ، فطعنه الصبي بسكين في قلبه ، فسقط الوزير مفضياً عليه وحمل إلى مضره فمات ، وهرب القاتل فأدركه رجال الوزير وقتلوه (١) .

(٢) وقيل إن السلطان ملكشاه دس إليه من قتله ، لأنه سئم طول حياته واستكثر ما بيده من الإقطاعات وما بيد أولاده وأحفاده من الكور .

(٣) وقيل إن « ترُكان خاتون » زوجة السلطان ملكشاه المفضلة كانت تطمع في تولية ابنتها الصغير محمود العهد بعد أبيه ، وكان يعضدها في ذلك وزيرها تاج الملك ، على حين كان الوزير نظام الملك يميل إلى تولية ابنه الأكبر بركياروق ، وكان إذ ذاك في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره .

(٤) ولعل السبب المباشر الذي أدى إلى هذه التنكبة قد جاء عن طريق ذلك المسلك الذي ينم عن الصلف والغطرسة من أحد أحفاد الوزير نظام الملك ، وهو عثمان بن جمال الدين والي مرو ( وكان السلطان قد أمر بدس السم لأبيه قبل ذلك بعشر سنين ) بسبب قتله مضحك السلطان . وقد قصد أحد عماليك السلطان ( وكان يعد من أعظم أمرائه ) دار الخلافة مستغنياً شاكياً اضطهاد عثمان له وتنكبه به ، الأمر الذي أثار استياء السلطان حتى إنه أرسل إلى وزيره نظام الملك مع بعض أرباب دولته رسالة يقول فيها : إن كنت شريكاً في الملك ويدك مع بدى في السلطنة فلذلك حكم ، وإن كنت نائباً وبمحمى فيجب أن تلتزم حد التبعية والنيابة . وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة وولى ولاية كبيرة ، ولم يقنعهم ذلك حتى تجاوزوا أمر السياسة وطمعوا إلى أن فعلوا كذا وكذا . وأطال القول وأرسل معهم الأمير « يلبرد » ، وكان من خواصه وثقاته ، وقاله له : تعرّفنى ما يقول ، فربما كنتم هؤلاء شيئاً .

وقد غضب الوزير الشيخ لكلمات التفرع التي تضمنها هذا الكتاب وأجاب في شيء من عدم الروية قائلاً : « إن ثبات تلك القلذسوة منوط بهذه الدواة ، وإن اتفقا (٢) رباط كل رغبة وسبب كل غنيمة . ومتى قطعت هذه زالت تلك (٣) . فإن عزم على

(١) ابن خلكان : ج ١ ص ٣٩٨ .

(٢) يعنى أن عظمة الملك ترجع إلى تضامن نظام الملك مع السلطان .

(٣) يعنى أن السلطان إذا جحد وفك هذا التضامن زالت قوة الملك .



تغييرى فليتزود للاحتياط قبل وقوعه وليأخذ الحذر من الحادث أمام ظروفه .  
ولكن هؤلاء الرسل رأوا أن يكتبوا ما سمعوه من الوزير رعاية لحق السلطان ، وكان  
الأمير يلبرد قد أتى إلى السلطان كل ما فاه به الوزير ، فعزل عن منصبه ، وخلفه أبو القنائم  
تاج الملك الذى تمتع بحماية ترکان خانون ، وأجريت تغييرات كثيرة فى مناصب الدولة  
الكبرى . لذلك قتل السلطان وزيره نظام الملك خشية أن يقوم بتنفيذ ما هدده به ولا سيما  
أن أغلب الولايات كانت فى يد أبنائه وأحفاده وأن له أنصاراً كثيرين .  
مات السلطان ملكشاه بعد ذلك بخمسة وثلاثين يوماً . وقد رثى نظام الملك كثير من  
الشعراء ، فقال شبل الدولة مقاتل بن عطية :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤةً يتيمه صاغها الرحمن من شرف  
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها فردها غيرة منه على الصدق  
وبموت السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ ( ١٠٩٢ م ) انتهى العصر السلجوقى الأول  
الذى يمكن أن يسمى العصر الذهبى للدولة السلجوقية أو عصر نظام الملك ، « وانحلت الدولة  
ووقع السيف » (١) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٧٥ — ٧٦ . Browne, Vol. II, p. 185.

(٣٢ - تاريخ الإسلام - ج ٤ )

## الباب الثاني

عصر سنجر<sup>(١)</sup> وإخوته

٤٨٥ - ٥٥٢ / ١٠٩٢ - ١١٥٧

(١) مميزات هذا العصر:

يبتدىء هذا العصر الذى يشغل نحو خمس وستين سنة ميلادية من موت السلطان ملكشاه وينتهى بموت ابنه سنجر . ومع أن سنجر قبض على زمام الحكم فى الدولة السلجوقية مدة إحدى وأربعين سنة فقط ( ٥١١ - ٥٥٢ / ١١١٧ - ١١٥٧ ) حكم فيها خراسان ، فإنه كان فى الواقع الشخص المسيطر على البيت السلجوقى من سنة ٤٩٠ هـ ( ١٠٩٦ م ) . فقد حكم خراسان وبلاد ماوراء النهر قبل توليته السلطنة حكماً يتميز بالحكمة والحزم ، ووقفت بلاده إلى حد كبير بمنأى عن هذه الحروب الدموية التى دارت بين إخوته وعكرت صفو الدولة السلجوقية . على أنه قبل نهاية حكم سنجر قاست الدولة السلجوقية كثيراً من ألوان التخريب والدمار على أيدى الأتراك الغز ، ولكن هذا التخريب وذلك الدمار الخفيف قد قدر له أن يزول نهائياً عن طريق الفتح المغولى بنحو سبعين سنة ، لذلك يمكن أن نطلق على هذا العصر « عصر سنجر » الذى يعتبر موته نهاية لعهد « السلاجقة العظام » فى إيران .

وثمة أوجه للشبه بين سنجر وغيره من سلاطين السلاجقة من حيث طول حياته وأعماله المجيدة ، بل إنه يفوق — على ما ورد فى كتاب « راحة الصدور » — سائر سلاطين السلاجقة .

---

(١) ولد سنجر بسنجر ببلاد الجزيرة . ولذلك سمي باسم هذه المدينة . وقد ذكر براون ( Vol. II, p. 303, note 4 . وترجمة ص ٣٧٩ هامش رقم ٢ ) أنه سمي سنجر ( بفتح السين ) . وسنجر بالتركية من فصيلة الصقر وطائر من طيور الصيد : وكانت تسمية أولاد السلاجقة بأسماء الحيوانات شائعة بينهم وبين غيرهم من الأتراك . من ذلك أرسلان ومعناه الأسد وطغرل ومعناه الصقر أو الباز . (٢) يتناول كتاب راحة الصدور تاريخ السلاجقة . وقد كتب الراوندى هذا الكتاب فى سنة ٥٩٩ هـ ( ١٢٠٢ م ) كما تقدم فى الباب الأول .

ومنذ قلده بركياروق ولاية خراسان (٤٩٠ هـ) قام سنجر بتسع عشرة غزوة من الغزوات المظفرة في مدى أربعين سنة ، فقد استطاع أن يستولى على غزنة وأن ينصب عليها هرامشاه على أن يؤدي له إتاوة مقدارها ألف دينار في اليوم . كذلك أسر سنجر أحمد خان ملك سمرقند الذي ثار على أثر وفاة بركياروق سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) <sup>(١)</sup> . كما أخضع سنجر ولايتي سجستان وخوارزم . أما من الناحية السياسية فلم يعد لآل سلجوق ما كان لهم من القوة والنفوذ أيام حكم ألب أرسلان وملكشاه . ولإننا لو صرفنا النظر عن الحروب الدموية التي وقعت بين أبناء ملكشاه في بداية هذه الفترة ، والغارات المستمرة التي قام بها الأمراء الثائرون ، فإننا نجد أنه كانت هناك بيوت ملكية أخرى تنازع « السلاجقة العظام » السيطرة وتعمل على إضعاف نفوذهم . وكان من أشد هذه البيوت خطراً ملوك جبال القور في الشمال الشرقي من إيران الذين استطاعوا بفضل قوتهم النامية أن يوجهوا الضربة القاضية للبيت الغزنوي . كذلك أصبح ملوك خوارزم أو حكام « خيوه » أكبر خصم للسلاجقة على أثر تولية « أنسز » الخوارزمي الحكم في سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) . وكذلك نرى سلاجقة كرمان يحكمون الولايات الجنوبية الغربية من إيران ، كما نجد الإسماعيلية أو « ملاحدة الموت » ينشرون الرعب والفرع في إيران ويرتكبون ألواناً من العنف والقسوة ليس في فارس وحدها بل في بلاد الشام أيضاً .

١٠٣٧-١١٥٧ م	السلاجقة العظام	٤٢٩-٥٥٢
١٠٣٧	طغرل بك : ركن الدين أبو طالب	٤٢٩
١٠٦٣	ألب أرسلان : عضد الدين أبوشجاع	٤٥٥
١٠٧٣	ملكشاه : جلال الدين أبو الفتح	٤٦٥
١٠٩٢	محمود : ناصر الدين	٤٨٥
١٠٩٤	بركياروق : ركن الدين أبو المظفر	٤٨٧
١١٠٤	ملكشاه الثاني	٤٩٨
١١٠٤	محمد : غياث الدين أبو شجاع	٤٩٨
١١١٧-١١٥٧	سنجر معز الدين أبو الحارث	٥١١-٥٥٢

(١) البتداری : تاریخ دولة آل سلجوق ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٢) محمود بن ملكشاه (٤٨٥ - ٤٨٧ هـ)

وقد ظهر في عهد سنجر كثير من مشهورى العلماء والأدباء . وقد ألف كثير من هؤلاء باللغة العربية أو بالفارسية أو بالفارسية والعربية معاً . ومن ألف بالعربية الفرا بغوى والزخشرى فى التفسير واللغة وأصول الدين والإمام أبو حامد الغزالي فى علم الكلام ، والقشبرى فى التصوف . وألف فى اللغة الزوزنى والتبريزى والجوالقى والميدانى مؤلف الامثال . ومن الشعراء الأبيوردى والطغرائى صاحب لامية العرب . ومن اشتهر بالنثر الحريرى صاحب المقامات . ومن المؤرخين ابن مَنْدَةَ مؤرخ أصهبان ، كما ظهر فى هذا العصر من الجغرافيين أبو زيد البلخى ، وكذلك اشتهر عصر سنجر بظهور كثير من كتاب الفرس الذين اشتهروا بالشعر والنثر ، كما ظهر فى ذلك العصر كثير من المؤلفات الهامة التى وضعت بالعربية فى فارس . ومن مشهورى الشعراء فى ذلك العصر الشيخ فريد الدين العطار (ت ١١٢٠/٥١٤) ونظامى الجَنْجِجِى (ت ١١٤٠) وعمر الخيام (ت ١١٢١/٥١٥ - ١١٢٢) والأزرقى (١١٣٠/٥٢٦) ومسعود بن سعد (١١٣١/٥٢٦) وأديب صابر (١١٤٣/٥٧٨ - ١١٤٤) ومُعِزِّى (١١٤٧/٥٤٢ - ١١٤٨) وعمق (بفتح حرفى العين وسكون القاف) البخارى (١١٤٨/٥٤٣ - ١١٤٩) ، كما ظهر الصناعى ، ونظامى عروضى السمرقندى ، والأنورى ، ورشيد الدين وطواط ، والشوزنى شاعر الفكاهة وطائفة أخرى أقل أهمية من المغنين .

أما عن كتب النثر التى ظهرت فى هذا العصر فنذكر من بينها على سبيل المثال هذه الموسوعة الطبية « ذخيرت - خوارزمشاهى » (١١١٠/٥٠٤) وترجمة كليلة ودمنة التى وضعها نصر الله بن عبد الحميد (١١٤٣/٥٣٨ - ١١٤٤) ومقامات القاضى حميد الدين أبو بكر البلخى (١١٦٠/٥٥٧) وجهار مقاله لنظامى عروضى السمرقندى (حول هذا الوقت تقريباً) وتعد من أهم ما كتب فى هذا العصر .

وقد ترك ملكشاه عند وفاته عدة أولاد اشتهر منهم أربعة هم : بركياروق وكان فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره ، ومحمد وكان أصغر من بركياروق بستة أشهر ، وسنجر وكان فى الثامنة من عمره ، ومحمود وكان طفلاً لم يتاهز الرابعة من العمر ، وكان بركياروق بن زبيدة التى تنتمى إلى البيت السلجوقى بأصهبان (١) .

(١) Browne II, pp. 298-299.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٧٩ - ٨٠ .

أما محمود فقد كانت أمه « ترُكان خاتون » التي اشتهرت بذكائها ودهائها ونفوذها تقيم مع ابنها للصغير في بغداد . وقد اتخذت من مواهبها وكثرة أعوانها ووجودها إلى جانب الخليفة العباسي في بغداد سيلاً إلى تولية ابنها محمود السلطنة ، إذ كتبت خبر وفاة زوجها ملكشاه وأرسلت إلى أمراء الدولة سرّاً تطلب إليهم البيعة لابنها الصغير ورغبتهم بالمال ، فبايعوه . كما أرسلت إلى الخليفة المقتدى تطلب إليه إقرار ابنها في السلطنة ، فامتنع أول الأمر لصغر سنه ، ولكنه عاد فلبى طلب ترُكان خاتون وأقر محموداً في السلطنة ولقبه « ناصر الدنيا والدين » . وقد استعانت ترُكان خاتون في تحقيق رغبتها بابن الخليفة (جعفر بن ماه — مالك أخت ملكشاه) وتدير وزيرها تاج الملك الذي قام بنوع من الوصاية على ابنها الصغير ، لأن الشرع لا يجيز ولايته في هذه السن ، كما أفتى بذلك الإمام الغزالي . وقد ذكر اسم السلطان الجديد في الخطبة على منابر بغداد في يوم الجمعة ٢٢ شوال سنة ٤٨٥ هـ كما خطب له في الحرمين الشريفين<sup>(١)</sup> .

وقد خشيت ترُكان خاتون أن ينازع بركياروق أكبر أبناء ملكشاه أخاه الصغير محمود في السلطنة ، فأرسلت الأمير بقاً إلى أصبهان ، فوصل إليها بعد أسبوع من مغادرته بغداد وقبض على بركياروق وأثار بذلك مخاوف أمه زبيدة . ولكن أحد أولاد نظام الملك أخرجه من السجن في جنح الظلام وحمله إلى ساوة (بفتح الواو) وآبا والرى ونصبه مسلماً على هذه البلاد . وكان بركياروق دون الثالثة عشرة من عمره حتى إنه لم يكن من السهل أن تحمل رأسه الصغيرة تاجه المنقل بالجواهر .

ويذكرنا هذا بتلك الاسطورة التي أخذها عن ابن هشام براون<sup>(٢)</sup> في صدد كلامه على عظمة آل ساسان الملكية واعتلائهم العرش حيث يقول : « وكان كسرى يجلس في إيوان مجلسه الذي به تاجه ، وكان تاجه من القنقل<sup>(٣)</sup> العظيم فيما يزعمون ، يضرب فيه الياقوت واللؤلؤ والزبرجد بالذهب والفضة ، معلقاً بسلسلة من ذهب في رأس طاقة في مجلسه ذلك . وكانت عنقه لا تحمل تاجه ، إنما يُستر عليه بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك .

(١) كانت زبيدة ابنة ياقوت بن داود وابنة عم السلطان ملكشاه :

(٢) Vol. I, p. 128 نقلًا عن ابن هشام (طبعة وستنفلد) ج ١ ص ٤٢ ، انظر تاريخ

الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٦٣١ — ٦٣٢ .

(٣) بضم القافين وسكون النون : الخوذة العظيمة .

ثم يدخل رأسه في تاجه ، فإذا استوى في مجلسه كشفت عنه الثياب ، فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلا سجد هيبة له .

وقد دارت الحروب بين جند السلطان محمود تؤيدهم أمه تركمان خاتون والوزير تاج الملك وجند بركياروق تؤيدهم أمه زبيدة وأبناء الوزير نظام الملك وبعض الأمراء الذين انحازوا إلى جيش بركياروق ، وخاصة يلبرد وكمشتكين ، وحلت الهزيمة بجند محمود فعادوا إلى أصبهان ، وسار جند بركياروق في إثرهم وحاصروهم فيها ، ثم عدل بركياروق عن الحصار مقابل خمسمائة ألف دينار وعاد إلى همدان . وقد انتهز أنصار الوزير نظام الملك هذه الفرصة فأخذوا بتأريه إذ قتلوا الوزير تاج الملك في المحرم سنة ٤٨٦ هـ ، للملائكة على قتل نظام الملك طمعاً في الوزارة ، فقلد بركياروق عز الدولة بن نظام الملك الوزارة وفوض إليه أمور دولته<sup>(١)</sup> .

### (٣) بركياروق بن ملكشاه (٤٨٧ - ٤٩٨ / ١٠٩٤ - ١١٠٤)

على أن ترکان خاتون (أم محمود) عادت تدبر الدسائس ضد بركياروق ، ولما وصل إلى غايتها أوعزت إلى الملك إسماعيل بمهاجمة ابن أخته بركياروق ووعدته بالزواج منه إذا هو قام بهذا العمل (٤٨٦ - ١٠٩٣) . ولكن الهزيمة حلت بإسماعيل . وفي ٣ فبراير سنة ١٠٩٤ (١٤ المحرم سنة ٤٨٧ هـ) نودي ببركياروق سلطاناً ببغداد . وفي اليوم التالي لتولية بركياروق السلطنة توفي الخليفة المقتدى فجاء وخلفه ابنه المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) . وقد أطرى ابن الأثير<sup>(٢)</sup> والسيوطي<sup>(٣)</sup> المقتدى فذكر من محاسنه أنه أمر بنفي المغنيات والبنات اللاهيات من بغداد ، وأمر الناس ألا يدخلوا الحمام إلا بمنزراً ، وخرّب أبراج الحمام ومنع اللعب بها منعاً للبقامة . كما منع جريان ماء الحمامات إلى نهر دجلة محافظة على نقاء ماء هذا النهر وصحة الناس . كما ألزم أصحاب الحمامات بحفر آبار خاصة للبياه المستعملة ومنع الملاحين من أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين . وكان المقتدى أحسن خلفاء بني العباس قوة نفس وعلو همة<sup>(٤)</sup> .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٨٠ - ٨١ .

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٨٥ - ٨٦ :

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٨٠

(٤) ذكر ابن خلكان (ج ٤ ص ٣٧٥) أن السلطان ملكشاه أوجس خيفة من تدخل الخليفة =

ولكن سرعان ما قام « تنش » بثورة أشد خطراً مما تقدمها من الثورات وهزم ابن أخيه بركياروق وحمله إلى أصهان حيث سجن . ومع أن السلطان محمود استقبل أخاه الأكبر بركياروق بمظاهر العطف والرعاية ، فقد حبس الأمير « أنزو بلسكا » بركياروق وصمم على أن يجعله غير صالح للحكم بسمل عينيه .

وكان من حسن حظ بركياروق أن مرض أخوه محمود بالجدري ومات في خلال أسبوع قبل أن يقوم الأمير « أنزو — بلسكا » بتنفيذ خطته القاسية فأجلس بركياروق على كرسي السلطنة من جديد ، وانتهت دسائس ترکان خاتون أم محمود التي قتلت في خريف سنة ١٠٩٤ م (٤٨٧ هـ) . وقد ساعد موتها على تهدئة الأحوال . ثم مرض بركياروق بالجدري بعد أخيه ولكنه برى منه . وقد استمال مؤيد الملك وزير بركياروق أمراء السلاجقة في العراق وخراسان إليه فعظم شأن بركياروق وكثر جنده<sup>(١)</sup> . وفي السنة الثالثة هزم بركياروق عمه تنش وقتله ، كما قتل عمه الآخر أرسلان أرغون الذي ثار عليه بخراسان فقتل على يد أحد غلمانه في مرو (٤٩٠ هـ) ، ونجا بركياروق نفسه من الموت بأعجوبة إذ أصابه رجل من الباطنية بطعنة كادت أن تؤدى بحياته ، ثم استولى بركياروق وبصحبته أخوه سنجر على خراسان بعد موت عمه أرسلان أرغون ونصب أخاه سنجر ملكاً عليها سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) ، وأسند وزارته إلى أبي الفتح علي بن الحسين الطغراني الشاعر المشهور . وبينما كان بركياروق بخراسان خرج عليه محمد ابن سليمان ويعرف بأمرير أميران ( وهو ابن عم ملكشاه ) ، وقد توجه إلى بلخ ، ولكن سنجر أخا بركياروق أحل به الهزيمة وأسره وحمله إلى خراسان وسمل عينيه . وفي هذه السنة قامت الدولة الخوارزمية على يد قطب الدين محمد بن أنو شتكين<sup>(٢)</sup> .

---

المقتدى في شئون الحكم ، فعلى على إبعاده عن حاضرة الدولة وأمره بالرحيل إلى البصرة ، بل إنه لقب نفسه بلقب أمير المؤمنين . ذلك اللقب الذي لم يطلق إلا على الخلفاء أنفسهم ، بل إنه حمل الخليفة على أن يخلع أكبر أبنائه وهو المستظهر وأن يعهد لابنه الأصغر جعفر بن بنت السلطان ألب أرسلان ويسلم إليه البلاد ويخرج هو إلى البصرة . على أن السلطان مرض في تلك الأيام ومات ، وكفى الخليفة شر هذا السلطان .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٨٧ . ابن خلكان ج ١ ص ٢٤٢ .

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٩١ ، ٩٢ .

وبعد أن جعل بركياروق أخاه سنجر ملكاً على خراسان عاد إلى العراق<sup>(١)</sup> .  
ولكن في سنة ٤٩٣ هـ ( ١٠٩٩ م ) هدد نفوذه أخوه محمد الذي قام في وجهه مطالباً  
بالسلطنة بتأييد مؤيد الملك بن نظام الملك<sup>(٢)</sup> .

وكان مؤيد الملك من أكفأ أبناء نظام الملك . وقد أصبح للسلطان بركياروق  
عدواً لاثنين قنانه بعد عزله إياه من الوزارة . وتأثير مؤيد الملك قلد الخليفة المستظهر  
( ٤٨٧ — ٥١٢ هـ ) محمداً بن ملكشاه السلطنة بدل أخيه بركياروق ولقبه « غياث  
الدنيا والدين » وخطب له على منابر بغداد ( ١٤ رجب سنة ٤٩٣ هـ ) . وقد طالت  
الحروب بين محمد وأخيه بركياروق نحواً من خمس سنين ( ٤٩٢ — ٤٩٧ هـ ) ، ودارت  
بينهما خمس معارك طاحنة انتهت بانتصار بركياروق على أخيه محمد ، وأرسل إليه  
الخليفة ، على ما جرت به العادة في ذلك العصر ، خلع السلطنة وأقيمت له الخطبة في بغداد  
( ٤٩٧ هـ )<sup>(٣)</sup> .

وفي هذه الفترة بدأ الصليبيون حملاتهم على البلاد الإسلامية . وقد دخل بركيارون  
بغداد ، ومد هو وأصحابه أيديهم إلى أموال الناس ، فخرج عن طاعته صدقة بن مزيد صاحب  
الحلة وقطع الخطبة له في بلاده وخطب لأخيه محمد . وقيل إن وزير السلطان بركياروق  
أرسل إلى صدقة يطالبه بإداء مليون دينار كانت مستحقة لبيت المال عدا الإتاوة التي  
لم تؤد عن السنين السابقة وهدده بأخذ بلاده فلم يأبه صدقة به ، فأرسل إليه بركياروق  
جنداً طرده من بلاده . وفي هذه السنة أمر بركياروق بقتل الباطنية في فارس<sup>(٤)</sup> .

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٩٨ — ٩٩ .

وفي هذه السنة دارت الحرب بين رضوان وأخيه دقاق صاحب دمشق ابني تتش بن ألب أرسلان ثم تم  
بينهما الاتفاق على أن يخطب لرضوان بدمشق قبل دقاق وكذلك بأطناكية .

(٢) كان بركياروق ( ٤٨٧ — ٤٩٨ هـ ) قد عزل مؤيد الملك بن الوزير نظام الملك عن  
الوزارة وأسندها إلى عز الملك ( أخى الوزير المخلوع ) . وكان بين هذين الأخوين خلاف على ثروة  
أبيهما وتنافس على الوزارة .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٤) انظر ما ذكره ابن الأثير ( ج ١٠ ص ١١٦ — ١٢٠ ، ١٢٤ ) عن الإسماعيلية

أو الباطنية في فارس .



اجتمع محمد بأخيه سنجر ( وهما لأم واحدة ) في جرجان ، والتقى به إيلغازي بن أرتق وأحسن خدمته . ثم سار محمد إلى بغداد واستقر بدار السلطنة ، فاستبشر الناس بقدمه وخرجوا للقاءه ، وعبر الخليفة عن سروره لإسائة بركياروق وجنده إلى أهل بغداد<sup>(١)</sup> .

على أن الهدوء لم يسد بغداد برحيل بركياروق عنها ودخول أخيه محمد إليها . فقد رحل السلطان محمد وأخوه سنجر عن بغداد مرة أخرى عائدين إلى بلادهما : فقصد الأول همدان وبم الثماني شطر خراسان . وقد سمع الخليفة أن بركياروق قد تناوله بما يسيئه فاستقدم أخاه محمداً ، وكان في واسط ، إلى بغداد فلحق أخاه بركياروق ودارت الحرب بينهما ، وعانى كل من الجندين كثيراً من شدة البرد وهطول الأمطار وقطع الجسور وهدم القناطر وانتشار الفساد ونهب الأموال وسفك الدماء وتخريب البلاد ، واستولى الممل على النفوس وتطرق الوهن إلى القلوب وتعرضت السلطنة للغزو الخارجي . وقد تدخل العقلاء بين الأخوين وأخذت عليهما العهد والمواثيق بأن يجنحا إلى السلم ويكفيا عن الحرب . وبذلك تم الصلح بينهما على أن يكون بركياروق السلطان ومحمد الملك ، وأن يضرب محمد البوق ثلاث مرات في اليوم وأن يكون له حكم « جيزه » وأعمالها وأذربيجان وديار بكر والجزيرة والموصل ، وأن يمده السلطان بركياروق بالجنود ليفتح ما يستعصى عليه من البلاد ، وتعهد كل منهما باحترام هذه المواثيق ، وبذلك انصرف بركياروق قاصداً « ساوة » وانصرف محمد قاصداً « أسد آباد » ، وقصد كل أمير إقطاعه ، وأرسل الخليفة العباسي خلع السلطنة إلى بركياروق وأقيمت له الخطبة ببغداد . على أن الحرب لم تلبث أن عادت سيرتها الأولى بين بركياروق ومحمد ( ٤٩٥ هـ / ١١٠١ - ١١٠٢ م )<sup>(٢)</sup> .

طالت الحروب بين بركياروق وأخيه محمداً أكثر من خمس سنين دارت بينهما فيها معارك طاحنة قبل أن يتم الصلح بينهما قبل وفاة بركياروق بنحو سنتين ، ثم عقد الصلح بينهما من جديد ، لأن « الحروب تطاولت بينهما وعم الفساد ، فصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة والسلطنة مطمورا فيها محكوما عليها ، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين . وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١١٣ - ١١٥ .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٢٢ - ١٢٣ .

ليدوم تحكّمهم وانبساطهم وإدلالهم . وكان السلطان بركياروق حينئذ بالرى والخطبة له بها وبالجيل وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة وبالخرميين الشريفين . وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له فيه وبيلاذ أرانية وأرمينية وأصبهان والعراق كلها ماعدا نكرت ، وأما أعمال البطائح فيخطب ببعضها لبركياروق وبعضها لمحمد . وأما البصرة فكان يخطب فيها لهما جميعاً . وأما خراسان فإن السلطان كان يخطب له في جميعها ، وهي من حدود جرجان إلى بلاد ماراه النهر ولأخيه السلطان محمد .

وقد اضطر السلطان بركياروق إلى الصلح مع أخيه ، ولانعدام المال مخزنته وازدياد طمع جنده فيه ، فأرسل الرسل إلى أخيه محمد فأجابته إلى ذلك وتم الصلح بينهما على :

- (١) ألا يعترض بركياروق على ضرب الطبول على دار محمد .
- (٢) ألا يذكر اسم بركياروق بجانب اسم محمد في الخطبة في البلاد التي يحكمها .
- (٣) أن يكون الاتصال بينهما عن طريق الوزراء .
- (٤) ألا يتعرض أحد العسكريين لمسكر الآخر في داخل حدود كل منهما .
- (٥) أن يكون من نصيب محمد البلاد الممتدة باسبيندروذ إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام والبلاد التي كانت تحت حكم سيف الدولة بالعراق (١) .

ولما وصلت رسل السلطان بركياروق إلى بغداد تحمل إلى الخليفة المستظهر شروط الصلح بين الأخوين ، أقيمت الخطبة لبركياروق ببغداد في ١٩ جمادى الأولى سنة ٤٩٧ هـ (٢) .

ولم يكده الحظ يبسم لبركياروق حتى اشتد به المرض . ولما أحس بدنو أجله بايع ابنه ملكشاه الثاني ومات في شهر ربيع الثاني سنة ٤٩٨ هـ (١٠٩٤ م) وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، بعد أن ظل في السلطنة اثنتي عشرة سنة وأربعة أشهر .

(١) يعني تحت حكم صدقة بن مزيد وكان يملك الحلة ويلقب سيف الدولة . وقد دخل تحت نفوذه الحلة والبصرة وواسط وكان يلقب أيضاً ملك العرب ، لأن العرب وغيرهم كانوا يستجرون به من السلطان أو الخليفة أو غيرهما . وكان صدقه نفسه يقول أنا ملك العرب (ابن الأثير ج ١٠ ص ١٦٥ ، ١٦٩) انظر ابن الأثير ج ١٠ ص ١٣٧ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٣٨ — ١٣٩ .

ولاريب أن الحروب التي طالت بين الأخوين واختلاف الأحوال من الرخاء إلى الشدة ومن السلطنة إلى الملك قد أثرت في صحة بركياروق وأنهكت قواه مع حداثة سنه . ولم يقنه استقرار الأحوال بعد إبرام الصلح الأخير مع أخيه محمد وانقياد المخالفين إليه ، عن ملاقاته الأجل المحتوم ؛ فأدرسته منيته في بروجرد ( بضم الباء وكسر الجيم ) . وكان بركياروق ، كما وصفه ابن خلكان<sup>(١)</sup> ، « مسعوداً على الهمة لم يكن فيه عيب سوى ملازمته للشراب والإدمان عليه » .

(٤) محمد بن ملكشاه ٤٩٨ - ٥١١ / ١١٠٤ - ١١١٧

أقيمت الخطبة للملكشاه الثاني بن بركياروق عقب موت أبيه ، ولم يكن قد بلغ الخامسة من عمره ، وخطب له على المنابر ، ولقبه الخليفة جلال الدولة ، وهو لقب جده ملكشاه ، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٤٨٧ هـ . ولم يكد هذا الطفل يستقر على عرش السلطنة أسابيع أو أشهراً قليلة حتى عزل وسمت عيناه على ما جرت به العادة في ذلك العصر<sup>(٢)</sup> . وبذلك صفا الجو لمحمد بن ملكشاه ، فقلده الخليفة المستظهر ( ٤٨٧ - ٥١٢ / ١٠٩٤ - ١١١٨ ) من جديد ، ولقبه غياث الدين ، وعظمت هيئته وكثرت جيوشه وأمواله ، ولم يبق له منازع ، وأصبح الحاكم الفعلي للولايات الفارسية زهاء ثلاث عشرة سنة ( ٤٩٨ - ٥١١ / ١١٠٥ - ١١١٨ ) بذل خلالها جهداً كبيراً في القضاء على قوة الباطنية المزبادة إذ قتل عبد الملك بن عطاش صاحب قلعة أصهبان<sup>(٣)</sup> ، وفيما عدا ذلك لم يقع في عهد السلطان محمد ما يستحق الذكر سوى مناوأة ابن أخيه إياز الذي حاول خلعه وتقلد السلطنة مكانه . وعلى الرغم من إبرام الصلح بينهما ، لم يفتر إياز عن مناوأة السلطان محمد ودبر مؤامرة لقتله ، ولكن أمر هذه المؤامرة قد كشف واغتيل إياز عند دخوله قصر السلطنة<sup>(٤)</sup> . أضف إلى ذلك هذه الحملة التي شنّها السلطان محمد على الأمير صدقة بن مزيد ( بفتح الميم والياء وسكون الزاي ) صاحب الحملة والبصرة وواسط الذي انضم إلى الأمير إياز واستولى على البصرة ( ٤٩٩ هـ ) ثم على قلعة تكريت<sup>(٥)</sup> وزادت

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٤٢ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٤ .

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٦١ - ١٦٣ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٤٤ - ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٠ - ١٥١ ، ١٥٤ .

الدهشة بين صدقة والسلطان محمد وخشى كل منهما الآخر وامتنع صدقة عن الاجتماع بالسلطان وتوسط الخليفة المستظهر في إصلاح ذات البين بينهما ، وسار صدقة بن مزيد من الحلة إلى بغداد على رأس خمسين ألف عربي ، فأرسل الخليفة الرسل والكتب إلى أصحابان مستنجداً بالسلطان محمد بن ملكشاه الذي استشار المنجمين ، فأشار عليه أحدهم بحرب صدقة<sup>(١)</sup> ، وأنشبت الحرب بين جند صدقة بن مزيد وجند السلطان محمد وحلت الهزيمة بالسلاجقة وأسر كثير من جندهم ووقع الاضطراب في صفوفهم ، ولم تكن محاولات الخليفة في إقرار الصلح بينهما ، ثم عاد السلاجقة فجمعوا صفوفهم وحملوا على جند صدقة وهزموه هزيمة منكرة . وقد ضرب أحد جند الأتراك صدقة على وجهه فشوهه وأصابه آخر بسهم في ظهره وتعلق به غلام جُذبه عن فرسه ، فسقط إلى الأرض فضربه الغلام بالسيف فقتله ، وحمل رأسه إلى السلطان ودفن وهو في التاسعة والخمسين من عمره بعد أن ظل في الإمارة إحدى وعشرين سنة ، وقتل من أصحابه أكثر من ثلاثة آلاف فارس بينهم جماعة من أهل بيته وأسر ابنه ديبس بن صدقة ، وهرب ابنه الآخر بدران ابن صدقة إلى الحلة وأخذ ما لا يحصى من الأموال ، كما استولى على آلاف الكتب ، وذلك سنة ٥٠١ (١١٠٧ م)<sup>(٢)</sup> .

ويقترن هذا النصر بهذه القصة العجيبة الخاصة بمعرفة الطالع على أيدي المنجمين على ما ورد في كتاب «جهاز مقاله»<sup>(٣)</sup> (المقالات الأربع) تأليف النظامي العروضي السمرقندي الذي ترجمه الأستاذ إدوارد براون إلى الإنجليزية وتكلم عنه في الجمعية الآسيوية الملكية بإنجلترا سنة ١٩٠٢ (ص ٦٠٥)<sup>(٤)</sup> .

(١) النظامي العروضي السمرقندي : جهاز مقاله ، ترجمه عزام والمصاحب ( القاهرة ١٣٦٨ / ١٩٤٩ ) ص ٧١ — ٧٢ .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٦٥ ١٦٩ .

(٣) Anecdote XXIX ( pp. 102 — 104 ) . Browne, II, p. 302 (1) .

(٤) وقد ذكر السمرقندي ( ترجمه ص ٧١ — ٧٢ ) أن هذا المنجم لم يكن واسع العلم وأن الحمر قد لعبت بلبه فيما بعد فقال لأحد ندماء الساطان : « لاني علمت أن الأمر لا يعدو واحدا من اثنين إما أن يهزم هذا الجيش أو ذلك ، فإن هزم ذلك الجيش لقيت التشریف ، وإن حلت بهذا الجيش الهزيمة فن ذابىالي بي ؟ ولما علم السلطان بذلك أمر بطرد هذا المنجم الغزنوي .

كان صدقة بن مزبد ، على ما وصفه ابن الأثير<sup>(١)</sup> ، « جواداً حليماً صدوقاً ، كثير البر والإحسان ، ما برح ملجأ لكل ملهوف ، يلقي من يقصده بالبر والتفضل ، ويبسط قاصديه ويزورهم . وكان عادلاً ، والرعايا معه في أمن ودعة . وكان عفيفاً لم يتزوج على امرأته ولا تسمى عليها ، فما ظنك بغير هذا . ولم يصادر أحداً من نوابه ولا أخذهم بإساءة قديمة . وكان أصحابه يودعون أموالهم في خزائنه ، ويدلون عليه لإدلال الولد على الوالد . ولم يسمع برعية أحب أميرها كحب رعيته له . وكان متواضعاً . . . يحفظ الأشعار ويبادر إلى النادرة رحمة الله ، لقد كان من عاسن الدنيا<sup>(٢)</sup> . »

عاد السلطان محمد إلى بغداد سنة ٥٠١ هـ ورفع الضرائب والمكوس وغيرها بعد أن شكا منها أهل بغداد<sup>(٣)</sup> . وبعد خمسة أشهر عزم على الخروج من بغداد والعودة إلى أصهان . وفي سنة ٥٠٢ هـ استولى السلاجقة بقيادة مودود على مدينة الموصل وكان الجاولي قد استولى عليها قبل ذلك بستين . واستمرت الحروب بين السلاجقة بقيادة مودود صاحب الموصل وطغتكين صاحب دمشق وإياز بن إيلغازي وغيرهم وبين بلدوين ملك بيت المقدس . وأسر بلدوين في طبرية بعد معركة طاحنة ، ثم سار الأمير آقسنقر البرسقي (والد عماد الدين زنكي) وكان السلطان محمد قد ولاء الموصل بعد قتل مودود<sup>(٤)</sup> ، ومعه مسعود بن محمد فعبرا الفرات ودارت بينهما وبين الفرنجة عدة معارك انتهت بانتصار الفرنجة . كما دارت الحروب بين أمراء السلاجقة أنفسهم .

### صفات محمد بن ملكشاه — وأخلاقه — وفاته

كان السلطان محمد عادلاً حسن السيرة شجاعاً ، وبما يدل على عدله أن خازن بيت ماله قتل على أيدي الباطنية ، فأمر السلطان بعرض ماني خزانته من مال وجواهر . وكان بهذه الخزانة درج به كثير من نفيس الجواهر ، فأقر السلطان بأن الخازن عرض عليه هذا الدرج قبل موته بأيام وأعلمه أن أصحابه وكانوا تجاراً غرباء قد حفظوه عنده ، فأمر السلطان

(١) ج ١٠ ص ١٦٩ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٤ .

(٣) قتل مودود سنة ٥٠٧ هـ على يد أحد الباطنية بعد أن أدى صلاة الجمعة بالجامع الأموي بدمشق ،

وقيل إن طغتكين صاحب دمشق هو الذي دبر مؤامرة لقتل مودود . ابن الأثير ج ١٠ ص ١٨٧ .

أحد غلماناه بأن يحتفظ بهذه الجواهر ويسأل عن أصحابها وقد أيقنوا من ضياعها وبشوا من الحصول عليها . ولما أحضرهم الخادم سلم السلطان محمد إليهم الجواهر (١) .

كان السلطان محمد بن ملكشاه ، على ما وصفه ابن خلكان (٢) ، « رجل الملوك السلجوقية وغلهم ، وله الآثار الجميلة والسيرة الحسنة والمعدلة الشاملة ، والبر للفقراء والأيتام والحرب للطائفة المملوكة (يعنى الباطنية) ، والنظر في أمور الرعية » .

وقد أورد ابن خلكان (٣) أن الإمام أبا حامد الغزالي نصح للسلطان محمد بن ملكشاه بأن يتحلى بحميد الصفات ومكارم الأخلاق وأن يعلم أنه يقدر عناية الإنسان بهذه الحياة الدنيا ، ينبغي أن يعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة وأنه يجب أن يفكر في الوقت نفسه في هذه الحياة الآخرة ، لأن الإنسان مهما امتد به الأجل لابد صائر إلى هذا المصير المحتوم ، فيقول : « اعلم يا سلطان العالم أن بني آدم طائفتان : طائفة غفلاء (غافلون) نظروا إلى شاهد حال الدنيا وتمسكوا بتأميل العمر الطويل ولم يتذكروا في اليقين الأخير ، وطائفة عقلاء جعلوا اليقين الأخير نصب أعينهم لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم ، وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها وإيمانهم سالم ، وما الذي ينزل من الدنيا في قبورهم ، وما الذي يتركون لأعدائهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله » .

مرض السلطان محمد بن ملكشاه . ولما اشتد به المرض وشعر بدنوا أجله أحضر ابنه محموداً وقبله وبكى كل منهما وأمره أن يجلس على عرش السلطنة وينظر في أمور الناس . وكان إذ ذاك في الرابعة عشرة من عمره ، وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر ذى الحجة سنة ٥١١ هـ مات السلطان محمد بمدينة أصبهان ، وكان في السابعة والثلاثين من عمره (٤) . وخطب لابنه محمود بالسلطنة في اليوم التالي .

### (٥) محمود بن محمد بن ملكشاه ٥١١ - ٥٢٥ - ١١١٧ / ١١٣١

كان محمود في الرابعة عشرة من عمره حين جلس على عرش السلطنة كما تقدم ، وخطب له بأصبهان في ٢٥ ذى الحجة سنة ٥١١ هـ ويغداد في ١٣ المحرم سنة ٥١٢ هـ . وفي شهر

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٩٨ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٤ .

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٦٤ .

(٤) خطب للسلطان محمد بالسلطنة ببغداد أول مرة في شهر ذى الحجة سنة ٤٩٢ هـ وقطعت خطبته

ربيع الثاني من هذه السنة توفي الخليفة المستظهر بعد أن ولى الخلافة أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً . وكانت أيام هذا الخليفة ، كما يقول ابن الأثير ، أيام سرور للرعية ، فكانتها من حسنها أعياد . وكان عزيز العلم حسن الخط ، يحب الخير ولا يميل إلى أذى الناس<sup>(١)</sup> ، وقد خلف المستظهر ابنه المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ ١١١٨ - ١١٣٥) .

وفي عهد السلطان محمود شق أخوه طغرل صاحب ساوة وآوة وزنجان عصا الطاعة عليه سنة ٥١٣ هـ (١١١٩ م) وزادت الوحشة بينهما . وفي هذه السنة دخل محمود في حرب دامية مع عمه سنجر لأنه خشى أن يغلب على دولته . وكان سنجر كما وصفه البنداري<sup>(٢)</sup> « السلطان الأعظم عماد آل سلجق ، وسلطنته ببلاد خراسان إلى العراق إلى ما وراء الهر إلى غزنة وخوارزم والترك ، قد عمت ونمت ، ودولته قد علت وسمت ، وهو شيخ البيت وعظيمه وحافظ عزه ومدبده » .

ويظهر أن محموداً هو الذي بدأ بالدوان ، فقد أرسل إلى والى سمرقند كتاباً يقول فيه إنه عزم على المسير بجيوشه ميمماً شطر بلاد عمه سنجر ويطلب إلى هذا الوالى أن يقاجه . عمه سنجر وهو بجيوشه من خلفه ، وبذلك تقع جيوش عمه بين طرفي السكاشة . كما طلب مساعدة ملك العرب ديبس بن صدقة وغيره من الأمراء ، ولما علم سنجر بما دبره له ابن أخيه عزم على قصد بلاد الجبل والعراق والاستيلاء على ما بيد محمود ، لصغر سنه واستئثار وزيره وحاجبه بالحكم . وقد وصل جيش السلطان محمود إلى الرى وأصبحت مقدمة جيش سنجر على مقربة منها . وبعث الأمير على بن عمر إلى سنجر يذكره بوصية أبيه السلطان محمد لابنه محمود بتعظيم عمه سنجر والرجوع إلى رأيه وتنفيذ أمره على أن يحافظ سنجر على السلطنة لولده<sup>(٣)</sup> .

على أن جهود الأمراء الذين تدخلوا في الصلح لم تحل دون احتدام القتال بين الفريقين ، واستهان محمود بعسكر عمه واطمأن إلى كثرة خيله وشجاعة عسكره ، وحلت الهزيمة بميمنة سنجر وميسرته واضطرب أمر جيشه وارتدوا على أعقابهم . واسكن سنجر صمد على القتال وأطلق مامعه من الفيلة نحو جيش محمود ، فتراجعت خيله بأصحابها ، وأشفق سنجر على

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٠٣ .

(٢) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١١٠

(٣) المصدر نفسه ص ١١١ .

السلطان الصغير وقال لأصحابه: «لانفزعوا الصبي بحملات القبلة فكفوها عنهم». وحلت  
الهزيمة بالسلطان محمود وقطعت الخطبة له وأقيمت للسلطان سنجر في ٢٦ جمادى الأولى  
سنة ٥١٣ هـ .

سار محمود بعد أن حلت به الهزيمة إلى أصبهان ، وبم سنجر شطر همدان ، ورأى قلة  
عسكره ، فراسل ابن أخيه في الصلح . ولم تسكن هذه الهزيمة سيئة الأثر بالنسبة إلى السلطان  
الصغير ، لأن سنجر استمع إلى شفاعة أمه ، وكانت جدة السلطان محمود ، فأشارت  
عليه بالصلح (١) . فلتقى سنجر ابن أخيه بالقبول وعفا عن كبوته وجعله ولي عهده  
وقلده ولاية العراق التي حكمها نحواً من أربع عشرة سنة ، وزوجه من ابنته « ماه - ملك  
خاتون » التي ماتت بعد ذلك بقليل ( ٥٢٣ هـ ) ، وحزن أبوها على وفاتها حزناً عميقاً  
حتى إنه بعث في طلب الشاعر البخاري عممق ( بفتح العين الأولى والثانية وسكون الميم ) ،  
وكان قد تقدمت به السن ، لينظم قصيدة في رثائها (٢) .

وفي سنة ٥١٤ هـ خرج مسعود صاحب الموصل وأذربيجان على أخيه السلطان محمود .  
وقد عزا المؤرخون ذلك إلى أن بعض الأفراد وعلى رأسهم ديبس بن صدقة دعوا  
مسعوداً لطلب السلطنة وحلوه على مناجزة أخيه محمود ، وساعدهم على ذلك تفرق جنود  
محمود بعد انهزامه أمام جيوش عمه سنجر ، بل إنهم دعوا لمسعود بالسلطنة بأذربيجان  
والموصل والجزيرة ثمانية وعشرين يوماً ، وضربوا له الطبول التي تضرب للسلطين خمس  
مرات في اليوم . ولكن محموداً انتصر بمساعدة آقسنقر البرسقي على أخيه مسعود  
الذي هرب وتفرق أصحابه واختفى عن الأنظار . ولكن محموداً رق لحال أخيه  
وأرسل آقسنقر للبحث عنه . ولما عثر عليه أخبره بعفو أخيه عنه وأعادته إلى عسكره .  
وأمر السلطان بحسن استقباله والحفاوة به وأمنه وأحسن إليه (٣) . وقد كوفى الأمير  
آقسنقر بولاية مدينة الموصل وأعمالها وما ينضاف إليها كالجزيرة وسنجان وغيرها  
لاخلاصه للسلطان وحسن تدبيره وما أبلاه في حروبه مع أخيه مسعود والفرنجية  
وما أظهره من حسن السياسة في استمالة مسعود (٤) ، ثم زوجه أم مسعود وقلده ولاية

(١) ماتت خاتون جدة السلطان محمود بمرو سنة ٥١٥ هـ واحتفل بمجازتها وعزائها احتفالاً لم  
يشهد له مثيل .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٧ — ٢٠٨ . Browne, Vol. II, p. 303.

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢١٣ — ٢١٤ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .



بغداد وعهد إليه بقتال دبيس بن صدقة بن مزيد صاحب الحلة إذا تعرض للبلاد . وقد دارت بين جند السلطان وجند دُبَيْس بن صدقة حروب كثيرة ، كما خرج الخليفة المسترشد لخرابه بعد أن تسلم منه رسالة يهدده فيها بتخريب بغداد . وعبر الخليفة تهر دجلة وعليه قباء أسود وعمامة سوداء وطرحه ، وعلى كتفه البردة وفي يده القضيب وفي وسطه منطقه . وحلت الهزيمة بدبيس بن صدقة ، ولكنه عاد فاستولى على البصرة ثم غادرها والتحق بالفرنجية واشترك معهم في حصار حلب وأطمعهم في أخذها فلم يظفروا بها ، ثم فارقهم والتحق بالملك طغرل بن السلطان محمد وحسن له الاستيلاء على العراق سنة ٥١٩ (١) .

ويظهر أن خروج الخليفة المسترشد إلى حرب دبيس بن صدقة وقيادته الجيش بنفسه وما أحرزه من نصر وظفر عليه بسبب التفاف الجند حوله قد أثار مخاوف السلطان محمود حول ازدياد قوة الخليفة ، وأشار عليه بعض خاصته بالتوجه إلى بغداد ووضع حد لهذه المخاوف . ولما علم الخليفة بعزم السلطان محمود نصح له بأن يرجئ الذهاب إلى بغداد حتى تهدأ الأحوال بعد ما تعرضت له من ضعف بسبب حرب دبيس ، وما أصاب الأهاليين من وهن لاشتداد وطأة الغلاء وندرة الأقوات ، فحمل ذلك السلطان محموداً على الظن بأن نصيحة الخليفة إنما صدرت عن سوء نية ، فقوى عزمه على دخول بغداد ، وأبى الخليفة إلا أن يرحل عنها مع أولاده وأهل بيته ، وبكى الناس لخروجه وأرسل السلطان يستعطفه ويسأله العودة إلى داره . وتشبت الخليفة برأيه وأثار بذلك غضب السلطان ، ونشب القتال بين السلطان والخليفة فدارت الدائرة على جند الخليفة ودخل السلطان محمود بغداد في المحرم سنة ٥٢١ هـ ونهب عسكره دار الخلافة ودور بعض الأمراء . عند ذلك عبر الخليفة إلى الجانب الشرقي من بغداد على رأس ثلاثين ألف مقاتل وبدأ القتال . على أن خروج أبي الهيجاء مع عسكره من جيش الخليفة وانضمامه إلى جيش السلطان محمود ، ووصول عماد الدين زنكي صاحب واسط على رأس جيش كثيف وأسطول قوى لنصرة السلطان - كل ذلك قد أدخل اليأس إلى قلب الخليفة فنجح إلى السلم ، واعتذر له السلطان عما حدث وعفا عن أهل بغداد وأبى أن يحرقها كما أشار عليه بذلك أحد رجاله ، وأقام إلى ١٠ ربيع الثاني سنة ٥٢١ هـ وعاد إلى همدان ، ثم عاد إلى بغداد سنة ٥٢٣ هـ ، بعد

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

أن التقي بعمه سنجر ، ومعه ديبس بن صدقة لإصلاح ذات البين بين ديبس بن صدقة والخليفة . ثم عاد السلطان محمود إلى همدان ، ولكن « ديبس » عاد فخرج عن طاعة الخليفة المسترشد والسلطان محمود الذي بعث إليه جيشاً يتألف من عشرة آلاف فارس ، فغادر البصرة واختفى (١) .

وفي سنة ٥٢٤ هـ دعا بعض الأمراء مسعوداً من جرجان وحملوه على مناجزة أخيه السلطان محمود (٢) . وقد أثارته هذه الأنباء بخاوف السلطان فسار من بغداد إلى همدان . ولما وصل إلى كرمانشاه لقيه أخوه مسعود وتبددت بذلك الأراجيف بخروجه عليه ، فندبه السلطان للقيام ببعض المهام في أرانية ، وقيل إنه أقطع مدينة كنجة وأعمالها وسيره إليها ، فبقي بها حتى مات السلطان محمود (٣) .

### صفات محمود وأخلاقه - وفاته

لا ريب أن عهد السلطان محمود يتسم ببعض الأخطاء التي غلا البنداري فسماها مفساد وهي تلخص فيما يلي .

(١) إنه أثار في مسهل خلافته هذه الحرب ضد عمه سنجر مع اتساع نفوذه وبسطة سلطانه ووصية أبيه له بطاعته والعمل بشورته .

(٢) إنه شجع ملك العرب ديبس بن صدقة من مزيد وقربه إليه برغم حروبه المستمرة وتخريبه البلاد وطعمه الذي لا يحد ومناوأة الخليفة واستئالة الأمراء إليه عن طريق الرشوة مما ساعد على نشر الفساد في البلاد .

(٣) إنه أساء معاملة عامله بفارس وطالب الأهالي بالأموال ، مما أدى إلى قيام الوحشة بينهما وامتناع هذا العامل في إرسال المال وكان قد أعد لإرساله ، مما أدى إلى عصيانه على السلطان ، فاختل نظام هذه البلاد .

(٤) إنه أساء معاملة جماعة من أمراء مازندران وغيرهم كانوا بخدمة السلطان ، وكانوا

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٤٣ - ٢٤٥ ، ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٢) وقد قيل إن مسعوداً كان عند عمه سنجر بخراسان وإنه حمله على ذلك .

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٥٤ .

ينتسبون إلى الأكراد . وكان أبوه السلطان محمد قد تألفهم بإحسانه ، وأثار بذلك سخطهم فعادوا إلى بلادهم المنيعه وشنوا عصا الطاعة وجأهروا بالعصيان .

(٥) استيلاء أمراء السلاجقة على الأموال من الذهب والفضة والحلي والجواهر والآثاث والتحف وغيرها التي خلفها السلطان محمد ، حتى أصبحت بيوت الأموال خاوية على عروشها .

(٦) تشتت شمل ممالك السلطان وإضعاف شأنهم حتى لا يثارتوا حكمه أو يفكروا في الخروج عليه .

(٧) تشتت وزيره أبي القاسم الأنساباذي الدرگزيني الجنود التي كانت على حصار قلعة ألموت بعد أن أشرف هؤلاء الجنود على فتح هذه القلعة وتبع أهلها جند السلطان وقتلهم عدداً كبيراً منهم .

(٨) تولية الأمير سلجق أخى السلطان بلاد فارس بدل الأمير قيصر الذي هرب إلى خراسان وبث شكواه إلى الأمير سنجر .

(٩) أخذ رجال الحاشية بمالك السلطان الصغار وإخراجهم المغنيات من الجوارى والإماء من دار الحرم إلى دورهم ، وانقطاعهم إلى سماع غنائهم .

(١٠) تسلط الحاشية على السلطان واجترأؤهم عليه واتخاذهم من صغر سنه وقلة تجاربه سبيلاً للتأثير عليه (١) .

على أنه برغم هذه العيوب التي عددها البندارى كان السلطان محمود ، على ما وصفه ابن الأثير ، حليماً كريماً يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه ، مع القدرة ، قليل الطمع في أموال الرعايا عفيفاً عنها كافئاً لأصحابه عن التطرق إلى شيء منها (٢) . وذكر ابن خلكان (٣) أن محموداً كان متوقفاً الذكاء ملداً بالعربية ، حافظاً للأشعار والامثال ، عارفاً بالتواريخ والسير ، شديد الميل إلى أهل العلم والخير . وكانت السلطنة في أواخر أيامه قد ضعفت وقلت أموالها ، حتى لمهم عجزوا عن إقامة وظيفة صاحب الشراب ، فدفعوا له يوماً بعض صناديق خزانة المال الفارغة ، فباعها وأنفق ثمنها .

(١) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١١٠ - ١١٤ .

(٢) السكامل ج ١٠ ص ٢٥٥ .

(٣) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

أما ميل السلطان محمود إلى العفو فيتجلى من موقفه من أخيه طغرل الذي خرج عليه وإرساله الهدايا إليه ووعدته بزيادة إقطاعاته برغم عصيانه له وتشبته برأيه . كذلك نرى محموداً برغم انتصاره على أخيه مسعود يرق لحاله وبطيب له قلباً ويؤمنه ، كما يتجلى من موقفه من الخليفة المسترشد الذي عبر عن سخطه حين علم بعزم محمود على دخول بغداد وما كان من نشوب القتال بينهما وإلحاق الهزيمة بجند الخليفة — على الرغم من هذا نرى محموداً يستعطف الخليفة ويعتذر إليه ويعفو عن أهل بغداد الذين ناووه العداء وقاتلوه ولا يستمع إلى بعض خاصته الذين أشاروا بحرق بغداد حاضرة العباسيين ثم يعود إلى همدان بعد قليل ، ثم يعمل على إصلاح ذات البين بين ملك العرب صدقة ابن ديبس وبين الخليفة ، ثم يعفو للمرة الثانية عن أخيه مسعود الذي حمله بعض الأمراء على مناجزته طمعاً في السلطنة ثم يندبه للقيام ببعض المهام ويزيد من إقطاعه . ولعل من أبرز محاسن السلطان محمود هذه الحروب التي شنها على الصليبيين وعلى الباطنية وفتحها قلعة ألموت في فارس وقلعه بانياس في الشام ، وكانتا من أمنع معاقل هذه الطائفة التي تفاقم خطرهما وتطير شررها في ذلك العصر .

وفي رأينا أن هذه العيوب التي أخذها بعض المؤرخين على محمود إنما ترجع إلى حداثة سنه وقلة تجاربه مما أدى إلى طمع أمراء دولته في أموال الدولة واشتطاطهم في جمع الضرائب الفادحة التي أمقلت كاهل الناس فسكرهوا الحكم السلجوقي وتبرموا به . هذا إلى قيام المنافسة بين هؤلاء الأمراء وتفرق كلمتهم واستبدادهم بالامر . ولو مد الأجل بالسلطان وحنكته التجارب لكان له شأن آخر بين سلاطين السلاجقة .

وفي شهر شوال سنة ٥٢٥ هـ ( ١١٣١ م ) مات السلطان محمود بهمدان ، وخلف ابنه داود وخطب له في بلاد الجبل وأذربيجان . وكان محمود في السابعة والعشرين ومات بعد أن ولي السلطنة اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً .

(٦) مسعود بن محمد بن ملكشاه<sup>(١)</sup> ٥٢٧ — ٥٤٧/١١٣٢ — ١١٥٢ .

ولد مسعود بن محمد بن ملكشاه من حظية تسمى « نيسن » . وبعد وفاة السلطان محمد زوجها خلفه وابنه السلطان محمود من الأمير « منكوبرس » والى السلطان محمد بالعراق

(١) يفهم من هذا أن عمداً ومسعوداً لم يكونا من أم واحدة .

وعهد بتثنية ابنه مسعود إلى الأمير « مودود » صاحب الموصل . وقد اشتبك مودود هذا في عدة معارك انتصر فيها على الصليبيين . وفي شهر ربيع الآخر سنة ٥٠٧ هـ ، خرج مودود إلى المسجد الأموي وبده في يد طغتكين صاحب دمشق ، وبعد صلاة الجمعة ضرب رجل مودوداً ضربة قاتلة ، شمل إلى دار طغتكين الذي قيل إنه هو الذي دبر هذه المؤامرة لأنه خشي أن يتزعج مودود دمشق منه . ولما اتصل نبأ مقتل مودود بمسامع السلطان محمد عهد بتثنية ابنه مسعود إلى أتابك آق سنقر وأقطعه الموصل والجزيرة (١) .

وبعد وفاة السلطان محمود سنة ٥٢٥ هـ خطب لابنه داود بأذربيجان وبلاد الجبل . وقد دخل داود في حرب مع عمه مسعود الذي استولى على تبريز وتم الصلح بينهما في المحرم سنة ٥٢٦ هـ . ثم رحل مسعود إلى بغداد وأوفد وهو في طريقه إليها رسلاً إلى الخليفة العباسي المسترشد يطلب إليه إقامة الخطبة له . ولكن الخليفة رأى أن يرجع في هذا الأمر إلى سنجر ، وكان عميد البيت السلجوقي ، وأشار عليه بأن تكون الخطبة له وحده (٢) . وقد ظل أنصار سنجر أكثر من خمسة أشهر حتى وصل إلى الري ( ربيع الآخر سنة ٥٢٦ هـ ) ووصل بعده طغرل بن محمد بن ملكشاه ليلاً ، وقابل عمه سنجر في صبيحة اليوم التالي . وكان الخبر قد وصل بأن مسعود بن محمد قد استعد للجلوس على عرش السلطنة ، فزهد أخوه طغرل فيها وعزم على الرحيل . ولما أحس سنجر بهذا العزم أرسل إلى طغرل وزيره وحاجبه يحملان إليه رسالته بتوليته سلطنة العراق وولاية العهد من بعده . بعد ذلك سار سنجر إلى نهاوند ، والتقى جيشه ، وعلى ميمنته طغرل وعلى ميسرته خوارزم شاه ، بجيش مسعود الذي حلت به الهزيمة وأسر هو ووزيره وبعض أمراته . ثم خلع سنجر على ابن أخيه طغرل وزوده بنصائحه وودعه وانصرف إلى الري (٣) . بعد ذلك قفل سنجر راجعاً إلى خراسان لأنه بلغه أن نائبه فيها قد عصاه ( جمادى الآخرة سنة ٥٢٦ هـ ) . أما طغرل فقد انصرف إلى الري وحكم في الحقيقة باسم سنجر ، ولكنه

(١) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق س ١٥٨ — ١٥٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ س ٢٥٧ .

(٣) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق س ١٤٢ — ١٤٥ .

لم يحسن علاقته بالسلطان والخليفة معاً<sup>(١)</sup> ، وقد صحب طغرل وزيره الدرگزيني (بفتح الدال مع التشديد والسكاف وسكون الراء) .

وأما داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه الذي ولاه أبوه عهده فقد سار إلى همدان وناصره أنابك و مربيه آقسنقر الاحديلي ، ولكن بعض أمرائه الاتراك انضموا إلى عمه طغرل ، ثم التقى الجمعان وحلت الهزيمة بداود وأنابك آقسنقر<sup>(٢)</sup> .

وقد ذكر البندارى<sup>(٣)</sup> أن الدرگزيني وزير طغرل انفرد بأمر الدولة وطغى وبغى وبالغ في إيذاء الناس واشتط في مصادرة الأموال . وقد بلغ من ضجر طغرل بسوء تصرفات وزيره أن أرسل إليه يقول : « إنك أسأت سمعتي وأسمنت مسامتي وفضحت أمري وأمرت بفضيحتي . ألم يكفك سلخ جلود العظام حتى شرعت في استفراغ دماء الضعفاء واستنزاف دماء الفقراء » .

ثم سمع السلطان طغرل بتحريك جيوش أخيه مسعود وخروجه مع الأمير آقسنقر في جموع كثيرة ، فميم طغرل شطر أذربيجان ودخل تبريز وأقام في قلعتها حتى يذهب فصل الشتاء وتفتح الطرق . وقصد مسعود بغداد ومر في طريقه على أصهبان ثم أتجه غرباً وأحل الهزيمة بجند أخيه طغرل ، ثم عاد إلى همدان<sup>(٤)</sup> ، واستولى على البلاد التي مر بها ،<sup>(٥)</sup> والنف حوله الجند من كل حدب وصوب ، وأحلت جيوش مسعود الهزيمة بجيوش داود بن محمود<sup>(٦)</sup> .

دخل داود بغداد . ولما علم بقرب وصول مسعود إليها خرج إليه واتقيه ودخلا معاً بغداد . ونزل مسعود بدار السلطنة ( صفر ٥٢٧ هـ ) وأقيمت الخطبة له ولداود من من بعده ، وخلع الخليفة عليهما ، واستولى مسعود على بلاد طغرل الذي لم يلبث أن مرض ومات بهمدان ودفن بها في أوائل سنة ٥٢٨ هـ بعد أن ولي السلطنة سنتين وشهراً أو شهرين . وكان داود ، كما يقول البندارى<sup>(٧)</sup> ، « جامعاً للخلال التي نفتقر إليها السلطنة من الحزم

(١) المصدر نفسه ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٢) ابن الأثير : السكامل ج ١٠ ص ٢٦٠ .

(٣) تاريخ دولة آل ساجوق ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٤) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٦١ — ٢٦٢ .

(٥) البندارى ص ١٤٩ — ١٥١ ، ١٥٤ — ١٥٥ .

(٦) المصدر نفسه ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٧) تاريخ دولة آل ساجوق ص ١٥٧ .

والتحفظ والعزم والتيقظ». وقد قامت الوحشة بين الخليفة المسترشد وبين مسعود ودارت الحرب بينهما ، وأمر الخليفة وحبس بقلعة قريبة من همدان . ولما بلغ ذلك أهل بغداد حَسَوْا التراب على رؤوسهم وبكوا ، وخرج النساء حاسرات يندبن الخليفة ومنعوا الخطبة والصلاة . قال ابن الجوزي : وتعرضت حاضرة العباسيين عشرين يوماً كانت تقع الزلازل خمساً أو ست مرات في اليوم وأجد الملح من قلوب الناس كل مأخذ ، حتى إن سنجر عميد البيت السلجوقي بعث إلى ابن أخيه مسعود يقول : «ساعة وقوف الولد غياث الدنيا والدين على هذا المكتوب يدخل على أمير المؤمنين ويقبل الأرض بين يديه ويسأله العفو والصفح ، ويتصل غاية التوصل ، فقد ظهر عندنا من الآيات السابوية والأرضية مالا طاقة لنا بسماع مثلها ، فضلاً عن المشاهدة من العواصف والبروق والزلازل... وتشويش العساكر وانقلاب البلدان . ولقد خفت على نفسي من جانب الله وظهور آياته وامتناع الناس من الصلاة في الجوامع ومنع الخطباء مالا طاقة لي بحمله . فإله الله اتلاني أمرك وتعيد أمير المؤمنين إلى مقر عزه ، وتحمل العاشية<sup>(١)</sup> بين يديه كما جرت عادتنا وعادة آبائنا ، فنقد مسعود ما أمر به وقبل الأرض بين يدي الخليفة ووقف يسأله العفو . ثم أرسل سنجر رسولاً آخر ومعه عسكر يستحث مسعوداً على إعادة الخليفة إلى «مقر عزه» . وقد ذكر السيوطي أن جند السلطان سنجر ضم سبعة عشر من الباطنية ، قيل إن مسعوداً هو الذي دسهم ، وأنهم هجموا على الخليفة وهو في خيمته وقتلوه وقتلوا جماعة من أصحابه ، ولم يشعر بهم حرس الخليفة إلا بعد أن ارتكبوا جرمهم ، فقبضوا عليهم وقتلهم . على أن السلطان مسعوداً ظهر بمظهر الحزن ، جلس للعزاء ، واشتد بكاء الناس ، ونعى هذا النبأ إلى أهل بغداد ، فخرجوا حفاة بمزق الثياب ، وخرجت النساء ناشرات الشعور يلطمن ويرثين الخليفة الذي كان محبباً إليهم لما عرف عنه من الورع والتقوى والشجاعة وبعد الهمة والعدل والرفق بالناس . ويعزو المؤرخون انهزام الخليفة إلى نخلي جند الأتراك الذين انضروا تحت لواء السلطان مسعود ، على الرغم من تفوق جيش الخليفة الذي ضم كثيراً من الفقهاء والصوفية والشعراء والأطباء ، وقد وصف السيوطي<sup>(٢)</sup> الخليفة المسترشد فقال إنه كان خطيباً مفوهاً وأديباً لامعاً وشاعراً مجيداً ، كما كان محدثاً متفهماً في الدين ، خطب المسترشد يوم عيد أضحى فقال :

(١) لعل سنجر يقصد أن مسعوداً يجب أن يقف خاشعاً متضرعاً أمام الخليفة سائلاً إياه العفو والصفح عما بدر منه ، ذاكراً أقوال يوم القيامة على ماورد في سورة العاشية والعاشية هي يوم القيامة الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا سلطان ولا جاه إلا من أتى الله بقلب سليم  
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٨٦ .

« الله أكبر ما سبحت الانواء وأشرق الضياء وطلعت ذكاه ( الشمس ) ، وعلت على الارض السماء . الله أكبر ما هبتي سحاب و لمع سراب وأنجح طلاب وسرّ قادماء إياب ، إلى آخر ما ذكره في خطبته البليغة . ثم جلس ثم قام فخطب وقال : اللهم أصلحني في ذريتي وأعني على ما وليتني وأوزعني شكر نعمتك ووقفني ، وانصرني » .

كان المسترشد كما يقول السيوطي ذا همّة عالية وإقدام ورأى وهيبة ، « ضبط أمور الخلافة ورئها أحسن ترتيب ، وأحيا رسم الخلافة ونشر عظامها ، وشيد أركان الشريعة وطرز أكامها وباشر الحروب بنفسه » .

قتل المسترشد بمدينة مراغة في الخامس عشر من شهر ذي القعدة سنة ٥٢٩ هـ (١) .

مات الخليفة المستظهر سنة ٤٨٧/١١١٨ ، وأغتيل كل من المسترشد وابنه الراشد على أيدي الباطنية : الأول ( بتحريض سنجر على ما قيل ) والثاني بمرافة حيث كان أسيراً في يد السلطان مسعود في ٢٩ أغسطس سنة ١١٣٥ ( ٥٢٩ هـ ) ، وأغتيل الثالث في أصبهان بعد أن عزله السلطان نفسه بستين ( يونيو ١١٣٨ / ٥٣٣ ) . وفي الحق أن خلفاء عصر سنجر لم يكونوا أكثر من الأعياب في أيدي السلاجقة .

وقد ذكر النظامي العروضي السمرقندي أن الخليفة المسترشد خرج من بغداد على رأس جيش كثيف كامل العدة قاصداً بلاد سنجر في محاولة يائسة كلفته حياته لوضع حد لقوة السلاجقة ، وأنه خطب في طريقه خطبة الجمعة التي امتازت بالبلاغة . وقد عبر فيها عن ضيق صدره وخيبة أمه من السلاجقة وبت شكواه منهم في هذه الكلمات فقال :

« فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق فبنوا علينا ( فطال عليهم الأمد فقتت قلوبهم وكثير منهم فاسقون ) » (٢) .

ولي الخلافة بعد المسترشد ابنه الراشد ( ٥٢٩ - ٥٣٠ / ١١٣٥ - ١١٣٦ ) ، فسار على سياسة أبيه . وقد حزن لوفاة أبيه ، ودفعه حب الثأر له على إهانة رسول السلطان مسعود وإثارة العامة عليه وتحريضهم على تخريب داره . وكانت خاتمة الخليفة الراشد كخاتمة أبيه . فقد سار مسعود إلى بغداد وحاصرها وأرغم الخليفة على الحرب إلى الموصل

(١) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٢) جهار مقاله ترجمة ص ٣٠ - ٣١ . Browne, Vol. II, 304-305 .



والاحتماء بزئبكي. بل إننا نرى السلطان مسعوداً يجمع القضاة والشهود ويحملهم على الكتابة بدم الخليفة، فكتبوا محضراً بخلعه (١).

وقد ذكر صاحب الفخرى (ص ٢٧١) أن السلطان مسعوداً استشار الوزير الزينبي (٢) فيمن يوليه الخلافة فقال له: يا مولانا! هناك رجل يصلح لها، فسأله عن اسمه فقال له: يا مولانا إن سميت أخاف أن يقتل، ولكن إذا دخلنا بغداد سميت لك. فلما احتاجوا إلى إجلال خليفة، سمى الزينبي له أبا عبد الله محمد المقتنى عم الراشد، فبايع له وأجلسه على سرير الخلافة (٣). وقد قتل الراشد وهو على باب أصهبان سنة ٥٣٢ هـ، وقيل لأنه قتل على يد الباطنية كأبيه من قبل (٤).

ولما آلت الخلافة إلى المقتنى (٥٣٠ - ١٣٦/٥٥٥ - ١١٦٠) عول على ترسم خطى آباته ونجح كثيراً في هذه السبيل، ولم تكن جهوده موجهة ضد السلطان مسعود مباشرة، وإنما كانت موجهة ضد بعض أمراء البيت السلجوقي، فإن بعض هؤلاء الأمراء تسلطوا على محمد (بن محمود أخى مسعود) وحرصوه على الخروج على السلطان وأشاروا عليه بالسير معهم إلى بغداد (٥٤٣ هـ). وقد استمع إليهم محمد هو وأخوه ملكشاه وحاصروا بغداد وقتلوا أكثر من خمسمائة من أهلها وأبوا رفع الحصار إلا بعد أن يدفع إليهم الخليفة ثلاثين ألف دينار. وهنا ظهرت شجاعة الخليفة الذى رجع إلى رأى يحيى بن محمد بن هبيرة، وكان يتولى زمام قصره، فأشار عليه بأن يستخدم هذا المال فى جمع الجند لرد خطر العدو. ويقول البندارى (٥): إن هذا العمل أَرْضَى السلطان مسعوداً وساعده على جمع جيش قوى استعان به الخليفة فى حروبه المقبلة.

أصيب السلطان مسعود بالحمى ومات بهمدان فى أول شهر رجب سنة ٥٤٧ هـ، وكان كما وصفه ابن الأثير (٦)، «حسن الأخلاق كثير المزاح والانبساط مع الناس... وكان

(١) الفخرى ص ٢٧٣.

(٢) هو أبو القاسم على ويرجع نسبه من جهة أمه إلى زينب بنت سليمان بن عبد الله بن العباس.

(٣) الفخرى ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١١ - ٢٨.

(٥) زبدة النعمرة ونخبة العصرة ص ١٨١. ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٦٠، ٦٦.

(٦) المنتقى نفسه ج ١١ ص ٦٥.

كريباً ضعيفاً عن الأموال التي للرعايا ، حسن السيرة فيهم . ( وكان ) من أحسن السلاطين سيرة وألينهم عريكة ، سهل الأخلاق لطيفاً . وقد مات مع مسعود سعادة البيت السلجوقي فلم تقم بعدها راية يعتمد عليها ولا يلتفت إليها .

ولى السلطنة بعد مسعود ابن أخيه ملكشاه ( بن محمود بن محمد ) الذي قضى وقته في اللهو واللعب وترك شؤون الدولة إلى خاصبك بن بلنكري ، فلم ير فيه الرجل الذي يستطيع النهوض بأعباء السلطنة ، فاستدعى أخاه محمد بن محمود وولاه السلطنة (١) . وهناك دخل النزاع بين الخليفة العباسي والسلطان في طور جديد .

### (٧) نهاية عصر السلاجقة العظام .

على أن عصر السلاجقة العظام لم ينته في الحقيقة بوفاة السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ ، بل امتد حتى وفاة سنجر سنة ٥٥٢ هـ . فقد بدأت المتاعب التي عكرت صفو السلاجقة بهذه الثورة التي قامت على يد أنسر خوارزم شاه الذي أعلن استقلاله سنة ٥٣٥ هـ . ( ١١٤٠ — ١١٤١ م ) . وفي السنة التالية هزم كنفار الأتراك سنجر وأسروا زوجته وهزموا مائة ألف من جنده ، كما ضاعت مرو وسرخس ( بفتح السين والراء ) وسكون الخاء ) ونيسابور وبيهنق ( بفتح الباء والهاء وسكون الباء ) .

وفي سنة ٥٤٧ هـ قوى أمر الغور بزعامة علاء الدين الذي حاصر هراة ونهبها ثم ملك بلخ ، فقصده سنجر وأحل الهزيمة بالغور وهزم علاء الدين . ولما مثل بين يدي سنجر قال له : يا حسين ! لو ظفرت بي ما كنت تفعل ؟ فأخرج له قيداً من الفضة وقال له : كنت أفيديك بهذا وأحملك إلى فيروزكوه ( حاضرة الغور ) . ولكن سنجر استماله إليه ، فخلع عليه وردّه إلى حاضرة ملكه .

وفي سنة ٥٤٨ هـ ( ١١٥٣ م ) هزم سنجر هزيمة منكرة على أيدي الغز الأتراك الذين ملكوا طوس ونيسابور وقتلوا كثيراً من الأهالي من بينهم طائفة من العلماء عرفوا بزهدهم وورعهم ، كما أمر سنجر نفسه . وكان من الناحية العملية سجيناً بأيدي الغز ولو أنه عومل بشيء من الاحترام ظاهراً ، ولم يستطع أن يتنقل حيث شاء أو يحمي رعاياه البؤساء حتى خريف ٥٥١ هـ ( ١١٥٦ م ) حين نجح بعض أنصاره وخدمه في إطلاقه عن طريق

(١) المصدر نفسه ج ١١ ص ٧٢ — ٧٣ .

إرشاد بعض حراسه وحملوه إلى مرو حاضرة خراسان التي اتخذها حاضرة لدولته<sup>(١)</sup>.  
وهنا أخذ سنجر يجمع الجند ، ولكن الحزن الذي ملك عليه نفسه لما وصلت إليه بلاده  
من التخريب والإفقار وتقدم سنة أدى إلى وفاته بعد ذلك بأشهر قليلة ( ١٤ ربيع الأول  
سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٦ - ١١٥٧ ) ودفن كجده ألب أرسلان في مرو في البناء المعروف  
بدولت — خانة الذي بناه هناك » . وقد ذكر ابن الأثير<sup>(٢)</sup> أنه دفن في قبة بناها لنفسه  
وسماها قبة الآخرة . « وكاد يعود إليه ملكه فأدركه أجله » كما يقول ابن خلكان<sup>(٣)</sup> ،  
ومات سنجر وقد بلغ الثانية والسبعين بعد أن حكم ، على ما ذكره البتداری<sup>(٤)</sup> ، إحدى  
وستين سنة حكم فيها خراسان وبلاد ما وراء النهر إحدى وأربعين سنة . وقد تلقب بلقب  
ملك عشرين سنة ، وأقيمت له الخطبة على أكثر منار الدولة السلجوقية المترامية  
الأطراف نحو أربعين سنة ، « وخطب له بالعراقين والشام وديار بكر وديار ربيعة  
والحرمين ، وقد ضربت الدنانير باسمه في الخاقين ، وتلقب بالسلطان الأعظم معز  
الدنيا والدين » .

---

(١) يقول ابن الأثير ( الكامل ج ١١ ص ٨٥ ) إن سنجر أسرى في أيدي الفر من ٦ جمادى الأولى

سنة ٥٤٨ إلى شهر رمضان سنة ٥٥١ هـ .

(٢) الكامل ج ١١ ص ٩٠ .

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٤٨ .

(٤) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٤٥ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢ .

## الباب الثالث

الدول المستقلة التابعة للخلافة العباسية

أولاً — دول الأتابكة

من هم الأتابكة؟

كان الجيش في عهد السلاجقة يقوده عماليك من الأتراك الذين عرفوا بطول أجسامهم وجمال خلقهم . وكان هؤلاء المماليك يشتركون بالمال ويعتقون الإسلام وينشئون نشأة إسلامية خالصة في بلاط الخليفة أو السلطان حيث يتصلون اتصالاً وثيقاً بأمراء السلاجقة . وكان هؤلاء الأمراء يجلبون بصفة عامة من بلاد القفجاق<sup>(١)</sup> شمالى البحر الأسود . وتُسند إلى هؤلاء المماليك بعض الوظائف كرياسة الخدم وتنظيم القصور ، ومنهم من يلحق بحرس الخليفة أو السلطان . وإذا ما أدى هؤلاء المماليك خدمات هامة للدولة أو أظهروا كفاءة خاصة أو صفة حربية ممتازة وبرهنوا على إخلاصهم وولائهم وصلوا إلى أعلى المناصب في الجيش والبلاط أو أُسند إليهم حكم إقليم من أقاليم الدولة السلجوقية المترامية الأطراف .

على أن هذا النظام كانت له نتائج خطيرة . وكان هؤلاء الأرقاء الذين عرفوا بالشجاعة والإقدام إذا ما بلغوا سن الرجال وظهرت مواهبهم الممتازة وأُسند إليهم حكم إحدى الولايات يتمردون على ساداتهم ويحلون محلهم في حكم الولايات . وهكذا أخذ الضعف يدب في جسم الدولة السلجوقية ، فتفككت هذه الإمبراطورية وانقسمت إلى دويلات ، وانتقل النفوذ والسلطان إلى هؤلاء المماليك الذين خاضوا المعارك باسم السلاطين وأصبحوا أوصياء أو « أتابكة » على أبناء هؤلاء السلاطين .

وعمرت السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ ( ١١٥٢ م ) أقل نجم البيت السلجوقي في العراق ، وتقسام ملك السلاجقة دول كثيرة تعرف بدول الأتابكة ( ويعبر عنها بأتابك العسكر ) .

روى الفلقشندي (١) عن السلطان عماد الدين في تاريخه أن أتابك أصله أطابك ومعناه الوالد الأمير . وأول من لقب بهذا اللقب نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي حين فوض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة ٤٦٥ هـ ولقب بألقاب منها « أتابك » ومعناها الأمير المسن ، وقيل إن أتابك معناه الأب الأمير ، ومعناه الأمير الكبير سناً ، وهو عادة يكون أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل . وأتابك كلمة تركية معناها مربى الأمير ، لأن « أنا » معناها مربى و « بك » معناها الأمير .

وكان السلاجقة يعهدون بتربية أبنائهم إلى المقربين إليهم من الأتراك الذين ترعرعوا في كنفهم . وإذا عين السلطان أحد أبنائه على مدينة من المدن أو ولاية من الولايات أرسل معه هذا التركي ( المربي ) ليعاونه في الحكم ويسدى إليه ما يراه من النصائح . ويمتدح هذا الشرف لكبار رجال الدولة وقواد الجيش . وسرعان ما أصبح هؤلاء الأتراك أصحاب النفوذ الفعلي في الولايات التي عهد إليهم بالحكم فيها ، فيعملون لحسابهم الخاص ويتخذون لأنفسهم الألقاب التي تروق لهم (٢) . وقد ساعد على ضعف الدولة السلجوقية بعد موت ملكشاه نشوب الحروب بين أبنائه وأحفاده ، واتخذ الأتابكة من ذلك فرصة لفرض سيطرتهم على البلاد التي تحت حكمهم وتسايقوا إلى توسيع رقعة بلادهم كل على حساب الآخر . وبذلك نشأ الصراع بين أفراد البيت السلجوقي كما نشأ بين الأتابكة ، وعمل بعض الخلفاء بعد موت السلطان مسعود على استرداد نفوذهم في العراق (٣) .

وقد وصل بعض هؤلاء الأتابكة إلى درجة الملك وأورثوه أولادهم من بعدهم . ومن ثم أطلق على هذه الأسرات أو الدول فيما بعد اسم دول الأتابكة . وإلى جانب هذه الدول دول أخرى ولاها بعض السلاجقة قوادهم فأورثوها أبنائهم ، ويلقبون بلقب شاهات . ومن هؤلاء الشاهات شاهات خوارزم وشاهات أرمينية . ومن دول الأتابكة أتابكية كيفا وماردين ، وatabكية دمشق (٤) ، وatabكية دانشمند (٥) ، ثم أتابكيات الموصل والجزيرة وسورية وأذربيجان وفارس . وعلى هذا النحو نرى .

(١) صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ .

(٢) ابن الفلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٠٣ .

(٤) وتسمى الدولة البورية التي أسسها طغتكين الذي عينه تنش على دمشق .

(٥) وقد أسسها محمد بن جشتكين في كبادوكيا وشملت سيواس وقيصرية ومطية .

- (١) طغتكين مملوك تُتَش (بضم التانين) السلجوقي يعين ابنه وورثه الصغير دُقاق « أنابك » ، ثم يستأثر هذا الأنابك بالملك في دمشق بعد وفاة ابن السلطان فتقوم أنابكية دمشق .
- (٢) وكان عماد الدين زنكي مؤسس أنابكية الموصل والجزيرة وحلب وغيرها ابن آقسنقر ابن أحد عماليك ملكشاه ثالث سلاطين السلاجقة .
- (٣) ويرجع أصل أنابكيه أذربيجان إلى رجل من بلاد القفجاق كان مملوكا للسلطان مسمود السلجوقي في العراق .
- (٤) وكان أنوشتكين جد شاهات خوارزم يشغل وظيفة الساقى (حامل الكأس) في بلاط السلطان ملكشاه .
- (٥) وكان أرتق (بضم الألف مع الهمزة والتاء وسكون الراء) وسلفر (بفتح السين والغين وسكون اللام) مؤسس الأسر في ديار بكر وفارس من قواد السلاجقة .
- (٦) وكان خانات البجتجيين (Begtigimids) والهراراسيديين Hazarâspids والقُطْلغينيين Kutluğhs قوادا للمالِك السلاجقة .
- (٧) وفي القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) كانت أراضى الإمبراطورية السلجوقية عدا بلاد الأناضول في أيدي قواد السلاجقة الذين أدخلوهم في خدمتهم .
- هكذا انقسمت الدولة السلجوقية العظيمة إلى دويلات الاتابكة المتعادية المتنافرة مما مهد السبيل لاسترداد بعض الخلفاء العباسيين بعض ما كان لهم من سلطان ، وأتاح الفرصة للصليبيين لشن حروبهم على البلاد الإسلامية، كما مهد ذلك السبيل للبعول لاحتياج أقاليم بلاد ماوراء النهر وفارس والعراق. ولتتكلم فى شىء من الإيجاز عن أهم دول الاتابكة.

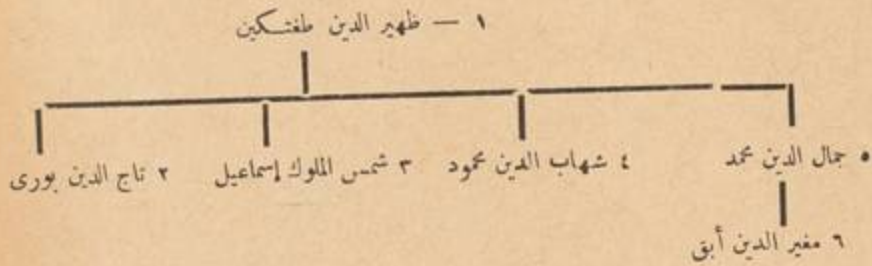
١١٠٣ - ١١٥٤ م

٤٥٧ - ٥٤٩ هـ

	(١) أنابكية دمشق	
	البوريون أو أسرة بورى	
١١٠٣	سيف الإسلام ظهر الدين طُغتكين	٤٩٧
١١٢٨	تاج الملك بورى	٥٢٢

١١٣٢	شمس للملك إسماعيل	٥٢٦
١١٣٤	شهاب الدين محمود	٥٢٩
١١٣٨	جمال الدين محمد	٥٣٣
— ١١٣٩	مغير الدين أبى (أو أنز، ت ٥٦٤ هـ)	— ٥٣٤
١١٥٤		٥٤٩

[ آل زنكى ]



تنسب هذه الدولة إلى طغتكين أحد قواد الجيش السلجوقى ، وكان مملوكاً لتتاش ابن ألب أرسلان ، وكان والياً على دمشق عند وفاة أخيه ماكشاه (١) . وكان يطمع فى السلطنة بعد وفاته واستطاع أن يمد نفوذه على حلب والجزيرة وديار بكر وأذربيجان وهمدان ويقوم الخطبة لنفسه فى بغداد (٢) . وقد قتل تتاش سنة ٤٨٨ هـ ( ١٠٩٥ م ) فى أثناء صراعه مع السلطان بركياروق ، وانفرد ابنه دقاق ( ضم الدال ) بحكمها ، فانخذ طغتكين « أنابك » له ، فحكم البلاد باسمه (٣) .

وقد استمرت أنابكية دمشق تحت نفوذ أسرة طغتكين حتى آل حكمها إلى أسرة زنكى سنة ٥٤٩ هـ ( ١١٥٤ م ) باستيلاء نور الدين محمود بن زنكى عليها لتقوية جيوشه للوقوف فى وجه الصليبيين (٤) ، ثم انتقل هذا النفوذ إلى الأيوبيين فى عهد صلاح الدين

(٢) ابن الأثير : السكامل ج ١٠ ص ٩٠ .

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٩٥ — ٩٦ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٠٣ .

Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, p. 161.

(٤) ابن الأثير : الباهر ص ١٨٨ — ١٩١ .

الايوبي الذي قلد أمورها إلى الأفضل ، ثم انتقل هذا الحكم إلى العادل بعد وفاة أخيه صلاح الدين<sup>(١)</sup> .

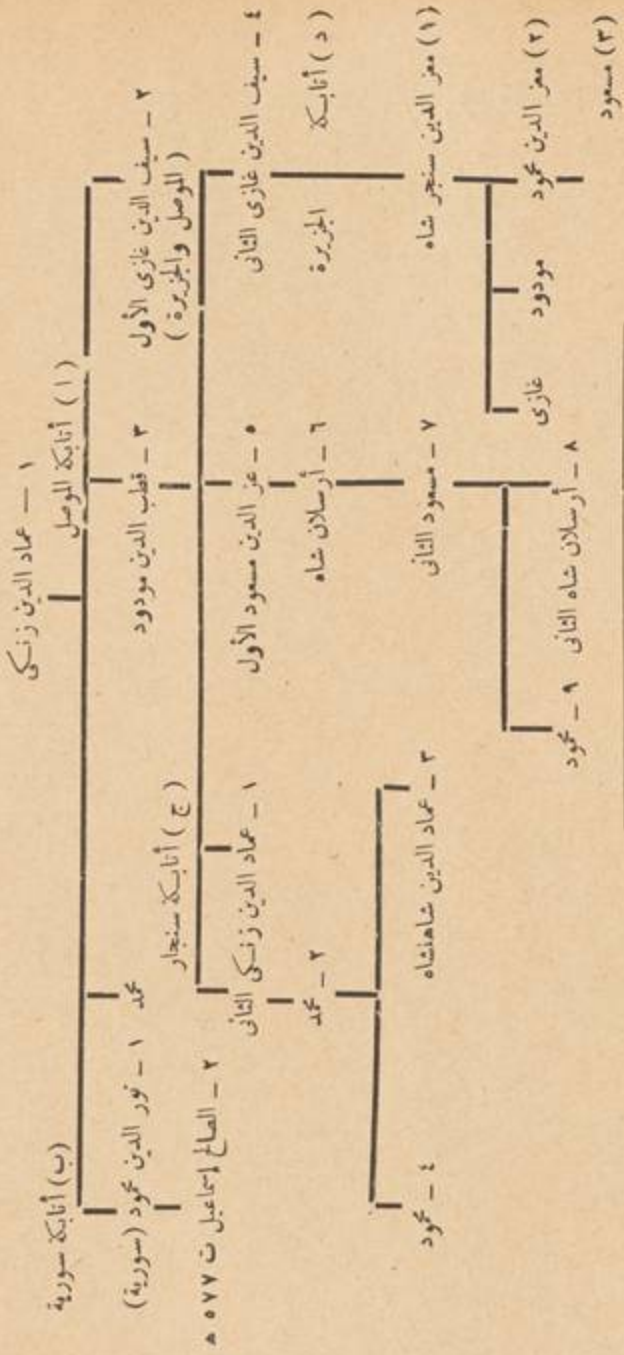
(٢) بيت زنكي

١٢٣٤ — ١١٢٧	(١) أنابكة الموصل	٥٢١ — ٦٣١
١١٢٧	عماد الدين زنكي ( مع حلب )	٥٢١
١١٤٦	سيف الدين غازي الأول	٥٤١
١١٤٩	قطب الدين مودود	٥٤٤
١١٦٩	سيف الدين غازي الثاني	٥٦٥
١١٨٠	عز الدين مسعود الأول	٥٧٦
١١٩٣	نور الدين أرسلان شاه الأول	٥٨٩
١٢١٠	عز الدين مسعود الثاني	٦٠٧
١٢١٨	نور الدين أرسلان شاه الثاني	٦١٥
١٢١٩	ناصر الدين محمود	٦١٦
١٢٣٣	بدر الدين لؤلؤ	٦٣١
— ١٢٥٩	إسماعيل بن لؤلؤ	— ٦٥٧
١٢٦٢		٦٦٠
	[ المغول ]	
١١٨١ — ١١٤٦ م	(ب) أنابكة سورية	٥٤١ — ٥٧٧
١١٤٦	نور الدين محمود بن زنكي	٥٤١
— ١١٧٣	الصلاح إسماعيل بن نور الدين محمود	— ٥٦٩
١١٨١		٥٧٧
	[ أنابكية الموصل وسنجار ، ٥٧٧ هـ ؛ ثم الأيوبيون ٥٧٩ هـ ]	
١١٧٠ — ١١٢٢٠ م	(ج) أنابكة سنجان	٥٦٦ — ٦١٧
١١٧٠	عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود	٥٦٦

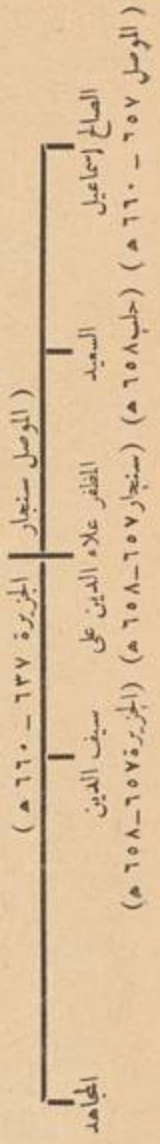


# بيت زنكي

آقسنقر



## بدر الدين لؤلؤ (وزير محمود بن مسعود الثاني)



١١٩٧	قطب الدين محمد	٥٩٤
١٢١٩	عماد الدين شاهنشاه	٦١٦
- ١٢١٩	محمود	- ٦١٦
١٢٢٠		٦١٧

[ الأيوبيون ]

١٢٥٠ - ١١٨٠	(د) أتابكة الجزيرة	٦٤٨ - ٥٧٦
١١٨٠	معز الدين سنجر شاه	٥٧٦
١٢٠٨	معز الدين محمود بن سنجر	٦٠٥
- ١٢٤١	مسعود	- ٦٣٩
١٢٥٠		٦٤٨

[ الأيوبيون ]

(٢) أتابكية الموصل<sup>(١)</sup> ٥١٦ - ٦٦٠ / ١١٢٢ - ١٢٦٢ .

كانت الدولة السلجوقية في عهد سلاطينها الثلاثة الأولى قوية الجانب مهيبة السلطان . فلم يجرؤ أحد من الأمراء أو القواد على الاستقلال بولايته . وهذا يرجع إلى اتحاد أفراد البيت السلجوقي وعدم تطلعهم إلى الملك إذ كان جل همهم المحافظة على استقلال دولتهم . ولكن الخلاف أخذ يدب إلى جسم الدولة بعد وفاة السلطان ملكشاه ( ٤٨٥ هـ ) إذ قام الصراع بين أفراد البيت المالك رغبة في الاستيلاء على السلطنة مما أنهك قواهم العسكرية وبدد مواردهم المالية وأطمع فيهم القواد ، فاستطاع بعضهم أن يؤسسوا إمارات محلية تتمتع بالاستقلال . وكان بعض هؤلاء القواد ينتمون إلى البيت السلجوقي والبعض الآخر من مماليك سلاطين هذا البيت وقواده .

وقد تركز معظم هذه الإمارات في الجهات الشمالية من الدولة السلجوقية أي في أواسط

(١) وتسمى هذه الأتابكية أيضاً «دولة بني زنكي» ، وقد ذكر لينيول ( 162-163 pp. ) أن حكم هذه الأسرة بدأ في سنة ٥٢١ هـ ( ١١٢٧ م ) لأن عماد الدين زنكي تقلد في هذه السنة حكم بعض البلاد ومنها الموصل والجزيرة ونصيبين . واعتبر زامباور ( ص ٢٢٦ ) سنة ٥١٦ هـ بداية حكم هذه الأسرة حتى تولى عماد الدين زنكي حكم مدينته واسط .

وجنوبي آسيا الصغرى والجزيرة والشام وأذربيجان وغيرها . وهى مناطق وعرة المسالك  
تمتاز بغاباتها الكثيفة ويسكنها التركان الشجعان . كما تمتاز هذه المناطق بمحصولها المنيع ،  
إذ كان بعضها محاطا بسورين كمدينة آمد .

### (١) آفسنقر :

كان آفسنقر ( بسكون القاف الأولى وضم السين والقاف الثانية ) الحاجب مملوكا  
تركيا من ممالك السلطان ملكشاه الساجوقى . وقد تربى معه منذ صغره ، حتى قيل إنه  
« لصيقه » ورافقه فى طفولته وصباه . فلما تولى ملكشاه السلطنة سنة ٤٦٥ هـ بلغ آفسنقر  
منزلة رفيعة عنده وأصبح من كبار أمرائه وأخلص أصدقائه حتى إنه كان يعتمد عليه فى  
كثير من أمور دولته ، وعانت منزلته فلحقه قسيم الدولة (١) و « الحاجب » (٢) .

ويظهر أن إثارة السلطان ملكشاه آفسنقر قد أثار حنق الوزير نظام الملك ، فعمل  
على إبعاده .

وفى سنة ٤٧٧ هـ أمر ملكشاه آفسنقر بالمسير مع عميد الدولة بن نجر الدولة إلى  
الموصل والاستيلاء عليها من العقيليين (٣) . وفى سنة ٤٧٩ هـ اشترك آفسنقر مع السلطان  
ملكشاه فى الاستيلاء على حلب من نواب العقيليين فيها ، ثم قلده السلطان ولايتها (٤) .

ولا يبعد أن تكون تولية آفسنقر حلب استجابة لوزير نظام الملك الذى أراد إبعاد  
آفسنقر عن بلاط السلطان ، فتسلم « قسيم الدولة » حلب وأعمالها كجهاد ومُنْبِج واللاذقية  
وكفر طاب وفرض طاعته على صاحب شَبْرَز ( ٤٨١ هـ ) (٥) ، كما وسع نطاق ولايته  
فضم إليها حصص ( ٤٨٣ هـ ) وحصن أفاعية ( ٤٨٤ هـ ) ، واشترك مع السلطان ملكشاه  
فى مهاجمة العقيليين وانتصر عليهم على مقربة من الموصل (٦) . وبعد وفاة السلطان ملكشاه  
سنة ٤٨٥ هـ ضم آفسنقر مدينة تكريت إلى أملاكه (٧) .

(١) ابن الأثير : الباهر ص ٤ .

(٢) ابن خلكان . وفیات الأعيان ج ١ ص ٢١٧ — ٢١٨ .

(٣) ابن الأثير : الباهر ص ٥ .

(٤) ابن الأثير : السكامل ج ١٠ ص ٥٥ .

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٦) المصدر نفسه ص ١٢١ .

(٧) ابن الأثير : الباهر ص ١١ — ١٨ .

وفي سنة ٤٧٨ هـ أصبح آقسنقر نائباً لتتش (أخى السلطان ملكشاه) الذى طمع فى السلطنة بعد وفاة أخيه (٤٨٥ هـ) وحاول استخلاصها لنفسه من بركياروق ابن ملكشاه واستولى على معظم بلاد الجزيرة ثم على الموصل . ثم اتجه تتش إلى أذربيجان لمحاربة السلطان بركياروق ، فلما تقارب الجيشان اتفق آقسنقر مع بعض الأمراء على الإنضمام إلى السلطان بروكياروق<sup>(١)</sup> ، وضعفت بذلك قوة تتش فعاد إلى الشام . وقد عزا المؤرخون موقف آقسنقر إلى عدم تولية تتش لإياه بعض البلاد التى استولى عليها وتقريبه بعض الأمراء عليه<sup>(٢)</sup> .

أمر السلطان بركياروق آقسنقر بالمسير إلى حلب لوضع حد لمطامع عمه تتش ، والتقى الجيشان على مقربة من هذه المدينة ، فانتصرت قوات تتش وأسر آقسنقر ثم قتل سنة ٤٨٧ هـ .

وفي سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) حارب تتش السلطان بركياروق على مقربة من الرى ، ولكن الهزيمة حلت به وقتله أحد مماليك آقسنقر واستتب الأمر لبركياروق<sup>(٣)</sup> .

### (ب) عماد الدين زنكى

كان عماد الدين زنكى عند وفاة أبيه فى العاشرة من عمره ، وكان يقيم بمدينة حلب ، فحاطه السلطان بركياروق برعايته واهتم بتربيته ؛ وأقطع ممالك أبيه الإقطاعات الواسعة فى الموصل وعهد إليهم بتربيته<sup>(٤)</sup> .

ولما بلغ عماد الدين زنكى مبلغ الرجال ظهرت مواهبه وشجاعته ، واشترك مع ولاة الموصل فى جميع المعارك التى نشبت مع الصليبيين فى الجزيرة والشام وتل باشر ومعرة النعمان وطبرية وفى الرها وسميساط ، وأظهر فى هذه المعارك شجاعة نادرة أكسبته شهرة عظيمة بين المسلمين<sup>(٥)</sup> ، ولما توفى السلطان محمد بن ملكشاه (٥١١ هـ) خلفه ابنه محمود فى السلطنة . وكان السلطان محمد قد عهد إلى « جيوش بك » بتربية ابنه مسعود وجعله « أتاك » له على الموصل ، فلما مات السلطان محمد دفع جيوش بك مسعوداً إلى التوجه

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٨٢ — ٨٣

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٩ .

(٣) ابن الأثير : الباهر ص ٣٠ — ٣٧

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٤٦ .

(٥) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٨٣ — ١٨٩ . الباهر ص ١٧ — ٢٠ .

إلى بغداد للجلوس على عرش السلطنة فيها ، وانضم إليهما عماد الدين زنكي ، ولكن هذه المحاولة انتهت بالإخفاق واستتب الأمر للسلطان محمود بن ملكشاه<sup>(١)</sup> .

وفي سنة ٥١٤ هـ شق جيوش بك عصا الطاعة ثانية على السلطان محمود . ولكن عماد الدين زنكي أبي الانضمام إلى « جيوش بك » الذي حلت به الهزيمة<sup>(٢)</sup> ، وقد قدر السلطان محمود لعماد الدين زنكي موقفه ، فولى آقسنقر البرسقي<sup>(٣)</sup> ولاية الموصل (٥١٥ هـ) وأمره بتقديم عماد الدين زنكي على سائر الأمراء والرجوع إلى رأيه ومشورته<sup>(٤)</sup> .

وقد استطاع عماد الدين زنكي أن يكتسب رضا سلاطين السلاجقة وأن يتنقل في حكم البلاد بفضل ما أوتيته من حزم وشجاعة . ففي سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) تقلد ولاية مدينة البصرة<sup>(٥)</sup> ، فعمل على حمايتها من هجمات العرب ، ولا سيما ديبس بن صدقة أمير بني مزيد بالحلة ، وقضى على الفوضى التي انتشرت في ربوعها ، واستطاع كل من عماد الدين زنكي والبرسقي الذي كان يشغل منصب شحنة بغداد<sup>(٦)</sup> أن يصدوا هجمات ديبس بن صدقة ويشتتا جنده وبأمراه ، وعاد الخليفة إلى بغداد<sup>(٧)</sup> .

وفي سنة ٥١٧ هـ عزل البرسقي من شحنة العراق وأعيد إلى الموصل للجهاد الصليبيين ، فاستدعى عماد الدين زنكي ، وكان بالبصرة . لموافاته بالموصل ، ولكنه آثر البقاء بأصبهان مع السلطان محمود الذي قربه إليه وزوجه من أرملة أحد كبار أمرائه

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٠٣ — ٢٠٥ .

(٢) ابن الأثير : الباهر ص ٢٢ — ٢٣ .

(٣) ويقاب أيضا قسيم الدولة سيف الدين . انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٨ — ٢٢٠ .

(٤) ابن الأثير : الباهر ص ٢٤ .

(٥) ابن الأثير : الباهر ص ٤٥ .

(٦) الشحنة ( بكسر الشين مع التشديد وسكون الحاء وفتح النون ) في اللغة الجماعة من المحاريرين يقيمون في البلد لحمايتها والدفاع عنها من هجوم العدو : وأطلق هذا اللفظ على من يقوم برياسة هؤلاء المحاريرين . والشحنة معناها محافظ للمدينة أو الإقليم .

(٧) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٣١ — ٢٣٢ . الباهر ص ٢٥ — ٢٧ . ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

في احتفال نظم شهده السلطان<sup>(١)</sup> . وفي السنة التالية أقطع هذا السلطان عماد الدين زنكي البصرة ، ففضى على الفوضى التي سادتها ، ثم ولاء واسط للدفاع عنها إذا ما فكر الخليفة في إرسال جيش للاستيلاء عليها<sup>(٢)</sup> ، وقد قدر السلطان كفاية زنكي فولاه شحنة شحنة العراق<sup>(٣)</sup> .

وفي سنة ٥١٩ هـ ساءت العلاقة بين الخليفة المسترشد والسلطان محمود الذي سار إلى العراق لغرض سيطرته عليه ، وأرسل الخليفة جيشاً إلى واسط للاستيلاء عليها ، ولكن الهزيمة حلت بهذا الجيش ، ثم وصل السلطان إلى بغداد ولحق به زنكي على رأس قواته البرية والنهرية ، واضطر الخليفة إلى طلب الصلح ، فتم له ما أراد<sup>(٤)</sup> . ولم يطل مقام السلطان محمود ببغداد لاعتلال صحته ، فعاد إلى أصبهان حاضرة سلطنته ، وقبل رحيله ولي عماد الدين زنكي شحنة بغداد والعراق بالإضافة إلى الولايات التي كان يحكمها . وقد ظل زنكي في هذا المنصب نحواً من أربعة أشهر ، ثم صدر منشور السلطان بإقطاعه الموصل والجزيرة والشام<sup>(٥)</sup> . وسلمه ولديه ألب أرسلان وقروخ شاه المعروف بالحنفاجي وجعله أتابك لها ، ومنذ ذلك الحين أطلق على زنكي لقب « أتابك »<sup>(٦)</sup> .

وفي سنة ٥٢٢ هـ استولى عماد الدين زنكي على حلب التي كان الصليبيون يهدونها من حين إلى حين .

### (ح) عماد الدين زنكي بالخرق والباطنة

تقلبت أحوال عماد الدين زنكي من حيث علاقته بالسلطان والخليفة . على أن هذه التقلبات لم تزعزع مركزه في ولاية الموصل والجزيرة والشام ، فقد سار السلطان محمود إلى عمه سنجر شيخ السلاجقة وصاحب الكلمة العليا في السلطنة لتصفية الخلافات القديمة بينهما . وكان دُبَيْس بن صدقة أمير الحلة عند سنجر ، فطلب من السلطان محمود العمل على

(١) ابن الأثير : الباهر ص ٢٧ — ٢٨ . الكامل ج ١٠ ص ٢٣٧ .

(٢) الباهر ص ٢٨

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٤٤ .

(٤) ابن الأثير : الباهر ص ٢٨ — ٣١ . ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٩٤ — ١٩٦ .

(٥) ابن الأثير : الباهر ص ٣٥ . الكامل ج ١٠ ص ٢٤٦ — ٢٤٨ .

(٦) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨٧ ، انظر مادة عماد الدين زنكي في ابن

خلسكان ج ٢ ص ٧٩ — ٨٠ .

تحسين علاقته بالخليفة وتوليته الموصل والجزيرة والشام بدلامن عماد الدين زنكى . ولما وصل السلطان محمود إلى بغداد ( المحرم سنة ٥٢٣ هـ ) عرض على الخليفة طلب سنجر ، وكان عماد الدين زنكى قد علم بما دبر له ، فأسرع السير إلى بغداد وبذل الاموال الضخمة لئلا يسلط من الخليفة والسلطان لإقراره في منصبه من جديد .

وقد مال الخليفة والسلطان إلى تحقيق رغبة عماد الدين زنكى لعوامل كثيرة ترجع إلى ما كان يضمه الخليفة من الكراهية والبغضاء لدييس بن صدقة ، لتجديده لإياه وموقفه العدائى منه وشبهه القارات على بغداد ومساعدته الصليبيين على المسلمين . أما السلطان محمود فقد خشى أن يتخذ سنجر من تولية دُبَيْس على الموصل ذريعة لزعزعة نفوذه وتقويض سلطانه في العراق (١) .

وفي سنة ٥٢٥ هـ سادت العلاقة بين عماد الدين زنكى والخليفة المسترشد ، فقد طلب الخليفة تسليم ديبس بن صدقة ، وكان معتقلا في دمشق ، على أن عماد الدين زنكى أطلق ديبساً وأحسن إليه وأعطاه الاموال ، ولعل زنكى أراد بذلك أن يراقب ديبساً ويحد من نشاطه إذا سولت له نفسه مناوآته . أما الخليفة فإنه كان يرمى من وراء تسليم ديبس أن يضع حداً لمناوآته لإياه (٢) .

وفي سنة ٥٢٥ هـ سمع عماد الدين زنكى وهو في طريقه إلى حمص نبأ وفاة السلطان محمد بن محمود بن ملكشاه ، فطلب إلى الخليفة المسترشد أن يقيم الخطبة لآل أرسلان ( وكان هو وأخوه الخفاجى تحت إشراف زنكى ) . وكان عماد الدين زنكى يرمى إلى الاستئثار بالنفوذ باسم هذا الامير الصغير إذا آلت إليه السلطنة . لكن الخليفة اعتذر عن إجابة زنكى إلى طلبه بحجة أن آل أرسلان لا يزال طفلاً غير صالح للحكم ، وأن السلطان محمود كان قد عهد بالسلطنة وهو بأصبهان لابنه داود في الوقت الذى أقام عمال الاقاليم الخطبة لهذا السلطان الجديد ، وأضاف إلى ما تقدم أنه في انتظار رأى سنجر كبير البيت السلجوقى وسلطان خراسان وما وراء النهر (٣) .

وفي سنة ٥٢٦ هـ استمال مسعود ( بن محمد بن ملكشاه ) حاكم أذربيجان عماد الدين زنكى وطلب مساعدته في المطالبة بعرش السلاجقة مقابل تقليده مدينة إزبل التى كانت

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٩٩ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٠ — ٢٣٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٤٦ .

تابعة له ، وتم الاتفاق بينهما على المسير إلى بغداد لمطالبة الخليفة بإقامة الخطبة لمسعود والاعتراف به ساطاناً على العراق<sup>(١)</sup> . على أن سلجوق شاه سبق أخاه مسعوداً وسار إلى بغداد على رأس جيش كبير . ولكنه توجه (وهو في طريقه إلى بغداد) إلى تكريت لإيقاف تقدم زنكي<sup>(٢)</sup> وعلى مقربة من هذه المدينة دارت بين الفريقين موقعة انتهت بانضمام عماد الدين زنكي ، فيمم شهر تكريت حيث أكرم نجم الدين أيوب وفادته وسهل له سبيل عودته إلى الموصل . ومن هنا نشأت العلاقة بين بيت زنكي والبيت الأيوبي ، تلك العلاقة التي كان لها أثر بعيد في الأحداث التاريخية التي ظهر فيها نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي بطل الحروب الصليبية في عصره<sup>(٣)</sup> .

وقد أدرك مسعود وسلجوق شاه أن الصراع بينهما يفتح الفرصة لتدخل عمهما سنجر على إحباط هذه الخطة ، فاستأل إليه عماد الدين زنكي ودبى بن صدقة ، وطلب إليهما التوجه نحو بغداد والاستيلاء عليها وإقامة الخطبة له فيها ثم لطغرل بن محمد بن محمود ابن ملكشاه من بعده ، وتعهد سنجر بإضافة منصب شهنشاهية بغداد إلى عماد الدين زنكي<sup>(٤)</sup> ، وبأن يقطع « دبى » إمارة الخلة<sup>(٥)</sup> ولكن سنجر انتصر على جيوش مسعود وسلجوق شاه وأجلس طغرل بن محمد على عرش سلطنة العراق . ثم حلت الهزيمة بزنكي ودبى ، واستطاع مسعود أن يجلس على عرش سلطنة العراق وإيران بواقفة عمه سنجر .

وكان من أثر هذه المعارك أن سامت العلاقة بين عماد الدين زنكي والسلطان مسعود من ناحية وبين الخليفة المسترشد من ناحية أخرى . وفي شهر رمضان سنة ٥٢٧ هـ سار الخليفة إلى الموصل على رأس جيش قبل إنه بلغ ثلاثين ألف مقاتل وحاصرها ثمانين يوماً ، واتخذ مسعود من حصار الخليفة الموصل فرصة للاستيلاء على بغداد بمساعدة

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٧

(٢) ابن الأثير : السكامل ج ١٠ ص ٢٥٧ ، ج ١١ ص ١٣٨

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٢٣٢ - ٢٣٤ ، ج ٦ ص ١٤٣ - ١٤٤

(٤) الشهنشاهية أو الشحنة معناها منصب محافظ المدينة أو الإقليم كما تقدم .

(٥) ابن الجوزي : المنتظم ج ١٠ ص ٢٦ . ابن الأثير السكامل ج ١٠ ص ٢٥٧ - ٢٥٨

كتاب الباهر ص ٤٤ .



دييس بن صدقة . ولذلك اضطر الخليفة إلى العودة إلى بغداد ، وعقد الصلح مع زنكى ( ٥٢٨ هـ ) وتبذلت الهدايا بينهما ، وأرسل ابنه سيف الدين غازى يؤكد طاعته للخليفة وولاه له (١) .

ثم طلب الخليفة المسترشد من عماد الدين زنكى رفع الحصار عن دمشق والتوجه إلى بغداد ليشارك في النزاع الذى قام بينه وبين مسعود ( ٥٢٩ هـ ) ، ودارت الحرب بين الخليفة والسلطان قبل وصول جيش زنكى ، وأسر الخليفة ثم قتل على أيدي الباطنية ، وأخذت البيعة للراشد ( ذو القعدة سنة ٥٢٩ هـ ) (٢) . وكان من أثر انهزام جيش الخليفة المسترشد وزنكى أن ضاعت الفرصة في تولية ألب أرسلان عرش السلطنة ، الأمر الذى قد يؤدى إلى سيطرة كل من الخليفة وزنكى على شئون العراق باسم السلطان الصغير . كما كان من أثر هذه الهزيمة أن زاد التوتر بين عماد الدين زنكى والسلطان مسعود الذى حاول اغتيال زنكى ليتخلص من نفوذه ، فاستدعاه للتوجه إلى أصهبان . ولكن ديبس بن صدقة أخبر زنكى بنوايا السلطان وحذره من غدره . ولما علم السلطان مسعود بما فعله ديبس أمر به فقتل ، وعلم زنكى بذلك فأسف على مقتل ديبس وقال : « فديناه بالمال وفداننا بالروح » .

أراد الخليفة الراشد أن يتأثر لقتل أبيه ، فألب الأمراء على السلطان مسعود الذى رماه بتدبير هذه المؤامرة التى انتهت بقتل أبيه واستعان بعماد الدين زنكى ، وأقيمت الخطبة لداود بن محمود ( بن محمد بن ملكشاه ) في بغداد . ثم قام النزاع بين الخليفة الراشد والأمراء الذين حثهم على قتال مسعود الذى توجه إلى بغداد . واستطاع عماد الدين زنكى أن يصد قواته أول الأمر ، ثم اضطر إلى الخروج من بغداد بصحبة الخليفة متجهاً إلى الموصل . ودخل مسعود بغداد ، وخلع الخليفة الراشد وولى المقتنى الخلافة ( في ١٨ ذى الحجة سنة ٥٢٩ هـ ) (٣) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٦٠ ، ٦١ ؛ وكتاب الباهر ص ٤٧ ، ٤٨

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٠ - ١١ ؛ وكتاب الباهر ص ٤٩ - ٥٠

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٥ ، ١٧ . ابن واصل : مفرج الكروب ج ١

وقد اقتضت إقامة الخطبة للخليفة الجديد ( المقتنى على بعض أنحاء العراق ، على حين استمرت للخليفة الراشد الذي كان يقيم في الموصل ويتمتع بحماية زنكي . واستطاع أعوان المقتنى أن يقتنعوا عماد الدين زنكي بأخذ البيعة للخليفة الجديد ، فكافأه بإقطاعه بعض أملاكه الخاصة وزاد في ألقابه ( ٥٣٠ هـ )<sup>(١)</sup> ، وأخذ كل من الخليفة الجديد وعماد الدين زنكي اليهود والمواثيق كل على الآخر ، وأرسل محضر بخلع الراشد وتولية المقتنى ، فقريء على منابر مساجد الموصل وأقر قاضي القضاة والوزير وزنكي . عند ذلك اتجه الراشد إلى مراغة ( في أذربيجان ) ثم سار إلى أصبهان حيث قتل على أيدي الباطنية كما قتل أبوه من قبل<sup>(٢)</sup> . وقد عزا ابن الجوزي<sup>(٣)</sup> موقف زنكي إلى ضعف قوائمه العسكرية خلال صراعه ضد السلطان مسعود وتعرض إمارته لهجوم جيوشه وخوفه من بطش السلطان سنجر . وكان زنكي يرمى إلى تحقيق سياسته وهي توحيد الموصل والجزيرة والشام لتكوين جهة إسلامية موحدة تقف في وجه الصليبيين .

وقد أدى موقف عماد الدين زنكي من السلطان مسعود إلى تحسن العلاقة بينهما . وفي شهر ربيع الأول سنة ٥٣٢ هـ بعث السلطان مسعود رسوله إلى الموصل يحمل الخلع إلى زنكي .

وقد أدرك عماد الدين زنكي خطورة الأحرار في شمالي الشام وتهديد الصليبيين مدينة حلب ، فأرسل قاضيه إلى السلطان مسعود يطلب منه العودة لدره هذا الخطر ، على أن القاضي خشى أن تستخدم قوات السلطان في تهديد إمارة زنكي نفسها فقال : « إني أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة فيرسل قواته ، فإذا وصلوا إمارتنا استولوا عليها » . على أن عماد الدين زنكي آثر المصلحة الدينية على المصلحة الشخصية ، فرد على قاضيه ردا تمثل فيه هذه الروح الإسلامية العالية فقال : « إن الصليبيين قد طمعوا في البلاد ، وإن هم استولوا على حلب لم يبق في الشام إسلام . وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار » .<sup>(٤)</sup> وفي شهر رمضان سنة ٥٣٢ هـ وصل رسول السلطان مسعود إلى عماد الدين زنكي وهو على أبواب مدينة حمص يهته على ما أحرزه من نصر على الصليبيين

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٨ - ١٩ ؛ الباهر ص ٥٤ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب : ج ١ ص ٧٠ .

(٣) ابن الجوزي : المنتظم : ج ١٠ ص ٦٧ .

ويخلع عليه الخلع التي أرسلها إليه السلطان ومنحه<sup>(١)</sup> كثيرا من الألقاب مثل : الأمير الكبير العادل المؤيد المظفر المنصور الأوحده عماد الدين ... زنكي بن أقي سنقر نصير أمير المؤمنين<sup>(٢)</sup> .

أما علاقة عماد الدين زنكي بالسلطان مسعود فقد سامت في سنة ٥٣٨ هـ حين حاول هذا السلطان الاستيلاء على إمارة زنكي بسبب اتساع رقعة إمارته وضمخامة ثروة بلاده وعظم قوته الحربية<sup>(٣)</sup> . وكان زنكي يرمى من وراء سياسته إلى تأليف أصحاب الأطراف على السلطان مسعود السلجوقي ليشتغله عن الالتفات إليه ، وبذلك يستطيع أن يوطد نفوذه في بلاد الموصل من جهة ، ويوسع رقعة بلاده على حساب البلاد الإسلامية المجاورة من جهة أخرى<sup>(٤)</sup> ، ويحارب الصليبيين من جهة ثالثة . وهذه السياسة استطاع عماد الدين زنكي أن يستولى على الرها من أيدي الصليبيين ( ١١٤٤/٥٣٩ ) الذين عدوا ضياعها نذيراً لزوال نفوذهم في بلاد الشام وفتح الطريق أمامهم إلى العراق . لذلك كانت سياسة السلطان مسعود إزاء عماد الدين زنكي تقوم على المداراة والمهادنة بسبب الدور الخطير الذي كان يقوم به في دفع الخطر الصليبي ، إذ أن إمارته كانت في الواقع تقف سداً منيعاً في وجه ذلك الخطر الذي لا يبعد أن يمتد إلى بلاد السلطان مسعود نفسه .

وقد حاول عماد الدين زنكي أكثر من مرة أن يفرض نفوذه على مدينة دمشق ، ولكنه لم يستطع تحقيق سياسته لمساعدة الصليبيين أتباعه هذه المدينة . إذ كانوا يدركون أن استيلاء زنكي على هذه المدينة يهدد بقاءهم في بلاد الشام ، لأهمية موقع دمشق الحربي ، ووقوعها على الطريق التجاري بين البلاد الواقعة على نهر الفرات ومصر . وقد استرعت دمشق أنظار كل من عماد الدين زنكي وأبنائه من بعده ، كما شغلت بال حكام

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٣ - ٢٤ ؛ الباهر ص ٦٢ - ٦٣ .

(٢) ابن الفلانسى ص ٢٨٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٨ .

(٤) أقام بعض الأمراء إمارات محلية تتمتع بالاستقلال الفعلي . ومن أم هذه الإمارات من حيث علاقتها بحكم عماد الدين زنكي : إمارة أرتق ، وإمارة ديار بكر ، وإمارة أرمينية . وهناك أنابكيات أخرى نذكر منها أنابكية كيفا ، وشاهات أرمينية ، وأنابكية فارس ، وأنابكية كرمان . وهناك مدن متفرقة يحكمها منها أمير شبه مستقل مثل جزيرة ابن عمر ( وكانت تابعة للموصل ) ، وسنجار ، وحران ، والرقعة ، وشهر زور ، والحديثة ، وعانة .

بيت المقدس ، حتى تمكن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى من الاستيلاء عليها سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، ومهد بذلك السبيل لاستيلائه على مصر .

### (٣) أنابكبة حلب

قتل عماد الدين زنكى سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) كما ذكرنا ، وانقسمت أملاكه بين أبنائه ، فتولى نور الدين محمود مدينة حلب وسار على سياسة أبيه في جهاد الصليبيين ، وتولى سيف الدين غازى الموصل وبلاد الجزيرة<sup>(١)</sup> . وبعد فترة من الزمن زال الفرع السورى وحل محله فرع آخر استقر فى سنجار ، ثم قامت فيما بعد دويلة أخرى فى الجزيرة ، وبذلك أدخل فرع سنجار السبيل للأيوبيين سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) . أما الفروع الأخرى فقد دخلت تحت حكم لؤلؤ مملوك ووزير بيت زنكى فى الموصل ، وظلت الحال على ذلك حتى دخلت هذه الدويلات جميعاً تحت حكم المغول .

وقد عمل محمود على توحيد البلاد الشامية تحت سلطانه ليستطيع محاربة الصليبيين ، واتخذ الصليبيون من موت عماد الدين زنكى فرصة لاسترداد مدينة الرها ، ولكن ابنه نور الدين محمود لم يمكنهم من الاستيلاء عليها<sup>(٢)</sup> . وبلغ من أهمية الرها فى نظر الصليبيين بعد استيلاء عماد الدين زنكى عليها وبقائها فى أيدي المسلمين أن فكر الصليبيون فى إرسال الحملة الصليبية الثانية على بلاد الشام لاسترداد الرها من أيدي المسلمين . وقد وصلت هذه الحملة فى عهد نور الدين محمود ، غير أن زعماءها انحرفوا عن هدفهم الأصيل واتجهوا صوب دمشق ، وبذلك أخطأ الصليبيون باتجاههم إلى هذه المدينة التى كانت الحليف الوحيد للصليبيين ضد نور الدين محمود<sup>(٣)</sup> . وكان ذلك من أهم الأسباب التى أدت إلى إخفاق الحملة الصليبية الثانية .

وقد فكر نور الدين محمود فى الاستيلاء على دمشق ليتحصن بها ضد الصليبيين وتم له ما أراد سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، كما استطاع أن يستولى على بعض القلاع الصليبية الأخرى<sup>(٤)</sup> ، وأن يمد نفوذه إلى مصر بمساعدة أسد الدين شيركوه وابن أخيه

(١) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأنابكية س ١٥٧ — ١٥٩ .

(٢) ابن الأثير : السكامل ج ١١ ص ٥١ — ٥٢ .

(٣) Barker, The Crusades, p. 54.

(٤) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأنابكية ص ١٨٨ — ١٩١ .

صلاح الدين الأيوبي الذي أصبح أكبر زعيم في الشرق بعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م). فقد توجه صلاح الدين إلى حلب بحجة إنقاذ الصالح إسماعيل ابن نور الدين محمود الذي لم يزد عمره على إحدى عشرة سنة من أيدي أفراد حاشيته الذين تحالفوا مع « ريمند » صاحب طرابلس ، ولكن صلاح الدين رفع الحصار عن هذه المدينة حين سارع « ريمند » إلى مساعدة أمير حلب .

وفي سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) سار سيف الدين غازي الثاني ( بن قطب الدين مودود ) أنابك الموصل لمساعدة ابن عمه صاحب حلب ، والتقت القوات المتحالفتان بصلاح الدين عند الموضع المسمى « قرون حماه » حيث انتصر صلاح الدين ، كما انتصر على سيف الدين غازي في السنة التالية . وبذلك خضعت بلاد الجزيرة لسلطان صلاح الدين ، فاعترف له أمير حلب بالسيادة على كافة البلاد الممتدة من مصر إلى نهر الفرات<sup>(١)</sup> .

وفي سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) توفي الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود ، وكان قد أوصى قبل وفاته بولاية حلب لابن عز الدين مسعود أمير الموصل . ولتباعدها تين الولاياتين بعضها عن بعض عرض عماد الدين صاحب سنجار على عز الدين مسعود أن يأخذ عماد الدين « حلب » ويأخذ عز الدين « سنجار » ، وبذلك تصيح أملاك عز الدين متقاربة بعضها من بعض . وكانت سياسة عماد الدين ترمي إلى محاربة صلاح الدين والحد من سلطانه . لهذا لم ير صلاح الدين بدا من السير إلى مدينة حلب (٥٧٩ / ١١٨٣) واضطر عماد الدين إلى تسليمها إليه مقابل إعادته إلى ولايته الأصلية سنجار<sup>(٢)</sup> . وبذلك آلت ولاية حلب إلى صلاح الدين ثم إلى ابنه الظاهر من بعده<sup>(٣)</sup> واستمرت في أيدي الأيوبيين حتى استولى عليها هولاكو التتاري وفر الناصر صاحب حلب إلى الكرك ( بفتح الكاف والراء ) حيث تحصن ضد المغول<sup>(٤)</sup> .

(٤) أنابكية سنجار ٥٦٦—٦١٧ / ١١٧٠ - ١٢٢٠

أسس هذه الأنابكية عماد الدين زنكي ( الثالث ) بن قطب الدين مودود صاحب الموصل الذي كان قد أوصى بالملك لابنه الأكبر عماد الدين زنكي الثاني ، ثم عدل عن وصيته

(١) Lane - Poole, Hist, of Egypt in the Middle Ages, pp. 199—200.

(٢) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأنابكية ص ٢٣١ — ٢٣٤ . الكامل ج ١١ ص ٢٢٤ .

(٣) لينبول A Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 213

(٤) Raschdi - El din, Histoire des Mongols de la Perse, p. 341

لابنه الأصغر سيف الدين غازي الأول بإيعاز أحد خواصه<sup>(١)</sup> ويدعى نخر الدين عبد المسيح ، وكان يكره عماد الدين لمسارته عمه نور الدين محمود صاحب حلب . كما كان يضمر له العداء ، فلما توفي قطب الدين سنة ٥٦٥ هـ ، وعلم نور الدين ومحمود باستبداد نخر الدين عبد المسيح بابن أخيه سيف الدين وسوء سياسته قال : « أنا أولى بتدبير أولاد أخي وملكهم » . ثم سار نور الدين محمود إلى الموصل واستولى (وهو في طريقه إليها) على مدينة سنجار ، ولما حاصر نور الدين الموصل أسرع نخر الدين عبد المسيح إلى تسليمها إليه ، فولاه ابن أخيه سيف الدين غازي<sup>(٢)</sup> ، كما ولي سنجار وأعمالها عماد الدين زنكي الثاني (١١٧٠ / ٥٦٦)<sup>(٣)</sup> .

وقد أدى هذا التقسيم إلى قيام الخلاف بين الأخوين لتولى عماد الدين زنكي مدينة الموصل وأعمالها على حين تولى أخوه الأكبر إمارة سنجار التي تقل عنها أهمية<sup>(٤)</sup> .

وقد تجلّى هذا الخلاف بين هذين الأخوين حين استنجد الصالح إسماعيل (بن نور الدين محمود) أمير حلب بسيف الدين غازي صاحب الموصل (٥٧٥ هـ) لمساعدته ضد صلاح الدين . فقد طلب سيف الدين من أخيه عماد الدين أن يمدّه بالجند ليسير بهم إلى بلاد الشام ، فرفض أن يجيبه إلى طلبه ، وكان ذلك بإيعاز من صلاح الدين الذي أطمعه في الملك بحجة أنه أكبر من أخيه سيف الدين غازي . وقد انتهى هذا الخلاف بحصار سيف الدين غازي مدينة سنجار ، ولكنه عاد فرفع هذا الحصار خوفاً من أن يسرع صلاح الدين بعد انتصاره في بلاد الشام إلى نجدة خليفة عماد الدين<sup>(٥)</sup> .

وصفوة القول أن أمرة زنكي حكمت إمارة سنجار إلى أن استولى عليها الأيوبيون في عهد الملك الأشرف سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) ثم خرب المغول معظم بلاد هذه الإمارة وما جاورها سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م)<sup>(٦)</sup> .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ١٦٢ — ١٦٣ .

(٣) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٦٣ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٦) المصدر نفسه ج ١١ ص ٢٣٢ .

(٥) أتابكية الجزيرة ٥٧٦ - ٦٤٨ / ١١٨٠ - ١٢٥٠

ذكرنا من قبل أنه بعد وفاة عماد الدين زنكي سنة ٥٤١ هـ انقسمت أملاكه بين ولديه نور الدين محمود الذي قبض على زمام الحكم في سورية ، وسيف الدين غازي الذي حكم الموصل والجزيرة ، ثم استقر فرع آخر في سنجار ، ثم قامت دويلة أخرى في الجزيرة .

ذلك أنه لما حضرت سيف الدين غازي صاحب الموصل الوفاة سنة ٥٧٦ ( ١١٨٠ م ) أراد أن يوصي بأن يخلفه ابنه معز الدين سنجر شاه ، وكان في الثانية عشرة من عمره . على أن أمراء دولته ذكروا له ما كان من تقاوم خطر صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام ، وأشاروا عليه بتولية أخيه عز الدين مسعود لما عرف به من الشجاعة ورجاحة العقل ، فزل سيف الدين غازي على رأيهم وولى أخاه حكم الموصل من بعده ، وولى ابنه سنجر شاه مدينة الجزيرة وقلاعها<sup>(١)</sup> . ولذلك قامت هناك أتابكية صغيرة مستقلة .

على أن سنجر شاه كان سعى السيرة مدمنا الشراب ، محباً لمجالس النساء مولعاً بالطرب . وقد انصف عهده بالعسف والظلم واستحلال دماء الأبرياء والأشرار على السواء . وبلغ من تعسفه أنه كان يعاقب بقطع الألسنة والآذان والأنوف ، وامتد شره إلى أبنائه فأقصاهم عن قصره . وقد روى المؤرخون أن ابنه معز الدين محمود قتله سنة ٦٠٥ هـ ( ١٢٠٨ م ) وقد لعبت الخنزير به وهو في أحد مجالس النساء ، وتولى حكم بلاد الجزيرة من بعده ابنه وقائله معز الدين محمود .

وقد خضع أمراء الجزيرة لصلاح الدين الأيوبي الذي استطاع أن يوحد أمراء شمالي العراق وهي الموصل وسنجان والجزيرة ولاربيل وغيرها ، وأن يوجهها لحرب الصليبيين<sup>(٢)</sup> . وكانت هذه البلاد من نصيب العادل وأولاده من بعده حتى غزاها المغول .

(٦) أتابكية إربيل ٥٣٩ - ٦٣٠ / ١١٤٤ - ١٢٣٢

في سنة ٥٣٩ هـ ( ١١٤٤ م ) عين عماد الدين زنكي أحد قواده الإنزاري ، وهو

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٢) Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 207.

زين الدين علي بن بكتكين نائباً عنه في الموصل . وفي سنة ٥٤٤ هـ ( ١١٤٩ م ) ضم زين الدين سنجار وتكريت ولاربيل<sup>(١)</sup> وغيرها تحت نفوذه . وعند وفاة زين الدين علي في لاربيل ( ١١٦٧/٥٣٦ ) هرب ابنه الأكبر مظفر الدين كوكبُرى إلى حران ، وانتقل حكم لاربيل إلى ابنه الأكبر زين الدين يوسف تحت وصاية الأمير مجاهد الدين قبياز . وعند وفاة يوسف سنة ٥٨٦ هـ ( ١١٩٠ م ) عين صلاح الدين الأيوبي صاحب النفوذ في سورية وبلاد الجزيرة ، مظفر الدين كوكبُرى خلفاً لأخيه في لاربيل وشهرزار ، وأعطى البلاد التي كان يحكمها من قبل ، وهي حران والزها وسُيمِساط إلى ابن أخيه تقي الدين عمر . وقد مات كوكبُرى سنة ٦٣٠ هـ ( ١٢٣٢ م ) . ولما لم يكن له أولاد ذكور أوصى بأن يكون حكم لاربيل إلى الخليفة العباسي ، فظلت تحت حكمه حتى استولى عليها المغول أثناء غزوم البلاد الإسلامية<sup>(٢)</sup> .

### بيت بكتكين أتابكة لاربيل وغيرها

١١٤٤	زين الدين علي كوجك بن بكتكين	٥٣٩
١١٦٧	زين الدين يوسف بن علي ( في لاربيل ) ت ٥٨٦ هـ	٥٦٣
١١٦٧	مظفر الدين كوكبُرى بن علي ( في حران )	٥٦٣
١١٩٠ — ١٢٣٢	٦٣٠ مظفر الدين كوكبُرى بن علي ( في لاربيل )	٥٨٦
	[ العباسيون — المغول ]	

(٧) أتابكية ديار بكر<sup>(٣)</sup>

كان أرتق ( بن أكسب ) مؤسس هذه الأسرة قائداً تركياً من قواد الدولة السلجوقية . وقد تقلد ولاية بيت المقدس بعد أن فتحها تُنُش السلجوقي صاحب دمشق ، وقد تولى سُكُمان وإيلغازي ( ابنا أرتق ) اللذان اشتهرا في حروبهما مع الصليبيين بفلسطين حكم ديار بكر سنة ٤٨٤ هـ ( ١٠٩١ م ) إلى أن ضم الفاطميون هذه المدينة

(١) وهي قلعة حصينة من أعمال الموصل وأهلها أكراد استعربوا

op. cit., p. 165.

(٢)

(٣) تعرف هذه الأتابكية بالدولة الأرتقية نسبة إلى مؤسسها أرتق بن أكسب ، وقد شملت

هذه الأتابكية ماردين وميافارقين وبعض الحصون المجاورة كحصن كيفا .



سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) ، ثم عادا إلى الرها والعراق على التوالي . وفي سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) عين السلطان محمد السلجوقي ، إيلغازي والياً على بغداد ، وفي السنة نفسها قلد أخاه سُكَّانَ حصن كَيْفَا بديار بكر ، فضم إليها ماردين . ولكن حكمها انتقل في سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٨ م) إلى أخيه إيلغازي ، ومن ثم أصبح هناك فرعان من بيت أرتق يتوليان الحكم في كَيْفَا وماردين .

وبعد هذه الأعمال الحربية التي قام بها آل أرتق في كَيْفَا على يد سُكَّانَ الذي حارب « بولدوين » وجوكين Jocelin من الفرنجة عاش هذا الفرع في اطمئنان ، يدين حكمه بالطاعة لصالح الدين الأيوبي الذي كافأهم بضم آمد إلى بلادهم (١١٨٣/٥٧٩) ، وظل هذا الفرع حتى انقرض على يد السلطان الكامل الأيوبي (١٢٣١/٦٢٩) . وقد حكم فرع صغير من بيت أرتق في كَيْفَا الذين كانوا يحكمون حَرَّ تَبَرْت بديار بكر من سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) إلى سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) . أما بنو أرتق بماردين فقد كوفئوا بإيلغازي (مؤسس بني أرتق بماردين الذي يعد من أبطال المسلمين في جهاد الصليبيين) بولاية حلب سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) ، ثم قلده السلطان محمود السلجوقي ولاية ميافارقين (بديار بكر) ، واستمر أبناؤه يحكمون ماردين وميافارقين حتى سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) .

على أن موقع هذه الدولة كان من العوامل التي أضعفت وحدة المسلمين بسبب المنازعات التي قامت بينهم ، ثم غزا المغول معظم مدن هذه الأناطكية سنة ٦٢٨ هـ وعاثوا فيها فساداً في أثناء مطاردتهم جلال الدين المنكبرتي آخر شاهات الدولة الخوارزمية ، وقد استسلمت الدولة الأرتقية لتييمورلنك ودخلت في دولة قَرَّاقِيُونِي Karā-Kuyunli المغولية سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨ م) . على أن أهمية أمراء ماردين قد زالت بعد أن استقر نفوذ الأيوبيين في سورية وبلاد الجزيرة ، ولكن حلب قد سقطت سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) على يد بَلَّك بن إبراهيم أحد زعماء بيت أرتق الذي استولى على « عانة » (٤٩٧ هـ) وخر تَبَرْت (٥١٥ هـ) . وكان بلك بن إبراهيم من القواد الذين اشتهروا بحروبهم مع الصليبيين .

(١) زامباور : الأسرات الإسلامية ص ٢٢٨ — ٢٢٩ . لينول :

The Muhammadan Dynasties, pp. 166—169

(٦ م - تاريخ الإسلام - ج ٤)

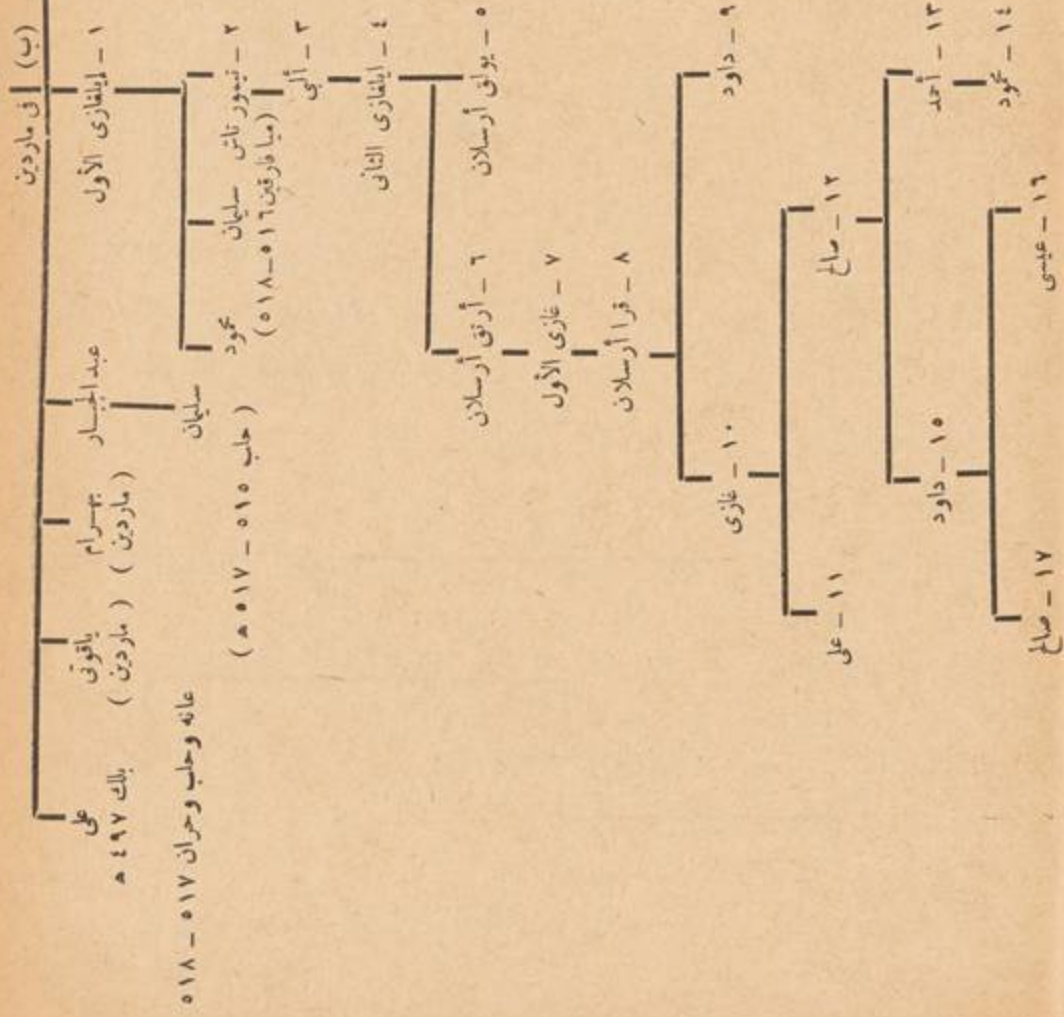
(٨) بيت أرتق في كيفيا

١١٠١	معين الدولة سُكَّمان الأول	٤٩٥
١١٠٤	إبراهيم	٤٩٨
١١٠٨	ركن الدولة داود	٥٠٢
١١٤٨	نغر الدين قرا - أرسلان	٥٤٣
١١٧٤	نور الدين محمد	٥٧٠
١١٨٥	قطب الدين سُكَّمان الثاني	٥٨١
١٢٠٠	ناصر الدين محمود	٥٩٧
— ١٢٢٢	ركن الدين مودود	— ٦١٩
١٢٣١		٦٢٩

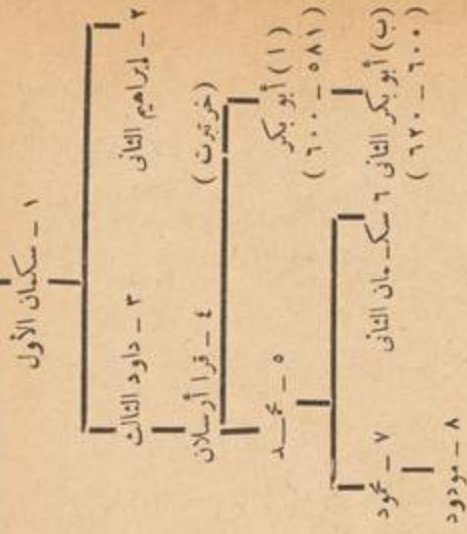
[ الأيوبيون ]

١١٠٨ - ١٤٠٨ هـ	بيت أرتق في ماردين (ب) ٥٨٠١ - ٥٠٢	
١١٠٨	نجم الدين إيلغازي	٥٠٢
١١٢٢	حسام الدين تُمُرَتاش	٥١٦
١١٥٢	نجم الدين أُلَيَّي	٥٤٧
١١٧٦	قطب الدين إيلغازي	٥٧٢
١١٨٤	حسام الدين يُولُوقُ - أرسلان	٥٨٠
١٢٠٠	ناصر الدين أرتق - أرسلان المنصور	٥٩٧
١٢٣٩	نجم الدين غازي الأول السعيد	٦٣٧
١٢٦٠	قرا - أرسلان المظفر	٦٥٨
١٢٩٢	شمس الدين داود	٦٩١
١٢٩٤	نجم الدين غازي الثاني المنصور	٦٩٣
١٣١٢	عماد الدين علي أُلَيَّي العادل	٧١٢
١٣١٢	شمس الدين صالح	٧١٢
١٣٦٣	أحمد المنصور	٧٦٥

أرتق



(أ) في كيفا

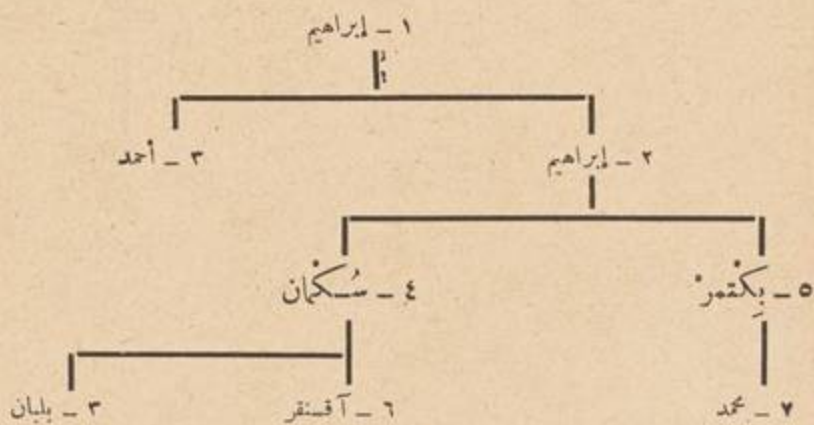


١٣٦٧	محمود الصالح	٧٦٩
١٣٦٧	داود المظفر	٧٦٩
١٣٧٦	مجد الدين عيسى الطاهر	٧٧٨
— ١٤٠٦	صالح	— ٨٠٩
١٤٠٨		٨١١

[ قَرَاقِيُونِي ]

(٩) سَاهَات أَرْصِنِيَّة

١١٠٠	سُكَّانُ الْقَطْبِي	٤٩٣
١١١٢	ظاهر الدين إبراهيم شاه أرمان	٥٠٦
١١٢٧	أحمد	٥٢١
١١٢٨	ناصر الدين سكران الثاني	٥٢٢
١١٨٣	سيف الدين بكتمر	٥٧٩
١١٩٣	بدر الدين آقسنقر	٥٨٩
١١٩٨	لنصور محمد	٥٩٤
— ١٢٠٦	عز الدين بلبان	— ٦٠٣
١٢٠٧		٦٠٤



[ الأيوبيون ]

(\*) الأسطر المنقوطة تدل على علاقة السيد بمملوكه .

تطلعت أنظار العرب منذ أيام عثمان بن عفان إلى حكم أرمينية (١) وكان يتنازعها البيزنطيون والعرب . ولما ولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة سنة ٤١ هـ (٦٦١ م) دعا أهل أرمينية إلى الطاعة مع دفع الجزية لئلا يفتح أهلها إلى الطاعة وظلت خاضعة للحكم العربي . وعلى الرغم من الحروب المريرة التي قامت بين العرب الأوائل والارمن نهضت البلاد في عهدهم . ثم حكمها العباسيون . ولكن ظهور القومية الأرمينية أطاح بالحكم العربي واستولى عليها البيزنطيون وظلت على ذلك حتى استردها قواد السلاجقة الذين أخذوا يشنون الغارات عليها من سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) .

على أن السلاجقة نهضوا في عهد ألب أرسلان الذي وجه حملاته إلى أرمينية من الرى ، فأخضع أران والسرج وغيرها من البلاد الواقعة شرقي أرمينية . وسار الإمبراطور رومانوس الرابع (٤٦٣ / ١٠٧١ م) على رأس جيش جرار بلغ مائة ألف مقاتل لصد التقدم السلجوقي ، واسترد حصن « ملاذ جرد » أمنع القلاع الواقعة على الحدود . غير أن السلاجقة أرغموا الجيش البيزنطي على الارتداد إلى بلاد « بين النهرين » وأسر ألب أرسلان الإمبراطور البيزنطي . وكانت هذه الهزيمة إيذانا بانتهاء حكم الدولة البيزنطية ، واقتربت بسقوط بلاد الأناضول العربية وأرمينية وكبادوكيا وهجرة جماعات كبيرة من الأرمن نحو الغرب فرارا من الغزاة ، وأسسوا في كيليكيا دولة أرمينية مستقلة استمرت حتى زالت على أيدي المغول في آسيا الصغرى في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي .

وقد انقسمت أرمينية في عهد الحكم السلجوقي إلى مناطق إدارية تختلف مساحتها ، ويحكم كلا منها أمير يتمتع بقسط كبير من الاستقلال . وكانت دولة أخلاط الواقعة في الجنوب الغربي والتي أسسها سقمان القطبي سنة ٤٩٣ هـ (١١٠٠ م) (٢) أقوى الدويلات إذا قورنت بالدويلات السلجوقية التي قامت في أرمينية ، على الرغم من أن هذه الإمارة التي كان أغلب سكانها من الأرمن لا تمثل إلا خمس بلاد أرمينية ، ولما انقرضت أسرة بني سقمان (٥٨١ / ١١٨٥) انتقل الحكم إلى « مملوك بك تيمور » (١١٨٥ - ١١٩٧ م) . ثم استولى الأيوبيون على هذه البلاد (٦٠٤ / ١٢٠٧) ، وأقام السلطان الملك العادل الذي

(١) بفتح وكسر الهجزة .

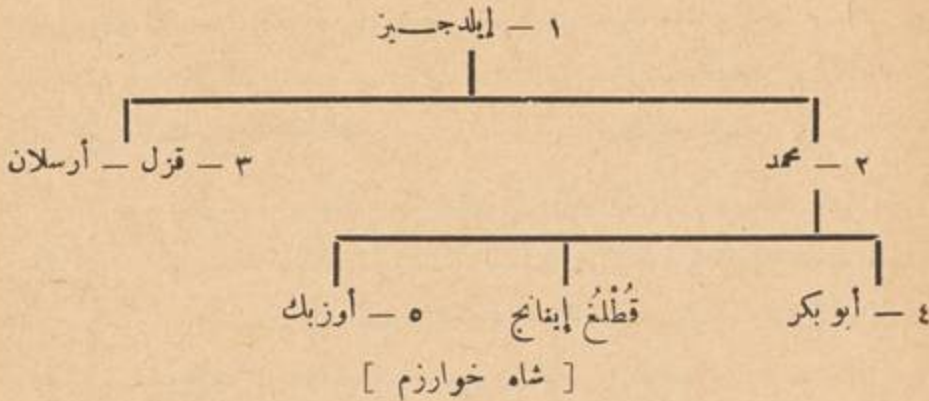
أعاد توحيد دولة أخيه صلاح الدين (ابنه الأوحيد أميراً على خلاط ، ثم خلفه أخوه الأشرف<sup>(١)</sup> . ولما مات العادل استقل الأشرف بحكم هذه البلاد ووسع رقعة بلاده حتى بلغت بلاد الأكراد<sup>(٢)</sup> . وفي سنة ٦٤٢ هـ ( ١٢٤٤ م ) سقطت مملكة خلاط التي كان يحكمها المظفر غازي آخر ملوك الأيوبيين ، باستيلاء هولاكو التتاري عليها ، كما فتح أرمينية<sup>(٣)</sup> وكرديستان والعراق وبلاد ما بين النهرين .

(١٠) أتابكية أذربيجان<sup>(٤)</sup>

١١٣٦	شمس الدين إبلدجز	٥٣١
١١٧٢	محمد البهلوان چاهان	٥٦٨
١١٨٥	قزلب - أرسلان عثمان	٥٨١
١١٩١	أبو بكر	٥٨٧
١٢١٠ -	مظفر الدين أوزبك	٦٠٧ -

١١٢٥

٦٢٢



(١) وكاننا يحكمان تحت إشراف أبيهما العادل .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٢٢٦ .

انظر مادة أرمينية في ترجمة دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) لينبول : الأسرات الإسلامية ص ١٧١ .

أسس هذه الدولة إبلدجيز وهو مملوك تركي كان من المقربين في بلاط السلطان  
حسعود السلجوقي في بلاد العراق . وقد اشتراه من بلاد القفجاق<sup>(١)</sup> . فاشتغل في أول  
أمره في مطبخ السلطان مسعود ، ثم أخذ يترقى في سلك البلاط في العراق ، وأخيراً تقلد  
إقليم اران في شمالي أذربيجان . وقد تزوج من أخت زوجة السلطان وكانت أرملة .  
وقد أخذ إبلدجيز يوسع نفوذه فاستولى على معظم بلاد أذربيجان وبلاد الجبل  
وهمدان وأصبهان والري وامتد نفوذه من تفليس إلى مكران<sup>(٢)</sup> . وكان ابنه محمد الحاكم  
الفعلي للعراق بالإضافة إلى ولاية أذربيجان . وقد خلف أباه بعد وفاته سنة ١١٧٢/٥٦٨ .  
على أن هذه البلاد الشاسعة الأطراف انكسرت إلى أذربيجان في عهد الاتابك أبي بكر  
محمد الذي اتخذ مدينة تبريز حاضرة له . وظلت هذه البلاد تحت حكم هذه الأسرة حتى  
استولى جلال الدين المنكبرقي آخر شاهات خوارزم عليها من أوزبك البهلوان آخر  
أمراؤها سنة ١٢٢٢/٦٢٢ وتزوج من أرملة وهي ابنة طغرليك آخر سلاطين السلاجقة  
في العراق<sup>(٣)</sup> ثم استولى المغول على هذه البلاد سنة ١٢٣١/٦٢٨ .

وقد روى المؤرخون أن هولاءكو اتخذ من أذربيجان مكاناً لحفظ الأسلاب  
والغنائم التي استولى عليها في حروبه لبعدها ومناعتها . وبذلك أصبحت أذربيجان ذات أهمية  
خاصة في العصر المغولي .

### (١١) سلافة كَرَمَان

١٠٤١	قاورت بك : عماد الدين قرا أرسلان	٤٣٣
١٠٧٢	كرمان شاه	٤٦٥
١٠٧٤	حسين	٤٦٧
١٠٧٤	سلطان شاه : ركن الدين	٤٦٧
١٠٨٤	توران شاه	٤٧٧

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٧٤ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٩٨ — ٢٠١ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٢٣٤ .

١٠٩٧	إميران شاه	٤٩٠
١١٠٠	أرسلان شاه	٤٩٤
١١٤١	محمد الأول (*): مغيث الدين	٥٣٦
١١٥٦	طغرل شاه : محيي الدين	٥٥١
١١٦٧	{ بهرام شاه أرسلان شاه الثاني تركان شاه }	مناقسون
١١٨٧	محمد الثاني +	٥٨٣

[ التركان الغز ]

\* كان محمد في حروب متصلة قبل وفاة بركياقو بسنوات كثيرة  
+ كان سنجر والياً على خراسان عشرين سنة قبل أن يجلس على عرش السلطنة .

(١٢) سلطنة سورية

١٠٩٤	تنش بن ألب أرسلان	٤٨٧
١٠٩٥	رضوان بن تنش ( في حلب )	٤٨٨
	( دقاق بن تنش في دمشق ٤٨٨ — ٤٩٧ )	
١١١٣	ألب أرسلان الأخرس بن رضوان	٥٠٧
١١١٤ — ١١١٧	سلطان شاه بن رضوان	٥٠٨ — ٥١١

[ الأرتقيون ، البوريون ]

(١٣) سلطنة العراق وكرديستانه

١١١٧	محمود : مغيث الدين	٥١١
١١٣١	داود : غياث الدين	٥٢٥
١١٣٢	طغرل الأول	٥٢٦
١١٣٣	مسعود : غياث الدين	٥٢٧
١١٥٢	ملكشاه : معين الدين	٥٤٧



١١٥٣	محمد	٥٤٨
١١٥٩	سليمان شاه	٥٥٤
١١٦١	أرسلان شاه	٥٥٦
— ١١٧٧	طغرل الثاني	— ٥٧٣
١١٩٤		٥٩٠

[ شاهات خوارزم ]

(١٤) سلاجقة الروم

( آسيا الصغرى )

١٠٧٧	سليمان الأول بن قطلمش	٤٧٠
١٠٨٦	فترة	٤٧٩
١٠٩٢	قليج أرسلان داود	٤٨٥
١١٠٦	ملك شاه الأول	٥٠٠
١١١٦	مسعود الأول	٥١٠
١١٥٦	عز الدين قليج أرسلان الأول	٥٥١ <sup>(١)</sup>
١١٨٨	قطب الدين ملك شاه الثاني	٥٨٤
١١٩٢	غياث الدين كينخسرو الأول	٥٨٨
١٢٠٠	ركن الدين سليمان الثاني	٥٩٧
١٢٠٣	قليج أرسلان الثاني	٦٠٠
١٢٠٤	كينخسرو الأول أعيد إلى الحكم	٦٠١
١٢١٠	عز الدين كينسكاوس الأول	٦٠٧
١٢١٩	علاء الدين كينقباد الأول	٦١٦
١٢٣٦	غياث الدين كينخسرو الثاني	٦٣٤

(١) عاش قليج أرسلان إلى سنة ٥٨٨ هـ ولكنه قسم بلاده بين أولاده قبل وفاته بضع سنين

١٢٤٥	عز الدين كيقاوس الثاني	٦٤٣ <sup>(١)</sup>
١٢٥٧	ركن الدين قليج أرسلان الرابع	٦٥٥
١٢٦٧	غياث الدين كيخسرو الثالث	٦٦٦
١٢٨٣	غياث الدين مسعود الثاني	٦٨٢ <sup>(٢)</sup>
١٢٩٦ -	علاء الدين كيقباد الثاني	٦٩٦ -

١٣٠٠

٧٠٠

[ المغول ؛ الأتراك العثمانيون الخ ]

(١٥) السلاجقة الراشدين

في سيواس وقيصرية ومَلطية

محمد الأول بن جُمُشْتِكِين بن تِلُو دَانِشْمَنْد

١١٠٥	غازي بن جمشكين	٤٩٩
١١٣٤	محمد الثاني بن غازي	٥٢٩
١١٤٢	ذو النون بن محمد الثاني	٥٣٧
	بنى (أو يعقوب) أرسلان بن غازي	
١١٦٥	إبراهيم بن محمد الثاني	٥٦٠

[ سلاجقة الروم ]

بينما كان السلاجقة يوسعون رقعة إمبراطوريتهم في آسيا الصغرى ، وطد رئيس تركي آخر هو جمشكين بن دانشمند قوته في كبادوكيا في مدن سيواس وقيصرية ومَلطية . وفي المدينة الأخيرة هُزم الفرنجة ، وقد قام خلفاء جمشكين بدور رائع في الحروب الصليبية ، على أن هذه الأسرة سرعان ما اندمجت في جارتها الساجوقية العظيمة وهي سلاجقة الروم .

(١) حكم بالاشتراك مع أخيه قليج أرسلان الثالث وكيقباد .

(٢) سمح أباطخان المغول لمسعود بحكم سيواس وأرزنجان وأرضروم بعد وفاة أبيه كيقاوس سنة ٦٧٧ هـ خلال حكم ابن عمه كيخسرو الثالث الإسمي الذي خلفه سنة ٦٨٢ هـ ، ويظهر أن « مسعود » أعيد إلى مملكته على إثر عزل ابن أخيه كيقباد في سنة ٧٠٠ هـ وأنه حكم أربع سنين . ولكن الأربعة السلاجقة الآخرين لم يحكموا إلا تحت سيطرة إبلخانات المغول في فارس .

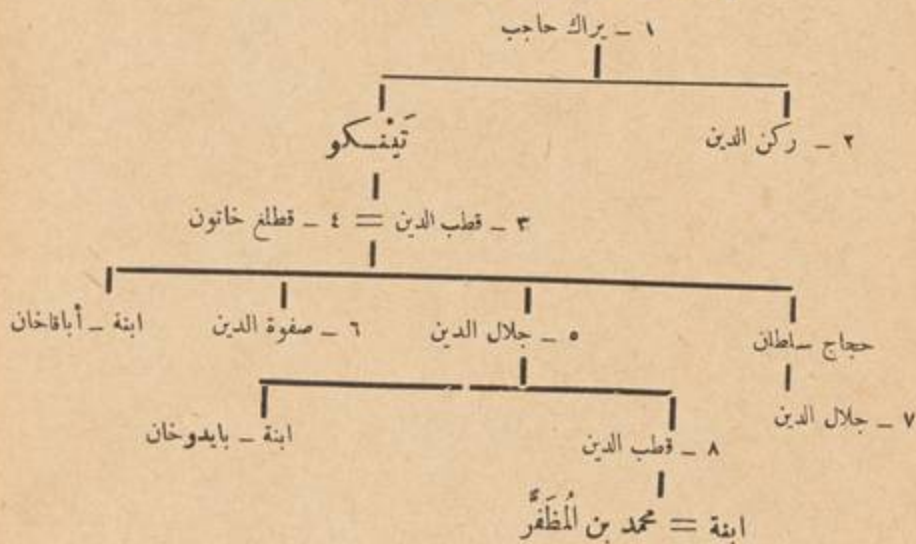
(١٦) أتابكيتة كرمانه

١٢٢٢ - ١٣٠٣ م	(خانات قُطْلُغ)	٥٧٠٣ - ٦١٩
١٢٢٢	بُرَاك حَاجِب قُطْلُغ خان	٦١٩
١٢٣٤	رُكْن الدِين خوجة الحق	٦٣٢
١٢٥٢	قُطْب الدِين مُحَمَّد	٦٥٠
١٢٥٧	قُطْلُغ خانُون (أرملة قُطْب الدِين مُحَمَّد، كان	٦٥٥
	ابنُها حَاجِب الحَاكِم الرِسمي بين سنتي ٦٥٥ و ٦٦٠ هـ)	
١٢٨٢		٦٨١
١٢٩٣		٦٩٣
١٢٩٤		٦٩٤
- ١٣٠١		- ٧٠١

١٣٠٣

٧٠٣

[ ولاية من المغول حتى سنة ٧٤١ هـ ثم المظفريون ]



نجح بُراك حاجب ، وهو أحد القواد في دولة الخطا الذين دخلوا في خدمة خوارزم شاه محمد<sup>(١)</sup> في كرمان سنة ٦١٩ هـ (١٢٢٢ م) . على أن هذه البلاد ظلت خاضعة اسمياً للخوارزميين في عهد جلال الدين منكبرتي الذي كان بران حاجب نائباً له . وقد أراد بران أن يستقل بهذه البلاد عن الخوارزميين سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٥ م) ، فأرسل إلى المغول يحثهم على محاربتة ، فلما علم جلال الدين خوارزمشاه بذلك سار على رأس جيش كبير لحرب براق الذي تحصن في إحدى قلاعہ وأبى أن يقابله وأرسل إليه رسالة يقول فيها :  
« إننى أنا العبد المملوك ، ولما سمعت بمسيرك إلى هذه البلاد ، أخليتها لك ، ولو علمت أنك تُبقي على الحضرت بابك ، وليكني أخاف هذا جميعه<sup>(٢)</sup> » .

وقد أدرك جلال الدين منكبرتي أن الدخول في حرب مع براق حاجب بصرفه عن الاستمرار في حرب المغول ، فرأى أن يهادنه ، وأرسل إليه الخلع وأقره على هذه البلاد . وقد بقيت هذه الأسيرة في حكم كرمان ثم خضعت للمغول حيث أقر « أغطاي » براك حاجب على حكم بلاده ، ومنحه لقب « قُطْلُغ خان » ، واستمرت هذه الأسيرة في حكم كرمان مع ولائها لآيلائخانات المغول في فارس ، وقد تزوج اثنان من هؤلاء المغول من بنات هؤلاء الحكام<sup>(٣)</sup> .

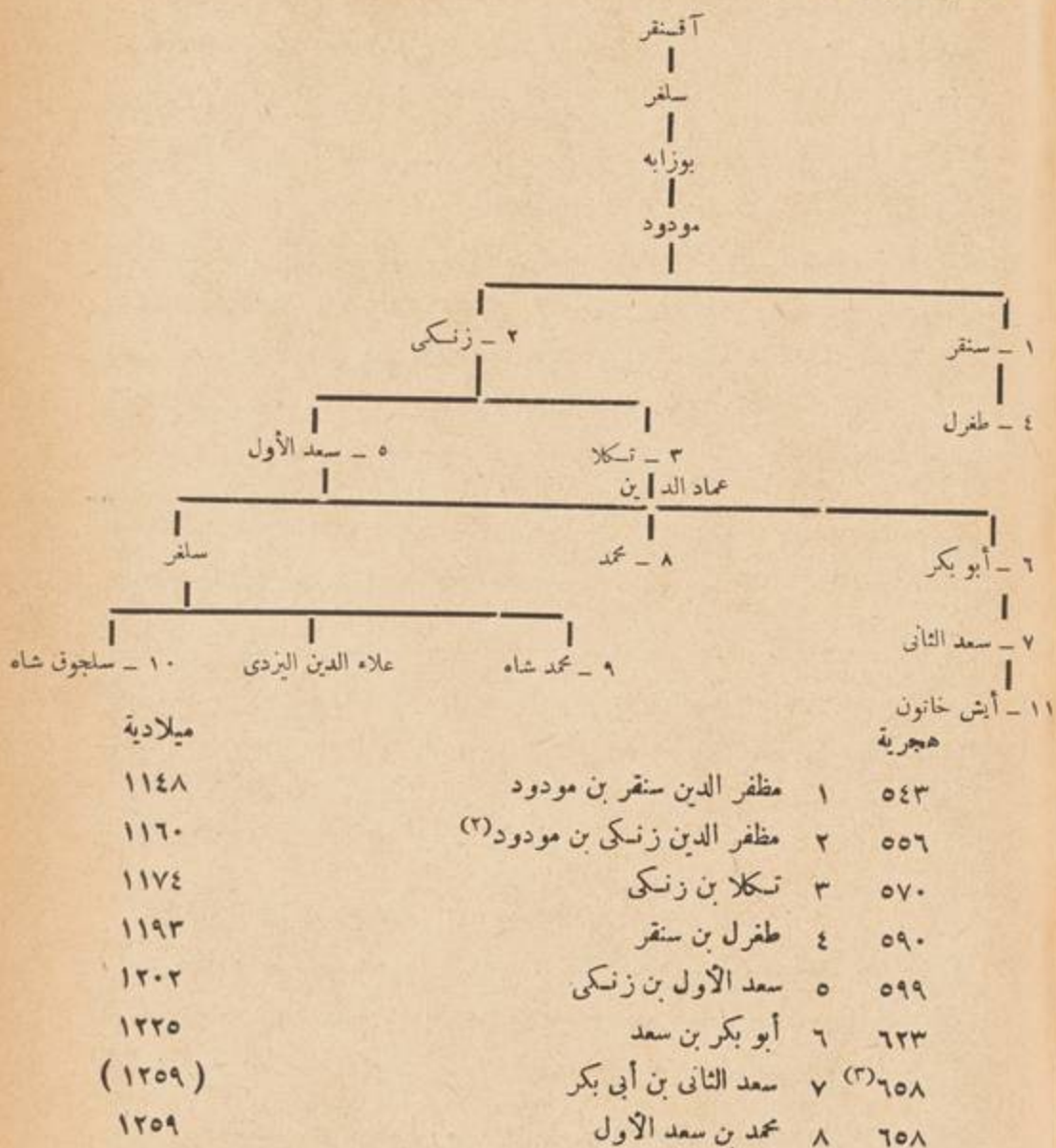
(١) راجع ما كتبه حافظ أحمد محمود عن دولة الخطا في كتابه « الدولة الخوارزمية والمغول » ص ٤٦ — ٦٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٢٠٩ .

The Muhammadan Dynasties, pp. 179—180.

(٣) لينبول

(١٧) الأتابكية فارس ٥٤٣ - ٦٨٦ / ١١٤٨ - ١٢٨٧



(١) وتعرف هذه الأتابكية أيضاً بالدولة السلقرية  
 (٢) كان نائباً لأرسلان بن طغرل السلطان السلجوقي .  
 (٣) توفي بعد اثني عشر يوماً من وفاة أبيه .

هجريه	ميلادية
٦٦٠	١٢٦٢
٦٦١	١٢٦٢
٦٦٣ — ١١	١٢٦٤ —
٦٨٦	١٢٨٧

[ حكم المغول ]

تنسب هذه الأتابكية إلى سلغر قائد إحدى قبائل التركان التي هاجت خراسان وانضمت إلى السامانيين طغرل بك السلجوقي الذي عينه في بلاطه . وقد استولى أحد خلفائه وهو سنقر بن مودود على إقليم فارس سنة ٥٤٣ / ١١٤٨ حيث أسس دولة حكمت قرناً ونصف قرن . وقد مد سنقر نفوذه على كرمان ، واتخذ شيراز حاضرة للملكة . واستولى سعد بن زنكي ( ٥٩٩ — ٦٢٣ هـ ) على أصبهان ثم مد نفوذه على العراق العجمي ( ٦١٤ هـ ) ، والتقى بجيوش خوارز شاه علاء الدين محمد في مدينة الري ، ولكن الهزيمة حلت به . ومع ذلك أكرمه خوارز شاه وأعادته إلى بلاده وأخذ جزءاً منها واكتفى بإقامة الخطبة له على المنابر (١) .

ولما توفي سعد بن زنكي سنة ٦٢٣ / ١٢٢٥ م تولى بعده ابنه أبو بكر ( ٦٢٥ - ٦٥٨ هـ ) الذي استطاع أن يوسع رقعة بلاده إلى بلاد البحرين ، وأن يخضع جميع جزر الخليج العربي ولما أغار جنكيزخان على البلاد الإسلامية رأى من الحكمة أن لا يقف في سبيله ، فأرسل إليه الهدايا الثمينة ، فلما دخل چنكيزخان بلاده لم يتعرض بسوء . ثم خضعت هذه البلاد لهولاءكو (٢) .

( ٢٢ ) أتابكية لورستان ٥٤٣ — ١١٤٨ / ٨٢٧ — ١٤٢٣

أسس هذه الأتابكية أبو طاهر بن محمد أحد قواد أتابكية فارس . وقد قامت هذه الدولة في إقليم جبلي حصين تسكنه قبائل بربرية منذ زمن بعيد وخضع حكامها لحكم دولة إيلخانات المغول في فارس ، وظلت في حكم لورستان حتى سقطت على يد إبراهيم بن شاه رُخ .

ثانياً : دولة خوارزم ٤٧٠ — ١١٧٧ / ٦٢٨ — ١٢٣١

انقسمت الدولة الإسلامية في ذلك العصر إلى دويلات متعادية متنافرة من بينها دولة

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٤٦

(٢) Raschid—Eldin, Histoire des Mongols de la Perse, p. 323.

خوارزم<sup>(١)</sup> . وقد جرت عادة السلاجقة أن يكافئوا أتباعهم من السقاة والحجاب  
وحراس الملابس الخاصة ، بإقطاعات من الأرض . وقد بدأ أنوشتكين<sup>(٢)</sup> ملكه سنة  
١٠٧٧/٤٧٠ ، ثم استطاع خلفاؤه بعد ذلك التخلص من كل صلة لهم بالسلاجقة ، وظلوا  
يحكمون هذه الدولة حتى زالت في عهد آخر ملوكهم جلال الدين منكبرتي الذي كانت  
له مواقف رائعة من البطولة أمام المغول من سنة ٦١٧ هـ ( ١٢٢٠ م ) إلى سنة  
٦٢٩ هـ ( ١٢٣١ م ) .

كان أنوشتكين يشغل وظيفة « الساقى » في بلاط ملكشاه السلجوقى . وكانت هذه  
الوظيفة من أهم وظائف البلاط : فهو الذى يشرف على الامسطة التى تقام فى الأعياد  
والمواسم وعند استقبال سفراء الملوك ، كما يشرف على تقطيع اللحوم وتقديم الماء  
والمشروبات أثناء الطعام وبعده<sup>(٣)</sup> . وثمة وظيفة أخرى هى وظيفة « الجاشنكير »  
الذى يقوم بذوق أصناف الطعام والشراب المختلفة قبل تقديمها إلى السلطان<sup>(٤)</sup> .

خلف أنوشتكين ابنه قطب الدين محمد ، وقد نشأ نشأة عالية ، وعرف بالأدب  
ونوفر عليه وانصرف إلى العلم . وكان على الهمة ، فعينه السلطان بركياروق بن ملكشاه  
السلجوقى حاكما على بلاد خوارزم ، ولقبه خوارزم شاه أى ملك خوارزم . ولما ملك  
السلطان سنجر خراسان سنة ٥١٢ هـ ، أقر قطب الدين محمد خوارزم شاه على خوارزم  
وأعمالها . فظل محببا إلى السلطان إلى أن مات سنة ٥٢١ هـ ، خلفه ابنه أنسز ، فسار  
سيرة أبيه واكتسب محبة السلطان . وكان أنسز أول من طمع فى الاستقلال من أفراد  
هذا البيت . ولكن سنجر آخر سلاطين السلاجقة الأقباء فى فارس عزله إثر ثورته عليه

---

(١) أو خورازميا وهى كىفا الحالية . وكان يطلق على كل من الحى والحاضرة اسم خوارزم ،  
ويطلق على حكامها لقب خوارزمشاه أو ملك خيوه . وهم من أتراك بلاد ما وراء النهر الذين جاءوا  
من خيوه ونشروا سلاطنتهم بين نهري الكنج ودجلة ، وإن كان هذا السلطان لم يتوطلد تماما بين  
سكان فارس والهند .

(٢) يسميه النسوى فى كتابه « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي » ( ص ٣٤ ) « نوشتكين » .  
وهذا المؤرخ يمدح حجة فى تاريخ فترة من فترات حكم الدولة الخوارزمية فوق أنه انخرط فى سلك  
الوظائف فى دولتهم فى عهد جلال الدين منكبرتي بوجه خاص ، وكان من أبرز رجال هذه الدولة .

(٣) انظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٩ .

(٤) المصدر نفسه ج ٥ ص ٤٦٠ .

سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) . ثم عاد آتسز إلى ولايته بعد قليل وتمنع هو ومن خلفه من شاهات خوارزم بما يتمتع به الملوك المستقلون ، وبلغ نفوذه جَنَد ( بفتح الجيم وسكون النون ) على نهر سيحون .

وفي سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) سار آتسز إلى مدينة مرو ، فهزمه سنجر هزيمة منكرة ، وقتل ابنه في هذه الموقعة . وكان من أثر انتصار سنجر في هذه الموقعة أن استولى على خوارزم وأقطعها ابن أخيه غياث الدين سليمان شاه . ولما عاد سنجر إلى مرو استرد آتسز حاضرة ملكه ، ثم فكر في الثأر لمقتل ابنه ، فخرض الكفار من الخطا الأتراك فهاجموا بلاد سنجر وهزموه هزيمة منكرة في صيف سنة ٥٣٦ هـ وقتلوا مائة ألف من جنده وأسروا زوجته واطروه إلى الهرب إلى ترمذ وبلغ<sup>(١)</sup> .

وفي هذه الأثناء أعلن آتسز استقلاله ، ثم تقدم إلى مرو فاحتلها . ويذكر ابن الأثير<sup>(٢)</sup> في حوادث سنة ٥٣٦ هـ أن آتسز لم يكن ينوى التعرض لمدينة مرو كما فعل بمدينة سرخس ، ولكنه اضطر إلى مهاجمتها حين علم بقتل جماعة من أتباعه<sup>(٣)</sup> . وكانت هذه الموقعة أول موقعة خسرها سنجر ، كما كانت فاتحة لسلسلة أخرى من الهزائم التي حلت به فيما بعد . ثم فتح آتسز مدينة نيسابور وأمر بحذف اسم سنجر من الخطبة (١١٤٢/٥٣٧) . وفي السنة التالية حاول سنجر محاصرة خوارزم ، ولكنه عجز عن ذلك ، فقبل الصلح مع آتسز الذي مات في ٩ جمادى الآخرة سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) قبل موت سنجر في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٢ هـ بقليل .

وهكذا تربع آتسز على عرش إمبراطورية شاسعة الأرجاء تنافس إمبراطورية السلاجقة في أبهى أيامها ، وتمتد من جبال أورال إلى الخليج العربي ومن جبال السند إلى حدود الفرات وتضم جميع ولايات إيران عدا ولايتي فارس وخوزستان . وقد استطاعت الدولة الخوارزمية أن تمد رقعتها وتثبت أقدامها أكثر من قرن ، ولم تسقط إلا بسبب كارثة عامة لم تكن في الحسبان ، غيرت من وجه التاريخ وأنزلت المصائب والويلات بالجنس البشري ، ونعني بهذه الكارثة غزوات المغول .

(١) الكامل ج ١١ ص ٣٣ - ٣٦ .

(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ٣٦ - ٣٧ .

(٣) براون : تاريخ الأدب في إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٣٨٢ هامش رقم (٣)



١٠٧٧ - ١٢٣١ م

شاهات خوارزم<sup>(١)</sup>

٤٧٠ - ٦٢٨ هـ

١٠٧٧  
 ١٠٩٧  
 ١١٢٧  
 ١١٥٦  
 ١١٧٢  
 ١١٧٢  
 ١١٩٩  
 - ١٢٢٠

٤٧٠ أنوشتكين  
 ٤٩٠ قطب الدين محمد  
 ٥٢١ أنسز  
 ٥٥١ إيل أرسلان  
 ٥٦٨ سلطان شاه محمود ت ٥٨٩ هـ  
 ٥٦٨ توكش  
 ٥٩٦ علاء الدين محمد  
 ٦١٧ - جلال الدين منكبرتي

١٢٣١

٦٢٨

[ المفلول ]

١ - أنوشتكين

٢ - قطب الدين محمد

٣ - أنسز

٤ - إيل - أرسلان

٥ - سلطان شاه

٦ - توكش

٧ - علاء الدين محمد

ناصر الدين ملكشاه  
( خراسان ت ٥٩٣ هـ )

يونس خان  
( الرى )

تاج الدين على شاه  
( كردستان )

أرسلان شاه

رکن الدين جورنشى  
( ت ٦١٩ هـ )

غياث الدين شيرشاه  
( ت ٦٢٧ هـ )

٨ - جلال الدين منكبرتي  
( ت ٦٢٨ هـ )

Lane-Poole, Muhammadan Dynasties, pp. 176-177 (١)

( م ٧ - تاريخ الإسلام ج ٤ )

وفي عهد الخليفة المستنصر العباسي ( ٥٦٦ - ١١٧٠/٥٧٥ - ١١٨٠ ) توفي خوارزم شاه إيل أرسلان بن أنسر ( ٥٦٨ هـ ) ، فلك بعده ابنه الأصغر سلطان شاه محمد تحت وصاية أمه . وقد خرج عليه أخوه الأكبر علاء الدين تكش ( بضم التاء والكاف ) ( ٥٦٨ - ٥٩٦ / ١١٧٢ - ١١٩٩ ) الذي استولى على بلاد خوارزم واستقل بها وقضى على ملك السلاجقة في العراق ( ٥٩٠ هـ ) بقتل طغرل بن ألب أرسلان السلجوقي . وقد اتسع ملك علاء الدين في الشرق على حساب دولة الخطا ، وبذلك امتد نفوذه من بلاد ما وراء النهر شرقاً إلى بلاد الري التي استولى عليها وقضى على السلاجقة . ولكن ملكه في الري لم يكن ثابتاً ؛ فقد عول الخليفة العباسي الناصر ( ٥٧٥ - ٦٢٢ / ١١٨٠ - ١٢٢٥ ) على أن تكون له سيادة الري بعد رحيل خوارزم شاه تكش عنها ، فأرسل إليها جيشاً استردها من عامله ، فعاد إلى الري واستردها من جند الخليفة .

#### خوارزمشاه علاء الدين محمد ٥٩٦ - ٦١٧ / ١١٩٩ - ١٢٢٠

بقي علاء الدين تكش في الحكم حتى توفي سنة ٥٩٦ هـ ، خلفه ابنه علاء الدين محمد ( ٥٩٦ - ٦١٧ / ١١٩٩ - ١٢٢٠ ) الذي امتدت الدولة الخوارزمية في عهده من حدود العراق غرباً إلى حدود الهند شرقاً ، ومن شمالي بحر قزوين وبحر آرال شمالاً إلى الخليج العربي والمحيط الهندي جنوباً .

وفي سنة ٦٠٤ هـ وطلب سلطان سمرقند مساعدة خوارزمشاه علاء الدين محمد مساعدته على قتال الخطا الذين اشتدت وطأتهم وعم شرهم في تركستان وبلاد ما وراء النهر ، فولى خوارزمشاه أخاه علي شاه طبرستان بالإضافة إلى جرجان وقلد نواباً عنه في حكم أقاليم خراسان وأبرم الصلح مع غياث الدين محمود الغوري واعترف بما كان تحت يده من بلاد الغور . ثم عبر خوارزمشاه نهر جيحون ودارت المعارك بين جيوشه وجيوش سلطان سمرقند وبين ملك الخطا . وقد دارت الدائرة على جيش المسلمين وقتل الخطا كثيراً منهم وأسروا خوارزمشاه علاء الدين محمد وأميراً كبيراً من أمراء دولته يقال له شهاب الدين مسعود ، وعادت القالة إلى خوارزم . وقد احتال هذا الأمير في إطلاق سراح مولاة ، فعرض عليه أن يتظاهر بخدمته عله يتمكن من خلاصه . فقام خوارزمشاه بخدمة شهاب الدين مسعود ، وكان يعظمه ويقدم له الطعام ويخلعه ثيابه وخُفّه . فقال الخطائي الذي أسره مالاين مسعود : أرى هذا الرجل يعظملك فن أنت ؟ فقال : أنا فلان وهذا

غلامى ، فقام إليه ( الخطائى ) وأكرمه وقال : لولا أن القوم عرفوا ، مكانك عندى لأطلقتك ، ثم تركه أياماً ، فقال له ابن مسعود : إني أخاف أن يرجع المنهزمون فلا يرانى أهلى معهم فيظنون أنى قتلت فيعملون العزاء والمأتم وتضيق صدورهم لذلك ثم يقتسمون مالى فأهلك . وأحب أن تقرر على شيئاً من المال حتى أحمله إليك ، فقرر عليه مالا وقال له : أريد أن تأمر رجلاً عاقلاً يذهب بكتبانى إلى أهلى ويخبرهم بعافيتى ويحضر معى من يحمل المال ثم قال : إن أصحابكم لا يعرفون أهلنا ، ولكن هذا غلامى أثق به ويصدق أهلى ، فأذن له الخطائى بانفاذه ، فسيره وأرسل معى الخطائى فرساً وعدة من الفرسان يحمونه ، فساروا حتى قاربوا خوارزم ، وعاد الفرسان عن خوارزمشاه ، ووصل خوارزمشاه ، فاستبشر به الناس وضربت البشائر وزينوا البلد وأتته الأخبار بما صنع كذلك بنيسابور وبما صنع أخوه على شاه بطبرستان (١) .

ولما علم على شاه صاحب طبرستان وجرجان بفقد أخيه خوارزمشاه علاء الدين محمد بايع لنفسه (٢) . ثم عاد خوارزمشاه إلى بلاده واحتال فى القبض على ابن خرميل صاحب هراة . وقد ذكر ابن الأثير (٣) أن قائد خوارزمشاه لما قرب من هراة خرج ابن خرميل مع كبار رجال إمارته للقائه ، فأمر هذا القائد أصحابه فقبضوا عليه ، ولكنهم لم يتمكنوا من أخذ هراة (٤) . وأبى الوزير ابن خرميل تسليم المدينة ، فأمر القائد الخوارزمى بقتل ابن خرميل وطلب النجدة من خوارزمشاه ، فبعث إليه عشرة آلاف فارس حاصروا هذه المدينة ومنعوا وصول المؤن إليها ثم استولوا عليها ( سنة ٦٠٥ هـ ) . ثم أمر خوارزمشاه علاء الدين محمد خاله « أمير ملك » وكان قد أتاه عنه فى حكم هراة بالمسير إلى « فيروزكوه » فصبه بلاد الغور والاستيلاء عليها ، فسلم إليه غياث الدين محمود الغورى وطلب منه الأمان . وقد أرسل أمير ملك بهذا النبأ إلى خوارزمشاه واستطلع رأيه فى شأن غياث الدين محمود فأمر بقتله ( ٦٠٥ هـ ) (٥) .

(١) ابن الأثير : السكامل ج ١٢ ص ١٠٨ - ١١٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١١١ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٠٩ .

(٤) ذكر ابن الأثير ( السكامل ج ١٢ ص ١٠٩ ) قد حصنها وعمل لها أربعة أسوار محكمة البناء وحفر حولها خندقاً .

(٥) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١١٠ - ١١١ .

وبذلك استقرت أقدام خوارزمشاه علاء الدين محمد في خراسان ، ثم سار إلى بلاد ما وراء النهر فللكها وهزم الخطا هزيمة منكرة ، ثم عاد إلى خوارزم . وهنا زوج ابنته من سلطان سمرقند وأعادته إلى بلده فللكها من جديد . على أن هذا السلطان قابل هذا بالإساءة ، فغدر بالحوارزميين في بلاده وهم بقتل زوجته ابنة خوارزمشاه علاء الدين محمد . وهنا ثارت ثائرة خوارزمشاه وسار إلى سمرقند واستباحها بجنده ثلاثة أيام أمصنوا فيها في قتل الأهلين حتى قتل منهم قتلوا نحو مائتي ألف . ثم سلم إليه صاحب سمرقند وطلب الأمان ، فأمر به خوارزمشاه فقتل (١) .

وفي سنة ٦١١ هـ استولى خوارزمشاه علاء الدين محمد على كرمان ومكران والسند (٢) وفي السنة التالية عظمت قوة خوارزمشاه علاء الدين محمد باستيلائه على كافة أقاليم خراسان ، وملك « باميان » واشتدت قوته وعظم سلطانه وهابه الملوك والأمراء . وأصبح بحيث يستطيع الاستيلاء على غزنة . فأرسل إلى صاحبها تاج الدين الدز يطلب إليه أن يقيم الخطبة له ويضرب السكة باسمه . فأشار عليه كبار أمراء دولته بإجابة خوارزمشاه إلى طلبه درماً لخطره وتلافياً لشربه ، فبذل على رأيهم . وأسرع علاء الدين خوارزمشاه السير إلى غزنة ودخلها واستولى على قلعتها وقتل من بها من الجند الغوريين ولا سيما الأتراك .

---

(١) ذكر ابن الأثير ( الكامل ج ١٢ ص ١١٢ — ١١٣ ) أن طائفة عظيمة ببلاد الصين بينهم وبين الخطا عداوة قديمة وحروب طويلة . فلما سمعوا بما حل بالخطا من الهزيمة على يد خوارزمشاه علاء الدين محمد خرجوا من بلادهم وقصدوا بلاد الخطا عند ذلك أرسل ملك الخطا إلى خوارزمشاه يطلب إليه أن يتناسى كل منهما ما كان بينهما من حروب ويطلب مساعدته ضد التتر ويخوفه من الأخطار التي تهدق ببلاده إذا ما انتصروا عليه وأرسل التتر في الوقت نفسه إلى خوارزمشاه علاء الدين محمد يخوفونه من الخطا ويطلبون منه العون ويعمدونه بعدم التعرض لبلاده إذا تم لها النصر على عدوهما المشترك . وقد أجاب خوارزمشاه كلام الخطا والتتر بالمساعدة وسار بجنده حتى أصبح على مقربة من السكان الذي عسكر فيه الفريقان المتنازعان ، وتظاهر بأنه مع كل فريق . ثم نشب القتال بين الخطا والتتر وانتهز الخطا هزيمة منكرة . وهنا سنحت الفرصة لحوارزمشاه علاء الدين محمد فجعل يقتل الخطا ويأسرهم ويطاردهم . ونجا منهم فئة قليلة ساروا مع ملكهم حتى بلغوا مكاناً جبلياً تحصنوا فيه . وبذلك طمع كل من التتر وحوارزمشاه في بلاد الخطا ، وأخذ خوارزمشاه يشن الغارات على البلاد الإسلامية القريبة من بلاد التتر ويتخربها خوفاً من امتلاكهم لها . ثم اشتغل ملك التتر بحرب عسكر جنكيزخان وحلفائه الذين قضوا على هؤلاء التتر وعلى الدولة الخوارزمية جميعاً .

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٢٥ .

ثم ترك خوارزمشاه غزنة وخلف عليها ابنه جلال الدين منكبرتي . ولما علم « الدر » بهذا النبأ ، وكان غائباً عن غزنة<sup>(١)</sup> ، هرب هو ومن معه من الجند إلى لاهور : فلحقته جيوش أتباع شهاب الدين محمود الغوري وأحلت به الهزيمة وقتلته<sup>(٢)</sup> .

وبين سنتي ٦٠٧ و ٦١٤ هـ بسط خوارزمشاه علاء الدين محمد نفوذه على بلاد ما وراء النهر وأحل الهزيمة بالخطا وملك إيران بعد حروب طاحنة مع الغور في خراسان . واستولى على بلاد الجبل وفارس ، وتمسك من السيطرة على الأقاليم المطلة على المحيط الهندي جنوباً بما في ذلك كرمان ومكران ، وأخيراً استطاع الاستيلاء على البلاد الواقعة غربي نهر السند بعد استيلائه على غزنة حاضرة الغور ( ٦١٢/١٢١٥ ) .

وبما يلاحظ في حياة خوارزمشاه علاء الدين محمد أنه انتحل عقائد المذهب الشيعي ( ٦١٤ هـ ) ومهد السبيل للقضاء على الخلافة العباسية في بغداد . وقد حاول الاستيلاء على مدينة بغداد ليستأثر بالسلطة التي كان يتمتع بها بنو بويه والسلاجقة من بعدهم فطلب من الخليفة العباسي الناصر ( ٥٧٥ — ٦٢٢ هـ ) أن يأمر بذكر اسمه في الخطبة بدل السلاجقة فأبى الخليفة واشتدت العداوة والبغضاء بينهما حتى حذف خوارزمشاه علاء الدين محمد اسم الخليفة العباسي من الخطبة على منابر بلاده ونصب أحد الأشراف من سلالة علي بن أبي طالب خليفة . ولعل عدم إجابة الخليفة خوارزمشاه علاء الدين محمد إلى ذكر اسمه في الخطبة بدل السلاجقة راجع إلى تحوله إلى عقائد المذهب الشيعي .

وهكذا ترى خوارزمشاه علاء الدين محمد بدلاً من أن يجمع قوته لصد الكارثة التي تهدد بلاده من الناحية الشمالية الشرقية ، يزوج بنفسه في خصومة حامية مع الخليفة العباسي ثم يزداد الأمر سوءاً بوقوع كارثة أخرى كان سببها اشتداد البرد وقسوة الشتاء في هذه الديار بصورة لم تعهد بها البلاد من قبل<sup>(٣)</sup> وكان من المحتمل أن يؤدي وقوع الكارثة إلى حين لو أن علاء الدين محمد لم يقم بهذه الفعلة الطائشة بتحريض عامل مدينة « أونزار » على قتل التجار الذين أرسلهم جنكيزخان بعد ما ألقى في روعه أنهم ليسوا تجاراً في الحقيقة وإنما هم جواسيس للغول ، حتى لقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن هذه الكارثة

(١) كان الدر يقم بغزنة أربعة أشهر الصيف .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٢٨ .

(٣) براون : تاريخ الأدب في إيران ، ترجمة ج ٢ ص ٥٥٦ — ٥٥٧ .

كانت السبب المباشر في غزوات المغول بل إن علاء الدين محمد تمادى في سياسته التي تدل على قصر النظر بقتله رسول جنكيزخان التركي وإعادة الرسولين المغوليين الآخرين إلى مولاها بعد أن أمر بخلق لحامها .

لذلك ثار چكيزخان لقتل تجاره وإهانة رسله ، فعقد جمعية عامة من المغول « فوريلتاي » وقرر مهاجمة « خوارزم » . ولم يقو علاء الدين محمد على صد تيار المغول وأخذ يتقهقر أمام جمافلهم التي دخلت خراسان وانطلقت تتبعه وتطارده من بلد إلى بلد ، فأسرع إلى ناحية الغرب صوب بحر قزوين ، وتركه أتباعه ثم مرض بالبرص واشتدت عليه علته ومات شريداً طريداً بعد أن استبدبه اليأس وانتابه المرض في جزيرة من جزر بحر قزوين ، تاركا ملكه لابنه الشجاع جلال الدين منكبرتي ، ووقعت أمه « نوكان خاتون » مع زوجاته وأولاده وجواهره في أيدي المغول ، وهياً بذلك الفرصة لسقوط دولة خوارزم العظيمة (١) .

وقد وصف ابن الأثير (٢) مصير علاء الدين محمد في هذه العبارة فقال : « ومن أعظم الأمور أن سلطانهم خوارزم شاه محمداً قد عدم لانعرف حقيقة خبره : فتارة يقال مات عند همدان وأخفى موته ، وتارة دخل أطراف بلاد فارس ومات هناك وأخفى موته لثلا يقصدها التتر في لآثره ، وتارة يقال عاد إلى طبرستان وركب البحر فنوفى في جزيرة هناك . وبالجملة فقد عدم ثم صح موته ببحر طبرستان ( أي بحر قزوين أو بحر الخزر ) .

### جلال الدين منكبرتي

وقد هام أولاد علاء الدين محمد خوارزم شاه الثلاثة على وجوههم في الولايات الفارسية ، بل إن آخرهم ، وهو جلال الدين منكبرتي ( بفتح الميم والسكاف والباء وسكون النون ) قد هرب إلى الهند حيث عضده سلطان دلهي الذي تزوج ابنته ، وبعد سنتين عاد جلال الدين إلى بلاده التي ورثها عن أبيه . يقول بروان (٣) : « وفي هذه الأيام الحالكة التي وقعت فيها غزوة المغول ... نجد أن جلال الدين خوارزم شاه بما حباه الله من شخصية لامعة يسطع حظه كالشهاب الثاقب والبرق الحاطف ، ثم تحمد ناره وينطفئ . أواره دون أن

(١) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٥٥٨ — ٥٥٩

(٢) السكامل ج ١٢ ص ٢٤٦

(٣) تاريخ الأدب في إيران ، ترجمة الدكتور إبراهيم أمين ج ٢ ص ٥٦٩ .

يفتح أترا أو يجدى نفعا . ولربما خلت صفحات التاريخ من ذكر أمير مثله امتاز بجرأته وإقدامه ... في هذه الأحوال المضطربة نجد أن جلال الدين يستجمع قوته ويتمنطق بسيفه ، ثم يمضى أمام الصاعقة على عجل فيجتمى بالحدود الهندية . فإنه عند ما بلغ جيشه الصغير نهر السند وجد نفسه وقد أحاطت به جموع كبيرة من المغول ، فقارمها وأبدى من ضروب الشجاعة والجلد الشيء الكثير ، ولكنه أدرك في النهاية أنه قد خسر الموقعة ، فهجم على أعدائه هجوم اليأس ، ثم يم بوجهه شطر النهر وألقى بدرعه عن جسده ، ثم أمتطى صهوة جواده وعبر النهر ، وتبعه قوم من أتباعه ، ففعلوا مثل ما فعل . ولكن أكثرهم غرقوا أو أغرقهم سهام المغول الذين كانوا يجردون في أثرهم ، وغرقت أم جلال الدين وبعض نساء حرمه<sup>(١)</sup> .

وقد سجل شهاب الدين النسوى<sup>(٢)</sup> كاتب جلال الدين منكبرتي أن جلال الدين حارب في عدة ميادين : حارب المغول الذين كانوا يتعقبونه وحارب أخاه غياث الدين الذى خانته ، وحارب حاكم كرمان ، كما حارب الخليفة في بغداد ، وحارب التركمان والحشاشين ، وفتح ولاية چورچيا .

وفي سنة ١٢٢٧/١٢٢٩ أخذ جلال الدين منكبرتي يدعو أمراء المسلمين للتحالف معه على محاربة المغول ، وكاد أن ينجح في تأسيس هذا الحلف ، ولكن جيشاً من المغول قوامه ثلاثون ألف مقاتل حمل عليه فجأة واضطره إلى الهرب شمالاً حيث استطاع أن يستولى على مدينة كنج<sup>(٣)</sup> . وانقلب حظ جلال الدين وخذ نشاطه وأدمن الشراب وبدأت عليه الهموم فأصبح كسير القلب سريع البكاء ، وما زال يهرب أمام جحافل المغول من بلد إلى بلد حتى انتهى به المسكان إلى قرية كردية ، فقتله أحد الفلاحين (١٥ أغسطس سنة ١٢٣١/٦٢٩ هـ)<sup>(٤)</sup> ، قبل أن يعرف شيئاً عن وصول المغول ،

(١) وقد قيل لإنهن سألن جلال الدين أن يأمر بإغراقهن خشية أن يقعن في أيدي المغول ، ورأى جلال استحالة العبور بهن فأمر بإغراقهن .

D' Hossou, Histoire des Mongols, tome I, pp. 258,306 et seq.

(٢) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، وقد كتبها النسوى بالعربية وترجمها « هوادس » إلى الفرنسية ، ونشرت دار الفكر العربى بالقاهرة سيرة السلطان جلال الدين سنة ١٩٥٣ ، أنظر براون .

(٣) وهى المعروفة الآن باسم إليزابتبول Elizavetpol

(٤) براون : تاريخ الأدب في إيران ترجمة ص ٥٧٢ .

وبذلك حقق المغول الغرض الأول من غزواتهم وهو القضاء على الدولة الخوارزمية . وقد أحاط كثير من الشك نهاية جلال الدين منكبرتي ، وحامت الإشاعات حول مصيره ، فظن بعض أنه ما زال حياً ، وأنه قد خرج ثانية من مخبأه .

يقول براون : ونهاية جلال الدين هذه وما أحاطها من شك في مصيره تمثل لنا حال أى بطل تتعلق به الآمال في ساعات اليأس العصيبة . . . حيث نجد الأوهام الشعبية تنتهي بالبطل إلى حياة الزهد والتعشف ثم الموت في سن الشيخوخة ميتة الأولياء والصالحين (٢) .

### ثالثاً — الدولة الأيوبية

(٥٦٧ — ٦٤٨ / ١١٧١ — ١٢٥٠)

#### صلاح الدين الأيوبي

ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٣٢ هـ ( ١١٣٦ م ) بقلعة تكريت ( بفتح التاء ) ، وهي بلدة مشهورة بين بغداد والموصل . وكان أبوه نجم الدين أيوب والياً عليها . ثم انتقل صلاح الدين مع أسرته إلى الموصل ، فأقطعه صاحبها عماد الدين زنكي كثيراً من الأراضى ، وكان نجم الدين من أتباعه المخلصين .

ولما فتح عماد الدين زنكي بعلبك ولى نجم الدين أيوب قلعتها ، فبقى والياً عليها حتى توفي عماد الدين . فلما حاصر مجد الدين أرتق صاحب دمشق قلعة بعلبك ، أرسل نجم الدين أيوب إلى سيف الدين غازى بن زنكى يطلب منه النجدة . فلم يلب طلبه لانشغاله بإصلاح أمور الموصل ، حتى إذا ما ضاق الأمير نجم الدين ذرعاً نزل عن قلعة بعلبك لصاحب دمشق ، ثم سار مع أخيه أسد الدين شيركوه إلى دمشق ، ورافقه في سفره ابنه صلاح الدين يوسف ، وكان إذ ذاك في مقتبل الشباب .

وقد اتصل أسد شيركوه عم صلاح الدين بنور الدين محمود بن عماد الدين زنكى صاحب حلب وأصبح من أكابر أمراء دولته ، فأقطعه حصص والرحبة وأسند إليه قيادة

(١) الكامل ج ٢١ ص ٢٤٦ .

(٢) براون : تاريخ الأدب في إيران ، ترجمة ص ٥٧٢ .

(٣) ابن خلكان . وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٤٣ — ١٤٥ .



جنده . ولما عزم نور الدين على ضم دمشق إلى حوزته طلب من أسد الدين شيركوه أن يكتب إلى أخيه نجم الدين أيوب ( أبي صلاح الدين ) ليعاونه على فتحها ، فلبى نجم الدين طلب أخيه أسد الدين ، وبذلك تمكن نور الدين من الاستيلاء على دمشق . وأصبح أسد الدين ونجم الدين من كبار أمراء جيش نور الدين محمود<sup>(١)</sup> . ولما لجأ شاور وزير العاضد الفاطمي إلى نور الدين طالباً منه العون على العودة إلى الوزارة ، أرسل معه حملة بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الذي ظهر على مسرح السياسة منذ ذلك الحين<sup>(٢)</sup> .

وقد خلف شيركوه شاور في الوزارة ( ١٧ ربيع الثاني سنة ١٨/٥٦٤ يناير سنة ١١٦٩ ) ، وخلع عليه الخليفة<sup>(٣)</sup> . على أن شيركوه لم يتمتع طويلاً بهذا المنصب ؛ إذ وافته منيته بعد ثلاثة أشهر ، فتقلد الوزارة من بعده ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي . وقد رأى صلاح الدين أن مركزه قد أصبح شديد الحرج بعد أن آلت الوزارة إليه ، لأنه أصبح وزيراً للخليفة الفاطمي الشيعي ونائباً عن نور الدين محمود صاحب دمشق السني . فاضطر إلى الدعاء لهما في الخطبة ، ثم أخذ يقوى مركزه في مصر ويعمل على اكتساب محبة أهلها ليشتد بهم أزره ويستقل بهذه البلاد .

وكان النصر الذي أحرزه صلاح الدين على الفرنجة في دمياط بدء طور جديد في تاريخ النزاع بين مصر والصليبيين . فبعد أن كانوا يوالون الغارات على مصر في عهد الفاطميين ، قصروا جهودهم على الدفاع عن إمارة بيت المقدس .

ولما خرج صلاح الدين لاستقبال أبيه نجم الدين أيوب قال له : « هذا أمر لك ( يعني الوزارة ) وهي السلطنة الآن وتدبير ملك مصر ، ونحن بين يديك » ، فقال له أبوه : « يا بني ! ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت أهل له » ، وأبى قبول الوزارة ، فأسند إليه ابنه صلاح الدين إدارة بيت المال ، وأقطع أقاربه بعض الإقطاعات .

وعلى الرغم من أن صلاح الدين أصبح صاحب النفوذ المطلق في مصر بعد وفاة الخليفة العاضد الفاطمي ، ظل يخشى منافسة نور الدين له . فأمر بذكر اسمه في الخطبة

(١) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٤٥ .

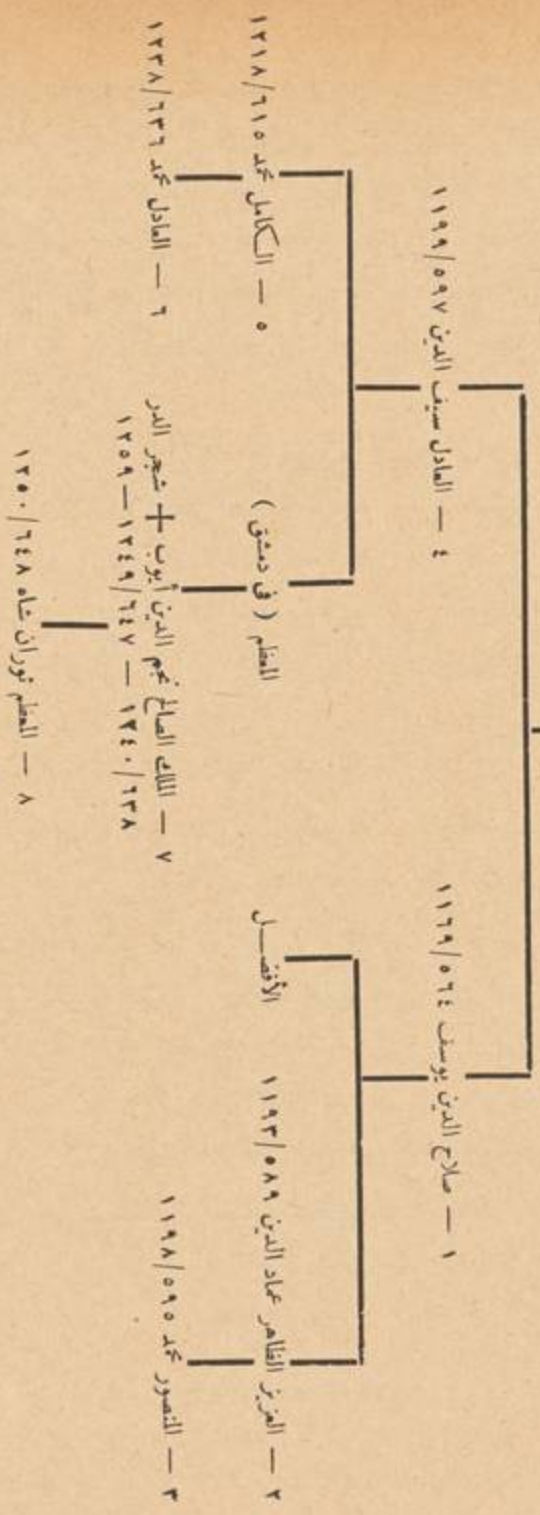
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٢١ . ابن خلكان ج ٦ ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٣٦ - ١٣٧ . ابن شداد : النوادر الساطانية

والحسانن اليوسفية ص ٤٧ - ٤٨ .

تسلسل نسب الأيوبيين

نجم الدين أيوب



بعد ذكر اسم الخليفة العباسي ، وضرب النقود باسمه ، وأرسل إليه الهدايا حتى لا يرتاب في ولائه . كذلك حرص على الاحتفاظ بمكان يأوي إليه إذا غضب عليه نور الدين ، فوجه أخاه شمس الدولة قدران شاه بن نجم الدين أيوب إلى السودان ليوقف على أحوال هذه البلاد التي قد يلجأ إليها صلاح الدين إذا مادعت الضرورة ، ثم عهد إلى أخيه بغزو بلاد اليمن ، فاستولى عليها وأقام الخطبة للخليفة العباسي .

ويمكن تقسيم عهد صلاح الدين الأيوبي منذ تولى زمام مصر إلى ثلاثة أدوار : الأول في مصر ، والثاني في الشام ، والثالث في فلسطين . فالأول هو طور الدفاع ، والثاني طور إعداد العدة والتأهب . والثالث طور الهجوم . وفي هذه الأدوار الثلاثة كان صلاح الدين يوجه كل جهوده للدفاع عن رغبته الصادقة في إخراج الصليبيين من بلاد الشام وإنشاء إمبراطورية إسلامية متحدة تستطيع أن تقذف بالفرنجة إلى ساحل البحر بل إلى أبعد من ذلك .

ففي الدور المصري ( ١١٦٩ — ١١٧٤ م ) وقف صلاح الدين موقف الدفاع أمام الصليبيين وأنصار الفاطميين وأمام نور الدين صاحب دمشق الذي حكم صلاح الدين هذه البلاد باسمه ، ومن ثم كانت سياسته في هذا الدور تطوى على صد الاعتداء في الداخل والخارج وتقوية سلطانه من الناحيتين السياسية والحربية .

أما في الدور الثاني أو الدور الشامي ( ١١٧٤ — ١١٨٦ م ) الذي يتبدى بوفاة نور الدين ، فقد ظهر صلاح الدين بظهور أكبر حاكم إسلامي في الشرق الأدنى ونشر نفوذه في الشام والجزيرة ، وأعد العدة لجمع القوات الإسلامية للصراع النهائي مع الصليبيين .

وفي الدور الثالث أو الدور الفلسطيني ( ١١٨٦ — ١١٩٣ م ) وجه صلاح الدين كل جهوده إلى الحرب المقدسة مع الصليبيين ، تلك الحرب التي انتهت بصالح الرملة الذي أعقبه بعد شهور موت بطل الإسلام (١) .

ذلك أنه لما توطدت قدم صلاح الدين في مصر ، خشى السلطان نور الدين صاحب دمشق لزيادة نفوذه وفكر في خلمه . بيد أن الحظ بسم لصلاح الدين بوفاة نور الدين

سنة ٥٩٦ هـ (١١٧٤ م) وعلى الرغم من أن الفرصة قد سنحت لصالح الدين بأن يبسط سلطانه على البلاد الإسلامية في الشرق ظل يرقب الحوادث خشية أن يعرقل أهل الشام أعماله ، فأظهر احترامه للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ، وظل يضرب النقود باسمه ويخطب له على المنابر . غير أن هذا الملك لم يلبث أن وقع تحت نفوذ وزرائه وبطانته ، وقام الخلاف بينه وبين صلاح الدين الذي بعث إلى هؤلاء الوزراء كتابا شديد اللهجة يهددهم فيه بالمسير إلى دمشق وإنزال العقاب بهم على سوء تصرفهم . وبعد قليل استدعى أحد أمراء دمشق صلاح الدين لاحتلال المدينة ، فأسرع صلاح الدين بالمسير إليها دون أن يكثرث بوجود الصليبيين في طريقه ، وتمسك من الاستيلاء على دمشق (١١٧٥/٥٧٠) ثم أرسل إلى أنابك الشام كتابا يؤكد له فيه أنه إنما جاء إلى هذه البلاد ليقدم فروض الطاعة للملك الصالح إسماعيل الذي رد عليه رداً شديداً اتهمه فيه بالتردد ونكران الجميل وأثار بذلك استياء صلاح الدين الذي زحف إلى حلب وأوقع بأهلها ، ثم فك الحصار واتجه إلى حمص لمحاربة الصليبيين (١) .

ثم حاول صلاح الدين التفاوض مع الملك الصالح ، فأرسل إليه كتابا يعرض فيه استعداداته للتخلي عن حماه وحمص وبعلبك على أن يقره على ولاية دمشق ومصر . وقد أبى الملك الصالح لإجابة هذا الطلب ، فلم ير صلاح الدين بداً من محاربه ، فاشتبك مع جيش إسماعيل في معركة بالقرب من حماه وانتصر عليهم ثم حاصرهم في حلب وأرغمهم على طلب الصلح . ولكن يستدروا عطف صلاح الدين أرسلوا إليه ابنة نور الدين ، وكانت لا تزال في دور الطفولة ، فلقاها بالخفاوة وأحسن وفادتها وقدم إليها الهدايا . ثم سأها عما تطلبه لقومها ، فقالت إنهم يريدون بلدة « إعراز » ، فوهبها هذه البلدة . ونزل لآخيها الملك الصالح إسماعيل عن جميع المدن التي استولى عليها من إمارة حلب ، وأصبح صلاح الدين بهذا الصلح صاحب الأمر في دمشق وحمص وحماه .

ولما عاد صلاح الدين إلى مصر بعد سنتين أخذ ينظم أمورها ووجه همته إلى تحصينها ليأمن شر غارات الأعداء ، فعهد إلى وزيره بهاء الدين قراقوش في بناء قلعة منيعة على قمة جبل المقطم غربا لتكون مركزاً لحكومته ومعقلاً لجندده وليتق بها خطر الفاطميين وأشياهم في الداخل إذا حدثتهم أنفسهم بإذكاء نار الثورة والخروج على سلطانه .

(١) ابن خلكان ج ٦ ص ١٦٥ — ١٦٦ :

ثم أخذ صلاح الدين في بناء سور عظيم يضم القسطنطين والعسكر وأطلال القطنان والقاهرة (٥٧٢ هـ) (١) .

وقد ظل صلاح الدين يعمل على توحيد كلمة المسلمين حتى توفي الملك الصالح إسماعيل (٥٧٧ هـ) ، فبسط سلطانه على حلب (٥٧٩ هـ) والموصل ، وأصبح بذلك الحاكم المسيطر على غربي آسيا ، وأصبح الصليبيون محصورين بين قوات صلاح الدين المتحدة في الشمال والجنوب والشرق (٢) .

وكان صلاح الدين منذ تولى زمام الحكم في مصر يبذل قصارى جهده لإخراج الصليبيين من المشرق : فلما اتصل به نبأ إغارة « رينولد » صاحب حصن الكرنك (بفتح الكاف والراء) على سواحل بلاد الحجاز وقطعه طريق الحج وأخذه بعض قوافل المسلمين وهم في طريقهم إلى بيت الله ، أغار صلاح الدين على الولايات الصليبية وهزم الصليبيين هزيمة منكرة في موقعة حطين (بكسر الحاء والطاء مع التشديد) القريبة من طبرية سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٧ م) ، ثم أخذ يطاردهم حتى استولى على حصن طبرية بعد قليل ، ويصف العباد الأصفهاني ما أحرزه صلاح الدين من نصر في قصيدة ننقل منها هذا البيت .

حَطَّطَتْ عَلَى حَاطِينَ قَدَّرَ مَلُوكُهُمْ      وَلَمْ تَبْقُ مِنْ أَجْناسِ كَهْرَمِ جِنْسِنَا  
وَنظَمَ ابْنُ السَّاعَاتِي قَصِيدَةً أُخْرَى فِي هَذَا الْفَتْحِ اسْتَهْلَاهَا هَذَا الْبَيْتُ :

جَلَّتْ عِزْمَاتُكَ الْفَتْحِ الْمِينَا      فَقَدَّ قَرَّتْ عِيُونَُ الْمُؤْمِنِينَا  
ولما فرغ صلاح الدين من طبرية واصل زحفه حتى بلغ عكاه فحاصرها واستولى عليها ، ثم وقعت في يده نابلس والرملة وقيسارية وأرسوف وبافا وبيروت ، كما سقطت في يده صور في طرابلس وعسقلان ، وبذلك أخذ صلاح الدين بعد العدة لاسترداد بيت المقدس ، فسار إليها على رأس جيش كبير ، ولما اقترب منها بعث في طلب أشرفها وخاطبهم بقوله إنه يحترم مدينة القدس ولا يرغب في انتهاك حرمتها بإراقة الدماء ،

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٣٩ — ١٤٠ ، ابن شداد : النوادر السلطانية

ص ٥٢ ابن خلكان ج ٦ ص ١٦٨ .

(٢) ابن خلكان ج ٦ ص ١٦٩ — ١٧٠ — ١٧١ .

ولذلك ينصح لهم بترك استحكاماتهم وتسليم مدينتهم من غير حرب على أن يعرضهم عن أملاكهم بالأموال والأراضي ، لكن الصليبيين رفضوا إجابة هذا الطلب ، فلم ير صلاح الدين بدأ من محاصرة بيت المقدس .

ولما رأى الصليبيون أنهم أصبحوا عاجزين عن المقاومة وأشرفوا على الهلاك ، طلبوا الصلح وتعهدوا أن يسلموا بيت المقدس إلى صلاح الدين وأن يخرجوا منها بأموالهم وأولادهم مقابل فدية يدفعها كل منهم . فكان يؤخذ من الرجل عشرون ديناراً ومن المرأة خمسة دنانير ومن الطفل ديناران<sup>(٢)</sup> ، وضمن لهم صلاح الدين سلامة الرحيل إلى صور أو إلى طرابلس .

ثم دخل صلاح الدين بيت المقدس في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ . وكان جميع الفرنجة قد غادروها ، ثم أمر صلاح الدين بترميم ما دمرته الحروب من مبانيها وإعادة تشييد المساجد والمدارس التي هدمها الصليبيون ، كما وضع نظاماً خاصاً لإدارتها .

ولما وصل إلى أهل أوروبا نبأ سقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين أخذ رجال الدين يدعون الشعوب المسيحية وملوك أوروبا لإعداد حرب صليبية أخرى ، ولم تلبث أن تدفقت النجدات على صور ، واشترك في هذه الحرب ثلاثة من أعظم ملوك أوروبا شأناً وهم : فريدريك براباروسا إمبراطور ألمانيا . وكان على رأس مائة ألف جندي ، وفيليب الثاني ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وبينما كان الألمان يزحفون على أنطاكية غرق ملكهم في الطريق ولم يصل من جنده إلى بلاد الشام إلا القليل ، أما جيوش ريتشارد وفيليب فقد وصلت إلى عكا واستولت عليها .

على أن هذه الحملة الصليبية قد قضى عليها لوقوع النزاع بين فيليب وريتشارد ، فعاد فيليب إلى بلاده وانفرد ريتشارد بمحاربة المسلمين ، وأظهر من الشجاعة والفروسية ما أثار إعجاب أعدائه فلقبوه « قلب الأسد » . وقد انتصر ريتشارد أولاً على جيش صلاح الدين في أرسوف ثم تابع زحفه على عسقلان ، غير أنه لما شاهد بنفسه خرائب قلعتها أدرك أنه أمام خصم عنيد ، فشرع في بدء المفاوضات معه وانتهت بإبرام صلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ ( ١١٩٢ م ) . ومن أهم شروطه : وقف الحرب بين الفريقين ثلاث

(١) ابن خلكان ج ٦ ص ١٧٤ وما يليها .

(٢) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٨٧ .

سنين ، وأن يترك بيت المقدس تحت حكم المسلمين على أن يسمح للمسلمين بالزيارة وأداء مناسك الحج ، وأن يقوم الصليبيون بحماية ساحل الشام من صور إلى يافا . وأن يرد المسلمون المخلفات الدينية إلى المسيحيين<sup>(١)</sup> .

ولم تَمْضِ سنة واحدة على إبرام هذا الصلح حتى حقق صلاح الدين أهم أغراضه في الحياة ، وهو إخراج الصليبيين من بيت المقدس وإعادة وحدة المسلمين ، وقد أنهكت هذه الحروب الطويلة قواه وأضعفت صحته ، وأصيب بالحمى وتوفي بدمشق في شهر مارس سنة ١١٩٣ م ، ودفن بها وقد حزن المسلمون بوفاة هذا الزعيم العظيم الذي أعاد إلى الإسلام قوته ، وصدّ تيار الصليبيين الذي كاد يجتاح بلادهم . فقد رثاه الشعراء بمراثيات خالدة تعرفها كتب الأدب . فن ذلك قول بعضهم :

أين الذي كانت له طاعاتنا مبدولةً ولربه طاعاته  
أين الذي شرف الزمان بفضلته وسمت على الفضلاء تشريفاته  
ملك على الإسلام كان محامياً أبداً لماذا أسلمته حُماته  
ياراعياً للدين حين تمكنت منه الذئاب وأسلته رعاته  
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً رضوانُ ربِّ العرش بل وصلواته<sup>(٢)</sup>

لم يكن للمسلمين قبل انتصارهم الحاسم في موقعة حطين شبر واحد في أرض فلسطين غربي نهر الأردن ، لكن هذه الأرض قد أصبحت بعد صلح الرملة أرضاً إسلامية ، اللهم إلا إذا استثنينا هذا الجزء الضيق الذي يقع بحذاء الساحل ويمتد من صور إلى يافا ، وقد خرج صلاح الدين من هذه الحروب بقوة لا تقهر ، وانتشر أتباعه في كافة البلاد الواقعة بين جبال كردستان وسحراء ليبيا ، وسارعوا إلى تلبية دعوته إذا ما دعاهم للجهاد ، وعمل على محالفة ملك جورجيا وملك أرمينية وسلطان قونية وإمبراطور القسطنطينية<sup>(٣)</sup> .

وكان صلاح الدين مثلاً للأدب العالية والصفات الحميدة ، وكان كما وصفه ابن

Lanè-poole, Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 211. (١)

(٢) أبو الخاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٠ .

Ibid, p. 211. (٣)

خلسكان<sup>(١)</sup> ، كثير التواضع واللطف ، قريباً من الناس ، رحيم القلب ، كثير الاحتمال والمداراة ، يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم ، ويستحسن الأشعار الجيدة ويردها في مجالسه .

ولما استولى صلاح الدين على بيت المقدس وقع في يده كثير من الأسرى ، فوفد عليه رهط من النساء وناشدته أن يفك سراح أزواجهن وأولادهن ، وقلن له إنهن إذا رحلن عن هذه البلاد فقدن أزواجهن ، ولو ردتهن لآزال بؤسهن وعشن سعيدات بفيض كرمه وواسع رحمته ، فتأثر صلاح بتوسلاتهن وأمر برد الأسرى إلى أقاربهم ، ووزع الصدقات على اليتامى والأرامل . وعمل على إسعاف الجرحى ومعالجة المرضى بحجاج المسيحيين .

وهناك كثير من القصص الذى تدل على حسن السياسة التى سار عليها صلاح الدين مع أهالى المدن المفتوحة . وهى سياسة تنطوى على كثير من حسن المعاملة والعطف والرعاية وإغداق الهبات وتحقيق الرغبات ، مما نفيض به الكتب التى عنى مؤلفوها بتدوين سيرة صلاح الدين الحافلة بضرور الشجاعة والفروسية .

وكان صلاح الدين محباً لمجالس العلم ميالاً لمناقشة رجال الفقه وأصول الدين<sup>(٢)</sup> ، وقد وصفه عبد اللطيف البغدادي طيب بغداد فى هذه العبارة فقال : وجدته أميراً جليلاً مهيب الطلعة جديراً بالاحترام والتقدير ، ودبياً متواضعاً ذكياً سمح النفس واسع الإدراك ، ثم قال : وجدته فى ندوة من العلماء يتذاكرون العلوم ، ورأيتة وهو يحسن الإنصات ثم يشترك فى الحديث ، وكان صلاح الدين — « مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة — كثير التواضع واللطف قريباً من الناس ، رحيم القلب كثير الاحتمال والمداراة ، وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم . . . وكان يستحسن الأشعار الجيدة ويردها فى مجالسه »<sup>(٣)</sup> ويقول ليدبول<sup>(٤)</sup> ، ويكنى صلاح الدين ثغراً أنه أدخل نظام المساجد المدرسية فى القاهرة . . . وكان تطبيقه فى القاهرة بما جعلها فى مصاف مراكز العلم الإسلامية الشهيرة .

(١) انظر ترجمة يوسف بن أيوب الملقب الملك الناصر صلاح الدين فى ابن خلصكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٩ — ٢١٨ .

(٢) ليدبول . Saladin, p. 20 .

(٣) ابن خلصكان ج ٦ ص ٢٠٦ .

(٤) ترجمة ص ١٧٢ .



## خلفاء صلاح الدين

وقد ترسم خلفاء صلاح الدين خطاه ، ففي عهد أخيه العادل جمع جان دي بريين ( Jean de Brienne ) جيشاً من الجرمان واستولى على دمياط سنة ١٢١٨ م . ويقال إن العادل مات في شهر أغسطس من هذه السنة حزناً على ضياع دمياط ، وأوصى قبل وفاته ابنه الكامل بإخراج الصليبيين منها : فبنى الاستحكامات جنوبي دمياط وفي المنصورة ، وحسم النزاع الذي قام بينه وبين أقاربه ، وجاءته الإمدادات من حلب وحمص وحماه وغيرها . ثم التقى بالصليبيين عند المنصورة ، وأغرق السفن فحجزت ماء النيل وحال بذلك دون تقدمهم ، وحلت الخسائر بالصليبيين بسبب فيضان النيل وإحاطة المسلمين بهم من كل ناحية وتفشى الحمى في جندهم ، واضطر الصليبيون إلى طلب الصلح (١٢٢١ م) ، فرأى السلطان الكامل من حسن السياسة وبعد النظر أن يجيبهم إليه ، حتى لا تقوم حرب صليبية أخرى للأخذ بثأرهم ، وسمح للصليبيين بالجلء عن دمياط ، وعقدت بين الفريقين هدنة أمدها ثمان سنين . ورحل الصليبيون عن مصر بعد أن أقاموا فيها أربعين شهراً (١) .

على أن هذا الصلح الذي عقد بين السلطان الكامل والصليبيين لم يحل دون وقوع حرب صليبية أخرى ، فقد خرج الإمبراطور فردريك الثاني بحملته إلى فلسطين ، وتزوج من ابنة الملك جان بريين وارثة عرش أورشليم . واضطر الملك الكامل — بسبب قيام النزاع بينه وبين أخيه الملك المعظم صاحب دمشق — إلى عقد صلح مع فردريك سنة ١٢٢٩ م على أن ينزل السلطان الكامل عن بيت المقدس ، وأن يظل مسجد عمر وماحوله في حوزة المسلمين ، وأن يطلق سراح جميع أسرى المسيحيين ؛ وتعهد الإمبراطور بأن يدافع عن السلطان الكامل أمام أعدائه حتى المسيحيين منهم . وما ساعد على عقد هذا الصلح ما عرف به فردريك من حرية الرأي ، وميله إلى المسلمين . وقد حامت الشكوك في صدق إخلاصه للمسيحية ، حتى إن البابا قال إنه تابع من أتباع محمد لاجندي من جند المسيح .

عاش السلطان الكامل بعد إبرام هذا الصلح تسع سنين . وتقدمت مصر في عهده تقدماً عظيماً ، فقد عمل على تحسين الري ، وأتم تحصين قلعة القاهرة ، وأسس كثيراً من

(١) Lane-Poole, pp. 218—224.

معاهد العلم . وكان الكامل — كما وصفه ابن خلكان (١) — « سلطاناً عظيم القدر جليل الذكر محباً للعلماء ، متمسكاً بالسيرة النبوية ، حسن الاعتقاد ، معاشراً لأرباب الفضائل ، حازماً في أموره ، لا يضيع الشيء إلا في موضعه في غير إسراف ولا إقتار » (٢) .

ولما توفي الكامل سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م) ، ولى أمراء مصر الأمير أبا بكر ، واقتبوه بالملك العادل ، فساء ذلك الصالح أيوب بن الكامل ، وكان أبوه قد أبعده عن حصن كيفا (الضفة الغربية لهر دجلة) ، وهم بمغادرة الشام ليستولى على مصر ، فأعتقله الناصر صاحب الكرك ، ولكنه ما لبث أن أطلق سراحه ، وتحالف معه على أن تكون مصر له ، وبلاد الشام للناصر ، وتآمر بمالك الكامل على خلع العادل ، واستدعوا الصالح أيوب ، وولوه السلطنة سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠ م) (٣) .

وفي عهد الملك الصالح أيوب (١٢٤٠ — ١٢٤٩ م) جرد لويس التاسع ملك فرنسا حملة على مصر ، واستولى على دمياط ، ثم عسكر بالقرب من البحر الصغير بالمنصورة ، وانتصر أول الأمر ، وكاد يقتحم قصر السلطان ، لولا أن رده المماليك بقيادة بيبرس ، الذي انقض بجيشه على الصليبيين وقلب نصرهم هزيمة (٤) . ولما أخذ الصليبيون يتقدمون نحو المنصورة ، توفي الملك الصالح (نوفمبر ١٢٤٩ م) ، وكان ابنه وولى عهده الملك المعظم « توران شاه » بحصن كيفا ، وقد أخفت زوجته شجر الدر موته ، حتى لا يتطرق الوهن إلى نفوس المسلمين . ثم قدم توران شاه بن الملك الصالح أيوب مصر ، ونزل بقصر السلطنة بالمنصورة ، ونقل أسطولا من المراكب على ظهور الجبال إلى مكان بعيد عن مرسى الأسطول الفرنسى ، حيث ركبت أجزاء السفن ، واستولى على اثنتين وثلاثين سفينة فرنسية ، ومنع وصول المؤن والذخائر إلى جيش لويس في المنصورة ، ودارت الدائرة على الفرنسيين (٥) ، واضطر لويس إلى التقهقر نحو دمياط ، فطارده المسلمون

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٦٦ .

(٢) هكذا ورد في الأصل ولعله يريد من غير إسراف ولا تقتير .

(٣) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٢٦٧ و ٢٩٤ — ٢٩٦ .

(٤) Davis, The Invasion of Egypt by Louis IX of France, pp. 38—39.

(٥) Ibid., p. 46.

حتى فارسكو، وقضوا على جيشه سنة ١٢٥٠ م. ومرض لويس بالحمى، وأسر هو وكثير من رجاله؛ ولم يفك أسره إلا بعد أن تعهد الفرنسيون بإخلاء دمياط<sup>(١)</sup>. وهكذا أخفق الصليبيون في كل حملاتهم على مصر.

بعد ذلك انتشرت سطوة المماليك الذين كانوا يكونون الجزء الأهم من جيش الملك الصالح أيوب. واشتد أزهرهم بهذا النصر الذي أحرزه بيبرس المملوكي في موقعة فارسكور، وأضمرروا سوء لثوران شاه، الذي أثار غضبهم لسوء معاملته لإياهم فقتلوه وولوا شجر الدر زوجة الملك الصالح أيوب سلطانه عليهم. وبقتل توران شاه زالت الدولة الأيوبية في مصر وقامت دولة المماليك البحرية، التي حكمت هذه البلاد من سنة ١٢٥٠ إلى سنة ١٣٨٢ م.

### رابعاً — الدولة المرابطية

(٤٤٨ — ٥٤١ / ١٠٥٦ — ١١٤٧)

#### (١) قبائل الدولة المرابطية

أجمع المؤرخون على أن المرابطين<sup>(٢)</sup> أو الملمثمين<sup>(٣)</sup> من قبيلة لمتونة (بفتح اللام

Ibid., pp. 51—57. (١)

(٢) سما المرابطين لأنهم تلمذوا على عبد الله بن ياسين في الرباط الذي أنشأه للدرس والعبادة

في صحراء المغرب حيث قبيلة لمتونة.

(٣) سما الملمثمين لأنهم كانوا يضعون على وجوههم لثاماً يقيهم هاجرة الصحراء ويردها كما يفعل العرب، وقيل في سبب هذه التسمية إن طائفة من قبيلة لمتونة أغارت على عدو لهم، فسار العدو إلى بيوتهم، ولم يكن فيها إلا الشيوخ والنساء والصبيان، فأمر الشيوخ النساء أن يلبسن ثياب الرجال ويتلثمنن ويضيقن ثيابهن حتى لا يميزهن العدو، ويعملن السلاح، وسار الشيوخ والصبيان أمام النساء اللاتي طوقن البيوت، فلما أشرف العدو هاله هذا الجمع العظيم وظنه رجالاً يقاقلون قتال المستميت دفاعاً عن حرمهم. فاحتال العدو على استدراجهم للخروج من بيوتهم، حتى إذا تبعوهم قاتلوهم خارج بيوتهم، فبينما العدو منشغل بجمع الأنعام من المراعى، أقبل رجال لمتونة، وأصبح العدو بينهم وبين النساء، فقتل عدد كبير من العدو. ومن ثم جعل اللمتونيون اللثام سنة وغدوا لا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً حتى لا يعرف الشيخ من الشاب (ابن الأثير: السكامل ج ٩ ص ٢٣٣).

قال ابن خلدون (العبر ج ٦ ص ١٨٢): «كان هؤلاء الملمثمين في صحاريهم . . . وكانوا على دين الجوسية إلى أن ظهر فيهم الإسلام لعهد المائة الثالثة . . . وجاهدوا جيرانهم من السودان عليه (أي على الدين) فدانتوا له واستوتق لهم (أي للملمثمين) الملك، ثم افترقوا، وكانت رئاسة كل بيت منهم في بيت مخصوص». انظر حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ١٨ (٣).

وسكون الميم) البربرية الصنهاجية ، ويكادون يتفقون على أن صنهاجة من القبائل العربية الحميرية ، وأنهم ساروا من اليمن إلى الشام ومنها إلى الساحل الأفريقي حيث اتجهوا نحو المحيط الأطلسي واستوطنوا صحراء المغرب لمشايتها لصحراء العرب . وكانوا بقيادة عقبة ابن نافع ، ثم كثر عددهم في عهد موسى بن نصير<sup>(١)</sup> . وعلى الرغم من أن ابن خلدون لا يطمئن إلى عروبة جمهرة القبائل البربرية المغربية بصفة عامة ، يقرر عروبة صنهاجة وكتامة من بين تلك القبائل البربرية<sup>(٢)</sup> ، ويفلب الرأي القائل بيمينية صنهاجة لا بصريتها<sup>(٣)</sup>

٤٤٨ - ٥٤١ هـ المرابطون ١٠٥٦ - ١١٤٧  
[ المغرب الأقصى وجزء من الجزائر والأندلس ]

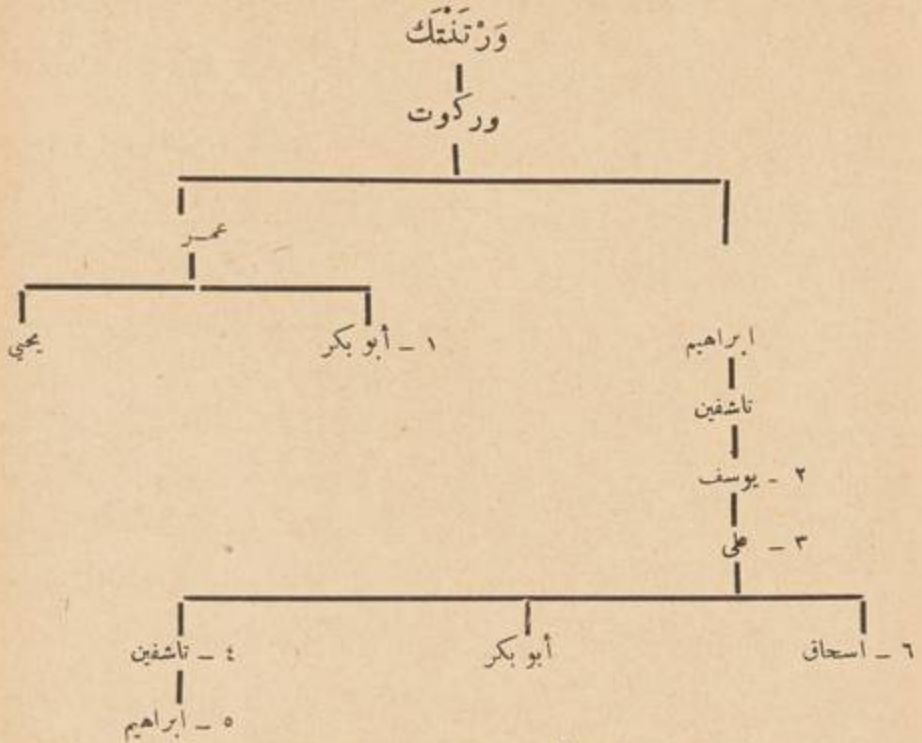
هجري	ميلادي
٤٤٨	١٠٥٦
٤٨٠	١٠٨٧
٥٠٠	١١٠٦
٥٣٧	١١٤٣
٥٤١	١١٤٦
٥٤١	١١٤٧

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٣٢ .

(٢) العبر ج ٦ ص ١٦٥ .

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ( طبعة الرباط ١٩٢٦ ) ج ٢ ص ٥ .

تسلسل نسب المرابطين



ويذهب بعض المؤرخين إلى أن صنهاجة (بفتح الصاد والجيم وسكون النون) نخذ من هوارة (بفتح الهاء والراء والواو مع التشديد) وهذا لا يعارض رأى القائل بأن صنهاجة حميرية الأصل، لأن هوارة نخذ من حمير<sup>(١)</sup>.

وكانت قبيلة لمنونة التي أُنجبت تلك الدولة العظيمة تقيم بصحراء المغرب التي تمتد جنوباً حتى بلاد السودان<sup>(٢)</sup>، وتجول أحياناً في تلك القفار الشاسعة، شأنها في ذلك شأن العرب الرحّل، وكانت تدين بالإسلام الذي لم تكن تعرف أحكامه إلا لماسماً، ولم تكن القبائل الصنهاجية التي تقيم في ربوع الصحراء، مثل جداله (بضم الجيم) ومسوفة (بكسر الميم وضم السين مع التشديد) ولطة (بفتح اللام والطاء وسكون الميم ومسراته) (بكسر الميم وسكون السين وفتح التاء) ونسكلاته (بكسر التاء الأولى وفتح التاء الثانية) ومنداسة (بفتح الميم وسكون النون) وبني وارث وبني مسفير (بفتح الميم وسكون السين)

(١) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٢) ابن خلدون: العبر (طبعة بولاق) ج ٦ ص ١٨٢.

وبنى ذخير بفتح الذال وسكون الراء ) وبنى زياد وبنى موسى وغيرها<sup>(١)</sup> خيراً من لمتونة من الناحية الدينية ، غير أن اللتونيين كانوا متعصبين للإسلام متحمسين له عاملين على نشره في بلاد السودان بقيادة أميرهم أبي عبد الله بن يتفاوت اللتوني<sup>(٢)</sup> .

### (٢) يوسف بن تاشفين

ولما توفي الأمير يحيى بن إبراهيم اللتوني ولى عبد الله بن ياسين مكانه أخاه أبا بكر ابن إبراهيم ، وقلده أمر الحرب والجهاد ، ثم ندب المرابطيين لغزو بلاد السوس والمصامدة ، فزحف إليها في جيش عظيم ، وجعل على مقدمته ابن عمه يوسف بن تاشفين اللتوني ، ثم سار أبو بكر بن عمر إلى بلاد السوس ، فغزا قبيلة جزولة ، وفتح مدينة ماسة وتارودانت عنوة ، وكانت قاعدة بلاد السوس وكان بها قوم من الشيعة البجلية الذين ينتمون إلى عبد الله البجلي الذي سار إلى بلاد السوس في أيام عبيد الله المهدي ، ونشر فيها المذهب الشيعي ، فقاتلهم عبد الله بن ياسين وأبو بكر بن عمر وانتصرا عليهم ، فعادوا إلى مذهب السنة والجماعة<sup>(٣)</sup> .

وفي سنة ٤٥٣ هـ عاد أبو بكر بن عمر من مهمته في الصحراء التي استغرقت نحو سنتين ، وقد هاله ما رأى من ضخامة جيوش يوسف بن تاشفين ، وأدرك أنه لا قبل له بمناوئته ؛ فنزل له عن السلطة وسلم إليه أمر المغرب أمام شيوخ لمتونة وأعيان الدولة المرابطية وأمراء المصامدة والكتاب والشهود<sup>(٤)</sup> ، وقد جرت عادة المرابطيين أن تعقد البيعة للأمير حسب هذا الترتيب ، أفراد الأسرة المالكة ، فالأمراء ، فرؤساء القبائل ، وعمال الدولة ، ثم يرسل إلى عمال الدولة في المغرب والأندلس منشور يتضمن هذه البيعة ويقرأ في المساجد ، فيتقدم الناس لبيعة الأمير الجديد ، كما جرت عادة المرابطيين ببادل السكتب مع الخليفة العباسي الذي يقر هذه البيعة ويباركها<sup>(٥)</sup> ، وكان يوسف بن تاشفين ،

(١) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٦ .

(٣) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٢ .

(٤) الحلل الموشية ( مؤلف مجهول ) ص ١٦ .

(٥) راجع كتاب الخليفة المستظهر العباسي لى يوسف بن تاشفين بإقراره على ما بيده في كتاب

الحلل الموشية ص ٧١ . ابن أبي زرع . روض القرطاس ج ٢ ص ٨٠ .

كما وصفه ابن الأثير : « رجلاً ديناً خيراً حازماً داهية مجرباً » ، وأنه أحسن السيرة في الرعية ولم يأخذ منهم سوى الزكاة » وكان أمير المسلمين وطائفته على نهج السنة واتباع الشريعة ، فاستغاث به أهل المغرب ، فسار إليها وافتتحها حصناً وحصناً وبلداً بلبداً بأيسر سعي ، فأحبه الرعايا وصلحت أحوالهم . . وملك البلاد المنصلة بالحجاز ، مثل سبته ووطنجة وسلا وغيرها <sup>(١)</sup> ،

قامت الدولة المرابطية على أساس ديني ، ومع ذلك فإن تلك الفترة التي بدأت بحكم يوسف بن تاشفين يمكن أن تعتبر فترة سياسية أكثر منها دينية ، إذ كانت السيادة فيها لقبيلة صنهاجة الصحراوية على قبيلة زناتة صاحبة الأمر في المغرب قبل قيام الدولة المرابطية ، والكي يضمّن يوسف بن تاشفين بقاء السيادة لقبيلته ، نراه يصانع قبائل المصامدة الجبلية ، فيبدأ بها عبد الله بن ياسين في توزيع خمس الغنائم التي استولى عليها في حرب درعة وسجلماسة على فقهاء المصامدة <sup>(٢)</sup> ، وبعد يوسف بن تاشفين أول ملك بربري حكم المغرب وكون جيشاً قوياً تتمثل فيه جميع القبائل المغربية بصفة عامة .

### ( ٣ ) موقعة الزرورقة :

ولا يقف طموح يوسف بن تاشفين عند بسط سلطانه على المغرب الأقصى ، بل إنه كون أعظم دولة مغربية للدرة الأولى في التاريخ المغربي وهي الدولة المرابطية ، إذ امتد سلطانه من السودان جنوباً إلى جبال البرانس شمالاً ، ومن المحيط الأطلسي غرباً إلى حدود تونس شرقاً ، بل لقد اعتبر بعض المؤرخين يوسف بن تاشفين أعظم حكام المسلمين في عصره ، إذ كانت الدولة العباسية في المشرق قد تطرق إليها الضعف والانحلال ، وأخذت الدولة الفاطمية في الأفول ، واتخذ الصليبيون من هذا الضعف فرصة للاستيلاء على المدن المقدسة بفلسطين وغيرها من البلاد التي امتد إليها ظل الإسلام ، وشدد نصارى الأندلس بصفة خاصة الحناق على ملوك الطوائف ، وكاد حكم هذه البلاد يخرج من أيدي المسلمين ، لولا أن قيّض الله لهم يوسف بن تاشفين الذي أجي نداء ملوك الطوائف ورد جيوش الفونس السادس على أعقابهم .

(١) الكامل ج ٩ ص ٢٣٢ .

(٢) ابن أبي زرع روض الترطاس ج ٢ ص ٨٥ .

ويذكر عبد الواحد المراكشي<sup>(١)</sup> أن أبا عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ولى أمور إشبيلية وأعمالها سنة ٤٣٩ هـ ، وتلقب « المعتضد بالله » . وقد قيل إن هشاماً المؤيد الأموي كان يقيم بقصر المعتضد العبادي وأنه ولاه الحجابة . وفي سنة ٤٥٥ هـ أعلن المعتضد موت هشام المؤيد وأظهر أنه ولاه عهده ليكون أميراً على بلاد الأندلس من بعده .

وفي سنة ٤٦٣ هـ نزلت قبيلتا المتونة ومشوفة من البربر رحبة مراكش واتخذوها داراً للملكهم لوقوعها في مكان متوسط من بلاد المغرب الأقصى .  
وقد ولى المعتضد على الله حكم إشبيلية ، ويشبهه المؤرخون بالخليفة الواثق العباسي في سعة اطلاعه وغزارة أدبه ، وكان شعره — كما وصفه المراكشي<sup>(٢)</sup> « كأنه الحبل المنشرة » ، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس .

تغلب المعتضد على قرطبة سنة ٤٧١ هـ من بني جهور (بفتح الجيم والواو وسكون الهاء) . وكان المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة قد استولى عليها ، فاستنجد عبد الملك ابن جهور بالمعتضد بن عباد الذي استولى على قرطبة فأصبحت تابعة لإشبيلية ، ولكن أهلها ناروا على الظافر بن المعتضد وقتلوه لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم لبني أمية ، غير أن المعتضد بن عباد قضى على هذه الفتنة وولى ابنه الآخر المأمون أمور قرطبة ، فظل بها إلى أن قتله المرابطون .

وقد وجد المعتضد بن عباد أمير إشبيلية في أمير المسلمين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين في المغرب الرجل الذي يستطيع أن يعتمد عليه في الصمود أمام أعدائه المسيحيين ، وفي سنة ٤٧٩ هـ عبر المعتضد البحر قاصداً مدينة مراكش حاضرة الدولة المرابطية مستنجداً بأمر المسلمين يوسف بن تاشفين<sup>(٣)</sup> ، وكان إذ ذاك بمدينة سبتة ، وطلب إليه الحضور لنجدة المسلمين والجهاد ضد المسيحيين في الأندلس ، فلبى ابن تاشفين نداء المعتضد وقال له : « أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد

(١) المعجب ص ٩٥ .

(٢) المعجب ص ١٠١ — ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٠ .



إلا أنا بنفسى » وأقبل من بقي من جند ابن ناشفين في مدينة مراکش حتى تكامل عددهم ، ثم عبر البحر من سبتة في أسطول يتألف من مائة سفينة تحمل سبعة آلاف فارس وهدداً كبيراً من الرجال ميمها شطر مدينة الجزيرة الخضراء ، وتلقاه المعتمد بن عباد في وجوه أهل دولته ، وقدم إليه الهدايا والتحف .

ثم اتجه ابن ناشفين نحو شرق الأندلس وطلب إليه المعتمد أن يدخل لإشبيلية حاضرة ملكة ليستريح فيها أياماً من وعثاء السفر ومشقة الطريق قبل أن يلتقى بعدوه ، فأبى ابن ناشفين وقال : « إنما جئت ناوياً جهاد العدو ، فحيثما كان العدو توجهت وجهه . . . هلم (إلى) ما جئنا له من الجهاد . وقصد حصن ألفونس السادس ملك قشتالة<sup>(١)</sup> ، وقد بلغ جيش يوسف بن ناشفين زهاء عشرين ألفاً ، عدا المتطوعين من المسلمين الذين جاءوا من سائر بلاد الأندلس ، وجمع ألفونس من أقاصى مملكته جيشاً جراراً كامل العدد والسلاح والخييل<sup>(٢)</sup> ، وفي سهل الزلاقة على مقربة من بطليوس وقف جيش المعتمد في المقدمة وعسكر جيش ابن ناشفين خائف أكمة عالية من الجبل .

ويصف لنا عبد الواحد المراكشى ما ابتكره ألفونس السادس من ضروب الخيل والخذاع لمنازلة المسلمين وإلحاق الهزيمة بهم ، واختلفت الرسل بين الفريقين المتحاربين في تحديد يوم القتال ، وبعث قائد المسيحيين يقول للمسلمين : « الجمعة لكم والسبت لليهود وهم وزرأؤنا ، وكتابنا وأكثر خدم العسكر منهم فلا غنى بنا عنهم ، والآخر لنا ، فإذا كان ما نريده من الزحف » . ثم جاء يوم الجمعة وخرج يوسف بن ناشفين للصلاة ، وأوجس المعتمد بن عباد خيفة من ناحية المسيحيين وظل في جنده شاكي السلاح ، وحمل المسيحيون على المسلمين ، ففاجأهم جند المعتمد وحمل المرابطون السلاح واستولوا على ظهور خيامهم ، واختلط الفريقان ، وأظهر المرابطون من ضروب البسالة ما كفل لهم النصر ، وأخذ المسلمون يطاردون أعداءهم ويقتلونهم في كل مكان ، حتى قيل أنهم أفنواهم عن آخرهم ، وذلك في منتصف شهر رجب ( وقيل في أوائل رمضان ) سنة ٤٧٩ هـ ، واستولى المسلمون على ما كان معهم من مال وسلاح ودواب وغيرها ، وقد آثر بها يوسف بن ناشفين ملوك الأندلس ، فأجبهوه .

(١) المراكشى : المعجس ص ١٣٠ - ١٣٢ .

(٢) ذكر ابن الأثير : ( الكامل ج ١٠ ص ٥٧ ) أن جيش ألفونس كان يتألف من خمسين

ألف مقاتل .

وهكذا لبى يوسف بن تاشفين نداء الجهاد وأحرز هذا النصر المؤزر في موقعة الزلاقة التي تعد من المواقع الحاسمة في التاريخ ، ضمن الإسلام قوته وعزته في بلاد الأندلس أربعة قرون أخرى .

كان انتصار المسلمين في الزلاقة فاتحة يمن وبركة ، ولا غرو فقد أثار هذا النصر إعجاب المسلمين بيوسف بن تاشفين ولهجت الألسنة بإطرائه والثناء عليه ودعوا له على منابرهم ، وقد عبّر يوسف عن رغبته في زيارة الأندلس ومشاهدة معالمها ، وكان في خلال زيارته يظهر إعجابه بمواهب المعتمد العبادي ويشيد بكرم ضيافته ، وكان يظهر الحنين إلى مراكش حاضرة ملكه ويصغر من شأن الأندلس ، وهو — كما يقول المراكشي<sup>(١)</sup> — يُسرّ حسواً في ارتفاعه<sup>(٢)</sup> .

وقد علق أشباح<sup>(٣)</sup> على هذه الموقعة فقال : إن يوسف بن تاشفين لو استطاع أن يستغل نتائج انتصاره في موقعة الزلاقة ، لكانت أوروبا الآن تدين بالإسلام ، ولرأينا القرآن يدرس في جامعات موسكو وبرلين ولندن وباريس .

#### ( ٤ ) بعد موقعة الزلاقة

لقد أثار ت هزيمة ألفونس السادس في موقعة الزلاقة التي جرح فيها وقتل معظم جنده عوامل الحقد والضغينة على المعتمد بن عباد ، لأنه هو الذي دعا يوسف بن تاشفين إلى قتال نصارى الأندلس ، لذلك عوّل ألفونس على أخذ النار من المعتمد ، فأخذ يجمع النار الجند ويستعد لمهاجمة إشبيلية ، وركز غاراته على مملكة ابن عباد ، وأخذ يوجّه ضرباته إلى حصن « لبيط » . فضاق ابن عباد بذلك ذرعاً وحاز البحر إلى بر المغرب والتقى بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين واستغاث به ، وقد عاد ابن عباد إلى بلاده وحاز

(١) المعجب س ١٣٥ .

(٢) مثل يضرب لمن يريد أن يمينك وإنما يقصد النقع لنفسه : كمن يؤتى بوعاء من اللبن ويظهر أنه يريد الرغوة خاصة لا يريد غيرها ، وهو في أثناء ارتفاعه يحسو اللبن جرة جرة .

(٣) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين س ١١٧ . أنظر أيضاً عبد الله كنون : المدخل س ٤٨ . المراكشي : المعجب س ١٧٨ . ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ س ٦٣ السلاوى الاستقصا ج ٢ س ٤١ .

ابن تاشفين البحر إلى الجزيرة الخضراء حيث تلقاه ابن عباد ، وقد رأى ابن تاشفين أن يوحد جهود المسلمين في جهاد النصارى ، فكتب إلى ملوك الأندلس يدعوهم إلى منازلة النصارى ، وطلب أن يكون اجتماع الجيوش المشتركة في حصن لبيط<sup>(١)</sup> .

ولما وصلت جيوش يوسف بن تاشفين إلى هذا الحصن ساءه عدم استجابة أمراء الأندلس إلى دعوته ، إذ لم يستجب لها سوى ابن عبد العزيز صاحب مرسية والمعتمد ابن عباد ، ولكن ذلك لم يبط من عزيمة أمير المسلمين ، إذ ضيق على هذا الحصن وأخذ يشن الغارات على بلاد النصارى ، على أن قيام النزاع بين المعتمد بن عباد وابن عبد العزيز الذى قبض عليه بأمر يوسف بن تاشفين ، قد أضعف جند المسلمين ، واضطر أمير المسلمين أن يولى وجهه شطر ليورفه فثغر المرية ، حيث جاز منه البحر إلى عدوة المغرب ، « وقد تغير ( ابن تاشفين ) على أمراء الأندلس لكونه لم يأتهم منهم أحد إلى نزول حصن « لبيط » . وبذلك خلا الجو لالفونس السادس ، فنزل على الحصن وأطلق من بقى به من النصارى ، ثم يم شطر طليطلة ، واسترد المعتمد بن عباد هذا الحصن .

وقد أقام يوسف بن تاشفين ببلاد المغرب إلى سنة ٤٨٣ هـ ( ١٠٩٠ م ) ، حيث جاز البحر إلى الأندلس للمرة الثالثة للجهاد في سبيل الله والاستيلاء على الأندلس من أمراء المسلمين . وقد سار يوسف حتى بلغ طليطلة وحاصر ألفونس بها . . . . . وقطع ثمارها وضرب أحوازها ( أحياءها ) وقتل وسبي كثيراً من أهلها ، ولم يأت لمساعدة يوسف أحد من أمراء الأندلس الأمر الذى أثار حنقه عليهم ، فلما رجع من غزو طليطلة سار نحو غرناطة ، فنازل صاحبها عبد الله بن بلسكين بن باديس لأنه صالح ألفونس السادس وظاهره عليه . فلما اشتد الحصار على غرناطة لم يجد صاحبها بداً من طلب الأمان ، فأمنه يوسف بن تاشفين على أن يسلم إليه بلاده ، ثم حمل عبد الله بن بلسكين وأخوه تميم صاحب مالقة إلى مراكش<sup>(٢)</sup> .

جاز يوسف بن تاشفين البحر إلى المغرب في شهر رمضان سنة ٤٨٣ هـ ، وأتاب عنه الأمير سيرى بن أبي بكر اللمتونى في حكم هذه البلاد ، وأمره أن يتتبع آثار ألفونس السادس صاحب طليطلة ، وأن يخضع الإمارات الإسلامية لحكم المرابطين ويلحق

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٦٦ — ٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٧ — ٦٩ .

أمرها بالمغرب ، كما أمره أن يقاتل من يخالف هذه الرغبة ، وألا يتعرض للمعتمد ابن عباد حتى يستولى على سائر الإمارات ويولى عليها أمراء جنده .

وقد استولى سيرى على جَيَّان في أوائل سنة ٤٨٤ هـ ، ثم سار نحو قرطبة ، فاستولى عليها من صاحبها المأمون بن المعتمد ( صفر سنة ٤٨٤ هـ ) ، ثم يم شطر قرمونة فدخلها عنوة ( ربيع الأول سنة ٤٨٤ هـ ) ، فلم يجد المعتمد بن عباد بدأ من الاستنجاد بألفونس السادس الذى أمده بعشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل ، فوجه الأمير سيرى إليه جيشاً ، والتقى الجمعان على مقربة من حصن المدور وانتصر عليه . ولم يزل الأمير سيرى يضيق الخناق على المعتمد حتى سقطت إشبيلية ( ٢٢ رجب سنة ٤٨٤ هـ ) ، وأرغم على طلب الأمان فى نفسه وولده وأهله ، فبعث بهم سيرى إلى أمير المؤمنين ، فأنزلم أغمات القرية من مراكش . وفى شهر شوال من هذه السنة دخل المرابطون بقيادة يوسف بن داود بن عائشة مدينة مرسية وأعمالها . ثم دخل المرية فهرب صاحبها معز الدولة بن ضمادح بجزراً إلى إفريقية بأمواله وعياله . وفى سنة ٤٨٥ هـ أمر يوسف بن تاشفين قائده ابن عائشة بالمسير إلى دانية فاستولى عليها ، كما استولى على شاطبة من صاحبها ابن منقذ ، ثم سار ابن عائشة إلى بلنسية فاستولى عليها من القادر ابن ذى النون ، وكان يخضع لألفونس السادس ويدفع إليه الجزية ، « فلك يوسف ملكة خمسة أمراء فى سنة ونصف . وهم : ابن عباد ، وابن حبوس ( غرناطة ) وابن الاحوص ، وابن عبد العزيز ، وعبد الله بن بكر ( جَيَّان )<sup>(١)</sup> .

كان يوسف بن تاشفين حسن السيرة خيراً عادلاً يميل إلى أهل الدين والعلم ويكرمهم ويصدر عن رأيهم ، ويسند إليهم مناصب الدولة ، وقد قيل إن حجة الإسلام الغزالي لما سمع ما أنصف به يوسف بن تاشفين من الأوصاف الحميدة وميله إلى أهل العلم عزم على التوجه إليه ، فوصل إلى الإسكندرية وأخذ فى الاستعداد للرحيل ، ولكنه علم بنياً وفاته فعدل عن رأيه ، وكان يوسف بن تاشفين معتدل القامة أسمر اللون نحيف الجسم خفيف العارضين ، وكان يحب العفو ويصفح عن الذنوب ، ويستمع إلى الموعظة فى خشوع ، وقد حكم الدولة المرابطية حتى مات لثلاث بقين من شهر المحرم سنة ٥٠٠ هـ

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٦٩ — ٧٧ . القرى : نفع الطيب ج ٦ ص ١٠٤ — ١١٠ .

وقد بلغ يوسف التسعين سنة ملك منها المغرب والاندلس مدة خمسين سنة ، وقد أجمع المؤرخون على أن عهد يوسف بن تاشفين كان عصر المرابطين الذهبي ، فقد أخذت الدولة المرابطية في الضعف بعد موته ، وخلفه أمراء كانوا أقل منه حنكة وأضف قوة ، وصادفتهم ظروف سيئة في الداخل والخارج عجلت بسقوط دولتهم ولا سيما بعد ظهور الدعوة الموحدية على يد المهدي محمد بن تومرت .

(٥) علي بن يوسف بن تاشفين ٥٠٠ - ٥٣٧ / ١١٠٦ - ١١٤٣ .

عرفت الملكية في المغرب لأول مرة في الاسلام بعد قيام دولة الادارسة الذين أخذوا نظرية الإمامة عن أسلافهم العلويين الذين اقتبسوا نظرية الحق للملكي التي كانت سائدة في بلاد الفرس في عهد الساسانيين ، أضف إلى ذلك اعتقادهم بأحقيتهم بالخلافة بعد الرسول . وقد رحبت قبيلة أوربة ( بفتح الألف والراء والباء وسكون الواو ) بإدريس الأول وسدت إليه مقاليد الحكم وساعدته على ضم جزء كبير من المغرب ، في الوقت الذي استولى بنو مدرار على زمام الحكم في سجلماسة ، واحتل البرغواطيون سهول المحيط الأطلسي ، واحتل بوضالح مدينة نكور ( بفتح النون ) في الشمال . وقد ساعد البربر الادارسة على إقامة حكم وراثي في المغرب لأنهم من بيت الرسول الكريم ، ولما كان من اضطهاد العباسيين لهم ، ثم لشدة تمسكهم بالإسلام ، واستمرت الحال على ذلك حتى انقضى عهد الادارسة سنة ٣٧٥ هـ .

وكان المرابطون أول من أسس ملكية وراثية من أبناء المغرب أنفسهم ، وكانت دولتهم أول دولة وحدت المغربين الأقصى والوسط ، وقامت بدور خطير في نشر الإسلام في المغرب والسنغال . وقد جمعوا بين الجهاد والثقافة الإسلامية معاً ، وقضوا على بدع البرغواطيين ، وفلوا شوكة الزنانيين المتنازعين المتسافرين ، وأنقذوا بلاد الأندلس من الضياع .

وقد أدرك يوسف بن تاشفين كل هذه الأمور حين فكر في أخذ البيعة لابنه علي ، إذ كان يخشى أن يعود الأمر فوضى من بعده ، وأن تنقسم عرى هذه الوحدة وتنتهي هذه الرسالة التي عمل جاهداً على تبليغها زهاء نصف قرن ، لذلك رأى يوسف بن تاشفين أن يستخلف من ينوب عنه في مباشرة هذه التبعات الخطيرة . ولو أنه ترك الأمر شورى للمرابطين ليختاروا من بعده من أحبوا ، لأصبح من العسير أن يجتمع الناس على شخص معين ، لأنه لم يكن ثمة نظام مستقر للانتخاب في وقت أصبحت بلاد الأندلس مهددة

بغارات نصارى الشمال ، لذلك فكر يوسف في البيعة لابنه ، إذ أنه رأى أن هذا الأمر يدخل في نطاق سلطته ، كما يتبين ذلك من عهده له الذى جاء فيه .

« . . . فلأنه ( يعنى يوسف بن تاشفين ) بما لزمه من هذه الوظيفة وخصه الله بها من النظر في هذه الامور الدينية الشريفة ، فقد أعز الله رماحه ، وأحد سلاحه ، فوجد ابنه الامير الاجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالى واهتزازاً وأكرمها سجيةً وأنفسها اعتزازاً (١) . »

وقد تمت هذه البيعة بمدينة قرطبة سنة ٤٩٦ هـ ، فبايعه جميع أمراء المتونة وفقهاؤها وأشياخها . وكان على بسبته التى ولد فيها (٢) . ولم يكن على بن يوسف أكبر إخوته .

وكان يوسف بن تاشفين يخشى معارضة المصامدة حين أوصى ابنه علياً قبل وفاته بوصايا ثلاث تلخص فيما بلى :

(١) ألا يتال سكان الأطلس ومن وراه من المصامدة بسوء .

(٢) أن يهادن بنى هود أمراء سرقسطة من ملوك الطوائف التى أسسها سليمان بن محمد ابن هود بن الجذامى أحد قادة الثغر الأعلى (٣) .

(٣) أن يحسن إلى أهل قرطبة ويتجاوز عن مسيئتهم . وقد اشتهروا بثوراتهم على الدول التى تعاقبت على حكم الأندلس ، لأن عدداً كبيراً من أهلها كانوا من المولدين والفقهاء الذين تزعموا هذه الثورات (٤) .

(١) الملل الموشية ص ٦٤ .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٧٧ .

(٣) استولى سليمان بن هود على لاردة سنة ٤٣١ هـ . وأقب نفسه المستعين ، وضم سرقسطة التى بقيت فى أيدي أولاده إلى أن سقطت فى يد أحد أبناء روضمير سنة ٥١٢ هـ . وتقرّب عبد الملك بن هود إلى النصارى سنة ٥٠٣ هـ . وقد خرج عبد الله بن فاطمة قائد المرابطين فى الأندلس على بن يوسف ابن تاشفين وحاول الاستيلاء على سرقسطة . ولكن الهزيمة حلت بجيشه أمام جيش ابن روضمير الذى استنجد به عبد الملك بن هود .

(٤) وقد أدت هذه الفتن إلى طرد النوار ، فلجأ بعض إلى طلبيلة وقصد آخر المغرب والإسكندرية . ثم نارت قرطبة على المرابطين بزعمارة القاضى ابن مدين سنة ٥٣٩ هـ ، وطرده أهلها واستنجدوا ببجي ابن غانية آخر ولاية المرابطين . وقد قيل إن يوسف بن تاشفين أوصى ابنه علياً بأن يحسن إلى أهل قرطبة لأنها كانت مركزاً علياً .

ولد أبو الحسن علي بن يوسف بن ناشفين بمدينة سبتة سنة ٤٧٧ هـ وانشأ في بيت أبيه كما ينشأ أبناء الاشراف . وكان أبو الطاهر تميم أول من بايع أخاه علياً على الرغم من أنه أكبر منه سنأ ونادى في المرابطين : « قوموا فبايعوا أمير المسلمين »<sup>(١)</sup> ، فبايعه جميع من حضر من لمتونة وسائر قبائل صنهاجة والفقهاء وشيوخ القبائل . ولم يتخلف عن بيعة علي إلا ابن أخيه يحيى بن أخيه الأكبر أبي بكر . وكان يلي مدينة فاس . وله مواقف مشهورة في أيام جده يوسف بن ناشفين ، كما كان أبو بكر نائباً عن أبيه يوسف قبل انتصاره في موقعة الزلاقة المشهورة في الأندلس . لذلك تطلع يحيى بن أبي بكر إلى الحكم بعد جده يوسف لأنه ابن الأخ الأكبر من أبناء يوسف ، وامتنع عن مبايعة عمه على الذي سار إلى مدينة فاس لتأديب ابن أخيه وإدخاله في طاعته . ولكن يحيى قد فر أمام جيوش عمه الذي استولى على فاس ، وتمت له بذلك البيعة في جميع أنحاء الدولة المرابطية التي امتد نفوذها على المغرب والجزائر والأندلس ، وتلقب بلقب أمير المسلمين . كما كان أبوه من قبل . وسار على نهج أبيه في الجهاد في سبيل الله وحماية البلاد من خطر النصارى . وكان علي بن يوسف يكره الظلم ويميل إلى حياة الزهد والتعشف ويعظم الفقهاء ويقرهم إليه ولا يقطع أمراً دون الرجوع إلى رأيهم<sup>(٢)</sup> .

وقد وضع علي بن يوسف نصب عينيه القضاء على مقاومة النصارى بزطامة ألفونس السادس صاحب طليطلة الذي اشتد طمعه وأخذ يشن الغارات على أطراف الولايات الإسلامية في الأندلس بعد موت يوسف بن ناشفين بطل الزلاقة . كذلك عمل علي بن يوسف على القضاء على الدعوة الموحدية التي قام بها المهدي بن تومرت في مستهل سنة ٥١٥ هـ ، وأخذ يهدد الدولة المرابطية ويعمل على زوالها . لذلك لم يكن بد من أن يعمل علي بن يوسف على القضاء على هذين الخطرين في وقت واحد .

فأما نصارى الأندلس فقد ولي علي بن يوسف أخاه « تميم بن يوسف » غرناطة ، وأسند إليه قيادة الجيش المرابطي في الأندلس . وقد استطاع تميم أن يحل الهزيمة بالنصارى في موقعة « إقليش » التي تعد من أكبر المعارك التي دارت بعد موقعة الزلاقة بين المرابطين والنصارى . ففي سنة ٥٠٢ هـ حاصر تميم حصن إقليش ، فاستجدت حاميته بألفونس السادس وكان مريضاً ، فأشارت عليه زوجته بأن يرسل ابنه علي رأس جيش كبير يفوق جيش

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٧٨ .

(٢) المراكشي : المعجب ص ١٧١ :

المسلمين عدداً وعدة . وانتهت هذه المعركة بهزيمة النصارى هزيمة منكرة وقتل ابن ألفونس السادس ومعظم من كان معه من الأمراء ونحو عشرة آلاف من زهرة جنده<sup>(١)</sup>. ولما انصل نبأ هذا الانتصار بعلى بن يوسف امتلاً حماساً وقرر أن يجتاز البحر إلى الأندلس لاستئصال شأفة النصارى فيها .

وفي السنة التالية ( ١١٠٨ / ٥٠٣ ) جاز على بن يوسف بن ناشفين إلى الأندلس للجهاد في مائة ألف جندي . وبعد أن قضى شهراً بقرطبة خرج إلى مدينة « طلايوت » ففتحها عنوة ، كما فتح سبعة وعشرين حصناً من أعمال طليطلة ، من بينها حصن مجريط ( وهي مدريد الحالية ) ووادي الحجارة ، ثم يم شطر طليطلة حاضرة أسبانيا النصرانية إذ ذاك ، وحاصرها شهراً ، ثم سار نحو قرطبة .

وفي سنة ٥٠٤ هـ فتح المرابطون شريش وبطليوس والبرتغال وبارجة وأشبونة ( لشبونة ) . وقد ذكر ابن الأثير أن علياً بن يوسف هزم الفرنجة هزيمة منكرة وأسر عدداً كبيراً منهم وغنم غنائم لا تحصى<sup>(٢)</sup>. ولكن النصارى استطاعوا في سنة ٥١٣ هـ أن يستولوا على مدينة سرقسطة ، كما استولوا على قلعة أيوب شرق بلاد الأندلس ، وكانت تعد من أمنع قلاع الأندلس . وكانت هذه الهزائم من بوادر ضعف الحكم المرابطي في هذه البلاد .

وفي سنة ٥١٣ هـ ( وقيل سنة ٥١٤ هـ ) قامت فتنة عظيمة بين أهل قرطبة وجند المرابطين . ويرجع ذلك إلى تعدى أحد عبيد الوالي المرابطي على امرأة ، فاستغاثت بالمسلمين وقامت الحرب بين العبيد وأهل قرطبة . ويذكر ابن الأثير أن الفقهاء طلبوا من الوالي أن يأمر بقتل أحد العبيد الذين أثاروا هذه الفتنة ليكون ذلك رادعاً لمن تحدته نفسه بأن يعيث بالتقاليد الإسلامية . ولكن الوالي لم يستمع إلى طلبهم ، وقامت الحرب بين أهل قرطبة وجند المرابطين ، وحاصر الأهالي دار الوالي ونهبوه وأحرقوا دور المرابطين ونهبوا أموالهم وأخرجوهم من بلدهم ، واضطر الوالي إلى الهرب . ولما انصل ذلك بمسامع أمير المسلمين على بن يوسف أنكر ذلك وجمع الجند من صنهاجة وزنانة وسائر البربر وغيرهم ، وعبر البحر إلى الأندلس سنة ٥١٥ هـ ، وحاصر قرطبة ، فقاتله أهلها لحماية حرمهم وأموالهم وتدخل الوسطاء في الصلح فعدل على عن قتالهم<sup>(٣)</sup>.

(١) الملل الموشية ص ٦٤ .

(٢) السكامل ١٠ ص ١٨٥ .

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢١١ .



(٦) نهاية الدولة المرابطية :

وفي سنة ٥١٦ هـ بدأ ابن تومرت يناوى سلطان المرابطين الأمر الذى أضعف قوتهم في الأندلس ، ووقعت بين الفريقين معركة البحيرة . وكان جيش الموحدين بقيادة محمد البشير الونشريشى الذى قتل في هذه المعركة ، وفقد ابن تومرت أكثر أصحابه العشرة وآلاف من زهرة جنده ، واشتد به المرض فمات في سنة ٥٢٤ هـ<sup>(١)</sup> .

خلف ابن تومرت عبد المؤمن بن علي ، وكان سياسياً محنكاً وقائداً ماهراً . استطاع أن يعيد إلى الموحدين قوتهم ويرد إليهم هيبتهم ، فاستولى على كثير من بلاد السوس في حياة علي بن يوسف بن تاشفين . ولما مات علي بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ ، ولى من بعده ابنه تاشفين . وقد استخلف علي مراکش ابنه إبراهيم ؛ وأخذ يحارب عبد المؤمن ويتعقبه في كل مكان يحل به رغبة في القضاء على قوة الموحدين التي أخذت تنمو وتشتد . وقد سار تاشفين إلى مدينة تلمسان فدخلها ؛ ثم أتى عبد المؤمن بن علي ؛ فخرج تاشفين إلى قتاله ، واتخذ الجيش المرابطى مواقعه في السهل وربض الجيش الموحدى في الجبال المحاذية له . وكان تاشفين قد فر إلى مدينة وهران ( في الجزائر الآن ) ليتخذها حاضرة لدولته فحاصره الموحدون .

ولما اشتد الحصار على تاشفين وتكاثرت عليه الخيل والرجال ، صعد تاشفين إلى ربوة تشرف على البحر في ظاهر مدينة وهران ، وفي أعلاها رباط يأوى إليه المتعبدون ، وعلم أبو حفص بن عمر بن يحيى صاحب المهدي بن تومرت بانفراد تاشفين في ذلك الرباط ، فقصده الموحدون وأحاطوا به وأحرقوا باب الرباط ، فخرج تاشفين راكباً فرسه فأسرع الفرس لينجو من النار طالباً النجاة ، فصادفته صخرة هوى تاشفين من فوقها بفرسه ، فقتل وقتل من كان معه من خاصته ، واحتز الموحدون رأسه وحملوها إلى تينمل ( مركز الدعوة الموحدية ) . وكان ذلك في شهر رمضان سنة ٥٣٩ هـ ( ١١٤٤ - ١١٤٥ م )<sup>(٢)</sup> ، فولى المرابطون بعده أخاه إسحاق بن علي بن يوسف .

(١) الحلال الموشية .

(٢) القرى : نفح الطيب ج ٦ ص ١١١ .

## الباب الرابع

غزوات المغول — سقوط بغداد

(١) معنى تتر ومغول :

تختلف كلمة تتر بالمعنى العام باختلاف العصور . فقد أطلق هذا اللفظ على جماعتين من قبائل التتر ورد ذكرهما في نقوش الأرخون (بضم الألف مع الهمزة وضم الخاء) التركية التي ترجع إلى القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ، كما أطلق هذا الاسم على المغول عامة أو على فريق منهم خاصة .

وفي جميع الفتوحات المغولية التي وقعت في القرن السابع الهجري كان الغاتحون يسمون التتر في كل مكان نزلوا فيه ، سواء أكان في الصين أم في البلاد الإسلامية أم في بلاد روسيا وغربي أوربا . ويسمى ابن الأثير أسلاف جنكيزخان باسم التتر ، وهم التتر الأوانل ، وكانوا يعرفون عند قدماء اليونان باسم سكيثيا Scythia أو سكوتيا .

ولم يظهر اسم المغول على صفحات التاريخ حتى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . ومن المرجح أنه أطلق على تلك العشائر التي انضوت تحت لواء زعيم إحدى قبائلهم كان يحمل ذلك الاسم . ثم بسط ذلك الزعيم سلطانه على سائر العشائر المتحالفة ؛ ومن ثم أطلق عليهم اسم المغول من باب إطلاق اسم البعض على الكل (١) .

وقد نزحت طائفة حربية من هؤلاء المغول إلى بعض بلاد آسيا الصغرى ؛ وكان أعقابهم (الذين صاروا أتراكا بلاشك) يسمون بالتر السود (قَرَاتَر) . وقد عاشوا عيشة بدوية وقت حملات تيمورلنك على البلاد الريفية الواقعة بين أماسيا وقيصرية ، وكانوا نحو ثلاثين أو أربعين ألف أسرة . وقد نفاهم تيمورلنك إلى أواسط آسيا ، فأنزلهم بايزيد الثاني العثماني بعض الأماكن في بلاد كاشغر وخوارزم ، ثم عاد هؤلاء التتر السود بعد

وفاة تيمورلنك إلى آسيا الصغرى واستقروا بها من جديد . كذلك نرى في روسيا وشرق أوروبا اسم تتر يطلق غالباً على جميع الشعوب التركية ماعدا العثمانيين .

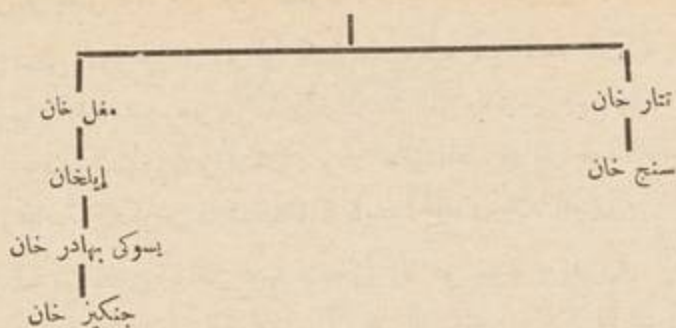
ويرى بعض مؤرخي المسلمين أن التتر شعب كبير من الأمة التركية ، ومنه نفرعت معظم بطونها وأخاذها ، وهو مرادف للترك عند الفرنجة ، حتى إنهم يعدون قبائل الأتراك كافة تترأ ، ومنهم العثمانيون والتركان . وقد أطلق لفظ تتر من باب التوسع فشمّل جميع المغول ، وبخاصة المنكوس Manchus كما كانت الحال في بلاد الصين .

وأما كلمة تتر بالمعنى الخاص فإنها لا تطلق إلا على شعب بعينه وهم سكان حوض نهر الفلجا الذين يعيشون في تلك البقعة من الأرض التي تمتد من بلاد قازان إلى أستراخان ، وكذلك على سكان شبه جزيرة القرم ، وجزء من سيبيريا ، ويتكلمون اللغة التركية القديمة . وقد استبدلت كلمة تتر بعد جنكيزخان في بلاد منغوليا وأواسط آسيا بكلمة مغل ( بضم الميم والغين ) ، ولا يزال هذا اللقب مستعملاً إلى اليوم في بلاد الأفغان بين أعقاب المغول الذين لا يزالون يحتفظون بلغتهم حتى الآن .

وقد أدخل جنكيزخان تلك التسمية رسمياً في بلاده ، على أن كلمة Mongol لم تسد قط في معظم البقاع الغربية .

ويقول مؤرخو الترك ونسابوهم إن ألتجاخان ( بفتح الألف مع الهمزة واللام وسكون النون ) أحد ملوك التتر في الأزمنة الغابرة ولد له توأمان هما « تارخان » و « مغل خان » كما هو الحال في ربيعة ومصر عند العرب . وقد استمر أبناء تارخان على صفاء إلى أن وقع النزاع بينهما في عهد « إيلخان » ملك المغل و « سُنج خان » ملك التتار ، وأدى هذا النزاع إلى حروب انتهت بانتصار التتار وقتل إيلخان ملك المغل . ومن ثم أصبحت السيادة للتتار ، فاستذلوا المغول مدة طويلة حتى جمع هؤلاء جموعهم واتحدوا وحاربوا التتار وقلوا شوكتهم واستردوا ماضع من حريتهم ؛ فعادت بذلك سيادتهم ، وأصبح الملك متوارثاً فيهم إلى زمن « يسوكي بهادرخان » والد جنكيزخان .

## النَّجَا خان



وسواء أصح التفسير الأول أم التفسير الثاني فإن هناك قرابة ملحوظة بين المغول والتتر الذين اندمج بعضهم في بعض على مر العصور ، حتى إنه يبدو عدم استطاعة المؤرخين والجغرافيين التمييز بين هذين الشعبين .

### ( ٢ ) مائة المغول قبل ظهور جنكيزخان

ظهر المغول في عالم التاريخ حول نهاية القرن الثاني عشر الميلادى من وراء ذلك الغموض الذى كان يكتنف تاريخهم قبل ذلك الوقت . . ويبدأ تاريخهم بالفاتح العظيم چنكيزخان الذى نقل لنا مؤرخو حياته أقوالاً مختلفة عن أسلافه . وإن سلسلة نسبه مسألة يحوطها الشك كما هى الحال عند غيره من الملوك والأمراء الذين ظهرت عظمتهم مرة واحدة . وليست هناك مصادر تاريخية نستطيع أن نقف منها على أصل المغول ، اللهم إلا ذلك القمص الذى هو بالأساطير أشبه . وكل ما نستطيع أن نذكره عن تاريخ المغول الأول أنهم ظهوروا فى الجهات الشمالية من بلاد الصين فى الأراضى التى نبتت فيها أصول قبائل الهون والترک الذين كانت صلة النسب بينهم واضحة جلية .

وكانوا قبائل من البدو الرحل تطوف فى ذلك الصقع الواقع شمالى صحراء جوى كما تقدم . وكان المغول فى القرن الثاني عشر الميلادى إحدى القبائل الخاضعة لسلطان « كين » الذى فتح الشمال الشرقى من بلاد الصين . وهم من قبائل الفرسان الرحالة الذين يعيشون فى الخيام ، غذاؤهم الرئيسى لحوم الخيل ومنتجات ألبانها ، كما كانوا يجترفون رعى الاغنام والصيد فى وقت السلم ، وحمل السلاح فى زمن الحرب ، كما هو الشأن فى حياة الأمم البادية . وكانوا ينزحون إلى الجهات الشمالية ابتغاء مراعى الصيف إذا ما ذابت الثلوج ، وينزحون إلى الجنوب سعياً وراء مراعى الشتاء . كما هى عادة الرحل من

سكان السهول الفسيحة ، وكانوا يسعون وراء الرمح من تبادل الجلود والدواب مع أقربائهم الخطا Khitāns أو مع الترك والصينيين .  
وقد احتفظ المغول بديانتهم وعاداتهم الأولى التي هي من أهم مميزاتهم البارزة ؛ فقد كانت حياتهم رعوية ونظامهم قليلاً ، مع طاعة لرؤسائهم وحب للحرب والسلب والنهب ، وكانت ديانتهم عبادة الكواكب يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرّمون شيئاً ، فسكانوا يأكلون جميع الدواب حتى السكّاب والخنزير ، وكانوا لإباحيين لا يعرف الولد منهم أباه وكانت الشامانية Shamanism الديانة القديمة للمغول الذين كانوا يرغم اعترافهم بأله عظيم قادر لا يؤدون له الصلاة ، ولا يلقون إليه بالموذة ، يعبدون عدداً من الآلهة المنحطة ، وبخاصة تلك الحيوانات الشريرة التي كانوا يتقدّمون إليها بالقرابين والضحايا لما كانوا يعتقدونه فيها من السلطان والقدرة على إبدائهم ، كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم وكان المغول يلجئون إلى القسيسين ، وهم الشامان والسحرة ، أو إلى رجال الحكمة الذين كانوا يعتبرونهم ذوي نفوذ خفي وسلطان غريب على أرواح الموتى إذا ما أرادوا الفوز في الدنيا والآخرة ، على حد اعتقاد قدماء المصريين في كهنة المعابد . ولم تكن ديانة المغول معدودة ضمن تلك الأديان التي تستطيع أن تقاوم جهود الأديان الكثيرة الاتباع والانصار ذات اللاهوت المنظم الذي يملك قوّة الإقناع وسد حاجات العقل وذات الهيئات المنظمة للمعالمين الدينيين<sup>(١)</sup> ، تلك التي كانت تحيط بالمغول من اليهودية والمسيحية والإسلام ، ولنتناول الآن الكلام في إيجاز عن حالة بلاد الصين موطن المغول والبلاد الإسلامية قبل ظهور جنكيز خان في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بلغت أسرة تانج (بسكون النون) العظيمة أقصى غايات الانحلال والضعف وانقسمت بلاد الصين إلى عشر دويلات متفرقة متعادية ، ثم قامت أسرة جديدة حكمت هذه البلاد هي أسرة سنج (بضم السين وسكون النون والجيم) التي وحدت هذه الولايات نوعاً ما تحت سلطانها ، واستمرت في الحكم من سنة ٩٦٠ إلى سنة ١١٢٧ م برغم ما كان يكتنف عهدها من كفاح مستمر مع أمم الهون الشمالية التي كانت تغير على الساحل الشرقي لتلك البلاد .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٢٣٥ .

وفي ذلك الوقت ظهر أحد أهل بلاد الخطا الذي آلت إليه السيادة ردها من الزمن ، ثم انتهى الأمر بإخضاعهم ، وتحوّلت السلطة في الشمال إلى إمبراطورية أخرى من الهون هي إمبراطورية « كين » التي اتخذت « بكين » حاضرة لها ؛ ومن ثمّ انكسرت أسرة سنج نحو الجنوب وعرفت بين سنتي ١١٢٧ و ١٢٩٥ م باسم مملكة سنج الجنوبية . وفي الشرق أيضاً كان جل الطوائف الآسيوية تحت إمرة حكام مختلطي الجنسيات والأهواء ، وأصبحت تلك الطوائف تتطلع إلى قانع جديد يلم شملها ويوحّد كلمتها .

وفي مستهل القرن السابع الهجري كانت أرجاء الهند الشمالية التي كانت في بادئ الأمر جزءاً من إمبراطورية خوارزم من البلاد التي امتدت إليها تلك الغارات . فقد فتحها في سنة ٦٠٣ هـ ( ١٢٠٦ م ) شخص يدعى قطب الدين ، آلت إليه الولاية على بلاد الهند بعد أن كان عبداً رقيقاً ، وأقام ولاية إسلامية منفصلة في دلهي . وقضت البرهمية على الديانة البوذية في بلاد الهند منذ زمن بعيد ، ولم يكن المسلمون في ذلك الوقت إلا أقلية في هذه البلاد .

### ٣ — مآل البلاد الإسلامية في أوائل القرن السابع الهجري :

هكذا كانت الحال في شرق آسيا في البلاد التي نبتت فيها أصول المغول .

أما في البلاد الإسلامية ، ففي أوائل القرن السابع الهجري ( الثالث عشر الميلادي ) كانت الدولة العباسية التي لا تزال قائمة في بغداد تشمل جزءاً من بلاد العراق يمتد من تكريت إلى الفاو ومن حلوان إلى عانة ، واقتصرت سلطة الخليفة في خارج رقعة بلاده الضيقة على المظهر الديني .

وكان العالم الإسلامي منقسماً إلى دويلات كثيرة انشغل حكامها بالتوسع كل على حساب الآخر ، ولم يدرك هؤلاء الحكام خطر الغزو المغولي إلا بعد أن أغارت جيوش المغول الجرارة على الدولة الخوارزمية . ثم لم تلبث هذه الغارات أن امتدت إلى بلاد الصين وتركستان وجزء من الهند وإيران وآسيا الصغرى وأوروبا الشرقية . ولم يفكر حكام المسلمين المتنازعون في إقامة حلف إسلامي يصد التيار المغولي الجارف قبل أن يستفحل خطره .

وفي بغداد نفسها قام النزاع بين القواد الذين طالبوا بزيادة أرزاقهم ، وتفاهت العداوة

والبغضاء بين الشيعة والسنيين ، واشتد خطر فيضان نهر دجلة ، فاختل الأمن وتدهورت  
الحالة الاقتصادية ، حتى إن نصف أراضي العراق قد أصبح خرابا كما يقول رشيد الدين (١)  
اضف إلى ذلك إهمال نظام الري منذ بداية العصر العباسي الثاني (٥٢٣٢ هـ) حتى تحولت  
أجزاء كثيرة من جنوبي العراق إلى مستنقعات بعد أن كانت أراضيها عماد ثروة الدولة  
العباسية وازدهار حضارتها . كما قامت في الشرق لإمبراطورية خوارزم العظيمة التي كانت  
في أول الأمر تحمي الخلافة العباسية من الشرق والشمال الشرقي بقوة جيوشها وضخامة  
أموالها . على أن علاء الدين محمد خوارزم شاه طمع في الاستيلاء على بغداد وانتزاع السلطة  
من الخليفة العباسي كما فعل بنو بويه والسلاجقة من قبله . ولكنه اضطر إلى التراجع  
بسبب هبوب عاصفة ثلجية عارمة . وبسبب تقدم المغول نحو بلاده وإحلالهم الهزيمة بجيوشه  
حتى إنه اضطر إلى الهرب إلى جهات بحر قزوين حيث مات في إحدى جزره (٥٦٢٠ هـ) .  
وبعد هذه الحرب الخاطفة أو الاستطلاعية بعبارة أدق عاد المغول إلى بلادهم .  
على أن جلال الدين منسكبرتي الذي عاد من الهند (٥٦٢٢ هـ) بعد أن فر إليها أمام جيوش  
جنكزخان ، بدلا من توجيه اهتمامه وأخذة الحيطة لدرء خطر المغول ، نراه يجمع فلول  
جيش أبيه علاء الدين خوارزم شاه محمد ، ويعيد سيطرته على العراقيين العربي والمعجمي  
ويحارب أمراءهما ويخرب أرضهما وينهب أموالهما (٢) . بل يهدد بغداد نفسها ، حتى  
اضطر أمراء المسلمين إلى محاربتة في السنة نفسها ، فزى الملك الأشرف بن الملك العادل  
الأيوبي يتفق مع كيفان بن كيخسرو صاحب سلطنة الروم على محاربة جلال الدين منسكبرتي  
ويحلان به الهزيمة ، وفي سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠/١١٢٣ م) أغار المغول على جلال الدين  
منسكبرتي وهزموه هزيمة منكرة ، ففر إلى الجبال حيث قتل على يد أحد الأكراد كما تقدم (٣)  
هذا في المشرق الإسلامي . أما في الولايات الإسلامية الأخرى فقد كانت الجزيرة ومصر  
ومعظم بلاد الشام تحت سلطان خلفاء صلاح الدين الأيوبي . ولكن انقسام الدولة  
الأيوبية بعد وفاة الملك العادل أخى صلاح الدين سنة ٦١٥ هـ بين أولاده الذين  
انشغلوا بالمنازعات والحروب ، وتهديد الدويلات الصليبية التي كانت لا تزال قائمة في سوريا  
وفلسطين لسوريا ومصر ، كل ذلك حال دون إقامة حلف إسلامي يستطيع الوقوف في

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ المجلد الثاني ج ١ ص ٢٦٢ .

(٢) أبو الفداء المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ١٤٣ وما يليها

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٥٣ .

وجه المغول . لذلك لم يكن سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ( ١٢٥٨ م ) حدثاً مفاجئاً ، وإنما كان نتيجة حتمية لضعف العالم الإسلامي وإتاحة الفرصة للمغول لشن غاراتهم وغزو البلاد الإسلامية الذي بدأ في سنة ٦١٧ هـ

٤ — جنكيز خان :

### (١) اليساق

لما مات يسوجاي سنة ١١٧٥ م آلت السلطة إلى ولده الصغير « تيموجين » ( Timūjin ) ولم يكن قد ناهز الثالثة عشرة من عمره كما لم يكن قد تلقب بعد بذلك اللقب الرفيع وهو « جنكيزخان » . ولقد صرف تيموجين السنين الأولى من عهده في ترقية آلائه الحربية وضم المغول والقبائل المتصلة بهم في جيش واحد منظم .

قضى تيموجين ثلاثين سنة في نزاع متصل مع أعدائه في الداخل ، استطاع فيها أن يفرض سلطانه على قبيلته وعلى القبائل المجاورة لها ، ثم وجد الطريق مهيأة والظروف مواتية لكي يحقق مطامعه في توسيع رقعة إمبراطوريته على حساب البلاد الإسلامية .

وفي سنة ١٢٠٦ م أقام تيموجين وليمة لرؤساء القبائل ، وأعلن الشامان أو القسيس الأعظم في هذا الحفل العظيم الذي جمع أمراء البلاد ونبلاها « أن السماء قد خلعت على تيموجين لقباً أرفع من اللقب الذي كان يلقب به أسلافه وأن اسمه قد أصبح من الآن « جنكيزخان » أي الملك صاحب القدرة والبطش . وبذلك بدأ جنكيزخان في سن الثالثة والأربعين يحكم البلاد دون منازع<sup>(١)</sup> .

ولما أمن جنكيزخان ثمر أعدائه فكر في ترقية حالة بلاده الاجتماعية والخلفية بوضع قانون يكون أشبه بكتابات ديني يسرون على هديه في معاملاتهم وأحكامهم ، فوضع لهم « اليساق » أو « الياسة » . وقد روى المقرئ<sup>(٢)</sup> خلاصة هذا اليساق نقلاً عن أحمد ابن البرهان الذي اطلع على نسخة منه بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد . وكذلك ذكر القلقشندي<sup>(٣)</sup> « أن السياسة كلبه مغولية أصلها « ياسة » ، خرفها أهل مصر وزادوا بأولها شيئاً فقالوا سياسة ، وأدخلوا عليها الألف واللام ؛ فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية وما الأمر فيها إلا ما قلت لك ، واسمع إذن كيف نشأت هذه الكلمة حتى انتشرت بمصر

(١) Lane-Poole : Muh. Dynsties, pp. 203, 206.

(٢) خطط ج ٢ ص ٢٢٠ .

(٣) صبح الأعشى ج ٤ ص ٢١٠ .



والشام ، وذلك أن جنكيزخان القائم بدولة التتر في بلاد الشرق لما غلب « أونك خان » وصارت له دولة ، قرر قواعد وعقوبات أثبتتها في كتاب سماه « ياسة »<sup>(١)</sup> ، ومن الناس من يسميه « يسق » ، والأصل في اسمه ياسة . وياسة كلمة تركية قديمة معناها القانون الاجتماعي<sup>(٢)</sup> .

ومما شرعه جنكيزخان في هذا اليساق : « قتل الزاني ، ومن تعمد الكذب أو السحر أو تجسس على أحد ، أو دخل بين شخصين يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر . ومن بال في الماء أو على الرماد قتل ، ومن أعطى بضاعة تخسر فيها قتل بعد المرة الثالثة ، ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذن قومه قتل . ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده على من كان في يده قتل » .

ومما شرعه جنكيزخان أيضاً أن تكف قوائم الحيوان ويمرس ( أى يدلك قلبه ) إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه « ومن ذبح حيواناً كذبيحة المسلمين ذبح ، ومن وقع ثوبه أو شيء من متاعه وهو بكر أو يفر في حالة القتال وكان وراءه أحد وجب عليه أن ينزل ويتناول صاحبه ماسقط منه فإن لم ينزل ولم يتناوله إياه كان جزاءه القتل ، ومن أحكام اليساق الأساسية تعظيم جميع الملل من غير تعصب للملة ما ، كما شرط ألا يكون على أحد من ولد على بن أبي طالب مؤنة ولا كلفة ، وألا يكون على أحد من الفقراء ولا الفقهاء والأطباء ومن عداهم من أرباب العلوم وأهل النقشف والزهد والتعبد والمؤذنين ومغسلي الأموات شيء من ذلك . وألزم الناس ألا يأكل أحد من طعام غيره حتى يأكل منه أولاً ولو كان أميراً ومن يتناوله أسيراً ، وألا ينفرد أحد بأكل شيء وغيره براه بل يجب أن يشركه في طعامه ، وألا يتميز أحد بالشبع على أصحابه ، وإن مر أحد بقوم يأكلون فله أن يأكل معهم من غير إذنهم وليس لأحد منهم أن يمنعهم الطعام ، وألزمهم ألا يدخل أحد يده في الماء بل يتناوله بشيء ، ومنعهم من غسل ثيابهم حتى تبلى ، كما منعهم من أن يفرقوا بين الظاهر

(١) وقد قيل إنه لما تم وضع هذا الكتاب أمر جنكيزخان بكتابته نقشاً في صفائح الفولاذ وجعله شريعة لقومه فالترموه بعده .

(٢) ومن ألفاظ ياسة : سياسة ومعناها القوانين الثلاثة ( سه بالفارسية معناها ثلاثة ، وياسة بالتركية معناها القانون الاجتماعي ، وسهيق وسهباق كلمة واحدة لمعنى واحد . وأوج ( معناها ثلاثة ) وياسة ( معناها قانون ) أى الثلاثة قوانين . وما يؤكد أن كلمة سياسة ليست عربية الأصل عدم ذكرها في القرآن الكريم ولا في اللغة المنقولة عن الأعراب .

والنجس . وحرّم تفخيم الألفاظ ومنع الألقاب ، وإنما يخاطب السلطان ومن دونه باسمه المجرد . كما ألزم جنسكيزخان قواده بعرض العساكر والأسلحة إذا أرادوا الخروج للقتال ، وأن يعرض كل واحد مامعه حتى الإبرة والخيط ، فن وجد أنه قصر في شيء مما يحتاج إليه عند عرضه عوقب . وألزم نساء العسكر بالقيام بما على الرجال من الواجبات عند غيبتهم كلفة يقومون بها للسلطان . وألزمهم عند رأس كل سنة أن يعرضوا بناتهم الأبتكار على السلطان ليختار منهن من يشاء لنفسه أو لأولاده . واتخذ أمراء العسكر وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشرات .

ومما شرعه جنسكيزخان في اليساق أنه إذا أذنب أحد الأمراء ولو كان كبيراً وبعث إليه رسولا لينزل به عقابه ، وجب عليه أن يسرع إلى تنفيذ طلب الرسول وهو خاضع ذليل حتى ينفذ فيه العقوبة التي أمر بها الملك ، ولو كانت العقوبة تفضي بإزهاق روحه . كما ألزم الأمراء ألا يترددوا على غير الملك ، ومن تردد منهم على غيره قتل . وأقام جنسكيزخان البريد حتى يقف على أخبار بلاده أولاً فأولاً ، وعهد إلى ابنه جنطاي بالإشراف على تنفيذ ماجاء في اليساق ، ويقول المقرزي <sup>(١)</sup> في ذلك : « فلما مات جنسكيزخان التزم من بعده من أولاده وأتباعهم حكم السياسة كالنزام أول المسلمين حكم القرآن وجعلوا ذلك ديناً لم يعرف عن أحد منهم مخالفته بوجه » .

ولا شك أن هذه الشريعة التي وضعها جنسكيزخان قد ساعدت على تقدم المغول من النواحي العسكرية والاجتماعية ، كما حرمت التعرض للأديان والممل وحالت بذلك دون قيام الاختلافات الدينية أو المذهبية التي جرت على المسلمين كثيراً من المصائب والويلات . هذا إلى أن هذه الشريعة قد ساعدت على وجود جند قوى مزود بكامل العدد والعدة ، وقواد لا يعرفون غير طاعة السلطان وحب الوطن . وجعلت من النساء عنصراً يعتمد عليه في وقت الحاجة ، كما جعلت من المغول شعباً بصيراً بعواقب الأمور يربأ بنفسه عن عيوب المجتمع وشروره ، نشأ على المبادئ الديمقراطية السليمة التي لاتعنى بالألقاب ولا تميز بين الناس مهما اختلفت طبقاتهم وتباينت صفاتهم .

أما عن تحريم اليساق التمييز بين النجاسة والطهارة ، فلعل من نتائجه عدم غسل الثياب إلى أن تلبى ، ولعله يرمى من وراء ذلك إلى تعويد شعبه التقشف في المعيشة وتركه الترف الذي يجر إلى الضعف فيفسد الروح العسكرية ، وأما رفع المؤمن عن أولاد علي بن أبي طالب وتعظيمه لأهل الدين من المسلمين ، فلعل جنسكيزخان كان متأثراً بالشيعة الذين كانت بلاده

تحيط بهم في كثير من جهات إمبراطوريته ، ثم إنه أراد بذلك آخر الأمر أن يتوحد إلى المسلمين بتعظيم آل نبيهم ورجال الدين عندهم ، في الوقت الذي كان يعمل على الاستيلاء على بلادهم ، مؤملاً أن يلقى تأييد رجال الدين الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير في ذلك العصر .

وعلى الرغم مما نأخذه على « السياق » في بعض النواحي ، فلا شك أنه يعتبر أساساً صالحاً لبناء النظم الإدارية والاجتماعية عند المغول ، كما أنه بعد خطوة تطويرية في ديانتهم ، ويعتبر كذلك متأثراً في بعض النواحي بالديانات السماوية ، كتحریم الزنا والقتل والغدر والكذب ونحو ذلك إذا عرفنا أن ديانتهم القديمة كانت لا تحرم شيئاً . لذلك استطاع جنكيزخان بأحكام السياق أن ينشر نفوذه في البلاد الصينية والإسلامية .

### ( ب ) غزوات جنكيزخان

#### ( ١ ) رأى المؤرخين في غزوات جنكيزخان

كانت الغارات التي شنها المغول آخر الغارات التي شنتها القبائل الرحالة على مدن الشرق والغرب ، تلك المدن التي كانت تختق تحت أدران الترف والعبودية ، على حين كانت الشعوب الرحالة تتقدم من حيث التفكير وتعبئة الجيوش واستعمال آلات الحرب ، وتذسب من بلادها كالسيل يغمر تلك المدينة البالية ويسير بالعالم نحو عهد جديد .

وبينما كان جنكيزخان مشغولاً بمحاربة إمبراطورية كين بلاد الصين قتل خوارزم شاه سفراه خول إمبراطور المغول ووجهه شطر بلاد خوارزم الإسلامية ، وانسابت فرسانه فيها مزودين بأحسن أنواع السلاح ، كما كان لديهم البنادق والبارود وآلات الحصار التي أخذوها عن الصينيين ، ومن ثم نزلت بالمسلمين وأمم الغرب الطامة الكبرى والمصيبة العظمى .

وقد وصف سير توماس أرنولد<sup>(١)</sup> ما قام به المغول من ضروب الوحشية في غزواتهم

(١) The Preaching of Islam, pp. 218—219. ترجمة المؤلف الطبعة الثانية ،

للبلاد الإسلامية في هذه السكبات « لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطباً أشد هولا من غزوات المغول ؛ فلقد انسابت جيوش چنكيزخان انسياب الثلوج من قنن الجبال ، واكتسحت في طريقها الحواضر الإسلامية وأنت على ما كان لها من مدنية وثقافة ، ولم يتركوا وراهم من تلك البلاد سوى خرائب وأطلال بالية ، وكانت تقوم فيها قبل ذلك القصور الفخمة المحاطة بالحدائق الغناء والمروج الخضراء ، فبعد أن تحوّل جيش المغول عن مدينة هرّاة خرج أربعون من أهلها من مخبئهم ، فراراً من الموت ، وكان هؤلاء النعماء هم البقية الباقية من سكانها الذين كان يربو عددهم على المائة ألف ، ووقفوا مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رِمْسِهِمْ ليكون أطلال مدينتهم ، وقد أخذ الفزع والهلح من نفوسهم كل مأخذ . وفي مدينة بخارى التي اشتهرت برجال العلم والورع اتخذ المغول إصطبلًا لحيولهم ومزقوا المصاحف واتخذوا منها وطاءً لدوابهم ، كما سبوا من نجا من الأهلين من القتل وجعلوا مدينتهم أترأ بعد عين . وهكذا كان مصير مدينتي سمرقند وبلخ وغيرهما من أمهات مدن آسيا الوسطى التي كانت من قبل نخر الحضارة الإسلامية وموطن الأولياء وكعبة العلوم ، كما كان ذلك أيضاً مصير بغداد التي ظلت قرناً عدة حاضرة الخلافة .

يقول « دوسون »<sup>(١)</sup> : إن تاريخ المغول يمتاز بطابع الفوضى ووحشيتهم لا تترك إلا صوراً بغيضة . وأن حكمهم كان انتصاراً للفساد والفوضى . ويختلف رأى سير هنرى هاوارت عن رأى دوسون ، فيقول : إن المغول جنس من الأجناس التي درجت تحت ظلال الفقر وشظف العيش ، يجرى في دماهم مزيج قوى من الحديد — ينبعث في فترات منظمة ليقضى على الترف والثراء اللذين سادا في ذلك العصر ، ويحطم الفن والثقافة التي لا تترعرع إلا في ظل الرخاء وبسطة العيش والامن ، ويحوّل هذه الجنان التي جهد الإنسان في غرسها وتعهداها إلى صحرا جرداء مقفرة ، فهم أشبه بالوباء والقحط ، وأشبه بآلة تدمير وتخريب أنت على شعوب كانت غارقة في بحار الترف والنعيم ، ثم ذهبت ضحية غارات المغول ، كما قال « دوسون » إن الفتوحات المغولية أدت إلى اتصال أمم

Dr. Hosson, Histoire des Mongols Amsterdam, 1834. (١)  
rome I, pp. 7—8.

الشرق والغرب . وإن الطباغة والبوصلة البحرية والأسلحة النارية وبعض مظاهر الحياة الاجتماعية قد انتقلت إلى أوروبا بتأثير هذه الغارات .

كما يرى « دوسون » أن قصة المغول وإن كانت تثير الأذى والحنق ، فهي مع ذلك ضرورية لتفهم مدى التقدم البشري .

ويعجب « ليون كاهون »<sup>(١)</sup> بنظام المغول الإداري الدقيق وانعدام روح التعصب الديني فيهم ، ويطرى صفاتهم الحربية التي هي من صفات كل الشعوب التركية .

ومن العقبات التي قامت في سبيل نشر سيادة المغول في كافة أرجاء العالم ، تلك المملكة التي كانت تسمى قديماً قره خطاي أي بلاد الخطا السوداء ، وكانت تمتد إلى حدود بلاد تركستان الشرقية الحديثة تقريباً ، وكان يحكمها جماعة من الأمراء يسمون خانات الغور . وقد فرضت هذه المملكة احترامها على فارس وبلاد ما وراء النهر . على أن چنكيزخان وجنده سرعان ما انقضوا على بلادهم وأصبحت لهم السيادة على أهل كاشغر وبقية إقليم غورخان<sup>(٢)</sup> .

### ٣ — غزو التتار ببلاد خوارزم :

وكان من أثر تفاقم العداوة بين الخليفة العباسي وعلاء الدين خوارزم شاه محمد ، أن اعتقد بعض المؤرخين أن الخليفة العباسي الناصر استدعى التتار ليشغل بهم خوارزم شاه حتى يأمن شره ويحول بذلك دون ما يحدق ببلاد من خطر هجوم جيوش خوارزم شاه . ولا يبعد أن يكون لذلك ظل من الحقيقة . فقد جرى الخلفاء العباسيون على هذه السياسة من قبل ، فراسلوا بني بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك ، وكتبوا إلى طغرل بك الساجوق ليخلصهم من تحكم البساسيري حين أراد تحويل الدعوة إلى الفاطميين في مصر ، بل لقد أوفد أحدهم الرسل إلى خوارزم شاه ليقبهم شر السلاجقة . وكانت العوامل التي دفعت الخلفاء العباسيين إلى الاستنجاد ببني بويه والسلاجقة وخوارزم شاه هي نفس العوامل التي دفعتهم إلى الاستنجاد بالتتار ، اللهم إلا إذا استثنينا هذا الفارق بين هؤلاء وأولئك : فقد كان هؤلاء مسلمين على حين كان التتار وثنيين ، بيد أن هذا العامل الديني لا يصف من

Introduction à l' Histoire d' Asie Turks et Mongols, (١)  
des origines à 1405, pp. 79, 111—118.

Lane-Poole, Muhmamadan Dynasties, pp. 203—204. (٢)

صححة هذه الرواية ، إذا لاحظنا أن الخليفة لم يبال بما فعل لتخليص ملكه ، وأنه كان يرمى من وراء عمله إلى شغل خوارزم شاه بالتنازل ليكتفي شره ، ولم يكن يتوقع أن هؤلاء التنازل يستطيعون الوصول إلى بلاده ، لبعده الشقة ووقوف جند خوارزم شاه القوى في سبيلهم . ولكن ابن الأثير<sup>(١)</sup> يذكر أن غزو التنازل بلاد خوارزم وتوجيهه أنظارهم للبلاد الإسلامية يرجع إلى سوء التفاهم الذي وقع بسبب قتل تجار المغول الذين ترددوا على بلاد خوارزم .

وقد توجهت خوارزم شاه خيفة من تهديد التنازل فأرسل رسوله إلى بلاد چنكيزخان ليتفقدوا جيشه ويقفوا على مدى قوته ، فعادوا بعد مدة وأخبروه بكثرة جند التنازل ، ووصفوا له شدة صبرهم على القتال ، وعملهم بأيديهم ما يحتاجون إليه من السلاح . فندم خوارزم شاه على ما فعل ، وزاد قلقه من ناحية التنازل . ثم جاءته الأخبار بأن التنازل قد ساروا لقتاله ، فاستشار أحد فقهاء دولته — وكان يثق به ويرجع إليه في مهام أموره — فأشار عليه بأن يعسكر بجيوشه على الضفة نهر سيحون الذي كان يفصل بين المملكة الخوارزمية وبلاد الترك — وبذلك يستطيع أن يقضي على قوات چنكيزخان بعد أن يكون التعب قد أنهك قواهم لبعده الشقة ووعورة الطريق . ثم عقد خوارزم شاه مجلساً ضم أمراءه وذوي الرأي في دولته ، فأشاروا عليه بأن يترك التنازل حتى يعبروا نهر سيحون ويسلكوا ما وراءه من الجبال والوهاد والمفاوز ؛ وبذلك يستطيع القضاء على قواتهم .

وكان من أثر إرسال چنكيزخان رسوله إلى خوارزم شاه يتهدده بالحرب ، أن قتل خوارزم شاه هذا الرسول وحلق لحا من كان معه من التنازل ، وجمع عساكره وقصد تخوم تركستان ، وانقض على بلاد التنازل بعد مسيرة أربعة أشهر ، فلم يلق إلا جموعاً قليلة تحلقت مع النساء والصبيان والأطفال لاشتغال الجند بمحاربة أحد ملوك التنازل ، فأوقع بهم وغنم ما معهم . ولما علم التنازل بما فعل خوارزم شاه أدركته طائفة منهم تحت قيادة أحد أولاد چنكيزخان قبل أن يخرج من بلاده ، واقتتل الفريقان ثلاثة أيام كاملة ، « واشتد بهم الأمر حتى إن أحدهم كان ينزل عن فرسه ويقاقل قرنه راجلاً ، ويتضاربون بالسكاكين ، وجرى الدم على الأرض حتى صارت الخيل تزلق من كثرتهم<sup>(٢)</sup> » . على أن هذه الحرب لم تنجل عن انتصار أحد الفريقين ، فعاد التنازل إلى

(١) السكامل ج ١٢ ص ٢٣٦ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٢٣٨ .

بلادهم ، وعاد المسلمون إلى بخارى ، وأخذ خوارزم شاه بعد العدة لقتال التتار ، وعسكر بالقرب من مدينة بلخ .

أما التتار فقد بموا شطر بلاد ما وراء النهر حتى وصلوا إلى مدينة بخارى بعد وصول خوارزم شاه بخمسة أشهر ، وكان بها عشرون ألفاً من جنود خوارزم شاه ، فسار قوا المدينة ، فدخلها جنكيزخان في ٤ ذى الحجة سنة ٦١٦ هـ وقتل الجنود الذين اعتصموا بالقلعة عن آخرهم وأخرج الأهالي لا يملكون سوى ثيابهم التي عليهم . ثم نهب جنده المدينة وأسروا من بقي بها من الأهالي واقسموهم ، وقد آثر كثير منهم القتل حتى لا يرى ما نزل بإخوانه من كرب وبلاء . ثم ألقي التتار المنابر والمصاحف في الخندق ، وأشعلوا النار في المدارس والمساجد وغيرها من المباني حتى أصبحت بخارى كأن لم تكن بالأمس (١) .

رحل التتار بعد ذلك نحو سمرقند قسبة بلاد ما وراء النهر وكعبة العلماء والأدباء ومعين الثروة والرخاء ، واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى مشاة على أقبح صورة ، وقتلوا منهم من أعياء المشى . وكان بسمرقند خمسون ألفاً من جنود خوارزم شاه ، ارتجفت قلوبهم وخارت قراهم لما علموه من فظائع التتار الذين قدموا فرسانهم ، ومن بينهم الرجالة والأسرى والانتقال ، ومع كل عشرة من الأسرى علم ، فزاد هذا في مخاوف أهل المدينة ، وكانوا في عدد كبير ذكر ابن الأثير أنه بلغ سبعين ألفاً ، واشتبكوا مع رجالة التتار ، فارتد هؤلاء ، فتبعهم أهل المدينة ، ولم يدروا أن الأعداء قد وضعوا لهم كميناً ، حتى إذا ما جاوزوه خرج عليهم هذا السكين من مخبأه ، خال بينهم وبين المدينة ، ورجع الباقون الذين قاتلوهم أولاً ، وحاصروهم التتار من كل ناحية وقتلواهم عن آخرهم .

وقد تفاقمت مخاوف الجنود الخوارزميين لهذا الانكسار الذي حل بأهل سمرقند ، وطلبوا الأمان من التتار ظناً منهم أنهم يبقون عليهم لأنهم كانوا أتركا مثلهم . ومن ثم خرجوا في أهلهم وأموالهم . فطلب منهم التتار أن يسلبوا سلاحهم وأموالهم ثمناً لآمانهم . ثم وضع التتار السيف فيهم وقتلواهم عن آخرهم ، ونهبوا المدينة وعانوا فيها فساداً ، فأحرقوا الجامع ، واستولوا على الأموال وسبوا الأهلين ، وقتلوا الشيوخ والعجزة ، وكان ذلك في المحرم سنة ٦١٧ هـ .

وقد بلغ من خوف جنود الخوارزميين من التتار أن أصبحوا بحيث لا يستطيعون

(١) راجع ابن الأثير ج ١٢ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

مواجهتهم ، ويحدثنا ابن الأثير أن خوارزمشاه علاء الدين محمد أرسل مرة عشرة آلاف من الجند ومرة عشرين ألفاً فلم يجرموا على مواجهة التتار وعادوا أذراجهم .

ولما تم للتتار فتح بخارى وسمرقند عولوا على القبض على خوارزم شاه ، فبعث جنكيزخان عشرين ألفاً من خيرة جنده وقال لهم : « اطلبوه ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه » ، فسار هؤلاء الجند ميممين غربى خراسان . ومن ثم أُطلق عليهم اسم التتار المغرّبة تمييزاً لهم عن سائر طوائف التتار ، فوصلوا إلى مدينة قنّج آب ( أى الخمس مياه ) ، فلم يجدوا هناك سفناً يعبرون عليها ، فعملوا صناديق كبيرة من الخشب ألبسوها جلود البقر حتى لا ينفذ إليها الماء ووضعوا فيها الأساحة والامتعة ، ثم سيروا الخيل فى الماء وأمسكوا بأذنانها وشدوا تلك الصناديق إليهم ؛ فكانت الخيل تجذب الرجل والرجل يجذب هذه الصناديق ، وبذلك أمكنهم العبور دفعة واحدة .

#### نيسابور ومازندران :

ولما علم المسلمون بذلك نفرقوا أمام التتار ، وهرب خوارزم شاه فى بعض خاصته إلى نيسابور ، فقصده التتار ولم يتعرضوا بشئ لاهالى البلاد التى مروا بها ، إذ كان مهمهم اللحاق به . فلما أحس خوارزم شاه بقربهم هرب إلى مازندران ، اقتنى التتار أثره من غير أن يعرجوا على نيسابور . وهكذا أصبح خوارزم شاه ينتقل من بلد إلى بلد والتتار المغرّبون فى أثره ، حتى وصل أخيراً إلى الرى ثم إلى همدان ثم إلى حدود العراق . فلما جاء التتار ملكوها بسهولة لم تكن منتظرة وأعملوا السيف فى رقاب أهلها وسلبوا أموالهم (١) .

ولما تم للتتار فتح مازندران استأنفوا سيرهم قاصدين بلاد الرى فى طلب خوارزم شاه وقد فر إليها من مازندران ، وقبضوا على أمه ، وكانت فى طريقها إلى بلاد الجبل هرباً من التتار ومعها من الأموال والجواهر والامتعة ما لا يدخل تحت حصر وأرسلوها إلى جنكيزخان فى قره قورم حاضرة ملكه ( ٦٢٠ / ١٢٢٣ ) .

ثم دخل التتار بلاد الرى على حين غفلة من أهلها فأذاقوهم كل صنوف العذاب وسبوا الحرّيم واسترقوا الأطفال ، ثم مضوا قُدماً فى طلب خوارزم شاه فهبوا ما صادفوه فى طريقهم من القرى والمدن ومثلوا بأهلها .

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ٢٤٣ .



ثم وصل التتار إلى همدان ، وكان خوارزم شاه قد وصل إليها ، ففادرها وخرج والى المدينة إلى التتار ، فقدم إليهم الاموال والثياب والدواب وطلب منهم الامان فأجابوه إلى طلبه . ثم ساروا إلى زنجان ثم إلى قزوین فدخلوها عنوة وتقاتلوا مع الأهالی بالسكاكين وقتلوا منهم زهاء أربعين ألفاً .

وقد قصد التتار بعد ذلك أذربيجان فصالحهم صاحبها على مال ودواب ، وكان منصرفاً إلى اللهور وإدمان الشراب ليلاً ونهاراً . وكانت أذربيجان في عهد العباسيين من الاقاليم القليلة الأهمية ، ولم تقم لها قائمة سياسية إلا عندما هبت ریح المغول . ذهب التتار إلى أذربيجان فراراً من البرد والثلوج والأمطار ، فوصلوا إلى تبريز وبها صاحب أذربيجان فصالحهم ، ثم يعموا ناحية البحر لقضاء الشتاء لقلّة البرد وكثرة المراعى ، فوصلوا وهم في طريقهم إلى بلاد الكرج وأوقعوا بأهلها وقتلوا أكثر جندها ، فأرسل الكرج إلى صاحب أذربيجان في طلب الصلح والانفاق على قتال التتار ، كما تعاهدوا مع صاحب بلاد الجزيرة ويدعى الملك الأشرف بن الملك العادل وأعدوا العدة لقتال العدو المشترك إذا ما انصرم الشتاء وحل الربيع . ولكن التتار لم يابثوا أن تحركوا من مشتام قبل حلول الربيع قاصدين بلاد الكرج ، وانضم إليهم كثير من التركان والاكراد لمشاركتهم إياهم في الجنس ، وتقدم التتار نحو بلاد الكرج فنهروا أهلها وقتلواهم ، ثم واصلوا السير نحو تفليس (حيث أدركهم التتار) ، فهزموا أهل هذه البلاد هزيمة منكرة وقتلوا منهم عدداً لا يحصى (ذو القعدة سنة ٦١٧ هـ) . وفي ذلك يقول ابن الأثير<sup>(١)</sup> :

« ولقد جرى لهؤلاء التتار ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه . طائفة تخرج من حدود بلاد الصين لاتنقض عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية ويجاوزون العراق من ناحية همدان ، وتالله لا أشك أن من يجيء بعدنا إذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ، ينكرها ويستبعدها والحق بيده ، فتنى استبعد ذلك ، فلينظر أننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ في زماننا في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها . . يسر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوظهم . . ولم ينل المسلمين أذى وشدة منذ جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوقت مثلبا دفعوا إليه الآن . وتعدت هذه الطائفة منهم النهر إلى خراسان فملكوها وفعلوا

(١) السكامل ج ١٢ ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .

(م ١٠ - تاريخ الإسلام - ج ٤)

مثل ذلك . هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ماوراء النهر وملكوها وخرَّبوها ثم إلى الري وبلد الجبل وأذربيجان [كذا] . وقد اتصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم ، والعدو الآخر الفرنج قد ظهر من بلادهم في أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ، ووصلوا مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها ، ولم يقدر المسلمون على إزاجهم عنها ولا إخراجهم منها . وباقى ديار مصر على خطر ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

كان ياقوت الحموي ( ت ٦٢٦ هـ ) معاصراً لغارة المغول ، وكان صديقاً لابن الأثير ، وقد استطاع أن ينجو بنفسه من غارتهم ، وأن يخلف لنا صورة واضحة لما كانوا يلقونه في النفوس من رعب وفزع ، كما يتضح ذلك من إشاراته المتفرقة في كتابه « معجم البلدان » وفي خطاب أورده ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان ، وقد وجهه ياقوت (١) إلى القاضي الأكرم جمال الدين أبي الحسن علي الشيباني القفطي وزير صاحب حلب في كتابه الذي أرسله إليه من الموصل في سنة ٦١٧ هـ على أثر وصوله إليها من خوارزم هارباً من انتشار يصف فيها ما حل بخراسان من التخريب والتدمير ولاهها من الخطوب والويلات وما تعرض له من الأخطار حتى وصل إلى الموصل ، كما عبر ياقوت عن أسفه العميق وحزنه الدفين لتركه مدينة مرو الزاهرة العامرة بمسكتباتها ، وقال إن ما اشتملت عليه من الكتب النادرة قد أنساه الأهل والأحباب والوطن والأصحاب . ثم وصف الرخاء والعمران اللذين كانت تنعم بهما خراسان حتى أصبحت شبيهة بجنة المأوى ورياض الخلد . وما قاله ياقوت :

« فإننا لله وإنا إليه راجعون من حادثة تقصم الظهر وتهدم العمر ، وتفت في العضد . . وتشيب الوليد وتنخب لب الجليد ، وتسود القلب وتذهل اللب ، خيئئذ تهقر المملوك (٢) على عقبه ناكصاً ومن الأوبة إلى حيث تستقر فيه النفس بالأمن آيساً . . فتوصل وما كاد حتى استقر بالموصل بعد مقاساة أخطار وابتلاء واضطبار . الخ » (٣) .

(١) دون القفطي صورة هذا الخطاب في كتابه الذي سماه « إنباء الرواة على أنباء النجاة » ونقله ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٨١ — ١٨٨ في ترجمة ياقوت الحموي .

(٢) يتكلم ياقوت عن نفسه ويصف حاله وما صادفه من أخطار .

(٣) براون : تاريخ الأدب في إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٥٢ — ٥٥٣ .

(٥) وفاة جنكيزخان :

وفي سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٣ م) مات جنكيزخان وكان في الستين من عمره بعد حياة حافلة بالنصر والظفر . وكان ، كما يقول لينبول : قد أسس في مدى عشرين عاما أوسع إمبراطورية شاهدها العالم وأقامها مقتنياً في ذلك السياسة التي رسمها له أبوه من قبل<sup>(١)</sup> . وكانت إمبراطورية المغول إمبراطورية حربية إدارية كما هو الشأن في جميع الدول التي أسسها أقوام من الرُحَّل . وكانت كافة السلطات تتركز في شخص الملك ، كما كانت علاقة الدولة برعاياها تقوم على أساس فرض الضرائب للإنفاق على الجيش . ويكفي أن نقول إنه بعد الثلاثين سنة التي قضاها « جنكيزخان » في ذلك الصراع العنيف ضد أعدائه في الداخل ، والتي استطاع خلالها أن يثبت دعائم سلطانه على عشائره وعلى العشائر المجاورة على الرغم مما قام في سبيله من الصعاب ومادبر له من المؤامرات — على الرغم من هذا كله وجد جنكيزخان نفسه قادراً على تكريس العشرين سنة الباقية من حياته في سبيل تحقيق أغراضه الواسعة وأطباعه الكبيرة<sup>(٢)</sup> .

وقد استعان جنكيزخان في إدارة إمبراطوريته الواسعة برجل من إمبراطورية كين ذى كفاءة نادرة وهو Yelü Chutsai . وكان ملماً بالتقاليد والعلوم الصينية جيداً بالاضطلاع بمهام دولة المغول بعد وفاة جنكيزخان ، كما كان بلا ريب أحد أبطال السياسة الذين عرفهم التاريخ . وكان ليليوشتسى أكبر الأثر في تحسين العلاقة بين خانات المغول وبين رعاياهم ، كما أنقذ كثيراً من المدن والآثار الفنية من الدمار ، وجمع السجلات والنقوش مما ينهض دليلاً على ولعه بالعلوم والفنون ، حتى إن منافسيه حين اتهموه بالرشوة لم يجدوا عنده إلا بعض الآلات الموسيقية والوثائق التاريخية الهامة .

وإلى يليوشتسى وإلى جنكيزخان يرجع الفضل في ترقية الآلات الحربية وبلوغها حد الكمال . هذا إلى ما امتاز به عهد جنكيزخان من ذلك التسامح الديني الذي ساد كل أرجاء آسيا .

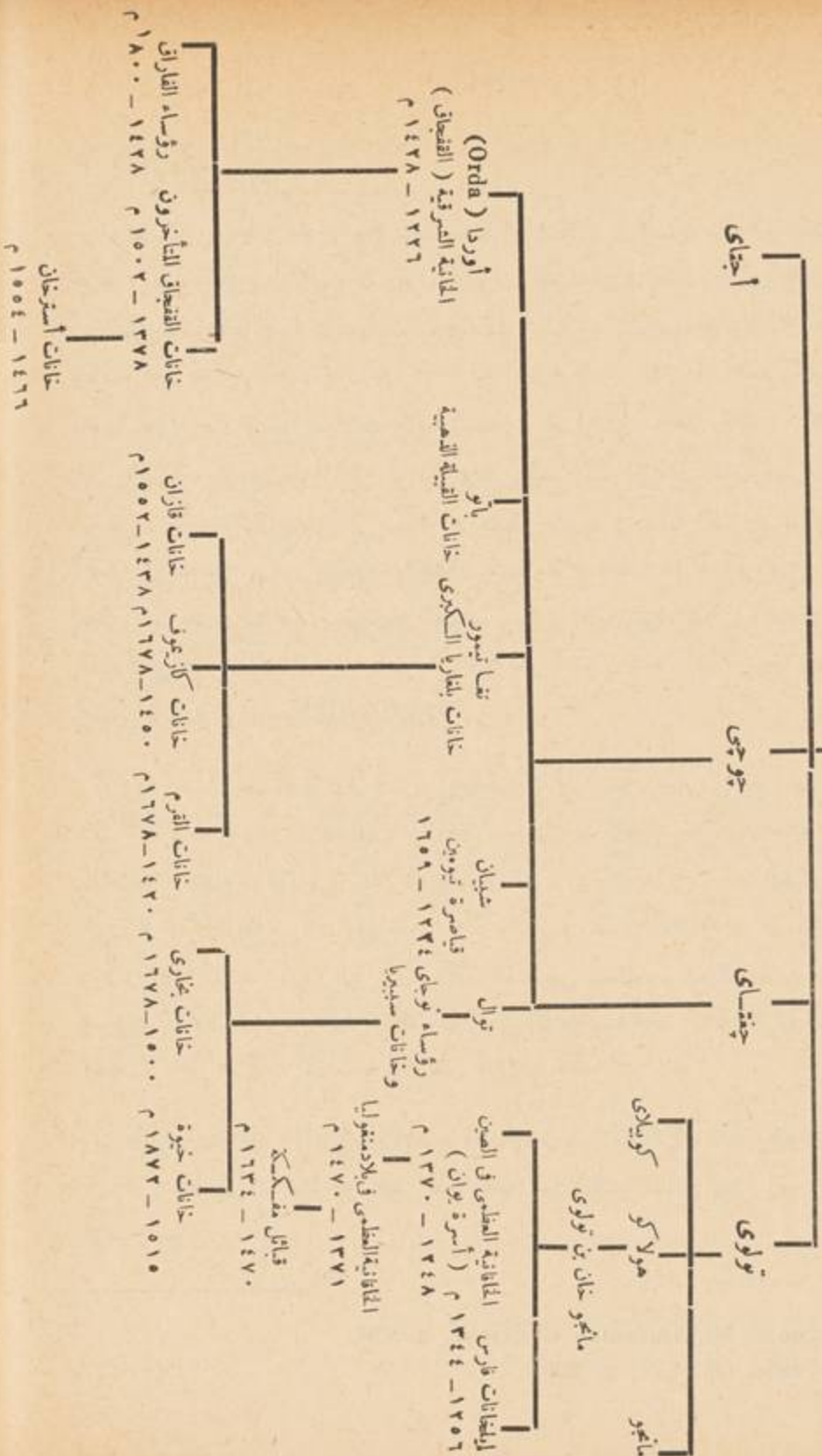
Lane-Poole, Muhammadan Dynasties, p. 202

(١)

Lane-Poole, Op. Cit., p. 206.

(٢)

القبائل المنولية و بطونها  
جنس كيزخان



خاقانات المغول

١٢٠٦ / ٦٠٣	چنگيزخان
١٢٢٧ / ٦٢٤	أجتاي
١٢٤١ / ٦٣٩	تورا كينا (فترة بين موت أجتاي ، وكيوك)
١٢٤٦ / ٦٤٤	كيوك
١٢٤٨ / ٦٤٦	مانجو

أسرة بين Yuen

١٢٥٧ / ٦٥٥	كوبيلاي
١٢٩٤ / ٦٩٣	أولجايتو
١٣٠٧ / ٧٠٦	كوبوك
١٣١١ / ٧١١	يياتو
١٣٣٢ - ١٣٢٠ / ٧٣٢ - ٧٢٠	ججين إلى توغان تيمور

الإمبراطورية المنحلة

١٣٧٠ / ٧٧١	بليكتو Biliktu
١٤٧٠ - ١٣٧٨ / ٨٧٥ - ٧٨٠	آسوخال إلى ديان

قبائل منقسمة

١٥٤٤ / ٩٥١	بودي
(١) ١٦٣٤ - ١٥٤٨ / ١٠٤٣ - ٩٥٥	كودانج إلى لنجدان

## إمبراطورية المغول بعد جنكيزخان

٦ — أُجْتَاي : فتوحهم في آسيا وأوروبا .

ظلت حاضرة المغول بعد وفاة جنكيزخان في مدينة « قره قورم » في منغوليا ، حيث خلفه ثالث أولاده أُجْتَاي ( ٦٢٤ — ٦٣٩ / ١٢٢٧ — ١٢٤١ ) فأصبح خاقان إمبراطورية المغول . وقد استاء أتباع جغتاي من تعيين أُجْتَاي خليفة لجنكيزخان ، لمخالفة ذلك لتقاليد المغول التي تقضى بأن يعين أكبر الأبناء سناً . وعند جلوس أُجْتَاي على العرش وزّع الهدايا على كبار رجاله ، وذبح أربعين فتاة وكثيراً من الخيل على روح أبيه - وفقاً لتقاليد والعادات المرعية عند المغول .

وكان أول ما قام به المغول في عهد إمبراطورهم الجديد أن تعقبوا البقية الباقية من إمبراطورية كين ( أو الأسرة الذهبية ) حتى دانت كلها لسلطانهم في سنة ١٢٣٤ ، بعد أن حكمت البلاد الشمالية من بلاد الصين أكثر من قرن . وقد ساعدت المغول في تلك الحروب أسرة سُنج التي كانت على عرش الإمبراطورية في الجنوب ، وبذلك سعت تلك الأسرة إلى حتمها بظلفها بانضمامها إلى المغول ضد إمبراطورية كين إذ وهنت قوتها أمام ذلك العدو الغاشم . ولم ينس أُجْتَاي أن فتوحات أبيه في غربي آسيا تضطره للاحتفاظ بسيادته على مملكة خوارزم ، برغم عنايته أول الأمر بتوسيع إمبراطوريته في أخصب بقاع الصين وأغناها ، وأصبح يشعر بهذا الواجب ويجعله نصب عينيه منذ رجوع جلال الدين منكبرتي من الهند واسترداده البلاد التي ورثها عن أبيه وتقدمه غرباً حتى وصل إلى تفليس وكيلات .

حيثُ أرسل اجْتَاي إلى جلال الدين قوة مكوّنة من ثلثمائة ألف مقاتل، وتعقب هذا الجيش المغولي عدوه في سرعة عجيبة ؛ ولكن جلال الدين كان قد هرب إلى جبال الأكراد حيث قتله أحد الفلاحين . وبذلك حقق المغول الغرض الأول من غزواتهم . وقد جعل المغول هذا الفتح خطوة لغيره من الفتوح ، فاندفعوا نحو الغرب وأغزوا السير ، فاحتلوا ديار بكر وإربل وكيلات ، ثم تقدّموا إلى أذربيجان ، وفي العام التالي ( ١٢٣٦ م ) غزوا جورجيا وأرمينية الكبرى مرتكبين أقصى الفظائع وأشدّها هولاً . ومن المدن التي فتحوها تفليس .

وكان أجتاي قد ووجه في سنة ١٢٣٥ م ثلاثة جيوش في نواح مختلفة : أحدها إلى كوربا ، وثانيها ضد أسرة سونج وكانت تحكم مايلي نهر يانج تسي كيانج ، وأرسل ثالثها غرباً نحو شرق أوربا ، وعلى رأس هذا الجيش الأخير القائد « بانو بن جوجي » أكبر إخوة أجتاي ، وقد اتخذ سابوتاي Sabutai المشهور مستشاراً له ، فسقطت بلغاريا أمام القوة التي على رأسها سابوتاي ، على حين تقدم بانو نحو نهر الفلجا . واخترق جند المغول الغابات التي في طريقهم حتى ظهروا أمام ريزان Ryazan أو المدينة الجميلة ، وصوبوا سهامهم إليها ، وهددوا أسوارها وخرّبوا حصونها ، ثم استولوا عليها في ٢١ ديسمبر سنة ١٢٣٧ م . « وانتقم المغول لمن مات من جندهم في هذه المعارك ، فذبحوا الأمير وأمه وزوجه وأولاده وحاشيته وجميع سكان المدينة دون أى اعتبار للجندس أو السن ، فمات البعض بالخنازيق والبعض الآخر قتل بالسهم للجرد التسليية ، وسلخ الآخرون أو وضعت تحت أظافرهم المسامير أو شظايا الخشب ، وحرق القسيسون في النار أحياء ، واختطففت الفتيات العذارى والراهبات من الكنيسة أمام أقربائهن » حتى لم يبق عين لتبكي على الأموات .

ثم سقطت موسكو في يد الغزاة ، وانتقم المغول من أهالي إحدى المدن أخذاً بثأر قوة من جيوشهم أحل بها أهلها الهزيمة ، فأحل بهم أتباع « بانو » كل أنواع التعذيب ، وأنوا من الفظائع ما تفشع منه الأبدان ، حتى عرفت هذه المدينة بإسم فاتحها Mobalig كما عرفت أيضاً باسم مدينة الويل والثبور .

وعلى أثر هذا الانتصار تقدم المغول نحو كييف Kiev أم المدائن الروسية واستولوا عليها عنوة وسحقوا المدينة حتى أصبحت أثراً بعد عين .

ولقد دمر المغول في تلك الحروب الجزء الأعظم من بلاد روسيا ، وانقسم جيشهم إلى فريقين : فريق أغار على بلاد المجر بقيادة « بانو » وأغار فريق آخر على بولندا بقيادة « بيدار » Baidar وكيدو Kaidu . وقد تقدم بانو نحو بست Pest ببلاد المجر دون أن يلقى أية مقاومة في طريقه ، فاحتشدت هناك جميع القوى المجرية لمقاومته في تلك المروج الواسعة ، فانقض عليهم « بانو » بجيشه وهم في سباتهم وأوقع بهم ، وأتى عليهم جميعاً ذبحاً وقتلاً حتى امتلأ الطريق بأشلاء القتلى على مسيرة

يومين ، ولم يُنقِذ الملك بيلا الرابع (Bela) من الموت إلا خفة حصانه وسرعة عدوه ، فاتبه نفر من المغول واقتفوا أثره حتى ساحل الأدرياتيك مخربين مدمرين كل ما وجدوه في طريقهم . ومن ثم استولى باتو على بست وعبر نهر الطونة على الثلج في عيد الميلاد من سنة ١٢٤١ م .

وبينما كان باتو ينعم بانتصاره كانت القوة التي تحت قيادة بيدار وكيدو تشعل النار في بولنده ، وقد اتصل بهم نبأ موت أجتاي ، واستدعاء باتو للرجوع إلى بلاد المغول في الوقت الذي كان يعمل فيه قواده وجنوده السيف في كل الجهات .

وكان أجتاي مسرفاً في شرب الخمر كما هي عادة الكثيرين من المغول حتى مات بسبب ذلك في ١١ ديسمبر سنة ١٢٤١ م .

#### ٧ - كيوك :

ثم خلف أجتاي ابنه كيوك ( ٦٤٤ - ٦٤٦ / ١٢٤٦ - ١٢٤٨ ) . ولا يحفظ لنا التاريخ إلا القليل عن أخباره وأخلاقه ، فقد ألقى بزمام الدولة إلى وزيرين من المسيحيين ، كما امتلا بلاطه بالرهبان والعلماء من المسيحيين أيضاً ، وشيد كنيسة أمام خيمته .

أما عن معاملة كيوك لفقهاء المسلمين في بلاطه فقد روى الجوزجاني عن بعض الثقات أن البوذيين طالما أوغروا صدره ضد المسلمين وحملوه على اضطهادهم . وكان في هذه البلاد أحد الأئمة الذين اشتهروا بالعلم والورع بين المسلمين ، وهو نور الدين الخوارزمي . وقد التمس من كيوك بعض القسس من المسيحيين وفريق من قسيسي عبادة الأوثان من البوذيين أن يستدعى ذلك الإمام ليناظروه ويحاجوه طالبين منه إقامة الحججة على قوتي الدين الإسلامي وإثبات رسالة محمد ( صلى الله عليه وسلم ) وإلا كان مصيره القتل إن هو أعيتته الحججة . وقد أجابهم الخان الأعظم إلى طلبهم وأرسل في طلب الإمام ، وطرحت على بساط المناقشة مسألة صحة دعوة محمد للتبوة وسلوكه في حياته ، مع موازنته بسلوك غيره من الرسل . ولما كانت أدلة هؤلاء ضعيفة وخالية من كل وسائل الإقناع ، نفضوا أيديهم من تلك المساجلة بالبراهين والحجج ولجئوا إلى طرق العسف . وسألوا كيوك أن يسأل هذا الإمام أن يسجد سجدتين وفق الأحكام الإسلامية والتعاليم المحمدية حتى تتبين أمامهم



وأمام الخان حركات عبادتهم غير المستملحة ( في نظرهم ) . فأمر كيوك ذلك الإمام ومن معه بالصلاة ، فخرروا على الأرض سجداً ، فقام بعض الكفار الذين دعاهم كيوك وأهانوهم وأخذوا يضربون الأرض برؤوسهم ، كما افترقوا معهم بعض الأعمال الخزية . على أن الإمام ومن معه لم يأبهوا لكل هذا واستمروا في صلاتهم من غير أن يقطعوها . ولما انتهى الإمام من صلاته وسلم ، رفع رأسه نحو السماء قائلاً : ( واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية ) ( سورة الأعراف ٧ : ٢٠٥ ) .

ثم طلب كيوك أن يؤذن له بالانصراف وعاد إلى داره هو ومن معه<sup>(١)</sup> .

يقول سير توماس أرنولد<sup>(٢)</sup> ، « ولكن على الرغم من هذه المصاعب ، أذعن المغول<sup>(٣)</sup> والقبائل المتبريرة التي دانت بدين هذه الشعوب الإسلامية التي ساموها الحسف وجعلوها في مواطنهم . ولا بد أن يكون هناك كثيرون من أنصار النبي قد انتشروا في طول إمبراطورية المغول وعرضها ، مجاهدين في طي الخلفاء لجذب هؤلاء الكفار إلى حظيرة الإسلام » .

#### ٨ - مانجوخان :

وكان من حسن حظ أوروبا أن قامت الاضطرابات والفن في بلاط قره قورم سنين عدة ، ومن ثم ظهرت على تلك الإمبراطورية مظاهر التفكك وعوامل الانحلال . ففي سنة ١٢٥١ م أصبح مانجوخان بن تولوي ( ٦٤٦ - ٦٥٥ / ١٢٤٨ - ١١٥٧ ) خاقاناً على بلاد المغول .

وبعد سنتين من توليته على العرش زار بلاطه وليام روبرك ( Wiliam of Rubruk ) وغيره من الرهبان المسيحيين ، حيث استقبلوا بتظاهر الإكرام والحفاوة . وقد وصف روبرك هذا قصر مانجوخان في « قره قورم » . ومن هذا الوصف نقف على البون الشاسع بين حياة القصور وبين الحياة الرعوية التي كان يعيشها أسلافه . فكان قصره « محاطاً بأسوار مبنية بالآجر ، وبطرفه الجنوبي ثلاثة أبواب ، والقاعة الوسطى تماثل الكنيسة .

(١) Raverty, p. 1160 et seq.

(٢) The Preaching of Islam, pp. 226—227.

(٣) كانت ثلاثة أرباع الجيوش المغولية أتراكا في القرن الثالث عشر الميلادي .

ويحتوى هذا القصر على ما يشبه صحن الكنيسة ، ويفصل جناحى القصر ردهة فسيحة ،  
تنوسطها عمد مرفوعة كان يجلس فيها رجال البلاط . وأمام العرش شجرة من الفضة  
على حافتها السفلى أربعة أسود يخرج من أفواهها الخمر والنبيذ ، فتنصب فى أربعة أحواض  
من الفضة ، وفى أعلى الشجرة تمثال من الفضة يضرب البوق لملء خزانات تلك الينابيع  
الأربعة إذا ما نصب خمرها .

وقد عين مانجوخان أخاه كوبيلاى خان حاكما عاما على بلاد الصين . وفى عهده  
أخضعت كافة بلاد إمبراطورية سنج (بضم السين وسكون النون) ، وبإخضاعها غدا المغول  
فى البلاد الشرقية صينيين من حيث ثقافتهم ونظمهم ، كذلك غزا مانجو خان بلاد التبت  
وخرّبها ، كما ولى أخاه هولاء كى قيادة حملة لغزو بلاد فارس وسورية .

#### ٩ — كوبيلاى خان :

خلف مانجوخان أخوه كوبيلاى (٦٥٥ — ١٢٥٧/٦٩٣ — ١٢٩٤) بعد سنة من  
وفاته قضاها زعماء المغول فى العودة من أطراف تلك الإمبراطورية الثانية : من بلاد  
المجر وسورية والصين إلى حاضرة الإمبراطورية ، حيث انعقدت جمعية الأعيان لانتخاب  
خلف لمانجوخان ، وأصبح كوبيلاى خان الخان الأعظم . وكان قبل اعتلائه العرش  
شديد الاهتمام بشئون بلاد الصين ، فاتخذ بكين حاضرة للملكة بدلا من قره قورم ، واستقل  
هولاء كى بلاد الفرس وسورية وآسيا الصغرى ، على حين توزعت جيوش المغول فى بلاد  
الروسيا وما يلبها من بلاد آسيا ، وكذا بعض السكتائب الصغيرة فى بلاد تركستان .  
وفى عهد كوبيلاى سقطت مدينة بغداد على يد هولاء كى .

#### ١٠ — سقوط بغداد :

وبعد أن أتم هولاء كى إعداد حملته ، سار ميمما نحو الغرب . ولم يكده يصل إلى بلاد  
تركستان وما وراء النهر حتى قدّم إليه أمراؤها فروض الطاعة والولاء ، ثم وجه همه  
إلى القضاء على طائفة الباطنية فى فارس ، فأرسل إلى ملوك إيران كتباً يدعوهم فيها إلى  
مساعدته . وبما جاء فى هذه الكتب : « جئنا بأمر الخان الأعظم لتخريب حصون  
الإسماعيلية وقتل هذه الفئة ومحوها من الوجود ، فإذا أنيتم إلينا ووافقتم على مشروعنا  
بتقديم المساعدة . ن الرجال والذخائر وآلات الحرب ، فإنى أعدكم بالبقاء فى بلادكم آمنين ،

تتمتعون بقصوركم وجيوشكم ، أما إذا أظهرتم العكس سرت إليكم بعد إتمام مشروعى بعون الله وخربت بلادكم دون الالتفات إلى ماتقدمونه من الأعذار»<sup>(١)</sup> .

وعلى أثر وصول هذه الكتب إلى الملوك خرجوا لمقابلة هولاكو بمخيلين بالهدايا ، وأنت إليه الرسل من العراق وخراسان وأذربيجان وجورجيا ، فرحب بقدمهم . ثم عبر هولاكو نهر جيحون ونزل بمحاذق طوس ، ومنها سار إلى قلاع طائفة الإسماعيلية . وهناك دارت بينه وبينهم معركة انتهت بهزيمتهم وأسر زعيمهم ركن الدين خورشاه وقتله . انتصر هولاكو على الإسماعيلية ووصل إلى مدينة همدان التي اتخذها مركزاً لقيادته ، ثم أرسل إلى الخليفة العباسى المستعصم بالله كتاباً يعاتبه فيه على عدم إمداده بالجند فى أثناء محاربه طائفة الإسماعيلية ، وطلب إليه .

(١) أن يهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه .

(٢) أن يحضر لمقابله أو يرسل الوزير سليمان شاه والدويدار يحملان رسالته إليه .

وختم هولاكو كتابه بقوله إنه إذا استمع الخليفة لهذا النصيح تجنب حقه عليه ، وإلا عرض جيوشه للهزيمة أمام جيوش المغول التي قهرت جيوش خوارزم وإيران<sup>(٢)</sup> .

وقد أوفد الخليفة المستعصم شرف الدين بن الجوزى بحمل كتابه إلى هولاكو بدعوه فيه إلى الإقلاع عن غروره والعودة إلى بلاده . وما جاء فى هذا الكتاب : « لقد جعلت نفسك فوق العالم أجمع ، وظننت أن أوامرك هى أوامر القضاء ، كيف تطلب منى طلباً لا أستطيع تنفيذه ؟ أيخيل إليك أنك بذكائك وقوة جيشك وشجاعتك ستأسر نجماً من النجوم ؟ » ثم أخذ الخليفة يذكره بمجد الخلافة فقال : « إن ملايين من الفرسان والرجال على استعداد للقتال ، وهم رهن إشارتى ، حتى إذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر»<sup>(٣)</sup> . ثم ختم الخليفة كتابه بقوله : فما بالك بمخنادق رعبى وحصونهم ؟ فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان . وإن كنت تريد الحرب فلاتوان لحظة ولا تعتذر إذا عزمت ، إن لى أوفاً مؤلفة من الفرسان والرجال على أتم استعداد لحوض غمار الحرب<sup>(٤)</sup>

D'Ohsson, Histoire des Mongols, Tome iii, pp.137—138. (١)

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ المجلد الثانى ج ١ ص ٢٦٨ .

Quatremère, Histoire des Mongols, p. 335 (٣)

(٤) جامع التواريخ : المجلد الثانى ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

وقد حمل شرف الدين بن الجوزي ومن معه من الرسل مع هذه الرسالة بعض التحف والهدايا ، فلم يهتم بها هولاء ، وأبدى امتعاضه من العبارات التي تضمنها كتاب الخليفة إليه وقال : « لقد ألقى الله في روع هؤلاء القوم مثل هذه الأوهام »<sup>(١)</sup> ، ورد على الخليفة برسالة يهدده فيها ويتوعده ، وبما جاء فيها : « إنك تركت نهج آبائك ، فاستعد للحرب وانتظر جيشاً قوياً ، ولو أن الشيطان وضع عراقيله أمام خططي لانتصرت عليه بعون الله »<sup>(٢)</sup> .

ولما عاد رسل الخليفة وأدرك ما ينطوي عليه رد هولاء من تهديد ووعيد ، استطلع رأى وزيره ابن العلقمي ، فأشار عليه بأن يتألفه ببذل الأموال والنفائس وقال . « ينبغي أن تدفعه ببذل المال ، لأن الخزانة والدقائق تجمع لوقاية عزة العرض وسلامة النفس ، فيجب إعداد ألف حمل من النفائس وألفاً من نجائب الإبل وألفاً من الجياد العربية المجهزة بالآلات والمعدات ، وينبغي إرسال التحف والهدايا في حجة الرسل السكفاة الدهاة مع تقديم الاعتذار إلى هولاء وجعل الخطبة والسكبة باسمه »<sup>(٣)</sup> .

وقدم مال الخليفة إلى قبول هذا الرأي أول الأمر ، ولكن مجاهد الدين أيبك ، وكان يلقب الدويدار الصغير ، الذي كان يضرر العداوة والبغضاء للوزير ابن العلقمي ، استمال بعض الأمراء إليه ، وبعثوا إلى الخليفة برسالة يقولون فيها إن الوزير إنما رأى هذا الرأي مدفوعاً في ذلك بمصلحته الخاصة ، وإنه يعرضهم بذلك إلى البلاء على أيدي المغول ، وتهمدوا للخليفة بأخذ الحيلة لدرء خطر هولاء والقبض على رسله وأخذ مامعهم من الأموال وتعذيبهم بكل ألوان العذاب<sup>(٤)</sup> .

وهكذا لم يكن لتبادل المراسلات بين هولاء والخليفة المستعصم من أثر سوى جعل الحرب ضرورة لا بد منها . وقد رأى هولاء الاستيلاء على البلاد التي في طريقه إلى بغداد . ولما تأكد أنه قد أصبح في استطاعته السير إلى هذه المدينة دون تعرضه للصاعب استطلع رأى الفلكيين ، على ماجرت به عادة المغول إذا أقدموا على غزو بلد

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٦٥ . جامع التواريخ المجلد الثاني ج ١ ص ٢٧١ .

(٢) كترمير ص ٣٣٩ .

(٣) جامع التواريخ ، المجلد الثاني ج ٢ ص ٢٧١ .

(٤) المصدر نفسه المجلد الثاني ج ٢ ص ٢٧٢ .

من البلاد . وقد حاول حسام الدين الفلبي ، وكان سنياً يعطف على الخليفة ، أن يثنى هولاء عن عزمه . وقال له : « إن كل ملك تجاسر حتى هذه اللحظة على معاداة أبناء العباس والتعرض لمدينة بغداد ، زال عرشه وانتهت حياته . وإذا أبي الأمير أن يستمع لنصائحي وتمسك برأيه ، كان ذلك سيباً في حلول ست مصائب وهي : موت الخيل ، وإصابة الجند بأمراض مختلفة ، وعدم طلوع الشمس ، وانعدام سقوط المطر ، وحدث هزات أرضية يعانى منها العالم ، وإفقار الأرض (١) » .

أما نصير الدين الطوسي الذى اشتهر بمؤلفاته فى الدين والأخلاق ونظم الحكم والفلك ، فقد انضم إلى جانب أمراء المغول الذين تمسكوا بضرورة غزو بغداد ، كما استبعد وقوع الكوارث بمحاصرة الخلافة على أثر سقوطها . وبما قاله هولاء كوا : « إن كثيرين من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ماتوا دفاعاً عن الدين ، ومع ذلك لم تقع كارثة من الكوارث ، وإن كثيرين من الناس خرجوا على بنى العباس ولم يلحقهم أذى ، وضرب لذلك مثلاً بطاهر بن الحسين الذى قتل الخليفة الأمين » (٢) .

ولما أيقن هولاء أن فى استطاعة قواته الاستيلاء على بغداد ، أخذ فى تنفيذ خطته الحربية التى وضعها فى أثناء إقامته بهمدان ، وتنهصر فى حصار هذه المدينة بجيوشه من جميع النواحي ، فأنفذ حملة بقيادة أحد قواده ، « باجو » لمهاجمة بغداد من ناحية الغرب ، وسار هو على رأس فريق من الجيش لمحاصرتها من ناحية الشرق ( ٦٥٥ / ١٢٥٧ ) وبصحبته كثير من أمراء المسلمين من أمثال أبى بكر سعد زنى أنابك Atabeck شيراز ، ونصير السعدى الكاتب والشاعر الفارسى المشهور ، وبدر الدين لؤلؤ أنابك الموصل ، وسكرتيره الخاص عطا ملك الجوينى صاحب التاريخ المشهور بتاريخ جهان جشا Jahān-Gushā ونصير الدين الطوسى الفلبكى والحكيم المشهور (٣) .

ولم يكده هولاء أن يبلغ مدينة « دينور » على بعد عشرين فرسخاً من همدان حتى أقيه شرف الدين بن الجوزى رسول الخليفة العباسى ومعه رسالة يهدده فيها ويعدده بدفع جزية سنوية إذا عاد إلى بلاده . غير أن هولاء كوا لم يعبأ بما جاء فى كتاب الخليفة وقال لسفيره ساخراً :

D'Ohsson, Tome III, pp. 224—225.

(١)

Ibid., Vol, III. p. 226.

(٢)

(٣) براون ، ترجمة ج ٢ ص ٢٨٣ .

« لقد قطعنا طريقا طويلا ، فكيف نرجع دون أن نرى الخليفة ؟ إننا بعد أن نتشرف بالمشول بين يديه وبعد أن نتحدث معه ، نسمع أوامره ونعود مباشرة » . ثم تابع هولاكو المسير ، وأمر « باجو » بأن يسرع إلى عبور نهر دجلة ومهاجمة بغداد من ناحية الغرب . ولما تمكنت قوات باجو من عبور هذا النهر دارت الحرب بين الفريقين ، وحلت الهزيمة بالجيش العباسي في العاشر من المحرم سنة ٦٥٦ هـ . واستولى باجو وجنده على الجانب الغربي من بغداد ونزلوا في أحياء المدينة على شاطئ نهر دجلة وسيطروا على جميع أجزائها . وكان من أثر انشغال الجيش العباسي بمقاومة المغول الذين هاجموا بغداد من ناحية الغرب أن خلا الجو لهولاكو ، فترك معسكره في « خانقين » وتابع سيره إلى بغداد وعسكر من جهة بغداد الشرقية بحسد لا يحصى عدده حتى وصفه بعض المؤرخين بأنه كالجراد المنتشر . وقال ابن كثير <sup>(١)</sup> إن هذا الجيش المغولي بلغ مائتي ألف مقاتل . وقد تدفق على بغداد الشرقية كثير من أهالي بغداد الغربية خشية أن يتسلل بهم المغول بقيادة باجو . يقول ابن طباطبا <sup>(٢)</sup> .

« وسار الناس من دُجَيْل والإسحاق ونهر ملك ( بفتح الميم ) ونهر عيسى ودخلوا المدينة بنسائهم وأولادهم ، حتى كان الرجل أو المرأة يقذف بنفسه في الماء . وكان الملاح إذا عبر أحداً في سفينة من جانب إلى جانب يأخذ أجرته سواراً من ذهب أو طرازاً من زركش أو عدة من الدنانير . فلما وصل العسكر السلطاني ( أى جند هولاكو ) إلى دُجَيْل وهو يزيد على ثلاثين ألف فارس ، خرج إليه عسكر الخليفة صحة مقدم الجيش مجاهد الدين أيك الدويدار ، وكان عسكراً في غاية القلة ، فالتقوا بالجانب الغربي من بغداد قريبا من البلد ، فكانت الغلبة في أول الأمر لعسكر الخليفة ، ثم كانت الكرة للعسكر السلطاني فأبادوهم قتلا وأسرا ، وأعانهم على ذلك نهر فتحوه في طول الليل . فكثر الوحول في طريق المنهزمين ، فلم ينج منهم إلا من رمى بنفسه في الماء أو من دخل البرية ومضى على وجهه إلى الشام ، ونجا الدويدار في جمعية من عسكره ووصل إلى بغداد ، وسار « باجو » حتى دخل البلد من جانبه الغربي ، ووقف بعساكره محاذي التاج ، وجاست عساكره خلال الديار ، وأقام محاذي التاج أياما . وأما حال العسكر السلطاني فإنه في يوم

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠٠ .

(٢) الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٩٦ — ٢٩٨ .

الخبث رابع المحرم من سنة ٦٥٦ هـ نارت غبرة عظيمة شرقى بغداد على درب يعقوبا بحيث عمت البلد . فانزعج الناس من ذلك وصعدوا إلى أعلى السطوح وللسابر يتشوقون ، فانكشفت الغبرة عن عساكر السلطان وخبوله وافيقه وكراعه ، وقد طبق وجه الارض وأحاط ببغداد من جميع جهاتها . ثم شرعوا فى استعمال أسباب الحصار ، وشرع العسكر الخليلي فى المدافعة والمقاومة إلى اليوم التاسع عشر من شهر المحرم سنة ٦٥٦ هـ ، فلم يشعر الناس إلا ورايات المغول ظاهرة على سور بغداد من برج يسمى « برج العجمى » من ناحية باب من أبواب بغداد يقال له « باب كلواذى » ( بفتح الكاف والذال وسكون اللام ) . وكان هذا البرج أقصر أبراج السور ، وتقجم ( اقتحم على الأصح ) العسكر السلطاني هجوما ودخولا : فجرى من القتل الذريع والنهب العظيم والتثيل البالغ ما يعظم سماعه جملة فإلظن بتفاصيله . ٩ . »

وكان ما كان مما استأذكره فظن ظناً ولا تسأل عن الخبر

هذا ما ذكره « صاحب الفخرى » بعد أربع وأربعين سنة من وقوع هذه الكارثة ( أى قبل أن ينتهى من وضع كتابه سنة ١٢٠١/٧٠١ ) . ولم يكن الفخرى - كما يقول براون<sup>(١)</sup> - يكتب ما يشاء ويسجل ما يريد ، ولكنه كان يكتب ما يكتب وهو يعلم أنه يعيش تحت حكم مغولى أيام غازان حفيد هولاءكو .

ولما رأى الخليفة المستعصم أنه لا مفر من دخول المغول مدينة بغداد حول على التسليم ، فأرسل رسوله شرف الدين بن الجوزى ثانية إلى هولاءكو يحمل إليه كثيراً من الهدايا الثمينة معلناً رضاه بالتسليم ووقف القتال . ولم ترض على ذلك بضعة أيام حتى خدعه المغول بالوعود الكاذبة . وقد ذكر ابن كثير<sup>(٢)</sup> أن الوزر ابن العلقمى كان قد اجتمع بهولاءكو مع أهله وأصحابه وحشمه ، ثم أشار على الخليفة بالخروج إلى هولاءكو والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف الخراج لهولاءكو والنصف الآخر للخليفة .

وفى يوم الأحد ٤ صفر سنة ٦٥٦ هـ ( ١٠ فبراير سنة ١٢٥٨ م ) خرج الخليفة للملاقاة هولاءكو ، وكان بصحبته أولاده الثلاثة وهم : ولده الأكبر أبو العباس أحمد ، وولده الأوسط أبو الفضائل عبد الرحمن ، وولده الأصغر أبو المناقب مبارك ، وثلاثة آلاف

(١) تاريخ الأدب فى إيران . ترجمة الدكتور إبراهيم أمين ج ٢ ص ٥٨٧ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١ .

من القضاة والفقهاء والصوفية والأمراء وأعيان المدينة . ولما اقترب هذا الركب من دار هولاءكو حجروا عن الخليفة ولم يبق معه إلا سبعة عشر شخصاً منهم . ولما أحضر الخليفة بين يدي هولاءكو كان الاضطراب يبدو عليه ، فقال له هولاءكو : « أنت المضيف ونحن الضيوف فأحضر ما يليق بنا » . وقد بلغ من اضطراب الخليفة أنه لم يعد يعرف المسكان الذي أودع فيه مفاتيح خزائنه ، فأمر بكسر عدة أقفال ، وأحضر لهولاءكو التي نوب وعشرة آلاف دينار وكثيراً من الجواهر والنقائس ؛ فلم يلتفت هولاءكو إليها ومنحها كلها للأمراء . ثم قال للخليفة : إن الأموال التي تملكها على وجه الأرض ظاهرة ، وهي ملك عبيدنا ، ولكن أذكر ما تملكه من الدفائن . وما هي ؟ وأين توجد ؟ فاعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر . حفروا الأرض ، فكان الحوض مليئاً بالذهب الأحمر ، وكان كله من سبائك وزن الواحدة مائة مثقال . وقد أحصى نساء القصر فكن سبعائة بين زوجة وسرية وخادمة<sup>(١)</sup> .

ثم طلب هولاءكو من الخليفة أن يأمر أهل بغداد بوضع سلاحهم والخروج من مدينتهم بحجة عمل تعداد لهم . فأنفذ الخليفة رسولا من قبيله ينادى الناس في طرقات المدينة بأن يلقوا السلاح ويخرجوا من الأسوار . غير أنهم لم يكادوا يلبون طلبه ، حتى أمر هولاءكو جنده فانقضوا عليهم وقتلوهم شرقتله . ولما استقر هولاءكو بقصر المأمونية شرقي بغداد سمح لجنده بدخول المدينة فعانوا فيها أسبوعاً كاملاً ، وهدموا مساجدها ليحصلوا على ذهب قبائها ، وجردوا القصور بما بها من التحف النادرة ، وأتلفوا عدداً كثيراً من الكتب القيمة في مكباتها ، وأهلكوا كثيراً من رجال العلم فيها<sup>(٢)</sup> .

وقد أعمل جنود المغول السيف في رقاب أهل بغداد أربعين يوماً سلبوا فيها أموالهم وأهلكوا كثيرين من رجال العلم ، وقتلوا أئمة المساجد وحلة القرآن ، وتعطلت المساجد والمدارس والربط ، وأصبحت المدينة قاعاً صفصفاً ليس بها إلا فئة قليلة مشردة الأذهان . وكان القتلى في الطرقات كأنها التلال . ولما نودي بالآمان خرج من تحت الأرض من اختفوا في المطامير والمقابر ومن لجأ إلى الآبار والحشائش كأنهم الموتى قد نبشت

(١) جامع التواريخ : المجلد الثاني ج ٢ ص ٢٩١ — ٢٩٢ .

(٢) أنظر . Brown, Lit. Hist. of Persia, Vol. II, p. 463, seq. الترجمة ص ٥٨٦ .



قبورهم ، وقد أنكر بعضهم البعض ، فلم يعرف الأب ابنه ولا الأخ أخاه ، ثم انتشر الوباء فحصدهم بمنجمله حصداً ذريعاً ، وفسد الهواء وعم الوباء<sup>(١)</sup> .

وقد انتهت هذه الحوادث المحزنة بقتل الخليفة المستعصم وابنيه أبي العباس أحمد وأبي الفضائل عبد الرحمن وأسر ابنه الأصغر مبارك وأخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم . وقد اختلف المؤرخون في عدد الأنفس التي أزهقتها المغول على أثر دخولهم بغداد ، فذهب بعضهم إلى أنها بلغت ثمانمائة ألف ، وقدرها السبكي<sup>(٢)</sup> بتسعمائة ألف ، وذهب ابن كثير<sup>(٣)</sup> إلى أنها بلغت مليوناً وثمانمائة ألف ، عدا من غرق أو هرب . على أنه مما لا شك فيه أن هذه المدينة فقدت معظم سكانها في هذه الكارثة وضاعت الثروة الأدبية والفنية التي عنى الخلفاء العباسيون بجمعها منذ بنى أبو جعفر المنصور بغداد واتخذها حاضرة لدولته .

وبسقوط بغداد زالت الدولة العباسية وزالت الخلافة التي عاش في ظلها العالم الإسلامي زهاء خمسة قرون . ولم تعد بغداد مركز الإسلام ومعين الثروة والرخاء وكعبة العلماء ، ولم يحدثنا التاريخ أن حضارة زاهرة كالحضارة الإسلامية في بغداد قد اختفت في مثل هذه السرعة ، وأصبحت حاضرة العباسيين طعمه تلثمها النيران المستعرة وتفرقها الدماء المهرقة .

وقد أمر هولاكو قبل رحيله بتجديد بناء مسجد الخليفة وضريح موسى السكاظم<sup>(٤)</sup> . وقد أسهب في وصف هذا التخریب عبد المؤمن بن عبد الحق ( ت ٧٣٩ / ١٣٣٨ ) في كتابه « مرصد الاطلاع على أسماء الاماكن والبقاع لياقوت الحموي ( ت ٦٢٩ / ١٢٢٩ ) . وقد جمع عبد المؤمن هذا الكتاب حول سنة ٧٠٠ هـ ( ١٣٠٠ م ) وزاد عليه وأخرجه في أربعة أجزاء ( لندن ١٨٥٣ م ) ، فأشار في الجزء الأول من هذا الكتاب ( ص ١٦٣ ) إلى التخریب الذي قامت به الجيوش الفارسية والتركية والمغولية التي كان يخرب كل منها ما بناه من سبقه من السلاطين .

وقد اختلفت أقوال المؤرخين في الدور الذي قام به مؤيد الدين بن العلقمي وزير الخليفة المستعصم في تسليم بغداد ، فبعضهم يرى أن هذا الوزير أثار مخاوف الخليفة من خطر المغول ونصح له بالاستعداد لحربهم وأخذ الحيلة لدرء خطرهم ، وكان هذا الوزير ،

(١) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة في أعيان المائة السابعة ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ص ١١٥ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠٢ .

(٤) انظر Le Strang, Baghdad During the Abbasid Caliphate, p. 343.

كما وصفه صاحب الفخرى ، « من أعيان الناس وعقلاء الرجال » . إلا أن بعض خاصة الخليفة قللوا من شأن المغول وأدخلوا في روع الخليفة أن وزيره يبالح في تصوير هذا الخطر ليفيد من الأموال التي تخصص لتجنيد الجند ونزويدهم بالسلاح . وبينهم الجوزجاني في كتابه طبقات ناصرى هذا الوزير بأنه قتل من عدد الجند الذين أسندت إليهم مهمة حماية المدينة وزين للخليفة التسليم لإرضاء لأطباعه وانتقاماً للاضطهادات التي تعرض لها الشيوعيون على يد ابن الخليفة الأكبر . ولذلك اتفق ابن العلقمى مع نصير الدين الطوسى الذى اتخذه هولاء كوزيراً له والذي كان يدين بعقائد المذهب الشيعى كابن العلقمى على تسليم بغداد للمغول ، بل لقد ذهب ابن كثير إلى القول بأن الوزير ابن العلقمى وبني جلدته من الشيعة قد أشاروا على هولاء كولا بدخلى فى صلح مع الخليفة بحجة أن مثل هذا الصلح لن يدوم ، بل إنهم حسنوا له قتل الخليفة . كما ذهب هذا المؤرخ<sup>(١)</sup> إلى القول بأن ذلك كان راجعاً إلى العداء المستحكم بين السنيين وبين الشيعة الذين نهبت دورهم قبل فتح بغداد على أيدي المغول ، فاشتد حنق الوزير ابن العلقمى ، كما ذكر السيوطى<sup>(٢)</sup> ، فراسل التتار وأطمعهم بالمسير إلى العراق وفتح بغداد وإزالة الدولة العباسية وإقامة خلافة علوية على أنقاض الخلافة العباسية<sup>(٣)</sup> .

على أن هذه الآراء لا تتفق مع هذه الحقيقة التاريخية وهى أن فتح المغول بغداد كان جزءاً من مشروع سياسى يهدف إلى اتساع رقعة إمبراطورية المغول بعد أن تم لهم فتح إمبراطورية الصين الشمالية وأواسط آسيا وإيران وچورجيا والقوقاز والروسيا وبولندة وغيرها ، أضف إلى ذلك أن قتل المغول أهل بغداد قد شمل السنيين كما شمل الشيعة الذين نهبت دورهم فى الكرخ وهى عملة الشيعة ببغداد . وإذا كان المغول قد قربوا إليهم ابن العلقمى فإنهم مع ذلك قد تخلصوا منه ، إذ أن حياته لم تمتد بعد مقتل الخليفة المستعصم أكثر من ثلاثة أشهر . وعمما هو جدير بالملاحظة أن الجوزجاني يغلو فى سنيته أكثر مما يغلو ابن طباطبا فى تشيعه . هذا إلى ما عرف به الوزير ابن العلقمى من شغفه بالكتب وتقريب العلماء والأدباء ، حتى لقد اشتملت مكتبته على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب ، وأهداه كثير من الشعراء دواوينهم<sup>(٤)</sup> . وكان كما يقول ابن طباطبا<sup>(٥)</sup> « عفيفاً عن أموال الديوان وأموال الرعية متزهاً مترفماً » .

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٠٨ وما يليها .

(٣) السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٠ .

(٤) براون : تاريخ الأدب فى إيران ، ترجمة ج ٢ ص ٥٨٩ .

(٥) انظر كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

# الباب الخامس

الدول الإسلامية المستقلة

غير التابعة لحكم العباسيين

أولاً - الغوريون والغزنويون :

١ - ظهور الغوريين :

أذن نجم البيت الغزنوي بالأفول وشهد عصر سنجر زوال هذه الأسرة النهائي على أيدي ملوك الغور الجبليين وهم أفغانيو « فيروز كوه » الأشداء ، وكان ظهير الدولة إبراهيم (٤٥١ - ٤٩٢ / ١٠٥٩ - ١٠٩٩) جلس على عرش السلطنة حين بدأ الغوريون في الظهور . وقد اتصف هذا السلطان بقوة الشكيمة : فقد حدث نقص شديد في الخبز في غزته ، وأغلق الخبازون حوانيتهم وشعر الفقراء بالمر والضييق واستقاثوا بالسلطان الذي بعث في طلب الخبازين وسألهم عن سبب ندرة القمح ، فأجابوا بأن صاحب الخبز السلطاني احتكر الدقيق لرفع سعره ، فأمر السلطان بوضعه تحت حوافر الفيل حتى يموت ، وبعد موت صاحب الخبز أمر السلطان بأن يعاق جسمه بين أنياب الفيل ويطاف به في طرقات المدينة . وصدر مرسوم يعلن للناس أن ذلك هو مصير كل خباز يغلط حانوته . وقد زاد نظام الملك (١) أنه لم يأت مساء ذلك اليوم حتى وضع عند باب كل حانوت من حوانيت بانمي الخبز خمسون مقطفاً ( والمقطف يحتوي على مائة رطل من الخبز ) ، وبلغ الخبز من الوفرة بحيث زهد الناس في شراء أكثره .

مات السلطان ظهير الدين إبراهيم الغزنوي سنة ٤٩٢ هـ ، وخلفه ابنه مسعود الثالث (٤٩٢ - ٥٠٨ / ١٠٩٩ - ١١١٤) . ثم خلفه أبناؤه الثلاثة شيرزاد (٥٠٩ / ١١١٥) وأرسلان (٥١٢ / ١١١٨) وبرام شاه الذي خنق أخاه وجلس على العرش من بعده (٥١٢ / ١١١٨) وحكم الدولة الغزنوية المتداعية حتى نهاية سنة ٥٤٧ / ١١٥٢ . وقد

(١) سياسة نامه (نشرة شيفير) ص ٤٢ نقلًا عن Browne, II, p. 305.

انتهى حكم بهرام شاه بنسكبة حلت به . ذلك أنه في شهر ذي القعدة سنة ٥٢٩ هـ ارتاب سنجر في ولايته وعدم إخلاصه في الوفاء بوعوده ، كما نعى إليه أنه ظلم الناس واعتصب أموالهم . فسار سنجر إلى غزنة (١) . وقد أدركه الشتاء واشتد البرد به وبجنده وكثر مطول الأمطار وتعذر وصول القوات للجند والعلوفة للداشية . وما زال سنجر كذلك حتى قرب من غزنة وأرسل إليه بهرام شاه يستعطفه ويسأله الصفرح عما بدر منه ، فأرسل إليه سنجر يعده بالعفو عنه إذا حضر عنده وعاد إلى طاعته : فأذعن بهرام شاه لأمر سنجر ، ولكنه لما قرب من معسكره تملكه الخوف وولى هاربا ولم يعرج على غزنة ، فسار سنجر إليها ودخلها وجبى أموالها ، وكتب إلى بهرام شاه يلومه ويخالف له أنه ما أراد شراً ولا يبيلده مطمعاً ، وإنما قصده لإصلاحه وردده إلى طاعته . « فأعاد بهرام شاه الجواب يعتذر ويتنقل ويقول إن الخوف منعه من الحضور ولا لوم على من خاف من السلطان وتضرع إلى السلطان أن يعفو عنه وأن يسبغ عليه عطفه ، فأجابه سنجر إلى إعادة بلده إليه ، وترك غزنة وقفل راجعاً إلى بلده : فوصل إلى بلخ في شهر شوال سنة ٥٣٠ هـ وعاد بهرام شاه إلى غزنة (٢) وبعد اثنتي عشرة سنة دبر بهرام شاه مؤامرة لقتل صهره قطب الدين محمد الغوري . وقد ثار أخواه سيف الدين سوري وعلاء الدين حسين لمقتل أخيهما هذا في سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) بطرد بهرام شاه من غزنة وهربه إلى الهند ، وتقلد سيف الدين سوري ولايتها نيابة عن أخيه علاء الدين . على أنه قد دبرت مؤامرة ضد سيف الدين في الشتاء التالي . ولما امتلأت الطرق بالثلوج دعى بهرام شاه للعودة إلى بلاده ، فقبض على سيف الدين سوري على حين غفلة وشهر به في المدينة وقد جلل وجهه بالسواد وهو يمتط بقرة ، ثم شنق أو صلب (٣) . وقد ذكر ابن الأثير (٤) أن علاء الدين حسين الغوري (٥٤٤ - ٥٥١ هـ)

(١) ذكر ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٩٠ - ١٩١ أن غزنة كانت قد دخلت في حكم سنجر سنة ٥١٠ هـ : وكان بهرام شاه بن ألب أرسلان الغزنوي قد استنجد به وطلب منه الحضور إلى غزنة . وقد تغلب جيش سنجر على جيش أرسلان شاه وجلس بهرام شاه على سرير جده محمود الغزنوي صاحب الفتوحات الإسلامية في الهند .

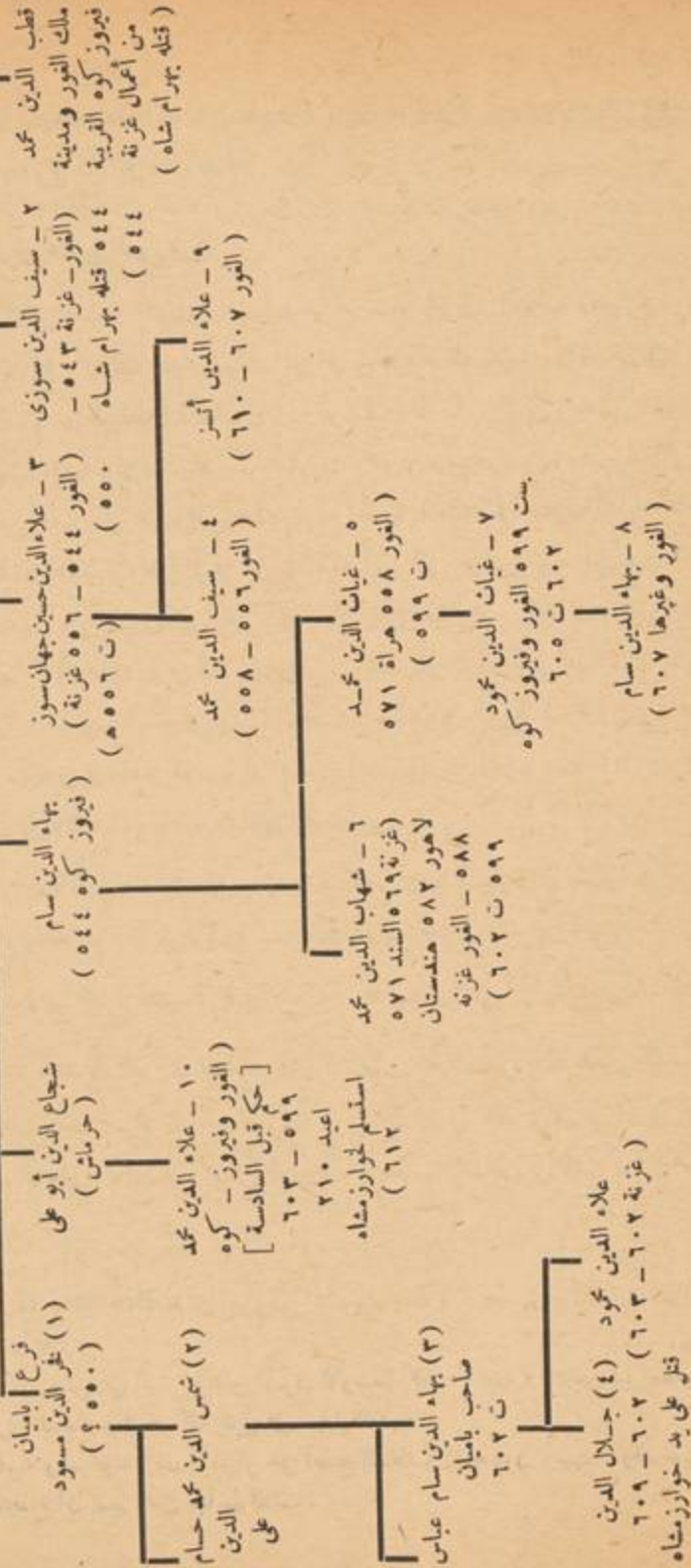
(٢) ابن الأثير : الكامل المصدر نفسه ج ١١ ص ٢٢ .

(٣) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٧ .

(٤) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٦ - ٦٧ .

١٢١٥ - ١١٤٨ وريون ١١٢ - ٨٥٤٣

١ - عز الدين حسن  
( النور في الأفتان والهند )



عاد إلى غزنة وخرّبها ، وتعد هذه السنة ( ٥٤٣ هـ ) ابتداء الدولة الغورية حيث عظمت قوة الغور وعلا شأنهم وتركوا بلادهم الجبلية .

٢ — علاء الدين حسين الغورى .

وقد قابل علاء الدين حسين الغورى إساءة بهرام شاه يانزال العقاب الصارم بأهل غزنة ( ٥٥٠ / ١١٥٥ ) ، وذلك بعد موت بهرام شاه بثلاث سنين واستخلاف ابنه خسرو شاه . وإن لقب « السلطان المعظم » (١) أو ملك الدنيا والدين ( جهان سوز ) الذى تلقب به ، ونهب مدينة غزنة وتخريب عمارات محمود ومسعود وإبراهيم الغزنويين ليدل دلالة واضحة على مدى الويلات التى حلت بهذه المدينة العتيقة فى خلال الأيام الثلاثة التى تعرضت فيها لنقمة الغور . وعلى الرغم من هذه المأساة التى حلت بغزنة على أيدي الغور لم يصب الأدب بسوء ، بل على العكس من ذلك كان محل تقديرهم . فقد ذكر نظامى عروضى السمرقندى (٢) أن علاء الدين الغورى حين أمر بنهب غزنة وتخريب عماراتها « اشترى مدائح محمود ومسعود وإبراهيم ( الغزنويين ) بالذهب وخبأها فى خزانة كنيته » ، ولم يجرؤ أحد فى عسكر علاء الدين فى هذه المدينة أن يسمى أحد ملوك الغور سلطانا ، على حين كان الملك نفسه يقرأ فى الشاهنامه ماقاله مؤلفها الفردوسى .

« أول ما ينطق به الطفل الرضيع فى مهده « محمود » ( الغزنوى ) تتمثل فى جسمه صولة الفيل ، وفى روحه علم جبريل ، وفى كفه مطر الربيع ، وفى قلبه نهر النيل » (٣) .  
ملك العالم محمود ، ذو العزة القعساء الذى جمع بين الذهب والحمل (٤) على مورد الماء .  
ولما قوى أمر علاء الدين الغورى واتسع سلطانه نصّب العمال على بلاد الغور الواسعة .  
ومن هؤلاء العمال ابنا أخيه بهاء الدين سام وهما : غياث الدين محمد وشهاب الدين محمد .  
وقد استمالا لإلهما الأهلين بالعدل وحسن السيرة ، فأحبهما الناس وانتشر ذكرهما فى

(١) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٧ .

(٢) Browne, II, p. 306 نظامى عروضى : جهاز مقاله ( ترجمه الى الإنجليزية براون )

ترجمة عربية ص ٣٦ - ٣٧ .

(٣) كثيرا ما كان يطلق على أنهار وبحار الشرق الأوسط كلمة « النيل » تشبيها بنيل مصر . كما يطلق المغاربة على نهري السنغال والنيجر كلمة النيل على سبيل التشبيه .

(٤) أى أنه لقوته وضراوته أذل الأشرار حتى أصبح الضعاف لا يخشون بأسهم . وقد شبه هذا بقوله إن السلطان استطاع أن يسير الحمل بجانب الذهب .

الآفاق ، فأضمر لهما بعض أمراء الدولة الحسد وأوغروا عليهما صدر عمهما علاء الدين حسين ورموهما بتدبير قتله والاستيلاء على ملكه . ولما بعث علاء الدين في طلب ابن أخيه امتنع عن الحضور . إذ نعى إليهما الخبر بما دبره لهما عمال السوء ، فسير إليهما عمهما علاء الدين جيشاً حلت به الهزيمة . وأظهر غياث الدين وشهاب الدين العصيان لعمهما وقطعا الخطبة له على منابر البلاد . ولم يجد علاء الدين بداً من المسير إليهما بنفسه . ولكن الهزيمة حلت به وأسر . على أن ابني أخيه أحسنا معاملته وأجلساه على العرش ووفقا في خدمته واستدرا بذلك عطفه ، حتى إنه بادر إلى زواج غياث الدين من إحدى بناته واتخذها ولياً لعهد .

### (٣) غياث الدين محمد — زوال الدولة الغزنوية

توفي علاء الدين حسين سنة ٥٥٦ هـ . وكان كما وصفه ابن الأثير<sup>(١)</sup> ، من أحسن الملوك سيرة في رعيته ، ثم خلفه ابنه سيف الدين محمد (٥٥٦ — ٥٥٨ هـ) . وفي عهده نشط دعاة الاسماعيلية وكثر أتباعهم ، فطردهم هذا السلطان من بلاده . وقد تبادل المراسلات والهدايا مع الملوك والأمراء . ولم يممر سيف الدين محمد في سلطنة الغور ، وذلك أنه سار من جبال الغور على رأس جيش لحرب الغز ببلغ . وقد انفق أن خرج سيف الدين محمد من معسكره في جماعة من خاصته ، وسمع بذلك أمراء الغز ، فألحوا في طلبه وأوقعوا به ، فقاتلهم ، فقتل مع بعض خاصته ، وذلك في شهر رجب سنة ٥٥٨ هـ . وأسر بعض آخر وهرب الباقون ، ولحق عسكره ببلادهم . وكان سيف الدين محمد في العشرين من عمره<sup>(٢)</sup> .

ولما قتل سيف الدين محمد جلس غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام على العرش وخطب له على منابر الغور . ولما قوى أمره جمع جيشاً جراراً سار بقيادة أخيه شهاب الدين . فاستولى على غزنة من الغز ، وكانوا قد حكموها خمس عشرة سنة أذاقوا فيها الأهلين ألوان التعذيب وعاملوهم معاملة قوامها الظلم والجور . ثم سار شهاب الدين الذي عرف بحسن سيرته وعدله إلى كرمان وعبر نهر السند واستولى على بعض بلادها الجبلية ، ثم عاد الغز فلما كوا غزته من جديد<sup>(٣)</sup> .

(١) الكامل ج ١١ ص ١٠٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ١١٨ — ١٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ج ١١ ص ١٢٤ .

وفي سنة ٥٥٩ هـ ، سار شهاب الدين على رأس جيش كثيف من الخراسانيين والغور ، فحصر نهر السند وحاصر لاهور واستولى عليها من يد صاحبها الغزنوي خسروشاہ (٥٥٥ - ٥٨٢/١١٦٠ - ١١٨٦) وأحسن معاملته ، ثم طلب أخوه غياث الدين محمد إرسال خسروشاہ إليه ، فأمر به فقتل في إحدى القلاع . وبذلك زالت الدولة الغزنوية على يد شهاب الدين الغوري سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) ، وتداعى سلطان الغزنويين في الهند ، وانقسمت دولتهم إلى دويلات إسلامية مستقلة<sup>(١)</sup> . وكان سلاطين الغزنويين كما ذكر ابن الأثير<sup>(٢)</sup> « من أحسن الملوك سيرة ، ولا سيما جدهم محمود ( الغزنوي ) ، فإن آثاره في الجهاد معروفة وأعماله الآخرة مشهورة » .

استقر سلطان غياث الدين الغوري وقوى أمره واتسعت رقعة مملكته وكثر عدد جنده ، وأصبح بحيث يستطيع أن يعلن نفسه سلطاناً على البلاد . لذلك نراه يبعث إلى أخيه شهاب الدين يأمره بإقامة الخطبة له بالسلطنة على منابر الهند حيث استقر سلطان الغور في لاهور ، وبعد أن كان لقب غياث الدين محمد « شمس الدين » ، أصبح الآن يلقب بألقاب « غياث الدين والدنيا معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين » ، كما تلقب أخوه شهاب الدين بلقب عز الدين<sup>(٣)</sup> .

وفي سنة ٥٩٧ هـ عول غياث الدين على استرداد خراسان من خوارزم شاه محمد ، فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يطلب إليه المسير إلى هذه البلاد وفتح حاضرتها مرو . ثم استولى على سرخس وطوس وهرات ، ثم لحق به أخوه شهاب الدين وساعده على فتح نيسابور وحاصر بعض قلاع الإسماعيلية وطهر البلاد منهم ونشر الإسلام في ربوعها . ثم قامت الجفوة بين غياث الدين وأخيه شهاب الدين . وقد عز ابن الأثير<sup>(٣)</sup> ذلك إلى أن صاحب قهستان شكاً إلى غياث الدين أخاه وقال إنه حاصر بلده وخرج على العهد الذي أبرم بينهما . وبينما كان شهاب الدين مشغولاً بحصار حصن الإسماعيلية أنه رسول

(١) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٩ . حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ١٠٢ .

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ٦٩ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٦٨ - ٦٩ .

(٥) الكامل ج ١٢ ص ٧٠ .



أخيه يطلب إليه الرحيل من قهستان ، فأبى ، فأنفذ الرسول أمر أخيه ، فسل سيفه وقطع أطياب سرادق ( جبال ) شهاب الدين ، فرحل مع عسكره غاضباً وأبى المقام بغزنة ورحل إلى بلاد الهند<sup>(١)</sup> . وقد ذكر ابن الأثير<sup>(٢)</sup> في حوادث سنة ٥٩٥ هـ أن خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش استرد ما أخذه الغور من خراسان .

### وفاة غياث الدين محمد — صفاته

توفي غياث الدين الغوري سنة ٥٩٩ هـ . وقد اتسع ملكه . وكان كما وصفه ابن الأثير<sup>(٣)</sup> ، مظفراً منصوراً في حروبه ، لم تنهزم له راية قط . وكان جواداً حسن الاعتقاد كثير الصدقات ، وقد شيد الخانقاهات في الطرق ، وأسقط المكوس ، ولم يتعرض إلى مال أحد من الناس . ومن مات ببلده أودع ماله ليوزعه القضاة على مستحقه طبقاً لقواعد الشريعة الإسلامية . وإذا وصل إلى بلد من البلاد عم إحسانه الفقهاء وأهل الورع والدين وخلع عليهم وفرض لهم العطايا في كل سنة من خزانته ، كما وزع الأموال على الفقراء . وكان يشمل بعطفه ورعايته كل من وصل إلى حضرته من العلويين والشعراء وغيرهم . وقد أولع بالأدب والبلاغة وعرف بحسن الخط حتى كان ينسخ المصاحف بخطه ويقفها على المدارس التي بناها . وعلى الرغم من ميل غياث الدين محمد إلى عقائد المذهب الشافعي وبنائه المساجد لأصحاب هذا المذهب ، لم يؤثر أصحاب مذهب علي مذهب ، بل كان يسوى بينهم وبين غيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى ، كما أثر عنه أنه تحول إلى هذا المذهب على يد محمد بن محمود المروروزي ، وكان من فقهاء الشافعية . وكان غياث الدين يقول :  
التعصب في المذاهب من الملك قبيح<sup>(٤)</sup> .

### شهاب الدين محمد — عروبه مع الخوارزميين والخطا

ولما مات غياث الدين ( ٥٩٩ — ٦٠٢ هـ ) حال أخوه شهاب الدين دون تولية ابنه محمود ، وجلس على العرش ، وسكنته ولي محموداً بست . وكان لغياث الدين مغنية كلف بها

(١) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٦٩ — ٧٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٧٢ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٧٥ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٧٥ — ٧٦ .

فتزوجها . فلما مات لم ينس شهاب الدين مالحق به من إساءة أخيه حين حاصر إحدى قرى  
قهبستان وطهر الإسماعيلية منها ، فقبض على زوجة أخيه وضربها هي وابنها ضرباً مبرحاً  
واستولى على ما كان لها ولاهلها من مال وممتلكات وسيرهم إلى بلاد الهند في أقبح صورة  
ونبش قبور موتاهم .

وفي شهر رجب سنة ٦٠٠ هـ استرد خوارزم شاه محمد مدينة هراة من ابن أخت  
شهاب الدين الغورى . وفي هذه السنة ترك شهاب الدين الغورى غزنة حاضرة ملكه قاصداً  
لاهور لغزو بلاد الهند . ولما علم خوارزم شاه محمد بذلك حاصر مدينة هراة ؛ فلم ير  
شهاب الدين بدأ من العودة إلى خراسان . ثم أغز السير حتى بلغ ظاهر مدينة مرو حاضرة  
خراسان ، ودار القتال بين جند شهاب الدين وجند خوارزم شاه الذى استنجد بالخطا من  
أتراك بلاد ماوراء النهر ، فساروا إلى بلاد الغور . ولما علم شهاب الدين الغورى بذلك  
عدل عن الاستمرار فى القتال مع خوارزم شاه محمد وعاد إلى بلاده والتقى بمقدمة جيش  
الخطا ( صفر سنة ٦٠١ هـ ) وأحل بهم الهزيمة . ثم دهمه جيش كشياف من الخطا أحل  
الهزيمة بشهاب الدين وأسرته وكثرت الأراجيف بقتله . ثم صالحه الخطا وأطلقوا سراحه  
بعد أن قتل أكثر جنده ونهب جميع خزائنه ، ثم سار شهاب الدين إلى غزنة ولحق به أحد  
بماليكه إلى الهند ودخل المولتان وقتل نائبه فيها ، واستولى على البلاد وأساء السيرة فى الرعية  
وظلمهم وأخذ أمراهم وأدعى السلطنة لنفسه . ولما نعى خبره إلى شهاب الدين سار إلى الهند  
وقبض عليه وقتله ( جمادى الآخرة سنة ٦٠١ هـ )<sup>(١)</sup> .

ولم ينس شهاب الدين هزيمته على أيدي الخطا الأتراك وعول على أخذ الثأر منهم  
وغزو بلادهم . وقد ذكر المؤرخون أنه سار على رأس جيش يتألف من عشرين ألف  
مقاتل قاصداً الخطا . ولما وصل إلى بلادهم فرق عسكره فى مفازة قليلة الماء ، وكان الخطا  
قد نزلوا بطرفها ، وكلما خرجت طائفة من الغور فاجأهم الخطا وقتلواهم قتلاً وأسرأ ،  
ومن سلم منهم قفل هارباً إلى بلاده . وقد وصل شهاب الدين وقد أعياه التعب والارهاق  
هو وجنده دون أن يعلم بما حل بجنده الذين تعرضوا للهلاك ، فقاتل الغور الذين بلغ عددهم  
أضعاف عدد جنده وحصروه فى « أندخوه » وكادت الهزيمة تحمل بجيشه . وهنا فكر  
شهاب الدين فى خدعة حربية تسكك بالانجاح . فقد أمر طائفة من جنده بأن تسير ليلاً  
وتعود إليه فى الصباح ، وظل الخطا أن المدد قد أتى من بلاد الغور وأخذ الحرف يدب

(١) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٧٧ — ٧٨ .

إلى قلوبهم . وكان صاحب سمرقند يدين بالطاعة للخطا ، وقد خشى أن يظفروا بالمسلمين . لذلك نراه يثير مخاوف الخطا من تدفق الامداد على شهاب الدين ، وأشار عليهم بأن ينجحوا للسلم ويطلبوا الصلح ، فوافقوا على رأيه ، وأرسل صاحب سمرقند إلى شهاب الدين مرأ يشير عليه بأن يتظاهر بالامتناع عن إجابة الغور إلى الصلح أولا ثم يجيبهم إليه قبل قوات الفرصة . فلما أتت رسل الخطا تظاهر شهاب الدين بقوته وأبى قبول الصلح ، ثم عاد فأجابهم إليه ، وأبرم الصلح بين الفريقين على ألا يغير أحدهما على الآخر . وبذلك عاد شهاب الدين محمد بن سام الغورى إلى بلاده وتخلص من هزيمة محققة على أيدي الخطا (١) .

ولما ذاع نبأ مقتل شهاب الدين محمد على أيدي الخطا وأن أصحابه لم يقفوا له على أثر ، تنافس أمراء دولته على الحكم وقامت الثورات في أطراف بلاده . ومن هؤلاء الثائرين « دانيال » صاحب جبل الجودى (٢) ، وكان قد أسلم . فلما بلغه مقتل شهاب الدين ارتد عن الإسلام . كما ثار « بنو كوكر » وأدخلوا صاحب جبل الجودى في طاعتهم وقطعوا الطريق بين لاهور وغزنة .

وقد أرسل شهاب الدين مملوكه قطب الدين أيبك قائده في الهند والمولتان يأمره بأن يدعو بنى كوكر إلى الطاعة ويهددهم بالحرب إذا لم ينجحوا للسلم . فلم يثق زعيمهم بقوله وهدد بتخريب البلاد وكثرت جموعه وقويت شوكته وجبى الاموال باسمه . ولما نبى ذلك إلى شهاب الدين أمر مملوكه قطب الدين بالعودة إلى بلاده وقتال بنى كوكر ، فعاد إلى دهلي واستعد للحرب . وأقام شهاب الدين في « فرشابور » مهد الغور إلى منتصف شهر شعبان سنة ٦٠١ هـ ، ثم عاد إلى غزنة واستعد لحرب الخطا . وفي شهر ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ سار على رأس جيش كبير ، وانقطعت أخباره من غزنة وفرشابور وانتشرت

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ٧٨ .

(٢) لعل هذا الجبل هو المذكور في القرآن في سورة هود ( ١١ : ٤٤ ) التي تنص على أن سفينة نوح عليه السلام قد رست على جبل الجودى حين أمر الله سبحانه وتعالى الماء بأن يكف قائلا ( وقيل يا أرض ابلعى ماءك وباسماء أقلمى وغيش الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين ) وكان دانيال وأصحابه يظنون البلاد الجبلية المنبعا بين لاهور والمولتان .

الأراجيف بهزيمته ، ولكنه كان قد أغز السمر إلى بني كوكر ، فدمهم ونشب بينهما القتال وأقبل قائده قطب الدين في عسكره ونادوا بشعار الإسلام وأحلوا الهزيمة ببني كوكر وطاردوهم في كل مكان حتى بلغوا أكمة احتفى بها الكوكرية ، فأضرم جند شهاب الدين النار فيها وغنم المسلمون « ما لم يسمع بمثله حتى إن الممالك كانوا يباعون كل خمسة بدينار . وهرب زعيم الكوكرية بعد أن قتل إخوته وأهله » . أما ابن دانيال فقد استجار بقطب الدين أيك ، فأجاره وشفع فيه إلى شهاب الدين فأجابه إلى طلبه واستولى على قلعته وعاد إلى لاهور ، وأخذ يستعد لحرب الخطا ، ثم عاد إلى غزنة ، وأرسل إلى بهاء الدين سام صاحب « باميان » يأمره بالاستعداد للسير إلى سمرقند (١) .

كذلك خرج على شهاب الدين النورى « النبراهية » ، وكانوا يسكنون البلاد الجبلية المحيطة بولاية « فرشابور » . وكانوا على الوثنية ، وإذا ولد لهم بنت وقف أبوها على باب داره ونادى : من يتزوج هذه ؟ من يقبلها ؟ فإن أجابه أحد تركها وإلا قتلها . وكان للراءة عدة أزواج . وطالما أغاروا على حدود بلاد النور وأوقعوا بالمسلمين . وإذا وقع في أيديهم أسير من المسلمين أمعنوا في تعذيبه .

وقد قيل إنهم أسروا رجلا من فرشابور فأمعنوا في تعذيبه أياما . وقد سأل زعيم النبراهية هذا الأسير عن حالة البلاد الإسلامية وقال له : لو حضرت أنا عند شهاب الدين ماذا كان يعطينى ؟ فقال له : « يعطيك الاموال والإقطاع ويرد إليك حكم هذه البلاد التي لكم » . فأعاد هذا الزعيم الأسير إلى شهاب الدين بعرض عليه قبوله الإسلام ، فعاد ومعه رسول « بالخلع والمنشور بالإقطاع » . وسار هذا الزعيم مع جماعة من أهله إلى شهاب الدين فأسلوا على يديه ، ثم عادوا إلى بلادهم واستراح الناس من شرهم (٢) .

### وفاة شهاب الدين محمد — صفاته :

امتد ملك شهاب الدين محمد النورى على غزنة وبعض بلاد خراسان ، وقتل وهو يصلى

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٣ ص ٨٦ - ٨٧ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٨٧ - ٨٨ .

العشاء على أيدي بعض السكوكرية من الهنود أخذاً بالثأر لما ألحقه بأهلهم من قتل وتشريد  
وكان شهاب الدين قد عاد من لاهور يحمل مالا يخصص من الأموال التي اشتملت على  
ألف ومائتي حمل . وكان شهاب الدين قد أمر جنده في الهند باللاحاق به كما أمر جنده  
بخراسان بالاستعداد والتأهب حتى يصل إليهم ليغزو بلاد الخطا الجبلية .

ولما قتل شهاب الدين اجتمع الأمراء عند وزيره مؤيد الدين وطلبوا منه الاحتفاظ  
بالأموال والملك إلى أن يتفقوا على من يخلفه في الحكم من البيت الغوري ، ثم أخفوا  
جراحه وأظهروه بظهر الحى ووضعوه على المحفة . وسار الوزير والأمراء والمالِك أمامه  
حتى وصلوا إلى غزنة حيث دفن شهاب الدين في ٢٨ من شعبان سنة ٦٠٢ هـ .

وكان شهاب الدين كثير الغزو في بلاد الهند . وكان حسن السيرة ، عادلاً يحكم بين  
الناس بما يوجبه الشرع ، فيحضر القاضى إلى قصره في أيام السبت والاحد والاثنين  
والثلاثاء فإذا أصدر القاضى أحكامه أخذ كبار رجال الدولة في تنفيذها لا فرق بين صغير  
وكبير وشريف ووضيع . وكان شهاب الدين يدين بعقائد المذهب الشافعى ( وقيل بعقائد  
المذهب الحنفى ) ، ولكنه كان لا يفرق بين مذهب ومذهب ، وكان العلماء يجتمعون بحضرته  
فيتناولون المسائل الفقهية وغيرها . ومن هؤلاء الفقهاء نجر الدين الرازى الذى كان يقوم  
بالوعظ في قصر الأمير ، وقد أثر عنه أنه وعظ يوماً تخم وعظه بقوله مخاطباً شهاب الدين  
يا سلطان الا سلطان يبق . . . وإن مردنا إلى الله ، فبكى شهاب الدين وأكثرت من البكاء .

وكان شهاب الدين رفيق القلب لين الطبع ، لقيه صبي علوى وهو راكب فدعاه له  
وقال إنه ما أكل شيئاً منذ خمسة أيام ، فعاد شهاب الدين لساعته ومعه الصبي وأمر فقدم له  
أشهى الطعام أمامه ، ثم بعث في طلب أبيه وسله إليه . ووزع كثيراً من المال على  
العلويين (١) .

### غيث الدين محمود :

لم ينجب شهاب الدين محمد ولداً ذكر أخلفه في الحكم ، ومال وزيره مؤيد الملك ومعه  
الأتراك إلى تولية غياث الدين محمود ( ابن أخيه غياث الدين محمد ) صاحب بست  
وأسفرين ، ومال العلويين إلى تولية بهاء الدين سام صاحب باميان وابن أخت

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٨٩ - ٩٠ .

شهاب الدين<sup>(١)</sup> ، وسار بعض أمراء الغور إلى بهاء الدين سام ونقلوا إليه نبأ مقتل خاله وحثوه على المسير إلى غزنة ليجلس على عرش السلطنة . فكتب بهاء الدين إلى أمراء الغور بغزنة يعلمهم بمسيره إليهم ، كما كتب إلى أحد الأمراء وهو علاء الدين محمد ( بن شجاع الدين أبي علي ) صاحب « فيروزكوه » يستدعيه إليه ويعدده الجليل ، وإلى غياث الدين محمود ابن غياث الدين محمد ، وإلى ابن خزميل وإلى هراة بأمرهما بإقامة الخطبة له ، ولم يكن يظن أن أحدا منهما يخالفه .

سار بهاء الدين سام إلى غزنة في عسكره ومعه ابنائه علاء الدين محمود وجلال الدين ، ولم يكذب يسير مرحلتين حتى شعر بصداع أخذ يتزايد وأيقن بالموت ، فعهد إلى ابنه علاء الدين بالملك من بعده وأمره بأن يسير مع أخيه إلى غزنة وأن يرفقا بالرعية ويبدلا الأموال لكسب محبة الناس ، وأن يصلحوا غياث الدين محمود على أن تكون له خراسان وبلاد الغور ، وأن يحتفظا بغزنة والهند . ثم توفي بهاء الدين سام وبلغ ابنائه علاء الدين وجلال الدين غزنة ونزلا بدار السلطنة في مستهل شهر رمضان سنة ٦٠٢ هـ ، وتلقاهما أمراء الغور وأهل البلاد ، كما تلقاهما الأتراك على كره منهم .

أما غياث الدين محمود فقد كان مشغولا بحرب علاء الدين محمد بن شجاع الدين أبي علي صاحب « فيروزكوه » . وكان غياث الدين يشعر بقوة منافسه بهاء الدين . لهذا رأى التريث حتى تنكشف الأمور ، فلما انتشر خبر وفاة بهاء الدين بايع الأمراء غياث الدين وجلس على العرش ، وتلقب بألقاب أبيه غياث الدين محمد ، وأقيمت الخطبة له بسلطنة الغور ( ١٠ رمضان سنة ٦٠٢ ) . وقد أمر غياث الدين محمود الأمير تاج الدين الدز ( بضم الدال مع التشديد مع تشديد الزاي ) بأن يخرج ابني بهاء الدين سام منها ، وقد لبي الدز طلب غياث الدين ، وكان في الواقع يريد أن يتخذ من ذلك وسيلة

---

(١) ذكر ابن الأثير ( السكامل ج ١٢ ص ٩٠ ) أن غياث الدين محمد أخا شهاب الدين محمد لما أدخل في حوزته باميان أقطعها ابن عمه شمس الدين محمد بن مسعود . وزوجه أخته ، فولدت له ولداً سماه سام . فلما مات شمس الدين خلفه ابنه الأكبر عباس ، وكان من أم تركية . فغضب غياث الدين محمد وأخوه ونصبا ابن أختها « سام » عليها ولقباه بهاء الدين . وقد عظم شأن سام وأخذ يجمع الأموال . وتطلع إلى الجلوس على عرش الغور . وذكر ابن الأثير ( المصدر نفسه ج ١٢ ص ٩٣ ) أن غياث الدين محمود ( بن غياث الدين محمد ) وبهاء الدين سام كانا قد تعاهدا في عهد شهاب الدين محمد أن تكون خراسان لغياث الدين وغزنة والهند لبهاء الدين .

لامتلاك غزنة ، وأرغم علاء الدين محمود على الخروج من غزنة ، ونهب الأتراك ما كان معه وألقوه عن فرسه وأخذوا ثيابه ولم يتركوا له غير سراويله ، ولما علم الدز بذلك اعتذر إلى علاء الدين وبعث إليه بدواب وثياب ومال ، فأخذ ما لبسه منها وترك الباقي . فلما وصل إلى « باميان » ركب حماراً ولبس السواد وقال : أريد أن يرى الناس ما صنع بي أهل غزنة حتى إذا ما عدت إليها وخربتها ونهبتها فإنه لا يلومني أحد . ثم دخل دار الإمارة وأخذ يجمع الجند . أما الدز فقد عمل على استخلاص الملك لنفسه ، فعرض الوزارة على مؤيد الملك وزير شهاب الدين محمد ، فأجابه على كره منه ، كما طلب الدز من غياث الدين محمود أن يخاطبه بالملك ويعتقه من الرق ويزوج ابنته من ابنته ( أى من ابنة الدز ) فلم يجبه غياث الدين إلى طلبه لوجود الفارق الاجتماعي في الكفاية الزوجية (١) .

وأما علاء الدين محمد بن شجاع الدين أبي علي ، فقد ولاء السلطان شهاب الدين بلاد الغور وما يليها . ولما بلغه قتل شهاب الدين سار إلى « فيروزكوه » خوفاً من أن يسبقه إليها غياث الدين محمود فيملكها ويستولى على خزائنها ، كما حاول « الدز » استئالة كبار الأمراء إليه ودعاهم إلى مساعدته على حرب خوارزم شاه علاء الدين محمد وبهاء الدين صاحب باميان ، ولم يهتم بشأن غياث الدين محمود استخفافاً به واستهتاراً لشأنه ، فبايعوه وبايعوا ابنه من بعده . ولما بلغ غياث الدين محمود خبر موت بهاء الدين سام كما تقدم أمر بإقامة الخطبة له بالسلطنة (٢) .

وقد استتب الأمر لغياث الدين محمود فدخل في طاعته « ابن خرميل » والى هراة ، وكان قد عزم على الدخول في طاعة خوارزم شاه . ثم عاد والى هراة فخلع طاعة غياث الدين محمود وانضم إلى خوارزم شاه حين علم بأن علاء الدين محمود وأخاه جلال الدين قد سارا نحو غزنة لاستردادها من يد الدز ( ٦٠٣ هـ ) . وانتهر خوارزم شاه هذه الفرصة فاسترد بلخ وكانت تابعة لغياث الدين . أما الدز الذي خان عهد مولاه غياث الدين واستولى على غزنة وطرد علاء الدين وأخاه جلال الدين صاحب باميان منها ، فقد دهمته جيوش علاء الدين الغوري ، فخرج لقتالهما فطاردها إلى كرمان ، فاستولى عليها ، ثم عاد إلى غزنة واستردها من جديد ، واختلف مع أخيه جلال الدين في اقتسام

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٩٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٩٣ - ٩٤ .

الغنائم ، وظهر بخلهما فكرهما أهل غزنة وما لا إلى حكم غياث الدين محمود لسكرمه وإحسانه . ثم افترق الإخوان ، فأقام علاء الدين بغزنة ، وذهب جلال الدين إلى باميان ، بما أطمع « الدز » في السير إلى غزته ولإعادتها إلى حوزته من جديد ، ولما تحقق أمره في الاستيلاء على غزنة طمع في استرداد كرمان التي استولى عليها وأحسن إلى أهلها . ولم تقف المتاعب التي أثارها الدز في وجه الغور عند هذا الحد ، فقد قتل علاء الدين محمود صاحب باميان ، ثم يم شطر باميان فأمر أخاه جلال الدين وعاد به إلى غزته ، وفي سنة ٦٠٣ هـ عاد عباس ( عم علاء الدين وجلال الدين ) إلى ملك باميان (١) .

ولنعد إلى الكلام على علاقة غياث الدين محمود بالدز ، فقد طلب من الدز أن يقيم الخطبة له ، ولكنه استمر في تمرده حيث أمر الخطيب بأن يخطب لنفسه بعد الترحم على شهاب الدين وتلقبه بتاج الدين الدز ، الأمر الذي أثار حنق أهل غزته ، إذ كانوا يبايعونونه ظناً منهم أنه يحتفظ بولائه لغياث الدين محمود ويعترف بسلطنته . فلما أرسل غياث الدين محمود يعاتب الدز على تمرده أصر هذا على طلب عتقه ، فلم يجد غياث الدين بداً من إجابته إلى طلبه وبعث إليه بالهدايا والخلع ، وبذلك صفا الجو بين الدز وغياث الدين محمود ولكن هذا الصفاء لم يدم طويلاً ، إذ طلب « ابن خرميل » صاحب هراة الدخول في طاعة غياث الدين وأبدى استعداداً لإخراجه « الدز » من غزته بالقوة ، فإذا تم له ذلك قسم مال غزته ثلاثة أقسام : قسم للسلطان غياث الدين محمود ، وقسم لخوازم شاه ، وقسم للعسكر ، وكان خوارزم قد أرسل إلى غياث الدين يعرب عن رغبته في مصاهرته . وقد وافق غياث الدين على طلب خرميل ، ولما اتصل هذا النبأ بمسمع الدز عاد إلى تمرده وقطعه الخطبة لغياث الدين (٢) ، واستولى على بست وغيرها ، كما أمر صاحب سجستان بقطع الخطبة لخوازم شاه علاء الدين محمد ، وهدد ابن خرميل بالإغارة على بلاده ، وأطلق علاء الدين صاحب باميان من أمره وسير معه خمسة آلاف فارس لإعادته إلى ملكه وزوجه ابنته . ثم استولى قائد خوارزم شاه على مدينة هراة من ابن خرميل وقتله (٣) (٦٠٥ هـ) ، ثم أمد خوارزم شاه علاء الدين محمد خاله « أمير ملك » بالمسير إلى فيروزكوه قسبة بلاد الغور ، فاستولى عليها وقتل غياث الدين الغوري (٦٠٥ هـ) .

(١) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٠٢

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٠٣ — ١٠٤ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١١٠ — ١١٢ .



ولم يلبث علاء الدين محمد أن استولى على كافة أرجاء خراسان وملك باميان ، وأصبح بحيث يستطيع الاستيلاء على غزنة وقتل من بها من الجند الغوريين ولا سيما الأتراك . وهرب الدز ( وكان غائباً عن باميان ) إلى لاهور ، فلاحقت به جيوش أتباع شهاب الدين محمود وأحلت به الهزيمة وقتلته . وبذلك زالت الدولة الغورية على أيدي الخوارزميين بعد أن أنهكت قواها فيما شنته من حروب على الخطا والخوارزميين وعلى بلاد ما وراء النهر والهند وخراسان وغيرها .

### ثانياً — الدولة الفاطمية

#### ١ — المستنصر والمستعلي .

ذكرنا في الجزء الثالث من هذا الكتاب أن الخليفة الظاهر الفاطمي ( ٤١١ — ٤٢٧ هـ ) لم تدم خلافته طويلاً وأن ابنه المستنصر بويع في شهر شعبان سنة ٤٢٧ هـ ، وهو في السابعة من عمره ، وظل في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر . غير أن مصر لم تتمتع في هذه المدة بالرخاء والطمأنينة سوى فترة قصيرة ، ثم حدثت بها أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية كان من أثرها أن تززع مركز الخلافة الفاطمية وتطرق إليها الضعف والوهن .

وفي الشطر الأول من عهد المستنصر امتد سلطان الفاطميين على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمالي أفريقيا . وكان اسمه يذاع في الخطبة على كافة منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسى غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً ، وفي صقلية واليمن والحجاز والموصل ، بل وفي بغداد نفسها حاضرة العباسيين نحواً من سنة . ولكن بعض هذه البلاد لم يلبث أن خرج عن سلطان الفاطميين ، كما رفض أهل شمالي إفريقيا عقائد المذهب الفاطمي نهائياً ( ٤٧٥ هـ ) وزال سلطانهم من بلاد المغرب الأقصى الذي استولى عليه الفاطميون واتزعوه من الإدارة سنة ٣٤٧ هـ ، وأبطلت الخطبة للفاطميين في اليمن على يد نواب صلاح الدين الأيوبي في هذه البلاد .

جدول الخلفاء الفاطميين

هجريّة	ميلاديّة		
٢٩٧	٩٠٩	المهدى أبو محمد عبيد الله	١
٣٢٢	٩٣٤	القائم أبو القاسم محمد	٢
٣٣٤	٩٤٥	المنصور أبو طاهر إسماعيل	٣
٣٤١	٩٥٢	المعز أبو تميم معد	٤
٣٦٥	٩٧٥	العزیز أبو منصور نزار	٥
٣٨٦	٩٩٦	الحاكم أبو علي المنصور	٦
٤١١	١٠٢٠	الظاهر أبو الحسن علي	٧
٤٢٧	١٠٣٥	المستنصر أبو تميم معد	٨
٤٨٧	١٠٩٤	المستعلي أبو القائم أحمد	٩
٤٩٥	١١٠١	الأمير أبو علي المنصور	١٠
٥٢٤	١١٣٠	الحافظ أبو الميمون عبد المجيد	١١
٥٤٤	١١٤٩	الظافر أبو المنصور إسماعيل	١٢
٥٤٩	١١٥٤	الفايز أبو القاسم عيسى	١٣
٥٥٥	١١٦٠	العاقد أبو محمد عبد الله	١٤
٥٦٧	١١٧١		

واستولى روجر النرمندي على صقلية التي كانت تابعة للفاطميين منذ أواخر القرن الثالث الهجري وخلع أمير مكة والمدينة طاهتهم سنة ٤٦٣ هـ .

وعلى الرغم من النزاع الذي قام في أوائل عهد المستنصر بين التستري والفلاحى ، وتدخل أم الخليفة في إدارة شئون الدولة ، تمتعت مصر بشيء من الطمأنينة والرخاء . فقد آمدنا ناصر خسرو عند زيارته لمصر سنة ٤٣٩ هـ بوصف ضاف لثروة البلاط الفاطمى وأهله ، وما كانت تتمتع به القاهرة في ذلك الوقت من يسر ورخاء .<sup>(١)</sup>

Nasiri Khusraw : Safar Namah Ced. Charles Schefer, Paris, (١)  
1881) p. 127 et seq.

تسلسل نسب الخلفاء الفاطميين



غير أن هذا الرخاء الذى كانت تتمتع به مصر فى ذلك الحين لم يدم طويلاً ، فقد حلت بالقاهرة الأيام السيئة ، وطاودتها المصائب التى لم تشعر بها قبل قرن من تأسيسها . فقد عم الوباء والقحط مصر فى سنة ٤٤٦ هـ ، وانقطع ماء النيل ، فأهملت الزراعة ، وانتشرت المجاعة ، وعم الوباء الذى يعتبر أطول وباء عرفته مصر فى العصور الوسطى ، وامتد ثمانى سنين ( ٤٤٦ — ٤٥٤ هـ ) ، ونكبت به جميع الأمم الإسلامية من مصر إلى سمرقند ، ودونت عنه قصص مروعة ، حتى قيل لأنه كان يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس . وهدمت الأقوات حتى أكل الناس السكلاب والقطط ، ثم أكل بعضهم بمضاً . وليس أدل على الفوضى التى سادت مصر فى ذلك العهد من تقلد أربعين وزيراً فى تسع سنوات بعد قتل الوزير اليازورى فى سنة ٤٥٠ هـ . ثم عاد القحط والغلاء وما أعقبه من الوباء والموت فى سنة ٤٥٩ هـ ، وظلت الحال كذلك حتى سنة ٤٦٤ هـ . واقترنت هذه الشدة التى اصطلاح المؤرخون على تسميتها « الشدة العظمى » بقيام الفتن والحروب الأهلية ، حتى تدارك مصر بدر الجمالى والى عكاه ، الذى استدعاه الخليفة المستنصر فى سنة ٤٦٦ هـ . فأعاد النظام ووجه همه إلى إصلاح حال البلاد وقضى على المفسدين (١) .

ولما مات المستنصر سنة ٤٨٧ هـ ، بويع ابنه المستعلى دون أخيه الأكبر نزار الذى ولاه أبوه عهده ، وشرع فى أخذ البيعة له أثناء مرضه ، غير أن الوزير الأفضل بن بدر الجمالى أخذ يماطل الخليفة حتى توفى . ويرجع ذلك على ما ترويه بعض المراجع العربية إلى أن الأفضل دخل مرة أحد أبواب قصر المستنصر راكباً بغلة ، فلما رآه نزار ، قال له : إنزل يا أرمنى يا نجس . فخذ عليه الأفضل ، وانتز فرصة وفاة المستنصر وحال بينه وبين الخلافة ؛ فاجتمع بالامراء وكبار رجال الدولة ، وأثار مخاوفهم من نزار ، وأشار عليهم بتولية أخيه الصغير أبى القاسم أحمد ، ثم بايعه ولقبه المستعلى بالله ، وأخذ قاضى القضاة البيعة له من كبار رجال الدولة وأعيانها ، ودعا الأفضل لإسماعيل وعبد الله ابنى المستنصر لمبايعة أبى القاسم ، فبايعاه .

ولما رأى نزار أن الخلافة أفلتت من يده ، سار إلى الإسكندرية مع أخيه عبد الله ، وابن مصال السكى ، فتقبله واليها ناصر الدين أفتسكين التركى قبولاً حسناً ، وبايعه هو وأهل الإسكندرية بالخلافة ولقبوه « المصطفى لدين الله » . فلما علم الوزير الأفضل بذلك ، خرج لقتال نزار على رأس جيش كثيف ، فدارت الدائرة على الأفضل أولاً وعاد

(١) ابن ميسر . تاريخ مصر ص ١٣ — ٢٣ ، ٣٤ .

إلى القاهرة ، وأخذ بعد العدة لقتال نزار ، واستمال بعض أتباع من العربان ، ثم خرج إليه على رأس جيش كبير حاصره حصاراً شديداً . ولما رأى ابن مصال أن الدائرة ستدور عليهم ، جمع ماله وفر إلى بلاد المغرب ، ثم اضطر نزار وأفتكين إلى طلب الأمان ، فأمنهما الأفضل ، ثم انتقم من نزار بأن وضعه بين حائطين وبني عليه ، فات ، كما قتل أفتكين نائب الإسكندرية .

وفي عهد المستعلي<sup>(١)</sup> بدأ الصليبيون يغيرون على سواحل بلاد الشام ، فاستولوا على نيقيا ، ودخلت أنطاكية في حوزتهم ، ووصلوا إلى بيت المقدس . فلما علم الوزير الأفضل بذلك خرج إليهم في عشرين ألف مصرى واشتبك معهم في معركة قتل فيها كثير من أتباعه ، واضطر إلى الانجاء إلى عسقلان ، ثم عاد إلى مصر في سنة ٤٩٣ هـ ، وأعد جيشاً كبيراً تحت قيادة سعد الدولة النواصي ، الذي التقى بالفرنجية في عسقلان ، ودارت بين الفريقين معركة حامية قتل فيها سعد الدولة ، وواصل الفرنجية فتوحاتهم حتى استولوا على المدن الساحلية ببلاد الشام وفلسطين<sup>(٢)</sup> .

## ٢ - الأمر والحفاظ :

وبعد وفاة المستعلي ١٠ صفر سنة ٤٩٥ هـ ، ولى ابنه الأمر الخلافة ، وقبض الأفضل على زمام الأمور في البلاد .

وقد عنى الفاطميون عناية عظيمة بحفظ رسومهم الدينية حتى في أيام انحلال دولتهم حين كان لوزرائهم السلطة المطلقة . وإن مقتل الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي لاظهر مثالاً لتلك العناية ؛ لأن الأفضل يميل ميل السفين ، فألقى الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد فاطمة وعلى رضى الله عنهما ، ومولد الخليفة القائم بالأمور . وقد كان ذلك كافياً لتقويض دعائم حكم الفاطميين الذين كانوا يعملون دائماً على تأييد دعوائهم التي تقوم على أنهم من سلالة على كرم الله وجهه .

وقد شرح لنا ابن القلانسي<sup>(٣)</sup> (ت ٥٥٥ هـ) الأحوال التي أحاطت بمقتل الأفضل شرحاً وافياً . وابن القلانسي هذا توفي بعد الأفضل بنحو أربعين سنة ، وقد اعتمد فيما ذكره

(١) وكان ابن أخت الأفضل بن بدر الجمالي .

(٢) أبو المحاسن ج ٥ ص ١٤٦ — ١٤٨ .

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

على الاعتقاد بأن مقتل الوزير كان بتدبير الخليفة الفاطمي وأنصاره لبواعث سياسية وحرزية . وقد نسب ابن ميسر مقتل الأفضل إلى عداوة جماعة الباطنية<sup>(١)</sup> .

أما عن أخلاق الوزير الأفضل ، فيقول ابن ميسر<sup>(٢)</sup> : « كان من العدل وحسن السيرة في الرعية والتجار على صفة جميلة ، يجاوز ما يسمع به قديماً وشوهد أخيراً . ولم يعرف أحد صودر في زمانه . ولما حضر الإسكندرية ، كان بها يهودى يبائع في سبب الأفضل وشتمه ولعنه . فلما دخل الأفضل قبض عليه وأراد قتله . . . فقال : إن معى خمسة آلاف دينار ، خذها منى واعتقنى واعف عنى . فقال لليهودى : الله لولا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك ، وعفا عنه ولم يأخذ منه شيئاً . ومحاسن الأفضل كثيرة : وهو أول من أفرد مال المواريث ومنع أخذ شئ من التركات على العادة القديمة ، وأمر بحفظها لأربابها ، فإذا حضر من يطلبها وطالعه القاضى بثبوت استحقاقها أطلقها في الحال » .

وقد أعاد الخليفة الأمر دار العلم بعد أن أغلقها الأفضل ، عند ما نعى إليه أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالديمية التى يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة : وهى الشافعى والحنفى والمالكي ، يترددان على هذا المسكان ، وأن كثيرين من الناس أصغروا إليهما واعتنقوا هذا المذهب .

ولى المحافظ الخلافة بعد مقتل ابن عمه الأمر على يد فريق من الباطنية . وقد قويت شوكة الوزير أبى على بن الأفضل ، وتلقب الأكل ، فقبض على الخليفة وحبسه واستولى على ما فى القصر من الذخائر والأموال وادعى أن ذلك كله كان لأبيه . وكان هذا الوزير إمامياً ، فدعا للإمام الثانى عشر ودعا لنفسه على المنابر بهذه الألقاب : ناصر لإمام الحق هادى العصاة إلى اتباع الحق مولى الأمم ومالك فضيلتى السيف والقلم ، كما أزال عبارة « حى على خير العمل ، ومحمد وهلى خير البشر » من الأذان ، وأسقط ذكر إسماعيل ابن جعفر الصادق من الخطبة<sup>(٣)</sup> .

(١) وفى الحق أن الخلف بين روايتى هذين المؤرخين يسير . فإن الفاطميين أنفسهم كانوا باطنيين ، وكانوا فى أعمالهم يصدرتون عن العقائد الباطنية التى كان قوامها إدعائهم علم الباطن وأن لهم قوى غير قوى البشر .

(٢) تاريخ مصر ص ٥٨ .

(٣) ابن ميسر تاريخ مصر ص ٧٥ .

وكان من أثر السياسة التي اتبناها أبو علي بن الأفضل أن كرهه الشيعة المصريون وصمموا على قتله ، فسكن له جماعة منهم وقتلوه وأخرجوا الحافظ من سجنه .

ثم قدم بهرام الأرمني وإلى الغربية إلى القاهرة ( جمادى الثانية سنة ٥٢٩ هـ ) وحاصرها ، فلم ير الخليفة الحافظ بدأ من توليته الوزارة على الرغم من أنه نصراني ، وعلى الرغم من أنه كان يتحنن على الوزير بحكم منصبه أن يصعد المنبر مع الخليفة في الأعياد ليزرر عليه المزة ( الستارة ) التي تحجبه عن الناس ، ولأن القضاة كانوا ينوبون عن الوزراء عند أيام بدر الجمالي . وكانت هذه النيابة تذكر في الوثائق الرسمية وتدون في وثائق الزواج . وقد تقلد بهرام الوزارة على الرغم مما أظهره الناس من سخط عليه ، وسرعان ما تزايد نفوذه وأحضر لإخوته وأهله من تل باشو وأرمينية ، وسمح لبني جلدته من الأرمن بالإقامة في مصر ، حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفاً .

وقد صادر هؤلاء الأرمن أموال المسلمين وبنوا الكنائس والاديرة لدرجة أقفلت يال المسلمين ، فرفعوا شكايانهم إلى الخليفة ، وبعث الأمراء إلى رضوان بن الوحشى وإلى الغربية يطلبون منه المسير إليهم ؛ فلبى رضوان طلبهم ، وجمع ثلاثين ألف رجل سار بهم إلى القاهرة ، وانضم تحت لوائه عسكر المسلمين في جيش بهرام ، الذي اضطر إلى الرحيل والذهاب إلى أخيه الباسك وإلى قوص .

وهكذا خلا الجو لرضوان فتقلد الوزارة ( جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ ) وتلقب بالأفضل ، واستولى على ممتلكات أعوان بهرام وقتل كثيراً منهم ، على أن ذلك لم يرض الخليفة الحافظ بل أغضبه ، فأحضر بهرام وأسكنه في قصره واضطر رضوان إلى الخروج إلى صرخد<sup>(١)</sup> ، حيث جهز جيشاً كبيراً عاد به إلى القاهرة وحارب جند الخليفة بقرب باب الفتوح . غير أنه أرغم على المسير إلى الصعيد حيث طارده الأمير أبو الفضل ابن مصال وانتهى الأمر بحبسه في القصر . ولم يذته النزاع إلا بعد وفاة بهرام سنة ٥٣٥ هـ . ولما تولى أبو علي الأفضل ( الملقب بالأاكل ) وزارة الحافظ ، عزله وشل يده عن التصرف في أمور الدولة ( ٥٢٤ هـ ) ومنع الناس من زيارته إلا بإذن منه ؛ ثم استولى على ما في القصر ، ومنع ذكر اسم الخليفة من الخطبة<sup>(٢)</sup> ودخلت مصر في طور السقوط .

(١) بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق .

(٢) ابن ميسر ص ٧٥ .

٣ — سقوط الدولة الفاطمية :

لقد أدى انتشار حكومة الاشراف ( الحكومة البيروقراطية ) إلى تدمير مؤامرات سرية وأحزاب سياسية ، ومهد السبيل لسقوط الدولة الفاطمية التي مزقتها الانقسام فوقعت في أيدي المغيرين عليها .

وكان النزاع المتصل بين الوزراء المتنافسين والحزبية في الجيش سبباً في وقوع القلاقل في أيام الوزير بهرام الأرمي المسيحي (١) .

وقد خلف بهرام في الوزارة رضوان بن الوحشى ، وكان شاعراً فذا وجندياً مقداماً ، تلقب لأول مرة في العهد الفاطمي بلقب « ملك » ، وصار ذلك من ألقاب الوزراء الفاطميين الذين أتوا بعده . غير أن رضوان لم يلبث أن عزل من الوزارة ، ففر إلى الشام . وهناك طلب إلى زنسكي أنابك الموصل مساعدته . على أن أسامة بن منقذ الذى أوفده الخليفة الحافظ إليه استرضاه بالمال وأمنه على حياته . ولكن الخليفة لم يف بهده ، فقد حبسه عشر سنوات تمكن في آخرها من الفرار ، ثم جمع أنصاراً واستقر في الجامع الأقر أمام القصر ، غير أن جنود الخليفة السودانين هزموا أنصاره وشتوا شملهم وقتلوه (٢) .

وبعد يومين من مقتل رضوان توفى الخليفة الحافظ ، فنشب النزاع بين الجند السودانين والجنود الأتراك . وولى ابنه الظافر — وسنه ست عشرة سنة — الخلافة وعادت المنازعات بين الوزراء المتنافسين سيرتها الأولى .

وقد ابتدأ هذا الخليفة الشاب حكمه بطرد الوزير ابن السلار ، وكان يلقب بالملك العادل . وقلد الوزارة نجم الدين بن مصال ، وكان مكروهاً من الأهلين . وسرعان ما جمع ابن السلار فرقة من أعوانه وسار بهم إلى الجزيرة ( ١٤ رمضان سنة ٥٤٤ هـ / ١١٥٠ م ) . وفي اليوم التالى حل محل منافسه في الوزارة — وكان ذلك أمراً مألوفاً في ذلك الحين — وقد فر ابن مصال حين رأى تقدم ابن السلار ، ولم يكن قد مضى عليه في الوزارة أكثر من خمسين يوماً (٣) .

(١) أبو صالح س ٨٤ . أسامة بن منقذ س ٢٢ و ٢٣ .

(٢) المصدر نفسه س ٢٤ .

(٣) ذكر ذلك أسامة بن منقذ ( س ٦ ) . أما الذهبي ( مكتبة بودليان بأكسفورد ) ، مخطوطات

Laud. القسم الشرقى رقم ٣٠٤ ، ورقة ( ١٠٥ ) وأبو الفدا ( ج ٣ س ٢٣ ) فقد

ذكر أن أُنلم يمكث في الوزارة لإلا أربعين يوماً .



وقد التجأ ابن مصال بعد هزيمته إلى كورة الحوف حيث تمكن بما جمعه من أموال الخليفة من حشد قوة كبيرة ، ثم استقر في الصعيد فأنبعه ، العباس ربيب ابن السلار . وفي مدينة دلاص جنوبي الواسطي التقى الجندان ، فدارت الدائرة على ابن مصال ، وقتل وحمل رأسه إلى القاهرة . وبهذا استراح ابن السلار من منافسه ، وقلده الخليفة الوزارة ، لكنه أخذ يكيد له وعمل على طرده من الوزارة<sup>(١)</sup> .

وقد طلب ابن السلار العون من نور الدين في غزو مدينة طبرية ، لينبع غزو الصليبيين لمصر على أن يسير هو بنفسه إلى غزة وعسقلان<sup>(٢)</sup> . وقد أدرك نور الدين من هذا الرجاء أن مصر لم تعد قادرة على أن تقف وحدها في وجه الصليبيين مما أناح له الفرصة في الامارة عليها . ومن هنا طمع نور الدين في غزو مصر ، كما أصبح الصليبيون على علم تام بحال هذه البلاد .

وقد أبى نور الدين امتشاق الحسام لمحاربة الصليبيين . ورأى أنه يغرر بنفسه إذا دخل في حرب معهم أو مع أهل دمشق ، إذ كان هؤلاء وأولئك أعداءه على السواء .

لهذا كله وقف المتنافسان ( نور الدين والصليبيون ) بعضهما لبعض بالمرصاد ، وأخذ كل فريق يراقب حركات الفريق الآخر .

أما عن أحوال مصر الداخلية إذ ذاك ، فقد كان ابن السلار الذي تلقب بالملك العادل سيف الدين ( ذلك اللقب الذي يدل على انضوائه تحت لواء المذهب الفاطمي ) سنياً مغالياً . وربما كان ذلك سبباً في تدبير الخليفة المسكند له حتى يخلص من شره . غير أن أنصار ابن السلار الكثيرين قد حالوا دون استقرار سلطة الفاطميين الدينية . أضف إلى ذلك النزاع الذي قام بين ابن السلار السني وبين ابن مصال المغربي الاصل ، ذلك النزاع الذي كان في الحقيقة نزاعاً بين السنيين والشيعة . وكان ابن السلار يطمع في مساعدة نور الدين ، لئلا يشر المذهب السني في مصر وإحلاله محل المذهب الشيعي .

وكان ابن السلار — كما يقول ابن خلكان — من أصل كردى ، ومن قبيلة

(١) أسامة بن منقذ ص ٥ و ٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٧ - ١٣ .

الزرزرى<sup>(١)</sup>، نشأ في قصر القاهرة وشغل مناصب مختلفة في الصعيد، وتدرج في هذه المناصب حتى تقلد الوزارة في عهد الخليفة الظافر في رجب سنة ٥٤٣ هـ (نوفمبر ١١٤٨ م). وقد أظهر ابن السلار أخيراً اعتناقه للذهب السنّي، وصار شافعي المذهب (وهو المذهب الذي كان يتبعه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين). ولما ولي الإسكندرية بعد وصول المحافظ السلقي الفقيه الشافعي في ذي العقدة سنة ٥١١ هـ (مارس سنة ١١١٨ م)، عامله بكل تجلّة وإكرام، وأنشأ في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) مدرسة للشافعية أسند إليه إرادتها<sup>(٢)</sup>. وبهذا هياً ابن السلار السبيل إلى رجوع المذهب السنّي إلى مصر. وقد اعتمد الخليفة الظاهر في السكيد لابن السلار واغتياله على يد نصر بن عباس، وهو شاب في سن الخليفة ومن أخص خواصه. وكان من أمره أخيراً أن قتل الخليفة الظافر والوزير ابن السلار معاً.

وقد دخل عباس القاهرة غداة مقتل الوزير وتقلد الوزارة وخلع عليه الخليفة<sup>(٣)</sup>. ولقد صدق ليزبول في قوله «إن مقتل ابن السلار بيد حفيد زوجته نصر، وما تبعه من مقتل الخليفة بنفس هذه اليد الأثيمة يعتبر من أخفى حوادث التاريخ في مصر». ويقص علينا ذلك أسامة بن منقذ، ذلك الرجل العظيم الذي اعتاد الصيد مع رجال بلاط الخليفة وكان صديقاً حميماً وضيئفاً لابن السلار، كما كان مع هذا من الذين دبروا أمر اغتياله. وقد وضع الخليفة الذي تملكه الفرص لمقتل ابن السلار، رأس القتييل في بيت المسال، ونفخ قائله بعشرين صفحة فيها ٢٠٠٠ دينار، وحرّضه على قتل أبيه بعد ذلك. لكن عباساً استشعر الخطر، فأعد العدة ليضم ابنه. وكان لتدخل أسامة بين نصر وأبيه أثر في إصلاح ذات بينهما، إذ وعد نصر بأن يقتل الخليفة إذا زاره في داره.

وفي اليوم التالي، بينما كان أسامة جالساً في الدهليز، إذ سمع صليل السيوف. وقد أثار قتل الخليفة أهالي القاهرة؛ فنشبت المعارك في طرقات المدينة وأخذ النسوة والأطفال يرجون أتباع الوزير عباس بالحجارة من نوافذ دورهم. ولم يلبث هؤلاء الأعوان أن اعتزلوه. ولم يكن لعباس طاقة بمقاومة سحق الأهلين وثورة انتقامهم، ففر

(١) يفتح الزاي الأولى مع التشديد وفتح الراء الثانية وسكون الراء الأولى، قبيلة قريبة من برقة. انظر Quatremère, Notices Sur les Curdes in « Notices et Extraits » Vol. XIII, p. 315.

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧، ٤٦٧، ٤٦٨.

(٣) تاريخ أسامة بن منقذ ص ١٣ — ١٤.

هو وابنه نصر إلى سورية<sup>(١)</sup>. غير أنه لقي حتفه على يد جماعة من الفرنجة أرسلتهم أخت الخليفة الظاهر في إثره (ربيع الأول سنة ٥٤٩ / ١١٥٤). أما ابنه نصر فقد أرسل إلى القاهرة (ربيع الأول سنة ٥٥٠)، فمذبه نساء البلاط وطيف به في المدينة، وصاحب حياً على باب زويلة، وترك معلقاً هناك شهوراً كثيرة<sup>(٢)</sup>؛ ثم أحرقت جسده (١٠ المحرم سنة ٥٥١ / ١١٥٦ م)<sup>(٣)</sup>.

وقد ترك الخليفة المقتول طفلاً في الرابعة من عمره؛ فدعى له بالخلافة وتلقب بالفائز سنة ٥٤٩ هـ. وقد قص نساء القصر شعورهن لما راعهن من قتل الخليفة حداً على عليه، ثم أرسلوا هذه الشعور إلى الأمير طلائع بن رزك والى الأشمونيين، وتضرعن إليه أن يجيء لتخليصهن<sup>(٤)</sup>. ثم سار ابن رزك إلى القاهرة واستولى على دار المأمون (قصر عباس)<sup>(٥)</sup>.

وقد أخذ ابن رزك في إعادة الأمن إلى نصابه وأعاد عصر سيادة القانون<sup>(٦)</sup>.

وكان ابن رزك — الذى تلقب بالملك الصالح — الرجل الذى تحتاج إليه مصر في ذلك الحين. أما تلك المأساة فقد أفقدت الفاطميين عسقلان آخر معاقلهم في فلسطين، وقد استولى عليها الصليبيون<sup>(٧)</sup>.

أما الصليبيون فإنهم لم يستمروا في سيرهم إلى مصر، إذ فت في عضدهم وزعزع قوتهم في بيت المقدس نداء قوى البلاد المتاخمة لها، وإخفاق الحملة الصليبية الثانية تحت قيادة كونراد Conrad ولويس السابع، واستخلاف نور الدين على عرش الشام واستقرار أمره

(١) أسامة بن منقذ ص ١٩ وما يليها.

(٢) المصدر نفسه ص ١٩ و ٢٠.

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٥٠٠.

(٤) Lane-Poole, History of Egypt in The Middle Ages, p. 173.

(٥) هذا القصر بناه الوزير المأمون البطائحي، وتحول فيما بعد على يد صلاح الدين إلى مدرسة

للأحناف، تعرف بالمدرسة السيوفية.

(٦) ابن ميسر ص ٩٤. ابن خلكان ج ١ ص ٢٩٨ وما يتبعها.

(٧) ابن ميسر ص ٨٦.

في حلب شمالاً ودمشق شرقاً ، وقد تلقب ببطل الإسلام وقوى أمره بضم دمشق إليه سنة ٥٥٠ م ( ١١٥٤ م ) ، وكان في حلف دفاعي مع الصليبيين <sup>(١)</sup> .

وقد قتل الوزير طلائع بن رزيك (رمضان سنة ٥٥٦ / ١١٦١) بدسيسة صهره (زوج ابنته) الخليفة العاضد ، الذي زالت الخلافة الفاطمية في أيامه ، وانتقص هذا الوزير سلطته . ويحمل هنا أن نأني بما أمدنا به عمارة البني ، وكان شاهد عيان لما حدث في مصر في عهد الخليفين الأخيرين من الخلفاء الفاطميين .

لقد نصح ابن رزيك وهو على فراش الموت ابنه أبا شجاع العادل أن يحذر شاور ويتجنب خلعه من منصبه . وكان شاور عربي الأصل ، اتصل بابن رزيك ونال حظوة لديه ، فولاه الصعيد ، وغدا مركزه من الخطر بحيث لم يجرؤ ابن رزيك على عزله من منصبه . فلما توفي ابن رزيك خلفه ابنه العادل في الوزارة ؛ غير أنه لم يلبث أن خلع وحل محله شاور في الوزارة ، ثم قتل طي بن شاور ابن رزيك في ٢٢ المحرم سنة ٥٥٨ م (يناير ١١٦٣ م) .

وقد أثار شاور بذلك سخط الأهلين ، وأجمع أنصار العادل بن رزيك على خلع شاور من الوزارة <sup>(٢)</sup> . ولما علم ضرغام أمين الباب وأمير البرقية بهذا الحادث ، أشعل نار الثورة وهزم جند شاور الذي فر إلى سورية ، وقتل أبنيه طي وضرغام وحل محل شاور في الوزارة (رمضان ٥٥٨ / ١١٦٢) <sup>(٣)</sup> .

وقد تدخل نور الدين والفرنجية تدخلاً جدياً في شؤون مصر منذ ذلك الحين . وكان من أثر إغارة هاتين القوتين على مصر وسياسة شاور المزعزعة ، وإسراف ضرغام في قتل قواد مصر — كان من أثر هذه العوامل مجتمعة ما عجل بسقوط الدولة الفاطمية <sup>(٤)</sup> .

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٤٦ .

(٢) عمارة البني : النكت المصرية ص ٨٨ .

(٣) أبو شامة : مجموعة تواريخ الحروب الصليبية ج ٤ ص ١٦٥ .

Receuil des Histoires des Croisades, Historiens orientaux, tome IV, p. 165.

النكت المصرية ص ٦٧ و ٧٨ . ابن الأثير ج ١١ ص ١١٧ .

(٤) عمارة : النكت ص ٨٨ . ابن الأثير ج ١١ ص ١١٧ .

طلب شاوور النجدة من نور الدين بدمشق، وأظهر له أنه على استعداد لأن يقوم بنفقات الحملة وأن ينزل له إذا تم له الأمر عن ثلث خراج مصر جزية سنوية<sup>(١)</sup>. وكان نور الدين يعلم ما لمصر من المركز السياسي الخاص، بمعنى أن من يملكها يمكنه أن يسيطر على غيرها من البلاد، كما كان يعلم أنها معين خصب للخراج. ويمكن تلخيص الأسباب التي من أجلها عزم نور الدين على إرسال حملة إلى مصر فيما يلي:

أولاً — رغبته في إجابة شاوور الذي تضرع إليه وطلب الاستعانة به.  
ثانياً — شغفه بالاطلاع على حقيقة الحال في مصر، وقد اتصل به أن قوتها الحربية كانت ضعيفة جداً، وأنها كانت في حالة اضطراب شديد.

#### (٤) حملات شيركوه على مصر:

هكذا سجلت الحوادث تدخل نور الدين. ذلك أن ضرغام اختلف مع عمورى ملك بيت المقدس الجديد في الجزية السنوية التي كان يدفعها إليه؛ فسار عمورى إلى مصر سنة ١١٦٣/٥٥٩ ليفرض عليها الجزية كرهاً، وحلت الهزيمة بضرغام في بلبس<sup>(٢)</sup>، فأراد أن يتجنب الهزيمة النهائية. فأوحى له قصر نظره فتح سدود النيل — وكان في لبنان فيضانه — فأغرق البلاد، وتم له ما أراد من رجوع عمورى إلى فلسطين.

وعلم ضرغام بالمفاوضات التي دارت بين شاوور ونور الدين؛ فسارع إلى عقد حلف مع عمورى، وزاد مقدار الجزية. وسرعان ما ظهر نور الدين على مسرح القتال. وقبل أن يتمكن عمورى من المسير إلى مصر (جمادى الثانية ٥٥٩ / إبريل سنة ١٠٦٤ م)، سار شاوور إليها مع جند قوى من التركان من دمشق يقوده أسد الدين شيركوه، وعلى مقدمته صلاح الدين الأيوبي. والتقى الفريقان في بلبس؛ فانهمز المصريون، غير أنهم لموا شعهم واجتمعوا تحت أسوار القاهرة<sup>(٣)</sup>.

واستمرت الحرب سجالات بين الفريقين عدة أيام، تمكن شاوور في أثنائها من الاستيلاء على القسطنطينية، بينما كان ضرغام يحتل القصر في القاهرة. وأراد ضرغام

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٢١.

(٢) عمارة، النسكت (ص ٦٨ وما يتبعها). ابن الأثير (ج ١١ ص ١٢٠ و ١٢١).

Lane-Poole, History of Egypt in the Middle Ages, p. 117.

أن يجمع الاموال ؛ فوضع يده على أموال الاوقاف ، فأخذ الناس ينفضون من حوله ، وامتنع الخليفة والجيش عن مؤازرته ، وسار في طرقات القاهرة يدعو الناس للثورة ، فلم يلق منهم إلا صياح الاستهزاء حتى جعل حصانه من صياح الناس ، فألقاه على الارض وقطع رأسه وطيف به في الطرقات<sup>(١)</sup>.

وقد أدرك شاور غرضه ؛ فتقلد الوزارة وتوطدت أقدامه . ولو وثقه بقوته ، خان عهده مع أسد الدين شيركوه ، وأبى أن يدفع الجزية المتفق عليها بينهما ، ومد له الفرنجة يد المساعدة ، فاصروا شيركوه في بلبليس وحملوه على العودة بجنده إلى الشام ( ذو الحجة سنة ٥٥٩ / ١١٦٤ ) . وانتهز نور الدين مسحة عمورى إلى مصر فهزم قواته في فلسطين ، فاضطر إلى العودة لحماية بلاده<sup>(٢)</sup>.

ولكن شيركوه لم يخفق تماماً في حملته على مصر ، إذ عرف ما كان يسود هذه البلاد من الفوضى ، فأطمعه ذلك في امتلاكها . لذلك بقى في الشام مدة يعد العدة في تجهيز حملة ثانية أملا في تأسيس إمبراطورية لنفسه ، واستمر حتى سنة ٥٦٢ هـ ( ١١٦٦ م ) يدبر الخطة بالاشتراك مع نور الدين<sup>(٣)</sup>.

لقد ظهرت أهواء شاور المضطربة وسياسته الخرقاء واضحة جلية في وزارته الثانية ، ولم يلبث أن ظهر قلقه واضطرابه بعد أن استرد قوته واستقر في مركزه . وفي اليوم التالي من وصوله إلى القاهرة ، سار شيركوه إلى بلبليس وهزم الجيوش المصرية .

على أن نجم شاور أخذ في الأفوال ، فخرج أخوه جرحاً بليفاً وحاصر الفرنجة بلبليس ، وأرغموا نور الدين على العودة من فلسطين إلى الشام ، ولم يلبثوا أن عادواهم أيضاً إلى فلسطين .

ولم تكن حالة مصر الداخلية بأقل اضطراباً من حالتها الخارجية ، فلم يجد شاور بدأ من قمع ثورة يحيى بن الخياط أحد أنصار ابن رزيك<sup>(٤)</sup> ( عمارة ص ٦٧ ) ، الذى طلب الوزارة لنفسه ؛ وتلا ذلك الاضطرابات التى أثارها بنو لوانة . وأدهى من هذا كله ما بلغه من إعداد نور الدين العدة لغزو مصر مرة أخرى<sup>(٥)</sup> .

(١) النكت المصرية ص ٧٣ .

(٢) ابن شداد ص ٤٣ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) قتله شجاع بن شاور . حياة عمارة ص ٣٤٨ .

(٥) عمارة ص ٦٧ و ٧٥ - ٧٨ .

لذلك طلب شاور مساعدة الفرنجة ثانية ووعدهم موثقاً ثابتاً في مصر : فأرسل نور الدين إلى هذه البلاد جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه ، ورأى أن اتفاق شاور مع الفرنجة يكسبهم قوة في مصر ويهدد مركزه في الشام . وغادر جيش شيركوه الشام في ربيع الأول سنة ٥٦٢ هـ (ديسمبر - يناير ١١٦٦ - ١١٦٧ م) ، ووافق وصولهم إلى مصر وصول الفرنجة<sup>(١)</sup> .

وقد سار الجيشان بجذاء شاطئ النيل حتى وصلوا إلى القاهرة . فحضر عموري مرادقة قريباً من القسطنطينية . والتقى الفريقان ثانياً في موقعة البابين ، على بعد عشرة أميال جنوبي مدينة المنيا ؛ فأحرز شيركوه بقتوه القليلة نصراً ميبناً . وبذلك توطدت أقدامه في الصعيد . غير أنه لم يكن من القوة بحيث يمكنه أن يتابع انتصاراته ويسير إلى القاهرة ؛ فاختار أهون الأمور ، وسار في الصحراء شمالاً حتى وصل إلى الإسكندرية فدخلها من غير مقاومة .

أقام أسد الدين شيركوه صلاح الدين والياً على الإسكندرية ، وجعل معه نصف الجيش وعاد النصف الآخر إلى الجنوب ، وأخذ يجبي الأموال في الصعيد . أما قوى الفرنجة والمصريين المتحدة فقد حاصرت الإسكندرية براً ، على حين كان أسطول الصليبيين يحاصرها بحراً . ولم يكن مع صلاح الدين إلا ألف من أنصاره ؛ فأغز شيركوه السير إليه ، واصطلمح الفريقان على أن يترك شيركوه مصر في مقابل خمسين ألف دينار ، ثم عاد شيركوه إلى الشام ، لأن جيشه قد ضعف كثيراً في حربه مع الفرنجة والمصريين . هذا إلى ما انتابه من البؤس وما حاق به من الأخطار<sup>(٢)</sup> . إلا أنه قد أصبح ملأً بأحوال مصر الداخلية ، وعقد العزم على امتلاكها قبل أن تقع فريسة في أيدي الفرنجة .

هكذا انتهت حملة الفرنجة والنز على مصر . وقد ارتد الأولون إلى فلسطين والآخرين إلى الشام ؛ وبذلك زالت مخاوف شاور ، ولكن إلى حين . فقد ابتدأت حملة شيركوه الثالثة على مصر وانتهت بانتصاره على الفرنجة والمصريين واحتلاله البلاد<sup>(٣)</sup> .

(١) أبو شامة : Receuil, tome IV, p. 168

(٢) ابن شداد ص ٤٤ و ٤٥ .

(٣) النكت المصرية ص ٨١ .

وترجع حملة شيركوه الثالثة على مصر إلى زحف الفرنجة عليها من جديد . وكانت هذه الحملة بقيادة شيركوه بصحبه أخواه ، وابن أخيه صلاح الدين وغيرهم من ذوى قرباه وجيوشه<sup>(١)</sup> .

وهنا تجلت سياسة شاور المتقلبة ثانياً ، فقد أرسل إلى شيركوه كتاباً يطلب فيه المساعدة . وصادف هذا الرجاء قبولاً من نفس شيركوه ، لأن اتحاده مع شاور معناه هزيمة الفرنجة من جهة وتخلصه من شاور من جهة أخرى .

وقد سار الفرنجة نحو مصر ، ووصلوا إلى بلبس ( صفر ٥٦٤ نوفمبر ١١٦٨ ) . ولم يبقوا — كما يقول المؤرخ اللاتيني ولیم الصوري William of Tyre على أحد من الناس على اختلافهم شباناً وشيباً ، ذكوراً وإناثاً<sup>(٢)</sup> . وقد أسخط عمورى بعمله جميع المصريين فانحازوا إلى شيركوه ، وأمر شاور بإحراق مدينة الفسطاط ليحول دون استيلاء الفرنجة عليها . وقد استمرت النيران بها أربعة وخمسين يوماً ، ولا تزال آثار هذا الحريق يادية بأطلال الفسطاط حتى اليوم في التلال الرملية التي تغطي القمامة المدفونة في الفضاء الممتد عدة أميال جنوبى القاهرة . وأسرع الناس بعد هذا لاثنين بالقاهرة التي ساد أهلها الخماس استعداداً لصد هجوم الصليبيين<sup>(٣)</sup> .

غير أن الفرنجة لم يهاجروا القاهرة ، فقد دخل شاور معهم في مفاوضات تعهد فيها بدفع مقدار من المال لعمورى . لكن سياسة شيركوه لم يكن يسودها الإخلاص ، فقد كتب إلى نور الدين في دمشق يطلب منه المعونة ، على حين كتب الخليفة العاضد نفسه بذلك إلى نور الدين ، ووضع في رسالته خصملاً من شعور الذمام إمعاناً في الضراعة ، حتى لا يرد نوسله بعد ذلك<sup>(٤)</sup> . وقد بلغ من تأثر نور الدين أنه بعث أسد الدين شيركوه إلى مصر في جيش بلغ سبعين ألفاً<sup>(٥)</sup> .

(١) ابن شداد ص ٤٥ و ٤٦ .

(٢) ذكر أبو شامة ( ص ١٣٧ ) أن عمورى قتل عدداً كبيراً من الأهلى وأنف معظم المدينة وأحرق أكثر مبانيها وجعل الناس فيها فريقين ، قتل أحدهما بحمد السيف ، واستبقى الآخرين شكراً لله على ما أتاه من نصر .

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣٦ . أبو شامة ص ١١٥ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ( الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٤ ) ص ١٩٣ - ١٩٤ .



وكان نور الدين قد صمم على غزو مصر ، إذ كان يود أن يذهب بنفسه ، لولا أنه كان مشغول البال بحالة بلاد الجزيرة المزعزعة ، فأرسل في الحال قوة من ألفين اختارهم من حرسه الخاص وسنه آلاف من التركمان بقيادة شيركوه . يعينهم عدد كبير من الأمراء ومن أقاربه ، وكذا صلاح الدين ، وكان يدعوه اليميني (١) .

وصل شيركوه إلى القاهرة في السابع من شهر جمادى الثانية ، وكان عمورى لا يزال أمام أسوارها وحال دون تقدمه . ورأى عمورى الذى خدعه شاور تفوق شيركوه عليه في الحرب ، فعاد إلى فلسطين من غير حرب . ودخل شيركوه القاهرة ، فقابله الناس بالترحاب ، واستقبله الخليفة الذى قدر صنيعه وخلع عليه (٢) .

وكان شيركوه يعتقد أن الفرصة لن تتاح له بامتلاك مصر ما بقي شاور فيها . لذلك قرر أن يقبض عليه في إحدى زياراته له ، واضطلع صلاح الدين بتنفيذ هذه المسكيدة . وقتل شاور بأمر الخليفة الذى ولى شيركوه الوزارة في ١٧ ربيع الثانى سنة ٥٦٤ الموافق ١٨ يناير ١١٦٩ ) وخلع عليه ، فظل فيها حتى مات في ٢٢ جمادى الثانية من السنة نفسها ( ٢٣ مارس سنة ١١٦٩ ) (٣) .

### (٥) صلاح الدين وسقوط الدولة الفاطمية :

لقد مهدت الاحوال والحوادث الماضية الطريق لسقوط الفاطميين قبل أن يلى صلاح الدين الوزارة خلفاً لعمه أسد الدين شيركوه . وقد أصبحت البلاد من الضعف بحيث لم تعد تقوى على صد الغزوات الأجنبية ، لما منيت به من التطاحن الحزبى ومنافسات الوزراء المصريين .

وقد بدأت مواهب صلاح الدين تظهر بعد تقلده الوزارة بعد عمه فوطد العزم على

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣٦ .

(٢) شرحه ص ١٣٦ و ١٣٧ .

(٣) ابن شداد ص ٤٧ و ٤٨ . ابن خلكان ج ٢ ص ٥٠١ و ٥٠٢ .

ذكر أبو شامة ( ص ١٤٥ ) أن صلاح الدين نفسه هو الذى قتل شاور ، وذكر الذهبي ( مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات Land ، القسم الشرقى رقم ٣٠٤ ، ورقة ١١٣٥ ) أن شيركوه ولى الوزارة قبل مقتل شاور .

تأسيس دولة واسعة الارحاء . ولكى يصل إلى غرضه ، خصص كل جهوده لطرده الصليبيين من البلاد<sup>(١)</sup> .

وقد عمل صلاح الدين على تقوية مركزه في مصر تدريجياً ، لئلا يفقد ثقة المصريين ولا يثير حسد نور الدين . فبدأ يعمل على إضعاف نفوذ الخليفة فكسب ثقة الأهلين واستمال قلوبهم بكرمه ، وأخذ الناس يسارعون إلى طاعته<sup>(٢)</sup> وأسند مهام الدولة إلى رجال من أنصاره .

وكان الخليفة العاضد ورجال القصر من جند وأتباع لا يخفون عداهم لصلاح الدين . لذلك قامت المكاتبة بزعامة « نجاح » كبير الخصيان السود للقضاء على صلاح الدين ، فعملوا على إصلاح ذات البين بينهم وبين الصليبيين لغزو مصر ، فإذا ما خرج لهم صلاح الدين ، هاجمه المتآمرون من مؤخرته ، ووقع بين نارين ، وقضوا عليه وعلى جنده من التركان .

ولما علم صلاح الدين بما دبره له أعداؤه قبض على كبير الخصيان ، وقطعت رأسه ( ذو القعدة ٥٦٤ يوليو ١١٦٩ ) وقتل كثير من بني جلدته . فأثار ذلك حنق جند الخليفة ، وكان أكثرهم من السودانيين ، فثار منهم خمسون ألفاً للأخذ بنار نجاح . واشتبكوا مع جند صلاح الدين في معركة عنيفة في المكان المعروف بين القصرين ، أحرق فيها كثيرة من الدور والخوانيت . ودارت الدائرة أخيراً على السودانيين ، وأحرق حيمم المعروف بالمنصورية ، وطوردت فلولهم إلى الجزيرة عن طريق النيل ، ومنها إلى الصعيد حيث استمروا في ثورتهم عدة سنين ، إلى أن قضى عليهم نهائياً سنة ٥٧٢ هـ ( ١١٧٦ م )<sup>(٣)</sup> .

ولما توطلت أقدام صلاح الدين في مصر ، أخذ في إرسال الحملات ضد الصليبيين ، فغزوا ولايتي السركك والشوبك بذهاب سلطانهم في فلسطين .

وكان من أثر ذلك أن اتحد الصليبيون مع البيزنطيين وساروا بحراً إلى مصر ؛ فنزلوا أولاً على مقربة من دمياط ، واستولى جماعة منهم على قصر عكا . ( ربيع الثاني ٥٦٥ هـ

(١) ابن شداد ص ٤٨ و ٤٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٩ .

(٣) ابن شداد ( ص ٥٢ ) . وابن لأثير ( ج ١١ ص ١٣٩ و ١٤٠ ) .

١١٦٩ - ١١٧٠) . ولما علم نور الدين بمسير الفرنجة إلى دمياط ، بادر إلى نجدة صلاح الدين فحاصر الكرك ( شعبان ٥٦٥ / ١١٧٠ ) (١) .

وقد أعد صلاح الدين الذي آلت إليه السلطة المطلقة جيوشه وملا دمياط بالذخائر والجنود ، وواعد بإرسال المدد إلى المدينة ، ووزع عليهم الهدايا والهبات .

وقد نجح نور الدين في احتلال جزء من مملكة النصارى بفلسطين ، وأرسل الأمداد إلى صلاح الدين الذي كان يعضده الخليفة العاضد طوال مدة الحصار الذي استمر خمسين يوماً ، وأمدته بنحو مليون دينار . وقد جعلت هذه الأمور لإغارات الفرنجة عديدة الجدوى ؛ فاضطروا لرفع الحصار (٢) بعد أن أحرقت مراكبهم ، واستولى المصريون على آلاتهم الحربية وقتلوا عدداً عظيماً من جندهم (٣) .

وبعد انتصار صلاح الدين على الفرنجة ، طلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه وأقاربه فوصلت أسرته ( جمادى الثانية ٥٦٥ / ١١٧٠ ) ، فقلد أباه بيت المال ، وأخلص له إخوته (٤) .

وقد شجع إخفاق الفرنجة في غزوم دمياط — ذلك الإخفاق الذي يتمثل فيه ابن الأثير بالمثل المشهور عن النعامة وهو : « خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين » — صلاح الدين على أن يبدأ حياة الفتح بغزو الصليبيين في بلاد الشام ؛ وبذلك بدأت سلسلة الإغارات التي لم تنته إلا بمعاهدة الصلح مع ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا بعد اثنتين وعشرين سنة .

وقد اعتبر المصريون الشيعة والتركمان السنيون صلاح الدين حامياً لهم ، فانفقوا معه على محاربة الصليبيين أعدائهم جميعاً : وشجعهم على ذلك ما شاهدوه في القاهرة من

(١) ابن شداد ص ٥٠ .

(٢) ابن الأثير ص ١١٠ .

(٣) ابن شداد ص ٥٢ .

(٤) ابن شداد ص ٥٢ .

الأسلاب التي غنمها صلاح الدين من الفرنجة<sup>(١)</sup>، ولما استقرت قدم صلاح الدين في مصر أسند المناصب الدينية إلى الفقهاء المتضلعين في عقائد المذهب السني، وانضوى تحت لوائه كل رجالات الدولة، وسقطت إلى الحضيض سلطة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، وأزال صلاح الدين من الجيش بعض العناصر التي كان يشك في إخلاصها. ولما أيقن نور الدين محمود أن صلاح الدين استأثر بالنفوذ دون الخليفة الفاطمي في مصر. لأن رجالات الدولة قد انضوا تحت لوائه، أرسل إليه كتاباً يطلب إليه فيه أن يحل اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمي.

غير أن صلاح الدين تردد في تنفيذ هذه الرغبة، إذ كان يخشى أن يثير هذا العمل أهالي مصر، الذين كانوا لا يزالون متعلقين بالفاطميين إلى ذلك الحين. بيد أن هذا العذر لم يرض نور الدين، ولم يكن بد من أن يقوم صلاح الدين بتنفيذ أمره.

وكان الخليفة الفاطمي العاضد مريضاً في ذلك الوقت. فعقد صلاح الدين مجلساً من الأمراء واستشارهم في ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة بدل اسم الخليفة الفاطمي، فوافقهم بعضهم وأخذوا على عاتقهم تعضيده، ورأى الآخرون خطورة هذا الاقتراح.

وكان في هذا المجلس رجل فارسي يعرف بالأمير، حل بمصر أخيراً. ولما رأى ترددهم عرص أن يتولى تنفيذ رغبة صلاح الدين. فصعد المنبر قبل الخطيب في أول جمعة من المحرم ودعا للمستضيء العباسي. وفي الجمعة التالية أمر صلاح الدين الخطباء أن يقيموا الخطبة للخليفة العباسي. وهكذا تم ذلك التغيير من غير أن يلقى أية مقاومة. ولم ينتطح فيها عنزان ولم يختلف فيها اثنان<sup>(٢)</sup>.

ولم يخبر العاضد أحداً من أسرته بذلك الحدث وقالوا « إن عوفى فهو يعلم وإن توفى فلا ينبغي أن نفضحه بمثل هذه الحادثة قبل موته » : وتوفى هذا الخليفة في العاشر من المحرم ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) من غير أن يعلم بهذا الحدث التاريخي العظيم : مجلس صلاح الدين للعزاء، وأستولى على القصر.

وكان صلاح الدين قد أقام قبل وفاة العاضد الفاطمي للطواشي بهاء الدين قرقوش على

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٥٧.

(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ١٤٨ — ١٤٩.

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٩.

القصر ، وأسكن أولاد العاضد وأعمامه وسائر أسرته في جناح منه ، وأخرج الموالي من الذكور والإناث ، وأعتق بعضهم .

هكذا سقطت الدولة الفاطمية بموت العاضد ، بعد أن حكمت مصر عسراً طويلاً كان عصر يسر ورخاء وتسامح ديني وثقافة . وإن زوال الدولة الفاطمية الشيعية على يد الأيوبيين السنيين وإعادة الخطبة إلى الخليفة العباسي ، بعد أن قطعت في مصر كسائر الولايات الفاطمية الأخرى مدة قرنين وثمانين سنين — كان في الواقع انتصاراً للشنة على الشيعة<sup>(١)</sup> .

### ثالثاً : الدعوة الصليبية في اليمن :

قامت الدولة الفاطمية في بلاد المغرب بفضل جهود دعاة اليمن من أمثال ابن حوشب وابن فضل وغيرهما من اليمنيين الذين كان لهم أثر بعيد في نشر الدعوة الإسماعيلية في اليمن والبحرين واليمامة وفي الهند ومصر والمغرب .

وقد تعرضت الإسماعيلية في اليمن لخطر جسيم ، بسبب قيام النزاع بين ابن حوشب (منصور اليمن) وعلى بن فضل الذي خرج على الدعوة الإسماعيلية ولم يعبأ بنفوذ عبيد الله المهدي الذي أسس الدولة الفاطمية في أواخر سنة ٢٩٦ هـ . بل لقد خلع طاعة المهدي وحارب ابن حوشب ، واستولى على عدن لاعة وحاصره بجبل مسور نحواً من ثمانية أشهر .

وكانت هذه الحرب من العوامل التي كان لها أثر بعيد في إضعاف الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن . فقد مات ابن فضل مسموماً في سنة ٣٠٣ هـ ، وخلفه ابنه ، وكان ضعيفاً ، فتمكن السنيون من القضاء عليه دون أن يحرك أنصار ابن حوشب ساكناً ويقدموا إليه أية مساعدة . وكذلك كان لموت منصور اليمن في سنة ٣٠٣ هـ أثر كبير في إضعاف هذه الدعوة الإسماعيلية ببلاد اليمن . فقد كان خلفاء منصور اليمن يأملون في بقاء رئاسة الدعوة في أيديهم ، ولكن عبيد الله المهدي قضى على هذه الآمال بتوليته عبد الله بن عباس

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٨١ وما يليها .

الشاوي بعد منصور الين ، مما أثار حنق أبنائه ، حتى إن أحدهم خلع طاعة المهدي ، وقتل  
الشاوي الذي آلت إليه رئاسة الدعوة ، ولم يصغ إلى نصيحة أخيه جعفر بن منصور الين  
الداعي صاحب المؤلفات الإسماعيلية الكثيرة ، فتحول إلى المذهب السني .

وقد اتخذ السفيون من هذا الخلاف الذي نفاقم بين الإسماعيلية في الين فرصة للقضاء  
على هذا المذهب وأنصاره ، مما حمل البقية الباقية من أنصار الفاطميين على التسرع ونشر  
دعوتهم في الخفاء ، حتى لا يتمكن السفيون من استئصاله ، وظلوا على ذلك منذ أوائل  
القرن الرابع الهجري ( العاشر الميلادي ) ، حتى ظهرت قوتهم من جديد على يد علي بن  
محمد الصليحي حول منتصف القرن الخامس الهجري في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي .

وقد راجت الدعوة الإسماعيلية في الين على يد علي بن محمد الصليحي - وكان أبوه القاضي  
محمد بن علي من القضاة السنيين في هذه البلاد . ولما انتقلت الدعوة الإسماعيلية في الين إلى  
عامر بن عبد الله الزواحي ( نسبة إلى زواحي وهي قرية من أعمال حراز ) داعي دعاة  
الإسماعيلية في الين ، تقرب إلى القاضي محمد بن علي الصليحي الذي توسم فيه مخايل الذكاء  
والنجابة والعلم والتفقه في الدين . وقد قيل إنه كان عند عامر الزواحي كتاب حلية الصليحي  
من كتاب الضوء ، وهو من ذخائر الأئمة العلويين ، فأوصى إليه بكتبه قبل وفاته .

وقد تحول علي بن محمد الصليحي إلى المذهب الإسماعيلي وهو في حداثة سنه ، وتفقه  
في أصول هذا المذهب . ثم حل محل عامر بن عبد الله الزواحي بعد وفاته ، وأحيا الدعوة  
الإسماعيلية القديمة ، وكانت قد فترت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم .  
ولما استقرت قدم علي بن الصليحي في معظم أرجاء بلاد الين ، كتب إلى الخليفة المستنصر  
الفاطمي في مصر يستأذنه في إظهار الدعوة الإسماعيلية له في هذه البلاد ، فأذن له الخليفة بذلك  
بعد أن تبادل كل منهما الهدايا ، ووجه إليه المستنصر «رايات وألقاب وعقد له الولاية»<sup>(١)</sup>  
وقد شمر على الصليحي عن ساعد الجد وأخذ يتنقل في البلاد داعياً إلى الإمام الفاطمي .  
ولم تأت سنة ٤٥٥ هـ حتى كانت الدعوة الإسماعيلية قد ذاعت في كافة أرجاء الين . ولم  
يبق من الين كما يقول عمارة اليني ، سهل ولا وعر ولا بر ولا بحر إلا فتحه على الذي  
اتخذ صنعاء حاضرة لدولته . ويقص علينا عمارة اليني<sup>(٢)</sup> أن علي بن محمد الصليحي شيد

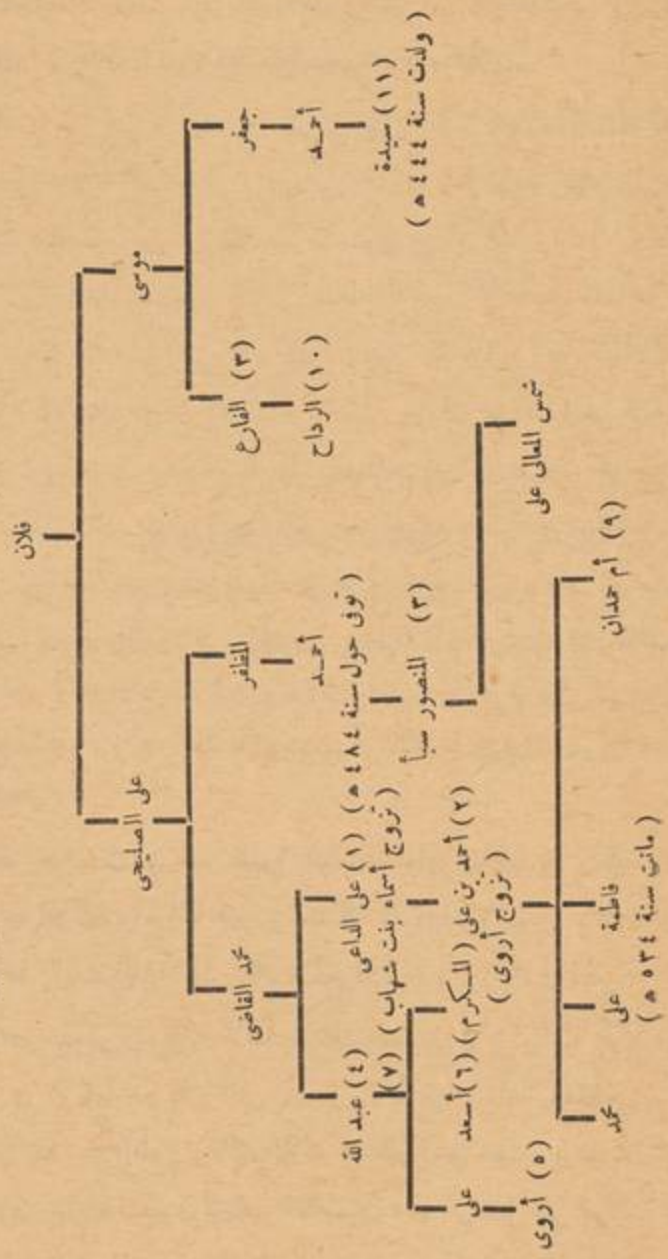
(١) الحمادي اليني : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٣ .

(٢) تاريخ الين ص ٢ وما يليها .

# الصليحيون باليمن

سنة الولاية  
 هـ ٤٣٩  
 - ٤٥٩  
 ٤٨٤ أو ٤٨٧  
 - ٤٩٢

اسم الوالي  
 ١ - أبو كامل علي بن محمد الداعي ( استولى على مكة ٤٥٥ هـ )  
 ٢ - المكرم أحمد بن علي  
 ٣ - المنصور أبو حمير سياب بن أحمد الظفر بن علي



في اليمن القصور والدور وغيرها من المساكن الفخمة التي أصبحت بعد انقراض الدولة الصليحية مصدراً لمواد البناء من طوب وحجارة وأخشاب لسكن من أراد بناء دار له . وهكذا أقيمت الخطبة للخليفة المستنصر على منابر اليمن وذكر اسم علي الصليحي وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب ، وزالت الدعوة للخليفة العباسي في هذه البلاد .

ولى علي بن محمد الصليحي صهره أسعد بن شهاب على زيد ، مع أنه كان قد أقسم بالأبواب إليها إلا لمن يعطى له مائة ألف دينار . فلما ولى أسعد حكم زيد تقدم إلى علي الصليحي بأموال كثيرة فقال له : من أين لك هذا واستولى على خزائنه وقال : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » . وكان علي الصليحي ، برغم اعتناقه المذهب الإسماعيلي متسامحاً مع السنين : فقد سمح لهم بإظهار المذهب السني الذي كانوا يدينون به قائمه . وقد ولى أبا علي محمد القم الوزارة ودبوان الإنشاء . وكان القم شاعراً أديباً . على أن علياً الصليحي لم يترك لوزيره شيئاً من النفوذ . وفي سنة ٤٦٠ هـ بلغ علياً الصليحي أن ابن طرف خرج عليه بمؤازرة زعماء الحبشة والسودان ، فسار إليهم وأحل بهم الهزيمة عند سفوح الجبال . وبعد أن استتب الأمر لعلي الصليحي ونشر نفوذه في جميع أرجاء اليمن ، عاد إلى صنعاء وأقام بها اثنتي عشرة سنة وولى حصون اليمن وقلاعها ومدنها الهامة من يثق في إخلاصهم وولائهم ، وانضوى تحت لوائه الأمراء وكبار رجالات اليمن . ثم عزم على التوجه إلى مكة لأداء فريضة الحج بصحبة زوجته أسماء بنت شهاب أم الملك المكرم الذي ولاه صنعاء في أثناء غيبته ببلاد الحجاز .

ولما كان ملوك الصليحيين في اليمن قد قاموا بخدمات جليلة للفاطميين ، فقد وجد الخلفاء أن منح الألقاب لملوكها وأمرائها خير وسيلة لاكتساب ولائهم . وكانت هذه القبائل تطلق على أبناء هذا البيت ألقاباً كالتي كانت تمنح للأمراء والوزراء في مصر .

وكان الخليفة المستنصر يذكر في مكاتباته ألقاب الملك الصليحي في كل مناسبة . ولا غرو فقد كان علي الصليحي في الواقع يحكم بلاد اليمن باعتباره نائباً عن الخليفة الفاطمي ، كما حرص هو وخلفاؤه من بعده على إظهار ولائهم للأئمة الفاطميين في مصر . وبما يدل على هذه التبعية التي كان يدين بها الصليحيون للخلفاء الفاطميين هذه الرسائل التي تبودلت بين علي بن محمد الصليحي والخليفة المستنصر الفاطمي . فقد بعث المستنصر إلى علي في عيد



الفطر من سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) برسالة يقره فيها على ولاية اليمن ويذكر له أثره في نشر الدعوة الإسماعيلية في بلاده<sup>(١)</sup>.

ونستطيع أن نخلص مما تقدم بأن الخلفاء الفاطميين كانوا ينظرون إلى الصليحيين نظرهم إلى كبار رجال دولتهم ، فيمنحونهم هذه الألقاب الضخمة تشجيعاً لهم على الاستمرار في بث الدعوة لهم واستمرار ولائهم لهم . كما كانت هذه الألقاب تقابل من ناحية الصليحيين بالارتياح والشكر للإمام الفاطمي على هذه العناية ، كما كانت هذه الألقاب من جهة أخرى تظهرهم أمام رعاياهم بمظهر القوة وتمسك من نفوذهم على أنه امتداد لنفوذ الإمام الفاطمي .

وبلغ من ثقة الخليفة المستنصر بعلي الصليحي واطمئنانه إلى ولائه أن منحه لقب « الأمير الأجل مشرف المعالي تاج الدولة سيف الإمام المظفر في الدين نظام المؤمنين » ، كما لقبه أيضاً « منتخب الدولة وصفوتها ذا المجددين ، منجب الدولة وغرسها ذا السيفين ، نجيب الدولة وصنيعتها ذا الفضلين »<sup>(٢)</sup> . كما عهد إليه المستنصر بإقرار الأمور في مكة والمدينة وإعادتها إلى حظيرة الدعوة الفاطمية . واستطاع على الصليحي ، بما أوتيته من الذكاء أن ينهج نهجاً جديداً في بث عقائد المذهب الإسماعيلي ، فاتخذ من موسم الحج فرصة لنشر تعاليم المذهب . وكان يولى العامة ، وهم السواد الأعظم في كل مجتمع ، ومنهم الجنود ، وعن طريقهم تحجي الأموال ، اهتماماً خاصاً . وكان يجذبهم إليه بتدينه وتفقهه في عقائد المذهب السني . على أنه لم يظهر حقيقة مذهبه إلا لمن يثق به . وبذلك استطاع على الصليحي أن يوطد أقدام الفاطميين في بلاد الحجاز ، وأن يعيد الخطبة إلى الخليفة الفاطمي على منابرها . وقد أشاد الخليفة المستنصر بفضل على الصليحي وخلع عليه لقب « عمدة الخلافة »<sup>(٣)</sup> .

وكان موسم الحج من سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) فاتحة عهد جديد في نجاح الدعوة الإسماعيلية على يد علي الصليحي ، فقد قيل إنه بايعه ستون رجلاً من قبيلة همدان على نصرته الدعوة أو الموت دونها . وكان هذا من غير شك نصراً ، ولا سيما إذا عرفنا أن هؤلاء الذين بايعوه على نصرته الدعوة الإسماعيلية كانوا في عزة ومنعة من قومهم . وهكذا اعتقد على الصليحي في نشر دعوته على الخاصة والعامة على السواء .

(١) سجلات وتوقيعات وكتب مولانا الإمام المستنصر بالله مخطوط بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن - نشرها الدكتور عبد المنعم ماجد ( القاهرة ١٩٥٤ ) .

(٢) سجلات وتوقيعات المستنصر رقم ٣ ص ٣٤ .

(٣) المصدر نفسه . رسالة رقم ٢ ص ٣٢ .

وقد استطاع على الصليحي أن يجمع اليمن تحت لواء واحد . وهذا — كما يقول عمارة اليمنى<sup>(١)</sup> — أمر لم يعهد في جاهلية ولا إسلام ، « ولم يقع لأحد فيمن ملك اليمن ما وقع لعلي بن محمد الصليحي ، فإنه استولى على اليمن سهله وجبله وشماله وجنوبه وشرقه في مدة يسيرة بعد أن قهر ملوكه » . وهو لذلك لا يقل عن بعض القواد الفاتحين الذين ظهر اسمهم على صفحات التاريخ ، وذلك بفضل ما أحرزه من انتصارات وما قام به من أعمال مجيدة في خلال هذه المدة القصيرة من حكمه .

وكان على الصليحي إدارياً ممتازاً ، أمر ولاية الأقاليم بأن يسيروا وفق السياسة التي رسمها لتكون أساساً ومنهجاً ومرجعاً له في كل ما يشكل عليه . وكانوا يرجعون إليه في كل شئون الدولة . كما كان يدعوهم إلى « مسار » حاضرة ملكه ويجتمع بهم من حين إلى حين للنظر في مهام أمور الدولة ، ويذكرهم بواجباتهم والمسئوليات الخطيرة الملقاة على عاتقهم . وكانت أمور الدولة والدعوة مركزة في شخصه ، إلا أنه كان مقيداً بالسياسة التي رسمها لنفسه من إقامة الحق وبسط العدل . ومن هذا يتضح كيف حكم على الصليحي بلاد اليمن حكماً مستنبطاً<sup>(٢)</sup> .

وقد أدخل على الصليحي كثيراً من وجوه الإصلاح في بلاد الحجاز ، فخصص أموالاً وفيرة للبيت العتيق وتشجيع موسم الحج ، وأحسن معاملة الناس ، ونشر العدل بينهم ، واستألم إليه ، وردع القبائل التي كانت تعترض طريق الحج ، وتحمل ديات القتلى من ماله الخاص ، فكسب بحسن سياسته رضا الخليفة وثقة كثير من أهالي البلاد الإسلامية بتسهيل سبل الحج وإشاعة الطمأنينة ونشر الأمن .

كما كسا على الصليحي الكعبة بالديباج الأبيض ، وجلب الأقوات إلى الحجاز ، مما ألجج نفوس أهليه بالثناء عليه والثناء له . وقد أقام سياسته على أساس العدل والحق ، كما تقدم ، وأثر عنه أنه قال : « أنصف المظلوم واقمع الظالم » . وهذا يذكرنا بقول أبي بكر الصديق في خطبته التي ألقاها في اليوم الذي يابعه فيه المسلمون : « والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه »<sup>(٣)</sup> .

(١) تاريخ اليمن ( طبعة كبي Kay س ١٨ ) .

(٢) عمارة اليمنى ص ٣٠٨ .

(٣) المصدر نفسه .

وكان الخليفة المستنصر الفاطمي يبعث إلى علي الصليحي بأنباء الأحداث الهامة في مصر ليزيئها على الناس ويعلمها من فوق منابر بلاده . فلما أغار عرب بني هلال على إفريقية وهزموا المعز بن باديس في معركة حيدران (بفتح الحاء وسكون الياء وضم الدال) في المغرب ، بعث الخليفة الفاطمي إلى علي الصليحي بقباً هذا النصر<sup>(١)</sup> . وقد بلغ من تعاقب علي الصليحي بالخليفة الفاطمي أن كتب إليه يستأذنه في السفر إلى مصر ليحظى بلقائه ، وبعث إليه بكتابه مع الداعي ملك بن مالك ، فأرسل إليه الخليفة كتاباً يأذن له بالخصور إلى مصر . ولكن علي الصليحي ذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج ، واستخاف ابنه المسكرم بصنعاء ، واغتيل علي الصليحي على يد سعيد الاحول بن نجاح وهو في طريقه إلى مكة<sup>(٢)</sup> .

ولم تفتر علاقة الفاطميين بالصليحيين بوفاة علي الصليحي ، بل توثقت في عهد ابنه أحمد المسكرم . ذلك أن الخليفة المستنصر ما كاد يسمع بقباً مصرع علي الصليحي ، حتى كتب إلى ابنه المسكرم يعزيه في وفاة أبيه ويقره على ملكه ويعهد إليه بشئون الدعوة الفاطمية في اليمن وينصح له بأن يسير سيرة أبيه في بسط العدل وحسن السيرة<sup>(٣)</sup> .

ولم يفتر الخليفة المستنصر أن يقدق على المسكرم الألقاب والنعوت التي تقر به من الخليفة وتحبب فيه وتشجعه على السير وفق سياسة أبيه ، فلقبه بهذه الألقاب الضخمة التي كانت مألوفة في ذلك العصر : من هذه الألقاب : « أمير الامراء شرف المعالي عز الملك منتخب الدولة وغرسها ذو السيفين أبو الحسن بن الأجل الأوحد أمير الامراء عمدة الخلافة شرف المعالي تاج الدولة الإمام المظفر في الدين نظام المؤمنين<sup>(٤)</sup> » .

وكان أحمد بن علي الصليحي ضخيم الجسم فارع الطول فارساً مقداماً ، انصف بالشجاعة والكرم : وكان الخليفة المستنصر الفاطمي قد لقبه المسكرم سنة ٤٥٦ هـ ، وذلك في حياة أبيه ، واصبح ولياً للعهدة بعد وفاة أخيه الأكبر محمد الاعز ، وأخذ يتدرب على إدارة شئون البلاد حتى تسلم عرش الدولة الصليحية .

وكانت الصعاب تحيط بالمسكرم في أول عهده . فقد قتل أبوه وهو في طريقه لأداء

(١) سجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٥ س ٤٥ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ س ٢١٥ .

(٣) الهمداني وحسن سليمان س ٢١٦ .

(٤) سجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٦٠ س ١٩٧ .

فريضة الحج كما تقدم ، وأسرت أمه الملكة السيدة الحرّة الصليحية أسماء بنت شهاب وغيرها من حرائر بني الصليحي ، وقضى على خيرة رجال دولته . وتفاقم خطر بني نجاح كما سيأتي الكلام عليهم بعد قليل ، وكاد يقضى على الدولة الصليحية لأن أعداءها تربصوا بها الدوائر ، وأخذ بعض الولاة بتقضون عهدهم حتى كاد نفوذ الصليحيين يتلاشى من كافة أرجاء بلاد اليمن ، ولم يبق في أيديهم إلا التعسكر ، وكان العبيد قد حاصروه ، وتآمرت القبائل من كهلان وعذس ، وزيد ويحصب على الصليحيين ، وامتد التمرد إلى صنعاء نفسها حيث كان المسكرم يقيم فيها مع جماعة من الموالين من أتباعه .

ولعل السبب فيما أحاط بالمسكرم من صعاب وما انتشر في دولته من روح التمرد في أوائل عهده ، يرجع إلى أن أهل اليمن في ذلك العهد لم يألفوا الخضوع لسلطان حكومة مثل تلك الحكومة المركزية التي أقامها على الصليحي ، الذي لم يستطع برغم ما بذله من جهد أن يحمل اليمنيين على الخضوع لسلطة حكومة مركزية . كما أن خضوع اليمن كلها لسلطان على الصليحي لم يكن عن رغبة من أهلها ، بل كان نتيجة للحرب التي شنها على ولاياتهم المختلفة ، وما استعان به من دهاء وسياسة في سبيل توحيد دولته . لذلك لا عجب إذا وجد الحكام في موت على بن محمد الصليحي فرصة سانحة للعودة إلى ما كانوا عليه من دويلات وإمارات وولايات مستقلة .

على أن المسكرم قد صمم على قتال الخارجين عليه . واستطاع بفضل ما أوتيته من الشجاعة وصدق العزيمة أن يذلل هذه الصعاب وأن يتخذ من ذلك اليأس الذي ولدته هذه الحالة التي يكتنفها الاضطراب مصدراً للشجاعة والإقدام ، واستطاع هو وأعوانه أن يرفعوا الحصار عن صنعاء ، وتبعوا الأعداء وانتصروا عليهم . وكان أهم المواقع التي انتصر فيها جند المسكرم موقعة الملوى ، وموقعة ذى أشرق ، وموقعة زيد .

ولعل تخليص الملكة السيدة الحرّة أسماء أم الملك المسكرم يعد من أهم الأحداث التي وقعت في عهد هذا الملك الصليحي . وقد ذكر عمارة النبي أن السيدة الحرّة دبرت مؤامرة لقتل سعيد الأخول بن نجاح . وكان من أثر ذلك أن قتل أبوه وأسرت أمه . فلما آل الملك إلى المسكرم عمل على تخليص أمه من الأسر . وقد روى المؤرخون أن المسكرم وقف تحت طاقة أمه الملكة أسماء بنت شهاب فقال لها ، وكانت لا تعرفه : أدام الله عزك يا مولانا ، فقالت : مرحباً بأوجه العرب . ثم سألته من هو ، فقال لها : أنا أحمد بن علي بن محمد ، فقالت : إن أحمد بن علي في العرب كثير ، فأحسر لي عن وجهك حتى أعرفه ، فرفع اللثام عن وجهه ، فقالت : مرحباً بمولانا المسكرم ، من كان

بجيشه كجيتك فإخطأ ولا أبطأ ثم دخل رؤساء العرب فسلموا عليها وقد كشفت عن وجهها ، وكانت هذه عاداتها في أيام زوجها لسمو قدرها عنم يحتجب عنه النساء . فنزل المكرم عن ظهر جواده وسجد لله شكراً على ما أحرزه من نصر وعفر خده في التراب ، وأحرقت الدار التي اعتصم بها العبيد (١) .

اختطف المكرم أحمد الصليحي في مدينة ذي جبلة كثيراً من القصور والدور ، كدار العز التي كانت تطل على النهرين . كما شيد المساجد ، وبنى قبرا لأمه السيدة الحرة أسماء ، واستخلف عمران بن الفضل على صنعاء . وقد عرف المكرم — كما عرف أبوه من قبل — بحسن السيرة في الرعية . وآثر أن يعامل الناس بالحسنى حتى يجذب إليه قلوبهم ، كما نال تقدير الرعية بما أحرزه من نصر وظفر . وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٤٦٠ هـ خرج سعيد الأحول من بني نجاح من تهامة على رأس جيش كبير وقصد صنعاء ، فتصدى المكرم الصليحي لقتاله وانتصر عليه وأرغمه على الهرب . وأقبل الناس على المكرم يطلبون منه الأمان ، فأجابهم إلى ذلك . وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر رجب سنة ٤٦١ هـ توجه المكرم إلى صنعاء فدخلها ، وحمد الله وأثنى على الإمام المستنصر الفاطمي وعزا إليه ما أحرزه من نصر وما تم له من فتح . (٢)

وكان الخليفة المستنصر يهتم بما يجري في اليمن ويتابع ما يصيبه الصليحيون من نصر . فلما علم أن المكرم انتصر على سعيد الأحول بن نجاح ، كتب إليه يعلن سروره ويعرب عن اغتباطه بهذا النصر . (٣)

وقد ساد الأمان في أنحاء دولة المكرم بعد أن قضى على الفتن والثورات حتى عاد إلى صنعاء في شهر شعبان سنة ٤٦١ هـ ، وهنا عول على الأخذ بالثأر من سعيد بن الأحول وبني جلدته ليستريح من شرهم ، وكان يرى فيهم عدوه التقليدي ، فقام المكرم من صنعاء وقصد سعيداً الأحول في زييد ، ثم جاءته الأخبار بأن سعيداً تحرك إلى المخلاف أو إلى عدن ، فاتجه المكرم بمن معه من همدان وأهل حراز نحو جبل الشعر حيث عسكر سعيد ومن معه من الأحباش الذين استولى الرعب على قلوبهم ، وحمل المكرم عليهم وهزمهم هزيمة منكرة ، وقتل سعيداً الأحول وحمل رأسه إلى المكرم الصليحي ، كما قتل من بني نجاح

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : اليمن البلاد السعيدة ص ٨٩ — ٨٠ .

(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٣٠ .

(٣) مسجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٦٠ ص ١٩٨ .

بلال بن نجاح وأخوه مالك . وعاد المكرم إلى زبيد ، وصلى بالناس وخطب فيهم خطبة أفاض فيها بالدعاء لأبيه وحمد الله على ما أولاه من نعمة النصر عليهم والاختصاص به . ثم ترك المكرم زبيد بعد أن ولى عليها السلطان أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر الصليحي ، وعزم على متابعة فلول جند جياش بن نجاح ، ولكنه علم أنه هرب إلى بلاد الهند . (١)

وقد تتابعت كتب المستنصر الفاطمي إلى المكرم الصليحي الذي ظل على ولايته للفاطميين ، حتى لقد ولاء الخليفة ولاية عمان سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ، كما أمره بالعمل على تثبيت السيادة الفاطمية في بلاد الحجاز وأن يؤيد الأمير عبد الله بن علي العلوي أمير الأحساء . وفي ٢٩ ذى الحجة سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) بعث الخليفة المستنصر ببثه بتقليد أمير الجيوش بدر الجمالي والى عكاء منصب الوزارة ، وما بذله من جهود في سبيل إقرار الأمن والسكينة في ربوع البلاد .

توفي المكرم في سنة ٤٨٤ هـ بعد أن أصيب بالفالج ، وكان قد أوصى بأن يخلفه ابن عمه أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر . ولكن زوجته السيدة أروى الحرّة لم ترض بهذا الاختيار ، لأنها كانت تريد أن تولى ابنها عبد المستنصر ، وكان لا يزال طفلاً ، وكتبت إلى الخليفة المستنصر ترجوه أن يقر ابنها على بلاد اليمن ، وقد أجابها الخليفة الفاطمي إلى طلبها ، وأخذ يرسل الرسائل باسم عبد المستنصر . ولكن أمراء اليمن لم يعترفوا بهذا الغلام ، واحتدم النزاع بين الداعي أبي حمير سبأ بن أحمد الصليحي وأبي ربيع سليمان ابن الأمير الزواحي أخى الملكة أروى الصليحية . وهدد النزاع الذي قام بين الصليحيين والزواحيين النفوذ الفاطمي في بلاد اليمن فأرسل الخليفة المستنصر الفاطمي إلى طرفي النزاع ينههم عن هذا الخلاف ، ويأمرهم بطاعة السيدة الحرّة وابنها عبد المستنصر . ويشيد بالخدمات التي أداها على الصليحي وولده أحمد المكرم وزوجته السيدة الحرّة (٢) .

ويظهر أن النفوذ الفاطمي في اليمن كان لا يزال على قوته وأن الأحداث لم تكن لتستطيع أن تضعف من شأنه بدليل استجابة الفريقين المتنازعين لنداء الخليفة الفاطمي وتأيدهم السيدة الحرّة وابنها عبد المستنصر . وكتبت السيدة الحرّة إلى الخليفة الفاطمي ترف إليه هذا النبأ ، فرد عليها برسالة يبدى فيها سروره واعتباطه (٣) .

(١) الهدداني وحسن سليمان : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن من ١٢٧ - ١٣٢ .

(٢) سجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٣٨ من ١٣١

(٣) المصدر نفسه ، رسالة رقم ٣٦ من ١٢١ .

على أن عبد المستنصر لم يعمر طويلاً ، فقد وافته منيته ، واحتدم النزاع بين الداعي سبأ بن أحمد وبين السيدة الحرة ، لأنه كان يريد أن يشول إليه حكم بلاد اليمن وأن يتزوج منها . ولكن السيدة الحرة أبت عليه ذلك . فسار سبأ إليها على رأس جيش عظيم ، ونشب القتال بين الفريقين ، وطلب سبأ من الخليفة الفاطمي أن يتدخل في أمر هذا الزواج ، فكتب الخليفة إلى السيدة الحرة يأمرها بإجابة سبأ إلى طلبه حسبما للنزاع ودرماً للفتن ، فتزوجته نزولاً على أمر الإمام الفاطمي ، مما يدلنا على مبلغ نفوذ الفاطميين في نفوس اليمنيين .

وقد أنفذ الخليفة المستنصر رسولا إلى السيدة أروى فقال لها : « وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعي الأوحى المنصور المظفر عمدة الخلافة أمير الأمراء أبي حمير سبأ بن أحمد بن المظفر على ما حضر من المال ، وهو مائة ألف دينار عيناً وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف والطفاف » . ولم يسع السيدة الحرة إلا أن تلجى نداء الإمام الفاطمي ، ورضيت أن تتزوج بمن تكرهه . وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على ما كان للخلفاء الفاطميين من نفوذ روحى في بلاد اليمن ، لأن السيدة أروى اعتبرت الخروج على أمر الخليفة خروجاً على الدين<sup>(١)</sup> .

وقد ظلت السيدة الحرة على ولائها للخليفة المستنصر الفاطمي ، ترأسه وترأس أمه وأخته ، حتى وتق بها هذا الخليفة كل الثقة ، وعهد إليها أن تنظم الدعوة الإسماعيلية في الهندوفى عمان ، وأن تعين من قبلها دعاة ينشرون الدعوة في هذه البلاد<sup>(٢)</sup> . كما ظلت العلاقة بين الصليحيين قوية وثيقة بعد وفاة المستنصر فى سنة ٤٨٧ هـ . فبادرت السيدة الحرة إلى الاعتراف بالخليفة المستعلى برغم أنه لم يغز بإجماع أنصار الفاطميين فى مصر . فقد عمد الأفضل بن بدر الجمالى إلى إقصاء نزار بن المستنصر عن العرش ، وبإيعاخ أخاه أبا القاسم أحمد ، ولقبه المستعلى بعد أن هدد الأمراء وحملهم على تأييده . وكتب الخليفة الجديد إلى السيدة الحرة رسالة يرجع تاريخها إلى ١٨ صفر سنة ٤٨٩ هـ ( ١٠٩٥ - ١٠٩٦ ) يصف فيها ثورة أخيه نزار وتقلب وزيره الأفضل عليه ، وما كان من اعتقال نزار والقضاء على ثورته .

(١) عمارة اليمى : تاريخ اليمن ص ٣٣ .

Hamdani, Letters of al-Mustansir ( B.S.O.S. ) ( 1939 ), vol. ( ٢ )

III, part II, p. 321.

وفي سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ - ١١٠٢ م) آل حكم النعكر إلى الملك المفضل ، وكانت النعكر — التي اتخذ ملوك اليمن إحدى مدنها وهي ذو جبله حاضرة لهم — تحت حكم السلطان عبد الله بن محمد الصليحي أخى علي بن محمد مؤسس الدولة الصليحية في اليمن . وقد صحب المفضل وعبد الله علياً الصليحي في الحج وقاتلا معه وهما في طريقهما إلى الحج . فلما جلس المسكرم على عرش الدولة الصليحية ولي أسعد بن عبد الله الصليحي على النعكر ، ولكنه كان سبب السيرة ، فصرفه الملك المسكرم عنها . وقد عظم شأن الملك المفضل الصليحي وامتد نفوذه على كثير من أرجاء اليمن . وكان سمحاً عادلاً كريماً يسهر على تدبير شئون بلاده (١) .

وفي سنة ٥١٣ هـ (١١١٩ م) قدم إلى اليمن ابن نجيب الدولة ، وكان أميناً على خزانة الكتب الأفضلية ، متفقهاً في الدين ، غزير العلم واسع الدهاء ، إلى حد أنه تقرب إلى الملك وأصبح موضع ثقة ، فقلده الوزارة ووكل إليه النظر في شئون دولته والعمل على قمع الفتن والثورات (٢) .

ولما مات الملك المفضل سنة ٥١٥ هـ ، وخلفه المأمون البطائي ، قوى شأن ابن نجيب الدولة وتفاقت سلطته حتى آل إليه الأمر ، وكتبت السيدة الحرة إلى الخليفة الأمر الفاطمي في مصر ، وأرسلت إليه هدية من الجواهر النفيسة بلغت قيمتها أربعين ألف دينار ، وأعربت عن ولائها له ، وأكدت له رضا الشعب اليمني على ابن نجيب الدولة (٣) . كان عهد ابن نجيب الدولة عهد استقرار وأمن في ربوع اليمن ودعم لعلاقتها مع مصر الفاطمية حتى مات ، فكان ذلك إبتدأناً بقيام الفتن والثورات بين أمراء اليمن وحكامها من ذوى المطامع حتى استتب الأمر إلى الداعي محمد بن سبأ ، وهو من سلالة علي الصليحي مؤسس الدولة الصليحية ومن أشرف بلاد اليمن حتى مات سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) وآل الملك من بعده إلى عمران بن محمد بن سبأ .

ولم يتأثر دعاة الإسماعيلية في اليمن بما أصاب الفاطميين من نزاع وفرقة إثر وفاة الخليفة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) ، فظلت السيدة الحرة تقيم الدعوة للخليفة المستعلي وتدين له بالولاء ، برغم نفشى النزارية وتأييد الخولانيين لهم ، مما هدد بلاد

(١) عمارة اليمن : تاريخ اليمن ص ٣٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٣ و ٤٧ .



البنين يمثل ما أصاب مصر من فرقة ونزاع . ولما علم الخليفة الأمر (٤٩٥ — ٥٢٤) بذلك ، أرسل الداعي على بن إبراهيم بن نجيب الدولة إلى بلاد اليمن في سنة ٥١٣ هـ ليوقف إلى جانب السيدة الحرة ويعينها في صراعها مع أعدائها . وظل ابن نجيب الدولة يعين الملكة الحرة في تدبير شؤون البلاد واستقرار الأمور فيها . كما أرسل المأمون البطاحي وزير الأمر إلى ابن نجيب الدولة قوة من الفرسان ، تشد أزره في نضاله مع أمراء اليمن . ولكن هذا الداعي الفاطمي خرج على الفاطميين وانحاز إلى النزارية : فأرسل الخليفة الأمر يطلب منها تسليم الداعي ، فقبض عليه وأرسل إلى القاهرة حيث قتل<sup>(١)</sup> .

وقد حفظ الخليفة الفاطمي الأمر للسيدة الحرة لإجابته إلى طلبه وتنفيذ أمره ، فأرسل إليها في شهر ربيع الأول من سنة ٥٢٤ هـ يبشرها بمولد ولي عهده أبي القاسم الطيب ، ويطلب إليها أن تذيب هذا النبا في بلاد اليمن . ولما قتل الأمر في سنة ٥٢٤ هـ كتم الأمير عبد المجيد بن محمد (الحافظ) ابن المستنصر أمر هذا النطف<sup>(٢)</sup> . وبذلك صرفت الخلافة عن الإمام الطيب بن الأمر ، وساء ذلك التصرف السيدة الحرة ، فاعتبرت إمامة الحافظ باطلة ، برغم ما بذل من جهود في سبيل استمائه إليها ، وظلت السيدة الحرة تدعو للطيب على منابر بلادها ، بل عملت على إقامة الدعوة له في بلاد الحجاز . ولم يجد الحافظ بدأ من أن يرسل إلى آل زريع في اليمن يطلب إليهم أن يدعوه له ، وقلد على بن سبأ بن زريع حكم هذه البلاد ولقبه « الداعي المعظم المتوج المسكن بسيف أمير المؤمنين » .

وبذلك انقسمت الإسماعيلية ببلاد اليمن إلى فريقين : فريق يؤيد الطيب ، وفريق يؤيد الحافظ . وكان من أثر هذا الانقسام أن ساءت أحوال بلاد اليمن ، ولاسيما بعد وفاة السيدة الحرة في سنة ٥٣٣ هـ . في الوقت الذي آذنت الخلافة الفاطمية بالزوال ، وما لبث الأتابك نور الدين محمود بن زنكي أن تدخل في شؤون مصر ، وتقلد صلاح الدين الأيوبي الوزارة ، وقضى على الخلافة الفاطمية في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، وتطلع إلى بلاد اليمن ، فأرسل حملة بقيادة أخيه الأمير توران شاه ، الذي استولى على هذه البلاد ، وقضى على نفوذ الفاطميين فيها ، كما قضى على النفوذ الفاطمي في مصر نفسها .

هكذا استمرت هذه الوحدة في العقيدة الإسماعيلية بين مصر والمغرب والشام واليمن بضعة قرون ، كانت وحدة في النواحي السياسية والثقافية والحضارية . وكانت مدارس

(١) عمارة اليمنى ص ٤٣ — ٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٢ .

صنعاء والقاهرة والقيروان ودمشق تتبادل الدعاة والعلماء والطلاب ، وتترابط في وحدة فكرية عميقة الجذور . وإن انقسام العالم الإسلامي إلى كتلتين مذهبتين متنازعتين : الكتلة السنية في العراق ، ثم الكتلة الشيعية في مصر واليمن والشام قد انتهى إلى اتحاد عام شامل تحت راية الجهاد لطرد الصليبيين من بلاد الشام وإتقاذ العالم الإسلامي مما حاق به من هذا العدوان الأثيم (١) .

رابعا — اليمن قبل الأيوبيين :

( بنو نجاح في زبيد ( ٤١٢ — ٥٥٤ / ١٠٢١ — ١١٥٩ ) )

كان نجاح مؤسس دولة بني نجاح من أرقاء الحبشة وآخر نظار السراي في الدول الزيدية وقد حكم زبيد إلى أن توفي سنة ٤٥٢ هـ ( ١٠٦٠ م ) . واستولى الصليبيون إذ ذاك على المدينة المنورة التي أصبحت جزءاً من ممتلكاتهم إلى سنة ٤٧٧ هـ . وقد بعث علي بن محمد الصليحي جيشاً يتكون من خمسة آلاف رجل لقتال بني نجاح وأنزلوا بهم الهزيمة .

وبذلك استقر الملك للصليبيين وازدهرت الحضارة في عهدهم ، وظهر العلماء والفقهاء مثل جيش بن نجاح . وبما يدل على استتباب الأمر للصليبيين ما كان من وفود مائة وسبعين سلطاناً من أمراء اليمن على الصليحي يعلنون ولاءهم له ويلتمسون حمايته ، فرد عليهم بهذه العبارة : « إنا أدركنا ثأرنا واسترجعنا ملكنا ، وقد أحسنا إليكم وحملنا إليكم الصيانة والعفو » . فرد عليه أحدهم بقوله : « والله يامولانا لئن فعلت ذلك لتأزغنك قحطان في ملك تمامة ، ولئن كرهنه بذلك ليهيجن حفاظها ، ولتطلبن دخولها » . فأجاب بقوله :

لَا تَقْطَعَنَّ ذَنْبَ الْأَفْعَى وَتَرْسَلَهَا    إِنْ كُنْتَ شَهْمًا فَاتَّبِعْ رَأْسَهَا الذَّنْبَا  
ثم دارت الأيام دورتها على الصليحيين واسترد بنو نجاح سلطانهم على بلاد اليمن وقتلوا من الصليحيين خلقاً كثيراً . ويقص علينا عمارة اليمنى — وكان شاهد عيان لما كان يجري في اليمن من أحداث بني نجاح — فيقول : فرأيت شيخاً منهم ( يعني من الصليحيين ) اتقى الحربة بولده ، فنفذت منهما جميعاً ، نعوذ بالله من جهد البلاء . قال جيش : لا أنسى رأس الصليحي في عود المظلة وقراءة المقرئ : ( قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل

(١) أنظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٣٩ — ٢٤٨ واليمن : البلاد السعيدة

شيء قدبر<sup>(١)</sup> ، ولا أنسى قول الشاعر العثماني من قصيدة أشدها مرتجلا في هذا المقام  
بصف المظلة :

ما كان أفبع وجهه في ظلها ما كان أحسن رأسه في عودها !  
فانظر إلى تغاني الشعراء في إرضاء بني نجاح بقتل عدوهم الصليحي وتقييح وجهه في  
حياته مع تجميله في وفاته . وهذا يدل على الشهامة حتى عند وفاة العدو . ولا شك أن قصر  
عهد أسرة الصليحيين إنما ترجع إلى ما انصفوا به من البعد عن التسامح والعمو عند المقدرة  
الذي يجذب القلوب ويشيع الطمأنينة في النفوس .

وكان من أثر هزيمة الصليحيين على أيدي بني نجاح أن هاجر هؤلاء إلى الهند فراراً  
من حتى أعدائهم . وعاد الأمر في اليمن إلى بني نجاح ، وامتلات صدور الناس هيبة من  
أول ملوكهم وهو سعيد بن نجاح بعد مقتل علي الصليحي ، وتغلب الولاة على ما كان في  
أيديهم من القلاع ، واستقر الأمر في نهامة لسعيد الاحول بن نجاح في سنة ٤٧٣ هـ  
( ١٠٨٠ م )<sup>(٢)</sup> .

وقد تقلبت زبيد أكثر من مرة في خلال حياة سعيد الاحول بين أسرتين . وبعد  
سنة ٤٨١ هـ ( ١٠٨٨ م ) استمرت زبيد بصفة مستديمة تحت حكم بني نجاح حتى أفسحت  
دولتهم ( التي وقعت تحت حكم سلطان الوزراء ) الطريق إلى المهديين في سنة ٥٥٤ هـ  
( ١٠٥٩ م ) .

ولم يكن لأولاد فانك بن جياش من الأمر إلا الظاهر فقط ، كإقامة خطبة الجمعة  
بذكر اسمهم بعد اسم الخلفاء العباسيين ونقشه على السكة ، وركوبهم بالمظلة في أيام المواسم .  
أما السلطة الفعلية فقد كانت في أيدي الوزراء من الاحباش . وكانت السلطة في عهد  
المنصور بن فانك بن جياش ( ٥٠٣ - ٥١٧ / ١١٠٩ - ١١٢٣ ) في أيدي الوزراء  
كما كانت في عهد أبيه . ومن هؤلاء الوزراء أنيس الفانكي ، وهو من الاحباش أيضاً . وقد  
امتاز بالشجاعة ولو أنه انصف بالشدّة . وقد أثرى هذا الوزير ثراء كبيراً من الأموال  
التي استولى عليها من بني نجاح ، حتى إنه بنى قصرأ عظيماً اتخذه داراً لإقامته ، بلغ عرض  
كل قاعة من قاعاته ثلاثين ذراعاً ، وعرض كل مجلس من مجالسه أربعين ذراعاً ، وسك

(١) سورة آل عمران ٣ : ٢٦ .

(٢) عمار اليمني : تاريخ اليمن ص ٦٠ - ٦٤ .

النقود بإسمه ، وأراد أن يفتك بالمنصور بن فاتك ، ولكن المنصور دبر له كميناً وقضى عليه ، واستولى على أمواله ، وجواربه ، ومن بينهن جارية مغنية تدعى « علم » تزوجها المنصور فولدت له ابنة فاتك الثاني ابن المنصور الذي آل إليه الحكم في سنة ٥٠٣ هـ (١) .

وقد خلف أنيس الفاتكي الوزير وزراء امتاز عهدهم بالمنافسة على الوزارة ، وقامت الفتن في البلاد . ومن هؤلاء الوزراء أبو منصور مفلح الفاتكي ، وكان حبشياً كذلك ؛ امتاز بالآداب والشجاعة والكرم .

ولما مات فاتك الثاني انتقل حكم اليمن إلى فاتك الثالث ابن منصور ( ٥٣١ - ٥٥٣ / ١١٣٦ - ١١٥٨ ) . وفي عهده ظهرت في بلاد اليمن طبقة من العبيد ، منهم ربحان الأكبر ، وإقبال ، ومسرور ، الذين علا نفوذهم على نفوذ الوزير . وكان من أثر تأمرهم على الوزير مفلح أن أبعده بحجة محاربة ثوار عدن ، فظل مقصياً حتى مات سنة ٥٢٩ هـ ( ١١٣٤ م ) . وتقلد الوزارة من بعده طائفة من العبيد حتى زالت دولة بني نجاح وقضى عليها علي بن مهدي سنة ٥٥٤ هـ ( ١١٧٣ م ) . وقد اضطربت البلاد بعد وفاته ، ولم يستقر الحكم بعد أن استولى عليها بنو مهدي ، وكانوا من الخوارج .

( ب ) بنو مهدي ( ٥٥٤ - ٥٦٩ / ١١٥٩ - ١١٧٣ )

خلف المهديون أو بنو مهدي بني نجاح في زبيد . وكان علي بن مهدي والياً ونبياً في تهامة . جذب إليه أشياعاً أطلق عليهم الأناصر والمهاجرون . وفي سنة ٥٤٥ هـ ( ١١٥٠ م ) بدأ علي بن مهدي يحتل الحصون ويخضع البلاد ، واستطاع أخيراً أن يهاجم زبيد ويغزوها ( ١١٥٩ / ٥٥٤ ) .

وقد استقر علي بن مهدي في يوم الجمعة ١٤ رجب سنة ٥٥٤ هـ ( ١١٥٩ ) ، ولكن عهده لم يدم أكثر من شهرين ، ومات في شهر شوال من تلك السنة ، وخلفه ابنه المهدي ( ٥٥٤ - ٥٥٨ / ١١٥٩ - ١١٦٢ ) ، ثم ابنه الثاني عبد النبي الذي خلع وخلفه أخوه عبد الله ، ولكن الحكم مالبت أن عاد إلى عبد النبي من جديد . وقد بسط نفوذه على جميع بلاد اليمن ، وعلى تهامة وبعض المراكز والمدن المجاورة ، إلا عدن التي ظلت تدفع له الجزية لخمب (٢) .

(١) المصدر نفسه ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) عمارة اليمن : تاريخ اليمن ص ٩٦ - ٩٧ .

وقد ذكر المؤرخون أن عدد الإمارات اليمنية التي خضعت لسلطان عبد النبي بلغ خمسة وعشرين ، وأن ثروته قد زادت زيادة تتجلى فيما تركه من المجوهرات والقصور العظيمة والملابس الثمينة .

وكان بنو مهدي لا يثقون في أتباعهم إلا إذا ذبحوا أحد أبنائهم ، ولو كانوا من عشيرته . وكان هؤلاء الأتباع يتفانون في تحقيق هذه الرغبة ، وذلك بتضحية أبنائهم ، ولو كانوا من عشيرته . وكان هؤلاء الأتباع يتفانون في تحقيق هذه الرغبة ، وذلك بتضحية أبنائهم ، اعتماداً منهم بنبوة حكام هذا البيت وأنهم ينتسبون إلى علي بن أبي طالب . وقد استقر الحكم في بني نجاح حتى فتح الأيوبيون بلادهم في سنة ٥٦٩ هـ ( ١١٧٣ م )<sup>(١)</sup>

### ( ج ) بنو زُرَيْع<sup>(٢)</sup> في عدن

٤٧٦ - ٥٦٩ / ١٠٨٣ - ١١٧٣

نصب المسكرم الصليحي عباساً ومسعوداً ابني المسكرم حاكمين على عدن سنة ٤٧٦ هـ ( ١٠٨٣ م ) . وقد استمر حكمهما المشترك أجيالاً عدة . وقد انتهك أبو السعود وأبو الغارات استقلال ملك صنعاء ، ولكنهما لم يستطيعا الاستمرار بصفة دائمة . وكانت هذه الدولة أهم دول اليمن بعد الصليحيين . وقد دامت حتى فتحها الأيوبيون سنة ٥٦٩ هـ . وقد لقي ملوك بني زريع صعاباً كثيرة حتى توطد ملكهم في آخر الأمر في عدن . وكانت هذه الولاية من أمنع ولايات اليمن ، وبعد سبأ ابن أبي السعود بن زريع أول ملوك هذه الأسرة وكان تقليد أمراء هذه الولاية الحكم يصدر من الخليفة الفاطمي في مصر منذ عهد المحافظ . ومن الشعراء الذين مدحوا بني زريع شاعر مصري من الإسكندرية يدعى ابن قلاقس . ومن قصائده في مدح ياسر بن بلال وزير محمد بن سبأ :

سافر إذا حاولت قدراً سار الهلال فصار بدرأ

وفي أواخر عهد دولة بني زريع ضعف نفوذ حكامها حتى صار الأمر إلى وزيرهم ياسر بن بلال الذي قبض على زمام الحكم في عهد محمد عمران بن محمد بن سبأ ، فكان آخر ملوك بني زريع ، ثم دخل الأيوبيون بلاد اليمن في سنة ٥٦٩ هـ ( ١١٧٣ م )<sup>(٣)</sup> .

(١) المصدر نفسه ص ٩٩ .

(٢) بضم الزاي وفتح الراء وسكون الباء

(٣) عمارة اليمنى ص ١١٧ - ١١٨ .

خامسا — اليمن في عهد الأيوبيين :

وكما شاركت اليمن في الجهاد بعد ظهور الإسلام ، كذلك شاركت في الجهاد ضد الصليبيين والتتار . ذلك أنه لما قامت الدولة الأيوبية في مصر على يد صلاح الدين الأيوبي قامت المنازعات بين حكام اليمن : فكانت عدن ومخلاف الجند ( بفتح الجيم والنون ) في يد بني زريع ، وكانت صنعاء وبعض مخاليفها في يد بني حاتم ، وكانت صعدة ( بفتح الصاد وسكون العين والجوف في يد الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان الزيدى . وكان المخلاف السليمانى في يد الشريف غانم ابن يحيى بن حمزة ، وزبيد وما حولها في يد عبد النبي مهدي الحميرى . وقد قامت بين حاكم المخلاف السليمانى وحاكم زبيد منازعات انتهت بقتل غانم بن يحيى واستنجد أخيه بالخليفة العباسى فى بغداد ، فكتب إلى السلطان صلاح الدين فى مصر ، فأرسل أخاه توران شاه إلى اليمن سنة ٥٦٩ هـ ( ١١٧٣ م ) .

ويعتبر الفتح الأيوبي لبلاد اليمن أعظم حدث فى تاريخ بلاد العرب الوسيط ، فقد وحد أمراء بيت صلاح الدين بين اليمن ومصر وسورية وبلاد الجزيرة ، وفتح توران شاه زبيد وصنعاء ثم استولى على عدن ، وأتاب عنه حطان بن كامل بن منقذ السكتانى فى حكم زبيد وعاد إلى سورية ( ٥٧١ / ١١٧٥ ) ، فأضاف إليه أخوه صلاح الدين ولاية الإسكندرية ، وبقي نوابه فى اليمن إلى أن توفى سنة ٥٧٦ هـ ، فولى صلاح الدين عليها أميراً من قبله . ثم ولى أخاه طغتكين بن أيوب بلاد اليمن فبقي بها حتى مات سنة ٥٩٣ هـ ، وخلفه ابنه العزيز إسماعيل ، ولكنه أساء السيرة فقتله أمراؤه وخلفه أخوه الناصر .

وهكذا توالى ولاية الأيوبيين على بلاد اليمن قرابة نصف قرن ( ٥٦٩ — ٦٢٥ / ١١٧٣ — ١٢٢٨ ) .

وليك سلسلة نسب الأيوبيين فى بلاد العرب من حيث صلتها بالفرع الذى كان على حكم مصر ، نذكره هنا لأهميته لتاريخ بلاد اليمن .

هجريه	ميلاديه	الملك المعظم شمس الدين توران شاه ( الاول ) بن أيوب
٥٦٩	١١٧٣	
٥٧٧	١١٨١	الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ( وصل إلى اليمن ٥٧٨ هـ )
٥٩٣	١١٩٦	معز الدين إسماعيل بن طغتكين
٥٩٨	١٢٠١	الملك الناصر أيوب بن طغتكين
٦١١		الملك المظفر سليمان بن سعد الدين شاهنشاه ( الثانى )
	١٢١٤	( توفى سنة ٦٤٩ هـ )

٦١٢ - ٦٢٥ هـ الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن السكامل ١٢٥١ - ١٢٢٨ م

ساوياً - بنو رسول وبنو الرستى في اليمن

(١) بنو رسول (٦٢٦ - ٨٥٨ / ١٢٢٩ - ١٤٥٤)

خلف بنو رسول الأيوبيين في حكم اليمن سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م). وقد جاءوا إلى هذه البلاد مع الأيوبيين، وامتد نفوذهم من حضرموت إلى مكة، وظل حكمهم سائداً أكثر من قرنين. وهم ينتسبون إلى أول ملوكهم وهو علي بن رسول الذي يقفئ نسبه إلى الغساسنة الذين هاجروا من اليمن إلى الشام بعد انكسار سد مأرب.

وكان علي بن رسول قد ولي مكة سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م)، ثم استخلفه الملك المسعود الأيوبي على اليمن فبقي بها نائباً عن الأيوبيين الذين كانوا يحكمون مصر والشام، ثم استقل على بملك اليمن وأسس الدولة الرسولية، في تعز، وتلقب بالملك المنصور، وأعلن أنه يحكم اليمن نيابة عن الخليفة العباسي. ثم قتل على سنة ٦٤٨ هـ، خلفه ابنه الملك المظفر يوسف صاحب جامع المظفرية في تعز. وقد طال عهده باليمن حتى مات بقلعة تعز سنة ٦٩٤ هـ. وقد أرسل المظفر يوسف إلى قلاوون سلطان المماليك في مصر هدايا نفيسة وخطب وده واتحدت مصر مع بلاد اليمن في ذلك العصر.

خلف المظفر يوسف ابنه الأشرف عمر - وهو صاحب جامع المظفرية في اليمن - ولكن عهده لم يطل، وتوفي سنة ٦٩٦ هـ، ثم خلفه أخوه الملك داود. وفي عهده توطدت الوحدة بين اليمن ومصر، وتبدلت الهدايا والتحف بين حكام البلدين، واعتنق ملك اليمن عقائد المذهب الشافعي، واشتغل بالعلم، وعنى بجمع الكتب، حتى إن خزانة كتبه حوت مائة ألف مجلد. وقد قرب إليه العلماء وأجزل لهم العطاء حتى توفي سنة ٥٧٢١ هـ، خلفه ابنه المجاهد علي الذي عاصر كلا من محمد بن قلاوون المملوكي وابنه الناصر حسن. وقد أساء المجاهد السيرة فقتله أنصار المجاهد الذي أعيد إلى ملكه وعزل مرتين، ثم خلفه ابنه الأفضل عباس، ثم تابع بنو رسول علي حكم اليمن حتى زالت دولتهم سنة ٨٥٨ هـ (١٤٥٤ م).

لم يزد جند اليمن في عهد بني رسول على ألني فارس ، وكان هناك فوق ذلك نحو هذا العدد من الجند الغرباء . وكان زى الملك وعامة الجند يتكفون من القباء الضيق الأكام ويتمطقون بالمناطق المشدودة ، وعلى رموسهم تخافيف ، وكانون ينتعلون الخف المصنوع من الحرير ، وشعار الملك عبارة عن قماش أبيض يتخلله كثير من الورود .

وكان من أهم موظفي الدولة النائب والوزير والحاجب وكاتب السر وكاتب الجيش ومقدم ديوان المال ، وكان ملوك اليمن يحاكون سلاطين الممالك في مصر في زيهم وفي أكثر مظاهر السلطان ، حتى إن التوقيع على الرسائل كان على مثال توقيع سلاطين الممالك في مصر ، وقد تضمن هذا التوقيع عبارة : « الشاكر لله على نعمائه » .

وكان للتجار مركز في الدولة اليمنية ، لأن التجارة كانت أهم موارد الدولة في عهد بني رسول . وكانت بلاد الهند تمد اليمن بالسلع والسفن ، وتعتمد اليمن على أرباب الصناعات في مصر والشام . وكان أمراؤها يجزلون لهم الرواتب ويحسنون معاملتهم ويقربون إليهم مهرة الصناعات ، وبذلك يخففون من غربتهم ، ويمنحونهم ما يعوضهم عن ترك أوطانهم بما يوفرونه لهم من أسباب الرفاهية ورغد العيش . وكان اليمنيون يهتمون براحة الغرباء الوافدين على بلادهم ويكرمون وفادتهم ويفيدون من مواهبهم وكفأياتهم .

### ( ب ) بنو الرسى - الأئمة الزيديون ( بصعدة وصنعاء )

( ٢٨٠ — ٧٠٠ / ٨٩٣ — ١٣٠٠ )

ويرجع تاريخ بني الرسى إلى أيام الخليفة المأمون العباسي ، فقد خرج في عهده محمد بن إبراهيم ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، ودعا إلى نفسه إلى أن مات ، خلفه أخوه القاسم الذي بث دعائه - وهو علي حال استتاره زهاء عشرين سنة - فبايعه أهل مكة والمدينة والسكوفة وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم ، وكان به أهل البصرة والأهواز وحنوة على الظهور . وقد بعث الخليفة المأمون إلى بلاد اليمن جندا يطلبونه . فاقتفى في حى من البدو . ولما ولي المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ هـ شدد في طلب القاسم ، فانتفض عليه أمره ( سنة ٢٢٠ هـ ) وهرب إلى الهند وأقام بها حتى مات سنة ٢٤٥ هـ ، وعاد ابنه الحسين بن القاسم الرسى إلى اليمن ، وإليه ينسب بنو الرسى .



وكان أنصار بني الرسي من الزيدية وغيرهم يقولون بأحقية بالخلافة ، وكان أول من خرج منهم باليمن يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي ودعا إلى نفسه ، وتلقب الهادي وبويح بالإمامة سنة ٢٨٨ هـ . وقد جمع حوله جمعا من الشيعة وحارب إبراهيم بن يعفر ( وقيل أسد بن يعفر من أعقاب التبابعة بصنعاء وكحلان ) ، وملك صنعاء وضرب السكة باسمه ، والتف الناس حوله وقوى نفوذه بينهم . ثم عاد إلى صعدة حيث توفي سنة ٢٩٨ هـ .

وخلف يحيى بن الحسين ابنه محمد المرتضى ، ثم تتابع على ملك اليمن ملوك من بني الرسي حتى دب الخلاف بينهم وأناحوا بذلك الفرصة لتغلب السليمانيين أمراء مكة في القرن السادس الهجري . فدعا المنصور عبد الله إلى الخليفة الناصر العباسي ، وخطب له على منابر الديلم والجليل ، وظلت الحال على ذلك حتى جاء المتوكل أحمد السليمانى ، قبابع الزيدية أحمد ابن الموطىء بن الحسين المنتجب بن القاسم الرسي . وكان أحمد بن الموطىء فقيهاً أديباً عالماً نقيماً قواماً صواماً . وقد سار إلى صعدة واستولى عليها من يد أحمد المتوكل زعيم السليمانيين الذى بايعه سنة ٦٤٩ هـ . واستمر حكم الزيدية بصعدة في عقب أحمد بن الموطىء .

### جدول بني الرسي

٢٨٠ — ٧٠٠ هـ

#### (١) العهد الأول

أبو محمد القاسم الرسي ترجمان الدين بن إبراهيم طباطبا ( توفي ٢٤٦ هـ ) .

هجريه

٢٤٦

الحسين بن القاسم

٢٨٠

الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم ( توفي ٢٩٨ هـ )

٢٩٨

المرتضى أبو القاسم محمد بن يحيى ( اعتزل الحكم سنة ٣٠١ وتوفي سنة ٣١٠ هـ )

٣٠١

الناصر أحمد بن يحيى ( توفي سنة ٣٢٥ هـ )

—

المنتجب الحسين بن أحمد ( توفي سنة ٣٢٤ هـ )

٣٢٤

المختار أبو محمد القاسم بن أحمد

—

المنصور يوسف الداعي بن يحيى

—

القاسم المنصور بن علي الإلباني ( توفي سنة ٣٩٣ هـ )

٣٩٣

المهدي الحسين بن القاسم المنصور

هجريه

—	جعفر بن القاسم المنصور
٤٢٦	أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن
٤٣٠	الناصر أبو الفتح الديلمي بن الحسين بن محمد
٤٥٤	استولى الصليحيون على صنعاء
٤٨٠	عمران بن الفضل (حاكم صليحي)
—	سبأ بن أحمد (حاكم صليحي)
٤٩٢	حاتم بن الغشيم الهمداني
٥٠٢	عبد الله بن حاتم
٥٠٤	معن بن حاتم
٥٣٢	حميد الدولة حاتم بن أحمد بن عمران بن الفضل
٥٣٢	المتوكل أحمد بن سليمان بن محمد (توفي سنة ٥٦٦) (عاد الرسيون للحكم مؤقتاً)
٥٥٦	علي الوحيد بن حاتم (هزمه توران شاه (الأول) الأيوبي سنة ٥٦٩)

( ٢ ) العهد الثاني

هجريه

٥٩٢	المنصور عبد الله بن حمزة (ولد سنة ٥٦١ هـ وتوفي في المحرم سنة ٦١٤)
٥٩٤	استرد صنعاء
٤١٦	الناصر عز الدين محمد بن عبد الله (بصعدة حتى سنة ٦٢٣ هـ) المحرم
٦١٤	الهادي نجم الدين يحيى بن حمزة
٦٢٣	المهدي أحمد بن الحسين بن أحمد بن القاسم (توفي سنة ٦٥٦ هـ)
٦٥٦	المتوكل شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة
٦٨٠	المنتصر داود
٦٤٦	( فرع من قرابة بعيدة نسبهم مشكوك فيه )
—	أحمد الإمام
—	أبو محمد الحسن
—	يحيى بن محمد
—	حسن بن فلان

هجريه

٦٧٠

إبراهيم بن أحمد

٦٧٤

المطهر بن يحيى ( ضد المنتصر داود ، توفي سنة ٦٩٧ )

٦٩٧

محمد بن المطهر

—

المطهر بن محمد

—

صلاح الدين بن المطهر

### الدولة الموحدية في المغرب

( ١ ) عبد المؤمن بن علي ٥٢٤ — ٥٥٨ / ١١٣٠ — ١١٦٣

( ١ ) مولاه وتأسس :

يرجع نسب أبي محمد عبد المؤمن بن علي بن يعلى <sup>(١)</sup> إلى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان <sup>(٢)</sup> . وقد أجمع المؤرخون على أن عبد المؤمن ينتمي إلى قبيلة جومية الزنانية . وقد ولد في سنة ٤٨٧ هـ بضيعة من أعمال تلمسان ( ببلاد الجزائر الآن ) تعرف بتاجراً <sup>(٣)</sup> . وكان أبوه على فقيراً يشتغل بعمل الآواني الفخارية . وقد طلب عبدالمؤمن العلم بالمساجد من صغره ، فتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم ، واقتبس بعض علوم اللغة والدين ، ثم التقى بأستاذه محمد بن تومرت ، فأتم دراسته عليه . وقد عرف عبد المؤمن بشدة ذكائه ونال قسطاً وافراً من علوم الدين واللغة مع ما امتاز به من قوة الشخصية التي بوأته مكانة عالية بين الموحدين <sup>(٤)</sup> .

( ب ) بيئته :

بايع أصحاب المهدي محمد بن تومرت العشرة عبد المؤمن بن علي في شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ . وقد أطلق المؤرخون على هذه البيعة البيعة الخاصة ، لأن موت المهدي ظل في طي

( ١ ) ويقول المراكشي : ( المعجب س ١٧٦ ) هو عبد المؤمن بن علي بن علوي الجوي .

( ٢ ) ابن أبي زرع روض القرطاس ج ٢ س ١٢٦ — ١٢٧ .

( ٣ ) ضبطه بن خلكان ( وفيات الأعيان ج ٤ س ١٤٢ — ١٤٨ ) ناجرة ( بناء مربوطة في

آخر الكلمة ( بدلا من الألف المقصورة ) .

( ٤ ) وقد وصف ( المراكشي المعجب س ١٩٧ ) عبد المؤمن فقال : « وكان معتدل القامة وضيء

الوجه جهوري الصوت فصيح الألفاظ جزل المنطق . وكان محبا إلى النفوس لا يراه أحد إلا أحبه .

الخفاء أكثر من سنتين ، ثم بايع الموحدون عبد المؤمن البيعة العامة في ٢٠ ربيع الأول سنة ٥٢٦ هـ (١) . وذلك بجامع تينمل (٢) . وقد اختار الموحدون عبد المؤمن لزعامتهم لما عرفوه من اختصاص المهدي له وتقريبه إليه واطرائه لصفاته وتقديمه إياه في الصلاة ، إلى ما لمسوه من فضله وعلمه ودينه وقوة عزيمته وحب سياسته ورجاحة عقله وشجاعته (٣) . وقد قاتل جيوش ناشفين بن علي بن يوسف بتلمسان ثم ووهران حيث لقي حتفه (٤) . ثم استولى عبد المؤمن على مدينة فاس ثم على مدينة مراکش حاضرة المرابطين بعد حروب دامية . ثم قبض على إسحاق بن علي بن يوسف بن ناشفين آخر أمراء المرابطين وقتله ، وأنته القبائل من كل حذب وصوب ودخلت في طاعته ، واستوثق له أمر المغرب ولم يبق له منازع . ثم فتح عبد المؤمن بلاد إفريقية ، ومد نفوذه إلى برقه ، وفتح بلاد الأندلس ، وخطب له على جميع المنابر في هذه البلاد (٥) .

ولما أخضع عبد المؤمن جميع قبائل المغرب فسكر في فتح بلاد الأندلس وإعادة مجد المسلمين إلى ما كان عليه في عهد الأمويين وقد منى نفسه باسترداد طليطلة حاضرة النصارى وطردهم نهائياً من هذه البلاد . وتناقت نفسه للجهاد ، فعزم على غزو الفرنجة برأ وبجراً ، فأمر بإنشاء الأساطيل فبنى أربعمئة سفينة .

وقد قيل إن المهدي ابن تومرت لما توفي تطلعت نفوس العشرة للخلافة ، وكادت الفتنة تقع بين القبائل وتختلف كلمة الموحدين ، فاجتمعوا على عبد المؤمن بن علي لأنه لم تكن له بالمغرب قبيلة تنافس القبائل التي ينتمى إليها أصحابه العشرة . ولما أخذت البيعة لعبد المؤمن كان العشرة أول المبايعين له ، ثم تبعهم الخمسون من الأشباخ ثم كافة الموحدين .

### (ج) غزواته :

كانت حروب عبد المؤمن بعد أن بويع بالخلافة تهدف إلى غرضين هما : إخضاع القبائل المغربية للدعوة الموحدية ، والقضاء على الدولة المرابطية . ولم يكد عبد المؤمن

---

(١) ذهب ابن صاحب الصلاة (المن بالإمامة) إلى أن الموحدين أخفوا وفاة ابن تومرت ثلاث سنين وعلى ذلك تكون البيعة العامة قد تمت سنة ٥٢٧ هـ . وقد أجمع المؤرخون على أن وفاة المهدي كانت سنة ٥٢٤ هـ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٣٢ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٢٧ .

(٤) المراكشي : المعجب ص ٢٠٢ .

(٥) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٣٢ .

بلى أمور الموحدين حتى وجه همته إلى جهاد أعدائه « وقتال أهل الزيغ والعداء عن طاعته »  
فغزانا دالا (بسكون الدال مع اللام المقصورة) في سنة ٥٢٦ هـ وانتصر عليها . ثم غزا  
بلاد « درعة » وفتحها ، كما غزا قبائل تيفغر (بفتح التاء وسكون الياء) وفازار وغيانة  
(بكسر العين) .

وفي شهر صفر سنة ٥٣٤ هـ تفرغ عبد المؤمن لحرب المرابطين حتى سقطت دولتهم  
سنة ٥٤١ هـ . فقد حاصر مراسيا على جميع سواحل بلاده (١) . ثم جمع الجند وأخذ في  
صنع الأسلحة على اختلافها ، حتى كان يضرب من السهام وحدها عشرة قناطير في  
اليوم . ثم خرج عبد المؤمن في سنة ٥٥٨ هـ من مراکش حاضرة ملكة للجهاد ببلاد  
الاندلس ، ولما وصل إلى رباط سلا كتب إلى جميع أهالي المغرب وإفريقية والسوس  
يدعوهم للجهاد . فأجابه عدد كبير من الموحدين وقبائل العرب والبربر ، قيل إن عددهم  
بلغ ثلثائة ألف مجاهد وثمانين ألف متطوع من الفرسان ومائة ألف راجل (٢) .

#### (د) أهدافه — وفاته :

كان عبد المؤمن بن علي يؤثر أهل العلم ويجل العلماء ويعظمهم ويقربهم إليه ويحسن  
إليهم . كما كان يبعث في طلبهم من مختلف البلاد ويوفر لهم أسباب الراحة ويسكنهم بجوار  
قصره ويساعدهم على طلب العلم بتوفير المأكل والمشرب لهم في غير إسراف ولا تقتير . كما  
كان ينوّه بذكر المتفوقين . وقد قسم عبد المؤمن الطلبة إلى طائفتين : طلبة الموحدين ، وطلبة  
الحضر . وكان يقصد من ذلك تمييز طلبة المصامدة عن غيرهم (٣) ويحثهم على التعمق في دراسة  
عقائد المهدي بن تومرت . وكان عبد المؤمن نفسه من رجال العلم المعدودين . فقد كان  
كما وصفه ابن أبي زرع (٤) فصيح اللسان عالما بالجدل ، متفهما في علم الأصول ، حافظا  
للحديث صحيح الرواية متبحرا في العلوم الدينية والعقلية ، إماما في النحو واللغة والقراءات  
ملما بالتاريخ والسير ، أديبا شاعرا . وقد اختار عبد المؤمن كتابه من أديب عصره . كأبي  
جعفر بن عطية ، وأخيه عطية بن عطية . وأبي الحسن بن عياش وغيرهم .

(١) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٢٨ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٣) المراكشي : المعجب ص ٢٠٢ .

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٧٠ — ١٧٢ .

كما اتخذ عبد المؤمن وزراءه من العلماء الناهيين ، كعبد السلام بن محمد الجومى ، وأبى جعفر بن عبد المؤمن ، واتخذ قضائه من الفقهاء الناهيين أيضا ، كأبى عمران موسى بن سهل من أهل تينعل ، وأبى يوسف حجاج بن يوسف ، وأبى بكر بن ميمون القرطبي .  
وكان المرض أقوى من عزم عبد المؤمن ودأبه على الجهاد ، فقد وافته منيته فى شهر جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ .

(٢) أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن : ٥٥٨ — ٥٨٠ / ١١٦٣ — ١١٨٤

ولد أبو يعقوب يوسف فى ٣ رجب سنة ٥٣٣ هـ (١) . وقد عهد عبد المؤمن إلى ابنه الأكبر محمد بالخلافة من بعده ، فبايعه الناس ، وقد اضطرب أمر محمد بعد وفاة أبيه وكاد الحكم يخرج من أسرة عبد المؤمن ، وقد اتفق الموحدون بزعامة أخويه يوسف وعمر على خلعهم لأنه لم يكن يصلح للحكم (٢) وبايعوا أخاه يوسف ، ولم يتخلف عن بيعته سوى أخويه السيد أبى محمد صاحب بجاية وأبى عبد الله صاحب قرطبة ، وظلا على ذلك حتى سنة ٥٥٩ هـ حيث قدم عليه كل منهما وداناه بالطاعة وبايعاه (٣) .

كان أبو يعقوب يوسف حسن السياسة والتدبير محبا للجهاد . فلما ولى الخلافة سار على سياسة أبيه . فجمع الأموال الضخمة وأنفق أكثرها فى شراء السلاح وتدريب الجند . وقد قضى على ثورة « مَرِّ زِدغ » ( بفتح الميم والزاي وسكون الراء والذال ) الغهارى ( بضم الفين ) الصنهاجى الذى تبعه خلق كثير من غمارة وصنهاجة وأوربة ( بفتح الالف مع الهمزة والراء والباء وسكون الواو ) .

ودخل يوسف مدينة نازا (٤) وأحل به الهزيمة وقتله وحمل رأسه إلى مدينة مراکش حاضرة المرحدين . وكان ذلك سنة ٥٥٩ هـ .

وفى سنة ٥٦٥ هـ أمر يوسف بن عبد المؤمن أخاه أبا حفص بحرب نصارى الأندلس فسار على رأس جيش يتألف من عشرين ألف جندى سوى المتطوعين ، وغزا الموحدون طليطلة

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٧٢ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٣٦ .

(٣) ابن أبى زرع ج ٢ ص ١٨٣ .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٨٤ .

وأحوازها وسبوا النساء وغنموا الأموال . ثم عاد جيشهم ظافراً منتصراً . وفي سنة ٥٨٠ هـ عزم يوسف على حرب نصارى الأندلس<sup>(١)</sup> بجيش جرار يضم قبائل عرب إفريقيا وزناتة ومصمودة وغمارة وصنهاجة وأوربة ، وقد جاز هذا الجيش إلى بلاد الأندلس فنزل بمرسى جبل الفتح ( جبل طارق ) ثم سار إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى أشبيلية ، واستولى على مدينة شنترين ( بفتح الشين والتاء وسكون النون ) غربى الأندلس في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ . ثم غزا هذا الجيش الموحدى مدينة أشبونة ( اشبونة حاضرة البرتغال الآن ) ، على أن النصارى استطاعوا أن يستميلوا إليهم فريقاً من الجيش الموحدى . فقد أعلنوا ليلاً أن يوسف بن عبد المؤمن قد ارتحل عائداً إلى المغرب وأوقعوا بذلك الاضطراب في صفوف الجيش الموحدى ، وأخذ الجند يفرون من المعركة . ولما تأكد النصارى المحاصرون أن جند الموحدين قد انفضوا من حول يوسف بن عبد المؤمن فكروا الحصار ووصلوا إلى خيمة يوسف فزقوها وافتحموا هذه الاخبية ، فقاتلهم يوسف بسيفه ، ولكنه طعن عدة طعنات وقتل ستة من حرسه وثلاث من جواربه حاولن تلقى الضربات عنه حتى وقع على الأرض . ولما شعر الجيش الموحدى أن النصارى قد دبوا هذه الخدعة للتخلص من يوسف بن عبد المؤمن عادوا إلى القتال ، ونشبت بين الفريقين معركة انتهت بانتصار المسلمين . غير أن يوسف بن عبد المؤمن لم يلبث أن مات متأثراً بجراحه وهو في طريقه إلى الجزيرة الخضراء ، وذلك في ١٢ ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ وحمل جثمانه إلى تينمل ودفن بجوار أبيه<sup>(٢)</sup> .

كان يوسف بن عبد المؤمن من أعظم خلفاء الموحدين حبا للعلم وأمله ، وتقديراً لرجاله لأنه عاش في الأندلس في حياة أبيه الذى ولاه لإشبيلية . وقد ذكر المراكشى أن يوسف بن عبد المؤمن كان ملداً بكلام العرب حافظاً لآيائها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام ، وأنه لقي وهو في إشبيلية كثيراً من اللغويين والنحاة والمفسرين ، كأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الملك ( ويعرف بابن مُسلكون ) ، وكان من أحسن الناس

(١) بلغ يوسف بن عبد المؤمن أن ألفونس أغار على قرطبة وغرناطة ورندة ( بفتح الراء والذال وسكون النون ) ومالقه وغيرها . السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٣٧ .

(٢) ابن أبي زرع ج ٢ ص ١٩٣ .

قراءة للقرآن وحفظاً للغة وتبحراً في النحو . كما عكف يوسف على دراسة الفلسفة والفلك والطب . وقد أولع بجمع الكتب من أنحاء الأندلس والمغرب . وكان يبعث في طلب العلماء<sup>(١)</sup> . ومن أشهر علماء عصره الفيلسوف أبو بكر بن طفيل ، فقد كان عالماً بجميع فروع الفلسفة . وقد تتلمذ على أبي بكر الصائغ المعروف بابن باجة . ولابن طفيل مصنفات هامة في الطبيعيات والإلهيات وغيرها . كما خلف لنا رسالة « حى بن يقظان » المعروفة . ومن الفلاسفة الذين عاشوا في عصر يوسف بن عبد المؤمن الفيلسوف العظيم أبو الوليد ابن رشد ، والوزير الطبيب أبو بكر بن زهر ( بضم الزاى وسكون الهاء ) ، وكان ملماً بالطب حافظاً للغة والأدب ، مشاركاً في الفقه والحديث والتفسير ، ومنهم الفقيه الحافظ أبو بكر بن الجد . وكانت مدينة مراکش في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في العلوم والآداب والفنون<sup>(٢)</sup> . كما كانت تتطلع إليها أنظار المسلمين للدفاع عن حوزة الإسلام ضد مطامع النصارى في بلاد الأندلس .

( ٣ ) يعقوب المنصور : ٥٨٠ — ٥٩٥ / ١١٨٤ — ١١٩٩

ولد أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن من أم ولد رومية تسمى « ساحر » . وقد ذكر المراكشى أن البيعة أخذت له في حياة أبيه<sup>(٣)</sup> . وخالفه في ذلك جمهور المؤرخين ، فذكر ابن زرع أن الموحد بن بايعوه عقب وفاة أبيه<sup>(٤)</sup> ، وقد استوزر يعقوب المنصور ابن أبي حفص الهنتاني وقلد أخاه يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن قيادة الجيش الموحدى في الأندلس .

وقد صادف يعقوب المنصور في أوائل عهده مشكلتين كبيرتين : الأولى قيام ابن غانية في وجهه ، والثانية تمرد نصارى الأندلس وعملهم على إضعاف العرب والاستيلاء على أملاكهم في هذه البلاد .

(١) المراكشى ص ٢٣٧ — ٢٤٠ .

(٢) السلاوى . الاستقصا ج ٢ ص ١٤٠ .

(٣) المعجب ص ٢٦١ .

(٤) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٤٢ .



فقد وجه على بن يوسف بن ناشفين إلى الأندلس رجلين من قبيلة مسوفة هما :  
بجي ومحمد ، ويعرفان بابن غانية ( نسبة إلى أمهما ) . فأما بجي فسكان فارساً شجاعاً ، كما  
كان فقيها ورعاً ، وقد ولاه على بن يوسف مدينة بلنسية ، ثم ولاه قرطبة فظل على ولايتها  
حتى مات . وأما محمد فقد تقلد بعض أعمال قرطبة من قبل أخيه بجي ، فلما اضطرب أمر  
الأندلس بعد موت على بن يوسف وقوى نفوذ الموحدين ، خشى محمد بن غانية على نفسه  
فهرب جزيرة « ميورقة » مع أهل بيته وحشمه فلما استولى على جزيرتي منورقة ؛  
ويابسة ، وعاش في هذه الجزر ودعا للخلفاء العباسيين فيها ، وكان لمحمد من الأولاد :  
عبد الله وإسحاق والزبير وطلحة . وقد آل الحكم إلى ابنه إسحاق ثم إلى حفيده على بن  
إسحاق الذي حارب يعقوب المنصور الموحدي ببلاد المغرب ورأى الفرصة قد سحبت له  
بعد موت يوسف بن عبد المؤمن لانشغال الموحدين بحرب نصارى الأندلس . فاستولى  
على بن إسحاق بن غانية على بجاية ثم على قلعة بني حماد وما حولها من البلاد . وقد خرج  
يعقوب المنصور من مراكش حاضرة ملكه لحرب ابن غانية الذي لم يقو على حربه على  
الرغم من مساعدة بهاء الدين قراقوش قائد صلاح الدين الأيوبي له وانتصر يعقوب المنصور  
على ابن غانية وحلفائه من العرب والمصريين وعاد إلى بلاده سنة ٥٨٤ هـ (١) .

### ( ١ ) موقعة الأرك (٢) :

أما المشكلة الثانية التي واجهت يعقوب المنصور فهي تمرد نصارى الأندلس وطعمهم في  
أملك المسلمين في هذه البلاد . فقد عبر يعقوب المنصور إلى الجزيرة الخضراء ( ٣ ربيع  
الأول سنة ٥٨٥ هـ ) ، وسار حتى نزل شنترين ، وأغار على مدينة أشبونة وما جاورها  
وقطع ما صادفه من الثمار وحرق المزروعات وقتل وسبي كثيراً من الأهالي ، ثم عاد إلى  
المغرب بعد أن أسر ثلاثة عشر ألفاً من النصارى . ويعتبر هذا الجواز الأول إلى الأندلس (٣) .

وكان من أثر جواز يعقوب المنصور إلى الأندلس للمرة الأولى وما أحرزه على المسيحيين  
من نصر أن طلب الفونس الهدنة خمس سنين . فأجابه يعقوب إلى طلبه . ولكن ألفونس

(١) المراكشي : المعجب ص ٢٦٧ — ٢٦٩ .

(٢) بفتح الألف مع الهزة وفتح الراء .

(٣) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٦٢ .

لم يكذب يسترد فوته ويعد العدة لحرب الموحدين حتى نقض الهدنة وكتب إلى يعقوب المنصور كتاباً يعالِب إليه فيه أن ينزل له عن بعض الحصون والمدن . وبما جاء في هذا الكتاب :

« اللهم باسمك فاطر السموات والأرض وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح . أما بعد ، فإنه لا يخفى على ذى ذهن ثاقب ولا ذى عقل لازب ، أنك أمير الملة الحنيفية ، كما أنى أمير الملة النصرانية . وقد علمت الآن ما عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال أمر الرعية وإخلاقهم إلى الراحة . وأنا أسوهمم بحكم القهر وأخلاء الديار وأسي الذراري وأمثل بالرجال . ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم . إذا أمكنتك يد القدرة »<sup>(١)</sup> .

ولما تسلم يعقوب المنصور هذا الكتاب مزقه وكتب على ظهر قطعة منه قوله تعالى :  
( لارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون )<sup>(٢)</sup> . ثم ذيل هذه الآية القرآنية بهذه الكلمات : « ماترى لا ماتسمع »<sup>(٣)</sup> .

وقد دعا يعقوب المنصور الجند من الأمصار وضرب السراقات بظاهر مدينة مراکش . ولما تجمع الجند جاز بهم إلى بلاد الأندلس . وكان جيشه يضم قبائل العرب وزناتة ومصمودة وغمارة والمتطوعين من القبائل المغربية والأغراز والرماتة والموحدين والعبيد . وقد سار الخليفة الموحدى فى إثرهم فى موكب عظيم يضم أشباخ الموحدين والفقهاء والزهاد . ثم سار هذا الجيش لملاقاة العدو حتى أصبح على بعد مرحلتين من حصن الأرك ، وذلك فى ٣ شعبان سنة ٥٩١ هـ . وعقد يعقوب المنصور اللواء لآبى يحيى بن أبى حفص الهنتاتى وبقى هو على رأس الجيش للموحدى . ولقى جيش أبى يحيى الهنتاتى ظنا منه أنه جيش الخليفة يعقوب المنصور . وحى القتال بين الفريقين ، واستشهد أبو يحيى ، وأيقن العدو أن يعقوب المنصور قد قتل ، وأنه قد أحرز النصر على جيش الموحدين ، ثم أقبل يعقوب المنصور بجيشه وطرق جيش العدو الذى أصبح بين جيش يعقوب المنصور وجيوش زناتة والمصامدة وغمارة والعرب التى كان يقودها أبو يحيى الهنتاتى : فولى النصارى الأدبار وأعمل فهم

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٦٦ — ١٦٧ .

(٢) سورة النمل ٢٧ : ٣٤ — ٣٧ .

(٣) السلاوى ج ٢ ص ١٦٧ .

المسلمون السيف وأسروا عدداً كبيراً منهم ، ودخل الموحدون حصن « الأرك » ، ونجا الفونس ونحو ثلاثين فارساً من حرسه الخاص ( ٣ شعبان ٥٩١ هـ ) (١) .

ويذكر ابن زرع أن أسرى الأرك كانوا أربعة وعشرين ألفاً (٢) وأن يعقوب المنصور أطلق سراحهم . وقد ذكر ابن الأثير أن يعقوب المنصور نادى في عسكره :  
هن غنم شيئاً فهو له سوى السلاح .

ولما حلت الهزيمة بالفونس ، حلق رأسه ونكس صليبه وركب حماراً وأقسم ألا يركب فارساً ولا بعلاً ولا ينام على فراش حتى تنتصر النصرانية (٣) . ثم جمع جمعاً عظيماً ، فطلب يعقوب المنصور المدد من بلاد المغرب ودعا الناس للجهاد ، والتقى مع العدو في شهر ربيع الأول سنة ٥٩٢ هـ وهزم النصارى هزيمة منكرة ، وغنم مائتهم من أموال وسلاح ودواب . ثم سار إلى طليطلة فحاصرها وأغار على ما يجاورها من البلاد وفتح عدداً من الحصون ، ثم عاد إلى إشبيلية فأقام بها حتى سنة ٥٩٣ هـ . ثم سار إلى بلاد النصارى الذين طلبوا الصلح ، فعدل يعقوب المنصور عن متابعة الجهاد وأجابهم إلى الصلح وعقد معهم هدنة أمدها خمس سنين ، إذ نعى إليه خبر إغارة علي بن إسحاق وعاد إلى مدينة مراکش حاضرة ملكة المغرب . وكانت هذه الموقعة العظيمة آخر المعارك التي انتصر فيها المسلمون على نصارى الأندلس .

وقد طمع علي بن إسحاق صاحب غانية في بلاد إفريقية لغيب يعقوب المنصور الموحدى عن المغرب ثلاث سنين للجهاد ضد النصارى في الأندلس ، فقصده إفريقية ، وخرّب جنده هذه البلاد وعانوا فيها فساداً ، وعزم على المسير إلى بجاية ومحاصرتها ، ثم إلى بلاد المغرب نفسها . ولما انصل هذا النبا بمسامع يعقوب المنصور ، هادن النصارى في الأندلس حتى يتفرغ للحرب ابن غانية كما فعل من قبل (٤) .

(١) المراكشي : العجب ص ٢٨١ — ٢٨٢ . السلاوى : الاستقصاء ج ٢ ص ١٦٩ — ١٧٣ .  
(٢) ذكر ابن الأثير ( الكامل ج ١٢ ص ٤٨ ) أن عدد قتلى النصارى في موقعة الأرك بلغ مائة وستة وأربعين ألفاً ، وأن عدد الأسرى بلغ ثلاثة عشر ألفاً ، وأن المسلمين غنموا مائة وثلاثة وأربعين ألفاً من الخيام ، ومن الخيل ستة وأربعين ألفاً ، ومن البغال مائة ألف ، ومن الحمير مائة ألف . وقد قتل من المسلمين عشرون ألفاً .

(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٤٨ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٤٨ — ٤٩ .

(ب) بين يعقوب المنصور وصلاح الدين :

استولى الصليبيون على سواحل الشام وملكوا بيت المقدس في أواخر انقرن الخامس الهجرى ، ولم تستطع الدولة الفاطمية أن تخرج الصليبيين كما لم يستطع ذلك العباسيون لأن هاتين الدولتين قد تشارك لهما الضعف والوهن . فلما آل الأمر إلى صلاح الدين الأيوبي في مصر والشام ، عزم على الجهاد ، وأخذ يستولى على مواقع الصليبيين حتى استولى على بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ ، فتأهب الصليبيون لحرب صلاح الدين وتتابعت أساطيلهم على الإسكندرية . لذلك فكر صلاح الدين في طلب النجدة من يعقوب المنصور الموحدى وأرسل إليه هدية تشتمل على مصحفين ومائة درهم من دهن البلسان ، وعشرين رطلا من العود ، وستائة مثقال من المسك والعنبر ، وخمسين قوساً عربية بأوتارها ، وعشرين من النصول الهندية وعدة سروج موشاة<sup>(١)</sup>

وقد بعث صلاح الدين مع هذه الهدية كتاباً رقيقاً<sup>(٢)</sup> جاء فيه : « الحمد لله الذى استعمل على الملة الخنيفية من استعمر الأرض ، وأغنى من أهلها من سأله القرض ، وأجرى على يده النافلة والقرض ، وزين سما الملة بدرارى الذرارى التى بعضها من بعض »<sup>(٣)</sup> وكان عنوان الكتاب : من صلاح الدين إلى أمير المسلمين ، وفى أوله الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب . ويذكر السلاوى أن يعقوب المنصور لم يعجبه أن يخاطبه صلاح الدين بلقب أمير المسلمين لا أمير المؤمنين ، وأن يعقوب أمرها فى نفسه ، ولكنه أكرم وقادة رسول صلاح الدين دون أن يحقق له غرضاً . وقد قيل إن يعقوب المنصور جهز مع ذلك مائة وثمانين سفينة ، وحال دون استيلاء الصليبيين على سواحل الشام ، وقد دلل ابن خلدون<sup>(٤)</sup> بذلك على تفوق ملوك المغرب على ملوك المشرق فى إنشاء الأساطيل الجهادية .

ولا يبعد أن يكون استنجد صلاح الدين بيعقوب المنصور الموحدى راجعاً إلى حاجة

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٦٣ .

(٢) قال السلاوى ( الاستقصا ج ٢ ص ١٦٣ ) أن هذا الكتاب من إنشاء عبد الرحيم بن على

البيسانى المعروف بالقاضى الفاضل .

(٣) العبر ج ٦ ص ٤٩٠ .

الأسطول المصرى إلى بعض قطع من الأسطول البحرى الموحدى لدفع خطر الصليبيين الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام بجرأ ، إذ عنى المغاربة فى عهد الموحدىن خاصة ببناء الاساطيل البحرية لاجتياز البحر إلى عدوة الأندلس وليكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لحرب نصارى الأندلس الذين كانوا يتطلعون إلى استرداد أملاكهم من أيدي المسلمين بسبب الحروب المتصلة التى كانت تدور بين المغاربة ونصارى الأندلس . على أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن يعقوب المنصور الموحدى لم يقابل كتاب صلاح الدين بالارتياح لأنه لم يلقه بلقب أمير المؤمنين لا ينهض دليلاً على عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين ، وإنما كان ذلك راجعاً إلى أن يعقوب المنصور كان دائماً على أهبة الاستعداد لحرب نصارى فى الأندلس . وإذا كان صلاح الدين الأيوبي قد استرد بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ ، فإن يعقوب المنصور قد جاز جوازه الأول إلى الأندلس سنة ٥٨٥ هـ ، أى بعد استرداد بيت المقدس بسنتين ، ثم جاز الجواز الثانى إلى الأندلس حتى وقعت معركة « الأرك » الكبرى سنة ٥٩١ هـ . ومن هنا ندرك أن عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين الديوبى ، إن صح ما ذكره بعض المؤرخين ، كان راجعاً إلى تربص النصرانية بالإسلام فى الأندلس والمغرب معاً .

### (ج) إصلاحات يعقوب المنصور — أخيراً — وفاته .

اختط أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن مدينة الرباط ورسم حدودها وبدأ بنائها قبل وفاته (١) . فلما ولى ابنه يعقوب المنصور شرع فى إتمام بناء هذه المدينة ، وبنى بها مسجداً عظيماً متسع الفناء له مئذنة شاحخة على هيئة منار الإسكندرية ، يصعد إليها بغير درج ، وتسمى الآن منارة حسان .

وكان عبد المؤمن بن على قد هدم سور مدينة فاس فى أثناء حروبه مع المرابطين ، فأقام حفيده يعقوب المنصور هذا السور (٢) . وبما ساعد يعقوب على إقامة هذه المنشآت هذه الأموال الضخمة التى تدفقت على دولته . فقد ذكر المراكشى (٣) تحت عنوان

(١) المراكشى : المعجب س ٢٦٦ .

(٢) السلاوى : الاستقصا ج ٢ س ١٧٤ .

(٣) المعجب س ٢٥٥ — ٢٥٦ .

« اتساع الدولة وزيادة الخراج » أن يعقوب المنصور كان يرتفع إليه خراج إفريقية وجملته في كل سنة مائة وخمسين بغلا ، هذا من إفريقية (بلاد تونس الآن) وحدها ، ماعدا بجاية وأعمالها وتلمسان وأعمالها ، والمغرب وجزيرة الأندلس قاطبة .

وقد أحاط المؤرخون موت يعقوب المنصور ببعض القصص التي هي أقرب إلى الخيال . فقال بعض إنه بايع ابنه الناصر بعد عودته من موقعة الأرك ، ثم زهد في الدنيا وسأح في الأرض حتى وافته منيته . وقال بعض آخر إنه ذهب للحج وعاد منه زاهداً فمات في الطريق ودفن بالشام<sup>(١)</sup> . ولم يذكر أحد من المؤرخين أنه مات بالمغرب سوى عبد الواحد المراكشي ، فقد ذكر أن يعقوب المنصور كان يتوق إلى فتح مصر وأن ذلك لم يزل عزمه حتى مات في مستهل سنة ٥٩٥ هـ ، ودفن بتينمل مع آبائه<sup>(٢)</sup> . ويبدو أن ما ذكره المراكشي أقرب هذه الروايات إلى الصواب ، لأن قبر يعقوب المنصور مازال إلى الآن يزار بمدينة تينمل مع قبر أبيه يوسف وجده عبد المؤمن بن علي .

#### ( ٤ ) الناصر لربيع الله :

بايع يعقوب المنصور ابنه محمدا بالخلافة من بعده ، ثم جددت له البيعة بعد وفاة أبيه ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ<sup>(٣)</sup> . وقد ثار على الموحدين في مستهل عهد الناصر لدين الله رجل يدعى « علودان الفهاري » ، ولكن الناصر أحل به الهزيمة ، ثم سار إلى فاس فأتم سورها . وكان عبد المؤمن بن علي قد خربه في حروبه مع المرابطين ، ثم بنى أكثره في عهد يعقوب المنصور على ما تقدم . ثم اتجه الناصر لدين الله إلى حرب ابن غانية بإفريقية ، وكان قد استولى على المهديّة ، ثم نازل تونس سنة ٥٩٩ هـ ، وهزم الحامية الموحدية فيها ، وفرض الضرائب الفادحة على الأهليين ، وكادت إفريقية تقع في يده ، إذ عين العمال على الأقاليم ، وأمر بذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة على ما كانت عليه الحال في عهد المرابطين .

فلما علم الناصر لدين الله بذلك وهو بمدينة مراكش ، استشار الموحدين والفقهاء في أمر ابن غانية ، فأشاروا عليه بمسالمة . ولكن الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي أحد العشرة من صحابة المهدي بن تومرت (وقد أقام أبناؤه الدولة الحفصية بتونس) أشار

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٥٤ .

(٢) المراكشي : المعجب ص ١٧٤ .

(٣) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٩١ .

على الناصر بقتاله ، فعمل برأيه ، وسار الجيش الموحدى لحرب ابن غانية تؤيده سفن  
الاستطول بقيادة يحيى بن أبي زكريا المزرعى . فلما علم ابن غانية بقدوم الناصر ، فر من  
تونس إلى القيروان ، ثم اتجه إلى قفصة ثم إلى قابس ثم عاد إلى المهديّة<sup>(١)</sup> ، وحاصر ابن  
غانية وانتصر عليه ، ففر إلى بلاده سنة ٦٠٢ هـ . وفي سنة ٦٠٣ هـ قلد الناصر لدين الله  
وزيره الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاقى ولاية إفريقية ، فقبل هذا المنصب  
بعد تردد<sup>(٢)</sup> ، وبقي الحسك في عقبه بعد سقوط الدولة الموحدية بالمغرب .

### موقعة العقاب :

ولما أغار ألفونس ملك أسبانيا النصرانية على ثغور المسلمين في الأندلس ونهبها وسبي  
نساءها وأطفالها ، كتب الناصر لدين الله إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاقى  
صاحب إفريقية يستشيريه في الغزو ويطلب إليه المساعدة ، لم يلب نداءه ، وأخذ الناصر  
الموحدى يستعد لقتال نصارى الأندلس<sup>(٣)</sup> . وكان الناصر مستبداً برأيه ، فكتب إلى رعاياه  
بإفريقية والمغرب والأندلس يدعهم إلى جهاد العدو ، فأنته الجيوش من سائر البلاد .  
ثم خرج من مدينة مراكش في ٩ شعبان سنة ٦٠٧ هـ ، واجتاز البحر بجيوشه ، واستقر  
بجزيرة طريف حيث لقيه قواد الأندلس ورؤساؤها وفقهاؤها ، ثم نزل مدينة إشبيلية .  
وقد قسم الناصر جيشه إلى خمس فرق : لجعل العرب فرقة ، وزناتة وصنهاجة  
والمصامدة وغمارة وسائر قبائل المغرب فرقة ، وجعل المتطوعة فرقة ، وجند الأندلس  
فرقة ، والمرحدين فرقة . وأمر كل فرقة بأن تنزل في ناحية من نواحي الأندلس ، وأوقع  
بذلك الرعب في قلوب النصارى ، حتى طلب منه ملك ببلونة الأمان واستسلم له ، فأمنه  
وأكرمه . ثم حاصر الناصر حصن « سلبطرة » الذى لا يوصل إليه إلا من طريق واحد  
شديد الوعورة ، وأمر جنده بإحاطة هذا الحصن الذى امتنع على جيش الموحدين<sup>(٤)</sup> . وقد  
أشار أحد شيوخ الموحدين المحنكين على الناصر بأن يعدل عن حصار هذا الحصن لصعوبة  
اقتحامه وأن يسير إلى ناحية أخرى ، ولكنه أخذ برأى وزيره أبي سعيد بن جامع الذى  
أشار عليه بأن يظل على حصار هذا الحصن حتى تستسلم حاميته . وقد ظل الحصار نحو

(١) السلاوى : الاستقصاء ج ٢ ص ١٩٢ .

(٢) المصدر نفسه الجزء والصفحة .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٩٦ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٩٧ .

ثمانية أشهر<sup>(١)</sup> حتى مل الجند وقلت الأقوات . ولما سمع أفونس بما آل إليه جند المسلمين من ضعف ، دعا المقاتلين من سائر ممالك النصارى واحتل قلعة رباح من قائدها الموحدى أبى الحجاج يوسف بن قادس الذى فر مع رجاله .

ولما علم الناصر لدين الله الموحدى بذلك أغار على حصن « سلبطرة » واستولى عليه ، ثم التقى الجيشان فى حصن العقاب ، فسار النصارى نحو فرقة المتطوعين الموحدية ففضوا عليها ، وولى الناصر الأديبار ، تاركا وراءه مئات الآلاف من القتلى . وقد دارت هذه الموقعة المشهورة فى ١٥ صفر سنة ٦٠٩ هـ ، وتعتبر هذه الموقعة نذيراً بنهاية قوة المسلمين بالمغرب والأندلس على السواء ، بل لأنها تعتبر نذيراً بقرب سقوط الدولة الموحدية التى لم تقم لها بعدها قائمة<sup>(٢)</sup> .

وقد توفى الناصر الموحدى فى ١٠ شعبان سنة ٦١٠ هـ ودفن فى اليوم التالى .

#### ( ٥ ) سقوط الدولة الموحدية :

لم يتصرف الناصر لدين الله فى موقعة العقاب تصرف القادة المحنكين كما كان أسلافه من قبل ، كعبد المؤمن ويعقوب المنصور . وليس من عجب فى ذلك فقد تولى الحكم ولم يكن قد ناهز السابعة عشرة من عمره . ولذلك كان يصدر عن رأى وزرائه الذين كانوا يوجهونه كيف شاموا وشامت أهواؤهم ، حتى لقد اتهم المؤرخون وزيره أباسعيد بن جامع بأنه كان غير أمين فى نصحه<sup>(٣)</sup> .

وكانت هزيمة « العقاب » ضربة شديدة بعيدة الأثر فى تقريب نهاية الحكم الموحدى فى المغرب والأندلس . « فذهبت قوة المسلمين بالمغرب والأندلس من يومئذ ولم تنصر لهم بعدها راية »<sup>(٤)</sup> .

ثم مات الناصر لدين الله كدأ على ما لحق به من هزيمة منكرة فى موقعة العقاب ، وولى بعده ابنه أبو يعقوب يوسف الثانى ، وكان فى السادسة عشرة من عمره ، فطمع بعضهم فى الملك<sup>(٥)</sup> وصار الوزراء يولون صفار الأمرام لتحقيق أغراضهم وإشباع أهوائهم ،

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٨ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٣٢٢ .

(٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٧ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٥) المراكشى : المعجب ص ٣٢٧ .



ولم يخلص العرش الموحدى لاحد من بنى عبد المؤمن دون قيام الفتن والاضطرابات وانتشار الفوضى . وظلت الحال على ذلك حتى زالت الدولة الموحدية سنة ٦٦٧ هـ . (١٢٦٩ م) .

وبعد يوسف بن الناصر ولى أبو محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن (أخو يعقوب المنصور) ، وكان شيخاً كبيراً لم يستطع أن ينهض بأعباء الحكم ، فنزل عن العرش للعادل (بن يعقوب المنصور) ، وقد مات مخنوقاً بعد أن نزل عن العرش بثلاثة عشر يوماً ، وقد أبى كثير من الموحدين أن يبايعوا العادل ، واشتعلت نار الفتنة في المغرب والأندلس ، فدعا أخوه المأمون حاكم إشبيلية لنفسه ، وقامت الثورات في المغرب والأندلس .

وهنا كفر المأمون بالموحدين ومبادئهم وأخذ يلعن المهدي بن تومرت ويحط من شأن مبادئه وينادى بوجوب الرجوع إلى مذهب أهل السنة . وكان عهده عهد محن وخطوب ومنازعات تفرقت فيها كلمة الموحدين . فصارت جماعة معه وجماعة مع يحيى ابن الناصر الذى زالت دولة المرشحين في عهده<sup>(١)</sup> .

ثم مات المأمون سنة ٥٣٠ هـ وولى بعده ابنه الرشيد ، فاستمال الموحدين بإعادة الدعوة الموحدية إلى ما كانت عليه . وفي عهده حدثت أحداث تنذر بسقوط الموحدين ، كظهور قبيلة بنى مرين (بفتح الميم وكسر الراء) التى حاربها الرشيد ، فأحلت به الهزيمة غير مرة . ثم مات الرشيد غريباً في صحارى بستانه بمراكش سنة ٦٤٠ هـ ، وولى بعده أبو الحسن السعيد على (بن المأمون بن المنصور) الذى عقد الهدنة مع بنى مرين . ولم يلبث أن قتله بنو ريان حكام تلمسان ، فنزلى بعده أبو حفص عمر الذى تلقب بالمتعاضد . ولكنه لم يكفد يستقر على عرشه حتى خرج عليه أمير موحدى يدعى أبا العلاء لإدريس (ويلقب بأبى ديوس) الذى تحالف مع المرينيين ، ولكنهم غدروا به وقتلوه غيلة سنة ٦٦٧ هـ ، وكان ذلك نهاية الدولة الموحدية بالمغرب الأقصى ، وحلت محلها الدولة المرينية<sup>(٢)</sup> .

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٢١٥ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٣٢٦ .

# الباب السادس

## العلاقات الخارجية

### (١) علاقة العباسيين والفاطميين بالبيزنطيين

ذكر ابن الأثير (١) أن الهدنة أبرمت بين السلطان طغرل بك السلجوقي وإمبراطور الروم وأن الهدايا تبودلت بينهما ، وأن مسجد القسطنطينية قد عمر وأقيمت فيه الصلاة وذكر اسم طغرل بك في الخطبة .

وفي سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) غزت جيوش أحد ملوك الروم البلاد الإسلامية وأسر هذا الملك ، ففدا نفسه بأربعمائة ألف دينار . فلم يقبل إبراهيم ينال منه هذا العرض وحمله إلى السلطان طغرل بك . وقد طلب الملك البيزنطي من نصر الدولة بن مروان أن ينقل رغبته في اقتداء نفسه إلى السلطان ؛ فتم له ما أراد وأرسل طغرل بك الملك بغير فداء ، فعبّر عن سروره بهدية أنفذها إلى السلطان لم يحمل مثلها على حد تعبير ابن الأثير (٢) .

وكان من أثر ذلك الانتصار الذي أحرزه السلاجقة على جيش الروم في « أخلاط » غربي آسيا الصغرى سنة ٤٦٣ هـ وأسر « ديوجينيس رومانوس » وتعرضه للقتل على يد أحد غلبان السلاجقة أن أحضر الإمبراطور إلى السلطان ألب أرسلان السلجوقي . وعلى الرغم مما توقعه هذا الإمبراطور من القتل أو التشهير في بلاد الإسلام أو العفو ، قبل ألب أرسلان العفو وقبول الفداء ، واستقر الرأي بينهما على قبول الفداء وقدره مليون وخمسمائة ألف دينار ، وأن يكون جند الروم على أهبة الاستعداد إذا ما طلبها السلطان السلجوقي ، وأن يطلق أمرى المسلمين في بلاد الروم .

وقد أطلق سراح الإمبراطور مع جماعة من أمرائه وقواده ، كما منحه السلطان خمسة عشر ألف دينار يستعين بها على السفر إلى بلاده ، وعقد معه هدنة أمدها خمسون سنة ،

(١) الكامل ج ٩ ص ٢٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٠ .

وخلع عليه وردة إلى مأمته وشيعه فرسخا . ولما بلغ الروم نبأ هذه الواقعة خلعوا هذا الإمبراطور . فلما وصل إلى إحدى قلاعه وعلم بهذا النبأ لبس الصوف وتزهّد ، وأوفد إلى الإمبراطور الجديد رسولا يتقل إليه ما استقر عليه الرأى مع السلطان السلجوقى ، فأثر قبول المعاهدة ، ولكنه لم يستطع أن يرسل إلى السلطان غير مائتى ألف دينار وطبقا من ذهب عليه جواهر تقدر بتسمين ألف دينار ، وأكد الإمبراطور الجديد لآب أرسلان أنه يرسل المبلغ المتفق عليه لعجز الدولة عن ذلك . وقد أشاد الشعراء بهذا النصر المؤزر<sup>(١)</sup> .

وكانت العلاقة بين الدولة الفاطمية والبيزنطيين فى أوائل عهد المستنصر على ثوب من الصفاء . فى سنة ٤٢٩ هـ ( ١٠٣٧ م ) تم الاتفاق بين الخليفة الفاطمى والإمبراطور ميخائيل الرابع ( ١٠٣٤ — ١٠٤١ م ) على أن يطاق الروم خمسة آلاف من أسرى المسلمين مقابل عمارة كنيسة القيامة التى خربها الحاكم ، كما تم الاتفاق بين المستنصر والإمبراطور قسطنطين التاسع ( ١٠٤٢ — ١٠٥٤ م ) فى سنة ( ٤٤٦ / ١٠٥٤ ) الذى تعهد بأن يمد مصر بالغلل والأقوات لمقاومة المجاعة التى حلت بها فى هذه السنة . غير أن هذا الإمبراطور توفى قبل تنفيذ هذا الاتفاق ، واشترطت الإمبراطورة تيودورا ( ١٠٥٤ — ١٠٥٦ م ) على الخليفة الفاطمى أن يتعهد بمساعدتها إذا اعتدى على بلادها ، واشتدك الفريقان فى معارك برية كتب النصر فيها للفاطميين . ولكن أسطول البيزنطيين انتصر على الفاطميين فى مياه الشام وأسر كثيرا من قوادم فطلب الخليفة المستنصر المهادنة ، وأوفد فى سنة ٤٤٧ هـ ( ١٠٥٧ م ) القاضى أبا عبد الله القضاعى لتسوية الخلاف بين البلدين<sup>(٢)</sup> .

## ( ٢ ) معرفة العباسيين بالفاطميين

كان للعوامل السياسية أثر كبير فى عداة البويهيين للفاطميين ، لأنهم كانوا يخشون خطر الفاطميين على بلادهم . وقد ذكر المؤرخون أن عضد الدولة بن ركن الدولة البويهى استعد لغزو مصر ، ثم جمع العلويين ببغداد وسألمهم عن نسب الفاطميين إلى على فأقروه وشهدوا بذلك .

(١) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق من ٣٧ — ٤٢ . ابن الأثير : الكامل ج ١٠

من ٢٥ — ٢٦ .

(٢) أبو الفدا ج ٢ من ٦٢ . انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية من ٢٥٩ .

وبعتبر هذا العمل بدءاً لتدوين محاضر المجالس العباسية التي عقدت ببغداد في القرن الخامس الهجري ، وأنكر فيها نسب الفاطميين إلى آل البيت ، وذلك لأن العباسيين لما أدركوا عجزهم عن مناهضة الفاطميين والقضاء عليهم بالحرب ، وهالهم إقامة الخطبة للحاكم الفاطمي في بلاد الموصل ، فكروا في القضاء على مذهبهم بالطعن في نسبهم إلى علي وفاطمة ، أو بإثارة الشك على الأقل في هذا النسب في نفوس المسلمين .

وقد ذكر أبو المحاسن في تاريخه أنه في شهر ربيع الآخر سنة ٤٠٢ هـ ، أمر الخليفة القادر العباسي بتدوين محضر في نسب الخلفاء الفاطميين أشهد فيه القضاة والأئمة أن الحاكم الفاطمي وأسلافه لا ينتسبون إلى علي بن أبي طالب (١) .

ومن وقع على هذا المحضر الشريف الرضي وأخوه المرتضى ، وابن الأزرقي الموسوي ، ومحمد بن عمر بن يعلى العلويون ، والقاضي أبو محمد عبد الله بن الأقفاني ، والقاضي الجزري ، والإمام أبو حامد الإسفرايني (٢) والفقهاء أبو محمد الكشغلي (٣) والفقهاء أبو الحسين القدوري (٤) الحنفي ، والفقهاء أبو علي بن حنكان ، وأبو القاسم التنوخي (٥) ، والقاضي أبو عبد الله الصيمري (٦) .

على أن الفاطميين أخذوا يضاعفون جهودهم في نشر دعوتهم وصادفوا كثيراً من النجاح في هذه السبيل ، على الرغم مما تركه هذا المحضر من أثر في نفوس بعض المسلمين . لذلك نرى الخلفاء العباسيين يكتبون في سنة ٤٤٤ هـ محضراً آخر يطعنون فيه في نسب الفاطميين (٧) ،

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) كان من أئمة زمانه في الفقه ، حتى كان يحضر مجلته أكثر من ثلثمائة فقيه ، كما قام بالتدريس في مسجد عبد الله بن المبارك في قطيعة الربيع بن يونس ، وكان يحضر درسه سبعائة متفقه : الخطيب البغدادي ( تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣٦٨ - ٣٧٠ ) ، ابن خلكان ( وفيات الأعيان ج ١ ص ١٩ - ٢٠ ) .

(٣) فتح السكاف وضم الفاء ، نسبة إلى كشفل لاحدى قرى خراسان .

(٤) بضم القاف والدال ، انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بالعراق ، وكان من أشهر القضاة ، وله كتاب في الفقه يسمى مختصر القدوري .

(٥) هو علي بن المحسن بن علي بن محمد . اشتهر بالأدب ، وصحب أبا العلاء المرعي ، وأخذ عنه ، وتقلد قضاء كثير من النواحي كالمعائن وقرميسين . وألف كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ( القاهرة سنة ١٩١٨ - ١٩٢١ ) الذي ترجمه إلى الإنجليزية د . س . مرجليوث ( لندن سنة ١٩٢٢ ) ، وتوفى سنة ٤٤٧ هـ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١١٥ .

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٣٠ .

(٧) المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٣ .

ثم يكتبون في سنة ٤٨٨ هـ محضراً آخر لتنفير قلوب المسلمين من الفاطميين (١) . وكان هؤلاء الذين طعنوا في نسب الفاطميين مدفوعين في هذا الأمر بعوامل الخوف أو منساقين بميولهم وعدائهم للمذهب الفاطمي .

وكذلك كان الخليفة المستنصر الفاطمي لا يفتر عن الانتقام من الخلفاء العباسيين . ولذلك نراه يؤيد البساسيري في خروجه على الخليفة العباسي القائم ويتمهد بإمداده بالمال والرجال . ومن ثم يبعث داعيته الجريء المؤيد في الدين عبدة الله الشيرازي سفيراً من قبله لإثارة حساسة جند البساسيري وحثهم على إذكاء نار الثورة في وجه الخليفة العباسي . ولم يدخر الخليفة الفاطمي وسعاً في إمداد البساسيري بالأموال الضخمة والجند الذين بعث بهم إليه من بلاد الشام ، كما أرسل إليه كتاباً يعبر فيه عن تقديره لموقفه (٢) .

### ( ٣ ) عهدة الفاطميين بالحجاز :

وقد أخذ الفاطميون منذ عهد المعز لدين الله يهتمون ببسط نفوذهم في بلاد الحجاز ، لأنهم كانوا يعلمون أن من يسيطر على الحرمين الشريفين يتمتع بالزعامة الروحية في العالم الإسلامي كله ، ويكسب خلفه قوة أمام العالم الإسلامي من ناحية ، وأمام الشعوب التي يحكمونها وأمام العالم كله من ناحية أخرى . هذا إلى أن هذا الأمر يقلل من شأن الخلافة العباسية ، لأن أمير المؤمنين حقا هو الذي يستطيع أن يبسط نفوذه على الحرمين في مكة والمدينة (٣) .

وقد أقام الحسن بن جعفر أمير مكة الخطبة للمعز الفاطمي على منابر بلاده في سنة ٣٥٨ هـ (٤) ، كما أقيمت الخطبة لهذا الخليفة الفاطمي في المدينة المنورة (٥) . وبذلك انتشر النفوذ الفاطمي في بلاد الحجاز . وفي عهد العزيز انقطعت الخطبة للفاطميين (٦) ، وظلت

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٣٧ .

انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

(٢) المؤيد في الدين : السيرة المؤيدية ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة ورقة ١٨٤ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ( القاهرة سنة ١٩٥٠ ) ص ١٤ .

(٤) المقرئ : اتعاظ الحنفا ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٥) المقرئ : اتعاظ الحنفا ص ١٧٢ .

(٦) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٠١ .

السيادة الفاطمية مزعومة حتى سنة ٣٨٠ هـ حين أرسل العزيز الفاطمي حملة حاصرت مكة والمدينة وأعدت الخطبة للفاطميين ، وقطعت الدعوة للعباسيين<sup>(١)</sup> . وظلت الحال على ذلك حتى سنة ٤٠٠ هـ ، حين خلع أمير مكة طاعة الفاطميين ، ولكنه لم يلبث أن اعتذر<sup>(٢)</sup> إلى الخليفة الفاطمي ودخل في طاعته ؛ فعفا عنه وأعادته إلى إمارة الحرمين وأقام له الخطبة ونقش اسمه على السكة<sup>(٣)</sup> . وظلت بلاد الحجاز تدين بالطاعة للفاطميين في عهد الظاهر والمستنصر ، وأقام شكر بن أبي الفتح الدعوة للخليفة المستنصر في الحرمين حتى توفي سنة ٤٥٣ هـ<sup>(٤)</sup> .

ولما ولي محمد بن أبي هاشم إمارة مكة ، خلع طاعة الفاطميين ودعا للخليفة القائم العباسي ؛ فسير المستنصر على بن محمد الصليحي إلى مكة في سنة ٤٥٥ هـ فأعاد النفوذ الفاطمي إلى الحرمين . على أن الأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها مصر في أواخر عهد المستنصر حالت دون استمرار سيادتها على بلاد الحجاز ، بعد أن انقطع ما كان يرد إليها من أموال . فأعاد أمير مكة الخطبة للخليفة القائم العباسي ، وراسل السلطان ألب أرسلان السلجوقي سنة ٤٦٢ هـ .

#### ( ٤ ) علاقة الفاطميين بالمغرب وصقلية :

استمرت تبعية بلاد المغرب للفاطميين حتى ولها المعز بن باديس الذي خرج على الفاطميين وعلى المذهب الإسماعيلي ، وشد أزر أهل السنة ودخل في طاعة الخليفة العباسي ودعا له على منابر بلاده ونقش اسمه على السكة . ويؤيد هذه التبعية ذلك الدينار الذي ورد بمجموعة متحف برلين وقد نقش عليه : في الوجه الأول : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه . لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، محمد رسول الله . الوجه الثاني : باسم الله ضرب بمدينة عز الإسلام القيروان سنة إحدى وأربعين وأربعمائة . يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله »<sup>(٥)</sup> .

(١) نفس المرجع والصفحة .

(٢) المقرئ : خطط ج ٢ ص ١٥٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٨ .

(٤) ابن خلدون العبر : ج ٤ ص ١٢٢ .

أنظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٣٧ — ٢٣٩ .

(٥) حسن أحمد محمود ، بنو زيري وسياساتهم الداخلية ص ١٧٤ .

كما خطب المعز بن باديس للخليفة العباسي القائم (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) على منبر جامع القيروان (١) ، وأمر باتخاذ السواد شعار العباسيين .

ولأن من يتبع العوامل التي أدت إلى زوال السيادة الفاطمية ببلاد المغرب ، يرى أن ذلك يرجع إلى انتصار مذهب مالك وسيطرة فقهاء المالكية في القيروان على الدولة الزيرية ، في الوقت الذي شغل فيه الخليفة المستنصر الفاطمي بالفن والثورات والمجاعات .

ولم يقف المستنصر الفاطمي من هذه الأحداث الخطيرة التي تمحضت عن خروج إفريقية عن طاعة الفاطميين موقف المتفرج ، فقد عمل على الانتقام من بني زيري الذين خرجوا عليه برغم ما أسداه آباؤه لهم من مآثر فاطلق نحوهم قبائل الرياحية والزغبية (٢) من بني هلال .

وقد خرجت قبائل هلال وسليم وزغبنة ورياح وعدى والأثيج من مضاربهم بصعيد مصر سنة ٤٤٠ هـ وانقضوا على إفريقية ، وأوقعوا بالمعز بن باديس في موقعة حيدران (٣) (٤٤٣ هـ) ، ودخلوا القيروان وخربوها ، وأتوا على ترائبها الزاهر ، وضعف ملك بني زيري بعد ذلك حتى لم يعد يجاوز أسوار مدينة المهديّة (٤) . وقد طرب المستنصر الفاطمي لهزيمة الزيريين ، واستطاع أن يفتقم لنفسه منهم ، وعبر عن سروره في الرسالة التي بعث بها إلى علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن (٥) .

وقد ظلت الخطبة تقام للعباسيين في المغرب حتى قامت دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت . ولما توفي ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ (١١٢٨ م) خلفه عبد المؤمن بن علي ، الذي قطع الخطبة للخليفة العباسي المقتدي ، وتلقب بلقب أمير المؤمنين (٦) . والآن تنتقل إلى الكلام على علاقة الفاطميين بصقلية :

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٢) من بطون بني هلال الذين استقروا بصعيد مصر في عهد الفاطميين .

(٣) قطعت الخطبة للفاطميين في إفريقية سنة ٤٣٥ هـ وخرج العرب من مصر في طريقهم إلى بلاد المغرب في سنة ٤٤٠ هـ . ووقعت موقعة حيدران في سنة ٤٤٣ هـ ، أي أن زحف العرب استغرق ثلاث سنوات (٤٤٠ - ٤٤٣ هـ) .

(٤) حسن أحمد محمود : بنو زيري وسياساتهم الداخلية ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٥) سجلات وتوقيعات الإمام المستنصر بالله ، رسالة رقم ٥ ص ٤٥ .

(٦) أبو المحاسن ج ٥ ص ٥٠ - ٥١ .

ظل ولاية صقلية من قبل الفاطميين منذ أوائل القرن الخامس الهجري في نزاع متصل مع الروم . وكان لهذا أثره في إضعاف نفوذ الفاطميين في هذه الجزيرة . فلما ولي الأكلح أمور هذه الجزيرة ، جمع أهلها وقال لهم : « أحب أن أفرغكم من الإفريقيين الذين شاركوكم في بلادكم . والرأى لإخراجهم ، فقالوا : قد صاهرناهم وصرنا شيئاً واحداً<sup>(١)</sup> . ، على أن الأكلح لم يعبأ بذلك . وأرسل إلى الإفريقيين من أهل صقلية ، فلبوا طلبه ، وظل يحمي أملاكهم ويأخذ الخراج من أهل الجزيرة . غير أن هذه السياسة التي اتبعها هذا الوالي أساءت إلى أهالي صقلية : فسار فريق منهم إلى المعز بن باديس الصنهاجي أمير إفريقية وشكوا إليه ما حل بهم ، وهددوا بتسليم بلادهم إلى الروم . فسير معهم ابنه عبد الله<sup>(٢)</sup> الذي حاصر الأكلح وقتله . وثار فريق من الأهالي وولوا عليهم « حسن الصمصام » أخا الأكلح . ولكن هذا الوالي لم يكن حسن السياسة ، فثار عليه أهل الجزيرة ، واستعان بعضهم بالفرنجة ومنوهم الاستيلاء على البلاد ، فرحبوا بهذه الدعوة واستولوا على كثير من مدنها .

ولما رأى المسلمون ما حل بهم من الهزيمة ، سار فريق منهم إلى المعز بن باديس وطلبوا إليه العون على طرد الروم . فأرسل إليهم أسطولا غرق أكثر رجاله . ولم يلبث ابن باديس أن توفي ، وخلفه ابنه تميم ، فأبطل ذكر اسم الخليفة المستنصر الفاطمي في الخطبة (٤٤٣ هـ) ونشر الدعوة للقائم العباسي . وبذلك تقلص نفوذ الفاطميين في بلاد المغرب وصقلية ، وظلت الدعوة تقام لبني العباس في هذه البلاد حتى قامت دولة الموحدين كما تقدم . أرسل تميم بن المعز بن باديس أمير إفريقية أسطولا لمساعدة المسلمين في صقلية على طرد الروم منها . ولم يكدها الأسطول يصل إلى الجزيرة حتى قامت الفتنة بين أهلها وبين تميم بن المعز ، وانتهز الترمنديون هذه الفرصة ، وأخذوا يعملون على الاستيلاء على جميع بلاد الجزيرة ونفورها ، وضيقتوا الخناق على المسلمين واشتعلت الحرب بينهم وبين الترمنديين زمنا طويلا حتى اضطر المسلمون إلى التسليم ، وتم لروجر الترمندى الاستيلاء على الجزيرة سنة ٤٨٣ هـ<sup>(٣)</sup> .

(١) أمارى : المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٧٣ وما يليها .

(٢) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٣) أمارى : المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٧٢ .



هكذا فقدت الدولة الفاطمية نفوذها في صقلية بعد أن قام ولاتها بكثير من الإصلاحات فيها ، ونشروا في بلادها ألوية العدل ، وعنوا بحفر الترع وترقية الزراعة ، فزادت ثروة سكانها ، وعمت الخيرات فيها ، وافتن أهلها في ضروب الترف والنعيم . وظل المسلمون لا يمتازون عن النصارى في شيء ، يتمتع كل منهم بعقيدته وأسلوب معيشته : وقد تشبه نساء النصارى بنساء المسلمين فانتقبن النقاب الملونة ، وانتعلن الأخفاف المذهبة ، ولبسن الحرير الموشى بالذهب ، وتزين بكل ما يترزين به المسلمات : ولم يرهق الفاطميون النصارى بالضرائب ، بل اكتفوا بأخذ الجزية منهم : دينارين من أغنيائهم ، ودينار واحد من أرباب الحرف والصناعات .

وقد شهد عصر الخليفة المستنصر زوال النفوذ الفاطمي من بلاد المغرب وصقلية . ويرجع ذلك إلى انشغاله باخماد الفتن الداخلية التي صحبها الغلاء والوباء مما أدى إلى ضعف مصر . كما قطعت الدعوة للمستنصر بعد وفاة الصليحي في الين سنة ٤٧٣ هـ .

ولم يكن الفرنجة باستيلائهم على جزيرة صقلية ، بل تابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى ساحل أفريقيا الشمالي ، فاستولوا على المهديّة حاضرة الدولة الفاطمية الأولى .

### ( ٥ ) عهدة الفاطميين والعباسيين باليمن :

وقد راجت الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن على يد علي بن محمد الصليحي ( ت ٤٥٩ هـ ) . وكان أبوه من القضاة السنيين في هذه البلاد . وقد استمال عامر بن عبد الله الزواحي داعي دعوة الإسماعيلية في اليمن ، علي بن محمد الصليحي ، فتحول إلى المذهب الإسماعيلي وهو في حد ذاته سنة ، وتفقه فيه ، ثم حل محل عامر بن عبد الله بعد وفاته ، وأحيا الدعوة الإسماعيلية القديمة ، وكانت قد فترت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم . كما استطاع علي بن محمد الصليحي أن يحتل بعض قلاع اليمن ويقضى على مناوئيه ( سنة ٤٣٩ هـ ) . ولما استقرت قدمه في هذه البلاد ، « كتب إلى صاحب مصر ، وهو معد المستنصر من بني عبيد ، ووجه إليه هدايا ، فوجهه المستنصر إليه برايات وألقاب ، وعقد له الولاية (١) » ( سنة ٤٥٣ ) . ولم تأت سنة ٤٥٥ هـ حتى كان علي بن محمد الصليحي قد ملك معظم بلاد اليمن .

(١) الخمداني اليمني : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرظية ص ٤٣ .

(٢) تاريخ الإسلام - ج ٤ )

وقد استعان الخليفة المستنصر بعلي بن محمد الصليحي في إزالة نفوذ العباسيين من بلاد الحجاز وإعادة سلطان الفاطميين عليها . ولما تم له ما أراد قضى على الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها فيها ، ولكنه لم يلبث أن قتل في سنة ٤٥٩ هـ (١) وهو في طريقه إلى مكة ، وقام بالأمر من بعده ابنه الملك المسكرم بن علي الصليحي (ت ٤٧٨ هـ) ، ثم قامت من بعده السيدة أروى الحرة الصليحية زوجة المسكرم (٥٣٢ هـ) بنشر الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن ، تلك الدعوة التي لا تزال منتشرة على أيدي البهرة في الهند .

وقد استطاع علي الصليحي أن يوطد نفوذ الفاطميين في الحجاز وأن يعيد الخطبة للخليفة الفاطمي على منابرها ، فأشاد المستنصر بفضله وخلع عليه لقب « عمدة الخلافة » (٢) . وكان الخليفة المستنصر يبعث إلى علي الصليحي بأبناء الأحداث الهامة التي تقع في مصر ليذيعها على الناس ويعلمها من فوق منابر بلاده .

ولم تتبدل العلاقات بين الفاطميين والصليحيين بوفاة علي الصليحي سنة ٤٥٩ هـ ، بل توثقت في عهد ابنه أحمد المسكرم الذي أقره الخليفة الفاطمي على بلاد اليمن وعهد إليه بالاضطلاع بشئون الدعوة الفاطمية في اليمن (٣) . وظلت كتب المستنصر إلى المسكرم نواتيه لأنه ظل على ولائه للفاطميين . وقد عرف له الخليفة الفاطمي هذا الولاء ، فولاه عمان سنة ٤٦٩ هـ ، وأمره أن يعمل على تثبيت السيادة الفاطمية في الحجاز وأن يؤيد الأمير عبد الله بن علي العلوي أمير الأحساء (٤) . وقد ظلت السيدة الحرة على ولائها للخليفة المستنصر الفاطمي ، فعهد إليها بأن تنظم الدعوة الإسماعيلية في الهند وفي عمان ، وأن تعين من قبلها دعاة ينشرون الدعوة في هذه البلاد (٥) .

(١) ابن خلدون : ج ٤ ص ٢١٥ .

وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته ، فقال بعضهم إنها كانت سنة ٤٦٣ هـ ، وقال بعض آخر إنها سنة ٤٧٣ هـ . ولكن الرسائل التي تبودلت بين المستنصر الفاطمي وبين الصليحيين تؤيد موته سنة ٤٥٩ هـ . راجع سجلات المستنصر في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلندن *The Letters of Al-Mustansir* B. S. O. S. p. 323.

(٢) جاء في رسالة رقم ٢ (ص ٣٢) . وقد خوطب رسلك بما يذكره لك مما يقوى نفسك ويشرح صدرك ويشد أزرك . وزاد أمير المؤمنين في نعمتك « عمدة الخلافة » لاعتقاده عليك .

(٣) حسين الهمداني وحسن سليمان محمود : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ٢١٦ .

راجع سجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٢ ص ٣٣ .

(٤) راجع *Hamdani, Letters of Al-Mustansir (Beos), 1934, Vol, III, Part II, pp. 316 — 317.*

*Ibid.*, p. 321. (٥)

(٦) عمارة المسلمين بالصليبيين :

### (١) أسباب الحروب الصليبية

تطلق الحروب الصليبية على الحملات التي وجهها المسيحيون في أوروبا إلى الشرق من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري (الحادي عشر إلى الثالث عشر الميلادي) للاستيلاء على بيت المقدس من أيدي المسلمين . وتمتاز هذه الحروب في بدايتها على الأقل بصفتها الدينية وانعدام كل المميزات الجنسية والقومية ، إذ أصبح المتحاربون شعباً واحداً هو الشعب المسيحي . ومن ثم أطلق على هذه الحروب الحروب الصليبية .

ومن أهم الأسباب التي دفعت المسيحيين إلى خوض غمار هذه الحروب :

(١) ظهور السلاجقة في بلاد الأناضول وآسيا الصغرى التي انتزعوها من الدولة البيزنطية في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وهددوا القسطنطينية وانتزعوها بيت المقدس (٤٧١/١٠٧٨) من الفاطميين . وكان المسيحيون يزورون بيت المقدس في أمن وطمأنينة . فلما جاء السلاجقة وقفوا للصليبيين بالمرصاد وأثاروا بذلك الحجاج المسيحيين الذين كانوا لشدة تعلقهم بالدين في العصور الوسطى يعتقدون أن الحج إلى بيت المقدس يؤدي إلى غفران الذنوب والسعادة الأبدية .

وليس هذا عجباً لأن الناس في هذه الحروب ، وعلى الأخص في عهد الإقطاع ، كانوا يفترون بسبب جهلهم الآثام ، وكانوا يخشون قوة الكنيسة ويعتقدون أن لا منجاة لهم من هذه الآثام إلا بالأعمال الصالحة ، كالصوم والنقش في الملابس والحج إلى الأماكن المقدسة التي وطنها أقدم المسيح وصلب على أرضها من أجل خلاص العالم . فإذا كان ثواب الحج إلى هذه الأماكن عظيماً ، فإن ثواب قتال المسلمين ، أو الكفار (على ما كان يعتقد المسيحيون في ذلك الوقت) لتخليص هذه الأماكن المقدسة أعظم . ومع ذلك فإنه يبدو أن الأخبار التي ذاعت قبل الحروب الصليبية عن تعصب السلاجقة وسوء معاملتهم الحجاج مبالغ فيها .

(٢) ظهور الروح الحربية في الكنيسة ، تلك الروح التي قامت أول الأمر على المردة والمحبة والإخاء وحب السلام ولكنها لم تلبث أن أصبحت مصدراً لحروب دموية استمرت عدة قرون . وذلك يرجع إلى دخول العناصر المتبربرة في الدين المسيحي واحتفاظها بنزعتها

الحربية التي درجت عليها قبل اعتناقها هذا الدين ، وإلى رغبة الكنيسة في بسط نفوذها على الشرق كما فعل الإسلام من قبل وتأسيس مستعمرات لاتينية فيه ، ورغبة الكنيسة الغربية في السيطرة على جميع العالم المسيحي ليكون تحت سلطة حكومة دينية واحدة رئيسها البابا . أضف الى ذلك الروح التي كانت سائدة بين الفرسان والأشراف وميلهم إلى الحروب والمخاطر في سبيل الدفاع عن الكنيسة ورغبتهم في تكوين إمارات في الشرق ، ورغبة الرقيق في التخلص من نظام الإقطاع الذي كان يربطهم بالأراضي ، وكذا التخلص من أداء ديونهم أو من زوجاتهم أو من المحاكاة على أقرانهم من الجرائم .

( ٣ ) انتصار البابوية على الإمبراطورية وتفوق نفوذ البابا على غربي أوروبا مما جعل دعوته مسموعة وكلامه مطاعا .

( ٤ ) رغبة المدن التجارية مثل البندقية وجنوة وبيزا في نشر تجارتها في الشرق .

ومن العوامل التي مهدت السبيل لقيام الحروب الصليبية :

( ١ ) انقسام دولة السلاجقة عقب موت السلطان ملكشاه وتفكك الوحدة الإسلامية وعدم وجود زعيم قوى يجمع شتات القوات الإسلامية . أضف إلى ذلك ضعف الدولة الفاطمية وعدم قدرتها على درء خطر المسيحيين عن سواحل الشام ومصر .

( ٢ ) قيام المدن الإيطالية ، وخاصة جمهوريات جنوة والبندقية وبيزا ، وتغلب قواتها البحرية على قرصان البحر الأبيض المتوسط من العرب وأهل بلاد المغرب ، واحتلال النورمنديين جنوبي إيطاليا وصقلية مما سهل على الصليبيين عبور هذا البحر إلى فلسطين .

( ٣ ) تحول المجريين إلى المسيحية الأمر الذي فتح الطريق بين غربي أوروبا والشرق .

### ( ب ) الدعوة إلى الحروب الصليبية

استولى أحفاد طغرل بك على آسيا الصغرى وهددوا القسطنطينية . وقد قيل إن إمبراطور الروم أرسل إلى البابا أربان الثاني يطلب مساعدته ، كما قيل أيضا إن بطرس الناسك هو الذي أثار الحرب الصليبية الأولى بسبب ما كان يذمعه من اضطهاد السلاجقة حججاج المسيحيين . على أنه يظهر من أقوال المؤرخين أن بطرس الناسك لم يذهب قط إلى فلسطين ولم ير البابا أربان إلا بعد أن أعلنت الحرب الصليبية الأولى ، وأنه بعد إعلان الجهاد جمع شرذمة من الغوغاء رجالا ونساء وسار بهم إلى فلسطين . ومهما يكن من شيء فإنه مما لا ريب فيه أن

البابا أربان الثاني رحل في سنة ٤٨٨ م (١٠٩٥ م) إلى فرنسا وعقد في مدينة «كليمونت» مجتمعا حضره كثير من رجال الدين والفرسان ، وشرح لهم حال المسيحيين في بيت المقدس وما يلاقيه الحجاج المسيحيون من المشاق والآلام . ودعا النصارى إلى حمل السلاح والذود عن الهيكل المقدس .

ولم يكد البابا يتم خطابه حتى أحاط به الآلاف من الناس ، وأقسموا الإيمان على أن يأخذوا بناصر دينهم . فعلق البابا لكل من المتطوعين صليبا من الخشب على ذراعه الأيمن ، فأصبح هذا الصليب شعار الحرب . ومن ذلك الوقت أطلق على هذه الحروب اسم الحروب الصليبية . ثم أعلن البابا حماية الكنيسة لأملاك المحاربين وأسراهم ومضاعفة جزاء من يشترك فيها ، وغفران ذنوب الخطائين ودخول من يموت منهم في جنات النعيم . وقد بث البابا الأساقفة في طول فرنسا وعرضها لنشر دعوة الجهاد . ومن هؤلاء بطرس الناسك ، وكان خطيبا مفعوفا ، وسرعان ما سرت روح الحرب الدينية إلى نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم وتسربت إلى أعماق نفوسهم ، فهرعوا من كل صوب وحذب واتحدت أوروبا المتنازعة المنقسمة إلى دوقيات بعد سقوط الدولة الرومانية الغربية لأول مرة ، على حين كان المسدون إذ ذاك منقسمين على أنفسهم متنازعين .

وعلى أثر إعلان الدعوة إلى الحروب الصليبية اجتمعت طبقات من الفوغاء وساروا في غير نظام ولا استعداد تحت قيادة بطرس الناسك ، يريدون تخليص بيت المقدس . فجمعوا يهبون البلاد التي مروا بها ، مقترفين في طريقهم الجرائم الشنيعة ، حتى أدى الأمر إلى قيام الحربيين والبيزنطيين في وجههم . ولما وصلوا إلى القسطنطينية رأى الإمبراطور أن يتقى شرهم ، فساعدهم على السير إلى آسيا الصغرى والتقدم إلى «نيقيا» ، حيث قابلهم السلاجقة وأقروهم على بكرة أبيهم (٤٨٩ / ١٠٩٦) .

### (ج) الحرب الصليبية الأولى

في هذه الأثناء كان الاستعداد للحملة الصليبية الأولى قائما على قدم وساق في أكثر ممالك أوروبا . وقد قام البابا بتنظيم هذه الحملة ، فقرر أن تبدأ سيرها في ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦ م (٤٨٩ م) وأن يكون اجتماعها خارج أسوار القسطنطينية . غير أنه لم يكن لهذه الجيوش قائد يجمع شملهم ويوحد كلمتهم . أما الزعامة فقد هددت إلى عدد من خيرة الأشراف والقواد وأغلبهم من فرنسا وهم :

- ( ١ ) جودفري ذوق اللورين الاسفل مع إخوته .
- ( ٢ ) بولدوين .
- ( ٣ ) يوستيس .
- ( ٤ ) روبرت ذوق نورمنديا وابن وليم الفاتح .
- ( ٥ ) روبرت كونت فلاندر .
- ( ٦ ) ستيفن كونت شارتر .
- ( ٧ ) ريمون كونت تولوز .
- ( ٨ ) هيو أوف فيرماندوا .
- ( ٩ ) بوهيمند ذوق نورتم وابن أخيه تانكرد .

ولم يكن لهؤلاء الزعماء خطة مشتركة بل عمل كل منهم مستقلا عن الآخرين . أما ملوك أوروبا فإنهم لم يشتركوا في هذه الحملة ، إذ كان فيليب الأول ملك فرنسا وهنري الرابع إمبراطور ألمانيا مطرودين من رحمة الكنيسة ، وكان ملوك أسبانيا في حرب مع المسلمين ، على حين كان ملك إنجلترا شابا صغيرا لا يهجمه من أمور الدين شيء . لذلك سارت هذه الحملة تحت لواء البابا يقودها نفر من الأشراف . وكان سيرها على مثال البرابرة أثناء غزواتهم لرومة لا جيشا منظما بالمعنى المعروف مما جعلها تنوء بمطالب الحياة القومية .

وقد اتخذ كل زعيم طريقا خاصا مع جنده . وقد قيل إنهم بلغوا مليونا من الرجال والنساء والأطفال والخدم ، بينهم عدد من المحاربين يختلف بين ٢٠٠ ألف و ٣٠٠ ألف مقاتل . فلما وصلوا إلى أبواب القسطنطينية خشى الإمبراطور « أليكسيوس » عاقبة أمرهم ، لكنه استطاع أن يتفق مع بعض قوادهم على أن يردوا إليه ما عسى أن يستولوا عليه من أملاكه على أن يمدهم بما يحتاجون إليه من المؤن والدخائر .

ثم عبر الصليبيون البوسفور وحاصروا مدينة نيقية ، فنقل فابج أرسلان صاحب سلطنة الروم ملكه إلى قونية ، فانفق الروم مع السلاجقة على أن يدخلوها وحدهم . فغضب الصليبيون لذلك ، لأن الإمبراطور لم يسمح لهم بسلب المدينة . ثم تقدم الصليبيون إلى دوزيليم حيث هزموا جيوش أرسلان ، بينما تفرغ الإمبراطور البيزنطي لاسترداد آسيا الصغرى ويئس من الاتفاق مع الصليبيين ، فكلف عن مساعدتهم وأخذ يناهضهم لاسترداد ما دخل تحت حوزتهم .

وقد اختلف بولدوين وتانسكرد كل يريد أن تكون الأولوية لوائه ؛ فانسلخ بولدوين إلى الرها تلبية لدعوة أميرها ، فاستقل بها وأسس فيها إمارة لاتينية . أما سائر الصليبيين فقد زحفوا على أنطاكية وحاصروها ( أكتوبر ١٠٩٧ ) تسعة أشهر فأسوا فيها أشد آلام المرض والجوع حتى دب اليأس في نفوسهم ، ثم دخلوها عنوة ( ١٠٩٨ م ) ومثلوا بأهلها أشنع تمثيل وقتلوا منهم عشرة آلاف وأمروا عليها بوهيمند .

وباستيلاء الصليبيين على أنطاكية خلا لهم الطريق ، فاستأنفوا الزحف على أورشليم ، واقتصر الإمبراطور البيزنطي على إمدادهم بالمرشدين ، فدخلوها عنوة في يونيو سنة ١٠٩٩ م . وكان عدد جيش الصليبيين إذ ذاك أربعين ألفاً ، مما يدل على معظم الخسارة التي لحقت بهم منذ رحلوا إلى أرض المشرق . وقد حدثت على أثر دخول الصليبيين مذبح شنيعة قتل فيها أكثر من سبعين ألفاً ، حتى خاضت خيولهم في بحر من الدماء كما ذكر جودفرى في رسالته إلى البابا يهنئه فيها بالظفر .

وعلى أثر هذا الفتح انتخب جودفرى ملكاً على بيت المقدس لما امتاز به من البسالة والإقدام ، فاكتفى بلقب حامي قبر المسيح .

ثم أخذ الصليبيون يقتحمون المدن الباقية في فلسطين ، وسهل عليهم هذه المهمة تلك المساعدات التي كانت تقدمها أساطيل المدن الإيطالية ، فاستولوا على عكا ثم على صور ، وأنشئوا إمارة طرابلس وولوا عليها ريموند . وعلى أثر استيلاء الصليبيين على بيت المقدس عاد عامة جندهم إلى أوطانهم ، وبذلك انتهت الحرب الصليبية الأولى .

كان استيلاء الصليبيين على بيت المقدس أهم نتائج هذه الحرب . فلم يحفل الغربيون بالخسائر الفادحة التي حلت برجالهم . ولما عاد المحاربون إلى أوطانهم قوبلوا بكل مظاهر الحفاوة والترحيب ، وقد أثارت الحكايات التي نشرها المحاربون بين مواطنهم كثيراً من ضروب الحمية والحماس التي مهدت لهم السبيل لتنظيم حملة صليبية أخرى إلى المشرق . كما تكونت أربع إمارات لاتينية في الشام هي :

( ١ ) بيت المقدس ويحكمه جودفرى ثم أخوه بولدوين من بعده .

( ٢ ) أنطاكية وأميرها بوهيمند ثم ابن أخيه تانسكرد من بعده .

( ٣ ) طرابلس وأميرها ريموند .

( ٤ ) الرها وأميرها بولدوين .

كما استطاعت الدولة البيزنطية أن تسترد جزءاً كبيراً من آسيا الصغرى ، وبدأت جمهوريات جنوة والبندقية وبيزا تؤسس علاقاتها التجارية مع الشرق بفضل مساعدة الصليبيين ، ويحل إلى فلسطين كثير من الغربيين واتخذوها دار إقامة واندمجوا مع الأهالي وتصاهروا معهم ، وأصبحت هذه البلاد النائية وطناً لهم . كذلك قامت العلاقات بين أمراء الصليبيين وأشرافهم وفق نظام الإقطاع الذي كان سائداً في أوروبا . فكانت كل إمارة مستقلة عن الأخرى على الرغم من أنهم اعتبروا ملك بيت المقدس سيداً لهم . وأصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة السائدة بسبب تغلب العنصر الفرنسى : ولذلك أطلق العرب اسم الفرنجة على الصليبيين جميعاً .

ولتحقيق تضامن الصليبيين في الدفاع عن الأراضى المقدسة والعناية بالمرضى والجرحى والحجاج ، قامت عدة جمعيات دينية لتحقيق هذه الأغراض ، وأهم هذه الجمعيات : طائفة فرسان المعبد ، وفرسان القديس يوحنا ، ويسمى أعضاء هذا المعهد Templars وكان يتحتم على هؤلاء الأعضاء الطاعة والطهارة والعفاف . ولذلك انضم إليهم كثير من فرسان الغرب وأغدق عليهم الاغنياء الخيرات ، فأثروا وكونوا قلاعاً وضياعاً في أوروبا وآسيا .

#### (د) الحرب الصليبية الثانية (١١٠٠ - ١١٠٤ م) :

لم يحسن الصليبيون في الشرق سياستهم مع أنفسهم ولا مع إمبراطور الروم لما كان بينهم من المنافسة والحقد والضعف والمكائد . وطالما تحالف المسيحيون مع المسلمين ضد غيرهم من المسيحيين . وتمتاز فترة هذه الحروب بوجود زعيم قوى جمع شتات المسلمين هو عماد الدين زنكى الذى وجه همته نحو إخراج الصليبيين من الشرق . وكان عماد الدين عاملاً من قبل العباسيين على الموصل والعراق ذات العلاقات التجارية بأكثر بلاد الشام ، وفى سنة ٥٣٩ هـ (١٤٤٤ م) تقدم عماد الدين حتى استولى على الرها وهدد كلاً من أنطاكية وبيت المقدس ، ففزع الفرنجة من خطر هذا الهجوم ، وطلب الصليبيون فى الشرق معونة دول أوروبا . غير أن الحال فى أوروبا قد تبدلت بوفاة البابا أربان الثانى ، فلم يلب أهل أوروبا نداء الصليبيين بنفس الروح القديمة ، وذلك لقيام النزاع بين رجال الكنيسة على البابوية وضغف البابوات أنفسهم ، وازدياد ثروة أهل أوروبا لرواج تجارتهم مما أدى إلى تغيير يذكّر فى حالة الشعوب .



ويشغل المصالح السياسية أذهان الناس لم يعودوا يهتمون بتأييد الكنيسة ، وبدءوا  
يمتقدون أن سلطة البابا يجب ألا يتعدى سلطته الروحية . أضف إلى ذلك إزدياد قوة  
الملكية في عهد لويس السادس ملك فرنسا ، وتأسيس رودجر النورمندی مملكة تضم  
صقلية وجنوبي إيطاليا ، وازدياد الثروة وازدياد النزعة الاستقلالية في مدن سهل لومباردي ،  
وإيقاظ الحركة الفكرية ، إذ بدأ الناس يفكرون تفكيراً حراً غير متأثر بالتعصب الديني .  
كما كان لدراسة القانون الروماني أثر بعيد في حرية الفكر ، وأخذ الشعراء ينظمون  
قصائدهم في الغزل والخمر . وهكذا أضحى الناس لا يفكرون إلا في التمتع بمظاهر هذه  
الحياة الجديدة .

لذلك كله أصبح من الصعب أن تنشب حرب صليبية أخرى . ومع ذلك فقد استطاع  
برنارد أوف « كليرفو » ( Bernard of Clairvaux ) أن يجمع بحسن بيانه وقوة  
حجته عدداً كبيراً من المسيحيين للدفاع عن البلاد التي كلفتهم ثمناً غالياً من المال والرجال .

على أن هذه الحرب تمتاز عن الحرب الصليبية السابقة بانضمام لويس السابع ملك فرنسا  
وكبيراد الثالث إمبراطور ألمانيا بعد بضعة شهور . ولكن الفرنسيين والألمان اختلفوا  
بادئ ذي بدء في خطة العمل حتى اضطروا إلى مواصلة سيرهم إلى الشام بطريق البحر ،  
فوصل الفرنسيون إلى أنطاكية . أما جيش الألمان الذي كاد أن يستأصل بدسيسة إمبراطور  
الروم فقد سار إلى عكا ، واتفق الفريقان على الاستيلاء على دمشق ليسيطروا على الطريق  
الداخلي الموصل إلى الشام ، وارتكبوا بذلك خطأً حريباً ، لأن أمير دمشق كان موالياً  
للصليبيين ، غير أن قوات عماد الدين زنكي ( الذي توفي سنة ١١٤٦/٥٤١ ) أحاطت بهم  
من كل جانب تحت قيادة ابنه سيف الدين الذي خلفه في ولاية الموصل ، ونور الدين  
محمود الذي خلفه فيما بعد في ولاية حلب ، واضطر الصليبيون إلى التقهقر ، وأرغم كيزاد  
الثالث إمبراطور ألمانيا على العودة إلى بلاده بسبب مرضه ، وتبعه ملك فرنسا بعد قليل .

ويعتبر ذلك إخفاقاً تاماً للصليبيين ومشجعاً للمسلمين . وقد هب هذا الإخفاق الظروف  
لاستيلاء نور الدين على دمشق سنة ١١٥٤/٥٤٩ ثم على حلب سنة ١١٥٩/٥٥٤ ، فعمل  
نور الدين على الاستيلاء على الولايات اللاتينية في الشام ، لولا انتقال ميدان القتال إلى مصر .  
وقد أخفقت الحرب الصليبية الثانية إخفاقاً تاماً وساعدت على تقوية الوحدة بين  
المسلمين . كما ظهر ضمف الصليبيين في الشام ، فقل عدد الحجاج ، وضجر أهل أوربا لهذا

الإخفاق ، فلم يفكروا في قيام حرب صليبية أخرى قبل وقت طويل .

### ( هـ ) الحرب الصليبية الثالثة

اشتهر في هذه الحرب زعماء كثيرون من المسلمين ، منهم نور الدين وصلاح الدين . أما نور الدين فقد قوى مركزه في الشام باستيلائه على دمشق وحلب كما تقدم ، وأصبحت مملكة الصليبيين معرضة لهجمات المسلمين ، غير أن مسرح القتال انتقل فجأة إلى مصر بسبب ضعف الخلافة الفاطمية عقب موت الوزير الصالح طلائع بن رزيك ( ١١٦١/٥٥٧ ) واستيلاء أسد الدين شيركوه ( ومعه ابن أخيه صلاح الدين ) على بليس ثم على القسطنطين . ولكنه اضطر إلى العودة إلى الشام بعد أن وقف على ضعف مصر ، وأخذ يعمل على الاستيلاء عليها ، وفكر في إعداد حملة ثانية على مصر . ولكن سرعان ما فكر الصليبيون في إرسال حملة لغزو مصر ، وأغاروا على بليس ، فاستنجد الخليفة الفاطمي العاضد بنور الدين الذي أنفذ إلى مصر أسد الدين شيركوه على رأس جيش كثيف من التركمان ، فوصلوا إلى القاهرة وانضم إليهم المصريون ، وأرغم عموري على العودة إلى فلسطين ، فدخل شيركوه القاهرة ورحب به المصريون وخلع عليه الخليفة الفاطمي .

ثم بدأ الوزير شاور يكيد المسكند لاسد الدين شيركوه الذي قتله في يناير سنة ١١٦٩ ( ٥٦٥ هـ ) واستقر في مكانه في الوزارة . غير أن المنية عاجلت شيركوه في مارس من هذه السنة ، تخلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي في الوزارة ، فلم يلبث أن أزال الخلافة الفاطمية ، وامتد سلطانه إلى حلب والموصل بعد وفاة نور الدين ، ثم إلى غربي آسيا ، وأصبح الصليبيون محصورين بين قوات صلاح الدين من كل جانب .

اشترك صلاح الدين في الحرب الصليبية الثالثة اشتركا كما أكتسبه تلك الشهرة التي يعرفها له التاريخ ، حيث استولى على كثير من القلاع والحصون التي كانت في أيدي الصليبيون ، وسقط في يده بيت المقدس . وقد هال انتصار صلاح الدين أهل أوروبا وحرك همم بعض ملوكها ، فأعدوا العدة لحرب صليبية جديدة ، وأخذ هؤلاء الزعماء يكتونون جيوشاً منظمة ، ودعوا حكامهم إلى تنظيم حملة جديدة لاسترداد هذه الأقاليم المفقودة .

وقد انتهت هذه الحرب الصليبية الثالثة بعقد صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد سنة ٥٨٨ ( ١١٩٢ ) وأصبحت فلسطين أرضاً إسلامية ، ما عدا الجزء الضيق الذي يقع بجذاء الساحل ويمتد من صور إلى عكا .

### (و) الحرب الصليبية الرابعة (١٢٠٢ — ١٢٠٤ م)

كان الضعف قد أخذ من دول الغرب كل مأخذ بعد ما فقدوه من العدد والعدة في حروبهم مع الشرق؛ فخارت عزائمهم وضعفت نفوسهم. إلا أنه كان لا يزال هناك عدد غير قليل من الناس على استعداد لتلبية نداء البابا إنوسنت الثالث الذي استطاع أن يجمع حوله آلاف الفرسان ويتفق مع الدوق داندولو رئيس جمهورية البندقية أن يدمم بالسفن وللاون مقابل مبلغ من المال، على أن يفتسموا معه ما عسى أن يستولوا عليه من الغنائم والأراضي.

ولما كان من المتعذر على الصليبيين أن يدفعوا ثمن نقل هؤلاء الفرسان، عرض عليهم الدوج، وكان رجلاً مسناً ذامراً وداهماً، أن يشتركوا معه في إخضاع مدينة « زارا » ( الواقعة على بحر الأدرياتيك ) تنفيذاً لأغراضه التجارية، مقابل إعاقاتهم من هذا الدين. فهاجم الفريقان المدينة وخربوا ما فيها ( ٥٩٩ / ١٢٠٢ )، ثم طلبوا من البنادقة أن ينقلوهم على سفنهم إلى مصر أهم مراكز القوى الإسلامية في ذلك الحين.

ولما كانت مصر ذات علاقات تجارية مع البندقية، رأى الدوج أن يحول الصليبيين عن غرضهم الأصلي، وعرض عليهم مهاجمة القسطنطينية لضغينة كانت في نفسه، ولأن هذه المدينة كان لها الزعامة بين مدن البحر الأبيض المتوسط. وقد عزز أغراض الدوج استجداد أليكسيس ( Alexius ) ابن الإمبراطور المخلوع من عرش القسطنطينية بالصليبيين لاسترداد عرش أبيه مقابل مبلغ كبير من المال، على أن تشترك معهم فيما بعد قوى إمبراطوريته في إخضاع المسلمين.

وعلى الرغم من أن هذا العمل لا يتفق والغرض الأساسي للحملة، رحب به الصليبيون، غير مباليين بتهديد البابا بجرمان زعمائهم من رحمة الكنيسة، لأن أغراضهم كانت أغراضاً دنيوية مصدرها حب المال من أي طريق. فتحول الصليبيون إلى القسطنطينية واستولوا عليها، ثم اختلفوا مع الإمبراطور لأنه لم يدفع لهم الأموال التي وعد بدفعها، فاشتطوا في جمع الأموال وأدى ذلك إلى قيام الثورة وفرار الإمبراطور عن حاضرة ملكه. فدمر الصليبيون المدينة ونهبوا ما فيها، وحطموا التماثيل والتحف، ثم اقتسموا البلاد فيما بينهم، وانشؤا فيها ما عرف باسم الإمبراطورية اللاتينية، واختاروا بولدوين دوق فلاندر إمبراطوراً على القسطنطينية.

وفي هذه الأثناء اشتبك اللاتينيون في حرب مع البلغار قتل فيها الإمبراطور بولديون ،  
وتزعزعت الإمبراطورية حتى هاجمها الإغريق الذين أقاموا حاضرتهم في نيقية ، فقصوا  
عليها سنة ٦٦٠ — ١٢٦١ / ٦٦١ واستردوا ملكهم .  
ولم يكن للحملة الصليبية الرابعة نتيجة سوى إضعاف وسائل الدفاع عن القسطنطينية .  
أما الحملات التي تلت هذه الحروب فلم تكن ذات أهمية من حيث نتائجها ، لأن العاطفة  
الدينية التي انقادت في الحرب الأولى قد خمدت جذوتها وحلت محلها الروح المادية . وليس  
أدل على ذلك من أن الحملات التي وجهت إلى مصر كانت ابتغاء الربح التجاري بدلا من  
أن توجه إلى بيت المقدس .

### (٧) لماذا انتمت الحروب الصليبية؟ نتائجها :

إذا كانت الحروب الصليبية قد وقفت عند هذا الحد فإن الفكرة ظلت في القرنين  
الثالث عشر والرابع عشر ، حين دعا البابوات أهل أوروبا إلى خوض غمارها ضد المسلمين .  
ومع ذلك فقد لبى بعض ملوك فرنسا هذا النداء ، لا لغرض سوى اتخاذ هذه الفكرة  
ذريعة لجمع الضرائب .

على أن أسباب انتهاء الحروب الصليبية ترجع إلى أن الصليبيين كانوا بصفة عامة في مبدأ  
أمرهم جماعات غير منظمة أو غير موحدة تحت لواء زعيم واحد يجمع شملهم ولم شعثهم .  
وقد ظهرت بين صفوفهم المناقصة والمطامع الشخصية ، ثم اتجهوا أخيراً نحو الغنم المادي ،  
وانحرفوا عن الروح الدينية الذي قامت الحروب الصليبية من أجل تحقيقه .

وقد ظهرت النزعات القومية وحلت محل النزعات الدينية ، فأصبحت كل مملكة في  
حاجة إلى الاحتفاظ بقوتها لصالح وطنها ، كما آثرت المدن التجارية المصلحة الاقتصادية على  
بذل الجهود في سبيل ما يسمى الحروب الدينية .

وهكذا انتهت الحروب الصليبية بطرد الصليبيين من المشرق وانتصار المسلمين بفضل  
اتحاد كلمتهم وتوحيد جهودهم وبعدهم عن الحزازات الشخصية ، مما جعلهم قوة يخشى بأسها  
وشوكة في جانب الأوربيين الذين كانوا يهدفون إلى استعمار هذه الجهات .

ومن هنا نرى أن الحروب الصليبية لم تحقق الأهداف التي قامت من أجلها ؛ إذا كانت  
الدولة اللاتينية التي قامت ببيت المقدس قصيرة الأجل . ومع هذا فقد كان للحروب الصليبية  
نتائج سياسية واجتماعية واقتصادية خطيرة ولا سيما في البلاد التي قامت على أرضها هذه

الحروب ، وكذلك البلاد التي أقامت هذه الحروب . فقد صانت هذه الحروب الدولة البيزنطية وحالات دون لإغارة السلاجقة على أوروبا وامتلاكهم جزءاً كبيراً منها . كما قوت مركز البابوية وعلى الأخص في العهد الأول من هذه الحروب . وجعلت الحروب الصليبية من الفروسية نظاماً ثابتاً وساعدت على ظهور جماعات الرهبان الحربية ، وأضعفت نظام الإقطاع ، إذ باع كثير من الأشراف أراضيهم ونزلوا عن ممتلكاتهم الإقطاعية للحصول على المال والاندماج في سلك الحروب الصليبية . وكان من أثر ذلك أن قامت طائفة أشراف جديدة ، وزالت بعض الفوارق التي تميز الطبقات بعضها عن بعض . كما ظهرت الطبقات الوسطى من العمال الأحرار .

وكذلك بثت الحروب الصليبية في شعوب أوروبا وملوكها روح الاتحاد من أجل هدف واحد ، ودعمت مراكز الملوك ، وقضت على نظام الإقطاع الذي حل محله نظام القومية بين الشعوب ، كما ساعدت على نشاط حركة الملاحة لزيادة السفن التجارية التي قامت بنقل الجيوش المحاربة إلى المشرق ، وساعدت على استيلاء المسيحيين على موانئ الشام وفتح أبواب التجارة بين الشرق والغرب ، وأتاحت الفرصة للغربيين على الوقوف على معالم الحضارة الإسلامية العريقة . فجعلوا ينقلون إلى بلادهم الأقمشة المزركشة والحرير والسجاجيد والمراميات وأنواع النباتات والحيوانات ، مما ساعد على نماء ثروة أوروبا وتقدمها الصناعي .

وبهذا أيقظت الحروب الصليبية النشاط الأدبي في أوروبا ، فأخذ الكتاب يكتبون القصص ويدونون حياة أبطالهم . ومن نتائج هذه النهضة الأوروبية ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية وإنشاء مدرسة لتعليم اللغات السامية بباريس ، كما اقتبس الأوروبيون نظم الزراعة من الشرق ، وزاد اهتمامهم بالرحلات والكشف على أثر ما نقله الصليبيون إلى بلادهم من أخبار بلاد المشرق ، وظهر من بينهم رحالون عظام ، مثل ماركو بولو في القرن الثالث عشر ، وخرستوف كولمب الذي كشف القارة الأمريكية سنة ١٤٩٢ ، وماجلان الذي كشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ م .

وبعد فقد أثرت الحروب الصليبية على أوروبا من نواح أهمها : تأثير هذه الحروب في الكنيسة وفي كرسى البابوية ، كما أثرت في الحياة الداخلية والاقتصادية عند ملوك أوروبا بصفة عامة ، ثم لأنها أثرت أيضاً في العلاقات الخارجية بين الدول المختلفة ، وفي العلاقات التي تربط القارة الآسيوية بأوروبا وما تبع ذلك من اكتشاف الأراضي الجديدة من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر .

## الباب السابع

### الحركات السياسية والدينية

(١) الفرامنة :

كان أهل حران وثنيين ينتمون في الغالب إلى أصل إغريقي . وقد رحلوا من بلادهم الأصلية فراراً من بطش المسيحيين بهم بعد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة الرومانية الشرقية في عهد الإمبراطور جستنيان . ومع ذلك فقد تمسك هؤلاء المهاجرون بالثقافة اليونانية ولا سيما بالثقافة الأفلاطونية الحديثة . Neo-Platonic Philosophy . وفي العصر العباسي نقل وثنيو حران فلسفة اليونان وعلومهم إلى بغداد .

وكانت الكوفة التي ظهر فيها الدعاة العباسيون في مستهل القرن الثاني للهجرة مهذاً لتشييع متطرف غير إسلامي ، وهكذا لم يلبث الإسلام أن أصبح خليطاً من مذاهب ونحل شتى على أثر اتصاله بالديانات والعقائد التي كانت سائدة في بلاد العراق قبل ظهور الإسلام : كالصابئة التي يعبد أتباعها النجوم والكواكب ، والمانوية ، والزرادشتية . (١) ومن الفرق الشيعية الغالية السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ الذي وضع مذهب تناسخ الأرواح ، وهو خروج الروح من جسد وحلولها في جسد آخر . ومذهب الوصاية (٢) الذي أخذه عن اليهودية دينه القديم . كما أخذ عن الفرس نظرية الحق الإلهي (٣) . بل إن السبئية أتباع ابن سبأ ألخوا علياً . كذلك نرى السكيسانية الذين ظهروا في عهد عبد الملك ابن مروان الأموي يبنون معتقداتهم على أساس معتقدات المجوس المزدكية التي ظهرت في بلاد الفرس في القرن الخامس الميلادي ، والبراهمة في الهند ، والفلاسفة القدماء ،

(١) وهي ديانة تقول بأن في العالم قوتين هما الخير والشر ، ويرمز لإله الخير بالنور وإله الشر بالظلمة ، وكانت هذه الديانة سائدة في فارس وشرقي بلاد العرب ولا سيما جهة البحرين .

(٢) وقد قال إن علياً وصي محمد وإله خاتم الأنبياء بعد محمد خاتم النبيين .

(٢) وقد قال إن علياً هو الخليفة بعد النبي وإله يستمد الحكم من الله .

والصابئة ، ويعتقدون بنبوة الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية أولاد علي بن أبي طالب (١) وفي العصر العباسي الأول ظهرت طائفة الراوندية (٢) الذين عبدوا أبا جعفر المنصور وصعدوا إلى الحضراء (وهي القبة التي بناها المنصور ببغداد) فألقوا أنفسهم كأنهم يطيرون . ولا يزال يعزى إلى طائفة النصيرية من الفرس حتى اليوم القدرة على الطير في الهواء كما يعزى ذلك إلى بعض البوذيين . (٣) وقد نظر المنصور إلى الراوندية كأعداء سياسيين لدولته لأنهم من اتباع عدوه أبي مسلم الخراساني الذين يعملون على تحويل الخلافة إلى ملك كسروي ، كما نظر إليهم باعتبارهم زنادقة يريدون أن تعود المجوسية أو شكل من أشكالها ، فقتلهم شرقتة ، ولكنه لم يستطع أن يقضى عليهم ، فظهروا في صور مختلفة تراها في ثورة المقتنع الخراساني (٤) الذي ادعى الألوهية وزعم أن الله خالق آدم فتحول في صورته ثم في صورة نوح ثم في صورة إبراهيم وغيره من الأنبياء ، ثم في صورة محمد ثم في صورة أبي مسلم الخراساني ، ثم زعم أنه انتقل منه إليه (٥) .

ومن هذه الطوائف طائفة الخرمية (٦) . أصحاب بابك ( بفتح الباء الثانية ) الخرمي من سلالة أبي مسلم الخراساني . وتعد حركته استمراراً لحركة المقتنع والراوندية وغيرهم . ثم ظهر من طوائف الشيعة الغالية : القرامطة والدروز والنصيرية . ذكرنا من قبل أن الخليفة العزيز الفاطمي عمل على استرداد بلاد الشام وفلسطين من أفتكين

(١) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٣٩٥ ، ٤٠٤ وما يليها .

(٢) نسبة إلى روان ( بفتح الواو ) القريبة من أصفهان وكانت مهد دعوتهم .

(٣) الطبري ج ٩ ص ٣٠٩ .

(٤) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ١٠٦ — ١٠٧ .

(٥) ذكر التوحيخي ( كتاب فرق الشيعة ص ٤٢ — ٤٣ ) أن المقتنع كان في مبدأ أمره ينتحل مذهب الزمانية ( أتباع رزام وكانوا كيسانية الأصل ) . وقالوا بتناسخ الأرواح ، واعتقدت طائفة منهم أن أبا مسلم صار لها محلول روح الله فيه وأنه حتى لم يموت .

(٦) قيل لأنهم سموا خرمية نسبة إلى خرما ( بضم الحاء وفتح الراء مع التشديد ) لامرأة مزدك التي اضطاعت بنشر عقائد هذا المذهب بعد قتل زوجها ( وكان ذلك أيام قباذ أبي كسرى الأول المعروف بأبو شروان ) . وقد نشأت من طائفة الخرمية المزدكية طائفة الخرمية البابكية التي تنسب إلى بابك الذي ادعى الألوهية في عهد المأمون العباسي وتفاقم شره في عهد المعتصم .

والقرامطة ، (١) وأنه أرسل جوهر الصقلي على رأس جيش كبير تمكن من الاستيلاء على الرملة ، وكان القرامطة قد هربوا منها وعادوا إلى البحرين . ثم سار جوهر إلى دمشق لخاصرها ستة أشهر ، واضطر إلى التقهقر حين علم بوصول الحسن الأعصم القرمطي الذي استنجد بأفتكين ، وبمما شطر عسقلان ، وحاصرها جوهر ، فاضطر هذا إلى طلب الصلح كما تقدم . ومهد بعمله إلى الموقعة الحاسمة التي دارت على نهر الطواحين بالقرب من الرملة بين الفاطميين بقيادة العزيز وبين القرامطة بزعامه الحسن الأعصم ، والأتراك بزعامه أفتكين ، وحلت الهزيمة بالقرامطة وأفتكين الذي سيق إلى القاهرة مع بعض أنصاره من الأتراك والديلم (٢) ، وعادت دمشق إلى أيدى الفاطميين الذين أقيمت الدعوة لهم على منابرها .

وقد أضعفت هذه الحروب القرامطة وفكسكت وحدتهم ، حتى إن جماعة منهم ثاروا على آل الحسن الأعصم ، واضطروهم إلى الهجرة إلى أوال (٣) ، حيث انتقم منهم أبناء أبي طاهر (٤) . واتخذ الخليفة العزيز ، الذي كان اليد المحركة التي أوقعت الاضطراب في صفوف القرامطة ، من ذلك فرصة لجذب هؤلاء القرامطة وإعادتهم إلى حظيرة الفاطميين . ويقول ابن خلدون (٥) : « ورجعوا إلى دعوة العلويين ومحاربة بني العباس » . واستمر القرامطة على ولائهم للفاطميين إلى أن زالت دولتهم من جزيرة أوال سنة ٤٥٨ هـ ، ومن البحرين بعد أن قضى عليهم السنيون في سنة ٤٧٠ هـ ، وذلك في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي . ولكنهم لم يقوموا بأعمال حربية منذ سنة ٣٧٥ هـ .

وقد استطاع الخليفة العزيز الفاطمي بحسن سياسته أن يستميل القرامطة من جديد إلى حظيرة الفاطميين وأن يثير حفيظتهم على العباسيين . يؤيد هذه الحقيقة ما ذكره ابن خلدون (٦) من أن القرامطة « رجعوا إلى دعوة العلويين (أي الفاطميين) ومحاربة بني

(١) يقصد بذلك قرامطة البحرين .

(٢) يقول المقرئ (خطوط ج ٢ ص ٨ — ٩) إن حارة الديلم سميت بهذا الاسم بعد أن نزل بها أفتكين ومن معه من أولاد معز الدولة بن بويه .

(٣) بضم الألف مع الهمة .

(٤) ابن خلدون : العبرج ٤ ص ٩١ .

(٥) المصدر نفسه . انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٠٠ — ٤٠١ .

(٦) العبرج ٤ ص ٩١ .



العباس « (١) . وكان من أثر هذه السياسة التي انتهجها الخليفة العزيز الفاطمي أن هاجم القرامطة الكوفة في سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ — ٩٨٣ م) ، ولم يرتحلوا عنها إلا بعد أن أخذوا من أهلها مبالغاً كبيراً في مقابل رفع الحصار عن مدينتهم (٢) .

على أن مصمّم الدولة (٣٧٢ — ٣٧٦ هـ) بن عضد الدولة البويهى استطاع أن يصمد أمام القرامطة الذين حاولوا الاستيلاء على الكوفة غير مرة ، وأن يردم عنها وينزل بهم الحساثر الفادحة مما أوهن من قوتهم وأذن بقرب نهايتهم ، « وزال من حينئذ ناموسهم » (٣) كما يقول ابن الأثير (٤) .

وكان من أثر هزيمة القرامطة أمام جيوش مصمّم الدولة البويهى أن تشجع أحد البدو الأفوياء فهاجم القرامطة في الأحساء مركز قوتهم ونفوذهم وأحل بهم الهزيمة ، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على أكبر معاقلهم ؛ فخرج على القطف واستولى على ما فيها من أموال القرامطة ، ثم سار إلى البصرة وأعلن ولاءه للخليفة العباسى الطائع (٣٨١ هـ) (٥) . وعلى الرغم مما لحق بالقرامطة من هزائم ظلوا مصدر خوف للعباسيين . يدل على ذلك أنهم أغاروا في السنة التالية على البصرة وحالوا دون وصول الحجيج إلى الأراضى المقدسة مما أفلق بالعباسيين والبويهيين على السواء (٦) . وفي سنة ٤٠٣ هـ نرى القرامطة يحاولون الوقوف في وجه الحجاج من جديد ، كما يحاولون الاستيلاء على الكوفة (٧) .

وقد استمرت العلاقات الطيبة سائدة بين القرامطة والفاطميين في عهد الحاكم ، ولاسيما بين القرامطة وطائفة الدرّوز التي ظهرت في عهد هذا الخليفة الفاطمي . فقد حاول حمزة

---

(١) الواقع أن الفاطميين استطاعوا أن يمزقوا وحدة القرامطة وأن يبتزوا السلطة من بيت الحسن الأعصم الذي دارت بينه وبين الفاطميين حروب طويلة في عهد المعز والعزيز . وقد آلت زعامة القرامطة إلى ستة منهم أطلق عليهم « السادة » . وقد اشتهر منهم جعفر وإسحاق من أبناء عمومة الحسن الأعصم . وكان هذين الزعيمين أثر كبير في الثورة التي قام بها أتفكيك ضد الفاطميين ، ثم في ثورة القرامطة على العباسيين بعد ذلك . المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) يعنى بذلك أنه لم يعد لمباذمهم قوة الانتشار والشيوع بعد ذلك .

(٤) السكامل ج ٩ ص ١٥ — ١٦ .

(٥) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط بدار السكتب المصرية ج ٢٣ ورقة ١٠٠ .

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٩ .

De Goeje, Les Carmathes du Bahrain, p. 195.

(٧)

ابن علي مؤسس المذهب الدرزي أن يتصل بقرامطة البحرين ليجذبهم إلى مذهبه ، واستطاعت قوة من القرامطة الاستيلاء على مدينة الملتان الهندية (١) ، فهاجمهم السلطان محمود الغزنوي وردهم على أعقابهم (٣٩٦ هـ) ، فارتد زعيمهم إلى جزيرة سرنديب ( سيلان ) حاملا معه أهله وماله (٢) .

### نهاية عهد القرامطة :

وكانت نهاية القرامطة في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي . وقد مرت هذه النهاية في طورين ، انتهى الطور الأول منهما بطردهم من جزيرة أوال وانتهى الثاني باستئصال شأفتهم من بلاد البحرين . ففي سنة ٤٥٨ هـ ( ١٠٦٦ م ) خرجت جزيرة أوال عن طاعة القرامطة في البحرين وخضعت للعباسيين بعد سلسلة من الثورات التي قام بها السنيون في هذه الجزيرة . فقد بنى هؤلاء السنيون مسجدا لجذب التجار إلى جزيرتهم . ولما فرغوا من بناء هذا المسجد خطبوا فيه للخليفة العباسي دون الخليفة الفاطمي . كذلك ثار أهل أوال على حكم القرامطة لأنهم عزلوا واليهم وفرضوا عليهم ضريبة جديدة أثارت حنقهم ، فأشعلوا نار الثورة وقضوا على قوات القرامطة البرية والبحرية وآل الحكم في هذه الجزيرة إلى السنيين (٣) .

وكانت هزيمة القرامطة في جزيرة أوال بعيدة الأثر عليهم في بلاد البحرين نفسها . فقد اتصل السنيون في بلاد البحرين بالسلاجقة والعباسيين في العراق ، فبعثوا إليهم في سنة ٤٦٢ هـ بجيوش جرارة أحلت بهم هزائم متتالية ، واضطر القرامطة إلى الارتداد إلى بلاد الأحساء . وقد شجعت هذه الهزائم العباسيين والسلاجقة ، فأرسلوا إلى الأحساء جيوشا جرارة بقيادة طائفة من أمهر قوادهم ، وأذاعوا المذشورات يستحثون فيها الناس على الانضواء تحت لواء هؤلاء القواد « في جهاد المبطلين والقرامطة الملحدين . . . وفي استئصال ذكركم وتطهير تلك البقعة من دنس كفرهم » (٤) . وقد التف السنيون في البحرين حول الثوار وأنصار العباسيين ، وأحاطوا بالقرامطة في شمالي الأحساء ، وانتصروا عليهم في موقعة « الخندق »

(١) وتقع على سمت غزنة .

(٢) Defremery, Essai sur l'Histoire des Ismaéliens, pp. 30—31. (٢)

(٣) ابن الجوزي : مرآة الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٥١ ، القسم الأول ،

ورقة ١٠٧ .

La Fin de l'Empire des Carmathes du Bahrain (J.A., 1895), (٤) pp. 16—17.

سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ - ١٠٧٨ م) . وتمت هذه الواقعة من المواقع الحاسمة في التاريخ ، لأنها قضت على دولة القرامطة الذين ظلوا زهاء قرنين مصدر رعب وفزع للدولة العباسية بوجه خاص . وعلى الرغم من ذلك ظل أثر القرامطة باقياً في البحرين وعمان بعد واقعة الخندق بكثير ، حتى لقد تأثر بتعاليمهم الحوجات من أتباع « أغا خان » ، ولا سيما العمانيين منهم <sup>(١)</sup> .

## (٢) الدرزي

### ١ - دعاة الدرزي :

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ( التاسع الميلادي ) تأثر المذهب الشيعي بما طرأ عليه من تغيرات عظيمة : وذلك راجع إلى تأثر بعض الشيعة بالفلسفة الإغريقية وأخذهم ببعض العقائد المبنية على الرجمة والتناسخ . ومن ثم أصبح المذهب الشيعي في عهد الفاطميين خليطاً من الدين والفلسفة ، ونشأت بسبب ذلك مذاهب أخرى كذاهب القرامطة والدروز والزارية في فارس وخراسان والشام والطيبية في اليمن وغيرها .  
وفي أوائل القرن الخامس الهجري قامت طائفة الدرزية أو الدروز وهم من غلاة الإسماعيلية الذين ألخوا الحاكم ، وخرجوا بذلك على الإسماعيلية ثم المعتدلين الذين يمثلون المدرسة الإسماعيلية القديمة . وقد قامت هذه الحركة الشيعية على أيدي الفرس الذين كانوا يقصدون ملوكهم ويؤمنون بنظرية الحق الملوكي المقدس . ومن أعظم هؤلاء الدعاة تأثيراً في هذه الحركة حمزة بن علي الزوزني ، والحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخزم ، ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين البخاري الدرزي ، الذين جهروا في مصر بتأليه الحاكم .  
رحل حمزة بن علي إلى مصر سنة ٤٠٥ هـ ، وانتظم في سلك دعاة الفرس الذين كانوا يختلفون إلى دار الحكمة التي أسسها الحاكم سنة ٣٩٥ هـ وأخذ يبشر في الخلفاء الدعوة إلى

(١) انظر Badger, G. P., The History of the Imams and Sayyids of Oman (London, 1871).

(٢) الدرزي (بالفتح) : واحد دروز الثوب ونحوه ، وهو فارسي معرب . ويقال درز بالدال والذال ، وأولاد درزة : السقاة والسقاط والغوغاء من الناس والخياطون والحكاكة ، وهم من أسافل الناس . والدرزي (بالفتح) الخياط . والعامة تضم الدال فتقول درزي ، وفي الجمع درزي ، والصواب درزي في المفرد ودرزية في الجمع ، والشائع اليوم دروز وهو خطأ .

تأليه الحاكم ، ثم جهر بدعوة ألوهية الحاكم ( ٤٠٨ هـ ) ، وصنف كتاباً ذكر فيه أن روح الله سبحانه وتعالى حلت في آدم عليه السلام ثم انتقلت إلى علي بن أبي طالب ، وأن روح علي انتقلت إلى العزيز ، ثم إلى ابنه الحاكم ، بمعنى أن الحاكم قد أصبح في نظرهم إلهاً عن طريق الحلول ( Incarnation ) .

ويظهر أن هذه الدعوة قد أوهنت صرح الدعوة الإسماعيلية المعتدلة في مصر . وقد شجع الحاكم حمزة وأنصاره ، حتى إنه كان كثيراً ما كان يلتقي بهم في القرافة ويظهر عطفه عليهم ، ويسأل حمزة عن عدد أنصاره ومدى ما وصل إليه في هذه الحركة من نجاح (١) . وكان من أثر هذا التشجيع أن غلا حمزة في تلقيب نفسه بألقاب كثيرة مثل الإمام ، والدليل على عبادة الله ، والداعى إلى توحيد الله ، والناطق بحق الله ، والبرهان على الله ، والرسول الذى أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . . . وأنه السبيل إلى معرفة مولانا جل ذكره ( أى الحاكم ) والطريق إلى توحيدده ، والحجة إلى عبادته (٢) . ويعتبر حمزة بن علي المؤسس الحقيقي لمذهب الدرزية ؛ فقد استغل الحسن ابن حيدرة الفرغانى الأخرم ، ومحمد بن إسماعيل البخارى الدرزى فى نشر عقائد هذا المذهب ، وشجع الأخرم فى سنة ٤٠٩ هـ على الجهر بتأليه الحاكم .

وقد ذكر أبو المحاسن أن الأخرم ذهب إلى جامع عمرو على رأس خمسين رجلاً منطيين دوايمهم ، وسلدوا إلى القاضى السنى فتوى صدرت باسم الحاكم الرحمن الرحيم . وقد أثار الأخرم بذلك حنق السفين فاقضوا عليه وعلى رجاله وقتلوا بهم ، وتمسك هو من الحرب ، ولكنه قتل بعد قليل (٣) .

ولكن قتل الأخرم لم يضعف من هزيمة غلاة الإسماعيلية فقد ظهر على أثر مقتله فى سنة ٤٠٩ هـ داعى محمد بن إسماعيل الدرزى (٤) ، وكان قد وصل إلى مصر فى سنة ٤٠٨ هـ ، فرحب به الحاكم وأجزل له العطاء . وقد سلك الدرزى فى سبيل تأييد ألوهية الحاكم مسالك

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٢) كتاب النقط والدوائر ، وهو من كتب الدرزية ، وقد ذيل ببعض رسائلهم ، وهي (١) الرسالة اللوسومة بيده الخاق ، (٢) نبذة من شرح البيان ويجرى الزمان (٣) الرسالة اللوسومة بكشف الحقائق ، نشره سيبولد الألمانى ( ١٩٠٢/١٣١٩ ) .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٣ .

(٤) وإليه تنسب طائفة الدرزية ، على الرغم من أن حمزة بن علي يعتبر المؤسس الحقيقي للمذهب

شئى ، فألف الكتب فى ذلك ، واستعان بنفوذ الخليفة الحاكم فى نشر هذه الدعوة بين رجال البلاط والموظفين .

ولم يكن هذا كل ما قام به الدرزى فى سبيل نشر دعوته ، فقد تسمى بسند الهادى ( حمزة بن على ) ، وحذا حذو أستاذه فى نقل رياسة هذه الدعوة إليه ، فكتب إلى ختكين داعى دعاة الإسماعيلية يطلب إليه الانضواء تحت لوائه ، كما كتب إلى ولى عهد المسلمين عبد الرحيم بن إلياس الذى كان يمثل عقيدة الحاكم التوحيدية وإلى غيرهم يدعوهم إلى دعوته ، مما يدلنا على مدى تغلغل نفوذ أنصار المذهب الدرزى . على أن ختكين قاوم هذه الحركة واشترك مع السفين فى القضاء عليها ، وشكا إلى الحاكم جرأة الدرزى وأنصاره وغلوهم . ووجدت هذه العقيدة أنصاراً من بين المصريين طمعاً فى التقرب إلى الخليفة الذى ناصر هذه الحركة وعطف عليها . كما أخذ الدرزى فى قراءة كتابه الذى صنفه فى عقائد المذهب الدرزى فى الجامع الأزهر ، وأثار بذلك سخط المصريين السنيين والمعتدلين من الشيعيين ، حتى كادوا يقتلونه لولا أنه هرب إلى بلاد الشام ، وأقام بوادى تيم لقع بن ثعلبة غرنى دمشق ، وأخذ يذشر الدعوة فى تأليه الحاكم ويقرأ على كل أهالى هذه الجهات كتبه التى لم تلق قبولا لدى كثير من المصريين الذين اضطهدوه ، وأظهر الحاكم استيائه من دعوته خوفاً من رعاياه . وقد استطاع الدرزى أن يستميل إلى دعوته كثيراً من الأنصار الذين أصبحوا يعرفون باسم الدرزية . ولا يزال هذا المذهب منتشراً فى جبال لبنان وحموران .

وليس من شك فى أن الحاكم كان يناصر هذه الدعوة ويشجع الدرزية فى مصر أولاً وفى الشام ثانياً ، لأن ذلك كان يتفق مع ميوله ، بدليل أنه اتخذ جواسيس من النساء يندسسن فى دور بعض الناس . وكان من واجبهن اكتشاف ما يحدث فيها ، ثم تقديم تقاريرهن إليه فى اليوم التالى . فإذا أصبح الخليفة استدعى أهل هذه الدور للثول بحضرته وأخبرهم بما حدث فى دورهم ، كما اتخذ الحاكم جواسيس عهد إليهم بأن يقدموا إليه تقارير مستوفاة عن كل ما يحدث فى الطرقات ، حتى أصبح بعض الناس يعتقد أنه يعلم الغيب .

## ٢ — أهم مميزات الدرزية :

قامت طائفة الدرزية فى أوائل القرن الخامس الهجرى كما تقدم ، ولا تزال إلى الآن تحتفظ بشئ من ميزاتها وخصائصها كطائفة من طوائف المذهب الإسماعيلية . ولا يزال كثير من الأسس التى وضعها حمزة بن على وغيره من دعاة الدرزية الأوائل قائماً إلى اليوم .

ومن أهم هذه الخصائص اتخاذ الدرزية تقويماً يؤرخون به حوادثهم ، ويبدأ من سنة ٤٠٨ هـ ، وهي السنة التي ظهرت فيها دعوى تأليه الحاكم على يد حمزة بن علي وأنصاره . ويعبرون عن ذلك بكشف المسكون ، أي ظهور التوحيد .

ومن هذه الخصائص إغلاق باب الاستجابة الخارجية ، بمعنى أن هذه الاستجابة تغلق أبوابها في وجه كل من لا ينتمي إليها ، أي من لا يكون درزياً أو موحداً على حد تعبيرهم . ويررون ذلك بقولهم إن الدعوة قد أبطلت وأغلقت الأبواب ، فن لم يؤمن بقي كذلك إلى الأبد ، ومن آمن فقد آمن بلا ردة<sup>(١)</sup> . ومن نرى الدرزية ينقسمون إلى طائفتين :

الأولى : طائفة الروحانيين ، وتكون الطبقة المستقيمة التي تلم بأصول المذهب الدرزي ، وتنقسم هذه الطائفة إلى رؤساء وعقلاء ( أو عقال ) وأجاويد ، فالرؤساء هم الذين بيدهم مفاتيح جميع أسرار الدرزية ، والعقلاء بيدهم الأسرار الداخلية التي تتعلق بالتنظيم الداخلي للمذهب ، والأجاويد بيدهم مفاتيح الأسرار الخارجية التي تختص بعلاقة مذهبهم بغيره من المذاهب .

والطائفة الثانية هي طائفة الجسائين ، وتنقسم قسمين : الأمراء الجسائين ، والعامه أو الجهال . فالأمراء الجسائين بيدهم شئون الحرب والزعامه الوطنية ، والعامه أو الجهال هم الذين لا يعرفون من أصول المذهب إلا اسمه ، ولا يحق لطبقتي الجسائين الدخول ، بحال من الأحوال ، في مجالس طائفة الروحانيين ، ويعتبرون جهالاً مهما علا كمهم في التعليم والثقافة<sup>(٢)</sup> .

ولا يسمح لأحد من أعضاء طائفة الجسائين بالانتظام في طائفة الروحانيين إلا بعد اجتياز اختبار طويل صعب يظهر فيه استعداده لتلقي أصول المذهب الدرزي والاطمئنان إلى أنه سوف يصبح عضواً نافعاً متفهماً في عقائده ، بل بعد أن يؤخذ عليه عهد يتبرأ فيه من جميع الأديان والمذاهب ، ويتعهد بالدفاع عن هذه الطائفة ويحافظ على أسرارها . وقد وضع حمزة بن علي صيغة هذا العهد الذي أسماه « ميثاق ولي الزمان »<sup>(٣)</sup> .

(١) حمزة بن علي الدرزي : التاليد في مذهب أهل التوحيد ( نشره ميخائيل شاروويم ) ص ٢٣ :

(٢) راجع Hitti, The Origins of the Druze People and Religion, p- 43.

(٣) Chrestomathie Arabe, Vol- II, p- 52

وقد خلف حمزة بن علي وغيره من دعاة الدرزية الأقدمين كثيراً من المؤلفات التي كشفت عن كثير من غوامض هذا المذهب ، ومنها ندين أنهم من غلاة الإسماعيلية ، وأن مذهبهم لم يخرج عن المذهب الإسماعيلي في جوهره<sup>(١)</sup>.

ولذلك نرى أن الدرروز يرمون المعتدلين من طائفة الإسماعيلية بالجمود ، كما يكفرون في الوقت نفسه المسلمين عامة ويسمونهم الكفار أو المشركين في الوقت الذي يطلقون على أنفسهم الموحدين ، على حين نرى سائر المسلمين يكفرون الدرروز ولا يعدونهم من الفرق الإسلامية : فقوم يكون البشر لإلههم ومعبودهم ، وحمزة بن علي نبيهم وناطقهم<sup>(٢)</sup> . كذلك نرى كثيرين من علماء المسلمين يرمون طائفتي الدرروز والتصيرية بالزندقة ويبيحون دماهم ويحرمون مصاهرتهم والتقرب منهم<sup>(٣)</sup> .

ولكني يقوى حمزة بن علي مؤسس المذهب الدرزي الرابطة بين أنصار مذهبه جعل العهد الذي يؤخذ على المستجيبين وثيقة مقدسة تلتزم هؤلاء المستجيبين بالتفاني في سبيل المذهب والتماسك بين أفراد هذه الطائفة وإليك نصها :

« تولكت على مولانا الحاكم الفرد الصمد المنزه عن الأزواج والعدد ، أقر فلان بن فلان إقراراً أوجبته على نفسه وأشهد به على روحه في صحة من عقله وبدنه وجواز أمره ، طائفاً غير مكروه ولا مجبر ، أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات كلها على أصناف اختلافاتها ، وأنه لا يعرف غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره ، والطاعة في العبادة ، وأنه لا يشرك في عبادته أحداً مضى أو حضر أو يُنتظر ، وأنه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما ملئته لمولانا الحاكم جل ذكره ، ورضى بجميع أحكامه له وعليه ، غير معترض ولا منكر لشيء من أفعاله ، ساء ذلك أم سره . ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره الذي كتبه على نفسه وأشهد به على روحه وأشار به على غيره أو خالف شيئاً من أوامره ، كان بريثاً من الباري المعبود وحرماً الإفاضة من جميع الحدود ، واستحسن العقوبة من الباري العلي جل ذكره . . . ومن أقر أنه ليس في السماء إله معبود ولا في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره ، كان من الموحدين الفائزين .

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٥٤ - ٣٦٠ .

(٢) طه أحمد شرف : الإسماعيلية وتاريخهم السياسي حتى سقوط بغداد ، مخطوطة ج ١ ص ٣٣٥ .

(٣) المحي : تاريخ خلاصة الأثر في أعيان القرن المادى عشر ( القاهرة ١٨٦٧ ) ج ٣ ص ٢٦٩ .

وكتب في شهر كذا وكذا ومن سنة عبد مولانا جل ذكره ومملوكه حمزة بن علي بن أحمد هادي المستجيبين المنتقم من المشركين والمرتدين بسيف مولانا الحاكم جل ذكره وشدة سلطانه وحده» (١).

وعلى الرغم من أن الدرزية قد انطروا على أنفسهم حتى أصبحوا جماعة مغلقة لا يعرف الناس من أمرهم شيئاً ، نراهم يعاونون المسلمين في صراعهم مع الصليبيين معاونة صادقة في سبيل الاحتفاظ بالسهل الساحلي في لبنان . وكانت لهم في الوقت نفسه مواقف حربية رائعة في حصار قلعة الشقيف (٢) . كما يرى أن الدرروز يعاونون هولاء كو التتارى إبان إغاراته على بلاد الشام ، بدليل إقطاعه إياهم بعض البلاد . وكذلك قام الدرروز بدور ملحوظ في أثناء فتح الأتراك العثمانيين لبلاد الشام ومصر ( ١٥١٦ - ١٥١٧ م ) في عهد السلطان سليم الأول . فكان لمساعدة نحر الدين معن الأول أحد رؤساء الدرروز أثر بعيد فيما أحرزه العثمانيون من نصر . ولا غرو فقد أظهر الدرروز كثيراً من ضروب الشجاعة والبسالة في تلك الحروب ، مما جعل السلطان العثماني يعترف بهذه المساعدة وينحهم الجوائز (٣) .

وقد وقع في أيدي الجيوش المصرية بقيادة إبراهيم باشا كثير من مخطوطات الدرروز التي عثر عليها في خلواتهم ، وذلك عند قيام الثورة السورية في وجه حكم محمد علي سنة ١٨٣٨ . كما نرى الدرروز يحملون السلاح في وجه المارونيين جيرانهم المسيحيين في الشمال ، مما أدى إلى تدخل فرنسا وإرسالها حملة حربية لوضع حد لذلك النزاع ، وانتهى هذا التدخل الفرنسي بوضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي عقب الحرب العالمية الأولى . كذلك لانفسى ثورة الدرروز بزعامة آل الأطرش ضد الانتداب الفرنسي الذي انتهى باستقلال كل من سوريا ولبنان سنة ١٩٤٦ (٤) .

(١) دى ساسي : الأبنس المفيد ج ٢ ص ٨٢ - ٨٤ . ويقصد بسنة عبد مولانا السنة التي دعى فيها بتأليه الحاكم بأمر الله أي سنة ٤٠٨ هـ .

(٢) ولعلها شقيف نهبون وهو حصن على مقربة من صور . وتطلق كلمة شقيف على عدة أماكن ببلاد الشام ، وتشير إلى الأماكن الحصينة : فهناك شقيف أرنون في جبل قريش من بانياس من أعمال دمشق يقع بينها وبين الساحل ، وشقيف دركوش وهي قلعة بنواحي حلب جنوبي حارم ، وشقيف دين وهي قلعة قرب أطاكية . انظر لفظ شقيف في معجم البلدان لياقوت .

(٣) كريم خليل : الدرروز والثورة السورية ص ٢٥ .

(٤) Hitti, Op. cit., pp. 2, 48.

انظر له أحمد شرف : الإسماعيلية وتاريخهم السياسي ج ١ ص ٣٣١ وما يليها .



(٣) النصبية:

كانت طائفة النصيرية<sup>(١)</sup> تقيم في شمالي الشام قبل طائفة الدرّوز في لبنان . وهم من الشيعة الغالية ، وموطنهم جبل النصيرية ( أو الأنصارية ) ، وهو جزء من جبل لبنان . وتمتد بلادهم شرقاً إلى سهل حماه وحمص وحلب ، وشمالاً إلى ماوراء أنطاكية على حدود بلاد الأناضول .

وبينما نرى اسم « علوى » قد أطلق حديثاً على أتباع هذه الطائفة ، فإن اسمهم الأصلي ( النصيرية ) يذكرنا باسم مؤسس هذه الطائفة . وقد يذكرنا باسم الشخص الذي كان يدعو إلى عقائدهم ، وهو الفقيه الشيعي محمد بن نصير المتوفى سنة ٢٦٠ هـ ( ٨٧٣ م ) . وكان من أتباع الحسن العسكري الإمام الحادي عشر عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية<sup>(٢)</sup> . ويقدم لنا أتباع ابن نصير — كما يقول ريني دوسو<sup>(٣)</sup> — مثلاً واضحاً للجماعة التي انتقلت مباشرة من الوثنية إلى طائفة الإمامية الاثنا عشرية . وهذا يفسر لنا نقط الخلاف الشديد بينهم وبين الإسماعيلية . وثمة تفسير آخر لا يزال مألوفاً عند السفين الذين يجاورونهم ، ولكنه يدخل بلاريب — في نطاق الاشتقاق المتداول لهذا الاسم فيجعله ذا صلة بلفظ نصراني أو نصاري ، مما يقرب إلى الذهن أن النصيرية لا يزالون يحتفظون ببعض تقاليد ( طقوس ) دينية خاصة ، فيحتفلون ببعض الأعياد المسيحية ، كهيد الميلاد وعيد الفصح ( القيامة ) ويعتبرونهما من الأعياد الكبرى . كما أن بعضهم يحمل أسماء مسيحية الأصل مثل متى ويوحنا ( جون ) وهيلانة .

وبالإضافة إلى المبادئ التي اقتبسها النصيرية من المسيحية فإن ديانتهم تحتفظ بقسط وافر من الأسرار الشبهية بأسرار الدرّوز ، وما زال تحتفظ بمعالم واضحة تنبئ عن معتقداتهم وعقيدتهم التي هي مزيج من عناصر غير متجانسة تماماً ، تقوم على أساس نظام ديني يتصل

(١) ذكر أبو الحسن الأشعري ( مقالات الإسلاميين ، طبعة محمد محي الدين عبد الحميد ، جزءان ، القاهرة ١٣٦٩ / ١٩٥٠ ) س ٦٦ — ١٠٢ ) ، فرق الشيعة الغالية ، كالحطابية ، والتميرية أصحاب محمد بن نصير التميري ، والسبئية والسكيسانية ، والراوندية ، والرزامية ، والأبوسلمية والقرامطة ، والمباركية وغيرها .

(٢) ذكر النونجني ( كتاب فرق الشيعة س ٧٨ ) أن محمد بن نصير التميري أله الحسن العسكري وادعى أنه نبي قد بعثه الحسن العسكري . وكان ابن نصير يقول بالتناسخ والحلول وتأليه الأئمة .

(٣) Dussaud, p- 51.

بعبادة النجوم والكواكب . وقد اقتبست هذه التعاليم في القرون الأولى للعصر المسيحي بعض المبادئ الروحية عند المسيحيين . ومع ذلك فإن هذه المبادئ قد اتخذت بعد ذلك مظهراً معيناً في الاطوار التي مر بها الإسلام . فقد اتخذت على يدي دعاة الإسماعيلية فيما بعد بعض أشكال غامضة مبنيّة على الإلحاد .

ويظهر أن حسين بن أحمد الحشبي الذي عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) هو الذي وضع عقائد مذهب النصيرية الذي يقد أتباعه لزبارة ضريح حسين القريب من حلب وبولون هذا الضريح ما يليق به من الإحترام والإكبار . ويعرف هذا الضريح باسم ضريح الشيخ برقق ( بفتح الباء والقاف الأولى وسكون الراء ) .

ويقوم نظام النصيرية على التجسد<sup>(١)</sup> ، وبدور حول هذه الأسماء الثلاثة التي تكون التثليث الشبيه بتثليث النصارى . ويتمتع هؤلاء بالوحدانية والخلود . وهذه الأسماء الثلاثة التي يرمزون إليها في قائمة مذهبهم هي التي تكون تثليثاً شبيهاً بالتثليث السكائني النصرانية . ويرمز إلى هذا التثليث عند النصيرية بحروف ع م س ، ويقولون إن الله حل في ثلاثة هم : على بن أبي طالب ويرمزون إليه بالمعنى ، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) ويرمزون إليه بالاسم ، وسلمان الفارسي ويرمزون إليه بالباب<sup>(٢)</sup> .

وتعتبر النصيرية علياً الإله<sup>(٣)</sup> . ولذلك أطلق عليهم اسم «العلوية» ( أي الذين يعبدون

(١) الأشعري : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٠٢ — ١٠٥ . البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٥٤ — ٢٥٥ . الشهرستاني : الملل والنحل ص ١٤٣ — ١٤٥ .

(٢) انظر اعترافات أحد المرتدين عن المذهب النصيري التي نشرت تحت عنوان « الباكورة السلمانية » وقد ترجمها ا . سالسبوري إلى الإنجليزية في مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية ( سنة ١٨٦٦ مجلد ٨ ص ٢٢٧ — ٣٠٨ ) ، والمجلة الآسيوية الفرنسية سنة ١٨٧٩ ص ١٩٢ وما يليها .

Browne, Lit, Hist, of Persia, vol. I, p. 203, n. 2.

(٣) وقد قالت الشيعة بإمامة علي ، ومنهم المقداد بن الأسود ، وسلمان الفارسي ، وأبو ذر الغفاري ، وعمار بن ياسر . وقال بعضهم إن علياً إمام يجب طاعته بعد الرسول الذي استودعه هو وأولاده من العلم ما يحتاج إليه الناس من الدين وجميع العلوم . ولذلك استحق الإمامة بعد النبي لعصمته وقرابته وسابقته وعلمه وسخائه وزهده وعدالته في رعيته ، واستشهدوا على ذلك بقول الرسول : « علي مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » ( النوبختي : كتاب فرق الشيعة ص ١٥ — ١٦ ) . أما سلمان الفارسي فقد كان أكبر الصحابة الذين يجلهم الرسول ، حتى إن طائفة من النصيرية أدخلته في نظامهم القائم على التثليث . وقد علت منزلة سلمان عند الرسول وحسنت محبته حتى عدّه من آل البيت فقال : « سلمان منا أهل البيت » . كما أثر عن الرسول أنه قال : « سلمان ابن الإسلام » . وكان أول من أسلم من الفرس ، فعدّه الرسول أول ثمار الفرس . وهو الذي أشار على الرسول بحفر الخندق حول المدينة وأدى ذلك إلى ازدياد قوة الإسلام وسرعة انتشاره وإلى ضعف روح المقاومة عند أعداء الإسلام . الأشعري : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٧٩ — ٨٠ . انظر كتابي زعماء الإسلام ص ٩٣ — ١٠٠ .

عليا) منذ الانتداب الفرنسى فى ديارهم بعد الحرب العالمية الأولى . وعلى هو الكائن الاسمى والنور المشع الذى ينبعث عن فيضه محمد ( صلى الله عليه وسلم ) وسلطان الفارسى . وتتكون جماعة النصرية من قبائل يقوم بينها تحالف ، كالكليية والحياطين والحدادين وبعض قبائل العرب النيمانين الذين ارتحلوا شمالا فى العصر الجاهلى ثم اختلطوا مع الشماليين كالآراميين وغيرهم واحتفظوا بلغتهم الجنوبية التى اختلطت قليلا أو كثيرا باللغة الآرامية التى لا تزال آثارها باقية فى بعض اللهجات العربية وفى أسماء الأشخاص والقرى والأنهار والجبال . وتاريخ النصرية عبارة عن سجل للحروب التى نشبت بينهم وبين جيرانهم للاضطهادات التى تعرضوا لها باعتبارهم ملحدين أو وثنيين ، الأمر الذى أثار شعور جمهور المسلمين ( ومنهم الشيعة المعتدلون ) ضد هؤلاء النصرية الذين ظهروا فى نظر المسلمين زنادقة مغالين (١) .

ويقوم الآن نحو ثلثمائة ألف من أتباع هذا المذهب ، معظمهم من الفلاحين فى شمالى ووسط بلاد الشام . وهم يعيشون فى قرى الجبلية حتى كيليكيا التركية . وقد احتفظوا بمعظم أساليب معيشتهم وتقاليدهم التى نشئوا عليها منذ العصور الوسطى . وهم يتمتعون عن أكل لحم الجمل والأرنب وثمان الماء والسماك الذى لا تشر له (٢) .

ويعتبر النصرية والقرامطة والدروز والنزارية وغيرهم من فرق الإسماعيلية حتى فى نظر الشيعة الاثناعشرية الذين يؤلفون السواد الأعظم من الشيعة ، من الغلاة ، لأنهم يمارون فى ألوهية الله ولا يؤمنون بأن النبوة قد انتهت بمحمد . ومن هؤلاء الغلاة فرقة ذهبىة إلى أن جبريل أخطأ فدفع الرسالة إلى محمد بدلا من على . وفرقة أخرى تسمى النخنجية ( بفتح التائين والياء مع التشديد وسكون الحاء وكسر الجيم ) ( قطاع الخشب ) فى غربى الأناضول ، والعللى ليلية ( المؤلفة عليا ) فى فارس وتركستان ( ومنهم جماعة فى شمالى العراق ) ، ويمت إليهم القزل ( بضم القاف والزاي ) باشيه ( بكسر الشين وفتح الياء مع التشديد ) ( الروس الحمر ) فى شرقى الأناضول ، والبكتاشية فى تركيا وألبانيا (٣) .

(١) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

(٢) Samné, La Syrie, pp. 337 — 342 .

(٣) History of the Arabs Hitti, op. cit., pp. 448—449 .

(٤) الدعوة الزارية في فارس والسام :

شرع الخليفة المستنصر الفاطمي قبل وفاته سنة ٤٨٧ هـ في أخذ البيعة لابنه الأكبر نزار . غير أن الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي أخذ بمأطله حتى توفي الخليفة قبل أن تتم البيعة لنزار ، وبادر إلى تولية ابنه الأصغر أبي القاسم أحمد ولقبه المستعلي بالله . وكان من أثر ذلك أن قام النزاع بين أنصار الفاطميين في مصر .

وقد ظهر أمر الباطنية أو الإسماعيلية في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي . فقد اجتمع منهم ثمانية عشر صلوا صلاة العيد جهارا في مدينة سارة ، ولكنهم حبسوا ثم اطلق سراحهم . ويذكر ابن الأثير أن هؤلاء الباطنية دعوا مؤذنا من أهل أصبهان إلى إعتناق مذهبهم فلم يجبههم إلى دعوتهم ، فخافوا أن يتم عليهم فقتلوه . فكان ذلك أول دم أراقته الباطنية . ولما نعى خبر هذا الحادث إلى نظام الملك وزير السلطان ملكشاه ، أمر بالبحث عن المنهم ، وانحصرت التهمة في نجار يسمى « طاهر » ، فقتل ومثل به في الأسواق ، فكان أول قتيل من أنصار هذه الطائفة . وسرعان ما انتقم الباطنية من الوزير نظام الملك وقتلوه وقالوا : قتل نجارا فقتلناه به<sup>(١)</sup> ، ولم يلبث أن استولى الباطنية على موضع عند قاین كان صاحبه يدين بعقائد هذا المذهب . وقد حدث أن اجتازت قافلة من كرمان في طريقها إلى قاین ، فخرج الباطنية عليهم وقتلوه عن آخرهم ، ولم ينج منهم إلا رجل استأنف سيره إلى قاین وأخبر أهلها بهذا الحادث ، فخرجوا إلى جهادهم ، ولكنهم لم يتمكنوا من هزيمتهم .

ولما قتل الوزير نظام الملك ومات السلطان ملكشاه ، تفاقم خطر الباطنية وقويت أطماعهم والنأمت جموعهم في أصبهان حيث نشروا دعوتهم وأخذوا يلحقون الأذى بمخالفهم ، وأمضوا في سرقة أموالهم وقتيلهم وادخلوا الفزع في قلوب الأهلين ، حتى كان الأمراء يضمون الدروع تحت ثيابهم<sup>(٢)</sup> . وكان الباطنية إذا مر بهم شخص أخذوه إلى إحدى دورهم وقتلوه وألقوا بجثته في بئر قد حفر لهذا الغرض . وسرعان ما استولى الباطنية على كثير من القلاع ، نذكر من بينها قلعة أصبهان التي بناها السلطان ملكشاه السلجوقي ثم اتصل أحمد بن عبد الملك بن عطاش الطيب<sup>(٣)</sup> بتولى هذه القلعة . وقد نال المسلمين

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١١٦ .

(٢) السيوطي : تاريخ الحقاء ص ٢٨٤ .

(٣) وكان داعيا لإسماعيليا نابها في فارس .

منه ضرر عظيم من أخذ الاموال وقتل النفوس وقطع الطريق وإلقاء الرعب والفرع في القلوب ، حتى كانوا يقولون : إن قلعة يدل عليها كلب ويشير بها كافر لابد وأن يكون خاتمة أمرها الشر ، ومنها الموت . وقلعة ألموت بنواحي قزوین ، قيل إن مسلماً من ملوك الديلم كان يكثر من الصيد ، فأرسل يوماً عُقاباً وتبعه فرآه قد سقط على موضع هذه القلعة ، فوجده موضعاً حزيناً ، فأمر ببناء قلعة عليه فسميها ألموت ( بفتح الألف مع الهمزة وفتح اللام ) ، ومعناها في لغة الديلم : تعليم العقاب (١) .

وكان من تلاميذ ابن عطاش ، الحسن بن علي ( بن محمد بن جعفر بن الحسين ) بن الصباح الحيرى (٢) . وكان الحسن ، كما وصفه ابن الأثير (٣) ، « رجلاً شهماً كافياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم والسحر وغير ذلك » . وكان الحسن كأبيه يدين بعقائد الإمامية الاثنا عشرية ، ثم وقع تحت تأثير أحد دعاة الفاطميين . وقد اتهم عامل الري ( وكان زوجاً لابنة الوزير نظام الملك ) الحسن الصباح بتلقي تعاليم الدعاة المصريين ، أو بمباراة أخرى دعاة الفاطميين الذين جاءوا من مصر . وقد هرب الحسن الصباح ولم يدركه عامل المدينة ، وتنقل في البلاد وانتهى به المطاف إلى مصر ، فأكرمه داعي الدعاة وغيره من كبار رجال الدولة ، وأكرمه الخليفة المستنصر وأمدّه بالمال . ولما مثل بين يدي الخليفة أمره أن يقيم الدعوة باسمه في بلاده ، فقال له الحسن : فمن الإمام بعدك ؟ فأشار إلى ابنه الأكبر نزار ثم غادر الحسن الصباح مصر ومر بالشام والجزيرة وديار بكر وعاد إلى خراسان ، ودخل كاشغر وبلاد ما وراء النهر ، واطمأن إلى أهالي ألموت ، وأظهر الزهد ولبس المسوح ودعمهم إلى الدخول في دعوته ، فتبعه أكثرهم ، واستمال صاحب القلعة ( وكان علويًا ) الذي أحسن الظن به وقربه إليه وتبرك به .

ولما أحكم الحسن الصباح الأمر واطمأن إلى قوته ، دخل يوماً على صاحب القلعة ، وأمر أصحابه فأخرجوه منها إلى دامنغان ، وأعطاه ماله وملك القلعة . ولما بلغ هذا النبأ الوزير

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١١٧ .

(٢) قيل إن الحسن لم يسمع لأنصاره بأن يذكروا هذا النسب فأتوا إياه يؤثر أن يكون عبد الإمام المختار من أن يكون له ابناً لا ينظر إليه الناس بعين الاعتبار .

Browne, Lit. Hist. of Persia, vol. II, p. 202.

(٣) ج ١٠ ص ١١٨ .

نظام الملك بعث بمسكر كشيء حاصروا الحسن حتى ضاق ذرعاً ، فأرسل شخصاً قتل الوزير السلجوقي ، ثم جهز محمد بن ملكشاه جيشاً آخر حاصر القلعة تهديداً لاستردادها ، ولكن على غير جدوى<sup>(١)</sup> . وبعد استيلاء الباطنية على قلعة الموت ، وقعت في أيديهم قلاع أخرى حصينة<sup>(٢)</sup> .

وبدل استيلاء الباطنية على هذه القلاع على قوة أتباع الحسن الصباح الذين انفصلت دعوتهم بعد وفاة المستنصر عن الدعوة الفاطمية ، لأنهم تبنا دعوة نزار دون أخيه المستعلي الذي خاف أباه في القاهرة . ومن ثم انقسمت الإسماعيلية الفاطمية إلى فريقين : فريق نادى بإمامة المستعلي ، فسموا المستعلية أو الإسماعيلية في مصر ، وفريق نادى بإمامة نزار الابن الأكبر للمستنصر ، فسموا النزارية أو الحشاشين (أو الحشيشية) ، وهو الاسم الذي اشتهروا به ، كما يعرفون أيضاً بالباطنية . وقد قام هؤلاء بدور هام في محاربة المستعلية والسلاجقة والصلبيين الذين انتشروا أيضاً في بلاد الشام . وكان اعتناق الحسن الصباح العقيدة النزارية مؤذناً بتطور جديد في تاريخ هذه الدعوة . فقد ابتدع نظرية جديدة هي نظرية الإمام المستور والدعوة إليه ، بعد أن كانت الدعوة الإمامية تعتمد منذ سنة ٢٩٦ هـ على الإمامة الظاهرة (exoteric) لا على المستورة (esoteric) . كما استطاع الحسن الصباح أن يستغل الدعوة النزارية خير استغلال ، فأصاب نجاحاً بعيد المدى ، وأفلح في تكوين نظام جديد ، وأنشأ دولة إسماعيلية خالصة في وسط دولة العباسيين السنيين .

وقد تركزت جهود الحسن الصباح بعد موت المستنصر في نشر الدعوة لنزار ، واحتفظ بأنصاره القدامى من الإسماعيلية في فارس وخراسان ، فالتفوا حوله ؛ كما عمل على ضم

(١) ابن الأثير : ج ١ ص ١١٦ — ١١٨ .

(٢) ذكر ابن الأثير ( ج ١٠ ص ١١٨ — ١١٩ ) أسماء هذه القلاع وهي : شاه دز ( بكسر الدال وزاي مشددة ) وخالنجان ( بفتح اللام وسكون النون ) قرب أصفهان ، وطلس ( بفتح الطاء والباء ) وتون ، وقابن ( بكسر الباء ) وزوزن ( بفتح الزاي الأولى والثانية وسكون الواو ) وخور ، وخوسف ( ضم الخاء وفتح السين ) في قوهستان ، ووشمكوه ( بفتح الواو وسكون الشين وضم السكاف ) بقرب الأنبار ، وأستوناوند ( بضم الألف مع الهزة والتاء وفتح الواو وسكون النون ) في مازندران ( بفتح الزاي وسكون النون وفتح الدال ) وأردھات ( بفتح الألف مع الهزة وسكون الراء وفتح الدال ) وجرذكوه ( بكسر الجيم وسكون الراء والدال ) ، وقاعة الناظر في خوزستان ، وقلعة التنبور على مقربة من أرجان ( بفتح الراء مع التشديد ) ، وقلعة خلادخان في فارس ( بسكون الدال ) .

انظر Browne, Lit. Hist. of Persia, vol. II, p. 204.

عناصر جديدة إلى دعوته . ومن أهم ما تمتاز به دعوة الحسن الصباح إلى نزار ، العمل على تكوين مجتمعات إسماعيلية بحتة تستقر في أماكن حصينة ، يجتمع فيها كل دعاة الزارية لمحاربة أهل السنة والنيل منهم . فأصبح للحسن مئات من القلاع والحصون القوية في أقاليم رودبار وقوهستان والطالقان وغيرها . كما وجه الحسن الصباح دعاته نحو بلاد الشام لنشر الدعوة الزارية ومحاربة السلاجقة والمستعربة والصليبيين . ومن ثم أصبح في كل إقليم أتباع وفي كل مدينة أنصار .

وقد امتازت دعوة الحسن الصباح في ذلك الحين بأنه استغل مبدأ التعليم من الإمام المعصوم . فادعى أنه لا يمكن لإنسان أن يعرف شيئاً عن طريق غير طريق الإمام أو نائبه . وما دام هو نائب الإمام فقد أصبح مصدر العرفان . وكان هذا المبدأ من العوامل التي شجعت الحسن الصباح على حمل السيف في وجه الدولة العباسية السنية . كما لجأ إلى التأويل ، فأول القرآن للزارية تأويلاً يتفق ونزعاته السياسية ، فاعتقد الدعاة أنه أحق بتعيينهم ، وقدمه المستجيبون . كما استغل عقيدة الإمام ونائبه وحجته كشرط أساسي للدين الحق . ولذلك سمي أشباع هذه الدعوة الباطنية وسميت دعوتهم الدعوة الجديدة .

وقد راع الدولة العباسية خطر دعوة الحسن الصباح ، فحملت كثيراً من العلماء على الرد عليه . فألف أبو حامد الغزالي كتابه « المستظهرى » أو فضائح الباطنية ، ليرد به على الزارية بصدد نظريتهم في الإمام المعصوم .

وقد عمل الحسن الصباح على تنظيم جماعته تنظيماً دقيقاً يضمن لها البقاء . ولذلك قسم جماعته إلى مراتب ودرجات ، وجعل المحبة والأخوة والمرحمة ، الرباط الذي يربط الأفراد الذين ينتمون إلى رتب دعوته على اختلافها ، وجعل للأعضاء شروطاً ، وحدد لهم حدوداً خاصة بهم . ولم يشأ أن يجند أتباعه جميعاً ليظهروا السلاح في وجه أعدائه ، بل جعل حمل السلاح مقصوراً على فئة امتازت بقوة أبدانها ، يهددون الأعداء بخناجرهم المسمومة ، فسموا الفداوية ، لأنهم يبذلون نفوسهم رخيصة في سبيل إمامهم ونائبه . أما أهم مراتب الدعوة الزارية فهي :

المرتبة الأولى أو مرتبة شيخ الجبل<sup>(١)</sup> ، وعدد أفرادها سبعة ، منهم نائب الإمام ورئيس الدعوة الجديدة . فكان الحسن يلقب نفسه بلقب رئيس الدعوة ، ولا سيما بعد أن احتل

(١) وقد أطلق الصليبيون هذا التسمية ، أى شيخ الجبل نسوه الشيخ أو شيخ الجبل .

قلعة الموت في سنة ١٤٨٣ هـ . كما اتخذ لقب مولانا وسيدنا وشيخ الجبل . وكان هو وحده الذي يعين الدعاة ويعزهم ، فأطلق عليه بعض الناس لقب داعي الدعاة . وكان سلطانه لا يحد : يصدر أوامره من الموت فيطيعها النزارية في كل مكان . وقد جعل وظيفة رئيس الدعوة مقصورة على المتفانين في الإخلاص للمذهب الإسماعيلي . ولم يجعل لمبدأ الوراثة أي اعتبار . كما تظاهر جماعته بالتقشف والورع والمحافظة على الشريعة ، حتى إنه قتل أحد أبنائه لاتهامه بشرب الخمر .

المرتبة الثانية أو مرتبة كبار الدعاة ولا يجاوز عدد أفرادها ثلاثة ممن يثق الحسن الصباح بهم ثقة تامة ، لانه قسم العالم أقساماً ثلاثة : جعل على رأس كل قطر أو « بحر » واحداً من هؤلاء الدعاة الثلاثة ، وهم أشبه بنظام أئمة المذاهب . على أنه لم يترك لهم شيئاً من الحرية ، بل ظل الرأس المدبر والعقل المفكر . ومن أشهر هؤلاء الدعاة الكبار كيا بزرگ أميد والحسين القيني ، وأبو طاهر .

المرتبة الثالثة وهو مرتبة الدعاة وهم أكثر عدداً من أفراد المرتبة الثانية وينلقون أوامره من رؤساء الدعوة في الموت أو من كبار الدعاة في الأقاليم الثلاثة . وكانوا يتلقون العلم في مدارس القاهرة أول الأمر ، ثم ينتقلون إلى الموت ليتعلموا أسرار الدعوة . وقد اشترط الحسن الصباح في الداعي أن يكون بارعاً في التشكيك ، ماهراً في التلبس ، ليخدعوا العامة ويدخلوهم في عقيدتهم . وقد كون هؤلاء الدرجات العليا ، وكانوا على علم بمقائد وأغراض وسياسة هذا النظام ، وكانوا على شيء من الإلمام بأسرار هذا النظام .

المرتبة الرابعة أو مرتبة الرفاق ، وكانوا على شيء من الإلمام بأسرار هذا النظام ، يتولون تنقيف الدعاة وإعدادهم لمهمتهم ، ويتفانون في المحافظة على المذهب ، متسلحين بأسلحة العلم من فقه ومنطق وفلسفة . وبلى هؤلاء اللصقاء أو الاتباع الذين أقسموا بين الطاعة والولاء دون أن يفهموا كثيراً مما ينطوى عليه هذا المذهب .

المرتبة الخامسة : الفداوية أو الفدائيون ، الذين كانوا يستخدمون في قتل الأعداء غدرًا ، ويضحون بأنفسهم فداءً لرئيسهم . ولا يشترط في الفداوى أن يتعمق في دراسة أسرار المذهب ، إنما يشترط فيه التفاني في طاعة الرئيس والتضحية إلى أبعد الحدود . فأصبحوا آلات انتقام فتاك ، وخلفوا عصراً مليئاً بالخوف والفرع . وكانوا يتصرفون بالشجاعة النادرة وحب المخاطر والعزيمة التي لا تقهر ، والصبر الذي لا ينفد ؛ يظل الواحد منهم يترقب الفرصة شهوراً بل سنين للفتك بعدوه . ويشترط في الفداوى أيضاً أن يكون من الشبان الأقوياء الذين يجيدون عدة لغات .



المرتبة السادسة : اللاصقون ، وهم ينتسبون إلى الدعوة ، ولكنهم ليسوا من الدعاة ولا من الفداوية ، إنما يأخذون العهد على الناس دون أن يكون لهم حق نشر الدعوة .  
ويأخذون العهد على المستجيبين دون أن يتعمقوا في فهم أصول المذهب .

المرتبة السابعة : المستجيبون ، وهم عامة الناس أو المؤمنون المبتدئون ، لا يعرفون الكثير عن المذهب الإسماعيلي . إنما عملهم الرئيسي زعزعة عقائد الناس ، وبث الذعر في نفوسهم .

وكانت الدعوة الزارية تتسلح بأسلحة مختلفة لتنتشر بين الناس . فكان الدعاة يتوسلون بالوسائل الآتية :

١ — التفرس ، ويقصد به إدراك مكشونات النفس ، ويطلق على ذلك الاستيطان ( من الباطنية ) ليتبينوا قوة إرادة الفرد ومبلغ سهولة انقياده .

٢ — التأنيس وهو من الأئس وهو بعث الأمان والطمأنينة في نفوس المدعوين وإشباع ميولهم وإعطائهم كل ما يميلون إليه ، كل حسب ميوله .

٣ — التشكيك وهو زعزعة عقيدة المدعوين ، ويعتبر خطوة جريئة من أخطر الخطوات ، يستطيع بها الداعي أن يصل إلى قلب المرید فيزعزع عقيدته ويزلزل إيمانه .

٤ — التعليق وهو ترك المرید بعد تشكيكه متأرجحاً في عقيدته مشوقاً إلى معرفة المذهب الإسماعيلي ، حتى تستبين نفسيته وتعرف شخصيته .

٥ — التدليس ، وهو أن يلجأ الداعي إلى التويه ، ويدعى إطاءات كاذبة تزيد في إغراء المرید وتشويقه وإلهاب رغبته في الدخول في الدعوة .

٦ — التأسيس ، وهو تثبيت المعلومات والحقائق التي أدلى بها الداعي والمستجيب حتى تستقر في ذهنه ويقبل عليها ويؤمن بها .

٧ — الخلع يقصد به إقصاء المریدين عن المذاهب السنية نهائياً بإسقاط الفرائض الشرعية في الإسلام ، وذلك بالاستعانة بالنأويل غير المشروع .

توفي الحسن الصباح سنة ٥١٨ هـ بعد أن استقامت له الأمور ، وأقام دولة فريدة في نوعها ، تتكون من قلاع متناثرة في أقاليم مختلفة ، تقوم على نشر مذهب الزارية وتحارب أهل السنة وتهاض المستعلية بوجه خاص .

وهنا ينبغي أن نشير إلى العبارة التي وصف بها « ماركو پولو » هؤلاء الفدائيين في القرن الثالث عشر الميلادي ، في وقت كانت قوة الحشاشين في فارس قد قضى عليها مغول

هولاكو خان ، فاندثرت أو كادت (لأن الحشاشين في سورية استمروا حتى هذا الوقت) ويقول ماركو بولو إن الشيخ كان يسمى في لغتهم «علاء الدين»<sup>(١)</sup>. وقد اتخذ له وادياً بين جبلين وجعله مقفلاً ، وحوله إلى حديقة غناء ، لها من جمال التنسيق والروعة والبهاء وفسحة الأرجاء ما لم تشهد عين من قبل . فيها من كل الثمرات ، وبها قصور شاهقات تكسوها نقوش زاهيات ، تجري من تحتها أنهار جاريات من خمر ولبن وعسل مصفى وماء فرات . وجاء فيها بغايات فائتات ، اختارهن من أجمل ما في العالم من بنات ، عازفات على مختلف أنواع الآلات ، مطربات بأعذب الأصوات راقصات ساحرات بطريقة تخلب الالباب وتذهل العقول . لأن الشيخ أراد أن يجعل أنصاره يؤمنون حقاً بأن هذه هي جنة الفردوس . من أجل ذلك أنشأها وحاكها على ما وصف به محمد صلى الله عليه وسلم جنته ، إذ الفردوس يجب أن يكون حديقة فيحاء تجري من تحتها أنهار من الخمر واللبن والعسل والماء ، ملأى بحور النساء ، حتى لقد آمن أهل هذه الجهات بأنها الجنة التي لا يدخلها إلا من كان من أتباعه الحشاشين (أو الفدائيين) . وقام على مدخلها الوحيد الذي لا طريق للوصول إليه غير حصن منيع كفيف بأن يرد كل قوات العالم . وجعل الشيخ في حاشيته جماعة من شباب البلاد تراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين كما لو كانوا يختارون للتجنيد . وإلى هؤلاء الشبان يقص الشيخ القصص عن الجنة كما اعتاد النبي محمد من قبل ، وقد آمن هؤلاء الشبان بهذا الشيخ كما يؤمن المسلمون بنبوة محمد . وكان الشيخ يدخلهم في جنته زمرة زمرة تتألف من أربعة أو ستة أو عشرة في كل مرة ، فيسقيهم من منقوع الحشيش<sup>(٢)</sup> ، فينامون نوماً عميقاً ، ثم يحملون إلى داخل الجنة . حتى إذا ما استيقظوا من سباتهم ووجدوا أنفسهم في هذه الحديقة وفي هذا المنظر الساحر ، آمنوا بأنها الجنة . وهناك تداعبهم الفتيات الحسان وتغازلهم كواكب البنات حتى يرضوا رغائب شبابهم كما يعمل كل شاب على شاكرتهم . ولو أنهم خيروا لما برحوا هذا المسكان .

(١) وهو بلا رب يقصد داعي الدعاة أو الرئيس الأكبر في الموت ، وهو علاء الدين محمد بن الحسن الذي خلف أباه جلال الدين سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) .

(٢) ومن ثم أطلق على الشيخ «صاحب الحشيش» . ويستبعد براون (تاريخ الفرس الأدبي ج ٢ ص ٢٠٥ - ٢٠٦) أن شيخ الجيل قد شجع استعمال الحشيش (أو الأفيون أو أي مخدر آخر) لأنه يسبب الكسل والإعمال والضعف الذهني الذي لا يتناسب مع الواجبات الشاقة الدقيقة التي كان يعهد بها إلى المریدين . ولعل استعمال هذا المخدر اقتصر على إحدى الدرجات التي انقسم إليها نظام الاسماعيلية في فارس .

ولقد حرص هذا الأمير أو الشيخ كما نسميه على أن يجعل بلاطه بحيث تتجلى فيه عظمة العظمة والجلال . كما جعل بسطاء الشعب الملتفين حوله يؤمنون بأنه نبي عظيم . حتى إذا أراد أن يبعث أحد مريديه من الحشاشين ، سقا أحد شبابه من مخدره ، ثم حمل إلى الحديقة . حتى إذا ما أفاق من غشيته وجد نفسه في القصر ثم في الجنة ولما يكن قد استكمل نقوشه ، ثم يقتاد بعد ذلك إلى حضرة الشيخ ، فيخر أمامه راكعاً في كثير من التجلة ، معتقداً أنه في حضرة نبي مرسل . عند ذلك يسأله الشيخ من أين أتى ، فيجيبه أنه أتى من الفردوس ، وأنها الجنة التي وصفها محمد في القرآن . وكان طبعياً أن يغزى هذا السلام أولئك الذين لم يدخلوا الجنة ، فتولد لديهم رغبة ملحة في دخولها . وهكذا إذا أراد الشيخ قتل أحد الأمراء ، قال لمثل هذا الشاب : إذهب فاقتل فلاناً ، وإذا ما عدت حملتك ملائكتي إلى الجنة ، وإن أنت مت فلا أقل من أن أرسل إليك ملائكتي لتعود بك إلى هذه الجنة . وبذلك أوجد الشيخ في نفوس مريديه رغبة جامحة في دخول جنته إذا ما حققوا له رغبته . وعلى هذا النحو ساق الشيخ رجاله إلى إعدام وقتل كل من أراد التخلص منه . وكان من أثر هذا الرعب الذي ألقاه في القلوب أن أصبح كل الأمراء من أتباعه ، ليكسبوا محبته وتقوم علاقتهم به على أساس المحبة والسلام وليتقوا شر الاغتيال .

وهذه الطاعة العمياء التي تصف بها الفدائيون جعلت اختيارهم مقيداً بصفات خاصة تنحصر في الشجاعة والطاعة وعدم معرفة دقائق وأسرار هذا النظام بدرجاته الفلسفية العليا . ويظهر هذا في جلاء ووضوح فيما ذكره المؤرخون عن زيارة الكونت هنري دي شامباني Henry de Champagne ملك أورشليم لشيخ سوريا . وإذ هما يسيران يوماً رأيا بعض الصبيان في جلايب بيضاء جالسين فوق ذروة برج عال ، فالتفت الشيخ إلى ضيفه الكونت يسأله عما إذا كان قد رأى رعية أطوع لسيدها من رعاياه . ودون أن ينتظر الكونت منه جواباً ، أوماً الشيخ بيده إلى صبيين ، فقفزا مسرعين من فوق البرج ليلقيا حتفهما في البقعة التي سقطا فيها .

ومع أن الفدائيين لم يتعلموا أسرار مذهبهم وخفائاه كانوا مدربين بعناية فائقة على حمل السلاح واستعماله . وقد تعودوا على تحمل المشاق وأساليب التنكر ، بل إنهم كانوا ملين أحياناً ببعض اللغات الأجنبية ، حتى اللغات الأوروبية ، لأن هؤلاء الذين ندبوا لاغتيال المركيز كتراد أمير مونت فيرات ، كانوا يتحدثون باللغة الفرنسية بدرجة كافية ، وكانوا يحملون جوازات مرور باعتبارهم رهباناً مسيحيين خلال ستة أشهر يقضونها في معسكر

الصليبيين ، منتهزين الفرصة لتحقيق أغراضهم . ويندر طبعاً أن يعيش هؤلاء الفدائيون بعد فرائسهم . وكانوا يقتلون الامير المسلم في يوم الجمعة وفي المسجد أو بيت الله ، ويقتلون الامير المسيحي أو الدوق في يوم الاحد وفي أقدس الاماكن لديه وهي الكنيسة على مشهد من جماعة المصلين . وفي عقيدة أتباع الحسن الصباح أن الموت في سبيل تحقيق أغراض « الشيخ » على هذه الصورة المروعة أشرف ميتة ، وفيها توكيد اضمأن السعادة ، حتى إن أمهات الفدائيين كن يبيكين إذا عاد إليهم أبناؤهم أحياء يرزقون .

وكان تهديد الفدائيين لغيرهم في بعض الأحيان كافياً لقضاء مآربهم والوصول إلى غاياتهم . فإذا ماسار زعيم إلى معقل من معاقلم لمهاجمته ، فقد يستيقظ من نومه فيجد بجواره خنجرأ قد أعمد في الأرض ، وقد ألصقت به ورقة قد تكون كافية لترده على أعقابهِ وتثنيه عن عزمه ، كما حدث ، على ما قيل — لملكشاه السلجوقي ، ولصلاح الدين الأيوبي ، ولو أن هذا القول بحاجة إلى ما يؤيده .

ولما اندثرت معاقل الفدائيين نهائياً ووقع شيخهم الثامن والآخر « ركن الدين خُرُشاه » أسيراً في أيدي المنول وأعدموه في الوقت الذي زالت فيه الخلافة العباسية في بغداد ، كان نشاط الحشاشين لا يزال على قوته .

وقد ذكر ابن الأثير<sup>(١)</sup> أن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه استولى على قلعة الموت سنة ٥٢٤ هـ .

أما عن فرقة الحشاشين في سورية فقد جعلت لهذا النظام شهرة في أوروبا وأضاف إلى لغاتها كلمة جديدة . ويبدأ تاريخ هذه الفترة السياسية بالاستيلاء على قلعة بانياس حول سنة ٥٢٠ هـ ( ١١٢٦ م )<sup>(٢)</sup> .

وهذه القصة الحقيقية عن الشيخ « راشد الدين سنان » المشهور الذي جعل الفرع السوري من هذا النظام يستقل عن النظام الفارسي قد أمدتنا بمعلومات تعد من أقوى القصص تأثيراً في النفوس وبتفاصيل وافية تتصل بتاريخ هذا المذهب وما قام به دعائه من أعمال وما أدخلوه على أنظمتهم من أساليب .

(١) راجع ( S. Guyard, Un grand Maitre des Assassins ( J. A. 1877 )

أى « أحد عظماء شيوخ الحشاشين » ( المجلة الآسيوية الفرنسية ١٨٧٧ ) .

(٢) السكامل ج ١٠ ص ٢٥٤ .

وحتى هذا اليوم لا يزال أعقاب هذه الفرقة القوية برغم تشتتها منتشرة في الشرق : فى سوريا وفارس وخراسان وفى شرقى أفريقيا وفى أواسط آسيا والهند ، حيث نجد « أغاخان » الذى يرجع نسبه إلى ركن الدين خورشاه آخر شيوخ ألموت الذى ينتمى إلى نزار بن المستنصر الفاطمى من سلالة إسماعيل ، الإمام السابع من طائفة الإمامية السبعية أو الإسماعيلية والذى يرجع نسبه إلى على وفاطمة .

من كل ما تقدم نرى أن طائفة النزارية انتشرت فى بلاد فارس وخراسان والشام . ولم يقتصر نشاطهم على هذه البلاد ، بل امتد نفوذهم الروحى منذ أيام الحسن الصباح إلى بلاد الهند نفسها . فقد كونوا لأنفسهم دولة ذات طابع خاص ، وقاموا بدور كبير فى حياة سلاطين السلاجقة وفى حياة الخلفاء الفاطميين والعباسيين . كما كان لهم أثر بعيد فى الحروب الصليبية ، ووقفوا فى وجه المغول فى فارس . ولما انتهى أمرهم بقتل زعيمهم وإمامهم ركن الدين خورشاه سنة ٦٥٥ هـ ( ١٢٥٧ م ) لم تستلم جميع قلاع « الدعوة النزارية » ، بل بقى منها قلاع حمل دعائها السلاح فى وجه المغول ، واشتركوا مع المهالك فى موقعة عين جالوت وغيرها من المواقع .

وقد مر تاريخ النزارية فى العصر الذى أفردناه لهذا الجزء من كتابنا ( ٤٤٧ — ٦٥٦ هـ ) بدورين ، يعرف أولهما بدور الستر الأول كما يعرف بدور الدعاة ؛ ويعرف الدور الثانى بدور الظهور الأول أو دور الأئمة .

أما دور الستر الأول أو دور الدعاة ( ٤٨٨ — ٥٥٩ هـ ) ، فيبدأ بمقتل نزار بن المستنصر ، ويمتاز بأن رياسة الدعوة كانت فى أيدي جماعة من كبار دعاة النزارية ، هم الحسن الصباح ( ت ٥١٨ هـ ) وخليفته ألكيازر ( بسكون اللام وكسر الكاف وضم الباء وفتح الزاى حميد ) بضم الجيم وفتح الميم وسكون الياء ) ( ٥١٨ — ٥٣٢ هـ ) ، وابنه محمد الأول ( ٥٣٢ — ٥٥٧ هـ ) . وفى هذا الدور كان هؤلاء الدعاة يدعون للأئمة المستورين من أبناء نزار ، معارضين فى ذلك الخلافة والإمامة الفاطمية .

وأما الدور الثانى أو دور الظهور الأول أو دور الأئمة فيبدأ بإعلان الحسن الثانى رئيس الدعوة النزارية ( ٥٥٧ — ٥٦١ هـ ) الإمامة ، وادعائه بأنه من سلالة نزار بن المستنصر ، فسمى نفسه القاهر بن الهادى بن نزار . ومن ذلك الحين أصبح رؤساء الدعوة

(١) الكيا = الرئيس ، وبزر حميد = من يهب الأمل والرخاء .

الزارية يعرفون بالأئمة بعد أن كانوا يلقبون بالرؤساء أو الدعاة ، وقد جاء بعد القاهر أربعة من الأئمة هم : محمد الثاني ( ٥٦١ — ٦٠٧ هـ ) ، وجلال الدين حسن ( ٦٠٧ — ٦١٧ هـ ) ، وعلاء الدين محمد ( ٦١٧ — ٦٥٣ هـ ) ، وركن الدين خورشاه ( ٦٥٣ — ٦٥٥ هـ ) .

وفي هذا الدور نرى هؤلاء الأئمة يعملون على أن يرثوا الفاطميين في الأمور السياسية والدينية ، وأن يقفوا في وجه العباسيين باعتبارهم الوارثين الحقيقيين لعلي وفاطمة وأبنائهما من بعدهما ، واستطاعوا بذلك أن يقوموا بالدور الذي تقدمت الإشارة إليه .

على أن تاريخ الزارية لم ينته بمقتل ركن الدين خورشاه وانقضاء دور السمر الأول أو دور الأئمة سنة ٦٥٥ هـ ، فقد دخل هؤلاء الزارية أنفسهم في دور جديد يعرف بدور السمر الثاني ، ويبدأ من سنة ١٢٥٧ م وينتهي في سنة ١٨١٧ م وذلك بظهور الإمام الزاري الجديد محمد حسين ( ١٨١٧ — ١٨٨١ ) الذي تلقب بلقب أغاخان . وقد انتشرت الزارية في عهد السمر الثاني في فارس وخراسان وفي الهند .

وعلى الرغم من الغموض الذي يكشف تاريخ هؤلاء الزارية بدأ تاريخهم في الظهور منذ مستهل القرن التاسع عشر ، بدليل أن بعضهم تقلد الحكم في بعض الولايات الفارسية . فقد تقلد الشام خليل الله مثلا ولاية كرمان . ويتولى الشاه (١) محمد حسين إمامة الزارية في سنة ١٨١٧ تزوج من ابنة فتاح علي شاه فارس . وقد قيل إنه طمع في الوصول إلى العرش عن طريق زوجته . واضطر محمد حسين إلى الهجرة إلى أفغانستان بعد أن أخفق في الثورة التي أشعلها في جنوبي فارس ، لأن وزير هذه البلاد كان قد طلب الزواج من ابنة هذا الإمام ، فرفض طلبه لأنه عده غير كفء لابنته .

وقد قام محمد حسين بمساعدة الإنجليز في فتح أفغانستان ، فنحوه معاشا ضخما ولقبوه بصاحب السمو أغاخان . ولم يكف الإنجليز بذلك ، بل إنهم عملوا على تقوية الرابطة بينه وبين أتباعه في بلاد الهند وغيرها .

وبعد وفاة علي شاه بن محمد حسين ( ١٨٨١ — ١٨٨٥ ) تولى رئاسة الزارية أغاخان محمد شاه جد صدر الدين بن علي الأغاخان الحالي . ويشتهر كل من هؤلاء بكثرة زيارتهم

---

(١) يلاحظ أن هذا اللقب كان نوعا من التستر لإحاطة الأئمة الزارية بنوع من الغموض بخلاف

لقب شاه الذي يطلق على ملوك فارس .

لأنبائهم الذين يعرفون باسم « الخرجات » . وينتشر هؤلاء الأتباع في الهند ، وعلى الأخص في ولايات بمبدي وكلكتا والبنجاب وكشمير وأحد آباد وسورات وغيرها ، كما ينتشر بعضهم في فارس وأفغانستان وعمان وسائر بلاد الخليج العربي ، وفي شرقي القارة الإفريقية ولا سيما في زنجبار .

من ذلك نرى أن الخوجات اليوم وعلى رأسهم أغاخان يمثلون طائفة النزارية أتباع نزار بن المستنصر ، كما يمثل البهرة طائفة الطيبية أتباع الإمام الطيب بن الأمر بن المستعلي . فالخوجات أو الأغاخانية يمثلون الدعوة الجديدة ، على حين يمثل البهرة الدعوة القديمة .

### (٥) الدعوة الطيبية في اليمن

نهج أنصار الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن نهج أنصار الدعوة الفاطمية في فارس وخراسان والشام . فقد نادى أهل اليمن من أنصار الخليفة المستعلي بابنه أبي القاسم ، وكان صغيراً ، ونقلوه إلى بلادهم في سنة ٥٢٦ هـ ، وأقاموا الدعوة له ولقبوه بالإمام الطيب ، ولم يعترفوا بإمامة الخليفة الحافظ . وبذلك أسسوا الدعوة الطيبية في اليمن ، وساروا في ذلك الأمر على منوال أنصار نزار بن المستنصر في فارس الذين لم يعترفوا بإمامة أخيه المستعلي ونقلوا إليها أحد أبناء نزار وأسسوا الدعوة النزارية في فارس وخراسان والشام . ولم يقتصر نفوذ الطيبية على بلاد اليمن . فقد قامت الدعوة للطيب بمصر في بادئ الأمر ، ونقشت الدنانير باسمه في الإسكندرية سنة ٥٢٥ هـ . وقد جاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار في الإسكندرية سنة خمس وعشرين وحمسة

أبو القاسم المنتظر بأمر الله أمير المؤمنين

الإمام

محمد<sup>(١)</sup>

وهذا يدل على أن أنصار الطيب اتخذوا مدينة الإسكندرية أولاً مركزاً لحركتهم مستقراً لدعوتهم .

وبذلك خرجت بلاد اليمن عن طاعة الخليفة الحافظ الفاطمي ولم تعترف بشرعية حكمه أو أحقيته بالخلافة والإمامة ، لأن الملكة الحرة أروى الصليحية كانت قد نالقت من الأمر

Lavoix, Catalogue des Monnaies musulmanes, p. 163, pièce (١)

كتاباً يبشرها فيه بمولد ولي عهده ، فعرفت أن الحافظ اغتصب الخلافة وأنه لاحق له في إقامة الدعوة الإسماعيلية التي انقسمت بسبب ذلك إلى مستعلية نسبة إلى المستعلي ، وطيبية نسبة إلى الإمام الطيب بن الأمر وحفيد المستعلي .

وقد عمل الخليفة الحافظ على مناوأة الدعوة الطيبية في اليمن ، فاستعان ببني زريع<sup>(١)</sup> الذين ظلوا على ولائهم للحافظ وخلفائه ، كما ظلوا يقامون الدعوة الطيبية حتى أبطل نواب صلاح الدين الأيوبي هذه الدعوة كما ذكرنا .

ومن أهم ما يمتاز به الدعوة الطيبية في ذلك العصر ، أنها كانت تدعو إلى إمام مستور . هو الطيب وأبناؤه من بعده على حين دعا بنو زريع إلى إمام ظاهر ، هو الحافظ وخلفاؤه من بعده .

ومن أهم ما يمتاز به الدعوة الطيبية أيضاً انفصال الدعوة عن الدولة . فقد أصبح الصليحيون ، ولا سيما في عهد الملكة السيدة أروى ( بفتح الألف مع الهمزة والواو وسكون الراء ) الصليحية ، يمثلون الدولة ، على حين أصبح الداعي المطلق يمثل الدعوة نفسها ، الأمر الذي أدى إلى اتساع نفوذ هذا الداعي بين أنصار الدعوة الطيبية . ولا عجب في ذلك ، فقد أصبح هذا الداعي يمثل الإمام المستور ، يعنون بذلك الطيب وأبناؤه .

وإذا وازنا بين مركز الداعي الكبير لاماك بن مالك ومركز ذؤيب بن موسى الوداعي الداعي المطلق من حيث أثر كل منهما في الدعوة الإسماعيلية في اليمن ، وجدنا أن مركز الأول لا يتعدى الدعوة والدعاة هناك ، بحيث إنه كان يستمد تعاليمه ، وأصول الدعوة من داعي الدعاة في مصر . أما الثاني فقد كان بالإضافة إلى ذلك يعتبر المنبع الأوحيد لعلم الإمام المستور ومعارفة . فلا نجد داعب يكتب في التأويل إلا بعد الرجوع إليه ، بعد أن كان ذلك مباحاً للجميع قبل عصر الدعوة الطيبية . ومن ثم أصبحت الطريقة الوحيدة لبقاء أصول المذهب الإسماعيلي مقصورة على دراسة آداب الدعوة . فلم تعد حاجة إلى مؤلفات يتجه فيها مؤلفوها نحو التجديد ، بل لقد أصبح من الواجب أن يقتصرُوا على ما ورد في كتب الدعوة القديمة والمحافظة عليه واختصاره ونشره في مؤلفات سهلة المنال<sup>(٢)</sup> ( Compendiums ) .

(١) يضم الزاي وفتح الراء وسكون الياء .

(٢) Hamdani, Some Un Known Ismaili Author (JRS, 1933), p. 36g. (٢)



لذلك رأى القائمون بالدعوة البينية من واجهم أن يعملوا ما استطاعوا للحصول على المؤلفات الإسماعيلية القديمة والمحافظة عليها بإخراج هذه المختصرات . ولهذا نستطيع أن نجد المعلومات التي تضمنتها فلسفة إخوان الصفا ، وهم إسماعيلية في ميولهم ، وفي أبحاث الداعي أبي حاتم الرازي ، وأبي يقوب السجستاني الداعي ، وأحمد حميد الدين الكرمانى وغيرهم من قدامى الدعاة وأعلامهم ، بل في الأبحاث التأويلية للقاضى جعفر بن منصور البين والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ، يرى الباحث كل ذلك فى مؤلفات الدعاة فى عصر الدعوة الطيبية . ولم يكن هذا كله إلا لأن بقايا الإسماعيلية المستعملة من أنصار الخليفة المستعلى بن المستنصر وانه الأمر يرون أن الإمامة الفاطمية لم يعد لها وجود منذ استقرار الإمام الطيب ، وأن تراث الدعوة القديمة يجب المحافظة عليه على هذا النحو الذى أشرنا إليه<sup>(١)</sup> .

ومن أهم الكتب التى تمثل هذا الأسلوب الجديد كتاب « عيون الأخبار » للداعي عماد الدين إدريس بن الحسن بن الوليد ( ٧٩٤ — ١٣٩٢/٨٧٢ — ١٤٦٨ ) فقد بحث فيه تاريخ الدعوة الإسماعيلية وتطوره . ويعد هذا الكتاب أحسن كتاب وضع فى هذه الناحية . ولعماد الدين كتب أخرى ألفها على غرار مؤلفات الدعوة القديمة .

كما تمتاز الدعوة البينية فى هذا الدور بأنها كانت قوية فى البداية ، إذ كانت تعضدها وتشد من أزرها قوة الصليحيين السياسية . إلا أنها لم تنل مثل هذا التأييد فى أخريات هذا الدور بسبب ما تعرضت له جماعة الإسماعيلية من ضعف ووهن نتيجة لزوال نفوذ الصليحيين وبنى زريع فى اليمن على يد عبد النبي بن مهدي<sup>(٢)</sup> . ثم على يد توران شاه بن أيوب . فأخذ أتباع الدعوة البينية فى هذه البلاد يتحولون تدريجياً إلى جمعية سرية دينية كل همها أن تعيش عيشة هادئة وأن تحتفظ بتراث هذه الدعوة .

وكذلك نستطيع أن نتميز عنصراً آخر جديداً فى هذه المرحلة . هو أن اليمن لم تقطع صلتها تماماً بمصر ، إذ بقي بنو زريع على ولائهم لخلفاء مصر ( نواب الأئمة ) حتى قضى ابن مهدي على سلطانهم على ماسبق . وبعبارة أخرى نرى أنه على الرغم من أن أنصار الدعوة البينية فى اليمن كانوا يعتبرون المحافظ ومن جاء بعده من الخلفاء خارجيين على الدعوة البينية

(١) Hamdani Ismaili Esoteric ( Islamic Cultue, 1927 ), p. 211.

(٢) كان أبوه مهدي يدعى أنه إسماعيلي وأنه أحد دعائهم ( ابن الجوزى : مرآة الزمان ) . وفى الحق أن المهدي وابنه كانا خارجين على المذهب الإسماعيلي ولم يكونا إسماعيليين .

أو الإمامة الحق التي تتمثل في الطيب المستور - على الرغم من ذلك ظل آل زريع يخطبون على منابرهم باسم هؤلاء النواب . لهذا نستطيع أن نقول إن آل زريع كانوا يمثلون الجانب الظاهري من الدعوة المستعلية ، على حين يمثل أنصار الدعوة البينية الجانب السرى منها . يتضح ذلك من هذه العبارة التي نقلها عمارة النبي عن الملكة الحرة الصليحية إذ يقول : « ثم نقلت السيدة دعوة الحافظ إلى آل زريع » وقالت : « حسب بنى الصليحي ما علوه من أمر مولانا الطيب » . ثم صارت الدعوة البينية في أبناء حاتم بن إبراهيم إلى هذا الوقت (١) ، أي إلى نهاية القرن السادس الهجري .

وقد ظلت الدعوة الطيبية تعمل في الخفاء في بلاد اليمن . كما انتقلت هذه الدعوة إلى بلاد اليمن حيث يمثلها هنا وهناك البهرة الذين ينتظرون الإمام من أبناء الطيب . ويشتهر البهرة بالتجارة ويختلفون مع الخوارج أتباع أخاخان (٢) . ولا غرو فإن البهرة يدعون للإمام الطيب حفيد المستعلي . ويدعو الخوارج لإمامهم أغاخان الذي يرجع نسبه إلى نزار بن المستنصر .

#### (٦) الدعوة المرابطية :

كان يحيى بن إبراهيم الجدالي رجلاً صالحاً متحمساً للإسلام عاملاً على نشره تواقفاً إلى النزود بأحكامه وقد رحل عن بلاده لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول سنة ٤٤٠ هـ . وفي طريق عودته إلى بلاده مر بمدينة القيروان بإفريقية (وهي بلاد تونس الآن) ، مركز إفريقية العلي إذ ذلك ، والتقى فيها بالشيخ الصالح أبي عمران الفارسي ، وكان من فقهاء المالكية ، وانضم إلى حلقة دروسه . ولما رأى أبو عمران ميل يحيى للعلم ، سأله عن اسمه وقبيلته ووطنه ، فأجاب أنه يحيى بن إبراهيم من جدالة إحدى قبائل صنهاجة الجنوب (٣) . وقد ارتاع أبو عمران حين اختبر يحيى بن إبراهيم في بدعيات الإسلام وعرف أنه لا يفقه منها شيئاً ولا يحفظ من الكتاب والسنة حرفاً على الرغم من أنه أمير قومه . غير أنه « صحيح النية والعقيدة واليقين ، جاهل بما يصلح دينه » فقال له أبو عمران : وما يمنعك

(١) تاريخ عمارة النبي ص ١٠٢ .

(٢) وهم النزارية المحدثون .

(٣) الملل الموشية في ذكر الأخبار المرابكية (لؤلاف مجهول الاسم) ص ٩ .

من التعلم؛ قال يحيى: «ياسيدي! إن أهل بلادى قوم عمهم الجهل، وليس فيهم من يقرأ القرآن. وهم مع ذلك يحبون الخير ويرغبون فيه ويسارعون إليه، لو وجدوا من يقرئهم القرآن ويدرس لهم العلم ويفقههم في دينهم ويدعوهم إلى العمل بالكتاب والسنة ويعلمهم شرائع الإسلام ويبين لهم سنن النبي صلى الله عليه وسلم. فلو ابتغيت الثواب من الله تعالى بتعليمهم الخير، لبعثت معي إلى بلادنا بعض طلبتك، يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين. فيكون لك في ذلك الأجر العظيم والثواب الجسيم إذ تكون سبباً لهدايتهم» (١).

وقد تأثر الفقيه أبو عمران الفاسي بكلام يحيى بن إبراهيم وهم بتلبية طلبه، لأنه رأى في ذلك تقرباً إلى الله بشر دينه وإشاعة الخير بين أهل هذه البلاد الذين نقشت فيهم الجهالة. ولما عرض الفقيه أبو عمران هذا الأمر على تلاميذه النابغين لم يوافقوه أحد منهم لبعده الشقة وإشفاقهم من دخول الصحراء، فدلّه الفقيه على رجل من فقهاء المغرب يدعى «واجاج بن زللو» اللمطي، وكان يقيم بمدينة نفيس (٢)، (يفتح التون وكسر الفاء) وهو فقيه من أهل السوس الأقصى، أخذ العلم عليه وانقطع للعبادة والعلم، وأسس مدرسة للمالكية في بلده وكثر عدد تلاميذه. وقد بعث أبو عمران الفاسي مع يحيى بن إبراهيم برسالة إلى واجاج فرحب به وأكرمه ودلّه على أحد تلاميذه وهو الشيخ عبد الله بن ياسين الجزولي، فقبل الذهاب مع يحيى بن إبراهيم اللتوني إلى الصحراء حيث مواطن جدالة وملتونة.

عرف عبد الله بن ياسين الجزولي فهدي المرابطين بالتبحر في العلم. والتفقه في الدين. وكان فوق ذلك زعيماً شجاعاً وقائداً مقداماً ومجاهداً مخلصاً (٣). وقد أهله هذه الصفات الممتازة لإرساء أساس الدولة المرابطية التي خدمت الإسلام ونشرت أحكامه الصحيحة في الجنوب المغربي وفي السودان ثم ولت وجهها شطر الشمال، جددت عزة الإسلام في الأندلس وأعادت شوكرته ولاسيما في عهد يوسف بن تاشفين.

ولما رأى عبد الله بن ياسين ما كانت عليه ملتونة من القوة والرغبة في الدين قال لهم: «إنكم إن صرتم ونفذتم دين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد فتحتم ما كان أمامكم

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ٩.

(٢) الحلل الموشية ص ٩ — ١٠.

(٣) الكامل ج ٩ ص ٢٣١.

ستفتحون إن شاء الله ماوراءكم » وأمرهم بالخروج من الصحراء إلى سجلماسة ودرعة، وكان أهلها تحت طاعة أمراء مغراوة (بكسر الميم وسكون الغين) الزناتية . وكان بين لمتونة بقيادة عبد الله بن ياسين وبين مغراوة حروب كثيرة<sup>(١)</sup> .

تدرع عبد الله بن ياسين بالصبر في نشر دعوته . ولم يكذب يستقر به المقام في بلاد لمتونة وجدالة حتى أخذ يعلمهم الدين ويبين لهم شرائعه . ولما رأى أن البربر في ذلك الوقت كانوا يهملون شعائرهم الدينية ، أخذ يحثهم على إصلاح سلوكهم ، فأعرضوا عنه ، ففكر في الرحيل عن ديارهم<sup>(٢)</sup> ولكن يحيى بن إبراهيم الجدالي أشبث ببقائه وقال له : « إني لا أتركك تتصرف وإنما أتيت بك لأنتفع بعلمك في خاصة نفسي وديني ، وما على فيمن ضل من قومي . ثم أشار على عبد الله بن ياسين بأن يقرأ بدينهما ويعتصما بجزيرة نهر السنغال<sup>(٣)</sup> بنواها رباطاً اتخذوه مركزاً لعبادتهم ، وأخذوا يعلمون الناس التفقه في دينهم والمحافظة على شعائرهم والإقلاع عن عاداتهم المخالفة للدين .

وسرعان ما تجمعت حول عبد الله بن ياسين طائفة من تلاميذه ، وخاصة من جدالة ومسوفة وملتونة أخذت في الزيادة حتى بلغت نحو ألف شخص قاموا على نشر مبادئ الإسلام . ومن كلمات عبد الله بن ياسين المأثورة قوله لتلاميذه .

« اخرجوا على بركة الله ، وأنذروا قومكم ، وخوفوهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجته . فإن تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه ، نخلوا سبيلهم ، وإن أبوا ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم ، استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا »<sup>(٤)</sup> . وتعتبر هذه العبارة منهاجاً أساسياً وضعه عبد الله بن ياسين لدعاة المرابطين من بعده .

(١) الحلل الموشية ص ١١ .

(٢) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ٩ ص ٢٣١) أن اللمتونيين رحبوا يحيى بن إبراهيم وبعيد الله بن ياسين الذي أخذ يعلمهم عقائد الإسلام وفرائضه فقالوا : « ما ذكرت من الصلاة والزكاة فصحيح فهو قريب ، وأما قولك من قتل يقتل ومن سرق يقطع ومن زنى يجلد أو يرحم فأمر لا نلتزمه ، لذهب إلى غيرنا » .

(٣) وينذكر ابن خلدون (العبر ج ٦ ص ١٨٣) عند كلامه على هذه الجزيرة : « وأخذ أبو بكر ، فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط بحر النيل من جهاتها حضضاحا في المصيف وغمرأ في الشتاء » . وامل ابن خلدون قد وقع في هذا الخطأ الذي وقع فيه الشريف الإدريسي (كتاب المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٨) إذ كان يطلق اسم النيل على نهر النيجر .

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ١٤ — ١٦ . أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ترجمة

المؤلف ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

وأخيراً قاد عبد الله بن ياسين أتباعه وسماهم المرابطين لازومهم رابطنه ، وأخذ يعلمهم القرآن والسنة وأحكام الدين : وهذا الاسم مأخوذ من الرباط ، أى الخلوّة التى اتخذها عبد الله بن ياسين فى جزيرته بنهر السنغال . هذا ما ذكره صاحب القرطاس . أما ابن عذارى ( بكسر العين ) فإنه يرى رأياً آخر فى هذه التسمية ، حيث يذكر أن تسمية المرابطين بهذا الاسم ترجع إلى موقعة حربية استبسلت فيها قبيلة لمتونة الصنهاجية ، فأطلق عليهم عبد الله بن ياسين اسم المرابطين لصبرهم وحسن بلائهم ورباطة جأشهم<sup>(١)</sup>.

وذكر ابن الأثير<sup>(٢)</sup> أن عبد الله بن ياسين عقد لآبى بكر بن عمر شيخ لمتونة اللواء وسماه أمير المسلمين ، وحث من حسن إسلامه قومه على الجهاد فى سبيل الله وسماهم المرابطين . ويرجع استعمال لفظ رباط إلى زمن أبعد من هذا . ومعنى المرابطين : الاتقياء المجاهدون فى سبيل الله . وهذا اللفظ مأخوذ من الرباط ، وهو حراسة الحدود ، حيث كان يذهب المخلصون للدين لمساعدة حامياتها . وقد ورد لفظ رباط فى القرآن الكريم حين أذن الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالجهاد ، أى القتال فى سبيل الله ، وذلك لتأمين الدعوة الإسلامية والدفاع عنها ضد من يقف فى سبيلها ، فقال جل شأنه فى سورة الأنفال ( ٢٢ : ٣٩ — ٤٩ ) ( وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يُوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون ) .

كان الأثر الدينى فى قيام دولة المرابطين أقوى من الأثر السياسى ، إذ كانت الروح الدينية تقوم على الجهاد . ولم يكن « أمير المسلمين » الذى تلقب به أمراء المرابطين غير ملك مجاهد . وكان المجلس الاستشارى يتألف من رجالات الدولة ، وكان الفقهاء من أبرز أعضاء هذا المجلس . وقد ظهرت هذه الحياة الدينية فى رباط السنغال ، وهو المسكان الذى يربط فيه المسلمون للجهاد ويدافعون عن الدين وعن البلاد . وكانت هذه الرباط تقام فى الأماكن التى يخشى فيها من هجمات الأعداء . ثم تحول هذا اللفظ إلى « ثغر » أى مدينة حصينة . على أن الرباط قد أصبح له معنى آخر فى شمالى إفريقيا . فقد كان فقهاء المالكية يلقون دروسهم بمسجد القيروان من أجل الدفاع عن مذهب مالك ودعوة الناس إلى

(١) أحد مختار العبادى : مجلة تطوان ، العدد الخامس ١٩٦٠ س ١٤٦ — ١٤٧ .

(٢) الكامل ج ٩ س ٢٣٢ . انظر ما ذكرناه عن هذه التسمية بصدد كلامنا على الدولة

المرابطية ( الباب الثالث من هذا الكتاب ) .

التزهد والتعبد، وضرىوا المثل بأنفسهم وبالإمام مالك . وقد فضل كثير منهم أن يعتزل حياة المدن التي سادتها الاضطرابات السياسية والفوضى وفساد العقيدة ويرحلون إلى رباطات ينقطعون فيها إلى العبادة وتلقي العلوم الدينية . ولعل هذه الرباطات كانت في بداية أمرها على هذه الصفة بمثابة رد فعلي سلبي ضد المذاهب الجديدة التي تختلف مع المذهب السني كالمذهب الشيعي والمذهب الخارجي البرغواطي . وإذا كانت الربط قد ظلت كذلك في إفريقية والمغرب الأوسط حيناً من الدهر ، فإنها في المغرب الأقصى قد تحولت من ربط للتزهد وتدريس العلم إلى مراكز حربية لكفاح المذاهب الأخرى . وقد امتاز رباط السنغال بأنه لعب دوراً هاماً في ثلاث من النواحي ، إذ كان المؤمنون يتلقون فيه العلم ، ويتعبدون فيه ويتطلعون إلى جهاد المشركين والقضاء على عناصر الفتنة في شمالي المغرب . وبذلك كان رباط السنغال مدرسة ومعبداً ونواة لدولة لعبت فيها بعد دوراً بعيد الأثر في تاريخ المغرب والاندلس معا . وفي رباط السنغال تشكل الجهاز السياسي الأول الذي جمع عدداً من الشيوخ والفقهاء ، على رأسهم يحيى بن إبراهيم الجدالي وعبد الله بن ياسين . وإذا كان عبد الله بن ياسين رجلاً فقه من حيث تكوينه الديني ، فقد كان من الناحية العملية القوة الدافعة للحركة المرابطية من الناحية السياسية أيضاً ، لانه هو الذي وحد بين قبائلهم ووضع لهم الخطط الحربية في الوقت الذي كان يحيى بن إبراهيم الموجه السياسي من الناحية النظرية تحسب .

ولم يلبث عبد الله بن ياسين أن أخضع جميع الصحراء ، وكون جيشاً كبيراً وجمع أموالاً ضخمة من الغنائم وتوَدَدَ إلى قبيلة مصمودة ، وبعث بأموال عظيمة من الزكاة والأعشار والاختاس إلى طلبة المصامدة وقضاتها .

ولم يكن الأمير أبو بكر بن عمر اللتوني أقل حماساً في نشر الإسلام من سلفيه عبد الله ابن يتفاوت ويحيى بن إبراهيم . فلم يكذب على منصبه الجديد في رئاسة المرابطين حتى أمره عبد الله ابن ياسين بالجهاد في سبيل الله . « وكان يحيى شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين ، كثير الطاعة له فيما يأمره به وينهاه عنه : فمن حسن طاعته له أنه قال له يوماً : وجب عليك الأدب قال له : فم ياسيدي ؟ قال له : لا أعرفك به حتى آخذه منك . فكشف له ( يحيى بن عمر ) عن بشرته ، فضربه عشرين سوطاً ثم قال : إنما ضربتك لأنك باشرت القتال وأصلبت

الحرب بنفسك ، وذلك خطأ منك . فإن الأمير لا يقاتل ، وإنما يقف ويحرض الناس ويقوى نفوسهم ، فإن حياة الأمير حياة عسكر وموته فناء جيوشه (١) .

وهذه العبارة إن دلت على شيء فإنما تدل على نفاق يحيى بن عمر في الإخلاص لدعوة عبد الله بن ياسين وشدة طاعته له ، كما تدل على إلمام عبد الله بن ياسين بأساليب القتال وإدارة دفة المعارك الحربية .

وقد ظل يحيى بن عمر منقاداً لزعيمه الروحي عبد الله بن ياسين ، واستولى المرابطون على جميع بلاد الصحراء ، وغزوا بلاد السودان ، واتجهوا صوب الشمال ، ففتحوها درعة وبجلماسة وقضوا على أهل البدع وأحلوا محلها أحكام الإسلام . ولم يذهب عبد الله بن ياسين إلى بجلماسة ودرعة حتى استجده به الفقهاء وكتبوا له وليحيى بن عمر وشيوخ المرابطين كتاباً يطلبون إليهم أن يقوموا بفتح بلادهم وتطهيرها من الآثام وتخليصها من عسف أمراء زنانه . فلما وصل هذا الكتاب إلى عبد الله بن ياسين جمع شيوخ المرابطين وقرأ عليهم وشاورهم في الأمر فقالوا : « أيها الفقيه ! هذا مما يلزمنا ويلزمك ، فسر بنا على بركة الله ، فدعنا لهم بخير وحضهم على الجهاد » . وقد كتب الله النصر للرباطين على أمراء مغراوة الذين كانوا يحكمون درعة وبجلماسة ، واستولوا على دوابهم وأسلحتهم وأموالهم ، وقام عبد الله بن ياسين بتوزيع الغنائم على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ، إذ أخرج الخنس وقسمه على فقهاء درعة وبجلماسة وأهل التقوى والصلاح . ثم وزع الأربعة الأحماس الباقية على المحاربين (٢) .

وما هو جدير بالملاحظة أن هذا الغزو لم يكن غزواً سياسياً يرمى إلى التوسع الإقليمي وبسط سلطان المرابطين السياسي ، وإنما كان جهاداً في سبيل الله ونصرة دينه .

وقد استشهد الأمير يحيى بن عمر في إحدى غزواته سنة ٤٤٧ هـ ، فقلد عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر الدتوني قيادة الجيش المرابطي ( المحرم سنة ٤٤٨ هـ ) ، وأمره بغزو بلاد السوس والمصامدة . وفي شهر ربيع الثاني من سنة ٤٤٨ هـ عين أبو بكر بن عمر على مقدمة جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي لمع نجمه وعلا شأنه في الدولة المرابطية . واستطاع أبو بكر بن عمر في زمن قصير أن يستولى على معاقل بلاد السوس ويخضع قبائلها :

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٦ ، ١٧ .

(٢) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٢ .

ففتح جزولة وماسة وتارودان قاعدة السوس وخلصها من أيدي الشيعة البَجَلِيَّة . ثم اتجه أبو بكر لحرب قبائل المصامدة ، ففتح جبل دَرَن ومدينة نَفَيْس وسائر بلاد جَدَمِيوَة . ووفدت عليه القبائل فبايعته ، ثم سار إلى مدينة أغمات ، وبها يومئذ أميرها لَقُوط بن يوسف بن علي المغراوي الذي لم يستطع مقاومة المرابطين ، ففر إلى أبناء عمومته بني يَفرن ملوك سلا وتادالا ( بسكون الدال ) . واستطاع المرابطون أن يدخلوا مدينة أغمات سنة ٤٤٩ هـ ، واتخذوها حاضرة لهم حتى تأسست مدينة مراکش .

ثم اتجه عبد الله بن ياسين إلى تامسنا<sup>(١)</sup> حيث كانت قبائل برغواطة تقيم بساحلها وتستعد للقائه . وقد أوعلت هذه القبائل في الكفر والضلالة ، وكان بعضها يدين بالمجوسية فقاتلها عبد الله بن ياسين لانضوائها تحت لواء الإسلام . وكان البرغواطيون بقيادة أبي جعفر عبد الله من سلالة البسج بن صالح بن طريف المتلبي الكذاب<sup>(٢)</sup> . وكانت بيته وبين عبد الله بن ياسين حروب طاحنة أصيب فيها عبد الله بن ياسين بضربة أودت بحياته . ولما حضرته الوفاة قال للمرابطيين :

(١) يطلق هذا الاسم على الناحية الممتدة بين سلا وآسفي في سهول المحيط الأطلسي ولا سيما في سهول الشاوية الحالية جنوبي الدار البيضاء .

(٢) ذكر ابن أبي زرع ( روض القرطاس ج ٢ ص ٢٥ : ٢٦ ) أن صالح بن طريف ينتمي إلى أصل يهودي ، وأن موطنه الأصلي بلاد الأندلس . وقد أسلم في عهد هشام بن عبد الملك بن مروان ، ورحل إلى المشرق ودرس العلوم الإسلامية ، ثم قدم بلاد المغرب ونزل بلاد تامسنا فوجد بها قبائل من البربر قد فشا فيهم الجهل ، فادعى النبوة وتسمى « صالح المؤمنين » وقال لهم : أنا صالح المؤمنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز الذي أنزله على محمد عليه السلام . ثم أخذ يشرح لهم ديانته ( ١٢٥ هـ ) . وجعل الصيام في شهر رجب لا في شهر رمضان ، وفرض عليهم عشر صلوات خمس بالليل وخمس بالنهار ، وقرر أن الأضحية واجبة على كل من اتبعه في الحادي والعشرين من شهر المحرم . وشرع لهم في الوضوء غسل الصرة والحاصرتين ، وجعل في صلاتهم الإيماء ، لا سجود فيها إلا في الركعة الأخيرة حيث يكون السجود خمس مرات . وأمرهم بأن يخرجوا العشر من جميع الثمار . وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء ، وحرم الزواج من بنات العم . كما أمرهم أن يطلقوا ويرجعوا كما يشاءون . وأمر بقتل السارق حيث وجد ، وحرم رأس الحيوان ولم يذبح ، واعتمد في الصلاة على أذان الديكة التي حرمت ذبحها . ومن ذبح ديكاً ألزم بعق رقبة . ووضع صالح بن طريف المتلبي قرآناً يقرءونه في صلاتهم ويتلونه في مساجدهم ، وزعم أنه نزل عليه وأنه أوحى به من الله تعالى . ومن شك في شيء من ذلك فهو كافر . واشتمل قرآنه المزعوم على ثمانين سورة سماها بأسماء النبيين وغيرهم ، منها : سورة آدم وسورة نوح وسورة يونس وسورة موسى وسورة هارون وسورة فرعون وسورة بني إسرائيل وسورة الديك وسورة الجزاء وسورة لابليس وسورة الجمل الخ .



« يا معشر المرابطين ! إنى ميت من يومى هذا لا محالة ، وإنكم فى بلاد عدوكم . فإياكم أن تجبنوا أو تنازعوا فتفشلوا وتذهب ربكم<sup>(١)</sup> . وكونوا أعوانا على الحق وإخوانا فى ذات الله . وإياكم والتحاسد على الرياسة ، فإن الله يؤتى ملكه من يشاء من خلفه ، ويستخلف فى أرضه من أراد من عباده » .

وتوفى عبد الله بن ياسين عشية هذا اليوم ( الأحد ٢٤ من شهر جمادى الأولى سنة ٤٥١ هـ ) ، ودفن بموضع عال يعرف بكريفة على مقربة من مدينة الرباط بين الرومان وابن سليمان وبنى على قبره مسجد لا يزال حتى الآن .

وقد استمر الأمير أبو بكر بن عمر فى حرب البرغواطيين حتى قضى على دعوتهم ، ثم تفرغ لحرب الصحراء ، تاركا أمر المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين ، ثم نزل له عن الحكم بعد عودته كما تقدم .

إن العوامل التى أحاطت بالدعوة المرابطية ، ومدى تأثير عبد الله بن ياسين بالبيئة التى عاش فيها ، وتسكوبته الدينى ، وروح الحماسة التى اتصف بها فى نشر الإسلام لجديرة بالبحث ، لما لها من الصلة الوثيقة بالدعوة المرابطية وقيام الدولة المرابطية ، وإبراز شخصية هذا المصلح الاجتماعى .

اتفق جمهور المؤرخين على ثلاث نقاط أساسية لاشك فى صحتها وهى :

( ١ ) أن عبد الله بن ياسين ينتسب إلى قبيلة جزولة .

( ٢ ) أنه تلقى العلم على واجاج بن زللو بمدينة آفيس .

( ٣ ) أنه ينتمى إلى مدرسة واجاج بن زللو تلميذ أبى عمران الفاسى أحد أئمة المذهب المالكي .

أما عن قبيلة جزولة فقد أشار إليها ابن خلدون<sup>(٢)</sup> عند كلامه على تفرع الشعوب البربرية حيث يقول : « وأما شعوب البرانس ، فعند النسابين أنهم يجمعون سبعة أجناس

(١) وهذا مقتبس من قوله تعالى ( ولا تنازعوا فتفشلوا ويذهب ربكم ) :

(٢) العبرج ٦ س ٨٩ — ٩٠ .

وهي : أزداجة ، وأوزبة ، ومجيسة ، وكتامة ، وصنهاجة ، وأوربغة ، وزاد سابق بن سليم وأصحابه لمطة وهسكورة وجزولة <sup>(١)</sup> .

على أنه مما لا شك فيه أن صنهاجة المرابطين قد هاجرت إلى الصحراء قبل الفتح الإسلامي بزمان طويل . وسواء أكانت جزولة قبيلة برنسية قائمة بذاتها أم كانت نخذا أو بطنا من صنهاجة أو من مصمودة ، فإن موطنها هو جنوبي السوس على ساحل المحيط الأطلسي الذي عرف نوعا من النشاط الحضاري . وعلى ذلك فإن عبد الله بن ياسين ينتمي إلى عنصر بربري ينتمي إلى أرومة عربية على أساس أن صنهاجة وكتامة قبيلتان عربيتان كما أثبت ذلك ابن خلدون .

وأما عن مدينة نفيس ، فقد قامت فيها مدرسة واجاج بن زللو شيخ عبد الله بن ياسين ، وشهدت منذ الفتح الإسلامي التطورات العسكرية والسياسية والدينية التي تلقى كثيرا من الضوء على شخصية ابن ياسين . وإذا رجعنا إلى الوراثة رأينا أن عقبة بن نافع المهري استولى على هذه المدينة وأخضع الروم المسيحيين والبربر . ولا يبعد أن يكون قد بنى فيها مسجدا بعد أن جمع منها كثيرا من الغنائم . ثم بسط عبد الله بن ياسين نفوذه على الجنوب المغربي بعد أن ضم مدينة نفيس وجبال المصامدة . ويقول السلاوي <sup>(٢)</sup> إن لإدريس الثاني لما فرغ من بناء مدينة فاس . . . أقام بها إلى سنة سبع وتسعين ومائة ثم غزا بلاد المصامدة ودخل مدينة نفيس .

من ذلك نرى أن مدينة نفيس التي تلقى عبد الله بن ياسين العلم في مدرستها كانت مركزا حضاريا أكثر من قرنين قبل قيام الدولة المرابطية . وسواء أولاد عبد الله بن ياسين في هذه

---

(١) خالف تيراس Terrasse, Histoire du Maroc, tome I, p. 196 ابن خلدون بقوله: إذا كان من السهل معرفة المغرب الصودي برغم ما يحيط الجزء الحاس بالمصامدة من شك ، فإننا على العكس من ذلك نرى صعوبة ما في تحديد مواطن صنهاجة في المغرب . ويبدو أن ساحل المحيط الأطلسي الصغير كان قد انتشرت فيه صنهاجة وجزولة ولطة . وقال المؤلف نفسه في موضع آخر ( ج ٢ ص ٢١٣ ) إنه كانت هناك فيدراليات مهمة تحتل الصحراء الغربية فسكات لمطة وتاركة وسمرنة وجزولة على اتصال بالجنوب الغربي . وقد اختلف المؤرخون في أسباب جزولة ، فجعلها بعضهم نخدا وبطنا من صنهاجة ، وعدّها بعض آخر قبيلة برنسية قائمة بذاتها كصنهاجة ومصمودة وغيرها من القبائل المشهورة .

(٢) الاستقصا ج ١ ص ١٥٣ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٥٦ .

المدينة ، أم قضى فيها شطراً من حياته ، أم وفد إليها من مكان آخر لتلقى العلم على واجاج ابن زللو ، فإنه مما لا ريب فيه أنه كان لهذه المدينة أثر بعيد في تكوين شخصية عبد الله بن ياسين من جهة ، وفي أنه وقف عن طريقها على المشاكل السياسية والحركات الفكرية التي عرفها المغرب في أيامه من جهة أخرى .

وأما عن المذهب المالكي الذي كان عبد الله بن ياسين يدين بتعاليمه ، فإن الإسلام لم يكد يستقر في المغرب حتى تعرضت للاختلافات المذهبية التي انتشرت في الشرق الإسلامي زهاء ثلاثة قرون حتى قدر للمذهب المالكي أن تكون له السيادة بعد أن ظل في صراع مستمر مع غيره من المذاهب . وكانت سيادة هذا المذهب من أبرز نتائج الدعوة المرابطية . ويظهر أن فقهاء المذهب المالكي ظلوا منذ سقوط دولة الأدارسة سنة ٣٧٥ هـ إلى قيام الدولة المرابطية في صراع مع المذاهب الأخرى من شيعة وخوارج وبرغواطية . عاملين على توطيد مذهبهم ، فأقاموا شبكة من المراكز تمتد من إفريقية ( تونس الحالية ) إلى السوس الأقصى . وقد اشتهر من هذه المراكز : القيروان ، وفاس ، ونفيس . وإذا كانت الخصومة قد اشتدت بين المالكية السنيين وبين الدويلات التي قامت في المغرب من شيعيين وخوارج وبرغواطيين ، فإن المالكية قد ظلوا خلال هذا الصراع يعقدون الآمال على ظهور زعامة إسلامية توحد العالم الإسلامي وتعيده إلى السنية والسلفية . لذلك لم يكن عمل هؤلاء المالكية ذا صبغة فقهية نحسب ، بل كان كذلك مظهراً دينياً وسياسياً يهدف إلى بعث حركة إصلاحية تنطلق من أحد هذه المراكز لتقيم الدولة المغربية السنية في المغرب أولاً ثم في سائر العالم الإسلامي ثانياً .

وإذا كان الفقيه المالكي واجاج بن زللو الدطلي قد تحمل مشاق الرحلة من الجنوب المغربي ليأخذ العلم على الفقيه أبي عمران الفاسي المالكي في القيروان ، ثم يعود إلى هذا الجنوب المغربي ليؤسس مدرسة للفقه المالكي تضم طائفة من أبناء الجنوب رغبة في إعداد جيل يقوم بنصرة هذا المذهب ، فقد كان عبد الله بن ياسين أحد أولئك التلاميذ الذين كانوا يهيئون للقيام بهذا الدور الذي يتفق وأهداف المالكية . وليس من شك في أن غرض واجاج بن زللو في مدرسته بنفيس قد تحقق في شخص عبد الله بن ياسين الذي لم يغادر نفيس يوم ندبه شيخه للتوجه إلى الصحراء مع الأمير الملمم يحيى بن عمر إلا وهو مؤمن بأن المغرب في حاجة ملحة إلى الإصلاح ، وأن أستاذه لم يتدبه للرحيل إلى بلاد صنهاجة إلا لثقتة فيه لأن يبني قوة حربية وجهازاً سياسياً يتفق وأهداف فقهاء المذهب .

المالكي ونشر تعاليمه بين أولئك الصحراويين الذين لم يفسدهم تناحر الفرق وتنازع الأهواء .  
ومما يؤيد هذا الرأي أن عبد الله بن ياسين كان يبعث في بعض الأحيان بخمسة الغنائم من  
الصحراء إلى أستاذه واجاج بن نفيس ، وأنه توجه في بعض غزواته إلى بلاد المصامدة  
بدعوة من أستاذه .

وصفة القول أن شخصية عبد الله بن ياسين قد توافر لها من المؤثرات الفكرية  
والسياسية ما جعل من صاحبها مصلحا وداعية دينية ، إذ سار في توجيه الدعوة وفق خطة  
مرسومة تهدف إلى إقامة دولة وتوحيد أمة وتوطيد دعائم مذهب . أما تأثير عبد الله  
ابن ياسين في توجيه الدعوة المرابطية فيتبين في جلاء ووضوح في اعتناق هؤلاء البدو الرحل  
الذين أصبحوا بفضل تعاليمه مسلمين حقا متمسكين بتعاليم الإسلام على هدى من تعاليم  
مذهب مالك ، ثم يتفانون في نصرته هذا المذهب الذي أصبح المذهب الرسمي للدولة  
المرابطية ، ويحاربون هؤلاء الذين انحرفوا عن جادة الإسلام .

#### (٧) الدعوة الموهرية :

#### (١) مولد ابن تومرت ونشأته

ولد محمد بن تومرت بقرية إيجلي (١) بجبال الأطلس ببلاد السوس بالمغرب الأقصى ،  
وذلك في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري . وينسب ابن تومرت إلى قبيلة هرغة  
لأحدى بطون قبيلة مصمودة التي تعتبر أكثر قبائل القرن عددا وأشدّها بأسا وأوفرها  
ثراء ، وهي تنتشر في أغلب أراضي المغرب الأقصى (٢) .

(١) المراكشي : مجب ص ١٨٧ . ويذكر الزركشي ( تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص  
٢ - ٣ ) أنها تسمى لإيكين .

(٢) ويذكر الشريف الإدريسي ( وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية ، نشره هنري بيرس  
Henri Perès ، الجزائر ١٩٥٧ ص ٣٥ ) أن مصمودة هي القبيلة الأولى نزلت المغرب فعمرت ،  
وقد ذكر البكري ( الممالك والممالك ص ١٥٣ - ١٥٤ ) أن كتامة بطن من مصمودة . وعلى ذلك  
يكون الشعب المصمودي قد انتشر في المغرب الأوسط والأقصى ، وفي مصر في العصر الفاطمي حيث كان  
أكثر جيشها من قبيلة كتامة . وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن صنهاجة فرع من المصامدة ( المصدر  
نفسه ) . وعلى ذلك يكون هذا الشعب المصمودي قد انتشر في صحراء المغرب حتى السودان ( عبد الله  
علام : الدعوة الموحدية بالمغرب ص ٣٨ ) . ويذكر ابن خلدون بعض قبائل مصمودة فيقول : « وقبائل  
هؤلاء المصامدة كثيرة ، فمنهم هرغة ( بفتح الهاء والفتح وسكون الراء ) قبيلة ابن تومرت ، وهنتانة =

ومن هنا يدرك أن ابن تومرت صاحب الدعوة الموحدية بفتحى إلى أكبر قبائل المغرب ، وأن هذا الامر قد هيا له النجاح في دعوته التي انتهت بقيام الدعوة الموحدية ، لأن العصية ، كما يقول ابن خلدون<sup>(١)</sup> ، تعد أهم عناصر نجاح المبادئ والدعوات .

وقد ذكر ابن تومرت أنه ينتسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم . ويشير المراكشي ( المعجب ص ١٧٨ ) إلى أن ابن تومرت ينتسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق الأدارسة الذين أسسوا دولتهم بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ . وقد انقسم المؤرخون في مسألة نسب ابن تومرت إلى بيت الرسول إلى طوائف ثلاث :

( ١ ) طائفة أبدت صحة هذا النسب ، لأن الانتساب إلى النبي صلى الله عليه وسلم شرط أساسى فى المهدي المنتظر . ومن هؤلاء المؤرخين أبو بكر بن على الصنهاجى الشهير بالبيدق وتلميذ ابن تومرت ، وكان لا ينفك عنه كظله حتى توفى ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ .

( ٢ ) وطائفة أنكرت نسب ابن تومرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم . ومن هؤلاء ابن أبى زرع وابن عذارى .

( ٣ ) وطائفة أخرى آثرت جانب الاعتدال والتزمت الحياد . ومن هؤلاء عبد الواحد المراكشى .

ويبدو أن ابن خلدون<sup>(٢)</sup> يميل إلى صحة نسب ابن تومرت إلى الرسول الكريم وانتمائه إلى قبيلة مصمودة البربرية فيقول : « وعلى الأمرين فإن نسبة الطالبى وقع فى هرغة من قبائل المصامدة وشجرت عروقه فيهم والنحم بعصبيتهم فلبس جلدتهم وانسب بنفسيتهم وصار فى عدادهم » . ويرى ابن خلدون أن ذرية سليمان بن عبد الله أخا إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى قد انتشرت فى قبيلة مصمودة عن طريق المصاهرة ، وكان محمد بن تومرت يدعى النسب إلى سليمان بن عبد الله .

== ( بكسر الهاء وسكون النون وفتح التاء ) وتينمل ( بفتح التاء وسكون الياء والنون وكسر الميم ) وجدميوه ( بفتح الجيم الأولى وسكون النال وكسر الميم الثانية وفتح الواو ) ، وجنفيسة ( بفتح الجيم والسين وسكون النون ) ، ووربكة ( بفتح الواو والكاف ) ورجراجة ( بفتح الراء وسكون الجيم الأولى وفتح الجيم الثانية ) وهزميره ( بفتح الهاء والراء وسكون الزاى ) ، ودكالة ( بضم الدال ، وحاجة ، وأصارن ، وبنو وزكيت ( بفتح الواو وسكون الزاى ) ، وبنو ماكر ، وليلانه ( ابن خلدون ) : العبر ج ٦ ص ٤٦٢ .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٨٧ .

(٢) العبر ج ٦ ص ٤٦٢ .

وقد نشأ ابن تومرت في بلاد السوس التي اشتهرت منذ ظهور الإسلام في المغرب بحب الدين الحنيف والسعي لتحصيل علوم القرآن الكريم . وكان أهل بيته ، كما يقول ابن خلدون ، أهل نسك ورباط ، وقد شب محمد ( بن تومرت ) هذا قارئاً ، محباً للعلم ، وكان يسمى « أسافو » ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج من الفناديل لملازمتها . من ذلك نرى أن ابن تومرت نشأ في بيئة دينية ، وأنه انكب على طلب العلم ولازم بيوت الله للعبادة .

وبعد أن أخذ ابن تومرت بحظ من علوم الدين واللغة رحل إلى المشرق لطلب العلم ، فرحل إلى الأندلس ، ثم إلى مصر والشام ، ثم ألقى عصا التسيار بالعراق حيث جدي طلب العلم . وكانت بغداد في ذلك الحين من أعظم الحواضر الإسلامية في العلم والآداب والحضارة . وقد تلقى ابن تومرت العلم على أعلام العلماء كأبي بكر الشاشي ، والمبارك بن عبد الجبار من علماء الكلام والأصول والحديث . وقيل إنه أخذ العلم على الإمام أبي حامد الغزالي . وقد تأثر بالثقافة الإسلامية في بغداد وغيرها من الحواضر الإسلامية . وكان لهذه الثقافة أثر بعيد في حياة ابن تومرت الذي أخذ على عاتقه أن ينقل إلى المغرب التوحيد الكلامي القائم على التأويل<sup>(١)</sup> وأن يصرف الناس عن المذهب التقليدي الذي ورثه فقهاء المالكية عن السلف الصالح ، والذي يأبى التأويل إباء تاماً عملاً بقوله تعالى :

( هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم . يقولون آمنا به كل من عنده ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ) (سورة آل عمران ٢ : ٧) .

### (ب) دعوة ابن تومرت

وهنا نسأل : على أي أساس قامت الدولة الموحدية ؟ وهل قامت على أساس ديني لإصلاح أم على أساس ديني وسياسي معاً ؟ ولماذا تسمت بهذا الاسم ؟

(١) يقصد علم الكلام الذي يؤول الآيات القرآنية تأويلاً يبعد الذات الإلهية عن مشابهة المواد وعن التجسيم . مثال ذلك : ( يد الله فوق أيديهم ) (سورة الفتح ٤٨ : ١٠) فعلماء الكلام يفسرون اليد بالقدرة أي قدرة الله تؤيدهم بينما تفق السلفية موقفاً محايداً فلا يسمحون لأنفسهم بالتأويل .

ظل ابن تومرت سنوات يطلب العلم بالمشرق ثم عاد إلى بلاده حاملاً أفكاراً جديدة وآمالاً بعيدة . فحج بيت الله وأخذ ينشر الدعوة الموحدية في مكة ، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر . وكانت مكة إذ ذاك خاضعة للحكم الفاطمي . فلم يكن به إذن من أن يندد بسوء حال المسلمين في عهد الفاطميين . لذلك نرى ابن تومرت يفسد مكة ثم يتجه إلى الشام ثم إلى مصر مركز الدولة الفاطمية إذ ذاك . وقد قيل إنه اتصل بالفتية أبي بكر الطرطوشي في الإسكندرية . وهنا أخذت الدولة الفاطمية تطارد ابن تومرت خشية انتشار مبادئه الثورية بين الناس . فركب البحر واتجه إلى المغرب ، وقد اختلف المؤرخون في اسم المدينة التي نزلها ابن تومرت بعد خروجه من مصر . فيرى ابن خلدون أنه حل بمدينة طرابلس حيث أخذ ينشر مذهبه الجديد في التوحيد الذي يقوم على تأويل المتشابه من القرآن الكريم والحديث الشريف ، مشدداً النكير على علماء المغرب في عدوهم عن التأويل . ثم قام ابن تومرت بتدريس علم التوحيد لتوضيح مذهبه الجديد وأخذ الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

على أن علماء المغرب المالكية السلفيين لم يتقبلوا مذهب ابن تومرت بل قاوموه في عنف حتى « لقي بسبب ذلك أذيات في نفسه احتسبها من صالح عمله » على حد تعبير ابن خلدون<sup>(١)</sup> . وقد ذكر البيهقي أن ابن تومرت نزل بمدينة تونس ثم بمدينة قسنطينة ثم بمدينة بجاية ، ثم اتجه إلى تونس ، وكان طلبتها يأخذون العلم عليه . وقد أضاف البيهقي قائلاً : « وظل ( ابن تومرت ) على هذا أياماً . فلما كان بعض الأيام قال : نتوجه لإنشاء الله نحو الغرب ، فخرجنا من تونس ونحن أربعة نفر كنا أول القدوم : سيدنا المعصوم ، ويوسف الدكالي ، والحاج عبد الرحمن ، وعبدكم الفقير المؤلف لهذا أبو بكر بن علي الصنهاجي المسكن بالبيهقي . فلم نزل نجد السير حتى وصلنا قسنطينة . » ثم يذكر البيهقي أن ابن تومرت أقام بمدينة قسنطينة بأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . ثم خرج منها إلى مدينة بجاية<sup>(٢)</sup> :

ذكر ابن خلدون أن ابن تومرت التقى بتلميذه عبد المؤمن بن علي بعد خروجه من مدينة بجاية بقرية تبعد عنها بفرسخ واحد<sup>(٣)</sup> ويبالغ مؤرخو الموحدين في وصف انقسام

(١) العبر ج ٦ ص ٤٦٧ .

(٢) البيهقي : أخبار المهدي بن تومرت ص ٥١ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٤٦٧ .

ابن تومرت بعبد المؤمن ، فيذكرون أن المهدي عرفه قبل أن يلتقى به بعلامات كان قد عرفها بطريق التنجيم<sup>(١)</sup> والجفور<sup>(٢)</sup> ، وأن ابن تومرت قربه إليه وآثره على جميع أتباعه وهبها له السبيل لأن يخلفه في زعامة الموحدين .

خرج ابن تومرت من هذه القرية ومعه عبد المؤمن بن علي ، ومحمد البشير الونشريسي ، فر بوجوده ومكناسة وسلا ، وانتهى به المطاف أخيراً بمدينة مراكش حاضرة المرابطين في ذلك الحين . وكان ابن تومرت في جميع هذه المدن يدعو إلى مذهبه ، أمرأ الناس بالمعروف ناهياً عن المنكر مشدداً التنكير على من يخالف الشرع . وكان في الوقت نفسه يبشر بمبادئ التوحيد الكلامي سراً كلما أتت له الفرصة .

أطلق ابن تومرت على أتباعه اسم « الموحدين » إشارة إلى أنهم هم الذين يوحدون الله حقاً ، وتمريضاً بالدولة المرابطية التي رماها ابن تومرت بالكفر والتجسيم ، وأحل قتالها باعتبار المرابطين ( في رأيه ) غير مؤمنين عملاً بقوله تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعدوا أن الله مع المتقين ) ( سورة التوبة : ٩ : ١٣ ) .

### ( ج ) ابن تومرت وعلي بن يوسف المرابطي

كان ابن تومرت يمشى في الأسواق أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، فيتلف المزامير وآلات اللهور ويريق الخمر ويكسر أوانها . ولم يكن في ذلك مأذوناً من السلطان ولا من القضاة ولا من المحتسبين التابعين للدولة المرابطية ، إذ كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومقاومة اللوم المنافي للشرع من اختصاص المحتسب وحده . وكانت الحسبة عملاً حكومياً هاماً . من أجل هذا اعتبرت الدولة المرابطية عمل ابن تومرت مخالفاً لقوانين الدولة . وقد نبه ابن تومرت بأعماله الجريئة أذهان الناس . فلم يكن بد من أن يأمر السلطان علي بن يوسف بإحضاره . « فلما مثل بين يديه نظر إلى تقشفه ورثائه حاله ،

(١) كان التنجيم من العلوم التي عني بها المسلمون في ذلك الحين . حتى إن الخلفاء والسلاطين كانوا لا يحاربون إلا بمشورة النجيين . وقد ندد أبو تمام بالنجيين مادما المعتصم العباسي بعد انتصاره على الروم في موقعة عمورية بقوله :

السيف أصدق أنباء من السكتب في حده المهد بين الجد واللعب  
(٢) الجفر جلد المساعز الذي قيل إن به علوم الأولين ومعرفة الغيب قد دونها الإمام جعفر الصادق ثم ورثها عنه أئمة الشيعة .



فاستحضره وهان عليه أمره وقال له : ما هذا الذى بلغنا عنك ؟ قال : وما بلغك أيها الأمير ؟ إنما أنا رجل فقير طالب الآخرة ولسنت بطالب دنيا ولا حاجة لى بها ، غير أنى أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، وأنت أرى من يفعل ذلك فإنك المسئول عنه . وقد عاب الله تعالى قوما تركوا النهى عن المنكر فقال تعالى : ( كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ) ( سورة المائدة ٥ : ٧٩ ) « (١) » .

فدما سمع السلطان كلام ابن تومرت أكبره وعظمه وأشار إلى وزرائه بإحضار الفقهاء لمناظرته وتحقيق مقالته . ولما حضر الفقهاء قال لهم السلطان : « إنما بعثت إليكم لنتخبروا أمره ، فإن كان عالما اتبعناه وإن كان جاهلا أدبناه » « (٢) » .

من ذلك نرى أن السلطان الورع على بن يوسف بن تاشفين قد تأثر بكلام ابن تومرت ، وأنه بعث إلى العلماء ليستمعوا بدورهم إلى آرائه ويختبروا علمه . فإن كان على حق قضت الضرورة باتباعه ، وإن كان على باطل فينبغى أن يؤدب . وإذا كان السلطان يريد أن ينزل العقاب بابن تومرت لما رأى ضرورة لطلب العلماء لمناظرته واختباره .

على أن علماء المرابطين برياسة مالك بن وهيب حقدوا على ابن تومرت لأنهم عجزوا عن مناظرته . وقد اشتهر ابن تومرت بقوة الجدل والمناظرة فقال لهم . « قدموا من تقوم به حجبتكم ، ونأدبوا بأدب أهل العلم وسلدوا عند شروط المناظرة وتركوا اللجاج ، وقدموا أحدكم ممن تتقون بمعرفته ونأدبه . وكان جل من حضر ذلك المجلس أصحاب حديث وفروع ( فقه ) وليس فيهم من له معرفة بالأصول والجدل » « (٣) » .

ولما سمع مالك بن وهيب كلام ابن تومرت استشعر حدة ذكائه وقوة عبارته وأيقن بعجزه وعجز علماء المرابطين عن دفع حججه ، فأشار مالك على السلطان بقتل ابن تومرت وقال مشيرا إليه : هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه ، وإن فر إلى بلاد المصامدة وقع لنا منه شر كثير . ولكن على بن يوسف الذى عرف بورعه ووزده استشعر حقد العلماء على ابن تومرت ، فلم يستمع إلى نصيحة مالك ولم يفكر فى قتل

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ س ١٠٨ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ س ١٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ س ١١٠ .

ابن تومرت . ولما يئس مالك من حمل السلطان على قتل ابن تومرت أشار عليه بحبسه حتى يموت في سجنه فقال علي بن يوسف : علام نأخذ رجلا من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق ؟ وهل السجن إلا أخو القتل ؟ ولكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء ، فخرج ابن تومرت مع أصحابه متوجها إلى بلاد السوس .

### (د) هرب ابن تومرت

ثم قر ابن تومرت خشية أن يكيد له الفقيه مالك بن وهيب بمراكش ، وظل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فاجتمع حوله كثير من الناس . وقيل إنه نزل بأغاث على الفقيه المصمودي عبد الحق بن إبراهيم ، وأنه أخبره بمقصده وما جرى له مع السلطان وعلما المرابطين فقال له عبد الحق : هذا الموضوع ( يعني أغاث ) لا يحميكم ، وإن أحسن المواضع المجاورة لهذا البلد بلدة « تينمل » ، وبيدنا وبينها مسافة يوم في هذا الجبل ، فانقطعوا فيه برهة ريثما يتناسى ذكركم . فلما سمع ابن تومرت كلمة تينمل دار بخاطره أنه رأى هذا في كتاب الحفر وتقال بأنه سوف ينتصر في هذا الموضوع ، فاتجه إليه (١) .

ويذكر ابن خلدون أن ابن تومرت لما ذهب إلى أغاث غير بها المنكر على عادته ، فضاقت كثير من الناس به ذرعا وأغروا به السلطان علي بن يوسف . فلما علم ابن تومرت بذلك ، خرج هو وأصحابه من أغاث خائفين يتدرون الطريق ، فلاحق بقبيلة مسفيوة المصمودية ثم بقبيلة هنتانة ، حيث لقيه الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وإفريقية ، ثم تركهم ابن تومرت ميمما شطر قبيلة هرغة ، فزل على قومه سنة ٥١٠ هـ (٢) .

ولا ريب أن فرار ابن تومرت هائماً على وجهه وتوديعه مدينة مراكش حاملاً بين جنبيه عداء علماء المرابطين الذين عملوا على الإيقاع به وحملوا السلطان على طرده ، ثم مالمسه من ضعف هذا السلطان المرابطي الذي أمر بإبعاده وأبى الانتفاع بعلمه والاستماع إلى مبادئه — كل ذلك قد حدا بابن تومرت إلى القيام بعمل حاسم لإزاء الدولة المرابطية التي سيطر عليها العلماء والنساء في عهد علي بن يوسف ، فبنى هرغة رابطة للعبادة ، فاجتمع عليه

(١) السلاوي : الاستقصاء ج ٢ س ٧٧ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ س ٤٧٠ .

الطلبة من القبائل المختلفة . وأخذ يلقي عليهم درسا من كتابه « المرشدة » الذى ضمنه مذهبه الكلامى الجديد . وألف لاتباعه كتابا فى عقيدة التوحيد التى قام بشرحها بنفسه باللغة البربرية<sup>(١)</sup> . فداع ذكره وعظم أمره ، واشتدت شوكته . وأخذ يفكر فى المهديوية التى تعتبر أول خطوة فى قيام الدولة الموحدية .

### ( هـ ) بيعة ابن تومرت

ومما يدل على عناية ابن تومرت بإحلال التوحيد الكلامى القائم على التأويل محل توحيد السلف القائم على التسليم بظاهر الآيات ، أنه بعد أن حل بقومه بهرغة وبني رابطة للعبادة والتدريس ، أخذ يدرس التوحيد الكلامى جهراً بعد أن كان يذيعه بين تلاميذه سرا<sup>(٢)</sup> . ولما اجتمع حول ابن تومرت كثير من الطلاب ، طلب إليهم مبايعته على التوحيد ، ثم مهد للخطوة التالية ، وهى المهديوية : فأخذ يروى لطلابه الأحاديث التى جاءت فى المهدي المنتظر ، وبصور فساد المجتمع الإسلامى عامة والمرابطى خاصة ، وحاجة الناس إلى ظهور المهدي المنتظر ، وذكر لهم أن ظهوره قد آن وأوانه لوجود هذه العلامات التى وردت فى الأحاديث التى أوردتها الشيعة عن المهدي المنتظر . وقد ذكر ابن تومرت أن هذه العلامات تنطبق عليه من حيث اسمه ولقبه ونسبه النبوى . لذلك ادعى هذا الأمر لنفسه وقال : أنا محمد عبد الله ، ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم صرح بدعوى العصمة لنفسه ونادى بأنه المهدي المعصوم ، وروى فى ذلك كثيراً من الأحاديث حتى استقر فى الأذهان أن ابن تومرت هو المهدي ، وبسط يده فبايعوه وقال : أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رسول الله<sup>(٣)</sup> .

وبصف ابن القطان بيعة الموحدين لابن تومرت بالمهديوية فيذكر أنه حين وثق من منعته فى قومه عقد اجتماعا عاما وخطب فى قومه قائلا :

« الحمد لله الفعال لما يريد القاضى بما يشاء ، لا اراد لأمره ولا معقب لحسبه . وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً .

(١) انظر كتابى انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ص ٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧١ .

(٣) المراكشى : المعجب ص ١٨٨ .

يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور . مكانه المغرب الأقصى وزمنه آخر الزمن ، واسمه اسم النبي عليه الصلاة والسلام ، ونسبه نسب النبي صلى الله تعالى . وملائكته السكرام المقربون عليه وسلم . وقد ظهر جور الامراء وامتلات الارض بالفساد . وهذا آخر الزمان ، والاسم الاسم والنسب الذسب والفعل الفعل (١) .

وهناك رواية ينقلها ابن القطان عن اليسع أنه قال : « وسمعت أمير المؤمنين أبا محمد عبد المؤمن بن علي (رضى الله عنه ) يقول . لما فرغ الإمام المهدي رضى الله تعالى عنه من كلامه بادر إليه عشرة رجال منهم : أنا ، فقلت له : هذه الصفة لا توجد إلا فيك ، فأنت المهدي ، فبايعناه على ذلك (٢) » والعشرة المذكورون هم . عبد المؤمن بن علي ، وأبو محمد البشير الونشريشى ، وأبو إبراهيم الهزرجى ، وأبو حفص عمر بن علي الصنهاجى ، وأبو الربيع سليمان بن الحضرى ، وأبو عمران موسى بن عمار ، وأبو يحيى ، وأبو بكر بن يحيى ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان ، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتافى ( مؤسس الدولة الحفصية فى تونس ) ، وعبد الله بن مَلوية .

وهؤلاء العشرة هم المسلمون أهل الجماعة ، كانوا بمثابة مجلس وزراء لابن تومرت كما كانوا اواة للدولة الموحدية .

### (و) الحكومة الموحدية

- نظم ابن تومرت دولته تنظيماً عسكرياً على النحو الآتى .
- ( ١ ) العشرة أو أهل الجماعة : وكانوا بمثابة الوزراء .
  - ( ٢ ) أهل الحسين : وكانوا بمثابة أعضاء مجلس الشيوخ .
  - ( ٣ ) أهل السبعين : وكانوا بمثابة أعضاء مجلس الامة .
  - ( ٤ ) الطلبة : وهم العلماء .
  - ( ٥ ) الحفاظ : وهم صغار الطلبة .
  - ( ٦ ) أهل الدار .

(١) أنظر ابن القطان : نظم الجمان ، مخطوط المعهد الإسلامى بمغريد ، نشره الدكتور محمود مكي ورقة رقم ١٥ .

(٢) المصدر نفسه ورقة ٢٠ .

(٧) قبيلة هرغة : وهي قبيلة المهدي بن تومرت .

(٨) أهلى تينمئل : وهم جماعة منتخبة من عدة قبائل ، وهم الذين ألفوا الجيش الموحدى الذى استطاع أن يفسر الدعوة الموحدية ويؤسس الدولة الموحدية . وقد ظلت تينمئل مركز الدعوة الموحدية حتى سقطت مراکش فى أيدىهم سنة ٥٤١ هـ .

(٩) قبيلة جَدْمِيُوة .

(١٠) قبيلة جَنْفَيْسَة .

(١١) قبيلة هنتانة .

(١٢) القبائل الموحدية .

(١٣) الجند .

(١٤) الغرّات وهم عوام الناس<sup>(١)</sup> .

وكان المهدي بن تومرت يأخذ أتباعه بالشدة فى احترام القوانين والمواعيد والتمسك بالصفات الحميدة . وكان لكل طبقة من هذه الطبقات مكانها فى الحكم . كما رسم ابن تومرت لهذه الطبقات مالها من حقوق وما عليها من واجبات . وكانت الطبقات فى مجموعها متساندة كجموعه لها كيائها ، وكان على الموحدىين كافة أن يقوموا بأداء حقوق الله قبل كل شىء . وأن يواظبوا على الصلاة فى أوقاتها وقراءة تلك الأحزاب التى وضعها المهدي<sup>(٢)</sup> والكتب التى ألفها فى العقيدة الموحدية على أن تتلى بصفة مستمرة<sup>(٣)</sup> .

### ( ز ) غزوات ابن تومرت

كانت غزوات المهدي بن تومرت التى سبقت موقعة البحيرة عبارة عن إخضاع القبائل التى أبت أن تدخل فى الدعوة الموحدية عن طواعية واختيار . فقد أرسل ابن تومرت إلى القبائل المختلفة كتباً يدعوها إلى الدخول فى سلك هذه الدعوة التى تهدف إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور ( فى رأيه ) وتقدمهم من التردى فى هاوية العقيدة المرابطية التى تؤدى إلى التجسيم والإشراك بالله . وقد حارب ابن تومرت قبائل رجراجة وقبائل جبل

(١) أنظر ابن القطان : نظم الجمان ، مخطوطة المعهد الإسلامى بمدريد .

(٢) وهى أشبه بالأوراد التى يتلوها المصلون عقب الصلاة .

(٣) عبد الله غلام : الدعوة الموحدية بالمغرب س ١٧٢ — ١٧٧ .

درون ( الأطلس ) : يقتل من عصا ويؤمن من اتبعه وانقاد له . وبذلك استطاع ابن تومرت أن يفتح جميع قلاع جبل درن وحصونه وأوديته ، فأطاعته قبائل هنتانه وجنيفيسة وهرغة وغيرها (١) .

على أن البيدق يعتبر أن حرب المهدي ابن تومرت ضد قبائل الأطلس عبارة عن سلسلة من حروب ووقائع منفصلة . فيعقد البيدق لأخبار المهدي فصلاً يتناول فيه سبع غزوات يشترك فيها ابن تومرت بنفسه ويشجع ويحمل من المعركة جريماً على نحو ما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد (٢) .

وتعتبر موقعة « البحيرة » التي نشبت بين المهدي بن تومرت وبين الجيش المرابطي أهم المواقع . وكان الجيش الموحدى بقيادة أبي محمد البشير الونشريثى ، وقاد الجيش المرابطى أبو بكر على بن ناشفين ، وانتهت هذه الموقعة بقتل قائد الموحدين وهزيمة جيوشهم (٣) . وكانت هزيمة الموحدين صدمة عنيفة للمهدي بن تومرت الذى انتابه المرض ومات سنة ٥٢٤ هـ ، على ما ذكرنا فى الباب الثالث من هذا الكتاب .

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١١٨ .

(٢) البيدق : أخبار المهدي بن تومرت ص ٥٧ .

(٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٨٤ .

# الباب الثامن

## نظم الحكم

### ١ - النظام السياسي

(١) الخلافة عند الفقهاء والفلاسفة والأخلاقيين :

بدأ الفقهاء يبحثون مسألة الخلافة نظرياً في عصر انحلال الدولة العباسية ، حين لم يعد للخليفة من الأمر شيء . وقد تناول موضوع الخلافة من الوجهتين النظرية والعملية كثير من فقهاء المسلمين ومؤرخيهم .

فأبو الريحان البيروني<sup>(١)</sup> ( ت ١٠٤٨/٤٤٠ ) أعلن في وضوح ما آل إليه أمر الخلافة العباسية فقال : إنه لم يبق للخليفة من الأمر شيء ، اللهم إلا ما كان متعلقاً بالدين وحراسته . كذلك تعرض لمسألة الخلافة فقيه آخر هو أبو الحسن علي الماوردي<sup>(٢)</sup> ( ت ١٠٥٨/٤٥٠ ) الذي ولد في عهد الخليفة العباسي الطائع ( ٣٦٣ - ٣٨١/٩٧٤ - ٩٩١ ) وتوفي في عهد القائم ( ٤٢٢ - ٤٦٧ / ١٠٣١ - ١٠٧٥ ) . ويعتبر الماوردي في طليعة الذين بحثوا هذا الموضوع . فقد بحث الخلافة بحثاً نظرياً لا يتفق والحوادث التي وقعت في عصره وقبل عصره ؛ فهو يقول : إن مركز الخليفة انتخابي ، ويذكر الشروط التي يجب أن تتوافر فيمن يرشح لهذا المنصب الخطير . ثم يسرد تاريخ البيعة منذ أيام أبي بكر ، ويدلي بالحجة على أن بيعة كل من الخلفاء الراشدين صحيحة شرعاً ، كما يسرد شروط أهل الإمامة وواجبات الخليفة الدينية والإدارية والقضائية والحربية<sup>(٣)</sup> . على أن الماوردي قد تجاهل في هذا البحث النظري حقيقة ما وصلت إليه الخلافة في عهده .

كما تناول موضوع الخلافة كاتب متأخر عن البيروني والماوردي ، هو نظامي عمروسي السمرقندي ، الذي يرى ضرورة قياس من يخلف النبي صلى الله عليه وسلم بالمحافظة على

(١) كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية ( لندن ١٧٨٩ ) .

(٢) الأحكام السلطانية ( القاهرة ١٢٩٧ هـ ) ( ص ٨ - ١٢ ) .

(٣) المصدر نفسه ص ٤ - ٦ ، ٨ ، ١٢ ، ١٣ - ٢٠ .

الشريعة ، كما يقول : إن هذا القائم بالامر يجب أن يكون خير المجتمع ، ويقول أيضا : إن الخليفة لا يستطيع أن ينشر نفوذه ولا أن يدبر دولته إدارة حازمة لاتساع رقعتها ، ولا بد إذاً أن يكون له نواب يمثلونه في الولايات النائية .

ومن الفقهاء الذين تكلموا عن الخلافة ابن حزم<sup>(١)</sup> (٤٥٦ / ١٠٦٤) في كتابه « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، والشهرستاني<sup>(٢)</sup> (١١٥٣ / ٥٤٨) الذي تكلم في كتابه « الملل والنحل » ( ج ٤ ص ١٦٣ - ١٧١ ) عن آراء أصحاب الفرق في الخلافة وفي إمامة الخلفاء الأول .

كما تناول موضوع الخلافة فريق من الفلاسفة والأخلاقيين الذين تأثروا بعلوم اليونان وفلسفتهم ، وبخاصة فلسفة أرسطو وأفلاطون . ومن فلاسفة المسلمين الذين تأثروا بما كتبه أفلاطون في جمهوريته : أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ / ٩٥٠ ، والذي عاصر سيف الدولة الحمداني وانصل به انصالا وثيقا وتأثر بفلسفة أفلاطون في جمهوريته ، فتكلم على دولة تعتبر مثلا أعلى عند الفلاسفة . وقد أفرد الفارابي في كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » بابا عنوان له يباب « القول في العضو الرئيس »<sup>(٣)</sup> ، ( وهو الخليفة والإمام في العرف الإسلامي ) تعتبر مثلا أعلى على رأسها الفلاسفة .

وقد شبه الفارابي الدولة بالسكون الذي ينظم عوالم متناسقة بدرجاتها المختلفة ، تخضع لسلطان الله سبحانه وتعالى ، كما شبه السكون بالروح الإنسانية من حيث مقاييس الذكاء ، وبجسم الإنسان من حيث تركيب أعضائه في شكل منظم يسيطر عليه القلب . وبهذه الطريقة نفسها شبه الفارابي الدولة بنظام متعدد الدرجات . والدولة المثالية في نظر الفارابي يشرف عليها زعيم يعرف ما هي السعادة الحق ، لأن الإنسان لا يستطيع الوصول إلى هدفه بدون هداية مثل ذلك الزعيم ( الإمام أو الخليفة ) . ولعل الفارابي لم يعن العناية للمطلوبة في بحث الحالة السياسية التي كان عليها العالم الإسلامي الذي كان يعيش فيه ، وأن هذه الحالة لا يمكن أن تنطبق على الخلافة إلا من الناحية النظرية ، ومن جهة النظرة الدينية لحسب<sup>(٤)</sup> .

(١) القاهرة ١٣١٧ هـ .

(٢) على هامش كتاب ابن حزم .

(٣) ص ٧٠ - ٨٠ .

(٤) Arnold, The Caliphate, pp. 121 - 122.



كذلك تعرض لإخوان الصفا لمسألة الخلافة من وجهة نظرهم التي تتفق ونظرية الشيعة كما يرى أكثر الباحثين ، فقالوا : إن الملوك خلفاء الله في الأرض ، وإن الملك حارس الدين وحارس الرعية ، فهو يحمل رعيته على الإذعان لأحكام الدين ونواهييه . وهذا يتفق مع النظرية الإسلامية العامة . ومن هؤلاء نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي<sup>(١)</sup> . وقد تناول موضوع الحكومة في كتابه سياسة نامه الذي وضعه سنة ٤٨٥ ( ١٠٩٢ م ) ، فبحث مسألة إعداد الحكام وإدارة الدولة .

ومن أولئك الفلاسفة والأخلاقيين شهاب الدين سهرارودي ( ٥٨٧ / ١١٩١ ) الذي تأثر في كتابه « حكمة الإشراق » بما كتبه أفلاطون في جمهوريته ، ونصير الدين الطوسي الشيعي الذي دخل في خدمة هولاكو التتاري وحثه على إزالة الخلافة العباسية ، وصحبه في حصار مدينة بغداد سنة ٥٦٦ / ١٢٥٨ . فقد وصف في كتابه « أخلاق ناصرى » الإمام ( أى الخليفة ) كحاكم مثالي كما فعل أفلاطون وأرسطو من قبله . وكان نصير الدين الطوسي من أبرز الكتاب الذين خلفوا لنا مؤلفات في الدين والفلسفة .

وقد عني ببحث موضوع الخلافة في العصر الأخير بعض المستشرقين من أمثال فتر وجولد تسبير وسير توماس أرنولد ، وغيرهم مثل عبد العزيز الدوري ، وحسن إبراهيم حسن ، وعلى إبراهيم حسن في كتاب ( النظم الإسلامية ) ، وقد نقل إلى الأردية والفارسية .

ويرى ابن خلدون ( ت ٨٠٨ / ١٤٠٥ ) أن الخلافة تطورت وتحولت عما كانت عليه في صدر الإسلام ، وأنه لم يكن بأس من أن يختار المسلمون الخليفة من أصحاب العصية أياً كانت جذبيتهم . ويقرر ابن خلدون نظريته التي تقوم على العصية المطلقة لا العصية القرشية التي بدأت عقب وفاة الرسول واختلاف الصحابة فيمن يخلفه ، ويرى أن الإسلام في جوهره لا يفرض هذه العصية القرشية على المسلمين . ونلاحظ أن ابن خلدون قد طبق روح عصره تماماً ، إذ رأى الخليفة في القاهرة في عصر المماليك لا يملك من أمر المسلمين شيئاً ، وأن الخلافة قد أصبحت صورية . وبذلك قرر نظريته وهي أن الخليفة يجب أن يكون من أهل العصية المطلقة<sup>(٢)</sup> .

(١) Siasset Naméh, 3 vols. ( Paris, 1891, 1897 ).

(٢) ابن خلدون : مقدمة ص ١٩٣ - ١٩٦ .

بذلك نرى ابن خلدون يختلف مع جمهور السنة الذين يرون حصر الخلافة في قریش ، ومع الشيعة الذين يريدون قصر الخلافة أو الإمامة على أسرة الرسول وفي بيت علي وأبنائه من بعده . كما يختلف مع الخوارج الذين يرون أن الخلافة حق لكل عربي حر ، ثم اشترطوا الإسلام والعدل ، ومع المعتزلة الذين يقولون إن الإمامة اختيار من الأمة سواء أكان المرشح قرشياً أم غير قرشى .

بل لقد خالف ابن خلدون بن حزم ( ت ٤٥٦ / ١٠٦٤ ) برغم تقديره له واتخاذها إياه قدوة ونبراساً له في تاريخ المغرب والدين بصفة خاصة ، إذ جعل ابن حزم أمر القرشية الشرط الأساسى الأول في الإمامة ، كما لم يجوز خلع الإمام إذا ظلم ، بل أشار بمنع المسلمين إياه من الظلم . فإذا لم يتمتع كان لهم أن يعزلوه (١) .

## ٢ - الخليفة العباسية في عهد سلاطين السلاجقة :

لم تختلف حالة الخلفاء العباسيين أيام السلاجقة اختلافاً كبيراً عما كانت عليه في أيام بنى بويه . وكان هؤلاء الخلفاء في أيام السلاجقة يعيشون من إقطاعات مقررّة كما كانت الحال في أيام بنى بويه ، ولم يكن لهم من الأمر شيء سوى ذكر اسمهم في الخطبة . وكانوا يقضون أوقاتهم في بناء القصور وترميمها .

على أن معاملة السلاجقة السنيين للخلفاء العباسيين كانت أحسن بكثير من معاملة البويهيين الشيعيين لهم . يدل على ذلك ما حدث عند اجتماع الخليفة الطائع بعضد الدولة ابن بويه الذى لم يكن همه إلا إظهار ما كان يتمتع به من نفوذ وسلطان أمام رسول الخليفة الفاطمى العزيز .

كما تتجلى هذه العلاقات الطيبة التى سادت بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة في هذه الخلع التى كانوا يتبادلونها . فقد كان الخليفة إذا ما ارتقى العرش يبعث فى طلب السلطان السلجوقى لأخذ البيعة وحمل الخلع السلطانية والمهدايا ، كما كان السلطان السلجوقى يلتمس بعد توليته السلطنة التفويض من الخليفة العباسى (٢) . ويعزو المؤرخون هذه العلاقات الحسنة إلى هذه الحقيقة ، وهى أن السلاجقة كانوا يعتقدون

(١) ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ١١١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٠ ، ٦٤ .

المذهب السني مذهب الخلفاء العباسيين . وذكر سير توماس أرنولد في كتابه الخلافة « أن السلاجقة كانوا يحترمون الخليفة العباسي ، لا لمركزه السياسي بل لأنه خليفة رسول الله » (١) كما تظهر تلك العلاقات واضحة جلية في ارتباط البيت السلاجوقي والعباسي برباط المصاهرة . فقد تزوج طغرل بك من ابنة الخليفة القائم ، الذي زوج ابنه المقتدى من ابنة السلطان ألب أرسلان ( ٤٦٤ هـ ) . كذلك تزوج الخليفة المستظهر ( ٤٨٧ - ٥١٢ هـ ) من ابنة السلطان ملكشاه في سنة ٥٠٢ هـ ، وتزوج الخليفة المقتنى ( ٥٣٠ - ٥٥٥ هـ ) من فاطمة بنت محمد بن ملكشاه وأخت السلطان محمود (٢) ،

على أن هذه الروابط الوثيقة لم تحل دون قيام النزاع بين الخلفاء العباسيين وسلطين السلاجقة الذين تعدوا على حرمة الخلافة إذا ما تدخل الخليفة في شؤون الحكم . وقد ذكر سير توماس أرنولد (٣) : أن السلاجقة اتخذوا لأنفسهم لقب « ظل الله » الذي كان يحتفظ به الخلفاء العباسيون لأنفسهم ، وأنهم أخذوا من الخليفة المسترشد ( ٥١٢ - ٥٢٩ هـ ) بركة الرسول التي كان يلبسها الخلفاء عند توليتهم الخلافة أو عند حضورهم الحفلات الدينية . كذلك لقب ملكشاه نفسه بلقب « أمير المؤمنين » ، ذلك اللقب الذي لم يطلق إلا على الخلفاء أنفسهم (٤) .

### ٣ - عود النفوذ إلى الخلفاء العباسيين - المقتدى والمسترشد :

وإن حسن معاملة سلطين السلاجقة للخلفاء العباسيين بوجه عام قد أحييت في نفوسهم الأمل في إعادة ما كان للخلافة العباسية من نفوذ وسلطان ، حتى إنهم استطاعوا في أواخر عهد السلاجقة أن يظفروا بشيء من السلطة ، وبخاصة عندما قام النزاع بين أفراد البيت السلاجوقي .

(١) The Caliphate p. 80.

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ٨ ، ٢٩ ، ١٩٩ .

(٣) Ibid., p. 80.

(٤) ذكر البنداري ( تاريخ دولة آل سلاجوق ص ١٤٥ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢ ) أن سنجر تلقب بلقب ملك عشرين سنة وأقيمت له الخطبة على أكثر منابر الدولة السلاجوقية ، كما تلقب بالسلطان الأعظم معز الدنيا والدين . وذكر ابن الأثير ( السكامل ج ١١ - ٧١ - ٧٤ ) أنه تلقب بلقب غياث الدين والدنيا معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين . وذكر ابن القلانسي ( ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٣ و ٢٨٤ ) أن الخليفة المقتنى ( ٥٣٠ - ٥٥٥ هـ ) خلع على عماد الدين زنكي كثيراً من الألقاب مثل أمير الكبير العادل المؤيد المظفر المنصور الأوجده عماد الدين ، عمدة السلطين فاهم الكفرة والمتمردين . أمير العراقيين والشام نصير أمير المؤمنين .

ولمآلات الخلافة إلى المقتنى (٥٣٠ - ٥٥٥ / ١١٣٦ - ١١٦٠) عول على ترسيم خطا آبائه ، ونجح كثيراً في هذه السبيل . وقد دخل النزاع بين الخليفة المقتنى والسلطان مسعود في طور جديد . وكان هذا الخليفة — كما يقول السيوطي<sup>(١)</sup> — « قد حدد معالم الإمامة ومهد رسوم الخلافة ، ولم نزل جيوشه منصوره حيثما يمت » . وقد حاصر السلطان مسعود مدينة بغداد ، ولكنه عاد مخذولاً .

#### ٤ — اعتراف الخلفاء العباسيين بسلطانهم الدينية :

وعلى الرغم من أن الخليفة العباسي قد أصبح طوال عصر انحلال الدولة العباسية ألعوبة في أيدي أمراء الأتراك أولاً ، ثم في أيدي بني بويه والسلاجقة ثانياً ، ظل محتفظاً بسلطته الدينية في عهد السلاجقة ، كما كان محتفظاً بها عند غيرهم من الأمراء المستقلين ، لأنه قد ثبت في أذهان الناس أن الخلافة نظام لا بد منه لصالح العالم واستقامة أموره ، وأن الخليفة هو مصدر السلطات . لذلك نرى كثيراً من أمراء المسلمين الذين كونوا إماراتهم بقوة السيف يعترفون بسلطة الخليفة الدينية ويلجئون إليه للحصول على تفويض بالحكم باعتبار خليفته النبي صلى الله عليه وسلم ومصدر قوة المسلمين .

وإنما لجأ هؤلاء الأمراء الذين وصلوا إلى الحكم بالقوة إلى هذه السياسة ليكسبوا حكمهم صبغة شرعية في نظر الشعوب المحكومة . نعم ! لقد اعترف بالخليفة العباسي السلطان محمود الغزنوي (٣٨٨ - ٤٢١ / ٩٩٨ - ١٠٣٠) ، كما اعترف يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين بخلافة المقتدى العباسي (٥٣٠ - ٥٥٥) ، وطلب إليه أن يعطيه تفويضاً شرعياً بتثبيتته في حكم بلاده .

من ذلك نرى أن الخلفاء العباسيين مازالوا يتمتعون في ذلك الوقت بسلطة أدبية كبيرة في داخل بغداد وفي خارجها . ويقول سير توماس أرنولد : إن الخليفة لم يكن من القوة بحيث يستطيع أن يعارض في شيء ، بل يحتمل أنه كان يقابل مثل هذه المطالب بالارتياح والقبول ، لأنها اعتراف بسلطته النظرية في وقت امتدت فيه رقعة الدولة الفاطمية على حساب الدولة العباسية المنحلة المتداعية<sup>(٢)</sup> . على أن الدولة الفاطمية ما لبثت أن تطرق إليها الوهن والانحلال ، فسقطت في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، وظهر على مسرح السياسة

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٩٢ .

(٢) Arnold p. 83 .

صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي خطب للخليفة المستضيء العباسي (٥٦٦ — ٥٧٥ / ١١٧٠ — ١١٨٠) على منابر مصر واليمن وسورية ؛ ففتح هذا الخليفة تفويضاً بحكم هذه البلاد ، كما منح الخليفة المستنصر (٦٢٣ — ٦٤٠ / ١٢٢٦ — ١٢٤٢) نور الدين عمر (١٢٢٩ — ١٢٤٩ م) تفويضاً بحكم بلاد اليمن ، وأعطى مثل هذا التفويض لإيتشمش (Iltutmish) أحد الملوك العبيد الذي اتخذ مدينة دلهي حاضرة لمملكته ، ومنحه لقب سلطان ، فنقش اسم الخليفة على السكة .

#### ٥ — زوال الخليفة العباسية في بغداد :

موت مسعود سنة ٥٤٧ هـ أقل نجم البيت السلجوقي وتقسمت ملك السلاجقة دول شتى عرفت باسم دول الأتابكة .

وفي مستهل القرن السابع الهجري ( الثالث عشر الميلادي ) كانت هناك دويلات إسلامية منفصلة متعادية في غربي آسيا وشمال إفريقيا . فكانت مصر وفلسطين ومعظم بلاد الشام تحت سلطان خلفاء صلاح الدين الأيوبي . وبسط السلاجقة سلطانهم على آسيا الصغرى ، في الوقت الذي كانت فيه الخلافة العباسية لا تزال قائمة في بغداد . كما قامت في الشرق إمبراطورية خوارزم على أنقاض الدولة السلجوقية ، ونشر أمراؤها بين نهري الكنج ( بالهند ) ودجلة ( بالعراق ) ، وإن كان هذا السلطان لم يتوطد تماماً بين سكان فارس والهند .

وكان من أثر تفاقم العداوة بين الخليفة العباسي وخوارزم شاه ، أن اعتقد بعض المؤرخين أن الخليفة الناصر استدعى التتار ليشغل بهم خوارزم شاه ، حتى يأمن شره ويحول بذلك دون ما يهدد ببلاده من خطر هجوم جيوش خوارزم شاه . وفي شهر نوفمبر سنة ١٢٥٧ م ( ٦٥٥ هـ ) سار هولاكو التتار إلى بغداد ، واستولى عليها سنة ٦٥٦ هـ ( ١٢٥٨ م )<sup>(١)</sup> .

وقد ذبح المغول السواد الأعظم من الأهلين ، وأضرموا النيران في المدينة ، وقتل الخليفة المعتصم وأولاده وزالت الخلافة العباسية من العراق كما تقدم في الباب الرابع .

(١) الفخرى ص ٢٩٤ — ٢٩٧ .

٦ - تعدد الخلفاء في المغرب والأندلس وغيرهما :

كان الشائع على ألسنة العلماء أن الخلافة لا يمكن أن تكون متحدة في شخص خليفة واحد ، وإن وجد أكثر من خليفة ، فإن سلطانه يكون غير شرعي ، بل تجب محاربهه والقضاء عليه . ولكن بعد أن ضعفت الخلافة العباسية ولم يعد للخليفة شيء من السلطان تعدد الخلفاء :

١ - قامت الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب أولاً ( ٢٩٧ هـ ) ثم في مصر ثانياً ( ٣٦٢ هـ ) :

٢ - وقامت الخلافة الأموية ببلاد الأندلس في عهد عبدالرحمن الثالث ( ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ ) الذي تلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر بعد أن قنع أسلافه بلقب « بنى الخلفاء » ، وبذلك أصبح هناك ثلاث خلافات : الخلافة العباسية في المشرق ، والخلافة الفاطمية ببلاد المغرب ثم مصر ، والخلافة الأموية بالأندلس ، كما تلقب حكام الموحدون في المغرب الأقصى فيما بعد بلقب أمير المؤمنين .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الخلافة العباسية قامت على الحق الإلهي في الحكم ، وأن الخلافة الفاطمية قامت على نظام التوريث الذي كان سائداً عند الفرس أيام آل ساسان ، وأن الخلافة الأموية بالأندلس لم تستمد من الله سبحانه ولا من الشعب ، وإنما هي نتيجة قوة عبد الرحمن الثالث ، كما كان نظام الخلافة الموحدية في المغرب وراثياً .

٣ - وفي سنة ٣٤٢ هـ ( ٩٥٣ م ) اتخذ حاكم سجلماسة ( جنوبي جبال أطلس لقب أمير المؤمنين .

٧ - المرابطون والخلفاء العباسية :

( ١ ) موقف المغرب من الخلافة العباسية قبل المرابطين

كانت الثورات في المغرب الأقصى أشد منها في سائر شمالي إفريقيا وقد ساعد على ذلك بعد هذه البلاد عن القيروان ثم المهديّة فالمنصورية حاضرة الفاطميين ، ومناعة جبال المغرب ، ووعورة الطرق ، الشيء الذي لم يكن مألوفاً لدى العرب الفاتحين .

وعلى الرغم من أن المرابطين في المغرب كانوا يرون أنهم أحق بالخلافة من العباسيين لم يلقب أحد منهم نفسه بلقب خليفة أو أمير المؤمنين لأن الظروف السياسية لم تساعدهم

على منافسة الخلافة العباسية أو التغلب عليها في عهد السلاجقة . فقد خطب إدريس الأول في البربر يوم أخذت له البيعة فقال : « أيها الناس ! لا تمدن الأعناق إلى غيرنا ، فإن الذي تجدونه من الحق عندنا لا يجدونه عند غيرنا » . ولهذا اكتفى الإدارة بلقب « إمام » الذي شاع في مخاطبتهم وكتابتهم . وهذا اللقب هو اللقب الذي أطلقه الشيعة على الأئمة العلويين مما يقدم دليلا على أن الإدارة كانوا متأثرين ببادئ الشيعة وإن لم يتعصبوا أو يغالوا في ذلك إذ أنهم نصرروا مذهب السنة ونشروه بالمغرب . وقد ذكر ابن خلدون أن إدريس الأول بنى بمدينة تلسان مسجداً صنع به منبر كتب عليه : بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم ، وذلك في شهر صفر سنة ١٧٤ هـ .

على أن الفاطميين لما استولوا على إفريقية (وهي بلاد تونس الحالية) وأقاموا خلافتهم في القيروان سنة ٢٩٧ هـ ، امتنع الإدارة عن الاعتراف بخلافتهم في بادية الأمر ، وعزلهم موسى بن أبي العافية في رقعة ضيقة من ناحية الريف والمغرب . أصبح النفوذ في المغرب يتداول بين الفاطميين والأمويين ، حتى أعلن الحسن بن جنون آخر أمراء الإدارة ولاءه للفاطميين واعتيل بسبب تقربه إليهم . أما الزنانيون الذين حكموا المغرب نحو قرن ونصف قرن قبل قيام الدولة المرابطية ، فإنهم لم يدعوا للفاطميين إلا في سنة ٣٠٧ هـ ، وظلوا على ذلك حتى زالت الخلافة الأموية في الأندلس في أوائل القرن الخامس الهجري . وكان الزنانيون أكثر ميلا إلى الأمويين .

يمتاز النظام السياسي في الدولة المرابطية في جملته بالبساطة . ولم يدر بخلد عبد الله ابن ياسين منذ بث تعاليمه في الصحراء أنه سيقم دولة ، بل كان كل همه منصرفا إلى نشر التعاليم الإسلامية على وفق مذهب مالك كما ذكرنا .

أما اتخاذ المرابطين لقب أمير المسلمين فإنه يرجع إلى عوامل داخلية وخارجية انتهت بقيام دولتهم . وتنحصر العوامل الداخلية فيما يلي :

أولا : العامل السياسي ، وذلك أن مملكة غانة قد ظهرت في مستهل القرن الخامس الهجري بظهور القوة والعظمة ، وفي مستهل هذا القرن سيطر المثلثون على تجارة السودان وعزموا سنة ٤٣٢ هـ على الاستيلاء على أهم مراكز الغانيين التجارية ، وهي مدينة أودغشت الغربية من نهر النيجر شمالي شرقي مدينة تمبكتو . على أن المثلثين انهزموا أمام الغانيين ،

ثم جمعوا صفوفهم وبموا شطر الشمال ، وقاتلوا الزنانيين المتنازعين المتنافرين في سجلماسة ونواحيها ومهدوا بذلك السبيل لقيام الدولة المرابطية .

ثانياً : العامل الاقتصادي . فقد كانت الحرب التي نشبت بين الملمثين والغانيين في الواقع نزاعاً على الطريق التجاري الذي يمر بسجلماسة شمالاً وأودغشت جنوباً ، إذ كان أهل السودان يتبادلون السلع التجارية مع أهل الجنوب ، فيرسلون إليهم التبر والصوف والإبل ، على حين يرسل أهل الشمال القمح والقطاني ويسيطرون على تجارة الملح ويستولون من القوافل على مورد هام من المكوس . فلما أقصى الغانيون الملمثين من أودغشت ، فقد هؤلاء هذه الموارد وفكروا في الزحف شمالاً ، وكونوا الدولة المرابطية التي كان لها أثر بعيد في حياة المغرب الاقتصادي .

ثالثاً : العامل الديني ، وذلك أن الأشراف في قبائل الملمثين كانوا يؤلفون الطبقة الأرستقراطية . وقد فرض الزنانيون المكوس في سجلماسة ، وعمل المرابطون على إقامة حدود الدين ونشر الإسلام في كافة أرجاء المغرب ، وأسسوا دولة أخضعت المغرب ومدت نفوذها من طنجة شمالاً إلى نهر النيجر جنوباً ومن وادي شلف شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وإلى بلاد الأندلس شمالاً .

أما العوامل الخارجية التي ساعدت على قيام دولة تعيد إلى المغرب الإسلامي وحدته وتصد عنه هجمات أعدائه وتحافظ في ظل الخلافة العباسية على مبدأ الوحدة الإسلامية في وقت تفككت فيه عرى العالم الإسلامي ونشط التنصاري إلى استعادة أملاكهم بالأندلس . فقد أخذ نفوذ الفاطميين في الضعف ، واستولى السلاجقة على بغداد ، وأخذ المسلمون يدخلون في ذلك الصراع العنيف مع الصليبيين ، واحتل النورمنديون المهديّة وزويلة من يد الصنهاجين سنة ٤٧٠ هـ ( ١٠٧٧ م ) ، ثم عادوا فاحتلوا في سنتي ٥١٧ ، ٥٤٤ هـ ، واحتل الصليبيون بيت المقدس سنة ٤٨٩ هـ ( ١٠٩٦ م ) ، ودخل المرابطون في حروب مع قشتالة وأراغون في الأندلس . ولم يكن يحيى بن إبراهيم الجدالي شيخ لمتونه ولا عبد الله بن ياسين يفكران في إقامة دولة وراثية . ومع ذلك فقد كانت إقامة هذه الدولة هي السبيل الوحيد إلى إنشاء نظام حكومي يضمن له الاستقرار ويتلاءم مع الأوضاع التي كانت سائدة بهذه البلاد في ذلك العصر .

ولم يفكر المرابطون في الاعتراف بالخليفة الفاطمي في القاهرة ، لسوء اعتقادهم فيهم وعدائهم لهم بسبب تدخلهم في شئونهم ، وتضامناً مع خلفائهم صنهاجة الذين قطعوا الخطبة



للفاطميين سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م) . لذلك عدل المرابطون عن طريق مصر حين رحلوا لأداء فريضة الحج ، برغم ما قام به أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر الفاطمي من جهود في سبيل استئثارهم (١) . وكان المرابطون ينظرون إلى الخليفة العباسي نظرة أسى من نظرهم إلى الخليفة الفاطمي ، رغبة في المحافظة على الوحدة الإسلامية كما ذكرنا ، ولأنهم كانوا لا يحشون الخلافة العباسية التي تطرق إليها الضعف والانحلال .

### ( ب ) المرابطون والخلافة العباسية

وقد نقش المرابطون اسمهم على السكة سنة ٤٥٠ هـ ؛ وكانت تحمل اسم عبد الله أمير المؤمنين (٢) . وهكذا اتخذت الدولة المرابطية مقومات الدولة بعد أن استولى أمراؤها على جزء كبير من بلاد المغرب ولاسيما على سواحل المحيط الأطلسي وجزء كبير من الصحراء ويرجح أن اسم عبد الله الذي نقش على السكة حتى نهاية الدولة المرابطية يقصد به الخليفة العباسي ، حتى لا تتغير السكة بتغير الخلفاء العباسيين . يدل على ذلك اسم عبد الله الذي ورد في الرسالة التي بعث بها الخليفة العباسي المستظهر ( ٤٨٧ — ٥١٢ هـ ) إلى علي بن يوسف ابن تاشفين (٣) . على أن اسم هذا الخليفة هو أحمد . ولما أتم يوسف بن تاشفين إخضاع المغرب ( عدا طنجة وسبتة ) (٤) وناحية تازا واستقرت الدولة المرابطية في مراكش التي بنيت سنة ٤٥٤ هـ ، كان طبعيا أن يتخذ أمير المرابطين لنفسه لقباً يتمشى مع اتساع نفوذه . وقد رأى رؤساء المرابطين أن يتخذ يوسف بن تاشفين لنفسه لقب « أمير المؤمنين » ، ولكنه أبى ذلك وقال : « حاشا لله أن نسمى بهذا الاسم ، وإنما يسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، لأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة ، وأنا راحلهم ( رحلهم على الأصح ) والقائم بدعوتهم » (٥) . وإنما تسمى يوسف بن تاشفين — كما يقول السلاوي — بهذا الاسم ، لأن لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة (٦) . ومنذ ذلك

(١) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٤ .

(٣) الحلل الموشية ص ١٧ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٣٨٠ .

(٥) الحلل الموشية ص ١٧ ، ١٨ .

(٦) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص ٥٣ .

الحين اتخذ يوسف بن تاشفين لقب « أمير المسلمين وناصر الدين » ، وسار على ذلك أمراء المرابطين من بعده . وقد اتخذوا السواد شعار العباسيين شعارهم في ملابسهم وأعمالهم . لجأ المرابطون إلى هذه السياسة لكي يكسبوا حكمهم صبغة شرعية . وقد كتب يوسف بن تاشفين بذلك إلى عمال دولته وأعبانها . وقد جاء في هذا الكتاب .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً . من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافة من أهل « فلانه » أدام الله كرامتهم ووقفهم لما يرضاه — سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . أما بعد حمد الله أهل الحمد والشكر ، وميسر اليسر وواهب النصر ، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر . وإنا كتبناه إليكم من حضرتنا العلية بمرآة كاش حرسها الله في منتصف محرم سنة ست وستين وأربعمائة . وإنه لما من الله علينا بالفتح الجسيم ، وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة بروض النعيم ، وهدانا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم صلى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم لنتناز به على سائر أمراء القبائل ، وهو أمير المسلمين وناصر الدين . فن خطب الخطبة العلية السامية ، فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى ، والله ولي العدل بينه وكرمه والسلام (١) .

ولم يتعد المؤرخون لذكر السنة التي اعترف فيها الخليفة العباسي بإمرة يوسف بن تاشفين الذي بعث إلى الخليفة المقتدى ، على ما ذكر ابن خلدون (٢) ، سفراء يطلبون منه الاعتراف بإمرته . فأجابه الخليفة إلى ماطلب .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن يوسف بن تاشفين اتخذ لقب أمير المسلمين وناصر الدين بعد انتصاره في موقعة الزلاقة المشهورة على ألفونس السادس وحلفائه من المسيحيين بالاندلس في سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٧ م) ، وأن أول من دعاه بهذا اللقب هو المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، وأقره على ذلك الخليفة العباسي . على بن يوسف بن تاشفين اتخذ هذا اللقب ، على ما ذهب إليه بعض المؤرخين ، في سنة ٤٦٦ هـ ، أي قبل موقعة الزلاقة بثلاث عشرة سنة .

(١) الحلل الموسوية ص ١٨ .

(٢) العبر ج ٦ ص ٣٨٦ .

وقد ذكر صاحب كتاب الحلال الموشية (ص ١٧) أن زعيم المرابطين كان يلقب أول الأمر بلقب أمير المرابطين . وكان الأمير أبو بكر بن عمر أول من تلقب به بعد وفاة عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١ هـ . ولما سار أبو بكر بن عمر إلى الصحراء لحرب أعداء قبيلة لمتونة أصحاب اللثام في الجنوب ، وخلف مكانه يوسف ابن تاشفين : أطلق عليه أمير المغرب (أى المغرب الأقصى) : وكان هذا هو أول لقب تلقب به يوسف بن تاشفين الذى ظل من الناحية الرسمية عاملا على المغرب من قبل أبي بكر بن عمر . وظل ابن تاشفين أمينا على عهده لأبى بكر ابن عمر حتى توفى أبو بكر سنة ٤٨٠ هـ . يدل على ذلك أن السكة المغربية ظلت تحمل اسم أبي بكر بن عمر إلى سنة ٤٨٤ هـ . ولما استنجد المعتمد بن عباد ملك إشبيلية بيوسف بن تاشفين مستنصرا إياه على ألفونس السادس زعيم المسيحيين في الأندلس ولجى نداءه ، تلقب يوسف بن تاشفين بلقب أمير جند المسلمين ، وذلك مقابل تسمية ألفونس السادس أمير المسيحيين .

فلما انتصر يوسف بن تاشفين في موقعة الزلاقة المشهورة ، لقبه المسلمون بهذا اللقب تقديرا لجهاده وانتصاره على المسيحيين (١) . وقد ذكر ابن الأثير (٢) أن يوسف بن تاشفين لما عاد من بلاد الأندلس ودخل مدينة مراکش حاضرة ملكه خاطبه علماء الأندلس بأن طاعته ليست واجبة حتى يذكر اسم الخليفة العباسى المقتدى في الخطبة ويأتيه عنه تقليد بإقراره ، فأرسل رسله إلى الخليفة المقتدى ببغداد فأتاه التقليد مع الخلع والأعلام ولقب بلقب أمير المسلمين وناصر الدين (٣) .

وقد قامت حول هذا اللقب مشكلة شرعية وهى : هل يجوز لخطباء المساجد أن يدعوا ليوسف بن تاشفين باعتباره أميرا للمسلمين ؟ على أن يوسف لم يصرح للخطباء بإقامة الدعوة له إلا بعد أن أرسل بعثة من رجال الدين إلى الخليفة العباسى المستظهر يستفتيه

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٧ .

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٥٧ .

(٣) وقد ذكر ابن الأثير (ج ١٠ ص ١٥٦) أن يوسف بن تاشفين لما إستولى على بلاد الأندلس جمع الفقهاء وأحسن إليهم فقالوا له : ينبغي أن تكون ولايتك من الخليفة لتجب طاعتك على الكفاية ، فأرسل إلى الخليفة المستظهر بالله (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) رسولا يحمل هداياه ومعه كتاب يذكر فيه مافتح الله عليه من بلاد الفرنجة فى الأندلس وما قام به فى سبيل نصرة الإسلام ، ويطلب إليه تقليدا بولاية البلاد التى دانت له ، فبعث إليه الخليفة تقليدا بالحكم ولقبه أمير المسلمين وأرسل إليه الخلع .

في جواز حمل هذا اللقب ، فلم ير الخليفة بدأ من عرض هذا الأمر على الفقهاء الذين اجتمعوا برياسة الإمام الغزالي سنة ٤٨٤ هـ ، وأفتوا باستحقاق يوسف بن تاشفين لهذا اللقب بعد أن أحرز هذا النصر الإسلامي المؤزر على المسيحيين في موقعة الزلاقة . وهذا يدل دلالة واضحة على أن يوسف كان يصدر في أعماله عن وازع ديني لا جرياً وراء الشهرة ، لأن حياته كلها كانت تنسم بالزهد والتقشف .

على أن هناك شروطاً أخرى يجب أن تتوافر فيمن يرشح لأمرة المسلمين في الدولة المرابطية ، وهي أن يكون من قبيلة لمتونة ومن بيت وتنطق ( بفتح الواو والتاء والطاء وسكون الراء والنون ) بالذات ، وأن يكون ذا كفاية حربية عالية ، وأن يسير في سياسته على وفق تعاليم مذهب مالك ، وأن يرجع في إدارة دولته إلى رؤساء القبائل ، ويعمل برأي الفقهاء في الأمور السياسية والدينية (١) .

وقد تأثر شعب النيجر بصفة عامة وشعب الفلاني ( بضم الفاء ) في إفريقيا بصفة خاصة بأمراء المرابطين ، فأطلقوا على حكامهم لقب أمير المسلمين . وكان مذهبهم هو مذهب مالك ، مما يحمل على الظن أو شعب النيجر قد تأثر بالمرابطين الذين قاموا بنشر الدعوة الإسلامية في حوض النيجر (٢) وأنهم أخذوا بتلك الشروط التي وضعها المرابطون لمن يرشح لحكم الدولة المرابطية .

#### ٨ - الخلافة الموحدية :

كان للموحدون يرون أنهم أحق بالخلافة من غيرهم ، لأنهم أكثر المسلمين إيماناً وأصحهم مذهباً . ولا غرو فقد استولى الموحدون على الأندلس ، وامتد نفوذهم إلى طرابلس شرقاً وإلى المحيط الأطلسي غرباً ، وحاولوا في عهد يعقوب المنصور الموحدى ( ٥٨٠ - ٥٩٥ هـ ) الاستيلاء على مصر وما يليها من بلاد المشرق الإسلامي ، وكان عصرهم في المغرب والأندلس من أزهى العصور .

وقد أقر المهدي محمد بن تومرت : عبد المؤمن بن علي ، على الجيش ، وقال لاتباعه . « أتم المؤمنون وهذا أميركم (٣) » . وبهذا لم يجد أتباع المهدي بن تومرت حرجاً في أن

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١١٤ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ١٢٣ .

(٣) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٨٨ .

يلقبوا عبد المؤمن بلقب أمير المؤمنين بعد أن خاف المهدي في زعامة الموحدين . وبذلك اتخذ عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين في المغرب لقب خليفة ، وتسمى أمير المؤمنين<sup>(١)</sup> ، ولا سيما أنه كان ينتسب أيضاً إلى بيت النبوة . وبذلك تحدت رسوم الخلافة ببلاد المغرب في الوقت الذي أشرفت فيه الخلافة الفاطمية على الزوال ( ٥٦٧ / ١١٧١ ) :

٩ - الحفصيون والمرينيون :

وبعد سقوط دولة الموحدين في المغرب والأندلس ( ٦٦٧ / ١٢٦٨ ) ظلت الدعوة الموحدية في إفريقية ( وهي بلاد تونس الحالية ) حيث أقيمت على أيدي الحفصيين ( ٦٢٥ - ٩٤١ / ١٢٢٨ - ١٥٣٤ ) ، وهم فرع من الموحدين ، ينتسبون إلى الشيخ أبي حفص يحيى ابن عمر الهنتاني ( من هنتانة إحدى بطون مضمودة ) . وقد قام الشيخ أبو حفص يحيى بدور هام في نشر دعوة المهدي محمد بن تومرت وفي إسناد الخلافة الموحدية إلى عبد المؤمن بن علي ودعم نفوذ الموحدين في المغرب والأندلس ، بفضل زعامته لقبائل مضمودة التي تعتبر أكبر قبائل المغرب كافة<sup>(٢)</sup> . ويرى أكثر المؤرخين أن الحفصيين ينتسبون إلى جدهم أبي حفص عمر ، وقيل إنهم ينتسبون إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وبفضل انتساب الحفصيين إلى قريش وانتسابهم إلى الرسول وقرايتهم من الموحدين ، استطاعوا أن يكسبوا حكمهم صبغة شرعية وأن يؤسسوا دولة مستقلة امتد نفوذها الأدنى في عهد السلطان أبي زكريا الحفصي سنة ٦٢٦ هـ من طرابلس شرقاً إلى سبتة غرباً وإلى سجلماسة جنوباً . وأعلن ابنه أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصي نفسه خليفة وتلقب بلقب أمير المؤمنين المستنصر في سنة ٦٥٧ هـ ( ١٢٥٩ م ) ، أي بعد زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي التتار وقتل الخليفة المستعصم العباسي بسنة واحدة .

وعلى أثر ذلك بايع شريف مكة وأهل الحجاز الخليفة الحفصي باعتباره وارثاً للخلافة العباسية ودعا له على منابر بلاده ولقبه أمير المؤمنين<sup>(٣)</sup> . وبذلك أكسبت هذه البيعة

(١) وفي السنة الرابعة من ولاية عبد المؤمن أمر بسك نقود جديدة مربعة الجوانب تميزاً لها عن نقود المرابطين ونقش على أحد وجهيها : « لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله » ، وعلى الوجه الآخر ( الله مولانا ومحمد رسولنا والمهدي إمامنا ) .

(٢) المراكشي : المعجب ص ٣٣٩ - ٣٤١ .

(٣) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٦ - ٢٠٠ .

الخلافة الحفصية صبغة شرعية ، وأقيمت الخطبة للخليفة الحفصي على منابر المغرب واعترف بنو مرين عند تأسيس دولتهم بالخليفة الحفصي . كما أقيمت الخطبة للحفصيين على منابر الأندلس بعد أن حلت الهزيمة بالموحدين في موقعة العقاب ( Das Navas de Tolosa ) في ١٥ صفر سنة ٦٠٩ هـ ( ١٢١٢ م ) ، وزال سلطان الموحدين ، وسقطت هذه البلاد في أيدي الأسيبان ولم يبق في أيدي المسلمين سوى منطقة جبلية في جنوب شرقي أسبانيا ، حيث قامت مملكة غرناطة الإسلامية على أيدي بني نصر أو بني الأحمر الذين تابعوا الخليفة الحفصي أقوى حكام المغرب في ذلك الحين ، وأقاموا له الخطبة على منابرهم ، وذلك لحماية دولتهم الناشئة من إغارات الأسيبان .

وقد اقتدى بنو مرين في المغرب الأقصى ( ٥٩١ - ٨٧٥ / ١١٩٥ - ١٤٧٠ ) ، وبنو زيان (١) في المغرب الأوسط ( ٦٣٣ - ٧٩٦ / ١٢٣٥ - ١٣٩٣ ) ، الذين كون كل منهم دولته على أنقاض الدولة الموحدية ، بملوك بني نصر الأحمر ، في غرناطة ، فأقاموا الدعوة للخليفة الحفصي لكي يكسبوا حكمهم صبغة شرعية في نظر شعوبهم . وقد ظلت الحال على ذلك إلى أن أقام يعقوب المنصور الذهبي المريني ( ٦٥٦ - ٦٨٥ / ١٢٥٨ - ١٢٦٨ ) الدعوة لنفسه . وبذلك ظهرت في المغرب الكبير خلافة قوية هي الخلافة الحفصية التي امتد سلطانها الروحي على بلاد الحجاز شرقاً ، وإلى المغرب والأندلس غرباً ، وغدت حاضرتها تونس مركزاً سياسياً وثقافياً هاماً جذب إليها السفراء والعلماء من كافة أرجاء العالم .

ويذكر السلواوي الناصري أنه برغم تأصل الدعوة الموحدية في نفوس أهل المغرب ، رأى بنو مرين أنهم بحاجة لتأييد الحفصيين ، فأقاموا الدعوة لهم « تأليفاً لأهل المغرب واستجلاباً لمرضاةهم وإثباتاً لهم من ناحية أهوائهم ، إذ كانت صبغة الدولة الموحدية قد رسخت في قلوبهم (٢) » .

ولعل بني مرين الذين ينتمون إلى قبيلة زنانة خطبوا ود الحفصيين المصامدة الذين هم أشد قبائل المغرب وأكثرهم عدداً ولم ينسوا مالحق بهم من هزائم على أيدي المصامدة الذين أقاموا الدولة المرينية ، فكانت مسألة المرينيين للحفصيين سياسة تدل على بعد النظر .

(١) أو بنو حمو أو بنو عبد الواحد أو بنو يفراسن .

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٣ ص ٢٨ .

وقد شعرت مصر بخطر الخلافة الحفصية التي كانت تهدف إلى مد نفوذها إلى سورية والحجاز ، تلك السياسة التي كانت تتعارض مع السياسة التقليدية التي كانت مصر تنهجها منذ عهد الطولونيين ( ٢٥٤ — ٢٩٢ هـ ) ، فحرصت مصر على مد سلطانها إلى الحجاز والسيطرة على تجارة البحر الأحمر ، وعمل السلطان بيبرس أحد سلاطين المماليك الذي يرجع إليه الفضل في صد غارات المغول وإلحاق الهزيمة بزعيمهم هولاكو في موقعة عين جالوت<sup>(١)</sup> المشهورة ، وبالصليبيين في الشام — حرصت على إحياء الخلافة في مصر بعد أن زالت من بغداد سنة ٦٥٦ هـ ( ١٢٥٨ م ) . وكان بيبرس يرمى من وراء ذلك إلى تقوية عرشه وجعل حكمه شرعيا في البلاد ، كما كان يرمى إلى مد سلطانه على الحجاز والبحر الأحمر ، وإلى إضعاف نفوذ الحفصيين الأدي في المشرق .

ولما دب الضعف إلى الخلافة الحفصية أبطل يعقوب المنصور المريني الدعوة للحفصيين بالأندلس والمغرب ، واتخذ ملوك بني الأحمر في غرناطة لقب خليفة . وأخذ بنو مرين يتدخلون في شؤون الدولة الحفصية واستولوا على حاضرتهم تونس غير مرة ، وتلقب سلاطينهم بلقب أمير المسلمين<sup>(٢)</sup> .

وفي سنة ٦٥٦ هـ سقطت الدولة العباسية ، فانتهت الخلافة بنظامها القديم ، واختل نظامها حتى أصبح في استطاعة كل أمير قوى تغلب على بلد من البلاد الإسلامية أن يلقب نفسه بلقب خليفة ، ولم ير ما يدعو إلى الإلتجاء إلى الخلفاء العباسيين في القاهرة للحصول على تفويض شرعي بالحكم . ولذلك ترى المغول بعد أن اعتنقوا الإسلام لا يحفلون بالخلفاء العباسيين في القاهرة : ففي فارس اعتنق غازان ( ١٢٥٩ — ١٣٠٤ م ) الإسلام ، ودعى له على المنابر بهذه الألقاب وهي « السلطان الأعظم و سلطان الإسلام والمسلمين » ، وتلقب الشاه رخ ( بضم الراء وسكون النون مع التشديد ) بلقب ، خليفة ، كما تلقب أبو عبد الله محمد الحفصي في تونس ( ١٢٤٩ — ١٢٧٧ م ) بلقب خليفة ، وتلقب أبو عنان فارس ( ١٣٤٨ — ١٣٥٨ م ) أحد أمراء الأسرة المرينية في المغرب بألقاب خليفة وأمير المؤمنين وإمام ، واتخذ علاء الدين خلجي وأوزون حسن التركاني ( ١٤٥٣ — ١٤٨٧ م ) لقب خليفة . وكذلك كان شأن محمد شيباني ( ١٥٠٠ — ١٥١٠ م ) مؤسس دولة أوزبك Uzbek في بلاد ماوراء النهر . بل لقد أطلق سلاطين المماليك في مصر — مثل قايتباي وقانصوه القوري — على أنفسهم لقب إمام .

(١) هي بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين .

(٢) السلاوي الاستقصا ج ٣ ص ٢٨ .

وبهذا التعدد في نظام الخلافة أصبحت كلمة « خليفة » لاندل على الحاكم الروحي المتسلط على العالم الإسلامي ، وإنما أصبحت تدل كما يقول سيرتوماس أرنولد<sup>(١)</sup> على مجرد حاكم ، أى أن سقوط بغداد كان معناه انقراض الخلافة بمعناها التقليدى<sup>(٢)</sup> .

### ١٠ — الخلافة الفاطمية

( ٢٩٧ — ٥٦٧ / ٩٠٩ — ١١٧١ )

كان قيام الخلافة الفاطمية في المغرب في أواخر القرن الثالث الهجرى نتيجة لهذا الصراع العنيف بين السنيين والشييعين . فقد ظل العلويون يعتقدون أنهم أحق بزعامة المسلمين لأنهم أولاد على كرم الله وجهه ، وهو ابن عم الرسول الكريم وزوج ابنته فاطمة الزهراء . وظل العلويون يناضلون في سبيل هذه الزعامة ، بالسيف نارة وبالدهاء نارة أخرى ، حتى توجت جهودهم بقيام الخلافة الفاطمية في المغرب التي أصبحت تنافس الخلافة العباسية في المشرق .

وقد قامت الخلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الإمام وعصمته ، ولقيت نظرية الحق الملكى المقدس التي كانت سائدة في بلاد الفرس في عهد آل ساسان ، والتي أخذها عنهم الخلفاء العباسيون فيما بعد ، قبولاً عند الخلفاء الفاطميين ، وأصبح الإمام في نظر الناس ظل الله في الأرض ، كما أصبح شخصاً مقدساً .

وكان الخلفاء الفاطميون يلقبون بألقاب كثيرة منها ، الخليفة الفاطمي أو العلوي ، وأمير المؤمنين . ومن الألقاب المحببة إلى الإسماعيلية ، لقب إمام ، وصاحب الزمان ، وسلطان ، والشريف القاضي ، كما يظهر من مخاطبة قاضى القضاة الخليفة في صلاة الجمعة « الشريف القاضي الخطيب » . وكان السنيون يطلقون عليهم « العبيدين » ، نسبة إلى عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ؛ كما كان يطلق عليهم « العلويون » نسبة إلى على ابن أبي طالب ، و « الفاطميون » ، نسبة إلى فاطمة الزهراء ، كما كان يطلق عليهم « السلاطين » . وكان الفاطميون يقرنون اسم الله سبحانه بأسمائهم : فنجد مثلاً : المعز لدين الله ، والعزبز بالله ، والحاكم بأمر الله ، والظاهر لدين الله ، والمستنصر بالله .

The Caliphate, p. 88. (١)

(٢) راجع كتاب النظم الإسلامية المؤلف ( الطبعة الثالثة ١٩٦٤ ) س ٨١ — ٨٦ .



وقد اتخذ أمراء الأيوبيين لقب « ملك ». أما المهالك فقد تلقبوا بلقب « سلطان » وأصبح لقب ملك يطلق على بعض الأمراء وخاصة على بقايا الأيوبيين في بلاد الشام .

وقد حذا الفاطميون حذو الأيوبيين والعباسيين في تولية أبنائهم العهد . فسكان الخليفة إذا شعر بدنو أجله ، عهد بالخلافة إلى أحد أبنائه ، ثم تتجدد هذه البيعة بعد وفاته . وكثيراً ما كان الخليفة الجديد يستر موت أبيه إذا وجد ما يهدد ملكه ، ثم أصبح اختيار الخليفة بيد القواد وغيرهم من كبار رجال الدولة ، فلم يراعوا في اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه . كما فعل بدر الجمالي وابنه الأفضل من تفضيل المستعلي على أخيه نزار الذي كان أبوه المستنصر قد عهد إليه بالخلافة من بعده لأنه أكبر أبنائه .

والواقع أن الفاطميين كانوا ينظرون إلى الخليفة الفاطمي باعتباره إماماً يرث أباه عن طريق التعيين بالنص ، وأنه لا بد أن يعين الخليفة أو الإمام ولي عهده قبل وفاته ، حتى لا يخلو العالم من إمام . وكان لهذه الطريقة ميزاتها وعيوبها . فقد كان صغر سن الخليفة وقلة تجاربه ونقص كفايته من عوامل ضعف الخلافة الفاطمية وسقوطها في النهاية (١) .

وبعد وفاة الخليفة المستنصر نصب الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ابن أخته أبا القاسم أحمد بن المستنصر ولقبه « المستعلي بالله » . وقد أدى ذلك إلى انقسام أشياخ الفاطميين إلى فريقين : فريق نادى بإمامة المستعلي فسموا المستعلية ، وفريق آخر نادى بإمامة نزار الابن الأكبر للخليفة المستنصر ، فسموا النزارية .

وقد استبد بالسلطة في عهد الأمر الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي . وقد اعتنق مذهب الإمامية الاثنا عشرية ؛ فأبطل الموالد الأربعة التي كان يحتفل بها الفاطميون في كل سنة ، وهي مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد علي كرم الله وجهه ، ومولده فاطمة الزهراء ، ومولد الإمام الحاضر ( الأمر ) . ولكن هذه الموالد قد أعيد الاحتفال بها بعد أن قتل الوزير الأفضل بتدبير هذا الخليفة ، وذلك سنة ٥١٥ هـ .

ولي الحافظ ( ٥٢٤ — ٥٤٤ هـ ) الخلافة بعد مقتل ابن عمه الأمر بن المستعلي على يد فريق من النزارية . على أن الأمر ترك طفلاً أقام أنصار الفاطميين الدعوة له في اليمن ، ولقبوه الإمام الطيب . وبذلك خرجت بلاد اليمن عن طاعة الخليفة الحافظ ، وانقسمت الدعوة

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٦٢ — ٢٦٧ .

الإسماعيلية بسبب ذلك إلى مستعلية نسبة إلى المستعلي بن المستنصر ، وطبيبه نسبة إلى الطبيب بن الأمر وحفيد المستعلي (١) .

وقد انتهز صلاح الدين الأيوبي فرصة مرض الخليفة العاضد الفاطمي ودعا للخليفة المستنصر العباسي ( المحرم ٥٦٧ / ١١٧١ ) ، كما أمر بالدعاء له أيضاً على منابر بلاد اليمن والشام وفلسطين التي كانت تابعة للخلافة الفاطمية ، فنهجه الخليفة العباسي تفويضاً بحكم هذه البلاد ، وتم هذا التغيير دون أن يلقى أية مقاومة . وفي ذلك يقول ابن الأثير (٢) : « فلم ينتطح فيها عزان » . ولم يلبث الخليفة الفاطمي أن توفى في العاشر من المحرم سنة ٥٦٧ هـ . وكان من أثر هذا التحول أن أصبحت مصر منذ ذلك الحين تابعة للخلافة العباسية تبعية إسمية ، وأصبح يدعى للخليفة العباسي على المنابر (٣) .

#### ١١ — ملاقاة الأيوبيين بالخليفة العباسي :

ذكرنا من قبل أن صلاح الدين الأيوبي أمر بإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستنصر على منابر القاهرة بدل الخليفة الفاطمي العاضد الذي مات في شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ ( ١١٧١ م ) دون أن يعلم بهذا التغيير .

وقد أرسل صلاح الدين إلى نور الدين محمود صاحب حلب (٤) يخبره بذلك ، فأشاد أحد الشعراء بهذا الحادث وأنشد .

قد خطبنا للمستنصر بمصر نائب المصطفى إمام العصر  
واستنارت غزائم الملك العادل نور الدين الهمام الأغر  
ولما علم الخليفة العباسي بإقامة الخطبة له بمصر أرسل إلى نور الدين وصلاح الدين الخلع إعراباً عن رضاه عليهما . وبذلك اعترف الأيوبيون بالخليفة العباسي في بغداد وأقاموا له الخطبة على منابر بلادهم ، ونقشوا السكة باسمه .

(١) حسين إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٧٦ — ١٧٧ ، ٢٦٦ — ٢٦٧ .

انظر ما ذكرناه في الباب السابع .

(٢) السكامل في التاريخ ج ١١ ص ١٤٧ — ١٤٩ .

(٣) انظر كتابي : النظم الإسلامية ص ٩٠ وما يليها .

(٤) ذكر المؤرخون أن نور الدين محمود هو الذي أمر صلاح الدين بإقامة الخطبة للخليفة العباسي

ولما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب (نوفبر ١٢٤٩) أخفت زوجته شجر الدر خبر موته حتى لا يتطرق الضعف إلى نفوس المسلمين أمام الصليبيين الذين تقدموا بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا إلى المنصورة وكادوا يدخلون قصر السلطان . ولكن المصريين بقيادة بيبرس أحلوا الهزيمة بالفرنسيين وطاردوهم وقضوا على جيشهم في موقعة فارسكور سنة ١٢٥٠ م وحلوم على إخلاء دمياط .

وبذلك اشتد نفوذ المماليك الذين كانوا يكونون الجزء الاعظم من جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وقتلوا ابنه توران شاه لسوء معاملته لهم ، وولوا شجر الدر زوجة أبيه السلطنة . فقربت إليها المماليك ومنحتهم الإقطاعات وخففت الضرائب عن الناس . ولكن المصريين كرهوا حكمها ، إذ لم تجر عادة للمسلمين أن يتقلد حكمهم امرأة .

ولما أرسل أمراء المماليك إلى الخليفة العباسي المستعصم ببغداد يطلبون منه إقرار تولية شجر الدر حكم مصر ، أرسل إليهم كتاباً يقول فيه : « إن كانت الرجال قد عدت عنكم فأخبرونا حتى نسير إليكم رجلاً »<sup>(١)</sup> . ولما عدت شجر الدر بذلك آثرت المحافظة على كيان الدولة ، وأعربت عن رغبتها في خلع نفسها من الحكم حفظاً لكرامتها من أن تمتن بالعزل ، فأشار عليها القضاة والأمراء بأن تزوج من عز الدين أيك<sup>(٢)</sup> أتابك<sup>(٣)</sup> المعسكر ، وتفوض إليه أمور المملكة ، فنزلت عن حكم مصر بعد ثمانين يوماً<sup>(٤)</sup> أظهرت فيها حكمة نادرة في تصرف الأمور .

ولما تحمات شجر الدر عن العرش نصب المماليك عز الدين أيك سلطاناً عليهم ولقبوه المعز . على أن أيك أثار غضب زوجته شجر الدر بسبب خطبته لإحدى أميرات الموصل فتآمرت على إغتياله ، فقتل سنة ١٢٥٧ م ، فانتقم له ابنه نور الدين الذي تقلد السلطنة من بعده ، فأوعز إلى بعض الجوارى قتلها . ثم اجتمع العلماء والقواد ، وخلعوا نور الدين ، وقتلوا قطز (بضم القاف والطاء) سلطنة مصر .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٦٨ .

(٢) بفتح الألف والباء وسكون الياء .

(٣) ومعناه مربى الأمير . وأول من لقب بهذا اللقب نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى ، الذى فوض إليه تدبير المملكة سنة ٤٦٥ هـ . وقد تحول هذا اللقب لقباً عسكرياً فى عصر المماليك فأصبح يطلق على القائد العام للجيش .

(٤) ابن لياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٩٠ .

وإلى بيبرس أحد قواد المماليك برجع الفضل في إلحاق الهزيمة بالمنغول في موقعة عين جالوت<sup>(١)</sup>. ولم يلبث أن اشتد نفوذه وتولى حكم مصر. وفي عهده انتقلت الخلافة إلى القاهرة بعد أن زالت من بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)<sup>(٢)</sup>.

## (ب) الوزارة

### ١ - الوزارة في عهد السلاجقة

٤٤٧ - ٦٥٦ / ١٠٥٥ - ١٢٥٨

يلاحظ على عصر السلاجقة الذي يربو على قرنين من الزمان :

(١) كثرة الوزراء الذين اشتهر بعضهم بتشجيع العلوم والآداب ومهروا في الإدارة والسياسة والحرب .

(٢) تقادم خطر الباطنية في فارس الذين ذهب ضحيتهم كثير من الوزراء وكبار رجال الدولة العباسية الذين عملوا على قمع هذه الحركة .

(٣) مصادرة أموال بعض الوزراء وحبسهم عند عزلهم من مناصبهم لابتزازهم أموال الناس وقضاء حاجاتهم عن طريق الرشوة .

(٤) ظهور المنافسة والفساد والرشوة ابتغاء الوصول إلى دست الوزراء .

ومع ذلك فقد أسندت مقاليد الوزارة إلى كثير من مشهورى الوزراء ، نذكر منهم على سبيل المثال : الوزير السكندرى ، ونظر الدولة بن جبير ، وابنه عميد الدولة ، وأبا شعاع ، ونظام الملك وأبنائه ، وابن صدقة ، والشريف أبا القاسم الزينى ، وأنوشروان خالد ، وابن هبيرة ومؤيد الدين بن العلقمى الذى زالت الدولة العباسية في عهد وزارته .

بعد أن عاد الخليفة العباسى القائم (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) إلى بغداد بمساعدة السلطان طغرل بك السلجوقى اتخذ أبا الفتح بن دارست وزيراً له<sup>(٣)</sup> ، فظل في الوزارة حتى خلفه نجر الدولة بن جبير سنة ٤٥٤ هـ ، ثم عزل في سنة ٤٦٠ هـ ، ثم أعيد إلى الوزارة .

وقد اشتهر من أولاد نجر الدولة بن جبير زعيم الرؤساء ، وكان يتولى ديوان الزمام ، كما اشتهر منهم عميد الدولة . وقد ذكر المؤرخون أنه حمل رسالة الخليفة القائم إلى السلطان

(١) بليدة بين بيسان ونابلس بفلسطين .

(٢) أنظر حسن إبراهيم حسن : المحمل في التاريخ المصرى (القاهرة ١٩٤٢) ص ١٩١ - ١٩٢ .

(٣) أنظر البندارى : تاريخ دولة آل سلجوقى .

ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٥٤ / ٤٦٧ .

طغرل بك السلجوقي في الري وأنه نجح في مهمته بفضل زواجه من ابنة الوزير نظام الملك (٤٦٢ هـ) ، فقد رله الخليفة كفايته ومهارته السياسية فاستوزره . وفي سنة ٤٦٣ هـ رحل عميد الدولة بن جبير إلى نيسابور يحمل هدايا القائم إلى السلطان ألب أرسلان يطلب زواج ابنة السلطان من حفيد الخليفة .

وعلى الرغم مما اشتهر به عميد الدولة بن جبير من المهارة السياسية كان - كما وصفه ابن الأثير<sup>(١)</sup> وابن خلسكان<sup>(٢)</sup> « عظيم الكبر يكاد يمد كلامه عدا ، وكان إذا كلم إنساناً كلبات يسيرة هنيء ذلك الرجل بكلامه » .

وقد ظل عميد الدولة في الوزارة حتى عزل في سنة ٤٦٧ هـ ، خلفه ظهير الدين أبو شجاع<sup>(٣)</sup> وكان أديباً فذا ومؤرخاً لامعاً طالما أفاد المؤرخون من تاريخه الذي يتناول الكلام على الدولة العباسية من سنة ٣٦٩ هـ إلى سنة ٣٨٩ هـ ، وهو الجزء الذي عثر عليه المؤرخون من تاريخه ، ويعتبر ذليلاً لسكتاب تجارب الأمم لمسكويه . وكان أبو شجاع يقضى بين الناس بالعدل ويجلس للمظالم بعد صلاة الظهر ، فينادى الحجاب في الناس : من كانت له حاجة فليعرضها .

وكان أبو شجاع ليناً حليماً متسامحاً . فلما وقعت الفتن بين أهل السنة والشيعة في الكرخ وباب البصرة ببغداد حرص هذا الوزير العالم على تهدئة الخواطر وحال دون إراقة الدماء . ولم يؤثر عن وزير حج بيت الله أيام وزارته غير أبي شجاع والبرامكة من قبله ، ثم اعتزل أبو شجاع الوزارة بعد أن أحس بكيد حساده له وتدبيرهم الدسائس من حوله ، وتزهد ولبس ثياب القطن وأقام بمدينة الرسول يكمن المسجد النبوي ويفرش الحصر ويشغل المصاييح وعليه ثوب من غليظ الخام<sup>(٤)</sup> .

ومما يؤثر عن أبي شجاع أنه برغم زهده وعلمه أقصى عن الوزارة سنة ٤٨٤ هـ فأشدد عند عزله هذا البيت :

تولاها وليس له عدو وفارقها وليس له صديق<sup>(٥)</sup>

(١) الكامل ج ١٠ ص ٢٠٣ ( حوادث سنة ٤٦٣ هـ ) .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٨٤ . ابن خلسكان ج ٢ ص ٢٨٦ . البنداري . تاريخ

دولة آل ساجوق ص ٧٨ .

(٤) الفخرى ص ٢٦٤ .

(٥) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٨ — ٧٩ .

ثم أعيد عميد الدولة بن جهمير إلى الوزارة في هذه السنة<sup>(١)</sup>. فضل فيها في السنوات الأولى من خلافة المستظهر (٤٨٧ — ٥١٢ هـ). وكان عميد الدولة يعمل تحت نفوذ مؤيد الملك ابن نظام الملك، وانتهى أمره بالعزل والسجن سنة ٥٩٢ هـ.

ومن وزراء العصر السلجوقي الأول أبو علي الحسن بن علي بن صدقة. وقد استوزره الخليفة المسترشد (٥١٢ — ٥٢٩ هـ) سنة ٥١٣ هـ وأقبه بهذه الألقاب وهي:

« جلال الدين سيد الوزراء صدر الشرق والغرب ظهير أمير المؤمنين<sup>(٢)</sup> ».

وكان ابن صدقة عالما بقوانين الملك واشتهر بحب الخير للناس. ولكن ظهير أمير المؤمنين لم يلبث أن عزل عن الوزارة، لأن وزير السلطان السلجوقي حقد عليه، ثم زال سوء التفاهم بين الوزيرين وأعيد ابن صدقة إلى الوزارة وخلع عليه الخليفة المسترشد وأمر أرباب الدولة أن يمشوا بين يديه إذا سار إلى ديوان الوزارة، فكان « أول وزير مشى أرباب الدولة بين يديه<sup>(٣)</sup> ».

ومن وزراء العصر السلجوقي الأول أو عصر السلاجقة العظام نقيب النقباء الشريف أبو القاسم علي بن طراد الزينبي. وكان ملما بقوانين الوزارة وقواعد الملك. استوزره الخليفة المسترشد سنة ٥٢٣ هـ، فضل في الوزارة حتى سنة ٥٢٦ هـ. ثم أعيد إليه سنة ٥٣٠ هـ. وقد عبر له الخليفة المقتني (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ) عن تقديره لمواهبه وكفايته بهذه العبارة وهي:

كل من ردت إليه الوزارة شرف بها إلا أنت فإن الوزارة شرفت بك، وأمر أرباب المناصب العالية في الدولة بأن يسيروا بين يديه إلى ديوان الوزارة<sup>(٤)</sup>.

وقد استوزر سلاطين السلاجقة طائفة من مشهورى الوزراء من أمثال الكندرى (بضم الكاف والداد وسكون النون) ونظام الملك وأبنائه وأنوشروان خالد. فقد استوزر السلطان طغرل بك (٤٢٩ — ٤٥٥ هـ) عميد الملك الكندرى. ولما مات هذا السلطان أجلس الكندرى سليمان بن داود، وكان معه طغرل بك قد أوصى بأن يخلفه في السلطنة. على أن ألب أرسلان ثار على أخيه وجلس على عرش السلطنة من بعده بمساعدة وزيره

(١) المصدر نفسه ص ٧٩.

(٢) الفخرى ص ٢٦٥.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٦٩ — ٢٧٠.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٧١.

نظام الملك . وسرعان ما قبض على الوزير الكندري وأرسل إلى مرو حاضرة خراسان حيث اعتقل أكثر من سنة ، ثم قتل بأيدي غلامين أرسلهما إليه السلطان الجديد بعد أن وزر لطفريك ثمانين سنين وأشهرًا كما تقدم (١) .

ولما ولي ألب أرسلان السلطنة بعد عمه طفرليك سنة ٤٥٥ هـ أسند مقاليد الوزارة إلى نظام الملك وعهد إليه بتنشئة ابنه ملكشاه وقال له : « هذا حسن الطوسى ( يعنى نظام الملك ) فقله واتخذه والدا لاتخافه » . وقد اتخذ ألب أرسلان نظام الملك وزيرا له قبل أن يجلس على عرش السلطنة .

وكان نظام الملك ساعد السلطان ملكشاه الأيمن ومدبر ملكه ومستشاره الأمين . وقد قبض هو وأولاده الاثنا عشر على زمام الأمور في الدولة السلجوقية ، « فصار الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان إلا التخت والصيد » على حد تعبير ابن خلكان (٢) . وكان من أثر الاضطرابات التي عمت أطراف الدولة السلجوقية ، وما أداه نظام الملك من خدمات جليلة وما ظهر من شجاعته وكفايته في الأزمات الخطيرة أن منحه السلطان ملكشاه لقب « أتابك » .

وكان نظام الملك عالما دينيا جوادا عادلا حليما كثير العفو طويل الصمت . وكان مجلسه حافلا بالفقهاء . واشتهر ببناء المدارس النظامية المشهورة ، وأسقط المكوس والضرائب . وكان يحل أهل العلم ولا يشجع الشعراء لأنه لم يكن يجيد نظم الشعر .

وقد ذهب نظام الملك وأبناؤه كما ذهب البرامكة وبنو سهل من قبل ضخمة الدسائس التي دبرها لهم حسادهم ومنافسهم . ومات نظام الملك سنة ٤٨٥ هـ بعد أن تقلد الوزارة لألب أرسلان وملكشاه نحوًا من ثلاثين سنة ، كما تقلد الوزارة لألب أرسلان صاحب خراسان من قبل عمه طفرليك قبل أن يتولى السلطنة .

وقد ذكر المؤرخون أن عز الملك بن نظام الملك أخرج بركياروق أكبر أبناء ملكشاه بعد أن قبض عليه وأرسل إلى أصبهان حيث سجن . وذلك لإفصاح الطريق لجلوس أخيه الصغير محمود على عرش السلطنة بعد موت أبيه . ولما ولي بركياروق السلطنة سنة ٤٨٧ هـ قلد عز الملك الوزارة وفوض إليه أمور دولته (٣) .

(١) انظر ص ٢٠ — ٢١ من هذا الجزء .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٩٦ .

(٣) البندارى ص ٨٠ — ٨١ .

وقد ساعد مؤيد الدولة بن نظام الملك محمد بن ملكشاه على أخيه السلطان بركياروق لأنه أقصاه عن الوزارة وأسندها إلى أخيه عز الملك بن نظام الملك . وقد قام الخلاف بين هذين الاخوين على ثروة أبيهما كما قام على التنافس على الوزارة (١) .

ومن وزراء هذا العصر من أبناء نظام الملك : أبو نصر أحمد . وقد حكم بين الناس بالعدل ورفع عنهم الظلم . روى ابن طباطبا (٢) أن الخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) لما عزم على عمارة سور بغداد فرض على الناس خمسة عشر ألف دينار ، فأدى الوزير أبو نصر هذا المال عن الناس من ماله الخاص . وقد تقلد أنوشروان خالد بن محمد القاشاني وزير الخليفة المسترشد الوزارة للخلفاء العباسيين وسلطين السلاجقة . وكان يعتذر عن قبول الوزارة . وهو الذي صنّف له الحريري « المقامات الحريرية » . وقد اشتهر هذا الوزير بالتواضع حتى إنه كان يقوم لسلك من دخل عليه كبيراً كان أو صغيراً .

ومن وزراء العصر السلجوقي الأول : محمد بن محمد بن جهمير (٣) ومؤتمن الدولة بن صدقة ويحيى بن هبيرة . وقد جمع ابن هبيرة بين السياسة والعلم وبين الطيبة والدهاء وبين القلم والسيف . وإليه يرجع الفضل في إزالة آخر نفوذ للسلطان السلجوقي في العراق وإعادة هبة الخلافة (٤) في عهد المقتدى العباسي (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ) . « ورزق من الشعر والشعراء ما لم يرزقه أحد حتى زاد مامدح به من القصائد على ماتى ألف بيت (٥) .

ولما استوزر الخليفة الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) مؤيد الدين القمي خلع عليه الوزارة ، فجلس في كرسي الوزارة والناس بين يديه ، فبرز من حضرة الخليفة مكتوب لطيف في قدر الخنصر بخط يد الخليفة ، فقرئ على الناس وفيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ! محمد بن برز القمي نائبا في البلاد والعباد . فن أطاعه فقد أطاعنا ، ومن أطاعنا فقد أطاع الله ، ومن أطاع الله أدخله الجنة ؛ ومن عصاه فقد عصانا ، ومن عصانا فقد عصى الله ، ومن عصى الله أدخله النار » ، فتم القمي بهذا التوقيع في أعين الناس وعلت منزلته (٦) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٧٢ .

(٣) الفخرى ص ٣٦٦ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٥٩ - ٣٦٣ .

(٥) انظر ما كتبه الدكتور جواد علي في مجلة الأستاذ ( بغداد ١٩٦٠ ) ص ١٢٨ .

(٦) الفخرى ص ٣٣٦ .



وكان مؤيد الدين محمد بن العلقمي آخر وزراء الخلفاء العباسيين وكان ، كما وصفه صاحب الفخرى ، من أعيان الناس وعقلاء الرجال . وقد عرف بشغفه بالكتب وتقريب أهل العلم ورجال الأدب . وكان عفيفاً عن أموال الناس مترفعاً عن أموال الدولة . وقد رماه خصومه بأنه زين للخليفة المعتصم تسليم بغداد لهولاءكو وأنه اتفق مع نصير الدين الطوسي وزير هولاءكو على ذلك . وكان كل من هذين الوزين يدين بعقائد المذهب الشيعي .

وقد عزا بعض المؤرخين ما قام به الوزير ابن العلقمي إلى ما حل بالشيعيين من الاضطهادات على يد أكبر أبناء الخليفة المستعصم . على أن موت هذا الوزير العالم النزيه بعد موت الخليفة بثلاثة أشهر لينهض دليلاً على عدم صحة ما ذهب إليه هولاء المؤرخون الذين رموه بخيانة بلاده .

## ٢ — الوزارة في مصر :

على الرغم من العظمة التي كان يتمتع بها الوزير في العصر الفاطمي الأول كانت سلطته محدودة ؛ إذ كان بقاءه في مركزه يتوقف على رضا الخليفة . غير أن تلك العظمة لم تلبث أن تبدلت ، ولا سيما في العصر الفاطمي الأخير ( ٤٦٥ — ١٠٩٣/٥٦٧ — ١١٧١ ) ، بمعنى أن الوزارة أصبحت وزارة تفويض بعد أن كانت وزارة تنفيذ .

وفي عهد الخليفة المستنصر الفاطمي ( ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ ) قامت وزارة التفويض ، كوزارة يحيى البرمكي وابنه جعفر في عهد هارون الرشيد . فقد استدعى المستنصر بدر الجمالي والى عكا لإصلاح أمور مصر على أثر « الشدة العظمى » التي استمرت بها سبع سنوات ( ٤٥٧ — ٤٦٥ هـ ) ، بعد أن أخفق الوزير اليازوري في تخفيف المجاعة التي اشتدت وطأتها . ويتبين لنا مبلغ تزعر مركز الدولة الفاطمية<sup>(١)</sup> من تعاقب أربعين وزارة مختلفة في تسع سنوات . وكان المستنصر ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين من الضعف بحيث لم يبق لهم من الأمر شيء حتى أطلق على هذا العصر « عصر الوزراء العظام » .

وقد قبض بدر الجمالي على زمام السلطة سنة ٤٦٥ هـ . وظل في مصر إلى أن مات في خلافة المستنصر ؛ فتولى الوزارة بعده ابنه الأفضل الذي استبد بالسلطة حتى أصبح المستنصر في عهده كالمحجور عليه حتى مات .

(١) ابن منجب : الإشارة إلى من نال الوزارة من ٤٠ — ٤١ .

فولى الأفضل المستعلي بن المستنصر الخلافة دون أخيه نزار الذى كان أبوه قد ولاه  
العهد قبل وفاته .

وكان المستعلي مسلوب السلطة مع خاله الأفضل ، وظلت الحال على ذلك إلى عهد  
الأمير (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ) الذى فكر فى قتله ، وتم ذلك ، فألقت الوزارة إلى أبى عبد الله  
المأمون بن البطائحي .

وكان النزاع الذى قام بين الخلفاء والوزراء من مميزات العصر الفاطمي الأخيرة  
وربما كان ذلك نتيجة تولى الاطفال عرش هذه الدولة . وقد بلغ من ازدياد سلطة الوزير في  
هذا العصر أن أضيف إلى ألقابه ألقاب تدل على هذا المعنى . ومن هذه الألقاب التي تلقب  
بها أبو على الاكمل حفيد الوزير بدر الجمالي : « ناصر إمام الحق وهادي القضاة إلى اتباع  
شرع الحق واعتماده ، مولى النعم ورافع الجور عن الأمم ، مالك فضيلتي السيف والفلم » .  
وتلقب رضوان بن الوحشي وزير الحافظ « السيد الملك الأفضل <sup>(١)</sup> » ، وظل الوزراء  
يتمتعون بهذا اللقب منذ ذلك الحين .

وفي أواخر عهد الخليفة العاضد الفاطمي (٥٥٥ — ٥٦٧ هـ) تقلد الوزارة أسد الدين  
شيركوه بعد أن قتل شاور بأمر نور الدين محمود بن زنكي . ولكن شيركوه مات بعد  
أن حكم شهرين ، وخلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الذى تلقب بالملك الناصر  
بعد أن قضى على الدولة الفاطمية وأسس الدولة الأيوبية كما تقدم .

### ٣ — الوزارة فى المغرب :

لم يمن المؤرخون ببحث نظام الوزارة فى عهد المرابطين ، بل لقد اتخذوا من الكتابة  
والوزارة نظاماً ثابتاً . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن عمال الدولة كانوا يتمتعون بنفوذ  
طغى على نفوذ هؤلاء الذين كانوا يلوونهم من كبار الموظفين . على أنه مما لا ريب فيه أنه  
كان للمرابطين موظفون يرجعون إلى مشورتهم ، وأنه كان لهم كتاب يشرفون على  
الدواوين المختلفة ، كديوان الرسائل أو ديوان الإنشاء ، مما جعل المؤرخين يخلطون بين  
هؤلاء وأولئك ، فيسمون هؤلاء المستشارين وزراء ، والآخرين كتاباً <sup>(٢)</sup> .

(١) كتاب الاعتبار أو حياة أسامة ( بن منقذ ) ( باريس ١٨٨٩ ) ص ٢٢ .

(٢) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٥٨ .

وكان للمرابطين وزراء إقليميون<sup>(١)</sup> لم يكونوا في الواقع غير أصحاب ديوان الإنشاء<sup>(٢)</sup> كما كان لهم وزراء مركزيون يقيمون بمدينة مراکش .

ومهما يكن من شيء فإنه لم يكن عند المرابطين مجلس وزراء ، وإنما كانت هناك هيئة استشارية يشترك فيها طائفة من الفقهاء والأعيان والكتّاب . وكان أهم هذه الدواوين : ديوان الرسائل أو الإنشاء ، ويرأسه موظف كبير يعرف بالكتّاب . ولا يبعد أن تكون هناك دواوين متعددة يشرف على كل منها كاتب يقوم بعمل الوزير . ولم يتمتع الوزير في عهد المرابطين بما كان يتمتع به وزراء التفويض مثلاً في عهد العباسيين والفاطميين ، ولا الحجاب في عهد الأمويين في الأندلس ، لتمتع نواب أمير المسلمين بالسلطة المطلقة في نياباتهم . ولم يكن في الدولة المرابطية ما يطلق عليه اسم الوزير أو رئيس الوزراء ، لأن النفوذ كان ينحصر في يد أمير المسلمين نفسه ، ولأن الدولة المرابطية كانت تقوم على مشورة الفقهاء على مذهب الإمام مالك أكثر مما تقوم على السياسة .

#### ٤ - الوزارة في الأندلس :

لم يكن إطلاق لفظ الوزارة في الدولة الأموية شائعاً كما كان في الدولة العباسية في الشرق وفي الدولة الفاطمية في مصر ، بل كان يطلق على من يتقلد الوزارة في الأندلس اسم الحاجب تارة واسم الوزير تارة أخرى . ولهذا نرى أن الحاجب في الدولة الأموية في الأندلس لم يقصد به ذلك الموظف الذي يحجب السلطان عن الخاصة والعامة كما كانت الحال عند الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين ، وإنما قصد به هنا من يتولى الوزارة بمعناها المعروف ، فكان الحاجب ، كما ذكر ابن خلدون<sup>(٣)</sup> ، يقوم بعمل رئيس الوزارة اليوم ، ويتولى رئاسة مجلس الوزراء الذي يشرف على شؤون الدولة .

وقد وزعت أعباء الوزير أو رئيس الوزراء كما يسمى اليوم بين جماعة من كبار موظفي الدولة الاستعانة بهم ومشاورتهم ، ويختار منهم الأمير أو الخليفة شخصاً يسميه الحاجب ، وجعل للبالية وزيراً ، وللرسائل وزيراً وللنظام وزيراً ، ولانظر في أحوال أهل الثغور أو الولايات وزيراً وهكذا . وقد جعل لهم مكان خاص يجتمعون فيه وينقدون أوامر

(١) المراكشي : المعجب ص ١٦٤ . صلة الصلة ص ٨٢ .

(٢) صلة الصلة ص ٨٢ .

(٣) مقدمة ص ٢٠٨ .

السلطان ، كل في دائرة اختصاصه . واختير أحدهم لتردد على الأمير أو الخليفة والنيابة عنه في كل وقت ، وقد عرف باسم الحاجب . وظلت الحال على ذلك حتى عهد ملوك الطوائف ، فأصبح اسم الوزارة عاماً لكل من يجالس الملوك ويختص بهم ، وغدا الوزير الذى ينوب عن الملك يعرف بذى الوزارتين<sup>(١)</sup> .

ولم يكن مجلس الحاجب ، أو بعبارة أخرى مجلس الوزراء ، هو وحده الذى يدبر شئون الدولة ، بل كان إلى جانبه مجلس آخر يسمى « مجلس الشورى » يرأسه الأمير أو الخليفة ، ويضم كبار رجال الدولة وبعض الأمراء من أفراد البيت الأموى .

وكان عبد الرحمن الناصر ( ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ ) أول من لقب وزيره بذى الوزارتين ، مقتدياً في ذلك بالعباسيين ، لجمعه بين خطى السيف والقلم . ففي سنة ٣٢٧ هـ ( ٩٣٨ م ) لقب الخليفة الأموى فى الأندلس أحمد بن عبد الملك بن شهيد ذا الوزارتين ، وضاعف له راتبه . وكان هذا الموظف يقوم ببعض أعمال الحاجب إذا اشتد ضغط العمل عليه . وقد أسند الأمويين الوزارة أحياناً إلى غير المسلمين من أهل الذمة ، كما فعل عبد الرحمن الناصر مع حسداى بن شبروط الذى بعث به سفيراً إلى « أوتو » إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ولما ضعفت الدولة الأموية فى الأندلس ازداد نفوذ الحاجب ، حتى إن الخليفة لم يعد له من الأمر شئ . وأحسن مثل لذلك المنصور بن أبى عامر الذى تخلص من جعفر المصحفى الحاجب فى عهد هشام المؤيد ( ٣٦٦ - ٣٩٩ هـ ) ليصفو له الجو فى بلاد الأندلس ، وخلفه فى كرسي الحجابة ، وأصبح الحاكم المطلق للدولة الأموية فى هذه البلاد ، حتى دعى له على المنابر ، وضربت السكة باسمه بعد الخليفة ، ونقش اسمه على الملابس المنسوجة بالذهب كما كان ينسج اسم الخلفاء<sup>(٢)</sup> .

#### ( د ) الكتائب :

وقد زخر العصر العباسى الأول بطائفة من الكتائب لم يسمح الدهر بمثلهم . فقد اشتهر يحيى بن خالد البرمكى والفضل بن الربيع فى عهد هارون الرشيد ، والفضل والحسن ابنا سهل وأحمد بن يوسف فى عهد المأمون ، واشتهر محمد بن عبد الملك الزيات والحسن ابن وهب وأحمد بن المدبر فى عهد المعتصم والواثق .

(١) المقرئ : فتح الطيب ج ١ ص ١٠٢ .

(٢) أنظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ( الطبعة السابعة القاهرة ١٩٦٥ )

وكان ملوك فارس يسمون كتاب الرسائل تراجم الملوك ، وكانوا يقولون لهم :  
لاتحملنكم الرغبة في تخفيف الكلام على حذف معانيه ، وترك ترتيبه والإبلاغ فيه ،  
وتوهين حججه .

وكانت الكتابة في عهد الفاطميين تلى الوزارة في الرتبة ، فقد كانت إحدى المناصب  
العالية التي كان الخلفاء لا يسندونها إلا لمن أنسوا فيهم الكفاية والقدرة على معالجة الأمور ،  
كما كانت الخطوة الأولى إلى الوزارة إذا ما حاز صاحبها رضا الخليفة .

وقد اتخذ المعز لدين الله الفاطمي جوهرأ الصقلي كاتباً له سنة ٣٤١ هـ ، لأنه كان كاتباً  
بليغاً ، كما كان عفاً جم الأدب في كتابته . وكان الكاتب في عهد الفاطميين في مصر يقوم  
بعمل الوزير إذا رضى عنه الخليفة ، ويسمى أحياناً صاحب الوساطة . ومن ثم لم يكن  
هناك اختلاف في الوظيفة بين الوزير والكاتب وصاحب الوساطة .

وكان صاحب الإنشاء والمكاتبات في عهد الفاطميين يتقاضى راتباً شهرياً قدره مائة  
وخمسون ديناراً ، ويتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعملون تحت إدارته ثلاثين  
ديناراً . ويلي صاحب الإنشاء في الرتبة صاحب القلم الدقيق ، الذي كان يوقع على الظالم ،  
ويجالس الخليفة في خلوته ، فيدارسه كتاب الله ويتلو عليه سير الأنبياء والخلفاء وعظام  
الرجال ويحدثه عن مكارم الأخلاق ، ويعلمه تجويد الخط ، وكان راتبه مائة دينار في كل  
شهر ، وإذا جلس وضعت أمامه دواة محلاة بالذهب والفضة ، فإذا انتهى المجلس ألقى في  
هذه الدواة عشرة دنانير مكافأة له ، وقرطاس فيه ثلاثة مناقيل ند<sup>(١)</sup> مزوج بالمسك ،  
ليتبخر به عند دخوله على الخليفة في المرة التالية .

ولما أصبح الوزير في آخر أيام الدولة الفاطمية صاحب السيف والقلم أخذ مجلس  
المظالم ، وإلى جانبه صاحب القلم الدقيق بدل كاتب السر . وكانت له سلطة التوقيع تحت  
توقيع الوزير ، بل النظر في الشكاوى قبل انعقاد مجلس النظر في المظالم . ويلي صاحب القلم  
الدقيق في الرتبة صاحب القلم الجليل ، ويقوم بتسلم رقايع المظالم من صاحب القلم الدقيق  
ووضعها في الصيغة القانونية قبل أن تعرض على الخليفة للتصديق عليها . وكان الكاتب  
يختارون عادة ممن اشتهروا بسعة الإطلاع في الأدب وامتازوا بالقدرة في فن الإنشاء<sup>(٢)</sup> .

(١) الند ( بالفتح ) : عود يتبخر به وقيل : العنبر .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٠ — ٤٩٢ .

وقد نبغ القضاة المتوفى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) في الكتابة في أيام الفاطميين حتى صار من كتاب البلاط ، مما جعل الوزير أبا القاسم الجرجاني يمهّد إليه في أن يكتب العلامة أو الإشارة ، التي تذيّل بها الأوراق الرسمية لإعطاها الصيغة الرسمية ، وتتكون من هذه العبارة : « الحمد لله شكراً لنعمته <sup>(١)</sup> » . كذلك تقلد ديوان الرسائل في عهد الخليفة الأمر الفاطمي ابن منجب الصيرفي ، وكان من البارزين في طبقة البلاط والمؤرخين .

ومن نبغ في الكتابة في عهد الأيوبيين القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني المتوفى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) . وقد تقلد منصب الوزارة في عهد صلاح الدين الأيوبي وولديه من بعده ، وخلف لنا كثيراً من الرسائل التي تمتاز بغزارة المادة التاريخية ، كما تمتاز بسلامة الأسلوب ووضوحه .

وكان بعض كبار الموظفين في عهد المرابطين في المغرب يجمع بين الكتابة والاستشارة . وكان أكثر الكتاب من رجال الأدب في الأندلس الذين عملوا في بلاط ملوك الطوائف أو في قصور العمال المرابطين ثم دخلوا في خدمة أمير المسلمين . ونذكر من بين هؤلاء الكتاب : عبد المجيد بن عبدون ، وعبد العزيز الأنصاري ، وأبا جعفر بن عطية ، وابن أبي الحصال ، وابن عبدون اليابري <sup>(٢)</sup> . ويظهر أن هذا الاختيار كان راجعاً إلى درايتهم بأحوال نصارى الأندلس أكثر من الكتاب المغاربة ، كما سيأتي الكلام على ذلك في باب الثقافة .

وكانت الكتابة في الأندلس تلي الحجابة ( وهي الوزارة ) في الرتبة وتنقسم قسمين :

(١) كتابة الرسائل ويسمى صاحبها الكاتب .

(٢) كتابة الزمام ويعرف صاحبها بكاتب الجهيزة ، ويشترط فيه أن يكون من أهل الذمة ، وتعلو مرتبته مرتبة الوزير <sup>(٣)</sup> .

(١) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٨٧ — ٤٨٨ .

(٢) نسبة إلى يابري ( يسكون الباء ) لإحدى مدن البرتغال .

(٣) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٠٣ . أنظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٢٦٦ .

(د) الحجابة :

وقد اقتدى الخلفاء العباسيون ببني أمية ، فاتخذوا الحجاب ، وزادوا في منع الناس عن لقاء الخليفة إلا في الأمور الهامة . وهذا ما يسميه ابن خلدون<sup>(١)</sup> الحجاب الثاني . فصار بين الناس وبين الخليفة دار الخاصة ودار العامة ، يقابل كل طائفة في مكان معين على ما يراه الحجاب . ثم تطرقوا عند انحطاط الدولة إلى حجاب ثالث أشد من الأولين<sup>(٢)</sup> .

وقد علت مرتبة الحجاب بارتقاء الحضارة الإسلامية في أيام العباسيين ، فأصبح يستشار في كثير من أمور الدولة . ومن أبرز الحجاب في العصر العباسي الأول « الفضل بن الربيع » الذي أوقع بالبرامكة عند الرشيد ، وأوقع الخلاف بين الامين وأخيه المأمون .

وكثيراً ما كان الحجاب يتدخل في أمور الدولة العباسية ويستبد بالنفوذ دون الوزير ، ويلزم أصحاب الدواوين بالرجوع إليه في كل أمور الدولة ، ويحتم عليهم بالألا يفصلوا في الأعمال إلا بعد موافقته .

ولم يكن الحجاب في عهد الفاطميين يتمتع بذلك النفوذ الذي كان يتمتع به في البلاد الإسلامية الأخرى . ولم تقتصر الحجابة على الخلفاء الفاطميين وحدهم ، بل لقد اتخذ قاضي القضاة أو الوزير حاجباً أو أكثر يقفون بين يديه إذا جلس للحكم . ولكن الحجاب كان بلا ريب ، من رجال البلاط الفاطمي ، بدليل ما ذكره الفائقشندي<sup>(٣)</sup> عند كلامه على مجلس الملك في عصر الفاطميين . وكان صاحب الباب من كبار الموظفين في ذلك العصر .

وكانت الحجابة في الدولة الاموية بالاندلس ، كما قال ابن خلدون ، لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ، ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فن دونهم . فكانت في دولتهم رقيمة للغاية ، كما نراه في أخبارهم كابن حديد وغيره من حجابهم ، ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها ، فكان المنصور بن أبي عامر وأبناؤه كذلك . ولما بدوا في مظاهر الملك وأطواره ، جاء من بعدهم ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها ، وكانوا يعدونه شرفاً لهم . وكان أعظمهم ملكاً بعد انتقال ألقاب الملك

(١) مقدمة ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) كتاب المعاسن والساوى ج ١ ص ١٢٤ .

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ - ٤٨٨ .

وأسمائه لا بد له من ذكر الحاجب وذى الوزارتين ، يعنون به السيف والقلم ، ويُدْلون<sup>(١)</sup> بالحجابه على حجابه السلطان عن العامة والخاصة ، وبذى الوزارتين على جمعه لخطى السيف والقلم .

وأما عن الحجابه في المغرب فقد ذكر ابن خلدون<sup>(٢)</sup> أنها لم تكن موجودة في عهد الامويين في بلاد الشام ثم في الأندلس ، وفي العراق في عهد العباسيين ، لأن الدولة المرابطية تميزت بالبساطة . بل إنه كان من اليسير أن يتصل أى شخص بأمر المسلمين عن طريق الاعوان . وقد ساعد على ذلك ما امتاز به المرابطون من الزهد في مظاهر الحياة ، حتى لقد كان لباسهم الصوف وطمامهم الشمير . وكان يوسف بن ناشفين يتفقد أحوال الرعية ويباشر شؤنه بنفسه<sup>(٣)</sup> كما كان عمر بن عبد الخطاب وعمر بن عبد العزيز من قبله ، بل إن عليا ابن يوسف بن ناشفين كثيراً ما كان ينصرف عن مباشرة شئون الدولة إلى التعبد والتبتل .

## ٢ — النظام الإدارى

### ( ١ ) الإمارة على البلدان

#### ١ — عهدة المسجور بإدارة شؤنه الرونة :

كان الخلفاء الراشدون يستعينون في إدارة شئون الدولة بمجلس من الشيوخ يتألف من كبار الصحابة وأعيان المدينة ورؤساء القبائل ، وكانوا يجتمعون في مسجد المدينة ، ولا يقطع الخليفة أمراً دون استشارتهم ، وكان نظام الحكومة في الثلاثين السنة الأولى للإسلام أقرب ما يكون إلى النظام الجمهورى .

وقد بحث سير نوماس أنرولد<sup>(٤)</sup> علاقة المسجد باعتباره مكان العبادة ( أى المسكن الذى يؤم فيه الخليفة أو والى الناس في الصلاة ) بإدارة شئون الدولة السياسية والاجتماعية ، وكيف يجمع الخليفة أو والى بين إمامة المسلمين وبين شئون الدولة أو الولاية فقال :

« لم يكن المسجد مكاناً للعبادة لحسب ، بل كان أيضاً مركز الحياة السياسية والاجتماعية . فكان النبي يستقبل في المسجد السفراء ، ويدبر شئون الدولة ، ويخطب جماعة المسلمين على المنبر في الأمور السياسية والدينية . . . فمن فوق منبر المدينة أعلن عمر تقمقر جيوش

(١) بضم الياء وكسر الدال وضم اللام مع التشديد من الإدلال وهو التيه والكبر .

(٢) مقدمة ص ٢٠٩ .

(٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٥٥ .

(٤) The Caliphate pp. 36 — 38 .



للمسلمين في العراق ، واستحدث قومه على السير إلى هذه البلاد . ومن فوق المنبر أيضاً ، وقف عثمان يدافع عن نفسه . كما كان الخليفة عند استخلافه يلقي من فوق المنبر على الجمهور خطبته الأولى التي بمثابة بيان عن سياسته في الحكم .

فكان المنبر بذلك أشبه بالعرش يلقي منه الحاكم بيان سياسة الدولة كما هو الحال في النظم الدستورية اليوم .

ونستطيع أن نضيف إلى ما تقدم ، أن المساجد كانت تستخدم منذ ظهور الإسلام لاجتماع العلماء فيها ، كما اتخذها علماء التفسير والحديث مقراً لهم . ثم استخدمت المساجد معاهد للتعليم ، يتلقى فيها الأطفال اللغة العربية وأصول الدين ، كما اتخذها القضاة مكاناً لعقد جلساتهم . وصفوة القول أنه لما لم يمكن الفصل بين السياسة والدين ، كان المسجد المسكن الذي تذاق فيه الأخبار الهامة التي تتعلق بالصالح العام .

وقد ذكر سير توماس أرنولد أن المساجد سرعان ما فقدت أهميتها السياسية والاجتماعية ، فلم تعد تمثل عرش الخليفة وكرسی الوالي ولا منصة القاضي . وغداً عمل المساجد مقصوراً على إقامة الصلوات ، يمجّد فيها الله ، ويصلى على النبي ، ويترحم على الصحابة ، ويدعى الخليفة باعتباره نائباً عن رسول الله في المحافظة على الدين . ولم يبق فيها من مظاهر السياسة إلا ذكر اسم الخليفة في الخطبة ، ليسكون ذلك اعترافاً من الولايات الإسلامية بساطة الخليفة الاسمية .

وغير خاف أن المساجد كانت كمعاهد العلم اليوم تدرس فيها العلوم الدينية والعربية والعقلية .

## ٢ — نظرية الإمارة على البلدين :

ذكرنا في الجزء الثالث من هذا الكتاب أن الفقهاء قسموا الإمارة على البلدان إلى إمارة عامة وإمارة خاصة . فالعامة على نوعين : إمارة استكفاء بعقد عن اختيار ، وإمارة استيلاء بعقد عن اضطرار<sup>(١)</sup> .

وكان الخليفة مصدر كل قوة كما كان مرجع كل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة . وكان الوزير ساعد الخليفة الأيمن ، يقضى باسمه في جميع شؤون الدولة ، فكان له الحق في تنصيب العمال وصرْفهم والإشراف على جمع الضرائب .

(١) راجع كتاب الأحكام السلطانية للمواردى ص ٢٨ وما يليها .

وقد ظهر بتوالى الايام أن هذه الاعباء كانت مرهقة لا يستطيع القيام بها رجل واحد .  
ومن ثم أصبح من الضروري تعيين موظفين يعاونون الوزير في الإشراف على الدواوين  
المختلفة وإدارة شئونها .

وكان الخليفة يختار عمال الأقاليم بنفسه للقيام على شئونها ، بيد أن سلطاتهم المدنية  
والقضائية لم تكن خالصة من كل قيد ؛ فلم يترك العامل في ولايته زمناً طويلاً ، فإذا ما عزل  
من منصبه ، طلب إليه أن يقدم بياناً مفصلاً عن شئونه ولايته . ومع ذلك اكتسب بعض  
الولاة امتيازات خاصة ، حيث كانوا يقطعون هذه الولايات نظير اعترافهم بالسيادة للخليفة  
وتقديم بعض المساعدات للمادية للدولة .

وكانت مصر في عهد الدولة الفاطمية مقسمة إلى أربع ولايات هي :

(أولاً) ولاية قوص ، وكانت أعظم ولايات مصر ، لأن عاملها يحكم جميع بلاد  
الصعيد ، ويتولى إقليم الأثمنين بالإضافة إلى عمله الأصلي .

(ثانياً) ولاية الشرقية ، وتلى ولاية قوص في الأهمية . وكان عاملها يحكم منطقة بليس  
وقليوب وأشموم .

(ثالثاً) ولاية الغربية ، وتلى ولاية الشرقية في المنزلة ، وبلى عاملها المحلة ومنوف وأبيار .  
(رابعاً) ولاية الإسكندرية ، وتلى ولاية الغربية في الرتبة وبلى عاملها إقليم البحيرة كله .  
وكان يتلخ على هؤلاء الولاة الأربعة من خزانة السكوة بالبدنة ، وهو الثوب الذي  
يلبسه الخليفة يوم الاحتفال بفتح الخليج<sup>(١)</sup> .

وكانت هذه الولايات الأربع تضم كوراً أخرى صغرى فصلها ابن ماقى في الباب الذي  
عقده لتقسيم الإدارى في أواخر عصر الفاطميين وأوائل عصر الأيوبيين ، وهي الشرقية  
والمرتاحية ، والدقهلية ، وجزيرة قريينا ، والغربية ، والسمنودية ، والدنجاوية ( بكسر الدال  
مع التشديد وسكون النون ) ، والمنوفية ، وجزيرة بني نصر ، والقسراوية ( بضم التاء  
مع التشديد وسكون السين ) ، والبحيرة ، وحواف رهسيس ، والكفور الشاسعة ، وفوة ،  
والمزاحمتين ( بفتح الحاء والميم والتاء وسكون الياء ) والجزيرة ، والإطفيحية والبوصيرية ،

(١) الفاقشندى : ج ٣ ص ٤٩٧ — ٤٩٨ .

والقيومية ، والبهنساوية<sup>(١)</sup> ، والأشمونين ، والأسبوطية ، والإخميمية ، والقوصية<sup>(٢)</sup> .  
وكان لامراء المرابطين نواب ينوبون عنهم ويمثلونهم في حكم المغرب والاندلس .  
وكانت وظيفة نائب أمير المسلمين سياسية وحرية معاً ، ويراعى في اختياره أن يكون  
من أقرب الناس إليه متصفاً بالمهارة الحربية منفذاً لسياسة الدولة التي تقوم على التعاليم  
الإسلامية وفق مذهب الإمام مالك . وكان هؤلاء النواب يختارون عادة من ولاية اليهود .  
فقد كان علي بن يوسف نائباً لآبيه يوسف بن تاشفين . وكان تاشفين نائباً لآبيه علي ،  
ولإبراهيم نائباً لآبيه تاشفين . وقد تولى هؤلاء النيابة في بلاد الأندلس . وكذلك كان يوسف  
ابن تاشفين من قبل نائباً لآبي بكر بن عمر قبل أن يصبح أميراً للمسلمين ، ثم أصبح أبو بكر بن  
عمر نائباً ليوسف بن تاشفين في الصحراء بعد أن نزل عن سلطته .

وكانت سلطة النائب سياسية وحرية معاً كما ذكرنا . فقد كان يراقب أعمال العمال  
ويضع الخطط الحربية ويصدر بتعيينه مذكور خاص يذاع على العمال . وكان نائب أمير  
المسلمين يستعين في إدارة نيابته بطائفة من الكتاب أطلق عليهم الوزراء تجاوزاً .

### ( ب ) الرواوين :

كان الوالي يعين من قبل الخليفة وينوب عنه في حكم البلاد ، وهو الرئيس الأعلى  
للقضاء والصلاة والحراج والجند والشرطة وما إليها من أعمال الدولة .  
وكانت الصلاة أهم أعمال الوالي لارتباطها بالإمامة الدينية ، وهي منشأ الحكم في الإسلام .  
لذلك كان الوالي يقيم الصلاة في الجمع والأعياد ، ويؤم الناس في الصلاة أو يستخاف عليها .  
وقد قضت الضرورة بذلك حين تعددت المساجد الجامعة بعد أن أخذ الإسلام ينتشر  
في مصر على أثر إقبال المسلمين على الزواج من القبطيات .

ولم يدخل على النظام الإداري في مصر الإسلامية تغيير يستحق الذكر حتى جاءت  
الدولة الفاطمية فأدخلت عليه كثيراً من التعديل .

(١) وهي محافظة المنيا الآن .

(٢) ابن مثنى : قوانين الرواوين ص ٨٥ — ١٠٨ .

انظر حسن إبراهيم حسن : كتاب تاريخ الدولة الفاطمية ( الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٤ )

وفي عهد الفاطميين كانت هناك عدة دواوين على رأس كل منها موظف كبير . ومن هذه الدواوين : ديوان الجيش ، وكانت تعرض على صاحبه شئون الأجناد وخبولهم ، وديوان خزائن الكسوة والطرز ، ويتولاه أحد كبار الموظفين من أرباب الأفلام ، وديوان الأحباس ، ويشبه وزارة الأوقاف اليوم ، وديوان الرواتب ، ويعد صاحبه استثمارات الرواتب ويعرضها على الخليفة في كل سنة<sup>(١)</sup> .

ومن هذه الدواوين أيضاً ديوان الشام وديوان الحجاز .

وكان عدد الموظفين في عهد الفاطميين كبيراً : منهم صاحب الباب ، وحامل مظلة الخليفة ، وصاحب الرسالة ( وكان يحمل كتب الخليفة إلى الوزير وغيره من كبار الموظفين ) ، وصاحب بيت المال ، وهو بمثابة وزير المالية في العصر الحاضر ، وحامل دواة الخليفة . وهناك كثير من المناصب الديفية ، من أهمها منصب قاضي القضاة ، وله النظر في الأحكام الشرعية والإشراف على دور السكة وضبط عيارها .

وبلى قاضي القضاة في الرتبة داعي الدعاة ، ويقوم بنشر الدعوة الفاطمية في دار العلم والمساجد . ومن كبار الموظفين في عهد الفاطميين ، المحاسب ، وكان له النظر في الأسواق والمحافظة على الآداب والفضيلة والأمانة ، والإشراف على الموازين والمسكايل ، وعلى استيفاء الديون . وكان ينتخب من وجوه المسلمين ، لأن وظيفته كانت ديفية إلى حد كبير ، وكان يتقاضى راتباً شهرياً قدره ثلاثون ديناراً .

ومن كبار موظفي الدولة في العهد الفاطمي وكيل بيت المال ، ونائب صاحب الباب ، وكان يستقبل سفراء الدول وينزل كلا منهم في المكان اللائق به . وهناك عدد كبير من القراء يقرءون القرآن في حضور الخليفة في مجالسه ومواكبه ، ويقال لهم قراء الحضرة<sup>(٢)</sup> . ومن كبار الموظفين أيضاً تسمعة يعرفون بالأساتذيين المحنكين ( يضم الميم وفتح الحاء والنون مع التشديد )<sup>(٣)</sup> منهم : صاحب بيت المال ، وصاحب الرسالة ، وزمام القصر .

(١) القلشندي : ج ٣ ص ٤٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢٥ — ٥٣٢ .

(٣) جمع أستاذ محنك ، أي رجل مدرب ، وكان يتلم بطرف من عمامته ، ومعناه يجعل عمامته تحت ذقنه وفكيه ( انظر Lane's Arabic-English Lexicon ) . ومن الأساتذة المحنكين من يتولى شد التاج ، وصاحب المجلس ، ويشبه الآن كبير الأبناء ، وصاحب الرسالة ، وصاحب بيت المال ، وحامل الدواة ، وزمام الأفارب ، وزمام القصور ، ويعهد إليه بإدارة شئون القصر ( القلشندي ج ٣ ص ٤٨٤ و ٤٨٥ ) .

وكان راتب كل من هؤلاء مائة دينار في الشهر ، وراتب كل من قاضي القضاة وداعي الدعاة مائة دينار ، وراتب كل من طببي الخليفة الخاصين خمسين ديناراً<sup>(١)</sup> .  
ومن المناصب الدينية الهامة في العصر الفاطمي وظيفة باب الأبواب وهو لقب شيعي لقب به جعفر بن منصور اليميني الذي تمتع بمركز رفيع في الدولة الفاطمية في المغرب ثم في مصر حتى اتخذه الخليفة المعز « باب أبوابه » أي رئيس الدعاة . كما لقب حميد الدين الكرمانى المتوفى سنة ٤٠٨ هـ بلقب « حجة العراقيين »<sup>(٢)</sup> .

### دور الضرب :

وتبين لنا كتب السكة نواحي أخرى من التقسيم الإداري ، ونعني بها دور الضرب ، وهي البلاد التي كانت الحكومة تتخذها مراكز لسك النقود وضرب العملة . وليس من شك في أن هذه البلاد كانت تمثل حواضر الأقاليم التي تقيم بها أمراء الولايات ، حيث تكون الدواوين ومقر الحكومة الإقليمية . وهناك ناحية أخرى تبينها كتب السكة ، وهي السنة التي ضربت فيها النقود لأول مرة : فهي تبين التاريخ الذي أصبحت فيه هذه المدينة حاضرة للإقليم ، كما تبين السنة التي انقطع فيها ضرب النقود بمدينة من المدن ، وهي تدل أيضاً على التاريخ الذي انتهت فيه أهمية المدينة كمحاضرة لهذا الإقليم . وإليك نبأاً بأسماء دور الضرب في مصر والولايات التابعة للدولة الفاطمية ، مثل صقلية وإفريقية وبلاد الشام .

(١) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢٥ و ٥٢٦ . المفريزي : خطط ج ٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٢) انظر حسن إبراهيم حسن : كتاب الدولة الفاطمية ص ٢٩٣ وما يليها .

ملاحظات	نهاية السكة	السنة التي بدأت فيها السكة	الإقليم	دار الضرب Place of Unit
	٥٥٥	٤٦٩	مصر	الإسكندرية
	—	٥١٤	فلسطين	أيله
	—	٥١٤	فلسطين	تيماء
	٤٤٤	٤٢٩	الشام	حلب
	٤٤٦	٣٦٨	الشام	دمشق
	—	٤١٤	إفريقية	زويلة
	٤٥٦	٣٤٣	صقلية	صقلية
	٤٨٤	٤٣٠	الشام	صور
	٤٦٠	٣٩٥	الشام	طبرية
	٤٧٥	٣٦٧	الشام	طرابلس
	—	٥٠٧	الشام	عسقلان
	٤٩٥	٤٦٢	فلسطين	عكا
	٣٦٤	٣٥٩	فلسطين	فلسطين
	٣٣٥	٣٠٣	إفريقية	القيروان
	٥٦٤	٣٦١	مصر	مصر (الفسطاط)
	٤٥٤	٣٤١	إفريقية	المنصورية
	(١) ٤٢٠	٣١٥	إفريقية	المهدية

(ج) البربر :

يرجع نظام البريد إلى أيام أكاسرة الفرس وقياصرة الروم . على أن مقاديره أو مسافاته كانت متفاوتة . وقد ذكر القلقشندي (٢) أن معاوية بن أبي سفيان كان أول من أدخل نظام البريد في الدولة الإسلامية ، وقد أخذه عن الروم أثناء حكمهم في الشام . ثم أدخل عبد الملك بن مروان ( ٦٥ — ٨٦ هـ ) عدة تحسينات على نظام البريد ، وأصبح بذلك أداة هامة في إدارة شئون الدولة .

(١) Lavoix, pp. 517-531

(٢) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

وكان للبريد ديوان كبير في بغداد ( أشبه بمصلحة البريد الآن ) ، وكان مزودا بمحاط على طول الطريق ، وذلك نظراً لاتساع رقعة الدولة الإسلامية في ذلك العصر . وقد ظل حمام الزاجل مستخدماً في نقل الرسائل حتى خلافة المعتصم العباسي ، وساعدت معالم الطرق التي أقامتها الدولة للتجارة في أسفارهم ، كما كانت نواة للبحوث الجغرافية . على أن البريد كان خاصاً بأعمال الدولة وليس لنقل مراسلات الجمهور . وكان صاحب البريد يراقب العمال ويستطلع أخبار الأعداء . ويشبه هذا النظام قلم المخابرات في أيامنا . وكانت مهمة صاحب البريد أول الأمر توصيل الأخبار إلى الخليفة من عماله في الأقاليم وبالعكس ، ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحبه عيناً للخليفة ، ينقل أخباره إلى ولاته كما ينقل أخبار ولاته إليه :

وقد اهتم الخلفاء العباسيون بهذا النظام واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شئون دولهم .

وقد ذكر أبو المحاسن<sup>(١)</sup> أن شفيعاً اللؤلؤي كان صاحب البريد في مصر سنة ٢٩٢ هـ . ومع أننا لانعرف الكثير عن إدارة البريد في عهد الإخشيديين والفاطميين ، فقد ذكر المؤرخون أنهم اهتموا بحمام الزاجل كوسيلة من وسائل نقل الرسائل . واستخدم الفاطميون الحمام ، وأفردوا له ديواناً وجرائد بأنسابها<sup>(٢)</sup> .

وقد بلغ نظام البريد في عهد بني بويه ( ٣٣٤ — ٤٤٧ هـ ) مبلغاً عظيماً من الدقة والسرعة ، حتى كانت الدولة تنقل البريد في أثناء الحرب بالجزازات<sup>(٣)</sup> ، وهي أشبه بالعربات التي تجرها الخيول السريعة التي يركبها عمال البريد ورجال الحرب وأمثالهم ممن يتطلب عملهم السرعة . فإن الفاطميين لما عزموا على غزو مصر سنة ٣٠١ هـ ، استعمل على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر العباسي الجزازات من بغداد إلى مصر ليوقف على حقيقة الحال في كل يوم .

وكان لبني بويه أثر كبير في ترقية البريد . فقد أدخل عضد الدولة السعامة ( وكان يقال لهم الفيوج ) ، وهم طائفة من موظفي البريد تخصصوا في نقل البريد من مكان إلى آخر .

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٨ .

(٢) الفلشندي : ج ١٤ ص ٣٩٠ .

(٣) انظر تاج العروس .

وقد استعملت النار كوسيلة من وسائل المراسلة في القرن الثالث الهجري ( القرن التاسع الميلادي ) على الساحل الإفريقي الشمالي ، حتى كانت الرسائل تصل من طنجة إلى سبتة في ساعة واحدة ، ومن طرابلس إلى الإسكندرية في ثلاث ساعات . ولم يبطل هذا النظام إلا في سنة ٤٤٠ هـ ، حين أثار المعز بن باديس الفتن في المغرب في وجه الفاطميين الذين لم يعودوا يستطيعون حماية الحصون من البدو<sup>(١)</sup> .

كذلك اعتمد العباسيون على حمام الزاجل في نقل الرسائل . وقد راج هذا النوع من البريد عند فرق الباطنية ، وخاصة الاسماعيلية ؛ فقد استعان عبد الله بن ميمون القداح بالطيور في نقل الأخبار إلى أنصاره<sup>(٢)</sup> ، واهتم الفاطميون بالحمام كوسيلة من وسائل نقل الرسائل . فقد ذكر الفلقشندي<sup>(٣)</sup> أن الفاطميون بالغوا في العناية بالحمام حتى أفردوا له ديواناً وجرائد ( قوائم ) بأنساب الحمام ، كما كان يفعل العرب في معرفة أنساب الخيل . وللبريد محطات تسمى السكك ، كانت تزود بالخليل وراكبها في كل سكة من سكك البريد على بعد ثلاثة أميال أو ستة . وكانت طرق البريد منتشرة في المشرق والمغرب ، ومن أهمها :

١ — من بغداد إلى القيروان بحذاء نهر دجلة ، ويمر بالموصل وسنجار ونصيبين والرقبة ومنبج وحلب وحماء وحمص وبعبك ودمشق وطبرية والرملة والقاهرة والإسكندرية والقيروان .

٢ — من بغداد إلى الشام بحذاء الضفة الغربية لنهر الفرات ، ماراً بالأنبار وهيت ودمشق .

٣ — من بغداد إلى الشرق ، ماراً بجلوان وهمدان والرى ونيسابور ومرو وبخارى وسمرقند حتى يصل إلى الصين . ومن مرو يبدأ طريق آخر يمر في أواسط خراسان حتى يصل إلى الطاقان ثم يخترق نهر جيحون حتى يصل إلى فرغانة<sup>(٤)</sup> .

وقد ارتقى نظام البريد في مصر في عهد الأيوبيين والمماليك ، فوضع له نظام يكفل ارتباط جميع أنحاء الدولة بشبكة خطوط من البريد البري والجوى . وكان مركز هذه

(١) الأمير شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

(٢) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٢٣٤ .

(٣) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩٠ .

(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٢٧٥ . تاريخ الدولة الفاطمية



الشبكة قلعة الجبل التي بناها صلاح الدين الأيوبي في القاهرة سنة ٥٧٢ هـ ، حيث كان يتفرع منها أربعة طرق برية ، يمتد أحدها إلى قوص ، والآخر إلى عيذاب ، وثالث إلى الإسكندرية ، ورابع إلى دمياط ومنها إلى غزة . ومن قلعة الجبل تتفرع سائر خطوط البريد ، وتصدر المراسيم السلطانية إلى أنحاء الدولة ، وترد إليها الرسائل من الولاة . وأصبح البريد في عهد الظاهر بيبرس أحد سلاطين المماليك البحرية يرد على مصر مرتين في الأسبوع .

### ( ٥ ) الشرطة :

الشرطة هي الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو الوالي في استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين ، وما إلى ذلك من الاعمال الإدارية التي تكفل سلامة الجمهور وطمأنينتهم . وقد عرفت الشرطة بذلك لانهم أشراطوا أنفسهم بعلامات خاصة يعرفون بها . وكان عمر بن الخطاب أول من أدخل نظام العسس في الليل . وفي عهد بن أبي طالب نظمت الشرطة ، وأطلق على رئيسها صاحب الشرطة . وكان يختار من عليه القوم ومن أهل العصية والقوة ، وهو أشبه بالمحافظ في هذا العصر لانه يتولى رئاسة الجند الذين يساعدون الوالي على استتباب الامن .

وكانت الشرطة تابعة للقضاء أول الامر ، تقوم على الاحكام القضائية ويتولى صاحبها إقامة الحدود ؛ ولكنها لم تلبث أن انفصلت عن القضاء ، واستقل صاحبها بالنظر في الجرائم . وقد أدخل هشام بن عبد الملك ( ١٠٥ - ١٢٥ هـ ) نظام « الاحداث » ، وكان صاحبه يضطلع بالاعمال العسكرية التي تعتبر وسطاً بين أعمال صاحب الشرطة والقائد (١) .

وكثيراً ما كانت الشرطة والحسبة تسندان لشخص واحد مما يدل على خطورة مركز صاحب الشرطة في عصر الدولة الفاطمية . وكان ينوب عن صاحب الشرطة موظفون يعملون على حفظ النظام واستتباب الامن في الأقاليم ، ويساعد صاحب الشرطة القضاء والعمال ويقوم بتنفيذ احكامهم .

ومن ذلك نرى أن الشرطة كانت تابعة للقضاء في أول الامر ، يقوم صاحبها بتنفيذ الاحكام القضائية ويتولى إقامة الحدود . ولم تلبث أن انفردت عن القضاء ، واستقل صاحبها بالنظر في الجرائم . وكانت الشرطة تؤهل صاحبها للحجابة أو الوزارة .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٨ - ٢١٩ .

وكانت الشرطة في بلاد الأندلس على نوعين : شرطة كبرى وشرطة صغرى . وقد اختص صاحب الشرطة الكبرى ، كما يقول ابن خلدون<sup>(١)</sup> ، بالحكم على الخاصة من ذوى النفوذ والجاه ، واختص صاحب الشرطة الصغرى بالحكم على العامة .

وكان صاحب الشرطة في إفريقية ( بلاد تونس الحالية ) يسمى في أيام ابن خلدون « الحاكم » وفي بلاد الأندلس « صاحب المدينة » ، وفي مصر في عهد المماليك « الوالى » .

### ٣ - النظام المالى

#### (١) موارد بيت المال

##### ١ - الخراج :

تعمل السياسة المالية لكل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها . وقد سارت الدولة الإسلامية منذ ظهورها على هذه السياسة ، فأنشأت بيتاً للمال يقوم على صيانته وحفظه والتصرف فيه لصالح الجماعة . وهو بهذا يشبه وزارة المالية في العصر الحاضر ، وصاحبه يقوم بمهمة وزير المالية ، وكان يطلق عليه صاحب بيت المال .

والمال الوارد لبيت مال المسلمين ، إما أن يكون ضريبة أو عن أشياء أخرى غير الأرض . وأهم موارد بيت المال : الخراج ، والجزية ، والزكاة ، والفيء ، والغنيمة ، والعشور .

كان الخراج إما شيئاً مقدراً من مال أو غلة . كما صنع عمر بن الخطاب في أرض السواد<sup>(٢)</sup> بعد فتحها ، وإما حصة معينة مما يخرج من الأرض ، وهذا ما يسمى بالمعاملة أو المزارعة كما عامل النبي صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على نصف ما يخرج من الأرض ، قليلاً كان أو كثيراً .

وقد اختلف المؤرخون في تقدير الخراج ، فقصره بعضهم على جزية الروم التى فرضت على أهل الذمة ، وقصره غيرهم على ضريبة الأرض .

ولم يكن الخراج ثابتاً . فقد كانت ضريبة الأرض تقل وتكثر حسب الاهتمام

(١) انظر ص ٢٩ من مقدمة ابن خلدون المحفوظة بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ١٠١٦ وعليها خط المؤلف .

(٢) سمي كذلك للخضرة والشجر والزرع ، أى الأرض المحسبة التى تزرع فيبدو وجهها مخضراً فاتماً كلون السواد .

التعمير وتحسين وسائل الري ، كما أن جزبة الروس كانت تنقص بالتوالي لدخول أهل البلاد في الإسلام .

وكان خراج أقاليم الشرق الإسلامي يقدر بالدرهم وخراج أقاليم المغرب يقدر بالدنانير ( عدا برقة وإفريقية ) . ويرجع السبب في ذلك - على ما ظهر لي أن مناجم الفضة كانت أكثر في أقاليم الشرق منها في أقاليم المغرب ، وبالعكس ذلك مناجم الذهب . كما يلاحظ أيضاً أن ما يصل إلى بيت المال ببغداد كان صافي ما يتحصل من الجباية في الأقاليم بعد دفع أرزاق الجند والموظفين وشراء المعدات الحربية وما تتطلبه مرافق الدولة من كرى الأنهار والترع وإصلاح الجسور ، وما ينفق على الدواوين وعلى الخليفة ورجال البلاط .

وهناك ضرائب أخرى تجب من أرباب الحرف والصناعات ومن التجار الوافدين على الدولة الإسلامية وغير ذلك من الضرائب .

## ٢ - نظام الضرائب :

يرجع نظام الإقطاع<sup>(١)</sup> أو الالتزام في الإسلام إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . ويقول المقرئ<sup>(٢)</sup> : « وقد كان خلفاء بني أمية وخلفاء بني العباس يقطعون الأراضي من أرض مصر النفر من خواصهم ، لا كما هو الحال اليوم ( أى في زمن المقرئ ) ، بل يكون خراج أرض مصر بصرف منه أعطية الجند وسائر السكف ، ويحمل ما يفضل إلى بيت المال ، وما أقطع من الأراضي فإنه بيد من أقطعه » . وفي عهد صلاح الدين الأيوبي حتى زمن المقرئ ، المتوفى سنة ٨٤٥ هـ كانت أراضي مصر تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده . وكانت أرض مصر على سبعة أقسام : قسم يلحق بديوان السلطان ، وهو على ثلاثة أقسام : ما يجرى في الديوان الخاص ، وما يجرى في الديوان المفرد ، وما يقطع للأمرء والأجناد ، وقسم ثالث يحبس لإبراده على المساجد والمدارس والخوانق<sup>(٣)</sup> ، وعلى جهات البروعلى ذرية

(١) يقال : اقتطع طائفة من الشيء أخذها ، أقطعتي لها أذن لي في اقتطاعها واستقطعه لها . سأله أن يقطعه لها . والإقطاعية جزء من أرض الخراج يقطعها الجند فتدر لهم غلتها فتصير لهم رزقاً وأجراً ( راتب ) .

(٢) خطط ج ١ ص ٩٧ .

(٣) جمع خانقاه وهي كلمة فارسية معناها « بيت » . وقيل : أصلها خوققاه ، أى الموضع الذى يأكل فيه الملك . والخوانق حدثت في الإسلام حول سنة أربع مائة من الهجرة ، وجعلت الحلوة الصوفية فيها للعبادة .

وافق تلك الاراضى وعتقاتهم ، وقسم رابع يقال له الاحباس ، ينفق لإبرادها على الذين يقومون بخدمة المساجد وإقامة الشعائر الدينية ، وقسم خامس يباع ويشترى ويورث ويوهب لأنه اشترى من بيت المال ، وقسم سادس لايزرع للعجز عن زراعته ، فترعاه المواشى أو يثبت السكلا ونحوه ، وقسم سابع لا يرويه ماء النيل فهو قفر كما هو الشأن فى الصحارى .

وقد أورد الماوردى<sup>(١)</sup> نوعى الإقطاع فقال : « وهو ضربان : إقطاع استغلال وإقطاع تملك ؛ والثانى ينقسم إلى موات وعامر . والثانى وهو ضربان : أحدهما ما يتعين مالكة ، ولانظر للسلطان فيه إلا بتلك الارض فى حق لبيت المال إذا كانت فى دار الإسلام ، فإن كانت دار الحرب حيث لم يثبت للمسلمين عليها يد ، فأراد الإمام أن يقطعها لملكها المقطع إليه عند الظفر بها فإنه يجوز » .

ولم يكن الالتزام مقصوراً على إقطاع أجزاء من الارض فى الولاية الواحدة ، بل قد يشمل ولاية برمتها . وقد ساد هذا النظام فى العصر العباسى حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية . فكانوا يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً من المال عدا الهدايا والطرف ، كما كان متبعاً فى نظام الإقطاع الذى كان سائداً فى أوربا فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين ، وسار عليه الخلفاء العباسيون قبل المعتصم<sup>(٢)</sup> .

ذكرنا من قبل أن السلطان ملكشاه السلجوقى منح الوزير نظام الملك لقب « أنابك » وأقطعه إقطاعات من جملتها طوس مدينة نظام الملك . وقد سار سلاطين السلاجقة على هذه السنة ، فكانوا يسندون إلى بعض عماليتهم الذين يظهرون كفاءة خاصة أو صفة حربية ممتازة حكم إقليم من أقاليم الدولة السلجوقية ويمهدون إليه بتشيئة أحد أبنائهم<sup>(٣)</sup> . ولما ضعف البيت السلجوقى تقاسم هؤلاء الأمراء ملك السلاجقة وأورثوه أبناءهم . وكان هؤلاء الأمراء يقطعون الأمراء المقربين إليهم بعض الأقاليم والمدن بشرط أن يظلوا خاضعين لهم . فإذا ما حاول أحدهم بالاستقلال بإقطاعه قام السلطان أو الأمير بعزله وإقطاع الإقليم

(١) الأحكام السلطانية ص ١٧١ — ١٨٢ .

(٢) الكندى : كتاب الولاية والقضاة ص ١٦٣ ، ١٧٣ ، ١٨٠ — ١٨٤ ، ١٩٥ — ١٩٧ ،

١٩٨ — ٢٠٢ .

(٣) انظر ص ٢٦ .

أو المدينة أميراً آخر على أن هؤلاء المقطعين كانوا في عصر السلاجقة العظام مرتبطين بالسلطان السلجوقي مباشرة ، وكانوا يقيمون الخطبة له وينفذون أوامره ويشتركون في قتال أعدائه .

وكان بعض هؤلاء الأمراء المقطعين يتمتعون بنفوذ واسع واستقلال يكاد يكون تاماً . فعماد الدين زنكي مثلاً أصبحت الالتزامات الإقطاعية التي كانت تربطه بالسلطان السلجوقي محدودة بل إنها تحولت إلى موقف عدائي في بعض الأحيان . وقد أدرك زنكي ضرورة إقطاع قواده بعض الإمارات المحلية في الجزيرة والشام وشرق الموصل وفي الإمارات الصليبية . وكان كلما استولى على بلد « رتب أموره وأقطع أعماله الأجناد والأمراء » ، كما فعل بعد استيلائه على مدينة حلب سنة ٥٢٢هـ<sup>(١)</sup> . وكانت سياسة عماد الدين زنكي ترمى إلى قيام المقطوع بإدارة شؤون الولاية باعتباره والياً من قبله ، أو لإبعاده الشخص الذي يرى في وجوده بإحدى الولايات خطراً على نفوذه<sup>(٢)</sup> ، أو مكافأة لأحد المقربين إليه اعترافاً بولائه له وما أداه من خدمات متميزة لدولته ، أو لتشجيع بعض الأمراء المناوئين له على تسليم حصونهم مقابل إقطاعهم بعض المناطق<sup>(٣)</sup> .

### ٣ - الجزية :

والجزية مبلغ معين من المال توضع على الروم ، وتسقط بالإسلام ، وثبتت بنص القرآن لفقوله تعالى : ( قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون )<sup>(٤)</sup> . والفرق بين الجزية والحراج أن الحراج على الأرض ( وليس على الروم ) ، ولا يسقط بالإسلام ، وقد ثبت بالاجتهاد ( لا بنص القرآن ) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٤٨ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٤٦ .

(٣) ابن الفلاني ص ٢٧٠ .

(٤) سورة التوبة ٩ : ٢٩ .

وقد فرضت الجزية على الذميين في مقابل فرض الزكاة على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان ، لأن الذميين والمسلمين رعية لدولة واحدة ، ويتمتعون بحقوق واحدة ، ويذنبون بمرافق الدولة العامة بنفسية واحدة . ولذلك أوجب الله تعالى الجزية للمسلمين نظير قيامهم بالدفاع عن الذميين وحمايتهم في الأقاليم الإسلامية التي يقيمون فيها<sup>(١)</sup> . ولذلك فرض الشرع الجزية على الأشخاص الذين يجب عليهم الجهاد لو كانوا مسلمين لأن كلنا الطبقتين تكافأنا في الحقوق وتساويتنا في الواجبات . وكانت الجزية تجمع على النحو الآتي :

- ١ — أغنياء ويؤخذ منهم ٤٨ درهما .
- ٢ — متوسطو الحال ويؤخذ منهم ٢٤ درهما .
- ٣ — فقراء يكسبون ويؤخذ منهم ١٢ درهما .
- ٤ — ولا تؤخذ الجزية من مسكين يتصدق عليه ، ولا من لا قدرة له على العمل ، ولا من الأعمى أو المقعد أو المجنون وغيرهم من ذوى العاهات ، ولا من الرهبان إلا إذا كانوا من الأغنياء . ولا تجوز أن تفرض إلا على الرجال الأحرار والعقلاء ، كما أنها لا تفرض على امرأة أو صبي .

#### ٤ — الزكاة :

والزكاة معناها الطهارة ، فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيه للدساكين ، طبقاً لقوله تعالى مخاطباً الأغنياء : ( وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ) . فكما أن الخارج شيء من المال يطهره ، فكذلك يبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد من الفقراء ، ويذهب عن نفس صاحبه الشح والآثرة ، قال الله تعالى ( خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيتهم بها )<sup>(٢)</sup> .

وقد منح الله سبحانه وتعالى بعض الناس بالأموال دون بعض نعمه منه وفضلاً ، وجعل علامة الشكر لذلك منهم على هذه النعمة التي منحها الله إياهم أن يخرجوا بعض هذه الأموال لتنفق على الفقراء والمساكين وذوى الحاجة بوجه عام .

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ٦٩ — ٧٢ .

(٢) سورة البقرة ٢ : ٢٦١ .

والزكاة شرعاً : تمليك جزء من المال عينه الشارع يخرجُه الغني للفقير في الحدود التي عينها الشارع وهناك خمسة أشياء يجب لإخراج الزكاة منها وهي :

١ — زكاة النقد ( الذهب والفضة ) ، ويجب الزكاة فيهما إذا بلغ النصاب ؛ فنصاب الذهب عشرون مثقالاً ، والمثقال يساوي بالعملة المصرية ٥١ قرشا تقريبا ، ونصاب الفضة مائتا درهم ( والدراهم يساوي نحو أربعة قروش مصرية ) . فإذا بلغ كل منهما النصاب المقرر وجب على المالك لإخراج ربع العشر .

٢ — زكاة السوائم<sup>(١)</sup> ؛ وهي : الإبل والغنم . فأول نصاب الإبل خمس وفيها شاة ، وهكذا في كل خمس شاة ، فإذا بلغت خمسا وعشرين ففيها بنت مخاض<sup>(٢)</sup> وفي ست وثلاثين بنت لبون<sup>(٣)</sup> ، وفي ست وأربعين حقة<sup>(٤)</sup> ، وفي إحدى وستين جذعة<sup>(٥)</sup> ، وفي ست وسبعين بنتا لبون . فإذا بلغت إحدى وتسعين ففيها حقتان إلى مائة وعشرين . ثم تستأنف الفريضة فيؤخذ في كل خمس شاة مع الحقتين .

أما زكاة البقر والجاموس ، ففي كل ثلاثين تبيع أو تبعة<sup>(٦)</sup> وفي أربعين مسن<sup>(٧)</sup> إلى ستين ففيها ضعف ما في الثلاثين ، ثم في كل ثلاثين تبيع وفي كل أربعين مسنة .

أما نصاب الغنم ( ضأننا ومعزنا ) ففي كل أربعين شاة ، وفي كل مائة وإحدى وعشرين شاتان ، وفي المائتين وواحدة إلى أقل من أربعمائة ثلاث شياة ، وفي أربعمائة أربع شياة ، وما زاد ففي كل مائة شاة .

ولا زكاة في غير ما ذكر من الحيوان ؛ فلا زكاة في الخيل والبغال والحمير إلا إذا كانت للتجارة ففيها زكاة التجارة .

---

(١) السائمة هي التي يرسلها صاحبها لترعى في البراري في أكثر السنة بقصد الدر أو النسل أو السمّن الذي يراد به تقويتها لأذبحها ، فلو اتخذت للذبح أو الحمل أو الركوب أو الحرب فلا زكاة فيها .

(٢) هي ما بلغت من الإبل سنة ودخلت في الثانية .

(٣) هي ما آمت سنتين ودخلت في الثالثة .

(٤) بكسر الهاء ما آمت ثلاث سنين ودخلت في الرابعة .

(٥) بفتح الجيم والذال ما آمت أربع سنين ودخلت في الخامسة .

(٦) التبيع : الذي يتبع أمه ، وهو ما أوفى سنة .

(٧) المسن : ما أوفى سنتين .

٣ - زكاةُ عُروض<sup>(١)</sup> التجارة ، ومنها ربع العشر ، بشرط أن تبلغ قيمتها نصاباً من الذهب والفضة . وأن يحول عليها الحول .

٤ - المعدن والركاز ، وهما بمعنى واحد ، وهو شرعاً : مال عثر عليه تحت الأرض ، سواءً كان خَلْقِيّاً خلقه الله تعالى ، أو كان كِنِزاً مدفوناً . قال الحسن البصرى : ما كان من ركاز في أرض الحرب ففيه الخمس وما كان في أرض السلم ففيه الزكاة (وهو ربع العشر) .  
٥ - زكاةُ الزرع والثمار : وحكم زكاتها ، أنه يجب فيها العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالمطر أو السبيح<sup>(٢)</sup> وهو نصف العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالدلاء ونحوها ، ويقصد بزراعته استغلال الأرض ونماؤها<sup>(٣)</sup> .

والزكاة تصرف على الأشخاص المذكورة في قوله تعالى : ( إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم<sup>(٤)</sup> ) ، وفي قوله الرسول الكريم : « أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها على فقرائكم » .

وقد اختلف علماء اللغة وأهل الفقه في الفرق بين الفقير والمسكين ، وفي حد الفقر الذي يجوز معه الأخذ من الصدقة . والعاملون عليها هم الجباة الذين يندبهم الإمام لتحصيل الزكاة ، والمؤلفة قلوبهم هم الذين كانوا يظهرون الإسلام ليتألف المسلمون بذلك قلوبهم . وقد انقطع هذا الفريق بعد ظهور الإسلام وانتشاره . ويقصد « بالرقاب » أن يعتق الرقيق لضمان ولائهم للمسلمين . والغارمون هم الذين ركبهم الدين . وقوله تعالى : ( وفي سبيل الله ) يراد بهم الغزاة ، وأهل الرباط الذين يعطون ما ينفقون في غزوهم سواءً كانوا فقراء أم أغنياء . و ( ابن السبيل ) الذي انقطعت به الأسباب عن ماله لبعده عن بلده ومستقره وأهله . فإنه يعطى من الصدقة وإن كان غنياً في بلده .

وكان للزكاة ديوان خاص بها في حاضرة الخلافة ، وله فروع في سائر الولايات والبلدان .

(١) جمع عرض ( يسكون الراء ) وهو ما ليس بذهب ولا فضة .

(٢) وهو ماء يسقى الأرض دون أن يخرجها الإنسان من النهر ، ويطلق عليه عند فلاحي مصر رى الراحة .

(٣) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٠٨ - ١١٧ .

(٤) سورة التوبة : ٩ : ٦٠ .



٥ — الفبي والغنيمة :

والفبي. كل مال وصل من المشركين للمسلمين عفواً من غير قتال ولا إيجاب (١) خيل ولا ركاب (٢).

وخمس الفبي. يقسم خمسة أسهم متساوية : سهم للرسول ينفق منه على نفسه وأزواجه ويصرفه في مصالحه ومصالح المسلمين ، وقد سقط بموته صلى الله عليه وسلم .

أما أربعة أخماس الخمس فمهم لذوى القربى ، ويراد بهم آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد اختلف فيهم : فقيل لمنهم قريش كلها ، وقيل بنو هاشم وبنو عبد المطلب . وقيل بنو هاشم خاصة ، وسهم لليتامى ، وسهم للسالكين ، وسهم لابن السبيل ، وذلك عملاً بقوله تعالى : ( ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة (٣) بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب (٤) ) ، وبقوله صلى الله عليه وسلم : « ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخصم مردود عليكم » .

وكانت أربعة أخماس الفبي الباقية تقسم في صدر الإسلام بين الجند في الأعمال الحربية وما تتطلبه من شراء الأسلحة وغيرها من معدات الحرب . وقد ظلت الحال على ذلك حتى دون عمر الدواوين وقدر أرزاق الجند .

والغنيمة في اللغة : ما يناله الرجل أو الجماعة بسعي ، وهي كل ما أصابه المسلمون من عساكر الكفار عن طريق الحرب .

وقد جرت العادة أنه إذا جمعت الغنائم لم تقسم حتى تنتهي الحرب لئلا يتشاغل الجند بها فتحل بهم المزيمة كما حدث في غزوة أحد . فإذا انتهت الحرب يعجل أمير الجيش بقسمتها في دار الحرب . ومع ذلك فإنه يجوز تأخيرها إلى دار الإسلام بحسب ما يراه أمير الجيش . ويبدأ الإمام بإخراج الخمس من الغنيمة ، فيقسمه بين أهل الخمس على خمسة أسهم ، وهم الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى : ( واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول

(١) الإيجاب : سرعة السير . والركاب الإبل التي يسافر عليها ، لا واحد لها من لفظها ، أى لم يستعمل في تحصيله خيلاً ولا إبلاً ، بل حصل بلا قتال .

(٢) جمع ركب ويقصد بذلك الإبل وغيرها المستعملة في الحرب .

(٣) مداولة من الأغنياء إلى الأغنياء دون الفقراء .

(٤) سورة المشر ٥٩ : ٧ الدولة ( بضم الدال ) في المال فقط . يقال صار الفبي دولة بينهم يتداولونه يكون مرة لهذا ومرة لهذا والجمع دولات ودول .

ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) (سورة الأنفال ٨ — : ٤١). وقد تقدم ذكرهم في باب الفيء والأربعة الأقسام الباقية ملك للغنائم؛ غير أن الإمام إذا رأى أن يمن على الأسرى باطلاقهم فعل، وبطلت حقوق الغنائم فيهم.

#### ٦ — العسور :

ويرجع نظام العسور إلى عهد عمر بن الخطاب . وكان تجار المسلمين الذين يفدون إلى دار الحرب ( أى بلاد الكفار الذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد ) يدفعون العشر عن سلمهم ، فأمر عمر بأن يأخذ المسلمون العشر من تجار غير المسلمين الذين يفدون بضعائهم إلى دار الإسلام ، وأمر بأن يؤخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين ربع العشر إذا بلغ ثمن السلعة مائتي درهم فأكثر . وللإمام أن يزيد عن العشر أو أن ينقص عنه إلى نصف العشر ، أو أن يرفع ذلك عنهم إذا رأى في ذلك مصلحة . ولا يزيد ما يؤخذ عن مرة واحدة من كل قادم بالتجارة في كل سنة ولو تكرر قدمه . وكانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر إلا إذا انتقل من بلاده إلى بلاد أخرى ، وهذا ما نسميه في الوقت الحاضر الضرائب الجركية .

وهناك مورد آخر من موارد بيت المال ، هو الأموال التي لا يعلم لها مستحق كاللقطة ، ومال من يموت وليس له وارث ، والأموال التي صالح عليها المسلمون أعدام .

#### ٧ — الضرائب في العصر العباسي الثاني :

وكان الخلفاء العباسيون يعنون بشئون الزراعة والتخفيف عنها . وقد ألغى أبو جعفر المنصور الضريبة النقدية التي كانت تفرض على الخنطة والشوفان ، وأحل محلها نظام المقاسمة ، وهو دفع الضرائب النوعية ( المتنوعة ) بنسبة خاصة من المحصول . على أن النظام النقدي القديم ظل على النخيل والفواكه وأشباهاها . ولما أدى ذلك النظام الجديد إلى اشتطاط الجباة في جمع الضرائب توسع الخليفة المهدي ( ١٥٨ — ١٦٩ هـ ) في تطبيق النظام الذي أدخله أبوه المنصور فعممه ، وجعل الضرائب نجبي دائماً بالنسبة إلى المحصول . وإذا كانت الأرض ممتازة الخصوبة ولا تحتاج إلى عمل كثير ، كان على الزارع أن يقدم للحكومة نصف غلة أرضه . وإذا صعب عليه ربحها دفع الثلث أو الربع أو الخمس تبعاً لحالة الأرض .

أما السكروم والبساتين والنخيل ، فكانت غلتها تقوم بالمال ويدفع عنها النصف أو الثلث . ويسمى هذا النظام المقاسمة ، تمييزاً له عن النظام القديم الذي كان يعرف

بالمحاسبة ويقضى هذا النظام بأن تجبي الضريبة بالنسبة إلى الأرض ، وهناك ثلاث طرق في جباية الأرض .

١ — المحاسبة — وهي إما أن تكون نقداً أو نوعاً أو هما معاً .

٢ — المقاسمة — وهي ضريبة تؤخذ من المحصول .

٣ — المقاطعة — وهي ضريبة تجبي وفق اتفاقات معينة بين الحكومة والامة ، ويدخل في هذا النظام معظم أراضي الدولة . وكثيراً ما كان يعنى البعض من دفع الضرائب ، حتى في العهود التي ساد فيها العسر والجذب .

وقد بلغت مساحة الجزء المزروع في عهد المعز لدين الله الفاطمي ٧١٤ ر ٢٨٥ فداناً ، وفي أيام بدر الجمالي الذي تقلد الوزارة في سنة ٤٦٥ هـ نحو هذا القدر ، وانعدمت أو كادت في أواخر عهد المستنصر . ولم يكن السبب في ذلك راجعاً إلى انخفاض النيل أو حدوث الوباء ، وإنما كان راجعاً إلى سوء سياسة الحكام وعدم اهتمامهم بقمية الزراعة وما تتطلبه من شق الترع وحفر الخللجان وإقامة الجسور ونحوها .

ويمكننا الوقوف على اطراد النقص في مساحة الجزء المزروع في مصر وزيادة مقدار الخراج الموضوع على الفدان من الثبت (١) الآتي :

الضريبة على الفدان	الخراج	المساحة المزروعة	السنة الهجرية	الوالي
٢ دينار	٤٠٠٠٠٠٠٠ ر	٦ مليون فدان	٢٠	عمرو بن العاص
» ٢	» ٤٠٠٠٠٠٠٠ ر	» » ٢	١٢٥	هشام بن عبد الملك
» ٢	» ٤٢٥٧٠٠٠٠ ر	» ٢١٢٨ ر	٢١٨	المأمون
»	» ٤٨٠٠٠٠٠٠ ر	?	٢٧٠	أحمد بن طولون
» ٤	» ٢٠٠٠٠٠٠٠ ر	٥٠٠٠٠٠٠ فدان	٣٣٤	محمد الإخشيد
» ٧	» ٢٠٠٠٠٠٠٠ ر	» ٢٨٥٧١٤	٣٥٨	المعز لدين الله
?	» ٣٠٦١٠٠٠٠ ر	» ٧٦٥٢٥٠	٤٨٧	المستنصر في أواخر حكمه

وكانت محاصيل مصر في العصر الفاطمي — ولا تزال — تنقسم إلى محاصيل شتوية ومحاصيل صيفية . وهنا أهم المحاصيل الشتوية نقلاً عن ابن ممتق (١) .

نوع المحصول	العلة بالفدان	ضريبة الفدان
القمح والشعير	٢ — ٤٠ أردب	٣ أرادب
القول	٢٠ — ٢٠ أردب	٣ — ٢ ½ أردب
العدس	٥ — ٢٠ أردب	٢ ½ أرادب
السكران	٣٠ حبلا	٣ — ٦ دينار
القرط ( البرسيم )	٢ — ٤ أردب	١ دينار
البصل	١٠ — ٢٠ دينار	٢ دينار
السمسم	١ — ٦ أردب	١ دينار
القطن	٢ — ٨ قنطار	١ قنطار
قصب السكر	٤٠ — ٨٠ [بلوجه (٢)]	٥ دينار
القلقاس	٥ — ٤٠ دينار	٤ دينار
الباذنجان	٣٠ دينار	٣ دينار
الثبلة	٢٦ دينار	٣ دينار
العنب والفاكهة	٣ دينار	٣ دينار

وكانت الضرائب فادحة على المواد الضرورية ، كالقمح والشعير والقول والقصب والقلقاس والباذنجان والفواكه ، حتى إن متوسط الضريبة على الفدان الواحد بلغ أربعة دنانير .

وإذا كان الخراج قد بلغ ٣٠٦١٠٠٠ ديناراً في عهد وزارة بدر الجمالي ، فإننا نستطيع أن نقدر مساحة الجزء الصالح للزراعة في أيام المستنصر على الوجه الآتي :

$$\frac{٣٠٦١٠٠٠}{٤} = ٧٦٥٢٥٠ \text{ فداناً وهو مقدار قليل جداً كما نرى .}$$

(١) كتاب قوانين الدواوين س ٢٥٨ — ٢٧٠ .

(٢) الأبلوجة هي الحزمة الكبيرة .

ولو كان لدينا خريطة مفصلة لمصر ونواحيها في أيام الفاطميين ، لاستطعنا أن نستعين بالإحصاء القيم الذي أورده أبو صالح الأرمي في كتابه ( كيناس وأديرة مصر ) ، حتى نقدر مساحة كل كورة بالتقريب ، فنحصل على مساحة معقولة للجزء المنزوع . وما دام أبو صالح الأرمي قد أهمل مساحة كل كورة فلنستكشف بأن نذكر أنه كان بمصر ١٢٢٨ ناحية و ٨٣٤ قرية . وأن خراجها قد بلغ ٣٠٦١٠٠٠ ديناراً<sup>(١)</sup> .

على أن أغلب مؤرخي مصر الإسلامية قد اتفقوا على أن سياسة الفاطميين كانت ترمي إلى العناية بالفلاحين وعدم إرهاقهم ومعاملتهم معاملة تنطوي على العطف والرعاية ، ولا سيما في عهد المعز والعزير . على أنه لما بدأ أمر الخلفاء يضعف وبدأ نجم الوزراء يعلو وسلطانهم يمتد ، خرج أمر الرعية من يد الخلفاء فتصرف الوزراء حسب أهوائهم .

وإمل اليازوري هو الوحيد الذي استطاع أن يصلح ما أفسده من سبقه من الوزراء . فقد رأى أن يبيع قمح الحكومة بسعر معتدل دون أن يفتن ارتفاع الأسعار كما كان يفعل الوزراء من قبل . وكان من أثر هذه السياسة أن خسرت الحكومة مبالغ كبيرة من المال ، وخلت مخازنها من القمح الاحتياطي الذي كان ضرورياً في عهود الشدة التي جاءت بعد ذلك . ثم اتهم اليازوري فرصة زيادة المحصول في إحدى السنين ، فخال دون إرهاق المزارعين والتجار والفلاحين ، فتمهم من شراء المحاصيل بأسعار منخفضة في الوقت الذي كان الفلاح يعلن عن حاجته إلى المال . ثم أقام مخازن كبيرة للقمح في مدينة القسوطاط ليحول دون انتشار خطر المجاعة .

وقد أمدنا المقريزي<sup>(٢)</sup> ببيان واف يشتمل على ما كان يجني بالدنانير من عوائد الأرض ، وكل صنف من أصناف الصناعات ، وما تحصله الدولة من الرسوم الجمركية ومستخرجات المعادن ، ومن الزكاة وجزية الروموس ، وما يتحصل من دار الضرب ، وما يدخل بيت المال من التراكات التي لا وارث لها .

ومما ذكره المقريزي وغيره من المؤرخين يتبين لنا مقدار خراج مصر في العصور المختلفة .

(١) انظر كتابي النظم الإسلامية ( الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٢ ) ص ٢٦٥ .

(٢) خطط ج ١ ص ١٠٣ — ١١١

مقدار الخراج بالدينار	الخلافة	الحاكم
١٢ر٠٠٠ر٠٠٠	عمر بن الخطاب	عمرو بن العاص
١٤ر٠٠٠ر٠٠٠	عثمان بن عفان	عبد الله بن سعد بن أبي سرح
١٢ر٠٠٠ر٠٠٠	سليمان بن عبد الملك	أسامة بن زيد
٢ر٧٢٣ر٨٣٩	هشام » »	عبيد الله بن الحبصاب
٤ر٢٥٧ر٠٠٠		موسى بن عيسى الهاشمي
٨٠٠ر٠٠٠		أحمد بن محمد بن المدبر
٤ر٨٠٠ر٠٠٠		أحمد بن طولون
٤ر١٠٠ر٠٠٠		خمارويه بن أحمد بن طولون
٢ر٠٠٠ر٠٠٠		محمد بن طنج الإخشيد
٣ر٢٧٠ر٠٠٠		كافور الإخشيد
٣ر٤٠٠ر٠٠٠	المعسر	جوهر الصقلي
٣ر٠٠٠ر٠٠٠	العزیز	وزارة يعقوب بن كلس
٣ر٤٠٠ر٠٠٠	الحاكم	—
٢ر٠٠٠ر٠٠٠ } أمتها مليون من الشام	المستنصر	وزارة اليازوري
٣ر١٠٠ر٠٠٠		بدر الجمالي في سنة ٤٨٧ هـ
٥ر٠٠٠ر٠٠٠	المستعلي	الأفضل بن بدر الجمالي
٤ر٦٥٣ر٠٢٩	—	صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٥٨ هـ
(١) ١٢ر٠٠٠ر٠٠٠	—	الظاهر بيبرس

(١) انفراد ابن لياس ( ج ٣ ص ٢٦٦ ) بإيراد هذا الرقم .

## ٨ - النظام المالى فى الأندلس :

وضع الامويون أساس النظام المالى فى الأندلس . وكان يتألف من الخزانة العامة ، وإدارة بيت المال ، وإدارة خاصة الأمير أو الخليفة .

وكان يشرف على الخزانة العامة أحد كبار الموظفين ، ويسمى « خازن المال » . ومقر هذه الخزانة القصر . وتودع فيها الاموال التى نجحى من المدن والقرى . ومن أهم هذه الاموال التركات التى يموت أصحابها دون أن يتركوا وارثاً ، والضرائب المفروضة على الاسواق ، والرسوم الجمركية التى تفرض على السفن ، والحراج ، والجزية ، والأعشار .

أما موارد بيت المال ، كما كان يسمى فى الأندلس ، فقد اقتصر على ما يرد عليه من الاحباس ( الأوقاف ) . وكان مقر هذا الديوان المسجد الكبير بقرطبة ، ويقوم هذا الديوان على صيانة المنشآت الدينية ودفع رواتب موظفى المساجد ، وتوزيع الصدقات ، ويشرف عليها قاضى القضاة ونوابه فى الأقاليم برعاية الخليفة . ويشبه هذا الديوان من بعض الوجوه وزارة الاحباس ووزارة الشؤون الاجتماعية الآن .

وأما موارد الأمير أو الخليفة الخاصة ، فكان يشرف عليها موظف يعرف « بصاحب الدية » ، ويشرف هذا الموظف على أرض الأمير أو الخليفة ، ويقوم بزراعتها جماعة من المزارعين ، على أن يستولوا على جزء قليل من غلاتها<sup>(١)</sup> .

وقد استمر هذا النظام فى الأندلس حتى استولى عليها المرابطون واتبعوا نظاماً يقوم على قواعد الإسلام الأساسية وهى الزكاة . فلما أراد عمال المرابطيين أن يتبعوا النظام السابق رغبة فى جمع أكبر قدر من المال ثار أهالى الأندلس عليهم ، واضطر أبو الطاهر ( أخو السلطان على بن يوسف ) أن يجمع هذه الثورة التى اشتدت حتى جاء على بن يوسف فقمضى عليها . كما كانت هذه الثورات من العوامل الهامة التى جعلت الأندلسيين يرحبون بالحكم الموحدى ليتخلصوا من وطأة الضرائب التى اشتط العمال فى جمعها على أيدي اليهود الذين اشتهروا إذ ذاك فى الشؤون المالية .

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ( الطبعة السابعة ١٩٦٥ ) ج ٣

## ٤ — النظام الحربي

### (١) الجيش في العصر السلجوقي :

استمد العباسيون قوتهم من الجيش الذي نما نموا عظيما على أثر دخول كثير من الناس في الإسلام وانضواهم تحت لوائه . وقد بلغ عدد الجند في عهد العباسيين مئات الألوف . وكان هؤلاء الجند يكونون الجيش النظامي للدولة ، تدفع لهم رواتبهم بانتظام ، ومن ثم قلت أرزاقهم تبعاً لزيادة عددهم . ولما بلغت قوة العباسيين أشدها في بغداد ، أصبح الجندي يتقاضى راتباً شهرياً قدره عشرون درهماً<sup>(١)</sup> . وكان إلى جانب الجند النظاميين طائفة أخرى من الجند المتطوعة من البدو وطبقة الزراع وسكان المدن الذين اشتركوا في الحروب .

وكان تقسيم الجند تابعاً للجنسية أفراده . فمنهم الحربية وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرمح ، وهؤلاء من جند العرب ، والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين . وفي العصر العباسي الثاني دخل في الجيش عنصر جديد أصبح أشد خطراً من الفرس والخراسانيين ، هو عنصر الأتراك ويكونون القسم الرابع من الجيش .

وكان الجيش العباسي يتألف من عدة فرق تضم النظامية والمتطوعة . وتتألف هذه الفرق من المشاة أو الحربية ويتسلحون بالرمح والحراب والتروس ، ومن الرماة ويتسلحون بالسيوف والأقواس والتروس والنشاب ويلبسون الخوذ لتقي رؤسهم والتروس لتقي صدورهم ، ولها أجزاء للساغدين والساقين . ولكل فرقة من فرق الجيش فصيلة لقذف النفط يعرف رجالها بالنفاطين ، ويرتدون الملابس التي لا تؤثر فيها النيران لاقتراب الحصون المشتعلة .

وكان الجيش العباسي بوجه عام يتألف من الفرسان والمشاة أو الرماة ، والمنجنيقيين والنشابيين ( وهم الذين يرمون النشاب ) ، والنفاطين ، والزرايين ( وهم الذين يقذفون بالنار الإغريقية التي اقتبسها اليونان من الشرق ) ، والدبابيين والعيارين ، وهم رماة الحجارة من المقاتل ، وقد اشتهروا في الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون ، كما كان الجيش يتألف من المهندسين والأطباء والبيطرة والمرزوقة .

(١) الدرهم يساوي أربعة قروش تقريباً .



وكانت صلاحية الجند للخدمة العسكرية ، وهو ما يعبر عنه اليوم بالقرعة العسكرية أو التجنيد ، تقرر بعد اختبار دقيق يشرف عليه جماعة من كبار القواد . وقد وصف هلال الصابي (١) طريقة هذا الاختبار وتقدير مراتب النجاح أو الرسوب (٢) .

وقد ارتقى نظام الجاسوسية عند العباسيين ، إذ كانوا يستخدمون الرجال والنساء ، الذين كانوا يرحلون إلى البلاد المجاورة متنكرين في أزياء التجار والأطباء وغيرهم لجمع الأخبار ونقلها إلى دولتهم .

ولسكى يحمى العرب أنفسهم من غارات الإغريق أقاموا الحصون على تخوم دولتهم وهي الثغور . ومن هذه الثغور طرسوس ، وأذنة ، والمصيصة ، ومرعش ، وملاطية ، وكانت تقع طوراً في أيدي العرب وطوراً في أيدي الروم .

وقد بلغ الجيش في عهد الدولة الزنكية درجة عالية من الرقي ودقة التنظيم حتى أصبح مثالا يحتذى في البلاد الإسلامية الأخرى . وقد عنى عماد الدين زنكى عناية خاصة بتنظيم الجيش للقضاء على الإمارات المحلية المتنافسة في الموصل والجزيرة والشام وتوحيدها في جبهة إسلامية تستطيع الوقوف في وجه الصليبيين .

لذلك وضع عماد الدين زنكى على رأس ديوان الجيش موظفاً كبيراً عرف باسم « أمير حاجب » كان يلي نائب السلطنة في الرتبة . وكان هذا القائد « ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه ، وتارة بمشاورة السلطان ، وتارة بمراجعة النائب . وكان عليه تقديم من يُعرض ( على السلطان ) ومن يرد (٣) ، وعرض الجند » ، (٤) كما كان ينظر في مخاصمات الجند وما يتعلق بأمر الإقطاعات الخاصة وغير ذلك (٥) . وكان « أمير حاجب » يعتبر أكبر قواد عماد الدين زنكى .

وكان جيش الأيوبيين والمماليك من بعدهم يقوم على التقسيم العشري ، بحيث ينظم أمراء الجند بشكل متدرج ، فيلقب أكبرهم بمقدم ألف ، ويليه أمير أربعين ، ثم أمراء العشرات

(١) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء من ١٣ - ١٤ .

(٢) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي ( الطبعة السابعة ) ج ٣ ص ٢٨٥ .

(٣) يعني ومن ترنض مقابلته .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩ .

(٥) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢١٩ .

فالحضات . وكان هذا التقسيم متبعاً عند السلاجقة قبل استيلائهم على بغداد سنة ٤٤٧ هـ .  
ويظهر أن عماد الدين زنكي اتبع نفس هذا التنظيم الذي يعد استمراراً للنظم السلجوقية من  
جهة وأساساً للنظم المملوكية من جهة أخرى .

وكان جيش عماد الدين زنكي يتألف من الحراسانيين والتركان<sup>(١)</sup> الذين استعان بهم  
في قتال الصليبيين ، ومن الشاميين وخاصة أهل حلب الذين اشتركوا في كثير من المعارك  
ضد الصليبيين في شمالي الشام وقاموا بدور هام في الدفاع عن حلب وأعمالها . كما استعان  
عماد الدين زنكي بأهل حماه الذين اتخذهم حرساً خاصاً له . وهناك فرق أخرى من البدو  
والاكراد التي تألف منها جيش زنكي بقسميه النظامي (أو المرتزقة) والمتطوعة .

كذلك أدخل عماد الدين زنكي نظام التجنيد الإجباري في المناطق المعرضة لخطر  
الصليبيين باعتباره نوعاً من الجهاد . كما اهتم بفرض حصار اقتصادي عند حصار المدن  
ليحول دون وصول المؤن إليها ، واشترك مع جنده في الهجوم لإثارة الحماس في نفوسهم  
ورفع روحهم المعنوية . وتجلت براعة زنكي وقواده في استخدام أساليب القتال كمنصب  
السكاكين<sup>(٢)</sup> وشن الغارات على معسكرات العدو والانسحاب بسرعة لإثارة الخوف  
في نفوس الجند ونشر الفوضى في صفوفهم<sup>(٣)</sup> .

وقد اهتم عماد الدين زنكي بترقية فن حصار المدن الحصينة المنتشرة في الجزيرة والشام ،  
واعتمد على الجواسيس الذين كانوا يدونه بأخبار العدو وتحركات جيوشه حتى يستطيع وضع  
خطة حربية سليمة<sup>(٤)</sup> في مدينة الرها طلب زنكي من أهل الحصن تسليمه فرفضوا ،  
فأمر بضربه بالمنجنيقات وأخذ جنده يوالون هجماتهم بلا انقطاع لقتال الحامية في الوقت  
الذي أخذ النقبابون ينقبون بعض الأماكن التي تحت الأبراج حيث وضعوا الأخشاب وأشعلوا  
فيها النيران ، فسقطت الأبراج واحترق السور وفتح زنكي الطريق أمام الجيش لدخول  
الحصن والاستيلاء عليه<sup>(٥)</sup> .

(١) ابن القلانسي ص ٢٧٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٦٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٤٠ .

(٥) ابن القلانسي ص ٢٧٩ .

(ب) أسلحة الجبهتهم :

وقد كشف البحث الحديث خطأ النظرية التي ذهب أصحابها إلى أن المواد المفرقة من اختراع اليونان والرومان الذين عرفوا المواد الملتبته التي استخدمت قديماً في الحروب . ومن بينها النار الاغريقية التي لاعلاقة لها بالمواد المفرقة المتصلة بالنقط ، والتي ساعدت على تطوير مجرى الحرب وعازلت على القيام بكثير من الاعمال والمشاريع العمرانية ، ككشفي الطرق بين الجبال وما إليها .

ونقرأ كثيراً من أعمال النفط و فرق النفاطين التي اشتهرت في الفتوح الاسلامية . ولا سيما في العصر العباسي وما كان لها من أثر بعيد في حصار المدن وتمهيد السبيل لفتحها بعد إحراق بيوتها الخشبية ، كما حدث في حصار حصن هرقله ( بكسر الهاء وفتح الراء وسكون القاف ) في عهد الرشيد . وكان لسكل فرقة من فرق الجيش فصيلة من النفاطين ( بفتح النون والفاء مع التشديد ) لفضف النفط ، يرتدى رجالها الملابس التي لا تؤثر فيها النيران عند اقتحامهم الحصون المشتعلة .

وفي القرن السابع الهجري ( الثالث عشر الميلادي ) أخذ الأوربيون عن المسلمين المواد المفرقة المشتعلة على ملح البارود والكبريت والفحم . وقد دحض المستشرق الألماني جرجي يعقوب الرأي القائل أن القديسة « بربرة » اخترعت هذا المسحوق حين أغار الوندال على إفريقية واستخدمته للمرة الأولى ، حتى أصبحت هذه القديسة شعاراً لفرق المدفعية عند كثير من الأمم حتى اليوم .

وقد عرف تلج الصين ( نترات البوتاسيوم أو ملح البارود ) في بلاد الصين في النصف الأول من القرن السادس الهجري ( الثاني عشر الميلادي ) حيث نجد استخدام الصينيين المواد المفرقة للمرة الأولى عند هجوم أجتاي التتاري على إحدى المدن الصينية سنة ٧٨٢ هـ ( ١٣٣٢ م ) . وهذه المواد المفرقة عبارة عن أسهم نارية ومواد مدمرة كانوا يلقونها على العدو إذا حاصروه في زاوية لا يمكنه الإفلات منها . وقد أخذ المسلمون نترات البوتاسيوم عن الصين وأطلقوا عليها اسم تلج الصين الذي استعمل كعنصر أساسي في صناعة الأسلحة النارية التي تعرف باسم « طوربيد » . فوصفها حسن الرماح ( بفتح الراء والميم مع التشديد ) في كتابه عن الرماية بأنها « بيضة تخرج وتتحرق » . وقد عرف المسلمون النار الاغريقية كما عرفوا غيرها من أسلحة الحرب التي أخذها عنهم الأوربيون .

(ج) إمرة الجيش :

وقد عدد ابن طباطبا<sup>(١)</sup> الصفات التي يجب أن تتوفر في قائد الجيش فقال : « قال بعض حكماء الترك : ينبغي أن يكون في قائد الجيش عشر خصال من أخلاق الحيوان : جرأة الأسد ، وحيلة ( أي قوة تحمله ) الخنزير ، وروغان الثعلب ، وصبر الكلب على الجراح ، وغارة الذئب ، وحراسة الكركي ، وسخاء الديك ، وشفقة الدجاجة على الفراريج ، وحذر الغراب ، وسمن تغزو ، وهي دابة تكون بحراسان تسمن على السفر والسكد » .

وكانت طاعة القائد واجبة كطاعة الخليفة نفسه ، لأنه يعتبر نائبه في القيادة وفي إمامة الصلاة . وإذا اجتمع أكثر من قائد في مكان واحد ، عين الخليفة أحدهم للصلاة بالناس ، فيصبح هذا القائد بمثابة « قائد القواد » . وإذا انتهى الفتح ووقف القتال أصبحت مهمة هؤلاء القواد مقصورة على النظر في أمر الجند وتدريبهم وتحسين معداتهم كما هو الحال في عصرنا .

ويرجع إلى قواد العرب تنظيم طريقة القتال ؛ فقد كانوا في الجاهلية يتبعون طريقة الكرك والفر في القتال ، فيسكرون على العدو ، وإذا ما آسوا في أنفسهم ضعفاً فروا ، ثم عادوا فكروا ، وهكذا يسرون على غير ضابط أو نظام .

غير أن قواد المسلمين لم يرتاحوا لهذه الطريقة ، ووجدوا أنها لا تكفل لهم النجاح ولا تصلح لقتال الجنود المنظمة ، ونزلت الآية الكريمة ( إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ )<sup>(٢)</sup> . وأخذ المسلمون في أيام النبي يقفون للقتال صفوفًا كما يفعلون في الصلاة ، ثم يسرون للملاقاة العدو متضامين ، وليس لأحد منهم أن يتقدم عن الصف أو يتأخر عنه .

وفي عهد الأمويين والعباسيين اختلط العرب بالفرس وأخذوا عنهم نظام التعبئة . أي تقسيم الجيش إلى كتائب ، تكون إحداها في الوسط تحت إمرة القائد العام وتسمى « قلب الجيش » ، وتوضع واحدة إلى يمينها وتسمى « الميمنة » ، وأخرى إلى يسارها وتسمى « الميسرة » ، ثم تكون أمامها كتيبة (من الفرسان في الغالب) وتسمى « المقدمة » ،

(١) الفخرى في الآداب السلطانية ص ٥٧ .

(٢) سورة الصف ٦١ : ٤ .

وخلفها كتيبة تسمى « ساقفة الجيش » ولذلك تركوا نظام الصفوف . وبعد تقدمهم في المدينة تفننوا في طرق تعبئة الجيوش .

وقد عدل العرب عن اصطحاب نسائهم معهم إلى ميادين القتال ، بعد أن كن يصحبن الجيش ويخصص لهن أماكن في المدن الحصينة . وكان القواد يحافظون على حسن سلوك الجنود ويشددون العقاب على كل من يعيث بالنظام أو يتعرض لأهالي البلاد المفتوحة بسوء . وبما ساعد على حسن سلوكهم تحريم الخمر ، كما كان الجندي لا يمكث بعيداً عن أسرته أكثر من أربعة أشهر وكان الجندي يكبرون ويتلون الآيات القرآنية في أثناء سيرهم للغزو والجهاد وفي أثناء المعارك الحربية ، كما كانوا يدقون الطبول ويقرعون الصنوج لبث الحماس في نفوسهم . وقد انصف الجندي المسلم بالتفاني في القتال لاعتقاده بأن من يموت في سبيل الله دخل الجنة .

وبما ذكره ابن الأثير<sup>(١)</sup> عن سير الخليفة المسترشد العباسي ( ٥١٢ — ٥٢٩ ) حرب ديبس بن صدقة بن مزيد صاحب الحلة الذي هدد الخليفة بتخريب بغداد بعد أن كحل السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه أخاه ، نستطيع أن نقبين بعض الخطط التي كانت تتبع في ندب الخليفة الأمير آقسنقر لحرب ديبس ، واستعد الخليفة لحربه واستنفر الشعب للقتال ووزع عليهم الأموال والسلاح . وفي شهر ذي الحجة سنة ٥١٦ هـ نادى « أهل بغداد النفير النفير الغزاة الغزاة ، وكثير الضجيج من الناس وخرج منهم عالم كثير لا يحصون كثرة ، وبرز الخليفة . . . وعبر دجلة ، وعليه قباء أسود وعمامة سوداء وطرحه ، وعلى كتفه البردة وفي يده القضيبة وفي وسطه منطقة حديد صيني ( أي من حديد صيني ) ، ونزل الخيام ، ومعه وزيره نظام الدين أحمد بن نظام الملك ونقيب الطالبين ونقيب النقباء علي بن طواد وشيخ الشيوخ صدر الدين بن إسماعيل وغيرهم من الأعيان . وكان البرسقي قد نزل بقربة جهار طاق ومعه عسكره . فلما بلغهم خروج الخليفة من بغداد عاد إلى خدمته فلما رأوا الشمس ( أي الشمسية ) ، ترجلوا جميعهم وقبلوا الأرض بالبعد منه ( أي على بعد منه ) . ودخلت هذه السنة ، فدخل الخليفة في مستهل المحرم بالحديثة بهر الملك ، واستدعى ( آقسنقر ) البرسقي والأمراء واستحلهم على المناصحة في الحرب ، ثم ساروا إلى النيل<sup>(٢)</sup>

(١) ج ١٠ ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

(٢) يقصد نهر دجلة الذي كان يطلق عليه النيل أحيانا كما كان يسمى نهر النيجر النيل أيضاً وهذه الإطلاقات نشأت من عظم نهر النيل وشهرته حتى أصبح علماء على كثير من الأنهار .

ونزلوا بالمباركة ، وعبي (عباً) البرسقي أصحابه ، ووقف الخليفة من وراء الجميع في خاصته ، وجعل ديبس أصحابه صفاً واحداً ميمنة وميسرة وقلباً ، وجعل الرجال بين يدي الخيالة بالسلاح . وكان قد وعد أصحابه بنهب بغداد وسبي النساء . فلما تراءت الفئتان بادر أصحاب ديبس وبين أيديهم الإمام بضر بن بالدقوف والعبيد بالملاهي . ولم ير في عسكر الخليفة غير قارىء ومسبح . فقامت الحرب على ساق . فجعل عنتر بن أبي العسكر في طائفة من عسكر ديبس على ميمنة البرسقي ، فتراجعت على أعقابها . . . وعاد عنتر وحمل حملة ثانية على هذه الميمنة ، فكان حالها في الرجوع على أعقابها كحالها الأول . فلما رأى عسكر واسط ذلك ومقدمهم آقسنقر حمل وهم معه على عنتر ومن معه وأتوهم فبقى عنتر في الوسط وعماد الدين من ورائه والأمراء السكجية بين يديه ، فأسر عنتر وأسر معه بريك بن زائدة وجمع من معهما ولم يفلت أحد . وكان (آقسنقر) البرسقي واقفاً على نشر (مرافع عال) من الأرض ، وكان الأمير آق بوري في السكين في خمسمائة فارس . فلما اختلط الناس خرج السكين على عسكر ديبس ، فانهزموا جميعهم وألقوا نفوسهم في الماء ، ففرق كثير منهم وقتل كثير . ولما رأى الخليفة اشتداد الحرب ، جرد سيفه وكبر وتقدم إلى الحرب . فلما انهزم عسكر ديبس وحملت الأسرى بين يديه ، أمر الخليفة أن تضرب أعناقهم ضرباً . وكان عسكر ديبس عشرة آلاف فارس واثني عشر ألف راجل ، وعسكر البرسقي ثمانية آلاف فارس وخمسة آلاف راجل . ولم يقتل من أصحاب الخليفة غير عشرين فارساً . وجعل نساء ديبس وسراريه تحت الأسرى سوى بنت إبلغازي وبنت عميد الدولة ابن جهير ، فإنه كان تركهما في المشهد . وعاد الخليفة إلى بغداد فدخلها يوم عاشوراء من هذه السنة . . . وأما ديبس بن صدقة فإنه لما انهزم نجحاً بفرسه وسلاحه وأدركته الخيل فقاتها وعبر الفرات . . . واختفى خبره بعد ذلك وأرجف عليه بالقتل ثم ظهر أمره . . . »

### ( ٥ ) الجيش في مصر :

وقد وجه الفاطميون عنايتهم إلى إعداد جيش قوى يكون عدتهم وقت الحروب . ويتكون هذا الجيش من الأمراء وطوائف الجند . ولكل من هاتين الطائفتين مرتبة لا تتجاوزها إلى غيرها ، فالأمراء كانوا يطوقون بأطواق الذهب ، والبعض الآخر يركب في المواكب بالقضب الفضية . أما طوائف الجند فتتكون من عدة عناصر ، كالمغاربة والأندلس والأكراد والغز والديلم والسودان . ولكل طائفة من هؤلاء قائد يشرف عليهم ويقوم

بترتيبهم في مراقفهم . وينسب بعض هذه الطوائف إلى الخلفاء كالحافظية نسبة إلى الخليفة الحافظ الفاطمي والآمرية نسبة إلى الخليفة الآمر الفاطمي ، والبعض الآخر ينسب إلى الوزراء كالجيوشية نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالي ، والافضلية نسبة إلى الأفضل ابن بدر الجمالي (١) .

وفي عهد الأيوبيين اتخذ السلطان صلاح الدين الأيوبي جيشاً من الأكراد ظل عدة الدولة الأيوبية ، حتى جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فاقتنى عدداً كبيراً من المماليك كان معظمهم من الأتراك . ويرجع السبب في ذلك إلى المناقصة التي قامت بينه وبين أخيه العادل الذي كان يرى أنه أحق منه بالملك ، فقبض عليه العادل وحبس به بقلعة الكرك ، ففترق عنه جيشه من الأكراد ، ولم يبق معه غير مماليكه وطائفة من خواصه ، وأقاموا بالكرك حتى أطلق سراحه . فلما تولى نجم الدين أيوب سلطنة مصر بعد أخيه العادل ، حفظ للمماليك شجاعتهم وولاهم حين تفرق عنه الأكراد ، فاستكثر من شرائهم ، وبنى لهم بجزيرة الروضة قلعة جهزها بسكثير من الأسلحة والآلات الحربية والافوات ، وأنشأ بها جامعاً وستين برجاً « ولما تم بناء هذه القلعة انتقل إليها الملك الصالح بأسرته واتخذها داراً للملكة وأسكن فيها مماليكه البحرية .

وقد ظلت قلعة الروضة عامرة بالمماليك حتى زالت الدولة الأيوبية وولى المعز أيبك سلطنة مصر ، فأمر بهدمها ونقل جميع من بها إلى قلعة الجبل . ولما ولى الظاهر بيبرس أحد سلاطين المماليك البحرية عرش مصر أعاد قلعة الروضة ، إلى ما كانت عليه في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وأسكن الأمراء في أبراجها .

وبعد بيبرس أول من نظم جيوش المماليك تنظيمياً تاماً ، ولا عجب فقد كان قائداً ممتازاً ، ظهرت كفاءته في موقعة المصورة التي دارت بينه وبين الصليبيين وكان سلفه عز الدين أيبك الذي تزوج من شجر الدر رئيساً لقواد المماليك . وكان جيش المماليك يتألف من ثلاث طوائف : جنود نظامية تنفق عليهم الدولة ، ومماليك السلطان وتنفق عليهم الخاصة السلطانية ويؤلفون حرس السلطان ، وكانوا ذوي ثروة كبيرة ونفوذ عظيم بحيث كانوا يهددون السلطان بالخلع إذا شاموا . أما الطائفة الثالثة فهم مماليك الأمراء وكانوا يحرسونهم . وقد حافظ المماليك على صيغتهم الحربية حتى بعد ضعف نفوذهم باستيلاء السلطان سليم الأول

(١) الفقهندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٢ .

على مصر سنة ١٥١٧ م . وكانوا ينظمون جيوتهم على هيئة مربعات ، يقف فرسانهم في وسطها ثم يدور القتال بغير نظام ، لذلك لم يكن من الصعب لإلحاق الهزيمة بهم على الرغم مما امتازوا به من الشجاعة والبسالة .

### ( هـ ) الجيش في المغرب :

عرفت قبيلة لمتونة المرابطية بشدة البأس وبراعة الرمي وقد أدخل يوسف بن تاشفين على الجيش المرابطي تعديلات جوهرية حتى أصبح من أعظم جيوش العالم عدداً وسلاحاً . وكان باعتباره أمير المسلمين هو القائد الأعلى للجيش . وعمل المرابطون على الاحتفاظ بخطتهم الموروثة في تنظيم المعارك (١) .

وقد اشتهر اللتونيون بقوة البأس في الحروب ، لا يفرون أمام العدو مهما تفوق عليهم في العدد ، كما اشتهروا بركوب الخيل . لذلك كان معظم جيشهم من الفرسان . وكان أشجع جندهم من المشاة يقفون في الصف الأول متقلدين الحراب الطويلة التي كانوا يقرسونها في الأرض . وكانت قوة الفرسان لا تقل عن مائة ألف مقاتل من المدربين على الحروب والمزودين بأحسن السلاح ، ويتألف الجيش المرابطي من فرق يحمل كل منها علماً خاصاً عليه نقوش تميزها عن سائر فرق الجيش ، وعلى كل من هذه الفرق قائد خاص . ويسير الجند إلى حومة الوغى بين قرع الطبول وأصوات الأبواق ، وقد رتبت صفوفه حسب القبائل المغربية على اختلافها .

وكان ترتيب الجند المرابطي يقوم على نظام خماسي ، هو المقدمة ، والمؤخرة ، والميسرة ، والميمينية ( ويؤلفان جناحي الجيش ) ، والقلب : فالمقدمة تتألف من الجند المشاة ، والجناحان من وحدات الفرسان الخفيفة رحمة القسي وحملة النبال . ويتألف القلب من وحدات الفرسان الثقيلة ، وإليها يرجع الفضل غالباً في إحراز النصر في المعارك الحاسمة . أما القوى الخفيفة أو الاحتياطية فكان يقودها يوسف بن تاشفين باعتباره القائد الأعلى للجيش المرابطي . وتتألف من صفوفه الجند وقوى الحرس على اختلافها (٢) .

وتنتمي كل فرقة من الجيش المرابطي إلى إقليم أو مدينة : فالاندلسيون مثلاً يؤلفون قسماً خاصاً من الجيش ويحملون أعلام إشبيلية وقرطبة وجيان ومالقة وغرناطة وغيرها .

(١) أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ( القاهرة ١٩٥٨ ) ص ٤٧٨ .

(٢) أشباح ص ٤٧٩ .



وتألف قوة الحرس الخاص من أكثر الجند شجاعة وتمتاز بحسن القوام وقوة البدن والشجاعة والبراعة . وقد استعان يوسف بن تاشفين بتجار الرقيق في إقليم غانة ، واختار أمهرهم ودرهمهم على جميع الفنون الحربية ، وزودهم بالسلاح والخيل ، وأنشأ منهم حرسه الخاص ، وكان يتألف من ألفي جندي .

وكان جند المرابطين يحاربون بنفس الروح الإسلامية التي تحلى بها الجند في صدر الإسلام ، يحاربون للجهاد في سبيل الله وليظفروا بإحدى الحسينيين ، النصر أو الاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة الدين . وكان حب المرابطين للقتال في سبيل الله يظهر ظهوراً واضحاً في حروبهم ضد النصارى من الأيبان . ومن تقاليدهم الصلاة قبل بدء القتال وإذاعة أبناء النصر من أعلى المسآذن وتلاوة البيانات الخاصة بالحروب من فوق المنابر في كافة أرجاء الدولة المرابطية .

وكانت أسلحة الجيش المرابطي في عهد يوسف بن تاشفين خفيفة تمثل البداوة ، وتألف من درق اللمط وسيوف الهند ومزارق الزاف والقنا<sup>(١)</sup> الطوال . ولما طال مقام المرابطين في الأندلس ، اقتبسوا كثيراً من أسلحة ملوك الطوائف والأيبان ، فاعتمدوا على الخيل مع اعتمادهم على الجمال التي يطلق عليها سفن الصحراء ، وتسليحوا بالزرد والدروع والسيوف . ويبدو أن أسلحة المسلمين في الأندلس والمعارك التي خاضوها كانت في مستهل الحكم المرابطي في هذه البلاد على ما ذكره أبو بكر الطرطوشي<sup>(٢)</sup> حيث يقول :

« فأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه في بلادنا ( الأندلس ) ، وهو تدبير تفعله في لقاء عدونا ، أن تقدم الرجلة بالدرق السكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة ، فيصفون صفوفهم ويركزون مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم في الأرض ، وصدورهم شارعة إلى عدوهم وهم جاثمون في الأرض . وكل رجل منهم قد ألقم الأرض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه ، وخلفهم الرماة المختارون التي تمرق سهامهم من الدروع ، والخيل خلف الرماة . فإذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجلة عن هيئاتهم ، ولا يقوم رجل منهم على قدميه . فإذا قرب العدو رشقهم الرماة بالثشاب<sup>(٣)</sup> .

(١) القنا جمع قناة وهي نوع من الرماح .

(٢) سراج الملوك ص ١٧٩ .

(٣) يفتح النون والشين مع التشديد .

والرجالة بالمزاريق ، وصدور الرماح نلقاهم ، فأخذوا يمينه ويسرة ، فتخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة فتتال منهم ما شاء الله .

ولننتقل الآن إلى الكلام على الجيش في عهد للموحدين :

كان النظام الذى وضعه المهدي محمد بن تومرت نظاماً عسكرياً بحتاً ، وكان ذلك أمراً ضرورياً في الجهاد ؛ فوضع لاتباعه نظاماً يسمى « الطبقات » تتميز بمقتضاه كل طبقة عن الأخرى في وقت السلم والحرب . وفي مقدمة هذه الطبقات أهل العشرة وهم صحابة ابن تومرت ووزراؤه الذين منهم عبد المؤمن بن على الذى ولى الأمر بعد ابن تومرت . وكانت الطبقات كلها تشترك في الحرب عند الضرورة . يدل على هذا موقعة البحيرة المشهورة التى هزم فيها المرابطون الموحدين هزيمة منكرة وقد فيها ابن تومرت جل صحابته وتوفى بعدها بقليل . ولم يتخذ الجيش الموحدى طابعه الكامل إلا في عهد عبد المؤمن ابن على الذى يعد من أعظم قواد العصور الوسطى (١) .

ولمآلت الخلافة إلى عبد المؤمن ألقى نظام الطبقات الذى لم يبق منه سوى مجلس الخسين والسبعين . أما النظام الحربى فقد بقى على ما كان عليه في عهد ابن تومرت .

وكان المرابطون — كما ذكرنا — يعتمدون على الفرسان . أما الموحدون فقد كانوا أهل جبال . لذلك كانوا يعتمدون في حركاتهم الحربية على أنفسهم لا على دوابهم . وقد اقتبس عبد المؤمن تنظيم الصفوف من الطريقة الجرمانية ، ولعله أخذها عن جند الأسيان أو الزمايين في صقلية في حرب تونس والمهدية . فقد جعل كل صف يتألف من عشرة من الجند ، ولكل وحدة قائدها الخاص . وكان عبد المؤمن يعنى عناية خاصة بتدريب الجند والقواد الذين كانوا يتميزون بخفة الحركة والبراعة الحربية . ويختار المشاة في الجيش الموحدى من أبناء رجال القبائل الجبلية ولا سيما قبائل مصمودة ، الذين كانوا يعملون حراباً يبلغ طول كل منها اثني عشر قدماً ، وتسمى « الأراس » ، يذفون بها في وجوه الأعداء في قوة وسرعة (٢) .

وكان الجيش الموحدى ينقسم بوجه عام قسمين : الأول هو الجيش النظامى ويختار من أبناء القبائل المغربية ، والثانى ويختار من رجال الحرس وكانوا من أهل الجنوب ،

(١) أشباح : تاريخ المرابطين والموحدين ص ٣٠٥ .

(٢) الحل الموشية ص ١١٥ — ١١٦ .

ويقوم أمير المؤمنين بنفسه باختيارهم من أشد الشبان قوة وأعظمهم إخلاصاً . ولا يشترط فيهم أن يكونوا من المغاربة ، بدليل وجود كثيرين من مسلمي الأندلس والصقالبة والسودانيين . وكان الجندي يتدرب تدريباً كافياً ويحصل على أكبر نصيب من المراتن الذي يعده للقتال ويسكفل له البراعة في وضع الخطط الحربية .

وكانت الدولة الموحدية تزود الجند النظاميين بالسلح والغذاء والملابس ، وتقدم القبائل كل ما يطلبه أمير المؤمنين من شبان القبائل للاشتراك في المعارك أو الجهاد ضد نصارى الأندلس . وكان كثير من المتطوعين يقدمون أنفسهم للجهاد في سبيل الله ، بخلاف الجند الذين كانت القبائل المغربية تقدمهم للخدمة العسكرية الإجبارية . وكذلك كانت القبائل تسهم في تقديم الذخائر والمؤن عند نشوب الحروب .

وإذا عزم أمير المؤمنين على خوض غمار الحرب ضد أعدائه ، عقد مجلساً حربياً يعرض أمام أعضائه العوامل التي دعت إلى القتال ، ويبحث مع قواد جيشه خطة المعركة وما يتصل بها من الهجوم أو الارتداد والخدع . وكانت الخدع البارعة من أهم فنون الحرب عند الموحدين ، كأن يتصنعوا الفرار أو يتظاهروا بالانهزام أو نحو ذلك . وكان للموحدين عيون يثبونها للوقوف على مواطن القوة أو الضعف عند العدو ، ثم يضعون خططهم على ضوء ما يتوافر لديهم من المعلومات الصحيحة . وإذا ما استقر الرأي على خوض غمار المعركة عرض أمير المؤمنين الجيش واشترك في ترتيبه ، ثم صرب قلبه الحراء ، يخفق عليها عليه الأبيض ، وارندى ملابس القتال ، وامتطى فرسه المطهمة وقبض على سيفه المسلول بإحدى يديه ، وحمل المصحف الشريف في يده الأخرى . وكان ذلك إيذاناً بنشوب المعركة التي تقوم عند الموحدين على فكرة التربع (١) ، وتوضع كل فرقة من الجيش تحت إمرة قائد خاص تواف فرقة لإحدى الزوايا الأربع التي يتألف منها المربع . وتتألف قوة الجيش الرئيسية من المشاة النظاميين الذين يقفون في مقدمة الجيش ، ويتساع جندها بحراب طويلة . وبلى هؤلاء صفوف من الجند تسلحوا بالسيف وعليهم الدروع ، ثم يليهم حملة النبال والقسى .

وقد تفوق الموحدون على المرابطين في فن الحصار ، حتى إن أكبر المدن منعة كانت تتحطم أمام سلاح الحصار الموحدى . وكان الموحدون يستعملون أسلحة متنوعة في الحصار :

(١) الحلال اللوشية ص ٩٨ .

فأحيانا يستعملون الحراقات ، أو يقومون بقذف كميات ضخمة من الأحجار ، أو يطلقون المياه الغزيرة في قوة وعنف . وكان عبد المؤمن نفسه أستاذاً في فن الحصار في حصار فاس التي قاومت أسوارها المنيعة مدة طويلة ، نرى عبد المؤمن يستعين بمياه النهر التي أمر بحفظها في خزانات ضخمة ، ثم يطلقها دفعة واحدة على الأسوار . وكذلك نراه يحرق أبراج مدينة وهران بالنيران المحرقة المصحوبة بقذف الآلات ، ويفتح مدينة المهديّة بحيلة ماثلة ، وذلك بتحطيم جدرانها القوية التي يسير عليها فارسان متحاذيان وبمثل هذه المهارة استولى عبد المؤمن على مدينة مراكش التي لم تقف أسوارها المنيعة عقبة في سبيل فتحها . وعلى هذا النحو سقط في أيدي الموحدين كثير من القلاع في أضيقي المفاوز الجبلية في المغرب والأندلس ، وذلك بفضل آلات الحصار الضخمة التي كانت تقذف كتلا هائلة من الحجارة والسكرات الملتهبة من الحديد .

### (و) إمرة الأسطول :

كانت السفن الإسلامية تبنى في معظم المرافئ البحرية السورية والمصرية ، كما كانت هذه السفن أضخم من السفن البيزنطية ، كما كثر عدد سفن البحرية التجارية ولقيت التجارة البحرية كل تشجيع . وكان بكل مرفأ منارة تدعى « الخشب » . ويظهر أن الأسطول لم يكن مؤلفاً من السفن التي ابتدتها الحكومة للدوام الحربية لحشب ، بل كان لزماً على كل مقاطعة أو ثغر أن تقوم بتقديم عدد معين من السفن إذا طلب منها . وذلك في أيام الفاطميين في مصر . وعلى هذا النحو سار صلاح الدين الأيوبي . ولكل سفينة حربية قائد ( أو مقدم ) يتولى القيادة في سفينته ، ويقوم بتدريب الجند وتجهيز الحملات ، في الوقت الذي نرى موظف أخرى يدعى « الرئيس » يتولى الإشراف على الملاحة ، ويدعى قائد الأسطول أمير الماء أو أمير البحر ومنه اشتق لفظ Amiral Admiral

ويدين العرب للبيزنطيين بفضل تعليمهم الفنون البحرية . ولكن العرب الذين تعلموا هذه الفنون من البيزنطيين أصبحوا أساندة أوروبا ، لما فطروا عليه من الشجاعة وحب المغامرة . يدلنا على ذلك أن بعض الإصطلاحات البحرية المستعملة في أوروبا لا تزال تحتفظ بعربييتها إلى اليوم . وكان أثر العرب في شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط بوجه خاص ، أبعد مدى من أثر غيرهم من شعوب أوروبا . ويقول فون كريمر : وبما يوضح لنا أن الأسطول العربي القديم كان نموذجاً لأساطيل الأقطار المسيحية ، أن كثيراً من الإصطلاحات العربية البحرية لا تزال شائعة على ألسنة البحارة في جنوبي أوروبا . نذكر

من تلك الإصطلاحات كلمة Cable المأخوذة عن لفظ « حبل » العربي ، وكلمة Arsenal ( وبالإيطالية Darsonal ) المأخوذة عن لفظ « دار الصناعة » بالعربية ، وكذا كلمة Corvette المأخوذة عن لفظ « غراب » العربية .

### ( ز ) البحرية في مصر

اشتهرت مصر بصناعة المراكب النيلية التي كانت تسير في النيل تحمل حاصلات البلاد بين الوجهين البحري والقبلي ، كما اشتهرت أيضا بصناعة السفن التي تألف منها الاسطول المصرى . وكانت هذه السفن تشحن بالأسلحة والمقاتلة لغزو بلاد الدولة الرومانية الشرقية عن طريق الإسكندرية ودمياط وتينيس<sup>(١)</sup> والفرما<sup>(٢)</sup> .

وقد اشتهر أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية ( ٢٥٤ — ٢٩٢ هـ ) بإنشاء المراكب الحربية ، وجعل لها حول جزيرة الروضة أحواضا كانت تعرف باسم « صناعة الجزيرة » . وظلت صناعة السفن بجزيرة الروضة حتى نقلها محمد بن طنجج الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية ( ٣٢٣ — ٣٥٨ هـ ) إلى فسطاط مصر في المصنع المعروف باسم « صناعة السفن » ، فعدت المراكب الحربية والنيلية تصنع في « صناعة مصر » تارة وفي « صناعة الجزيرة » تارة أخرى .

وقد اهتم الفاطميون بعد قيام دولتهم في إفريقيا بسيادة البحر الأبيض المتوسط ، لأنهم كانوا يقدرون أثر العامل البحري في قصة النضال بين الإسلام والمسيحية ، لذلك عنوا بإنشاء الموانئ البحرية المحصنة ، فأسسوا مدينة المهديّة واتخذوها قاعدة لأسطولهم في البحر الأبيض المتوسط ، كما حرصوا على الاستيلاء على بعض القواعد البحرية الهامة لتثبيت سيادتهم على البحار ، فاستولوا على صقلية واتخذوا من موانئها قواعد يغيرون منها على موانئ حوض البحر الأبيض المتوسط . وقد أغار الفاطميون على بلاد الروم سنة ٣١٦ هـ ، وكانت هذه الحملة خاتمة لسلسلة من الحملات البحرية على هذه البلاد حيث أغارت على مبارديا وقلورية ( Calabria ) واستولت على مدينة تارانت ، وحاصرت نابلي

(١) تينيس ( بكسرتين وتشديد النون ) : اسم مدينة قديمة كانت قائمة في جزيرة صغيرة في الجهة الشمالية الشرقية من بحيرة المنزلة .

(٢) الفرما ( بالتعريك ) من حصون مصر القديمة في الجهة الشرقية من بحيرة المنزلة بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط .

وتمت شطر جنوة سنة ٣٢٣ هـ وأغارت على جزيرة سرديانية ودمرت أساطيل الفرنجة ، ثم استولت على جزيرة قرسقة ، وغنم الفاطميون بذلك بلاداً ذات قيمة استراتيجية عظيمة . وبذلك رجحت كفتهم في حوض البحر الأبيض المتوسط وعلا شأنهم في العالم الإسلامي (١) .

ولم تقف عناية الفاطميين عند حد تكوين الجيش ، بل رأوا على أثر تهديد البيزنطيين بلاد الشام ( وكانت تابعة لمصر ) واستيلائهم على أمهات مدنها مثل أنطاكية وحلب ، أنهم في حاجة ماسة إلى أسطول قوى ؛ فأنشأ المعز لدين الله ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين المراكب الحربية في مدينة مصر وفي الإسكندرية ودمياط . وكانت بعض وحداتها تسير للمرابطة في الموانئ الشامية مثل عكا وصور وعسقلان .

وقد أنشأ المعز داراً لصناعة السفن بالمقس بنى فيها ستائة مركب ، وصفها المسبحي المؤرخ المصري المتوفى سنة ٤٢٠ هـ بقوله . « إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً وثاقفةً وحسناً » . ويحدثنا المقرئ (٢) أنه كان على رأس الأسطول المصري في ذلك العصر عشرة قواد ، عليهم رئيس هو « قائد القواد » ، ويسمى في عهد الفاطميين « أمير الجيش » وفي عهد المهالك « ناظر الجيش » .

وكان هؤلاء القواد يتناولون مرتبات تبلغ عشرين ديناراً في الشهر ، كما كان للأسطول ميزانية ضخمة من خراج الإقطاعات المحبوسة عليها . ولم يزل الأسطول المصري محل عناية الفاطميين حتى قام النزاع بين الصليبيين ومصر ؛ فأمر شاور (٣) وزير الخليفة العاضد الفاطمي بإحراق القساطط ليجول دون وصول العدو ، كما أحرق مراكب الأسطول .

ولما زالت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ ، وانتقلت السلطة إلى صلاح الدين الأيوبي ، اهتم بأمر الأسطول اهتماماً كبيراً لمحاربة الصليبيين وصددهم عن الموانئ الإسلامية ، فخصص له ديواناً كبيراً عرف باسم « ديوان الأسطول » وأقر له ميزانية خاصة ، وعهد بهذا الديوان إلى أخيه العادل .

(١) ابن عذاري : المغرب ج ١ ص ١٩٨ .

Fournel : les Berbères. pp. 150 — 151

(٢) اتعاظ الخنفا بأخبار الخلفاء ص ١٣٣ .

(٣) بفتح الواو هو أبو شجاع شاور بن مجر بن نزار .

وكان معظم أفراد الشعب في عهد الدولة الأيوبية يكرهون الحروب البحرية ، حتى كان السلاطين يضطرون لإرغام الناس على الاشتغال في الأسطول إذا دعت الضرورة إلى تجهيزه . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل أصبحت خدمة الأسطول في عهد الدولة الأيوبية عاراً يسب به الرجل ، فإذا قيل لرجل : « يا أسطولى » غضب غضباً شديداً . ويظهر أن تلك الكراهية إنما جاءت على أثر تحول الحروب الصليبية إلى مصر ، فإذا قيل للرجل : يا أسطولى ، فكأنهم يعنون بذلك أنه مثل الصليبيين الذين حملتهم الأساطيل ، ويرمز بهذا إلى الشر . وقد تغيرت نظرة الناس إلى رجال الأسطول واحترامهم لهم حتى أطلقوا عليهم « المجاهدين في سبيل الله » و « الغزاة في أعداء الله » .

### ( ح ) البحرية في المغرب :

كان المرابطون في عهد يوسف بن تاشفين أسطول صغير يتألف من السفن التي تنقل الجند من المغرب إلى الأندلس . وكان عدد هذه السفن كبيراً بالنسبة إلى السفن الحربية . وقد ارتقى الأسطول المرابطي في عهد علي بن يوسف ، وأظهرت وحداته نشاطاً ملحوظاً في البحر الأبيض المتوسط . يؤيد هذا ما ذكره الإدريسي (١) « من أن أحمد بن عمر كان والياً لأمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين على جملة من أسطوله » . ومن ثم نرى أن الأسطول المرابطي في عهد علي بن يوسف كان ضخماً ، وأنه كان ينقسم إلى أقسام أو وحدات . وقد انتصر الأسطول المغربي على أسطول الفرنجة في فتح بلنسية وجزر البليار (٢) . واشتهر من أمراء البحر في عهد علي بن يوسف : علي ابن ميمون الذي كانت له جولات بحرية رائعة على سواحل الأندلس وإيطاليا وفرنسا .

ولما انتقل الحكم إلى الموحدين تفوقت قوتهم البحرية . وكانت سفنهم على نوعين : أحدهما يستعمل لنقل الجند والمؤن إلى السواحل الأندلسية كما كانت الحال في عهد المرابطين ، وثانيهما يتألف من السفن الحربية . وقد ذكر المؤرخون أن أسطول الموحدين بلغ أربعمائة سفينة ألقت مراسيها على جميع سواحل بلاده (٣) .

(١) المغرب وأرض السودان ص ٥٤ .

(٢) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٥٧ .

(٣) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٢٨ . ومن هذه السفن ١٢٠ سفينة بالمهدية ( وكانت تسمى حلق المعمورة ) ومائة سفينة بموانئ سبتة وطنجة والريف ، ومائة سفينة بسواحل إفريقيا ( تونس الآن ) ووهران ومرسى هنين ، و ٨٠ سفينة بعدوة الأندلس .

وقد تجلت عظمة الأسطول الموحدى منذ عهد عبد المؤمن بن علي . ثم نهض نهضة مباركة في عهد ابنه يوسف بن عبد المؤمن ، وظهرت قوته في المعارك البحرية التي قامت بين الموحدين والقطلونيين على مقربة من طرطوشة في بلاد الأندلس ، وفي موقعة المهديّة التي كان يحتلها النورمانديون أصحاب صقلية ، وتغلب الموحدون بقيادة أمير البحر عبد الله ابن ميمون على أسطول النورمانديين الذين كان يتألف من مائتي سفينة على الرغم مما أظهره من براعة في القتال ، وأغرق وأحرق أكثر سفنهم .

وقد عنى عبد المؤمن بن علي عناية خاصة بالجيش والأسطول ، وأشأ المدارس الحربية لتخريج القواد الأكفاء والجند البواسل . ولما كان يحافظ على الروح العسكرية جمع عبد المؤمن الشبان من القبائل المغربية ولا سيما من قبيلة مصمودة . وكانت المدارس الحربية تقوم إلى جانب الفنون الحربية بتدريس كتب المهدي محمد بن تومرت ونشر تعاليمه . ويحفظ الطلبة وصايا المهدي عن ظهر قلب .

ومن أهم مناهج الدراسة التدريب على استعمال الأسلحة على اختلافها ، وركوب الخيل والسباحة وأساليب الحصار برأ وبحراً . وعلى مقربة من مدينة مراکش أنشأ الموحدون بركة « وضعت فيها القوارب والسفن الحربية الصغيرة المسماة سفن التدريب » حيث كان الطلاب يتدربون على التجديف وقيادة السفن وكل ما يتصل بالفنون الحربية .

وكان التعليم في هذه المدارس على نفقة الدولة الموحدية ، عدا ما كان يمنحه الطلاب من الخيل والأسلحة . وفي هذه المدارس تخرج كثير من القواد وكبار الضباط وحكام القلاع (١) .

ولاشك أن هذه المدارس العسكرية والأساطيل البحرية والجيوش الجرارة كانت تعتمد على دعامة اقتصادية متينة ، بدليل ما ذكره عبد الواحد المراكشي (٢) أن خراج المغرب في عهد الموحدين بلغ ما يقرب من مائة وخمسين بغلا من إفريقية وحدها عدا بجاية وأعمالها وتلسان وأعمالها .

(١) أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين س ٤٨٩ — ٤٩١ .

(٢) المعجب س ١٥٥ .



## ٥ — النظام القضائي

### (١) القضاء في العصر العباسي الثاني :

تطور النظام القضائي في العصر العباسي تطوراً كبيراً ؛ فقد ضعفت روح الاجتهاد في الأحكام لظهور المذاهب الأربعة وأصبح القاضي ملزماً بأن يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب . فكان القاضي في العراق يحكم وفق أحكام مذهب أبي حنيفة ، وفي الشام والمغرب وفق مذهب مالك ، وفي مصر وفق المذهب الشافعي . وإذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع في بلد من البلاد أناب القاضي عنه قاضياً يأخذ بمبادئ مذهب المتخاصمين . كذلك تأثر القضاء في هذا العصر بالسياسة ، لأن الخلفاء العباسيين عملوا على أن يكسبوا أعمالهم صبغة شرعية ، وحملوا القضاة على السير وفق رغباتهم في الحكم ، حتى لقد امتنع كثير من الفقهاء عن تولى القضاء ، خشية أن يحملهم الخليفة على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية ولا يتفق مع ذمهم وضمائرهم . وخير مثل لذلك الإمام أبو حنيفة النعمان الذي اعتذر عن تولى منصب القضاء في عهد أبي جعفر المنصور .

وقد اتخذ العباسيون نظام « قاضي القضاة » ، وهو بمثابة وزير العدل اليوم . وكان يقيم في حاضرة الدولة ، ويولى من قبله قضاة ينوبون عنه في الأقاليم الإسلامية . وأول من لقب بهذا اللقب القاضي أبو يوسف ( يعقوب بن إبراهيم ) صاحب كتاب ( الخراج ) في عهد هارون الرشيد . وكان قاضي القضاة في الأندلس يسمى « قاضي الجماعة » ويقوم بتولية القضاة على الأقاليم .

وفي هذا العصر اتسعت سلطة القاضي ، فبعد أن كان ينظر في القضايا المدنية والجنائية ، أصبح يفصل في الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأوصياء . وقد تضاف إليه الشرطة والمظالم والقصاص والحسبة ودار الضرب وبيت المال والإشراف على موارد الأحباس وسجلات الفتاوى الفقهية<sup>(١)</sup> وعلى الصلاة في أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة أو بمسجد الزهراء الذي بناه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء ، والدعاء في صلاة الإستسقاء<sup>(٢)</sup> .

(١) أنشئ هذا السجل في سنة ٢٩١ هـ : وكان قاضي القضاة يستفتي الفقهاء في بعض القضايا المعروضة عليه . وجعل من هذه القضايا سجلاً عاماً أصبح مرجعاً هاماً لقضاة الأندلس .  
(٢) كان قاضي القضاة يشرف على الصلاة أيضاً . ولذلك كان يسمى « صاحب الصلاة » . واستمرت الحال على ذلك حتى أقره عبد الرحمن الناصر الأموي بالأندلس للصلاة شخصاً معيناً وقضاء القضاء شخصاً آخر .

وقد أصبح في كل ولاية قضاة يمثلون المذاهب المختلفة وينظر كل منهم في النزاع الذي يقوم بين من يدينون بعقائد مذهبه .

وقد عرف بعض قضاة هذا العصر بالعدل والنزاهة والزهد وتحري الدقة في الحكم ، ومن أحسن الأمثلة التي تؤيد هذا الرأي : أبو بكر محمد بن المظفر الشامي . فقد أثر عنه أنه لم يأخذ أجراً في أثناء تقلده منصب القضاء ، كما عرف بالعدل ولم يحاب أحداً من المتقاضين فقد ذكر ابن الأثير<sup>(١)</sup> عند كلامه على حوادث سنة ٤٨٨ هـ ( التي مات فيها هذا القاضي ) أن أحد الأبرار شكاً إليه رجلاً فقال له القاضي : ألك بينة ؟ قال : نعم ! فلان والمشطب الفقيه الفرغاني ، فقال : لا أقبل شهادة المشطب لأنه يلبس الحرير ، فقال التركي : فالسلطان ونظام الملك يلبسان الحرير ، فقال : لو شهدوا عندي على باقة بقل لا أقبل شهادتهما .

وكان لقاضي القضاة بعداد ديوان يعرف بديوان قاضي القضاة ، ومن أشهر موظفي هذا الديوان : الكتائب والحاجب وعارض الأحكام وخازن ديوان الحكم وأعوانه . وقد اقتضى تطور نظام القضاء في هذا العصر التحري عن الشهود . وكان القاضي يرتدى السواد شعار العباسيين وينطى رأسه بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة<sup>(٢)</sup> .

### ( ب ) القضاء في عهد الفاطميين والأيوبيين :

وقد ضعف نفوذ القاضي السنن بعد الفتح الفاطمي وألزم بأن يصدر أحكامه وفق عقائد المذهب الشيعي ، بل أشرك معه قاض مغربي للنظر في المظالم الخاصة بالمغاربة . وما لبثت سلطنته أن قويت حتى أصبح ينظر أيضاً في القضايا المشتركة بينهم وبين المصريين . ثم زاد نفوذه حتى آل إليه النظر في قضايا المصريين أنفسهم ، وأصبح يطلق عليه اسم قاضي مصر والإسكندرية ، ثم استقل الشيعيون بالقضاء .

وكان منصب القضاء يعهد به في العصر الفاطمي لبعض السنن أحياناً ؛ إذ أن الفاطميين في أواخر عهدهم لم يسيروا دائماً على قاعدة إسناد القضاء إلى المتشيعين خاصة . وكان سجل القاضي الذي كان يقرأ في القصر وعلى منبر جامع عمرو يتضمن فقرة شرط فيها عليه أن يصدر أحكامه طبقاً لقانون الشيعة ، وأن يكون معه في مجلس القضاء أربعة من الفقهاء المتشيعين ، حتى لا يصدر الحكم مخالفاً للمذهب الشيعي .

(١) الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٩٤ .

(٢) الكندي : كتاب القضاة ص ٣٧٨ .

على أن أبا علي بن الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الخليفة الحافظ (٥٢٤) —  
 سنة ٥٤٤ هـ الذي كان يدين بمذهب الإمامية الإثنا عشرية خرج على هذه القاعدة ، فعين في  
 سنة ٥٢٥ هـ أربعة من القضاة : اثنين من الشيعة ، واثنين من السنين . وكان القاضيان  
 الشيعيان أحدهما إمامياً والآخر إسماعيلياً . أما القاضيان السنيان فكان أحدهما شافعيّاً  
 والآخر مالكيّاً . وقد أعطى هذا الوزير لكل من هؤلاء القضاة الأربعة السلطة المطلقة في  
 إصدار أحكامه وفق مذهبه . ولما قتل هذا الوزير عادت السلطة إلى الإسماعيلية من جديد  
 وظلت على ذلك إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبي ، فعمل في سنة ٥٦٤ هـ على القضاء على  
 الخلافة الفاطمية ، وأسس مدرستين لتعليم الفقه ، إحداهما على مذهب الإمام الشافعي  
 والآخرى على مذهب الإمام مالك ، ثم صرف جميع القضاة الشيعيين وعين بدلهم قضاة  
 من السنين الشافعية إذ كان صلاح الدين شافعي المذهب .

وبذلك أخذ المصريون يرجعون شيئاً فشيئاً إلى المذهب السني الذي كانت له السيادة  
 قبل الفاطميين ، وأخذ المذهب الشيعي بنوعية الإسماعيلي والإمامي في الضعف إلى أن  
 قضى عليه نهائياً (١) .

#### قانونه الوراثية في عهد الفاطميين :

ويجز قانون الشيعة للبنت أن ترث كل ما يترك أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت .  
 وهذا يخالف أحكام مذهب السنة التي تقضي بالآثار البنت أكثر من نصف الثروة .  
 ولقد تمسك القاضى الشيعي بتطبيق قانون الشيعة على أحكامه ، وغدا في استطاعته أن ينقض  
 ما يصدره أبو الطاهر من أحكام .

وقد عدلت القاعدة التي تجيز للبنت بمقتضى قانون الشيعة أن تستولى على جميع الثروة  
 التي يخلفها أبواها إذا انفردت بالميراث إذا لم يكن هناك وارث سواها . والسرفى أن الشيعة  
 يورثون البنت كل المال ويجمعونها حاجية للأعمام أمران :

الأول أن أبا بكر أخذ فدك ( قرية بخير ) من يد فاطمة ، وكان رسول الله قد أعطاهما  
 تلك الضيقة اللارتفاق بها ، فادعت أنها ترث ذلك ؛ فاحتج أبو بكر بأن الانبياء لا يورثون ،  
 واستدل بحديث سمعه من رسول الله في ذلك .

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ( طبعة القاهرة ) ج ١ ص ١٩١ .

والثاني أن بنى العباس يدعون أبولو ميراث رسول الله من إمامة المسلمين لهم ، لأنه عم رسول الله والوارث له يوم وفاته ، لأن ابنته لا تحرز كل المال ، وعلى أنزل من العباس فقالوا لهم إنها تحرز كل الميراث لينعموا بنى العباس من دعواهم . وإلى ذلك يشير شاعر بنى العباس بقوله :

أنى (١) يكون وليس ذلك بكائن لبني البنات ورائة الأعمام ؟  
وكان الداعي لحضور ( أبي بكر ) الطرطوشى أمر المواريث ما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام ، وهو ربع العشر ، وتورث البنت نصف المال ، وكانوا يورثونها جميع المال مع وجود ذوى العصبة ، كما هو مذهب آل البيت . فاعتذر المأمون ( البطاحى ) بأن هذه قضية لم يقل بها ( أى لم يؤخذ بها من قبل ) ، وأن أمير الجيوش بدرأ هو الذى ابتكرها . . . واستمرت المناقشة إلى أن قال المأمون للفقهاء : أنا لا أرى مخالفتك . . . ، وكتب توقيع شملته العلامة الآمرية والمأمونية ، وهذا نصه بعد البسملة :

١ — يخلص لحرم ذوى الشيع الوارثات جميع موروثهم ، وهو المنهاج القويم لقوله :  
تعالى ( وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) (٢)

٢ — إن كل دارج من الناس ( أى كل إنسان ) على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاههم واعتقاداتهم ، يحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه فى حياته ، والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته . . . ويحمل من سواهم على مذهب مخلفهم ، ويشترك معهم بيت مال المسلمين فى موجودهم ، ويحمل لإليه جزء من أموالهم التى أحلها الله لمن بعدهم (٣) .

٣ — إن أخذ ربع العشر من أموال الأيتام يعود إلى ما كانت عليه الحال .

٤ — أن يعوض أمناء الحكم عن ربع العشر من مال المواريث الحشرية (٤) .

٥ — من لا وارث له ، حاضراً أو غائباً ، فوجوده لبيت المال ، إلا ما يستحقه زوج

أو ذبْن عليه .

(١) أنى بمعنى كيف الاستفهامية .

(٢) سورة الأتقال ٨ : ٧٦ .

(٣) يعنى بذلك أن البنت التى تعيش مع أبيها بمفردها تتمتع بجميع ماله على ذلك جميع المذهب ، وليس للدولة أن تتدخل فى ذلك طالما يحمل إليها الضريبة التى ينص عليها الشرع .

(٤) يعنى الذين ليسوا من ورثة الصلب كالابن وابن الابن .

٦ — وإن كان التوفى وارث غائب ، فليحتفظ بالحكام والمستخدمون بتركه .  
وإذا حضر وأثبت استحقاقه في مجلس الحكم بالباب على الأوضاع الشرعية الخالصة من  
الشبه والارتياب ، فليخرج الأمر بتسليمه إليه .

٧ — يعتمد القاضى ذلك بالباب ( يعنى مجلس القاضى ) ، ويصدر الإعلام به إلى  
سائر النواب . وبعد تلاوة هذا التوقيع بالمسجدين الجامعين<sup>(١)</sup> ، بالمعزية القاهرة المحروسة  
ومدينة مصر على رؤوس الأشهاد ، ترسل نسخ منه إلى جميع النواب عنه في البلاد ؛  
وليخلد ( يسجل ) في مجلس الحكم بعد ثبوته في ديوان المجلس والحاصل الآمرى .

لليتين بقيتا من ذى القعدة سنة ٥١٦ هـ<sup>(٢)</sup> .

ومما هو جدير بالذكر أن تغيير قانون الوراثة أوائل القرن الرابع قد حدث في عهد  
العباسيين قبل هذا التغيير الذى حدث في عهد الفاطميين ، وذلك أنه في سنة ٣١١ هـ  
( ٩٢٣ م ) مات بيغداد رجل من أصحاب اليسار يدعى أبا عيسى أحمد ، ولم يخلف ولداً ،  
فألت ثروته إلى بيت المال بمقتضى قانون الوراثة المعمول به في ذلك الحين<sup>(٣)</sup> .

حدث ذلك في خلافة المعتمد العباسى ٢٥٦ — ٢٧٩ هـ ( ٨٦٩ — ٨٩٢ م ) ، فأمر  
خلفه المعتضد ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ ( ٨٩٢ — ٩٠٢ م ) بإرجاع القانون إلى ما كان عليه من  
قبل . وظلت الحال على ذلك إلى عهد المستنق ٢٨٩ — ٢٩٥ هـ ( ٩٠٢ — ٩٠٨ م )<sup>(٤)</sup> ،  
فصدرت الأحكام في الميراث على حسب التعديل الذى أدخل على هذا القانون من  
قبل<sup>(٥)</sup> . وقد أنكر الوزير على بن محمد بن الفرات هذا التعديل ، وعده مخالفاً لما جرت  
به أحكام قانون مذهب السنة ، فاستطاع أن يحصل على موافقة الخليفة بتعديل قانون  
الوراثة ، وصدر مرسوم مذهب بإمضاء الخليفة المقنن يقضى<sup>(٦)</sup> :

١ — بأن يصرف الفائزون بأعمال المواريث في سائر النواحي ويبطل أمرهم ، ويرد  
النظر في أعمال المواريث إلى الحكام على ما كان يجرى عليه قبل أيام المعتمد على الله .

(١) جامع عمرو والجامع الأزهر .

(٢) القفى الكبير للمقرئى ، لندن ، مخطوط ١٦٤٧ ، المجلد الثالث ، ورقة ١١٩٥ — ١١٩٧ ب .

(٣) هلال الصابى ، تاريخ الوزراء ، ص ٢٤٦ .

(٤) هلال الصابى ، ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٤٨ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٢٤٨ .

٢ — وبأن يرد على ذوى الأرحام ما أوجب الله عز وجل ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، ومن اتبعهم من أئمة الهدى .

٣ — وبأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً على أهل ملته .

٤ — وأن يعمل على إذاعة ما أمر ، وإظهاره وقراءته على الناس فى المسجدين الجامعين بمدينة السلام (بغداد) ، ليكون مشهوراً متعارفاً ، والخير به إلى الأبدان والأقاصى واصلاً<sup>(١)</sup> .

### ( ح ) القضاء فى الأندلس :

كان للقضاء مركز يمتاز فى الأندلس كما كان فى غيرها من البلاد الإسلامية . وكان الأمير أو الخليفة الرئيس الأعلى للقضاء ، وذلك لتعلق هذه الوظيفة بالدين . وكان قاضى القضاة يسمى « قاضى الجماعة » أيضاً لأنه يقيم فى حاضرة الدولة . ويشترط فى القاضى أن يكون متبحراً فى الفقه مشهوداً له بالنزاهة والاستقامة ، وأن يكون عربياً خالصاً . وطالما تقلد القضاء المولى والمولدون والبربر . وأحسن مثل لذلك يحيى بن يحيى اللبني قاضى قضاة الأندلس ، وكان من أصل بربرى . ومن قبيلة مضمودة ، وكان قاضى الجماعة يختار غالباً من قضاة الأقاليم الأندلسية الذين تقلدوا بعض مناصب الدولة الهامة<sup>(٢)</sup> .

وكان قاضى الجماعة يقيم بقرطبة حاضرة الدولة الأموية فى الأندلس ، ويعين من قبل الأمير أو الخليفة ، وينوب عنه فى الأقاليم قضاة يسمى كل منهم مسدداً خاص . وكان القرآن والسنة مصدر التشريع فى الأندلس ، ويسير القضاء فى الأندلس والمغرب حتى اليوم ، على وفق مذهب الإمام مالك بن أنس ، ويقوم بتنفيذ هذه الأحكام الحكام والولاة .

ومن اختصاصات القاضى أيضاً الإشراف على موارد الأحباس ، وسجلات الفتاوى الفقهية<sup>(٣)</sup> ، والإشراف على الصلاة فى أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة ، أو بمسجد الزهراء الذى بناه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء ، والدعاء فى صلاة

(١) المصدر نفسه ٢٤٨ ص — ٢٥٣ ، انظر كتابى تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣١٦ — ٣١٨

(٢) القرى : فتح الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

(٣) أنشئ هذا السجل فى سنة ٢٩١ هـ . وكان قاضى القضاة يستفتى الفقهاء فى بعض القضايا

المعروضة عليه ، واتخذ من هذه القضايا سجلاً عاماً أصبح مرجعاً هاماً لقضاة الأندلس .

الاستقامة . وكان قاضي القضاة يسمى « صاحب الصلاة » ، حتى أفرد عبد الرحمن الناصر شخصاً معيناً للصلاة واقضاه قضاء شخصاً آخر .

وكان القضاة في الأندلس يعرفون الأسبانية القديمة ( Romance ) ، ويناقشون المتقاضين بها في مجالس الحكم . وكان المسلمون يطلقون على هذه اللغة : اللغة الأجمعية أو العجمية أو اللاطينية (١) .

### ( ٤ ) المظالم :

وكانت محكمة المظالم بمثابة محكمة الاستئناف العليا في عصرنا ، تعرض عليها القضايا إذا عجز القاضي عن تنفيذ حكمه في قضية رجل من علية القوم ، أو إذا لجأ إليها المتقاضى إذا اعتقد أن القاضي لم يحكم بالعدل . وكان الغرض الأساسي من إنشاء محكمة المظالم وقف تعدى ذوى الجاه والحسب . ولهذا كانت المظالم تسند إلى رجل جليل القدر كثير الورع يعرف باسم قاضي المظالم .

وكان للمظالم ديوان خاص يعرف بديوان المظالم . ويسمى رئيس هذا الديوان « صاحب المظالم » ، وسلطته أعلى بكثير من سلطة القاضي .

وكانت محكمة المظالم تتعقد تحت رئاسة الخليفة أحياناً أو الوالى أو من ينوب عن أحدهما ، ويعين صاحب المظالم يوماً يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى . أما إذا انفرد بالمظالم نظر فيها طول أيام الأسبوع .

وكانت محكمة المظالم تتعقد في المسجد ، ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات لا ينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم وهم : الحماة والأعوان ، والحكام ويحيطون بالأحكام ويردون الحقوق إلى أصحابها ، والفقهاء الذين يرجع إليهم صاحب المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الكتاب يقومون بتدوين أقوال الخصوم ، والشهود ويثبتون ما يعرفونه عن الخصوم ويشهدون على أن ما أصدره القاضي لا ينافى العدل ، ومن اختصاصات قاضي المظالم :

١ — النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا انحرفوا عن طريق العدل والإنصاف ، وعمال الخراج إذا اشتطوا في جمع الضرائب ، وكتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة .

(١) راجع ما ذكره أبو عبد الله محمد بن حارث الحنفى القروى في كتاب القضاة بقرطبة الذى نشره Ribera Julian ( مدريد ١٩٤٤ ) ص ٩٦ ، ١٣٨ .

٢ — النظر في نظلم المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها إليهم .

٣ — تنفيذ ما يعجز القاضى والمحاسب عن تنفيذه من الأحكام .

٤ — مراعاة إقامة العبادات كالحج والأعياد والجمع والجهاد<sup>(١)</sup> .

ومن هنا نقف على مبلغ أهمية هذه الوظيفة وما كان لصاحبها من القوة ونفاذ الكلمة ، كما نقف أيضاً على ما وصل إليه النظام القضائى من الدقة والإنقان .

ويظهر أن نظام النظر في المظالم قد ارتقى في العصر العباسى الثانى . فقد ذكر ابن الأثير<sup>(٢)</sup> أن بعض سلاطين السلاجقة اشتهروا بالعدل واستمعوا إلى ظلمات الناس وعملوا على رفع الظلم عنهم . فقد قيل إن السلطان محمد بن ملكشاه اشترى ممالك من بعض التجار وأحاطهم على عامل خوزستان ليقتلوا منه الثمن ؛ فأعطاهم بعضه وماطل في تسليمهم البعض الآخر . وقد حضر هؤلاء التجار مجلس الحكم ، وكان يتعقد عادة برياضة السلطان . فلما رآهم أمر حاجبه بأن يسألهم عن سبب حضورهم مجلس الحكم فقالوا : لنا خصم يحضر معنا مجلس الحكم ، فقال الحاجب : من هو ؟ قالوا : السلطان ، وشرحوا له قضيتهم . فبعث السلطان في طلب العامل وأمره بتسليم المال المستحق لهم وتشدد في عقوبته ليكون ذلك مثلاً لغيره . وكان هذا السلطان بعد ذلك يقول : لقد ندمت ندماً عظيماً حيث لم أحضر معهم مجلس الحكم فيقتدى في غيرى ولا يمتنع أحد عن الحضور فيه وأداء الحق لصاحبه . وكان من أثر ذلك أن كف العمال عن الظلم وأخذ أموال الناس بغير حق .

#### ( ٥ ) الحمية :

وكانت سلطة القاضى — على ما هو معروف عن القضاء اليوم — موزعة بينه وبين المحاسب وقاضى المظالم . فوظيفة القاضى فض المازعات المرتبطة بالدين بوجه عام ، ووظيفة المحاسب النظر فيما يتعاق بالنظام العام والجنايات أحياناً مما يستدعى الفصل فيها إلى السرعة ، ووظيفة قاضى المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضى والمحاسب .

وكان القضاء والحسبة يسندان في بعض الأحيان إلى رجل واحد ، مع ما بين العاملين من التباين : فعمل القاضى مبنى على التحقيق والأناة في الحكم ، أما عمل المحاسب فبنى على الشدة والسرعة في الفصل<sup>(٣)</sup> .

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٧٣ — ٨١ .

(٢) الكامل ج ١٠ ص ١٩٨ .

(٣) الماوردى ص ٦١ — ٧٢ .



وكان المحتسب ينظر في مراعاة أحكام الشرع ، ويشرف على نظام الأسواق وبحول دون بروز الجوانب حتى لا يعوق ذلك نظام المرور ؛ كما كان يستوفى الديون ، ويكشف على الموازين والمكاييل تجنباً للتطريف . وكان للدوازين والمكاييل دار خاصة بها ؛ فكان المحتسب يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار في أوقات معينة ، ومعهم موازينهم وسنجمهم ومكاييلهم فيعايرها . فإن وجد فيها خللاً صادرها ، وألزم صاحبها بشراء غيرها أو أمره بإصلاحها . وقد بقيت هذه الدار طوال عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية<sup>(١)</sup> .

وكان المحتسب يعاقب كل من يعيث بالشرعية أو يرفع الأسعار ، ويمنع التعدي على حدود الجيران ، وارتفاع مبانى أهل الذمة على مبانى المسلمين .

وقد ارتقى نظام الحسبة في عهد الفاطميين ، فكان للمحتسب نواب يطوفون في الأسواق ، فيفتشون القدور واللحوم وأعمال الطهارة ، ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر مما يجب حملة من السلع ، ويشرفون على السقاين لضمان تغطيتهم القرب ويرقبون لبسهم السراويل حتى لا يخرجوا على الآداب العامة .

كما كان المحتسب يجلس للفصل بين الناس في جامعي عمرو والأزهر . واتسعت سلطته حتى أصبح من واجب رجال الشرطة أن يقوموا بتلبية أوامره وينفذوا أحكامه . وكان يتخلع عليه ويقرأ سجله بمدينة مصر والقاهرة على المنبر .

وقد عرض الشَّيرزى<sup>(٢)</sup> للشروط التي يجب أن تتوافر فيمن يتولى الحسبة ، وأضاف إلى ما ذكرناه أن المحتسب كان يشرف على السلع المعروضة في الأسواق ، فيشرف على بائعي الفراء وصانعي الحلوى ، وعلى شوائى اللحوم ، وعلى الرواسين أى بائعي الروس والآكارع ، وعلى قلائى السمك والهرايسين أى صانعي الهريسة ، وهى طعام من خليط القمح واللحم . كما كان يشرف على الشرايين أى صناع الأشربة ، وهى الادوية السائلة ، وعلى البرازين أى بائعي الثياب ، وعلى الحماكة وهم الذين يذسجون الغزل قماشاً ، وعلى الحياطين لمراعاة جودة التفصيل ، وعلى الصباغين والدلائين والمنادين ، وعلى الصاغة ، والحصيارف ، وعلى الحمامات وقومتها<sup>(٣)</sup> .

(١) المقرزى : خطط ج ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .

(٢) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، نشره الدكتور السيد الباز العريشى ( القاهرة ١٩٤٦ ) .

(٣) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٢٢ — ٣٢٥ .

وقد تكلم الماوردي في كتاب الاحكام السلطانية والمقريري في كتاب إغاثة الامة  
بكشف الغمة ، على ولاية الحسبة في المشرق . وهي لا تختلف عنها في المغرب والاندلس ،  
إلا أن ولاية الحسبة فيهما كانت أكثر تحديدا منها في المشرق .

كما كانت الحسبة تقوم على ما تقتضيه الضرورة في المعاملات هناك ، بحيث يمكن  
أن يقال إن نظام الحسبة في المغرب والاندلس قد استمر طوال العصور الوسطى .  
وأحسن دليل على أهمية الحسبة أن ملوك الأسيبان المسيحيين كانوا كلما استردوا من المسلمين  
إقليما ، أقرروا المحتسب في عمله ، وأصبحوا يطلقون عليه Almotacen ، وهو الوالي الذي  
يعهد إليه بالإشراف على الموازين والمساكيل . أما في المغرب فليس أدل على أهمية الحسبة  
من استمرارها في المدن الغربية حتى اليوم<sup>(١)</sup> .

---

(١) راجع ما ذكره ليني بروفنسال في

Hisstoire de l'Espagne Musulmane, Tome iii (L'Espagne du califat  
de Cordon, pp. 148—150. L'Espagne Musulmane au Xe Siècle, pp.  
181—185.

## الباب التاسع

### الحالة الاقتصادية

#### ١ - الزراعة

ذكرنا في الجزء الثالث من هذا الكتاب (ص ٢٣٠) أن العباسيين عنوا بالزراعة وفلاحة البساتين التي قامت على دراسة عملية ، بفضل انتشار المدارس الزراعية ، وأنهم توسعوا في البحث النظري ، ودرسوا أنواع النباتات وصلاحيه التربة لزراعتها ، واستعملوا الاسمدة المختلفة لأنواع النباتات ، كما عملوا على تنظيم الري في مصر والعراق واليمن وشمال شرقى فارس وبلاد ماوراء النهر ، وعنوا يشق الترع وصيانة السدود<sup>(١)</sup> ، وجعلوا لماء الري ديوانا أطلقوا عليه «ديوان الماء»<sup>(٢)</sup> . كما عنوا بحراثة الأرض وتسميدها واستخدموا لذلك الأبقار واهتموا بتربية الحيوانات ، وخاصة البقر وتربية الجاموس الذى جلبوه من الهند وتفريخ الدجاج وتربيته وحفظ الحمام فى أبراج لوقايته من الأفاعى<sup>(٣)</sup> . وكانت الخنطة تزرع بكثرة فى كافة أرجاء الدولة الإسلامية حيث يتوافر الماء كالعراق وخوزستان ومصر والمغرب والأندلس . وكانت زراعة الذرة تكثر فى جنوبى البلاد الإسلامية كجنوبى بلاد العرب وكرمان والنوبة .

ومن الحاصلات الزراعية التارنج والأنرج الذى نقل من الهند منذ القرن الرابع الهجرى ، فزرع فى عمان والبصرة والعراق والشام وطرسوس<sup>(٤)</sup> ، وكثرت زراعة قصب السكر فى كثير من البلاد الإسلامية ، وخاصة فى بعض بلاد الأفغان وفى بلاد الشام ومصر وخوزستان والعراق والمغرب والأندلس .

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٢) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص ٤٥ .

(٣) متر : المضارة الإسلامية ترجمة ج ٢ ص ٢٨١ - ٢٩٤ .

(٤) مسكويه ج ٢ ص ١٩٣ .

واشتهرت مصر بزراعة الليمون ، ومنه نوع يقال له التفاحى يؤكل بغير سكر لقلة حمضه ولذته طعمه<sup>(١)</sup> . وقد ذكر الحسن الوزان<sup>(٢)</sup> أن سوق الزياتين بمدينة فاس كان يزخر بالزبد المملح والعسل والجبن الطازج والزيتون والليمون والجزر والسكرنب ، وأن حوانيت هذا السوق كانت تزدان بزهرياته الزاهية التي كانت أثمانها تبلغ أضعاف أثمان السلع التي تباع فيها ، وفي هذه السوق تباع خواجي ( مفردها خابية وهي الجرة الكبيرة ) الزبد والعسل والزيت بالمزاد العلني ، وينادي عليها أشخاص مكلفون بوزن الزيت عند بيعه بالجملة ، ويسع كل من هذه الخواجي نحو ستين كيلوا جراماً . أما سوق الزهور فإن الإنسان إذا شاهد هذه الزهور وتنوعها يعتقد أنه يشاهد أحسن البساتين وأجمل زهور الدنيا ، إذ يشاهد لوحة تضم أحسن وأزهى الألوان المتنوعة . ومن محاصيل المغرب القمح والذرة والشعير والجزر واللفت والفول الطازج .

وقد اشتهرت المغرب والاندلس بزراعة قصب السكر وصناعته . وكثرت زراعة القصب في عهد السعديين كثرة عظيمة حتى إن السلطان أحمد المنصور الذهبي جلب الأعمدة الرخامية التي استعملها في بناء قصره البديع بمدينة مراکش من البلدان الأخرى مقابل كميات كبيرة من السكر التي اشتهرت المغرب بصناعته . وكذلك اشتهرت المغرب والاندلس بزراعة الزيتون واستخراج الزيت منه ، كما اشتهرت باستخراج العقاقير ( الأدوية ) من النباتات المختلفة ، كما اشتهرت الاندلس بزراعة القمح والشعير والذرة والسكران والقطن والتوت لتربية دود القز ، وانتفع الامويون ببياه الانهار الكبيرة كنهج تاجة والوادي الكبير والوادي اليناع وإيرو ( بسكون الباء ) ، وأقاموا عليها السدود وشقوا الجداول ، ووضعوا تقويماً للزراعة عرف بالتقويم القرطبي ، الذي أصبح دليلاً ودستوراً لزراعة النباتات في مواعيدها وأخذه عنهم غيرهم من الأمم .

وقد أسس محمد بن علي بمدينة غرناطة حديقة للنباتات أبيع دخولها للاطباء لدراسة النباتات النادرة . وقام ابن البيطار النباتي المشهور الذي عاش في القرن السابع الهجري ( الثالث عشر الميلادي ) بغرس نباتات الشام وآسيا الصغرى وفارس ومصر ، ثم ضمه الملك الكامل الأيوبي إلى حاشيته ، وأصبح رئيس النباتيين ، وألف كتابه المشهور في النباتات ومات سنة ٦٤٦ هـ ( ١٢٤٨ م ) .

(١) القرزى : خلط ج ٧ ص ١٧٣ .

(٢) Leon I' African, tome I. p. 195.

وقد حاول مسهلوا المغرب وصقلية زراعة بعض النباتات التي لا تنمو إلا في البلاد الحارة ، كالنوابل والقطن وقصب السكر والتوت . على أن زراعة أشجار النوابل لم يقدر لها النجاح<sup>(١)</sup> . وقد وجد المسلمون في صقلية أرضاً مثمرة تدمم بالتفاح والبندق والجوز والقسطل ، ويكثر بها الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق وغيرها .

وكانت محاصيل مصر في العصر الفاطمي — ولا تزال — تنقسم إلى محاصيل شتوية ومحاصيل صيفية ، وقد أورد ابن بياتي<sup>(٢)</sup> أسماء المحاصيل الشتوية وهي : للقمح والشعير والبقول والحمص والجلبان والعدس والكتان والقرط ( بضم القاف وسكون الراء هو البرسيم ) والبصل والثوم والتمرسم والكمون والكرابوا والسلجم ( نوع من اللفت ) والبطيخ الأصفر والأخضر واللوييا والسهمم والقطن وقصب السكر والقلفاس والبادنجان والسهمم النبلي والنيلة والفجل واللفت والحس والكرمب .

كما اهتم الفاطميون بزراعة الفاكهة على اختلاف أنواعها ، حتى كانت بساتين مصر تزخر بأشجار الكرم والتين والتفاح والتوت واللوز والخوخ والمشمش والموز والنخيل . كما عنى الفاطميون بزراعة الورود والياسمين والمرسين ( بفتح الميم وسكون الراء ) والرمان والخبثار شمير ( بضم الشين والباء وسكون الميم<sup>(٣)</sup> ) .

ولما كان الإنتاج الزراعي يتوقف على وفرة ماء الري والعناية بخصب الأرض وجودتها ، كان طبعياً أن يعنى الفاطميون عناية كبيرة بنظم الري ، من صيانة الترع والمحافظة على الجسور . وهذه الجسور على نوعين : « جسور سلطانية » تقيمها الدولة ، و « جسور بلدية » يقيمها الفلاحون<sup>(٤)</sup> .

أما الجسور السلطانية فقد كانت الدولة تقوم بإنشائها لتنظيم الانتفاع بماء النيل . وتعرض الدولة الفاطمية الضرائب على الأراضي الزراعية لصيانة الجسور والمحافظة عليها . أما الجسور البلدية فنقام في القرية أو في الناحية أو في الكورة . ويتولى إقامتها أصحاب الإقطاع والفلاحون من أهل القرى المنتفعين بهذه الجسور . وتوزع نفقات إقامة هذه

١) Heyd, tome I, p. 50.

٢) كتاب قوانين الدواوين س ٢٥٨ — ٢٧٠

٣) المصدر نفسه س ٢٧١ — ٢٧٢ .

٤) القرزى : خطط ج ١ ص ١٠١ .

الجسور على الأفراد توزيعاً عادلاً ، ويلتزم صاحب كل دار برعاية قسم معين من الجسر (١) .

وكانت الأراضي المصرية تشقها شبكة من الخلجان والابحار (٢) والترع . وقد بلغ عدد خلجان مصر في ذلك العصر ثمانية ، وعدد الابحار خمسة وعشرين ؛ أما عدد الترع فقد بلغ في الوجهين البحري والقبلي مائة وسبع عشرة (٣) .

وقد استتبع اهتمام الفاطميين بالترع والجسور اهتمامهم بمقاييس النيل ، فهي ضرورية لمعرفة الرخاء أو الكساد . إذ أنه كلما ارتفع مستوى النيل استبشر المصريون بوفرة المحصول وضمنت الدولة زيادة الخراج بنوعيه . فإذا بلغ مستوى الماء ستة عشر ذراعاً كان في ذلك تمام الخراج وخصب البلاد . أما إذا بلغ ثمانية عشر ذراعاً كان ذلك نذيراً بحلول الفيضان ؛ وإذا نقص الماء عن أربعة عشر ذراعاً ، كان ذلك نذيراً بحلول القحط وما يصحبه من أزمات اقتصادية ، كما حدث في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي (٤) .

ولما فتح العرب مصر بنى عمرو بن العاص مقياساً للنيل بأسوان وآخر بدندرة ، وظلت الحال على ذلك حتى دخلت مصر في طاعة الأمويين ، فبنى عامل مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان مقياساً بأنصنا ، وبنى عبد العزيز بن مروان مقياساً بحلوان . أما مقياس الروضة فيرجع إلى سنة ٥٩٧ هـ ، وذلك في عهد ولاية أسامة بن زيد . وقد جدد الخليفة المتوكل العباسي هذا المقياس في سنة ٢٤٧ هـ .

وقد أصلح أحمد بن طولون مقياس الروضة وهو عبارة عن عمود رخام أبيض منمن الأضلاع ، في موضع يصل إليه الماء عند انسيابه . وينقسم إلى اثنين وعشرين ذراعاً . والذراع مقسم إلى ٢٤ إصباعاً . أما الإثنا عشر ذراعاً الأولى ، فإن كل ذراع منها ينقسم إلى ٢٨ إصباعاً . وتبدأ زيادة النيل في آخر بثونة وأبيب ومسرى ، وتستمر في شهر توت كله . وبالمقياس ذراعان يسميان منكرا ونكيرا ، وهما الذراعان الثالث عشر والرابع عشر . فإذا زاد الماء عنهما نصف ذراع استسقى الناس ، وإذا جاوز خمسة عشر ذراعاً

(١) المصغر نفسه .

(٢) جمع بحر وهي الزعة الكبيرة أو الرياح في المصطلح الحديث .

(٣) ابن سمان : قوانين الدواوين ص ٢٠٥ — ٢١٦ .

(٤) المقرئ : خطط ج ١ ص ٥٩ .

انظر كتابي « تاريخ الدولة الفاطمية ، الطبعة الثالثة » ( القاهرة ١٩٦٤ ) ص ٥٧١ — ٥٧٢ .

ودخل في السادس كان فيه صلاح لبعض الناس ، وإذا بلغ تسعة أذرع ، انساب في خليج الفيوم وخليج سردوس وخليج سخا وخليج المنهى . وقد جرت العادة أن تذاع نتائج المقياس على الناس ، فيخرج المنادى إلى طرقات القاهرة وسائر مدن مصر . ولكن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي أمر بكتبان أمر المقياس ، لأن الناس إذا أحسوا بانخفاض النيل ، تسرب القلق إلى نفوسهم ، فأخفوا الغلال ، وامتنعوا عن بيعها حتى يرتفع السعر ، ويعمل الاغنياء على اختزان الغلال ، فيحدث الغلاء . وإذا أحس الناس بزيادة النيل هبطت الأسعار هبوطاً فاحشاً وأصيب كبار التجار بأفدح الأضرار . لذلك كان في كتبان الزيادة عن العامة فائدة تامة .

وإذا بلغ الماء خمسة عشر ذراعاً ثم ستة عشر ذراعاً وإصبعاً واحداً ، احتفل الخليفة بفتح خليج أمير المؤمنين . فإذا فتح الخليج فتحت الترع الأخرى ، وفاض الماء ، « وعمرت القيعان والبطاح فتعود أرض مصر أرضاً عامراً » (١) .

## ٢ — الصناعة

### (١) النسيج :

كان للصناعة في العصر العباسي الثاني حظ كبير من عناية الخلفاء والسلاطين والأمراء الذين اهتموا باستخدام موارد الثروة المعدنية على اختلافها ، فاستخرجوا الفضة والنحاس والرصاص والحديد من مناجم فارس وخراسان ، كما استخرجوا الخزف والمرمر من تبريز ، والملح والكبريت من شمالي فارس ، والنفط من بلاد الكرج .

وقد اشتهر بعض المدن الإسلامية بصناعة النسيج . ومن هذه المدن كازرون التي سميت دمياط الأعاجم . واشتهرت كابل بنسيج القطن الذي كانت تصدره إلى الصين . واشتهرت بلاد ما وراء النهر بزراعة القطن وصناعته ، كما انتشرت هذه الصناعة في المغرب والأندلس . ومن أهم مراكز صناعة القطن مرو ونيسابور . كذلك تفوق المسلمون في صناعة الحرير والأطلس والمنسوجات الحريرية المشجرة والسجاجيد : فامتازت الكوفة بكوفياتها الحريرية وغيرها ، واشتهرت خوزستان بمنسوجاتها وامتازت دمشق بصناعة الأقمشة الحريرية التي لا تزال تسمى «الدمشق» ، واشتهرت مدن خراسان بصناعة البسط والستور والمنسوجات

(١) الفريرى : خطط ج ١ ص ٥٨ .

الصوفية على اختلاف أنواعها . كما اشتهرت مرو بإقليم طبرستان بصناعة الإبريسم . وت فوق أهل أرمينية بصناعة التلك الإبريسمية التي كان يتراوح ثمن الواحدة منها بين دينار وعشرة دنانير . واشتهرت فارس وأرمينية وبلاد ما وراء النهر بصناعة الملابس والفرش الصوفية .

وقد ازدهرت صناعة النسيج بمصر في العصر الفاطمي ، واشتهرت بصناعة السكتان الذي كثرت زراعته بكورة الفيوم . ومن أهم مراكز هذه الصناعة لإقليم الفيوم ، ونواحي بحيرة تيس ( بكسر التاء والنون مع التشديد ) ، وخاصة في دمياط وشطا ( بفتح الشين ) وديق ( بفتح الدال وكسر الباء ) التي تنسب إليها الثياب الديقية ، وتنسب التي كانت تصدر إلى العراق وحدها ما يتراوح قيمته بين عشرين ألف وثلاثين ألف دينار سنويا (١) .

وقد بلغ نظام الطراز في مصر درجة كبيرة من الرقي في العصر الفاطمي حيث ازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية . والطراز فارسي الأصل معناه التطريز ، ثم أصبح يطلق على الثوب الموشى . ولا يرندى هذا النوع من الثياب إلا الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء وأصحاب المناصب العالية . وبعد أن كان هذا اللفظ يطلق على الكتابة الموشاة أصبح يطلق على كل قطعة من النسيج عليها كلمات منقوشة أو مكتوبة على النسيج المنقوش أو الموشى بالخط ، كما تطلق على النقوش التي توضع على الأشرطة المستعرضة من أي نوع ، سواء أكان من الحجارة أم من الفسيفساء أم الزجاج أم الفخار ، أم كان محفوراً بالخشب (٢) . ويتبين مقدار مهارة المصريين وحذقهم في تلك الصناعات من وصف الكسوة التي أمر الخليفة الفاطمي المعز بعملها للكعبة (٣) .

وهناك أنواع خاصة من الثياب اشتهرت في هذا العصر ، نذكر منها : الثياب العنابية (٤) المصنوعة من الحرير ، والخسرواني (أو الخسرواني بضم الخاء وفتح الراء) ، وهو نوع من الحرير ينسب إلى خسرو شاه أحد ملوك الفرس (٥) ، والقلدوني (بفتح القاف واللام) ،

(١) المقرئزي . خطط - ج ١ ص ٢٢٦ .

(٢) انظر الجوزري : سيرة جوذر توقيع رقم ٢١ ص ١٠٠ .

(٣) انظر هذا الوصف في ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٤ وفي حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة

الفاطمية ص ٥٨٣ .

(٤) ينسب إلى عتاب أحد أحياء بغداد اشتهر بصناعة هذا النوع من الثياب .



وهو نوع من القماش ذو ألوان براقه تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس . وقد نقلت صناعته من بلاد اليونان إلى مصر حيث أصبح يصنع في دمياط ونفيس خاصة (١) ، والتستري ( بضم التاء مع التشديد وسكون السين وفتح التاء الثانية ) ، وهو نوع من الحرير ينسب إلى تستر أشهر مدن خوزستان ، والقرقي ( بضم القافين وسكون الراء ) (٢) ، وهو نوع من القماش كان يصنع في بلاد اليونان ، ثم أدخلت صناعته إلى مصر ، وأصبح يصنع في دمياط ونفيس . وقد اشتهر هذا القماش بألوانه اللامعة التي تتغير دائماً ولا سيما إذا انعكست عليها أشعة الشمس ، والنصفية ( بكسر النون مع التشديد وسكون الصاد ، وهي ثياب مصنوعة من الحرير والقطن .

وكان مضرب الخليفة الظاهر الفاطمي ( ٤١١ — ٤٢٧ هـ ) منسوجاً من خيوط الذهب ومقاماً على أعمدة من الفضة ؛ وقد بلغت قيمته أربعة عشر ألف دينار . وكان مضرب الوزر اليازوري مجموعة رسوم فنية بلغت قيمته ثلاثين ألف دينار ، واشتغل في صنعه مائة وخمسون فناً مدة تسع سنوات . وكان ارتفاع أعمدته مائة وعشرين قدماً واتساع محيطه ألف قدم تقريباً . وقد نقشت على أحد جوانبه صور جميع حيوانات العالم (٣) .

### الزخرفة في العصر الفاطمي :

ولا بأس من أن نعرض هنا لذكر فن المنسوجات الزخرفية في العصر الفاطمي . فقد كانت المنسوجات الفاطمية من حيث الزخرفة أربعة أنواع تمثل العصور الأربعة الرئيسية في تاريخ الفاطميين وهي :

النوع الأول وينسب إلى عصر الخلفاء المعز والمعز والحاكم ، وقوام زخارفه أشرطة من الكتابة توازيها أشرطة أخرى ، بها جامات يضاوية الشكل يتداخل بعضها في بعض ، وعليها رسم حيوان أو طائر أو ورود .

والنوع الثاني وينسب إلى عصر الظاهر والمستنصر . وقد تنوعت فيه الأشرطة الزخرفية ، وقوامها جامات عليها رسوم طيور وحيوانات محرفة عن الطبيعة ، وتحيط بها سطور من الكتابة الكوفية التي أصبحت عنصراً زخرفياً .

(١) ياقوت : انظر هذا اللفظ في معجم البلدان Dozy, Supplément

(٢) القرقب طائريرى في الفدر والمستنعات . انظر معجم البلدان لياقوت .

(٣) المقرزى : ختلط ج ١ ص ٤١٩ .

والنوع الثالث وينسب إلى عصر المستعلى والأمر ، وقد تطورت فيه الزخرفة وظهرت عناصر جديدة مثل الأشربة والجدائل التي تتموج وتتداخل ويتخللها جامعات تضم رسوم طيور وحيوانات وكتوساً بها فاكهة ، وتتلخها سطور من الكتابة الكوفية تتضمن اسم الخليفة ووزيره .

والنوع الرابع ويرجع إلى أواخر العصر الفاطمي ، وتتألف زخارفه من جدائل تقاطع وتشابك وتؤلف جامات عليها رسوم حيوانات أو رسوم نباتية مكتوبة بخط النسخ<sup>(١)</sup> .

### ( ب ) بناء السفن :

ولما فتح الفاطميون مصر شعروا بحاجتهم إلى أسطول قوى يصد البيزنطيين خاصة والصليبيين عامة عن بلاد الشام . فقد أنشأ الخليفة المعز داراً لصناعة السفن بالمقس بنى فيها ستانة مركب وصفها المسبجى المؤرخ المصرى فقال : « إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً ووثاقاً وحسناً . واشتهرت جزيرة الروضة بصناعة السفن الحربية ، وبنيت في مصر دار صناعة لصناعة المراكب النيلية والشوانى<sup>(٢)</sup> .

كما أنشأ الفاطميون داراً لصناعة السفن في الإسكندرية ودمياط<sup>(٣)</sup> . وعنوا بحلب الأخشاب اللازمة لهذه الصناعة من مناطق الغابات في كثير من جهات الصعيد . ولم يكن إنتاج البلاد من الخشب ملائماً لصناعة السفن الكبيرة لأنه لم يكن يتناز بالصلابة المطلوبة . لهذا كان الفاطميون يستوردون الخشب من أوروبا عن طريق البنادقة<sup>(٤)</sup> .

### ( ح ) صناعة المعادن :

وقد برع الصناع المصريون في صنع المعادن والعاج والفسيفساء ، فعرفت مدينة القسطنطينية<sup>(٥)</sup> بصناعة الحديد المستورد من أوروبا وصقلية وشمالي إفريقية ، كما عرفت مدينة تيس بصناعة المقصات والسكاكين<sup>(٦)</sup> . وراجت صناعة الذهب والفضة

(١) Migeon, Art musulman, tome II, pp. 300—309.

(٢) عن المقرئى : خطط ج ١ ص ١٩٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٣ .

(٤) البراوى : حالة مصر لاقتصادية في عهد الفاطميين ص ١٥٣ .

(٥) المقرئى : خطط ج ١ ص ٣٦٧ .

(٦) Sefar Nameh, p. 114.

الذين استخدمهما الصناع في صنع الحلبي والسروج والسيوف وتذهيب المصاحف ووشى الملابس الفاخرة . وليس من شك في أن هذه التحف التي أنتجها الفاطميون والتي تدل عليها آثارهم تلقى ضوفاً على تقدم هذه الصناعة ورقياً<sup>(١)</sup> . هذا إلى ما عرف به صناع مصر من مهارة ودقة في صناعة النحاس والبرونز . وكان سوق المسكفتين يشتمل على عدة حوانيت لعمل الكفت ، وهو ما تطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة . وقد راجت صناعة النحاس المسكفت رواجاً عظيماً ، حتى لا تسكاد تخلو دار في القاهرة ومصر من عدة قطع من نحاس مكفت ( مطلي )<sup>(٢)</sup> .

### ( ٥ ) قصب السكر والزيت :

وكان قصب السكر من أهم الحاصلات الزراعية ولا سيما في عصر الفاطميين في مصر ، لانه عماد صناعة السكر والعسل التي راجت رواجاً عظيماً . وانتشرت مطابخ السكر في جميع أرجاء البلاد : في القسطنطينية والقيوم وديروط وأسيوط وقفت وسمود ، حتى لقد ذكر ابن دقاق<sup>(٣)</sup> أن مطابخ السكر في القسطنطينية وحدها بلغت ثمانية وخمسين مطبخاً . كما انتشرت مصانع العسل في أرجاء البلاد<sup>(٤)</sup> ، وكان الفاطميون يهتمون بهذه الصناعة اهتماماً عظيماً . فأنشئوا المعاصر السلطانية وحملوا الفلاحين على نقل قصبهم إليها . ويخيل إلينا أن ذلك راجع إلى أن هذه الدولة كانت تبيح مقادير طائلة من خراج الأرض المزروعة قصباً<sup>(٥)</sup> .

وكذلك راجت في مصر صناعة الزيت الذي كانت له أهمية كبيرة في حياة أهل هذه البلاد لأن منه طعامهم ووقودهم . لذلك عنى المصريون عناية كبيرة بصناعة النباتات الزيتية ، فزرعوا الزيتون في منطقة القيوم والإسكندرية<sup>(٦)</sup> . كما كان السمس يزرع في جميع أرجاء البلاد<sup>(٧)</sup> . وكانوا يستخرجون زيت الزيتون من الزيتون وزيت الشيرج

(١) خطط ج ١ ص ٤١٨ — ٤١٩ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٢ .

(٣) الانتصار ص ٤١ — ٤٢ .

(٤) المقرئى : خطط ج ١ ص ٢٧٠ — ٢٧٣ .

(٥) ابن عماني : قوانين الدواوين ص ٣٦٧ .

(٦) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٩٧ .

(٧) انظر ما ذكرناه عن الزراعة في هذا الباب .

من السمسم<sup>(١)</sup> ، كما استخدموا الفجل والحس في هذه الصناعة ، حتى إن هذه النباتات احتلت مكانة مرموقة في الصناعة المصرية . وكانت أهم معاصر الزيت في مدن صدفا بكورة البهنسا مركز بنى مزار بمحافظة المنيا ، وفي القيوم والفسطاط<sup>(٢)</sup> . وكذلك اشتهرت المغرب والأندلس باستخراج الزيت من الزيتون الذى تكثر زراعته في هذه البلاد<sup>(٣)</sup> .

### ( هـ ) صناعة الصابون والشمع :

وقد اشتهرت البصرة بصناعة الصابون التى تقوم على الزيت . وانتشرت مطابخ الصابون بمدينة الفسطاط<sup>(٤)</sup> ، وقد ذكر الحسن الوزان<sup>(٥)</sup> أن الصابون كان يصنع في الجبال المجاورة لمدينة فاس ، وأن أهل الجبال وأصحاب البغال ( المسكارون ) كانوا يحملونه ويبيعونه لأصحاب الحوانيت في مدينة فاس وغيرها ، كما كانوا يبيعونه سائلا . أولم تكن هناك إلا ركاكين قليلة مجتمعة ، لأنه لا يخلو حى من حياة المدن من حوانيت يباع فيها الصابون .

وقد انتشرت صناعة الشمع بالإسكندرية . وكان بمدينة القاهرة في عهد المماليك كثير من الأسواق تخص بالذكر منها سوق الشعاعين ، وكان يمتد من الجامع الأقر الذى بناه الخليفة الأمر الفاطمى إلى سوق الدجاجين . وتباع فيه الشموع على اختلافها من موكبيه وقانوسية وطوافات ، وبلغت زنة بعض الشموع قنطارا . حتى إنها كانت تحمل على العجل لتقل وزنها<sup>(٦)</sup> وكان بمدينة فاس سوق أطلق عليه اسم « سوق الشعاعين » . ويذكر الحسن الوزان أن صناعة النعغ في المغرب بلغت درجة كبيرة من الدقة والجمال لم ير مثلهما في حياته .

### ( و ) صناعة الزجاج والباور والخزف :

وقد اشتهرت بلاد الشام بصناعة الزجاج والخزف ، واتخذ طرازاً خاصاً في زخرفة الزجاج . وبلغت هذه البلاد في نقش الزجاج بالذهب والألوان الأخرى درجة كبيرة من

Nasir Khusrau, Safar Namèh.

(١)

(٢) المقرئى : خطط ج ١ ص ٤٦٢ .

(٣) المقرئى : نفخ الطيب ج ١ ص ٩٥ — ٩٦ .

(٤) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ١٠٨ .

Description, de l'Afrique, tome I, p, 191.

(٥)

(٦) حسن إبراهيم حسن : المجلد فى التاريخ المصرى ص ٢٠٦ .

(٧) كتاب وصف إفريقيا ( بالفرنسية ) ج ١ ص ١٨٧ .

الإتقان . وكان الزجاج الملون المطلى بالمينا . يصدر إلى كثير من جهات العالم<sup>(١)</sup> . وقد قيل إنه كان ببغداد أربعة آلاف معمل لصنع الزجاج وثلاثون ألف معمل لصنع الخزف<sup>(٢)</sup> . كما اشتهرت بغداد بالصباغة المقتبسة من الفرس والتي بلغت درجة كبيرة من الدقة والجمال ، حتى لأنهم كانوا يرصعون الزجاج بالجواهر ويكتبون عليه بالذهب المجسم ويصنعون الملوك أقداحاً تنهر الأنظار . وكانوا يتخذون على الجمادات ( الكؤوس ) صوراً يحكون صناعتها بالرسم لتمثل الحقائق وصوراً عليها صوراً تطير ، ومن فوقها العقبان تنقض عليها وهي تحاول الإفلات من محالها<sup>(٣)</sup> .

وقد ازدهرت صناعة الزجاج والبلور الصخرى في العصر الفاطمي ، وبلغت هذه الصناعة درجة عظيمة من الرقي . يشهد بذلك هذه التحف التي تزخر بها متاحف القاهرة وأوربا . ويعزى ذلك إلى كثرة بناء المساجد والقصور والمدارس وتزويدها بالقناديل وألواح الزجاج والشمسيات وغيرها<sup>(٤)</sup> . كما أن حياة الترف عند الفاطميين واتخاذهم القصور والمناظر ، وتفنتهم في زخرفتها وزينتها ووفرة ثرائمها كان من أهم الأسباب التي أدت إلى رواج هذه الصناعة الدقيقة .

وقد اشتهرت الفسطاط والفيوم والأشمونين والشيخ عبادة ( بكورة الهنسا ، المنيا الآن ) ، والإسكندرية بصناعة الزجاج<sup>(٥)</sup> الذي كان يصدر إلى البلاد الشرقية والغربية<sup>(٦)</sup> . وزخرت خزائن الفاطميين بتحف الزجاج والبلور التي بلغت حد الإعجاز في جمال الصناعة وإشراق الزخرفة<sup>(٧)</sup> .

وقد تفوقت صناعة الخزف ذي البريق المعدني والزجاج والبلور ، فصنعت منه الأزيار الكبيرة والأواني المستعملة في حفظ العطور والبخور<sup>(٨)</sup> . ويدل على تفوق هذه

(١) أمير علي : مختصر تاريخ العرب ، ترجمة من ٣٦٤ — ٣٦٥ .

(٢) أمين زكي : كتاب عمران بغداد من ٥٠ .

(٣) نخلة المدور : حضارة الإسلام في دار السلام من ٢٥ . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام

السياسي ج ٢ من ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٤) زكي محمد حسن : كتوز الفاطميين من ١٨١ .

(٥) المقرئزي : خطط ج ١ من ٣٤٢ .

(٦) Safar Naméh, p. 154.

(٧) المقرئزي : خطط ج ١ من ٤٣٤ .

(٨) زكي محمد حسن : كتوز الفاطميين من ١٤٩ .

الصناعة ما ذكره الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي رأى التجار يصنعون ما يبيعونه في أوان من الخنزف بدلا من الورق . كما رأى في أسواق الفسطاط الأقداح والصحاف التي بلغ من جودتها أنه رأى يده بوضوح بظهر الإناء ، كما شاهد الرحالة المقدسي<sup>(١)</sup> توقيع صناع مصريين على بعض الفسيفساء في الكعبة وأن جدران الأروقة من الظاهر ألبيت بالفسيفساء التي حملها إليها صناع مصر والشام .

وقد كشف عباس بن فرناس ( بكسر القاف وسكون الراء ) الفيلسوف المسلم بالأندلس في معمله طريقة لصنع البلور ، وهو الذي قدف بنفسه في تجربة رائعة مدهشة على متن طائرة شرعية سبج بها عاليا في الفضاء ، ثم وقع ونهض سالما ، وكان ذلك مبدئياً بفكرة الطيران منذ العصور الوسطى . وقد اقتدى أهل الأندلس بزرياب المغني والموسيقى المشهور في عهد عبد الرحمن الأوسط ( ٢٠٦ — ٢٣٨ هـ ) في تفضيل الاكواب الزجاجية الرفيعة على أكواب الذهب والفضة<sup>(٢)</sup> .

وقد اشتهرت سابور والكوفة وجور ( جنوبي فارس ) بصناعة الروائح العطرية المستخرجة من البنفسج والنيلوفر والزرجم والسوسن والزنبق والنانج : واختصت مدينة جور باستخراج ماء الورد الذي كان يحمل إلى الصين والهند واليمن ومصر والمغرب والاندلس<sup>(٣)</sup> .

### ( ح ) صناعة الجلود :

كذلك اشتهر المسلمون بصناعة الجلود . وكان يصنع بمصر ولاسيما بمدينة الفسطاط الانطاع التي كانت تصدر إلى بلاد الشام . كما كان يصنع بالفسطاط الكمرانات<sup>(٤)</sup> وحقائب الجلد والسيور والقسى ( بكسر القاف ) التي فاقت قسي دمشق فدقة الصناعة<sup>(٥)</sup> . وبرع المصريون في صناعة السروج المحلاة بالذهب والفضة حتى كانت قيمة السرج

(١) أحسن التقاسيم ص ٧٣ .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ج ٢ ص ٧٥١ — ٧٥٢ . بروفنسال : الشرق الإسلامى والحضارة

العربية — الأندلسية ص ٣٠ — ٣٤ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٣٢٤ — ٣٢٥ .

(٤) جم كمران وهو حزام مجوف من الجلد توضع فيه النقود الذهبية والنقائس ويربط حول

وسط الإنسان .

(٥) المقرئى خطط ج ١ ص ٣٦٧ .

الواحد تتراوح بين ألف دينار وسبعة آلاف دينار . وقد تبعت صناعة السروج صناعة اللجم من الذهب الخالص أو الفضة الخالصة ، وقلاند وأطواق لاعناق الخيل . وقد بلغ من اهتمام الفاطميين بهذه الصناعة أن اتخذوا خزانة خاصة بالسروج أطلقوا عليها خزانة السروج<sup>(١)</sup> .

كذلك اشتهرت الأندلس بصناعة آلات الحرب من التراس والرماح والسروج واللجم والدرع<sup>(٢)</sup> .

وكذلك اشتهرت بلاد المغرب بصناعة المناطق الجلدية والأحزمة . وكان بمدينة فاس سوق خاصة للحفاظ والحقائب التي تصنع من الجلد والتي بلغت حد الإتقان والروعة<sup>(٣)</sup> ، وسوق آخر تصنع فيه الدلاء الجلدية . ثم يلي سوق الإسكافيين الذين يصنعون الأحذية على اختلاف أنواعها ، وكان به مائة وخمسون متجرأ وحوانيت أخرى تباع فيها الأحذية ، وقد بلغ عددها نحو مائة وخمسين حانوتا . وهناك نوع آخر من الأحذية أرقى لا يلبسها الصناع ولا الجنود ولا خدم القصور .

كما اشتهر أهل المغرب بصنع الدرق ( بفتح الدال مع التشديد وفتح الراء ) والتروس من الجلد على الطريقة الإفريقية ، كما اشتهروا أيضاً بصناعة ركاب وسروج الخيل ، وكانوا يصنعون لسكل سرج ثلاث طبقات من الجلد كل طبقة تعلو الأخرى ، والطبقة الوسطى أرقها . وتصنع هذه الطبقات بطريقة بديعة . كما اشتهر أهل المغرب الأقصى بصناعة الزرابي الجلدية الصغيرة والوسائد<sup>(٤)</sup> . واشتهرت لمطة ( بفتح اللام والطاء وسكون الميم ) بالمغرب الأقصى بصناعة الدرق<sup>(٥)</sup> .

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٠ — ٥٩١ .

(٢) المقرئ : فتح الطيب ج ١ ص ٩٥ .

(٣) الحسن الوزان ج ١ ص ١٩٣ .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٨ .

(٥) سم درقة ( بفتح الدال والراء والقاف ) . وهي معربة عن لفظ فارسي هو « دريجه » . وهي درع بضاوي الشكل غالباً ، يتراوح طوله بين قدم ونصف وقدمين . وتصنع الدرقة غالباً من جلد فرس البحر وغيره من الحيوانات ذات الجلود السمكة ، وأحياناً من جلد التمساح .

انظر Lane's Arabic-English Lexion

راجع ما ذكره ابن حوقل في كتابه المسالك والممالك حيث ذكر أن معدن الدرق اللعظية لا يوجد له مثيل في الدنيا .

### ٣ - التجارة

اهتم المسلمون بتسهيل سبل التجارة ، فأقاموا الآبار والمحاط في طرق القوافل ، وأنشئوا المناثر في الثغور ، وبنوا الاساطيل لحماية السواحل من غارات القراصنة وأصبحت قوافل المسلمين تجوب البلاد وسفنهم تمر عبر باب البحار . وغدت بغداد حاضرة الدولة العباسية سوقاً نافقة للتجارة ، وأصبحت دمشق مركزاً هاماً للقوافل الآتية من آسيا الصغرى أو من أقاليم نهر الفرات إلى بلاد العرب ومصر ، وأصبح نهر الفرات ودجلة وجداولها شرايين تجارية هامة في بلاد الدولة العباسية (١) .

وكان لعناية الخلفاء العباسيين بتيسير الطرق البرية والبحرية أثر بعيد في ترقية التجارة التي تقوم على تبادل السلع وفي تمهيد السبيل أمام السكاشفين والرحالة الذين وصفوا البلاد المختلفة وصفاً دقيقاً مبيناً على المشاهدة .

وفي القرن الثالث الهجري ( التاسع الميلادي ) وضع أبو القاسم بن خرداذبة الفارسي في كتابه المسالك والممالك (٢) دليلاً للمسافرين وصف فيه الطريق البحري الذي يبدأ من مصب نهر دجلة عند الآبلة ( يضم الالف الثانية والباء ) ويصل إلى بلاد الهند والصين . ويذكر ابن خرداذبة أن سفن المسلمين كانت تسير بمحاذاة ساحل الخليج العربي وساحل الهند حتى مبار . وقد نشطت الحركة التجارية ونمت في الملتان ( يضم الميم وسكون اللام ) . والدليل ( بفتح الدال مع التشديد وسكون الباء وضم الباء ) في السند ( إحدى ولايات باكستان الآن ) . حيث تذهب إلى الهند والصين وتعود حاملة منتجات هذه البلاد (٣) . وكانت قوافل البنجاب ( شمالي باكستان الآن ) تنقل السلع عبر هضاب أفغانستان ، وكان الناجر المسلم يستطيع الذهاب إلى الصين ويمر بهضبة التبت ( يضم التاء مع التشديد وفتح الباء مع التشديد ) وقبائل الترك لشراء الحرير (٤) . واستطاع المسلمون أن يستقروا في جنوبي مدينة شنغهاي . وكان للمسلمين في هذه المدينة قاض مسلم يسير في أحكامه بين المسلمين وفق أحكام الشريعة الإسلامية ويؤمهم في الصلاة .

(١) Heyd, vol 1, p. 26.

(٢) طبعة دى غوية ( ليدن ١٣٠٦ هـ ) .

(٣) Heyd, tome I, p. 36. سيرتوماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ترجمة من ٣٦٢ .

(٤) Heyd, p. 36.



كما كان المسلمون يتبادلون التجارة مع الهند الصينية ( تايلاند الحالية ) والصين وشبه جزيرة الملايو<sup>(١)</sup> . كما فتحت أمام تجار المسلمين جزائر الهند الشرقية المعروفة الآن باسم إندونيسيا ، ولاسيا مع جزيرة جاوه وهي أكبر جزايرها .

وقد بدأ المحيط الهندي يزدهم بالتجار الآسيويين ، وبخاصة تجار العرب الذين اعتادوا الرحلة إلى جنوبي بلاد الهند وجزيرة سيلان ، بل إنهم وصلوا إلى الصين نفسها . لكن ظهور الإسلام في جزيرة العرب قد هيا لهم الفرصة ليظهروا على مسرح التاريخ . وقد ظلوا من القرن السابع إلى القرن السادس عشر الميلادي سادة المحيط الهندي بلا منازع .

وكانت العلاقات التجارية بين أوروبا وآسيا تعتمد على السلع التي يحملها هؤلاء العرب إلى سواحل الخليج العربي والبحر الأحمر . وقد أنشأ العرب محاط تجارية قبل المحاط التي أنشأها أوروبا ، فقد أنشئوا محاط في فاليقوط وساحل ملبار وملقا ، وأقاموا علاقات تجارية مع جزر الهند الشرقية والفلبين وسيام ، ثم استقر العرب في هذه البلاد . ويقال إنه أنشئت مستعمرة عربية كبيرة في مدينة كانتون . ولم تكن هذه التجارة مقصورة على العرب والفرس ، فإن أهل هذه البلاد الشرقية كانوا يردون الزيارات . وبدأت السفن الهندية تصل إلى شرقي القارة الإفريقية وإلى ساحل بلاد العرب ، كما وصلت سفن الملايو وجاوة إلى مدغشقر . وكذلك وصلت سفن الصين ، بدليل أن كثيراً من العملة الصينية التي ترجع إلى القرن الثاني الهجري ( الثامن الميلادي ) والتي لا يبعد أن يكون العرب أو الهنود قد جلبوها معهم قد عثر عليها في ساحل إفريقيا . ولا يبعد أن يكون الصيغون أنفسهم قد تعاملوا مع أهالي هذه البلاد ، لأن الكتب الصينية القديمة تتضمن إشارات إلى شرقي هذه القارة ، كما تتحدث بعض الكتب الصينية التي ترجع إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر عن زنجبار وعن أهلها من العرب الذين يرتدون عباءات زرقاء مصنوعة من القطن ويتعلون بنعال حمراء .

ومن ذلك يتضح أنه كان لشرقي إفريقيا نصيب من هذه العلاقات التجارية في المحيط الهندي في العصور الوسطى . فقد وجدت سلع الهند طريقها إلى أوروبا عبر آسيا . وأهم هذه السلع : العاج الذي يكثر في هذه البلاد حيث تكثر الفيلة التي تستخدم في الحروب أو في أغراض أخرى . كذلك وجد الذهب في مناجم روديسيا ، وكان الخشب يحمل

(١) وهي إحدى ولايات ماليزيا التي تضم سنغافوره والملايو وشمال برنيو وسرواك ( بفتح السين والراء ) .

من زنجبار إلى بلاد العرب . ولا ننسى تجارة الرقيق التي كانت تعدّ السلعة الأولى في هذه التجارة .

غير أن هذه العلاقات التجارية التي قامت بين بلاد العرب وشرق إفريقيا لم تتوطد إلا بزوح العرب إلى هذه البلاد واستقرارهم فيها . وقد شامت الصدق أن يكون هؤلاء المهاجرون من جنوبي الجزيرة العربية ، وأن يؤسس هؤلاء العرب إمبراطورية عربية تشر نفوذها على الساحل الشرقي لهذه القارة<sup>(١)</sup> .

وقد حاول دعاة المسلمين أن يشقوا طريقهم إلى بلاد الحبشة وأن ينتشروا على حدودها الشرقية ، بالإضافة إلى من كان ينفذ إلى هذه البلاد من تجار المسلمين . وكان هؤلاء الدعاة والتجار ينفذون إلى شرقي القارة الإفريقية عن طريق بلاد اليمن وحضرموت والبحرين ومصوع وزيلع وبربرة ووزنبار ومدغشقر . وقد أخذ الإسلام يشق طريقه معهم إلى بلاد الحبشة والصومال ، ليس عن طريق الفتح والغزو خشب ، بل عن طريق التجارة كذلك ، حيث أخذ التجار المسلمون ينفذون على هذه البلاد ويدخلون الكثيرين من أهلها في الإسلام . ومن الساحل الشرقي نفذ الإسلام إلى نياسالاند ، بل لقد نفذ إلى كينيا وأوغندا وتنجانيقا ، وإلى أقصى جنوبي القارة الإفريقية<sup>(٢)</sup> .

ويمكن أن نلخص المسالك التي سلكها الإسلام وانتشرت منها التجارة إلى القارة الإفريقية فيما يلي :

١ — طريق شمالي إفريقيا : مصر ، برقة ، طرابلس ، إفريقيا ( بلاد تونس ) ، المغرب الأوسط ( الجزائر وجزء من مراکش ) ، بلاد السوس الأقصى إلى مصب السنغال . ويتبع هذا الطريق طريق بحري بعد نحو البحرية الإسلامية : من ثغور الشام ومصر إلى ثغور المغرب الأقصى ( مراکش ) .

٢ — طريق صحراوي : من واحات مصر العربية ماراً بجنوبي بلاد المغرب حتى غربي القارة الإفريقية .

---

(١) Coolpand, East Africa and Its Invaders, pp. 15 — 21

أنظر حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ( الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٩٦٥ ) ص ٢٧ — ٢٨ .

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ترجمة ص ٣٨١ — ٣٨٧ .

٣ — طريق القوافل : من بلاد المغرب الأقصى إلى شمالي السودان ، ولاسيما من جنوبي تونس إلى بلاد برنو غربي بحيرة شاد ، ومن جنوبي الجزائر إلى بلاد « الحوصا » شمال « نيجيريا » ، ومن جنوبي مراكش إلى مصب السنغال ومنحني النيجر .

٤ — والطريق الرابع يسير عبر الصحراء الشرقية ووادي النيل إلى بلاد النوبة وشمالي السودان .

٥ — والطريق الخامس من جنوبي بلاد العرب إلى ساحل أفريقيا الشرقية (١) .

وكان لاختراع البوصلة التي تهتدي بها السفن التي تبحر عباب المحيطات والبحار أثر كبير في اتساع نطاق تبادل السلع وتمهيد السبيل أمام الرحالة والمكتشفين . وإلى الصين يرجع الفضل في اختراع هذه الآلة التي لم تعرفها أوروبا قبل القرن السادس الهجري ( الثاني عشر الميلادي ) ، أي قبل عصر كريستوفر كولمبس مكتشف القاره الأمريكية سنة ١٤٩٣ م . وقد ذهب ابن عذارى (٢) المراكشي المتوفى في أواخر القرن السابع الهجري ( الثالث عشر الميلادي ) إلى أن اختراع البوصلة كان في القرن الحادي عشر الميلادي ، وقيل في القرن الثاني عشر .

وإلى الشرق يرجع الفضل أيضاً في اختراع أم وسائل المواصلات التي كان لها أثر كبير في تقدم الحضارة الإسلامية : كالعربة ذات العجلات ، وحمام الزاجل ، والجل . وكان استخدام الجمل في شمالي القارة الإفريقية من الأحداث الهامة التي أدت إلى ربط أجزاء الدولة الإسلامية ونمو العلاقات الإقتصادية والثقافية بين أفريقيا وآسيا من ناحية ، وبين الشرق والغرب من ناحية أخرى ، وبين المغرب الأقصى والممالك والإمارات الإسلامية بحوض السنغال والنيجر . كما أثبت التاريخ أن يوسف بن ناشفين مؤسس الدولة المرابطية قد استعمل الجمل في حربه ضد النصارى في موقعة الزلاقة الشهيرة ٤٧٩ هـ . وقد علل أكثر مؤرخي الغرب بأن ذلك كان من عوامل انتصاره في هذه الموقعة ، إذ ذعرت خيول النصارى من الجمل التي لم ترها من قبل ، كما أن أهل الأندلس لم يكونوا قد رأوا قط جملاً من قبل ولا كانت خيلهم قد رأت صورها أو سمعت أصواتها .

(١) حسن إبراهيم حسن انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ٣٦ .

(٢) كتاب المغرب و أخبار المغرب طبعة دوزي ( ليدن ١٨٤٨ — ١٨٥١ ، باريس

وقد اشتهرت بلاد العرب بكثرة الجمال ذات السنام الواحد ، واشتهرت بلخ ببلاد ماوراء النهر ( أى نهر جيحون ) بالجمال ذات السنامين ( وتسمى البخاني بفتح الباء والخاء ) . وكانت الخيل التي كثر استعمالها في أوروبا فيما بعد ، تجلب إلى بغداد حاضرة الدولة العباسية ، من بلاد العرب ، ولاسيما من بلاد الحسا ( أو الأحساء ) على الخليج العربي ، كما جلب العرب الجاموس من موطنه الأصلي وهو بلاد الهند ، حيث نقل إلى العراق في عهد الدولة الأموية (١) .

### (١) طرق التجارة :

أما وقد ذكرنا شيئاً عن عناية خلفاء المسلمين بالتجارة التي احتلت في العصر العباسي الثاني المسكنة الأولى في التجارة العالمية ، يحسن أن نذكر أشهر طرق التجارة بين الشرق والغرب . والطريق الأول من الغرب إلى الشرق عن طريق مصر . ويبدأ من مقاطعة بروفانس بفرنسا ، ويقوم به اليهود ، ويسمى المسلمون في ذلك الحين تجار البحر أو اليهود الراذانية نسبة إلى نهر الرون ، ويتكلمون العربية والفارسية واليونانية والفرنسية والصقلية . ويجلب هؤلاء اليهود من الغرب الجوارى والعلمان والديباج وجلود الخنزير (٢) . ثم أطلق هذا الاسم على الثوب المأخوذ من وبر الخنزير . وترسو سفنهم عند القرما ( وكانت من أهم الموانئ التجارية في ذلك الحين ) ، ثم يحملون هذه السلع على دواب الحمل إلى القلزم وهي مدينة السويس الحالية (٣) . أو إلى الاسكندرية ، وكانت ملتقى التجارة العالمية ، ومنها تنقل إلى القسطنطينية كبر مدن مصر التجارية في ذلك الحين ، أو إلى القاهرة حاضرة الفاطميين والأيوبيين ومن جاء بعدهم من الحكام عن طريق النيل .

يقول « هيد » في كتابه تاريخ التجارة في حوض البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى (٤) نقلاً عن ابن خردادبة إن السلع كانت تنقل من القسطنطينية إلى القلزم ، ومنها تنقل عبر البحر الأحمر مارة بموانئ الهامة مثل جدة ( وهي ميناء مكة المكرمة ) حتى تصل إلى الهند والصين . ويحمل التجار في عودتهم سلع المشرق كالمسك والعود

(١) مآثر الحضارة الإسلامية ترجمة أبي ريده ، ج ٢ ص ٢٨١ - ٢٩٤ .

(٢) الخزاسم دابة وقيل هو الذكر من الأرناب ويطلق فيعرف به الحرير في العراق .

(٣) ابن خردادبة . المسالك ص ١٥٤ .

(٤) ج ١ ص ٤١ .

والكافور والدارصيني . فإذا وصلوا إلى القلزم اتجهوا إلى الفرما أو إلى الإسكندرية ،  
ومنها إلى بروفانس ، وأحياناً يقصد بعضهم الإسكندرية .

ثانياً — والطريق الثاني يبدأ بجزء من بروفانس على أيدي تجار اليهود الراذنية إلى المشرق  
صوب أنطاكية حيث تنقل السلع على الدواب إلى بغداد عن طريق نهر الفرات وجداوله ،  
ثم إلى الأيلة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الفارسي ، ثم إلى عمان والهند والصين .

ثالثاً — والطريق الثالث يبدأ من شمالي روسيا إلى المشرق عن طريق بحر قزوين ،  
ثم إلى مرو وحاضرة خراسان ، فبلخ وبخارى وسمرقند ببلاد ما وراء النهر ومنها إلى  
الصين ، ويحمل هؤلاء التجار معهم جلود الخنزير وجلود الثعالب والسيوف والشمع  
والعسل ، وكان المسلمون يأخذون الجزية من هؤلاء التجار باعتبارهم المسيحيين .

وعما جعل لهذا الطريق أهمية تجارية اعتناق أهل الفلجا الإسلام في أوائل القرن الرابع  
الهجري ( العاشر الميلادي ) . وينبغي ألا ننسى فتوح محمود الغزنوي في بلاد الهند التي  
قيل إنه غزاها ثلاث عشرة غزوة ونشر الإسلام في ربوعها ، وما كان لهذه الفتوح من  
أثر في رواج التجارة ، ويرجع وجود النقود الإسلامية التي كشفت في شمالي أوروبا إلى  
هذا العصر ، وقد أصبحت بلاد الروس منذ ذلك الحين طريقاً هاماً بين شمالي أوروبا  
وببلاد الشرق الإسلامي .

والطريق الرابع هو الطريق البري ، ويبدأ من بلاد الأندلس إلى طنجة عبر مضيق  
جبل طارق يجتاز المغرب الأقصى عن طريق سبتة والمغرب الأدنى عن طريق تلمسان  
وهران والقيروان والمهدية والمغرب الأدنى عن طريق طرابلس وبرقة حتى يصل إلى  
مصر ، ثم يتجه إلى بلاد الشام ماراً بالرملة ودمشق ، ثم إلى العراق ماراً بالكوفة وبغداد  
والبصرة ، ثم إلى فارس ماراً بالآهواز ، ثم إلى كرمان والهند والصين (١) .

وكانت طرق التجارة تسلك طرق البريد . وقد عنى الفاطميون بطرق المواصلات البرية  
التي تسلكها القوافل التي تسير بالتجارة من بلد إلى آخر . فكان هناك طريق للقوافل يصل  
مصر ببلاد المغرب غرباً وبلاد الشام والعراق شرقاً .

(١) ابن خرداذبه . المسالك والممالك من ١٠٤ — ١٠٥ .

### (ب) مراكز التجارة :

ومن أشهر مراكز التجارة أنطاكية على ساحل البحر الأبيض المتوسط الغربي ، وقد حصنها الخليفة العباسي المعتصم . وكانت من أهم مرافق بلاد الشام التجارية<sup>(١)</sup> . كما أصبحت أداة الاتصال بين الشرق والغرب . وغدت الفرما ( وكانت مفتاح الديار المصرية )<sup>(٢)</sup> ، والإسكندرية من المراكز التجارية الهامة بين الشرق والغرب ، تنقل منها التجارة الآتية من أوروبا إلى البحر الأحمر ، والتجارة الآتية من الشرق إلى أوروبا . وكانت الإسكندرية - ولا تزال - أهم موانئ البحر الأبيض المتوسط ؛ فقد إليها السفن حاملة منتجات الشرق والغرب . واشتهرت بمعدن الرخام والحرنوب والزيتون واللوز . وكانت من أهم مراكز صناعة الزيت والصابون<sup>(٣)</sup> وكانت السفن بعد إقلاعها من الإسكندرية ترسو أول الأمر في ميناء برقة حيث تكثر السلع الشرقية والغربية . ومن برقة ترى سلسلة من الموانئ التجارية الهامة مثل طرابلس والمهديّة ووهدان ومليطة وسبته وطنجة . وكانت القسطنطينية عاصمة مصر التجارية في عهد الفاطميين وهي ، كما يقول المقدسي<sup>(٤)</sup> « ناسخ بغداد ومفخر الإسلام ومتجر الأنام وأجل من مدينة السلام ( يعني بغداد ) ، خزانة المغرب ومطرح المشرق ، أهل من نيسابور وأجل من البصرة ، وأكثروا من دمشق . معدن الصلحاء ، طيب الشتاء ، أهل سلامة وعافية » . وكانت أسواق القسطنطينية في غاية النظافة والنظام ، تصطف فيها القياسير والدكاكين العامرة بمختلف أنواع السلع . وإليها ترد تجارة الشام والموصل والعراق وغيرها من بلاد المشرق الإسلامي .

ومن مراكز التجارة في مصر في العصر الفاطمي . مدينة أسوان ، وكانت قصبه إقليم الصعيد ، وكانت — ولا تزال — سوقاً لتجارة النوبة والسودان .

وتلي مدينة القسطنطينية في الأهمية مدينة دمياط ثالثة الثغور التي تقع على ساحل مصر الشرقي ، وهي تنيس والفرما ودمياط ، وقد برزت دمياط في ميدان التجارة والصناعة وأضحت في العصر الفاطمي مركزاً هاماً لصناعة النسيج ، كما كانت تبنى فيها السفن التجارية والحربية . ولعبت دمياط دوراً بارزاً في قصة الصراع بين المسلمين والصليبيين .

Heyd, tome I, pp. 43—44

(١)

(٢) اشتهرت بمصايد الأسماك ، المقدسي ( أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ) ص ١٩٥ .

(٣) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ص

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٩٩ — ١٩٦ .

ومن مراكز التجارة في العصور الوسطى عيذاب ( بفتح العين وتسكين الياء ) على ساحل البحر الأحمر . وقد نافست ميناء القصر ، ولعبت دوراً هاماً في تجارة البحر الأحمر . وازدهرت عيذاب في القرنين الخامس والسادس للهجرة لنحول طريق التجارة الفاطمية إلى الجنوب بسبب اشتداد النزاع بين الفاطميين والسلاجقة الذين كانوا أصحاب النفوذ في بغداد حاضرة الدولة العباسية في ذلك العصر ، ثم لاستيلاء الصليبيين على أيلة ( بفتح الألف وسكون الباء وفتح اللام ) الواقعة على زاوية خليج العقبة سنة ( ٥١٠ هـ ) ١١١٦ م . وقد ذكر ابن جبير (١) أن أهل عيذاب جمعوا ثروة طائلة من السفن التي كانوا يمتلكونها ، وكانوا يحترفون التجارة وينقلون الحجاج ويقومون بصيد اللؤلؤ في شهرى يونية ويولية من كل سنة .

وكان التجار والحجاج يقدون إلى ثغر عيذاب عن أحد طريقين : أحدهما طريق قوص ويتفرع إلى فرعين ؛ أحدهما يعرف بطريق « العبدین » ، ويعرف الثاني بطريق « دون » وهي قرية على شاطئ النيل . أما الطريق الثاني فهو طريق مدينة أسوان .

وعلى الرغم من شدة الحرارة وقلة الماء في هذا الطريق في الصيف ، يمتاز عن الطريق الأول بقصره ، فكانت القوافل تقطعه في خمسة عشر يوماً . كما يمتاز هذا الطريق بخلوه من الجبال المتشابكة التي تكثرت في الطريق الأول . أضف إلى ذلك أن أسوان كانت ثغراً هاماً للتجارة مع بلاد النوبة . لذلك كان المسافرون يفضلون طريق أسوان على طريق مدينة قوص . وكانت المراكب تسير بالحجاج شرقاً إلى جدة ميناء الحجاز ، أو بالسلع جنوباً إلى بلاد اليمن وعدن حيث تستأنف سيرها إلى سواحل بلاد الهند والصين ، ثم تعود محملة بالبضائع إلى عيذاب ، ومنها إلى الساحل المصرى . لذلك كانت عيذاب من أعظم مراسى الدنيا ، لأن مراكب الهند واليمن كانت تفرع فيها بالبضائع ، ويقبل منها الحجاج في ذهابهم وإيابهم .

وبما لا شك فيه أن تحول طريق التجارة إلى الجنوب قد أدى إلى انتعاش كبير في حالة عيذاب الاقتصادية ، لما تبع هذا التحول من جباية المكوس على السلع التي تمر بها ، أو الاستيلاء على جزء منها للاستهلاك المحلى ، كما استفاد الأهالى من اشتغال عدد كبير منهم في شحن السلع وتفريغها ، مما أدى إلى رخاء أهل عيذاب ونشر الأمن بينهم .

(١) رحلة ابن جبير ص ٣٥ - ٤٢ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٠٢ - ٦٠٣

وقد ظل حجاج مصر والمغرب يذهبون إلى مكة لأداء فريضة الحج عبر صحراء عيذاب التي لم تزل طريقاً للحجاج في ذهابهم وإيابهم أكثر من مائتي سنة (٥٤٦٠ — ٥٦٦٠) .  
ففي الشدة المظلمى في عهد المستنصر الماطمى انقطع الحج برأ ، وظلت الحال على ذلك حتى كسا السلطان بيبرس الكعبة وعمل لها مفتاحاً ، ثم أرسل قوافل الحج برأ في سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧ — ١٢٦٨ م) (١) .

وكانت مصر في عهد الفاطميين (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) ترتبط بعلاقات تجارية مع كثير من بلدان أوروبا وبلدان الشرق ، فكان تجار مدينة « أمالفي » الإيطالية يجلبون المنسوجات الحريرية من مصر والشام ، ويجلبون من مصر مهرة الصناعات لتزيين قصورهم بالفسيفساء . وكان لأهل « أمالفي » حتى خاص بهم في مدينة أنطاكية كما كان لهم كثير من الفنادق بمدينة الإسكندرية (٢) . وأخذت مراكب جنوة تشرق طريقها إلى موانئ مصر والشام وتحمل حجاج المسيحيين إلى يافا حيث يذهبون إلى بيت المقدس ، ويذهب تجار جنوة إلى أسواق مصر ليجلبوا الفلفل وجوز الطيب والقرنفل والشب والنظرون التي كان الفاطميون يحتكرون تجارتها . كما كان لأهل جنوة جالية بالإسكندرية ، وقد أقامت حكومة البندقية علاقات تجارية واسعة مع الفاطميين في مصر ونقلت سفنها منتوجات آسيا إلى أوروبا (٣) .

وكانت الدولة البيزنطية ، برغم سوء علاقاتها مع مصر ، بحاجة إلى المصنوعات المصرية الممتازة التي تفتجها مصانع تنيس ودمياط ، ويقبل عليها الإباطرة لتزيين قصورهم . واحتلت المنسوجات المصرية مكانة مرموقة في أسواق القسطنطينية حيث كان المصريون يجلبون القراء الوارد من بلاد الروس ، وكان القسطنطينية حتى يقيم فيه تجار الروم (٤) .

وكانت العلاقات التجارية بين مصر وصقلية وثيقة في العصر الفاطمى ؛ فكانت أكثر السفن تعلق من مصر إلى إيطاليا وجنوبي فرنسا مارة بوانى صقلية لتبيع ما تحمله من منتوجات مصر وتحصل في مقابلها على قمح صقلية وفواكهها ومعادنها (٥) .

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٦ — ٥٩٧ .

(٢) Hedy, tome 1, pp. 104—106.

(٣) Ibid, tome 1, pp. 107—129.

(٤) Ibid, tome 1, p. 58.

(٥) المقرئى : خطط ج ١ ص ٩٦ .



ولم تقطع علاقة القاطمين ببلاد المغرب بعد انتقال حاضرة خلافتهم إلى مصر . فقد كانت سفن المغاربة تفلح إلى مصر تحمل حجاج المغاربة كما تقدم أو تبتاع غلات بلاد العرب والحبشة والهند . وقد ذكر أبو عبيد البكري أن سفن مصر كانت تحمل غلات بلاد المغرب مثل زيت الزيتون والفاكهة ، وتسير السفن إلى المهديّة التي بناها عبيد الله المهدي في إفريقية (بلاد تونس الحالية) وتستمر في سيرها إلى المغرب الأقصى وتعود محملة بالسلع إلى الإسكندرية<sup>(١)</sup> .

وكان من أثر تقدم المسلمين في فن الملاحة أن أخذ الشرق الإسلامي يتصل ببلاد الأندلس ، وأدى ذلك إلى قيام علاقات تجارية بينها وبين سائر البلاد الإسلامية ، حاملة منتجات هذه البلاد ، وكانت الأساطيل التجارية التي ترسو في موانئ إشبيلية ومالقة (بفتح اللام والقاف) ودانية والمرية (بفتح الميم وكسر الراء وفتح الياء مع التشديد) تنقل إلى جميع موانئ البحر الأبيض المتوسط محاصيل الأندلس ومنتجات مصانع المدن الأندلسية والمغربية . ونذكر على سبيل المثال أغذية جنجالة وسجاجيد بسطه (بفتح الباء وسكون السين) وفراء سرقطة (بفتح السين والراء وضم القاف وسكون السين) وأواني مالقة الفخارية المذهبة ، وحلى قرطبة المنقوشة وجلودها ، وأسلحة طليطلة ، وورق مالقة السميك . وقد شاهد ناصر خسرو<sup>(٢)</sup> في أسواق الفسطاط قطعة من البللور الصخري واردة من بلاد المغرب<sup>(٣)</sup> .

وكانت هذه العلاقات التجارية مستمرة مع مصر التي أصبح تأثيرها على الأندلس قوياً ، كما تدل على ذلك النقوش التي أثبتت وجود هذه العلاقات التجارية . فقد وجد اسم تاجر من الإسكندرية مات في ميناء المرية سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) منقوشاً على أحد قبور المدينة ، يدل على أنه مات في أثناء سفره في العهد الذي كانت المرية تصنع أقنعة فاخرة ذات شهرة عالمية . وفي هذه الحقبة كان الأندلس مغريباً في عهد المرابطين . ويذكر البكري<sup>(٣)</sup> أن برقة كانت تصدر إلى مصر الذبائح كما تفعل اليوم ، والصوف والعسل والقطران ، وأن القوافل كانت تحمل منتوجات السودان وغانة وحوض السنغال والنيجر إلى واحات مصر ، فتحمل التبر وبعض السلع التي ينتجها إقليم الواحات .

(١) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٥ ، ٣٠ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٨٢ .

(٢) Sefar Namèh, p. 149.

(٣) المغرب ص ٥ .

وكان للمغرب علاقات تجارية واسعة مع أهالي البلاد الواقعة جنوبي الصحراء بين المغرب وبلاد السودان . فقد قال الشريف الإدريسي (١) عند كلامه على مملكة غانة : ومدينة ملال إلى مدينة غانة الكبرى نحو من اثني عشرة مرحلة في رمال ودماس (قفار) لا ماء بها . وغانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو (يقصد نهر النيجر) . وهي أكبر بلاد السودان قطراً وأكثرها خلفاً وأوسعها متجراً . وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها ومن سائر بلاد المغرب الأقصى . وأهلها مسلدون ، وملكها فيما يوصف من ذرية صالح بن الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . وهو يخطب لنفسه ، ولكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي . وله قصر على ضفة النيل (يقصد به نهر النيجر أيضاً) قد أوثق بنيانه وأحكم إنشائه ، وزينت مساكنه بضروب من النقوش والأدهان وشمسيات الزجاج . وكان بنيان هذا القصر في عام عشر وخمسمائة من سني الهجرة .

وقد ذكر الشريف الإدريسي (٢) أنه كان بنهر النيجر جزيرة تقع شرقي مدينة غانة ، طولها ثلثمائة ميل وعرضها مائة ميل . ويحيط بها النهر في سائر السنة . ويطلق الإدريسي على هذا النهر اسم النيل ، ولعله يظن أن نهر النيجر هو امتداد لنهر النيل . وبعد انتهاء موسم الفيضان في شهر أغسطس وانخفاض مياه هذا النهر ، يقصد أهالي هذه الجهات الجزيرة بحثاً عن التبر ، « فيجد كل إنسان منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيراً أو قليلاً من التبر . وما يخيب منهم أحد . فإذا عاد النيل (أي النيجر) إلى حده باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر وتاجر بعضهم بعضاً ، واشترى أكثره أرقلان (بفتح الألف مع الهمزة وسكون الراء وفتح القاف) وأهل المغرب الأقصى ، وأخرجوه إلى دور السكك (أي دور صك النقود) في بلادهم فيضربونه دنانير ويتصرفون بها في التجارات والبضائع ، هكذا في كل سنة .

وقد ذكر السلاوي (٣) نقلاً عن أبي العباس أحمد الشريشي صاحب كتاب شرح المقامات الحريرية أن تجار المغرب كانوا يجتمعون في سجلماسة حاضرة بني مدرار ، ثم يسرون في قوافلهم إلى غانة ، فيقطعون المسافة في ثلاثة أشهر ذهاباً وشهر ونصف إياباً ،

---

(١) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (نصوص من هذا الكتاب بعنوان « الغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » ص ٦ .  
(٢) المصدر نفسه ص ٨ .  
(٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٥ ص ٩٩ — ١٠٠ .

فيبيعون ما معهم من الأمتعة والأثقال بالتبر . ويحدثنا الشريشى أن التاجر المغربي كان إذا سافر إلى غانة بثلاثين حملاً ، رجع منها بثلاثة أحمال أو حملين : واحد لركوبه وثان للنام وذلك بسبب اختراقه المقارة . وكان التجار يقطعون هذه المقارة في ستة عشر يوماً لا يرون فيها ماء إلا ما حملوه على ظهور إبلهم . وقد أضاف الشريشى إلى ما تقدم أن أثمان أحمال الثلاثين حملاً يوضع فيها من التبر ما يملأ مزوداً (١) واحداً وهذا يؤيد رأى الشريف الإدريسي في استخراج التبر واستعماله في هذا العصر (٢) .

وقد جاءت عظمة غانة عن طريق اشتغالها بالتجارة وموقعها عند أطراف الصحراء الكبرى . وكان التجار البيض المستقرون يستطيعون التحكم في التجارة السودانية من الذهب والرقيق ، وأن يبادلوا بالسلع التي تحملها القوافل من المغرب الأقصى ، وهي ملح الطعام والنحاس والفواكه المجففة . ويوجد الذهب في بلاد تسمى ونقاره (بفتح الواو والراء وسكون النون) (Wangara) ، وكانت تقع خارج حدود مملكة غانة . وكانت شعوب الماندنجو يستخرجون الذهب من هذه الجهات ويبادلونه بالملح والسلع الأخرى المجلوبة من غانة . ويتم التبادل بطريقة تسمى التبادل الصامت (Dumb Barter) . ذلك أن تجار غانة يضعون متاجرهم على شاطئ أحد الأنهار ثم يختفون عن الأنظار ، فيتقدم أصحاب التبر إلى هذا المكان ويضعون بحوار هذه السلع قيمتها تبرا ، ثم ينسحبون . فيظهر أهل غانة من مخابثهم ، فإذا رضوا بكمية الذهب أخذوها ، وإن لم يرضوا اختفوا مرة أخرى حتى تزداد الكمية . وكانت هذه الطريقة في المبادلة شائعة في القارة الإفريقية في العصور الوسطى .

وكانت تجارة الذهب تلعب دوراً هاماً في اقتصاديات العصور الوسطى ؛ فكانت تصدر إلى بلاد المغرب وإلى غربي أوروبا (٣) .

وحول منتصف القرن السابع الميلادي أحرز بعض قبائل لمطة (بفتح اللام وسكون الميم وفتح الطاء) البربرية في المغرب الأقصى نفوذاً سياسياً على زراع مملكة صنهاجى (بضم الصاد

(١) المزود مخللة بوضع فيها العلف للبعير ، والمزود كذلك هو موضع وضع علف الحيوانات في الحظائر .

(٢) انظر حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية س ٧٤ — ٧٥ .

(٣) انظر حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية س ٩٨ .

وسكون النون) الذين استقروا على الضفة اليسرى لنهر النيجر عند مدينة (Dendi)<sup>(١)</sup> ، واستطاع هؤلاء البربر أن يؤسسوا أسرة حاكمة تسمى ديا (Dia) حكمت هذه البلاد حتى سنة ١٣٢٥ م واتخذت كوكيا حاضرة لهم<sup>(٢)</sup>.

وقد تمت علاقات هذه البلاد التجارية مع غانة وتونس وبرقة ومصر عن طريق تاد\* مكة (أى مكة الجديدة) الذى يعد مركزاً هاماً لطرق القوافل . وكانت هذه العلاقات التجارية ذات أثر بعيد فى تحول ملوك هذه البلاد إلى الإسلام فى القرن الحادى عشر الميلادى عن طريق شمالى لإفريقية ، وإن كان كثير من رعاياهم قد ظل على الوثنية .

وفى ذلك الوقت نقلت حاضرة هذه البلاد على مقربة من طرق القوافل الرئيسى : إلى مدينة جوا (بضم الجيم) عند منحى نهر النيجر . وقد أصبحت هذه المدينة من أهم مراكز التجارة فى السودان الغربى ، وهى تشبه مدينة غانة بالنسبة إلى البلاد الواقعة فى أعلى النيجر<sup>(٣)</sup>.

### (ح) الأسواق :

وقد اعتاد المسلمون أن يقيموا الأسواق فى أوقات معينة فى المدن التجارية الهامة التى تعتمد على الأسواق . وتقيم كل طائفة من التجار فى قسم من أقسام هذه الأسواق ، ولا يعودون إلى دورهم إلا فى المساء .

أما أسواق المدن فكانت تقام فى أيام معينة من الأسبوع ، وكانت الحوانيت فى مصر والشام وفلسطين والمغرب تمتد على طول الشوارع من الجانبين وحققت للتجار الغرباء فنادق أشبه بالأسواق الكبيرة . ويضع التجار - كما يذكر ابن الفقيه<sup>(٤)</sup> بضائعهم فى أسفلها وينامون فى أعلاها ويعلقون غرفهم بأقفال رومية . ويطلق على هذه الأسواق أو المخازن (depots) : الفنادق أو القياسر مفردة قيسارية .

(١) للوقوف على نشأة هذه المملكة راجع السعدى : تاريخ السودان (طبعة باريس ١٩٨) ص ٣٣ وما يليها . راجع كتاب الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٦٩ .

(٢) لا يعرف موقعها بالضبط ، ويمكن أن يقال لأنها تقع على حدود نيجيريا فى المنطقة الشمالية الغربية .

(٣) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فى القارة الإفريقية ص ٦٦ — ٦٧ .

(٤) كتاب البلدان ص ٥١ .

وهناك خانات أو مخازن كبرق ، كدار البطيخ بالبصرة ، ترد إليها جميع أصناف الفاكهة<sup>(١)</sup> . أما في بلاد المشرق الاسلامي ، فكانت الحوانيت تكون صفوفاً في مكان واحد .

كان الرومان يحكمون شمالى أفريقيا ، وقد أطلق على إمبراطورهم اسم « قيصر » . وكان بكل مدينة سوق كبيرة أطلق عليها اسم قيسارية ( تحريف قيصرية ) نسبة إلى قيصر . ويعمل المؤرخون الافارقة ذلك بأن الموظفين الرومانيين كان لهم في داخل المدن فنادق وحوانيت يبيعون فيها ما يتقاضونه من هذه المدن عيناً ( أى سلعاً ) كضرائب وإتاوات ، ثم يبيعون هذه السلع في تلك الحوانيت والفنادق في داخل المدن . وكثيراً ما كان الاهالي ينهبون هذه المخازن . لذلك رأى أباطرة الرومان أن يشتموا في كل مدينة حياً صغيراً يجتمع فيه التجار ويحفظون فيه سلعهم ، ويخزن الموظفين المكلفون بالجبايات كل ما يحصلون عليه من السلع ، وإذا أراد رجال المدينة أن يدافعوا عن أموالهم الخاصة اضطروا إلى أن يدافعوا ويحافظوا على أموال الإمبراطورية ويحولوا بذلك دون نهبها<sup>(٢)</sup> .

وكانت الدولة الفاطمية تجبي مبالغ كبيرة من الجمارك أو المكوس المفروضة على الصادرات والواردات . فكانت السفينة إذا رست في الميناء صعد إليها موظفون معينون سماهم ابن جبير « الأماناء » ، ومهنتهم « تقييد جميع ما جلب فيها من بضائع ، ثم يساق التجار بعد ذلك إلى مكان التفتيش<sup>(٣)</sup> » . وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى مقاومة التهريب حتى لا تفلت البضائع من الرسوم المقررة عليها . أما القوافل فإنها لم تسكد تصل إلى حدود البلاد حتى يهرع إليها الأماناء لتحصيل الرسوم المستحقة عليها<sup>(٤)</sup> .

وكانت الدولة تتقاضى من تجار الروم الواردين على الثغور خمس ثمن السلع ، ومن الروم ١٠٪<sup>(٥)</sup> . وكانت نسبة الرسوم تبلغ أحياناً ٣٥٪ من قيمة السلع ، وقد تنخفض

(١) متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ٣٢٧ .

(٢) الحسن الوزان ( ليون الإفريقي ) . Description de l'Afrique, p. 199 .

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٧ .

(٤) ابن سمانى : قوانين الدواوين ص ٣٤٩ .

(٥) المصدر نفسه ص ٣٢٦ .

إلى ٢٠٪<sup>(١)</sup>، ويرجع ذلك إلى اختلاف أنواع السلع وقيمتها وجذسيات التجار. فكان تجار المسلمين الوافدون من الشرق أو الغرب يؤدون رسوماً أقل مما يؤديه تجار المسيحيين. ولم يكن التجار الأوربيون يعاملون معاملة واحدة؛ فكانت الرسوم الجمركية تخفض على واردات دور الصناعة، من الخشب والحديد بسبب حاجة الدولة إلى هذه المواد. هذا عدا رسوم إضافية يدفعها التجار مقابل استخدام المترجمين والمحالين وعمليات الوزن<sup>(٢)</sup>.

ولإذ وصلت السلع إلى الميناء نقلت إلى الفندق أو الوكالة حيث يجري ثمنها بواسطة سماسة تعينهم الدولة التي تستولى على ما تحتاج إليه من بعض المواد كالحديد والخشب والقطران<sup>(٣)</sup>، وتسمح للتجار الأوربيين بإقامة الفنادق في الموانئ الهامة، ولكل جالية أوربية فندقها الخاص، تقيم فيه وتحفظ فيه بضائعها. وبضم الفندق كنيسة صغيرة يقيمون فيها شعائرهم الدينية، وفرن يصنعون فيه الخبز، وحمام، ودار لصنع النبيذ. وتختار الجالية واحداً من أفرادها يطلق عليه اسم الفندق للإشراف على الفندق، وهو مسئول أمام الحكومة<sup>(٤)</sup>.

ويبدو أن الفنادق لم تكن منتشرة في الموانئ الخشب، بل كانت منتشرة أيضاً في داخل البلاد: فقد ذكر ابن حوقل أنه كانت هنالك فنادق بمحلة صرد والبجوم والسكريون<sup>(٥)</sup>. ولا يبعد أن يكون عدد هذه الفنادق قد تضاعف في العصر الفاطمي بسبب رواج التجارة ووفرة رموس الأموال وشدة إقبال التجار الأجانب على ارتياد أسواق مصر<sup>(٦)</sup>.

وكان التجار المسلمون يقيمون وكالات خاصة بهم بمثابة مخازن لبضائعهم ومنازل يقيمون بها عند ما يقيمون بمصر. وتصبح هذه الوكالات صلة بينهم وبين التجار المصريين

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٣.

(٢) Heyd, tome, I. pp. 391 — 392.

(٣) ابن نباتي ص ٣٢٧.

(٤) المقرئزي (خطط ج ٢ ص ٩٢ - ٩٤) ومنها فندق بلال الميمني حيث تباع صنابير الذهب والفضة، وفندق الصالح، وفندق ابن قريش، وفندق دار التفاح حيث ترد إليه الفواكه التي تنبت في بساين ضواحي القاهرة من التفاح والسكرتري والسفرجل. وتنقل من هذا الفندق إلى سائر أسواق القاهرة، وفندق طرناطى وينزل به تجار الزيت الوافدون من الشام.

(٥) ابن حوقل: المسالك والممالك ص ٨٩، ٩٠، ٩١.

(٦) البراوي ص ٢٢١.

الذين كانوا بدورهم ينشئون وكالات من هذا النوع في بلاد الشام والعراق والحجاز (١) . أما القياسر فهي « كالخان العظيم تغلق عليها أبواب حديد ، وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض (٢) » . والقيسارية مجموعة من المباني العامة على هيئة رواق من أروقة الدير ، وبها حوانيت ومصانع ومخازن ، وأحياناً مساكن (٣) . وقد كثرت القياسر في العصر الفاطمي وعمرت بالتجار الوافدين عليها من كل فج (٤) . كما كثرت الخانات بمصر في ذلك العهد (٥) وارتفعت لإيجاراتها ، حتى بلغ لإيجار الخان بمدينة القسقاط إثني ألف دينار في السنة (٦) .

وقد وصف المقدسي (٧) أسواق القسقاط في عهد الفاطميين فقال : « به أطعمة لطيفة وأدامات (بضم الالف مع الهمزة) نظيفة ، وحلاوات رخيصة ، كثير الموز والرطب ، غزير البقول والحطب ، خفيف الماء صحيح الهواء » ، وكانت أسواقها في غاية النظافة والنظام ، وتصطف فيها القياسر والدكاكين العامرة بمختلف أنواع السلع ، وقد بلغ من ازدحام أسواقها بالناس أن شبهت بالجوامع . ومن أشهر أسواقها : سوق القناديل ، وقد بلغ من روعة هذه الأسواق ما ذكره المقدسي (٨) الذي شاهد المدن العظام . فقال :

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٦٢ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٤١ .

(٣) انظر مادة قيسارية في دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) أمدا للقرنزي (خطط ج ٢ ص ٨٦ - ٩١) بكلام مستفيض عن القياسر في مصر . ومن هذه القياسر : قيسارية ابن قريش ، وقيسارية الشرب ، وقيسارية ابن أبي أسامة ، وقيسارية بيبرس ، وقيسارية سنقر الأشقر ، وقيسارية جهاركس ، وقيسارية العصفر حيث يدق العصفر ، وقيسارية العنبر ، وقيسارية الجامع الطولوني ، وقيسارية ابن ميسر الكبرى حيث يباع الكتان الأبيض والأزرق والطرح ، وقيسارية عبد الباسط وبها مارستان ووكالة .

(٥) ومن أهمها خان مسرور حيث كانت تباع مهمات الأساطيل والرقيق وخان السبيل لإيواء أبناء السبيل والمسافرين بدون أجر ، وخان منكورش ، وخان الخليلي (القرنزي) : خطط ج ٤ ص ٩٣ - ٩٤) .

ويلاحظ أن بعض هذه الفنادق والقياسر والخانات يرجع إلى العهد المملوكي ، فان بعضها لا يزال باقياً حتى الآن .

(٦) انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦١٨ - ٦٢٠ .

(٧) أحسن التقاسيم ص ١٩٧ .

(٨) المصدر نفسه ص ١٩٩ .

« يطول الوصف بنعت أسواقها وجلالاته ؛ غير أنه أجل أمصار المسلمين وأكبر مفاخرهم وآهل بلدانهم » .

وبرغم ازدهام الفسطاط بالسكان ، رخصت أسعارها ، فكان الثلاثون رطلا من الخبز تباع بدرهم ، والبيض تباع الثمانية بدانق ( وهو سدس درهم ) . وكان الموز والرطب في غاية الرخص (١) . ويرد إليها من الصعيد : الأرز والصوف والتور والحل والزبيب ؛ ومن تنيس الثياب الملونة ، ومن دمياط القصب ، ومن الفيوم الأرز والسكتان ، ومن الفرما السمك ، كما كان يرد إليها الجلبان ودهن الفجل والزئبق (٢) .

وقد وصف ناصر خسرو (٣) مدينة الفسطاط بعد المقدسى بنحو نصف قرن ، فقال حين زارها بين سنتي ٤٣٩ و ٤٤١ هـ إن سوق القناديل كان يزخر بالتحف النادرة التي ترد إليها من جميع أنحاء العالم . وأن بها من الخانات ما لا يقل عن ألفي دكان يتراوح إجمار الواحد من دينارين إلى عشرة دنانير ، وبها من السفن أكثر مما كان يبغداد والبصرة ، كما رأى بها عمارات شاهقة بلغ عدد طبقاتها أربعة عشر طباقاً .

ومن مظاهر الحضارة بمدينة الفسطاط في عهد الفاطميين الأسواق التجارية التي كانت عامرة بحوانيت البزازين ( أي بائعي الثياب ) والمأكولات على اختلاف أنواعها . ومن هذه الأسواق : سوق الدجاجين حيث يباع الدجاج والأوز ( بكسر الألف مع الهمزة ) ، وبه حانوت العصافير وآلاف الأقفاس التي بها هذه العصافير وأنواع الطير كالفهاري والحزازات والشحارير والبيغاء والسمانى .

وكان سوق « الحلاويين » من أبهج الأسواق ، يشاهد فيه الأواني وآلات النحاس الثقيلة الوزن البديعة الصنعة . ومن الحلاوات المصففة ، وتسمى المجموعة عدة ألوان . وفي هذا السوق معامل يصنع فيها من أمثال الخيول والسباع والقطط وغيرها ، وتسمى « العلابيق » ، وترفع بخيوط على الحوانيت ، منها ما يزن عشرة أرطال إلى ربع رطل ، وتشتري للأطفال ، ويقبل على شرائها الناس على اختلافهم . وتتملى أسواق الفسطاط والقاهرة وريف مصر بهذا النوع من الحلوى .

(١) المصدر نفسه ١٩٩ .

(٢) المصدر نفسه ٢٠٣ .

(٣) Sefar Namêh, pp 127, 145, 149, 153. (٣)



وقد وصف الحسن الوزان أسواق مدينة فاس وصفاً شائقاً فقال : إنه كان لكل حرفة سوقها الخاص ، وإن أهم هذه الأسواق كان يحيط بجامع القرويين . نذكر من هذه الأسواق على سبيل المثال سوق العدول وكان لهم ثمانون دكاناً ، وسوق الإسكافية حيث تصنع أحذية الأطفال ، وسوق النحاسين ، وسوق الفاكهة ويضم خمسين حانوتاً ، وسوق الزهور . وقد ذكر الوزان أنه إذا شاهد الإنسان كثرة الزهور وتنوعها اعتقد أنه إنما يشاهد أحسن البساتين وأجمل زهور الدنيا ، وبعبارة أخرى خيل إليه أنه يشاهد لوحة تضم أجمل وأزهى الألوان .

ومن أهم أسواق مدينة فاس سوق الحفائب والمحافظ التي تصنع من الجلد الفاخر ، وقد بلغ عدد حوانيته الثلاثمائة .

ومن أسواق فاس سوق الجزارين وسوق الثياب المصنوعة من صوف المغرب ، وسوق الأسلحة ، وسوق السباكين ، وسوق الدجاج ، وسوق الدقيق ، وسوق الخيوط التي يصنع منها نسيج القنب والسكتان والقطن ، وسوق صانعي سروج الخيل ، وسوق الحدادين ، وسوق صانعي الرماح . وهناك أحباء تباع فيها الأغذية الصوفية والثياب الحريرية كالفلانس والمراتب والزرايى الجلدية الصغيرة ، ويشغل الحياطون ثلاثة أحياء . وهناك حتى خاص بطي وخياطة العمام ، وحيان لبائعي المنسوجات والقمصان والثياب النسوية ، وهؤلاء هم أغنى تجار فاس ، ويمجنون من وراء ذلك أرباباً طائلة . ثم يأتي حتى تباع فيه الملابس المصنوعة من النسيج المجلوبة من أوروبا ، وأخيراً يأتي حتى تباع فيه القوط والحصر والقمصان البالية .

وقد ذكر الحسن الوزان عند كلامه على سوق العطارين بمدينة فاس أنه كان يشغل شارفاً مستقيماً به نحو مائة وخمسين حانوتاً . وكان هذا الشارع يغلق من طرفيه بيايين جميلين يمتازان بمتانتهم . وكان العطارون يدفعون أرزاق الحرس الذين يجوبون الشارع خلال الليل ومعهم كلاب وفوانيس (١) .

وذكر المراكشي (٢) أن الخراج بلغ في عهد الموحدين وقر مائة وخمسين بغلام إفريقية وحدها ، عدداً بجاية وأعمالها ، وتلسان وأعمالها ، وأن عبد المؤمن بن علي وجه

(١) نفس للصدر والصفحة .

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٥٥ .

همه لتشجيع الزراعة وإصلاح الحالة الاقتصادية ببلاد الأندلس، وإن الازدهار الاقتصادي الذي عرفه المغرب في عهد الموحدين يرجع إلى اتساع رقعة الدولة الموحدية واستتباب الأمن واستقرار الحياة، وتشجيع التجارة والصناعة التي تتمثل في إنتاج الأسلحة وفي البناء والتشييد ونشر الثقافة وغيرها من مظاهر العمران (١).

وقد روى عباس بن إبراهيم (٢) عن الإدريسي (٣) الذي وصف مراکش في عهد المرابطين بقوله: « وأسواقها مختلفة وسلها نافقة ».

### العمرة:

وإلى الصين يرجع الفضل في إدخال العملة المعدنية والعملة الورقية التي أطلق عليها المسلمون اسم الورق (بفتح الواو وكسر الراء) وأخذها عنهم الأوربيون. ومن المرجح أن الصين قد عرفت هذه النقود قبل الميلاد بنحو تسعة قرون. ويشك بعض في هذا الرأي، فيزعم أن العملة المعدنية اخترعت في بلاد اليونان أولاً، ويذكر بعض آخر أن انتقال هذا النوع كان نتيجة غزوات المغول في القرن الثالث عشر الميلادي.

وكانت العملة المستعملة في الأسواق: العملة الذهبية وهي الدينار، وهي مشتقة من ديناريوس Denarius اليونانية، والفضية وهي الدرهم وهو فارسي الأصل. وكان الدينار شائعاً في البلاد الغربية للدولة الإسلامية، وخاصة في البلاد التي كانت تابعة للدولة البيزنطية قبل الإسلام. أما الدرهم فكان استعماله شائعاً في العراق وفارس. إلا أن استعمال الدينار لم يلبث أن أصبح في القرن الرابع الهجري شائعاً في بلاد العراق وغيرها من البلاد الإسلامية.

وكان الدينار يختلف من حين إلى حين ومن بلد إلى بلد. فتارة يساوي ١٠ دراهم، وتارة يساوي ١٣ درهماً، وتارة أخرى يساوي ١٥ درهماً.

ومن وسائل التعامل الصك. وهو أشبه بالشيك الآن. وقد ذكر الخوارزمي (بضم الخاء وفتح وكسر الراء وسكون الزاي) في كتابه مفاتيح العلوم أن الصك كان يجمع فيه أسماء المستحقين وعددهم وما يستحقونه من المال. ثم يوقع الخليفة أو السلطان أو الأمير

(١) عبد العزيز بن عبد الله: مظاهر الحضارة المغربية ج ٢ ص ٤.

(٢) الإعلام فين حل مراکش وأغاث من الأعلام ج ١ ص ٦٣ وما يليها.

(٣) نزهة المشتاق (نصوس بعنوان المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس) ص ٦٧.

بتوقيعه في آخر الصك باعتماد دفع هذه الأرزاق أو الرواتب . وكثيراً ما ذكر الفردوسى لفظ « شيك » .

ومع هذا الاختراع انتقلت الألفاظ والاصطلاحات الخاصة به ؛ وهي ترجع إلى أصل فارسي أو عربي . وما زالت هذه الصكوك متداولة في اللغات الأوربية حتى اليوم . ففي اللغة الهندية مثلاً ( ويطلق عليها الأردية بضم الألف مع الهمزة وفتح الياء مع التشديد ) نجد أقال ( بفتح الألف الأولى مع الهمزة ) وهي حوالة ( بفتح الحاء ) العربية .

وقد ذكرنا في الباب الأول أن الملاحين الذين نقلوا السلطان ملكشاه السلجوقي هو وجيوشه عبر نهر جيحون تسلموا من وزيره نظام الملك حوالات تسلموا قيمتها من العامل السلجوقي بانطاكية ليدركوا مدى اتساع أملاك هذا السلطان .

وقد حرم الإسلام التعامل بالربا ، ولكن اليهود والنصارى أباحوه لأنفسهم في بعض الأحيان . ومن المعلوم أن التجارة في العصور الإسلامية الأولى ، بل إلى عهد قريب ، كانت تقوم على الثقة المتبادلة .

# الباب العاشر

## الثقافة

### ١ - مراكز الثقافة الإسلامية

كان من أثر كثير من الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية أن نشطت الحركة الفكرية وراجت الثقافة وزخر بلاط هذه الدول بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم . ومن ثم نرى صدى هذه النهضة في بلاط كل من الغزنويين في الشرق والفاطميين والأيوبيين في مصر والأمويين في الأندلس ، والمرابطين والموحدين في المغرب .

أضف إلى ذلك ظهور كثير من الفرق التي اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق أغراضها السياسية . وخير مثل لذلك هذه الأثار التي خلفها العلماء من السنيين والشيعة ، وما كان لها من أثر في النهضة العلمية التي يتميز بها هذا العصر على الرغم مما انتاب العالم الإسلامي بوجه عام من تفكك وانحلال ، وما أصاب الخلافة العباسية من ضعف ووهن ، ولو أن قيام هذه الدول قد ساعد على زيادة الثروة وكثرة العمران ثم على ازدهار العلم تبعاً لذلك .

كانت هناك في العصر العباسي الثاني مراكز عدة للثقافة جذبت إليها رجال الأدب منها :  
١ - أصهان والري حيث أقام بوجه عام صاحب إسماعيل بن عباد الذي تقلد الوزارة لمؤيد الدولة ابن ركن الدولة البويهى . وكان بلاط بنى بويه هنالك كعبة يؤمها العلماء ورجال الأدب .

٢ - البلاط الساماني في بخارى حيث زخرت مكتبة نوح بن نصر الساماني بكثير من الكتب النادرة .

٣ - بلاط شمس المعالى قابوس بن وشمشكير في طبرستان القريبة من بحر قزوين .

٤ - بلاط خوارزم شاه مأمون الثاني بن مأمون في خيوة . وقد آلت بلاده إلى حكم محمود الغزنوى .

٥ - بلاط السلطان محمود الغزنوى في غزنة . وكان من أحسن السلاطين ميلاً للأدب وتشجيعاً للعلماء .

٦ - بلاط السلاجقة في مرو حاضرة خراسان حيث أقام أمراء السلاجقة ولا سيما في عهد السلطان سنجر ثم في عهد أمراء الخوارزميين . وقد أقام ياقوت الحموي طويلاً في هذه المدينة وأخذ العلم على علمائها وأفاد من خزائن كتبها . وقال إن مرو « أخرجت من الأعيان وعلما الدين والأركان ما لم تخرج مدينة مثلهم » . كما أطنب ياقوت في وصف خزائن الكتب في مرو حين فارقها أمام غارات التتار سنة ٦١٦ هـ التي قال عنها : « وفيها عشر خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة<sup>(١)</sup> » .

٧ - بلاط الحمدانيين في الموصل وفي حلب ولا سيما في عهد سيف الدولة الحمداني .

٨ - بلاط الطولونيين والإخشيديين والفاطميين في مصر . وقد عاد للفسطاط رونقها وبهاؤها بعد تخريب مدينة القطائع على أثر زوال الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ ، فنبغ في عهد الإخشيديين كثير من الفقهاء والعلماء والمؤرخين والشعراء . وبذت القاهرة الفسطاط والقطائع في عهد الفاطميين ، وأصبحت مساجد عمرو وابن طولون والأزهر والحاكم مراكز هامة للثقافة ، ولا سيما بعد أن حول يعقوب بن كلس الأزهر في سنة ٣٧٨ هـ إلى جامعة تدرس فيها العلوم والآداب بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية . وكذلك اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشر الثقافة الشيعية خاصة ، وألحقوا بها مكتبات تحتوي على مئات الألوف من المصنفات .

٩ - وقد نافست قرطبة : بغداد والقاهرة وبخارى وغازنة وأصبهان وغيرها من أمهات المدن الإسلامية ، وأصبحت حاضرة الأمويين في الأندلس سوقاً نافقة للعلم وكعبة لرجال الأدب ، وجذبت مساجدها الأوربيين الذين وفدوا إليها للترؤد من الثقافة الإسلامية .

## ٢ - معاهد الثقافة

### (١) المسجرات :

كان المسجد أعظم معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقهاء واللغة وغيرها من العلوم ، وأصبح كثير من المساجد مراكز هامة للحركة العلمية ، وانصرف بعض فقهاء المسلمين لطلب العلم في المسجد النبوي الشريف حيث بنى الرسول الصُّفَّة ، وهي مكان مظلل في شمالي المسجد يأوي إليه فقهاء المسلمين الذين حبسوا أنفسهم لطلب العلم .

(١) أظن لفظ مرو في معجم البلدان لياقوت .

وكان المسجد فوق اعتباره مكان العبادة والمسكان الذي يؤم فيه الخليفة الناس في الصلاة ، مركزاً لإدارة شئون الدولة أو الولاية . وكان المنبر أشبه بالعرش ، يلقي منه بيان الخليفة لسياسة الدولة ، ويلقى فيه خطبته الأولى ويبين فيها سياسته في الحكم . وفي المسجد تذاع القرارات الهامة التي تتعلق بالصالح العام ، ويستقبل الخليفة السفراء ويدبر شئون الدولة . والمسجد هو المسكان الذي يتخذ علماء التفسير والحديث مقراً لهم ، وهو المعهد الذي يتلقى فيه الأطفال اللغة العربية وأصول الدين ، وهو المسكان الذي اتخذته القضاة لعقد جلساتهم ، بل لقد اتخذ بعض المساجد أما كن يلجأ إليها المسلمون ويصدون منها الاعداء . وسرعان ما فقدت المساجد أهميتها واقتصرت على إقامة الصلوات الخمس وذكر اسم الخليفة في الخطبة ، وذلك بعد انتشار المعاهد والجامعات . على أن بعض المساجد ما يزال حتى الآن معاهد دراسية تدرس فيها العلوم الدينية ، ويقوم بذلك أئمة المساجد . وكان مسجداً عمرو وابن طولون من أهم مراكز الثقافة في عهد الطولونيين والإخشيديين ، ثم أصبح الأزهر في عهد الفاطميين مركزاً هاماً للثقافة ومثابة للعلماء وخاصة فقهاء المذهب الشيعي . وأهم خصائص الأزهر أنه وإن كان قد بدأ كغيره من المساجد ، لم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحذب الكثير من مختلف العلوم والفنون . وكان يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله الفاطمي أول من فكر في تحويل الأزهر إلى جامعة . وكان العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء والسلاطين والأمراء يشجعون الطلاب من وطنيين وأجانب ، فيقدمون إليهم المأكل والمسكن وكل ما يوفر عليهم وسائل الراحة من غير أجر ، وأصبح يدرس في الأزهر التوحيد والفقه واللغة والنحو والبيان والطب وغيرها من العلوم (١) .

ومن هذه المعاهد الثقافية مسجد القرويين بفاس . وقد أنشئ حول منتصف القرن الثالث الهجري ، ثم أصبح مركزاً هاماً للثقافة الإسلامية . كما أصبحت هذه الجامعة شاهداً على ديمقراطية التعليم وعلى طرق التدريس ومراحل التعليم وتخصيص كراسي الاستاذية وشروط التعيين في وظائف التدريس ومرايم تعيينهم ودرجاتهم العلمية والإجازات الفخرية ومجالس أوصياء الكليات ، والمسالك الجامعية للأساتذة والطلاب والمكتبات الجامعية . وفي هذه الجامعة الإسلامية وضع أساس التقاليد الجامعية التي تسير عليها الجامعات في الأمم الراقية ، كحفلة افتتاح الدراسة ، وحفلة التخرج ، وسلطان الطلبة

(١) الميرزى : خطط ج ٢ ص ٣٦٣ .

وغير ذلك من الشواهد التي تدل دلالة واضحة على أن المسلمين سبقوا الأوربيين في ديمقراطية التعليم . ومن ثم ظهرت بجامعة القرويين بفاس طائفة من العلماء الذين تفوقوا في مختلف العلوم والفنون .

وقد جذبت مساجد قرطبة الأوربيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية . ومن ثم ظهرت فيها طائفة من الفقهاء والعلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين وغيرهم .

### ( ب ) الزاوية :

ومن معاهد العلم « الزاوية » ، وهي مأخوذة من الفعل انزوى ينزوى ، وبمعنى اتخذ ركناً من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد . وقد أدرك خلفاء المسلمين الأوائل حاجة المعتكفين إلى هذا الانزواء ، فأنشئوا لهم مساكن ملحقة بالمسجد ، كما نشاهد ذلك ماثلاً حتى الآن ببعض مساجد فاس والقاهرة . ثم تطورت الزوايا فيما بعد إلى أبنية صغيرة منفصلة في جهات مختلفة من المدينة في شكل دور أو مساجد صغيرة يقيم فيها المسلمون الصلوات الخمس ، ويتعبدون فيها ويعقدون بها حلقات دراسية في علوم الدين وما يتصل بالدين من العلوم النقلية والعقلية . كما يعقد فيها مشايخ الطرق الصوفية حلقات الذكر . وتطلق الزاوية أيضاً على المعهد والرباط الذي تدرسه إحدى الفرق الصوفية كالتقادرية والتجانية والسنوسية والشاذلية والخلوتية . وتنتشر الزوايا في كثير من أرجاء المدن والقرى .

وتطلق كلمة زاوية في المغرب على مسجد خاص بطائفة من الصوفية أو ضريح لأحد الأولياء ، تتصل بها غالباً مقبرة يدفن فيها بعض من لهم علاقة بالطريقة أو قرابة بالولي . وكثيراً ما تلحق بالزاوية حجرات ينزل فيها الضيوف والمنقطعون للعلم أو العبادة . وكانت الزاوية المغربية « مدرسة دينية وداراً لضيافة الأعراب » .

وفي القرن الثامن الهجري ( الرابع عشر الميلادي ) انتشرت الزوايا في المغرب ، وأنشئت بها كتائب لتحفيظ القرآن وتعليم الدين ومبادئ العلوم ، الأمر الذي حدا بملوك بني مرين أن يطوروا هذه الكتائب إلى مدارس وكليات ، ليسهموا في الحركة العلمية بجانب جامعة القرويين بفاس وغيرها من مدارس الزوايا في داخل المدن وفي خارجها وقد خصص ابن مرزوق التلمساني المتوفى سنة ٧٨١ هـ ( ١٣٧٩ م ) الفصل الثاني

والأربعين من رسالته عن أبي الحسن المريني المسماه « المسند الصحيح الحسن » للسلام على الزوايا التي شيدها هذا الملك المغربي<sup>(١)</sup>.

وقد تطورت الزوايا بالمغرب في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) حين اشتدت وطأة النصارى على المسلمين في الأندلس ، وامتدت أطباعهم إلى احتلال السواحل المغربية . ولما ضعفت الدولة عن الدفاع عن البلاد ، أخذت الزوايا تدعو إلى الجهاد ومقاومة الأجنبي ، وبلغت أوج ازدهارها في القرن العاشر الهجري ( السادس عشر الميلادي ) ، واستطاعت أن تجلس على العرش المغربي أسرة الشرفاء السعديين ، وأن تقف معهم جنباً إلى جنب في الجهاد ضد المسيحيين المحتلين . وقد وقفت هذه الزوايا إلى طردهم من بعض الثغور المغربية .

كذلك تطورت الزوايا في المغرب في خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة ( السادس عشر والسابع عشر للميلاد ) ، حتى أصبح عددها يقرب من عدد المساجد أو يفوقها ، واختلط فيها أمر الصالحين بمدعى الصلاح من ذوى الأغراض الفاسدة والمشعوذين . على أن هنالك بعض الزوايا التي لم يحد أهلها عن سبيل الدين وأجمع الناس على صلاحهم واستقامة سلوكهم ، وظهرت نتائج أعمالهم ، كالدلائين والفاسيين والناصرين . ولم تكن هذه الزوايا الثلاث بعزل بعضها عن البعض الآخر ، على الرغم من اختلاف مواقعها ، وإنما كان يجمع بينها التزاور في حل المشاكل الاجتماعية . ومن المقرر عند الأشياخ أن العلم إنما أحياه بالمغرب ثلاثة من الشيوخ هم : سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي ، وسيدي محمد بن ناصر في درعة ، وسيدي عبد القادر الفاسي<sup>(٢)</sup> . وإلى جانب هذه المراكز الدينية الهامة كانت زاوية العياشية ، وهي ربيعة الدلائين ، تقوم بدور مماثل في منحدرات الأطلس المطلقة على أراضي تاقيلالت ووحدات الصحراء ، ولا تزال محتفظة بمكتبتها التي تزدهر بكثير من الكتب إلى اليوم .

### ( ح ) الكتاب والمرسة :

والكتاب مشتق من كتب ، والمكتب ( بضم الميم وسكون الكاف وكسر التاء ) أو للكتِّب ( بضم الميم وفتح الكاف وكسر التاء مع التشديد ) هو الذى يعلم التلاميذ الكتابة .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، العدد التاسع ، المجلد العاشر ص ٣٣٢ .

(٢) محمد بن أحمد الفاسي : المورد الهني ، مخطوط ، الخزانة العامة بالرباط ورقة ٢ ب .



ولم تكن هناك مكاتب خاصة يتلقى فيها التلاميذ العلوم الدينية بانتظام ، بل كانوا يختلطون إلى المسجد . ولم تنشأ المدرسة قبل القرن الرابع الهجرى ( العاشر الميلادى ) . وكانت المدرسة الأولى بهذا المعنى هى المدرسة البيهقية فى نيسابور (١) .

وقد ذكر ابن الأثير أن نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) أسس المدرستين المشهورتين اللتين تعرفان باسمه فى بغداد ونيسابور ، وتعرف كل منهما باسم المدرسة النظامية . كما أسس نظام الملك المدرسة الحنفية ببغداد . وكان الإمام الغزالى يقوم بالتدريس فى المدرسة النظامية ببغداد ثم فى نيسابور فى أواخر القرن الخامس الهجرى . ولما زار السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك بغداد سنة ٤٧٩/١٠٨٦ ، زار الوزير المدرسة النظامية وجلس فى خزائنها وطلّع بعض الكتب وألقى على الطلاب درساً فى الحديث وأملى عليهم جزءاً آخر (٢) ، كما أجرى هذا الوزير الجرايات والمخصصات المالية على مدارسه وأملى الحديث ببغداد وخراسان وغيرهما (٣) ، وإن دل هذا على شئ . فإتماً يدل على أن نظام الملك كان من رجال العلم المشهورين فى ذلك العصر ومن أكبر المشجعين على نشر الثقافة عامة والثقافة الإسلامية خاصة .

كما بنى نظام الملك الرصد وعين له جماعة من أعيان المنجمين على رأسهم عمر الخيام . وكان نظام الملك يجمع بداره الفقهاء والعلماء الذين كانوا يلقون منه كل مظاهر التكريم والتشجيع . وقد طلب إليه السلطان نظام الملك أن يكتب له كتاباً فى السياسة ، فألف كتابه المشهور « سياسة نامه » الذى يشير إليه الفردوسى باسم « سير الملوك » .

وقد ذكر ابن خلسكان (٤) أن مجلس نظام الملك كان عامراً بالفقهاء والصوفية ، وأنه كان يصدق الأموال على الصوفية .

وقد أخذ نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى هذا النظام عن الفرس فى القرن السادس الهجرى ، ثم نقله صلاح الدين الأيوبي إلى مصر حيث أبطل المذهب الشيعى

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٣٦٣ .

(٢) ابن الأثير : السكامل ج ١٠ ص ٥٨ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٧٧ .

(٤) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٩٦ .

مذهب الفاطميين وأقام المذهب الشافعي مقتدياً في ذلك بنور الدين محمود الذي بنى عدة مدارس للشافعية والحنفية في دمشق وحلب وغيرهما<sup>(١)</sup>.

وقد عنى صلاح الدين الأيوبي عناية خاصة ببناء المدارس ومن مدارس الأيوبيين في مصر مدارس الناصرية والقمجية والسيفية ، والمدرسة الفاضلية التي أسسها في سنة ٥٨٠ هـ القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني الذي تقلد ديوان الإنشاء في عهد الخليفة الحافظ الفاطمي (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) واتخذ صلاح الدين وزيراً له . وكان بهذه المدرسة مكتبة تشتمل على مائة ألف مجلد . ومن المدارس التي أنشئت في عهد الأيوبيين « دار الحديث » التي بناها الملك الكامل « بين القصرين »<sup>(٢)</sup> ، وتعرف باسم المدرسة الكاملة .

#### ( ٤ ) المارستانه :

وقد اهتم العباسيون بذكر العلوم الطبية ، فأسسوا المدارس الطبية والمستشفيات ودعوا إلى عقد المؤتمرات الطبية التي يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد في موسم الحج ، حيث يعرضون نتائج أبحاثهم كما يعرضون نباتات البلاد الإسلامية ويصفون خواصها الطبية . وقد أصبحت بغداد في الشرق وقرطبة في الغرب من أهم مراكز الثقافة الطبية الإسلامية . وقد اقتبس المسلمون فكرة المارستان عن السريان الذين تفوقوا في مهنة الطب في العصر العباسي الأول ، وقد وضع بعض الخلفاء والسلاطين والأمراء في المساجد خزائن للأدوية والأشربة وعينوا لها الأطباء لإسعاف المصلين ، وبنوا المارستان للرضى وأباحوها للناس من غير تمييز في الأديان والمذاهب ، وقدموا لهم العلاج والطعام بدون مقابل .

ومن أحسن الأمثلة لذلك المارستان الذي أسسه أحمد بن طولون في أرض العسكر سنة ٢٥٩ هـ وأدخل عليه ضروباً من النظام جعلته في مستوى أرقى المستشفيات في الوقت الحاضر . وفي سنة ٣١١ هـ أسندت إمارة مارستان الري إلى محمد بن زكريا الرازي أشهر أطباء عصره ، ثم أسندت إليه إمارة مارستان بغداد في عهد الخليفة المكتفي ( ٣١١ هـ ) ،

(١) المقرئزي خطط ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٥٧ — ٣٥٩ المقرئزي : خطط ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٣) يعني القصر الشرقي الكبير الذي بناه جوهر للخليفة المعز الفاطمي والقصر الغربي الصغير

الذي بناه المعز الفاطمي .

ووقد بنى عضد الدولة البويهى (٣٦٧ — ٣٧٢ هـ) كثيراً من المدارس ، نذكر منها  
المدارس العسدى ببغداد<sup>(١)</sup> ، وأسس الأيوبيون فى مصر كثيراً من المدارس<sup>(٢)</sup> ،  
وأشأ يعقوب المنصور الموحدى بالمغرب المدارس فى مدينة مراكش ، وكان يتفقده بعد  
صلاة الجمعة فىعود المرضى بنفسه<sup>(٣)</sup> .

### (هـ) بيت الحكمة :

ذكرنا من قبل أن كسرى أنوشروان أسس فى جنديسابور من أعمال خوزستان دارا  
للعلم بقى أثرها حتى قامت الدولة العباسية . وكان بيت الحكمة الذى يرجع أن يكون هارون  
الرشيد هو الذى وضع أساسه قد ألحق به ابنه المأمون مرصداً ، وخزانة أمداه بالكتب  
والمصنفات حتى أصبحت من أكبر خزائن الكتب فى العصر العباسى .

وقد نهض المذهب الإسماعيلى على أيدي الفاطميين نهضة بعيدة الأثر من حيث استخدام  
الدعوة الإسماعيلية لمصلحة الدولة الفاطمية وبسط نفوذها ، فاعتمد عبيد الله الفاطمى أول  
الخلفاء الفاطميين على المدارس التى أطلق عليها اسم مدارس الدعوة لنشر عقائد المذهب  
الإسماعيلى بين أشياعه سراً . وقد راجت مدارس الدعوة فى المهديّة حاضرة الدولة الفاطمية  
الناشئة فى عهد عبيد الله المهدي ، ثم راجت فى المنصورية حاضرة هذه الدولة فى عهد حفيده  
المنصور ، ثم فى القاهرة فى عهد المعز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين . وقد عرفت  
هذه المدارس فى مصر باسم «مدارس الحكمة» التى كان لها شأن كبير فى نشر الثقافة  
الإسماعيلية . ومن هذه المدارس «دار الحكمة» التى أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله . ولم  
يكن هذا النوع من المدارس مقصوراً على القاهرة وحدها ، وإنما جاوزها إلى أقاليم الدعوة  
الرئيسية أو بحارها وجزرها كما كان يطلق عليها فى ذلك الحين<sup>(٤)</sup> .

### (و) قاضى القضاة وداعى الدعاة :

وقد عمل دعاة الفاطميين فى مصر على ترويح المذهب العلنى<sup>(٥)</sup> بين السنيين والشييعيين ،

(١) ابن خلكان . وفيات الأعيان ج ١ ص ٤١٨ .

(٢) انظر لينبول : سيرة القاهرة (ترجمة المؤلف) ص ١٦٨ — ١٦٩ .

(٣) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٤) Browne, Lit. Hist. of Persia, vol. 1, pp. 305—306

تقلا عن بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ج ١ ص ٢٠١ وما بليها .

(٥) للفاطميين دعوة علنية يدعونها بين الناس ولهم تعاليم سرية يلتزمونها للخاصة من الدعاة .

بحيث يرضى هؤلاء ولا يثير سخط السنيين . لذلك نرى جوهرأ والمعز بدخلان عبارات مذهبية كعبارة « حتى على خير العمل » في الآذان والقنوت (١) في صلاة الجمعة ، والدعاء من فوق المنابر لآل بيت الرسول وللخليفة الفاطمي القائم بالامر ، كما جهروا بالبسملة في خطبهم وصلاتهم ، إلى غير ذلك . وما يلفت النظر أن المؤرخين قد تصدوا لهذه التغييرات المذهبية . أما الدعوة السرية فلم يتناولها أحد بالبحث ، بل إن المؤرخين يكادون يجمعون على أن دراسة عقائد المذهب الإسماعيلي وأصوله لم تبدأ إلا في أواخر عهد الخليفة العزيز بالله ، وكان الدعاة الفاطميون يتناولونها بالبحث والدراسة .

وقد بلغ من عناية الفاطميين بنشر عقائد مذهبهم أنهم فتحوا أبواب قصورهم لأنصارهم من الإسماعيلية ، وأصبح داعي الدعاة يشرف على مجالس الدعوة .

وقد أسندت رئاسة الدعوة الإسماعيلية في عهد الفاطميين إلى موظف كبير أطلق عليه « داعي الدعاة » . وكان يلي قاضي القضاة في الرتبة ويتزاي بزبه . وكثيراً ما كانت وظيفة قاضي القضاة وداعي الدعاة تسند إلى رجل واحد . ويساعد داعي الدعاة في نشر التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيباً ، وله نواب ينوبون عنه في البلاد . وبذلك يعتبر الصلة بين الخليفة وأتباعه من الإسماعيلية .

ومن أهم أعمال داعي الدعاة رئاسة الدعوة الإسماعيلية ، وأخذ العهد على المريدين ، إما مباشرة أو بواسطة نوابه في مصر وفي غيرها من البلاد التي ساد فيها المذهب الإسماعيلي ، والإشراف على المحاضرات التي تلتقي بمجالس الدعوة . بل لقد بلغ من عناية الفاطميين بهذه المجالس أن المحاضرات التي يلقيها داعي الدعاة ونوابه كانت تعرض على الخليفة لإقرارها قبل أن تلتقى على الناس (٢) . وهذا يدل على أن الخلفاء الفاطميين كانوا بصفة عامة من أئمة الناس بعقائد المذهب الفاطمي وتعاليمه .

(١) يقرأ القنوت بعد الركوع في الركعة الثانية في صلاة الصبح عند الشافعية ، ويقرأ قبل الركوع في الركعة الثالثة في صلاة الوتر عند الأحناف ويبدأ القنوت بالعبرة الآتية : اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك وتوب إلينا ونؤمن بك وتتوكل علينا ونثني عليك الخير كله . أما عند الشيعة فإن القنوت يبدأ بعد الركعة الأولى أو قبل الركوع مباشرة أو عند الوقوف بعد الركعة الثالثة من الوتر (بعد صلاة العشاء) . ويكون القنوت في أبسط صورته بعبارة « إنا لك قانتون » .

(٢) المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ، السيرة المؤيدية ، مخطوط بجامعة القاهرة ص ١٢١ .

ومن خصائص داعي الدعاة جمع النجوى من « المؤمنين والمؤمنات » يعني الإسماعيلية ( وكانت ثلاثة دراهم وثلاثا ) ، وتدوين اسم من يؤدي أكثر من المال المقرر للنجوى . ومن سرأة الإسماعيلية من دفع النجوى ثلاثة وثلاثين ديناراً . وفي هذه الحالة يعطى شارة قاطمية هي عبارة عن رقعة مذيبة بتوقيع الخليفة تحمل العبارة الآتية : « بارك الله فيك وفي مالك وولدك ودينك » (١) .

وقد خصص لداعي الدعاة مكان بقصر الخليفة يشرف منه على نشر الدعوة ، فيتصل بالدعاة ويزودهم بتعليقاته ، ويقدمون له في يومى الإثنين والخميس ما أعدوه من المحاضرات التي تلقى في أصول المذهب الإسماعيلي .

وكان داعي الدعاة يعقد المجالس ويقرأ على الناس مصنفاته فيحاضر الرجال ، كما يعقد في الأزهر مجلساً خاصاً للنساء يسمى مجلس الدعوة يلقتن فيه أصول هذا المذهب . وكانت هذه المجالس تفرد للناس كل حسب طبقته ؛ فكان لأهل البيت مجلس ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس ، ولخدم القصور مجلس ، وللحوم وخوادم نساء القصور مجلس خاص بهن . وإذا فرغ داعي الدعاة من إلقاء محاضراته على أنصار المذهب الإسماعيلي ، أقبلوا عليه يقبلون يده ، فيمسح على رؤوسهم بالجزء الذي يحمل توقيع الخليفة من محاضراته .

ومن تقلد منصب داعي الدعاة : أسرة أبي حنيفة النعمان المغربي ، وابنه علي بن النعمان ، والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي .

وكان قاضي القضاة بلى الوزير في الرتبة ، وتعلو رتبته رتبة داعي الدعاة . وكان بعض فقهاء الإسماعيلية يجمعون بين المنصبين . وبما يدل على صحة هذا القول أنه إذا انعقد مجلس الملك في قاعة الذهب بقصر الخليفة ، وأخذ زمام القصر وصاحب بيت المال والحجاب أمكنتهم عند الأبواب ، وأخذ غيرهم أمكنتهم المخصصة لهم ، أخذ الأئمة في تقديم من ينبغي تقديمه للخليفة . فكان الوزير أول من يقدم إلى الخليفة ، فيحيي أمير المؤمنين بلم يديه وطرف رداً ، فيأذن له الخليفة بوسادة يجلس عليها إلى جانب الخليفة الأيمن . ثم يتلوه قاضي القضاة ، فيقترب من الخليفة ويحييه برفع يده اليمنى ويشير بسبحته قائلاً : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » . وهذا يتميز على سائر أعضاء

(١) المقرئى : خطط ج ١ ص ٣٩١ .

المجلس اعترافاً بمركزه الدينى الرفيع . ثم يسمح لزعماء الطوائف المختلفة بتحية الخليفة باسم جماعاتهم (١) .

كما يتضح ما كان يتمتع به قاضى القضاة من مركز رفيع فى عهد الفاطميين من احتفال الخليفة بصلاة الجمعة . فقد كان قاضى القضاة قبل وصول الخليفة إلى الجامع يحمل المبخرة ، فيبخر المنبر والقبة التى يقف تحنها الخليفة عند إلقاء الخطبة . وقاضى القضاة هو الذى يدخل على الخليفة وهو فى قاعة الخطابة فيشير بيده الصلاة ، وقاضى القضاة هو ذلك الموظف الكبير الذى يقف مع الوزير على باب هذه القاعة ، وهو الذى يلى الوزير فى التبليغ عن الخليفة عند إقامة الصلاة . وإذا خرج الخليفة من الجامع بعد الصلاة سار الوزير عن يمينه ، وسار قاضى القضاة عن يساره يتبعه داعى الدعاء (٢) .

### ( ز ) المكتبات :

لما نشطت حركة الترجمة والتأليف فى العصر العباسى وتقدمت صناعة الورق ، تبع ذلك ظهور كثير من الوراقين الذين يقومون بنسخ الكتب ، واتخذ العلماء والأدباء أماكن يجتمعون فيها للتزود من العلم ، فكثر المكتبات التى تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية وغيرها ، وأصبحت هذه المكتبات فيما بعد من أهم مراكز الثقافة الإسلامية . وقد عمل الخلفاء العباسيون على إمداد بيت الحكمة الذى قيل إن هارون الرشيد هو الذى وضع أساسه كما ذكرنا ، بمختلف الكتب ، وظلت هذه الخزانة قائمة حتى استولى التتار على بغداد سنة ٦٥٦ هـ ( ١٢٥٨ م ) .

(١) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٨ — ٥٠٠ .

(٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٨١ .

وذكر الفلقشندي أن الخلفاء الفاطميين كانوا يركبون فى مناسبات متعددة ، لكنهم عنوا عناية خاصة ببعض المواكب التى كانت تسمى بالمواكب العظام ، وهى : موكب أول العام الهجرى ، وأول رمضان ، والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان ، وصلاة عيدى الفطر والأضحى ، وجبر الخليج ( الفلقشندي ج ٣ ص ٥٠٣ — ٥٢٠ ) . أما المواكب الأخرى فكانت تسمى المواكب المختصرة ، وكانت تحدث أربع أو خمس مرات فى السنة عند الركوب لمناظرهم ويكون ذلك عادة فى أيام السبت والثلاثاء ( شرحه ج ٣ ص ٥٢١ ) .

حسن إبراهيم حسن : الأزهر : تاريخه وتطوره ( القاهرة ١٩٦٤ ) ص ٢٢ — ٢٧ .

ومن أشهر المكتبات في العصر العباسي الثاني مكتبة نوح بن نصر الساماني (١) ، ومكتبة صاحب إسماعيل بن عباد (٢) . كذلك نقل السلطان محمود الغزنوي كثيراً من المؤلفات إلى غزته ، واحتوت مكتبة مؤيد الدين بن العلقمي وزير المستعصم آخر خلفاء العباسيين ببغداد على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب (٣) .

وقد أشاد ياقوت الرومي بمكتبات مدينة مرو حاضرة خراسان التي استوطنها مدة طويلة ، وقال إنها كانت عامرة بالكتب ولا سيما في عهد السلطان سنجر السلجوقي ، وإنه كان بها عشر خزائن لم ير في الدنيا مثلها كثرة وجوده ، منها خزانتان في الجامع نذكر منها العزيزية وفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر الزنجاني ، وكان فقاعياً للسلطان سنجر (٤) وكانت تحتوي على اثني عشر ألف مجلد ، وخزانة نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي . وقد نوه ياقوت بالفوائد الجليلة التي ساعدته على جمع مادة كتابه معجم البلدان وغيره فقال : « فسكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها ، وأنساني حبها كل بلد وأهاني عن الأهل والولد . وأكثرت فوائدها هذا الكتاب وغيره مما جمعتهم فهو من تلك الخزائن » . وقد بلغ من ولع ياقوت وإفادته من الكتب التي زخرت بها المكتبة « ما شغله عن الأهل والوطن ، وأذهله عن كل صني وسكن ، فظفر منها بضالته المذشودة وبغية نفسه المفقودة (٥) » .

وكذلك اتخذ الفاطميون في مصر من مساجدهم وقصورهم مراكز لنشر الثقافة الشيعية خاصة ، وألحقوا بها مكتبات تحتوي على مئات الألوف من المصنفات . وقد أمدت الدولة الفاطمية مكتبة « دار العلم » التي كانت متصلة بدار الحكمة بكثير من المؤلفات للاطلاع والنسخ والبحث والدراسة ، وأبيح للناس الانتفاع بما يحتاجون إليه من المواد والأفلام والأوراق والمساند دون مقابل .

كما استفادت مكتبة القصر الشرقي في القاهرة من غيرة يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

(٢) الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٣٦ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) ذكر ياقوت ( انظر لفظ مرو في كتابه معجم البلدان ) الزنجاني كان في مبدأ أمره يبيع الفاكهة والريحان ثم سار شراياً لسنجر .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٨٤ في ترجمته لياقوت .

الفاطمى الذى عرف بولعه بجمع الكتب التى نقل عدد عظيم منها من داره الخاصة إلى مكتبة القصر الخلقى بعد وفاته . وكان بمكتبة القصر عدد من الرفوف مقسم إلى أقسام ، لكل قسم منها باب . وقد روى المقرئى<sup>(١)</sup> أنه كان بالقصر الشرقى أربعون خزانة منها خزانة تحتوى على ١٨٠٠٠ مجلد . وكانت هذه المكتبة — كما يقول أبو شامة<sup>(٢)</sup> — « من عجائب الدنيا » ، حتى لقد قيل إنه كان فيها ١٢٢٠ نسخة من تاريخ الطبرى . وقد اختلف المؤرخون فى عدد الكتب التى كانت بمكتبة القصر ؛ فذكر ابن واصل أنها اشتملت على ١٢٠٠٠٠ مجلد ، وذكر ابن أبى طلى وابن الطوير وعماد الدين الاصفهانى<sup>(٣)</sup> أن هذا العدد بلغ ٢٠٠٠٠٠ ، ٦٠٠٠٠٠ ، ٢٠٠٠٠٠٠ على التوالي . وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين فى عدد الكتب التى كانت بمكتبة القصر الشرقى ، فهناك مسألان جديران بالملاحظة تحملان على الظن بأن عدد هذه الكتب بلغ ٦٠٠٠٠٠ على الأقل على ما ذكره ابن الطوير .

والملاحظة الأولى أنه لما مات الوزير الأفاضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) نقل الخليفة الأمر من قصره ٥٠٠٠٠٠ مجلد إلى مكتبة القصر<sup>(٤)</sup> .

والملاحظة الثانية أنه بعد سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) حمل من مكتبة القصر ١٠٠٠٠٠ مجلد إلى المدرسة الفاضلية التى أسسها القاضى الفاضل عبد الرحيم ابن على البيسانى سنة ٥٨٠ هـ<sup>(٥)</sup> .

ومع ذلك فقد عانت المكتبة الكبرى فى القصر ما عاناه غيرها من المكتبات من المصائب التى حلت بالخلافة الفاطمية فى عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ — ٤٧٨ هـ) وعند سقوط الدولة الفاطمية (٥٦٧ هـ) وفى غضون المجاعة التى أصابت البلاد فى عهد دولة المماليك البحرية سنة ٦٩٤ هـ (١١٩٤ — ١١٩٥ م)<sup>(٦)</sup> .

(١) خطط ج ١ ص ٤٠٩ .

(٢) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين (التورية والصلاحية) ج ١ ص ٢٠٠ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٦٨ .

(٤) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٥٧ .

(٥) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٦) انظر كتابى تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٢٨ — ٤٣٥ .



وقد انتقل كثير من التراث اليوناني والفارسي الذي استحوذ عليه العباسيون إلى قرطبة بفضل جهود عبد الرحمن الأوسط . وبذل عبد الرحمن الناصر جهوداً متصلة في توجيه الدراسة الأندلسية في ميدان العلوم والطب ، وضمت مكتبة الحكم الثاني في قصره بقرطبة بين خزائنها أربعمئة ألف مجلد . وكانت هناك طائفة من الباحثين والسماسرة والناسخين تعمل لحساب هذا الخليفة وتبحث عن المؤلفات التي يستطيعون العثور عليها في جميع أنحاء العالم الإسلامي<sup>١</sup> ، ويعمل عدد كبير من الناسخين والمجلدين والمزخرفين في إتمام هذه المكتبة الفخمة وتجميلها . (١) وكذلك قلد أشراف قرطبة ووجهائها الخليفة الأموي في الأندلس وأخذوا في تكوين مكتبات خاصة . ومن هذه المكتبات مكتبة المنصور بن أبي عامر الحاجب التي زخرت بكثير من الكتب النفيسة . ولكن كثيراً من مجلدات هذه المكتبة قد تعرض للحريق على يد المنصور بن أبي عامر نفسه . فقد أراد بعمله هذا أن يحول دون تفاقم سخط رجال الدين الذين عرفوا بكرهيتهم للفلسفة ، فأمر بإحراق كتبها في ميادين قرطبة ، وأحرق بعضها بيده ، فسمى حامى الإسلام .

كما أمر المنصور الحاجب بإحراق جميع الكتب الخاصة بالكتب القديمة . وليس من شك في أنه كان يقصد بهذا العمل إرضاء فقهاء المالكية السلفيين الذين كانوا يكرهون الفلسفة ويعتبرونها خطراً يهدد مذهبهم السلفي .

وقد ظل نفوذ المالكية قوياً وبعضهم للفلسفة شديداً حتى عهد المرابطين بالمغرب . فقد حملوا السلطان علي بن يوسف بن تاشفين على إحراق كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام أبي حامد الغزالي زعماً منهم أنه من صميم الفلسفة وأنه خطر على الدين . وبذلك أمر السلطان هلي بن يوسف بإحراق هذا الكتاب بالأندلس والمغرب . وكان هذا العمل السيئ من العوامل الأساسية التي تدرع بها المهدي بن نومرت صاحب دولة الموحدين في حرب الدولة المرابطية ورميها بالجمود ثم بالتجسم في التوحيد لسيرها على مذهب السلف الصالح الذي لا يؤول الآيات القرآنية . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على قوة نفوذ علماء المالكية وتحكمهم في المجال السياسي في ذلك العصر الذي كان للدين فيه شأن كبير ، ليس في العالم الإسلامي تحسب ، بل في العالم أجمع ، ولا سيما في أوروبا التي كان علماء المسيحية فيها يبيعون صكوك الغفران .

(١) بروفسال : الشرق الاسلامي والحضارة العربية - منشورات الجزائر فرانكو للإبحاث العربية الاسبانية ( تطوان ١٩٥١ ) ص ١٨ - ١٩ .

(ح) ديوان الإنشاء

لما كثرت أعمال الوزراء في العصر العباسي الأول أصبح من الضروري تعيين طائفة من كبار الموظفين يعاونون الوزير (أو رئيس الوزراء كما يسمى الآن) في الإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شؤونها. ويسمى كل من هؤلاء «السكراتب». ومن هؤلاء كاتب الرسائل ومهنته إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة، وكذلك مراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في الصيغة النهائية وختمها بخاتمها.

كذلك كان كاتب الرسائل يجلس مع الخليفة أو أمير الأمراء أو السلطان أو عامل الإقليم في مجلس القضاء للنظر في المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة. (١) ويتولى كاتب الرسائل مكانة الملوك والأمراء عن الخليفة. وكثيراً ما كان الخليفة يتولى ذلك بنفسه.

وقد ذكر ابن خلدون (٢) الصفات التي يجب أن تتوفر في السكراتب عامة وفي كاتب الرسائل خاصة فقال إنه يجب أن يختار من عليّة القوم، وأن يكون متصفاً بالمروءة والحشمة والعلم والبلاغة.

وكانت الكتابة سبيلاً إلى الوزارة في كثير من الأحيان، فوجد المتوكل يتخذ أبا الوزير كاتباً بعد وزيره عبد الملك بن الزيات دون أن يلقبه بلقب الوزير.

وقد ذكر ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٩٩ — ٢٠٠) أن أبا الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ النحوي (ت ٥٤٦٩) كان إمام عصره في النحو وأنه كان يراجع الرسائل التي تحرر بديوان الإنشاء ويصلح ما فيها من نحو أولغة. وكذلك ذكر ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٩٢ — ٢٩٣) أن أبا محمد عبد الله بن برى (بفتح الباء وكسر الراء مع التشديد) المقدسي الأصل اشتهر بالنحو واللغة والرواية، وأنه كان كاتب بابشاذ يراجع كل ما يحرر من الرسائل في ديوان الإنشاء ويصلح ما فيها من لغة أو نحو قبل أن ترسل إلى الملوك والأمراء.

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٥ — ٢٠٦. (٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٥.

وكانت الكتابة في عهد الفاطميين تلى الوزارة في الرتبة ويتولاها الذين عرفوا بالسكفاية والقدرة على معالجة الأمور . فإذا نال صاحبها رضاه الخليفة رشحه للوزارة ، وكان يطلق على صاحب الإنشاء في عهد الفاطميين « صاحب الرسائل » و « صاحب الدست الشريف » ، ويقسم المكاتبات الواردة ويعرضها على الخليفة لبحثها واعتمادها ، ويستشير الخليفة في أكثر أموره . وكذلك كان يطلق على صاحب الرسائل « كاتب السر » . وكان أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي أول من تلقب بهذا اللقب في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي في سنة ٤٥٤ هـ (١١٥٩ م) (١) .

وبلى صاحب الإنشاء في الرتبة في عهد الفاطميين « صاحب القلم الدقيق » . ويوقع على المظالم ويجلس مع الخليفة في خلوته ، فيذاكره ما يحتاج إليه من كتاب الله أو سير الأنبياء والخلفاء وعظماة الرجال ، ويحدثه عن مكارم الأخلاق . وقد يعله تجويد الخط . ويتقاضى مائة دينار في الشهر . فإذا جلس وضعت أمامه دواة محلاة بالذهب والفضة ، فإذا انتهى المجلس ألقى في هذه الدواة كاغدة فيها عشرة دنائير وقرطاس .

ولما غدا الوزير صاحب السيف والقلم في الشطر الأخير من أيام الفاطميين وأصبح يجلس المظالم ، كان صاحب القلم الدقيق يجلس إلى جانبه ويقوم مقام كاتب السر ، ويوقع تحت توقيع الوزير ، بل ينظر في الشكاوى قبل انعقاد المجلس (٢) .

وبلى « صاحب القلم الدقيق » في الرتبة « صاحب القلم الجليل » ، ويقوم بتسلم رقع المظالم من صاحب القلم الدقيق ووضعها في الصيغة القانونية قبل أن تعرض على الخليفة للتصديق عليها (٣) ، وكانت مرتبته أدنى من مرتبة صاحب القلم الدقيق ، وتسمى وظيفته الخدمة الصغرى .

وقد اشتهر من كتاب البلاط الفاطمي أبو عبد الله القضاة المتوفى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) . وقد عهد إليه الوزير أبو القاسم الجرجرائي في أن يكتب العلامة أو الإشارة التي تذييل بها الأوراق لإعطائها الصيغة الرسمية . وتتكون هذه العلامة من العبارة الآتية : « الحمد لله شكراً لنعمته » . كما اشتهر بالكتابة في هذا العهد ابن منجب الصيرفي الذي تقلد

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٢٨١ . حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٨٠ - ٢٨١

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٠ - ٤٩١ .

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٩١ - ٤٩٢ .

ديوان الرسائل في سنة ٤٩٥ هـ ( ١١٠١ م ) في عهد الخليفة الأمر ، وقد ظل في منصبه إلى سنة ٥٣٦ هـ . وكان من البارزين في طبقة البلاط والمؤرخين . وقد خلف لنا كتابه « الإشارة إلى من نال الوزارة » ( في عهد الدولة الفاطمية )<sup>(١)</sup> .

وكانت الكتابة في الأندلس تلى « الحجابة » ( الوزارة ) في الرتبة وتنقسم قسمين : كتابة الرسائل ويسمى صاحبها « الكاتب » ، ويشترط فيه أن يكون بليغاً حسن الأسلوب جزل العبارة ، « وكاتب الزمام » ويعرف بكاتب الجبهة ( ويشترط فيه ألا يكون ذمياً ) ، وتعلو مرتبته مرتبة الوزير<sup>(٢)</sup> .

وقد نهضت الكتابة في عهد المرابطين ونفق سوقها بمدينة مراکش ، إذ سيطر المرابطون على الأندلس وعلى المغربين الأقصى والأوسط . وكان بدهياً أن تتطلب هذه الدولة المترامية الأطراف طائفة من رجال الأدب لتحرير الرسائل المتنوعة عن لسان أمير المؤمنين إلى عمال دولته وقوادها وكبار موظفيها . وقد وجد المرابطون في أدباء الأندلس ما يسد هذه الثغرة بعد استيلائهم على هذه البلاد وهي في أوج عزها الأدبي ومجدها العلمي في عهد ملوك الطوائف ، حتى إنه اجتمع ليوسف بن تاشفين ولابنه على كما يقول المراكشي<sup>(٣)</sup> : « من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار » .

وكان على رأس هؤلاء الأدباء ابن قصيرة ، وابن عبدون ، ومروان بن أبي الحصال ، وأخوه عبد الله بن أبي الحصال ، وأبو جعفر بن عطية المراكشي . ولم يكن هؤلاء الكتاب أشهر كتاب الأندلس ، بل لقد اشتهر غيرهم ، ولا سيما الكتاب الإقليميون الذين لم تنح لهم الفرصة للعمل في بلاط أمراء المرابطين .

### الرباط :

والرباط لا يقل أهمية عن المسجد من حيث كونه مكاناً تشع منه الدعوة إلى الإسلام . فقد كان حد سورية المقابل لآسيا الصغرى معرضاً للخطر من ناحية البيزنطيين ، ولكي يحمي المسلمون أنفسهم من إغاراتهم المتعددة ، أقاموا الحصون في بعض المدن

(١) ياقوت : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ج ٥ ص ٤٢٢ — ٤٢٣ .

(٢) المقرئ : فتح الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٦٤ .

الواقعة على تخوم دولتهم ، مثل طرسوس وأذنة والمصيصة ومرعش وملطية . وكانت هذه الحصون — أو الثغور كما كانت تسمى — تقع طوراً في أيدي العرب ، وطوراً في أيدي الروم . وإلى عمر بن الخطاب يرجع الفضل في إقامة الحصون والمسكرات الدائمة لراحة الجنود في أثناء الطريق ، بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الإبل ، ولا يستريحون إلا في أكواخ صغيرة مصنوعة من سعف النخل . ولذلك بنيت « العواصم » وأقيمت الحاميات لصد هجمات الأعداء المفاجئة . وفي عهد عمر بن عبد العزيز رأت الدولة الأموية أن تجد أعمالاً جديدة غير الفتح والغزو للبرابطين من جند العرب في الولايات الإسلامية حتى لا يسكونوا عيالاً على بيت المال .

ولما استولى أبو جعفر المنصور العباسي على المدن الواقعة على حد سورية المقابل لآسيا الصغرى ، حصن هذه المدن وأحكم بناءها من جديد ، وأطلق عليها اسم الثغور . ولما ولي هارون الرشيد الخلافة سنة ١٧٠ هـ أنشأ ولاية جديدة سماها « الثغور » ، وجعل لها نظاماً عسكرياً خاصاً ، وأقام فيها المعامل ، وأمدّها بحاميات دائمة ، ومنح الجند بالإضافة إلى أرزاقهم أراضي قاموا بتعميرها وزراعتها هم وأسرانهم . فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتصلة التي قامت بين المسلمين والبيزنطيين . وقد سار أبناء الرشيد على نهجه في جهاد الروم . وكان من أبرز الحروب التي قامت بين ابنه المعتصم وبين الروم ، موقعة عمورية الشهيرة التي انتصر فيها المعتصم على الروم انتصاراً حاسماً تمثل في قصيدة أبي تمام الشهيرة التي سخر فيها بالمنجمين ومجد إقدام الخليفة المعتصم فقال في مطلع قصيدته المشهورة :

السيفُ أصدقُ أنباء من الكتب في حدهِ أخذُ بين الجدِّ واللعبِ

وكان العلماء والشعراء الذين يؤثرون حياة الراحة يلجئون إلى هذه الثغور لتفرغ للدرس والبحث . كما كان يتوافد غزاة المسلمين من أنحاء الدولة الإسلامية ويرابطون فيها وتكثر لديهم الصلوات وترد عليهم الأموال العظيمة ويحتفلون فيها بالأعياد ، حتى أصبح عيداً الفطر والأضحى في هذه الثغور من محاسن الإسلام .

وكان المسلمون - كما نعلم - يغزون بلاد الدولة البيزنطية صيفاً وشتاءً . ولذلك سميت هذه الغزوات الصوائف والشواتي . وكان الخلفاء يهدون إلى ولاية عهدهم أو إلى قضاء قضائهم قيادة الصوائف والشواتي ، لأنهم كانوا يعدونها نوعاً من الجهاد في سبيل الله . فقد قاد يحيى بن أكرم جند المسلمين لحرب البيزنطيين في عهد الخليفة العباسي المأمون ،

وقادم أحمد بن أبي دؤاد في عهد الواثق . وسار الامويون في الأندلس على نهج الامويين والعباسيين في الشرق في تولية قضائهم قيادة الصوائف لحرب الروم نيابة عنهم . ومن هؤلاء القضاة منذر بن سعيد قاضي قضاة الأندلس الذي تولى قيادة الصوائف في عهد عبد الرحمن الناصر (١) .

وقد أنشأ المعز لدين الله ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، السفن الحربية في مصر ( وهي الفسطاط والعسكر وأطلال القطائع ) ، وفي الإسكندرية ودمياط . وكان بعض وحداتها تسير للرابطة في الموانئ الشامية مثل عكا وصور وعسقلان (٢) .

ولقد عرف المغرب الرباط قبل أن يعرف الزاوية ، ولعل عهده به يرجع إلى زمن الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري . فرباط شاذلي المعروف عند الفرنجة بسيدى شكير ( بضم الشين ) على ضفة وادي نفيس جنوبي مراکش ، هو مدفن شاذلي أحد أتباع الفاتح العظيم عقبة بن نافع الفهري ، بناه يعلى ( بفتح الياء ) بن مصلين ( بفتح الميم وسكون الصاد ) أحد رجال رجراجة ( بفتح الراء ) السبعة الذين يقال إنهم وفدوا على الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة ، فأسلموا وعادوا إلى المغرب دعاة للدين الحنيف . وكان شاذلي يقاتل فيه كفار بورغواطة (٣) . وقد جدد المولى محمد بن عبد الله هذا الرباط سنة ١١٧٨ هـ . (٤) م ١٧٦٤ .

ويمتاز الرباط بطابعه الحربي بالإضافة إلى وظائفه الدينية من العبادة وتلاوة القرآن والتفقه في الدين . وهو بذلك لا يختلف عن الرابطة إلا من حيث كونها تبتدىء حيث ينتهى ، فتجمل هدفها الأول العبادة وتحصيل العلم ، وتتمى المرابطين فيها بعد ذلك للجهاد ، على ما نجد في رابطة عبد الله بن ياسين الجزولي (٥) . وقد اجتمع

(١) ابن خلدون : مقدمة ص ١٩٣ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٠٣ .

(٣) يوسف بن الزيات التادلي : النشوف إلى رجال التصوف ( نشره مسيو فور ، الرباط سنة ١٩٥٨ ) ص ٢٦ .

(٤) انظر مجلة المغرب التي كان يصدرها محمد الصالح ميسة بالرباط ، المقال الافتتاحي عدد شهري ربيع — جمادى سنة ١٣٥٥ هـ ( يونية — يولية ١٩٣٦ ) .

(٥) انظر الأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع ( الرباط ١٣٥٥ / ١٩٣٦ ) ج ٢ ص ١١ وما يليها حيث تجد ترجمة مطولة لعبد الله بن ياسين .

في هذه الرابطة نحو ألف من رجال صنهاجة كما تقدم ، فكان عبد الله يعلمهم أمور الدين أولاً ، ثم أمور الجهاد في سبيل نشر الدين الحنيف . وكان للجهاد في عهد عبد الله ابن ياسين غرضان :

الأول : فتح بلاد السودان ، وتحويل أهلها إلى الإسلام .

الثاني : نشر مذهب الإمام مالك بين شعوب أفريقيا الشمالية<sup>(١)</sup> .

وقد تطور أمر عبد الله وتلاميذه إلى أن أسسوا دولة المرابطين . وكان عبد الله منقطعاً للعلم والجهاد في رباط شاكر ، ثم انتقل إلى أقصى الصحراء ليرشد قبائل صنهاجة ويقمهم في أمور الدين . ومات وهو يقاتل كفار بورغواطة سنة ٤٥١ هـ ( ١٠٥٩ م ) ، وقبره معروف بكريفة على الطريق الذاهبة من الرباط إلى الرماني<sup>(١)</sup> .

### (١) العلوم النقلية

#### تقسيم العلوم :

ظهرت في الدولة الإسلامية عوامل متعددة كان لها أثر بعيد في تكوين مجتمع إسلامي جديد ، وأهم هذه العوامل :

(١) التوسع في الفتوح الإسلامية إلى أقصى السند شرقاً وإلى أقصى المغرب والأندلس غرباً .

(٢) اختلاط العرب بغيرهم من الأمم كالفرس والروم والهنود والصينيين وغيرهم .

وبفضل هذين العاملين دخلت في الإسلام علوم جديدة إلى جانب العلوم الدينية . وقد أخذ المسلمون بحظ وافق من العلوم على اختلافها ، وميز كتابهم بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم والعلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم . ويطلق على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحسكية ، ويطلق عليها أحياناً علوم العجم أو علوم الأوائل أو العلوم القديمة أو الدخيلة .

وتشمل العلوم النقلية : علم القراءات ، وعلم التفسير ، وعلم الحديث ، والفقهاء ، وعلم الكلام ، والنحو ، واللغة والأدب ، وتشمل العلوم العقلية الطب والكيمياء والفلسفة والرياضيات والفلك والنجوم والموسيقى والسحر والتاريخ والجغرافية .

(١) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ٦٥ .

وقد قسم ابن خلدون العلوم إلى علوم آتية كالنحو واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والجغرافية ، وإلى علوم مقصودة بالذات كالنفسير والحديث والفقه . وهناك تقسيم آخر للعلوم وهو العلوم النقلية والعلوم العقلية . ففي الأولى اعتمد العرب على دينهم ولغتهم ، وفي الثانية اعتمدوا على ما نقلوه من الأمم الأخرى . والآن نتحدث عن العلوم النقلية والعلوم العقلية التي اشتغل بها المسلمون في العصر العباسي الثاني ( ٤٤٧ — ٦٥٦ هـ ) .

### ١ — علم القراءات

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن العباسيين عنوا بعلم القراءات الذي يعتبر المرحلة الأولى لتفسير القرآن الكريم ، وأن الأساس الذي قام عليه هذا العلم هو في القرآن نفسه وفي نصوصه نفسها ، وبعبارة أخرى في قراءاته . ويعتبر علم القراءات أول محاولة لتفسير القرآن الكريم . ويرجع أكثر الاختلافات في القراءات إلى رجال عاشوا في القرن الأول ، كابن عباس وعائشة وعثمان بن عفان وابنه أبان ، وإلى قراء معترف بهم كعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وغيرهم ممن أئني عليهم التابعون وغيرهم (١) .

كانت الآية أو الآيات أو السورة ينزلها الله سبحانه وتعالى على نبيه الكريم ، فيقوم النبي بتليغها لأصحابه فور نزولها . وكان أكثر الصحابة يحفظ ولا يقرأ وأقلهم يحفظ ويقرأ . وأكثر هؤلاء القراء سبعة هم : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يكتفي بحفظ الحفظ ، بل كان يطلب إلى كتاب الوحي أن يكتبوا كلام الله المنزل . ومن أشهر هؤلاء الكتاب عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب . وكان هؤلاء يدونون القرآن في العصب واللحاف والعظام والرقاع . ومن هنا يعلم أن القرآن الكريم كان مكتوباً في عهد النبي كما كان محفوظاً في الصدور مرتب الآيات (٢) .

(١) تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٣٢٠ .

(٢) كثرت القراءات في نهاية القرن الثاني للهجرة ، ولكن الناس أجمعوا على صحة قراءة سبعة قراء هم : عبد الله بن عامر المتوفى بالشام سنة ١١٨ هـ . وأبو معبد عبد الله بن كثير المتوفى بمكة سنة ١٢٠ هـ ، وأبو بكر عاصم المتوفى بالكوفة سنة ١٢٧ هـ ، وأبو عمرو بن العلاء المتوفى بالبصرة سنة ١٥٤ هـ ، ونافع بن نعيم المتوفى بالمدينة سنة ١٦٩ هـ ، وأبو الحسن علي بن حمزة الكسائي المتوفى بالبصرة سنة ١٨٩ هـ ، وأبو عمارة حمزة بن حبيب المتوفى سنة ٢١٦ هـ . ومن أشهر رواة ابن هشام =



ومن أشهر القراء في العصر العباسي الثاني عبد الله بن أحمد بن أحمد المعروف بابن الخشاب البغدادي . وقد اشتهر في الأدب والنحو والتفسير والحديث والقراءات والنسب والفرائض والحساب . وقد حفظ القرآن الكريم وقرأه بالقراءات المختلفة . وقد ذكره العماد الإصفهاني في الخريدة وعدد فضائله وذكر أنه كان بجانب إمامه بالعلوم الدينية ولا سيما القراءات شاعراً ، وإن لم يؤثر عنه أنه كان من خول الشعراء . ومن شعره يصف الشمعة :

صفراء من غير سقام بها كيف وكانت أمها الشافية  
عارية باطنها مكسٍ فاعجب لها عارية كاسية

وقد توفي ابن الخشاب ببغداد سنة ٥٦٧ هـ (١) .

وقد اشتهر كثير من القراء في المغرب والأندلس حيث عنى أهل هذه البلاد بالعلوم الدينية ومنها علم القراءات . ومن أشهر هؤلاء القراء أبو الطاهر إسماعيل بن خلف الأنصاري . وكان من أهل سرقسطة شرقي بلاد الأندلس . وكان ابن خلف إماماً في علم القراءات كما كان من مشهورى أدباء عصره . وقد خلف لنا كثيراً من المؤلفات التي تشهد بتفوفه العلمي . ومن هذه المؤلفات : « كتاب العنوان » . وكان الفقهاء في الأندلس يرجعون إليه في حياته وبعد وفاته . وقد أتى عليه ابن بشكوال في كتاب الصلة . ولم يزل ابن خلف منصرفاً إلى علم القراءات حتى توفي سنة ٤٥٥ هـ (٢) .

ومن أشهر القراء أحمد بن محمد ، ويعرف بابن العريف . وكان من أهل المرية ببلاد الأندلس . وكان فوق اشتغاله بكثير من العلوم الدينية يعنى عناية خاصة بالقراءات ويهتم بطرائقها المختلفة ، كما اشتهر بالورع والتقوى . ومن مؤلفاته كتاب « المجالس في التصوف » . وقد بلغ من تجرعه في العلم والتفاني الناس حوله ، ولا سيما أهل الزهد والتقوى ، أن أثار حسد منافسيه ، فوشوا به عند السلطان علي بن يوسف أمير المرابطين الذي استدعاه إلى مدينة

---

ثم جاء القراء الثلاثة فصارت بهم القراءات عشراً وهم : أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمي المتوفى بالبصرة سنة ٢٢٥ هـ ، وأبو محمد خلف بن هشام المتوفى بالمدينة سنة ٢٣٠ هـ ، وأبو جعفر يزيد بن القفحاء الخزومي المتوفى بالمدينة سنة ٢٣٠ هـ . ثم جاءت قراءات أربع نسبت لمحمد بن عيسى المكي ، والأعمش الكوفي والحسن البصري ومحيي الزبيدي ، فأصبحت القراءات أربع عشرة ، والمشهور والمتواتر منها القراءات السبع .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٨٨ - ٢٩٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢١١ .

مراكش . ولكن ابن العريف لم يكذب يصل إلى هذه المدينة حتى أدركته منيته ودفن بها ( ٢٣ صفر سنة ٥٣٦ هـ ) . وقد أثر عن هذا السلطان أنه أسف على استدعائه لما عرفه عن صلاحه وتقواه (١) .

ومن أشهر قراء المغرب في ذلك العصر أبو العباس أحمد ( ابن عبدالله بن أحمد بن هشام ابن الحطيثة اللخمي الفاسي ) . وقد ولد بمدينة فاس سنة ٤٧٨ هـ وتلقى العلم بها ، ثم هاجر مع أهله إلى مصر واستقر بها . وقد عرف بالصلاح والزهد وعفة النفس ، كما كان ملأ بالآداب . وقد عده المؤرخون والفقهاء إماما في القراءات السبع . وقد أقام بجامعة راشدة في القاهرة . فقد ذكر ابن خلكان (٢) أنه وقفت بمصر في أيامه جماعة ، فسار إليه أعيان البلاد وسألوه قبول مساعدتهم ، فامتنع . فانفقوا على أن يخطب أحدهم ابنته الوحيدة . فتزوجها شخص من الأترياء يعرف بالفضل بن يحيى الطويل الذي طلب من هذا الفقيه أن تعيش زوجته مع إبنتها ، فوافق على ذلك وقضى أيامه ينسخ الكتب ويعيش من أجره القليل حتى توفي في شهر المحرم سنة ٥٦٠ هـ .

## ٢ — التفسير :

لاريب أن العرب الذين عاصروا نزول الوحي قد أدركوا معانيه ووقفوا على الأسباب التي أدت إلى نزول الآيات القرآنية . غير أن الأمم الإسلامية الأخرى وخاصة الفرس ، كان يصعب عليها إدراك معاني الآيات والظروف التي أحاطت بنزولها ، ولهذا نشأ علم التفسير . وقد اتجه المسلمون كما ذكرنا في الأجزاء السابقة في تفسير القرآن اتجاهين ، يعرف أولهما : باسم التفسير بالمأثور ، وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة . ومن أشهر مفسري هذا النوع محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، وابن عطية الأندلسي المتوفى سنة ٥٤٦ هـ ، والقرطبي المتوفى سنة ٦٧١ هـ . وقد اتسع التفسير بالمأثور على مر الأزمان بما أدخل عليه من آراء أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام . .

أما النوع الثاني من التفسير فيعرف باسم التفسير بالرأى ، وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل . ومن أشهر مفسري هذا النوع المعتزلة والباطنية . أما المعتزلة فإنهم لم يتقيدوا بالتفسير بالمأثور ، وإنما كانوا يعتمدون في دعم آرائهم

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥١ - ١٥٢

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٣

على العقل . وقد فسروا بعض الآيات القرآنية تفسيراً يتفق مع مبادئهم العقلية ، وأسسوا تعاليمهم على أسس دينية من القرآن الكريم واستخدموا التفسير في رد حجج خصومهم . ولما كان المعتزلة يؤمنون بمبدأ التنزيه أو بالأحرى بمبدأ نفي الصفات عن الله سبحانه وتعالى ، فقد أخذوا يفسرون القرآن على وفق آرائهم التي تقوم على العقل مخالفين في ذلك تعاليم مدرسة التفسير بالمأثور . ولذلك نرى مفسري المعتزلة يلجئون إلى التأويل فيما يتعارض مع مبادئهم في نفي صفات الله ، وخالفوا المفسرين بالمأثور في رؤية الله يوم القيامة . من ذلك تفسيرهم قوله تعالى في سورة القيامة ( ٧٥ : ٢٢ - ٢٣ ) : ( وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ إلى ربها ناظرةٌ ) أن رؤية الله إنما تكون على المجاز لا على الحقيقة ، على حين يقول المفسرون بالمأثور إن عباد الله الصالحين يرون ربهم عياناً . وقد استدلت المعتزلة بقوله تعالى في سورة الأنعام ( ٦ : ١٠١ ) . ( لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ) قائلين إن الأبصار لا تدركه في الدنيا بدليل قوله تعالى على لسان موسى في سورة الأعراف ( ٧ : ١٤٣ ) . ( رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ) قال لن تراني ، ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ) : « وإذا كانت رؤية الله في الدنيا مستحيلة فهي في الآخرة أحرى » .<sup>(١)</sup> وبذلك حذو جولدتسيهر طريقة المعتزلة في تفسير القرآن وجعلهم العقل مقياساً للحقائق الدينية ، لأنهم كالخوارج والخرافات والتصورات المخالفة لطبيعة الأشياء التي وجدت طريقها إلى الدين<sup>(٢)</sup> .

ومن أشهر مفسري العصر العباسي الثاني ( ٤٤٧ - ٦٥٦ هـ ) الشريف العلوي المعروف بعلم الهدى المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ . وكانت له آمالي في الشعر والأدب شرحها شرحاً لغوياً دقيقاً ، كما فسر الآيات القرآنية التي وردت في هذه الأمالي تفسيراً يتمشى مع تفسير المعتزلة ، واقتبس كثيراً من تفاسير أئمة المعتزلة كالجبائي وغيره .

ومن أشهر مفسري المعتزلة في هذا العصر العباسي أبو يونس عبد السلام القزويني ( ت ٤٨٣ هـ ) . وقد فسر القرآن تفسيراً مطولاً ، حتى إن تفسير الفاتحة وحدها شغل سبع

(١) جولدتسيهر : المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ترجمة ص ١١٠ - ١١١ .

أنظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٣٤٢ .

(٢) جولدتسيهر : المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ١١٣ - ١١٥ .

حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٣٤٢ .

مجلدات . ويرجع السبب في عدم ذبوعها بين الناس إلى ضخامتها وما تحويه من عقائد  
السنين أحياناً .

ويضع بعض الكتاب أبا القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري<sup>(١)</sup>  
(ت ٥٣٨ هـ) اللغوي المشهور وصاحب الكشاف في مرتبة الطبرى في تفسيره . ولئن  
كان الطبرى قد أخذ ببعض القصص الإسرائيلية ، فإن الزمخشري قد بالغ في ذلك وأدلى  
برأيه في كل ما يتعلق بالتفسير ، حتى إنه نال إعجاب المستشرقين . وقد أشاد به جولدتسيهر  
وعقد له فصلاً خاصاً في كتابه مناهج التفسير الإسلامى .

والزمخشري من أئمة علماء المعتزلة ، وربما كان هذا سر إعجاب جولدتسيهر<sup>(١)</sup> به ، وقد  
أثر عن الزمخشري أنه كان إذا قصد صديقاً وطلب أن يؤذن له في الدخول قال : قل لفلان  
أبو القاسم المعتزلى بالباب . وهذا يدل على اعتزازه بانتمائه للمعتزلة .

وكان الزمخشري إمام عصره في التفسير والحديث واللغة ، « تشد إليه الرحال في  
فنوته<sup>(٢)</sup> » . ومن مؤلفاته كتاب الكشاف في تفسير القرآن الكريم الذى يقول فيه  
ابن خلكان<sup>(٣)</sup> إنه « لم يصنف قبله مثله » . ومن كتبه المحاجاة بالمسائل النحوية ،  
وكتاب المفرد والمركب في اللغة العربية ، وكتاب الفائق في تفسير الحديث ، وكتاب  
أساس البلاغة في اللغة ، وكتاب ربيع الإبرار ونصوص الأخبار ، وكتاب متشابه أسامى  
الرواة ، وكتاب النصائح الكبار والنصائح الصغار . ومن كتبه أيضاً كتاب ضالة الناشد  
والرائض في علم القرائض ، وكتاب المفضل في النحو ، وكتاب الأنموذج في النحو ،  
وكتاب المفرد والمؤلف في النحو . وللزمخشري كذلك كتاب رموس المسائل في الفقه ،  
وكتاب شرح أبيات سيبويه ، وكتاب المستقصى في أمثال العرب ، وكتاب صميم العربية ،  
وكتاب سوائر الامثال ، وكتاب شقائق النعمان في حقائق النعمان ، وكتاب شافى العى من  
كلام الشافعى ، وكتاب القسطاس في علم العروض ، وكتاب المنهاج في علم الاصول .  
وله أيضاً ديوان الرسائل وديوان الشعر ، وكتاب الامانى في كل فن إلى آخر

(١) المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن س ١٣٧ . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى  
ج ٢ ص ٢٩٠ :

(٢) رحل الزمخشري إلى مكة وأقام بها مدة ، ولذلك أطلق عليه « جار الله » . وكان هذا الاسم  
علماً عليه ، ثم طلب العلم في مدينة بخارى ، وهناك سقط عن دابته فانسكرت رجله . وقد توفي بخوارزم  
سنة ٥٣٨ هـ ، وذلك بعد رحلته من مكة .

(٣) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٥٧ .

ما خلف لنا من تراث إسلامي يشهد بعلو كعبه في شتى الثقافات الإسلامية<sup>(١)</sup>.

ومن أشهر مفسري هذا العصر أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي (بن متوية ت ٤٦٨ هـ). وكان أشهر علماء عصره في النحو والتفسير الذي أخذه عن أبي إسحاق الثعلبي المفسر المشهور الذي وصفه ابن خلسكان (ج ١ ص ٦١) فقال إنه « كان أوحد زمانه في علم التفسير ». ومن مؤلفاته : « التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير ». كما وضع ابن متويه في التفسير عدة كتب نذكر منها البسيط ، والوسيط ، والوجيز . وقد ذكر ابن خلسكان<sup>(٢)</sup> أن أبا حامد الغزالي اعتمد على مؤلفات ابن متويه وأفاد من من علمه وأعجب به حتى إنه اقتبس أسماء كتبه الثلاثة في التفسير .

ولابن متويه كتب أخرى في التفسير نذكر منها كتاب « أسباب نزول القرآن » و « التجبير في شرح أسماء الله الحسنى » ، كما شرح ديوان المتنبي شرحاً وافياً اعتمد عليه الأدباء الذين جاءوا بعده . وقد أخذ ابن متويه العلم على الثعلبي المفسر المشهور وتوفي ابن متويه في نيسابور سنة ٤٦٨ هـ .

أما الباطنية فقد اتخذوا التفسير وسيلة لنشر مبادئهم ولجئوا إلى التأويل . فتراهم يفسرون قوله تعالى ( فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً )<sup>(٣)</sup> بأن قوله تعالى ( فقلت استغفروا ربكم ) أى أسألوه أن يطلعكم على أسرار المذهب الباطني ، ومن قوله ( يرسل السماء عليكم مدراراً ) بأن السماء هي الإمام ، والماء المدرار العلم ينصب من الإمام إليهم ؛ ومعنى ( يمددكم بأموال وبنين ) أن الأموال هي العلم والبنين هم المستجيبون ، ومعنى ( يجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ) أن الجنات هي الدعوة السرية أو الباطنية والأنهار هي العلم الباطني<sup>(٤)</sup> . وكذلك فسر الباطنية قوله تعالى<sup>(٥)</sup> ( كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ) ، أن الشيطان هو عمر بن الخطاب ، والإنسان هو أبو بكر الصديق . ومعنى اكفر لا تؤمن بإمامة علي بن أبي طالب . وتفسيرهم

(١) انظر ابن خلسكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٥٤ — ٢٦٠ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٤٦٤ — ٤٦٦ .

(٣) سورة نوح ١٨ : ١٢ .

(٤) Guyard, p. 209.

(٥) سورة الحشر ٥٩ : ١٦ .

قوله تعالى ( الشمس والقمر بحسبان ) (١) أن الشمس والقمر هما الحسن والحسين ، وإن إبليس وأدم المشهورين في القرآن هما أبو بكر وعلي ، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلي والطاعة له فأبى واستكبر (٢) .

والشيعة يقدسون الإمام ويؤولون كثيراً من الآيات القرآنية للتدليل على علو مقام الإمام والولاية له ، فيقولون في قوله تعالى في سورة الأنعام ( ٦ : ١٢٢ ) ( وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس ) : النور هو الإمام الذي يأتيه به المسلم ، وفي قوله تعالى في سورة النمل ( ٢٧ : ٩٠ ) ( من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ) : الحسنة معرفة الولاية وحب أهل البيت للإمام ، والسيئة إنكار الولاية وبغض أهل البيت ، والأئمة هم الهداة الذين قال الله فيهم في سورة الرعد ( ١٣ : ٧ ) ( ولكل قوم هاد ) (٣) .

هذان هما نوعا التفسير كما عرفنا في العصور السابقة . ولئن كان التفسير بالرأى يبدو لأول وهلة أعم وأشمل من التفسير بالمأثور ، فإنه مما لا ريب فيه أن الذين أخذوا به قد بالغوا في استعماله حتى خرجوا به عن المقصود من تفسير القرآن الذي يراد به أن يكون واضحاً جليلاً غموض فيه ولا إبهام ، على نحو ما ترى في تفسير الأستاذ الإمام محمد عبده الذي نراه يعتمد على الرأي المستمد من أقوال السلف ، والذي يرجع إلى جوهر القرآن وروح الدين . وهو يعمل رأيه في هذا بالتوسع في شرح الآيات القرآنية دون أن يتقيد بتفسير من سبقه ، بحيث أصبح تفسيره مزيجاً من التفسير بالمأثور مادام صحيحاً ، ومن التفسير بالرأى الذي لا يفسر القرآن في نطاق إطارات ضيقة محدودة ، إذ أن القرآن إنما جاء لهداية البشر ، بحيث إذا سئلنا عن يوم القيامة ، على ما يقوله الأستاذ الإمام محمد عبده : هل بلغت الرسالة ؟ وهل تدبرتم ما بلغت ؟ استطعنا الإجابة على ذلك معتمدين على استخدام الرأي والعقل ، ولكن في نطاق الجوهر الأساسي للقرآن الكريم .

### ( ٣ ) الحرب .

إذا عرفنا أن الحديث الشريف هو أحد أصليين قام عليهما التشريع الإسلامي بانفاق

(١) سورة الرحمن ٥٥ : ٥ .

(٢) الفزالي : فضائح الباطنية ( نشره جولدتسيهر — لندن سنة ١٩١٦ ) ص ١٣ .

(٣) عبد الله علام : الدعوة الموحدية بالمغرب ( القاهرة ١٩٦٤ ) ص ٢٥٢ .

جميع المذاهب الإسلامية ، أدركنا أهمية هذا العلم في الثقافة الدينية الإسلامية خاصة وفي الثقافة الفكرية عامة . فالسلفيون ، وفي مقدمتهم الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل ومن اتبع طريقهم كالظاهرية والحزمية ، قد جعلوا التشريع الإسلامي قائماً على القرآن الكريم والحديث الشريف . وزاد الأحناف ثم الشافعية الرأي والقياس كما هو معروف في علم أصول الفقه . ومن هنا نرى الحديث الشريف بلي القرآن في الأهمية ، وكان له رجال عرفوا باسم المحدثين .

وقد نال الحديث حظاً وافراً من جهود الفقهاء . ولكن المصادر التي اعتمد عليها المسلمون لدراسة الحديث قليلة نذكر منها « الصحيحين » ( البخاري ومسلم ) وأبا داود السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ صاحب السنن ، وأبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي المتوفى سنة ٢٧٨ هـ صاحب الجامع ، وأبا عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٥ هـ ، وأبا عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ صاحب السنن . ومن أشهر المحدثين الذين ظهروا في المشرق في طليعة القرن السادس الهجري ( الثاني عشر الميلادي ) أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن مندة ( بفتح الميم والبدال وسكون النون ) المتوفى سنة ٥١١ هـ . وهو من أهل أصبهان . وقد وصفه ابن خلكان في هذه العبارة فقال : « هو محدث بن محدث بن محدث بن محدث بن محدث . وكان جليل القدر وافر الفضل واسع الرواية ، ثقة حافظاً فاضلاً مكثراً صدوقاً ، كثير التصانيف ، حسن السيرة بعيد التكلف . وأحد أهل بيته في عصره . خرج البخاري لنفسه ولجماعة من الشيوخ الأصهبانيين » . وعلى الرغم من شهرة ابن مندة الواسعة في علم الحديث فإنه يُعدُّ من المؤرخين المعدودين ، وقد صنف كتاب « تاريخ أصبهان » وغيره .

ومن مشهورى علم الحديث بالمشرق في القرن السادس الهجري ، المحدث الفقيه أبو محمد ( الحسين بن مسعود بن محمد ) المعروف بالفراء البغوي ، وكان متبحراً في العلم ، وقد صنف كثيراً من الكتب في الحديث والتفسير والفقه . ومن مؤلفاته كتاب « شرح السنة في الحديث » . وكتاب « التهذيب في الفقه » ، وكتاب « معالم التنزيل في تفسير القرآن الكريم » ، وكتاب « المصابيح » ، وكتاب « الجمع بين الصحيحين » ، وما بلغت النظر لإسهام النساء في الاشتغال بالعلوم الدينية ولا سيما في علم الحديث .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢١٧ .

(٢) بفتح الباء الموحدة والمعين المعجمة بعدها واو نسبة إلى باع بخراسان .

ومن هؤلاء النساء : كريمة بنت أحمد بن محمد المروزية التي اشتهرت برواية صحيح البخارى .  
وتوفيت بمكة سنة ٤٦٤ هـ (١) .

ومن أشهر المحدثين فى العصر الفاطمى أبو طاهر أحمد بن محمد الحافظ السلفى . وكان من  
أهل أصبهان ، وكان حافظاً غزير العلم شافعى المذهب . وقد اختلف إلى كثير من البلاد  
يطلب الحديث على بعض أعلام الفقهاء ، وقد رحل من بغداد إلى صور حيث ركب البحر  
إلى الإسكندرية فوصل إليها فى شهر ذى القعدة سنة ٥١١ هـ ( ١١١٨ م ) . ولما استقر به المقام  
استمع إلى دروسه كثير من أهالى البلاد . وفى سنة ٥٤٦ هـ ( ١١٥١ م ) أنشأ الوزير الفاطمى  
العادل بن السلار فى الإسكندرية كلية عين السلفى عميداً لها ، فظل يتقلد هذا المنصب حتى  
توفى سنة ٥٧٦ هـ ( ١١٨٠ م ) (٢) .

وقد جعل أهل المغرب موطأ الإمام مالك من أصول كتب الحديث . ولا عجب فقد  
كان مالك إمام محدث المدينة فى عصره ، كما كان أول فقيه وجه أنظار المسلمين إلى ضرورة  
الاعتماد على الحديث الشريف باعتباره أحد أصليين قام عليهما الفقه الإسلامى .

وقد اهتم الموحدون فى المغرب بموطأ المهدي محمد بن تومرت باعتباره صورة مصغرة  
لموطأ الإمام مالك ، وذلك بعد حذف الأسانيد ، واهتم الخليفة الموحدى الثالث يعقوب  
المنصور ( ٥٨٠ - ٥٩٥ هـ ) بعلم الحديث اهتماماً خاصاً ، حتى إنه قام بإصلاح فقهي أساسه  
لاعتبار الحديث الشريف بالإضافة إلى القرآن الكريم مصدراً للتشريع فى العبادات والمعاملات ،  
وأمر بإحراق أهم الكتب التى تناولت الكلام على مذهب مالك ، مثل مدونة سحتون ،  
وكتاب ابن يونس ، ونوادير ابن أبى زيد ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعى ، وواضح  
ابن حبيب (٣) . كما أمر بوجود أخذ الفقه من كتب عشرة عددها أمهات كتب الحديث وهى  
الصحيحان ( البخارى ومسلم ) ، والترمذى ، وموطأ مالك ، وأحاديث المهدي محمد بن تومرت  
فى الطهارة ، وسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وسنن البزار ، ومسنن ابن أبى شيبة ، وسنن  
الدارقطنى ، وسنن البيهقى .

وكذلك ندرك مدى اهتمام المغرب الأندلسى بعلم الحديث فى جميع العصور ولا سيما  
فى القرن الخامس الهجرى ، حيث ظهر الفقيه المحدث الفيلسوف ابن حزم المتوفى سنة  
٤٥٦ هـ ، والشيخ عبد الله بن ياسين زعيم دولة المرابطين المتوفى سنة ٤٥٣ هـ . وفى القرن

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٦ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧ - ٣٨ .

(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٧٩ .



السادس الهجري ظهر المهدي محمد بن تومرت المتوفى سنة ٥٢٤ هـ ، كما ظهر الخليفة الموحدى المحدث يعقوب المنصور المتوفى سنة ٥٩٥ هـ (١) .

ومن أشهر المحدثين فى الأندلس الحافظ القرطبي أبو عمر يوسف بن عبد البر (ت ٤٦٢ هـ) الذى يقول أبو الوليد الباجى إنه لم يكن بالأندلس مثله فى الحديث . ومن أشهر كتبه : كتاب « الاستدراك لمذاهب الأعصار فيما تضمنه الموطأ من معانى الرأى والآثار » . وقد جمع ابن عبد البر الصحابة فى كتاب سماه « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » . ومن كتبه كتاب « الدرر فى المغازى والسير » ، وكتاب « بهجة المجالس وأنس المجالس »

كما نبغ فى علم الحديث فى المغرب والأندلس : أبو الوليد الباجى ، وأبو الوليد بن رشد جد ابن رشد الفيلسوف المشهور ، وابن عاصم مؤلف « التحفة » . وتعتبر النسخة التى نقلها المحدث المشهور ابن سعادة من صحيح البخارى فى سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) المرجع الأساسى فى رواية صحيح البخارى فى كافة بلاد المغرب والأندلس . ومن هؤلاء المحدثين أيضاً أبو على الحسين بن أحمد الغسانى الجياني (ت ٤٩٨ هـ) صاحب كتاب « تقييد المهمل » الذى ضبط فيه كل لعظ يقع فيه اللبس من كتاب الصحيحين ، ويقع هذا الكتاب فى جزأين ، ويعد الجياني من أعظم المحدثين الذين ظهوروا ببلاد الأندلس .

#### ٤ — الفقه

ذكرنا فى الجزء الثالث من هذا الكتاب (ص ٣٤٨ — ٣٤٩) أنه قد ظهر فى العصر العباسى الثانى بعض أعلام الفقهاء الذين كونوا لهم مذاهب فى الفقه وأن هذه المذاهب لم يقدر لها الاستقرار والذبول أمام المذاهب الأربعة . ومن فقهاء هذا العصر داود الظاهرى (٢) الذى كانت له طريقة خاصة تملخص فى الأخذ بظاهر نص القرآن والسنة وعدم قبول الرأى والقياس . ولذلك سمى داود الظاهرى ، ويعرف أتباعه بالداودية أو الظاهرية (٣) . والظاهرية — كما يقول ابن خلدون (٤) — قد جعلوا المدارك كلها منحصرة فى التصوف والإجماع ورددوا القياس الجلى والعللة المنصوصة إلى النص . وبذلك خرج داود على علم الأصول والقواعد الفقهية التى وضعها أئمة المذاهب الأربعة ولا سيما

(١) عبد الله علام : الدعوة الموحدية بالمغرب ص ٣٠٧ .

(٢) وينسب إلى قاشان القريبة من أصبهان ، وكان شافعى المذهب .

(٣) ابن النديم : الفهرست ص ٣٠٣ .

(٤) مقدمة ص ٣٩٠ .

الإمام الشافعي<sup>(١)</sup> . وكان ابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ هـ من أتباع المذهب الظاهري<sup>(٢)</sup> . ثم انفصل ابن حزم عن الظاهرية واشتغل بمذهب خاص عرف به سمي المذهب الحزمي وعرف أتباعه بالحزمية .

وهناك مذاهب أخرى في الفقه انقرضت كذهب سفيان الثوري<sup>(٣)</sup> المتوفى سنة ١٦١ هـ . وقد أخذ عنه الأوزاعي (ت ١٨٠ هـ) إمام أهل الشام<sup>(٤)</sup> ، ومذهب إسحاق بن راهويه (بفتح الهاء والواو وسكون الياء) (ت ٢٤٠ هـ) . وفي القرن الثالث الهجري نرى من المذاهب : المذهب الشافعي ، والمذهب المالكي ، والمذهب الحنفي ، ومذهب الثورية ، ومذهب الداودية أو الظاهرية . وقد ساد من هذه المذاهب في القرن الرابع الهجري : المذهب الحنفي ، والمذهب المالكي ، ومذهب الداودية . كما نرى مذاهب أخرى أقل انتشاراً كالذهب الحنبلي ومذهب الراوية ومذهب الأوزاعي . على أن السيادة قد أصبحت على مر الزمن للمذاهب الأربعة المشهورة وظلت على ذلك إلى وقتنا هذا . وقد وقف الاجتهاد عند هذه المذاهب . وفي ذلك يقول ابن خلدون<sup>(٥)</sup> :

« ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون لمن سواهم<sup>(٦)</sup> ، وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر من تشعب الاصطلاحات في العلوم ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد » .

وقد ظهر في وقتنا الحاضر الاتجاه إلى توحيد المذاهب الفقهية والرجوع إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة في استخلاص الفروع الفقهية مع الاستئناس بأراء الأئمة حتى يسير المسلمون في اتجاه واحد في أمور دينهم مما عساه أن يضع حداً للخلافات المذهبية التي جرت على المسلمين كثيراً من ألوان الشقاق والفرقة .

### (١) فقه السبعة :

وقد نهض المذهب الإسماعيلي نهضة بعيدة الأثر على أيدي الفاطميين الذين اعتمدوا على المدارس التي أطلقوا عليها في المغرب « مدارس الدعوة » لبث عقائد المذهب

(١) ولداود مؤلفات كثيرة ذكرها ابن النديم ( الفهرست ص ٣٠٣ - ٣٠٥ )

(٢) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٣٤٧ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٠ .

(٤) القرني : نفع الطيب ج ٤ ص ٢١٤ .

(٥) مقدمة ص ٣٩١ - ٣٩٢ .

(٦) أي لم يبق منهم أحد .

الإسماعيلي على أساس تعاليم الفقه الشيعي . وقد عرفت هذه المدارس باسم مدارس الحكمة ، ومنها دار الحكمة التي أنشأها الخليفة الحاكم الفاطمي . وقد امتدت هذه المدارس إلى أقاليم الدعوة الفاطمية أو بحارها وجزرها كما كان يطلق عليها في ذلك الحين .

وكان الخلفاء الفاطميون بصفة عامة من أفقه الناس بمقائد المذهب الفاطمي وتعاليمه ، كما كان لداعي الدعوة ونوابه أثر كبير في نشر الفقه الشيعي على المبادئ التي كانت تلقى في المساجد والقصور وفي دور العلم كمدارس الدعوة ومدارس الحكمة . وكان هؤلاء الدعاة يصنفون الكتب ويعدون المحاضرات التي تتناول المسائل الفقهية التي يستمدونها من أئمة أهل البيت . وقد أنجبت الدعوة الإسماعيلية دعاة كان لهم شأن كبير في عالم الدعوة وفي عالم الأدب والفلسفة والتأليف . ومن بين هؤلاء الدعاة أو الفقهاء : أبو حاتم الرازي ( ت ٣٢٢ هـ ) في بلاد الديلم ، وأبو يعقوب السجزي ( ت ٣٣١ هـ ) وأبو حنيفة النعمان المغربي ( ت ٣٦٣ هـ ) الذي عاصر الفاطميين في المغرب وترك مؤلفات ذات غناء في الفقه الإسماعيلي .

وقد بلغت الدعوة الإسماعيلية ذروتها على يد الخليفة المعز لدين الله وقاضي قضائه أبي حنيفة النعمان المغربي ، وباب أبوابه جعفر بن منصور النين ( ٤٠٨ هـ ) . وكان لهذه المدرسة أثرها البعيد فيما خلفه من جاء بعده من الدعاة ، مثل حميد الدين الكرماني الذي يعد من فلاسفة الإسماعيلية ودعاتهم في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله والذي كان يلقب بجمجمة العراقين . وقد ألف الكرماني في الرد على بدعة الدرزية في تأليه الحاكم رسالة سميت « الرسالة الواظنة في نفي دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله » ، يثبت فيها عقيدة الإسماعيلية في وحدانية الله سبحانه . ومن أشهر كتبه كتاب « راحة العقل » ، وله رسائل في أدب الإسماعيلية ، وكتاب « المجالس البغدادية » وكتاب « المجالس البصرية » جمع فيهما محاضراته في تأويل الآيات المتشابهة (١) .

ومن أشهر فلاسفة الإسماعيلية وفقهائهم المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ، ويعرف بالمؤيد فقط . وقد غلب عليه لقب المؤيد في الدين ، ويسمى « هبة الله » و « السلطاني » نسبة إلى سلطان الفارسي . وقد انحدر المؤيد في الدين من أسرة اتخذت التشيع لها ديناً والفاطمية مذهباً . وأخذ المؤيد يرقى مدارك الدعوة الإسماعيلية حتى تقلد رئاسة الدعوة

(١) أنظر كتاب أسرار النطقاء ( من المنتخب ) ص ٨٥ — ٩٣ و ٩٩ وحسن إبراهيم حسن ومطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ٢٥٨ وما يليها .

في شيراز وأصبح حجة بلاد فارس حول سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) ، واتصل بالسلطان أبي كاليبج البويهى وكسب عطفه وتوثقت صلته به ، واستطاع بقوة حجته وبلاغته أن يستميله إلى الدعوة الإسماعيلية ، ثم سار إلى الأهواز ودعا الناس إلى إقامة الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمى . ثم رحل المؤيد في الدين إلى الموصل ولجأ إلى قرواش بن المقلد العقبلى ، ولكنه لم يستجب لدعوته ، فرحل إلى مصر سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) ومثل بين يدى الخليفة المستنصر الذى قلده ديوان الإنشاء . واستمال أبا الحارث البساسيرى التركى الذى انتصر جنده على جند طغرل بك السلجوقى أول الأمر ونشر الدعوة الفاطمية في العراق وخطب للخليفة الفاطمى في بغداد نحواً من سنة (١) .

وقد تقلد المؤيد في الدين رئاسة الدعوة الفاطمية وأصبح داعى الدعاة في سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٨ م) (٢) ، كما برع المؤيد في العربية والفارسية وخلف كثيراً من الكتب التى تعد بحق من أمهات كتب الإسماعيلية إلى اليوم (٣) . ومن مؤلفاته كتاب « المجالس المؤيدية » و « ديوان المؤيد » و « سيرة المؤيد في الدين » و « شرح المعاد » وكتاب « الإيضاح والتبصير في فضل يوم القدير » وكتاب « الابتداء والانتها » و « قصيدة الاسكندرية » وتسمى أيضاً « ذات الدوحة » ، وكتاب « تأويل الأرواح » وكتاب « المسألة والجواب » وكتاب « أساس التأويل » (٤) .

ومن أهم آثار المؤيد في الدين كتاب « المجالس المؤيدية » ، وهو مجموعة محاضرات ألقاها في مجالس الدعوة يشرح فيها عقائد المذهب الفاطمى ، ويصور « ديوان المؤيد » عقائد الفاطميين تصويراً كاملاً . كما عرض المؤيد لمبدأ التأويل وإيجاز القرآن والرأى والقياس .

ومن أهم مؤلفات المؤيد في الدين التى تعرض لفلسفة الإسماعيلية كتاب « المجالس المستنصرية » . فقد تناول الكلام على أصول عقائد الإسماعيلية وتعرض للعبادات ولقواعد الإسلام العملية من الفرائض والسنن ، ورفع من شأن إمام العصر وهو المستنصر بالله . ويشتمل هذا الكتاب على خمسة وثلاثين مجلداً تتناول هذه المسائل وهى :

(١) المؤيد في الدين : ديوان المؤيد في الدين : نشره محمد كامل حسين ( القاهرة ١٩٤٩ ) مقدمة من ١٧ و ١٩ و ٢٢ و ٢٨ و ٣٠ . السيرة المؤيدية : مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة ، رقم ٢٦٠٥٦ من ١٦ .

(٢) ديوان المؤيد في الدين مقدمة من ٤٩ .

Ivanow, A Guide to Ismaili Literature

(٣)

ibid., p. 413.

(٤)

- ١ — توحيد الله وتنزيهه ونفي الإشراف والقرناء له .
- ٢ — الاعتراف بالأنبياء والرسل وعصمتهم من كل خطأ وأن محمداً خاتم النبيين .
- ٣ — القول بوصاية علي وولاية الأئمة من ذريته وعصمتهم .
- ٤ — التصديق بما جاء في القرآن الكريم والعمل به ظاهراً وباطناً .
- ٥ — إبطال الرأي والقياس في كل أمور الدين ووجوب الأخذ عن الأئمة (١) .
- ٦ — القول بالظاهر والباطن معاً .

ويحسن بنا في هذا المقام أن نذكر عالماً أندلسياً رحل إلى مصر واتخذها وطناً له ، ذلك هو الفقيه المالكي المشهور أبو بكر الطرطوشي (٢) الذي ينتسب إلى مدينة طرطوشة شرقى مدينة بلنسية بالأندلس ، حيث ولد سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) . وقد تنقل في الحجاز والشام والعراق ، وتلقى العلم على أئمة العلماء والفقهاء في أمهات المدن الإسلامية كمسكة وبيت المقدس وبغداد والبصرة ، ونزل الإسكندرية واستوطنها وقام بالتعليم فيها ، وبقى بها إلى أن مات سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) .

ولم يلبث الطرطوشي أن تقرب إلى الوزير الفاطمى المأمون البطائنى وأهدى إليه « سراج الملوك » (٣) . وكان من مظاهر سرور الوزير بهذا الكتاب أن رتب للطرطوشي خمسة دنانير في كل يوم ، فلم يقبل منها غير دينارين كان الوزير الأفاضل بن ( أمير الجيوش ) بدر الجمالى قد أجراها عليه .

وقد أسهم الفقيه الطرطوشى فى تعديل قانون الوراثة فى عهد الفاطميين ، ذلك القانون الذى يقضى بأن ترث البنت كل ما يتركه أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت . وهذا يخالف قانون مذهب السنة الذى يقضى بالآثر البنت أكثر من نصف الثروة . ثم عدلت هذه القاعدة التى تجيز بمقتضى قانون الشيعة بأن تستولى البنت على جميع الثروة التى يخلفها أبواها إذا انفردت بالميراث . وقد قضى هذا التعديل بأن يرث كل من الشيعيين والسنيين على وفق مذهبه والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته . وقد تم هذا التعديل سنة ٥١٦ هـ .

وتورثت البنت جميع الثروة يخالف ما ورد فى القرآن الكريم ، إذ فصل الميراث فى سورة النساء ( ٤ : ١١ - ١٢ ) تفصيلاً واضحاً .

(١) ديوان المؤيد فى الدين ص ١٠٣ .

انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الجامع الأزهر ( القاهرة ١٩٦٤ ) ص ٣٣ - ٣٥ .

(٢) بتشديد الطاء الأولى مع ضمها وسكون الراء . انظر لفظ طرطوشة فى معجم البلدان إياقوت .

(٣) ويقال إن كتابه يسمى سراج الهدى .

( ب ) الفقه في اليمن :

انتشر مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة في اليمن ، وفي القرنين الثالث والرابع للهجرة وقع في هذه البلاد حدثان عظيمان :

الأول — فتنة القرامطة التي عمت بلاد العراق .

والثاني — قيام الإمام الهادي يحيى بن الحسين العلوي الذي دعا إلى اعتناق عقائد الشيعة في اليمن :

ولد يحيى سنة ٢٤٥ هـ واشتغل بالعلم منذ حداثة سنه في الحجاز والعراق وانتشر نفوذه في اليمن سنة ٢٨٠ هـ . وبذكر المؤرخون أن يحيى دخل اليمن بدعوة من أهلها . وقد انتشر فيها مذهب القرامطة وجاهدهم جهاداً كبيراً ، وألف كثيراً من الكتب قيل إنها جاوزت الأربعين . ووضع أساس الفقه الهدوي التي كانت تسير عليه الدولة اليمنية الزيدية حتى قيام الجمهورية العربية اليمنية .

وقد شق المذهب الشافعي طريقه إلى اليمن إلى جانب الزيدية ، حتى أصبح للمذهب الشافعي في هذه البلاد أنصار يعملون على نشره ولا سيما بمجته زيد وبيت الفقيه . وقد ظهر هذا المذهب على يد القاسم بن محمد الجمحي لإمام الشافعية في صنعاء وعدن ، وامتد في أواخر القرن الرابع الهجري إلى المعافر والحج وأبين وأهل الجند والسحول وغيرها . ومن أخذ الفقه عن القاسم الجمحي : جعفر بن عبد الرحيم الخثاعي الذي قام بالتدريس والفتيا ومات سنة ٤٦٠ هـ .

ومن علماء اليمن القاضي محمد الصليحي وابنه علي بن محمد . وقد تفقه في عقائد المذهب الشيعي وأسس الدولة الصليحية في هذه البلاد في القرن الخامس الهجري .

ومن أشهر علماء اليمن : زيد بن عبد الله اليفاعي . وقد أخذ الفقه وعلم الكلام على مشاهير علماء اليمن ومكة ، ثم عاد إلى اليمن وسكن الجند حيث التف حوله كثير من الطلاب . ثم هاجر إلى مكة حيث قضى فيها اثنتي عشرة سنة . واشتهر بالزهد والورع وعاش من غلة أرضه واستغل ثروته في التجارة . وقد نبه ذكر زيد بن عبد الله في مكة وبرز على فقهاها ، ثم عاد إلى اليمن سنة ٥١٢ هـ وبقي بها حتى مات سنة ٥١٤ هـ .

ومن أشهر فقهاء اليمن : عبد الله بن يحيى الصعبي . وقد أخذ عليه الفقه كثير من الطلاب ؛ وكان إماماً في العربية . ومن فقهاء اليمن أيضاً : أبو بكر بن محمد اليفاعي الذي تقلد قضاء

اليمين ( من إب إلى عدن ) من قبل الداعي محمد بن سبأ . وقد أخذ الفقه على أحواله ونبغ في اللغة العربية والشعر وعلم الكلام ومات سنة ٥٥٢ هـ .

ومن أشهر فقهاء اليمن أيضاً : عمر بن علي بن سمره الجندی اليماني . وقد خلف لنا كتابه «طبقات فقهاء اليمن» . ويعد من أقدم المصنفات اليمنية في هذا الموضوع . وكان هذا الكتاب المرجع الذي يعتمد عليه الفقهاء الذين ألفوا في الطبقات والتراجم . وقد استمد الجندی مادته من كتب الفقه والحديث والتاريخ .

وكان الجندی شافعي المذهب . وقد ترجم لنفسه في ثنايا كتابه ، فذكر أنه أخذ العلم عن أشهر علماء اليمن ، وأنه تقلد القضاء في «أبين» سنة ٥٨٠ هـ ، وحج بيت الله من عدن عن طريق البحر وزار جزيرة كمران في ذهابه وإيابه . وتعد أسرة ابن سمره من الأسر العريقة ذات الجاه والثراء . وقد ذكر مؤلفو التراجم والسير أن ابن سمره انتهى من وضع كتابه سنة ٥٨٦ هـ ولم يجزموا برأى في سنة وفاته . ويظهر أنه توفي في السنة التي أتم فيها كتابه . وبلا حظ أنه يستطرد أحيانا فيذكر شيئاً من تاريخ الأسرات والدول التي تداولت الحكم في اليمن .

ولما كان الجندی يدين بعقائد المذهب الشافعي وجب أن تأتي بكلمة عن انتشار هذا المذهب في بلاد اليمن مستعينين في ذلك بما أورده هذا المؤلف نفسه في كتابه .

كان مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة قبل قدوم الإمام الهادي إلى الحلق بجي بن الحسين إليها سنة ٥٨٠ هـ وانتشار الدعوة الشيعية على يده وظهور دعوة علي بن فضل وابن حوشب . ولما ظهر مذهب الإمام الشافعي لقي فقهاء اليمن بعض أئمة الشافعية في مكة والمدينة وبغداد والفسطاط وغيرها ، وأخذوا عنهم عليهم وكتبهم وعادوا بها إلى اليمن حيث انتشر هذا المذهب من صنعاء إلى عدن في القرن الرابع الهجري ، ثم عم انتشاره بعد ذلك إلى القرن السادس الهجري<sup>(١)</sup> .

### ( ح ) الفقه في المغرب والأندلس :

جاء إقرار مذهب مالك في الأندلس رداً على إقرار العباسيين مذهب إبي حنيفة بالمغرب . ففي القرن الرابع الهجري تدخل الأمويون في سياسة المغرب ونشروا المذهب المالكي بين أتباعهم . على أن الاضطرابات السياسية التي سادت هذه البلاد في عهد الزنانيين لم تتح الفرصة لظهور علماء من المغرب متفقهين في المذهب المالكي بسبب عدم ضمان حياة

(١) الجندی : طبقات فقهاء اليمن ص ١٢ - ١٣

الاستقرار التي تساعدهم على الإنتاج العلمي . وقد نقل مذهب مالك إلى إفريقية في القرن الثالث الهجري على أيدي علماء تلقوا العلم عن تلاميذ مالك ، نخص بالذكر منهم أبا القاسم . ومن تلاميذه أسد بن الفرات وسحنون (١) .

ثم جاء المرابطون في عصر ظهور كبار الفقهاء . كأبي عمران الفاسي ، وعبد الله بن ياسين ، والقاضي عياض - وكلهم من المغاربة الذين تلقوا العلم ببلاد الأندلس . وقد تلقى عبد الله بن ياسين العلم بقرطبة (٢) نحواً من سبع سنين ، ثم أمم دراسته على وسجاج بن زلو الذي تلقى العلم بدوره عن أبي عمران الفاسي بالقيروان ، ثم أسس أول مدرسة لفقهاء المالكية في نفيس على مقربة من أغمات . وكان مذهب مالك يتناسب وبساطة المرابطين الصحراويين الذين كانوا ينظرون إلى علماء أهل المدينة باعتبارهم رمز الإسلام ورسول المحبة والصفاء .

وقد قويت سلطة فقهاء المذهب المالكي في عهد المرابطين ولا سيما في بلاد الأندلس . وكان كتاب « إحياء علوم الدين » لأبي حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ وقد وصل إلى الأندلس والمغرب ، وشقت الصوفية التي تقوم على محاسبة النفس طريقها إلى هذين البلدين (٣) ، وأصبحت المهوة تنسج في الأندلس بين الصوفية وبين الفقهاء الذين خشوا على نفوسهم من دخول كتاب « إحياء علوم الدين » للغزالي الذي جمع بين أحكام الفقه وآداب المتصوفة ، فأفتوا على ابن يوسف بن تاشفين « بمصادرته وإحراقه . وما هو جدير بالملاحظة أن فقهاء المالكية قد قاوموا كتاب إحياء علوم الدين لسنين :

الأول — أن الانحياز الفقهي في هذا الكتاب يسير على مذهب الإمام الشافعي .

الثاني — أن كتاب الإحياء كتاب صوفي في روحه يسير على الفلسفة الكلامية التي

كان يحرمها المالكية ويحشون منها على مذهبهم . ولذلك أفتوا بإحراق الكتاب .

وكان زعيم فقهاء المالكية بالأندلس ابن حديد وزعيمهم بالمغرب مالك بن وهيب (٤) .

وقد تم إحراق هذا الكتاب بين سنتي ٥٠٠ و ٥٠٥ هـ .

وما يدل على قوة نفوذ الفقهاء في الدولة المرابطية ما كان يتمتع به عبد الله بن ياسين من نفوذ ، حتى إن أمراء المرابطين كانوا بعد موته لا يبرمون أمراً من أمور دولتهم دون استشارة الفقهاء . ومن أكبر الأدلة على قوة نفوذ الفقهاء أن أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين حين هم بمساعدة مسلمي الأندلس ضد النصارى لم يربداً من الرجوع إلى رأى

(١) المقرئ: فتح الطيب ج ٢ ص ٢١٨ .

(٢) الحلل الموشية لمؤلف مجهول ص ١٠ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٥ .

(٤) الحلل الموشية ص ٨٥ .



الفقهاء الذين أفتوا بوجوب حرب النصارى ، ثم أملاوا على الأمير الكتاب الذى يجب أن يوجهه إلى ألفونس السادس ملك المسيحيين فى الأندلس . وكانت هذه الرسالة على نمط الرسائل التى كان يرسلها النبي والخلفاء الراشدون إلى الملوك . وبما يدل على صحة هذا رأى ما ذكره المراكشى<sup>(١)</sup> أن على بن يوسف بن تاشفين « كان لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشورة الفقهاء » . ويذكر لنا التاريخ أن الفقهاء فى الأندلس طلبوا إلى يوسف بن تاشفين القدوم إلى بلدهم وأقتوا بخلع ملوك الطوائف . بل إن على بن يوسف ابن تاشفين حين فكر فى تسوير مدينة مراكش سنة ٥١٩ هـ استفتى الفقهاء فى المغرب والأندلس ، وقد اشترك ابن رشد الأندلسى فى مجلس على بن يوسف وأفتى بصحة هذه الفتوى . كذلك أفتى ابن رشد على بن يوسف بإبعاد النصارى المعاهدين بقرنطاة إلى المغرب لمساعدتهم « ابن روذمير » وغدرهم بالمسلمين ، فتم ترحيلهم إلى المغرب ولا سيما إلى مكناسة وسلا<sup>(٢)</sup> .

### ( ٥ ) — علم الكلام

علم الكلام هو البحث فى أمور العقيدة الإسلامية مثل توحيد الله ، والكلام فى ذاته سبحانه وتعالى وصفاته وأفعاله ، ثم الكلام فى الأنبياء والرسل . ويتناول كثير من كتب علم الكلام مسائل عصمة الرسل والإمامة . وقد يعرض هذا العلم لمسائل غيبية كالبعث والحساب والجنة والنار وغير ذلك ، ثم يعرض هذه المسائل على مقاييس العقل والمنطق فى معرض جدلى كلامى منطقي . ويعد علم الكلام أساس الفلسفة الإسلامية ، بل لقد تميزت به هذه الفلسفة الكلامية عند المسلمين عن الفلسفة اليونانية .

ويعتبر علم الكلام وليد النهضة الثقافية الإسلامية التى تأثرت بثقافات اليونان والفرس والسرمان فى العصر العباسى الأول . وقد حملت المعتزلة لواء علم الكلام الذى سيطر على الفكر الإسلامى حيناً من الدهر ، وكان له أثر بعيد فى دفع العقلية العربية خاصة والإسلامية عامة فى ميدان التفكير الإسلامى العام .

ومن أشهر متكلمي المعتزلة : أبو الهذيل العلاف المتوفى سنة ٢٣٥ هـ . ويعتبر أبو إسحاق إبراهيم بن سيار المعروف بالنظام المتوفى سنة ٢٣١ هـ من تلاميذ أبي الهذيل

(١) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٧١ .

(٢) الحلل الموشية ص ٧٦ .

العلاف . وكان للنظام منزلة لا تدانى في عصره . وقد تلمذ له أبو عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ الذي تنسب إليه فرق « الجاحظية » من المعتزلة (١) .

وكان علم الكلام بدعة من أكبر البدع في الإسلام . وقد شدد التكبير على هذا العلم أهل الحديث ( السنة السلفية ) الذين كانوا يرون أن ما جاوز البحث في الأحكام الفقهية ابتداع (٢) . وكان رجال مذهب السلف الصالح يرمون علماء الكلام بالكفر والزندقة . وقد روى السبكي أن أحد تلاميذ الشافعي جعل يسأله في علم الكلام ، فكان الشافعي يجيبه بأخصر جواب ، ثم التفت إليه قائلاً : « يا بني ! هذا علم ( يقصد علم الكلام ) إن أصبت فيه لم تؤجر ، وإن أنت أخطأت فيه كفرت ، فهل لك في علم إن أصبت فيه أجرت وإن أخطأت لم تأثم ؟ قال ( التلميذ ) : وما هو ؟ قال ( الشافعي ) : الفقه ، فلزمته وتعلت عليه الفقه (٣) » .

ويعد تأويل الآيات المتشابهات في القرآن الكريم أهم الفوارق التي تفصل أهل السنة السلفية عن المعتزلة .

### (١) التوحيد في الإسلام :

ذكر الله سبحانه وتعالى التوحيد في أغلب آيات القرآن الكريم إما مباشرة وإما ضمناً بطريق التذكير بقصص الأنبياء السابقين الذين أرسلوا لنوحيد الله قبل كل شيء (٤) ، وليست أحكام الفروع إلا وسيلة لعبادة ذلك الواحد الأحد . ومن تحصيل الحاصل الاستشهاد بآيات قرآنية تثبت التوحيد لأنها أكثر من أن تذكر . وقد عقدت بعض السور القرآنية جميعها للتوحيد كسورة « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد (٥) » .

وإن هذه السور التي كانت مطلع الوحي ونزلت على النبي الكريم بمكة المكرمة كلها تدور على محور الوحدانية ومحاربة الشرك (٦) . ثم كان التوحيد أول أركان الإسلام في

(١) أنظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٣٤٩ — ٣٥٠ .

(٢) دى بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة أبي ريدة ص ٥١ .

(٣) السبكي : طبقات الشافعية ج ١ ص ٢٤١ .

(٤) وفي ذلك يقول الله تعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في

هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (سورة يوسف ١١ : ١٢٠) .

(٥) سورة الاخلاص ١١٢ .

(٦) أنظر على سبيل المثال سور : العلق ٩٦ ، المزمل ٧٣ ، المدثر ٧٤ .

الحديث النبوي الشريف . « بنى الإسلام على خمس : شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً » .

ولقد وضع علماء المسلمين أمر التوحيد في المنزلة الأولى في كل العصور . ومن هذا قول الإمام الغزالي : « لا إله إلا الله كلمة نبيجتها معرفة الوجدانية وثمرتها الإقرار بالفرسانية . وذلك هو المقصود من وجود الموجودات ، وكون الكائنات . ولولا معرفة الوجدانية والإقرار بالفرسانية ، لما سحب ذيل الوجود على وجود ، ولما أخرج من كنم العدم مفقود ، وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (١) ، كما يتضح ذلك من الحديث القدسي المأثور عن الرسول الكريم وهو : « عبدى خلقتك من أجل التوحيد وخلقته الأشياء كلها من أجلك » .

وفي القرآن الكريم آيات محكمات تنزه الله تنزيهاً تاماً وتباعد بين مشابهة الذات الإلهية بالخلقوات كقوله تعالى : « ليس كمثل شيء وهو السميع البصير » (٢) ، وقوله تعالى : « هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الذي لا إله إلا هو ، الملك القدوس ، السلام المؤمن ، المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور ، له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » (٣) ، وقوله تعالى : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم ... » (٤) .

وثمة آيات أخرى يفهم ظاهرها مشابهة الله لخلقواته ، وتسمى الآيات المتشابهات وذلك كقوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » (٥) وقوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » (٦) ، وقوله تعالى : « وهو القاهر فوق عباده » (٧) وقوله تعالى : « وإنا فوقهم قاهرون » (٨) .

(١) الغزالي : التجريد في علم التوحيد ، مخطوط مكتبة الأسكوريال ( Escorial ) ورقة رقم ١٧

قسم ٧٦٢ .

(٢) سورة الشورى ( ٤٢ : ١١ ) .

(٣) سورة الحشر ( ٥٩ : ٢٢ — ٢٤ ) .

(٤) سورة البقرة ( ٢ : ٢٥٥ ) .

(٥) سورة طه ( ٢٠ : ٥ ) .

(٦) سورة الفتح ( ٤٨ : ١٠ ) .

(٧) سورة الأنعام ( ٦ : ١٨ ) .

(٨) سورة الأعراف ( ٧ : ١٢٧ ) .

وهذه الآيات المتشابهات كانت مثار جدل عنيف بين علماء المسلمين ، ولا سيما بين السلفيين وعلماء الكلام .

وقد وقف السلفيون ومن سار على نهجهم موقف الحياد التام إزاء الآيات المتشابهات ، فلم يسمح لهم ورعهم بأن يعمدوا إلى تأويلها ، بل سلكوا سبيل الحذر ، وحملهم على ذلك أمران : أحدهما ظاهره المنع الوارد في القرآن الكريم ، إذ يقول الله جل شأنه مخاطباً نبيه الكريم :

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ، هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرَى مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ . رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » (١) .

فالسلفيون قد تركوا أمر تأويل هذه الآيات إلى الله إذ لا يعلم تأويلها إلا هو حسب النص القرآني ، وآمنوا بهذه المتشابهات من غير بحث . قائلين ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا .

والأمر الثاني : — أن التأويل أمر مظنون فيه بالاتفاق ، والقول في ذات الله سبحانه وتعالى بالظن غير جائز . والكلاميون لا يعتبرون التأويل ظناً ، بل يؤمنون بما يروونه من تأويل . هذا إلى أن التأويل المظنون ليس من شرائط الإيمان وأركانه (٢) .  
ومن أبرز رجال المدرسة الفلسفية الإمام مالك ، والإمام الشافعي والإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنهم .

يقول الشهرستاني في الإمام مالك : « أما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ، ولا تهدفوا للتشبيه ، فهم مالك بن أنس رضي الله عنه إذ قال في تفسير قوله تعالى ( الرحمن على العرش استوى ) : « الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » . كما ذكر الشهرستاني من رجال هذه المدرسة السلفية أحمد بن حنبل وداود الظاهري

(١) سورة آل عمران ( ٣ : ٧ - ٨ ) .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ( ج ١ ص ١٣٧ - ١٣٨ ) .

الأصفهاني<sup>(١)</sup> وتلميذه ابن حزم . وكان شعار السلفيين : فر من الكلام في أى صورة تكون كما نفر من الأسد .

ويعبر عن شعور السلفيين نحو علم الكلام قول حائق ينسبونهُ إلى الشافعي وهو : حكمي على رجال علم الكلام أنه يجب أن يضربوا بالسياط والنعال وأن يطاف بهم مشهرين في المجامع والقبائل وينادى عليهم : هذا جزاء من يذب القرآن والسنة في ناحية وينكب على علم الكلام الذي إن أصاب المرء فيه لم يؤجر وإن أخطأ فيه كفر<sup>(٢)</sup> .

ومن أشهر السنين السلفيين في العصر السلجوقي شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري ( ٣٩٦ — ٤٨١ / ١٠٠٦ — ١٠٨٨ ) . ويعد من أئمة العلماء والمحدثين وكبار الصوفية . وكان حنبلي المذهب ، شديد التعصب لرأيه ، ولقي بسبب ذلك كثيراً من العنت والاضطهاد من الفلاسفة وعلماء الكلام ، حتى دبروا له المسكايد للتخلص منه غير مرة ورموه بالكفر عند الوزير نظام الملك في عهد السلطان ألب أرسلان السلجوقي . إذ اتفق هؤلاء العلماء على إغارة صدر السلطان على الأنصاري واجتمعوا عنده لشكواه ، وكأوا قد وضعوا صنما صغيراً من النحاس في محرابه ، وقالوا إن الشيخ يقول بالنجس وإن في محرابه صنما يقول إن الله على صورته . ثم طلب هؤلاء العلماء إلى السلطان أن يبعث في طلب الأنصاري ، فأرسل السلطان ( وقد تملكه الغضب ) من يحضر الصنم من قبلة الشيخ فأحضر ، ثم أمر بالشيخ فحضر ، وحضر العلماء ووجوه المدينة إلى مجلس السلطان فوجدوا أمامهم صنما ، فأتجه السلطان إلى الأنصاري قائلاً : ما هذا ؟ ( مشيراً إلى الصنم ) ؟ فقال الشيخ : هذا تمثال عمل لعبة للأطفال . فقال السلطان غاضباً : لست أسأل عن هذا ، فقال الشيخ : عم تسألون يا مرلأى ؟ فأجابه ( السلطان ) : إن هذه الجماعة تقول إنك تعبد كما تقول عنك إنك تقول إن الله على صورته ، فقال الشيخ : ( سبحانك هذه بهتان عظيم ) ، قالها بهيبة وقوة ، فأدرك السلطان أن الجماعة قد افترت عليه كذباً ، فاعتذر السلطان للشيخ وأطاعه إلى بيته معزراً مكرماً ، كما اعترفت هذه الجماعة بأنهم دبروا هذه المسكيدة للشيخ للخلاص منه ، ولما يلاقونه من تعصبه ، فأمر السلطان بأن يشتروا أرواحهم بشمن غال فرضه عليهم عقاباً لهم .

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١١٨ — ١١٩ .

(٢) ابن تيمية : العقيدة والشريعة لجولدسيهر ( القاهرة ١٩٤٦ ) ص ١١٤ .

انظر عبد الله علام : الدعوة الموحدة بالمغرب ( القاهرة ١٩٦٤ ) ص ١٣٣ — ١٣٧ .

والشيخ عبد الله الأنصاري هذا مؤلفات تشهد له ببراعته في الأدب والزهد . ومن مؤلفاته كتاب ذم الكلام<sup>(١)</sup> .

كان اهتمام المسلمين عظيمًا في مجال علم التوحيد كما تقدم ، فقد كتب فيه السلفيون والمعزلة ، كما عني الشيعة كثيرًا بالبحث في هذا العلم . ومن أهم ما كتبه الشيعة في علم الكلام : كتاب المجالس المستنصرية للتوحيد في الدين هبة الله الشيرازي وداعي دعاة الفاطميين في فارس . ويعد من أهم آثارهم في علم الكلام ، وهو مجموعة مذهب محاضرات ألقاها هذا الداعي في مجالس الدعوة يشرح فيها عقائد المذهب الإسماعيلي الفاطميين<sup>(٢)</sup> .

ويعد ديوان المؤيد في الدين من أهم مؤلفاته ، لأن شعره في هذا الديوان يصور عقائد الفاطميين تصويراً تاماً . فقد تحدث عن الولاية والتوحيد ، ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من ذكر الولاية والإشارة إلى وجوب طاعة الأئمة . ومن ذلك قوله في منظومته :

وَمِ أُولُو الْأَمْرِ أئِمَّةُ الْهُدَى      عِصْمَةٌ مَنْ لَأَذَابِهِمْ مِنَ الرَّدَى  
مَفْرُوضَةٌ طَاعَتُهُمْ عَلَى الْأَمِّ      قَاطِبَةٌ مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمٍ  
أَقْرَأُ : أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ      ثُمَّ أُولَى الْأَمْرِ بِهِمْ مَوْصُولًا  
ثَلَاثُ طَاعَاتٍ غَدَّتْ مَعْلُومُهُ      فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ مَنظُومُهُ<sup>(٣)</sup>

وكما عرض المؤيد لمبدأ التأويل وإعجاز القرآن والرأى والقياس ، كذلك عرض لنظرية المثل والمثول . فالإسماعيلية يذهبون إلى القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم بتأويل ما أتى به ، وأنه أول الراسخين في العلم وأفضلهم ، وعنه أخذ كثير من الراسخين في العلم . وكما أن النبي كان يعلم تأويل القرآن ، فإن من قام مقامه في كل عصر يعلم هذا التأويل . كما يذهب الإسماعيلية إلى القول بأن القرآن الكريم بحاجة إلى أن يخرج كنوز

(١) وهو بالمتحف البريطاني ( Add-٢٧/٥٢٠ ) .

نظامي عروضي : جهار مقاله ( ترجمة ) س ١٧٧ — ١٧٨ .

(٢) وقد بلغ عدد هذه المحاضرات ثمانمائة محاضرة . ويرجع الدكتور محمد كامل حسين ( ديوان المؤيد في الدين ، مقدمة س ٦٠ ) أن المؤيد ألقى بعض هذه المحاضرات بعد أن ارتقى إلى رتبة داعي الدعوة في سنة ٤٥١ هـ .

(٣) ديوان المؤيد س ٦١ .

معانيه ويؤولها ، لأن له معان غير المعاني التي تتداولها السنة العامة . وهذه المعاني هي سر إعجاز القرآن ، وإعجازه ليس في لفظه بل في معناه ، وفي ذلك يقول المؤيد :

إن كان إعجاز القرآن لفظاً ولم يَنْبَلْ معناه منه خطأً

صادقتم معقوده مخلولاً من أجل أن أنكرتم التأويل<sup>(١)</sup>

والإمامة في نظر الإسماعيلية هي قيادة العالم وحمل معرفة الحقيقة إليه . ولا بد من وجود هذا المرشد في كل عصر حتى لا يبقى العالم جاهلاً ، وأن علياً والأئمة من ذريته هم الذين اختصوا بتأويل القرآن دون غيرهم من الناس . ويقول المؤيد :

وتأويله مستودع عند واحد وإن لم تسائله فزوراً تأولت

وأخذ بيت النور لاشك بأبه أبو حسن والبيت من بابه يؤتى

للعلم قوم به خضوا ، أقامهم ربّ الورى للورى في أرضه علماً<sup>(٢)</sup>

ولم يأخذ الفاطميون بالقياس في التفسير والفقه وطعنوا في فتاوى الصحابة ، وذهبوا إلى أن الفقهاء من أهل المذاهب الأولى قد حرفوا القرآن الكريم لأنهم لم يفهموا معناه وإن فهموا لفظه ، كما يتضح ذلك من قول المؤيد :

وهو الذى قد حَرَفَ الكتابا عن وجهه وجانب الصوابا

يثبت شيئاً ليس فيه فيه وحكم آي أحكمت ينفيه<sup>(٣)</sup>

كما يعتقد الإسماعيلية أن الدين وعلومه وقف على الأئمة من أهل البيت ، وأن هذه العلوم هي علوم الباطن ، ولذلك سموها الباطنية ، لأن اعتقادهم بهذا العلم هو قوام عقيدتهم . قال المؤيد :

وربّ معنى ضمه كلام كمثل نور ضمه ظلام

باق بقاء الحَبِّ في السقابل في معقل من أحرز المعائل<sup>(٤)</sup>

(١) ديوان المؤيد س ١١٠ .

ونلاحظ في هذا الكتاب التوحيدى الشيعى أنه اهتم اهتماماً خاصاً بأمر الأئمة العلويين وما يتمتعون به من حقوق يجب على المسلمين القيام بها نحوهم كجزء من العقيدة الإسلامية ، إذ جعلوا الإمامة ركناً سادساً لأحكام الإسلام الخمسة التي وردت في الحديث المشهور بنى الإسلام على خمس .

(٢) ديوان المؤيد س ١٠٣ .

(٣) المصدر نفسه س ١٠٤ .

(٤) المصدر نفسه س ١٠٦ .

وإن استخلاص الباطن من الظاهر هو ما يطلق عليه نظرية المثل والمثول<sup>(١)</sup> وهو تفسير الباطن من الظاهر، أى تفسير الأمور العقلية غير المحسوسة بما يقابلها ويمثلها من الأمور الجسمية المحسوسة. وهذا الاسم مستمد من أقوال الفاطميين: «إن الله جعل لهم مثلاً دالا على مثوله فعرفوا المثول بمثله، إذ يقول الله سبحانه وتعالى: (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل ممثّلٍ لعلهم يتذكّرون)»<sup>(٢)</sup>. فأخفى الله سبحانه المثول<sup>(٣)</sup> وستره وجعل مثله طريقاً إلى معرفته اختباراً لعباده وامتحاناً لهم، قال المؤيد:

والذى قال في الكتاب تعالى ممثّلٌ ذاك تحته ممثول

أقصد: سحماً ممثوله دون المثل ذا إبرُ النحل وهذا كالعسل<sup>(٤)</sup>

كما رد المؤيد على الفرق المختلفة في تفسير رؤية الرحمن، ورد هلى الفرق التي أثبتت رؤية الرحمن أو أنكرتها، فأثبت أن الرؤية تنقسم قسمين: أحدهما محسوس والآخر معقول وهو رؤية العقل. فالبصر لا يتعدى المبصرات الجسمية والعقل لا يدرك إلا المدركات العقلية، والرؤية إما رؤية حس أو رؤية عقل. قال المؤيد:

فالعقل للمرء أداة كالبصر ذا: باطن فيه وهذا قد ظهر

كلاهما يدرك بالمجانسة مقالة صحّت بلا ممارسة

وليس من جنس العقول الله يا قوم: كى تذكركه حاشاه<sup>(٥)</sup>

كما تعالى أن يكون كالصور مجسماً كيما يلاقيه البصر

فكان المؤيد قد رفض أقوال المثبتين لرؤية الله تعالى بالابصار، كما رفض أقوال المثبتين لرؤية الله تعالى بالعقول، وخالف بذلك أهل السنة الذين أثبتوا الصفات وخالفوا المعترلة الذين رفضوا الصفات. يدل على ذلك قوله:

فالفرقتان اجتماعاً مشبهة حباطة عشواه جهل وعمه<sup>(٦)</sup>

(١) الظاهر والباطن يقابلها المثل والمثول. فالمثل: الظاهر، والمثول: الباطن. ولكل مثل مثول كما أن لكل ظاهر باطناً. والله يضرب الأمثال للناس، أما بواطن هذه الأمثال أو يمثلوها فلا يعلمه إلا الأنعم وحدهم، لأنهم أصحاب علم الباطن.

(٢) سورة الزمر. ٣٩: ٢٧

(٣) يقصدون به الله سبحانه وتعالى، والمثل يقصدون به الشبه والنظير.

(٤) ديوان المؤيد ص ١٠٧.

(٥) يعنى أن الله يرتفع عن أن تدركه العقول البشرية.

(٦) ديوان المؤيد ص ١١١.



أما نظر المؤيد إلى ما ورد في آيات الكتاب العزيز من ذكر اليد والقدم والعين وغير ذلك من الصفات الجسمية ، فإن للمؤيد في ذلك رأياً يتفق مع التأويل الذي ذهب إليه الإسماعيلية والمعتزلة . فهو يرى أن اليد هي النعمة ، وهي القوة ، كما يقين ذلك من قوله :

وقائلُ لله وَجْهٌ وَيَدٌ وقوله : هذا لديه رَشْدٌ  
وقائلٌ : ذلك حُكْمٌ باطلٌ إن صَحَّ ذا ، فاللهُ شَخْصٌ ما ئلٌ<sup>(١)</sup>

أما رأى المؤيد في الأحرف التي وردت بأوائل السور كقاف ونون وألم وكهيعص ، فإنه يتفق مع رأى الإسماعيلية القائلين بالتأويل . وهو يرى أن لهذه الحروف معاني مستورة خفية لا يعلمها إلا خزنة علم الله . كما عرض المؤيد لقصص الأنبياء وسار فيها على نهج الفاطميين الذين خالفوا جمهرة المفسرين فيما ذهبوا إليه عن الأنبياء . ذلك أن الفاطميين يقولون بعصمة الأنبياء ، على حين يشير بعض هذا القصص إلى أن الأنبياء غير معصومين . وقد قال الفاطميون : إن لهذه الآيات تفسيراً ظاهرياً ، وظاهرها ما قال به جمهرة المفسرين ، أما باطنها فإنه يبعد الأنبياء عن المعاصي . كما سمي الفاطميون الأنبياء النطقاء ، لأن النطق — كما قالوا — قسمان : أحدهما ما يتميز به الإنسان عن البهائم ، وهو النطق عما في الدنيا ، والآخر النطق عما في الدار الآخرة الذي يتميز به أهل التأويل الذين يتكلمون من وراء حجاب أي الذين يدركون الغيب . وعلى هدى هذه الآراء عرض المؤيد لقصة آدم ، وقصة إبراهيم ، والملك ، وطوفان نوح ، وقصة لوط ، وقصة داود ، وقصة يوسف ، كما عرض لزواج النبي بزَيْنَب بنت جحش<sup>(٢)</sup> .

ومن أهم الكتب التي تعرض لفلسفة الدعوة الإسماعيلية كتاب المجالس المستنصرية<sup>(٣)</sup> . فقد عرض مؤلفه لعقائد المذهب الإسماعيلي في إيجاز ، وقد أشار إلى هذه العقائد ، ولكنه

(١) المصدر نفسه ص ١١٤ .

(٢) انظر مقدمة ديوان المؤيد ص ١٣٤ - ١٥٢ .

(٣) ذكر ليفانوف في كتيبه «المرشد إلى أدب الإسماعيلية» A Guide to Ismaili Literature أن هذا الكتاب ينسب إلى المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ، وأنه غير كتابه المعروف باسم ، المجالس المؤيدية . ويشك الدكتور محمد كامل حسين الذي قام بنشر كتاب المجالس المستنصرية في نسبة هذا الكتاب إلى المؤيد في الدين ، ويستند في قوله هذا إلى أن التأويل على ما ورد في كتاب المجالس المستنصرية يختلف عن التأويل الذي ورد في كتاب المجالس المؤيدية إذ أن المؤلف الواحد لا يرى رأيين مختلفين في مسألة واحدة كما أن صاحب كتاب المجالس المستنصرية كان يميل إلى الاعتماد على الفقه في آرائه أكثر من اعتماده على

مسا رقيقاً في الوقت الذي عرض فيه المؤيد في الدين لأصول هذه العقائد التي لا بد من أن يلم بها المستجيب . لذلك لم يسرف في التأويل لإسرافاً يثقل على السامع الذي لا عهد له بعلم الباطن من قبل . ولهذا نراه يعرض للعبادات ولقواعد الإسلام العملية من الفرائض والشُّن . وانفرد هذا الكتاب بأنه رفع من شأن إمام العصر المستنصر بالله الفاطمي وأعلى ذكره وغالى في تمجيدهِ . ولما كان المستنصر هو الإمام التاسع عشر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد عمد الداعي إلى أن يتخذ من هذا العدد التاسع عشر أصلاً من أصول الدين ، فجعل لكل دعامة سبع فرائض واثنى عشرة سنة . فيكون مجموعها تسع عشرة إشارة إلى الإمام المستنصر<sup>(١)</sup> . ولم ينفرد فلاسفة الدعوة الإسماعيلية باتخاذ الأعداد أصولاً لآراء دينية . فقد اتخذ الفيثاغوريون من كل عدد أصلاً لدراساتهم ، كما اتخذ العبرانيون العدد سبعة أصلاً لبعض عقائدهم ، وكما فعل الحرانيون حين اتخذوا العدد خمسة أصلاً لعقيدتهم . وكذلك كان قدماء المصريين مُمَثِّلَةً<sup>(٢)</sup> ، والزرادشتيون مَحْمَسَةً . وهاك أم ما يمكن أن يستخلص من هذا الكتاب :

- ١ - توحيد الله وتزجيه ونفى الإشراف والقرناء له .
- ٢ - الاعتراف بالأنبياء والرسل وأنها معصومون من كل خطأ ، وأن محمداً خاتم النبيين .
- ٣ - القول بوصاية علي بن أبي طالب وولاية الأئمة من ذريته وعصمتهم جميعاً .
- ٤ - التصديق بما جاء به القرآن الكريم والعمل به ظاهراً وباطناً .
- ٥ - إبطال الرأي والقياس في كل أمور الدين ووجوب الأخذ عن الأئمة .
- ٦ - القول بالظاهر والباطن معاً بمعنى أنه لا يقبل الظاهر دون الباطن ولا الباطن دون الظاهر<sup>(٣)</sup> .

وقد انفرد هذا الكتاب بأنه أفرد مجلساً تحدث فيه الداعي إلى معشر المؤمنين بما يوحى بأن الدعوة كانت توجه إلى الرجال والنساء .

= التأويل أي أنه كان سائراً على مذهب السلف الصالح ، بخلاف المؤيد في الدين ، فانه كان يؤثر التأويل . وقد خلص ناشر كتاب المجالس المستنصرية إلى القول بأن هذا الكتاب ينسب إلى الداعي علم الإسلام ثقة الإمام لا إلى المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي .

راجع كتاب المجالس المستنصرية للداعي علم الإسلام ( القاهرة ١٩٤٧ ) .

(١) كتاب المجالس المستنصرية ، مقدمة ص ١٧ .

(٢) المصدر نفسه ، مقدمة ص ١٨ .

(٣) المصدر نفسه ، مقدمة ص ١٨ .

ويشتمل هذا الكتاب على خمسة وثلاثين مجلساً : عرض في المجلس الأول منها لوجوب التأويل ، وعرض في المجلس الثاني الى المجلس السادس للفرائض والسنن ، وعرض في المجالس من السابع عشر إلى الرابع والعشرين إلى حسن المعاملة ، كالبر بالوالدين وصلة القرابة وحفظ الجار ، ومعاملة الزوجين ، ومعاملة العبيد ، وتعرض في المجلس الخامس والعشرين إلى المجلس الثلاثين لصيام رمضان (١) .

## ٢ — علم الكلام في المغرب والأندلس :

كان المغرب يسير على وفق العقيدة السلفية ، وظل أهل هذه البلاد على هذه العقيدة حتى ظهر المهدي محمد بن تومرت صاحب الدعوة الموحدية ، إذ كانت دعوته توحيدية محض . فقد تحدى علماء المرابطين ورماهم بالشرك والتجسم لأنهم يتمسكون بظاهر الآيات المتشابهات ، وظل يقاومهم حتى سقطت الدولة المرابطية وقامت الدولة الموحدية تحمل مذهباً كلامياً جديداً دعا إليه ابن تومرت . وفي ذلك يقول المراكشي : « وكان جل ما يدعو إليه ( ابن تومرت ) علم الاعتقاد على طريق الأشعرية . وكان أهل المغرب . . . ينافرون هذه العلوم ويعادون من ظهرت عليه شديداً أمرهم في ذلك » (٢) .

وليس من شك في أن ابن تومرت كوّن عقيدة من المذاهب الإسلامية التي سبقته ، ولكنه خرج آخر الأمر بعقيدة توحيدية متميزة خاصة به . فالعقيدة التومرتية تعتبر مزيجاً من المذاهب الكلامية ؛ فهي ليست أشعرية بحتة كما ذكر المراكشي وابن خلدون ، ولا خارجية كما أدركها علماء المرابطين ، كما أنها ليست معتزلية تقوم على الأدلة العقلية وحدها ، ولا سلفية تنأى عن الرأي والتأويل ، وليست غزالية كما توهمها « أندريه جوليان » ، بل هي مزيج من أغلب المذاهب المذكورة وغيرها . وقد أغفل المؤرخون جانباً هاماً في وضع هذه العقيدة وهو المذهب الحزمي .

فقد تأثر ابن تومرت إلى حد ما بمذهب العلامة الأندلسي « ابن حزم » ، مما يرجح الرأي القائل بأن ابن تومرت قضى شطراً من حياته الدراسية بالأندلس قبل أن يقصد إلى معاهد الشرق ، وأنه نهل إلى حد ما من معين الثقافة الحزمية التي كانت تتألق حينئذ بقربطة .

(١) المصدر نفسه ص ٥ — ١٤٧ :

أنظر كتابي : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٦٥ — ٥٠٠ .

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٨٤ .

ولكى نبين مدى تأثير ابن تومرت بأراء ابن حزم في العقيدة ، كان من الضروري أن نعقد مقارنة بينهما في هذا الصدد ، ولكنه من العسير أن نعقد مقارنة كاملة بين الإمام ابن حزم ، وبين المهدي بن تومرت في ميدان التوحيد لسبب أساسي وهو أن ابن حزم له مذهب كلامي مفصل واضح المعالم محدد المنهج ، إذ قد ناضل المعتزلة والأشعرية والحوارج والشيعة والمرجئة وغيرهم ، وانتهى من هذا النضال إلى نتائج تميز مذهبه ، وتعين مدرسته ، وتبرز شخصيته . وبهذا الجهد المتواصل انفصلت شخصية المذهب الحزمي عن شخصية المذهب الظاهري الذي فضله ابن حزم على جميع المذاهب ، وأعجب به .

أما المهدي بن تومرت فلم يناضل المذاهب الكلامية نضالاً علياً ، ولم يقدم لنا نظريات وآراء نستطيع بها أن نبنى له مذهباً خاصاً .

وكل ما يمكن أن نعمله من مقارنة ، هو مقارنة عقيدته المدونة بكتابه أعز ما يطلب بأراء غيره في ميدان هذه العقيدة ، لئرى مدى التشابه أو المخالفة بينه وبين أهل المذاهب الكلامية المفصلة مثل ابن حزم .

وربما كان السبب في تخلف ابن تومرت عن أن يترك للناس مذهباً دراسياً على نمط المعتزلة والأشعرية والحزمية وغيرهم ، أنه أفرغ نشاطه في مقاومة المرابطين ، والتفنن في كيفية قهرهم ، وصرف الناس عن اتباع مذهب السلف الذي قد يجر معتقيه إلى التشبيه والتجسيم . وابن تومرت في هذا الميدان العلمي يعتبر من الشخصيات العلمية البارزة في التاريخ الإسلامي ، فقد انتهت دعوته بأسقاط دولة عتيدة وإقامة دولة مكانها ، بينما أخفق ابن حزم في نشر مذهبه في حياته ، إذ قهرته السلطات الحاكمة بالاندلس ، ونجح علماء المالكية في السكيد له حتى أحرق المعتمد بن عباد كتبه ، ومات مهيبض الجناح . وقد ضاق الغزالي بفساد أهل زمانه ، ولكنه لم يجترأ على مساجلة الدولة السلجوقية ، بل كان لها أداة طيعة . والمعتزلة من قبل قد نجحوا في جذب المأمون إلى صفوفهم . كما جذبوا المعتصم والواثق ، ولم يهادنهم الزمن بعد ذلك ، فهزموا على يد السنين هزيمة لم تقم لهم بعدها قائمة .

وابن تومرت مصلح ديني عملي ، وإن لم يترك مذهباً كلامياً كاملاً . وسوف نقدم نصاً من عقيدته كما دونها في كتابه «أعز ما يطلب» . قال المهدي بن تومرت تحت عنوان : «توحيد الباري سبحانه» «لا إله إلا الذي دل عليه الموجودات ، وشهدت عليه المخلوقات ، بأنه جل وعلا ، وجب له الوجود على الإطلاق ، من غير تقييد ولا تخصيص بزمان

ولا مكان ، ولا جهة ولا حد ولا جنس ولا صورة ولا شكل ولا مقدار ولا هيئة  
ولا حال .

أول ، لا يتقيد بالقبلية ، آخر ، لا يتقيد بالبعدية ، أحد ، لا يتقيد بالأينية<sup>(١)</sup> صمد .  
لا يتقيد بالكيفية ، عزيز ، لا يتقيد بالثلثية ، لا تحده الأذهان ، ولا تصوره الأوهام ،  
ولا تلحقه الأفكار ، ولا تكيفه العقول ، لا يتصف بالتحيز والانتقال ، ولا يتصف  
بالتغير والزوال ، ولا يتصف بالجهل والاضطرار ، ولا يتصف بالعجز والافتقار ،  
له العظمة والجلال ، وله العزة والكمال ، وله العلم والاختيار ، وله الملك والافتقار ،  
وله الحياة والبقاء ، وله الأسماء الحسنی .

واحد في أزلته ، ليس معه شيء غيره ، ولا موجود سواه ، لا أرض ولا سما . ولا ماء  
ولا هواء ولا خلأ ، ولا ملاء<sup>(٢)</sup> ولا نور ولا ظلام ، ولا ليل ولا نهار ولا أنيس  
ولا حسيس .

ولا رز<sup>(٣)</sup> ، ولا همس ، إلا الواحد القهار . انفرد في الأزل بالوحدانية والملك  
والألوهية ، ليس معه مدبر في الخلق ولا شريك في الملك ، له الحكم والقضاء وله الحد  
والثناء ، لا دافع لما قضى ولا مانع لما أعطى ، يفعل في ملكه ما يريد ويحكم في خلقه  
ما يشاء ، لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً ، ليس فوقه أمر قاهر ولا مانع ، زاجر ليس  
عليه حق ولا عليه حكم ، فكل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ، لا يسأل عما يفعل  
وهم يسألون<sup>(٤)</sup> .

تأثر ابن حزم بمذهب داود الظاهري في الفقه والعقيدة على السواء ، بل لقد زاد عليه  
في تمسكه الشديد بظاهر القرآن الكريم والحديث الشريف في العقيدة . فكان ابن حزم  
لا يقول بصفات الله ولا يقول بالتأويل . ولذلك حمل على المعتزلة وعلى الأشعرية في غير  
هرادة . يقول ابن حزم<sup>(٥)</sup> :

« وأما إطلاق لفظ الصفات لله تعالى عز وجل فحال لا يجوز ، لأن الله تعالى لم ينص

(١) أي لا يتقيد بالمكان ، فالأينية نسبة إلى أين التي يسأل بها عن المكان .

(٢) يقصد بالخلأ الفضاء الأرضي وبالملاء الفضاء الجوي ، من قولهم : الملاء الأعلى ولكن اللفظة  
المنوية تعطي معنى آخر . فاللأ والملاء شدة الثقة : انظر مختار الصحاح مادة « ملأ » .

(٣) الرز ( بفتح الراء مع التشديد ) ، أن يسكت اللسان فجأة .

(٤) أعز ما يطلب من ٢٤٠ — ٢٤١ .

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٢ من ١٢٠ .

قط في كلامه المنزل على لفظه الصفات ولا على لفظه الصفة ، ولا حفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى صفة أو صفات . نعم ! ولا جاء قط ذلك عن أحد من الصحابة رضی الله عنهم ، ولا عن أحد من خيار التابعين ، ولا عن أحد من خيار تابعي التابعين .  
ويذكر ابن حزم أن لفظ الصفات قد ابتدعه المعتزلة ورؤساء الرافضة ، ثم سلك سبيلهم قوم من أصحاب الكلام الذين لم يتبعوا سبيل السلف الصالح . ويبين ابن حزم منهجه الكلامي في هذه العبارة : « إنما الحق في الدين ما جاء عن الله تعالى نصاً أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك ، أو صح إجماع الأمة كلها عليه ، وما عدا هذا فضلال (١) » .

ويفسر ابن حزم ما يسميه الأشعرية « صفات » الله تفسيراً بارعاً ، إذ يقول في قوله تعالى ( والله بكل شيء عليم ) « إن الله له معلومات بالأشياء كلها ، وهو لا يخفى عليه شيء ، ولا يفهم منه البتة أن له علماً هو غيره » (٢) .

من ذلك نرى أن ابن حزم قد زاد على السنة السلفية في التمسك بنص الكتاب والسنة ، إذ أن السلفيين رفضوا الدخول في مناقشات في العقيدة ، واعتبروا أهل الكلام كفاراً أو زنادقة . ولكن ابن حزم لم يقف من علماء الكلام موقفاً سلبياً كما وقف أهل السنة السلفية ، بل نازلهم وناقشهم بالحجة والبرهان ، واستعمل في مناقشته آيات قرآنية وأحاديث نبوية صحيحة . لحمل على المعتزلة وعلى تلاميذهم الأشعرية . وكان لمذهبه أتباع كثيرون في كثير من أرجاء العالم الإسلامي ، بل إنه نوك وراه فرقة تحمل اسمه وتعرف بالحرزية . وقد انضم إلى هذه الحرزية كثير من الظاهرية . ومال يعقوب المنصور الموحدى إلى مذهب ابن حزم في التوحيد ، واعتنق مذهب في التوحيد رجوعاً إلى الكتاب والسنة .

### (و) النحو :

حفل العصر السلجوقي بطائفة من مشهورى النحاة ، نخص بالذكر منهم أبا البركات عبد الرحمن الأنبارى (٣) (ت ٥٧٧ هـ) . وقد رحل إلى بغداد في صباه وقضى بقية حياته فيها ، وتلقى العلم بالمدرسة النظامية ، ودرس اللغة على أبى منصور الجوالقي ونبع في الأدب .

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٢١ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٢٩ .

انظر عبد الله غلام : الدعوة الموحدة بالمغرب ص ١٥٢ — ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٣) نسبة إلى الأنبار وهي بلدة قديمة على الفرات ، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ . وقد قيل إنها سميت بهذا الاسم لأن كسرى كان يتخذ فيها أنابيب للطعام . والأنابيب جمع أنبار ونبر كصرد : القم الضخام . راجع القاموس المحيط مادة نبر .

وقد عهد إليه بتدريس النحو بالمدرسة النظامية ، وصنف فيه كتاب « أسرار العربية » وكتاب « الميزان » .

ومن مشهورى النحاة أبو نزار البغدادي . وكان من المبرزين فى النحو حتى صار « أنحى طبقتنه » . وكان يعجب بنفسه حتى لقد لقب نفسه ملك النحاة . وكان يسخط على من يخاطبه بغير هذا اللقب . وقد تلقى أبو نزار الحديث وأصول الدين والفقه وعلم الكلام على أئمة زمانه ، وأخذ النحو على القصبجى الذى أخذه على عبد القادر الجرجاني . ثم رحل أبو نزار إلى جرجان وكرمان وغزنة ثم إلى الشام ، واتخذ مدينة دمشق موطنه وتوفى بها سنة ٥٦٨ هـ (١) .

ومن مشهورى النحاة أيضاً ابن الدهان ، وكان يسمى « سيويه » عصره . وقد وضع كثيراً من المصنفات القيمة فى النحو ، منها « شرح الإيضاح والتسكلة » ويقع فى ثلاثة وأربعين مجلداً ، و « الفصول الكبرى » و « الفصول الصغرى » . كما شرح كتاب « اللمع » لابن جنى ( بكسر الجيم والنون مع التشديد ) فى مجلدين وسماه « الغرة » . وألف فى النحو كتاب « العروض » وكتاب « الدروس » وكتاب « الرسالة السعيدية فى المآخذ السكندرية » ( ويشتمل على سرقات المتنبي كما ذكر ابن خلكان ) . كما ألف ابن الدهان كتاب « زهر الرياض » فى سبع مجلدات ، وكتاب « الغنية فى الطاء والظاء » ، وكتاب « العقود فى المقصود والممدود والراء » ، وكتاب « الغنية فى الأضداد » .

وقد عاصر ابن الدهان كثيراً من أئمة النحاة كالجواليقي ، وابن الحشاب ، واشتهر فى النحو وبرز فيه حتى كان العلماء يفضلونه على هؤلاء النحاة مع ذبوع شهرتهم فى هذا المضمار . ترك ابن الدهان بغداد إلى الموصل ، فتلقاه الوزير جمال الدين بالقبول وأحسن إليه . ولكن كتبه التى خلفها ببغداد قد تلفت بسبب فيضان دجلة ووصول مائه إلى داره . ولما حملت هذه الكتب إلى ابن الدهان على هذه الصورة ، أشير عليه بإصلاح ما أمكن لإصلاحه منها ، فقام بتبخيرها بنفسه بثلاثين رطلاً من اللآذِن ، فصعد البخار إلى رأسه وعينيه حتى قبيل إن ذلك أفقده بصره ، ولم يحل ذلك دون انتفاع الطلاب بتصانيفه .

وكان ابن الدهان فوق تفوقه فى النحو ينظم الشعر ، كما كان ابنه أبو زكريا يحيى ابن سعيد أديباً شاعراً .

وقد توفى ابن الدهان بالموصل سنة ٥٦٩ هـ (٢) .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧١ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٢٤ - ١٢٦ .

ومن أئمة النحو في هذا العصر ابن الحشاش البغدادي ، وكان متبحراً في النحو والآداب والتفسير والحديث والنسب والفرائض والحساب والقراءات ، كما اشتهر بمجودة الخط . وقد شرح كتاب « الجمل » لعبد القادر الجرجاني وسماه « المرئجل في شرح الجمل » ، كما شرح كتاب « اللمع » لابن جنى ( ولم يكملها ) وتوفي سنة ٥٦٧ هـ (١) .

وقد أخذ النحو على ابن الحشاش : أبو البقاء ( الضرير ) العكبري (٢) الأصل البغدادي المولد والدار . وقد اشتهر بالفقه على المذهب الحنبلي ، كما اشتهر بالحساب والفرائض ، وأخذ النحو على ابن الحشاش وغيره من أئمة النحو في عصره . ووضع أبو البقاء كتاباً قيمة في النحو وشرح كتاب « الايضاح » لأبي علي القاسم . كما شرح ديوان المتنبي . وألف من الكتب النافعة كتاب إعراب القرآن الكريم (في مجلدين) ، و« إعراب الحديث » و« شرح اللمع » لابن جنى و« اللباب في علل النحو » و« إعراب شعر الحماسة » لأبي تمام ، و« شرح المفضل » للزنجشري : و« الخطب » النبانية و« المقامات الحريرية » ، وكذلك ألف في النحو والحساب وانتفع به الطلاب وذاع اسمه في البلاد .

وتوفي أبو البقاء سنة ٦١٦ هـ .

ومن أئمة النحو أبو البقاء ويعرف بابن الصائغ . وكان موصلياً الأصل . ولد بحلب ونشأ بها وأخذ العلم فيها وفي دمشق والموصل وبغداد وغيرها . واتصل به عدد من جلة علماء عصره مثل بهاء الدين بن شداد قاضي حلب وصاحب كتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ( ت ٦٣٢ / ١٢٣٤ ) وابن الأثير ( ت ٦٣٠ / ١٢٣٢ ) صاحب كتابي « السكامل في التاريخ » و« أسد الغابة في تمييز الصحابة » . وقد شرح أبو البقاء كتاب « المفصل » للزنجشري وكتاب تصريف الملوك لابن جنى ، وتوفي بحلب سنة ٦٤٣ هـ (٣) .

وفي عهد بني نجاش في اليمن ظهر كثير من العلماء والشعراء والفقهاء . وكان الحسن ابن أبي عباد إمام النحاة في عصره . وقد صنف في النحو مختصراً ذاع صيته في أوائل القرن الخامس الهجري ( الحادي عشر الميلادي ) . كما كان الحسن من أئمة اللغة ، وكذلك كان ابن أخيه إبراهيم من بعده .

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٨ — ٢٩٠ .

(٢) نسبة إلى عكبراء ( بضم العين وسكون الكاف وفتح الباء ) : بلدة على نهر دجلة تبعد عن بغداد بمسافة فراسخ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٤٥ — ٥١ .



ومن العلماء الذين ذاع صيتهم في هذا العصر أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي القيرواني (وكان لغويًا نحويًا) ، وأبو طاهر النحوي في عهد الخليفة الحاكم ، وأبو يعقوب النجيمي<sup>(١)</sup> في عهد الخليفة الظاهر ، وابن البركات (ت ٤٢٠ هـ) ، وأبو الحسن علي بن إبراهيم بن الأغب . وقد صنف في النحو كتابًا كبيراً ، كما صنف في إعراب القرآن كتاباً يقع في عشر مجلدات . وكان فوق ذلك عالماً بالتفسير واللغة ، وتوفي في أوائل عهد الخليفة المستنصر<sup>(٢)</sup> .

ومن نخاة العصر الفاطمي أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ (ت ٤٦٩ هـ) . وقيل إنه دليلى الأصل . وكان إمام عصره في علم النحو . وقد صنف كثيراً من الكتب القيمة ، نذكر من بينها : المقدمة ، وشرح الجمل للزجاجي ، وشرح كتاب الأصول لابن السراج . كما جمع وهو في عزله طائفة كبيرة من المسائل النحوية قيل إنها لو نسخت لغاربت خمس عشرة مجلدة . وقد سماها النخاة الذين جاءوا بعده « تعليق الغرفة » ، وقد انتقلت هذه التعليقات إلى تلميذه أبي عبد الله محمد بن بركات النحوي ، ثم إلى صاحبه ابن بري (بفتح الباء وكسر الراء مع التشديد) ، ثم إلى صاحبه أبي الحسين النحوي . وكان كل من هؤلاء النخاة المشهورين يهبها إلى تلميذه ويعهد إليه بحفظها<sup>(٣)</sup> .

ومن نخاة هذا العصر أيضاً : إسماعيل بن خلف المتوفى سنة ٤٥٠ هـ . وقد أتقن القراءات ونبغ في الأدب . وكان من أهل سَرَ قُسطة في شرقي الأندلس . ومن نخاة الأندلس أيضاً : عبد الله البطليوسي . ومن مؤلفاته كتاب « الحلل في شرح أبيات الجمل » و « الحلل في أغاليط الجمل » و « شرح كتاب سقط الزند » لأبي العلاء المعري ، وكتاب « شرح الموطأ » للإمام مالك ، وقد أقام البطليوسي بمدينة بلنسية شرقي الأندلس ، وأخذ عنه كثير من الطلاب ، وكان يجيد نظم الشعر . فن قوله في نظم العالم .

أخو العالم حيٌّ خالدٌ بعد موته وأوصاله تحت القرباب رميم  
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى بظنُّ من الأحياء وهو عديم<sup>(٤)</sup>  
ومن نبغ في النحو في الأندلس أبو الحجاج يوسف المتوفى سنة ٤٧٦ هـ . وكان من

(١) بفتح التون مع التشديد وكسر الجيم وفتح الراء ، نسبة إلى نجيم ( ويقال نجارم ) وهي عملة أو قرية بالبصرة .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٦١ — ٤٦٢ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

أهل شتتمرية (١) . وقد رحل إلى قرطبة وأخذ العلم بها . وكان عالماً باللغة حافظاً للشعار ملماً بمعانيها حريصاً على ضبطها وإتقانها . وقد قصدته الطلاب من البلاد لاخذ العلم عنه . وقد كف بصره في آخر أيامه .

وقد شرح أبو الحجاج كتاب « الجمل » في النحو لابن القاسم الزجاجي ، وشرح أبيات الجمل في كتاب مفرد (٢) .

ومن أئمة نحاة الأندلس أيضاً أبو علي عمر ( بن محمد بن عبيدالله الأزدي ) الشلوبيني (٣) ، وكان إماماً في علم النحو حتى كان أهل الأندلس يعتزون بعلمه ويقولون : « ما يتقاصر الشيخ أبو علي الشلوبيني عن الشيخ أبي علي القاسي » ، وقد شرح الشلوبيني المقدمة الجزولية ( في القراءات والنحو ) شرحاً وافيّاً وشرحاً موجزاً . ومن مؤلفاته في النحو كتابه الكبير « التوطئة » . وقد أقام الشلوبيني بإشبيلية مسقط رأسه . وذكر ابن خلكان (٤) أن الشلوبيني كان خاتمة أئمة النحو في الأندلس .

### ( ز ) علم اللغة :

ذكرنا في الجزء الثالث من هذا الكتاب (٥) أن علم اللغة قد تطور في العصر العباسي الثاني تطوراً ملحوظاً بارتقاء النحو وتنظيم المعاجم . فقد رأينا كيف وضع أبو الأسود الدؤلي أساس علم النحو في البصرة ، وكيف نبغ في مدرسته البصرة والكوفة كثير من العلماء المبرزين كأبي عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد الذي وضع علم العروض ووضع كتاب العين الذي يعتبر أول موسوعة في اللغة العربية كما يعتبر أول معجم عربي مرتب على حسب الحروف الأبجدية . كذلك نذكر سيبويه الفارسي تلميذ الخليل بن أحمد . وقد أخذ الفراء عن أستاذه الكسائي النحو واللغة وفنون الأدب . ومن أشهر كتب الفراء كتاب معاني القرآن وهو تفسير لغوي شرح فيه دقائق النحو واللغة .

(١) بفتح الشين المعجمة وسكون النون وفتح الفاء المثناة من فوقها والميم وكسر الراء وبمدها ياء مشددة مثناة من تحتها وبمدها هاء ساكنة : وهي مدينة في غربي الأندلس يبلاد البرتغال الآن . وقد قيل له الأعم لأنه كان مشقوق الشفة العليا .

(٢) ابن خلكان ج ٦ ص ٧٩ — ٨١ .

(٣) وهذه الكلمة باقة الأندلس معناها الأبيض الأشقر :

(٤) وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٢٤ .

(٥) ج ٣ ص ٣٥٢ — ٣٥٦ .

وقد نهض لغويو القرن الثالث نهضة مشكورة لاستكمال ما فات كتاب العين من نقص واستدركوا ما فيه من تصحيف وتحريف ربما وقع فيه الناسخون ، فوضعوا المعاجم المنظمة على طريقة الخليل من حيث ترتيب حروف المعجم على المخارج الصوتية والابتداء بحروف الحلق ، وأولها حرف العين . فأنشأ ابن دريد ( بضم الدال وفتح الراء وسكون الياء ) ( ٢٢٣ - ٣٢١ هـ ) جمهرة اللغة ، وإن كان لا يخلو من بعض المأخذ لما يلاقه الباحث الذي يؤثر السرعة من صعوبة في الوصول إلى غايته من كتب اللغة . ولعل ابن دريد أول من اخترع فن المقامات في اللغة العربية . وعنه روى تلميذه أبو علي القالي ( ٢٢٨ - ٣٥٦ هـ ) « كتابه الأمامي » من أحاديث مضبوطة شبيهة بالمقامات والقصص القصيرة .

ومن علماء اللغة أيضاً صاحب إسماعيل بن عباد ( ٣٢٦ - ٣٨٥ ) صاحب كتاب « المحيط » ، ويقع في سبع مجلدات ، وابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ صاحب كتاب « المجمل » ، وأبو منصور الأزهرى ( ٢٨٢ - ٣٧٠ هـ ) صاحب كتاب التهذيب ، وقد رتب المادة اللغوية على الحروف مع ملاحظة أن يكون الحرف الأخير في الكلمة هو الباب والحرف الأول منها هو الفصل . وقد ذاعت هذه الطريقة بعد الجوهري في تأليف المعاجم في المشرق والمغرب .

ومن علماء اللغة في شرح الدواوين الأدبية ابن بسطام ( بكسر الباء ) الشيباني المعروف بالخطيب التبريزي ( ٤٢١ - ٥٠٢ هـ ) . وقد تلمذ لأبي العلاء المعري ودرس الأدب بالمدرسة النظامية ببغداد . وكان أحد أئمة اللغة والبلاغة في عصره ، وصنف كتباً كثيرة في الأدب مثل تهذيب غريب الحديث ، وتهذيب لإصلاح المنطق ، وكتاب الكافي في علم العروض والقوافي ، وكتاب الملخص في إعراب القرآن<sup>(١)</sup> . ومن كتبه أيضاً شرح ديوان الحماسة وشرح ديوان المتنبي وشرح سقط الزند وهو ديوان أبي العلاء المعري ، وشرح المعاني السبع وشرح المفضليات .

وقد ألف الجوهري من علماء المشرق كتاب الصحاح على الترتيب المعروف بحروف المعجم ، فجعل البداية منها بالهمزة ، وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لاضطرار الناس في الأ<sup>ك</sup>ثر إلى أواخر الكلم ، وحصر اللغة اقتداءً بحصر الخليل ان أحمد .

(١) وقد أطلع عليه ابن خلكان ( ج ٢ ص ٢٣٣ ) ويقع في أربع مجلدات .

ومن أئمة اللغة في العصر الفاطمي بمصر أبو القاسم السعدي . ولد بجزيرة صقلية سنة ٤٣٣ هـ ، ثم وفد إلى مصر حول سنة ٥٠٠ هـ ، واتخذها مقراً له ، واشتهر بالتبحر في اللغة . وكان من أئمة الأدب في عصره ، وقد صنف كتاب الأفعال وكتاب أبيية الأسماء . وكتاب الدررة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة ( يعني جزيرة صقلية ) ، وكتاب لمح الملح الذي جمع فيه كثيراً من أشعار الأندلس ، وتوفي بمصر سنة ٥١٥ هـ (١) .

وقد اشتهر أبو محمد عبد الله بن أبي الوحش بن برى المقدسي الأصل في اللغة والنحو والرواية . وكان كما وصفه ابن خلكان (٢) « علامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره » . وقد أخذ علم اللغة عن أبي بكر محمد بن عبد الملك الشنتريني ( بفتح الشين مع التشديد والتاء ) النحوي وأبي طالب المعافري القرطبي ؛ كما سمع الحديث وحفظ كلام العرب ، وذيل كتاب الصحاح بحواشي قيمة ، واستدرك عليه في مواضع كثيرة تدل على سعة علمه وإطلاعه وغزارة مادته . وأخذ عنه فريق من العلماء كأبي موسى الجزولي صاحب المقدمة في النحو . وكان لا يصدر بديوان الإنشاء كتاب إلى ملك من الملوك إلا بعد أن يتصفحه ابن برى ويصلح ما قد يجده فيه من خطأ ، وتوفي ابن برى بمصر في سنة ٥٨٢ هـ .

ومن أئمة اللغة والأدب أبو طالب عبد الجبار المعافري (٣) المغربي . وقد جاب البلاد وانتهى به المطاف إلى بغداد حيث تلقى العلم بها ، وأخذ عنه كثير من الطلاب . وفي سنة ٥٥١ هـ وصل إلى مصر واشتغل بالتدريس فيها . وبما يؤثر عنه أنه كان يجيد الخط المغربي ويعنى بضبط ما يكتب . وقد غادر مصر سنة ٥٦٨ هـ ، ولكنه مات وهو في طريقه إلى بلاده (٤) .

ومن علماء اللغة في الأندلس أبو علي القالي المتوفى سنة ٣٥٦ هـ ( ٩٦٦ — ٩٦٧ م ) . وقد استقدمه عبد الرحمن الناصر من العراق لتأديب ابنه الحكم المستنصر ، وألف كتابه « الكامل في اللغة » ، وأصبح كتابه « الأمل » مرجعاً أساسياً يعتمد عليه في اللغة والأدب . وأبو علي القالي أول من أسس علوم اللغة وآدابها في الأندلس ، وعليه تخرجت الطبقة الأولى من اللغويين وأكابر الأدباء في هذه البلاد .

(١) ابن خلكان ج ٣ ص ١١ — ١٢ .

انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٣٧ — ٤٣٩ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٩٢ .

(٣) نسبة إلى المعافري ( بضم الميم ) بن يعفر ( بفتح الياء وسكون العين وضم الفاء ) وهي قبيلة كبيرة يقيم أكثرها في مصر .

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٨٤ .

ويحتل ابن سيده (بكسر السين وفتح الدال) الاعشى الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٥ - ١٠٦٦ م) مكاناً بارزاً بين علماء اللغة في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) . وكان يتم بتعضيد الموفق صاحب دانية . وهو الذي ألف كتاب « المحكم » . وتعرض فيه لاشتقاقات الكلم وتصاريفها ، ثم لخصه محمد بن أبي الحسين . وكان معاصراً للدولة الحفصية بتونس ، ورتبه على نمط كتاب الصحاح للجوهري على أساس اعتبار أواخر الكلمات . فكان هذان المعجمان — كما يقول ابن خلدون — « توأمي رحم وسليل أبوة » . ويعتبر كتاب « المخصص » لابن سيده الذي يقع في عشرين جزءاً (بولاق سنة ١٣٢١ هـ) دائرة معارف جليظة .

وقد ذكر المقرئ<sup>(١)</sup> في ترجمة ابن سيده أنه إمام اللغة في عصره وأنه رحل بعد موت الموفق صاحب دانية لأنه لم يأمن جانب ابنه ، ففر إلى بعض البلاد المجاورة وكتب إليه مستعظفاً .

ومن نبغ في اللغة أيضاً : ابن مالك الأندلسي مؤلف الألفية المنسوبة إليه . وقد ولد في جيان ورحل في صباه إلى الشام وبقي بها حتى مات بدمشق سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٢ م) .

## (ح) الأدب

### (١) الشعر

(١) تمهيد : ذكرنا من قبل<sup>(٢)</sup> أن نزعة الأمويين في الشعر كانت جاهلية لا تميل إلى الفلسفة ، وأنه لما انتقل الحكم إلى العباسيين ظهر كثير من الشعراء انتهجوا مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب في الشعر خاصة وفي الأدب عامة . وذلك يرجع إلى اختلاف صور الحياة وقيم الأشياء في الدولة العباسية عما كانت عليه في الجاهلية . كما يرجع ذلك إلى انتشار الشعوبية وأثر الثقافة الأجنبية والفارسية خاصة . ومع ذلك فازلنا نرى في اللغة العربية بقايا من قيود الشعر القديم كالفواقي والأوزان والنزاهة اتخاذ أواخر الأبيات في جميع أبيات القصيدة الواحدة . وتعرف هذه الطريقة بمذهب المحافظين في أيامنا هذه .

على أن شعراء الفرس لم يدخلوا على الشعر العباسي تغييرات من الناحية الشكلية . غير

(١) فتح الطيب ج ٥ ص ١٧١ .

(٢) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٣٥٦ - ٣٥٧ .

أهم أمدوه بكثير من ألوان الخيال الخصب والتعبير الدقيق والإحساس العميق . كما أمدوه بظانفة كبيرة من الآراء والأفكار التي أكتسبوها من الحياة الإسلامية الجديدة ، إذ كان الإسلام ذا تأثير عميق في الحياة العامة . ونرى أن الشعر في هذا العصر يتميز بصفة عامة بالرفقة والعمق والتفنن في المعاني ، كما يتميز بالنقد الدقيق .

وربما ترجع نهضة الشعر والأدب إلى تشجيع الخلفاء والسلاطين والوزراء ، رجال الأدب بالمعطيات الجزيلة تارة ونقلهم المناصب الرفيعة تارة أخرى . ولذلك نلاحظ انتشار المدح في هذا العصر واشتداد روح التنافس بين الشعراء والكتاب الذين كان من أهم أغراضهم أن يحظوا بالتقرب إلى رجال الحكم رغبة في استدرار عطفهم وكرمهم . على أن المدح وكثرته يدل من ناحية أخرى على مدى استبداد هؤلاء الحكام ، وأنه لم يكن من سبيل للوصول إليهم أو اكتفاء شرهم إلا بالتقرب إليهم بكثرة المدائح .

وكان السلاجقة بوجه عام يميلون إلى الشعر . فقد ذكر نظامي عروضي أن طغانشاه ابن ألب أرسلان ( وكان حاكماً لخراسان أيام أبيه ) كان من أكثر السلاجقة ولعاً بالشعر ، وأن أكثر ندمائه كانوا من الشعراء (١) .

وقد أثر عن نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي أنه كان لا يميل إلى الشعر لأنه لم يكن يجيد نظمه ، وأنه عني بالائمة والمنصوفة أكثر من عنايته بغيرهم من رجال العلم والأدب .

ويقول نظامي عروضي في المقال الثاني من كتابه « جهار مقاله » ( أو المقالات الأربع ) الذي عنوان له : « في ماهية الشعر وصلاحيه الشاعر » .

« الشعر صناعة بها الشاعر يؤلف المقدمات الموهمة والقياسات المنتجة على وجه يجعل المعنى الصغير كبيراً والكبير صغيراً ، ويرد الحسن في زى القبيح في صورة الحسن ، ويشير بالإيهام القوى العصبية والشهوانية ، فيحدث بهذا الإيهام للطباع انقباض وانبساط ، وتنشأ في العالم الأمور العظام » (٢) .

ويقول نظامي عروضي في موضع آخر عن أثر الشعر في تخليد أسماء الملوك وبقاء ذكركم عن طريق قصائد الشعراء في الدواوين والكتب :

(١) نظامي عروضي : جهار مقاله الترجمة العربية ص ٥١ ، ١٣٢ — ١٣٥ هامش رقم (١٩) .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٥ .

« وأسامي ملوك العصر وسادات الزمان خُلِّدَتْ بِذِكْرِ جَمَاعَةِ لَهُمْ نَظْمٌ رَائِعٌ وَذَكَرَ شَائِعٌ . كما بقيت أسماء آل ساسان بالأستاذ أبي عبد الله جعفر بن محمد الرُّودَكِي ، وأبي العباس الرَبَّعِي ، وأبي المثل البخاري ، وأبي إسحاق الجوبباري ، وأبي الحسن الأعمى ، والطحاوي ، والخبازي النيسابوري ، وأبي الحسن الكسائي (١) . وأما أسامي آل سلجوق فبقيت بِفَرَّخِي المِرجاني ، ولامعي الدهستاني ، وجعفر الهمداني . . . وبرهاني . . . وأسامي ملوك الغور آل شَنْسَب خلد الله ملكهم بقيت بأبي القاسم الرقيقى وعلى الصوفى (٢) . أما عن الشروط التي يجب أن تتوافر في الشاعر فهي أن يكون « سليم الفطرة صحيح الطبع جيد الروية رقيق النظر ، متوَعِّفاً في أنواع العلوم آخذاً بأطراف الرسوم ، لأن كل علم يتصل بالشعر كما يتصل الشعر بكل علم » .

وينبغي أن يكون الشاعر منطقياً في مجلس المحاورَة طَنَّقَ الوجه في مجلس المعاشرة . وينبغي أن يكون شعره من الجودة بحيث يكون في صحائف الزمان مسطوراً وعلى ألسنة الأحرار مذكوراً ، يكتب في السفائن ويقرأ في المدائن ، وخير ما في الشعر تخليد الاسم . ولا يبلغ هذا المقصد ما لم يكن مسطوراً مقروءاً . وإذا لم يبلغ الشعر هذه الدرجة لم يبق أثره ومات قبل قائله . وكيف يُخَلَّدُ غيره ( يعني الشعر ) إن لم يخلد نفسه » (٣) .

وكان الخليفة المسترشد ( ٥١٢ — ٥٢٩ هـ ) أديباً بليغاً وخطيباً مفوهاً ، وكان ينظم الشعر . فن شعره حين أسر .

ولا عجباً للأشد إن ظفرت بها كلابُ الأعادي من فصيح وأعجم  
 فخرية وحشي سقت حمزة الردي وموتُ علي من حسام ابن ملجم  
 قال الذهبي يصف بلاغة المسترشد وفصاحته : « وفد بالناس يوم عيد أضحي فقال :  
 « الله أكبر ما سبحت الأنواء وأشرق الضيَاء وطلعت ذكاه وعلت على الأرض السماء .  
 الله أكبر ما همى سحاب وأنجب طلاب وسرَّ قادمًا إياب ... اللهم أصلحني في ذريتي  
 وأعني على ما وليتني ، وأوزعني شكر نعمتك ووقفني وانصرفني » .

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٧ .

فلما انتهى المسترشد من خطبته أنشده أحد شعراء هذا العصر وهو أبو المظفر الهاشمي قصيدة طويلة نذكر منها هذه الايات .

عليك سلامُ الله يا خيرَ مَنْ علا      على منيرٍ قد حَفَّ أعلامه النصر  
وأقلَّ أهل الأرض شرقاً ومغرباً      ومَنْ جَدُّه من أجله نزل القطر  
لقد شَنَقَتْ أسمعنا منك خُطْبَةً      وموعظةٌ فصل يلين لها الصخر  
ملاَّت بها كل القلوب مهابةً      فقد رجفت من خَوْف تخويفها مصر  
فله عصرٌ أنت فيه إمامنا      ولله دينٌ أنت فيه لنا الصدر<sup>(١)</sup>  
وقد ذكر السيوطي<sup>(٢)</sup> أن الخليفة الراشد (٥٢٩ — ٥٣٠ هـ) كان أديباً شاعراً .  
(ب) الطُّفْرَائِي (ت ٥١٣ هـ)

ومن أئمة الأدب في العصر السلجوقي أبو إسماعيل الحسين بن علي بن عبد الصمد (ويلقب مؤيد الدين الأصفهاني) المعروف بالطفرائي<sup>(٣)</sup> . ولد بأصبهان وأخذ العلم على أئمة عدائها وأديبائها . وكان الطفرائي يسمى الأستاذ لغزارة عليه . وقد وزر للسلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي بالموصل . فلما قامت الحرب بين مسعود وأخيه محمود وانتصر محمود على أخيه ضم الطفرائي إليه ، ولكن السكّال نظام الدين وزير محمود نفس على الطفرائي ورماه بالإلحاد فقتل ظلماً في سنة ٥١٣ هـ<sup>(٤)</sup> .

وللطفرائي ديوان شعر معروف . ومن شعره قصيدته اللامية المشهورة بلامية العجم التي نظمها ببغداد في سنة ٥٠٥ هـ يصف فيها حاله ويشكو زمانه ، ومنها :

أصالةُ الرأى صانتني عن الخطل      وحلية الفضل زانتني لدى العطل<sup>(٥)</sup>

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٧ — ٢٨٨

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٩ .

(٣) الطفرائي ( بضم الطاء وسكون العين وفتح الراء بعدها ألف مكسورة ) نسبة إلى من يكتب الطفري ( بضم الطاء المشددة وسكون الفين وفتح الراء ) وهي الطفرة التي تكتب في أعلى السكب فوق البسلة بالقلم الغليظ ، ومضمونها نموت الملك الذي صدر الكتاب في عهده ، وهي كلمة أعجبية .

(٤) وقيل سنة ٥١٤ هـ كما قيل سنة ٥١٨ هـ .

(٥) الخطل العيب والعطل التعطل .



مجدي أخيراً ومجدي أولاً شرع

والشمس رآد الضحى كالشمس في الطفيل<sup>(١)</sup>  
فيم الإقامة بالزوراء<sup>(٢)</sup> لا سكنى  
بها ولا ناقتى فيها ولا جملى  
ناه عن الأهل صفر الكف منفرذ<sup>(٣)</sup>  
كاسيف عرى متناه عن الخلل<sup>(٤)</sup>  
فلا صديق إليه مشتكى حزنى  
ولا أنيس إليه ينتهى جدلى  
طل اغترابى حتى حزن راحلتى  
ورخلها وقرى المسالة الذبل<sup>(٥)</sup>  
حُب السلامة يُذنى هم صاحبه  
عن المعالى ويغرى المرء بالكسل  
فإن جنت إليه فاتخذ نفقا  
في الأرض أو سلما في الجو واعتزل  
ودع غمار العلى للمقدمين على  
ركوبها واقتنع منهم بالبلل  
رضا الذليل بخفض مسكنة  
والعز نحت رسم الأينق الذل<sup>(٥)</sup>  
إن العلاء حدثتى وهى صادقة  
فما تحدث أن العز في النقل  
لو أن في شرف الماوى بلوغ منى  
لم تبحر الشمس يوماً دارة الحمل<sup>(٦)</sup>  
أعلل النفس بالآمال أرقبها  
ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

( ح ) شعراء اليمن :

وقد فطن الملك على الصليحي إلى أهمية الشعر باعتباره وسيلة من أهم وسائل الدعاية للمذهب الإسماعيلي مذهب الفاطميين الذى كان يدين به الصليحيون . وقد استغل على الصليحي الشعر في الرد على خصومه واستخدمه في الدفاع عن دولته والإشادة بذكرها ، فأجزل

- (١) يفخر بأن مجده الأخير الذى هو خلاصة حياته هو امتداد لمجده الأول الموروث عن آبائه ، كالشمس في مطلعها شبيهة بها وقت غروبها .
- (٢) يقصد مدينة بغداد التى يطلق عليها الزوراء لازورار نهر دجلة عندها .
- (٣) يشبه حاله بالسيف المتلوم متناه من الخلل .
- (٤) يقصد حتى نافت راحلتى إلى الانتقال ، والرحل : الرحيل . والقرى : كرم النوق الجميلة التى لا تسكرم عادة إلا بانتقالها ومسيرها في المراعى النضرة .
- (٥) يعنى أن الذليل يرضى بالسكن والإقامة في عيش حقير . ومن يريد العيش الكريم والعز الأصيل فعليه أن يركب النوق التى ذلت على السفر واعتادت على الرحيل .
- (٦) لو كان في عدم الحركة شرف وعزة وعلا لما تحركت الشمس من مكانها .

المطاء للشعراء في اليمن كما فعل الفاطميون في مصر وسورية . وكان على الصليحي نفسه عالماً قصبها متضلماً في علم التأويل كما كان خطيباً مفوها .

وكان الداعي ابن نجيب الدولة الذي آل إليه الأمر في اليمن في أوائل القرن السادس الهجري ( الثاني عشر الميلادي ) غزير العلم متفهما في الدين . ولعل لإشرافه على خزانة المدرسة الأفضلية قد ساعده على الانصراف للعلم والتزود من مورده . ولا عجب فقد كانت مدارس صنعاء والقيروان والقاهرة ودمشق تتبادل الدعاة والعلماء والطلاب وتتلاقى في وحدة فكرية عميقة الجذور بعيدة الأثر ، وانتهت هذه الكتلة العربية إلى انحداد شامل تحت راية الجهاد لطرد الصليبيين من بلاد الشام وتخليص البلاد العربية من هذا العدوان .

وفي عهد بني نجاح ( ٤١٣ — ٥٥٤ / ١٠٢١ — ١١٥٩ ) اشتهر جياش بن نجاح الحبشي صاحب تهامة الذي هرب إلى الهند بعد مقتل أخيه علي بن المكرم بن أحمد الصليحي ، ثم عاد بعد موته إلى اليمن وحارب الصليحيين واستعاد تهامة منهم . وكان جياش شاعراً فصيحاً ، له ديوان شعر (١) ، وله أيضاً كتاب المفيد في أخبار زييد الذي اختصره عمارة اليمنى (٢) .

وفي عهد بني نجاح امتاز الوزير مفلح بن منصور الفاتكي بالأدب . وقد أنشد عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الشاعر المصري صاحب ديوان الإنشاء في اليمن قصيدة في مدح هذا الوزير أجازه عليها بخمسمائة دينار ، كما أجازه ابنه منصور بن مفلح بثلاثمائة دينار بعد أن أنشده قصيدة أخرى في مدحه . ومن الشعراء الذين مدحوا بني زريع ( ٤٧٦ — ٥٦٩ / ١٠٨٣ — ١١٧٣ ) شاعر مصري من أهل الإسكندرية يدعى ابن قلاقس فقال :

سافر إذا حاولت قدراً سار الهلال فصار بدرأ

وبعد عمارة بن أبي الحسن الحكيم اليمنى من مشعوري شعراء اليمن . وقد خلف لنا في ديوانه قصائد رائعة في مدح الفائز والعاقد آخر الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وكبار رجال دولتهم ، كما سئرى ذلك واضحاً عند كلامنا على الشعراء في الشطر الأخير من أيام الفاطميين .

(١) وقد وردت نماذج من شعره في مختصر المفيد لعمارة اليمنى — لوحة ١٤٨ نسخة دار الكتب

المصرية بالقاهرة رقم ٨٠٤٨ ح .

(٢) الجندي : طبقات فقهاء اليمن ص ١٠٤ .

(د) الشعر في العصر الفاطمي الأخير

٤٦٦ - ٥٦٧ / ١٠٧٣ - ١١٧١

حفل العصر الفاطمي الأول بطائفة من الشعراء الذين نظموا قصائدهم في مدح الخلفاء الفاطميين الذين أعقدوا عليهم الخلع والجوائز والأرزاق. ومن هؤلاء الشعراء: ابن هاني الأندلسي في عهد المعز، ومحمد بن أبي الجرجع وأبو حامد الأنطاكي في عهد العزيز، وعبد الوهاب بن نصر المالكي الذي وفد على مصر من بغداد في عهد الخليفة الظاهر الفاطمي. وقد أمدنا أحد الكتاب المعاصرين، وهو عماد الدين الأصفهاني<sup>(١)</sup>، بمادة غزيرة عن الدور الذي قام به الشعراء في العصر الأخير من أيام الفاطميين.

ولد أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصفهاني الملقب عماد الدين بأصفهان سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م). وكان شافعي المذهب درس الفقه بالمدرسة النظامية ببغداد وتخرج فيها، وأتقن المجادلة وفنون الأدب، واتصل بخدمة الوزير عون الدولة بن هبيرة، فأحسن إليه وقربه وشمله بمطفه. فلما توفى هذا الوزير رحل عماد الدين إلى دمشق حيث تقلد إدارة البريد (٥٥٢ / ١١٦٥). وفي سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) تولى التدريس بدمشق. ولما توفى نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ذهب عماد الدين إلى الموصل حيث مرض مرضا شديدا وظل بها حتى سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م)، ثم رحل إلى حلب واتصل بخدمة صلاح الدين الأيوبي حتى وفاته، فعاد إلى دمشق وعكف على الأدب حتى مات سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م).

وهناك كثير من الكتاب المعاصرين، من أمثال عمارة النجدي وأسامة بن منقذ، وابن ميسر. والعصر الذي تناوله عماد الدين الأصفهاني في كتابه خريدة القصر وجريدة العصر<sup>(٢)</sup> يمكن تقسيمه قسمين.

الأول - يبحث في الشعراء الذين عاشوا بين سنتي ٤٨٦ - ٥٤٩ هـ (١٠٩٣ - ١١٥٤ م). وذلك في عهد الخلفاء الفاطميين المستعلي والحافظ والظاهر.  
الثاني - ويتناول الكلام على الشعراء الذين عاشوا في عهد الفاطميين والعاضد آخر الخلفاء الفاطميين.

(١) انظر ياقوت: ارشاد الأريب ج ٨ ص ٨١ - ٩٠، وابن خلكان ج ٢ ص ٩٧ - ١٠٠.  
(٢) مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس.

ومن هؤلاء الشعراء أبو الفتيان مُفَضَّلُ المسقلاني . وقد جاء إلى مصر فتمتع بصيلات  
الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي . . وقد مدحه بقصيدة طويلة جاء فيها .

أقول والنَّجْمُ مَرْقُومٌ بغيرته سطرًا نظرتُ وضوء الصبح مبسّمٌ  
أماه خديته أضحى في زجاحته بديرٌ أم ماؤها في وجنتيه دمٌ ؟  
صبيح الصباح ضياء من مياحه فاستنبطت حلقاً في شعره العَمَمُ<sup>(١)</sup>

ومن الشعراء الذين وفدوا على مصر في ذلك العصر وأقادوا من تشجيع الخلفاء الفاطميين  
وزررائهم : أبو الحسن علي بن جعفر بن البَوَيْنِ ،<sup>(٢)</sup> وهو من أهل معرة النعمان منبت  
أبي العلاء المعرى . وقد حاز ثقة الوزير الأفضل بدر بن الجمالي الذي قرّبه إليه وأدر عليه صلانه  
واقبه بأمين الملك . ومن قصيدته بمدح الوزير الأفضل .

يامنُ تنافس فيه السمعُ والبصرُ كما تغاير فيه الشمس والقمر  
ومن تحكّم في الأرواح فاحتكمتُ ألا يُحكّم فيها بعده بشر<sup>(٣)</sup>  
كذلك أمدنا عماد الدين بمعلومات ذات غناء عن الشاعر أبي الحسن علي بن محمد الأخفش  
وهو من أشراف المغاربة . وقد مدح الخليفين الأمر والحافظ . من ذلك قوله في  
إحدى قصائده .

إلى ذروة النور العسلائي إنه إلى ذروة النور الإلهي يُنسب  
ومن هؤلاء الشعراء أيضاً جعفر بن أبي زيد . وقد عبر عما خالج ضميره من أسمى بعد  
مغادرته مصر إلى بغداد في قصيدة نذكر منها هذين البيتين :

وما قصدنا بغدادَ شوقاً لأهلها ولا خَفِيتُ مذْقطاً أبصارنا عنها  
ولا أنفأ اخترنا على مصر بلدةً سواها، ولسكنَّ المقادير ساقتنا<sup>(٤)</sup>

(١) المصدر نفسه : ورقة ١٨١ ب .

(٢) المصدر نفسه ورقة ١٤٣ (١) .

(٣) المصدر نفسه ورقة ١١٨ (١) .

(٤) المصدر نفسه ورقة ١١٠ (١) .

ومن الشعراء الفاطميين الذين كان لهم أثر عظيم في نشر العقائد الفاطمية : أبو الحسن ابن الرُّبَيْد . وقد وصفه عماد الدين الأصفهاني ، نقلاً عن القاضي الفاضل ، فقال : « وإنه في فنه لم يسمع الدهر بمثله » . وبما قال يحيى الخليفة الحافظ بانتصاره على الصليبيين : « الحمد لله الذي فضل دولة أمير المؤمنين على سائر الدول . . . وجعل أيامه واضحة الحجول والفرر مخصوصة بالفتوح والظفر ، « يخفق النصر على بنوده ، وتسير السعادة أمام جنوده . نسأل الله أن يجعل الأرض قبضة يده والأفلاك الجارية من أعوانه وعدده » (١) .

الشعراء بين سنتي ٥٤٩ هـ و ٥٦٧ هـ (١١٥٤ — ١١٧١ م) .

ومن الشعراء الذين عاشوا في العصر الفاطمي الأخير : المَهْدَبُ الحسن بن علي بن الزبير . وقد ذكر عمارة النبي أن الحسن كان من أشهر شعراء عصره ، (٢) وقال أيضاً « ولم يكن في زمانه أشعر منه » (٣) وهو من الشعراء الذين جذبهم تعضيد الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وغيرهم من كبار رجال دولتهم . وبما قاله المهذب في قصيدة طويلة يخاطب فيها الوزير الصالح طلائع بن رُزَيْك يصف بطولته في الجهاد :

أفارسَ المسلمين اسمعُ ، فلا سمعتُ      عداك غير صليل البيض في القل  
مقال ناء غريب الدار قد عدم أل      أنصار ، لولاك لم يسمع ولم يقل  
يشكو مصائبَ أيامٍ قد اتسقتُ      فضاقت منها عليه أوسعُ السبل  
وكيف أتى من الأيام مُرْزِية      حلت ولى من بنى رُزَيْك كلُّ ولى ؟

وقد أشاد بعض الشعراء بمدح الفاطميين وأنصارهم وهم في بلادهم لم يقدوا إلى مصر ، ومن هؤلاء الشعراء المهذب بن أسعد ، وكان من أهل الموصل ، ثم قام بالتدريس في مدرسة حمص . وكان من أعلام الفقهاء والشعراء الناهيين . استمع عماد الدين الأصفهاني لشعره سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ — ١١٦٨ م) حين لقيه بجمص . من ذلك ما أنشده ابن سعد في مدح الوزير الصالح طلائع بن رزَيْك هذه القصيدة التي بعث بها إليه ، نقتطف منها هذه الآيات :

(١) المصدر نفسه ورقة ١١٠ (ب)

(٢) عمارة النبي : النسك المصرية في أخبار الوزراء المصرية ص ٣٥ .

(٣) انظر عماد الدين الأصفهاني ورقة ٣٧ (ب)

(٤) المصدر نفسه ورقة ٣٩ (١)

هادى الدعاية أبو الفارات خيرُ فتى أدنى عطياته أدنى أمانيكَا  
يشكوا إليك بنو الآمال فقرهمُ فينتنون وبيتُ المسال يشكوكَا  
مَنْ أرتضى يا كريمَ الدهرُ تنعشني جدواه إنْ خاب شعبي في رجاييكَا؟  
أمدحُ التركُ أبغى الخيرِ عندهم والشعرُ مازال عندك التركُ متروكَا<sup>(١)</sup>  
وكان الوزير ابن رزبك نفسه شاعراً ، ينصر الشعر ويقرب إليه الشعراء ، ويذكر  
عماد الدين الأصفهاني أنه لقي الفقيه والشاعر النابغة نصر بن عبد الرحمن ( وكان من أهل  
الإسكندرية ) في بغداد سنة ٥٦٠ هـ ( ١١٦٤ — ١١٦٥ م ) ونقل عنه قصيدة نظمها  
الوزير طلائع بن رزبك يرد بها على قصيدة يمدحه فيها هذا الشاعر ، وفيها يقول الوزير :

أهدى لي القاضي الفقيه عرائسا فيها بديعُ الوشى من تميمية  
فأجلت طرفي في بديع رياضه من ورده وبهاره وشقيقه  
فكأنما اجتمع الأحبة فأنبرتْ بد عاشقٍ تهوى إلى معشوقه  
نزّهتُ في بستانِ نظمك ناظري فخطيتُ من رهر الرثبا بأنيقه

### ( هـ ) عمارة البني

خلف لنا أبو محمد نجم الدين عمارة بن أبي الحسن الحكيم سيرته . وكان من أهل  
تهامة بالبني<sup>(٢)</sup> . وفي سنة ٥٤٩ هـ ( ١١٥٤ — ١١٥٥ م ) حج عمارة بيت الله في مكة ،  
وأوفده أميرها القاسم بن فليحة<sup>(٣)</sup> رسولا إلى مصر ، فوصل إليها في غرة ربيع الأول سنة  
٥٥٠ هـ ( ١١٥٥ م ) ، فتلقاه الخليفة الفائز ووزيره الصالح طلائع بن رزبك بالعطف  
والقبول على أثر إنشاده أولى مدائحه في قاعة الذهب بالقصر . وقد أقام عمارة في مصر  
إلى شهر شوال سنة ٥٥٠ هـ ، ثم عاد إلى مكة ، حيث أنفذه أميرها بمهمة أخرى ( صفر  
٥٥١ / أبريل ١١٥٦ )<sup>(٤)</sup> إلى مصر ، حيث أقام في القاهرة وأصبح من مشاهير شعراء  
البلاط الفاطمي في عهد الفائز والعاقد . وبلغ من تشجيع الفاطميين له وإغداقهم المنح  
عليه أن أصبح من أنصارهم على الرغم من أنه كان سنياً شافعي المذهب . وقد ظهرت

(١) عماد الدين الأصفهاني ورقة ٧٧ (١) — ١٧٨ (ب)

(٢) عمارة البني : النكت المصرية في أخبار الوزراء المصرية ص ٧ — ٨ .

(٣) بضم القاء وفتح اللام والتاء الأولى وسكون الياء .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٢ — ٣٤ ، ٤١ ، ٤٢ .

ميول عمارة للفاطميين ظهوراً واضحاً حتى إنه اتهم بالاشتراك في الحركة التي قامت لإزالة سلطان الأيوبيين وشنق في شهر رمضان سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) . ويحسن أن ننقل بعض أبيات من أولى قصائده ، وقد أنشدها في قاعة الذهب في القصر :

- |                                  |                                           |
|----------------------------------|-------------------------------------------|
| ١ الحمدُ للعيس بعد العزم والمهم  | خدأ يقوم بما أولت من النعم                |
| ٣ قرّين بعد مزار العزم من نظرى   | حتى رأيتُ إمام العصر من أم                |
| ٤ ورُحْن من كعبة البطحاء والحرم  | وفدا إلى كعبة المعروف والسكرم             |
| ٦ حيث الخلافة مضرِبُ سُرادقها    | بين النقيضين من عفو ومن نق                |
| ٧ وللإمامة أنوارٌ مقدسة          | تجلو النقيضين من ظلم ومن ظلم              |
| ٨ وللنبوة آياتٌ تنصُّ لنا        | على الحقيقين من حُكْم ومن حِكْم           |
| ١٢ أفسمتُ بالفائز المعصوم معتقدا | فوزَ النجاة وأجر البر في القسَم           |
| ١٣ لقد حمى الدينَ والدينا وأهلها | وزيرُه الصالح الفراج للنعم                |
| ١٧ أرى مقاماً عظيم الشأن أوهمنى  | في يقظتى أنها من جملة الحلم               |
| ١٩ ليت السكواكب تدنو فانظّمها    | عقود مدح فما أرضى لسكم كلّى               |
| ٢٠ ترى الوزارة فيه وهى باذلة     | عند الخلافة نصحاً غير متهم                |
| ٢٢ خليفةٌ ووزير مدد عدلها        | ظلاً على مفرق الإسلام والأمم              |
| ٢٣ زيادة الفيل نقصٌ عند فيضهما   | فما عسى يتعاطى مِنّة الدبم <sup>(١)</sup> |

وقد نالت هذه القصيدة إعجاب الخليفة الفائز ووزيره ، كما يحدثنا عمارة نفسه ، حيث يقول إنه بعد أن أنشد قصيدته خلعت عليه الخلع الموشحة بالذهب ، ودفع إليه الوزير خمسمائة دينار ، وأنته مثلها من السيدة أخت الخليفة ، وأطلقت له الرسوم من دار الضيافة في مناسبات كثيرة ، وأقام له أمراء الدولة الولائم في بيوتهم تكريماً له ، وانتظم عمارة في سلك جلساء الوزير<sup>(٢)</sup> .

بقي عمارة في مصر ينعم بكرم الدولة الفاطمية ، وقبل عودته إلى اليمن أنشد قصيدة يودع فيها الخليفة ووزيره ابن رزيك ، فنحج الخليفة وأخته ألف دينار ، ومنحه الوزير

(١) النكت المصرية من ٣٢ — ٣٤ .

(٢) عمارة اليمني : النكت المصرية في الوزراء المصرية من ٣٧ .

ماتني دينار لقصيدة أخرى أنشدتها له في داره. وكان لتدخل هذا الوزير أثر في إعفاء عمارة من دفع ثلاثة آلاف دينار كانت عنده لداعي اليمن السابق وقد مات ، فأشير على ولده ووريثه أن يعدل عن المطالبة بها .

ولما مات ابن رزيك وآلت الوزارة إلى شاور<sup>(١)</sup> ، قرَّب عمارة إليه وأولاه رعايته وضمه إلى جماعته ، فصار يتردد على داره ويجلس إلى مائدته ، ونال الكثير من صلته<sup>(٢)</sup> . ولقد أحصى لنا عمارة هبات الوزير ابن رُزَيْك<sup>(٣)</sup> وذوى قريبه وغيرهم من الأمراء ، وختم كلامه بهذه الكلمات : « ذكر الله أيامهم بحمد لا بكل نشاطه ولا بطوى بساطه ، فقد وجدت فقدم وهُت بدمهم »<sup>(٤)</sup> .

ولما عاد عمارة إلى مصر في شوال سنة ٥٥٠ (ديسمبر سنة ١١٥٦) ، أحسن إليه الوزير ابن رزيك وبنوه وأهله كل الإحسان ، وصحبه لما امتاز به من حسن الصحبة وسمو المواهب ، على الرغم من اختلافه وإيابهم في المذهب الديني<sup>(٥)</sup> .

وقد أبن عمارة اعتناق عقائد الفاطميين ، وأشار إلى ذلك في ديوانه بيضعة أبيات خاطب بها الوزير الذي ألح عليه في التحول إلى المذهب الشيعي ، ومنحه ثلاثة آلاف دينار ووعد أن يزيد في إغداقه عليه إن هو أجاب إلى ما طلبه منه . ولكن عمارة اعتذر بلباقة<sup>(٦)</sup> . وهو يشير إلى هذا الاختلاف في العقيدة في هذا البيت :

مذاهبهم في الجود مذهبُ سنَّةٍ وإن خالفوني في اعتقاد التشيع<sup>(٧)</sup>  
ولما مات ابن رزيك (١٩ رمضان ٥٥٦ / سبتمبر سنة ١١٦١) ، أصبح حزن عمارة على وفاته مثاراً لنظم قصائده ، وظل على ولائه للفاطميين حتى بعد أن زال سلطانهم وسقطت دولتهم . وقد نظم في هذا الحادث قصيدة طويلة تناقلها عنه الكتاب ، من أمثال ابن واصل والقلقشندي والمقرزي . كما نظم شعراً كثيراً في الإشادة بذكر صلاح الدين وغيره من أهل بيته . ولكن إخلاصه للفاطميين أقصاه عن عطف الدولة الأيوبية . ونستطيع أن نقف على

(١) المصدر نفسه ص ٦٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٩٣ — ١٢٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٢٠ .

(٥) ابن خلكان : ج ١ ص ٤٧٦ .

(٦) النكت المصرية ص ٤٥ .

(٧) ديوان عمارة ص ٢٨٨ و ٢٩٣ .



مبلغ ما لحقه من بؤس وشقاء من هذه القصيدة التي وجه بها إلى صلاح الدين ، وعنوانها :  
« شكايه المتظلم ونكايه المتألم » (١) .

ولا غرو فإن تحيز عمارة للفاطميين قد جلب عليه كراهة الأيوبيين ، وانتهت حياته  
الحافلة بشنقه لأنه أنهم بالاشتراك في التآمر لإعادة سلطان الفاطميين (٢) .

### (و) البهائم زهير (ت ٦٥٦ / ١٢٥٨)

« البهائم زهير مثال من مثل الخلق العظيم ، يجمع إلى حب الخير وفضيلة العفو ، قوة  
الشخصية وشرف النفس وعزة الإباء . وتلك صفات لا تجتمع إلا لأهل الفطر الفاتحة  
خصوصا في عصر كعصر البهائم زهير ولمن كان في مثل منصبه » .

مكذا استهل الأستاذ مصطفى عبد الرازق مقدمة بحثه عن البهائم زهير (٣) .

ينسب أبو الفضل زهير بن محمد بن علي إلى المهلب بن أبي صفرة . ويطلق عليه بعض  
المؤرخين البهائم زهير الحجازي ، ويصفه بعضهم بالمصري ، ويطلق عليه آخرون الوصفين معا .  
ولد البهائم زهير بمكة ( أو بوادي نخلة على مقربة من مكة ) على ما ذكره ابن خلكان (٤)  
الذي عرفه واجتمع به وشاد بسمو أخلاقه . والبهائم زهير مصري النشأة والروح والعاطفة  
وفي ذلك يقول :

فرعى الله عهد مصرٍ وحيًا ما مضى لي بمصر من أوقاتِ  
حبذا النيل والمراب فيه مُصْعِدَاتِ بنا ومُنْحَدِرَاتِ  
هاتِ زِدْتِي من الحديث عن النيلِ ودعني من دجلةِ والفراتِ

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٧ — ٢٩١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٨ — ٢٨٨ .

ابن دقماق ( ج ٥ ص ٩٣ — ٩٤ ) ، نقل عن ابن المتوج ( ت ٧٣٠ / ١٣٣٠ ) في كتابه خطط  
مصر السمي لإيقاظ المتفعل وانعاط المتأمل . انظر الحاشية التي كتبها مسيو ديرنبور ( سيرة عمارة ج ٢  
ص ٥٥٢ ) .

راجع حس إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ( الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٦٢ ) ص ٤٤٨ — ٤٦٣

(٣) مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٤٨ / ١٩٣٠ ص ١ .

(٤) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٢ ، ٨٥ .

ولد البهاء زهير في ٥ ذى الحجة سنة ٥٨١ هـ (فبراير ١١٨٦ م) وتوفي في ٤ ذى القعدة سنة ٦٥٦ هـ (نوفمبر ١٢٥٨ م). ونشأ بمدينة قوص من أعمال صعيد مصر كما ذكر السيوطي<sup>(١)</sup>، وكانت قوص من أهم مراكز العلم في مصر في ذلك العصر، حتى قيل إنه كان بها ستة عشر معهداً للعلم<sup>(٢)</sup>.

وقد سمع البهاء زهير بقوص بعد أن سمع فيها الحديث ودرس الأدب، ثم انتقل إلى القاهرة واتصل بخدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل الأيوبي،<sup>(٣)</sup> وبقي في خدمته حتى قبض عليه ابن عمه الملك الناصر داود صاحب الكرك واعتقله بقلعتها. فأقام بهاء الدين بنابلس وحافظ على عهده لنجم الدين حتى عاد إلى مملكته، فعاد بهاء الدين إلى خدمته (٦٣٧ هـ)، فكان لذلك «كبير القدر عنده لا يطلع على سره الخفي غيره»<sup>(٤)</sup>. ويمتاز شعر البهاء زهير بالرفقة والعذوبة وشرف المعنى. وله ديوان شعر معروف. ومن شعره يحن إلى صعيد مصر الذي نشأ به وترعرع.

أحنُ إليكم كلَّ يومٍ وليلة وأهذى بسكم في بقظتي ومناهي  
فلا تنكروا طيب النسيم إذا سرى إليكم فذك الطيبُ فيه سلامي  
فهل عائدٌ منكم رسولى بفرحة كفرحة حُبلى بُشّرت بغلامي ؟  
وبرتاح قلبي للصعيد وأهله وعيشٍ مضى لى عندكم ومقامي  
وأهوى وروذ النبل من أجل أنه يمرُّ على قومٍ لدى كرام<sup>(٥)</sup>

ومن ملبح شعر البهاء زهير يتفكه بحال عجوز يتصابى .

كم ذا التصاغُرُ والتصابى غالطتِ نَفْسَكِ في الحسابِ ؟

(١) حسن المحاضرة (طبعة القاهرة ١٣٢٧ هـ) ج ١ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

(٢) الأذنى (ت ٧٤٨ هـ) صاحب كتاب الطالع السعيد الجامع أسماء الفضلاء والرواة بأعلى

الصعيد (القاهرة ١٣٣٣ / ١٩١٤) .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨١ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٢ .

(٥) أنظر ديوان البهاء زهير . مصطفي عبد الرازق . البهاء زهير ص ٢٦ .

(٦) مصطفي عبد الرازق : البهاء زهير ص ٢٩ .

لم يَبْقَ فِيكَ بَقِيَّةٌ إِلَّا التَّعَلُّمُ بِالْحَضَابِ  
لَا أَقْتَضِيكَ مَوْدَةً رُفِعَ الْخِرَاجُ عَنِ الْخِرَاجِ  
مَا الْعِيشَ إِلَّا فِي الشَّبَابِ فِي مَعَاشِرَةِ الشَّبَابِ  
وَلَقَدْ رَأَيْتُكَ فِي النِّقَابِ وَذَلِكَ عِنْوَانُ السِّكِّتَابِ  
وَسَأَلْتُ عَمَّا تَحْتَهُ قَالُوا عِظَامٌ فِي جِرَابِ  
يَاهُذِهِ ذَهَبُ الصَّبَا فإِلى مَتَى هَذَا التَّصَابِي؟

### (ز) الشعر في الأندلس

١ — ابن زبرور :

امتازت الأندلس بجمال الطبيعة واعتدال المناخ والثروة الطبيعية التي تتمثل في المياه المتدفقة والرياض المزهرة والسماء الصافية ، والخيرات الوفيرة . وقد تنافس الأندلس مع الشرق عند قيام الدولة الأموية في هذه البلاد . وكان لهذا التنافس أثره البالغ في ازدهار الحضارة وال عمران بصفة عامة والآداب بصفة خاصة ، حيث كان للأدباء والعلماء منزلة رفيعة ومكانة مرموقة . فكان منهم الوزراء وحكام الأقاليم والقواد وغير هؤلاء من ذوي الجاه وأصحاب السلطان . وامتاز عصر ملوك الطوائف بازدهار العلوم والآداب وتشجيع رجال العلم والآداب ، فزخر هذا العصر بطائفة من الشعراء والأدباء الذين لانزال آثارهم إلى اليوم شاهدة بما بلغه الآداب من منزلة رفيعة في هذه البلاد .

ومن أبرز شعراء الأندلس في عهد ملوك الطوائف : الوزير أبو الوليد ( أحمد بن عبد الله بن أحمد ) بن زيدون ، وينتمي إلى بيت اشتهر بفقهائه وأدبائه . وقد نبغ في الآداب وهو في حداثة سنه ، واشتغل بالسياسة ، فانضم إلى بني جهور الذين تولوا الحكم في قرطبة بعد سقوط الدولة الأموية ، فولوه الوزارة ، خسده أعداؤه وأفسدوا ما بينه وبين بني جهور . وقد احتال ابن زيدون كثيراً في طلب الصفح فلم يظفر بطائل ، ففر من سجنه إلى إشبيلية واتصل بصاحبها المعتمد بن عباد الذي قربه إليه لعلو كعبه في الآداب (١) .

(١) المراكشي : المعجب في أخبار المغرب ص ١٠٥ .

وكان لعلاقة ابن زيدون مع ولاده بنت المستكفي التي اشتهرت بالادب أثر بعيد في حياته ، حتى لقد زخرت بها كتب الادب ، وأضحت قصيدته الشهيرة التي نظمها متشوقاً إلى ولادة من القصائد الخالدة في الادب العربي بصفة عامة . وإليك بعض أبيات من هذه القصيدة (١) .

أضحى التثنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا نجافينا  
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا  
نكاد حين تفاجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسي لولا تأسينا  
حالت لفقديكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضا لياقينا  
إذ جانب العيش طلق من تألقنا ومورد اللهو صافٍ من تصافينا  
إن الزمان الذي مازال يضحكنا أنسا بقربهم قد عاد يُسكينا  
غيض العدى من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغض فقال الدهر آمينا  
فأنحل ما كان معقوداً بأنفسنا وانبت ما كان موصولاً بأيدينا  
وقد نكون وما يُحشى تفرقنا فاليوم نحن وما يُرجى تلاقينا  
إن كان قد عز في الدنيا اللقاء فمواقف الحشر نلصقكم ويكفينا  
عليك مني سلامُ الله ما بقيت صبايةً منك تُخفيها فتخفينا

وقد توفي ابن زيدون بإشبيلية سنة ٤٦٣ هـ ، وكان له ولد يكنى أبا بكر تقلد الوزارة للمعتمد بن عباد بعد أبيه : وقتل في اليوم الذي سقطت فيه قرطبة في يد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين .

### (٢) ابن عمار

ومن أشهر الشعراء في عصر ملوك الطوائف أيضاً : الوزير أبو بكر محمد بن عمار (ت ٤٧٩ هـ) ، وقد سار على نهج ابن هاني. الأندلسي الذي أطلق عليه لقب متنبى

(١) المصدر نفسه ص ١٠٦ — ١٠٩ .

المغرب ، وإن كان عبد الواحد المرأ كشي بفضل ابن عمار أحياناً على ابن هانيء فيقول :  
« ربما كان أحلى مَنزَعاً منه في كثير من شعره » .

وينسب ابن عمار إلى مدينة شِلْب ( بكسر الشين وسكون اللام ) التي نشأ فيها وأخذ  
الآدب على علمائها . ثم رحل إلى قرطبة فأتم دراسته ، ونبغ في نظم الشعر وتكسب به  
وجال في الأندلس مادحاً الملوك ابتغاء منحهم وعطاياهم<sup>(١)</sup> ، ولم يقتصر مدح ابن عمار  
على الملوك والأمراء بل مدح السوقة طلباً للرزق ، وظل على هذه الحال إلى أن اتصل  
بالمعتضد بالله أبي المعتمد بن عباد ، فدحه بقصيدة استهلها بقوله :

أَدِرِّ الزَّجَاجَةَ فَالنَّسِيمُ قَدْ انْتَبَرَى وَالنَّجْمُ قَدْ صَرَفَ الْعَنَانَ عَنِ الشَّرَى<sup>(٢)</sup>  
وَالصَّبْحُ قَدْ أَهْدَى لَنَا كَافُورَةً لَمَّا اسْتَرَدَّ اللَّيْلُ مِنْهُ الْعَنْبَرَا  
ثم يخلص ابن عمار إلى مدح المعتضد فيقول :

عَبَّادُ الْمُخَضَّرِ نَائِلُ كَفِّهِ وَالْجُودُ قَدْ لَبَسَ الرِّدَاءَ الْأَعْبَرَا  
قَدَاحُ زَنْدِ الْمَجْدِ لَا يَنْفَكُ مِنْ نَارِ الْوَغَى إِلَّا إِلَى نَارِ الْقِرَى<sup>(٣)</sup>  
وقد وقعت هذه القصيدة من نفس المعتضد موقعاً حسناً ، فأمر لابن عمار بمال  
وثياب وموَكَّب وألحقه بديوان الشعراء ، ثم اتصل بالمعتضد بن عباد اتصالاً وثيقاً حتى  
إنه كان لا يفارقه ليلاً أو نهاراً ، فاتخذته وزيراً حين ولاء أبوه ولاية شِلْب .

وقد قام ابن عمار بدور سياسي هام في المفاوضات التي دارت بين المعتضد بن عباد  
والفونس السادس زعيم نصارى الأندلس<sup>(٤)</sup> . على أن المعتضد بن عباد قد ساورته الشكوك  
في إخلاص وزيره ابن عمار ، إذ كان يطمع في انتزاع أحد الأقاليم الشمالية التابعة لابن  
عباد ليكون ملكاً مستقلاً . ولكن ابن عباد اكتشف هذه المؤامرة وأمر بتقييده وحمله  
إلى مدينة قرطبة ( وكان المعتضد قد انتزعها من بني جهور )<sup>(٥)</sup> ، فسجن ، فسكتب ابن عمار  
أشهر قصائده متوسلاً طالباً العفو . ومن هذه القصيدة :

(١) المصدر نفسه ص ١١١ .

(٢) بضم السين المشددة وفتح الزاء السفر ليلاً .

(٣) المصدر نفسه ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٤) المصدر نفسه ص ١١٩ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٢٤ .

سجايك إن عافيت أئدى وأشجع<sup>(١)</sup> وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح  
وإن كان بين الخطتين مزية فأت إلى الأذى إلى الله تنجح  
حنائيك في أخذى برأيك لا تطع عدائى ولو أننوا عليك وأفصحوا  
فإن رجائى أن عندك غير ما يحوص عدوى اليوم فيه ويمرح  
ولم لا وقد أسلفت ودا وخدمة يكران فى ليل الخطايا فيصبح  
وهبنى وقد أعقت أعمال مُفسد أما تفسد الأعمال نمت تصالح  
إقانى بما بينى وبينك من رضى له نحو روح الله باب مفتوح  
وعف على آثار جرم سلكتها يهبة رضى منك تمحو وتوضح<sup>(٢)</sup>  
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم فكل إناء بالذى فيه يرشح  
وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا سوى أن ذنبى واضح مُتصحح  
ولم يزل ابن عمار بسجن المعتمد إلى أن قتله صبراً فى سنة ٤٧٩ هـ<sup>(٣)</sup>.

### (٣) الشعر الفنى : الزجل والموشحات

ذكر المقرئ أنه لما شاع فى التوشيح فى أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته  
وتميق كلامه وعذوبة ألفاظه ، نسجت العامة من أهل الأماص على منوال التوشيح ،  
ونظموا فى طريقتهم بلغتهم العامية الحضرية ، من غير أن يلتزموا فيه إعراباً ، واستحدثوا  
فنأسموه بالزجل ، والتزموا النظم فيه على طريقتهم ، لجأوا فيه بالغرائب واتسع فيه  
للبلغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة . وأول من أبدع فى هذه الطريقة الزجلية أبو بكر  
ابن قزمان ، وإن كان هذا النوع من الشعر قد استعمل من قبل بالأندلس . لكن لم  
تظهر حلاها ولا انسبكت معانيها إلا فى زمانه . وبعد ابن قزمان إمام الزجالين على  
الإطلاق . وليس أدل على ذلك من قول ابن سعيد المقرئ (ت ٦٧٣/١٢٨٥) :  
« رأيت أزجاله مروية ببقداد أكثر مما رأيتها بجواضر المغرب » . وهذا يدل على أن

(١) السجاعة : غزارة الماء ويقصد بها السكر .

(٢) تصح : أى تزيل .

(٣) المعجب س ١٢٥ - ١٢٦ ، ١٢٧ .

أهل المشرق قد اقتبسوا الأزجال عن المغرب كما عرفوا فن التوشيح عن الأندلس أيضاً .  
كما يقول ابن سعيد : سمعت أبا الحسن بن جَعْدَر الإشبيلي إمام الزجالين في عصرنا يقول :  
ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة .  
وقد خرج ابن قزمان إلى متنزّه مع بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش وأمامهم  
تمثال أسد من رخام يصب الماء على صفائح من الحجر فقال :

وعريشٍ قد قام على ركانٍ بحمال الرواق  
وأسدٍ قد ابتلع ثعبانٍ من غلظ ساق  
وفتح فمُو بحال إنسانٍ به الفُواق  
وانطلق من ثمَّ على الصفاح وألقى الصباح

ونرى أن هذا الشعر لا يلزم وزنا ولا قافية ولا انتظاما بين شطري البيت الواحد ، كما  
تلاحظ أن هذا الشعر كلاما ملحوما وكلاما عاميا . فن الخطأ النحوي قول ابن قزمان  
« ابتلع ثعبان » ، ومن الخطأ اللغوي قوله « فتح فمُو » . وهذا يدل على أن هذا الشعر ،  
قد قيل بالعامية ولم تراخ فيه مقاييس أو اللغة أو العرف الشعري بخلاف التوشيح ، فإنه ،  
وإن كان لم يسر على نظام القصيدة العربية ، قد روعى فيه التزام قواعد النحو واللغة ،  
وهذا هو الفرق الأصيل بين التوشيح والزجل .

ومع أن ابن قزمان كان قرطبي الدار كان يتردد على إشبيلية ويقول فيها كثيراً من  
أزجاله لحضارتها وجمال طبيعتها وشدة إقبال الناس على سماع أزجاله فيها (١) . ولا ريب  
أن ابن قزمان قد نهض بفن الزجل نهضة لم يسبق إليها ، وأنه كان رائدا للزجالين الذين  
جاءوا بعد عصره .

ويحسن أن نعرض في إيجاز للشعر الغني في هذا العصر الذي خصصناه في هذا الجزء الرابع ،  
حيث نلّس تطورا في الشعر العربي بالأندلس : في أوزانه وقوافيه وفي نظامه بصفة عامة .  
وكان ذلك التطور راجعا إلى طبيعة الأندلس الجميلة التي تتميز بالأنهار الجارية والجنان  
المزهرة والأشجار المشرقة والطيور المغردة والجبال المنيفة والروابي السحيقة والطبيعة

(١) المقرئ : فتح الطيب ج ٩ ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

التي لا تستقر على حال . كل هذا قد تحكّم في الخيال الشعري وفي الشعر العربي . فتغنى الأندلسيون بطبيعتهم وجمال بلادهم ، ولم يستطيعوا أن يحصروا شعورهم في تلك القيود الشعرية التقليدية التي نقلوها عن المشرق ، بل انطلقوا يعبرون عن إحساسهم ومشاعرهم بلغة حرة . فتخلصوا من هذه القيود في قصائدهم تلتزم وزناً ولا قافية ولم تلتزم نظاماً معيّنًا في الفصيحة . وقد أطلق على هذا النوع من الشعر اسم « الموشحات » .

وكان أول من برع في هذا النوع « مقدم » ( بضم الميم وفتح القاف والدادل مع التشديد ) القَبْرِيّ « من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني . وقد عاش مقدم هذا في صدر الدولة الأموية بالأندلس ، ثم أخذ عنه ذلك ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد . وكان أول من ظهر في هذا الميدان بعدهما عبادة القزّار شاعر المعتصم بن صمّاح صاحب المربّة . وقد ذكر الأعلام البطلانيّون أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول : كل الوشاحين عيال على عبادة القزّار فيما وجد له من قوله :

بَدْرٌ نَمَّ<sup>(١)</sup> شَمْسٌ ضَخِي غُصْنٌ نَقَى مَشْكٌ شَمَّ<sup>(٢)</sup>  
 مَا أُنَمَّ<sup>(٣)</sup> مَا أَوْضَحَا مَا أَوْرَقَا<sup>(٤)</sup> مَا أُنَمَّ<sup>(٥)</sup>  
 لَا جَرَمَ<sup>(٦)</sup> مِنْ لِحَا<sup>(٧)</sup> قَدْ عَشَقَا قَدْ حُرْم

ثم جاء فريق الموشحين في عصر المرابطين ، فمضوا بالمرشحات نهضة مباركة . وعلى رأس هؤلاء الموشحين الأعمى التُّطَيْلِيّ ، ثم يحيى بن بَقِيّ . ومن موشحات التُّطَيْلِيّ قوله -

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى صَبْرِي وَفِي الْمَعَالِمِ أَشْجَانِ

(١) يقصد البدر قد بلغ التمام في ليلة الرابع عشر من الشهر الهجري .

(٢) يعني أن محبوبته قد بلغت السكّال .

(٣) يشبه محبوبته هنا في الرنق بالشجرة المورقة .

(٤) من النمو .

(٥) لا شك .

(٦) يلاحظ أن الألف للاطلاق لوزن الشعر ومثلها عشقاً .



والرَّكَبُ (١) وَسَطُ الْفِلا بِأَخْرَدٍ (٢) النَّوَاعِمِ قَدِ بَاتُوا (٣)  
وَمِنْ قَوْلِ التَّنْطِيلِ أَيْضاً .

ضاحِكٌ عَنْ حُمَاتٍ (٤) سَافِرٌ عَنْ بَدْرٍ  
ضَاقَ عَنْهُ الزَّمَانُ وَحِوَاهُ صَدْرِي

وَمِنْ اشتهر بالموشحات في صدر الدولة الموحدية : محمد بن أبي الفضل بن شرف ،  
وإبن هردوس ( بكسر الهاء وسكون الراء وفتح الدال ولعله اسم محرف عن الإسبانية ) ،  
الذي يقول :

بِالْيَسَالَةِ الْوَصْلُ وَالسَّعُودُ بِاللَّهِ ع — ودي  
وَمِنْ مَوْشَحِي الْمُوَحِّدِينَ : ابْنُ مَوْهَلٍ الَّذِي يَقُولُ :

مَا الْعَيْدُ فِي حُلَّةٍ وَطَاقٍ وَشَمِّمٌ طِيبٍ  
وَإِنَّمَا الْعَيْدُ فِي التَّلَاقِ مَعِ الْحَبِيبِ

وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمَوْشَحِينَ فِي عَهْدِ الْمُوَحِّدِينَ أَبُو إِسْحَاقَ الدُّؤَيْبِيُّ الَّذِي قَالَ عَنْهُ ابْنُ سَعِيدٍ  
الْمَغْرَبِيُّ ، سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ : إِنَّهُ ( أَيْ الدُّؤَيْبِيُّ ) دَخَلَ عَلَى ابْنِ زُهْرٍ  
وَقَدْ أَسَنَّ وَعَلَيْهِ زِي الْبَادِيَةِ إِذْ كَانَ يَسْكُنُ بِمَحْصَنٍ سَبْتَةَ ، فَلَمْ يَعْرِفْهُ لَجُلَسَ حَيْثُ انْتَهَى بِهِ  
الْمَجْلِسُ وَجَرَّعَتْ الْمَخَاضِرَةُ أَنْ أَنْشَدَ لِنَفْسِهِ مَوْشَحَةً وَقَعَ فِيهَا ( أَيْ جَاءَ فِيهَا ) .

كَيْحُلُ الدُّجْحِيِّ يَجْرِي مِنْ مَقَلَّةِ الْفَجْرِ عَلَى الصَّبَاحِ  
وَمَعْصَمُ النَّهْرِ فِي حُلِّ خُضْرٍ مِنَ الْبَطَاحِ

فَتَحْرَكَ ابْنُ زُهْرٍ وَقَالَ : أَنْتَ تَقُولُ هَذَا ؟ قَالَ : اخْتَبَرَهُ ، فَقَالَ : ارْتَفَعَ فَوَاقَهُ  
مَاعَرَفْنَكَ . (٥)

وَمِنْ اشتهر بالموشحات في عصره أبو بكر بن زهر الطبيب الفيلسوف الذي « شَرِّقَتْ »  
مَوْشِحَاتُهُ وَغَرَّبَتْ » عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ ابْنِ سَعِيدِ الْأَنْدَلُسِيِّ . وَقَدْ نَسَبَ إِلَى ابْنِ زُهْرٍ قَوْلُهُ :

(١) الركب عامة ويعني هنا ركاب الإبل .

(٢) جمع خريدة وأصلها اللؤلؤة قبل الثقب أطلقت على الفتاة العنراء .

(٣) باتوا فارقوا الحمى .

(٤) الجمات اللؤلؤة يشبه بها أسنان محبوبته .

(٥) نفع الطيب ج ٩ ص ٢١٩ - ٢٢٣ .

ما المـوَلَّه<sup>(١)</sup> من سُكره لا يُفِيق يا له سُكران  
 من غير خمرٍ ما للكـثيب<sup>(٢)</sup> المشوق يندُب الأوطان  
 هل تُستعادُ أيامنا بالخليج ويسالينا ؟  
 إذ يستفادُ من النسيم الأريج<sup>(٣)</sup> مسكُ دارينا  
 وإذا يكادُ حُسنُ المكانِ البهيجِ أن يُحيفنا  
 نَهْرٌ أَظْلَهُ دَوْحٌ<sup>(٤)</sup> عليه أنيقٌ مؤثِقٌ قَيْنانُ<sup>(٥)</sup>  
 والماءُ يجرى وعائمٌ وغريقٌ من جَنَى الرِّيحانِ<sup>(٦)</sup>  
 وبما هو جدير بالذكر أن فن الموشحات الذى هو من ابتكار مسلمى الأندلس قد  
 نهض نهضة مدبوسة فى عهد ملوك الطوائف وفى عهد المرابطين والموحدين كما ذكرنا .

### الشعر فى المغرب

#### الحصيرى

ويعتبر الشاعر القيروانى المشهور أبو الحسن على بن عبد الغنى الكفيف المعروف  
 بالحصيرى زعيم صناعة الشعر فى عصره . وقد ولد بالقيروان ونشأ بها واشتهر أمره وذاع  
 ذكره فيها . ولما غزا الهلاليون تونس ودمروا مدينة القيروان وحطموا مسجدها الجامع ،  
 فر الحصيرى محزوناً إلى مدينة سبتة بالمغرب الأقصى ، ومنها إلى بلاد الأندلس ، وذلك  
 فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، فتنافس عليه ملوك الطوائف لذبوع شهرته وعلو  
 مكانته الأدبية .

وكان أبو الحسن الحصرى معاصراً لأبى العلاء المعرى<sup>(٧)</sup> ، وهما يجتمعان فى الأدب

(١) من الوله ( بفتح الواو واللام ) الحيران الحزين .

(٢) الكثيب : التل من الرمل .

(٣) ذو الرائحة الزكية .

(٤) الدوح : الشجر الملتف .

(٥) من الفتن ( بفتح الفاء والنون ) العفن .

(٦) يقصد أن النهر قد نثرت عليه الرياحين ، فنها العائم ومنها الفرق ، وقد أوجدت جواً  
 عطرياً ، فالرائى ينظر ماء كالفضة وبشم رائحة عطرية ويعجب بهذه الطبيعة التى تنفتن والجمال .

(٧) أنظر ما ذكرناه عن أبى العلاء المعرى فى الجزء الثالث من هذا الكتاب ( الطبعة السابعة ،

وقد البصر ، ولكنهما يختلفان في كثير من الأمور . فقد هاش أبو العلاء في عزوبة وعزلة ، وكان عفيف اللسان كريم الخلق لا يميل إلى الهجاء ، يغلب على شعره الحكمة والموعظة ، على حين نرى الحصرى قد تزوج بمن هي دونه في السن بالشيء الكثير حتى فارقته ، كما كان يتكسب بشعره ، مولماً بهجاء الناس . وقد وصفه ابن بسام<sup>(١)</sup> بقوله : « كان فيما بلغني ضيق العطن<sup>(٢)</sup> مشهور اللسن يتلافت تلافت الطعام إلى الماء . . . اشتملت عليه مدينة طنجة ( بعد أن خلع ملوك الطوائف ) . وقد ضاق ذرعه وتراجع طبعه<sup>(٣)</sup> ، وله على ذلك سجع يَمِجُّ أكثره السمع ، لم يسمع نقدي أن أكتبه ولا راقني أن أرويه ، وما أراه يسلك إلا سبيل المعرى فيما اتعاه ، وكان هو وإياه كما وصف العباس بن الأحنف :

هي الشمس مسكنها في السماء فَمَرَّ الفؤاد عزاءً جميلاً  
فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليها النزول  
وإن قصيدته الشهيرة التي خلفها لنا في كتابه « زهر الآداب وثمر الألباب » والتي استهلها بقوله :

يا ليلُ الصَّبِّ منى غَدُهُ أقيامُ الساعةِ مَوْعِدُهُ  
قد عارضها كثير من الشعراء والشواعر في كثير من العصور والبلدان ، ونذكر منهم على سبيل المثال ابن الأَبَّار البُلنسى وإسماعيل الزبيدي البغدادي ، وشمس الدين الحصرى الدمشقي<sup>(٤)</sup> ، وناصر الدين الأَرَجاني ، ومن المحدثين أحمد شوقي ، وإسماعيل صبري ، وولي الدين يكن ، وعائكة الخزرجي العراقية .

ولا بأس أن نذكر بعض أبيات في معارضة الشاعر ولي الدين يكن لذبوع شهرته :

أَلْحَسَنُ مَكَانُكَ مَعْبِدُهُ وَاللَّحْظُ<sup>(٦)</sup> فَوَادِي مَعْبِدُهُ<sup>(٧)</sup>

- (١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ج ١ القسم الرابع ص ١٩٢ .  
(٢) يعني أنه كان عصي المزاج يضيق بالناس .  
(٣) يقصد بذلك أنه قد ضاق بالناس وبالحياء بعد زوال حكم ملوك الطوائف الذين يقدون عليه .  
(٤) المصدر نفسه ج ١ القسم الرابع ص ١٩٣ .  
(٥) وكثيراً ما وقع اللبس عند الأدباء في الحصرى القيرواني والحصرى الدمشقي .  
(٦) اللحظ : العين أو نظرتها .  
(٧) المعبد ( يفتح الميم الأول وكسر الميم الثانية ) غمد السيف ويريد أن يقول : أنت معبد الحسن في هذه الدنيا ومعج عشاؤه وقلبي غمد لسهم لحظك الفسك

يا سيدتى هذا حُرٌّ لم يعرف قبلك سيده  
الليل وطيفك بعرفه إن كان فؤادك يجحدُه  
كم يوحى طرفك لى غزلاً وأنا فى شعري أنشده  
وتساجلى الأطيّار هوى فى الدّوح<sup>(١)</sup> أبيت أرده  
للصبح سناؤك<sup>(٢)</sup> أبيضه ليل غرامى أسوده<sup>(٣)</sup>  
أحبت قلاك<sup>(٤)</sup> فطلقه عندى عذب ومقيده  
إن ضلّ حنائك عن قلبى فأنا بولوعى أرشده  
شوقى إن بنت يضاعفه صبرى إن جرت بؤكده  
خلان هما شمساً فلك طرفى مع طرفك برصده<sup>(٥)</sup>

ومن آثار الحصرى ديوان زهر الآداب وثمر الآليات الذى تقدمت الإشارة إليه ،  
وكتاب المصون فى سر الهوى المكنون . وله ديوان « المعشّرات » . وهوى شعره فى هذا  
الديوان وفى ديوان « ذيل الافتراح » متأثر بأبى العلاء المعرى فى لزومياته فى التقيد فيما ليس  
بضرورى من قيود فيما نظم . فقصائد « المعشّرات » مرتبة على حروف الهجاء . وكل  
قصيدة منها عشرة أبيات تبدأ جميعها بحروف الهجاء فى القافية . فإذا كانت القصيدة من  
قافية الهمزة أو التاء أو الظاء ، جاءت أبياتها العشرة مبدوءة بالحرف نفسه . وقصائد ديوان  
« ذيل الافتراح » عددها تسع وعشرون بعدد حروف الهجاء . وكل قصيدة منها خمسة  
عشر بيتاً يلترزم الحرف الواحد فى أوائل الأبيات وأواخرها .

ولأبى الحسن الحصرى ديوان فريد فى نوعه سماه « افتراح القريح واجتراح الجريح »  
فى رثاء ولده عبد الغنى الذى أنجبه من زوجته التى هجرته ومات وهو فى التاسعة من عمره ،

(١) الدوح : الشجر الملتف .

(٢) السى الضوء .

(٣) يقصد أن يباين الصبح مصدره نورها وغرامى يثير آلامى فكأن سواد الليل مأخوذ

من غرامى .

(٤) القلى الصدود .

(٥) فى كلمة شوقى تورية ، يقصد شوقى الشاعر وشوقه بمعنى الحب وهو المقصود . فحينما تبعد

يضاعف كلفه بها . وفى لفظة صبرى تورية كذلك ، فأحد العنين صبرى الشاعر والمعنى الثانى الصبر

على بعدها .

إذ تركته أمه فأثره أبوه على إخوته ومنحه كل عواطف الأبوة وحنانها . فلما مات هذا الابن أفرغ الشاعر المحزون أحزانه وأشجانه في ديوان كامل من الرثاء . ربما كان الديوان الوحيد في العربية في رثاء ولد .

ومما يثير الأسف أن الباحثين في ميدان الأدب لم يوفوا هذا الشاعر حقه من البحث ودواوينه من الدراسة الواجبة . ولكنه ظهر في تونس أخيراً كتاب « أبو الحسن الحصري القيرواني » للأستاذين الجيلاني بن الحاج يحيى ومحمد المرزوقي . وقد تناول هذان المؤلفان حياة أبي الحسن الحصري كما تناولوا الكلام عن رثائه الأدبي (١) .

## (٢) النثر

### (١) الحريري :

ظهر بين كتاب العرب كتاب ألفوا كتابة النثر المسجوع متأثرين في ذلك بالقرآن الكريم وخطب الجاهلية ، كخطب أكنم بن صيفي الذي يقول : « أيها الناس ! من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت . . الخ . وهذا السجع له نغم عذب يحرك النفس ويشير الشوق إلى سماعه .

وقد ظهر هذا النوع في القرن الثالث الهجري ( التاسع الميلادي ) في خطب الخلفاء وعمال الأقاليم ، ثم تطور هذا الفن على أيدي الكتاب المحترفين من أمثال ابن نباتة ( ت ٣٧٤ / ٩٨٤ ) ، كما تطور على أيدي كتاب البلاط من أمثال إبراهيم بن هلال الصابي ( ت ٣٨٤ / ٩٩٤ ) . ومن ثم أصبح السجع من مميزات الأدب الذي التزمه الأدباء . ومن هنا ظهرت طائفة من بين كتاب العربية من العرب والفرس ابتدعوا فناً خاصاً من بين فنون الأدب يدعى فن المقامات . وإلى بديع الزمان الهمذاني ( ت ٣٩٨ / ١٠٠٧ ) يرجع الفضل في ابتكار هذا النوع الجديد المميز من السجع المعروف باسم المقامات .

والمقامة حكاية تقال في مقام معين على نحو ما صنع أبو محمد القاسم الحريري ( ت ٥١٥ / ١١٢١ ) (٢) صاحب المقامات المشهورة التي تشتمل على الكثير من درر اللغة وفرائد الأدب

(١) انظر مقال الدكتورة عائشة عبد الرحمن في جريدة الأهرام ( صفحة الأدب ) في ١٣ يناير

١٩٦٤ .

(٢) ولد الحريري في البصرة سنة ٤٤٦ هـ ( ١٠٥٤ م ) ومات بها .

والحكم والأمثال والأشعار النادرة التي تدل على سعة إطلاعه وغزارة مادته وطول باعه وعلو مقامه في عالم الأدب . ويرى نيكلسون (١) أن الحريري دون بديع الزمان من حيث الابتكار والابتداع ، على حين أن الحريري أغزر مادة وأكثر وأشد تعمقا في اللغة مما جعل لمقاماته منزلة خاصة جعلتها في المنزلة الثانية بعد القرآن الذي يعتبر كنز اللغة العربية الذي لا ينقد والحديث الشريف ، كما يرى نيكلسون أن مقامات الحريري تحفة أدبية رائعة .

ويعزى السبب الذي من أجله وضع الحريري مقاماته ، إلى أنه كان جالسا في المسجد بني حرام ، فدخل شيخ رقيق الحال رث الثياب تبدو عليه أهبة السفر . وكان هذا الرجل فصيح العبارة ، فسأله الحاضرون من أين الشيخ ؟ فقال من سروج (٢) ، فسألوه عن كنيته فقال : أبو زيد : فوضع الحريري مقامته الأولى المعروفة بالحرامية أو السروجية وعزاها إلى أبي زيد السروجي . فلما بلغ خبر هذه المقامة الوزير الفارسي والسياسي المشهور أنا نصر شروان بن خالد وزير الخليفة المسترشد (٣) ، أعجب بها وأشار على الحريري بأن يضم إليها غيرها ، فأتمها خمسين مقامة .

وقد أشار الحريري إلى هذا الوزير بقوله : « فأشار من إشارته حكم وطاعته غنم إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع (٤) وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع (٥) .

والحريري أيضاً « ملحمة الإعراب » وهي منظومة في النحو، ودرة الفواص في أوهام الجواص ، و « ملحمة الإعراب » . وله أيضاً ديوان رسائل وشعر غير شعره الذي أنتجه في ثنابا المقامات .

وقد حمد على الحريري طائفة من أدباء عصره وطعنوا في نسبة هذه المقامات إليه ، فأستقدمه الوزير أبو شروان وطلب منه أن ينشئ رسالة في موضوع عينه هذا الوزير ،

Lit. Hist. of the Arabs, p. 329. (١)

(٢) هي مدينة في سواد العراق قريبة من الرها .

(٣) تولى هذا الوزير سنة ٥٣٣ هـ ( ١١٣٨ م ) ، وهو صاحب تاريخ السلاجقة الذي طبعه

« هوتسا » ( ليدن ١٨٨٩ ) ضمن مؤلف البنداري .

(٤) يقصد أن يسير فيها على نهج بديع الزمان الهمداني في رسائله أو مقاماته . ويعتبر بديع الزمان أول من وضع المقامات بالشرق .

(٥) وهو يشبه نفسه بالظالم أي اللائل عن الطريق المستقيم ، ويشبه بديع الزمان بالضليع أي القوى وهو يقصد تأديبا منه أن مقاماته لا ترقى إلى منزلة مقامات بديع الزمان لأن الفضل للسابق . أنظر مقامات الحريري ( طبعة القاهرة ص ٥ )

فلم يوفق في هذا المقام فخرج . وبعد حين قدم إلى الوزير عشر مقامات . وكان الحريري ضئيل الجسم زرى المنظر عصبي المزاج ، يقتلع شعرات لحيته إذا اشتغل بالتفكير أو الكتابة . ولكنه مع هذا كان موضع تقدير الناس وإكبارهم . ويحكي أن شخصاً زاره ، وأراد أن يتلقى عليه شيئاً من العلم لذبوع شهرته ، فلما وقع بصره عليه استزرى منظره فأدرك الحريري ما دار في نفسه . ولما طلب هذا الشخص إلى الحريري أن يملئ عليه شيئاً من الأدب قال له : اكتب وأمله هذين البيتين .

ما أنت أول سائرِ غرّه قمرٌ ورائدِ أعجمته خُضرةُ الدمن<sup>(١)</sup>

فاختر لنفسك غيري إنني رجلٌ مثل المعيدى<sup>(٢)</sup> تسمعُ بي ولا ترني<sup>(٣)</sup>

اشتمت مقامات الحريري على فوائد جمّة عددها في قوله : « وأنشأت علي ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خالدة وروية ناضبة وهموم ناصبة ، خمسين مقامة تحوى على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر<sup>(٤)</sup> البيان ودرره وملح الأدب ونوادره إلى ما وشحنتها<sup>(٥)</sup> به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورصعته فيها من الأمثال العربية واللطائف الأدبية والاحاجي<sup>(٦)</sup> النحوية والفتاوى اللغوية والرسائل المبكرة والخطب المعبرة<sup>(٧)</sup> والمراغظ المبكية والأضاحيك الملهية ، مما أمليت جميعه على لسان أبي زيد السروجي وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصري<sup>(٨)</sup> . وما قصدت بالاحاض<sup>(٩)</sup> فيه إلا تنشيط قارئيه وتكثير سرادطالييه . ولم أودعه من الأشعار

(١) يشير إلى الحديث النبوي وهو قوله صلى الله عليه وسلم لبياكم وخضراء الدمن . قالوا : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسنة في المنبت السوء . ويشير الرسول إلى أن النبات يخرج رائحة شديدة المحضرة فوق السواد المتخلف من فضلات الحيوان .

(٢) بضم الميم وفتح العين وسكون الباء وفتح الياء الثانية مع التشديد .

(٣) يشير إلى المثل العربي « لأن تسمع بالمعدي خير من أن تراه . والمعيدى شخص فني المنظر ذو شهرة . انظر ابن خلكان ج ٣ ص ٢٢٧ — ٢٣١ .

(٤) جمع غرة وهي خيار الشيء .

(٥) من الوشاح وهو القفلة .

(٦) جمع أحجية وهي الأغلوطة يختبر بها العقل .

(٧) من التحبير وهو التزيين .

(٨) يقصد نفسه ، وهذا مأخوذ من قوله عليه الصلاة والسلام : كلكم حارث وكلكم همام .

(٩) الإحاض : الإنتقال من أسلوب إلى آخر ، مأخوذ من إحاض الإبل وهو انتقالها من مرعى

حلو إلى مالح .

الاجنبية إلا بيتين فذَين<sup>(١)</sup> أسست عليهما بنية المقامة الحُلوانية وآخرين نوأمين<sup>(٢)</sup> ضمنتهما خواتم المقامة السكرجية . ما عدا ذلك غفاطرى<sup>(٣)</sup> أبو عذرة<sup>(٤)</sup> ، ومقتضب<sup>(٥)</sup> حُلوه ومُره<sup>(٦)</sup> ( أى جیده ورديشه ) .

ولنبداً بتقديم المقامة الأولى التي أنشأها الحريرى ، والتي لفتت نظر الوزير « أنوشروان » إذ يقول الحريرى فى هذه المقامة التى سماها « الحرامية » : روى الحارث بن همام عن أبى زيد السروجى قال : مازلتُ مذرحتُ عَنسى<sup>(٧)</sup> وارتحلتُ عن عِرسى<sup>(٨)</sup> وغَرسى<sup>(٩)</sup> أحن إلى عيان<sup>(١٠)</sup> البصرة حنين المظلوم إلى النصره ، لما أجمع إليه أرباب الدراية وأصحاب الرواية وعلماؤها من خصائص معالمها وما أثر مشاهدتها وشهادتها ، وأسأل الله أن يُوطنني ثراها لا فوز بمرأها<sup>(١١)</sup> ، وأن يُمطيني قرأها<sup>(١٢)</sup> لأفتري<sup>(١٣)</sup> قرأها ، فلما أحانيتها الحظ وسرح لى فيها اللحظ .

رأيتُ بها ما يملأ العينَ قرّة<sup>(١٤)</sup> ويُسلى عن الأوطان كلَّ غريب

(١) الفذ الفرد وأحد البيتين للوأواء الدمشقى والثانى للبحترى .

(٢) التوام المولود مع آخر فى بطن واحد ، سُمى البيتان بذلك لكونهما فائلا واحد وهو ابن سكرة :

(٣) يريد قلبه .

(٤) يقال هو أبو عذرها إذا كان هو الذى اقتضها والأصل فيه أبو عذرتها ، فخذت التاء منه ،

والمراد أنه أول فائل لهذا الكلام .

(٥) يعنى الحريرى نفسه . والمتقضب المرتجل خطبة أو شعراً من اقتضب العصن أى اقتطعه على البديهة .

(٦) مقامات الحريرى ص ٦ — ٧

(٧) العنس الناقة القوية .

(٨) العرس : الزوجة .

(٩) الفرس الأولاد .

(١٠) العيان المشاهدة .

(١١) يقصد مرآها .

(١٢) أى يركبني ظهرها .

(١٣) أفتري أنتعب

(١٤) قرّة أى سرورا .



فعلست<sup>(١)</sup> في بعض الأيام حين نصل خضاب الظلام وهتف أبو المنذر<sup>(٢)</sup>  
بالنوام ، لأخطو في خططها وأقضى الوتر من توشطها ، فأداني الاختراق في مسالكها  
والإنصلات<sup>(٣)</sup> في سككها إلى محلة<sup>(٤)</sup> موسومة<sup>(٥)</sup> بالاحترام ، منسوبة إلى  
بنى حرام<sup>(٦)</sup> ، ذات مساجد مشهودة وحياض مورودة ، ومبان وثيقة ومعان أنيقة  
وخصائص أثيرة<sup>(٧)</sup> ومزايا كثيرة .

بها ماشئت من دين ودنيا      وجيرانٍ تفاقوا<sup>(٨)</sup> في المعاني  
فشفوف بآيات المثاني<sup>(٩)</sup>      ومفتون برنات المثاني<sup>(١٠)</sup>  
ومضطلع بتأخيص المعاني      ومطلع إلى تخليص عاني<sup>(١١)</sup>  
وكم من قارىء فيها وقارٍ      أضراً بالجفون وبالجعان<sup>(١٢)</sup>  
وكم من معلم<sup>(١٣)</sup> للعلم فيها      ونادٍ للندا<sup>(١٤)</sup> حلو المجاني<sup>(١٥)</sup>  
ومعنى<sup>(١٦)</sup> لا تزال تُغن فيه      أغاريدُ الغواني<sup>(١٧)</sup> والأغاني

(١) أي خرجت في الغلس وهو ظلمة آخر الليل عند بزوغ الفجر .

(٢) كنية الديك .

(٣) الانصلات الخروج بسرعة والسير السريع .

(٤) أي منزلة .

(٥) موسومة أي معروفة .

(٦) بنو حرام قبيلة معروفة .

(٧) الخصائص الفضائل والأثير ذو الفضل يعني أنه يتمتع بمزايا مأثورة متميزة .

(٨) تفاقوا اختلفوا .

(٩) أي مفتون بقراءة القرآن .

(١٠) أي مفتون بنغم أوتار العود .

(١١) أي فك أسير .

(١٢) الأول من القراءة والثاني من القرى للضيف .

(١٣) أي مدرسة .

(١٤) يقصد مجلس الكرم .

(١٥) المجاني الثمار .

(١٦) المعنى المنزل .

(١٧) جمع غانية وهي التي استغنت بجمالها عن الزينة .

فَصَلِّ إِنَّ شَتَّ فِيهَا مَنْ بَصَلِّي وَإِنَّمَا شَتَّ فَادُنُّ مِنَ الدَّنَانِ<sup>(١)</sup>

ودونك حُجْبَةٌ الأَكْيَاسِ فِيهَا أَوْ السَّكَّاسَاتِ مُنْطَلِقَ العِنَانِ<sup>(٢)</sup>

من ذلك نرى أن الحريري غنى بمادته اللغوية ، إذ استعمل كثيراً من الألفاظ اللغوية التي تحتاج إلى تفسير . كما نرى أنه يقول الشعر عن طبع وموهبة متصرفاً في شعره تصرف الواثق من نفسه ، لغزارة أدبه وسعة اطلاعه وعلو بابه . ونراه أيضاً قد ألزم السجع التزاماً ، وأكثرت من المحسنات البديعية الأخرى ، ولا سيما الجناس الذي كان يقوله تماماً وناقصاً . فن التام قوله بآيات المثاني ورنات المثاني في البيت الثاني ، إذ يقصد بالمثنائي الأولى آيات القرآن الكريم وبالمثنائي الثانية رنات أوتار العود . واللفظتان متفتحتان في الشكل وعدد الحروف وترتيبها ، فهو من الجناس التام ، ومن الجناس الناقص قوله في البيت الثالث تلخيص المعاني وتخليص عاني . فبين كلمتي تلخيص وتخليص جناس ناقص وبين كلمة المعاني وعاني جناس ناقص أيضاً .

وقد أنشأ الحريري مقامته الصنعانية في صنعاء حاضرة اليمن التي يعتقد أنها أول بلدة صنعت بعد طوفان نوح عليه السلام . وجعل هذه المقامة الأولى ، وكان بطلها أيضاً أبا زيد السروجي الذي سماه سراج الغرباء وتاج الأدباء . ولم يستطع الحارث بن همام ( وهو الحريري ) أن يكلم السروجي لإجلاله واحتراماً ، فسأل عنه تلميذه قائلاً : « عزمتُ عليك بمن تستدفع به الأذى لمتخبرني مَنْ ذا ، فقال هذا أبو زيد السروجي » .

قال الحريري في هذه المقامة : حدث الحارث بن همام قال : لما افتعدت غارب<sup>(٣)</sup> الاغتراب وأنأتني المتربة<sup>(٤)</sup> عن الأتراب<sup>(٥)</sup> ، فوَحَّتْ بي طوائج الزمن إلى صنعاء اليمن . فدخلتها حاوى الوفاض<sup>(٦)</sup> بادي الإنفاض<sup>(٧)</sup> ، لا أملك بلغة<sup>(٨)</sup> ولا أجد في جرابي

(١) يعني أنك مخبر بين أن تجلس مع العباد المصلين أو مع أهل السكر الفاوين .

(٢) مقامات الحريري ص ٥٥٧ - ٥٥٩ .

(٣) غارب كل شيء أعلاه ويريد أنه تغرب عن الوطن .

(٤) المتربة الفقير .

(٥) جمع ترب وهو أمثال الشخص .

(٦) أي فارغ الوفاض والوفاض هو الشيء الذي يضع فيه الإنسان زاده .

(٧) الإنفاض هو فناء المال والزيادة يريد ظاهر الفقر .

(٨) الباعة ما يتبلغ به من العيش وهو اليسير من الزاد .

مُضْمَةٌ<sup>(١)</sup>، فطفقت أجوب طرفاتها مثل الهائم وأجول في حوماتها جَوَّانِ الهائم<sup>(٢)</sup>،  
وأرود في مسارح لمحاتي ومسابع غدواني ورؤحاتي، كريماً أخلق له ديباجتي<sup>(٣)</sup>  
وأبوح إليه بجاجتي، أو أديباً تفرج رؤيته غمّتي<sup>(٤)</sup> وتزوي روايته غلتي<sup>(٥)</sup> حتى أدتني  
خاتمة المطاف وهدتني فاتحة الالطاف إلى ناد رحيب . . . فرأيت في بهرة<sup>(٦)</sup> الحلقة  
شخصاً سَخَتْ<sup>(٧)</sup> الحلقة . . . يطبع الاسجاع بجواهر لفظه ويقرع الاسماع بزواجر وعظه .  
وقد أحاطت به أخلاط الزمّر إحاطة الهالة بالقمر والاكمام بالتمر<sup>(٨)</sup>، فدلقت إليه لأقتبس  
من فوائده وألتقط بعض فرائده، فسمعته يقول حين خَبَّ في مجاله وهدرت شقائق  
ارتجاله، أيها السادر في غلوائه السادل ثوب خيلائه<sup>(٩)</sup> . . . (١٠) . . .

من ذلك نرى أن الحريري التزم السجع والمحسنات البديعية الأخرى ولا سيما الجناس،  
وأنه يتصرف في اللغة تصرف الغني بثروته اللغوية المدرك لبراعة الكلام . والمقامة تدور  
حول الاتعاظ بشخصية أبي زيد السروجي الذي انشع بالفقر وتزين بالأدب . فكان أدبه  
أجيباً جمالاً من نزوة أغنياء المال . ثم إن الحارث بن همام (وهو الحريري) أعجب بهذا  
الشخص الذي يفيض أدباً وبلاغة وجلس يستمع إلى نصائحه الغالية وحكمه البارعة . وإن  
دل هذا على شيء . فإيما يدل على سعة اطلاع الحريري وامتلاكه ناصية الكلام والثقافة  
في عصره .

وهناك مقامات أخرى<sup>(١١)</sup> يطول بنا المقام إذا تصدينا لدراستها، وهي حرة بالدراسة  
الأدبية المتخصصة .

(١) المضمة هي ما يمتنع .

(٢) الهائم هو الطائر الذي يحوم ليرى ماء يشربه .

(٣) أي أبذل وجهي .

(٤) الغمة ما على القلب من الأسى والغم .

(٥) الغلة عدة العطش .

(٦) البهرة وسط الحلقة .

(٧) السخت هو الدقيق التحيل .

(٨) الأكمام جمع كن وهو وعاء التمر .

(٩) سدل الثوب أرخاه والخيلاء السكبر .

(١٠) مقامات الحريري س ١٠ — ١٦ .

(١١) من هذه المقامات للقامة الحادية عشرة الساوية (مقامات الحريري س ٩٧ — ١٠٦) والمقامة

الثانية عشرة أدمشقية (س ١٠٦ — ١١٩) والمقامة الثالثة عشرة البغدادية (س ١٢٠ — ١٢٨) =

ويذكر براون<sup>(١)</sup> أن الحريري بأسلوبه في مقاماته هو الملك المتوج على رأس الكتاب الذين تخصصوا في المقامات ، إذا ما قورنت مقاماته بما كتب بالعربية كمقامات بديع الزمان الهمذاني ، أو ما كتب بالفارسية كمقامات حميد الدين البلخي ، على الرغم من أن بديع الزمان أسبق إلى ابتكار فن المقامات وترويجه . وقد قدره الأدباء من المشاركة والأوربيين . وحسبنا أن نذكر أن الزمخشري قدر الحريري بقوله إن مقاماته حرية بأن تكتب بما الذهب ، وإن مؤلفاته ومقاماته قد درست وشرحت وترجمت أكثر من مرة في بلاد المشرق وأوروبا<sup>(٢)</sup> . كما نالت مقامات الحريري شهرة عظيمة في بلاد الأندلس في حياته ، ثم جاء الشريشي الأندلسي بعده بنحو قرن ، فشرحها شرحاً قيمياً .

( ب ) القاضي الفاضل ( ت ٥٩٦ هـ ) .

ويعتبر القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي اليبسائي زعيم النثر في عهد الأيوبيين . وله مدرسة عرفت به تدعى مدرسة المحسنات البديعية التي اقتبسها من ابن العميد ، ولكن طريقة القاضي الفاضل قد تدهورت على أيدي تلاميذه الذين غالوا فيها مغالاة شديدة وانحرفوا بها عن الغاية المنشورة منها ، فأضحت نوعاً من الحلية اللفظية التي ضعف المعنى بجانبها ، واستمرت في هذا التدهور حتى أصبحت مظهراً سيئاً للأدب في عهد المماليك والأتراك العثمانيين .

ولد القاضي الفاضل بمدينة عسقلان سنة ٥٢٩ هـ وتولى أبوه القضاء بمدينة بيسان ( بين بيت المقدس ويافا ) . ولذلك نسب القاضي الفاضل إلى هذه البلدة فسمى اليبسائي . وقد أخذ العلم على علماء عصره ومنهم أبوه ، ثم قدم القاهرة وخدم في ديوان الإنشاء في عهد الخليفة الحافظ الفاطمي ( ٥٢٤ — ٥٤٤ هـ ) . ثم أخذ يتدرج حتى أصبح صاحب هذا الديوان . ولما قدم أسد الدين شيركوه مصر وآلت إليه الوزارة اتخذ القاضي الفاضل

== والمقامة الرابعة عشرة المكبية ( ص ١٢٨ — ١٣٦ ) والمقامة السادسة عشرة المغربية ( ص ١٥٠ — ١٦٠ ) والمقامة الثانية والعشرون الفراتية ( ص ٢٠٩ — ٢٢٠ ) والمقامة الخامسة والثلاثون الشيرازية ( ص ٣٨٣ — ٣٩٠ ) وهكذا .

(١) تاريخ الأدب في إيران ، ترجمة ج ٢ ص ٤٥٦ — ٤٥٧ .

(٢) Chenery, Assemblies or maqamat ( London, 1867 )

يجد القارئ عبارة وافية عن حياته في مقدمة

Houtsma, Recueil de textes relatifs à l' Histoire des Seldjouciens ( Leyden, 1889 ), p. 11 et seq.

كانت له . ثم آلت الوزارة إلى صلاح الدين الأيوبي ففقد القاضى الفاضل إليه واستعان به في إزالة الدولة الفاطمية ، ثم اتخذها وزيراً له يرجع إليه في أمور الدولة . وظل في الوزارة إلى سنة ٥٩٦ هـ ( ١١٩٩ م ) حيث خرج لقتال الملك العادل بن أيوب وهو في طريقه للاستيلاء على مصر (١) .

ومن آثار القاضى الفاضل المدرسة الفاضلية التي أسسها في القاهرة سنة ٥٨٠ هـ . ويحدثنا المقرئى أن هذه المدرسة كانت تضم مكتبة نفيسة حوت نحو مائة ألف مجلد (٢) .

ومن الرسائل التي وجهها القاضى الفاضل إلى صلاح الدين الأيوبي رسالة يتشفع فيها لخطيب عيذاب رجاء توليته خطابة الكرك ( بفتح الكاف والراء ) لعدم احتياله المقام في هجير عيذاب ، ولأن خطابة الكرك تدر عليه رزقا أكثر لكثرة عياله . وإليك هذه الرسالة . « أدام الله السلطان الملك الناصر وثبته وتقبل عمله بقبول صالح وأثبتته ، وأخذ عدوه قائلاً أو بيته (٣) ، وأرغم أنفه بسيفه أو كبته . خدمة الملوك هذه واردة على يد خطيب عيذاب . ولما نبا ( بعد ) به المنزل عنها وقل عليه المرفق فيها ، وسمع هذه الفتوحات التي طبق الأرض ذكرها ، ووجب على أهلها شكرها ، هاجر من هجير عيذاب وملحها ، سارياً في ليلة أمل كلها نهار فلا يسأل عن صباحها . وقد رغب في خطابة الكرك وهو خطيب ، وتوصل بالمملوك في هذا المنتمس وهو قريب ، ونزع من مصر إلى الشام ومن عيذاب إلى الكرك وهذا عجيب ، والفقر سائق عنيف والمذكور عائل ضعيف ، ولطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف والسلام » (٤) .

وللقاضى الفاضل شعر أيضاً ، ولكنه لم يبلغ منزلة النثر عنده . ومن هذا الشعر قوله عند بلوغه الفرات في خدمة صلاح الدين متشوقاً إلى نيل مصر -

بالله قل للنيل عنى أننى لم أشف من ماء الفرات عليلًا  
وسلّ الفؤاد فإنه شاهدٌ إن كان جفنى بالدموع بجيلاً

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٤ — ٣٣٧ .

(٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٣) يقصد أن الله سبحانه وتعالى يأخذ عدو صلاح الدين وقت القبول ( ويكنى بها عن التهار ) أو بيته بمعنى يأخذه في الليل .

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٤ .

يا قلب كم اختلفت مممً بثينةً وأعيد صبرك أن يكون جميلاً<sup>(١)</sup>

( ح ) الشرقى المغرب والأندلس :

وقد اتخذ المرابطون عدة كتاب على رأسهم صاحب ديوان الرسائل ، وكان هذا الديوان طائفة من النساخين يقومون بنسخ عدة نسخ من الكتاب الاصلى توجه إلى عمال الأقاليم وغيرهم من الحكام . يذكر المراكشى بأنه اجتمع ليوسف بن تاشفين ولابنه على من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من عصور المغرب .

وكان أكثر هؤلاء الكتاب من رجال الأدب فى الأندلس الذين عملوا فى بلاط ملوك الطوائف أو فى قصور العمال المرابطين . ومن هؤلاء الكتاب عبد المجيد بن عبدون وعبد العزيز الأنصارى . ويبدو أن هذا الاختيار كان راجعاً إلى درايتهم فى الكتابة الذى توارثوه عن الدولة الأموية بالأندلس التى عرفت بالتفوق الأدبى الذى اقتبسوه من الشرق . لذلك نرى المرابطين يعينون الكتاب والقضاة والمحسبين وغيرهم من أهل الأندلس . ومن أشهر أدياب المرابطين :

( ١ ) أبو جعفر بن عطية

ومن هؤلاء الكتاب أبو جعفر بن عطية ، وقد نشأت أسرته بمدينة طرطوشة التى ينتمى إليها الفقيه أبو بكر الطرطوشى صاحب كتاب سراج الملوك . وقد كتب ابن عطية لعلى ابن يوسف ثم لابنيه تاشفين وإسحاق حتى أواخر عهد المرابطين ، ثم انخرط متكرراً فى جيش عبد المؤمن بن على . وكان يحسن الرماية . ثم صحب أبا حفص عمر لحرب الثائر محمد بن هود الماسى السلاوى الذى انضم إلى عبد المؤمن أولاً ثم خرج عليه ثانياً ، وأخذ يدعو إلى نفسه باسم الهادى ، وكاد يطيح بعرش المؤحدىن ، ولكنه قتل على يد أبى حفص قائد المؤحدىن .

وقد كتب أبو جعفر بن عطية إلى عبد المؤمن رسالة طويلة يشيد فيها بانتصار المؤحدىن على ابن هود ، فأعجب بها عبد المؤمن واستدعاه إلى بلاطه وقلده الكتابة ثم الوزارة فيما بعد . ومما جاء فى هذه الرسالة : « كتبنا هذا فى وادى ماسة بعد ما ترحل من أمر الله

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٣٥ .

الكريم ونصره العلوم ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . فتح فاق الأنوار إشراقاً وأحرق بنفوس المؤمنين إحداقاً » (١) .

على أن ابن عطية على الرغم مما بلغه من جاه ونفوذ في عهد الموحدين كان يعطف على المرابطين الذين تقلب في نعمتهم من قبل ، حتى إنه تزوج بنت أبي بكر بن يوسف بن تاشفين . وقد نصح أخاها يحيى بالهجرة إلى جزيرة ميورقة ، فمضى الخبر إلى ابن عبد المؤمن ، فأمر بالقبض عليهما وعلى أخيه ، وحاول ابن عطية أن يستدر عطف عبد المؤمن بما نظم من شعر وبعث برسائل يعتذر فيها عما فرط منه . ومن شعره قوله :

عطفاً علينا أمير المؤمنين فقد بان العزاء لفرط البت والحزن  
هَنَ عِنْدَكُمْ يَسْعَى عَلَى ثِقَةٍ بِنَصْرِهِ لَمْ يَخْفَ بَطْشاً مِنَ الزَّمَنِ  
أَنْتُمْ بِذُلَّتُمْ حَيَاةَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ مِنْ دُونِ مَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَمَنَّ  
قَدْ أَوْجَدْتَهُمْ حَيَاةً مِنْكَ سَابِقَةً وَالسُّكْلَ لَوْلَا كَلَمْ يَوْجَدَ وَلَمْ يَكُنْ  
على أن عبد المؤمن أجابه بقوله متمثلاً بالآية الكريمة : ( الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ  
وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ) (٢) ، وأمر به فقتل . وقد ذكر المقرئ (٣) أن بيت ابن عطية كان غنياً بأدبائه .

## ( ٢ ) ابن أبي الخصال

ومن كتاب النثر في المغرب مسعود بن أبي الخصال . وقد تقلد منصب الكتابة في عهد المرابطين ، وقد ولد بالاندلس ونشأ بقرطبة وطلب العلم فيها ومرن على الكتابة ، كأخيه أبي مروان الذي تقلد الكتابة لابن الحاج الذي خرج على أمير المسلمين علي بن تاشفين ودعا لنفسه بقرطبة ثم قبض عليه . ولكن علياً عفا عنه وولاه « فاس » ونواحها ، ثم قلده ولاية سرقسطة حيث قتل في حربه مع النصارى في سنة ٥٠٨ هـ . وقد وصف عبد الواحد المراكشي (٤) ابن أبي الخصال بقوله : « إنه كان من أنبهم وأكبرهم مكانةً لديه ( يعني علياً بن يوسف ) إذ هو آخر الكتاب (٥) وأحد من انتهى إليه علم الآداب » .

(١) المراكشي : المعجب س ٢٩٨ . المقرئ : فتح الطيب ج ٧ ص ١١٠ .

(٢) سورة يونس : ١٠ : ٩١ .

(٣) انظر فتح الطيب ج ٧ ص ١١٠ — ١١٥ .

(٤) المعجب س ١٧٣ .

(٥) يقصد بذلك أنه آخر الذين اشتهروا بالكتابة في عهد المرابطين .

ولابن أبي الخصال ديوان رسائل تداوله الكتاب والأدباء واتخذوه نموذجاً لرسائلهم<sup>(١)</sup>. وقد قيل إن علياً بن يوسف أمر ابن أبي الخصال وأخاه أبا مروان أن يكتبوا إلى جند بلنسية كتاباً يؤنباهما فيه على تخاذلهم عن نصرته لإخوانهم بسرقة سطة. إلا أن كلا من الأخوين كتب رسالة تنم عن احتقارهما للرباطين ووصفهما إياهم بأنهم بدو عراة صحراويون لا إمام لهم بأساليب السياسة وأمور الحضارة والمدنية، مما أغضب أمير المسلمين علي بن يوسف عليهما فعزلهما عن الكتابة. وما جاء في هذه الرسالة:

«أى بنى اللثيمة وأعيار الهزينة، إلام يربفكم الناقد ويردكم الفارس الواحد؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضاناً لها حال حالب قاعد. لقد آن أن نوسعكم عقاباً وألا تلوثوا على وجه نقابا<sup>(٢)</sup>، وأن نعيدكم إلا صحرائكم ونظهر الجزيرة من رخصائكم<sup>(٣)</sup>».

وقد أثار هذا الكلام غضب أمير المسلمين علي بن يوسف بن ناشفين، فأمر بتجنحة أبي مروان وقال لأخيه أبي عبد الله: كفا في شك من بغض أبي مروان المرابطين، والآن قد صح عندنا. فلما رأى ذلك أبو عبد الله، استعفاه فأعفاه، فعاد إلى قرطبة بعد موت أخيه أبي مروان بمدينة مرا كش. وظل أبو عبد الله بن أبي الخصال بقرطبة حتى مات. ومن كتاب النثر في المغرب أبو بكر بن الفصير، وقد تقلد الكتابة لأمير المسلمين يوسف بن ناشفين. وكان قد تقلد الكتابة للعمد بن عباد صاحب إشبيلية. وقد وصفه المراكشي<sup>(٤)</sup> بقوله: «أحد رجال الفصاحة والحائز قصب السبق في البلاغة، كان على طريقة قدماء الكتاب من إظهار جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الاسجاع التي أحدثها متأخرو الكتاب، اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء».

ومن كتاب النثر الوزير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون، تقلد للكتابة للظفر صاحب بطليوس، ثم لسير بن أبي بكر، ثم لعلي بن يوسف بن ناشفين، وبلغ عنده مكانة عالية.

(١) المعجب س ١٧٥ — ١٧٦.

(٢) يعني أنكم غير جديرين بوضع اللثام على وجوهكم. وكان ذلك اللثام عند المرابطين علامة على الشجاعة والفروسية والقسوة.

(٣) ارتحش: انتضح والرخضاء أيضاً يطلق على العرق، يعني بذلك أنهم صحراويون لا يعنون بالنظافة.

(٤) المعجب س ١٦٤.



وهو كما يقول المراد كشي من أهل يابرة<sup>(١)</sup> . وكان شاعراً مجيداً<sup>(٢)</sup> ، كما كان كاتباً مجيداً . فمن رسائله قوله : « أدام الله أمر أمير المسلمين وناصر الدين أبي الحسن علي ابن يوسف بن تاشفين ، خاققةً بنصرة الدين أعلامه ، نافذةً في السبعة الأقاليم أعلامه ، من داخل مدينة شننرين ، وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك وبمن نقيبتك على المسلمين »<sup>(٣)</sup> .

الفتح بن خاقان ( ١٠٣٤/٥٢٩ — ١٠٣٥ )

ومن أشهر كتاب الأندلس أبو نصر الفتح بن خاقان ، وكان أديباً كاتباً شاعراً ، غير أن شعره كان وسطاً وكتابه فائقة كما يقول المقرئ<sup>(٤)</sup> . وقد أخذ العلم عن طائفة من أدباء عصره كأبي بكر بن القصيرة ، وابن اللبابة ، وأبي جعفر بن سعدون ، وأبي محمد بن عبدون . ولما شب عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال أصبح من كتاب الأندلس الذين يشار إليهم بالبنان ، كما أحرز قصب الكتابة فألف « بداية المحاسن وغاية المحاسن » ، ومجموعة تتضمن ما أنتجه من نثر أدبي ، كما ألف من الكتب « قلاند العقيان ومطمع الانفس »<sup>(٥)</sup> ، ومن رسائله قوله :

« سيدى : لا عَدِمْتَ ارتفاقاً<sup>(٦)</sup> ولا حُرِمْتَ تسكّيفاً من السعد وانفاقاً ، أما الآن مشغل البال لا أُفَرِّق بين الإعراض والإقبال . وعند توجّهي أفرغ لك ما حضر<sup>(٧)</sup> ، ومثلك أرجأ الأمر وانتظر<sup>(٨)</sup> ، وفي علم الله تعالى لو أمكنتي لمحتك على كاهل وأوردتك منه أعذب المناهل ، وأبَحْتُ لك السعد نقرأ ترشقه ، وخلعته بُرُداً عليك تلتحفه ، لكن الزمان لا يجد<sup>(٩)</sup> وصروفه لا تجد .

وعلى أى حال نلا بد أن تجد قراك ونحمد سيراك ( سفرك ) إن شاء الله تعالى .

(١) نسبة إلى يابرة إحدى مدن البرتغال .

(٢) للمعجب ص ٧٥ — ٧٦ .

(٣) المصدر نفسه ١٦٥ — ١٦٦ .

(٤) فتح الطيب ج ٩ ص ٢٤٢ .

(٥) للمصدر نفسه ج ٩ ص ٢٤٨ .

(٦) يقصد الرفق .

(٧) يقصد أنه يعبر له عما يجيش في صدره من هموم عند أول لقاء .

(٨) يعني أن لك من السلطات ما يستطيع لإرياء الأمور أو النظر فيها سريعاً .

(٩) يعني أن الرومان لا ينيل الإنسان كل رغائبه .

ومن كتب الفتح بن خاقان البليغة هذه الرسالة التي بعث بها إلى أبي بكر بن علي (ابن ناشفين) عند ولايته إشبيلية :

« أطال الله تعالى بقاء الأمير الأجل أبي بكر للأرض يتملكها ويستدير بسعده فلسكها . استبشر الملك وحق له الاستبشار وأوما إليه السعد في ذلك وأشار ، بما اتفق له من توليتك وخفق عليه من أوليتك . فلقد حُبِيَّ منك بملك أمضى من السهم المسدد ، طويل نجاد السيف رَحْب المقلد<sup>(١)</sup> يُقدم حيث يتأخر الذابل<sup>(٢)</sup> ويُسكروم إذا بَحِل الوابل (المطر) ، ويحمي الحما كربيعة بن مُكَدَّم (بضم الميم وفتح الكاف مع الدال المشددة هو أحد فرسان الجاهلية) ويسقى الطبا<sup>(٣)</sup> نجيعا<sup>(٤)</sup> كلون العندم<sup>(٥)</sup> . فهنيئا للأندلس لقد استردت عهد خلفائها واستمدت نلك الإمامة بعد إغفائها ، حتى كأن لم تمراء صارها ولم يمت حكمها ولا ناصرها اللذان عمرا الرصافة والزهرا (يقصد مدينة الزاهر التي بناها عبد الرحمن الناصر) ونسكحا (نزوج) عقائل الروم وما بذلا إلا المشرفية (سيف البحر) مهراً . والله تعالى أسأله انتصار أيامك ، وبه أرجو انتشار أعلامك حتى يكون عصرك أعجب من عصرهم ونصرك أعز من نصرهم والسلام »<sup>(٦)</sup> .

وللمنح بن خاقان شعر كثير ، ولكنه لا يرتقى إلى منزله نثره البليغ ، ومن أحسن ما نظم قوله يستعطف الحكيم المستعصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) ويحج إلى مثواه بإشبيلية :

وَبِحَكِّ يَأْسَلَمْ لَا تُرَاعَى<sup>(٧)</sup> لَا بَدَ لِلْبَيْنِ مِنْ مَسَاعِ  
لَا نَحْسِبِنِي صَدَبْرَتْ إِلَّا كَصَبْرِ مَيْتٍ عَلَى النَّزَاعِ<sup>(٨)</sup>  
مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ عَذَابٍ أَشَدَّ مِنْ وَقْفَةِ الْوَدَاعِ

(١) إشارة إلى سعة الصدر الدال على الشجاعة ، وكان يعلق به السيف ، ويرمز به إلى فراهة الجسم .

(٢) يريد به الرمح أو حامله .

(٣) جمع ظبية (بضم الظاء) حد السيف .

(٤) النجيع دم القلب .

(٥) هو زهر لونه كلون الدم .

(٦) للمقري : فتح الطيب ج ٩ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٧) يقصد لا تخاف .

(٨) النزاع نزعة الموت .

ما بينها والحمام فرقٌ إلا للفاحات في النواعي  
إن يفترق شمالنا وشيكنا من بعد ما كان في اجتماع  
فكل شمل إلى افتراق وكل شعب إلى انصداع  
وكل قرب إلى بعاد وكل وصل إلى انقطاع<sup>(١)</sup>

### العلوم العقلية

#### (١) الطب في العصر العباسي الثاني

أشاد نظامي عروضي السمرقندي<sup>(٢)</sup> بأهمية صناعة الطب وعرض للشروط التي يجب أن تتوافر في الطبيب فقال :

« الطب صناعة تحفظ الصحة في بدن الإنسان وهي كائنه وتستردهما وهي مفقودة ،  
وبواسطتها يزدان البدن بطول الشعر وصفاء البشرة وطيب الرائحة والنشاط .  
وأما الطبيب فينبغي أن يكون رفيق الخلق حكيم النفس صائب الفكر قوى الاستنتاج ،  
ولا يكون الطبيب رفيق الخلق ما لم يعرف شرف النفس الإنسانية ، ولا يكون حكيم النفس  
ما لم يعرف المنطق . كما أنه لا يكون جيد الحدس ما لم يكن مستمداً العون من الله سبحانه .  
والطبيب الذي لا يكون جيد الحدس لا يصل إلى معرفة العلة : ذلك أنه يستدل على حالة  
المريض بالنبض ، والنبض حركة الانقباض والانبساط وما بينهما من سكون . »

وقد أوصى نظامي عروضي أن يتزود من يريد مزاولة الطب بدراسة مصادره الأصيلة  
مثل أصول أبقراط ومسائل حنين بن إسحاق<sup>(٣)</sup> ، « ومرشد محمد بن زكريا الرازي<sup>(٤)</sup> ،  
و « شرح النبيل<sup>(٥)</sup> » الذي أجمل هذه المؤلفات ، « وذخيرة ثابت بن قرة<sup>(٦)</sup> ( بضم القاف

(١) الشعب التعام المنكسر والانصداع الكسر . المقرئ : فتح الطبيب ج ٩ ص ٢٥١ .  
(٢) جهار مقاله ، ترجمه إلى الإنجليزية أدوارد براون ، ولي العربية عزام والحشاب . الترجمة  
الغربية ص ٧٤ - ٧٥ .

(٣) اسم هذا الكتاب « المسائل في الطب للمعلمين » ، انظر ابن النديم : كتاب الفهرست  
ص ٢٩٤ . القفطي : تاريخ الحكماء ص ١٧٣ .

(٤) اسم هذا الكتاب الفصول في الطب ويعرف باسم المرشد ، انظر ابن النديم : الفهرست  
ص ٣٠١ . واقفطي : تاريخ الحكماء ص ٢٧٥ .

(٥) هو أبو سهل سعيد بن عبد العزيز ، وله كتاب « اختصار كتاب المسائل لحنين بن إسحاق »  
وتلخيص شرح حاليثوس لكتاب الفصول لأبقراط ، وكان من أهل نيسابور .

(٦) يشك القفطي ص ١٢٠ ) في نسبة هذا الكتاب لثابت .

وفتح الرام مع التشديد ) ، و « المنصوري » و « الحاوي » لمحمد بن زكريا الرازي<sup>(١)</sup> ،  
أو « الهداية » لأبي بكر الأجويني ، أو « الكفاية » لأحمد بن فرج أو « الأعراض »<sup>(٢)</sup>  
لسيد بن إسماعيل الجرجاني ، ثم يدرس أحد الكتب المفصلة مثل « الست عشرة رسالة »  
لجالينوس أو « الحاوي »<sup>(٣)</sup> لمحمد بن زكريا أو « كامل الصناعة »<sup>(٤)</sup> أو « صد باب »<sup>(٥)</sup>  
( مائة باب ) لأبي سهل المسيحي ، أو « القانون » لأبي علي بن سينا ، أو « الذخيرة »<sup>(٦)</sup>  
للخوارزمي ، وأن يقرأ هذا الكتاب المفصل في وقت الفراغ ، فإذا أراد الاستغناء عن هذه  
الكتب كلها فقد يكتب بالقانون ، فإن سيد الكونين وإمام الثقلين<sup>(٧)</sup> يقول : كل الصيد  
في جوف الفرا ، فكل ما ذكرت موجود في « القانون » مع زيادات كثيرة . وكل من

(١) كتاب المنصوري أو كتاب الطب المنصوري ، ويحتوي على عشر مقالات ، وقد ألفه الرازي  
باسم منصور بن محمد بن إسحاق بن أسد ، وكان والياً على الري من قبل عمه أحمد بن إسماعيل بن أحمد  
ابن أسد الساماني ، وقد خرج منصور على نصر بن أحمد ثالث أمراء السامانيين . انظر تعليق ميرزا  
محمد علي كتاب چهار مقاله ، ترجمة من ١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) وهو في علم الطب بالفارسية ، وقد ترجمه عن كتابه « ذخيرة خوارزمشاهي » بأمر  
محمد الدين أبي محمد الصاحب بن محمد البخاري وزير آتسز خوارزمشاه ( ٥٢١ - ٥٥١ هـ ) . ابن  
أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٣٢ .

(٣) ويعرف باسم « الجامع الحاضر لصناعة الطب » وهو أعظم وأهم مؤلفات محمد بن زكريا  
الرازي . القفطي ص ٢٧٤ .

(٤) كامل الصناعة الطبية ، ويعرف بالملكي لعلي بن العباس المحمدي الأهوازي ( ت ٣٨٤ / ٩٩٤ ) .  
وهو أشهر أطباء عصره ، وكان طبيب عضد الدولة البويهية ، ويعرف مؤلفه في أوروبا باسم  
Baly Abbas ، وقد طبع في القاهرة في جزأين ( ١٣٩٤ / ١٨٧٧ ) ويحتوي الجزء الأول على  
الجانب النظري ويبحث الثاني عن الناحية العملية .

(٥) ويعرف باسم « كتاب المائة في الطب » . وقد ولد المسيحي في جرجان وأم دراسته في بغداد ،  
وهو أحد أساتذة ابن سينا ، وكان صديقاً لأبي الريحان البيروني : ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٣٢٧ -  
٣٢٨ ، ج ٢ ص ١٩ .

(٦) أو « ذخيرة خوارزمشاهي » وهو كتاب مفصل باللغة الفارسية في جميع فروع علم الطب ،  
ألفه زين الدين ( شرف الدين ) إسماعيل بن حسن الحسيني الجرجاني المتوفى بمرور سنة ٥٣١ / ١١٣٦ .  
وقد وضعه كما يقول في مقدمة كتابه باسم قطب الدين محمد خوارزمشاه مؤسس الدولة الخوارزمية سنة  
١١١٠ / ٥٠٤ . وقد ذكره ريو Rieu في فهرست الكتب الفارسية ( ص ٤٦٦ - ٤٦٨ ) ترجمة  
المؤلف وترتيب فصول وأبواب كتابه . ويلاحظ براون أنه قد يكون أول مسلم يستعمل اللغة الفارسية  
في المسائل العملية أو على الأقل هو أول من عرفنا كتبهم . ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٣١ - ٣٢ .  
نظامي عروضي : چهار مقاله ، التعليق في الترجمة العربية ص ١٦٦ .

(٧) يقصد علي بن أبي طالب ، والثقلان يقصد بهما الجن والإنس .

يحيط علماً بما في المجلد الأول من القانون لا يخفى عليه شيء من علم الطب وكيانيته ، ولو بعث بقراط وجالينوس إلى الحياة لحق لها أن يسجدا لهذا الكتاب<sup>(١)</sup> .

ويرى نظامى عروضى أن الطبيب إذا علم ما في المجلد الأول من « القانون » وهو في الأربعين من عمره ، أصبح أهلاً للاعتماد عليه . وإذا ما بلغ الطبيب هذه المرتبة وجب عليه أن يحرص على اقتناء أحد هذه الكتب الصغيرة التي ألفها أصحاب التجارب الطويلة من الأساتذة الأطباء مثل « تحفة الملوك » لمحمد بن زكريا الرازى ، أو « الكفاية » لابن مندويه الأصفهاني ، أو « تداركه أنواع الخطأ في التدبير الطبي »<sup>(٢)</sup> لأبي علي بن سينا ، أو « حُفَى علائى »<sup>(٣)</sup> لإسماعيل بن حسن الجرجاني ، أو « التذكرة » لسيد بن إسماعيل الجرجاني . « وقد نوه نظامى عروضى بهذه الشروط التي يجب أن تتوافر في الطبيب والكتب التي لا غنى عنها لمزاولة مهنته على أتم وجه فقال : « ذلك أنه لا يجوز الاعتماد على الحافظة التي هي في نهاية مؤخر الدماغ ، وأحد هذه الكتب يعينها إذا أبطأت في العمل . وإذا ينبغي لشكل ملك أن يحرص على هذه الشروط التي عددناها في الطبيب الذي يختار ، فإنه ليس من اليسير أن يضع روحه وعمره في يد كل جاهل وأن يجعل تدبير حياته في حجر كل عاقل<sup>(٤)</sup> » .

وكان الأطباء في هذا العصر ملينين بأكثر فروع المعرفة . فكان الطبيب فوق تفوقه في الطب فيلسوفاً وفقهياً وأديباً . فقد حكى نظامى العروضى السمرقندى ، وكان ينتمى إلى الغور ، أنه وقعت في سنة ٥٤٧ هـ موقعة بين جيوش « سلطان العالم » سنجر السلجوقى وجيوش علاء الدين الحسين الغورى ، وأن الدائرة قد دارت على الغور الذين تعرضوا لحقد السلاجقة وحققهم واضطهادهم . وقد اختفى نظامى العروضى عن أنظار السلاجقة

(١) وقد نوه نظامى عروضى إلى أهمية كتاب القانون لابن سينا وذكر أنه واجب القراءة لدرجة أنه من الممكن الاستغناء به عن الكتب الأخرى . جهار مقالة ص ٧٦ .

(٢) هو كتاب وضعه ابن سينا باسم الحسين أحمد بن محمد السهلى وزير على بن مامون خوارزمشاه القدى ولى الملك سنة ٣٨٧ / ٩٩٧ . وقد طبع هذا الكتاب في سنة ١٣٠٥ / ١٨٨٧ باسم « دفع المضار السكانية عن الإنسانية بتدارك أنواع خطأ التدبير » على حاشية كتاب « منافع الأغذية ودفع مضارها » لمحمد بن زكريا الرازى ( بولاق ، القاهرة ) .

(٣) هو كتاب مختصر في الطب باللغة الفارسية وهو مختصر لكتابه « خوارزمشاهى » بأمر علاء الدين آتسز . وقد اختصره على جلدتين من القطع الطويل حتى يمكن الاحتفاظ بهما دائماً في الحقيقتين . وعلائى نسبة إلى علاء الدولة وهو لقب من ألقاب آتسز . ميرزا محمد تولىقانه على كتاب جهار مقالة ، ترجمة ص ٧٧ ، ١٦٧ .

(٤) جهار مقالة الترجمة العربية ص ٧٧ .

في مدينة هراة حيث دعاه أحد الأهلالي لتناول طعام العشاء في داره ، ثم عبر له عن حزنه لمرض ابنته الوحيدة التي كانت مصدر بهجته وسروره ، وقال إنها في أيام الحيض تنزف عشرة أو خمسة عشر منا (١) من الدم حتى تخور قواها . ثم أضاف أنه استشار كثيراً من الأطباء الذين تولوا علاجها ، ولكن على غير جدوى ، وقال إن الأطباء إذا وقفوا الدم انتفخ بطنها وزاد ألمها ، وإذا تركوه تنزف وظهر عليها الهزال وتعرضت للهلاك . وطلب نظامي عروضي إلى الرجل أن يخبره حين يعود الحيض إلى ابنته .

ويقول نظامي عروضي : « فلما انقضت عشرة أيام جاء تني أم المريضة ، فسرت معها وأحضرت البنت أمامي » ، فرأيتها رائعة الجمال حائرة يائسة من الحياة . فلما رأته ارتمت على قدمي وقالت : أي أبي ! أغشى لوجه الله فإني شابة ولم أر الدنيا . فانهم الدمع من عيني وقلت لها : طيبي نفساً فهذا أمر يسير . ثم وضعت يدي على نبضها فوجدته قويا ، وكذلك كان لون وجهها عاديا ، وقد توفرت فيها أكثر الأمور العشرة كالامتلاء والقوة والمزاج والسمنة والسن ( يقصد سن الشباب ) والفصل وهواء البلد والمادة والأعراض الملائمة (٢) فدعوت فصادأ وأمرته بفصد عرق الباسليق في يديها . ثم أخرجت النساء من حولها ، وقد خرج الدم الفاسد ، وأخذت منها بالإمسك والتسريح ألف درهم من الدم (٣) ، فسقطت المريضة لا تنمي . فأمرت بإحضار النار وشويت بجانها اللحم والطيخ حتى عقب البيت برائحة الكباب وصعد بخاره إلى دماغها ، فثابت إلى رشدها وتحركت وتأنوهت . ثم أعددت لها شرابا مقويا لذيق الطعم ، وعالجتها أسبوعا حتى استعادت الدم الذي فقدته وزالت عنها العلة وانتظم الحيض عندها . وكنت أناديها بابنتي وكانت تناديني بأبي ، وهي اليوم منى كأبناي (٤) .

من ذلك نرى أن المسلمين الأوائل كانوا على دراية بالتشريح ودراسة أعضاء الجسم دراية عميقة تمكنهم من إجراء العمليات الناجحة .

(١) كيل أو ميزان وهو يساوي رطلين .

(٢) لعل نظامي عروضي يقصد أن حالتها الاجتماعية تجعلها في رخاء وسعة من العيش مما يضمن سلامة جسمها وعدم تعرضها للمرض لنقص الغذاء .

(٣) يقصد أنه تحكّم في دورتها الدموية باستنزاف الدم الفاسد وحفظ الدم النقي وظل على هذا النمط حتى بلغ ما استفده من الدم الفاسد وما استطاع حفظه في الجسم من الدم النقي نحو ما يساوي ألف درهم . وكان ذلك في مدة من الزمن تجرى لإجراء العملية بهذا المقدار .

(٤) نظامي عروضي : جهاز مقاله ، الترجمة العربية ص ٨٩ — ٩٠ .

ومن أطباء العصر السلجوقي الأول : أبو علي يحيى بن جَزَلَة الطيب ( ت ٤٩٣ هـ ) .  
وكان نصرانياً فأسلم ، وقد صنف كتاب « المنهاج » في الطب<sup>(١)</sup> .

ومن مشهورى الأطباء : أبو الحسن المختار بن بَطْلان ( بضم الباء وسكون الطاء ) .  
ولد ببغداد في القرن الخامس الهجرى ( الحادى عشر الميلادى ) ، وسافر في رحلات علمية  
إلى مصر والقسطنطينية وسورية ، وألف كثيراً من الكتب في الطب ، نخص بالذكر منها  
كتاب « دعوة الأطباء » .

وقد ذكر ابن بطلان في هذا الكتاب أنه دعا طبيباً لتناول الغداء معه وسماع درسه  
عن الطب . وحينما جلسا إلى المائدة أخذ ابن بطلان يشرح خواص ما قدم لضيفه من  
ألوان الطعام . وقد اشتمت هذه الألوان على اللحوم والسمك والشكوريا والأرز  
والقطير والفاكهة . وبعد أن فرغ كل منهما من تناول الحلوى جاء الخادم بطبق مغلى  
يقماش ظن المدعو أنه طبق آخر من الحلوى . وقد تملكه الدهش حين رأى الآلات  
الطبية التى كان يستعملها ابن بطلان ، نذكر منها كليتى الأضراس ، ومكوى الطحال ،  
وزرقان الكولنج<sup>(٢)</sup> ، وقناطير التبول<sup>(٣)</sup> ، وملزم البواسير<sup>(٤)</sup> ، ومجرقة الأذن<sup>(٥)</sup> ،  
ومخرط المناخير ، ومخالب التشمير ، ومحك الجرب ، ومنشار المقطع ، وخشبة الكف ،  
ومفتاح الرحم<sup>(٦)</sup> ، ودرج المسكاتل وموهمدان المرام .

ومن مشهورى الأطباء : محمد بن علي السمرقندى . وقد عاش في القرن السادس الهجرى  
( الثانى عشر الميلادى ) وألف كثيراً من الكتب في الطب ، نذكر منها كتاب  
« أغذية المرضى » . وقد تناول فيه الكلام على الأمراض والأغذية التى توافق كل مرض ،  
وكتاب أبقرات وجالينوس وابن سينا والمجوسى ( ت ٣٨٤ / ٩٩٤ ) . وهذا الكتاب من كتب  
الطب المشهورة .

ومن مشهورى أطباء هذا العصر أيضاً : هبة الله بن أبى الغنائم ( ت ٥٦٠ هـ ) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١١٢ .

(٢) هى آلة من آلات الجراحة التى تستعمل بنوع خاص للقولون ( المصران الغليظ ) .

(٣) هى آلة تستعمل لقياس أمراض المثانة .

(٤) هى آلة أشبه بالمبضع تستعمل للكشف عن البواسير ..

(٥) هى آلة تستعمل لجرب الأوساخ التى تتولد بالأذن .

(٦) هى آلة تستعمل لكشط الزائد بالرحم والتى تمنع الحمل إذا لم تكشط .

روى ابن خلكان<sup>(١)</sup> عن كتاب خريدة القصر وجريدة العصر لعبد الدين الأصفهاني أن هبة الله «سلطان الحكام»، كما قال: «وهو مقصد العالم في علم الطب، بقراط عصره وجالينوس زمانه، ختم به هذا العلم، ولم يكن في الماضيين من بلغ مداه في الطب».

### (ب) الطب في العصر الفاطمي

وكما زخرت بلاد المشرق بطائفة من الأطباء الذين ضربوا بسهم وافر في الطب، كذلك حفل المغرب الإسلامي بطائفة من أشهر الأطباء. وقد اهتم الفاطميون بالطب وأغدقوا على الأطباء الأموال وأجزلوا لهم المنح وقلدوهم المناصب العالية وأصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط. وقد ساعد ذلك على تقدم الطب الذي أصبح يدرس نظرياً وعملياً في الممارسات التي كانت أشبه بكليات للطب تخرج فيها جماعة من أطباء الأمراض الباطنية والجراحين والكحالين.

وكان من مستلزمات الطيب أن يكون ملماً بعلوم الفلسفة واللغات الأجنبية، وخاصة السريانية واليونانية، بجانب إلمامه بالطب. وقد أورد القفطي وابن أبي أصيبعة تراجم كثير من الأطباء الذين نبغوا في العصر الفاطمي، مثل موسى بن العازار الذي نبغ في عهد المعز، وعلى بن رضوان الذي اشتهر في عهد العزيز وخلف كثيراً من الكتب في الطب والفلسفة والمنطق وغيرها.

ومن الأطباء الذين نبغوا في عصر الأيوبيين (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ) ضياء الدين عبد الله ابن أحمد، وقد ولد بمالقة ببلاد الأندلس، ثم انتقل إلى مصر والتحق بخدمة الملك الكامل وابنه الملك الصالح نجم الدين. وكان كما يقول السيوطي<sup>(٢)</sup> «أوحد زمانه... انتهت إليه معرفة تحقيق النبات وصفاته وأما كنهه ومنافعه، ومات بدمشق سنة ٦٤٦ هـ».

ومن أشهر أطباء هذا العصر علاء الدين علي بن النفيس القرشي، وكان يعد إمام الطب في زمانه، واشتهر بتأليفاته الطبية. وهو كما وصفه السيوطي<sup>(٣)</sup> «أحد من انتهت إليه معرفة الطب» فوق إلمامه بالفقه وعلم الأصول والحديث واللغة والمنطق. وقد توفي سنة ٥٨٧ هـ.

(١) وفيات الأعيان ج ٥ ص ١١٩.

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٣.

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٣٣.



## الطب في المغرب والأندلس

وكان أبو القاسم الزهراوى المتوفى بقرطبة سنة ٥٥٠ هـ (١١٠٦ م) أشهر جراحى عصره . وقد ترك كتباً كثيرة فى الطب نذكر منها بحثه الصغير فى الجراحة ، يشرح فيه العمليات الجراحية والآلات الطبية التى تستعمل فى هذه العمليات . وقد وصف عملية شق المثانة وتفتيت الحصاة ، وذكر أنواع الحصى وطريقة تفتيتها وإخراجها والآلات التى تستعمل فى هذه العملية ، كما وصف الأربطة وغيرها من الأشياء التى يستعملها الجراح لتضميد جراح المريض .

ولى ابن زهر (بضم الزاى وسكون الهاء) يرجع الفضل فى اكتشاف علاج للأمراض الجلدية قدمه إلى الخليفة يعقوب المنصور الموحدى .

وقد قصد الأطباء من كافة أرجاء العالم الإسلامى هؤلاء الأطباء المشهورين لتلقى العلم عليهم ، كما قصدهم المرضى لانفاس الشفاء على أيديهم . وكان المسيحيون يقصدون قرطبة كلما دعيتهم الحاجة إلى جراح أو مهندس معمارى أو مطرب كبير . مثال ذلك ما حدث من أن «تونا» ملكة إنافار وندت بولدها سانكو البدين لمعالجته من السمعة فى قرطبة . وكان لنجاح علاجه أثر بعيد فى عقد معاهدة مع المسلمين .

وكما عرف الغرب كثيراً من أطباء الإسلام كمحمد بن زكريا الرازى الذى يعرفه الأوربيون باسم Rhazee الذى أفادوا من مؤلفاته الطبية مثل كتاب «الحاوى<sup>(١)</sup>» . ذاعت شهرة الرئيس ابن سينا الذى يعرفه الأوربيون باسم Avicenna ، كما اشتهر ابن رُشد الذى ولد بقرطبة وأتم دراسته الطبية فيها . ونبع فى علوم الطب النظرية ، وتوفى سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ، وخلف كتابه المشهور المعروف باسم «الكليات» أى كتاب الطب العام ، وشرح كتاب «القانون» لابن سينا .

وقد عرف المسلمون نظام التخصص فى الطب ، وظهر بين أطباء المسلمين وأهل الذمة أطباء تخصصوا فى أعضاء الجسم والجراحة واستعملوا الآلات الطبية فى علاج الأمراض . وقد أطلق على من يشتغل بالطب فى العصور الوسطى لقب «حكيم» . والفلسفة كلمة يونانية معناها الحكمة ، ويطلق على من يزاولها «حكيم» ، لأن الطب كان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة . وكان الأطباء بحسب تخصصهم أنواعاً مختلفة : كالطباعية .

(١) وينقسم إلى عشر قسماً ويقع فى ثلاثين مجلداً .

والكحاليين ، والجراثيمية والمجترين وغيرهم ، وقد ذكر ابن القيم الجوزية<sup>(١)</sup> أنواع الأطباء والآلات الطبية في هذه العبارة حيث قال :

« والطبيب في هذا الحديث يتناول من يطبُّ بوصفه وقوله ، وهو الذى يختص باسم الطبائى ، وبمروده وهو الكحال ، وببعضه ومرامه وهو الجراح ( الجراثيمى فى الأصل ) ، وبموساه وهو الخائن ، وبريشته وهو الفاسد ، وبمجاهه ومشرطه وهو الحجام ، وبخلعه ووصله ورباطه وهو المَجْبَرُ وبمكوانه وهو الكَوَاءُ ، وبقربته وهو الحاقن . وسواء كان طبه لحيوان أو لإنسان فاسم الطبيب يطلق على هؤلاء كلهم . »

وكان لهذه المبادئ الإنسانية السامية التى قررها الإسلام أثر بعيد فى شفاء الأمراض وتخفيف الآلام . وقد خصص بعض خلفاء المسلمين أعطيات ثابتة للجدومين حتى يمتنعوا عن سؤال الناس ويحولوا دون انتشار الأمراض ، وجعل بعضهم فى المساجد خزائن وضعت فيها الأدوية والأشربة وعينوا لها الأطباء لإسعاف المصلين ، وبنوا المارستانات للرضى وأباحوها للناس من غير تمييز فى الأديان والمذاهب وقدموا لهم العلاج والطعام بدون مقابل . بل لقد اشتهر كثير من أطباء المسلمين بالكرم والعطف على الفقراء والمرضى ، حتى كانوا يعالجونهم ويقدمون إليهم الأدوية والعقاقير ويقومون بالإنفاق عليهم حتى يتم شفاؤهم .

### (٥) المراسن الطبية

وقد اهتم العباسيون بنشر الثقافة الطبية وتقديمها بترجمة ما خلفه اليونان ، وتأسيس البيمارستانات أو الكليات والمدارس الطبية والمستشفيات لتخريج الأطباء وعلاج المرضى . ولم تلبث المدارس الطبية أن انتشرت فى جميع أرجاء الدولة الإسلامية . وحذق المسلمون صناعة الطب ومارسوها عليها ، وبرعوا فى تشخيص الأمراض ، ووصفوا الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفته كل منها . واعتمدوا فى علاج المرضى على ما كسبوه من تجارب ، وما يستتبع ذلك من وضع المؤلفات الطبية فى الأدوية والعقاقير وفى أعضاء الجسم ووظائفه .

كما دعا المسلمون إلى عقد المؤتمرات الطبية التى كان يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد الإسلامية فى موسم الحج ، حيث يقدمون نتائج أبحاثهم ويمرضون نباتات بلادهم ويصفون

(١) زاد المعاد ص ١١٠ .

خواصها الطبية ، وأصبحت بغداد في الشرق وقرطبة في الغرب من أهم مراكز الثقافة الطبية الإسلامية .

وقد اعتمدت معاهد الطب العملية أو المارستانات على نظام معاهد الطب الأجنبية ، فقد اقتبس المسلمون فكرة المارستان عن السريان في العصر العباسي الأول لنفوقهم في مهنة الطب . وكان يطلق على مدير المارستان إذا كان سرياني الأصل اسم « الساعور » ومعناها بالسريانية متفقد المرضى . أما إذا كان مسلماً أطلق عليه اسم رئيس الأطباء ، وهو الذي يشرف عليهم ويأمر بممارسة مهنة الطب<sup>(١)</sup> .

وكان أبو منصور عبد الملك بن يوسف من علماء عصره ، وقد تسلم المارستان العسدي الذي بناه عضد الدولة البهوسى بعد أن تطرق إليه الخراب ، فجدد عمارته وعين له ثمانية وعشرين طبيباً ، وثلاثة من الخزان ، واشترى له الأملاك التي يصرف ريعها على إدارة هذا المارستان الذي لم يكن له قبل ذلك طبيب ولا خزانة دواء . وقد اشتهر أبو منصور بأعمال البر وفعل الخير وإغداق الصلوات على الناس . وكان يلقب بالشيخ الأجل ، ذلك اللقب الذي لم يلقب به أحد سواه في زمانه ، ومات سنة ٤٦٠ هـ<sup>(٢)</sup> .

وقد عنى صلاح الدين الأيوبي ببناء المارستانات في مصر . وفي مدينة مراکش بنى الخليفة المنصور الموحدى المارستان الذي وصفه عبد الواحد المراكشي<sup>(٣)</sup> فقال إنه يمتاز بالنقوش البديعة والزخارف المحكمة ، وأقيمت فيه الصيدليات وأجريت المياه المنفجرة وغرست الأشجار المزهرة والأشجار المثمرة ، وزود بقياب للمرضى من الصوف والكتان والحرير . ولم يقصر يعقوب المنصور هذا المارستان على الفقراء دون الأغنياء ، بل كان كل من مرض بمدينة مراکش نقل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت . وكان يعقوب المنصور يركب بعد صلاة الجمعة فيعود المرضى ويسأل عن أهل كل غرفة فيقول : كيف حالكم ؟ وكيف القومة عليكم ؟<sup>(٤)</sup> إلى غير ذلك من الأسئلة ليقف بنفسه على أحوالهم<sup>(٥)</sup> .

(١) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الإسلام من ١٩ ، ٢٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ من ٢١ — ٢٢ .

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب من ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٤) يقصد أطباء المارستان أو المستشفى والمرضى والمخدم .

(٥) المراكشي : المعجب من ٢٨٧ — ٢٨٨ .

## ٢ — الفلك والنجوم

### (١) الفلك والنجوم في العصر العباسي الثاني .

كان لعلم النجوم كما كان لغيره من العلوم العقلية في العصور الوسطى أهمية في المشرق وفي المغرب الإسلامي على السواء ، حتى إن علماء الدين كانوا يولونه اهتماما خاصا ، بل لأنهم كانوا ينصرفون إلى دراسته والتبحر فيه ، لأن الخلفاء والأمراء والسلاطين كانوا لا يرمون أمورهم ولا يقدمون على خوض غمار الحروب دون الرجوع إلى آراء المنجمين وكانت الجيوش لا تسير إلى ميادين القتال إلا في الوقت الذي يقع عليه اختيار المنجمين .

وقد ذكر أبو الريحان البيروني ( ت ٤٤٠ / ١٠٤٨ ) في كتاب « التفهيم في صناعة التنجيم »<sup>(١)</sup> أن المنجم يجب أن يلم بأربعة علوم هي الهندسة والحساب والهيئة والاحكام . ففي الهندسة يجب على المنجم أن يدرس كتاب أوقليدس الذي نفعه ثابت بن قرة ، وفي الحساب يدرس كتاب « أرثمطيقى » ليلم بأصول الحساب ، وأن يدرس فروع هذا العلم في « نسكلمة أبي منصور البغدادي » المتوفى سنة ٤٢٩ / ١٠٣٧ . أو « صد باب » ( مائة باب ) للجزى<sup>(٢)</sup> . والهيئة علم يعرف به أحوال العالمين العلوى والسفلى ، وأحوال حركات الكواكب والأفلاك ويجب على المنجم أن يدرس كتاب « المحسطنى » وأحسن تفاسيره وشروحه . مثل « تفسير النيريزى »<sup>(٣)</sup> « ومحسطنى الشفا » . وفروع هذا العلم هي علم الزيجات وعلم التقاويم . ويقصد بالاحكام الاستدلال على أشكال الكواكب بقياس بعضها إلى بعض وأحوال أدوار العالم والممالك والبلدان والمواليد والتحويل وغيرها . ويجب على المنجم أن يدرس تصانيف أبى معشر البلخى<sup>(٤)</sup> ، وأحمد بن عبد الجليل السجزي ، وأبى الريحان البيروني وكوشيار الجبلى<sup>(٥)</sup> .

(١) هو كتاب في مقدمات علوم الهيئة والهندسة والعلوم ألّفه البيروني سنة ٤٢٠ / ١٠٢٩ ( وقيل سنة ٤٢٥ / ١٠٣٣ ) بالعربية والفارسية .

(٢) من مشاهير الرياضيين والمنجمين في القرن الرابع الهجرى . وقد عاش معظم حياته تحت رعاية عضد الدولة البرهسى في شيراز ( ٣٣٨ — ٣٧٢ هـ ) . ومن مؤلفاته كتاب « الجامع الشاهى » في النجوم والطالع وغيرها .

(٣) كان إمام عصره في العلوم الرياضية ، وكان معاصراً للمعتضد العباسى ( ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ ) . ومن كتبه تفسير محسطنى بطليموس . ويتنسب إلى نيريز وهى بلد بفارس .

(٤) من مشاهير منجمى القرن الثالث الهجرى ، وكان معاصراً ليعقوب بن إسحاق السكندى . وقد توفى أبو معشر في شهر رمضان سنة ٢٧٢ / ٨٨٦ وقد جاوز المائة .

(٥) ينسب إلى بلاد جيلان وهو من مشاهير المنجمين والفلكيين في عصره . وقد عاش في =

« وينبغي أن يكون المنجم طيب النفس زكى الخلق رضى الخلق . . . وينبغي أن يكون طالع النجم الذى يريد أن ينبيء بالاحكام فى سهم الغيب أو فى مكان ملائم منه<sup>(١)</sup> . ومن توفر له برج سهم الغيب كان مسعوداً ، وكان مكانه محموداً ووقع ما يقول قريباً من الصواب . ويجب على المنجم أن يعلم « مجمل أصول كوشيار »<sup>(٢)</sup> وأن يداوم قراءة « كار مهتر »<sup>(٣)</sup> ، وأن ينظر فى « قانون المسعودى »<sup>(٤)</sup> و « جامع شامى » . وقد ذكر ابن الاثير<sup>(٥)</sup> أن قتلش جد أمراء السلاجقة أصحاب قونية وقيصرية وملطية فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ثار على السلطان ألب أرسلان وهدد الرى لجمع السلطان جيشاً عظيماً أحل به الهزيمة فى سنة ٤٦٥ هـ . وكان قتلش يتقن علم النجوم ، فنظر أن طالعه فى ذلك اليوم قد قارنه النحس ، فحملت به الهزيمة ومات من يومه . وقد أضاف ابن الاثير إلى ما تقدم أن أولاد قتلش قد حذوا حذو أبيهم فى دراسة علم النجوم .

وقد روى نظامى عروضى السمرقندى<sup>(٦)</sup> قصة الحكيم الموصلى المنجم . وكان الوزير نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقى يرجع إلى رأيه . ولما تقدمت به السن طلب من الوزير أن يعفيه من عمله ليذهب إلى نيسابور فيقيم بها على أن يبعث إليه تقويماً وتحويلاً فى كل عام . وقد طلب منه الوزير أن ينظر فى تقويمه فيبثه بالوقت الذى يموت فيه . فقال الحكيم الموصلى : « بعد وفاتى بستة أشهر » .

وكان نظام الملك يسأل كل من يأتى من نيسابور عن حال الموصلى المنجم ، فإذا علم أنه سليم أعان « اعتدل طبعه وطاب قلبه إلى أن كانت سنة خمس وثمانين وأربعمائة

== النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . ومن مؤلفاته كتاب « مجمل الأصول » ( مكتبة المتحف البريطانى Add ٤٩٠ ورقة ٢٢ ب .

(١) يعنى بذلك أن يكون المنجم قد ولد فى أحد الأبراج التى تشير إلى السعادة أو ترمز إلى الغيب .  
(٢) هو مجمل الأصول لكوشيار . وتوجد منه نسخة ممتازة فى المتحف البريطانى Add. ٧٤٩٠  
(٣) كارمهتر اسم كتاب فى النجوم ألفه حسن بن الحبيب من حذاق المنجمين وكان معاصراً ليعبى بن خالد البرمكى .

(٤) هو من أنفس كتب البيرونى فى علم الهيئة والنجوم ، وقد ألفه بين سنتى ٤٢٢ و ٤٢٧ هـ (١٠٣٠ - ١٠٣٦ م) باسم السلطان مسعود الغزنوى . ويشتمل هذا الكتاب على إحدى عشرة مقالة ، كل مقالة مقسمة إلى أبواب . وفى المتحف البريطانى نسخة ممتازة تشتمل على ٢٦٢ ورقة .

انظر تعليقات الأستاذ ميرزا محمد على كتاب جهاز مقاله ، الترجمة العربية ص ١٤٦ - ١٥٢ .

(٥) الكامل ج ١٠ ص ١٣ - ١٤ .

(٦) جهاز مقاله ص ٦٨ - ٦٩ .

(١٠٩٢ — ١٠٩٣ م) ، فقدم قادم من نيسابور فسأله الوزير عن الموصلی ، فتقدم الرجل بالتحية ثم قال : لبيق صدر الإسلام وارثاً للأعمار ، لقد مات الموصلی . فقال الوزير : متى ؟ قال الرجل : ذهب فداء لصدر الإسلام في نصف ربيع الأول . فتفطر قلب الوزير الكبير ، وأفاق فأعاد النظر في أعماله وفي سجل الأوقاف ، ووقع الأمر بصرف الخيرات ، وكتب الوصية وحرر من رضى عنه من عبيدة وفي دَيْفِه ، وأسعد كل من استظل بسلطانه ، وطلب العفو من خصومه ، وبقي ينتظر الموت حتى كان رمضان ، فاستشهد على يد تلك الجماعة<sup>(١)</sup> في بغداد<sup>(٢)</sup> أبار الله برهانه وأسبغ عليه رضوانه .

وكان الوزير نظام الملك مولماً بعلم النجوم مشجعاً للنجمين . فقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٤٦٧ هـ أن نظام الملك والسلطان ملكشاه السلجوقي جمعاً جماعة من أعيان المنجمين لجعلوا النوروز أول نقطة من « الحمل » وكان قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت ، وأصبح هذا العمل مبدأ التقويم .

وفي هذه السنة عهد السلطان ملكشاه إلى مظفر الاسفزارى بعمل الرصد ، فقام جماعة من عظام المنجمين ومن بينهم عمر الحيام وميمون بن النجيب الواسطى وغيرهم بعمل التقويم الجلالى المعروف بالرصد الملكشاهى<sup>(٣)</sup> . وقد بقي هذا الرصد حتى مات السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ .

ويعتبر عمر الحيام بالإضافة إلى شهرته من مشاهير الفلاسفة والرياضيين في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس . وكان متبحراً في الفقه عالماً باللغة والتاريخ . وكان أحد واضعى الزيج الملكشاهى . وقد ذاع صيته في الشرق والغرب بفضل ربايعاته . وكان ملكشاه السلجوقي ينزله منزلة الندماء ، ويعظمه الخاقان شمس الملوك في بخارى غاية التعظيم ويجلسه على سريره . وكان صديقاً لنظام الملك وحسن الصباح<sup>(٤)</sup> .

ويروى نظامى عروضى<sup>(٥)</sup> أن عمر الحيام ومظفر الاسفزارى نزلا دار الأمير أبى سعيد في مدينة بلخ سنة ٥٠٦ هـ . وكان نظامى عروضى متصلاً بهذا الأمير ، فسمع عمر الحيام

(١) يعنى الباطنية أو التزارية أتباع الحسن بن الصباح .

(٢) اتفق المؤرخون على أن نظام الملك قتل في نهاوند .

(٣) انظر نظامى عروضى : جهار مقاله تطليقات ميرزا محمد - الترجمة العربية من ١٦٠ هامش رقم ١٨ .

(٤) المصدر نفسه من ١٥٦ — ١٥٧ .

(٥) المصدر نفسه من ٦٩ — ٧٠ .

يقول أثناء مجلس السمر : « سيكون قبرى في موضع تؤرّجه ريح الشمال بشذى الورد كل ربيع » . وقد أضاف نظامى عروضى أنه لما زار نيسابور سنة ٥٣٠هـ (١١٣٥ - ١١٣٦ م) وقد مرت أربع سنين على وفاة الخيام ، ذهب لزيارة قبر أستاذه يوم الجمعة ، فرأى قبره أسفل جدار بستان قد أطلت منه أشجار الكثرى والشمش ، وقد تآثر على القبر كثير من الزهر حتى غطاه <sup>(١)</sup> .

وفي شتاء سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ - ١١١٥ م) أرسل سنجر وهو يبرو رسولا إلى وزيره صدر الدين محمد <sup>(٢)</sup> يقول له : « قل للإمام عمر ( الخيام ) يختار بضعة أيام لا يكون فيها تلج ولا مطر حتى نخرج للصيد . . . فذهب الخيام وأعمل جهده يومين واختار وقتاً حسناً ، ثم ذهب بنفسه وسار بصحبة السلطان . فلما ركب السلطان وسار في طريقه قليلاً تجمعت السحب وهبت الريح وهطل الثلج وانتشر الصباب ، وحسك الركب وهم السلطان بأن يعود . فقال عمر الخيام : « ليظمن قلب السلطان فإن المطر سينقطع لساعته ولن تنزل هذه الأيام الخمسة قطرة منه . فسار السلطان واتقشعت السحب . ولم ينزل طلّ في هذه الأيام الخمسة ، ولا رأى أحد سحاباً » .

وعلى الرغم مما بلغه عمر الخيام من شأن في علم النجوم لم يعتقد في أحكامها قط ، وربما كان ذلك لسيطرة العقيدة الدينية عليه ، إذ ورد في الأثر الشريف « كذب المجنون ولو صدقوا » . وقد علق نظامى عروضى على أحكام النجوم بقوله : إنه رغم انتشارها لا يجوز الاعتقاد عليها ولا يبغي للنجم أن يعن فيها ، بل عليه أن يحيل كل حكم يراه على القضاء <sup>(٣)</sup> . وقد دلل نظامى عروضى على رأيه الذى يتفق مع رأى أستاذه الخيام بقصة تتعلق بغزنوى كان قليل المعرفة بعلم النجوم ، وكانت النساء يجتمعن حوله ليكتب لهن تعاويذ في الحب . وقد طلب السلطان من المجننين أن يخاروا له طاماً إذ عزم على

(١) اختلف المؤرخون في سنة وفاة عمر الخيام ، فقبل سنة ٥١٧ هـ وقبل سنة ٥٢١ هـ . ويظهر أن التاريخ الثانى أقرب إلى الصواب لأنه يتفق مع ما ذكره نظامى عروضى عن أستاذه الخيام حيث يقول : (س ٦٩ - ٧٠) « فلما بلغت نيسابور سنة ثلاثين وخمسة و قد خلت أربع سوات على لإبداع هذا الرجل العظيم الثرى » .

(٢) ابن فخر الملك أبى الفتح المظفر بن نظام الملك ، وقد قتل سنجر أباه فخر الملك ، وكان وزيره سنة ٥٠٠ / ١١٠٦ ، ثم أسند الوزارة إلى صدر الدين وقتله سنة ٥١١ / ١١١٧ بيد أحد المماليك . راجع ابن الأثير : الكامل في حوادث سنة ٥١٣ هـ

(٣) نظامى عروضى س ٧٠ .

حرب صدقة بن مزيد أمير الحلة حين ثار الخلاف بينهما . ولما يئس السلطان من عجز المنجمين على اختيار الطالع ، تقدم هذا الغزنوي عن طريق أحد خدم السلطان ومثل بين يديه وأعد له الاختيار وشجعه على المسير على حرب صدقة .

ولما انتصر السلطان على صدقة عاب على عظماء المنجمين إخفاقهم في إعداد الاختيار ، ولكنهم عابوا اختيار هذا المنجم الغزنوي ودبروا طريقة لكشف أمره . فأمر السلطان أحد ندمائه بأن يدعو المنجم الغزنوي ويشرب معه الخمر حتى تلعب بلبه ثم يسأله . فقام النديم بتنفيذ الأمر وسأل هذا المنجم فأجاب : « إني علمت أن هذا الأمر لا يعدو واحداً من اثنين : إما أن يهزم هذا الجيش أو ذلك ، فإن هزم ذلك الجيش لقيت التشريف ، وإن حلت بهذا الهزيمة فن ذا يبالي بي ؟ »<sup>(١)</sup> . وهذا يدل على أن البعض يحترف التنجيم وهو غير عالم بأصوله ، كما يدل كذلك على أن أخبار المنجمين غير صادفاني ببعض الأحيان . ومن أشهر علماء النجوم في العصر السلجوقي أبو القاسم هبة الله المشهور بالبديع الأسطرلابي<sup>(٢)</sup> . وكان كما يقول ابن خلسكان<sup>(٣)</sup> « وحيد زمانه في علم الآلات الفلكية متقناً لهذه الصناعة » . وقد اشتهر في عهد الخليفة المسترشد العباسي ، ومات في سنة ٥٣٤ هـ .

### ( ب ) الفلك والنجوم في مصر والمغرب .

كان لعلم النجوم أثر كبير في توجيه سياسة بعض الخلفاء والأمراء الذين كانوا يعتمدون على التنجيم في تنفيذ سياستهم . فقد رأينا كيف اعتمد أبو جعفر المنصور على النجوم في تأسيس مدينة بغداد ، حتى إنه لم يبدأ بوضع الحجر الأساس للبناء إلا بعد أن أشار عليه أبو سهل بن نوبخت المنجم الذي أخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة عمارتها .

وقد اختار الإسماعيلية ابن حوشب لرياسة دعوتهم في بلاد اليمن ، لأنهم عرفوا عن طريق النجوم أنه سيكون له شأن في نشر هذه الدعوة في هذه البلاد<sup>(٤)</sup> ، كما استعان جوهر

(١) نظامي عروضي : جواهر مقاله ص ٧١ — ٧٢ .

(٢) نسبة إلى الأسطرلاب ( يضم الهمزة وسكون السين وضم الطاء ) . وهي كلمة يونانية معناها ميزان الشمس ، إذ كان الأسطرلاب آلة توزن بها أشعة الشمس في مواجيت مختلفة ويستعان بها في معرفة كثير من نتائج علم التنجيم القائم على أبراج الشمس وهي الحمل ( بفتح الحاء والميم ) . والمريخ والسرطان وغيرها . وقيل إن أول من وضع الأسطرلاب هو بطليموس المصطفي .

(٣) وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٤) عمارة اليمن : تاريخ اليمن ( طبعة هنري كاسيل ، لندن ١٨٩٢ ) ص ١٤٠ .



الصقلي بالمنجمين ليختاروا له طالعا سعيدا لوضع أساس مدينة القاهرة (١) ، واهتم الحاكم بعلم النجوم حتى إنه أنشأ بسفح المقطم في القاهرة رصداً أطلق عليه « الرصد الحاكمي » . وكان حكام المغرب يهتمون بعلم النجوم في عهد المرابطين السنيين . وفي عهد الموحديين الذين كان مذهبهم يميل نحو الاعتزال والتشيع . ففي عهد المرابطين نرى مالك بن وهيب ( بضم الواو وفتح الهاء وسكون الياء ) رئيس العلماء قد أخذ بحظ وافر من علم النجوم : إذ كان حزام (٢) ينظر في النجوم . وكان السكهان (٣) يتحدثون بأن ملكا من الملوك كائن بالمغرب لامة من البربر . فقال مالك بن وهيب للسلطان علي بن يوسف بن تاشفين المرابطين ( ٥٠٠ — ٥٣٧ هـ ) عذراً إياه من ابن تومرت بأنه الرجل الذي يقصده السكهان : « احتفظ بالدولة من الرجل » (٤) .

على أن مذهب الموحديين يرتكز على القرآن والسنة كما يقول الخليفة يعقوب المنصور ( ٥٨٠ — ٥٩٥ هـ ) في إحدى جلساته : « وليس لنا إلا هذا » ، مشيراً إلى المصحف الشريف « أو هذا » ، مشيراً إلى كتاب آخر من أمهات كتب الحديث .

ومع هذا فقد كان لعلم النجوم أهمية خاصة في نظر الموحديين ، إذ كانوا يعتمدون في أعمالهم على الجفر (٥) ( بفتح الجيم وسكون الفاء ) ، وفي طليعتهم المهدي محمد بن تومرت

(١) ابن الجيعان : الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٦ ص ٣٥ . رموز وطلاسم مقلنة لا يدركها إلا للعالمون بطرائقها . وظاهر القرآن الكريم يبطل زعم المؤمنين بهذه الجفور وما جاء بها من القبيات . إذ يقرر القرآن الكريم أن علم الغيب يختص بالله سبحانه وتعالى ، كما ذكر ذلك في آيات كثيرة . من ذلك قوله تعالى في سورة النمل ( ٢٧ : ٦٥ ) : ( قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيا ن يعنون ) ، وقوله تعالى في سورة هود ( ١١ : ١٢٣ ) . ( والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ) .

انظر عند الله علام : الدعوة الموحدية بالمغرب ص ٨٩ — ٩١ .

(٢) أي متطلعا ومتابعا لرصد النجوم .

(٣) جمع كاهن وهو عالم من علماء الدين عند غير المسلمين ، والمقصود به هنا علماء النجوم .

(٤) ابن خلدون : العبر ( طبعة بيروت ) ج ٦ قسم ٢ ص ٤٦٩ .

(٥) الجفور جمع جفر . والجفر من أولاد الماعز ما بلغ أربعة أشهر . وكان القدماء يكتبون على جلود أولاد الماعز ويسمون هذه الجلود جفور على سبيل التجوز . وقد زعمت الخطابية ( وتنسب إلى أبي الخطاب محمد بن زينب الأسدي ) أن جعفر الصادق الإمام السادس عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية أودعهم جفراً فيه علم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، كما زعموا أنه لا يقرأ فيه إلا من كان منهم . ولما أعان أبو الخطاب أن الأئمة أنبياء ثم آله ( الشهرستاني : الملل والنحل ج ٢ ص ١١ ، ١٥ ) ، وقال أتباعه بألوهيته ( البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٣٨ ) تبرأ منه الإمام جعفر الصادق ( الشهر =

(٦) ص ٢٤ — تاريخ الإسلام — ج ٤ )

صاحب الدعوة الموحدية ، حتى لقد قيل إنه أقر عبد المؤمن على الجيش بعد أن رأى ذلك في الجفر . ويظهر هذا الاعتقاد واضحاً في المذهب الموحدى ، لأن صاحب الدعوة الموحدية ادعى المهدوية التي تعد أصلاً وهدفاً عند الشيعة الذين اعتمدوا في أخبارهم الغيبية على الجفور كما يتضح ذلك من خطبة المأمون الموحدى . وإن كان قد أنكر المبادئ الموحدية لم ينكر الأخذ بالتدريج القائم على الجفور في أغلب الأحيان . لذلك نراه يقول في إحدى خطبه : « لانظنوا أنى أنا لإدريس الذى تدرس دولتكم على يده . كلا إنه سيأتى بعدى إن شاء الله » ، مشيراً بذلك إلى الإخبار بالغيب .

### ٣ — الرياضيات

ومن العناصر الأساسية في قيام الثقافة الكتابة والعدد لتيسير طرق التفاهم ووسائل التعاون بين الناس . وهما يعتبران عنصرين هامين كان لهما أثر كبير في الثقافة الأوربية . وكان العرب وسطاء في تيسير الكتابة ونشرها في الغرب . فالحروف الأبجدية الحالية مأخوذة رسماً واسماً عن السامية ، إما مباشرة أو عن طريق الفينيقيين . وقد عجز الخط اليونانى عن مجازاة الخط السامى وما طرأ عليه من تطور فى عظيم .

والغرب مدين للشرق بنظام العدد العربى . ونحن ندرك قيمة الأعداد العربية إذا ذكرنا العلوم الرياضية والميكانيكية والفلكية الحديثة فى عمليات جمع أو طرح أو ضرب أو قسمة بحروف رومانية مثل CLXXXVII . ولأننا ندرك صعوبة وضع هذا العدد على غلاف كتاب ، كما كانت الحال قبل سنة ١٨٨٨ . كما نرى أن استخدام الأعداد الرومانية مصدر أخطاء مطبعية جسيمة . والأعداد العربية المستعملة فى الشرق العربى الآن هندية الأصل . أما الأعداد العربية الأصل فهى المستعملة بالمغرب العربى الآن . وقد اقتبسها الأوربيون عن طريق الأندلس والمغرب . وكان العرب وسطاء فى نقل هذه الأعداد إلى الأوربيين بدليل كتابتها من اليسار إلى اليمين ، بخلاف ما نراه فى كتابة الحروف الأبجدية فى معظم اللغات السامية ، أى من اليمين إلى اليسار .

---

= ستانى : الملل والنحل ج ٢ ص ١٦ ) وانتهى الأمر بقتل أبى الخطاب على يد عيسى بن موسى فى عهد أبى جعفر المنصور .

انظر عبد الله علام : الدعوة الموحدية ص ٨٩ ، ٩٠ — ٩١ .

أما ترتيب كتابة الأعداد والصفر فهو من اختراع الهنود الذين أخذ الناس عنهم علم النجوم . ولم يعرف الأوروبيون الصفر الذي هو من اختراع الهنود أيضاً . فإن أوروبا لم تعرف شيئاً عنه قبل منتصف القرن الثاني عشر الميلادي ، على حين تحدثنا المصادر العربية أن المسلمين كانوا يعرفونه منذ زمن طويل . وكانوا يسمونه حلقة ومعناها لا شيء . أو عدم وجود القيمة التي يعبر عنها المسلمون بالصفر الذي يضعه المشتغلون بعلم الحساب على العدد المعدوم . وأما لفظ Zero فهو العربي صفر بمعنى « خلا » . وقد استخدم مارتين لوتر مؤسس المذهب البروتستانتي المعروف « صفر » للتعبير عن ضعف الأساقفة أمام البابا ، فقال ما معناه إنهم يجلسون أمامه كالأصفار . واستخدام لفظ Zero للدلالة على لا شيء . ويعبر عن الصفر أحياناً بواسطة دائرة صغيرة ، وأحياناً بواسطة نقطة . وقد استخدم الصفر للمرة الأولى كوحدة حسابية ، واستخدم لفظ صفر في الشعر الجاهلي للتعبير عن معنى « خلا » كما يتضح ذلك من هذا البيت :

ترى أن ما أهلكتُ لم يكِ ضرتني وأنّ يدي مما بخلت به صفره  
( أي خالية )

#### ٤ - الفلسفة

##### (١) أبو حامد الغزالي (ت ١١١١/٥٠٥)

تأثر مسيحيو الأندلس بدراسة القرآن والحديث ، وكانوا يكتبون العربية ويتكلمون بها ، كما أعجبوا بالدراسات الإسلامية وتأثروا بأراء الفلاسفة الإسلاميين . وقد أخذ الأوروبيون عن المسلمين حكم الفلاسفة بعد أن درسوا مؤلفات السكندري المنوفى سنة ١٢٣٩ م (٨٥٠ م) فيلسوف العرب ، وأبي نصر الفارابي (ت ٣٢٩/٩٥٠) الذي لقب المعلم الثاني تمييزاً له عن أرسطو الذي لقب المعلم الأول . وكذلك أدخل مسيحيو الأندلس مؤلفات الرئيس أبي علي بن سينا (ت ٤٢٩/١٠٣٧) الذي نبغ في الفلسفة والطب وأحياناً آثار أرسطو وأفلاطون في الفلسفة وأبقراط وجالينوس في الطب ، وقصده المرضى من كل فج كجذبه الأبرار إليهم .

كما درس الأوروبيون مؤلفات أبي بكر الرازي الذي يعرفونه باسم Phrazes ، ومؤلفات حجة الإسلام الغزالي (ت ١١١١/٥٠٥) في المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة . وعن التصوف الإسلامي أخذ الأوروبيون نظام التصوف ونظام الدراويش . وتتفق الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى مع الفلسفة الإسلامية تماماً . والتصوف الأوربي ،

والألماني بوجه خاص ، أقرب إلى التصوف الإسلامي والفارسي بصفة عامة ، منه إلى تصوف العالم القديم . والراهب الغربي والدرويش في الشرق يتبعان في حياتهما نظاماً خاصاً وضعه مؤسس الطريقة التي يتبعها الراهب أو الدرويش ، ولو أن هناك بعض التباين بين الخلوة والدير . وتعتبر مقدمة ابن خلدون (ت ١٤٠٥/٨٠٨ - ١٤٠٦) أساس علم الاجتماع الذي أخذه الأوربيون عن المسلمين في عصر النهضة الحديثة . وقد طالع في هذه المقدمة نواحي الاجتماع وال عمران ونظم الحكم والمذاهب الدينية وغيرها . وابن خلدون أول من كتب في فلسفة التاريخ .

ويعد أبو حامد محمد الغزالي إمام عصره ووحيد زمانه في علوم الدين الإسلامي الحنيف ولا سيما في علم أصول الفقه وعلم الكلام ، كما عرف بحجة الإسلام . وكان الغزالي مصلحاً دينياً واجتماعياً ، فقد ناز على المجتمع وندد بما وصل إليه حال المسلمين في عصره من الانحراف عن أصول الدين القويم المستمد من كتاب الله وسنة رسوله . فعمل على إيقاف الفضيحة بين المسلمين ودعا إلى إصلاح المجتمع الإسلامي إصلاحاً شاملاً لأنه لم يطمئن إلى ما وصل إليه العالم الإسلامي حينئذ من تفكك وانحلال ، في الوقت الذي كان الصليبيون في أوروبا يتأهبون لاكتساح العالم الإسلامي .

ولد أبو حامد بطوس من أعمال فارس سنة ٤٥٠ هـ ، ثم قدم نيسابور ، واختلف إلى دروس إمام الحرمين الجويني ( بضم الجيم وفتح الواو وسكون الياء ) ، وظهرت موهبته العلمية أثناء طلب العلم حتى نال إعجاب أستاذه الذي كان يفخر به ويتى عليه في مجالسه العلمية . وكان أبو حامد مقرباً إلى أستاذه حتى توفي ، فخرج من نيسابور والتقى بنظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي الذي أعجب بمواهبه وأكرمه وقربه إليه . وقد لمع اسم الغزالي فعهد إليه الوزير بالتدريس بالمدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٨٤ هـ . وكانت هذه المدرسة تعد أعظم المعاهد العلمية العالية . وقد ظهر نبوغ الغزالي وعم به النفع عند تلاميذه وعلماء عصره .

ويبدو أن سعة اطلاع أبي حامد الغزالي وتبحره في العلم قد سما به نحو عالم الروح ، حيث مال إلى حياة الزهد والتشف وال عزل ، فترك التدريس بالمدرسة النظامية ورجع بيت الله . ولما أدى مناسك الحج قصد دمشق حيث أخذ يدرس علوم الدين في زاوية المسجد . ثم انتقل إلى بيت المقدس وانصرف إلى العبادة وعاش عيشة المتصوفة ، وأخذ يتردد على المشاهد والأماكن المقدسة . ثم قصد الغزالي مصر وأقام بالإسكندرية حيث التقى بالفقيه

المشهور أبي بكر الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك . وكان الطرطوشي يقوم بالتدريس في هذه المدينة التي أقام بها حتى وفاته .

وقد ذكر ابن خلكان<sup>(١)</sup> أن أبا حامد الغزالي عزم على الرحيل إلى المغرب الأقصى لزيارة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المرابطي بعد انتصاره في موقعة الزلاقة المشهورة على نصارى الأندلس ، وكسب بهذا الانتصار مكة أديبة في العالم الإسلامي ، حتى إنه لما طلب إلى الخليفة العباسي إقراره على ملك المغرب والاعتراف له بلقب أمير المسلمين ، جمع الخليفة مجلساً ضم العلماء برياسة حجة الإسلام أبي حامد الغزالي الذي أفتى باستحقاق يوسف بن تاشفين لهذا اللقب لما أحرزه من نصر مؤزر على مسيحي الأندلس .

وقد عزم أبو حامد الغزالي على ركوب البحر إلى المغرب ، ولكنه عدل عن ذلك بعد أن بلغه نبأ وفاة يوسف بن تاشفين ( ٥٠٠ هـ ) ، فعاد إلى طوس وانصرف إلى الاشتغال بالعلم ، ثم طلب إليه الوزير نجر الملك بن نظام الملك بمهمة التدريس بالمدرسة النظامية بنيسابور ، فلبى الإمام الغزالي طلب الوزير بعد تردد ، وظل يعمل بهذه المدرسة حتى عاد إلى مسقط رأسه طوس حيث وافته منيته ( ٥٠٥ هـ )<sup>(٢)</sup> .

وقد خلف لنا الغزالي آثاراً علمية خالدة . وقد قيل إنه وضع نحواً من مائتين وثمان وعشرين مؤلفاً أكثرها في الدين والفلسفة والتصوف والتاريخ . ومن أهم آثار الغزالي العلمية :

(١) إحياء علوم الدين وبعد من أهم كتب الغزالي . وقد عم به النفع في البلاد الإسلامية وغيرها . وقد نعى الغزالي في مقدمته ما صار إليه الإسلام من افتقار علمائه الذين وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « العلماء ورثة الأنبياء » ، وهم الذين يقول فيهم الغزالي : « قد شفر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون ( المقلدون ) . وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد بماجل حظه مشغوفاً به ؛ فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، حتى ظل علم الدين مندرساً ومنازل الهدى في أقطار الأرض منطمساً . . . فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح بما سماه الله

(١) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٣٥٤ — ٣٥٥ .

(٣) أودعت من هذا الكتاب نسخ خطية بمكتبات فينا وبرلين وليدن وباريس ولندن وأكسفورد ، وهناك نسخة خطية بدار الكتب المصرية في القاهرة .

سبحانه في كتابه فقهاً وحكمةً وعلماً وضياءاً ونوراً وهدايةً ورشدًا ، فقد أصبح من بين الخلق مطويًا وصار نسيًا مذسياً . ولما كان هذا تلمذًا في الدين ملتًا ، وقد رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما ، لإحياء لعلوم الدين وكشفًا عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاحًا لمناهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين»<sup>(١)</sup> .

من هذا نرى أن الغزالي وضع كتابه ليلفت أنظار المسلمين إلى أصول دينهم القويم ، ومشيرًا إلى ما حل بالإسلام من انصراف أهله إلى شئون الدنيا وإهمالهم شئناهم الدينية ، وما نص عليه القرآن الكريم من مثل عليا وآداب اجتماعية عالية ، وما انطوى عليه الحديث الشريف من قواعد دينية قويمة وحكم عالية رفيعة .

وقد نهج الغزالي في تقسيم كتابه نهجاً واضحاً ، إذ قسمه إلى أربعة أرباع سماها ربيع العبادات ، وربيع الماديات ، وربيع المهلكات ، وربيع المنجيات . وقد صُدِّرت جميع هذه الأرباع بكتاب العلم الذي يقول فيه الغزالي إنه غاية المهم . لا كشف أولاً عن العلم الذي تعبد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الأعيان إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضةٌ على كل مسلم »<sup>(٢)</sup> وأميز في العلم النافع من الضار . إذ قال صلى الله عليه وسلم : « تعوذ بالله من علم لا ينفع وأحقق ميل أهل العصر عن مشاكلة الصواب واتخاذهم بلامع السراب واقتناعهم من العلم بالفشر عن اللباب » .

ويشتمل ربيع العبادات على عشرة أبواب هي :

(١) كتاب العلم (٢) كتاب قواعد العقائد (٣) كتاب أسرار الطهارة (٤) كتاب أسرار الصلاة (٥) كتاب أسرار الزكاة (٦) كتاب أسرار الصيام (٧) كتاب أسرار الحج (٨) كتاب آداب تلاوة القرآن (٩) كتاب الأذكار والدعوات (١٠) كتاب ترتيب الأوقات .

وكذلك يشتمل ربيع العبادات على عشرة أبواب هي :

(١) كتاب آداب الأكل (٢) كتاب آداب النكاح (٣) كتاب أحكام الكسب<sup>(٣)</sup> (٤) كتاب الحلال والحرام<sup>(٤)</sup> (٥) كتاب أدب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

(١) الغزالي : إحياء علوم الدين ( طبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٤٨ هـ ) ج ١ ص ٣ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٣ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٥ — ٦٥ .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٩ — ٨٤ .

(٦) كتاب العزلة (٧) كتاب آداب السفر (٨) كتاب السماع والوجد (٩) كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٠) كتاب المعيشة وأخلاق النبوة .

كما يشتمل ربع المهلكات على عشرة أبواب هي :

(١) كتاب شرح عجائب الخلق (٢) كتاب رياضة النفس (٣) كتاب آفات الشهوتين (شهوة البطن وشهوة الفرج) (٤) كتاب آفات اللسان (٥) كتاب آفات الغضب والحقده والحسد (٦) كتاب ذم الدنيا (٧) كتاب ذم المال والبخل (٨) كتاب ذم الجاه والرياء (٩) كتاب ذم الكبر والمُجَب (١٠) كتاب ذم الغرور .  
وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب كذلك وهي :

(١) كتاب التوبة (٢) كتاب الصبر والشكر (٣) كتاب الخوف والرجاء (٤) كتاب الفقر والزهد (٥) كتاب التوحيد والتوكل (٦) كتاب المحبة والشوق والانس والرضا (٧) كتاب النية والصدق والإخلاص (٨) كتاب المراقبة والمحاسبة (٩) كتاب التفكر (١٠) كتاب ذكر الموت (١).

### (٢) كتاب المنقذ من الضمور

ويعد هذا الكتاب من أهم آثار الغزالي العلمية ، ويعرض لمسائل علمية هي في مجملها عن المسائل المتعلقة بالفلسفة ، إذ يتناول موضوعات : الشك — انتقاد الفرق — النبوة والإصلاح الديني — مداخل السفسطة وجُحد العلوم — علم الكلام ومقصوده وحاصله — الفلسفة وأصناف الفلاسفة ووصمة الكفر — الدهريون ، الطبيعيون — الإلهيون — أقسام علوم الفلسفة ( الرياضيات — المنطقيات — الطبيعيات ) — الإلهيات — السياسيات — أخلاقيات — آفتا الفلسفة ( آفة الرد — آفة القبول ) — مذهب التعليم وغائلته — طريق الصوفية — حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها — سبب نشر العلم بعد الإعراض عنه (٢) .

ويطول الكلام إذا حاولنا التعليق على جميع مؤلفات الغزالي ، ونكتفي بطائفة من أسمائها مثل :

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٣ — ٤ .

(٢) الغزالي : كتاب المنقذ من الضلال ( مطبعة ابن زيدون بدمشق سنة ١٩٣٤ )

- (١) آداب الصوفية<sup>(١)</sup> ، وقد طبع بمصر .
  - (٢) أيها الولد ، وقد كتبه لبعض تلاميذه ويتضمن نصائح ووصايا في الزهد والترغيب والترهيب .
  - (٣) بداية الهداية<sup>(٢)</sup> .
  - (٤) تهذيب النفوس بالآداب الشرعية .
  - (٥) جواهر القرآن ودرره<sup>(٣)</sup> .
  - (٦) خلاصة التصانيف . وقد ألفه الغزالي بالفارسية ، وترجمه إلى العربية محمد أمين الكردي ( ت ١٣٣٢ هـ ) .
  - (٧) الرسائل القدسية في قواعد العقائد ( الإسكندرية دون تاريخ ) .
  - (٨) فضائح الباطنية وفضائل المستظهيرية ، ويسمى المستظهير<sup>(٤)</sup> .
  - (٩) أسرار الحج في الفقه الشافعي ( القاهرة دون تاريخ ) .
  - (١٠) نهافت الفلاسفة<sup>(٥)</sup> .
  - (١١) معيار العلم في المنطق ( طبع في مصر سنة ١٣٢٩ هـ )<sup>(٦)</sup> .
- وفي أواخر حياة الغزالي عاد إلى موطنه بطوس واتخذ خانقاه للصوفية ومدرسة لدشتغلين بالعلم في جواره ، ووزع أوقانه على وظائف الخير من ختم القرآن وبجاسة الصوفية والتدريس حتى توفي سنة ٥٠٥ هـ كما تقدم<sup>(٧)</sup> .
- وقد أحدثت مؤلفات الغزالي في المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة أثرها البعيد في الشرق والغرب ، وقام بترجمتها مسيحيو طليطلة في القرن السادس الهجري ( الثاني عشر الميلادي ) .

---

(١) وقد طبع مع ترجمة ألمانية ( فيينا ١٨٣٨ ، ١٨٤٢ ) كما طبع في مصر ، ومنه نسخ خطية في مكتبات أوروبا ودار الكتب المصرية .

(٢) القاهرة ، ومنه نسخ خطية بمكتبات باريس وبرلين ولندن والجزائر ولينجراد .

(٣) طبع بكة وبمباي والقاهرة ، ومنه نسخ خطية بمكتبة ليدن ومكتبة المتحف البريطاني ودار الكتب المصرية .

(٤) وقد نشر جولداسمير قسماً كبيراً منه وقدم له بمنا باللغة الألمانية ( ليدن ١٩١٦ ) .

(٥) وقد طبع في القاهرة غير مرة ، كما طبع في بمباي ( ١٣٠٤ هـ ) وترجم إلى العبرية .

(٦) الغزالي : المنقذ من الضلال ص ٤ — ١٦ .

(٧) ابن خاسكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٥٤ .



(ب) ابن باجة (ت ٥٣٣ / ١١٣٨).

كانت الأندلس في نهاية القرن الخامس الهجري قد انقسمت عدة ممالك صغيرة عرف بحكامها بملوك الطوائف ، وكان نصارى الشمال يهددون هذه الممالك حتى جاء المرابطون وقضوا على هؤلاء الملوك الذين انغمسوا في الترف ، « ولاح إذ ذاك أن زمن الثقافة الرفيعة والبحث الحر قد انفضى » كما يقول دي بور<sup>(١)</sup> ، ولم يجرؤ على الظهور إلا رجال الدين ولا سيما رجال الحديث ، أما الفلاسفة فقد كانوا عرضة للاضطهاد أو القتل . ويؤيد هذه الحقيقة لإحراق كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام أبي حامد الغزالي بأمر أمير المسلمين المرابطي علي بن يوسف بن ناشفين .

على أنه برغم هذا نرى الأمير المرابطي أبا بكر بن إبراهيم ( صهر السلطان علي بن يوسف المرابطي ) ، وكان بلي ولاية سرقسطة ، يتخذ أبا بكر بن باجة السَّرْقَسْطِي جليلاً له ثم يقلده الوزارة . ولكن هذا قد أثار غضب الجند والفقهاء ، وكان بين ابن باجة وبين الفتح بن خاقان عداوة راسخة ، مما حمل ابن خاقان على هجاء ابن باجة في كتابه « قلائد العقيان »<sup>(٢)</sup> . فقد جعل ابن خاقان ترجمة ابن باجة آخر تراجم كتابه وقال فيه ما نصه :

« الأديب أبو بكر بن الصانع هو رمدُ عين الدين وكمد نفوس المهتدين ، اشتهر سُخفاً وجنوناً وهجر مفروضاً ومسنوناً »<sup>(٣)</sup> . فما يتشرع<sup>(٤)</sup> ولا يأخذ في غير الأضاليل . ولا يشرع ، ناهيك من رجل ما تطهر من جنابة ولا أظهر نخيلةً لِنَابَةٍ<sup>(٥)</sup> ولا استنجى من حدث ، ولا أشجى نواده بتوار في جدت<sup>(٦)</sup> ، ولا أقرّ بياربه ومصوره ، ولا قرّ بقباربه<sup>(٧)</sup> في ميدان تهوره<sup>(٨)</sup> . والإساءة إليه أجدى من الإحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان . نظر في تلك التعاليم ( يقصد الفلسفة ) وفسّر في أجرام

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة أبي ريدة ( الطبعة الثانية ) ص ٣٦٦ .

(٢) طبعة بولاق ١٢٨٣ هـ . انظر ص ٣٠٠ — ٣٠٦ .

(٣) أي أنه هجر الشريعة الإسلامية وما تشتمل عليه من فروع وسنن .

(٤) أي لا يأخذ بالشريعة الفراء .

(٥) أي أنه ما أظهر ميلاً للانابة أو التوبة إلى الله .

(٦) أشجى أي حزن والتوار الاختفاء والجدت القبر .

(٧) أي بتسابقه .

(٨) يعني أنه كان متهوراً في الدين ولم يعترف بتهوره .

الأفلاك وحدود الأقاليم ورفض كتاب الله الحكيم العليم ، ونبذ وراء ظهره ، ثانياً عطفه (١) وأراد إبطال ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (٢) . واقتصر على الهيئة (٣) ، وأنكر أن تكون منه إلى الله تعالى فيئة (٤) ، وحكم للكواكب بالتدبير ، واجترم على الله اللطيف الخبير ، واجترأ عند سماع النهى والإبعاد (٥) ، واستزأ بقوله تعالى ( إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ) (٦) .

وهذا يدل على مدى كراهية المفهاء للفلاسفة وتشنيعهم بهم وتقييهم لأرائهم كما يدل أيضاً على مدى كراهية هذا العصر للفلاسفة واضطهادهم .

لا يعرف الكثير عن حياة ابن باجة الأولى . قيل ولد سنة ٥١٣ هـ ( ١١١٨ م ) حيث عاش بسرقسطة وألف فيها كثيراً من كتبه . ثم رحل إلى غرناطة وقدم على بلاط المرابطين في فاس حيث مات مسموماً بتدبير أحد حساده . ويذكر المقرئ (٧) عن الأمير ركن الدين بيبرس في كتابه « زبدة الفسكرة في تاريخ الهجرة » أن ابن باجة « كان عالماً فاضلاً له تصانيف في الرياضيات والمنطق ، وأنه وزر لأبي بكر الصحراوي ( يعني المرابطي ) صاحب سرقسطة ، ووزر أيضاً ليعحي بن يوسف بن تاشفين عشرين سنة بالمغرب ، وأن سيرته كانت حسنة ، فصلحت به الأحوال ونجحت على يديه الآمال ، فحسده الأطباء والكتاب وغيرهم وكادوه فقتلوه مسموماً » (٨) .

ويكاد ابن باجة يقتنى أثر فيلسوف المشرق الفارابي ، فأحب العزلة مثله وضاق ذرعاً بالحياة ، ولم يحاول كالفارابي أن يضع له مذهباً . ورسائله المبتكرة قليلة ، ومعظمها شروح قصيرة لكتب أرسطو وغيرهما من مصنفات الفلاسفة (٩) . وبعضهم يرى أن ابن باجة من هواة الفلاسفة لا من الفلاسفة . ويكاد ابن باجة يتفق مع الفارابي في الطبيعة وفيما وراء الطبيعة . وكلاهما متأثر بأراء أرسطو ( المعلم الأول ) . ومن أمثلة آراء ابن باجة الفلسفية « أن

(١) يعني المثنوى سخريه من الناس وضيقاً بهم .

(٢) أي أنه يريد إبطال كتاب الله .

(٣) أي أنه يؤمن بالطبيعة .

(٤) أي أنه رجع إلى الله .

(٥) يعني يوم الحساب .

(٦) المقرئ : فتح الطيب ج ٩ ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

(٧) فتح الطيب ج ٩ ص ٢٤٠ .

(٨) القفطي : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٦٣ — ٦٤ . دي بور ص ٣٦٧ .

(٩) المصدر نفسه .

الموجودات قسماً « متحرك وغير متحرك . والمتحرك جسمي متناه . وهو متحرك حركة  
أزلية . وهذه الحركة لا يمكن القول بأنها من ذاته لأنه متناه . فلا بد في تحليل هذه الحركة  
التي لا تنهاى من أن نردها إلى قوة أو إلى موجود أذكى ( أعنى إلى العقل ) (١) .

كذلك أبدى ابن باجه رأيه في النفس والعقل فقال إن الهيولى لا يمكن أن توجد مجردة  
عن صورة ما . أما الصورة فقد توجد مجردة عن الهيولى ، وإلا لما استطعنا أن نتصور  
إمكان أى تغير ، لأن التغير إنما يكون ممكناً بتعاقب الصور الجوهرية . . . والإنسان  
بعروجه في درجات متتالية وترقيه من الجزئى والمحسوس وتصورهما ، يكون مجموعة العقل ،  
ويصل إلى ماهو فوق طور الإنسان وإلى ماهو إلهى . والذى يرشد الإنسان في هذا العروج  
هو الفلسفة » (٢) .

وكذلك تعرض ابن باجه للإنسان المتوحد فقال إن الفرد لا يستطيع أن يعيش كما  
ينبغي . ولكى يستطيع أن يمضى في أعماله على أساس عقلى فإنه يجب عليه أن يعتمزل المجتمع  
في بعض الأحيان . ويسمى ابن باجه كتابه في الاخلاق « تدبير المتوحد » . وهو يطالب  
الإنسان بأن يتولى تعليم نفسه بنفسه . على أن الإنسان يستطيع بوجه عام أن يبتنع بمحاسن  
الحياة الاجتماعية دون أن يتأثر بمساوئها (٣) .

وقد اشتغل ابن باجه بالأدب ونبغ في الشعر . ومن شعره قوله بمدح الأمير أبا بكر بن إبراهيم .  
هائمٌ جوده يصف السوارى وسطوته يغيرها البحر  
وقلنا نحن كيف وراحتاه بحورٍ يلتطى (٤) فيها سرور (٥)

( ح ) ابن طفيل ( ت ٥٧١ / ١١٧٥ ) .

كانت الدولة المرابطية تسير على هدى الفقهاء الذين كان لهم رأى في إدارة شؤون البلاد  
والإشراف على الحياة الفكرية . وقد ارتاب المرابطون في آراء الفلاسفة تمسكاً بذهب

(١) دى بورس ٣٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٧٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٧٣ - ٣٧٤ .

(٤) من قولهم لطى الرجل بالأرض أى لزم .

(٥) المقرئ ج ٩ ص ٢٣٢ .

السلف الصالح الذي لا يقبل أن يحيد عما جاء به القرآن والسنة ، وظل الأمر على ذلك حتى قام المهدي محمد بن تومرت بدعوته التي قامت على مذهب التوحيد الكلامي المستمد من آراء علماء الكلام وفلاسفة المسلمين . ومن هنا كانت الدولة الموحدية أول دولة بالمغرب ناصرت الفلسفة الإسلامية ، وظهر فيها حرية الرأي لأول مرة في تاريخ المغرب . وكان من حسنات هذه الدولة ظهور طائفة من كبار الفلاسفة مثل ابن طفيل وابن رشد .

ولد أبو بكر محمد بن طفيل في مدينة قادس ببلاد الأندلس . وقد عاش بخلاف ابن باجة حياة هادئة وأقبل على دراسة الكتب وانقطع إلى العلم وأثر ذلك على الاختلاط بالناس ، وشغف بالفلسفة وكلف بها ، ولكنه لم يتخصص فيها . فقد كان يلم بأراء دون أن يتأثر بها ويؤثر فيها . لذلك كان ابن طفيل يميل إلى الاستمتاع بالتأمل أكثر من ميله إلى التأليف . كما كان يشغف بالأدب ويميل إلى الشعر ، حتى نظم كثيراً من القصائد .

على أن أكبرهم ابن طفيل أن يمزج الحكمة اليونانية بحكمة أهل المشرق ليخرج للناس رأياً جديداً في الكون . كما أنار اهتمام ابن طفيل أمر العلاقة بين الفرد والمجتمع وذهب في ذلك إلى أبعد ماذهب إليه ابن باجه ، فبينما يرى ابن باجه يحمل المفكر المتوحد أو طائفة صغيرة من المفكرين المتوحدين يكونون دولة داخل الدولة كأهم نموذج لحياة سعيدة ، نرى ابن طفيل يرجع منشأ الجماعة إلى الفرد (١) .

### قصة حي بن يقظان

يتكون مسرح قصة حي من جزيرتين ، يضع ابن طفيل في إحدى هاتين الجزيرتين المجتمع الإسلامي بما فيه من عُرْف وتقاليد وعادات وأديان ، ويضع في الثانية إنساناً ينشأ وينمو على الفطرة ، وتسود ذلك المجتمع المشتمل على هاتين الجزيرتين نزعات دنيوية . وفي هذا العالم ملة أو دين يُحاكي الفطرة ويدين أصحابها بها تديناً سطحياً ، ثم يظهر في هذا العالم ( أي في الجزيرتين ) فتيان من أهل الفضل يسمى أحدهما سلامان ( أو سلمان ) والآخر آسال ( أو أسال ) يسموان بعقلهما إلى المعرفة والتغلب على الشهوات . وأول هذين الفتيين ينزع بعقله نزعة عملية ، فهو يساير دين العامة حتى يسوده . وثانيهما ينزع إلى النظر العقلي الفلسفي الصوفي ، إذ يرتحل إلى الجزيرة المقابلة لجزيرته ، ظناً منه أنها غير مسكونة . وفي هذه الجزيرة ينقطع هذا الفتى إلى الدرس والزهد .

(١) دي بور : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٣٧٦ — ٣٧٧ .

وحى بن يقظان الذى نحن بصدده قد ترعرع فى هذه الجزيرة حتى أصبح فيلسوفا كاملا؛ وربما قد جرى به إلى أرضها وهو طفل أو نشأ فيها بالتولد الطبيعى من العناصر الأرضية وأرضته طبيئيه، ثم توصل إلى تحصيل حاجاته المادية بوسائله الخاصة، واستطاع بالملاحظة والتفكير أن يتوصل إلى معرفة الطبيعة والسماء ومعرفة الله ومعرفة نفسه. وقد وصل حى ابن يقظان وهو فى التاسعة والأربعين من عمره إلى الله، أى أنه بلغ ما يبلغه الصوفية من الشهود لله والغناء فيه.

عند ذلك لقي حى بن يقظان : آسال ( الذى سما إلى النظر العقلى والتصوف ) . ولم يكن حى يعرف اللغة ، ولكنه استطاع أن يتفاهم مع آسال بعد جهد ، حيث ظهر أن فلسفة حى وشريعة آسال صورتان لحقيقة واحدة، ولكنها عند الأول أكثر وضوحاً منها عند الثانى .

ولما عرف حى أن فى الجزيرة المقابلة لجزيرته أمة بأسرها ما تزال تتخبط فى دياجير الخطأ سحت عزيمته على أن يذهب إلى أولئك القوم ويكشف لهم عن الحقيقة. فعلته التجربة عند هؤلاء القوم أن العامة لا قدرة لهم على إدراك الحقيقة مجردة ، وأن محمداً عليه الصلاة والسلام كان على صواب ؛ إذ بين للناس الحقيقة بضرب الأمثال الحسية ، ولم يكشفهم بالنور الكامل ( وهو نور الله سبحانه وتعالى ) .

وبعد أن انتهى حى بن يقظان إلى هذه النتيجة عاد مع صديقه آسال إلى جزيرتها الأولى الخالية ليعبدا ربها عبادة روحية خالصة مابقي من حياتهما (١) .

وفى هذه القصة بصور ابن طفيل حياة الإنسان والأطوار التى يجب أن يتطور فيها من يصل إلى السكال ، غير أن ابن طفيل لا يرى أن الفرد يستطيع وحده ( معتزلاً عن المجتمع ) أن يبلغ السكال وأن يسمو إلى الحقيقة . وإذا استطاع فرد بطريق التصوف والعزلة أن يسمو إلى معرفة الله ، فإن ذلك لا يتأتى لسكل البشر . ومن هنا بعث الله سبحانه وتعالى الرسل إلى الناس ، وكانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم التى بعث بها إلى الناس كافة .

وتتمثل فى قصة حى بن يقظان الأطوار التى مر بها الدين ، كما يتمثل تطور الحكمة الهندية والفارسية واليونانية .

وقد صور ابن سينا قبل ابن طفيل بقرنين الإنسان وتطوره ، واعترف ابن طفيل بذلك . ولكن ابن طفيل صور العقل الإنسانى الطبيعى الذى يشرق عليه نور من العالم العلوى ،

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام الترجمة العربية من ٣٧٧ — ٣٧٩ .

على أن هذا العقل يجب — بحسب منطق ابن طفيل — أن يتفق مع رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . وكان ابن طفيل في هذا سائرا في نفس الطريق الفلسفي الذي سار فيه مفكرو المشرق من أن الدين يجب أن يقصر على العامة ، إذ لا قدرة لهم على المضى فيما وراه . أما الفلاسفة فهم القادرون على ما وراء ظواهر الدين . وعلى هذا فكلام النبي صلى الله عليه وسلم ينطوى على تأويلات لا يسمو إليها إلا المفكرون . ومن المؤكد أن التفكير لا يتسنى لاحد إلا بعد بلوغ سن معينة . ويعتبر الاشتغال بالأمور المادية كالصناعات والعلوم خطوة طبيعية للوصول إلى السكال الروحي .

ويعنى ابن طفيل بنشاط حتى بن يقظان الصوفي الذي يحل محل العبادات التي فرضتها الشريعة الإسلامية على الدهماء . فالرجل الصوفي أسمى من المتعبد العادي . ولعل في ذلك مسحة من الأفلاطونية الحديثة والفيثاغورية . وقد تبينت لحي الغاية التي يرمى إليها من التماس الواحد في كل شيء والاتصال به ، وهو يرى أن الطبيعة جميعها تنجذب نحو الواحد وهو الله سبحانه وتعالى . والإنسان هو أسمى المخلوقات لأنه القادر على الفكر . وهو يأكل النباتات والفواكه الناضجة ولا يأكل من الحيوان إلا الضروري . وهذا ما التزمه حتى بن يقظان لمطالب جسده المادية . أما روحه فهي مرتبطة بالعالم العلوي ، وهو يتشبه بالعالم الذي يعيش فيه ، فهو بذلك يفيد ويستفيد . كما يرى أنه يجب أن يحيى حياة بريئة من شوائب المادة وأن يتعهد النبات ويحمي الحيوان ملتزما بالنظافة والعناية بلبسه ، مُنَسَّق الحركات ليمائل الأجرام السماوية المعتدلة . وهكذا يصبح حتى بالتدرج قادرا على أن يسمو بنفسه فوق الأرض والسماء ، حتى يصير عقلا صرفا . وهذه هي حالة الفناء التي يريدتها المتصوفة (١) .

(د) ابن رشد (ت ٥٩٥ / ١١٩٨ م)

ولد أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد بمدينة قرطبة حاضرة الأندلس في سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ونشأ في بيت عريق في العلم والأدب ، وذلك في أعقاب ملوك الطوائف الذين عرف عصرهم بالعصر الذهبي في الأندلس ، ذلك العصر الذي بلغت فيه هذه البلاد أوج عزها الفكري والحضاري ، كما بدأت حرية الفكر ببلاد المغرب بظهور المهدي محمد بن تومرت .

وقد ظهر ابن رشد في ميدان الفكر والفلسفة بعد أن زالت الدولة المرابطية التي كانت تناهض الفلسفة والفلاسفة . وقد قيل إن ابن طفيل هو الذي أخذ بيد ابن رشد ودفعه إلى الحياة العامة فقدمه إلى الأمير أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي في سنة ٥٤٨ هـ . ولم يكن هذا الأمير الموحدى قد تولى الحكم قبل سنة ٥٥٨ هـ . ولكن هذا الأمير كان مشغولاً بمجالسة العلماء والفلاسفة .

ويقال إن هذا الأمير سأل ابن رشد عن اسمه واسم أبيه ونسبه ، ثم بادره بقوله : ما رأى الفلاسفة في السماء ؟ أقديمة هي أم حادثة ؟ فاستولى الحياء وأخذ الخوف يستولى على ابن رشد وخشى أن يبطش به الأمير ، وأخذ يتعلل وينكر اشتغاله بالفلسفة . ولكن الأمير ظل يتكلم في هذه المسألة مع ابن طفيل ، فأعجب ابن رشد بغزارة علم الأمير ومعرفته بفلسفة أرسطو وأفلاطون والمتكلمين وفلاسفة المسلمين . عند ذلك ذهب الخوف عن ابن رشد وأخذ يتكلم دون خوف أو وجل من بطش الأمير ، الذي أعجب به ، فقربه منه ، وكلفه بشرح مذهب أرسطو<sup>(١)</sup> .

وقد قام ابن رشد بهذا العمل على أكمل وجه ، « فأورث الإنسانية علم أرسطو كاملاً بريئاً من الشوائب » .

وكان ابن رشد إلى جانب هذا فقيهاً وطيبياً ، إذ تولى قضاء إشبيلية سنة ٥٦٥ هـ . وكان في سنة ٥٧٨ هـ طبيباً للسلطان يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ) ، ثم تقلد ابن رشد القضاء ثانية في قرطبة مسقط رأسه ، وشغل المنصب الذي شغله أبوه وجده من قبله .

غير أن الأيام تنكرت لابن رشد حين حل السخط بالفلاسفة فصارت كتبهم يلقى بها في النار . ففرى أبا يوسف يعقوب المنصور (٥٥٨ - ٥٩٥ / ١١٨٤ - ١١٩٩) بأمر بإبعاد ابن رشد ، وقد بلغ سن الشيخوخة ، في بلدة قريبة من قرطبة تدعى ألسافة ، ثم استدعيه إلى مدينة مراكش حاضرة الموحدين ، فتحين منيته في هذه المدينة سنة ٥٧٥ (١١٩٨ م) وقد بلغ الخامسة والسبعين من عمره<sup>(٢)</sup> .

### ابن رشد وأرسطو

وقف ابن رشد حياته على دراسة أرسطو ، فتناول كل ما استطاع أن يحصل عليه من مؤلفات هذا الفيلسوف أو من شروحها بالدراسة العميقة والمقارنة الدقيقة ، وقد

(١) راجع مادة ابن رشد في دائرة المعارف الإسلامية .

Ernest Revan, *Averoès et l'Averoisisme*

(٢) المراكشي ص ١٧٤ - ١٧٥ .

اطلع على ما ترجم به من كتب اليونان التي ضاع أغلبها فيما بعد ، أو وصل إلينا بعضها ناقصاً . وقد اتبع ابن رشد في شروحه الطريقة المنبئية على التحليل الدقيق والنقد السليم ، وهو في شرحه لفلسفة أرسطو يوجز حيناً ويطنب حيناً آخر ، فرى هذه الشروح ملخصة أو مبسطة ، وقد أطلق عليه « داتى » فى كتابه « الكوميديا الإلهية » لقب الشارح ، فكان ذلك اصطلاحاً جرى عليه الفلاسفة بعد داتى .

وقد بلغ فلاسفة المسلمين شأواً بعيداً فى فهم فلسفة أرسطو وتقريبها إلى الأذهان بفضل ابن رشد .

كان ابن رشد يرى أن أرسطو هو الإنسان الأكل والمفكر الأعظم الذى استطاع أن يكشف عن الحقيقة وأن الزمن لن يستطيع أن يغير من آراء فيلسوف اليونان العظيم . وكان ابن رشد شديد الوطأة فى نقد المعلم الثانى أنى نصر العمارانى ( ت ٣٣٩ هـ ) والرئيس أبى على بن سينا ( ت ٤٢٩ هـ ) . ونرى ابن رشد فى نقده لأسلافه أفسى من أرسطو فى نقده لأفلاطون ، على حين نراه يببالغ فى مدح أرسطو إذ يرى مذهب أرسطو — إذا فهم على حقيقته — لا يتعارض مع أسمى معرفة يستطيع أن يبلغها إنسان . « بل كان يرى أن الإنسانية فى مجرى تطورها الأزلى بلغت فى شخص أرسطو درجة عالية يستحيل أن يسمو عليها أحد ، وأن الذين جاؤوا بعده تجشموا كثيراً من المشقة وإعمال الفكر لاستنباط آراء انكشفت بسهولة للمعلم الأول . وستتلاشى بالتدرج كل الشكوك والاعتراضات على مذهب أرسطو ، لأن أرسطو إنسان فوق طور الإنسان . وكان العناية الإلهية أرادت أن تبين فيه مدى قدرة الإنسان على الاقتراب من العقل الكلى . وابن رشد يعتبر أرسطو أسمى صورة تمثّل فيها العقلُ الإنسانى ، حتى إنه ليميل إلى تسميته بالفيلسوف الإلهى » (١) .

وابن رشد من المتعصبين لمنطق أرسطو ، فهو يرى أنه لا سعادة لأحد دونه ، وبأسف لأن سقراط وأفلاطون لم يكونا على علم بمنطق أرسطو ، وسعادة الإنسان تكمن على قدر معرفته بهذا المنطق .

وكان ابن رشد يهتم فى علم اللغة بما هو مشترك بين جميع اللغات متأسياً فى ذلك بأرسطو

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٢٨٦ .  
ويتضح إعجاب ابن رشد بأرسطو فى كتابه تهافت التهانت وفى مقدمة كتابه الطبيعة .



الذي راعى هذا في كتاب « العبارة » وفي كتاب « الخطابة » إذ كان يضع نصب عينيه هذا العنصر المشترك بين لغات الخلق جميعاً .

يرى ابن رشد أن الحقيقة قد تضمنتها آراء أرسطو . ومن هنا نظر إلى علم الكلام عند المسلمين نظرة عابرة . نعم إن ابن رشد يؤمن بالإسلام على أنه حقيقة من نوع خاص<sup>(١)</sup> . ومع إيمان ابن رشد بالإسلام فإنه لا يؤمن بعلم الكلام ، لأن هذا العلم يهدف إلى إثبات أشياء يتعذر إثباتها بتناهج أرسطو التي تقوم على المنطق . « ويذهب ابن رشد إلى ما ذهب إليه إسبيوزا من أن الوحي الذي جاء به القرآن لا يرمى إلى إعطاء الناس علماً ، وإنما يرمى إلى إصلاحهم ، وليس غرض الشارع في رأيه تلقين العلم ، بل غرضه أخذ الناس بالطاعة ، وبالأعمال الصالحة ، لأن الشارع يعلم أن السعادة الإنسانية لا تتحقق إلا في مجتمع »<sup>(٢)</sup> .

وأظهر ما يميز ابن رشد عن فلاسفة الإسلام ولا سيما ابن سينا ، هو كيفية تصويره للعالم على أنه عملية تتغير وحدث منذ الأزل . والعالم في جملته وحدة أزلية ضرورية لا يجوز عليها العدم ، ولا يمكن أن يقوم على ما هو عليه . وإذا كان التغير داخل نظام الكون أزلياً فإنه يستلزم حركة أزلية ، وهذه تحتاج إلى محرك أزلي . ولو كان العالم حادثاً لتحتّم علينا القول بوجود عالم آخر حادث نشأ منه ، وهكذا إلى غير نهاية . ولذلك يذهب ابن رشد إلى أن القول بأن العالم كله متحرك منذ الأزل ضرورة ، هو وحدة الذي يضمن لنا إمكان الوصول إلى إثبات موجود مفارق للعالم محرك له منذ الأزل . وهذا الموجود بإيجاده تلك الحركة الدائمة وبإيجاده لنظام العالم البديع خالق بأن يسمى موجد العالم .

وكذلك يرى ابن رشد أن ماهية المحرك الأول أي الآلة وماهية عقول الأفلاك هي أنها فسكر تتجلى فيه الوحدة العقلية الوجودية .

والموجودات العقلية ( أي الأفكار ) تتجلى فيها الوحدة أو كمال الوجود . وكل العقول تعقل ذاتها ولكن في معرفتها بذاتها صلتها بالعلة الأولى . وابن رشد يجزم بأن تعلق النفس الإنسانية بجسدها كتعلق الصورة بالهيولى . فهو يقول بهذا جادا غاية الجحد ، وهو يرفض

(١) يقصد أن الدين قائم على الغيب وليس على المنطق في أغلب الأحيان . وهو يؤمن بغمبيات

الدين . وهذا هو معنى قوله إن الدين حقيقة من نوع خاص .

(٢) دى بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٣٨٩ .

المذهب القائل بعدم فناء النفوس الجزئية المتكثرة<sup>(١)</sup> رفضاً باناً ، مخالفاً في ذلك مذهب ابن سينا . ولا بقاء للنفس عنده إلا باعتبارها كلاً لجسدها .

ويشتمل مذهب ابن رشد على ثلاثة آراء : إلهادية تجعله مخالفاً للديانات السماوية الثلاث وهي : اليهودية والمسيحية والإسلام . وأولها قوله بقدوم العالم المادى والعقول المحركة له<sup>(٢)</sup> ، وثانيها قوله بارتباط حوادث الكون جميعها ارتباط علة بعملول على وجه ضرورى لا يترك مجالاً للعناية الإلهية أو للخوارق أو نحوها ، وثالثها قوله بفناء جميع الجزئيات<sup>(٣)</sup> ، وهو قول يجعل الخلود الفردى غير ممكن .

وعلى كل فإن رشد مفكر جرى منطق لا اضطراب في فكره ، وإن لم يكن مفكراً مبتدئاً . وعلى الرغم من توليه مناصب قضائية إسلامية فكثيراً ما هاجم المتكلمين وغيرهم من فقهاء المسلمين . فقد كان ابن رشد قاسياً على الذين يقولون إن الخير خير لأن الله أمر به ، والشر شر لأن الله نهى عنه . ويقول إن العمل يكون خيراً أو شراً لذاته أو بحكم العقل ، والعمل الخلقى هو الذى يصدر فيه الإنسان عن معرفه عقلية . وينبغى بالطبع ألا يكون مرجعنا الأخير إلى عقل الفرد بل إلى ما تلميه مصلحة الدولة .

وابن رشد ينظر إلى الدين أيضاً بعين النظر السياسى ، فهو يعظم الدين لما يرمى إليه من غايات خلقية ، ويقول إن الواجب يحتم على الناس أن يؤمنوا بما جاء به الكتاب كما هو ، وما فى الكتاب حق<sup>(٤)</sup> ، وهو يروى فى صورة قصص لأنه موجه إلى أطفال كبار . ومجازرة العامة ذلك شر لهم .

على أن ابن رشد يرى أنه يجوز للفلاسفة أن يؤولوا آيات القرآن وهم إذ يفهمون مراميه على نور يكون فى ذلك الحقيقة العليا<sup>(٥)</sup> .

وقد أترت مؤلفات ابن رشد فى الأندلس وفى القسرك الأوربى ولاسيما فى إيطاليا حتى القرن السادس عشر الميلادى . « وكان لمذهبه أتباع من المسلمين والأوربيين . وعلى الرغم

(١) أى المتوالدة تناسلياً .

(٢) بمعنى أنه لم يجعل الله سبحانه هو القديم وحده كما قالت بذلك الكتب السماوية بل إن العالم قديم كذلك .

(٣) وبهذا لا يمكن أن يكون هناك بعث .

(٤) انظر دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٣٩٤ — ٣٩٨ .

من أن جامعة باريس عملت على اضطهاد أتباعه ، فقد عادت فطلبت من خريجيها ألا يعلموا تلاميذهم إلا المعلومات التي تتفق مع تعاليم أرسطو كما قررها ابن رشد .

(هـ) محيي الدين بن عربي<sup>(١)</sup> (ت ٦٣٨ / ١٢٤٠) .

ويعتبر محيي الدين بن عربي من أشهر فلاسفة ومتصوفة الأندلس . ولد ابن عربي بمُرُسية في شهر رمضان سنة ٥٦٠ هـ ونشأ بها وتلقى العلم فيها حتى انتقل إلى إشبيلية سنة ٥٦٨ هـ وأقام حتى سنة ٥٩٨ هـ . ثم اختلف إلى كثير من بلاد المشرق كحصر والحجاز وبغداد والموصل وأخذ العلم على كبار علمائه من أمثال الحافظ السلفي وابن عساكر ، وأبي الفرج ابن الجوزي . ثم رحل إلى بلاد الروم وأقام بها مدة طويلة ، ثم ذهب إلى دمشق وظل بها حتى مات .

وقد اشتهر ابن عربي بالتصوف وأخذ نفسه بالزهد والتقشف وحرمان النفس من ملذات الحياة ليخلص إلى الله سبحانه وتعالى . وكان ابن عربي يدين بعقائد المذهب الظاهري الذي أخذه عن ابن حزم الأندلسي ، كما كان ينجح في تصوفه نحو مذاهب الشيعة . وكان ابن عربي « محصلاً بفنون العلم أخصّ تحصيل ، وله في الأدب الشأو الذي لا يُلحق به والتقدم الذي لا يسبق<sup>(٢)</sup> » . ولابن عربي مؤلفات قيمة في الفلسفة والتصوف تخص بالذكر منها : (١) كتاب ضمنه مقامات رأى فيها النبي صلى الله عليه وسلم ومناجات حدث بها عن النبي .

(٢) كتاب خيار مشايخ العرب وزهادهم .

(٣) كتاب العتوحات المسكية ( ويقع في عدة أجزاء ) ويشهد بطول بواعه في التصوف والتأثر بالمذهب الشيعي ، حتى إنه كتب كثيراً عن المهدي المنتظر ، وأشرراط الساعة بظهور المسيح الدجال ثم المسيح عليه السلام ، والآئمة العلويين ولاسيما الآئمة الاثنا عشرية ، حتى لقد وصفه المقرئ<sup>(٢)</sup> بقوله إنه كان ظاهري المذهب في العبادات باطنياً النظر في

(١) كان يعرف بالمغرب بابن العربي ، واصطلاح أهل الشرق على تسميته بابن عربي بدون الألف واللام .

(٢) المقرئ ج ٢ ص ٣٦١ — ٣٦٣ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٦٣ .

الاعتقادات<sup>(١)</sup> . ويغلب على الظن أن البابية والبهائية في إيران قد تأثروا إلى حد بعيد بأراء محي الدين بن عربي ، ولكنهم غلوا في تشييعهم ومبادئهم . كما تأثر به كثير من متصوفي مصر ، نخص بالذكر منهم الشيخ الشعرائي<sup>(٢)</sup> والشيخ علي الخواص ، والشيخ عبد الوهاب العفيفي وغيرهم من المتصوفة . ومن هذا نرى كيف سمي المؤرخون ابن عربي إمام المتصوفة في العالم العربي .

ولما صنف ابن عربي كتابه « الفتوحات المسكية » كان يكتب كل يوم ثلاث كراسات<sup>(٣)</sup> .

( ٤ ) تلقين المهتدي .

( ٥ ) الأحكام الكبرى والوسطى والصغرى .

( ٦ ) كتاب النهجد .

( ٧ ) كتاب العافية .

( ٨ ) كتاب المعارف الإلهية .

( ٩ ) كتاب مواقع النجوم ومطالع أهلة أسرار العلوم .

( ١٠ ) رسالة مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الانوار الإلهية .

( ١١ ) كتاب فصوص الحكم<sup>(٤)</sup> .

ومما قاله ابن عربي في كتابه هذا : « اعلم أن القلب ( أعنى قلب العارف بالله ) هو من رحمة الله ، وهو أوسع منها ، فإنه وسع الحق جل جلاله ورحمته لانسعه<sup>(٥)</sup> . هذا لسان العموم من باب الإشارة ، فإن الحق راحم ليس بحرّوم ، فلا حكم للرحمة فيه<sup>(٦)</sup> . وأما الإشارة من لسان الخصوص فإن الله وصف نفسه بالنفس وهو من التنفيس ، وإن الأسماء الإلهية عين المسمى وليس إلا هو » .

(١) أي أنه أخذ عن الشيعة مذهب التأويل .

(٢) المفرد ج ٢ ص ٣٧٨ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٤) نشره الدكتور أبو العافيني ( القاهرة ١٩٤٦ ) ص ١١٩ .

(٥) يعني أن قلب العارف بالله ، أي قلوب المتصوفة ، أكبر وأعظم من رحمة الله ، لأن هذه القلوب وسعت الله جل شأنه ، على حين أن رحمة الله لانسعه ، لأن الرحمة جزء صغير من فضل الله وصفاته جل شأنه ، على حين أن القلب الله ذاتا وصفاتا .

(٦) يعني أن الرحمة فضل من الله وليس الله فضلا منها لأنه سبحانه صانع الرحمة .

وقد قال ابن عربي في الفصل الثالث والعشرين<sup>(١)</sup> الذي عقده تحت عنوان « الحكمة الإحسانية »: موضوع هذا الفصل الإحسان ، وهو في اللغة فعل ما ينبغي أن يفعل من الخير بالمال أو بالقول أو بالعمل . وفي الشرع أن تتوجه إلى الله في عبادتك بكليتك وتمثله في محرابك ، كما ورد في الحديث المشهور عندما سئل النبي عن الإحسان ما هو ؟ فقال أن تعبد الله كأنك تراه ، وهو ( أى الإحسان ) في عرف أصحاب وحدة الوجود شهود الحق<sup>(٢)</sup> في جميع المراتب الوجودية والتحقق من أنه متجل في كل شيء . وهذا الأخير<sup>(٣)</sup> هو المعنى الذي يدور عليه هذا الفصل ( أى الباب ) . والذي يستخلصه المؤلف ( يعنى نفسه ) من الآيات الواردة في حق لقمان في قوله تعالى ( وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم )<sup>(٤)</sup> ( يا بني إنما إن تك مثقال حبة من خردل فتسكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير )<sup>(٥)</sup> . فلقمان في هذا الفصل لسان من ألسنة وحدة الوجود .

وقد زاد في شهرة ابن عربي تفوقه في الأدب ولاسيما الشعر . ومن شعره الصوفي قوله في الله جل شأنه :

يا مَنْ يرانى ولا أراه كم ذا أراه ولا يرانى

وقد سئل ابن عربي في قوله إنه يرى الله ولا يراه الله فقال مرتجلا :

يا مَنْ يرانى مجرماً ولا آراه آخذاً

كم ذا أراه مفعمًا ولا يرانى لائذاً

وهذا يؤكد أن ابن عربي كان يأخذ بمبدأ التأويل الذي سار عليه الشيعة وجمهرة المتصوفين ، على حين أنه كان ظاهرًا في العبادات كالصوم والصلاة والزكاة والحج . من ذلك قوله في ضبط ليلة القدر التي اختلف الفقهاء في تحديدها .

وإننا جميعا إن نصمُّ يوم الجمعة ففي تاسع العشرين خذ ليلة القدر

(١) المصدر نفسه : تعليقات الدكتور أبو العلا عفيفي ص ٢٧٦ .

(٢) يعرفه باصطلاح أهل الباطن .

(٣) يعنى اصطلاح أهل الباطن .

(٤) سورة لقمان ٣١ : ١٣ .

(٥) سورة لقمان ٣١ : ١٦ .

وإن كان يوم السبت أول صومنا  
وإن تصم الشهر في أحدٍ نخذ  
وإن هلّ بالإثنين فاعلم بأنه  
وفي يوم الثلاثاء إن بدا الشهر فاعتمد  
وفي الأربعاء إن هلّ يامن يرومها  
ويوم خميس إن بدا الشهر فاجتهد  
وضابطها بالقول ليلة الجمعة  
توايفك بعد النصف في ليلة الوتر<sup>(١)</sup>

ويروى المقرئ عن الإمام الصفي بن ظافر الأزوي قوله في ابن عربي<sup>(٢)</sup>: « وكان من أكبر علماء الطريق، جمع بين سائر العلوم السكسية وما قر له من العلوم الوهية، وميزته شهيرة، وتصانيفه كثيرة، كأن غلب عليه التوحيد علما وخلقا وحالا، لا يكثر بالوجود مقبلا كان أو معرضا. وله علماء أتباع، أرباب مواحيد وتصانيف ».

« ولو قيس ابن عربي بغيره من كبار مؤلفي الإسلام المتفلسفين أمثال ابن سينا والغزالي، لبدنهم جميعا في ميدان التأليف من ناحية الحكم والكيف على السواء. أما من ناحية الحكم فقد ألف نحواً من مائتين وتسعة وثمانين كتاباً ورسالة على حد قوله في مذكرة كتبها عن نفسه سنة ٦٣٢ هـ، أو خمسمائة كتاب ورسالة على حد قول عبد الرحمن جامي صاحب كتاب « نفعات الانس »، أو أربعمائه كتاب كما يقول الشعراني في اليواقيت والجواهر. وقد وصفه بروكلمان بأنه مؤلف من أخصب المؤلفين عقلاً وأوسعهم خيالاً »<sup>(٣)</sup>.

## (٥) التاريخ

### (١) مؤرخو المشرق الإسلامي :

وقد زخر أواخر العصر البويهي والعصر السلجوقي في الشرق ومصر والمغرب والأندلس بطائفة كبيرة من المؤرخين الذين أمدونا بمادة غزيرة تصور لنا ما وصلت إليه الدراسات التاريخية من نهضة مباركة في ميدان الثقافة الإسلامية .

(١) المقرئ ج ٢ ص ٣٦٨ .

(٢) المقرئ : فتح الطيب ج ٢ ص ٣٨١ .

(٣) قصوس الحكم ( نشره أبو الملا عفيفي ) القاهرة ١٩٤٦ ) ص ٥ .

وقد وضع أبو نصر العُتبي (بضم العين وسكون التاء) (ت ٤٢٨ هـ) كتابه عن حياة السلطان محمود الغزنوي وسماه «تاريخ اليميني» نسبة إلى يمين الدولة محمود الغزنوي (القاهرة ١٢٨٦ هـ) ويقع في جزأين .

وهناك ثلاثة من المؤرخين هم أبو الحسن مسكويه (ت ٤٢١ هـ) وهلال الصابي (ت ٤٤٨ هـ) وأبو شجاع (ت ٤٨٨ هـ) .

ويعتبر تاريخ مسكويه المسمى «تجارب الأمم» من أهم الكتب التاريخية ، ويتناول جزء منه الكلام على الحوادث المتممة لتاريخ الطبري ، وينتهي في سنة ٣٦٩ هـ . ولا يكتفي مسكويه بذكر الحوادث التاريخية بل يعنى بالشئون الاجتماعية وخاصة الأحوال الاقتصادية عناية كبيرة . وبذلك خطا خطوة جديدة نقل بها دراسة التاريخ من سرد الحوادث الجافة إلى معالجة الشئون الاجتماعية والعمرائية . وقد تناول مسكويه بإسهاب تاريخ الصدر الأول من عصر بني بويه .

وقد نشر المستشرقان دي غويه ودي يونج جزءا من كتاب تجارب الأمم ، ويتناول الكلام على الحوادث التاريخية التي وقعت من خلافة المأمون سنة ١٩٨ هـ إلى أواخر خلافة المستعين (٢٤٨-٢٥٢ هـ) سنة ٥٢٥١ هـ . وقد نشر المستشرقان دي غويه ودي يونج أيضا الجزء الثالث من كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق لمؤلف مجهول ، ويتناول الحوادث التاريخية من خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٦ هـ إلى نهاية خلافة المعتصم العباسي سنة ٢٢٧ هـ . (ص ١ - ٤١٠) وذيلاه بهذا الجزء من كتاب تجارب الأمم لمسكويه (ص ٤١١ - ٥٨٣) (ليدن ١٨٦٩ - ١٨٧١) .

وقد ذيل ظهير الدين محمد بن الحسين الدوذراوري وزير الخليفة العباسي المقتدى (٤٧٦ - ٤٨٧ هـ) المعروف بأبي شجاع تاريخ مسكويه بتاريخه الذي تناول فيه الكلام على الحوادث التي وقعت بين سنتي ٣٦٩ و ٣٨٩ هـ . ثم تلاه هلال الصابي في تاريخه الذي ذيل به «أمدروز» كتاب الوزراء إلى سنة ٣٩٣ هـ ، ونقله عنه «مرجليوث» .

كما تناول هلال الصابي الكلام على الحوادث التي وقعت بين سنتي ٣٨٩ هـ و ٣٩٣ هـ . وترجمها مرجليوث إلى الإنجليزية .

وقد طبعت هذه الكتب الثلاثة في القاهرة في سنتي ١٩٣٣ - ١٩٣٤ م .

ويعد كتاب « ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانسي ( ت ٥٥٥ هـ ) بمثابة ذيل لتاريخ هلال الصافي . ويظهر أن ابن القلانسي اعتمد كثيرا على كتاب أبي شجاع وكتاب هلال . وكذلك يعد كتاب ابن القلانسي من كتب التاريخ العامة ، لأنه يتناول فترة طويلة تتعاقب بجزء كبير من أنحاء العالم الإسلامي تمتد بين سنتي ٣٦٠ و ٥٥٥ هـ . كما يعد هذا الكتاب ذا صفة عملية ، لأنه يتناول الحوادث التي جرت في الشام والجزيرة ولاسيما ما يتعلق منها ببيت عماد الدين زنكي الذي كان معاصرا له ، وكان شاهد عيان لما وقع بين زنكي وحكام دمشق من حروب وما أبرم من معاهدات وجرى من مفاوضات . ويمكن الاعتماد على المعلومات التي أوردها ابن القلانسي عن أسرة زنكي وعلاقتها بالصلبيين . على أنه يلاحظ على أسلوب ابن القلانسي كثرة السجع والتكرار اللذين يثيران الملل في نفس القارئ .

وتعتبر مؤلفات أبي الريحان البيروني الخوارزمي ( ت ٤٤٠ هـ ) من أهم مصادر التاريخ والاجتماع . وقد قضى البيروني حياته تحت كنف مأمون بن مأمون أمير خوارزم ، ثم زار حول سنة ٣٩٠ هـ بلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير الذي اشتهر في طبرستان بتشجيع العلماء ، وأهدى إليه البيروني تاريخه المشهور « الآثار الباقية عن القرون الخالية » الذي نشره إدوارد سخاو E. Sachau مع ترجمته الإنجليزية ( لندن ١٨٧٩ و ليزج ١٨٧٨ - ١٨٧٩ ) . ويتناول هذا الكتاب القيم نظم الطوائف والجماعات المختلفة والإحتفال بالأعياد القومية والدينية بوجه خاص .

ثم عاد البيروني إلى موطنه خوارزم حيث قضى بقية حياته في بلاط محمود الغزنوي صاحب الفتوح المشهورة في بلاد الهند التي غزاها اثنتي عشرة مرة ونشر الإسلام في كثير من ربوعها . وقد صاحب البيروني السلطان محمود الغزنوي في أغلب غزواته لبلاد الهند حيث لزم البيروني العلماء والفلاسفة وتعلم اللغة السنسكريتية ، وأسست ثقافته بما أفاد من العلماء الهنود في التاريخ والرياضة والجغرافيا والعلوم الطبيعية .

وفي هذه الرحلات جمع البيروني علوم الهنود ومذاهبهم وعاداتهم ، وهي للمعلومات التي ألفت منها كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة » ، ويعرف باسم « تاريخ الهند » (١) . ومن هذا الكتاب يتضح أن البيروني كان ملما باللغة السنسكريتية

(١) نشره إدوارد سخاو وطبعت نسخة هذا الكتاب العربية مع ترجمتها الإنجليزية على نفقة حكومة الهند ( لندن ١٨٨٧ ) .



وبقليل من العبرية والسريانية ، وأنه لم يكن يعرف اليونانية ، بل استقى كثيراً من معلوماته عنها من التراجم العربية أو السريانية. وقد قيل إن مؤلفات البيروني أربت على المائة مؤلف.

ولبيروني أيضاً كتاب « تاريخ خوارزم ». ويقال إنه جمع فيه جميع الأخبار والآثار والقصص المتعلقة بوطنه وخاصة الوقائع التاريخية التي شاهدها بنفسه. وقد أورد أبو الفضل البيهقي عدة فصول من هذا الكتاب في كتابه « تاريخ المسعودي ».

ومن مؤلفات البيروني كتاب « التفهيم في صناعة التنجيم » وهو في مقدمات علم الهيئة والهندسة والنجوم بطريق السؤال والجواب. وقد ألفه حول سنة ٤٢٠ / ١٠٢٩ ( وقيل سنة ٤٢٥ / ١٠٣٣ ) ، وقدمه لرحمته بنت الحسن الخوارزمية ، وكتبه باللغتين العربية والفارسية ، غير أنه جعل لإحدهما ترجمة للأخر (١).

ومن مصادر العصر السلجوقي كتاب تاريخ بغداد أو مدينة السلام للمحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ( ت ٤٦٣ هـ ) . ولو لم يكن للخطيب البغدادي كما يقول ابن خلسكان (٢) « سوى التاريخ لكفاه » . وقد خلف الخطيب البغدادي نحو مائة كتاب . وكان فقيهاً يغلب عليه الحديث والتاريخ . وكان الخطيب البغدادي حافظاً المشرق كما كان ابن عبد البر صاحب كتاب « الاستيعاب في معرفة الأصحاب » حافظاً المغرب . وقد ماتا في سنة واحدة .

وكتاب تاريخ بغداد أو مدينة السلام من أمهات الكتب التي يعتمد عليها في دراسة تاريخ الدولة العباسية من تأسيس مدينة بغداد في عهد أبي جعفر المنصور سنة ١٤٥ هـ إلى سنة وفاة هذا المؤلف . ويشتمل هذا الكتاب على وصف مدينة بغداد وأخبار من عاش فيها من الخلفاء والأمراء والوزراء والعلماء وغيرهم . ويقع هذا الكتاب في أربعة عشر مجلداً ، ويتناول تاريخ الدولة العباسية في أزهي عصورها وفي أيام انحلالها .

ومن أشهر المؤرخين علي بن أحمد بن أبي الكرم بن الأثير ( ت ٦٣٠ / ١٢٣٢ ) الجزري ، وينسب إلى موطنه الأصلي جزيرة ابن عمر القرية من الموصل ، ونشأ بها . ثم

(١) ويوجد من هذا الكتاب نسخ عديدة في مكتبات أوروبا . انظر كتاب جهار مقالة ، تعليقات ميرزا محمد ، الترجمة العربية ص ١٤٦ — ١٤٨ .

(٢) وفیات الأعيان ج ١ ص ٧٦ .

سار إلى الموصل وأخذ العلم على بعض علمائها، ثم قدم بغداد مرارا بعد أن أدى فريضة الحج وسمع من شيوخها. ثم رحل إلى الشام وبيت المقدس وسمع بها، ثم عاد إلى الموصل مسقط رأسه وانصرف إلى العلم والتأليف، واشتهر بتبحره في علم الحديث والتاريخ وعلم الأنساب. وقد اختصر كتاب الأنساب للسمعاني واستدرك عليه في مواضع كثيرة وسماه كتاب « اللباب في معرفة الأنساب »، ويقع في ثلاث مجلدات.

وقد لقي ابن الأثير شمس الدين بن خلكان (ت ٦٨١ هـ) في مدينة حلب سنة ٦٢٧/١٢٢٩ هـ وتردد عليه كثيراً وانتفع بعلمه وأثنى على فضله وتواضعه وكرم أخلاقه. وفي السنة التالية رحل ابن الأثير إلى دمشق ثم عاد إلى حلب حيث انتفع ابن خلكان بعلمه، ثم عاد إلى الموصل.

ويعتبر كتاب « الكامل في التاريخ » من المصادر الأصيلة التي يعتمد عليها في دراسة التاريخ الإسلامي، وعلى الأخص ما يتعلق منه بالحوادث التي وقعت بعد سنة ٣٠٢ هـ، وهي السنة التي انتهى إليها الطبري في تاريخه. والجزء الذي تناول فيه ابن الأثير الكلام على بني بويه من أهم ما كتب عن هذه الدولة. ولعل ابن الأثير استمد أكثر معلوماته عن بني بويه مما كتبه المسعودي عن صدر هذه الدولة في شيء من الإسهاب.

وكذلك يمكن الاعتماد على ما كتبه ابن الأثير عن السيرة النبوية حيث نجد معلومات هامة مركزه، وكذلك ما كتبه عن الفتوح الإسلامية في جزائر البحر الأبيض المتوسط، وعن غزوات المغول على يد چنكيزخان إلى سنة ٦٢٨ هـ، أي إلى ما قبل وفاته بستين. على أنه يلاحظ على كتاب الكامل لابن الأثير كثير من الجود والغموض اللذين يدعوان إلى الملل والسأم ويبعدان عن التشويق في كثير من الأحيان.

وقد خلف لنا ابن الأثير كتابه عن تاريخ الدولة الأتابكية في الموصل، ويسمى التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل). وقد تناول فيه الكلام على بيت زنكي منذ ولاية آق سُنُقَرُ والد عماد الدين زنكي إلى عهد السلطان مسعود (٤٧٧ — ٦٠٧ هـ). وأسرة زنكي هذه هي الأسرة التي نشأت في كنفها أسرة ابن الأثير. وفي هذا الكتاب اعتراف بفضل أسرة زنكي عليه<sup>(١)</sup>. وقد عبر ابن الأثير عن وفاته لهذه الأسرة بخص أحد أحفاد زنكي وهو الملك القاهر (٦٠٧ — ٦١٥ هـ) بكتابه « الباهر » الذي أهداه إليه.

(١) وقد نشر هذا الكتاب في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية أي في الجزء الثاني من المجموعة الشرقية.

ويعد كتاب « الباهر » مصدراً رئيساً لتاريخ أسرة زنكي ، ويشتمل على معلومات قيمة عن سيرة عماد الدين زنكي . وقد نقل ابن الأثير هذه المعلومات المفصلة عن أبيه الذي عاش تحت كنفهم . كما يمدنا ابن الأثير بمعلومات هامة عن نظام الجيش وفرقه وأساليب القتال ونظام الإقطاع في عهد هذه الأسرة ، وعن سياسة زنكي في الموصل وإربل وجزيرة ابن عمر ومناطق الأكراد .

أما المناطق الأخرى كبغداد والجزيرة ودمشق وحلب فقد اعتمد ابن الأثير في كتابه « الباهر » على ما دونه أسامة بن منقذ ( ت ٥٨٤ / ١١٨٨ ) في كتابه « الاعتبار » أو « حياة أسامة » . ويعد هذا الكتاب من المصادر الهامة لأن مؤلفه عاصر عماد الدين زنكي سنين عدة واتصل به اتصالاً وثيقاً ووقف على حياته السياسية والخاصة ، وكان شاهد عيان لما جرى في عهده من أحداث وأمور .

كذلك اعتمد ابن الأثير في كتابه « الباهر » على يحيى بن أبي طى (١) ( ١٣٠٢ / ١٢٣٢ - ١٢٣٣ ) والقاضي بهاء الدين بن شداد ( ت ٦٣٢ / ١٢٣٤ ) في كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ( يعنى صلاح الدين يوسف بن أيوب ) .

ويتبع ابن الأثير في كتابه « الباهر » التسلسل الزمني للأحداث التاريخية اللهم إلا إذا استثنينا ما كتبه عن سيرة عماد الدين زنكي . ويتسم ابن الأثير في كتابه « الباهر » بالتحيز لعلماد الدين زنكي والمغالاة في مدحه ويفعل أخطاهه ولعل مرد ذلك أنه قدم هذا الكتاب هدية لأحد أحفاد عماد الدين زنكي ونرى ابن الأثير أقل تحيزاً لزنكي في كتابه « السكامل في التاريخ » .

ومن مؤلفات ابن الأثير كتاب « أسد الغابة في معرفة الصحابة » ويقع في ستة أجزاء .

---

(١) وأصله من حلب . وقد اعتنق ( كأبيه من قبله ) العقائد الشيعية . ومن مؤلفاته كتاب « معجم شعراء الشيعة » و « رسالة في فضائل الأئمة الاثنا عشرية » . كما وضع ترجمة حياة صلاح الدين الأيوبي في متناول أيدينا عن طريق أبي شامة ( ت ٦٦٥ / ١٢٦٧ - ١٢٦٨ ) وتقى الدين المقرئ ( ت ٨٤٥ / ١٤٤١ ) ، وله « شرح لامية العرب » للشنفرى ( بكسر الشين وسكون النون وفتح الفاء والراء ) الذي وضعه سنة ٦١٨ هـ ( ١٢٢١ م ) .

انظر مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ( المؤرخون الشرقيون ) ج ١ ص ٤٠٧ حاشية رقم ٣ مقدمة ب . ل . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥١٧ - ٥١٨ .

وهناك كتاب « الاصابة في تمييز الصحابة » لشهاب الدين ابن حجر العسقلاني ( ت ٨٥٣ / ١٤٤٩ ) (١).

وبما يؤخذ على ابن الأثير ركاكة عباراته وغموضها في كثير من الأحيان ، ولكن ذلك لا يقلل من أهمية مؤلفاته التي تتميز بغزارة المادة التاريخية وعمق الفكرة ودقة البحث .

ومن أشهر العلماء في هذا العصر الحافظ أبو سعد ( ويقال أبو سعيد ) عبد الكريم التميمي السمعاني المتوفى سنة ٥٦٣ هـ . وقد ولد السمعاني بمدينة مرو حاضرة خراسان سنة ٥٠٦ هـ ، وتبحر في الفقه والحديث والأنساب ، واختلف في سبيل طلب العلم إلى كثير من البلدان ، إذ رحل إلى بلاد ماوراء النهر وخراسان وإلى قومنس والري وأصبهان وهمدان وبلاد الجبل والعراق والحجاز والموصل والجزيرة والشام وغيرها من البلاد . ولقى في رحلاته كثيراً من العلماء الذين أخذ عنهم وروى عنهم حتى قيل إن عدد شيوخه قد نيف على الأربعة آلاف ، ولو أن هذا الكلام يتسم بكثير من المبالغة .

وقد خلف لنا السمعاني كثيراً من الكتب نخص بالذكر منها : كتاب « تذييل تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي ويقع في نحو خمسة عشر مجلداً . كما خلف « تاريخ مرو » الذي يزيد على عشرين مجلداً . ولعل أشهر كتب السمعاني كتاب « الأنساب » ويقع في ثمان مجلدات . وقد نشر في سلسلة ذكرى جب التذكارية رقم ٢٠ ( ١٩١٢ ) . وقد لخص ابن الأثير كتاب الأنساب للسمعاني ويعرف باسم « الباب في معرفة الأنساب » .

وكان أبو سعد السمعاني من بيت علم ودين . فقد ظهر من هذا البيت كثير من العلماء والرؤساء . وكان أبوه محدثاً وفقهاً (٢) .

ومن أشهر مؤرخي هذا العصر نجم الدين عمارة البيني الذي نبغ في الشعر والفقه والتاريخ الذي تقدمت الإشارة إليه عند كلامنا على الشعر ونظم الحكم . وقد أقصاه إخلاصه للفاطميين عن عطف الأيوبيين وانتهت حياته الحافلة بشغفه في شهر رمضان سنة ٥٦٩ هـ ( ١١٧٤ م ) لانتهامه بالاشتراك في التآمر لإعادة سلطان الفاطميين . وقد خلف لنا عمارة البيني هذه المؤلفات التي تعد ذخيرة علمية وهي :

(١) ويقع في ستة أجزاء ( القاهرة ١٢٨٠ هـ ) وقد قام سبرنجر على طبعه ( كلكتا ١٨٥٦ — ١٨٧٣ ) ، ( والقاهرة ١٢٨٠ هـ ، ١٣٢٣ هـ ) .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٧٨ — ٣٨٠ .

(١) كتاب النسك العصرية في أخبار الوزراء المصرية (باريس ١٨٩٧) .

(٢) كما خلف لنا عمارة تاريخ حياته .

(٣) كتاب تاريخ اليمن ، وعليه المختصر المنقول من كتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون ،

ثم أخبار القرامطة باليمن تأليف القاضي البهاء الجندی ( لندن ١٣٠٩ هـ ) .

ومن أشهر علماء هذا العصر ومؤرخيه الحافظ جمال الدين عبد الرحمن بن جعفر بن الجوزي<sup>(١)</sup> الذي ينسب إلى أبي بكر الصديق . وقد عاش ببغداد ، وكان ، كما وصفه ابن خلكان ، علامة عصره وإمام وقته في الحديث والوعظ . وقد ألف في كثير من أنواع العلوم ، ومن مؤلفاته .

(١) زاد المسير في علم التفسير ويقع في أربعة مجلدات .

(٢) الموضوعات ويتناول الأحاديث الموضوعية ويقع في أربعة مجلدات .

(٣) تلخيص فهوم الاثر وهو تعليق على كتاب المعارف لابن قتيبة .

(٤) لقط المنافع في الطب .

(٥) وربما كان أهم كتب أبي الفرج بن الجوزي جميعا كتاب « المنتظم في تاريخ

الملوك والامم<sup>(٢)</sup> .

وقد قيل إن السكراريس التي كتب أبو الفرج بن الجوزي كثيراً منها بخطه لو جمعت وقسمت على أيام حياته لكان له كل يوم تسع كراريس . وهذه المبالغة إن دلت على شيء فأنما تدل على غزارة علمه وكثرة مؤلفاته . وقد توفي ابن الجوزي ببغداد سنة ٥٩٧ هـ<sup>(٣)</sup> .

ويعد كتاب « تاريخ جهان » كشفاً أو « تاريخ فاتح العالم » ( أي چنكيزخان ) الذي ألفه عطا ملك الجويني ( بضم الجيم وفتح الواو وسكون الياء ) من أهم المصادر التي يعتمد عليها في تاريخ المغول . ويشتمل هذا الكتاب على ثلاثة أجزاء ، يتناول الجزء الأول منها الكلام على أصل المغول وغزوات چنكيزخان ، والثاني يبحث في تاريخ ملوك خوارزم المعروفين باسم « خوارزمشاه » ، والثالث يتحدث عن الحشاشين أو إسماعيلية حصن الموت وقهستان وحروب هولاء كرمهم .

(١) الجوزي نسبة إلى موضع يقال له فريضة الجوز .

(٢) يقع في خمسة أجزاء مطبوعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن بالهند ( ١٣٥٩ هـ ) .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٢٠ — ٣٢٢ .

وقد نشر هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء ضمن سلسلة جب التذكارية وحققه الأستاذ محمد عبد الوهاب القزويني (١).

ويعتبر كتاب « تاريخ دولة آل سلجوق » من أهم المصادر التي يعتمد عليها في دراسة تاريخ السلاجقة . وقد ألف هذا الكتاب أنوشروان خالد بن محمد القاشاني وزير الخليفة المسترشد العباسي ( ٥١٢ - ٥٢٩ هـ ) ، ثم ترجمه إلى العربية عماد الدين الأصفهاني ( ت ٥٩٧ هـ ) الكاتب المشهور وصاحب كتاب « خريدة القصر وجريدة العصر » ، ثم اختصر هذه الترجمة الفتح بن علي بن محمد البنداري ( بضم الباء وسكون النون وكسر الراء ) الأصفهاني في سنة ٦٢٣ هـ ( ١٢٢٦ م ) .

ويتناول مختصر البنداري في تاريخ آل سلجوق تراجم سلاطين السلاجقة وعلاقتهم بالخلفاء العباسيين في عهدهم ، كما يبحث نشأة دول الأتابكة ، ويتناول السلام على الوزراء وما قام به الإسماعيلية من الأعمال العدوانية ضد السفين (٢) . وقد لحص البنداري كتاب الشاهنامه للفردوسي بأسلوب نثرى . على أنه يؤخذ على كتاب تاريخ دولة آل سلجوق للبنداري ركاكة الأسلوب وغموضه وتعقيد المعاني في كثير من الأحيان .

ومن المصادر التاريخية باللغة الفارسية كتاب « منهاج السراج » للجوزجاني (٣) . وله أيضا كتاب « طبقاتى ناصرى » . وقد ولد حول سنة ٥٩٠ هـ ( ١١٩٣ م ) والتحق ، كأبيه وجده ، بخدمة ملوك الغور . وفي سنة ٦٢٤ هـ ( ١٢٢٦ م ) خرج الجوزجاني إلى الهند والتحق بخدمة السلطان ناصر الدين قباچه ( بضم القاف ) ، وظل الجوزجاني في خدمته حتى انهزم بعد سنة ، فالتحق بخدمة شمس الدين إبلتتمس الذى تغلب على قباچه ، وأهدى كتابه منهاج السراج إلى ابنه ناصر الدين محمود .

ويشتمل كتاب « طبقاتى ناصرى » على عشرين فصلا تبدأ بالأنبياء والأولياء وتنتهى بغارة المغول التي تناول المؤلف الكلام عليها في شيء من التفصيل الذى لا نجد في المراجع الأخرى . وقد طبع الكتاب « نساو ليز » جزءا من هذا الكتاب ترجمه رافيرتى في سلسلة

(١) وقد اعتمد دوسون على هذا الكتاب كثيراً في تأليف كتابه تاريخ المغول .

#### Histoire des Mongols

انظر براون : تاريخ الأدب في إيران : الترجمة العربية للدكتور الشواربى . ج ٢ ص ٥٩٩ - ٦٠٠ .

(٢) نشر المستشرق هوتسما الفصلين الثالث والأخير من هذا الكتاب .

راجع براون : تاريخ الأدب في إيران : الترجمة العربية ص ٥٩٨ - ٥٩٩ .

(٣) نسبة إلى جوزجان ( بفتح الجيم والزاي وسكون الواو ) بالقرب من بلخ .

مكتبة الهند . ويتناول هذا الجزء المطبوع الدول المتصلة بالهند ، ويفغل كل ما له صلة بأهراء الطاهريين والصفاريين والسامانيين والديلم والسلاجقة والحوارزميين وغيرهم من الحكام الذين كانت لدولهم أهمية خاصة لدى المعنيين بدراسة تاريخ إيران (١) .

ومن أشهر مؤرخي العصر السلجوقي الأخير جرجيس المسكين (٢) (ت ٦٨٠ / ١٢٧٣) . وكتابه « المجموع المبارك » (٣) من أوائل الكتب الأصلية التي طبعت في أوروبا . وقد نشر المستشرق الهولندي إيربنيوس ( Erpenius ) كتاب المسكين مع ترجمته اللاتينية بمدينة ليدن سنة ١٦٢٥ . ثم ترجم برجاس ( Purchas ) هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية في السنة التالية . ثم ترجمه فانير Vattier إلى الفرنسية سنة ١٦٥٧ (٤) .

ومن أشهر مؤرخي هذا العصر غريغورس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبري ( أى اليهودي ) لأن أباه أهرون ترك دياناته اليهودية واعتنق المسيحية . ويعرف ابن العبري أيضا باسم « جريجوريوس » أو غريغوريوس ، وهو الاسم الذى أطلقه على نفسه سنة ٦٤٤ هـ ( ١٢٤٦ م ) عند ما تولى أسقفية جوباس .

ولد ابن العبري سنة ١٢٢٦ م في مدينة ملطية بأرمينية الصغرى ، وتعلم في صغره اليونانية والسريانية والعربية ، ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت . فلما عم الفزع الناس من غارات المغول فرّبه أبوه - وكان طبيبا - إلى مدينة أنطاكية في سنة ٦٤١ هـ ( ١٢٤٣ م ) .

وقد عاش ابن العبري عيشة الزهد والنسك وانفرد في مغارة بالبرية ، ثم سار إلى مدينة طرابلس الشام حيث أتم دراسة البيان والطب ورتى وهو في العشرين من عمره إلى أسقفية جوباس من أعمال ملطية . وفي سنة ١٢٦٤ م انتخب مفرىفا . وبعد هذا المنصب من أكبر المناصب بعد منصب البطريرقية ( وهو أشبه بكبير رؤساء الأساقفة ) (٥) على جهات ما بين النهرين والعراق العجمي . وكان يقيم أحيانا في الموصل وأحيانا أخرى في إقليم أذربيجان أى

(١) براون : تاريخ الأدب في إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٩٥ — ٥٩٦ .

(٢) أو عبد الله بن أبي الياسر بن أبي المسكارم بن العميد ، وهو مسيحي مصري .

(٣) أصبح كتاب « التاريخ المبارك » وكتاب « المختصر في أخبار البشر » لأبى القدا صاحب جماء أهم المصادر العربية التي ظلت في متناول المستشرقين الأوربيين المشتغلين بالتاريخ الإسلامى فترة طويلة .

(٤) انظر براون : تاريخ الأدب في إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٩٦ — ٥٩٧ .

(٥) وهى كلمة فارسية معناها المنير .

في تبريز والمراغة في الشمال الغربي من إيران ، ومات في مدينة المراغة سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) (١).

وقد ألف ابن العبري أكثر من ثلاثين كتابا بالعربية والسريانية في الفلسفة وعلم الهيئة والطب والتاريخ والنحو والشعر وغيرها ، نخص بالذكر منها كتابه المعروف « مختصر تاريخ الدول » . وقد كتبه في الأصل باللغة السريانية ، ولكن جماعة من كبار المسلمين طلبوا إليه أن ينقله إلى العربية ، ففعل ذلك في السنوات الأخيرة من حياته ، وطبع هذا الكتاب أكثر من مرة ، وترجم إلى اللاتينية والألمانية ، وطبع في بيروت سنة ١٨٩٠ م في ٦٣٠ صفحة .

وقد تناول ابن العبري في كتابه عشر دول هي :

- (١) دولة الأولياء من آدم إلى « البرنساء » أي الناس .
- (٢) دولة قضاة بني إسرائيل .
- (٣) دولة ملوك بني إسرائيل .
- (٤) دولة ملوك السكديانيين .
- (٥) دولة ملوك المجوس ، أي ملوك إيران منذ الملك الاسطوري « كيومرث » إلى « دارا » ومقتله على أيدي الإسكندر الأكبر .
- (٦) دولة ملوك اليونانيين الوثنيين .
- (٧) دولة ملوك الفريج ويقصد بهم ملوك الرومانيين .
- (٨) دولة ملوك اليونانيين المنتصرين أي البيزنطيين .
- (٩) دولة ملوك العرب المسلمين .
- (١٠) دولة ملوك المغول ( إلى سنة ٦٨٣ / ١٢٨٤ ) ، وهي السنة التي تولى فيها « أرغون » الحكم (٢) .

---

(١) ابن العبري : مختصر تاريخ الدول ( طبعة بيروت ج ١ : ح . د . هـ . و .  
(٢) وقد كتب « تولدكة » مقالا عن ابن العبري والعصر الذي عاش فيه نشره في كتابه « صور من التاريخ الشرقى » ، وقد ترجم جون بلاك هذا الكتاب إلى الإنجليزية .  
انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ عمرو بن العاص ( القاهرة ١٩٢٦ ) ص ١٠٧ هامش رقم (١) .  
براون : تاريخ الأدب في إيران : الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٩٣ — ٥٩٥ .



وقد كتب شهاب الدين أحمد النسوى سيرة جلال الدين منكبرتي (١) آخر سلاطين الدولة الخوارزمية ، وقد تولى النسوى ديوان الإنشاء في بلاط هذا السلطان ودون مذكراته عنه في كتاب أسماه « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي » .

وقد دون هذا المؤلف مذكراته في سنة ٦٣٩ هـ ( ١٢٤١ م ) ، أى بعد وفاة هذا السلطان بنحو عشر سنوات . وكان النسوى شديد الصلة بهذا السلطان كما كان شاهد عيان للأحداث والمغامرات التى جرت في حياته . قال هوداس Houdas في مقدمته لسيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ( باريس ١٨٩١ — ١٨٩٥ ) :

« وفي المدة الطويلة التى حكم فيها السلطان جلال الدين ، لم يتركه النسوى إلا في فترات قليلة نادرة كان يؤدي له فيها بعض المهام الخاصة . وكان النسوى إلى جواره ليلة هربه حين هم أحد الأكراد بقتله بخنجره . لذلك يمكن القول بأن كتاب « سيرة جلال الدين منكبرتي » من أصدق ما كتب عنه ، إذ كان المؤلف ملازماً لهذه الأحداث ، وكان يكشف عن أسبابها وعللها ، كما أستطاع أن يتحدث عن سيرته وما جرى في عهده من أحداث في صراحة تامة ، إذ أنه كتب هذه السيرة بعد وفاة صاحبها بنحو عشر سنوات على الرغم من أنه كان متحفظاً بعض الشيء . لأنه كان بطبيعة الحال يحرص على ألا يمس بعض أصدقائه الذين عاصروا هذه الأحداث بسوء (٢) .

على أن التزام النسوى للسجع والمحسنات البدعية قد فوت عليه كتابة كثير من الأحداث التاريخية في دقة ووضوح . ومع ذلك فقد كان النسوى يجيد اللغتين التركية والفارسية ، ولكنه كان ضعيف الكتابة باللغة العربية . لذلك لجأ إلى المحسنات البدعية ليستر بها هذا الضعف . وقد اعترف النسوى بأنه ليس من مؤرخى العصر البارزين أو من كتابه النابهين . ولم يقتصر النسوى على سرد تاريخ السلطان جلال الدين منكبرتي . فقد استهل كتابه بسرد حوادث المغول الأولى وتبّع أحداثهم حتى حطوا رحالهم على حدود الشرق الإسلامى . ثم تكلم على تاريخ الدولة الخوارزمية في عهد علاء الدين محمد خوارزمشاه الذى يعد بحق أشهر سلاطين هذه الدولة ، وعن صراعه مع المغول ، ثم اهتم بتاريخ الدولة الخوارزمية في عهد آخر سلاطينها وهو جلال الدين منكبرتي (٣) .

(١) بفتح الميم وسكون النون وضم الكاف وكسر الباء .

(٢) انظر براون : تاريخ الأدب في إيران : الترجمة العربية ج ٢ ص ٦٠١ — ٦٠٢ .

(٣) سيرة جلال الدين منكبرتي ( نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدى ( القاهرة ١٩٥٣ ) ص

### كتاب التراجم :

وقد حفل العصر السلجوقي بعدد من كتاب التراجم يذكر منهم القفطى (ت ٦٤٦) / (١٢٤٨) وابن أبى أصيبعة ومحمد عوفى وابن خلصكان .

ولد جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف القفطى وزير حلب ( ويعرف بالقاضى الأكرم ) بمدينة قفط من أعمال صعيد مصر سنة ٥٦٨ هـ ( ١١٧٢ م ) حيث رحل إليها آباؤه من مدينة الكوفة ، ورجع نسب أمه إلى قبيلة قضاة .

وقد أخذ القفطى العلم بمدينتى قوص والقاهرة حتى بلغ الخامسة عشرة من عمره . ثم قلده صلاح الدين الأيوبي أباه يوسف القضاء بمدينة القدس حيث التحق على بأسرته وأقام فيها حتى ذهب أبوه سنة ٥٩٨ هـ ( ١٢٠١ م ) إلى حران ، وكانت من أهم مراكز الدراسات الفلسفية اليونانية فى آسيا حتى إنها سميت « هيلينوبوليس » . وقد تقلد يوسف أبو على الوزارة للملك الأشرف الأيوبي وأدى فريضة الحج بمسكة حيث مات سنة ٦٢٥ هـ ( ١٢٢٧ م ) .

انتقل على بن يوسف المشهور بالقفطى إلى حلب حيث تقلد الخراج ولقب القاضى الأكرم ، واشتهر بالكفاية والامامة وولع بالاستزادة من العلم وتشجيع رجاله . ومن هؤلاء ياقوت الحموى ( أو الرومى ) الذى فر من خراسان إلى هذه المدينة أمام غارات المغول ، فشمه القفطى بعطفه وأحاطه برعايته . ثم تولى القفطى الوزارة للملك العزيز الأيوبي ، فظل فيها إلى أن مات سنة ٦٤٦ هـ ( ١٢٤٨ م ) .

وقد ألف القفطى كثيراً من الكتب ذكر منها ياقوت الذى توفى قبله بنحو عشرين سنة ، كتاب « تاريخ الحكماء » الذى يشتمل على معلومات ذات غناء استمد كثيراً منها من كتاب معجم الأدباء لياقوت . ويشتمل كتاب تاريخ الحكماء على ٤١٤ سيرة من سير الفلاسفة والأطباء والرياضيين والمنجمين الذين ظهرُوا فى مختلف العصور حتى أيامه (١) . وهذا الكتاب الذى رتب مؤلفه على الحروف الهجائية وليس وفقاً للترتيب الزمنى هو مختصر من الكتاب الأصيل الذى وضعه القفطى . وقد أفاد منه كثير من أهل عصره ومن الكتاب المتأخرين ، نخص بالذكر منهم ابن أبى أصيبعة وابن العبري وأبا الفدا ، وقد نشر مرجليوث كتاب تاريخ الحكماء (٢) كما طبع هذا الكتاب فى القاهرة .

(١) وقد طبع هذا الكتاب فى لايبك سنة ١٣٤٠ / ١٩٠٢ .

(٢) راجع براون : تاريخ الأدب فى إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٩٣ .

أما ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٩ / ١٢٧٠) مؤلف كتاب «طبقات الحكماء» فقد ولد في مدينة دمشق سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) حيث درس الطب فيها وفي مدينة القاهرة وزاول كآبيه هذه المهنة واختص بطب العيون ، واشتغل فترة من حياته بأحد المستشفيات التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي في مدينة القاهرة .

وقد نشر مولد هذا الكتاب في مدينة كونجزبرج سنة ١٨٨٤ م ، كما نشر في القاهرة سنة ١٨٨٢ ، واعتمد وسقنفلد اعتماداً كلياً على كتاب ابن أبي أصيبعة في كتابه لدى أنه بالالمانية وعنوانه : « تاريخ الطب والنبات عند العرب » ( جوتنجر ١٨٤٠ ) (١) .

ومن كتب التراجم كتاب « لباب الالباب » وكتاب « جوامع الحكايات ولوامع الروايات » لمحمد عوفى . ويرجع نسبه إلى عبد الرحمن بن عوفى الصعابى المشهور . وقد قضى عوفى معظم طفولته في خراسان وبلاد ماوراء النهر ولا سيما في مدينة بخارى . ثم رحل إلى الهند والتحق بخدمة السلطان « ناصر الدين قباجه » ( بضم القاف ) ، وأهدى إلى وزيره عين الملك حسين الأشعري معجمه الذى صنعه عن شعراء الفرس باسم « لباب الالباب » . فلما اغتيل هذا السلطان سنة ٦٢٦ / ١٢٢٨ بقى عوفى في خدمة السلطان الذى قهره وهو شمس الدين إيلتمش وأهدى إليه كتابه « جوامع الحكايات » . وهو عبارة عن مجموعة واسعة من الحكايات تنقسم أربعة أقسام يشتمل كل قسم منها على خمسة وعشرين باباً ويشتمل كل باب على مجموعة من الحكايات في أسلوب سهل بسيط .

أما كتاب « لباب الالباب » فهو مجموعة مقالات كتبها عوفى عن شعراء الفرس الأوائل . ويعتبر من أهم الكتب في الأدب الفارسى ، ويشتمل على تراجم بعض الشعراء الذين كادت أخبارهم أن تندرس تماماً . ولم يرد ذكرهم قبل ذلك على الرغم من خلو هذا الكتاب من التواريخ الدقيقة أو التفاصيل الممتعة فضلاً عن مختاراته الرديئة عن أقوال الشعراء . ويلاحظ أن المؤلف أهمل جماعة من الشعراء المشهورين كناصر خسرو وعمر الخيام . وعلى الرغم من ذلك كله يعتبر هذا الكتاب ، كما يقول براون ، من الكتب القيمة ، إذ أنه يشتمل على نحو ثلثمائة من تراجم شعراء الفرس الذين ظهروا قبل السعدى . وقد تم طبع الجزأين ، وهما من أهم المراجع التي يعتمد عليها الباحثون في دراسة شعراء الفرس .

(١) انظر براون ، المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٠٥ .

وكتاب « وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان » لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان<sup>(١)</sup> (ت ١٢٨٢/٦٨١) من أهم المراجع التي لاغنى عنها لطلاب الدراسات الإسلامية . ولا ريب أنه يحتل المسكاة الأولى بين كتب التراجم . وقد بدأ ابن خلكان في تصنيفه في القاهرة سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) ، وانتهى منه في سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م)<sup>(٢)</sup> . وينتسب ابن خلكان إلى البرامكة ، وولد في إربل سنة ٦٠٨ / ١٢١١ . ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره انتقل إلى حلب ، ثم إلى دمشق ، ثم إلى القاهرة ، ثم إلى الإسكندرية حيث شغل كثيراً من المناصب في التعليم والقضاء .  
وقد عني الكتاب بعد ابن خلكان بتذييل معجمه الكبير « وفيات الاعيان » ، فوصل فضل الله الصقاعي كتاب وفيات الاعيان إلى سنة ٧٣٦ هـ (١٣٢٥ م) . ثم صنف ابن شاکر الکتبی (ت ١٣٦٢/٧٦٤) كتابه « فوات الوفيات » وهو تمة أيضاً لكتاب وفيات الاعيان .

### التواريخ المحلية

وهناك تواريخ محلية خاصة بالمدن والأقاليم ، ومن هذه التواريخ ما يتعلق بتاريخ مكة أو المدينة أو الحجاز .

ومن ألف في تاريخ مكة الأزرقی (ت ٨٥٨/٢٤٤) والفاکمی (ت ٨٨٥/٢٧٢) . ويعتبر كتاب « أخبار المدينة » لعمر بن شبة (بفتح الشين والباء مع التشديد) (ت ٢٦٢ هـ) من أهم مصادر المدينة المنورة . فقد عني بوصفها من الناحية التخطيطية (أو الطبوغرافية) معتمداً على مشاهداته الشخصية وما نقله عن كثير من الرواة ، وتسكلم عن آبارها ووديانها وأسواقها ومساجدها ، وتناول الكلام عليها من الناحية الاجتماعية ولا سيما خطط المهاجرين وعشائرهم ودورهم وأخبارهم . ولا ين شبة كتب أخرى عن البصرة والكوفة ومكة . ويروي الطبري أخبار ابن شبة التي رواها عن المدائني وزاد عليها زيادات شاملة حتى أصبحت مرجعاً أساسياً لمن أتى بعده من المؤرخين .

(١) بفتح الماء وكسر اللام مع التشديد .

(٢) وقد نشره وستنفلد (١٨٣٥ — ١٨٤٣) وطبع أكثر من مرة ، كما ترجمه دى سلان إلى الإنجليزية في أربعة مجلدات (١٨٤٢ — ١٨٤٨) ، وطبع أخيراً في القاهرة (١٩٤٨/١٣٦٧) بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

وعن كتب عن المدينة الزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ) . وبعد كتابه « أخبار المدينة » من الكتب التي لعبت بها يد الدهر . وقد اعتمد البكري وياقوت الحموي على ما كتبه الزبير عن المدينة<sup>(١)</sup> .  
وهناك تواريخ محلية أخرى تتعلق بتاريخ فارس وخراسان وطبرستان والعراق ومصر والمغرب وغيرها .

ومن هذه التواريخ « تاريخ طبرستان » تأليف محمد بن الحسن بن إسفنديار . وقد اعتمد في وضع كتابه الفارسي على النسخة العربية من كتاب « تاريخ طبرستان » التي عثر عليها في مكتبة الملك « رستم بن شهریار » وقام بتأليفها اليزدادي في أيام قابوس بن وشمكير (٣٦٦ - ٤٠٣ / ٩٧٦ - ١٠١٢) . وبعد ذلك عاد ابن إسفنديار إلى أمل ثم انتقل منها إلى مدينة خوارزم وقال عنها إنها مدينة عامرة برجال العلم والأدب ، ووجد فيها كثيرا من المادة التي ساعدته على استكمال كتابه . ومن المرجح أن ابن إسفنديار مات على أيدي المغول في أثناء غارتهم على خوارزم في سنة ٦١٧ / ١٢٢٠ .

وتشتمل الأجزاء الأولى من هذا الكتاب على كثير من الأمور المتصلة بالأساطير ، فإذا وصل ابن إسفنديار إلى العصر الإسلامي أفاض في ذكر الحقائق التاريخية والجغرافية والإخبارية وخاصة التفاصيل التي تتعلق بسير المشهورين من الرجال المحليين سواء في طبرستان أم في خارجها ولا سيما سير الشعراء الذين نظموا أشعارهم باللهجة الطبرية المستعملة استعمالا واسما في طبرستان .

وقد انتهى ابن إسفنديار من تاريخه حتى سنة وفاة رستم بن أردشير سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) ، ثم جاء مؤرخ آخر فاستكمل هذه الأحداث التاريخية إلى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) .

وقد ألف أبو سعد السمعاني (ت ٥٦٢ هـ) « تاريخ مرو » ، ويقع في أكثر من عشرين مجلداً كما تقدم .

وهناك تواريخ محلية أخرى كثيرة في الأدب الفارسي شبيهة بتاريخ ابن إسفنديار تتعلق بتاريخ بعض المدن الإيرانية مثل أصفهان ، وشيراز ، وقم ، وهرات ، وسجستان ، وشستر ، ومؤلفات أخرى وضعت عن طبرستان وحدها ، ولا زال أغلب هذه المؤلفات

(١) صالح أحمد العلي : « المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز » بحث مُستَل من المجلد الحادي

مخطوطاً. (١) ومن هذه التواريخ المحلية كتاب « تاريخ خوارزم » لأبي الريحان البيروني ، وقد أورد البيهقي عدة فصول من هذا الكتاب في كتابه « تاريخ المسعودي »، (٢) ويعتبر هذا الكتاب مفقوداً .

ومن كتب التاريخ التي ألفت عن دولة معينة تاريخ العُتبي « تاريخ العيني » نسبة إلى السلطان عيين الدولة محمود الغزنوي ، وقد كتب العتبي هذا الكتاب باللغة العربية ، ثم ترجمه إلى الفارسية ناصح الجزبادقاني (٣) ، وقد طبعت هذه الترجمة على الحجر في طهران سنة ١٢٧٢ هـ ( ١٨٢٥ م ) . ثم نقلت إلى التركية والإنجليزية .

ومن كتب التاريخ الخاصة التي نقلت عن دولة معينة كتاب « تاريخ جهان كُشا » أو « تاريخ فاتح العالم » (٤) لمؤلفه عطا مَلِك الجويني ( بضم الجيم وفتح الواو وسكون الياء ) .

ومن الكتب المحلية التي ألفت بالعربية كتاب « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي ، وكتاب « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » لعبد الواحد المراكشي ، وكتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » لتقي الدين المقرئ ، وكتاب « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب » للمعري .

### ( ب ) مصادر العصر المغولي الأول

إن المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ في استقصاء غزوات المغول ، وحصار بغداد على يد هولاكو وزوال الخلافة العباسية وما كان لذلك من أثر تكاد تكون فارسية في جملتها . فإن ابن الأثير ( ت ٦٣٠ / ١٢٣٢ ) قد تناول غزوات المغول الأولى إلى سنة ٦٢٨ هـ وهي آخر السنين التي تناول فيها الحوادث التاريخية في كتابه « الكامل في التاريخ » .

وقد أمدنا بعض المؤرخين بمعلومات ذات غناء عن غزوات المغول من أمثال

- 
- (١) براون : تاريخ الأدب في إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٦٠٨ - ٦١٠ .
  - (٢) انظر ما ذكرناه عن البيروني نقلاً عن كتاب جهار مقاله لنظامي عروضي السمرقندي ، الترجمة العربية ، الحواشي ص ١٤٦ .
  - (٣) نسبة إلى جزبادقان ، وهو مكان بين استراباذ وجرجان من نواحي طبرستان .
  - (٤) ويقصد بعبارة « فاتح العالم » جنكيزخان .

ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ / ١٢٢٩) في كتابه «معجم البلدان» وقد اختصره عبد المؤمن ابن عبد الحق (ت ٧٣٩ / ١٣٣٨) (١).

ومن كتب عن المغول أبو الفرج الملقب المعروف بابن العبري (ت ٦٨٥ / ١٢٦٦). وقد طبع كتابه «تاريخ مختصر الدول» أكثر من مرة وترجم إلى اللاتينية والألمانية كما تقدم، وقد تناول في كتابه عشر دول، وتناول في الباب العاشر (دولة المغول إلى سنة ٦٨٣ / ١٢٨٤) وهي السنة التي تولى فيها أرغون إيلخان المغول في فارس الحكم. ومن هؤلاء أيضاً ابن طباطبا (ت ٧٠٩ / ١٣٠٥)؛ فقد وصف في كتابه «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» الذي انتهى من تأليفه في سنة ٧٠١ هـ المستعصم آخر الخلفاء العباسيين في بغداد وبين كيف استولى عليه أصحابه من الجهال وما عرف عنه من سوء التدبير والانصراف إلى اللهو واستهتاره بقوة التتار وعدم أخذه الحيطة لمواجهة خطرهم.

ومن تناول غزوات المغول الأولى: ابن خلسكان (ت ٦٨١ / ١٢٨١) في كتابه وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، وابن شاكر الكنتي (ت ٧٦٤ / ١٣٦٢) الذي يعتبر كتابه «فوات الوفيات» متعماً لكتاب ابن خلسكان، وتاج الدين السبكي (٧٧١ / ١٣٧٠) في كتابه «طبقات الشافعية الكبرى»، وعماد الدين (إسماعيل بن عمر) بن كثير (٧٧٤ / ١٣٧٣ - ١٣٧٣) في كتابه «البداية والنهاية»، وابن بطوطة (٧٧٩ / ١٣٩٤)، وابن خلدون (ت ٨٠٨ / ١٤٠٥) في كتابه المسمى «العبر وديوان المبتدأ والخبر»، والقلقشندي (ت ٨٢١ / ١٤١٨) في كتابه «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» والمقرئزي (٨٤٥ / ١٤٤١) في كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» و«السلوك في معرفة دول الملوك».

أما عن المصادر الفارسية فأشهرها ثلاثة:

(١) تاريخ «جهان كُشا» (٢) Taïrikhi - Djihan - Kushai

أو «تاريخ فاتح العالم» (يقصد جنكيزخان) تأليف علاء الدين عطا ملك الجويني وزير

(١) ويقع في أربعة أجزاء (طبعة جوينيل، لندن ١٨٥٣)

(٢) وقد نشر «شيفر» جزءاً من هذا الكتاب في الجزء الثاني من كتابه «مختارات فارسية» ج ٢ ص ١٠٦ - ١٦٩. ويبدأ بقارة المغول على خوارزم وينتهي بقارتهم على نيسابور. ونشر «كترمير» جزءاً آخر مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٣٦ ويتناول أحوال هولوكو، ونشر «بريزين» (Berésine) جزءاً آخر من هذا الكتاب، وقد تم طبع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء.

هولاكو . وبعد من أحسن الكتب المعاصرة ومن أقدم المراجع التي كتبت عن تاريخ المغول وانتصاراتهم . وقد تنقل «عطا ملك» بين ربوع منغوليا ، فوصف ما شاهده وصفاً دقيقاً ، وإليه وإلى «وليام روبروك» يرجع الفضل في وصف مباني المغول وكثير من وقائع جنكيزخان .

(٢) طبقاتي ناصري أو منهاجي سراج الجوزجاني (كلكتا ١٨٦٤) للجوزجاني الذي ألفه بعد سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) بسنتين . وكان الجوزجاني أحد المؤرخين المعاصرين لهولاكو .

(٣) تاريخ المغول ، ويعرف بجماع التواريخ (لندن ١٩١٠) (١) . وقد انتهى رشيد الدين فضل الله الهمداني (ت ٧١٨) من تأليفه سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) . وقد أفاض رشيد الدين في تاريخ إيلخانات المغول في فارس ، وخصص الجزء الأول من هذا الكتاب لحياة هولاكو (ص ٨٥ — ٤٢٥) . وقام كترمير بترجمة هذا الكتاب إلى الفرنسية بعنوان *Histoire des Mongols de la Perse: Rachid El Din* .

وبعدنا هذا الكتاب بشيء كثير عن حصار بغداد على أيدي المغول . وبعد أوفى هذه المصادر وأهمها ، وقد قامت وزارة الثقافة والإرشاد القومي (ج . ع . م) على ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية .

(٤) وهناك مصدر آخر لا يقل أهمية عن المصادر السابقة هو كتاب تجزئة الأمصار أو «تاريخي ووصافي» الذي كتبه بالفارسية عبد الله بن فضل الله المعروف بوصافي الحضرة ومؤرخ حياة غازان (٦٩٤ — ٧٠٣ / ١٢٩٥ — ١٣٠٤) ، أشهر إيلخانات المغول في فارس . وقد ولد ابن فضل الله سنة ٦٦٣ هـ ، أي بعد حصار بغداد بسبع سنين ، ولا يبعد أن يكون قد أخذ من المؤرخين الذين شهدوا حصار مدينة بغداد على يد هولاكو (٢) .

وهناك مصادر أوربية حديثة تمدنا بتفاصيل واقية عن تاريخ المغول نذكر منها ثلاثة تعتبر أحسنها وأدقها وهي :

(١) وقد طبع هذا الكتاب في سلسلة «جيب» التذكارية .

(٢) راجع مقال الأستاذ براون عن هذا الكتاب في المجلة الآسيوية الماسكية بإنجلترا .

J. R. A. S., vol. XL, pp. 17—37.



(١) كتاب *Histoire des Mongols (Tamerlan)* تأليف البارون «دوسون». ويتناول هذا الكتاب تاريخ المغول من عهد چنكيزخان إلى عهد تيمورلنك . وقد طبع في أربعة أجزاء استقصى فيها المؤلف تاريخ المغول معتمداً على أحسن المصادر العربية والفارسية كما حدثنا في مقدمة الجزء الأول من كتابه<sup>(١)</sup> .

ويقول «دوسون» إنه كان لغارات المغول آثار بعيدة ، وإن حكومتهم كانت انتصاراً للفساد وانحطاط الخلق ، وتاريخهم يتميز بطابع الوحشية والقوة والبطش واضطهاد الشعوب وابتزاز الأموال<sup>(٢)</sup> .

(٢) كتاب *History of the Mongols* ( تاريخ المغول ) ، تأليف سير هنري هوورث Sir Henry Howorth ، وهو في ثلاثة أجزاء ، يتألف الجزء الثاني منها على المجلدين الثاني والثالث ، ويتناول الجزء الثالث ( الذي يكون المجلد الرابع من الكتاب ) الكلام على دولة المغول في فارس ( لندن ١٨٧٦ — ١٨٨٨ )<sup>(٣)</sup> .

ويختلف رأى « هوورث » عن رأى « دوسون » في المغول ، ويرى أنه لم يكن بد من القضاء على الترف والفساد اللذين سادا في ذلك العصر حتى يتكون جيل جديد يقوم على الفضيلة . ويشبه هوورث المغول بالمعاول التي قوضت هذا الفساد ، ويقول إن الفتوحات المغولية قد أدت إلى اتصال أمم الشرق والغرب ، وإن الطباعة والبوصلة البحرية والأسلحة النارية وبعض مظاهر الحياة الاجتماعية قد انتقلت إلى أوربا بتأثير هذه الغارات .

(٣) والمصدر الثالث الذي يسترعى الانتباه وعلى الأخص من حيث تأثيره في تركيا ونشوء الحركة الطورانية ( Pan Turanian Movement ) فهو كتاب « مقدمة لتاريخ آسيا والأتراك والمغول إلى سنة ١٤٠٥ م » مؤلفه « كاهون »<sup>(٤)</sup> .

ويذهب هذا المؤلف إلى أبعد مما ذهب إليه « هوورث » في إعجابهِ بالمغول وتمجيده لكل الشعوب التركية وإطرائه صفاتهم الحربية ، وما أدوه من خدمات الإنسانية ، وتضامهم السياسي ووقوفهم في وجه آل ساسان من الفرس وفي وجه النفوذ الإسلامي

(١) دوسون ج ٢ ص ١٠ — ٦٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٧ — ٨ .

(٣) Howorth, *History of the Mongols*, vol. II, pp. 10—11. (٣)

(٤) Cahun, pp. 9, 79. (٤)

في فارس . ويقول « كاهون » عن المغول لهم قوم شجعان أقوياء كرماء ، ويعجب بنظامهم الإدارى الدقيق وانعدام روح التعصب الدينى فيهم .

كذلك يقول « كاهون » إن الحركة الطورانية من الناحية الأدبية ترمى إلى تفضيل الكلمات والتعبيرات والاصطلاحات التركبية على العربية والفارسية ، على حين أنها تهدف من الناحية السياسية إلى مزج جميع الشعوب التركبية التى تقطن شرقى بحر قزوين وغربيه ( ويدخل فى ذلك المغول والتتار ) وانضواء هؤلاء جميعاً تحت لواء دولة واحدة ، ثم إلى إقامة إمبراطورية تركبية أو طورانية تشبه الإمبراطورية التى قامت على يد چنكيزخان . ولهذا نجد الأتراك فى القرن العشرين يستمدون آراءهم من هذا الكتاب لدعم حركتهم الطورانية .<sup>(١)</sup>

(٤) أضف إلى ذلك ما ورد عن المغول فى المصادر الأخرى ، نخص بالذكر منها ما كتبه سير توماس أرنولد Thomas W. Arnold فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام »<sup>(٢)</sup> ( لندن ١٩٣٥ ) عن انتشار الإسلام بين التتار والمغول فى فارس والهند وأوروبا ، وما كتبه إدوارد براون Edward E. Browne فى كتابه تاريخ الأدب فى إيران A Literary History of Persia, Vols. II and III. وهناك طائفة أخرى من المؤرخين كتبوا عن المغول فى فارس وبخاصة فى عصر تيمور من أمثال :

(١) شرف الدين على يزدى الذى ألف كتابه « ظفر نامه »<sup>(٣)</sup> ( طبع فى كلكتا فى جزأين فى مجموعة المكتبة الهندية ) Bibliotheca Indica. ( ١٨٨٧ — ١٨٨٨ ) ويقع فى نحو ١٥٦٠ صفحة .

وقد ألف شرف الدين على يزدى كتابه بأسلوب منمق الألفاظ يتناز بشىء كثير من الملق والرياء ، ولا غرو فقد أسرف فى مدح تيمور الذى وضع كتابه تحت رعايته . وقد ترجم Mercier de la Petit Croix هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية .

(٢) على أننا نرى من ناحية أخرى مؤرخاً آخر وضع كتاباً فى أخبار تيمور هو كتاب « عجائب المقدور فى أخبار تيمور » لآحمد بن عربشاه الذى كتب كتابه فى لهجة

(١) المصدر نفسه س ١١١ — ١١٨ .

(٢) الترجمة العربية : لحسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل محمود النعراوى ( الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ ) .

(٣) ولیدن ١٨٣٦ م ، والقاهرة ١٢٨٥ هـ .

شديدة ، ووصف هذا الفاتح العظيم بعبارات مثل « هذا الخائن » و « هذا المجرم » و « هذا الكلب المجنون » . ويقول الأستاذ براون ( ج ٣ ص ١٨١ ) : « ولكن لهجة التلق التي انتهجها شرف الدين على يزدى أقل مغالاة من قذف ابن عربشاه ، لأنه لم يستطع إنكار مذائح تيمور وأهramه من الجمجم » .

(٣) وهناك كتاب تاريخ فارس تأليف سيرجون مالكولم<sup>(١)</sup> الذي يقول إن قائداً كتيهور أصبح معبود جنده .

ومن كتب في تاريخ المغول ستانلي لينبول في كتابه « الدول الإسلامية » ، وفي كتابه « تاريخ أباطرة المغول في الهند » ، وما كتبه عن أورانبج في كتابه « حكام الهند » ، وما كتبه أيضاً لى سترينج في كتابه « بغداد في عصر الخلافة العباسية » وبارتولد في كتابه « هولاءكو — بغداد » في دائرة المعارف الإسلامية .

وكتاب « مختصر تاريخ الهند » هو موجز « كتاب كيمبريدج في تاريخ الهند » ، ويقع في ستة أجزاء ، وهذه الكتب كلها بالإنجليزية كما سيوضح عند ذكرها في مصادر الكتاب . ويقناول الجزء الثالث من هذا الكتاب الكلام على تاريخ الهند الإسلامية ، ويقناول الجزء الرابع منه الكلام على إمبراطورية المغول في الهند .

وهناك كتاب ظهر حديثاً عن تاريخ المغول في الهند هو كتاب « الإمبراطورية المغولية في الهند » ، وما كتبه السيدة « بيقريدج » عن حياة أكبر خان أعظم أباطرة المغول في الهند .

### ( ح ) مصادر تاريخ الفاطميين والدرؤيبين

ومن الكتب التي ألفها ابن زولاق في تاريخ مصر سيركافور وجوهر والمعز والعزير . بيد أن معظم تصانيف ابن زولاق قد تلاشت لسوء الحظ ، ولا يعرف عنها شيء الآن إلا ما أخذه منها غيره من الكتاب الذين جاءوا بعده . وتصانيف ابن زولاق التي بقيت إلى اليوم هي :

١ — تاريخ مصر .

٢ — سيرة الإخشيد المسماة « العيون الدعج في حلي دولة بني طنج » التي نقلها ابن سعيد في كتاب « المغرب في حلي المغرب » .

٣ — كتاب فضائل مصر ( وهو مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس )، وهو مختصر لهذا السفر الكبير الذى ألفه صاحبه عن تاريخ مصر .

ومن مؤلفات العصر الفاطمى كتاب « الديارات » لآبى الحسن على الشاشتى ( ت ٣٨٨ هـ ) ( برلين مخطوط فيمار رقم ١١٠٠ ) . وهناك كتاب آخر هو كتاب « كنائس وأديرة مصر » لآبى صالح الأرمنى المتوفى سنة ٦٠٥ هـ . وقد ألفه عقب غزو الأكراد والغز هذه البلاد بقيادة شيركوه . وقد كتب أبو صالح جزءاً لا يستهان به من مؤلفه ، اعتمد فيه على ما سمعه ورآه بنفسه فى زيارته للكنائس والأديرة فى القاهرة وضواحيها . والكتاب حافل بأمثلة كثيرة عن الخيرات التى أعدها الخلفاء الفاطميون وكبار الموظفين من المسلمين على القبط وهم مسيحيو مصر ( طبعة وترجمة أ . ت . ايفتس ، اكسفورد ١٨٩٥ ) .

وهناك مؤرخ آخر هو الأمير المختار عز الملك المعروف بالمسيحى ( ت ٤٢٠ هـ ) الذى كتب عن مصر كتاباً مسهباً هو « تاريخ مصر » يقع فى ستة وعشرين ألف صفحة ، ولا يوجد منه إلا الجزء الأربعون بمكتبة الاسكوريال بأسبانيا ، وهو واحد من جملة تصانيفه التى بلغت الثلاثين ولم يعد لها الآن وجود اللهم إلا فى هذه المقتنيات التى نجدها فى المصادر الأخرى . وكان المسيحى رجل فضل وعلم ، وكان على زى الاجناد : اتصل بخدمة الخليفة الفاطمى الحاكم ( ٣٨٦ — ٤١١ هـ ) ، وتقلد فى عهده القيس والبهنسا من أعمال الصعيد . ثم تقلد ديوان الترتيب ، وهو المكان الذى تنظم فيه الرواتب وتدفع لمستحقها . وقد ذكر تصانيف المسيحى من جاء بعده من المؤرخين ، كابن منجب ، وابن ميسر ، وابن خلكان ، والمقرئى ، وأبى المحاسن ، والسيوطى .

وبما نأسف له أشد الأسف ضياع مؤلفات القضاى ( ت ٤٥٤ / ١٠٦٢ هـ ) ، ومن بينها كتاب « عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف » ، وهو مختصر كتاب « الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين » . وهذا الكتاب مخطوط فى المكتبة الأهلية بباريس ، وهو عبارة عن خلاصة الكتاب الأصيل الذى لعبت به يد الضياع . أما مؤلفات القضاى فقد عددها ابن خلكان ( وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٨٥ ) ، فذكر منها كتاب « مناقب الإمام الشافعى » وكتاب « تواريخ

(١) ابن منجب الإشارة لى من نال الوزارة س ٣٥ ، ٣٧ .

الخلفاء» وكتاب «خطط مصر». ويظهر أن المقرئ نقل هذا الكتاب برمته، وأودعه كتابه الذي يعرف باسم كتاب «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار». والقضاعي حجة في تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين، وكان من كتاب البلاط، مما جعل الوزير أبا القاسم الجرجاني يعمد إليه في أن يكتب العلامة أو الإشارة التي يذيل بها الأوراق الرسمية لإعطاها الصفة الرسمية، وتشمل هذه الكلمات: «الحمد لله شكراً لنعمته».

ومن مؤرخي العصر الفاطمي ابن أبي طي (ت ٦٣٠ / ١٢٣٢ - ١٢٣٣). واسمه يحيى بن حميدة (أو حافظ)، ويرجع أصله إلى حلب، وقد طرده نور الدين محمود لخروجه في آرائه على الدين، وربما كان ذلك لاعتناقه العقائد الشيعية، وقد اعتنق ابنه يحيى هذه العقائد. يؤيد ذلك كتاباه «معجم شعراء الشيعة» و«رسالة في فضل الإمامة الاثنا عشرية<sup>(١)</sup>». وقد وضع حاجي خليفة ووستنفلد ترجمة ابن أبي طي لحياة صلاح الدين في تناول أيدينا. ومن مؤلفات ابن أبي طي «شرح لامية العرب» للشنفرى (بكسر الشين مع التشديد وسكون النون وفتح الفاء والراء).

ومن مؤرخي هذا العصر أيضاً: «أبو عبد الله القرطبي<sup>(٢)</sup>». ويرجع نسبه إلى عمار ابن ياسر الصحابي، وكان مولعاً بالتاريخ. وقد رحل إلى بلاد اليمن والهند، وصنف كتاب «تاريخ مصر» في عهد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين. وقد وقف عليه ابن سعيد واستعاره من رجل كان هذا الكتاب في حوزته، وقيد منه بمض ما أودع كتابه «المغرب في حلى المغرب». والقرطبي المؤرخ من أحفاد محمد بن جعفر القرطبي. وكان معاصراً للإخشيديين في مصر، وقد قلده مؤنس الحسبة في مصر، ثم قلده الخراج (ابن سعيد: المعجب ص ٨ - ٩)، ثم تقلد خراج مصر والشام في عهد ولاية تسكين الثانية الذي ولي مصر ثلاث مرات (٢٩٧ - ٣٠٣، ٣٠٧ - ٣٠٩، ٣١١ هـ). انظر كتاب تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٥١٧ - ٥١٨). وكتاب «ذيل تاريخ دمشق» لابن يعلى حمزة بن الفلاني (ت ٥٥٥ - ١١٦٠) (بيروت ١٩٠٨) مصحوب

(١) راجع حاجي خليفة رقم ١٠٩٤ ووستنفلد رقم ٣١٥.

(٢) راجع الفاموس المحيط وكتاب الأنساب للسمعاني. وهذا اللفظ منسوب إلى القرطبي الذي يعلق في الأذن، أو إلى قروط ويطلق هذا الاسم على أفخاذ بني كلاب لإخوة قرط وقريط وقريط. والقرطبي المؤرخ مشتق اسمه من القرط الذي تأكله الدواب.

بشذرات من تواريخ ابن الفارقي وسيط بن الجوزي والذهبي . ويعد بمثابة ذيل لتاريخ هلال الصابي ، وهو ذو أهمية خاصة لاستقصاء بحث تاريخ الفاطميين . ويظهر أن ابن القلانسي نقل كتاب أبي شجاع وكتاب هلال .

ويجب أن نشير في هذا المقام إلى ما كتبه عمارة البني . ( ت ٥٦٩ / ١١٧٤ ) وأسامة بن منقذ ( ت ٥٨٤ / ١١٨٨ ) . فقد شاهد كل منهما بنفسه ما وقع في مصر من الحوادث في أواخر أيام الفاطميين ، والدور الذي قام به الشعراء في نشر الدعوة الفاطمية . ذلك أن عمارة كان شاعراً نابه الذكر بين شعراء البلاط في عهد الخليفة الفائز والخليفة العاضد ، وهما آخر من تولى عرش مصر من الفاطميين ، وقد أمدما عمارة في ديوانه المسمى « النكت العصرية في اخبار الوزراء المصرية » ( باريس ١٨٩٧ م ) ، بمعلومات ذات غناء عن هذين الخليفين وعن الوزراء وغيرهم من علية القوم الذين رتع عمارة في بحبوحة كرمهم وفسيح عطفهم . ولا غرو فقد أنحفنا عمارة بمعلومات صحيحة عن الدور الذي لعبه الشعراء في نشر تعاليم الفاطميين ومعتقداتهم ، وكذلك عن سقوط الدولة الفاطمية ( نشر هذا الكتاب ديرانبور ، باريس ١٩٠٩ ) .

أما أسامة بن منقذ فقد كان من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلماهم وشجعانهم . وله تصانيف عدة في فنون الأدب . رحل عن بغداد كمعظم شعراء عصره يريد مصر ، فأقام فيها مؤمراً إلى أيام الوزير الصالح بن رزبك سنة ٥٤٩ هـ ، ثم عاد إلى الشام . وأخبار أسامة جلية الخطر ، لأنه شاهد بنفسه حال مصر في زمنه وما وقع فيها من الحوادث التي تتعلق بسقوط الخلافة الفاطمية — وقد ألف كتابه الاعتبار أو حياة أسامة ( باريس ١٨٨٩ ) .

ومن مؤرخي مصر الإسلامية ابن ميسر<sup>(١)</sup> ( ت ٦٧٧ / ١٢٧٨ ) الذي ألف كتابه « أخبار مصر » ، ولم يصل إلينا من هذا الكتاب إلا الجزء الثاني الذي تناول فيه الكلام على تاريخ مصر من سنة ٤٣٩ إلى سنة ٥٥٣ هـ .

ومن المصادر الحديثة كتاب « تاريخ الدولة الفاطمية » لحسن إبراهيم حسن ( الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٤ ) وكتاب كنوز الفاطميين لركي محمد حسن ( القاهرة ١٩٣٧ ) وكتاب « موجز تاريخ الخلافة الفاطمية » تأليف « دي ليسى أوليري » وكتاب « De Sacy, Exposé de la Religion des Druzes, 2 vols. ( Paris, 1838 )

(١) طبعة هنري ماسيه ( القاهرة ١٩١٩ ) .

ومن فلاسفة الإسماعيلية أولاد إسماعيل بن جعفر الذين ينسب إليهم الفاطميون أبو حاتم الرازي (ت ٣٢٢ هـ) ، ويسميه الإسماعيلية سيدنا أبا حاتم . وكان داعي الإسماعيلية في بلاد الري ، ويمثل نشاط الدعوة الفاطمية في عهد إمامة عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين وخلافته . وقد لعب أبو حاتم دوراً عظيماً في الشؤون السياسية في طبرستان والديلم ، ولا سيما في أصفهان والري ، حتى استجاب له جماعة من كبار رجال الدولة . وكان للجهود أبي حاتم أثر كبير في اتصال مرداويج بن زيار الديلمي بعبيد الله المهدي الفاطمي في المغرب . ومن مؤلفات أبي حاتم الرازي كتاب اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، نشره سامي النشار (القاهرة ١٩٣٩) .

ومن فلاسفة الإسماعيلية أيضاً أبو عبد الله النسفي (ت ٣٣١ هـ) الذي تقرب إلى كبار القواد في حكومة نصر بن أحمد الساماني واستطاع أن يجذب إلى الإسماعيلية كثيرين من أهالي خراسان ، وعبر نهر جيحون واتجه إلى بخارى حيث نجح نجاحاً عظيماً في تحويل كثير من كبار رجالها إلى المذهب الإسماعيلي ، وقد رحب الأمير نصر بن أحمد الساماني بمبادئ الإسماعيلية في عهد عبيد الله المهدي . ولكن قواد الأمير نصر من السنيين دبروا مؤامرة للتخلص منه لانضمامه إلى المذهب الإسماعيلي ، فخلع نصر نفسه وتولى بعده ابنه نوح الذي عمل على مطاردة الإسماعيلية في بلاده بعد أن قتل النسفي .

وقد ذاعت شهرة النسفي في عالم الأدب وفي فلسفة المذهب الإسماعيلي . ومن أشهر مؤلفاته « كتاب المحصول » وكتاب « عنوان الدين » وكتاب « أصول الشرع » وكتاب « الدعوة المنجية » .

ومن أشهر علماء المذهب الإسماعيلي ودعاته : أبو يعقوب السجزي (ت ٣٣١ هـ) ، وكان اليد اليمنى للداعي النسفي ، وقام بقسط كبير من المهوض بفلسفة المذهب الإسماعيلي . ولأبي يعقوب السجزي مؤلفات كثيرة كان لها أثر كبير في نهضة الفكر الإسلامي بوجه عام وفي فلسفة المذهب الإسماعيلي بوجه خاص . ومن أهم مؤلفاته كتاب « إثبات النبوة » ، وينقسم إلى سبع مقالات أو أبواب ، وتنقسم كل مقالة إلى اثني عشر فصلاً ، وكتاب « الينابيع » وهو في حوزة البهرة من الإسماعيلية في بمباي في الهند .

هؤلاء هم أشهر دعاة الإسماعيلية في بلاد المشرق . أما دعاة في المغرب فذكر منهم أبا حنيفة النعمان المغربي (ت ٣٦٣ هـ) ، ويسميه الإسماعيلية « سيدنا القاضي النعمان » ليميزوا بينه وبين أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي المشهور . وقد عاصر

أبو حنيفة الفساطميين في المغرب وعاصر عبيد الله المهدي والقائم والمنصور والمعز ،  
واتخذ المنصور والمعز قاضياً لها . وبعد أبو حنيفة من أهم دعائم الدعوة الإسماعيلية .  
وقد أفادت هذه الدعوة من كثرة مؤلفات أبي حنيفة في الفقه الإسماعيلي ، وقد ألف بضعة  
وأربعين كتاباً .

وأهم هذه الكتب كتاب « دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والفضايا  
والأحكام » ، ويتناول الكلام على فقه الإسماعيلية ، ويقع في مجلدين ضخمين ، يشتمل  
كل منهما على سبعمائة صفحة ، ويمتاز به البهارة في اللمن والهند . وقد أطنب الدعاة المتأخرون  
في وصف هذا الكتاب ، فدكره حميد الدين الكرمانى داعى دعاة الخليفة الفاطمى الحاكم  
في فارس في كتابه « راحة العقل » وأشاد به حتى جعله في المرتبة التى تتلى القرآن  
والحديث .

وقد ترك أبو حنيفة النعمان المغربى في مؤلفاته الرائعة الكثيرة ثروة ثمينة . وعلى  
الرغم من ضياع كثير من مؤلفاته لا يزال أكثر ما بقى منها في حوزة البهارة في الهند .  
وقد أفاد الإسماعيلية كثيراً من هذه المؤلفات . ولنلق الآن نظرة على كتابى النعمان  
القيمين وهما :

١ — كتاب « المجالس والمساربات » ، وبعد أهم ما كتب في وصف حياة الخلفاء  
الفاطميين في الدور المغربى ، فقد تناول أبو حنيفة في مؤلفه حياة الخلفاء الفاطميين الأربعة  
وهم : المهدي والقائم والمنصور والمعز خاصة . ومن هذا الكتاب نستطيع أن نقف على  
حياة الخلفاء الخاصة وعلى وصف قصورهم وأوقات فراغهم . وقد أمدنا هذا الكتاب  
بوثائق ذات قيمة تاريخية كبيرة عن نظام الحكم في عهد المعز : فمن نصاب يسديها المعز  
للولاة والحكام والقضاة ، إلى استقصاء أحكام الأئمة من أهل البيت مثل جعفر الصادق  
وأبيه محمد الباقر وجدهما على بن أبى طالب إلى غير ذلك . كما يتناول هذا الكتاب  
الكلام على علاقة المعز بالأمويين في الأندلس ، وعلى الحملات البحرية التى شنّها المعز على  
عبد الرحمن الثالث الناصر الأموى في الأندلس وخلفائه . وتعتبر الرسائل التى تبودلت  
بين الفريقين من أحسن ما كتب في الأدب والمنطق ، وتصور الصراع الذى قام بين  
الفاطميين والبيزنطيين تصويراً رائعاً . وصفوة القول أن هذا الكتاب مرآة صادقة  
للأدب الإسماعيلي والعقائد الإسماعيلية ، ولا يستغنى عنه الباحثون في تاريخ الفاطميين  
في الدور المغربى بوجه عام وفى عهد المعز بوجه خاص .



٢ — أما كتاب ، الهمة وفضل الأئمة ، فيتكون من جزأين يشغل كل منهما ستاً وأربعين صفحة ، وقد قسم المؤلف القسم الأول إلى ثمانية فصول والقسم الثاني إلى أحد عشر فصلاً . وترجع أهمية هذا الكتاب الذي عثر عليه سنة ١٩٣٤ إلى أنه من أقدم المراجع التي تمثل الأدب الإسماعيلي في عصوره الأولى أصدق تمثيل ، كما يعد من أقدم كتب الإسماعيلية التي وضعت بقصد تربية أفراد هذه الطائفة وتدريبهم على التفاني في الإخلاص لمبادئها .

وبتناول هذا الكتاب بقسميه الحدود الدينية ، وبيتم مؤلفه اهتماماً خاصاً بشرح واجبات الأتباع نحو رؤسائهم المباشرين وهم الدعاة ونحو الأئمة ، كما يعنى بشرح واجبات المستجيبين بعضهم نحو بعض ، ويرسم لهم الخطط التي يجب عليهم أن يسلكوها في حياتهم . وبعد كتاب الهمة من أهم وأقدم كتب الاشتراع المالي عند الإسماعيلية . وقد اهتم أبو حنيفة النعمان اهتماماً بالغاً بتحديد العلاقة بين الدعاة ومستجيبهم من جهة وبينهم وبين الأئمة من جهة أخرى ، فوضع الخطوط الرئيسية التي يجب على الدعاة أن يسلكوها في جذب الأشباع ، وحثهم على التجمل بالصفات الطيبة ، كالورع والتقوى والصلاح والعفاف لكي يكون تأثيرهم في النفوس كبيراً ، وبذلك يجعل الداعي من نفسه للبريدن أباً وأخاً ومعلماً ، وقاضياً نزيهاً يحكم بين المستجيبين بالقسطاس المستقيم .

ومن دعاة الإسماعيلية جعفر بن منصور الين الذي اشتهر منذ نعومة أظفاره بحب الفاطميين . وقد قصد بلاد العرب سنة ٣٢٢ هـ وتمتع بمركز رفيع في الدولة الفاطمية . وكان موضع تقدير القائم والمنصور ، كما نال تقدير المعز ، حتى اتخذته « باب أبوابه » في مصر ، وهي أعلى من رتبة قاضي القضاة . ولا غرو فقد ضرب جعفر بأوفر سهم في التأويل الإسماعيلي وترك كثيراً من الآثار العلمية التي لا تزال عند البهرة إلى اليوم . ومن أهم كتبه كتاب « تأويل الزكاة » وهو بمكتبة الجامعة بليدن . ولجعفر بن منصور الين أيضاً كتاب « سرائر النطقاء » وكتاب « أسرار النطقاء » وكتاب « الشواهد والبيان » المحفوظ بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

وبعد كتاب « أسرار النطقاء » من أقدم مصادر الإسماعيلية ومن أهم الكتب التي ألقت للدفاع عن المذهب الإسماعيلي وأنصاره ، كما يعد من أحسن الكتب التي تمثل الأدب الإسماعيلي القديم أصدق تمثيل . وقد بحث هذا المؤلف تاريخ الأئمة العلويين الذين سبقوا لإسماعيل بن جعفر الصادق بحثاً دقيقاً . ولهذا يعد كتابه « أسرار النطقاء » من أحسن

المراجع في تاريخ الأئمة من علي بن أبي طالب إلى جعفر الصادق . كما يتناول هذا الكتاب بعض المبادئ الشيعية . من ذلك نظرية « الغيبة » أى إختفاء الإمام ونظرية « الإمام الصامت » . ويقصد بذلك أن لسلك نبي عند الإسماعيلية إماما يعاصره ويأخذ عنه ويشرح شريعته ، ويسمونه الأساس ، أى أساس النطق . ويتبع هذا الأساس ستة أئمة بالتوالى ، يسمى كل منهم « الصامت » . وعندهم أن علي بن أبي طالب أساس ، ومن جاء بعده من الأئمة حتى جعفر الصادق أئمة صامتون . فعلى زين العابدين وجعفر الصادق أئمة صامتون .

ومن فلاسفة الإسماعيلية حميد الدين الكرمانى ( ت ٤٠٨ هـ ) ، وكان من دعاة الفاطميين فى عهد الخليفة الحاكم ، ويلقب بحجة العراقيين ، وكبير دعاة الإسماعيلية فى العراق . وقد ألف الكرمانى فى الرد على الدرزية رسالة سميت « الرسالة الواعظة » يبرى فيها الحاكم من ادعائه الألوهية . وقد ألف طائفة من المؤلفات عرض فيها لكثير من المشكلات الفلسفية ، ومزج تعاليم الإسماعيلية بعلوم الشرع والمعارف الفلسفية الأخرى مما يشهد بوسوع قدمه وعلو كعبه فى العلم وتضلعه فى فقه الدعوة .

ومن أشهر كتب الكرمانى كتاب « راحة العقل » ( نشره الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد مصطفى حلى ) ، و « الرسالة الواعظة فى نبي دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله » ( فصله من مجلة كلية الآداب ، المجلد الرابع عشر مايو ١٩٥٢ ، نشره الدكتور محمد كامل حسين ) .

ومن أشهر فلاسفة المذهب الإسماعيلى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ( ت ٤٧٠ هـ ) . وقد انحدر من أسرة اتخذت التشيع لها مذهباً . فكان أبوه داعياً للمذهب الفاطمى بشيراز . وقد راسل الخليفة الحاكم الفاطمى ، واتصل بالسلطان أبى كاليبجار البويهى وكسب عطفه واستطاع أن ينشر المذهب الإسماعيلى فى شيراز . ودخل أبو كاليبجار فى الدعوة الفاطمية وأخذ يجتمع بالمؤيد مساء كل خميس للاستزادة من فهم المذهب الإسماعيلى . ثم رحل المؤيد إلى مصر سنة ٤٣٩ هـ فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى وتقلد ديوان الإنشاء ، وحث البساسيرى على دخول بغداد وإقامة الدعوة الإسماعيلية للخليفة المستنصر الفاطمى . ولكن البساسيرى لم يلبث أن تفرقت جموعه وطرده ظفر بك السلجوقى من بغداد سنة ٤٤٩ هـ . بيد أن الخليفة الفاطمى قدر جهود المؤيد فى الدين وأسند إليه رئاسة الدعوة الفاطمية وأصبح داعى الدهاة سنة ٤٥١ هـ .

وكان المؤيد بارعاً فى الكتابة بالعربية والفارسية وخلف عدداً كبيراً من الكتب

لا زالت تعد من أهم كتب الإسماعيلية إلى اليوم . ومن المؤلفات التي تنسب إلى المؤيد كتاب « المجالس المؤيدية » ، و « ديوان المؤيد » ( نشره الدكتور محمد كامل حسين ، القاهرة ١٩٤٩ ) ويصور عقائد الفاطميين تصويراً تاماً ، و « السيرة المؤيدية » ( مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٥٦ ) . ومن أهم آثار المؤيد التي تكشف عن تعمقه في فلسفة الدعوة الإسماعيلية كتاب « المجالس المؤيدية » ، وهو مجموعة محاضرات ألقاها في مجالس الدعوة شرح فيها عقائد المذهب الفاطمي .

وينبغي أن نشير في هذا المقام إلى كتاب « تاريخ الدولة الفاطمية » للدكتور حسن إبراهيم حسن ، ويقع في نحو سبعمائة وخمسين صفحة ، ويتناول بحث تاريخ هذه الدولة في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ( الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٤ ) .

من المصادر التي يعتمد عليها في دراسة عصر الأيوبيين كتاب « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » لعبد اللطيف البغدادي ( ت ١٢٣١/٦٢٩ ) ، وكتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » لابن شداد ( ت ١٢٣٤/٦٣٢ )<sup>(١)</sup> ، وهو من أنفس ما كتب عن حياة صلاح الدين ، وكتاب « الروضتين في أخبار الدولتين » لآبي شامة ( ت ١٢٦٧/٦٦٥ )<sup>(٢)</sup> ، ويتضمن أخبار مصر والشام في عهد نور الدين محمود صاحب دمشق وصلاح الدين الأيوبي سلطان مصر . وقد استقى أبو شامة أخباره من الوثائق الرسمية في المكتب التي ألقها القاضي الفاضل ( ت ١١٩٩/٥٩٦ ) وعماد الدين الأصفهاني ( ت ١٢٠١/٥٩٧ ) وابن شداد ( ت ١٢٣٤/٦٣٢ ) ( القاهرة ١٢٨٧ هـ ) .

ومن الكتب التي تناولت الكلام على هذا العصر كتاب « مفرج الكروب في أخبار بني أبوب » ( في جزئين ، القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٧ ) لجمال الدين بن واصل ( ت ٦٩٧ هـ ) . وهذا الكتاب يمدنا بمحققات تاريخية عن الأعمال الدفنية والسياسية التي قام بها الفاطميون في مصر ، كما يعتمد عليه في دراسة تاريخ الدولة الأيوبية وعصر المماليك إلى سنة ٦٨١ هـ .

(١) مجموعة تواريخ الحروب الصليبية ، المؤرخون الشرقيون ، المجلد الثالث .

(٢) المصدر نفسه المجلد الثالث .

(د) مصادر المغرب والأندلس :

١ — البكري ( ت ٤٨٧ / ١٠٩٧ ) : أبو عبيد

« كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب » ( طبعة دي سلان باريس ١٩١١ )

٢ — المراكشي ( ت ٦٦٩ / ١٢٧٠ ) : عبد الواحد بن علي

يعتبر عبد الواحد بن علي المراكشي من أشهر المؤرخين الذين تناولوا تاريخ المغرب والأندلس من فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ إلى ما قبل نهاية عصر الموحدين ( ٦٦٩ هـ ) بستين . ويمتاز كتابه « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ( القاهرة ١٩٤٩ ) بأنه جمع أخبار الشعراء وأعيان الكتاب والعلماء والفلاسفة الذين ظهوروا في هذه البلاد في العصور التي تناولها المؤلف . كما يمتاز كتاب المعجب بأسلوبه الرائع ؛ فهو مؤرخ وأديب في آن واحد .

ولد عبد الواحد المراكشي بمدينة مراكش التي بناها يوسف بن تاشفين أعظم أمراء المرابطين في شهر ربيع الثاني سنة ٥٨١ هـ ، وذلك في مستهل حكم أبي يوسف يعقوب ( المنصور ) بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الموحدي<sup>(١)</sup> . ولما بلغ عبد الواحد التاسعة من عمره رحل مع أبيه إلى مدينة فاس حيث قرأ القرآن وجوده . ولما أتم دراسته عاد إلى مدينة مراكش ، وأخذ يتردد بينها وبين مدينة فاس .

وفي سنة ٥٩٥ هـ التقى عبد الواحد المراكشي بالعالم المشهور أبي بكر بن زهر ( بضم الزاي وسكون الواو ) والفيلسوف ابن طفيل ( بضم الطاء وكسر الفاء ) . ثم رحل إلى الأندلس وأخذ العلم على كبار علمائه . ولما حل بمدينة إشبيلية قدمه صديق له يسمى محمد بن الفضل إلى صاحب المدينة الأمير إبراهيم بن أبي يعقوب المنصور أخى الخليفة الموحدي الناصر بن يعقوب المنصور ، وأصبح عبد الواحد من خواصه المقربين ، كما اتصل بكبار رجال الدولة في المغرب والأندلس<sup>(٢)</sup> .

(١) المراكشي : المعجب ( القاهرة ١٩٤٩ ) س ٣٦٠

(٢) المصدر نفسه س ٣٠٨

عاد عبد الواحد إلى مدينة مراکش سنة ٦١٠ هـ ، ولكنه لم يطب له المقام بالمغرب ، فعبّر البحر ثانية إلى الأندلس حيث أقام في كنف الأمير إبراهيم صاحب إشبيلية . وفي سنة ٦١٤ هـ ترك عبد الواحد المغرب والأندلس ميمما شطر المشرق ، وكان إذ ذاك في الثانية والثلاثين من عمره . ولسنا ندرى العوامل التي دفعته إلى ترك بلاده والمسير إلى مصر في غضون سنة ٦١٩ هـ<sup>(١)</sup> . وكانت حياته قلقة مضطربة كلها حنين وشكوى وضيق ، إذ يقول في مقدمة كتابه المعجب<sup>(٢)</sup> : « . . . والوجه الثالث أن محفوظاتي في هذا الوقت<sup>(٣)</sup> على غاية الاختلال والتشتت أوجب ذلك هموم تزدحم على الخاطر وعموض تستغرق الفكر » .

وقضى عبد الواحد بمصر سنين ، ثم غادرها إلى الحجاز ، ثم إلى الشام ، ثم إلى بغداد . ثم بسم له الدهر نخطى بعطف وزير الخليفة الناصر العباسي . وقد عبّر عبد الواحد عن سروره مخاطباً الوزير العباسي بقوله : « أيها السيد الذي توالى عليّ نعمته وأخذ بضبعمي<sup>(٤)</sup> من حفيضي الفقر والخول اعتناؤه وكرمه ، وقضى إحسانه إليّ ومحبتة التي جبلت عليها بأن ألزم من بره وطاعته ما أنا ملتزمه »<sup>(٥)</sup> .

وقد عهد ذلك الوزير إلى عبد الواحد المراكشي أن يؤلف كتاباً في أخبار المغرب وهيئته وحدود أقطاره وشيء من سير ملوكه ولاسيما ملوك المصامدة ( يعني الموحدين ) بنى عبد المؤمن من لدنّ ابتداء دولتهم . وقد لبى عبد الواحد نداء الوزير ، فألف كتابه « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ، وانتهى من تأليفه في شهر جمادى الآخرة سنة ٦٢١ هـ<sup>(٦)</sup> .

ومما هو جدير بالملاحظة أن عبد الواحد المراكشي انتهى من وضع كتابه « المعجب » حيث لم تنته دولة الموحدين إلا في سنة ٦٦٧ هـ ( ١٢٦٩ م ) .

وكتاب « المعجب » من المصادر الأصيلة في تاريخ المغرب . وترجع أهميته إلى أن

(١) المصدر نفسه ص ٢٦٣

(٢) المصدر نفسه ص (٤)

(٣) يقصد الوقت الذي كان يؤلف فيه كتابه المعجب .

(٤) يسكون ثانيه العضم ويضمه الحيوان المعروف .

(٥) المراكشي : المعجب ص ٣

(٦) المصدر نفسه ص ٣٣٦

مؤلفه ، فوق سعة إطلاعه وعلو مكانته في الأدب قد عاصر الأحداث التي كتب عنها .  
أما ما كتبه عن أخبار المغرب والأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدعوة الموحدية فقد  
اعتمد على ما نقله من مؤلفات كثيرة نوه فيها بكتاب الخيري الذي لا يراه بين أيدينا الآن<sup>(١)</sup> .

٣ — ابن سعيد ( ت ٦٧٣ / ١٢٧٥ ) : علي بن موسى القرناطي

\* كتاب « المغرب في حلي المغرب والمشرق في حلي المشرق » ( ليدن ١٨٩٨ — ١٨٩٩ )  
( القاهرة ١٩٥٣ ) نشره زكي محمد حسن ، وشوقي صيف ، وسيدة إسماعيل كاشف .

٤ — ابن القاضي : أحمد بن محمد المكناسي

« جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس »

مخطوط رقم ج ١٢٤٢ ( الرباط )

٥ — المالكي : أبو بكر عبد الله

« رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونسألكم  
وسير من أخبارهم » ( القاهرة ١٩٥١ ) .

٦ — ابن عذارى ( ت في أواخر القرن السابع الهجري ) : أبو عبد الله محمد المراكشي

« البيان المغرب في أخبار المغرب » ٣ أجزاء ، نشره « دوزي » ( ليدن ١٨٤٨ —

١٨٥١ م ) ( باريس ١٩٣٠ ) .

٧ — ابن سيده ( ٤٥٨ / ١٠٦٥ ) : أبو الحسن علي الأندلسي

« كتاب المحصن » ٢٠ جزءا ( بولاق ١٣٢١ هـ )

٨ — ابن بسّام ( ت ٥٤٢ / ١١٤٧ ) : أبو الحسن علي الشنتريني

« الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » . نشرت الأجزاء الأربعة منه ( القاهرة ١٣٥٨ —

١٩٣٩ / ١٩٤٥ ) .

٩ — الطرطوشي ( ت ٥٢٠ / ١١٢٦ ) : أبو بكر

« سراج الملوك » ( القاهرة ١٢٨٩ هـ )

(١) وقد نشره « دوزي » سنة ١٨٤٧ م ، ثم أعاد طبعه سنة ١٨٨١ م ، وترجمه فانبان Fagnan

إلى الفرنسية ونشرت ترجمته في الجزائر سنة ١٨٩٣ ، كما طبعه الأستاذ محمد سعيد الريان سنة ١٩٤٩ .

١٠ — الحشنى : أبو عبد الله محمد بن الحارث

كتاب القضاة بقرطبة « نشره ريبيرا » Ribera ( مدريد ١٩١٤ )

١١ — ابن بشكوال ( ت ٥٧٨ / ١١٨٢ ) : أبو القاسم خلف بن عبد الملك الأندلسى

« كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلماهم ومحدثهم وفقهاهم وأدباهم » نشره عزت

«المطار» ( القاهرة ١٣٧٤ / ١٩٥٥ )

١٢ — ابن الأبار ( ت ٦٥٩ / ١٢٦١ ) أبو عبد الله القضاعى

« كتاب التكملة لكتاب الصلة » جزآن ( مدريد ١٨٨٦ ) ( القاهرة ١٣٧٥ / ١٩٥٦ )

( ٦ ) الجغرافيا :

ظهر فى العصر السلجوقى كثير من الجغرافيين والرحالين . ومن أشهرهم :

١ — شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بالبشارى المقدسى ( ت ٣٨٧ / ٩٩٧ ) .

وكتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » الذى نشره دى غويه فى مجموعة المكتبة الجغرافية العربية ( ليدن ١٨٧٧ ) ذو قيمة عظيمة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية .

٢ — أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى ( ت ٤٤٠ / ١٠٤٨ ) . وقد خلف لنا كتابه

« الآثار الباقية عن القرون الخالية » . ويتناول الكلام على نظم الطوائف والجماعات

فى البلاد التى زارها وبخاصة طبرستان وخوارزم والهند . وقد ساعده اتصاله بعلماء البلاد التى

اختلف إليها وإلمامه ببعض اللغات الأجنبية كالفارسية والعربية والسنسكريتية على التبحر

فى كثير من العلوم كعلم الهيئة والنجوم والرياضة والجغرافية والتاريخ والعلوم الطبيعية .

وقد أفاد من رحلاته فى الهند لجمع علومها ومذاهبها وعادات سكانها التى أودعها كتابه

« تاريخ الهند » .

٣ — ناصر خسرو ( ت ٤٨١ / ١٠٠٨ ) . وقد خلف لنا كتابه « سفر نامه »

( أو زاد المسافر ) . ويتضمن كثيرا من مشاهداته فى فارس والعراق والحجاز والشام

وفى مصر التى زارها فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى ( ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ ) وظل فيها

نحو سنتين ( ٧ صفر ٤٣٩ — ١٤ ذى الحجة ٤٤١ هـ ) ووصف ثروة البلاط

الفاطمى وأهله .

وكان ناصر خسرو وزيراً في بلاط خراسان ثم اعتزل السياسة فحج بيت الله وأصبح داعياً للإسماعيلية ، فاعتبر القاهرة حاضرة الفاطميين المركز الرئيسي للذهب الإسماعيلي الذي يدين بمقائده ، واعتقد أن الفاطميين هم الأئمة حقاً . وقد ألف ناصر خسرو كتابه بالفارسية وترجمه شارل شيفر إلى الفرنسية سنة ١٨٨١ م .

٤ — أبو عبيد محمد بن عبد العزيز البكري ( ت ٤٨٧ / ١٠٩٧ ) . ويرجع نسبه إلى أبي بكر الصديق . وقد ألف كتابه « المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب »<sup>(١)</sup> . وهو جزء من أجزاء الكتاب المعروف باسم كتاب المسالك والممالك . ولا غنى للطالب عن هذا الكتاب في دراسة تاريخ المغرب .

٥ — أبو الحسن محمد بن جبير ( ت ٦١٤ / ١٢١٧ ) . ولد في بلنسية<sup>(٢)</sup> بالأندلس سنة ٥٣٩ هـ ثم استوطن غرناطة . وينتمي إلى معد بن عدنان . وقد تلقى ابن جبير العلم على أبيه وعلى ابن أبي العيش وكثير من علماء عصره ، وأفاد من علمه كثير من علماء المغرب ومصر . وكان ابن جبير على درجة كبيرة من الورع والدين . وقد عاصر الدولة الموحدية التي كانت تحكم بلاد المغرب والأندلس ، ثم سافر إلى المشرق ثلاث مرات ، حج في كل منها بيت الله بمكة . وقد بدأ رحلته الأولى في شهر شوال سنة ٥٧٨ هـ ، ثم عاد إلى غرناطة بعد سنتين . وقد صنف فيما ما شاهده من عجائب البلدان وخرائب المشاهد وبدائع المصانع . وهو كتاب يمتع بحجب المرء في زيارة هذه المعالم . ولما علم ابن جبير بفتح بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي قوى عزمه على القيام برحلته الثانية إلى المشرق ( ٥٨٥ هـ ) . ثم عاد إلى غرناطة سنة ٥٨٧ هـ ثم رحل إلى سبته بالمغرب الأقصى وانصرف إلى الحديث والتصوف .

ولما ماتت زوجة ابن جبير ( وهي عاتكة بنت الوزير أبي جعفر ) عظم وجدته عليها فسافر في القيام برحلته الثالثة ، فخرج من مدينة سبته إلى مكة ، فبقي فيها فترة طلب فيها العلم ، ثم غادرها إلى بيت المقدس فإلى القاهرة ثم إلى الإسكندرية حيث قام بتدريس الحديث حتى وافاه أجله سنة ٦١٤ هـ ( ١٢١٧ م ) ، ولم يترك لنا إلا حديثه عن الرحلة الأولى من هذه الرحلات الثلاث .

(١) طبعة دي سلان ، باريس ، ١٩١١ .

(٢) وقيل إنه ولد بشاطبة .



وكان ابن جبير أديباً شاعراً ، مدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصائد طويلة تشهد بطول باعه في الشعر والنثر ولاسيما الصوفي منها . وقد أشار الوزير<sup>(١)</sup> لسان الدين بن الخطيب بعلم ابن جبير وفضله وعلو باعه في الفقه والحديث<sup>(٢)</sup> .

٦ — شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي ( ت ٦٢٦ / ١٢٢٩ ) . وكان لإغريقي المولد ، ومن أجل ذلك سمي الرومي . أسر صغيراً وبيع لأحد تجار مدينة حماة ، ومن أجل ذلك نسب إليها فسمى الحموي . وقام مولاه بتعليمه وأوفده في تجارته إلى الخليج العربي وغيره . فجرت بينه وبين مولاه نبوة أدت إلى عتقه ، فعاش من نسخ الكتب وبيعها ؛ أي أنه احترف الوراقة كما كانت تسمى ، وأفاد من وراء هذه الصناعة بما تركه لنا من مؤلفاته النفيسة .

وقد نال ياقوت حظاً وافراً من التعليم وجاب كثيراً من البلاد وأقام بمدينة مرو حاضرة خراسان وأفاد من مكتباتها الزاهرة حتى بدأت غزوات المغول فاضطر إلى الهرب إلى الموصل ( ٦٦٤ / ١٢٢٤ ) حيث أمم مؤلفه « معجم البلدان » . ومن مؤلفات ياقوت :  
١ — كتاب « معجم البلدان »<sup>(٣)</sup> . ويعتبر من أهم المراجع التي يعتمد عليها الباحثون في كل ما يتعلق بجغرافية وتاريخ بلاد غربى آسيا .

٢ — كتاب « مرصد الاطلاع على أسماء الاماكن والبقاع » . وقد اختصره عبد المؤمن بن عبد الحق ( ت ٧٣٩ / ١٣٣٨ )<sup>(٤)</sup> .  
٣ — إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب<sup>(٥)</sup> .

٧ — عبد اللطيف موفق الدين أو محمد الطيب البغدادي ( ت ٦٢٩ / ١٢٣١ ) :  
كان كما يقول السيوطي<sup>(٦)</sup> عالماً بأصول الدين والنحو واللغة والطلب والفلسفة والتاريخ . ولد ببغداد سنة ٥٥٧ هـ . وقد خلف لنا كتابيه :

---

(١) انظر ما كتبه عنه الوزير لسان الدين بن الخطيب في كتابه تاريخ غرناطة .  
(٢) وقد نشر وليام رايت أسفار ابن جبير ( لندن ١٨٨٢ ) وتعرف هذه الأسفار باسم رحلة ابن جبير . وقد ترجمه بروود هيرست إلى الإنجليزية ( لندن ١٨٥٢ ) .  
(٣) نشره وستفولد في ستة أجزاء ( ١٨٦٦ — ١٨٧١ ) وطبع في القاهرة في ثمانية أجزاء ( ١٣٢٣ هـ )  
(٤) طبعة جوينبول في أربعة أجزاء ( لندن ١٨٥٣ ) .  
(٥) طبعة سلسلة ذكرى جب ، ٧ أجزاء ( القاهرة ١٩٠٧ — ١٩١١ )  
(٦) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٢ — ٢٣٣

١ — « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » .  
وقد ترجمه دى سامى إلى الفرنسية .

٢ — مختصر تاريخ مصر ، طبعة ج . هوايت ( أكسفورد ١٨٠٠ ) .

٣ — شرح مقامات الحريرى .

٤ — الجامع الكبير في المنطق والطبيعى والإلهى ، ويقع في عشر مجلدات . وقد أقام  
بمصر وتوفى ببغداد في ١٢ المحرم سنة ٦٢٩ هـ .

٨ — زكريا بن محمد بن محمود القزوينى ( ت ٦٨٢ / ١٢٨٣ ) ، ولد بمدينة قزوين  
في إيران سنة ٦٠٠ هـ ( ١٢٠٣ م ) وأقام فترة من حياته بمدينة دمشق وتولى القضاء في عهد  
الخليفة المستعصم في واسط والحلة ، وقد خلف لنا القزوينى كتابيه « عجائب المخلوقات »  
و « آثار البلاد » اللذين قام وستنفلد على نشرهما في سنتى ١٨٤٨ و ١٨٤٩ .

١ — ويشتمل كتاب « عجائب المخلوقات » على بيان التقويم الشمسى والنجوم  
والاجرام السماوية والحيوانات والنباتات والمعادن وكل ما يتعلق بالرحوش والحيوانات  
الخرافية المختلفة .

٢ — ويشتمل كتاب « آثار البلاد » على كثير من المعلومات الجغرافية الهامة ، كما  
يشتمل على كثير من الأخبار المتصلة بتراجم شعراء الفرس الذين انصل بهم القزوينى ،  
كالفردوسى وناصر خسرو وعمر الخيام وعنصرى ورشيد الدين الوطواط .

على أن المعلومات الجغرافية التى وردت في كتاب « آثار البلاد » لا ترقى إلى المستوى  
الذى بلغته المعلومات التى أوردها ياقوت الحموى وغيره من الجغرافيين المبكرين ، ولو أنها  
تزخر بكثير من الأخبار الممتعة المسلية .

ومن الغريب أن هذا الكتاب لا يتعرض لذكر إنجلترا فيما دونه القزوينى عن الإقليم  
السادس ، ولو أنه تعرض لإيرلندة ووصف في إيجاز صيد الحيتان ، كما وصف مدينة رومة  
في شئ من الإسهاب . ولما تناول القزوينى الإقليم السابع ، تحدث عن الطقوس التى يتبعها  
الفرنجية في الماء والنار والمعارك ، كما تحدث عن السحر والسحرة وعن الخليج الفارنجى  
Varangian Fiord في أقصى الشمال . يقول براون : « وفي رأى أنى لم أصادف بين  
الكتب العربية كتاباً ممتعاً جديراً بالقراءة مثل هذا الكتاب (١) » .

(١) انظر براون : تاريخ الأدب في إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٦١٢ — ٦١٤ .

٩ — محمد بن عبد العزيز الشريف الإدريسي ( ت ٦٤٩ / ١٢٥١ ) . وكان من أهل سبّنة بالمغرب الأقصى . وقد بدأ رحلاته وهو في السادسة عشرة من عمره ؛ فزار بلاد الأندلس وفرنسا وإنجلترا . ثم زار معظم أرجاء شمالي إفريقيا ، ثم رحل للحج بيت الله ، فزار مصر والحجاز وآسيا الصغرى وبلاد اليونان التي وصل إليها سنة ٥١١ هـ .

ولم يكن الإدريسي رحالة لحسب ، بل كان عالما موقفا عميقا في بحثه . ولما لم يجد في الشرق ما كان يؤمله هاد إلى بلده وفي نفسه شيء من المرارة . وعاصر الدعوة الموحدية التي قام بنشرها المهدي محمد بن تومرت .

وقد اتصل بمساع الملك رودجر الثاني النورمندی ما يمتاز به الإدريسي من سعة الاطلاع ، فدعاه إلى بلاطه بصقلية سنة ٥٣٣ هـ ، فرحب الإدريسي بهذه الدعوة ، وعهد إليه هذا الملك بوضع كتاب في جغرافية العالم . ووضع تحت إشرافه لجنة قامت بزيارة البلدان النائية . كما وضع تحت تصرفه ٤٥٠.٠٠٠ رطل من الفضة الخاصة ليضع له كرة يرسم عليها المصورون مواقع البلدان وأسماءها . وقد شرح الإدريسي ما في هذه الخريطة والكرة في كتابه « نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان » واستغرق هذا العمل خمس عشرة سنة .

وقد ألف الإدريسي كتابه نزهة المشتاق ، وهو مختصر لكتابه نزهة المشتاق الذي طبع في روما سنة ١٥٩٢ م . ورسم الإدريسي خريطة العالم . ويبين لنا هذا العمل الدقيق مدى معرفة العرب ببلاد العالم المختلفة ، ومنه نعلم أن العرب لم يجهلوا ألمانيا والسويد والنرويج وغيرها من البلاد الواقعة شمالي القارة الأوروبية .

ولا يبعد أن تكون معلومات الإدريسي نتيجة اتصال المسلمين بأوروبا عن طريق الأندلس والحروب الصليبية . وقد طبع كتراد ميلر خريطة الإدريسي طبعة أنيقة مزينة بالألوان سنة ١٩٢٦ . وقام المجمع العلمي العراقي حديثا بطبع هذه الخريطة التي حددت أجزاء العالم الإسلامي قبل غزوات المغول في القرن الثالث عشر الميلادي ، كما عينت منابع النيل بدقة ، وصورت بحر قزوين وصحراء فارس . ولولا خريطة الإدريسي لظلت هذه الناحية مجهولة لدينا .

وتمتاز خريطة الإدريسي بعدم المبالغة . وقد أشار في كتابه « نزهة المشتاق » إلى مقياس خريطته ، فذكر أن كل درجة ٢٥ فرسخا ، والفرسخ ثلاثة أميال ، فيكون طول

الدرجة ٧٥ ميلا . وجاءت خريطة الإدريسي مطابقة لمواقع البلدان . وكانت في الأصل ثلاثة أمتار ونصف طولاً ومتر ونصف عرضاً . ثم نقلها « ميللر » في مترين طولاً ومتر عرضاً . ولم يخطئ الإدريسي إلا في مواقع قليلة . مثال ذلك أنه وضع « كليجار » في السويد في درجة  $٥٦ \frac{1}{4}$  بدل  $٥٦ \frac{1}{2}$  ؛ وأخطأ في تعيين موقع إنجلترا والدانيمرك بنصف درجة . ولم يضع خطوط الطول لعدم استطاعته تحقيق مواضعها ، وإنما أثبت خطوط العرض التي تبدأ أفقية من خط الاستواء إلى الشمال ، ووضع ست درجات بين كل خط وخط . وقد قيل إن الإدريسي أسرع في إنجاز خريطته بسبب مرض رودجر ملك صقلية .

وكان الإدريسي محدثاً لامعا ، ألف كتاب « المقيد في أخبار الصعيد » ، ومات بالقاهرة في شهر صفر سنة ٦٤٩ هـ (١) .

---

(١) السبوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٨

## الباب الحادي عشر

### القرن

#### تخطيط المدن

( ١ ) تقسيم المدن :

يمكن تقسيم المدن إلى مدن تبنى بطريقة تلقائية أو اختيارية ، ومدن تبنى بطريقة ابتكارية أو مبتدعة ، وهذا النوع الثاني قد أولع به الفرنسيون سكان المدن . ويمكن أن ينطبق هذا النوع الأخير على المدن الإسلامية :

١ - فالمدن التي تبنى بطريقة تلقائية أو اختيارية هي التي بنيت لاستيطان الجاليات أول الأمر ، ويكتفى سكانها بالاحتفاظ بمقومات هذه الأبنية التي تؤدي إلى تحقيق الأغراض التي بنيت من أجلها .

ذلك أن العرب لم يرغبوا في الإقامة بالمدن القديمة كأقلية معرضة لمقاومة أهالي البلاد الأصليين الذين ينظرون إليهم باعتبارهم أجانب عنهم . لذلك نرى المدن الأولى التي بناها العرب أشبه بمعسكرات حصينة ( مثال ذلك القسطنطينية أو مصر القديمة ) ، وأحياناً تكون المدن منعزلة إنعزالاً نسبياً عن المراكز الأخرى المناقصة لها ( مثل الكوفة والقيروان ) . وقد يدفع الموقف السياسي للدولة الجديدة الحكام على تأسيس مدينة جديدة لإخضاع مدينة أخرى قصد القضاء على مقاومتها ( مثال ذلك مدينة المنصورة التي بناها بنو مرين في القرن الثامن الهجري ) الرابع عشر الميلادي لتحل محل تلمسان التي احتلها بنو زيان ، وتبعد عنها بنحو ميل ونصف وقد اتخذها المرينيون حاضرة لهم ) . كذلك اقترن قيام دولة الأدارسة في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ( القرن التاسع الميلادي ) بتأسيس مدينة فاس سنة ١٩٢ هـ . واقترن قيام الدولة المرابطية ببناء مدينة مراکش على يد يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٤ هـ ( ١٠٦٢ م ) . وقد ينقل الحاكم مقر دولته من الحاضرة التقليدية كما فعل المعتصم العباسي الذي بنى مدينة سامرا ( على بعد سبعين ميلاً شمالي بغداد ) سنة ٢٢١ هـ ، وظلت حاضرة الخلفاء العباسيين نحو ستين سنة حتى نقل المعتضد حاضرة الخلافة العباسية إلى بغداد سنة ٢٧٩ هـ . وينطبق هذا المثل أيضاً على رقادة ( بفتح القاف

مع التشديد) التي اتخذها الاغالبه حاضرة لدولتهم (وتبعد عن القيروان بستة أميال لتحل محل العباسية (وتبعد عنها بميلين ونصف ميل) سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م). كذلك نذكر مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر الأموي على بعد أربعة أميال ونصف من قرطبة .

٢ — وقد تستخدم المدن التي تبنى بطريقة ابتكارية في تحصين الدولة عند الحد الذي يفصل بينها وبين الدولة المجاورة لها أو تبنى في قلب الدولة نفسها . وقد تنمو هذه الحصون وتصبح على مر الزمن مدنا حصينة . فمدينة الرباط ، الحاضرة الإدارية الحالية للمملكة المغربية تحتفظ بطابعها الأصلي وهو رباط الحرب<sup>(١)</sup> .

وسرى الآن كيف تنطبق هذه القواعد على المدن الإسلامية ، إذ أن الموحدون كانوا يرابطون فيها بجندهم وخيلهم وأسلحتهم في الكفاح الحربي مع المرابطين ، ثم مع نصارى الأندلس ، ثم في فتحهم مدينة المهديّة وطردهم الروم من إفريقية .

وقد أولع السلطان ألب أرسلان السلجوقي بالبناء . وكان إذا أراد أن يبني بناء حرص على أن يكون شامخا يقوى على تحمل الأحداث دالاً على عظمة الدولة . كما كان يحرص على اختيار المكان الذي يبني فيه بحيث يكون بهيجا مشرقا . وكان يقول : « آثارنا هذه تدل على علو همتنا ووفور نعمتنا »<sup>(٢)</sup> .

وكان السلطان ملكشاه السلجوقي (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ) مغرما بالعائر ، حفر كثيرا من الأنهار وأحاط كثيرا من المدن بالأسوار ، وأنشأ الربط والقناطر في المفاوز ، وعمر جامع السلطان ببغداد (٤٨٥ هـ) وزاد في دار السلطنة بها ، وحفر الآبار في طريق مكة . وقد خرج من الكوفة لتوديع الحاج سنة ٤٨٠ هـ ، فصاد في طريقه وحشاً كبيراً ، فبنى بالسبيعي منارة من حوافر الحمرالوحشية وقرون الظباء التي صادها في هذا الطريق . وكانت هذه المنارة تعرف بمنارة القرون . كما بنى منارة أخرى ببلاد ما وراء النهر<sup>(٣)</sup> .

ولنذكر الآن بعض المدن الشهيرة في العصر الذي خصصنا له هذا الجزء الرابع من كتابنا  
(٤٤٧ — ٦٥٦ هـ) :

Grunebaum, Islam, pp. 144-145 ; E. Pauty, Villes Spontanées, etc (١)

(٢) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٥

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٧٩ .

( ب ) مدينة قرطبة :

كانت قرطبة في القرن الرابع الهجري ( العاشر الميلادي ) أكثر المدن الإسلامية حضارة في الأندلس بصفة خاصة والمدن الأوروبية بصفة عامة . وكان العجب يأخذ من قلوب الرحالة الذين زاروا هذه المدينة كل مأخذ حين يشاهدون بها سبعين داراً للسكنب وتسمائة حمام للجمامور . وقد اعترف ابن حوقل الجغرافي ، برغم تحامله على أمويي الأندلس ، بعظمة قرطبة التي سماها بغداد الثانية ، كما أعجب بحمال مدينة الزهراء المتاخمة لقرطبة وبثراء حى الرصافة ونخامته .

وقد تأثر الفن الأوربي بالفن الإسلامي الذي أخذ عن الفن المصرى القديم وعن فن الشرق الأدنى . فالأساطين الأيوبية في البناء الكلاسيكى شرقية الأصل . كما أخذ اليونان عن طريق الشرق الأدنى أهم عناصر الفن الهليني الشرقى . وليست هذه الخطوط المنقوشة إلا باقات وسيقان البردى التي نشاهدها على الأعمدة المصرية القديمة ، إذ أن بلاد بابل تعد موطن النقش على الأحجار الكريمة . كما أن الأعمدة التي استخدمت كعنصر زخرفى في البناء مصرية الأصل ، انتقلت إلى سورية وسائر بلاد الشرق الأدنى حول الألف الثانى قبل الميلاد ، ثم إلى بلاد اليونان في القرن السابع الميلادى .

كذلك انتقل فن البناء العربى ، ولاسيما القباب ، إلى أوروبا محاكاة لمسجد عمر في بيت المقدس . وقد أثبت مؤرخو الفنون أن أهم عناصر الفن الرومانى كانت متداولة في الشرق قبل أن تعرفها أوروبا بقرون ، وأن العوامل التي أدت إلى وجود الفن القوطى شرقية الأصل .

ولما لرى التأثير العربى في أوروبا وانحما في الفنون والصناعات المنزلية . فقد كانت دور الاغنياء في مملكة بيت المقدس على الطراز العربى . كذلك كانت الزخرفة والآثاث الداخلى والمصوغات الذهبية والحلى ولاسيما في إيطاليا وفي البندقية بوجه خاص . أضف إلى ذلك صناعة العاج والمينا والسجاجيد والأبسطة . وإن خزف مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر يثبت ، كما يقول بروفسال<sup>(١)</sup> ، بفنه وألوان تصويره ومناظره ، أنه من أصل عراقى .

(١) الشرق الإسلامى والحضارة العربية ص ٣٣ — ٣٤ .

أما الصناديق الصغيرة المصنوعة من العاج التي هي نثر مصانع الخليفة ، فقد اتخذت موضوعاتها وصورها ومناظر الصيد والموسيق عن الفن الآسيوي .

وعن الفن الإسلامي أخذ الأوربيون كثيرا من فن النقش والزخرفة وصناعة السجاجيد . وعن عرب صقلية وأسبانيا تأثرت الحضارة الأوربية بالحضارة الإسلامية في الثقافة والفن ، وفي نظم الحكم ، وفي الحياة الاجتماعية وغيرها . وبذلك يظهر أثر التراث الإسلامي في الحضارة الأوربية ، وينمحي الرأي القديم الذي ذهب أصحابه إلى القول بأن الغرب أسبق من الشرق في تطور الفكر البشري ورقى الحضارة الإنسانية .

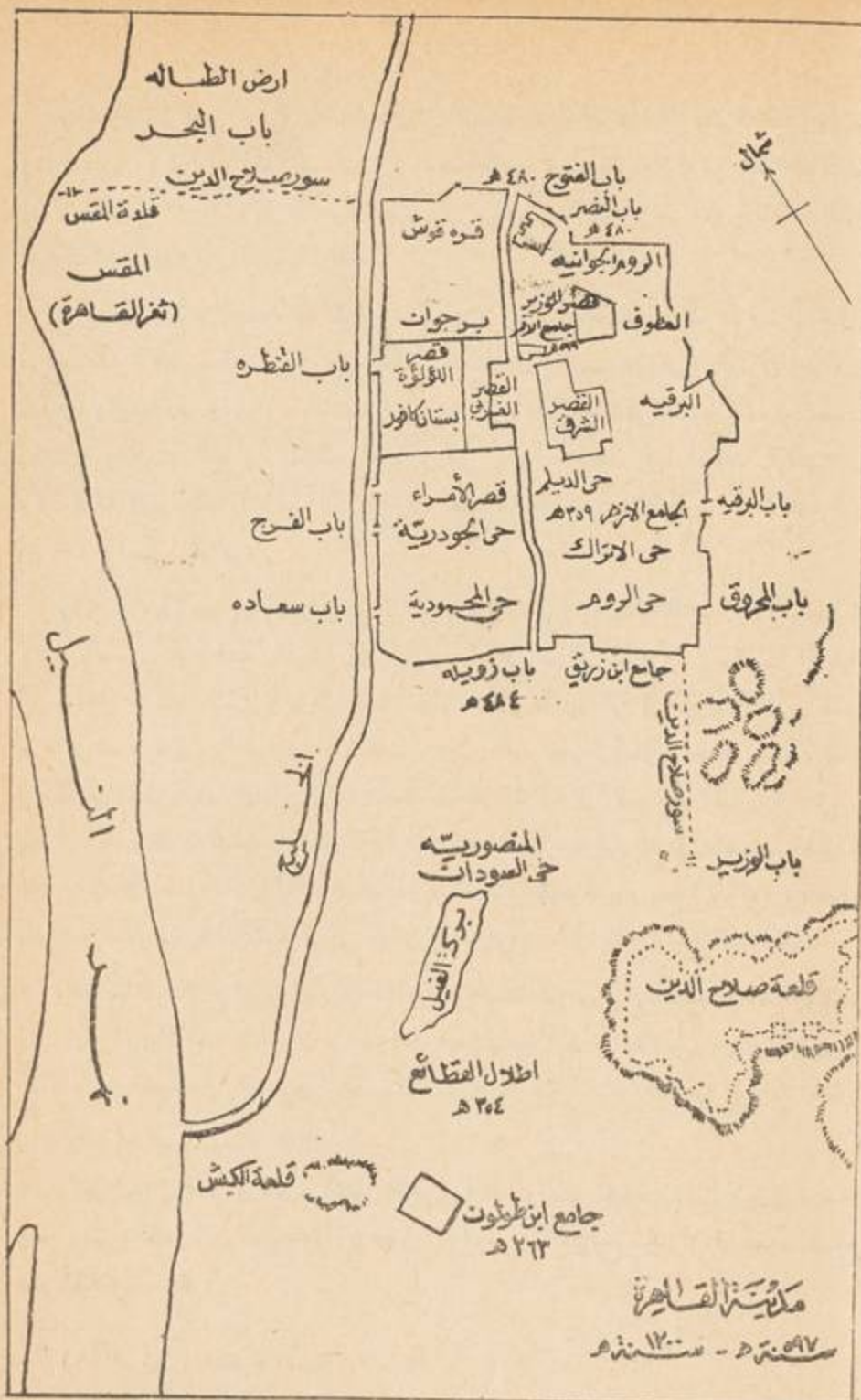
### ( ح ) مدينة القاهرة :

ذكرنا من قبل أنه كان من أهم ما يرمى إليه الولاة في البلاد الإسلامية أن يؤسسوا قاعدة تسع جندهم وتأوى أنصارهم وتضم بين جوانبها دواوين حكومتهم ، ثم يبنون مسجدا يقيمون فيه شعائرهم الدينية . وقد سنّ هذه السنة ولاة مصر منذ فتحها عمرو بن العاص ، فأسس مدينة الفسطاط ، وجاء بعده صالح بن علي فأسس هو وأبو عؤن مدينة العسكر ، وأسس أحمد بن طولون مدينة القطائع . ثم جاء جوهر الصقلي فوضع أساس مدينة القاهرة حاضرة الفاطميين الجديدة في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ بعد أن استولى على مدينة مصر ( يعني الفسطاط وأطلال العسكر والقطائع ) ، كما وضع جوهر أساس قصر مولاه المعز لدين الله . وكانت القاهرة وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة . وكانت حدودها الشرقية هي بنفسها حدود القاهرة الحالية ، وأما من الجهة الغربية فلم تجاوز شارع الخليج .

وقد ذكر على مبارك باشا أن طول كل جانب من جوانب مدينة القاهرة كما أسسها جوهر كان يبلغ ألفا ومائتي متر ، ومساحة هذا المكان ٣٤٠ فداناً كان القصر الخلافي يشغل منها مساحة مقدارها سبعون فداناً . وكانت حديقة كافور تشغل خمسة وثلاثين فداناً ، وخمسة وثلاثين فداناً للسكان المخصص لاستعراض الجنود ، والباقي وقدره مائتا فدان لسكنى الجنود . وقد زاد السور الذي أقامه أمير الجيوش بدر الجمالي في مساحة المدينة ستين فداناً . وقد بنى هذا السور من الحجر الكبير الحجم ، وبه ثلاثة أبواب لا تزال باقية إلى اليوم (١) .

(١) راجع كتاب علي مبارك باشا : المخطوط التوفيقية . ج ١ ص ٤ — ٢٢ .





وقد وصف ناصر خسرو الرحالة الفارسي تخطيط مدينة القاهرة التي زارها سنة ٤٤١ هـ (سنة ١٠٤٩ م) فقال إن قصر الخليفة يقع في وسط القاهرة، وأنه طلق الهواء من جميع الجهات، إذ لا يتصل به أى بناء وكل ما حوله فضاء... ويبدو هذا القصر من خارج المدينة كأنه جبل لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعة.

وإذا كان جوهر قد فاته ما أشار به المعز لدين الله من اختيار منطقة الرصد واختار موقع القاهرة بنظرته العسكرية، فإن الخلفاء الفاطميين لم تفتحهم مواطن الجمال في أطراف القاهرة والفسطاط والجزيرة، فانتفعوا بها وبشاطىء النيل وحافى الخليج وشبرا، حيث الخضرة والماء، فأنشأوا المناظر والحدائق التي كانوا يقضون فيها أوقات فراغهم.. وكان لارتفاعهم بتلك المناطق أثر كبير في تعميرها بخاصتهم من الناس، فامتد العمران إلى خارج أسوار القاهرة.

وفي سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) وسع الوزير بدر الجمالى رقعة مدينة القاهرة شمالا وجنوبا وسمح بالسكنى فيها، فامتد عمرانها إلى أطرافها ثم إلى خارج أسوارها، وسميت الأبنية التي بداخل الأسوار باسم « داخل السور » كما سميت الأبنية التي في خارج الأسوار باسم « ظاهر القاهرة »، وأنشئ في هذا الفضاء الذى هو خارج السور خطط جديدة بعد أن كانت فضاء تشغله البساتين. هذا عدا الناحية الشرقية التي تقع بين السور والجبل، بعد أن كانت فضاء تشغله البساتين هذا عدا الناحية الشرقية التي تقع بين السور والجبل، فإن الخليفة الفاطمى الحاكم أمر بأن تبنى أتربة القاهرة خلف السور لمنع السيول من دخول المدينة، فتكونت تلك الأكوام التي تعرف بأكوام البرقية في نهاية شارع الدراسة.

وقد أحاط صلاح الدين الأيوبي القاهرة والفسطاط بسور واحد وبني قلعة الجبل. وفي عصر المماليك امتد العمران وخاصة في عهد الناصر محمد بن قلاوون حتى زادت رقعة القاهرة نحو النصف، وغدت هي والفسطاط مدينة واحدة تمتد من العباسية إلى بركة الحبش (أثر النبي) ومن النيل إلى المقطم<sup>(١)</sup>.

وكان لتحول النيل في القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) أثر كبير في توسيع رقعة مصر والقاهرة. وقد وصفها ابن فضل الله العمري<sup>(٢)</sup> المؤرخ الجغرافى في القرن الرابع عشر الميلادى بقوله:

(١) المقرئى : خطط ج ١ ص ٣٦٥ .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٠ .

« ولم تزل القاهرة في كل وقت تتزايد عمارتها، وتتجدد معالمها، بعد حريق القسطنطينية (في عهد وزارة شاوور) سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) وانتقال أهلها حتى صارت على ما هي عليه في زماننا من القصور العالية والدور الضخمة، والمنازل الرحيبة والأسواق الممتدة والمناظر الزهية والجوامع البهجة والمدارس الرائعة والخوانق الفاخرة، مما لم يسمع بمثله في قطر من الأقطار ولا عهد نظيره في مصر من الأمصار » .

(٥) مدينة مراکش :

إن بناء مدينة مراکش باعتبارها حاضرة للدولة المرابطية مع وجود مدينة « أغمات » الكبيرة، التي كانت مزدهرة قبل مراکش، والتي لا تبعد عنها بأكثر من ثلاثين كيلو مترا لم يكن مجرد صدقة أو ارتياد مكان لغرض غير معين .

ذلك أن أغمات المدينة البربرية الأصلية التي يرجع تاريخ بنائها إلى العصور القديمة كانت تحفّ بها أشجار الزيتون في سفح جبال الأطلس<sup>(١)</sup> وتكثر بها البساتين والأنهار . ولم تكن هذه المدينة تلائم البيئة الصحراوية التي تعودها المرابطون فضلا عن أنها ضاقت بسكانها الجدد من المرابطين .

وقد وصف اليعقوبي<sup>(٢)</sup> أغمات بأنها « بلد خصب فيه مرعى ومزارع في سهل وجبل، وأهله قوم من البربر » . وقد ذكر الإدريسي<sup>(٣)</sup> الذي عاصر المرابطين والموحدين أن أهل أغمات يتوفرون على ثروات ضخمة من تجارة النحاس والثياب الصوفية والعمامم والآلات الحديدية، وما منهم رجل يسافر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جملا موقرة<sup>(٤)</sup> . ولم يكن في دولة الممسين أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع مهم أحوالا .

عاد أبو بكر بن عمر إلى مدينة أغمات وكانت مدينة مشهورة بعلها وحضارتها . وكانت عبارة عن مدينتين تسمى كل منهما أغمات، وتنسب إحدهما إلى قبيلة وريكة فيقال لها أغمات وريكة، والأخرى تنسب إلى قبيلة هيلانة فيقال لها أغمات هيلانة

(١) Terasse, tome I. p. 222

(٢) كتاب البلدان ص ٢١ — ٢٢

(٣) كتاب الأندلس وأرس السودان ص ٦٧ .

(٤) أي منقولة بالأجمال .

أو إيلان أو إبلانة هيلانة). وما زال أهل مراکش حتى اليوم يسمون أحد أبواب مدينتهم « باب إيلان ». وقد قامت منافسة شديدة بين هاتين المدينتين ، حتى إن كل فريق منهما كان يصل في الجامع منفرداً . وفي ذلك الوقت استقر أبو بكر بن عمر في هذه المدينة وتوافدت عليه الوفود والجيوش من الصحراء حتى ازدحمت بالسكان فضج أهلها بالشكوى لما كانوا يجردونه من عتاء بسبب مضايقة المرابطين لهم . فقال لهم أبو بكر : عينوا لنا موضعاً نبني فيه مدينة إن شاء الله . فأشاروا عليه في بادية الأمر بمكان يقع على نهر تانسفت<sup>(١)</sup> ( بسكون النون والفاء وكسر السين ) شمالي مراکش . ولكن أبا بكر خاف من فيضان هذا النهر وقال لهم : إننا قوم صحراويون ولا نستطيع العيش بجوار الأنهار . وأخيراً أشاروا عليه بفحص<sup>(٢)</sup> مراکش وقالوا له : أيها الأمير قد نظرنا لك موضعاً صحراء رحب الساحة واسع الفناء يليق بمقصدك ، يكون وادي نفيس ( بفتح النون ) جنانها ، وبلاد دُكالة<sup>(٣)</sup> ( بضم الدال وفتح الكاف مع التشديد ) فدأنها ، وزمام جبال درن ( بفتح الدال والراء ) ( بالأطلس الكبير ) بيد أميرها . أضف إلى ذلك وقوع مدينة مراکش في مكان متوسط من بلاد المغرب الأقصى .

عند ذلك ركب الأمير أبو بكر بن عمر في صحبة نفر من قومه من لمتونة وشيوخ المصامدة ووجوه الناس إلى خص مراکش . وكان خاويًا موحشاً ، لا أنيس به إلا الغزلان والنعام ولا ينبت به إلا السدر والحنظل ؛ فوجدوا بجواره مكاناً خصيباً فسيحاً ورأوا في هذا السهل من العشب الجمالهم ودوابهم ما سرهم<sup>(٤)</sup> .

## ٢ — تسمية مراکش :

وقد ذكر عبد الواحد المراكشي<sup>(٥)</sup> أن مراکش كانت في مبدأ أمرها غيضة لا عمران فيها ، وكانت مأوى للصوص ، وربما سميت مراکش باسم عبد أسود يدعى « مراکش » ، استقر بها أو لأنها كانت بمكان موحش مخيف . فكان المسارة يقولون لرفقاتهم :

(١) ويصب جنوبي مدينة آسني .

(٢) بفتح الفاء وسكون الحاء كل موضع يسكن .

(٣) لا تتصل وكالة اليوم بمراكش ، وكان اسمها قديماً يطلق حتى على القبائل التي تدعى عبدة

اليوم بجوار مدينة مراکش .

(٤) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ( لمؤلف مجهول ) . نشره علوش ، ص ٥ — ٦ .

(٥) المعجب في تالخيص أخبار المغرب ص ٩٥ وما يليها .

« مراکش » ، ومعناها مرّ مسرعاً بلغة المصامدة ، فعرف المكان بهذا الاسم ، وهو مراکش ( بفتح الميم والراء مع التشديد وضم الكاف )<sup>(١)</sup> ، وبعضهم ينطقها بفتح الكاف وضبطها ببعضهم بضم الميم وكسر الكاف . ويطلق لفظ مراکش على المملكة المغربية كلها فيقال سلطنة مراکش ومملكة مراکش ( Maroe بالفرنسية و Morocco بالإنجليزية ) و Marrakesh على المدينة .

### ٣ — تخطيط مراکش

وقد بدأ الأمير أبو بكر بن عمر عملية التعمير والبناء ببناء قصره ، وتبعه الناس في بناء الدور بغير أسوار<sup>(٢)</sup> . ثم بنى معسكراً ومخازن للسلاح والأموال إلى جانب مسجد لإقامة الصلاة . وليس من شك في أن المدينة بدأت في غاية البساطة ، حيث سكن الناس أولاً في خيام من الوبر ، ومنهم رجال الدولة . واستمر هذا العمل نحواً من سنة ، وقيل ثمانية أشهر .

ولما نزل الأمير أبو بكر بن عمر بموضع مراکش وبدأ عملية التعمير والبناء ، وفد عليه رسول من قبيلة لمتونة بالصحراء يعلمه أن جدالة قد أغارت عليهم ، فأقام أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين على حكم المغرب وسار نحو الصحراء لنجدة قومه<sup>(٣)</sup> .

وينسب بعض المؤرخين بناء مدينة مراکش إلى يوسف بن تاشفين ويحدد تاريخ بنائها بسنة ٤٥٤ هـ ( ١٠٦٣ م ) ، على أنه مما لا شك فيه أن يوسف بن تاشفين كان يشرف على البناء حين كان أبو بكر بن عمر مشغولاً بإخماد الفتنة التي قامت بين قبائل المرابطيين قبل أن يعود إلى الصحراء ويقضى بقية حياته فيها . على أننا نرى أن المؤسس الحقيقي لمدينة مراکش هو أبو بكر بن عمر ، وأن يوسف بن تاشفين قد أتم ما بدأه أبو بكر بن عمر . ومراكش تشبه كثيراً من حيث جوها والحركة الدائبة فيها مدينة بغداد ، كما تشبه مدينة

(١) أنظر لفظ مراکش في معجم البلدان لياقوت .

(٢) كان المرابطون يكرهون أن تكون المدن مسورة ، وذلك لطبيعة نشأتهم الصحراوية الطائفة ، حتى إن يوسف بن تاشفين لما فتح مدينة فاس ، خرب السور التي يفصل بين عدوتها ( أى عدوة الأندلسيين وعدوة القرويين ) وقال : إنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا . ولما فكر على بن يوسف بن تاشفين في تسوير مدينة مراکش سنة ٥١٩ هـ ( ١١٢٥ م ) استفتى الفقهاء في المغرب والأندلس في هذا العمل .

(٣) عباس بن إبراهيم : الإعلام بمن حل بمراكش وأغمت من الأعلام ( فاس ١٣٥٥ / ١٩٣٦ )

فاس من حيث كثرة غياضها وأشجارها وطقسها مدينة دمشق ، وتزخر مدينة مراكش بالآثار والمعالم الحضارية .

ويذكر ابن خلدون (١) أن يوسف ( بن تاشفين ) جعل مدينة مراكش لنزوله ونزول  
عسكره ولمراقبة قبائل المصامدة التي كانت تقيم بجبال درن ( بفتح الدال والراي ) المتاخمة  
لمراكش . وهكذا يرجع تأسيس مدينة مراكش إلى عوامل أهمها :

( ١ ) إيجاد مقر للحكومة ومعسكر يتسع لجند المرابطين .

( ٢ ) اتخاذ حاضرة الدولة بقرب مواطن المصامدة الأصلية لدفع إغاراتهم .

( ٣ ) ارتياد مكان فسيح من حيث موقعه الملائم لطبيعة حياة المرابطين الصحراوية .

وقد اختط أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين من بعده مدينة مراكش في بسطة من  
الأرض حولها جبل إيجليز ( ويسمى الآن جيليز ) القريب من مراكش واقطع منه الحجر  
وبني منه دارا لخدمته ، وقصرا يعرف بدار الحجر . ولا يعرف موقع هذا القصر على وجه  
التحقيق ، أما المباني الأخرى فكانت من الطين والحجر .

وبعث يوسف بن تاشفين في طلب عبيد الله بن يونس الذي برع في الهندسة ، فاستخرج  
الماء الذي جرى إلى المباني والبساتين والمنتزهات التي يسمونها البحائر (٢) ، حتى كثرت قصور  
الأمراء والقواد وغيرهم . وقد أمد يوسف بن تاشفين مدينة مراكش بالماء ، فحفر آبارا  
أطلق عليها « الخطاطير » وجلب إليها الماء من أغمات (٣) .

وقد اتفق المؤرخون على أن المرابطين لم يتخذوا فاس حاضرة لدولتهم ، بعدها عن  
مواطنهم وعن مواطن المصامدة الذين كانت تعمر بهم جبال الأطلس .

وقد اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي بنيت فيها مدينة مراكش ، فيذكر  
ابن خلدون (٤) وابن أبي زرع (٥) أنها بنيت سنة ٤٥٤ هـ .

(١) العبر ج ٦ ص ٣٧٨ .

(٢) جمع بحيرة ( بفتح الباء ) والمراد بها الفدان الذي يجرث ( أي حقل ) ، وهي ما يسمى اليوم

أجدال ( بفتح الألف مع الهزة وسكون الدال ) .

(٣) عباس بن إبراهيم : الأعلام ج ١ ص ٦٣ .

(٤) العبر ج ٦ ص ١٨٤ .

(٥) روض القرطاس ج ٢ ص ٣٩ — ٤١ .

٤ — اتساع مدينة مراکش .

وقد أجمع المؤرخون على أن بناء مدينة مراکش تم في ثمانية أشهر ، وأن عليا بن يوسف هو الذي سورها وأنفق على بنائها سبعين ألف دينار مرابطية ، وبنى بها مسجدا قام بترميمه المولى سليمان العلوي . كما بنى قنطرة تانسيفت واستعان بصناع الأندلس وغيرهم من مهرة المهاريين . ولكن سيول هذا المهر لم تلبث أن هدمت هذه القنطرة وأطاحت بها في النهر ، ولم يبق منها إلا عقدها ، فقام الموحدون بترميمها .

وقد ذكر المؤرخون أنه كان بمدينة مراکش سبعة عشر بابا ، واشتهرت مراکش باتساع أزقتها ورحابة دورها وارتفاع مبانيها وزخرت أسواقها بالسلع .

ولما انتقل الحكم إلى الموحدين سنة ٥٢٤ هـ فتح عبد المؤمن بن علي ( ٥٢٤ — ٥٥٨ هـ ) أول خلفاء الموحدين مدينة مراکش (١) . وقد عني هو ومن جاء بعده من الخلفاء بتشديد المباني ، فبدأ ببناء جامع الكتبية الذي اشتهر ببنائه العظيمة التي تحاكي منارة « الخالدة » بإشبيلية . ثم آتمه ابنه أبو يعقوب يوسف ( ٥٥٨ — ٥٨٠ هـ ) ، وجلب عبد المؤمن ابن علي المياه من أودية جبال دَرَن و غرس في غربي المدينة بحيرة ( بفتح الباء ) عظيمة بلغت دائرتها ستة أميال وبنى فيها وفي خارجها صهريجين عظيمين ، كما غرس ابنه أبو يعقوب يوسف بحائر أخرى جلب إليها الماء وبنى فيها صهريجا ضخما ، كما بنى في جنوبي المدينة حصنا آتمه ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور ( ٥٨٠ — ٥٩٥ هـ ) وبنى بجوار مراکش مدينة أخرى تزخر بالبساتين والقصور والأسواق والفنادق ، كما بنى بها جامعا وقيسارية ذكر المؤرخون أنه لم يُبْنِ في المدن الإسلامية قيسارية أعظم منها (٢) .

وقد بلغت مدينة مراکش أوج ازدهارها في عهد الموحدين ثم في عهد بني مرين ( ٥٩١ — ٨٧٥ / ١١٩٥ — ١٤٧٠ ) ولا سيما في عهد المنصور الذهبي ( ٦٥٦ — ٦٨٥ / ١٢٥٨ — ١٢٨٦ ) حتى بلغت مساحتها أربعة فراسخ (٣) طولا ومثلها عرضا . وبلغت قصورها درجة عظيمة من الروعة والجمال (٤) . فاشتهرت ببساتينها وأعنانها وفواكهها

(١) هدم الموحدون مسجد يوسف بن تاشفين بمدينة مراکش ولم يبق من معالمها سوى سورها وخطاطيرها ودمرت المباني الأخرى وأقيم مكانها أبنية أخرى .

(٢) عباس بن إبراهيم : الأعلام . ج ١ ص ٦٣ .

(٣) والمرسوخ أربعة أميال .

(٤) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٣٦٠ .

وثمارها وغرست فيها أشجار الزيتون ومعاصر الزيت ودهن المهرجان (١) . وقد شيد يعقوب المنصور الموحدى ساقية تشق وسط المدينة ساقى منها الماء إلى قصره ، وجعل حولها سقايات يشرب منها الناس وتسقى منها الخيل والدواب ، كما بنى فى شرقى المدينة دار الفرج وهو مارستان المرضى الذى وصفه عبد الواحد المراكشى (٢) فقال . « ما أظن أن فى الدنيا مثله » .

وقد ظلت مدينة مراكش حاضرة للدولة المرابطية محوياً من ست وسبعين سنة حتى زالت هذه الدولة سنة ٥٤٠ هـ .

ولمدينة مراكش أهمية كبيرة من حيث موقعها الجغرافى : فهى تقع فى وسط المغرب الأقصى بين الصحراء والسهول ، وهى ملتقى الجبل والسهل وبمجمع العرب والبربر حتى أطلق عليها بعض أهلها خراسان المغرب ، لأنه يسكنها أقوام من أجناس مختلفة يتكلمون لهجات متعددة . وهى سوق نافقة للتجارة بين العرب سكان الأراضى السهلية غرباً وشمالاً ، كالرحامنة وحمير والسرغنة ودكالة والشاوية ، وبين البربر سكان الجبال شرقاً وجنوباً . فالخارج من مراكش من باب أعماث لا يسمع إلا اللغة البربرية من قبيلة مسفيوة شرقاً إلى ما وراء الأطللس الكبير ومنها جنوباً إلى بلاد السوس . وإذا خرج من باب الخميس لا يسمع إلا اللغة العربية من قبيلة الرحامنة غرباً إلى سواحل المحيط الأطلسى ، ومنها شمالاً إلى أقصى قبيلة الشاوية . وكان يعبر عن هذا الإقليم بالحور وحاضرته مراكش ، ويقابله الغرب وحاضرته فاس .

ومن الجهات الجبلية البربرية تجلب إلى السهل الزيوت والفواكه والأخشاب والجلود المدبوغة وسائر منتجات الأراضى الجبلية ، ويجلب من أراضى السهول إلى الأراضى الجبلية الماشية والسمن والصوف وغيرها من منتجات السهول . وبما ساعد على رواج التجارة لإصلاح الطرق التى تخترق الجبال وبناء القناطر التى تخترقها قوافل السيارات ليلاً ونهاراً (٣) .

#### ( هـ ) صرينة الرباط :

لماولى يعقوب المنصور الخلافة رأى أنه من الصعب أن يرسل التجذات من مدينة

(١) ويعرف بالأرجان اليوم ، وهو شجر يستخرج الزيت من حبه .

(٢) المعجب من ٣٦٠

(٣) أحمد بوستة : مجلة المغرب ( ربيع الثانى — جمادى الأولى ١٣٥٥ / يونية — يولية

١٩٣٦ ) من ٢٣ .



مراكش إلى الأندلس ، بعد الشقة بينهما . لذلك فكر يعقوب المنصور وأبوه يوسف بن عبد المؤمن من قبله في بناء مدينة على ساحل البحر يستطيع أن يقضى فيها فصل الصيف مع جيوشه . وقد أشار عليه بعض رجال بلاطه بأن يتخذ مدينة سبتة معسكرا لجنده . ولكن يعقوب المنصور رأى أن إقليم سبتة يقصر عن تزويد جنده ورجال بلاطه وخدمه بما يحتاج إليه من أقوات مدة ثلاثة أو أربعة أشهر في السنة ، لعدم خصوبة أرض هذا الإقليم ، ولأنه لا يتسع لسكنى هؤلاء الجند والخدم ورجال البلاط . لذلك استقر الرأي على اختيار موقع الرباط . وقد بدأ يوسف البناء وأتمه ابنه يعقوب المنصور في بضعة أشهر ، وذلك سنة ٥٩٣هـ ( ١١٩٦ — ١١٩٧ م ) على أثر انتصاره في موقعة الأرك المشهورة . وقد بنيت في هذه المدينة المساجد والمدارس والقصور والدور والخوانيت .

وفي خارج سور المدينة من ناحية الجنوب أقام يعقوب المنصور منارة تشبه منارة جامع الكتبية بمدينة مراكش ، ولكنها أعظم منها ، وجعل حياً خاصاً لكل جماعة من السكان ، كالصناع والتجار والأدباء وغيرهم . وسرطان ما ازدهرت مدينة الرباط وأصبحت من أغنى مدن القارة الإفريقية ، وساعد على ذلك حسن موقعها ورواج تجارتها بسبب سكنى الجند والخدم ورجال البلاط . وكان يعقوب المنصور يقيم فيها بين شهرى إبريل وسبتمبر .

على أنه يلاحظ أن ماء وادى (نهر) أبي الرقراق ( بفتح الراء مع التشديد وسكون القاف ) الذى يصب في البحر عند مدينة الرباط يتصف بملوحة مائه . لذلك فكر يعقوب المنصور في جلب الماء من مكان يبعد عن المدينة بإثنى عشر ميلاً بواسطة قنطرة حسنة البناء مقامة على أعمدة ، تشبه القناطر التى كانت مستعملة في بلاد الدولة البيزنطية . ويخرج من هذه القنطرة فروع كثيرة تجلب الماء إلى جميع أحياء المدينة<sup>(١)</sup> .

ويقول المراكشى<sup>(٢)</sup> إن طول سور مدينة الرباط ( الذى يشبه سور مدينة مراكش ) بلغ في مبدأ أمره نحواً من فرسخ وعرضه أقل من ذلك بكثير . وقد اتسعت رقعة المدينة ، وألحقت بها أحياء كثيرة ، مثل حى " يعقوب المنصور وحى أجندال وغيرهما . وأصبحت الرباط حاضرة رسمية لبلاد المغرب الأقصى منذ سنة ١٩١٢ .

(١) الحسن الوزان ( ليو الإفريقى ) « وصف إفريقيا » بالفرنسية ( ج ١ ص ١٦٤ - ١٦٦ .

(٢) المعجب ص ٢٦٦ .

## (٢) المنشآت المعمارية

### (١) القصور

بعد أن تم لجوهر فتح مصر ودخل مدينة الفسطاط سنة ٥٣٥٨ هـ ، عسكر في السهل الرملي الذي يقع إلى شمالها ، ويحده من الشرق نلال المقطم ومن الغرب خليج أمير المؤمنين . وقد بنى في هذا المكان القصر الشرقي الذي أعده جوهر لاستقبال مولاه الممزر ، واتخذ حول هذا القصر دوراً للجند والموظفين والأبناع . وموضع هذا القصر هو المكان الذي يقع فيه مسجد الحسين وخان الخليلي الآن . وقد بنى العزيز كثيراً من المنشآت التي تدل على وفرة ثروة مصر في عهده ؛ فبنى « القصر الغربي » الذي يقع غربي القصر الشرقي . وكان القصر الغربي الذي بناه العزيز أصغر من قصر المعز ، لذلك أطلق عليه « القصر الغربي الصغير » تمييزاً له عن « القصر الشرقي الكبير » . وكان يقع مكان سوق النحاسين وجامع قلاوون تقريباً . وبين القصرين ميدان فسيح لعرض الجند أطلق عليه « بين القصرين » .

وقد ذكر ابن دقاق أسماء أبواب القصر الشرقي الكبير : وهي باب الذهب ، وتعلوه منظره يشرف منها الخليفة في الأعياد ، وباب البحر ، وباب الريح ، وباب الزمرد ، وباب العيد ، وأمامه رحبة متسعة يقف فيها الجند في يومى العيدين وتعرف برحبة العيد . وبحواره دار الضيافة ، وتسمى بدار سعيد السعداء ، وباب قصر الشوك ، وباب الديلم ، وموضعه الآن مسجد الحسين ، ويقابله الجامع الأزهر إلى الجنوب الشرقي من القصر ، وباب تربة الزعفران ، وباب الزهومة ؛ أعنى الباب الذي يشم منه رائحة اللحم ، وبين هذا الباب والجامع الأزهر تقع خزائن القصر<sup>(١)</sup> .

وقد وصف ناصف خسرو حين زار مصر في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي (٤٣٩ — ٤٤١ هـ) القصر الخلابي ، فذكر أنه كان به ثلاثون ألف جارية واثنا عشر بهراً وعشرة أبواب . وكان موضعه وسط القاهرة التي كان بها عشر حارات ، وبلغ عدد حراسه العا ، منهم خمسمائة فارس وخمسمائة راجل . وإذا ما انتهت صلاة العشاء ضربت الطبول والأبواق ، وعزفت الصنوج وكون الحرس من أنفسهم دائرة ، وظلوا كذلك حتى مطلع الشمس<sup>(٢)</sup> . كما وصف المقرئى هذا القصر ، فذكر أنه كان به عشرة آلاف

(١) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ٥٦ — ٥٧ .

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٢٨ .

من الأشراف وثمانية آلاف من الخدم ، كما ذكر أنه كان بهذا القصر حين استولى عليه صلاح الدين الأيوبي اثنا عشر ألفاً كلهم من الإباث عدا الخليفة وأولاده ، وأن هذا القصر قد جددته الخليفة الأمر في سنة ٥٢٢ هـ . وكان يجلس في أعلاه ويشاهد ذكر الصوفيين من نافذة خاصة ، وألويتهم بين أيديهم ، والشموع تضيء لهم : وكانت تقام لهم الموائد وعليها مالد وطاب من سائر أنواع الاطعمة<sup>(١)</sup> .

وكان الخلفاء الفاطميون يبنون المناظر ، فبنوا بالمقس ثلاثاً منها ، إحداها تقع بين باب الذهب وباب البحر ، والثانية على قوس باب الذهب ، والثالثة يقال لها الزاهرة والناصرة والفاخرة . وكان الخليفة يجلس في إحدى هذه المناظر يعرض العساكر يوم غدیر خم ، ويقف الوزير في قوس باب الذهب<sup>(٢)</sup> .

وقد أنشأ الفاطميون كثيراً من المنشآت العامة كالفنادق والحمامات ، وكانت كلها ملكاً خاصاً للخليفة . كما كانت الدكاكين في القاهرة كذلك ملكاً خاصاً له ، يتراوح إيجار كل منها بين دينارين وعشرة دنانير في الشهر . وكانت الدور محكمة البناء مبنية بالحجر لا بالطين ، يفصل بعضها عن بعض حدائق بهيجة<sup>(٣)</sup> .

### (ب) الحمامات

ومن أهم مظاهر الحياة في المدينة الإسلامية الحمام . ففي القرآن والسنة نرى النظافة الشخصية والصحة العامة أمراً أساسياً لتنظيم الجسم ونظافته ، حتى لقد ورد في الأثر الشريف قول الرسول الكريم : « النظافة من الإيمان » . لذلك نرى الإسلام يهتم بالوضوء والاستحمام واستعمال السواك ، فالسنة الشريفة تقرر على المسلم أن يستحم مرة على الأقل في الأسبوع ، وعلى الأخص في يوم الجمعة . وقد اعتاد الرسول الكريم نفسه أن يستحم في عيدي الفطر والأضحى ، كما أثر عنه أنه أوصى المسلمين بالاستحمام في مناسبات معينة : بعد الجنابة والجماع وفي يوم الجمعة وعند الحجامة وبعد غسل الميت . كما شجع العرب في السباحة برغم عدم وجود خزانات لمياه الشرب ببلادهم واعتمادهم على مياه السيول .

(١) المقرئزي : خطط ج ١ ص ٣٨٤ وما يليها .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٠٤ .

(٣) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٣٢ .

وكان الاستحمام بالماء الحار<sup>(١)</sup> شائعاً عند العرب في صدر الإسلام ، وربما أخذوه عن أهالي البلاد التي فتحوها ولا سيما في سورية ومصر . وقد رحب المسلمون بهذه العادة لأنها جزء من الطهارة التي هي باب الصلاة وشرط لكثير من العبادات . على أن بعض المسلمين قد امتنعوا أول الأمر عن دخول الحمامات التي قامت في مداخلها التماثيل وزينت جدرانها بالصور التي تم عن الكبرياء والجبروت . ومع ذلك فقد بقيت هذه التماثيل عدة قرون . ويشبه تصميم بناء الحمام عند العرب حمامات رومة إلى حد كبير ، فنجد في داخل الحمام غرفة رطبة الجو بها مساطب حجرية مغطاة بحشيات أو سجاجيد لجلوس صاحب الحمام ( المعلم ) خلف عارضة تعلوها أقداح القهوة ، ثم تأتي غرفة ثانية مدفأة لخلع الثياب والاستراحة في الشتاء ، وتتوسط الغرفة الباردة وغرفة « الحرارة » التي يتصبب فيها الإنسان عرقاً ، وتحاط بغرف فرعية صغيرة يجد فيها المستحم الماء الحار والبارد ، وتجد فيها موظفاً يقوم بتدليك وغسل المستحم بالصابون في « الحرارة » أي في إحدى الغرف الصغيرة ، وعند ما يمر المستحم بالغرفة المتوسطة يظل فيها للاستراحة في الشتاء . وإذا كان الفصل صيفاً ذهب المستحم رأساً إلى الغرفة الباردة ( المسلخ ) . وقد أولع بعض السيدات باستئجار حمام خاص بعد الظهر حيث يقمن مع قريباتهن وصديقاتهن حفلات في مناسبات الزواج أو الأعياد . وقد يستأجر الرجال حمامات خاصة في مناسبات الزواج . أما الأغنياء فينبون حمامات خاصة بدورهم<sup>(٢)</sup> .

ويستفاد مما كتبه يحيى بن سعيد الأنطاكي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ ( ١٠٦٦ م ) أنه كانت هناك في العصر الفاطمي حمامات خاصة بالمسلمين وأخرى باليهود وثالثة بالنصارى ، وأن الخليفة الحاكم الفاطمي حرم أن يدخل أحد الحمام بدون إزار ، ثم عاد لخرم على النساء دخول الحمامات العامة<sup>(٣)</sup> . وكان تجار مصر في همد الفاطميين يجلبون العطور التي توزع على الحمامات في كل يوم جمعة ، كما يوزع الطيب على قصور الأمراء والوزراء وغيرهم من

(١) الحمام والحميم والحية جميعاً : الماء الحار ( والحية أيضاً المنخفض إذا سخن ) والحية هو الماء الحار لفة ، وجمعها حمامات ، والحميم العرق ، واستحم الرجل : عرق : وقولهم لمن دخل الحمام : طاب حميمك يمتنون بذلك العرق أي طاب عرقك ، وإذا دعوا له بطيب العرق فقد دعوا له بالصحة لأن الصحیح يطيب عرقه .

(٢) ديمومين : النظم الإسلامية ، ترجمة من ٢٢٧ .

(٣) يحيى بن سعيد : صلة تاريخ أوتيسخا من ١٨٧ و ٢٠٨ .

كبار رجال الدولة (١). كما كانوا يستوردون العطر والند والمسك والعود والعنبر من جزر الهند الشرقية وبلاد الملايو والكافور من ساحل زنجبار (٢).

وقد ذكر المقرئزي أنه كان بمدينة القسوط ١١٧٠ حماما، وقد روى هذا المؤلف عن ابن عبد الظاهر أن حمامات مصر (يعنى القسوط والمسكر وأطلال القطائع) بلغت في سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) نحو ثمانين حماما (٣). وكان الخليفة الفاطمي يخرج في العيد من باب الساباط بالقصر الغربى الصغير إلى الميدان (وموضعه الآن الخرشف، وينطقه العامة الخرشف) إلى المنحر لينحر فيه الضحايا. ويعرف حمام الساباط إلى زمن المقرئزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) بحمام المارستان المنصورى. وقد خصص للنساء، ويعرف أيضا بحمام الصنينة. وقد بيعت في عهد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبي للامير عز الدين أيك مع بعض الأراضى المجاورة سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٤ م) بمبلغ ١٢٠٠ دينار، ثم بيعت بعد ذلك بمبلغ ١٦٠٠ دينار (٤). وبلغ من شهرة حمامات دمياط أن وصفها المقدسى (٥) بقوله إن حماماتها كانت أجود حمامات مصر.

وذكر اليعقوبى (٦) أن حمامات بغداد بلغت ١٠٠٠٠ وأن القسم الشرقى (الرصافة) كان به ٥٠٠٠ حمام. وهذا القول لا يخلو من المبالغة. وقد وصف ابن جبير (٧) الذى عاش في القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) حمامات بغداد في هذه العبارة فقال: «وأما حماماتها فلا تحصى عدة. ذكر لنا أحد أشياخ البلد أنها بين الشرقية والغربية نحو الألفى حمام، وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به، فيخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل. وحمامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم لأن شأنه عجيب. يجلب من عين بين البصرة والكوفة. وقد أنبط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار. فهو يصير في جوانبها كالصلصال فيجرف ويجلب، وقد انعقد. فسبحان خالق ما يشاء لا إله إلا سواه». ونقرأ فى المقرئ (٨) شيخ مؤرخى الأندلس الإسلامية أنه كان بمدينة قرطبة

(١) المقرئزي : خطط. ج ١ ص ٤٢٠ — ٤٢١ .

(٢) ابن لياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٦٣ .

(٣) المقرئزي : خطط. ج ٢ ص ٨٠ .

(٤) أنظر ما ذكره المقرئزي فى المخطط. ج ٢ ص ٧٩ — ٨٦ .

(٥) أحسن التقاسيم ص ٢٠٢ .

(٦) كتاب البلدان ص ٢٤٠ — ٢٤٩ .

(٧) رحله ابن جبير ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٨) فتح الطيب ج ١ ص ٢٥٦ — ٢٥٩ .

ثلاثة حمام . وبالمغرب الآن كثير من هذه الحمامات التي يعنى بها الأهالي ويؤمنونها بصفة دائمة ، إذ أن كثيراً من الناس لا يستحمون في منازلهم على ما هو شائع في مصر . وهذه العادة ترجع إلى العصور القديمة .

### ( ح ) المدارس :

ولم تكن هناك مدارس خاصة يتلقى فيها التلاميذ العلوم الدينية بانتظام ، بل كانوا يتخلفون إلى المسجد . ولم تنشأ المدرسة قبل القرن الرابع الهجرى ( العاشر الميلادى ) . وكانت المدرسة الأولى بهذا المعنى هي المدرسة البيهقيّة في نيسابور (١) . ثم أنشأ نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى وصديق عمر الخيام المدارس النظامية المشهورة في بغداد سنة ٤٥٧ هـ ، ثم في نيسابور وغيرها . ثم اقتدى الناس بنظام الملك فأسسوا المدارس في العراق وخراسان وما وراء النهر وفي الجزيرة وديار بكر . وقد حذا السلطان نور الدين محمود بن زنكى حذو السلطان ملكشاه حيث قام في القرن السادس للهجرة ببناء عدة مدارس للشافعية والحنفية لنشر المذهب الحنفى في دمشق وحلب وغيرهما (٢) ، ثم نقل صلاح الدين الأيوبي هذا النظام إلى مصر .

وكانت عمارة المدارس التي أنشأها صلاح الدين في القاهرة فتحاً جديداً في عالم البناء . فكانت المساجد إلى هذا الوقت ذات شكل واحد هو شكل الجامع الذي تقام فيه صلاة الجمعة .

وكان صلاح الدين يعمل على مقاومة الشيعة . لذلك عنى عناية خاصة ببناء المدارس أو المساجد المدرسية بعبارة أدق لتعلم عقائد المذهب السنى ، ولهذا اتفق صلاح الدين على هذه المعاهد من بيت المال . وإن الأبنية التي يعرفها الناس باسم مساجد هي في الحقيقة مدارس أو معاهد عليية . وهي أنخم ما كان في القاهرة من عمائر ، مثل : مساجد السلطان حسن ، وبرقوق ، وقلاوون والناصر محمد بن قلاوون . وهي تختلف تماماً عن المساجد في شكلها وفي الغرض الذي شيدت من أجله . ذلك أنها لم تشيد لأداء صلاة الجمعة ، بل كانت تبنى بناء مدرسياً لكي يتلقى فيها الطلاب العلوم الدينية والعربية . وكان لهذا أثر بعيد في تشييد المسجد وفي شكل بنائه .

(١) المقرئى : خطاط ج ١ ص ٣٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٠٩ .

وكانت المدرسة في عصر الأيوبيين عبارة عن بناء متجه إلى القبلة وفي وسطه صحن كبير مربع ، وفي كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان تعلوه قبة تحتها محراب ، ومن ثم لم تختلف هيئة المدارس في الجملة عن هذه المساجد ، لأن المدرسة كان يقصد بها أول الأمر دراسة الدين في كل شيء ، مما يدل على أن تصميم بناء المساجد قد أدخل عليه تطوير خاص بحيث أضحت عمارة مدرسية وليس عمارة خاصة بالمساجد كما كانت الحال من قبل<sup>(١)</sup> . ويحيط بالصحن من جوانبه الأربعة أروقة طويلة مقنطرة السقف كأنها أجنحة المسجد . وأما الجناح الشرقي وهو أطولها فيخصص إيوانه للصلاة ، وفيه المحراب والمنبر والميضأة وغيرها مما يحتاج إليه المصلون . وكانت الأروقة الأربعة تستقبل طلابها حسب المذاهب : فأحدها للحنفية ، والثاني للشافعية ، والثالث للمالكية ، والرابع للحنابلة . وكان الطلبة والعلماء يبيتون في أروقتهم الخاصة حسب مذاهب السنة ، كما كانت هذه الأروقة تستعمل للدراسة والمكتبات وما إليها من شؤون الدراسة<sup>(٢)</sup> .

وكانت السلطة في مصر أثناء غياب صلاح الدين توضع في يد ابنه أو أخيه ، وكلاهما كان يرجع إلى رأي القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي اليبسائي<sup>(٣)</sup> . وبفضل تأثيره بدأ الطلاب يفتدون إلى مدارس مصر من أقصى بلاد فارس وتركستان وغيرها ، واتصلوا بالعلماء الذين جاؤوا من قرطبة وإشبيلية . ومن هؤلاء « ابن فرو » الذي استهوته حركة إحياء العلوم والثقافة في المشرق بئاء إلى مصر من أقصى بلاد الأندلس . ولما جلس هذا الفقيه في حلقة الدرس تلف حوله جمهور من المستمعين ، فقربه إليه القاضي الفاضل ، وأنزله في داره وواراه التراب بعد موته في مقبرته الخاصة<sup>(٤)</sup> .

وقد بنى صلاح الدين مدرسة بالقرب من قبر الإمام الشافعي بالقرافة ، كما بنى مدرسة الناصرية سنة ٥٦٦ هـ ( ١١٧٠ م ) بجوار جامع عمرو لتدريس المذهب الشافعي الذي

(١) ماكس هيرتز بك : لمعة في تاريخ فن العمارة وسائر الفنون الصناعية المصرية ، تعريب علي بهجت بك ، ص ٣٦ — ٣٧ .

(٢) لينبول : سيرة القاهرة ، ترجمة المؤلف ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٣) وقد تقلد ديوان الإنشاء في عهد الخليفة الحافظ الفاطمي ( ٥٢٤ — ٥٤٤ هـ ) ، وقلده صلاح الدين قضاء الفضاة ثم اتخذه وزيراً له . وله طريقة كتابية معروفة في الأدب تعرف بطريقة القاضي الفاضل وهي مقتبسة من طريقة ابن العميد التي تقوم على السجع والمحسنات البيديية .

(٤) المصدر نفسه ص ١٧١ — ١٧٣ .

كان يدين بعقائده ، كما أنشأ على مقربة من هذه المدرسة مدرسة أخرى لتدريس الفقه المالكي عرفت باسم المدرسة القمحية<sup>(١)</sup>. وكذلك أنشأ صلاح المدرسة السيفية التي ما تزال أطلالها باقية حتى اليوم في المكان المعروف بالسيوفية بحى الخليفة في القاهرة . وأسس القاضي الفاضل المدرسة الفاضلية سنة ٥٨٠ هـ ، وكان بها مكتبة تشتمل على مائة ألف مجلد<sup>(٢)</sup> .

وقد حذا خلفاء صلاح الدين حذوه في الاهتمام ببناء المدارس ، حتى بلغ عدد المدارس التي شيدت في العصر الأيوبي ستاً وعشرين مدرسة ، نذكر من بينها « دار الحديث » التي بناها السلطان الملك الكامل محمد بين القصرين ، وتعرف بالمدرسة السكلمية . وبعد بضع سنين بنى السلطان الصالح نجم الدين أيوب المدرسة الصالحية . وقد أثر تأسيس هذه المدارس على الجامع الأزهر من ناحيتين :

الأولى : أنه كان من المتعذر أن يسير الأزهر النظم الجديدة ، حتى لقد أصبح في المرتبة الثانية من الأهمية في عهد صلاح الدين وخلفائه ، وذلك لأن الأزهر كان أكبر معهد شيعي يعتمد عليه الفاطميون في نشر العقائد الشيعية أولاً وفي مقاومة أهل الشيعة ثانياً ، فكان طبعياً أن تتخلف شهرته في عهد الأيوبيين السنيين ، وكان طبعياً كذلك أن تكون الصدارة للدارس الأيوبية السنية .

الثانية : كانت المناهج الدراسية في الأزهر حين استعاد مكانته في عهد المماليك تشبه نظام المدارس الجديدة أكثر مما تشبه نظام الدراسة في العصر الفاطمي . على أن الأزهر نفسه لم يلبث أن سائر الحياة الجديدة حتى أضحي فيما بعد كعبة للذاهب السنية الأربعة ، كما تطور الآن وأضحى به جامعة حديثة إلى جانب طابعه التقليدي القديم .

وكانت هذه المدارس في العهد الأيوبي تعنى بتدريس العلوم النقلية والأدب كالتفسير والحديث والفقه وعلم الكلام واللغة والنحو والصرف والبلاغة والأدب ، كما كانت تعنى أيضاً بتدريس العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق وعلم النجوم والفلك والرياضيات . وكان بعض العلوم كعلم النجوم والتاريخ الطبيعي والرياضيات العالية تدرس لبعض الطلاب على أيدي أساتذة إخصائين في منازلهم الخاصة . أما الطب فقد كان يدرس في المستشفيات<sup>(٣)</sup> .

(١) ذكر الميرزى (خطوط ج ٢ ص ٣٦٤) أن صلاح الدين وقف على هذه المدرسة فيسارية الوراقين وما يتبعها وضبعة في الفيوم . وعين بهذه المدرسة أربعة من المدرسين وزع عليهم وعلى الطلاب غلة هذه الضبعة من القمح ، فعرفت هذه المدرسة بالمدرسة القمحية .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٧ — ٣٥٩ . الميرزى : خطوط ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٣) Dodge, Al-Azhar (Washington D. C. 1961), pp. 40 — 41.



### (٣) المنشآت الحربية

#### (١) أسوار القاهرة :

أحيطت القاهرة عند إنشائها بسور كبير من اللبن يضم الخطط التي تكونت منها هذه المدينة . وكان هذا السور بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة ، وأصبح اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار ، على حين كان الجزء الواقع بخارجها يعرف بظاهر القاهرة . وهو عبارة عن خطط وأحياء جديدة تمتد بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل ( التي بناها فيما بعد صلاح الدين الأيوبي ) وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من ضفة النيل ، وتعرف الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق والحسينية<sup>(١)</sup> . وكان سور هذه المدينة الغربي يبعد عن خليج أمير المؤمنين بنحو ثلاثين مترا . وفي سنة ٤٨٦ هـ هدم هذا السور وبقيت الأبواب من الحجر ، وكان ذلك في عهد وزارة بدر الجمالي وزير المستنصر الفاطمي .

وفي سنة ٤٦٥ هـ بنى بدر الجمالي باب زويلة الكبير . ونقل باب النصر الذي بناه جوهر إلى المكان الذي به الآن ، كما بنى باب الفتوح في مكان آخر غير المكان الذي بنى فيه جوهر بابه . وهذه الأبواب الثلاثة من عمل ثلاثة إخوة أصلهم من الرضا<sup>(٢)</sup> .

وكانت المناظر التي إستخدمت أماكن للنزهة تستخدم في الواقع في الأغراض العسكرية ، بدليل أنها كانت تبنى على مشارف الحاضرة الفاطمية أو على تلال المقطم المشرفة على ما وراء الجبل وعلى الحاضرة معاً ، بدليل خروج الخلفاء إليها في حالة توديع الجيوش قبل سيرها للقتال أو استقبالها عند عودتها من ميادين القتال ، ويدعوننا هذا الزعم إلى القول بأن فكرة إنشاء المناظر كانت فكرة حربية ، بدليل أن أمير الجيوش

(١) المقرئى : خطط ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) وقد ذكرنا في كتابنا تاريخ الدولة الفاطمية ( ص ٥٣٤ ) أن جوهرأ لما اختط مدينة القاهرة جعل لها أربعة أبواب هي بابا زويلة وباب النصر وباب الفتوح — ويتكون بابا زويلة من باين متجاورين ، أحدهما القوس الذى كان بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح عليه السلام ، ولهذا سمي باب القوس ، وقد مر منه الخليفة الفاطمي المعز عند قدومه من بلاد المغرب ، فكان الناس يمرون منه تبركاً ، أما الباب الثانى فقد تشاءم منه الناس وهجروه ( الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٢ . المقرئى : خطط ج ١ ص ٣٨١ .

بدر الجمالى أحس بالحاجة إليها حين فكر فى إعادة تحصين مدينة القاهرة وتجديد أسوارها<sup>(١)</sup>.

وليس لأحد من الحكام الذين سبقوا صلاح الدين ماله من الآثار الخالدة ، فإنه يرجع الفضل فى اتساع مدينة القاهرة وتنسيق هندستها التى كانت تفخر بها إلى عهد قريب : فالقلعة وهى أبرز معالمها من إنشائه ، والمدرسة التى بناها هى أكثر عمارتها ذبوعا وشهرة ، وكل هذه التطورات قد تمت بفضل توجهاته ، وكان بعض هذه الآثار من أجل الدفاع عن البلاد وبعضها من أجل الدين . فأما الأعمال الدفاعية فقد تجلت فى إنشاء القلعة والسور وجسر النيل ، وكلها من الأعمال الدفاعية التى لم يسبق لها ، إذ أن الحكام الذين جاؤوا قبله جعلوا هدفهم بناء مبان حكومية أو ضواحي ملكية ، كل يبعد عن سابقه نحو نصف ميل إلى الجهة الشمالية الشرقية من المدينة ، حتى إن القاهرة الفاطمية نفسها لم تكن تشمل سوى قصور الخلفاء والموظفين .

أما صلاح الدين فكان أول من وضع تصمينا شاملا لحاضرة عظيمة ، إذ أنه بدلا من أن يحدو حدو من سبقوه من الحكام ويقيم ضاحية جديدة لدولته كما فعل أسلافه ، أخذ يوحد جميع الأحياء الآهلة بالسكان ويحيطها بسور عظيم وقلعة منيعة . لذلك نرى صلاح الدين يجمع شتات المباني المبعثرة فى الأطراف ويضم ميناء المقس إلى مدينة القاهرة . وقد أراد صلاح الدين أن يكون السور من الحجارة وأن يكون امتداد سور بدر الجمالى وزير المستنصر العاطمى حتى ميناء المقس غربا وجبل المقطم جنوبا ، ومن هناك يمتد إلى النيل ليضم بقايا مدينة القساط . غير أن هذا المشروع العظيم لم يتم قط ، لأن صلاح الدين كان مشغلا بحروبه مع الصليبيين . وقد جمع أعوانه فى القاهرة الأموال والرجال الذين يحتاج إليهم فى حروبه والذين يقومون ببناء ما تقضى به الضرورة من المباني . وكل ما تم هو مد سور بدر الجمالى فى الشمال من الخليج إلى النيل حيث أقيمت أبراج المقس المحصنة . أما من الجهة الشرقية فقد مد السور الفاطمى جنوبا إلى باب الوزير بالعرب من سور القلعة الجديدة . غير أن موت صلاح الدين حال دون إتمام هذا العمل الهدى قبل أن يتم ضم الأسوار . أما الأسوار الجنوبية فلم يكن قد بدى بعد فى بنائها . ولا يزال بعض أسوار صلاح الدين قائمة إلى الآن . ومن الممكن أن يقارن رجال الفن المعماري بين الأبراج

(١) انظر كتابى تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٣ - ٥٣٤ .

الفاطمية القديمة والأبراج المستديرة في سور صلاح الدين بما اشتمل عليه من أبراج  
ومناقد للمراقبة .

ونلاحظ هذه المميزات المعمارية في السور الشرقي الذي يفصل مدينة القاهرة عن  
قرافة قايتباي . ثم يظهر مرة أخرى طراز جديد عند باب الوزير (١) ، إذ أن جانبا من  
السور عند الزاوية الشمالية الشرقية — بما في ذلك برج الظافر — يتوغل في الصحراء ، مما يدل  
على أن المدينة قد انكشفت في هذا المكان إلى حدودها التي كانت عليها في القرن السادس  
الهجري ( الثاني عشر الميلادي ) . وفي الحق أن أسوار صلاح الدين لم تكن إلا امتدادا  
لأسوار بدر الجمالي (٢) .

### ( ب ) قلعة الجبل :

وقد عمل صلاح الدين الأيوبي على ضم القسطنطينية والعسكر وأطلال القطنان والقاهرة  
بعضها إلى بعض ، وبني قلعة الجبل ، وشرع في بناء سور حول مدينتي القاهرة والقسطنطينية  
يبلغ طوله خمسة وعشرين كيلو مترا ومتوسط عرضه نحو ثلاثة أمتار ، ويتراوح ارتفاعه  
بين تسعة أو عشرة أمتار . وقد بنى وجه هذا السور من الحجر المنحوت ، تتخلله الأبراج  
في جهات مختلفة . وقد استدعى هذا العمل الإنشائي هدم الأماكن الواقعة بين مصر  
القديمة ومشهد السيدة نفيسة حيث غرست البساتين وأنشئت المنزهات محلها .

وربما كان بناء القلعة فكرة جديدة استوحاها صلاح الدين من كراهيته للسكنى في  
القصور الفاطمية التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالشيعة .

وقد بنى صلاح الدين هذه القلعة الحصينة على سفح جبل المقطم على ارتفاع مائتين  
وخمسين قدما عن سفح البحر في المكان الذي كان يعرف في بقية الهواة التي بناها حاتم  
ابن هرثمة في القرن الثاني للهجرة ( الثامن الميلادي ) . وقد عرفت هذه القلعة باسم قلعة  
صلاح الدين ، وعرفت فيما بعد باسم قلعة الجبل تمييزا لها عن قلعة الروضة . وفي سنة  
٥٩٢ هـ ( ١١٩٦ م ) عهد صلاح الدين ببناء قلعة الجبل إلى بهاء الدين قراقوش (٣) ، لتتكور

(١) انظر مذكرات « فان برشم » ( ١٩١١ ) ص ٦٨ ، ٥٥ - ٧٠ .

(٢) لينبول : سيرة القاهرة ، ترجمة المؤلف ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٣) معنى قراقوش بالتركية « طائر أسود » . وقد قام بإنشاء عدة أبنية عبرت معالم القاهرة ،

مثل قلعة الجبل وقناطر الجيزة وسور القاهرة ، ولما فتح صلاح الدين عكا سنة ٥٨٣ هـ ( ١١٨٧ م ) =

مركزا للحكومة وثكنات للجند ، وتم بناؤها سنة ٦٠٤ هـ ( ١٢٠٧ م ) في عهد الملك الكامل بن الملك العادل الأيوبي .

ويحيط بهذه القلعة سور من الحجر له أبراج ، ولها بابان : أحدهما مواجه لمدينة القاهرة ويسمى الباب المدرج ، ويطلق على الباب الثاني باب القرافة . وبين هذين البابين مكان متسع يوصل إلى دهاليز ، على يسرة الداخل منها باب يصل إلى جامع فسيح الأرجاء مرتفع البناء مبلط بالرخام ، وسقفه مبطن بصفايح الذهب ، وفي وسطه قبة تليها مقصورة يصل فيها السلطان الجمعة والعيد . وتحف الأروقة بصحن الجامع من جميع جهاته . وبصدر هذه الدهاليز مصطبة على جانبيها يمر يدخل منه إلى ساحة يواجه الداخل إليها باب الإيوان الكبير . وهو مرتفع البناء ، به أفنية متسعة وعمد ضخمة . وبصدر هذا الباب سرير الملك ، وهو عبارة عن منبر مرتفع من الرخام ، يجلس عليه السلطان في الأيام التي يستقبل فيها سفراء الملوك . وإلى يمين هذا الإيوان ساحة كبيرة بها القصر الأبلق الذي بناه الناصر محمد بن قلاوون أحد سلاطين المماليك البحرية . وقد بنى بالحجر الأبيض والأسود ، ولهذا سمي القصر الأبلق لأن لونه خليط من البياض والسواد . وفي هذا القصر إيوان يطل على الإسطبلات السلطانية .

وقد عني سلاطين المماليك بتربية ممالئهم وتثقيفهم وتعليمهم فنون الحرب في طباق قلعة الجبل التي شاهدها تقي الدين المقرئ المورخ المصري المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ( ١٤٤١ م ) ، وهي عبارة عن ثكنات الجيش المملوكي . وقد بلغ عدد هذه الطباق اثنتي عشرة طبقة تشبه كل طبقة منها الحارة اليوم . وتشتمل على عدة مساكن ، ويسع كل طبقة نحو ألف مملوك .

== عين بهاء الدين واليا عليها في السنة التالية . وقد أسرهاها الدين حين استولى الفرنجة عليها سنة ٥٨٧ هـ ( ١١٩١ م ) ، لكنه اقتدى نفسه بمبلغ كبير ، ثم عاش في القاهرة حتى توفي سنة ٥٩٧ هـ ( ١٢٠١ م ) . انظر عبد اللطيف البغدادي ( طبعة دي ساسي ص ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ) وابن الأثير ( طبعة القاهرة ) ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، وابن شداد : مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية الشرقيين ج ٣ ص ١٢٠ ، ١٣٥ ، ١٧٦ ، ١٨٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٩ ، ٣٠٤ ، ٣١٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، وابن خلكان ج ١ ص ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ج ٢ ص ٥٠٢ ، ٥٢٦ .

وينبغي ألا تخلط بين اسم بهاء الدين قراقوش وشرف الدين قراقوش الأرمني الذي خدم الملك المنظر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب . وكانت حياته عبارة عن سلسلة مغامرات وقلائل ومؤامرات ومذابح ونهب وسلب . وبذلك ألفت أعماله في قلوب الناس الهلع الذي لا تزال ذكراه باقية إلى اليوم .

Derenbourg, Vie d'Ousama, p. 450, note 4..

وقد أصبحت قلعة الجبل منذ بنائها مقراً لدور الحكومة . وهي حصينة ، تشتمل على كثير من « الطباق » والقصور والميادين والمساجد والمدارس والأسواق والحمامات والإسطبلات . وبها دار الوزارة وديوان الإنشاء وديوان الجيش ودار النيابة وبيت المال وخزانة السلطان الخاصة ، والدور السلطانية والجب والأبراج التي كان يحبس فيها الأمراء والمهالك الخارجون على السلطان .

وكان لقلعة الجبل حاكم يطلق عليه « نائب القلعة » أو « والي القلعة » ، ويشرف على فتح وإغلاق باب القلعة الكبير الذي خصص لخروج الجند ودخولهم . ويتفقد نائب القلعة أسوارها ومنافذها ويعمل على إصلاح مبانيها . وكان يصدر بتعيينه مرسوم سلطاني أسوة بنواب قلاع دمشق وحلب وصفد ( بفتح الصاد والفاء ) والسكر ( بفتح الكاف والراء ) وغيرها من قلاع بلاد الشام وفلسطين التي كانت تابعة لمصر في ذلك العصر .

وقد أورد ابن فضل الله العمري المؤرخ المصري المشهور نص<sup>١</sup> اليمين التي كانت تؤخذ على نائب القلعة عند تقليده أعباء منصبه . وإليك طرفاً من هذه الوثيقة التاريخية الهامة : « وإنتي أجمع رجال القلعة على طاعة مولانا السلطان وخدمته في حفظ هذه القلعة وحمايتها وتمحصينها والذب عنها والمدافعة عنها بكل أنواع ما فيها من الآفوات والأسلحة ، وإنتي لا أخرج شيئاً منها إلا في أوقات الحاجة والضرورة الداعية المنتهين فيها تفريق الآفوات والسلاح على قدر ما تدعو الحاجة إليها » .

وكذلك اتخذ سلاطين المهالك قلعة الجبل مركزاً للبريد ، وخاصة حمام الزاجل الذي يقوم مقام البريد الجوي اليوم . وكان لهذا النوع من البريد محطات في مصر والبلاد التابعة لها تتصل بالمركز الرئيسي في القلعة .

وعلى الرغم من ارتفاع قلعة الجبل حُفر بها بئر مملوءة بالماء العذب منقوبة في الحجر . وقد حفرها بهاء الدين قراقوش . وهي من أعجب الآبار . وفي أسفلها سواق تنقل الماء إلى وسطها ثم إلى أعلاها<sup>(٢)</sup> .

وقد نقش على باب القلعة هذه العبارة التاريخية :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة ، المجاورة لمحروسة القاهرة بالعرمة<sup>(٣)</sup> »

(١) القلعة شدى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٠ - ٣٧٢ . المقرئى : خط ج ٢ ص ٢٠١ - ٢٠٤ .

(٢) العرمة ( يضم العين وسكون الراء ) سواد مختلط ببياض . العرمة ( بفتح العين والراء والميم )

مجتمع الرمل وأرض صلبة .

التي جمعت نفعا وتحصينا واسعاً ، على من التجأ إلى ظل ملكه ، مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محي دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولي عهده الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد خليل أمير المؤمنين ، على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش عبد الله المسكي الناصري ، في سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

وقد زار الرحالة الأندلسي ابن جبير مصر في سنة ٥٧٩ هـ ( ١١٨٣ م ) ، وشاهد العمل في بناء قلعة الجبل يجرى على قدم وساق ، فقال : « وشاهدنا أيضاً بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة ، يريد السلطان أن يتخذهُ مَرَضِعَ سكناه وَبِمَدُّ سورهِ حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة . والمسخرون في هذا البنيان والمتولون لجميع أمتهانته<sup>(١)</sup> ومثوته العظيمة كذشر الرخام وتحت الصخور العظام وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور ، وهو خندق ينقر بالمعاول تقرأ في الصخر عجباً من المعجائب الباقية الآثار ، لعلوج الأسارى<sup>(٢)</sup> من الروم ، وعددهم لا يحصى كثرة . ولا سيول أن يمتن في ذلك البنيان أحد سواهم . وللسلطان أيضاً بمواضع آخر بنيان ، والأعلاج يخدمون فيه ، ومن يمكن استخدامه من المسلمين في مثل هذه المنفعة العامة مَرْفَعَةٌ<sup>(٣)</sup> عن ذلك كله ولا وظيفة في شيء من ذلك على أحد<sup>(٤)</sup> .

وقد أجريت بالقلعة تعديلات كثيرة ، وعمل على توسيعها كثير من سلاطين المماليك ، وقام محمد علي ببعض هذه التعديلات ، حتى إنه يبق حينذاك من المساجد أو القصور التي بنيت في عصر صلاح الدين شيء ، وبئر يوسف التي يعتقد بعض الناس أنها من بناء صلاح الدين لم تكن سوى جانب من أحد قصور المماليك . كذلك الأبراج الداخلية لم تكن من البناء الأصلي ، وقد بنى الباب الذي يؤدي إلى الرميثة في أواسط القرن الثامن عشر . وعلى الرغم من ذلك كله ، لم تزل هناك أجزاء البناء الأصلي بخلاف البئر المشهورة باسم بئر السبع سقايات التي حضرها قراقوش ، يبلغ عمقها مائتين وعشرين قدماً . وهناك أيضاً أجزاء من السور الذي بناه صلاح الدين . ويرجع تاريخ بناء بعض الممرات الداخلية إلى وقت بناء القلعة . وما هو جدير بالذكر أن شيوع استعمال الأبراج المستديرة البارزة التي تحمي جانباً

(١) يقصد الأعمال التي يقوم بها العمال والصناع .

(٢) في الأصل العلوج الأسارى ويقصد الآثار التي قام بها الأسارى من الروم .

(٣) في الأصل موفه بالواو وهو يقصد مرفه بالراء ، أي أن المسلمين أعلى من أن يعملوا في هذه الأعمال المهينة .

(٤) رحلة ابن جبير ( طبعة عبد الحميد أحمد صني ) ص ٤١ - ٤٢ .

عن السور ، وانعدام الممرات الداخلية ، والحجرات والفتحات في الجزء الأسفل من الأسوار ، وكثير من النقط الصغيرة الأخرى - يكشف لنا عن أن هندسة البناء الأصلي أقرب إلى الطراز السورى العربى منه إلى الطراز البيزنطى<sup>(١)</sup> .

### ( ٣ ) جسر الجيزة :

وآخر الأعمال الإنشائية التى ترجع إلى عهد صلاح الدين جسر الجيزة الذى شيد على الضفة الغربية للنيل . وقد وصفه ابن جبير فى هذه العبارة فقال : « من مفاخر هذا السلطان وآثاره الباقية المنفعة للسلمين ، القناطر التى شرع فى بنائها بغربى مصر ، وعلى مقدار سبعة أميال منها ، بعد رصيف ابتدئ به من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض تسير به مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة ، وهى نحو الأربعين قوساً من أكبر ما يكون من قسى القناطر . والقنطرة متصلة بالصحراء التى تفضى منها إلى الإسكندرية . له فى ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة — إعداداً لحادثة تطرأ من عدو يدمر جهة نهر الإسكندرية عند فيض النيل وانعمار الأرض به وامتناع ملوك العساكر بسية ، فأعد ذلك مسلكاً فى كل وقت إن احتيج إلى ذلك . والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع ومحدور عنه . ولاهل مصر فى شأن هذه القنطرة إنذار من الإنذارات الحدثانية ، يرون أن حدوثها إيذان باستيلاء الموحدىن عليها وعلى الجهات الشرقية . والله أعلم بغيبه ولا إله سواه<sup>(٢)</sup> » .

وقد تناول المقرئى<sup>(٣)</sup> الكلام على قناطر الجيزة فقال : « إن القناطر الموجودة اليوم فى الجيزة من الأبنية العجيبة ومن أعمال الجبارين . وهى ونيف وأربعون قنطرة ، عمرها الأمير قراقوش الاسدى ، وكان على العمائر فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بما هدمه من الأهرام التى كانت بالجيزة وأخذ حجرها ، فبنى منه هذه القناطر وبنى سور القاهرة ومصر وما بينهما ، وبنى قلعة الجبل . وكان خصياً رومياً سامى الهمة ، وهو صاحب الأحكام المشهورة والحكايات المذكورة ، وفيه صنف الكتاب المشهور المسمى بالفاشوش فى أحكام قراقوش . وفى سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، تولى أمر هذه القناطر من لابصيرة

(١) لينبول : سيره القاهرة ( ترجمة ) . س ١٦٣ .

(٢) رحلة ابن جبير س ٤٣ .

(٣) خطط ج ٢ س ١٥١ .

عنده ، فسدها رجاء أن يجبس الماء ، فقويت عليها جرية الماء ، فزلزلت منها ثلاث قناطر ، وانشقت ، ومع ذلك فما روى مارجا ( أى ما يحب ) أن يروى . وفي سنة ثمان وسبعائة ، رسم الملك المظفر بيبرس الجاشنكير برمها ، فعمر ما خرب منها وأصلح ما فسد فيها ، فحصل النفع بها . وكان قراقوش لما أراد بناء هذه القناطر بنى رصيفاً من حجارة ابتدأ به من حيز النيل بإزاء مدينة مصر كأنه جبل يمتد على الأرض مسيرة ستة أميال حتى يتصل بالقناطر<sup>(١)</sup> .

وليس هناك شك في أن الغرض من بناء هذا الجسر ، هو الدفاع عن البلاد . فلم ينس صلاح الدين قصة غزوات الفاطميين العديدة من ليبيا ، حيث أنه لم يكن هناك ما يصددهم عن الوصول إلى النيل ، ولهذا اتخذ الحيطه لدرء مثل هذا العدوان . ويذكر ابن جبير أنه كانت هناك مخاوف من هجوم الموحدين .

ولما تقلد محمد على ولاية مصر سنة ١٨٠٥ م أصلح قلعة الجبل وبنى بها مسجده الذى يعرف باسم مسجد محمد على ، وبعد آية من آيات الفن . كما بنى بقلعة الجبل قصر الجوهرة وقصر العدل وثكنات الجند ، وديوان النظار ودار سك النقود ، واتخذها مقراً لولايته<sup>(٢)</sup> .

#### ( ٤ ) المنشآت الدينية : المساجد

##### ( ١ ) الجامع الأزهر :

لما تم لجوهر فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ لم ير أن يفاجئ السنيين في مساجدهم بإقامة شعائر المذهب الفاطمى حتى لا يثير كراهة المصريين . لذلك وضع جوهر أساس الجامع الأزهر في ١٤ رمضان سنة ٣٥٩ هـ ( ٩٧٠ م ) ، وتم بناؤه في سنتين تقريباً ، وأقيمت الصلاة فيه في ٧ رمضان سنة ٣٦١ هـ<sup>(٣)</sup> .

ويشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة ، وآخر غير مسقوف يسمى محناً ، عدا الملحقات التى تتبع المساجد عادة من منارات وميضأة وغيرها . أما المقصورة التى بناها جوهر ففيها ستة وسبعون عموداً من الرخام الأبيض فى صفوف

(١) لينبول : سيرة القاهرة ، ترجمة المؤلف من ١٦١ — ١٦٤ .

(٢) Lane-Poole, Hist. of Egypt in the Middle Ages, pp. 201, 309, 354.

(٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٤ . المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٧٣ .



متوازية . وفي سنة ١١٦٧ هـ بنى الأمير عبد الرحمن كتحداً أحد ولاية الأتراك العثمانيين مقصورة ثانية بها خمسون عموداً من الرخام . وبذلك أصبح بهذا الجامع مقصورتان بلغ عدد أعمدهما مائة وستة وعشرون عموداً . وإذا أضيف إلى هذا العدد الأعمدة الموضوعية بملاحقات الجامع ، بلغ مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً . وترتفع المقصورة الجديدة نحو ذراع عن المقصورة التي بناها جوهر القائد . وسقف المقصورتين من الخشب المتقن الصنع ، وهما متلاصقتان ، وفي كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء .

وأما سخن الجامع فهو مكان متسع غير مسقوف ، مرصوف بالحجر ، تقام فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين . ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع بوائك مقامة على أعمدة من الرخام على مثال جامع عمرو ، وزينت حيطانه بالآيات القرآنية المنقوشة بالخط السكوفي الجميل .

وقد أنشأ جوهر بالمقصورة القديمة محراباً يسمى الآن « القبلة القديمة » ؛ ثم أقيمت فيه تسعة محاريب أخرى ، لم يبق منها سوى ستة محاريب أشهرها اثنتان : أحدهما بالمقصورة القديمة والآخر بالمقصورة الجديدة ، ولكل منهما إمام يخالف صاحبه في المذهب الفقهي .

وللجامع الأزهر منبر واحد مصنوع من الخشب المخروط الجميل الصنع . وقد نقل المنبر الأصلي الذي أنشأه جوهر إلى جامع الحاكم .

وأنشئ بالأزهر عند تأسيسه منارة واحدة ثم أصبح به فيما بعد خمس منارات ، يؤذن عليها في أوقات الصلوات الخمس وفي ليالي رمضان والمواسم .

وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتي ، ومهنته التنبيه على أوقات الصلاة . وكانت تعرف عن طريق المزولة التي لا تزال قائمة إلى اليوم على أحد جدران سخن الأزهر ، وكانت مساجد القاهرة تتبع مؤذني الأزهر .

وأهم خصائص الأزهر أنه وإن بدأ كفره من المساجد لإقامة الشعائر ، لم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحذب مختلف العلوم والفنون . ففي سنة ٣٧٨ هـ أشار الوزير يعقوب بن كلثوم على الخليفة العزيز بتحويل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية . وسرعان ما أصبح الأزهر مثابة لطلاب العلم . وقد عمل العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين على جذب طلاب العلم

إليه من كافة أرجاء البلاد الإسلامية ، بما كانوا يقدمونه إليهم من المأكل والمسكن ، مما يسهل عليهم طلب العلم . وقد بنى الخليفة العزيز بجوار الأزهر داراً لجماعة من الفقهاء كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرون القرآن إلى صلاة العصر ، وقد أجرى على هؤلاء الأرزاق وأغدق عليهم وزبره ابن كلس الصلات .

ثم زاد في بناء هذا الجامع كثير من الخلفاء والأمراء والسلاطين ، وأنشئوا فيه مساكن للطلاب تحيط بالمقصورة والصحن من الجهات الأربع ، كما حبسوا عليه كثيراً من الأوقاف وأهدوا إليه الهبات الجليلة .

وكان الخليفة العزيز الفاطمي أول من بنى بجوار الأزهر داراً لجماعة من الفقهاء ، قيل إن عددهم بلغ خمسة وثلاثين كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرون القرآن إلى صلاة العصر .

وقد نقل إلى جامعي راشدة والأزهر ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثون قنديلا ، خص الأزهر منها تنوران وسبعة وعشرون قنديلا . وكان في محراب الأزهر منطقة من الفضة على مثال المنطقة الموجودة بمحراب جامع عمرو ، فافتلعهما صلاح الدين كما اقتلع غيرها من المناطق في كافة المساجد ( ٥٦٩ / ١١٧٣ ) ، بعد سقوط الدولة الفاطمية بسنتين<sup>(١)</sup> .

وقد تعاقبت الزيادات على بناء الأزهر ، وزيد في العين الموقوفة عليه عاماً بعد عام ؛ فتحول هذا الجامع من مسجد تقام فيه الصلوات إلى جامعة عليية تدرس فيها العلوم بصفة عامة والعلوم الدينية بصفة خاصة .

وقد زاد في بناء هذا الجامع كثير من الأمراء الذين ولوا مصر بعد المعز ، فاستغنى بما أغدقوه عليه من هبات وأوقاف . وفي سنة ٥١٩ هـ ( ١١٢٥ م ) بنى الخليفة الأمر في الجامع الأزهر مقصورة عليها كتابة منقوشة حفرأ<sup>(١)</sup> .

وكان للأزهر في العصر الفاطمي موارد أخرى غير الاحباس تشمل الاعطيات ومال النجوى<sup>(٢)</sup> الذي يؤديه المستمعون للحاضرات التي تلقى بمجالس الدعوة . وكان بعض هذا المال ينفق على الدعاة وبعضه الآخر يخصص للجامع الأزهر ليوزع على من يحتاجون إليه من الطلاب الذين كان لهم أيضاً نصيب من الصدقات النوعية والمالية التي يمنحها بعض

(١) المقرئى : خطاط . ج ٢ ص ٢٧٣ — ٢٧٥ .

(٢) المقرئى : خطاط . ج ١ ص ٣٩١ .

الأمراء والكبراء لهم . ولم تنقطع هذه الموارد عن الأزهر طوال العصر الفاطمي ، بل لقد توالى الأرزاق والاعطيات الثابتة لاسانذته وطلابه (١) .

ظل الأزهر يتمتع برعاية الخلفاء الفاطميين ، حتى تقلد صلاح الدين الأيوبي الوزارة في عهد الخليفة العاضد ، فوجه اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعي مذهب الفاطميين ، فأنشأ المدرسة الناصرية لتدريس المذهب الشافعي الذي كان صلاح الدين يدين بعقائده ، كما أنشأ على مقربة من هذه المدرسة المدرسة القمحية لتدريس الفقه المالكي .

وقد عزل صلاح الدين قضاء الشيعة ، وأسند قضاء مصر إلى قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي المذهب ، فأتاب قضاء من الشافعية في كل أنحاء البلاد ، واستعاد المذهب السني بهذا قوته ، وأخذ المذهب الإسماعيلي في الضعف حتى زال ولم يبق له في مصر أنصار (٢) .

### ( ب ) مساجد العصر الفاطمي الأخير :

ومن المساجد التي بنيت في العصر الفاطمي الأخير « الجامع الاقمر » الذي بناه الخليفة الأمر الفاطمي سنة ٥١٩ هـ ووقف عليه الأوقاف ورتب له المؤذنين والخطباء . وقد جددّه الأمير « بَلْبُغا » سنة ٧٩٩ هـ ( ١٣٦٦ - ١٣٦٧ م ) . ولعل أبداع ما في هذا المسجد واجهته الغنية بأنواع الزخرفة ، كما أن بها حنايا تنتهي بطاقيسات وعقود ومقرنصات ، وقد بنيت العقود على الطراز الفارسي ، وتقوم على عمد من الرخام ، وسقف الجامع مغطى بقبوات صغيرة (٣) .

ومن مساجد الفاطميين في هذا العصر جامع الصالح الذي بناه الصالح طلائع بن رزّيك ( بضم الراء وكسر الزاي مع التشديد ) . وقد أراد أن يتخذهُ مدفناً له ، وبني فيه صهريجاً كبيراً تملؤه ساقية . وقد أقيم على خليج القاهرة الذي يطلق عليه خليج أمير المؤمنين . وقد تهدم في الزلزال الذي حدث بمصر سنة ٧٠٢ هـ ، فعمره الأمير سيف الدين الجوكندار وأصلح ما تهدم منه . ولهذا الجامع أربع وجهات مشيدة بالحجر . وكانت أرضيته عند تأسيسه ترتفع عن مستوى الطريق الذي بجانبه . ويقع باب المسجد الرئيسي بواجهته

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٥ - ٥٣٧ .

(٢) انظر حسن إبراهيم حسن في كتاب سجل الأزهر ( القاهرة ١٩٦٤ ) ص ٣٧ .

(٣) المقرئزي خطاط ج ٢ ص ٢٩٠ : زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٤ .

الغربية ، وأمام هذا الباب رواق قائم على أربعة أعمدة من الرخام ويحمل عقوداً حليت حافاتها بالزخارف الجميلة . ولهذا الجامع محن كبير حوله أربعة إيوانات ، وعقوده محمولة على عمد من الرخام محلاة بكتابات كوفية على شكل أزهار<sup>(١)</sup> .

ومن منشآت الفاطميين في إقليم أسوان مأذنة بدر الجمالي في إسنا ، وترجع إلى سنة ١٠٨١/٤٧٤ — ١٠٨٢ ، وذلك في عهد الخليفة المستنصر . كما نجد مأذنة جامع الحجاج في الأقصر . وقد بنى هذا الجامع على أرض تمثل ثلاث ديامات : الوثنية والمسيحية والإسلام . ففي أسفل هذه الأرض نجد معبداً وثنياً يرجع إلى العهد الفرعوني في الدولة الحديثة التي تنظم الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . وقد تحول جزء من هذا المعبد بعد ظهور المسيحية إلى كنيسة . ويعلو جزء من البناء الفرعوني مسجد بنى في أواخر العصر الفاطمي ، هو مسجد الحجاج الذي تزوج من سيدة مسيحية غنية أسلمت ووقفت جميع أملاكها على أعمال الخير .

كما نجد على مقربة من شلال أسوان منارة المسجد القبلي والمسجد البحري وعلمهما نقوش كوفية . وهما مبنيان بالآجر . وتنسب هذه الأبنية إلى بدر الجمالي وزير المستنصر . وقد أمر بدر ببناء هذه الأبنية على أثر انتصاره على النوبيين . ونجد في ثكنات خفر السواحل بأسوان مأذنة قديمة ضاعت قبلتها ، ويحيط بأعلى هذه المأذنة نقوش كوفية<sup>(٢)</sup> .

### ( ح ) جامع القرويين بفاس :

وصف الحسن الوزان مدينة فاس وصفا شائقا فقال إنها كانت في أيامه تشتمل على سبعمائة مسجد ، منها خمسون مسجدا نخمة البناء عظيمة الزخرفة تحمل سقوفها على أعمدة من الرخام . وهذه المساجد مفروشة بحصر جميلة تغطي الأرض كلها ، كما غطيت حيطانها بحصر بقدر ارتفاع قامة الرجل . وبكل مسجد منارة يصعد إليها المؤذن في أوقات الصلاة . واسكل مسجد من مساجد فاس صهريج من الرخام .

ومن هذه المساجد جامع القرويين ، ومساحته نحو ميل ونصف باعتبار إضافة أبنية

(١) المقرئزي : ختلط ج ٢ ص ٢٩٣ . زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٥ .

(٢) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٩ — ٥٤٠ .

الطلاب الملحقة به وله ثلاثة عشر بابا (١) ضخمة البناء . ويبلغ طول الجزء المسقوف من المسجد مائة وخمسين ذراعا ، ولا يقل عرضه عن ثمانين ذراعا . ومئذنة الجامع شاهقة وسقفه يحمل طولا على ثمانية وثلاثين قوسا وعرضه على عشرين قوسا . وتحيط بالجامع من الشرق والغرب والشمال أروقة ذات أقواس ، عرض كل منها ثلاثون ذراعا وطوله أربعون ذراعا ، وفي أسفلها خزائن يودع فيها الزيت والمصابيح والحصر وغيرها . وتوجد في الجامع في كل ليلة تسعمائة مصباح ، على كل قوس منها مصباح .

وفوق الأقواس التي تشق وسط الجامع قبالة المحراب مائة وخمسون مصباحا . وهناك ثريات من النحاس تسع ألفا وخمسمائة مصباح اتخذت من نواقيس نقلها بعض ملوك فاس من كنائس النصرى . وحول حيطان الجامع كراسي منصوبة مختلفة الأشكال يجلس عليها العلماء المدرسون الذين يعلمون الناس أمور دينهم ودنياهم ، ويبدؤون دروسهم قبل طلوع الشمس بساعة وينتهون في الساعة الواحدة بعد الزوال . وفي الصيف يبدؤون في الساعة الثامنة مساء وينتهون في الساعة الواحدة والنصف صباحا ، ويقومون بتدريس العلوم الدينية والعقلية والاجتماعية ، ويتقاضون رواتب عالية فوق ما يصرف لهم من الكتب والشمع للقراءة ليلا .

### ( ٥ ) مسجد الكتبية بمراكش :

امتاز الفن الموحدى على الفن المرابطى . وكان المهدي محمد بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية يعتبر الفن نوعا من اللهو . ومن هنا قارم الموسيقى والغناء والنقش والزخرفة . وكان المغاربة يدركون مذهب الدولة الجديدة وميوها الدينية ، حتى إن أهل مدينة فاس طمسوا معالم الأبنية الجميلة المزخرفة ليخفوها عن نظر عبد المؤمن وهو بمدينة فاس . على أن عبد المؤمن لم يلبث أن تجاوز عن زخرفة المنشآت في عهده . ولعل ذلك بعد مشاهدته معالم الحضارة والفن الأندلسى فقال إلى اقتباس هذه الحضارة الرفيعة بالمغرب . وقد زاد هذا الفن ازدهارا في عهد ابنه أبي يعقوب يوسف الذى اشتهر بالأدب . وكان يتطلع

(١) ذكر الحسن الوزان ( الترجمة الفرنسية ) ٣٦ بابا . وفي الواقع أنه لا يوجد اليوم غير ١٤ بابا ، مما يرجح أن رقم ٣١ هو مقلوب رقم ١٣ . ويظهر أن عدد الأبواب قد زاد بابا واحدا بعد العصر الذى عاش فيه الوزان .

إلى بلاد الأندلس ويعطف عليها ، لأنه قضى فيها شطرا من حياته نائبا لآبيه قبل أن يلي الخلافة (١) .

على أن الفن الموحدى قد بلغ غايته في عهد يعقوب المنصور - ففيد عبد المؤمن . وإن ما نشاهده من آثار الموحدين ليدل دلالة واضحة على ما بلغه الموحدون من رقى فنى وحضارى رفيع ولا سيما في عهد يعقوب المنصور . والطابع الفنى العام الذى يتسم به فن الهندسة المعمارية في عهد الموحدين لا يرتكز في أساسه على الفسيفساء والزخرفة الدقيقة والخطوط الهندسية الجميلة التى امتاز بها الفن في عهد المرينيين ، ذلك الفن الذى يمثل أجمل وأرق ما بلغه الذوق المغربى الذى اقتبس من الفن الأندلسى . على أن سمة الموحدين لم تكن في فهم بقدر ما كانت في رقى أدبهم وقوة جيشهم وضخامة أسطولهم وشموخ أبنيتهم . وكانت الأبنية الموحدية تعتمد كثيراً على الجير الذى يكون ثلث مواد البناء والذى هو نتيجة لميلهم إلى اللون الأبيض . وبما يمتاز به الفن الموحدى ببناء الحصون والأبراج . يدل على ذلك أهم بنوا في مدينة الرباط وحدها أربعة وسبعين برجاً . ويمتاز الفن المعمارى الموحدى بإدخال عناصر « الميكانيكا » أو علم الحيل كما يسميه المغاربة . ولعل ذلك هو السبب الذى جعل هذه الآثار تحتفظ بمناعتها وثبتت على صروف الحدّثان أكثر من ثمانية قرون .

وقد ظهرت في هذا العصر في جميع أنحاء المغرب حضارة مزدهرة مؤلفة القسماث أثرت في الدولة المرينية التى أعقبت الموحدين بالمغرب الأقصى . واستعمل الموحدون أساليب قائمة على علم الحيل أو الهندسة المعمارية التى تعتمد على الدراسة (٢) .

وبما هو جدير بالملاحظة أن الموحدين اقتبسوا فهم من الأندلس ومن القيروان ، ذلك الفن الذى يمثل الفن المشرقى الذى تأثر في العصور السابقة بحضارة العباسيين في بغداد والفاطميين في القاهرة .

وبتميز جامع الكتبية (٣) بمراكش بأساطينه وصحونه وأقواسه المقرنصة وبجمال قبابه

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٧٦ .

(٢) عبد العزيز بن عبد الله : مجلة البنية ( الرباط ) العدد التاسع ص ٧٤ .

(٣) وقد قيل إنه سمي الكتبية لأن باعة الكتب كانوا يجيئون به عند تأسيسه أو لأن الموحدين

أنشئوا به مكتبة حوت كثيراً من الكتب في مختلف العلوم والفنون .

وارتفاع سقوفه وامتداد أروقه<sup>(١)</sup>. وقد اقتبست هندسة بناء جامع الكتبية من الفن الأندلسي ، كما يلاحظ هذا في أساطينه وفي الأعمدة الأربعة التي يعلوها قوس المحراب .

أما منبر الجامع فقد بلغ حداً كبيراً من الإبداع . ويرجع بناء هذا الجامع إلى عهد عبد المؤمن<sup>(٢)</sup> ويرى تيراس (Terrasse) أن هذا المنبر أجمل منبر في الغرب بل إنه أروع منبر في العالم الإسلامي كافة . وما برح هذا المنبر التاريخي ماثلاً للعيان . بيد أن بعض أطرافه قد بدا عليها القدم . ويعتبر جامع الكتبية الثاني من نوعه في عهد الموحدين . أما الكتبية الأولى فقد أسست في إشبيلية في عهد يوسف بن عبد المؤمن ، ثم أتم بناؤها ابنه يعقوب المنصور ، وما زال هذا الجامع إلى الآن من أهم آثار المسلمين في الأندلس .

وتعتبر منارة جامع الكتبية التي بناها يعقوب المنصور من أجمل الآثار التي خلفها الموحدون . وتتألف هذه المنارة من طبقات من الغرف المقوسة السقوف أو الحنايا ، يصل بينهما درج ( بفتح الدال والراء ) لا مرقاة بها . ويلاحظ هذا الأسلوب في البناء في مرصد « الخالدة » في إشبيلية وفي منارة حسان بالرباط . وجدران هذه المنارة مطلى بالجنص الأصفر . وهذا النوع منتشر في أبنية مدينة مراكش إلى اليوم ، ويوصل هذا الدرج إلى الجزء الأعلى من منارة جامع الكتبية . وهذه النقوش الدقيقة قد صممت على شكل الأزهار وسعف النخل . وتعلو القاعة السادسة قبة مشعنة الشكل ذات أضلاع ومقرنصات تكون مجموعة هندسية بديعة .

وقد أكد « تيراس » وباسم Bassé أن الكتبية أروع مسجد بناه الموحدون في المغرب وأنه يعادل في جدة أسلوبه روائع الجامع الكبير بقرطبة .

#### ( ٥ ) مسجد ومنارة حسان :

يقع مسجد حسان في الشمال الشرقي من مدينة الرباط على أرض منحدره يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثين متراً عن سطح البحر . وقد يكون اسم هذا المسجد مستمداً من قبيلة تسمى بهذا الاسم تقيم باقليم الرباط ( وهم بنو حسان ) . ويرى ابن زرع أن يعقوب المنصور الموحدى فرغ من بناء مسجد حسان سنة ٥٩٣ هـ ( ١١٩٧ م ) . وقد قيل إن سبعمائة من أسرى الحرب المسيحيين عملوا في بناء منارة المسجد .

(١) La Pensée (Rabat), No. 5 (Mars, 1963), p. 31.

(٢) الخلل الموشية .

وتعد هذه المنارة من أروع كبريات المنارات الموحدية . وقد بنيت بعد منارة السكتية بمراكش ومنارة « الخالدة » بإشبيلية . وقد تناول الحسن الوزان ( ليو الإفريقي )<sup>(١)</sup> الكلام على هذه المنارة فقال : إنها جديدة عريضة بحيث يستطيع ثلاثة من الفرسان الصعود إليها جنباً إلى جنب . ومن فوق هذه المنارة يستطيع المرء أن يشاهد السفن على بعد عشرين فرسخاً<sup>(٢)</sup> ( أى ثمانين ميلاً ) . ولم يكن الغرض الذى بنيت هذه المنارة من أجله دينياً لحسب بل إن ذلك كان راجعاً إلى أغراض حربية ، بحيث يستطيع مراقبة السفن التى قد تهاجم مدينة الرباط أو سلا ( بفتح السين ) بوساطة هذه المنارة التى يبلغ ارتفاعها أربعة وستين متراً ، والتي يتجلى فيها الفن المغربى بصورة عامة والفن الموحدى بصفة خاصة .

وفى السنة التى انتصر فيها يعقوب المنصور على نصارى الأندلس فى موقعة « الأرك » المشهورة ، أكمل بناء الجامع الأعظم بمدينة إشبيلية ، وشيد به منارة عظيمة قيل إنه ليس فى بلاد الإسلام منارة أعظم منها . ولما أتم يعقوب المنصور جامع إشبيلية ومنارته أمر ببناء حصن البرج على وادى إشبيلية .

ويذكر ابن صاحب الصلاة<sup>(٣)</sup> أن جامع إشبيلية بنى فى عهد يوسف بن عبد المؤمن ، وأن ابنه يعقوب المنصور أتم بناءه وأقام فيه الصلاة ، ثم أتم بناء منارة جامع حسان التى تعرف الآن باسم صومعة حسان . « فلما بويع أمير المؤمنين أبو يوسف ( يعقوب المنصور ) ... أمر العامل الذى ولى بإشبيلية . . . محمد بن أبى مروان الغرناطى ببناء الصومعة المذكورة ، وإمضاء أمر أبيه فى بنائها والجد فى عملها . فابتدأ فى بنائها ( حيث ) بناها « العريف » بالحجر المسمى بالطجون<sup>(٤)</sup> العادى المنقول من سور قصر ابن عباد . »

Description de L'Afrique, tome 1, pp. 164—165 (١)

La Pensée, No. 4, pp. 71, 93. (٢)

(٣) كتاب المن بالإمامة ، مخطوط بمخزاة الرباط رقم ٣٣٧ ورقة ١ .

(٤) الطجن (بفتح الطاء مع التشديد وإسكان الجيم) القلو . والإناء الذى يقلى فيه يسمى الطاجن .

ومن هنا كانت حجارة الطاجن هى الطوب المحروق المعروف بالأجر . ويسمى طجنا فى لغة الأندلسيين والمغاربة القدماء .



## الباب الثاني عَشِيرًا

### الحالة الاجتماعية

١ - طبقات الشعب :

(١) في عهد العباسيين :

يتألف المجتمع الإسلامي عادة من الخاصة ، وهم أصحاب الخليفة من ذوى قرباه ، ومن رجال الدولة البارزين كالأشراف والوزراء والقواد والكتاب والقضاة والعلماء والأدباء ، وكان لهؤلاء باب خاص يدخلون منه لمقابلة الخليفة أطلق عليه « باب الخاصة » . كما جعل لهم مطابخ خاصة واسطبلات خاصة .

ويقابل الخاصة : العامة ، وهم السواد الأعظم من الناس ولهم مرافق خاصة بهم كباب العامة ومطابخ العامة . وتنظم هذه الطبقة أهل الحرف والصنائع والتجار والفلاحين والجنود والرقيق . ويقال لهم العامة والدعماء والفوغاء . وهم في العادة أقل ثقافة ودراية بأمور دينهم حتى ولو كانوا من ذوى اليسار كطبقة التجار .

وقد ذكر ابن الجوزي<sup>(١)</sup> أن عامة بغداد كانوا يؤلفون خليطاً من العرب والفرس والترك والنبط والأرمن والجرس والاكراذ والكرج والبربر ، ولو أن تسمية هؤلاء جميعاً بالعرب قد غلبت عليهم لانصهارهم في بوتقة الشعب العربى وسيادة اللغة العربية التي هي اللغة الأصلية للوطن العباسى .

وقد ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب أن المجتمع الإسلامى في العصر العباسى الأول كان يتألف من العرب ، ومن الفرس ، وخاصة الخراسانيين الذين ساعدوا على قيام الدولة العباسية ، وقد قويت شوكتهم في عهد المأمون لأن أمه كانت منهم . كما كان هذا المجتمع يتألف من الأتراك ، وخاصة في عهد المعتصم الذى كانت أمه تركية . وقد اتخذ الترك حرساً له وأسند إليهم مناصب الدولة العالية وأهمل العرب والفرس ، وأصبح هؤلاء الأتراك فيما بعد خطراً على حياة الخلفاء الذين استعانوا بالمغاربة ( ويقصد بهم المصريون ) والفراغنة وغيرهم من الجنود المرتزقة كالأكراد والقرامطة الذين استعانوا

(١) تاريخ الخلفاء العباسيين (١٠٠٠)

(٢) تاريخ الخلفاء العباسيين (١٠٠٠)

(٣) تاريخ الخلفاء العباسيين (١٠٠٠)

(١) المنتظم ج ٩ ص ٢٢٨ .

(٢) تاريخ الإسلام - ج ٤

بهم الدولة في عهد الخليفة الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) . ولما استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ قامت المنافسة بين الأتراك والديلم الذين ينتسب إليهم بنو بويه . وقد أصبح الحنابلة السنيون قوة يخشى بأسها ، ولم تنقطع المنازعات بين السنيين والشيعة . ويذكر لنا المؤرخون أن الخلفاء والسلاطين وكبار رجال الدولة عملوا على إحلال الوتام بين أبناء الطائفتين . وقد ذكر ابن الأثير<sup>(١)</sup> أن السلطان محمد بن ملكشاه الثانى السلجوقى (٤٩٨ — ٥١١ هـ) لما قتل صدقة بن مزبذ أمير الحلة ، وكان يدين بعقائد المذهب الشيعى ، ساورت الشيعة المخاوف من ناحية السنيين وكادت تقع الفتن بينهم . وقد اتفق أن يحتفل السنيون في شهر رمضان سنة ٥٠٢ هـ بزيارة قبر مصعب ابن الزبير ، فلم يعترضهم الشيعة الذين خرجوا ليلة النصف من شعبان لزيارة مشهد الإمام موسى الكاظم ، فلم يعترضهم السنيون ، وهكذا أدخل الله سبحانه وتعالى السكينة إلى قلوب هؤلاء وأولئك .

ومن طبقات المجتمع الرقيق الذين كانوا يكونون طبقة كبيرة من أسرى الحروب ، ومنهم الرقيق الصقلى والرومى والزنجى والتركى ، ولهم ببغداد شارع خاص أطلق عليه شارع دار الرقيق<sup>(٢)</sup> ، وموضع آخر سمي باب النخاسين . وكان الخدم والرقيق رجالا ونساء يقومون بخدمة الخليفة وحاشيته في دار الخلافة ويقومون بخدمة الناس . ولم يترك لنا للمؤرخون شيئاً ذا غناء عن الخدم الأحرار . وكان الرقيق يؤلفون الأغلبية الساحقة من طبقة الخدم ، وهم الجوارى ، والرقيق والحصيان .

وقد جلب أغلب الرقيق في العصر السلجوقى من بلاد ما وراء النهر على أيدي النخاسين الذين اتخذوا من تجارة الرقيق صناعة لهم<sup>(٣)</sup> . وكانت مصر وشمالى أفريقيا وشمالى بلاد العرب من أهم أسواق الرقيق . كما جلب إلى العراق كثير من الزنجيات ومن الریح لعلاحة الأرض وحراسة الدور .

ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة امتهان ، بدليل أن أغلبهم من أمهات أولاد<sup>(٤)</sup> . وكان بعض الخلفاء من أم رومية أو أرمنية أو تركية ، وكان بعضهم يشترى

(١) السكامل ج ١٠ ص ١٧٧ .

(٢) ابن الجوزى : المنتظم ج ٨ ص ٤ .

(٣) متر : الحضارة الإسلامية ، ترجمة أبى ريدة ج ١ ص ٢٦٨ .

(٤) وكان بعض الخلفاء من أبناء العربيات المرأثر كالسفاح والأمين .

الجارية لجمال منظرها أو لعذوبة صوتها أو علو ذكاتها وجودة شعرها . ومن أصناف الجوارى ، الهنديات والسنديات والمكيات والمدنيات والطائفيات والنوبيات والزنجيات والحبشيات والتركيات والديلبيات والارمنيات والعراقيات . وقد شاع استخدام الخصيان في المجتمع العراقي لحماية الحریم ، ولذلك راجت تجارتهم وارتفعت أثمانهم (١) .

ومن طبقات المجتمع أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود ، وكانوا يتمتعون بكثير من سياسة التسامح الدينى وبقِيمون شعائرم في أمن وطمأنينة . وكان كثير من الخلفاء يحضرون مواكبهم ويشتركون في الاحتفال بأعيادهم ويزورون أديرتهم في مناسبات معينة ويغدقون عليهم الهبات والعطايا . وكان لليهود رئيس خاص يلقب أحياناً بلقب « ملك » ، ويطلق على رئيس اليهود ببغداد « رأس الجالوت » .

كما كان المجتمع الإسلامى في العصر العباسى الثانى يتألف من المغاربة ( ويقصد بهم المصريون كما تقدم ) والفراغنة والأكراد . وتتمثل هذه العناصر في أجناس الجند حيث نرى بينهم العربى والكردى والحراسانى والتركى أو السلجوقى ( ويؤلفون أغلبية الجند ) والدبلى والرومى والارمنى وللعراقى .

### ( ب ) فى عهد الفاطميين والنوبيين :

وكان المجتمع المصرى فى عهد الفاطميين ( ٣٥٨ — ٥٦٧ هـ ) يتألف من السنين الذين كانوا يؤلفون الاغلبية الساحقة من المصريين ، ومن الشيعيين وخاصة المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم فى بلاد المغرب أولاً ، ثم فى مصر والشام والحجاز ، إذ كانوا يؤلفون الجيش الفاطمى . ولم تخمد جذوة العداء بين السنين والشيعيين طوال العصر الفاطمى .

والطبقة الثالثة هى طبقة أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود . وقد دفعت رغبة كثير منهم فى المناصب والهبات إلى اعتناق الإسلام والدخول فى المذهب الإسماعيلى مذهب الفاطميين . وقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوى على العطف والرعاية ، فشغلوا كثيراً من المناصب المالية فى الدولة ، بل تقلدوا الوزارة وتمتعوا بقرسط وافر من سياسة التسامح الدينى ، وسمح لهم ببناء عدد من الكنائس أو إعادتها إلى ما كانت عليه .

(١) انظر بدوى محمد فهيد : العامة فى بغداد ، رسالة ماجستير ص ٣ وما يلبها .

والطبقة الرابعة هي طبقة الأتراك الذين كثر عددهم منذ أيام الدولة الطولونية وظهر أمرهم في مصر في عهد الخليفة الحاكم الفاطمي .

والطبقة الخامسة هي طبقة السودانين الذين كثر عددهم في مصر منذ أيام كافور الإخشيدي وظهر أمرهم منذ أيام الخليفة الحاكم الذي استعان بهم على الأتراك ، ثم ظهر أمرهم من جديد في عهد الخليفة الظاهر الذي تزوج بسيدة سودانية . وقد تفاقم خطر الجند السودانين في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي حتى بلغ عددهم خمسين ألفا . وقد طاردهم الأتراك إلى صعيد مصر ، وأغار الغالة منهم الرعب في قلوب الأهليين وحالوا دون زراعة الأراضي ، واكتسحوا دلتا النيل حتى وصلوا إلى الإسكندرية ، ولكنهم ظلوا يكونون طبقة هامة من طبقات المجتمع الفاطمي . ثم جاء الأيوبيون فأكثروا من الماليك . فقد أثار عن السلطان نجم الدين أيوب أن عدد الرقيق بلغ في عهده اثني عشر ألفا كانوا نواة دولة الماليك البحرية ، واشتهر كثير منهم بالفروسية والعتق وتقلدوا المناصب العالية (١) .

ولننقل الآن إلى الكلام على المجتمع الإسلامي في المغرب .

### ( ح ) في المغرب :

كان المغاربة في عهد المرابطين ( ٤٤٨ — ٥٤١ هـ ) يدينون بالإسلام في بساطته وسماحته ، وكان مجتمعهم في أيام يوسف بن تاشفين ومن جاء بعده من المرابطين والموحدين والمرينيين والوطاسيين يتألف من عنصرى البربر والعرب . وكان هذا المجتمع في عهد الموحدين ( ٥٢٤ — ٦٦٧ هـ ) يتألف من جماعات مختلفة وأجناس مقبانية . فهناك قبائل العرب من زغبة وهلال ورياح تنحدر إلى المغرب ثم تمتزج بالمغاربة امتزاجا قويا ، ولا سيما في عهد عبد المؤمن وأبي يعقوب المنصور . ثم انضوت هذه القبائل العربية تحت لواء الجيش الموحدى وقانلت إلى جانب المغاربة نصارى الأندلس وغيرهم . وقد ساعد وفرد هذه القبائل العربية النازحة ، ولا سيما بني هلال وبني سليم ، على بلاد المغرب عن طريق مصر في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي على تعريب قبائل البربر (٢) .

(١) انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٢١ - ٦٢٦ وكتابي النظم الإسلامية ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(٢) يقال إن هذه القبائل وزعت على الجهات المختلفة بسبب إغاراتهم وتعدياتهم .

وهناك عناصر الأكراد والجراكسة الذين بعث بهم صلاح الدين الأيوبي لقتال  
بمقرب المنصور الموحدى (٥٨٠-٥٩٥ هـ)، الذي استطاع أن يستميلهم إليه ويستخدمهم  
في الجيش الموحدى .

وكان لهذا التمازج البربرى العربى أثر بعيد في نشر المذهب الموحدى المهدوى وفيما  
أحرزه المسلمون من انتصارات ، كما كان له أثر بعيد في الحياة المغربية .

وكان بالمغرب طبقة تمثل أهل الحرف والصناعات . وهى تعطينا صورة واضحة  
عما كان عليه المجتمع المغربى في العصر الوسيط . ويتمثل ذلك في وصف الحسن الوزان  
عند كلامه على مدينة فاس حيث يقول إنه كان يسوق الحقايب أمين خاص يختار من  
مهرة هذه الحرفة . وكان صانعو الحقايب يجمعون ما يحصلون عليه من نقود في  
صندوق له مفاتيح عدة ، يحتفظ كل رئيس فرقة بالمفتاح الخاص بفرقة . وإذا انتهى  
الأسبوع اقتسم العمال النقود التى جمعوها ، وقد كونوا بذلك جمعية تعاونية . وإذا مات  
أحد العمال تمهد رفاقه بالإئناق على زوجته وولده الصغير ، وزوجوا أرملته إذا شامت ،  
وتولوا تنشئة الأطفال حتى يبلغوا السن التى تسمح لهم بممارسة المهنة . وإذا تزوج  
أحد الصناع أو ولد له ولد ، دعا جميع زملائه إلى وليمة وقدم له كل منهم هدية . وقد  
أعنى الملوك صناع الجلود من أداء أية ضريبة ، كما كانوا لا يؤدون أية نقود لأصحاب  
الأفران عن صنع خبزهم . وكان لهم لباس قصير في وقت العمل . وإذا فرغوا من  
أعمالهم ارتدوا ماشاوا من الملابس ، وكأوا على جانب عظيم من الاستقامة وحسن  
الخلق (١) .

### (٥) فى الأندلس :

وفى بلاد الأندلس أصبح المجتمع الإسلامى يتألف من عدة طبقات متفاوتة فى الحقوق  
والاعتبار . وكان هذا المجتمع يتألف من العرب الذين قاموا بدور هام فى تاريخ هذه  
البلاد . ولكن قيام العصية بينهم قد أتاح الفرصة لمسيحيي الشمال لشن إغاراتهم على  
المسلمين حتى استردوا بلادهم نهائيا فى سنة ١٤٩٢ م ، وفر من نجا من المسلمين إلى شمالى  
القارة الإفريقية .

(١) الحسن الوزان : وصف أفريقيا ج ١ ص ١٩٥ .

ومن العناصر التي تألف منها المجتمع الإسلامي في الأندلس : البربر الذين تحمّلوا أكثر أعباء الفتح ولكنهم خرجوا على أمرائهم واحتلوا الأماكن الهامة في البلاد . ومن هؤلاء أسرة ذى النون بطليطلة التي أسست لها دولة بالأندلس (١) . وحذا حذوهم ملوك الطوائف كابن عباد في إشبيلية وابن الأفطس في بطليوس وابن أبي عامر في بلنسية وابن هود في سرقسطة ومجاهد العامري بدانية الجزائر .

وكان مسيحيو الأندلس فريقين : فريق تمسك بدينه القديم ، وفريق عُرِف باسم المستعربين . وقد تمتعوا بقسط وافر من التسامح الديني . وكان يحكمهم حاكم من بينهم يسمى « السكونت » ، ولهم ممثل في البلاط ، وقاض ومحكمة استئنافية برئاسة السكونت . وكان كثير منهم يعينون في أرقى المناصب المدنية والحربية . وكان المسيحيون يتكلمون العربية ويصنفون بها الكتب وينظمون بها الشعر .

كذلك سمح العرب لليهود الذين رزحوا تحت حكم القوط بمزاولة التجارة وبحرية الملكية ، واشتغل كثير منهم بالعلوم والآداب والطب والفلسفة (٢) . كما تمتعوا بكثير من التسامح الديني ، وأسند إليهم كثير من مناصب الدولة ، وأضحت قرطبة مركزا للدراسات العربية . وقد ذكر الإدريسي (٣) أنه كان لليهود مدينة على بعد أربعين ميلا جنوبي قرطبة كان أهلها أكثر غنى من بني جلدتهم في سائر البلاد الإسلامية .

وقد نال الرقيق كثيرا من الحقوق المدنية فزرعوا الأرض لحسابهم على أن يؤدوا الخراج للدولة .

ومن أهم طبقات المجتمع في الأندلس : الصقالبة ، وكانوا يجلبون من أسرى الحروب أو من هؤلاء الذين استولى عليهم القراصنة من السواحل الأوربية أو من سواحل البحر الأبيض المغربية . وقد ذكر المقرئ (٤) أن عدد الصقالبة بقصر الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر بلغ ٣٧٥٠ ، واستخدم المنصور بن أبي عامر الحاجب الصقالبة في جيشه .

(١) ابن خلدون : العبرج ٤ ص ١٣٣ .

(٢) المقرئ : نفتح للطبيب ج ١ ص ٢٨٠ — ٢٨١ . سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢١٦ .

(٣) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ( ليدن ١٨٦٦ ) ص ٢٠٥ .

(٤) نفتح للطبيب ج ١ ص ٢٩٦ .

ولا ننسى طبقة الفقهاء الذين اشتد نفوذهم بالاندلس منذ أيام الدولة الاموية ، ولكن نفوذهم قد اشتد، في عهد المرابطين الذين يرجع الفضل في تأسيس دولتهم إلى الفقيه المالكي عبد الله بن ياسين . وما هو أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن النبي<sup>(١)</sup> يقول عن الفقهاء في عهده :

أهل الرياء ليستموا ناموسكم كالذئب أدلج في الظلام العاتم  
فلاكتموا الدنيا بمذهب مالك وقسمتموا الاموال بابن القاسم

## ٢ — مجالس الغناء والطرب

كان للغناء قواعد متبعة ومدارس معروفة ، حتى لقد وضعت مؤلفات كثيرة في الغناء والموسيقى . وحسبنا أن نفوّه بكتّاب الأغاني الذي وضعه أبو الفرج الأصفهاني في المغنين والمغنيات ، وتبع ذلك التعرض للأدب والآداب<sup>(٢)</sup> . وكان العامة يحفلون بهذه المجالس ويطربون لها للترويح عن مشاغل الحياة ومتاعها<sup>(٣)</sup> .

ويبدو أن الموسيقى لم تلق إقبال الناس في العصر العباسي الثاني . ويعمل « فارمر »<sup>(٤)</sup> ذلك إلى مناهضة فقهاء الحنابلة لأسباب اللهو واللعب عامة ، ومن بينها الموسيقى . وقد تبع ذلك إهمال المؤلفين لتدوين الموسيقى والغناء . فلم نجد مؤلفين للموسيقى كأبي الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني ، حتى تصل إلينا أخبار المغنين والمغنيات في هذا العصر الذي سيطر عليه الفقهاء ولا سيما العلماء الحنابلة .

وبما بدل على عدم تقدير هذا الفن في هذا الزمن أن بعض الفقهاء كانوا لا يقبلون شهادة المغني والراقص . غير أن بعض العلماء أجاز لنفسه حضور مجالس الغناء ، كما كانت العامة تحضر في العادة مجالس الغناء والتسليّة بما يجري في مجالسه من رقص وتمثيلات يُقصد بها الفكاهة .

والرقص كالغناء من حيث أصلته في المجتمع العراقي . وقد اخترعت له آلات خاصة

(١) من أدباء مدينة جيان بالاندلس .

(٢) فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ، ترجمة حسين نصار ( القاهرة ١٩٥٦ ) ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٣) ومن هذه المؤلفات أيضاً كتاب الأدوار في معرفة النغم والأدوار لصفي الدين عبد المؤمن ( ب ١٢٩٤ / ٦٩٣ ) .

(٤) تاريخ الموسيقى العربية ، ترجمة ص ٢٤٩ - ٢٦٠ .

مثل « السكرج » وهي تماثيل خيل مُسرجة من الخيش معلقة بأطراف أقبية تلبسها الجوارى ، ويركبن بها الخيل ، فيحدثن أصواتاً عند السكر والفر . وكان الراقصون والراقصات يعرضن فنونهن أمام الجماهير في الولائم والأعياد وأوقات الفراغ ومجالس اللهو . وقد انتقلت هذه العادات من بغداد إلى غيرها من المدن والقرى (١) .

وهناك نوع آخر من الفن ظهر في كنف الغناء والرقص وهو العزف . ولم يكن العازفون من الرجال فقط ، بل اشتركت فيه النساء كذلك . وكان العازف يلقب باسم آله ، فيقال : الطبال والصنّاج والعمّود والزامر والطنبورى (٢) . وكانت الآلات الموسيقية المعروفة حينئذ هي : الدف والنساي والعود والطبل والطنبور ، ومنه الطنبور الميزاني والبغدادى . وهناك أيضاً المِعْرَفة والمزمار والشهروز والرباب والجراقة والجَنَك والقضيب والسرنای .

ويبدو أن الرذيلة قد نفشت في العراق في القرن الخامس الهجرى لضعف الحكم ، فانتشر شرب الخمر وكثرت المواقير والحانات وظهرت موجة انحلال خلقى بين المغنيات في عهد الخليفة القائم (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) ، وقام بعض الصالحين في وجه محاربة هذا التيار ، وأنكروا نفثي الخمر . ويذكر ابن الأثير (٣) أن شخصاً أنلف آلة الغناء التي تستعملها إحدى المغنيات كانت تصطحب جندياً من السلاجقة الأتراك ، فاجتمعت العامة برعاية علماء الدين واستغاثوا بالخليفة القائم طالبين إليه أن يأمر بهدم المواقير والحانات وتمطيلها . ويظهر أن الخليفة الذي لم يعد له من الأمر شيء اكتفى بأن وعد بعرض الأمر على السلطان السلجوقي .

وقد ذكر ابن الأثير (٤) أن الخليفة المقتدى (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ) أمر بنفي المغنيات والمفسدات من النساء من بغداد ، وخرّب أبراج الحمام ومنع اللعب بها صيانة لحرم الناس ؛ كما منع دخول الناس الحمامات إلا إذا لبسوا متزراً ، ومنع للملاحين من أن يحملوا

(١) مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٦١) ص ٧٦٦ .

(٢) الأزدى : حكاية أبي القاسم البغدادى (هيدلبرج ١٩٠٢) ص ٥٠ . الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص ١٣٦ .

(٣) الكامل ج ١٠ ص ٣٨ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٨٥ - ٨٦ .



الرجال والنساء مجتمعين ، مما جعل الناس يمتدحونه ويطرون خلافته ويمدونه من أحسن الخلفاء العباسيين .

ذكر المقرئ (١) أن الخليفة الحاكم الفاطمي أصدر بين سنتي ٣٩٨ ، ٤٠١ هـ قوانين تحرم اجتماعات اللهو والطرب على شواطئ خليج القاهرة ، كما حرم فتح الأبواب والنوافذ التي تطل على هذه الشواطئ . وقد تلت هذه القوانين قوانين أخرى بمنع بعضها سماع الموسيقى والاستمتاع بالألعاب وما إليها ، ويمنع البعض الآخر سماع المغنيات . ويقول ابن خلكار (٢) إن النساء قبعن في بيوتهن سبع سنين حتى ولى الخلافة الظاهر ابن الحاكم سنة ٤١١ هـ . وقد ذكر المؤرخون أن البساسيري لما أقام الخطبة للخليفة الفاطمي المنتصر على منابر العراق نحواً من سنة ، أشادت إحدى المغنيات بهذا الحادث وغنت في حضرة الخليفة الفاطمي هذين البيتين :

يَا بَنِي الْعَبَّاسِ صُدُّوا مَلَكَ الْأَمْرِ مَعَدُّ

مَلِكِكُمْ كَانَ مُعَارَاً وَالْعَوَارِي تَسْتَرَدُّ

فطرب الخليفة وأقطعها أرضاً بمدينة القاهرة لا تزال إلى اليوم تعرف باسم أرض الطبالة .

وقد ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن تأثير زرياب على المجتمع القرطبي كان عميقاً في الموسيقى والغناء وفي الطعام وآداب المائدة . فقد علم زرياب أهل قرطبة أرقى أنواع الطهي البغدادي ، وأذاع فيهم أنماطاً جديدة في تنظيم المائدة ، فكانوا يبدون بالحساء ، ثم يقدمون اللحوم والطيور ويفتهون بالحلوى . واستبدل زرياب مقارن المائدة من السكتان بأخرى مصنوعة من الجلد الرقيق ، وأظهر لهم أن السكؤوس المصنوعة من الزجاج الثمين أكثر انسجاماً مع منظر المائدة من الأكواب الذهبية أو الفضية .

ومن مآثر زرياب أنه فتح في قرطبة معهد جمال كان يدرس فيه فن التجميل ، واستعمل معجون الأسنان ، وعلم أهل الأندلس أن يفرقوا شعورهم في وسط الرأس بدلا من أن يتركوا خصلات الشعر تتدلى فوق جبينهم وتغطي أصداعهم . كما كانوا يعقصونه ( يلوونه ) حول شعورهم ، وأن يظهروا الحاجبين والأذن ، ويلبسوا ملابس

(١) خطاط ج ٢ س ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ س ١٢٧ .

بيضاء من أول يونية إلى نهاية سبتمبر . كما عليهم زرياب أن الربيع هو موسم الملابس الحريرية الخفيفة ، والقمصان ذات الألوان الزاهية ، وأن الشتاء فصل الفراء والملابس الثقيلة .

وتأثير زرياب تغير البلاط الأموي والمجتمع القرطبي بسبب ما نقله إليهم من نظام البلاط العباسي ، حتى في أزيائهم وأثاث منازلهم وطرق طهيهم<sup>(١)</sup> .

### ٣ — قصور الخلفاء والأمراء والوزراء ودور العامة

لم تنل دور العامة في البلاد الإسلامية عناية المؤرخين والرحالة ، بل إنهم اقتصرُوا على وصف قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة . وقد اقتضت دور العامة على سكني أصحابها غالباً ، وكانوا يؤجرونها كلها أو بعضها . وكان الزهاد والمنصوفة يتخذون من المساجد مساكن أو يلجئون إلى سكني الأكواخ<sup>(٢)</sup> . وكانت دور العامة تبني غالباً من طابق واحد ، وقد تبني من طابقين<sup>(٣)</sup> .

أما مواد البناء فكانت الجص والآجر والسكلس والنورة ( الجير ) . وكانت السقوف تتخذ من جذوع النخل أو أغصان الأشجار<sup>(٤)</sup> .

وللدار مرافق صحية كالحمام والبئر وغيرهما . والأغنياء مرافق صحية خاصة لا يستعملها الخدم . ونرى عادة في بيت العامة رحى للطحين وتنوراً للطبخ وشجرة أمام المنزل وكلباً للحراسة .

وكان بعض العامة يزينون دورهم ويؤثثونها بأثاث يتمشى مع حالتهم الاجتماعية ، ويفرشون الأرض بالحصير الشائع الاستعمال بالعراق . ويفرش أهل اليسار الزرابي ويستعملون الوسائد والستائر ، وبضئيتهم دورهم بالمسارج والفتاديل أو الشموع . وهذا يعمل لنا إغلاق الجوانيت بعد مغيب الشمس ، فتقطع الحركة التجارية في الشوارع والطرقات .

وكانت قاعة الذهب التي ينعقد فيها مجلس الملك في عهد الفاطميين مؤمنة أثاثاً فخماً ،

(١) ليفي بروفنسال : الشرق الإسلامي والحضارة العربية الأندلسية عن مخطوط المؤرخ الأندلسي أحمد بن محمد الرازي — منشورات معهد الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الأسبانية ص ٣٠ — ٣٤ .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ٨ ص ٢٨٦ .

(٣) ابن الجوزي : الأذكياء ص ٦٠ .

(٤) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٢٥٥ .

ومزينة بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب ، وفي صدر هذه القاعة حَشِيَّة عليها عرش الخليفة المحجوب بستور ، حتى إذا ما استوى الخليفة على عرشه والتأم المجلس رُفعت الستور .

ومن قصور الخلفاء الفاطميين ذلك القصر الفخم الذي بناه الخليفة الأمر في جزيرة الروضة<sup>(١)</sup> لزوجه الطائفة ، وقد بنى لها الخليفة هذا القصر بطريقة لا تجعلها تشع بالانتقال من حياة البادية ، وكان له حديقة رحة ممتدة على شاطئ النيل<sup>(٢)</sup> .

وكان الوزراء يعيشون عيشة قوامها الترف والإسراف وحب الظهور كما يعيش الخلفاء . فقد وجد في قصر الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي الذي أطلق عليه « دار الملك » ٦,٤٠٠,٠٠٠ دينار من الذهب ، وسبعائة طبق من الفضة والذهب ، وكثير من الصحاف والأباريق والأواني المستعملة في اللبن ( الزبادي ) . وهناك أيضاً كثير من البراني<sup>(٣)</sup> الصيني الكبيرة المملوءة بالجواهر<sup>(٤)</sup> .

وقد وصف ابن مَيْسَر<sup>(٥)</sup> مجلس شراب الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي فقال إنه كان فيه ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات ، منهن أربع بيض مصنوعة من الكافور ، وأربع أخرى سود مصنوعة من العنبر . وكن مرتديات أفخر الثياب ومزينة بأثمن الحلي ، ويمسكن بأيديهن أثمن الأحجار الكريمة .

وكان الأفضل إذا دخل من باب المجلس فكس تلك التماثيل رءوسهن لإجلال له ، فإذا أخذ مكانه في صدر المجلس استوين قائمات . ويظهر أن هذه التماثيل كانت تتحرك بوسائل هندسية مرتبطة بمكان دخوله إلى مجلسه<sup>(٦)</sup> .

وقد ذكر ابن الأثير<sup>(٧)</sup> أن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بالمغرب بعد أن استولى على غرناطة من صاحبها عبد الله بن بلكين ( بضم الباء واللام وكسر الكاف مع التشديد )

(١) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٦ .

(٢) المقرئ خطط ج ١ ص ٤٨٥ .

(٣) جمع برنية وتسمى المحلية وهي لئاء مدور من الخنزف .

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٥) تاريخ مصر ص ٥٧ .

(٦) انظر كتابي : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٥٦ — ٥٥٧ .

(٧) الكامل ج ١٠ ص ٥٧ .

وأخرجه منها رأى في قصوره من الاموال والذخائر مالم يملكه ملك قبله بالاندلس . وما وجده عنده سبعة فيها اربعمائة جوهرة قومت كل جوهرة منها بمائة دينار ، إلى غير ذلك من النفائس الثمينة والثياب وغيرها .

#### ٤ — الطعام :

اهتم العباسيون بالطعام وتفننوا في طهيه وتصنيفه وترتيب تقديمه على مواعدهم . وقد عنى العباسيون بوضع المؤلفات التي تصف الطعام وطريقة تقديمه . وعن ألف في هذا الباب : محمد بن عبد الكريم السكاك البغدادي الذي ألف كتابه « الطبخ » في سنة ٦٢٣ هـ ( ١٢٢٦ م ) . ويصف لنا هذا الكتاب الطعام في عصر المؤلف وفيما سبقه من العصور العباسية .

وقد قسم هذا المؤلف الطعام على أساس طبقات المجتمع في عصره ، فذكر طعام طبقة الاغنياء ، وطبقة الفقراء<sup>(١)</sup> ، والطعام الشعبي .

وبتألف طعام الاغنياء من الدجاج ، وكانت الدجاجة تسلق وتقطع ثم تُعْرَق بالشيرج<sup>(٢)</sup> المضاف إليه الكزبرة والمستكة والدار الصيني . ويعتبر الدجاج أساس المائدة . ولذلك كان سعره مرتفعاً . ولحم في طهي الدجاج طرائق مختلفة حسب رغبة الآكلين<sup>(٣)</sup> .

ومن ألوان الطعام المضيرة<sup>(٤)</sup> ، فيقطع اللحم السمين مع الإلية ويوضع في قدر ثم يضاف إليه ماء وملح ، ثم يغلى . فإذا قارب النضج أضيف البصل والسكرات والسكرات والسكرات والمستكة والدارصيني ، فإذا نضج وجف ماؤه ولم يبق سوى الدهن عُرف في إناه ، وأضيف إليه اللبن والليمون والنعناع ، ثم ترك على النار حتى يغلى قليلاً ، وأضيف إليه التوابل ، ثم مسح جوانب القدر وترك وغطى حتى يهدأ .

ومن ألوان الطعام أيضاً : السكاج<sup>(٥)</sup> . وطريقة طهيه أن يقطع اللحم السمين ويوضع

(١) ويدخل في هذه الطبقة طبقة المتصوفة والزهاد الذين يكتفون بالقليل من الطعام ولا سيما من الخبز الجاف والملح أو الأدم القليل .

(٢) وهو زيت السمسم .

(٣) الخوارزمي : مقاتيح العلوم ص ١٠٠ .

(٤) بفتح الميم وكسر الصاد بعدها ياء . انظر البغدادي : كتاب الطبخ ص ٢٣ .

(٥) بكسر السين المشددة .

في قدر ، ثم يضاف إليه الكزبرة الخضراء والدار صيني والملح ، ويظل على النار حتى يغلي ، ثم يضاف إليه الكزبرة اليابسة وتنحى الكزبرة الخضراء من القدر ، ثم يضاف إليه البصل والكراث والجزر أو الباذنجان .

وهناك ألوان أخرى من أطعمة الأغبيا ، نذكر من بينها المشهيات كالسلاطة والحصرمية والسكسية والعدسية والمهلبية .

وتتألف الاطعمة الشعبية من اللحم والخبز والدبس والنخل والسمك ، ومنه المشوى والمقلي والمطبوخ . وكان المحتسب يشرف على باعة السمك بصفة خاصة لئلا يخلطوا السمك الطازج بالسمك العاسد .

وقد اعتاد أهل العراق عدم شرب الماء بعد أكل السمك كما كانوا لا يشربون اللبن بعده ولا يأكلون البيض أو اللحم إذ يعتبرون ذلك ضاراً بالصحة .

ومن الاكلات الشعبية الباقلاء ، والمهريسة وهي نوع من الحلوى تباع في الاسواق في الصباح . وهي من الأنواع القديمة بالعراق ، فتطبخ في البيوت أو تباع في الاسواق . ومن الاكلات الشعبية أيضاً العصيدة والثريد ، وتعمل العصيدة من التمر ويضاف إليه السكر والعسل (١) ، ويعمل الثريد من المرق واللحم وقد يضاف إليه الحمص ، ويؤكل في الغداء والعشاء . ومن الاكلات الشعبية أيضاً الارز ، ويؤكل مع اللبن أو السمن ، والسكر ويقدم مع غيره من الاطعمة .

ومن الاكلات الشعبية الكباب وهو اللحم المقطع إلى شرائح ، وتشوى الآن من اللحم المفروم . والكباب من الاكلات المتوفرة والرخيصة إلى اليوم ، وهو من الاكلات المفضلة عند الشعب العراقي . كذلك نذكر من بين الاكلات الشعبية الزموس والاكارع ، وتباع في الاسواق معلبوخة ونبيئة (٢) . ويزيد في قيمة الطعام ما يضاف إليه من المسك والعنبر والعود والزعفران والقرنفل والكبابية (الصيني) والفواكه اليابسة كالجوز واللوز والفسق والبندق والعنب والزبيب والتمر والتفاح والمان والموز وغيرها (٣) . وكان السلطان ألب أرسلان السلجوقي باراً بالناس يطبخه يطبخه كل يوم خمسون

(١) الحطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣٩٥ .

(٢) ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ص ٣٤ .

(٣) بدوى محمد بفر : العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري — رسالة ماجستير مخطوطة

ص ٨٣ وما يليها .

رأساً من الغنم للفقراء ، ما عدا المال الذي خصص لسباط الخاصة والعامة والعسكر والامراء وغيرهم<sup>(١)</sup> .

وقد ذكر المؤرخون والرحالة أن الفاطميين والابويين في مصر اهتموا بتربية الحيوانات وخاصة البقر وتربية الجاموس وتربيت الدجاج وتربيته . وكانت مصر في رغد من العيش ، فزرعت فيها الحنطة والذرة والارز والقمح والشعير والبقول والحبس والعدس والبصل والثوم واللفت والسلجم ( وهو نوع من اللفت ) والقلناس والباذنجان واللوبياء والسكرابيا . كما عمرت الاسواق بالفواكه على اختلافها كالكرام والتين والتفاح والخوخ والشمش والموز والتمر والتوت واللوز . وكانت هذه الاسواق تزخر بالطعمة كالدجاج والاوز والزبيب والسمنك والحمام وسائر اللحوم<sup>(٢)</sup> . وكانت الاحتفالات الرسمية تقترن بالاحتفالات والمآدب الشعبية ، ويستقبل الشعب المصري هذه المواسم بمظاهر البهجة إلا يوم عاشوراء الذي كان يعتبر يوم حزن شامل تعطل فيه الاسواق ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر حيث يرتلون الاناشيد الحزينة في رثاء الإمام الحسين<sup>(٣)</sup> .

وقد ابتدع زرياب في بلاد الأندلس ألواناً من الطعام ، فأدخل بقلة الهليون المسماة عندهم الاسفراج وزاد في الاطعمة لوناً أطلقوا عليه « القمايا » ، ويصنع بماء السكريرة الرطبة المحلاة بالسنبوسق والسكراب ، ولوناً من التقلية أطلقوا عليه تقلية زرياب ، يطبخ فيه الدجاج أو الأرناب في مرق كثير الأفاويه والتوابل . كما أخذوا عنه تفضيل الأكوام الزجاجية الرفيعة على أكوام الذهب والفضة ، وابتكر أسمطة الطعام من الأديم ( الجلد ) . وقد اتخذ أمراء الأندلس وخلفائهم وخواصهم زرياب قدوة فيما سته لهم من آداب المائدة واستحسنه من الاطعمة التي نسبت إليه .

ويتميز المغرب بألوان خاصة من الطعام « كالكفتة » التي تطهى بالزيت ويضاف إليها كمية كبيرة من التوابل وتصنع على شكل كور كبيرة الحجم ، وتصنع من لحم البقر الخالي من الشحم . وقد ذكر الحسن الوزان أنه كان بمدينة فاس سوق يباع فيه الخبز المقل بالزيت ، ويشبه الخبز الصغير ، ويحلى بالعسل ، ويتناول الناس هذا الخبز مع طعام

(١) البنداري . تاريخ دولة آل ساجوق ص ٤٥ .

(٢) أنظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٨٨ — ٣٨٩ ، ٤١٦ .

(٣) نفس المصدر ص ٦٤٢ .

الإفطار ولا سيما في أيام الأعياد ، وتؤكل هذه الفطائر مع اللحم المشوى أو مع العسل أو مع الحريرة . ويلاحظ أن أهل فاس لا يزالون حتى اليوم يحتفظون بهذه العادة ويتناولون هذه الفطائر في الصباح ولا سيما مع رموس الغنم المشوية . وللأديب الأزموري الفاسي المولد والنشأة قصيدة طويلة في الأظعمة يذكر فيها رموس الغنم المشوية .

وطريقة طهي الحريرة هي أن يدق اللحم ثم يطبخ ثم يدق من جديد ، ويدخل في صنع الحريرة وتضاف إليها كمية من التوابل والمرق والبقول ، وفي فاس وغيرها من المدن المغربية يشوى اللحم في السفايد ، ويبنى كانونان أحدهما فوق الآخر ، وتوقد النار في السكاون الأسفل ، وعند ما يُحْمَى السكاون العلوى يوضع فيه الحمل كاملا من فوهة في أعلى السكاون حتى لا تحرق الأيدي . وهكذا يتم شراء اللحم ويأخذ لونا جميلا ونسكة لطيفة ، لأن الدخان لا يصل إلى اللحم وإنما يصل إليه اللهب المشتعل ، ويستمر شوى اللحم على نار ضعيفة طول الليل ، وفي الصباح يبدأ بيع هذا اللحم في الأسواق ، حيث يباع فيها كذلك اللحم المقلى والسملك المقلى ، وهناك حوانيت الأكارع .

أما سوق الجزائر فقد كانت المواشى قبل أن تحمل إلى الحوانيت تعرض على أمين الجزائر لفحص اللحم ، والتأكد من سلامته من الأمراض ، ثم تسل لحاملها ورقة بمحدد فيها ثمن البيع بحيث يستطيع كل شخص أن يراها ويقرأ الثمن الذي يباع به اللحم . وهكذا سبق المسلمون بالمغرب غيرهم من الأمم إلى تحديد أسعار السلع ، ثم نقل عنهم الأوربيون هذا النوع من المعاملات .

وفي سوق الأسماك يبيع الصيادون أنفسهم ما يصطادونه من السمك بأسعار بخسة . وكان من عادتهم أن يصطادوا سمكا ممتازا هو « الشايل » الكبير الجيد الطرى ، ويسمى « لاكا » بالإيطالية وبالفرنسية « لا لوز » ، ويبدأ صيده من الأناهار خلال فصل الربيع . وقد ذكره المقرئ في رسالة المفاخرة بين سلا ومالقة فقال عند كلامه على مدينة سلا : « وكفى بالشايل لمخاطريا » .

وكان لأهل المدن المغربية ولا سيما أهل فاس ولع بتربية الدجاج ، وكانوا يعنون بنظافة دورهم ويحفظون الدجاج في أقفاص كبيرة .

ويزرع سوق الزياتين بزيت الزيتون والزبد والعسل والجن الطازج والليمون

والجزر واللفت والفول الطرى وغيرها ، وبشرف المحتسب وأعوانه على جميع السلع المستهلكة .

٥ - الملابس :

كان للخاصة في العصر العباسى الثانى ملابس رسمية تميزهم . أما ملابس العامة فكانت تختلف باختلاف حياتهم الاجتماعية ؛ فكان أغنيائهم يعنون بملابسهم أكثر من فقراهم . ويعرف الزهاد والمتصوفة بملابسهم الصوفية الخشنة .

والملايس ثلاثة أنواع : ملابس للرأس ، وملابس للبدن ، وملابس للأرجل والقدمين بالإضافة إلى الحلى .

فلباس الرأس هى العمامة التى تميز الرجل عن المرأة وتقى الرأس من الحر والبرد . ولم يسمح الفقهاء للمرأة بلبس العمامة ليميز بها الرجل . وقد أخذ العرب العمامة عن آباؤهم منذ أيام الجاهلية وورثها المجتمع العراقى فى القرن الخامس الهجرى . فكان لايجوز خلع العمامة وكشف الرأس إلا فى مناسك الحج . وكانت العمامة السوداء تلبس فى الاحتفالات والمواسم وعند مقابلة الخليفة لأن السوداء كان شعار العباسيين الرسمى .

أما ملابس البدن فكانت تختلف باختلاف طبقات الناس . فالزهاد يلبسون الملابس الخشنة أو الممزقة ، والفقراء يلبسون المدرعة ( بكسر الميم وسكون الدال وفتح الراء ) ، وهى نوع من الجباب وتكون عادة من الصوف . وكان عمال الحمامات يلبسون الثياب ( بضم التاء مع التشديد وفتح الباء مع التشديد ) وهى سراويل صغيرة تستر العورة . ويلبس الفلاحون الملابس الغليظة المصنوعة من القطن . ويلبس الأغنياء الملابس الحريرية والإبريسمية وهى نوع من الحرير . وكان الناس يلبسون فى أرجلهم الجوارب وفى أقدامهم النعال (١) .

وكانت القاهرة فى عهد الفاطميين من أهم مراكز النسيج . وقد بلغ نظام الطراز الذى يصنع بدار الكسوة مبلغاً عظيماً من الرقى كما تقدم . كما اشتهرت مصر بأنواع خاصة من الثياب الحريرية والقطنية والكتانية والصوفية . وكان يصنع بدار الكسوة كسى مختلفة يصلح كل منها فى مناسبة معينة ، كالاكتفال بآخر رمضان وبالعيدين ، والجلوس إلى السباط

(١) بدرى محمد فهد : العمامة ببغداد فى القرن الخامس الهجرى (رسالة مخطوطة) ص ١١٧ وما يليها .



في أول أيام العيد . وكانت هذه الملابس موشاة بخيوط الذهب والفضة ، حتى لقد بلغ ثمن بعض الكسي خمسمائة دينار وثمن المنديل خمسة دنانير . كما كانت الحلل المزركشة بالذهب تقدم إلى الوزراء والأمراء والأشراف وكبار رجال الدولة في أول رمضان وفي الاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه ، وفي عيدي الفطر والأضحى وفي الاحتفال بوفاء النيل وغيرها يمنحون في هذه المناسبات حلالا حريرية أو مزركشة بالذهب<sup>(١)</sup>

### ٦ — المرأة :

كانت المرأة في العصر العباسي لا تختلط بالرجال الغرباء . فإذا أقيمت الحفلات لجأت إلى غرفة خاصة بالنساء أو طلعت فوق سطح منزلها لرؤية الحفل وحدها أو مع بعض زميلاتنا . وكان المجتمع البغدادي لا يسمح للرجل بأن ينظر إلى جيرانه من نافذة . ومن تعدد كشف عورات الناس كان جزاؤه من السلطات الحاكمة الجزاء الصارم . وكان المحاسب لا يسمح باختلاط الرجل بالمرأة في الطرقات العامة ولو كانا زوجين<sup>(٢)</sup> . وعلى ذلك فقد كانت المرأة تحضر مجالس الوعظ في المساجد<sup>(٣)</sup> . وهذا يدل على مشاركتها للرجل في إقامة الشعائر الدينية وفي ميدان العلم والثقافة . على أن هذا لم يمنع من اختلاط الرجل بالمرأة في الأسواق وعلى شواطئ الأنهار وفي زيارة القبور وفي قضاء المصالح بالدواوين الحكومية<sup>(٤)</sup> .

وقد تمتعت المرأة في العصر السلجوقي بقسط وافر من الحرية . وكان لبعض نساء هذا العصر تأثير عظيم على الخلفاء والسلاطين ، حتى إنهن تدخلن في شئون الدولة . ونذكر على سبيل المثال « ترکان خاتون » زوجة السلطان ملكشاه التي اشتهرت بذكائها ودهائها ، وأسع نفوذها حتى إنها استطاعت تحت تأثير طموحها الشخصي أن تحمل الخليفة العباسي القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) على تقليد ابنها الصغير محمود السلطنة . ولم يكن بد من أن يلبي الخليفة طلبها بمعاودة وزيرها تاج الملك وتأيد جعفر ابن الخليفة وابن « ماه مالك » أخت السلطان ملكشاه وغيره من رجال الدولة . وبذلك تحقق طموح ترکان خاتون وتقلد

(١) المقرئى : خطط ج ١ ص ٤٠٩ — ٤١١ .

(٢) الماوردى ص ٢٥٧ .

(٣) الخطيب البغدادي ج ١٢ ص ٧٦ .

(٤) ابن الجوزى : المنتظم ج ٨ ص ٢٧٨ .

ابنها محمود السلطنة دون أخيه الأكبر بركياروق بن زبيدة (١). وقد أدى هذا العمل إلى انقسام البيت السلجوقي على نفسه ، فدبرت المؤامرات واشتملت الحروب وطعم بعض أعضاء البيت السلجوقي في السلطنة (٢).

وكان كثير من الخلفاء من أمهات أو أولاد . فقد كانت أم المأمون فارسية وأم المعتصم تركية . وكانت شجاع أم المتوكل رومية ( أو خوارزمية ) ، والسيدة أم المقتدر رومية ، وأم المطيع صقلبية ، وأم الظاهر الفاطمي سودانية .

وكان للمرأة شأن عظيم في عهد الدولة الفاطمية ، فكانت تتدخل في شئون الدولة . واشتهر كثير من النساء بالثراء والبذخ . فقد تمتعت ست الملك أخت الخليفة الحاكم بالحزم ورجاحة العقل واشتهرت بالكرم والحلم وعرفت بالتسامح الديني . ومن نساء العصر الفاطمي الأخير زوجة الظاهر وأم المستنصر . وكانت سودانية ، على ما تقدم . وقد اشتهرت بالمعطف على أبناء جلدتها السودانيين الذين كثر عددهم ، وبلغ جندهم خمسين ألفاً . ومن نساء هذا العصر زوجة الخليفة الأمر الطائفة البدوية التي شغف بحماها ومواهبها . ولم يظهر بين طبقة العامة في ذلك العصر نساء كان لهن أثر في الحياة السياسية أو في ترقية المجتمع ، بل كان النشاط في هذه النواحي مقصوراً على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نساء الطبقة الحاكمة .

وقد تمتعت شجر الدر زوجة الملك الصالح أيوب بنفوذ عظيم في الدولة الأيوبية حتى لقد تقلدت سلطنة مصر ردهاً من الزمن . وقد تقربت من أمراء الدولة ونجحتهم الإقطاعات وخفضت الضرائب عن الأهالي واستطاعت بهارتها أن ترد الصليبيين على أعقابهم بعد أن حلت بهم الهزيمة في موقعة المنصورة سنة ١٢٤٩ م .

وقد اشتهر بعض نساء المغرب برجاحة العقل وتدخلن في شئون الدولة . ومن هؤلاء زينب النفزاوية التي اشتهرت بحماها ورجاحة عقلها وظرفها . وقد تزوجها أبو بكر بن عمر اللامتوني الذي عينه عبد المؤمن بن علي أميراً على بلاد المغرب . وقد ذكر ابن الأثير (٣) في حوادث سنة ٥٠٠ هـ أن ثلاثة أشخاص اجتمعوا ، فتمنى أحدهم ألف دينار يتجر بها ، وتمنى الآخر عملاً يعمل فيه لأمير المسلمين ، وتمنى الثالث زوجة يوسف بن تاشفين .

(١) كانت زبيدة ابنة ياقوق بن داود وابنة عم السلطان ملكشاه .

(٢) انظر الباب الثاني من هذا الكتاب ص ٣٧ .

(٣) الكامل ج ١٠ ص ١٥٦ .

ولما بلغ ابن تاشفين هذا الخبر ، أحضر هؤلاء الثلاثة وأعطى الأول ما تمناه من المال وهو ألف دينار ، وقد الآخر عملاً من الأعمال ، وقال للشخص الذى تبنى زوجته : « يا جاهل ! ما حملك على هذا الذى لا تصل إليه ؟ » ثم أرسله إلى زوجته ، فتركته فى خيمة ثلاثة أيام تحمل إليه كل يوم طعاماً واحداً . ثم أحضرته وقالت له : « ما أكلت هذه الأيام ؟ » قال : « طعاماً واحداً ؟ » فقالت : « كل النساء شئ واحد » وأمرت له بمال وكسوة وأطلقته .

وقد تطور نفوذ المرأة فى عهد على بن يوسف بن على بن تاشفين ، فتدخلت فى شئون الدولة تدخلاً أضر بالملك فى عهده ، « واستولى النساء على الأموال ، وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مُفسد وشريرو قاطع سبيل وصاحب خمر وماخور ، وأمير المسلمين فى ذلك كله بتزيد تغافلته (١) » .

وفى الأندلس كثر زواج المسلمين بالمسيحيات ، وغدا المسلمون يؤثرون اتخاذ أمهات أولادهم من السبايا اللاتي كن يؤتى بهن من شمالى أسبانيا (٢) .

ولم يكن شراء الجارية فى الأندلس من الأمور الهينة ، بل كان شرائها يتم بحضور كاتب العقود ، فتوضح الأسباب التى تطلب الجارية من أجلها بكل دقة . وقد تمتعت المرأة فى عهد الأمويين فى الأندلس بنصيب كبير من الحرية وحظ وافر من الاعتبار ، وإن نقص صفاء الجنس العربى كان نتيجة التزاوج من الأسبانيات على الرغم من أن ذريتهن أصبحت تحمل أسماء الآباء .

## ٧ - الأعياد والمواسم والمواكب والحفلات

### (١) الأعياد والمواسم والمواكب

كان العامة فى المشرق الإسلامى يحتفلون بالأعياد الدينية كشهر رمضان ثم يحيون لياليه بتلاوة القرآن الكريم وصلاة التراويح . كما كانوا يحتفلون بعيدى الفطر والاضحى ، فيخرج الناس صبيحة يوم العيد بملابسهم الجديدة إلى المساجد لأداء صلاة العيد وتوزيع الفطرة على الفقراء والمساكين . وكانت الدولة العباسية تحتفل بهذا العيد بحضور الخليفة

(١) المراكشى : المعجب ص ١٧٧ .

(٢) ترنذ : تراث الإسلام ، الترجمة العربية ( القاهرة ١٩٣٦ ) ج ١ ص ١٢ - ١٣ .

مرتدياً أغر الملابس وبصحبه كبار رجال دولته . وكان العامة يقفون على جانبي الطريق لتحية الخليفة وهو في طريقه إلى المسجد وهم ينادون : السلام على أمير المؤمنين ونور الإسلام» .

وكانت بغداد تزين بالاعلام والاقمشة الحريرية ذات الالوان الزاهية ، وتضرب الطبول وتدق الأبواق . كما كانوا يحتفلون بموسم الحج . فإذا حل اليوم العاشر من شهر ذى الحجة احتفل الناس بعيد الأضحي وذبحت الأضاحي ووزع منها على الفقراء . وكان الصناع ينتهزون حلول العيد ليصنعوا تماثيل حيوانية للأطفال<sup>(١)</sup> .

ومن الأعياد الدينية عيد الغدير عند الشيعة . وكان معز الدولة بن بويه أول من احتفل بهذا العيد في سنة ٣٥٢ هـ . كما كان العامة يحتفلون بعيد النوروز ، وبأعياد النصارى في الأديرة القريبة من بغداد ، ويحتفلون بالانتصارات الحربية كما حدث في سنة ٤٦٣ هـ حيث احتفل السلطان ألب أرسلان على البيزنطيين في موقعة ملازكرت الشهيرة .

وفي العصر الفاطمي في مصر كانت هناك عدا مواكب الخلفاء الملكية في أيام السبت والثلاثاء وأيام الجمع والعديد ، أيام دينية أخرى . وكانت الأسمطة تقام ابتهاجا بهذه الأعياد في قصور الخلفاء وتوزع الإنعامات بمقادير وافية . وفيما يلي بيان بأسماء الأعياد التي كان يحتفل بها الفاطميون :

- (١) رأس السنة (٢) أول العام (٣) يوم عاشوراء (وهو يوم مقتل الحسين )
- (٤) مولد النبي صلى الله عليه وسلم (١٢ ربيع الأول) (٥) مولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (٦) مولد الحسن عليه السلام (٧) مولد الحسين عليه السلام (٨) مولد السيدة فاطمة الزهراء (٩) مولد الخليفة الجالس على العرش (١٠) ليلة أول رجب (١١) ليلة نصف رجب (١٢) ليلة أول شعبان (١٣) ليلة نصف شعبان<sup>(٢)</sup> (١٤) موسم ليلة رمضان (١٥) غرة رمضان (١٦) وفاة النيل (١٧) يوم التَّوْرُوز (١٨) يوم الغطاس (١٩) يوم الميلاد (٢٠) عيد النصر<sup>(٣)</sup> (٢١) خميس العهد<sup>(٤)</sup> .

(١) انظر بدرى محمد فهد : العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري ( نسخة مخلوطة ) ص ١٦٠ وما يليها .

(٢) كانت هذه الليالي الأربع الأخيرة تسمى ليالي الوقود .

(٣) كان للاحتفال بهذا العيد في ١٦ المحرم وهو اليوم الذي أطلق فيه سراح الخليفة الحافظ وجمة في عزلة عن الناس منذ شهر ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ ( ١١٣٠ م ) . ( ابن ميسر ص ٧٤ و ٧٥ ) .

(٤) هو الخميس الذي يحتفل فيه النصارى بإنجيلهم ، وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام . وهو أحد الأعياد التي بقيت في عهد الفاطميين مشاركة للنصارى في شعورهم الديني . وانظر عهد استبدلات خطأ بلفظ =

وكان الخلفاء الفاطميون يركبون في مناسبات متعددة ، لكنهم عنوا عناية خاصة ببعض المواكب التي كانت تسمى بالمواكب العظام ؛ وهي موكب أول العام ، وأول رمضان ، واجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان ، وصلاة عيدى الفطر والأضحى ، ووفاء النيل. (١) أما المواكب الأخرى فكانت تسمى بالمواكب المختصرة (٢) .

### ( ب ) الخطبة في الأزهر :

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤم الناس في الصلاة باعتباره زعيماً للمسلمين . وقد ندب وهو في مرضه الأخير أبا بكر ليصلي بالناس بدلا منه . وكانت لإمامة المسلمين في الصلاة من أهم الأدلة التي استند إليها السنيون في أحقية أبي بكر بالخلافة بعد الرسول الكريم . ولفظ إمام تمثل فيه الصفة الدينية من حيث الإمامة في الصلاة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين ، بل إنها تعتبر ثاني أركان الدين بعد الشهادتين ، ويعدها بعضهم الركن الأول ، لأن الشهادتين تذكران في سائر الأركان . ولذلك نرى الشيعة يستعملون لفظ إمام ، لأنهم يعتقدون أن لأفراد البيت العلوي قوة إلهية مقدسة . كما ورد لفظ إمام في القرآن الكريم بمعنى الزعيم أو الدليل أو الرئيس ، فقال تعالى في سورة الأنبياء ( ٢١ : ٧٣ ) : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » (٣) . كذلك نرى الخلفاء يحافظون على وظيفة الإمامة في الصلاة لما تدل عليه من صفة الزعامة ، حتى لقد أصبحت الإمامة في الصلاة من أهم أعمال الخلفاء وولائهم في الأمصار الإسلامية . وقد حرص الخلفاء على إمامة المسلمين في الصلاة بأنفسهم .

وقد عنى الفاطميون بتنظيم الإشراف على الأزهر ، فعينوا له فقهاء يتولى الخطابة في صلاة الجمعة والحفلات الدينية بين يدي الخليفة أو نائبه ، كما نظموا شئون المسجد بصفة عامة . وفي أواخر العصر الفاطمي كانت الخطابة تسند إلى رجال الدين ومنهم داعى الدعوة . أما الشئون الخاصة بالدراسة والأسانذة والطلاب فكان يرجع فيها إلى الخلفاء ونوابهم من كبار رجال الدولة الفاطمية .

== عدس ، وسماء أهل الشام خيس الأرز أو خيس البيض ؛ واستدر ذلك إلى اليوم ( المقرزى ، خطط ج ١ ص ٤٩٥ ) .

(١) الفلشندي ج ٣ ص ٥٠٣ — ٥٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢١ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : كتاب النظم الإسلامية ( الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٢ ) ص ٤ — ٥ .

وقد أصبح الأزهر منذ إنشائه مسجد الدولة الفاطمية الرسمي . فكانت تقام فيه صلاة الجمعة وعيدا الفطر والأضحى ، وكان الخليفة يؤم الناس بنفسه . . وقد ركب الخليفة المعز الفاطمي إلى الجامع الأزهر وأم الناس في الصلاة ، وألقى خطبة رائعة كان لها تأثير بالغ في نفوس المصلين . وكانت هذه أول صلاة يقيمها الخليفة الفاطمي في الأزهر . وقد ظل المعز يخطب في هذا الجامع بنفسه في الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان وفي الأعياد حتى تم إنشاء جامع الحاكم بأمر الله ، فأقيمت فيه صلاة الجمعة في شهر رمضان سنة ٤٠٣ هـ ( ١٠١٢ م ) حيث أم الخليفة الحاكم الناس في الصلاة . وأصبحت صلاة الجمعة تقام من حين إلى آخر في بعض المساجد الأخرى ، مثل جامعي راشدة والمقس اللذين أنشأهما الحاكم بأمر الله .

وكان الخلفاء الفاطميون يحرصون على الركوب في الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان إلى جوامع الحاكم والأزهر وعمرو على التوالي لصلاة الجمعة ، ويستريح الخليفة في هذا الشهر جمعة ، تسمى « جمعة الراحة » .

وكان صاحب بيت المال يشرف بنفسه في صبيحة كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على تأميت المسجد الذي يصل في الخليفة الجمعة ، فيوضع في مقصورة الجامع ثلاث طنافس ديقية<sup>(١)</sup> أو سامانية ، بعضها فوق بعض . وتعلو هذه الطنافس الحصيرة التي يقال إنها كانت لجمفر الصادق الإمام السادس عند الشيعة الاثنا عشرية ، وأحضرت إلى مصر سنة ٤٠٠ هـ ( ١٠٠٩ م ) في عهد الخليفة الحاكم<sup>(٢)</sup> .

وكان ينصب على جانبي المنبر ستران ، يكتب على الستر اليمين منهما البسملة والفاتحة وسورة الجمعة ، وعلى الأيسر البسملة والفاتحة وسورة المنافقين<sup>(٣)</sup> .

وقبل وصول الخليفة بقليل يقف قاضي القضاة يحمل بيده مبخرة ، يبخر بها المنبر والقبّة التي يقف تحتها الخليفة عند إلقاء الخطبة التي كان يقوم بوضعها أحد كتّاب البلاط في ديوان الإنشاء . ويبدأ موكب الخليفة من باب الذهب بالقصر الخليلي وعلى رأسه المظلة والطيلسان ، وهو كساء مدور ، ويرتدى الخليفة ثوباً من الحرير الأبيض ويتعمم بعمامة من الحرير الأبيض الرقيق ، ويحمل قضيب الملك بيده ، ويحفظ به عدد كبير من القراء

(١) الديقية نسبة إلى ديق ( قرية بمصر ) اشتهرت بالنسيج الفاخر .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ( طبعة جوينبول ) مجلد ٣ ج ١ ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٣) رقم ٤٣ . الفلقشندی : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥١١ .

ومن حرس الخليفة الخاص ومن الجنود والأشراف . ويتبع هؤلاء جم غفير من الناس . وقد ذكر بعض المؤرخين أن الخليفة المعز كان يحيط به في موكب صلاة الجمعة جنده وأولاده الأربعة ، تمتطين الخيل ، وعليهم الخوذات والدروع ، ويقدمهم فيلان . وذكر بعض المؤرخين أن الخليفة الأمر ( ٥٢٤ — ٥٤٤ هـ ) كان يحف به في موكب صلاة الجمعة الفيلة والأسود وهي مزينة بغاخر الكسي ، وعليها الأسلحة اللامعة . وكان يسلم لكل واحد من مقدمي الركاب في الميمنة والميسرة أكياس الذهب والورق ( بكسر الراء ، أى الفضة ) ، سوى الرسوم المقررة والهبات والصدقات التي تمنح للناس على طول الطريق . وقد زينت الخوانيت المملوءة بأواني الذهب والفضة .

وكان الخليفة الفاطمي يركب بين قرع الطبول ورنين النصوص وتلاوة القرآن بنفحات شجية حتى يصل إلى الجامع . ثم يطلق البخور وتغلق أبواب الجامع ويقف عندها الحجاب والبوابون ، فلا يدخل إلا من كان معروفاً من الخواصر والأعيان . ثم يأخذ الخليفة طريقه إلى قاعة الخطابة المخصصة لاستقباله ، ويقوم بحراستها قائد القواد وكبير الأمان ونخبة من حرس الخليفة الذي يظل في هذه القاعة حتى ينتهى الأذان .

عندئذ يدخل قاضي القضاة ويقول : « السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضي ورحمة الله وبركاته ، الصلاة برحمتك الله ا » فيخرج الخليفة يحف به الأستاذون المحسكون ، ويتبعه وزيره الأول ، وجماعة من حرس المدججين بالسلاح ، فينتشرون بين قاعة الخطابة والمنبر . ويسمر الخليفة في مسيره حتى يأخذ مكانه تحت قبة المنبر . ويقف الوزير على باب المنبر ووجهه للخليفة . فإذا أوما إليه صعد وقبّل يدي الخليفة ، وزرّ السترين عليه . وبذلك يكون المنبر والقبة أشبه بالهودج . ثم ينزل الوزير وينتظر على باب المنبر (١) .

ويرجع السبب في استعمال الستور إلى أن الخلفاء الفاطميين لم يكونوا كسائر الخطباء يرتجلون خطبتهم التي كانت تعد لهذا الغرض في ديوان الإنشاء . كما يرجع السبب في كتابة آيات من القرآن بخيوط حريرية حمراء ظاهرة على سترين يوضعان على جانبي الخليفة ، أحدهما عن يمينه ليقرأ ما فيه في الركعة الأولى ، والآخر عن يساره ليقرأ ما فيه في الركعة الثانية ، إلى ما قد يتعرض له الخليفة من الدسيان أو التلعثم حال إقامة الصلاة . فقد أثر

(١) ذكر المقرئى أنه إذا لم يكن الوزير صاحب السيف ، بمعنى أنه يجمع في يده كافة السلطات المدنية والعسكرية والقضائية ، قام قاضى القضاة بزر السترين .

عن الخليفة الفاطمي الحاكم أنه برغم شغفه بأن تكون مواكبه في غاية الأبهة ، رأى أن ينيب وزيره في صلاة الجمعة ، لأنه كان يرتج عليه في الخطبة أحيانا .

وكانت الخطبة التي يلقيها الخليفة الفاطمي قصيرة وتشتمل على آية من القرآن . وكان الخليفة يذكر نفسه وأهل بيته بعبارة موجزة ، ويتلو قوله تعالى في سورة النمل ( ٢٧ : ١٩ ) « رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين » . ثم يدعو الخليفة لأبيه وجده ، ولمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، ولعلي كرم الله وجهه ، ولأسلافه الخلفاء ، وأخيرا يدعو لنفسه فيقول : اللهم أنا عبدك وابن عبدك ، لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ، « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنتني السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ( سورة الأعراف ٧ : ١٨٨ ) .

وكان الخليفة يختم خطبته بالدعاء للوزير وينصر الجيش وخذلان الكفار والمشركين . فإذا فرغ من خطبته قال : أذكروا الله يذكركم . ثم يصعد الوزير فيحمل الستين ، ويظل هو وقاضي القضاة على الباب ، ويقوم الاستاذون المحنكون وكبار الموظفين العسكريين والمدنيين بحراسة المقصورة .

بعد ذلك يبدأ الخليفة الصلاة ، فيبلغ عنه الوزير ، ثم قاضي القضاة ثم المؤذنون . فإذا انتهت الصلاة خلا الجامع من الناس ، وخرج الخليفة ، والوزير عن يمينه وقاضي القضاة وداعي الدعاة (١) عن يساره ، ويحيط به حرسه الخاص ، ويعود بموكبه على النحو الذي سار عليه في ذهابه إلى الجامع (٢) .

فإذا انتهت الصلاة استراح الخليفة في الجامع بقدر ما توزع الهبات . فكان يعطى للنائب في الخطابة ثلاثة دنانير ، وللنائب في الصلوات الخمس ثلاثة دنانير ، وللمؤذنين أربعة دنانير ، وللمشرف على خزنة الفرش وفراشها ومتوليها لكل منهم ثلاثة دنانير ، ولصبيان بيت المال ديناران . وقد خصصت رسوم للقراء ، وتعم الصدقات الناس من وقت خروج الخليفة من القصر إلى الجامع حتى يعود (٣) .

(١) كان داعي الدعاة يتبع قاضي القضاة .

(٢) القلقشندي : ج ٣ ص ٥٠٩ — ٥١٢ .

(٣) أبو المحاسن : ( طبعة القاهرة ) ج ٢ ص ١٠٢ — ١٠٤ .



كذلك اهتم الخلفاء الفاطميون بإقامة صلاة العيدين ، فقد ذكر المؤرخون أن الخليفة المعز ركب إلى « مُصَلَّى القاهرة » الذي بناه جوهر خارج باب النصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) . وهنا أقام الصلاة على طريقة الإسماعيلية ، فقرأ في الركعة الأولى : الفاتحة فسورة الغاشية ( سورة رقم ٨٨ ) ، ثم كبر وأطال الركوع والسجود ، فسبح في كل ركعة وسجدة ثلاثين تسبيحة (١) . وكان القاضي محمد بن النعمان يبلغ عنه التكبير .

ثم قرأ الخليفة المعز في الركعة الثانية الفاتحة فسورة الضحى ( سورة رقم ٩٣ ) ، ثم كبر وفعل ما فعله في الركعة الأولى ، وجهر بالبسملة ، مقتديا بعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه . ولما فرغ الخليفة من الصلاة ، صعد المنبر وسلم على الناس يمينا وشمالا فقال : « السلام عليكم ورحمة الله ! » . وكان في أعلى المنبر وسادة من ديباج مُثَقَّل أعدت لجلوس الخليفة بين الخطبتين . وكان يصحب الخليفة على المنبر : جوهر الصقلي وابن عمار من رؤساء قبيلة كتامة المغربية ، وشفيع حامل المظلة .

وبعد ذلك نشر العلبان اللذان كانا على المنبر : ثم قرأ الخليفة خطبة أخرى بدأها بالبسملة جهرا وأعقبها بالتكبير مرتين . وقد ألقى الخليفة المعز الخطبة في خشوع ، وكانت من الفصاحة والتأثير بحيث استدرت دموع المصلين .

ولما فرغ الخليفة من الخطبة والصلاة انصرف في عساكره ، وخلفه أولاده الأربعة بالجواشن والخوذ ، يمتطين الخيل وهم في أحسن زى ، يحف بهم فيلان : فلما وصل الخليفة إلى القصر سمح للناس بالدخول ، فمدت لهم الموائد فأكلوا ما يشتهون (٢) .

### ( ح ) الحج

وكان المسلمون يقيمون الاحتفالات ابتهاجا بحلول موسم الحج ، إذ يتوافد الناس من أمهات مدن العراق كواسط والبصرة والكوفة ، بل من المناطق الواقعة شرقي العراق كفارس وخراسان ، فيجتمعون في بغداد ويقيمون هناك في خيام . وكانت الدولة تهتم

(١) التسبيح في الصلاة هو أن يقال في الركوع : « سبحان ربى العظيم » مرة أو أكثر ، كما يقال في السجود : « سبحان ربى الأعلى » مرة أو أكثر كذلك .

(٢) المقرئى : خطبته ج ١ ص ٤٥١ ، ٤٨٤ و ج ٢ ص ٤٧ و ٣٦٤ . المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ٩٢ .

باستقبال هذه الوفود ، فتعين لهم مواضع لشرب الماء وتقدم لهم الاطعمة وتوفر لهم وسائل الراحة في هذا الموسم . وكان عدد الحجاج يبلغ عدة آلاف . وقد قدر ابن الجوزي هذا العدد بمشرين ألف حاج في سنة ٤٠٦ هـ ( ١٠١٥ م ) (١) .

وكانت شوارع بغداد تزخر بالعامه على اختلاف أعمارهم وأجناسهم لمشاهدة مواكب الحجاج من البلاد المختلفة ، مرتدين الملابس الزاهية .

وكانت الدولة العباسية تعين أمير الحاج ، ويختار عادة من الأشراف الطالبيين ، وتقيم لذلك احتفالا رسميا يحضره السلطان والأشراف وقاضى القضاة والفقهاء . ويقام هذا الاحتفال في دار الخلافة حيث تخلع الخلع على أمير الحج . ومن هؤلاء الذين تقلدوا إمارة الحج : أبو الحسين بن موسى الموسوى سنة ٣٥٤ هـ ( ٩٦٥ م ) ، والشريف المرتضى سنة ٤٠٦ هـ ( ١٠١٥ م ) . ويرجع الاحتفال بتنصيب أمير الحج إلى عهد الخلفاء الراشدين (٢) .

وقد أمدنا الخزرجى (٣) ( ت ٨١٢ / ١٤٠٩ ) بمعلومات قيمة عن التقاليد والحفلات التى كانت تقام ببغداد في موسم الحج . وقد اشتملت هذه المعلومات على بيان بالهدايا التى تقدم والخلع التى تخلع على الناس ، فذكر في حوادث سنة ٦٥٦ هـ أن أم الخليفة المستعصم عزمت على أداء فريضة الحج ، فعين الخليفة أيبك الخاص الدويدار الصغير أميراً للحج ، لحمل معه نفقات الحج ، وهى خمسون ألف دينار ، ومعها الكسوة الشريفة وكسوة حجرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وصدقة فقراء الحرمين ، ومقدرات الكعبة ، ثم أخرجت باقى الثوب (٤) ، وهى سبيل الخاص ، ويشتمل على مائتى جمل ، وسبيل المستنصر بالله ويشتمل على مائة وخمسين جملا ، وسبيل الناصر لدين الله ويشتمل على مائة جمل ، وسبيل أم الخليفة الناصر ويشتمل على ثمانين جملا ، وسبيل الخلاطية زوجة الخليفة الناصر .

(١) المنتظم ج ٨ ص ٤٤ .

(٢) انظر واجبات أمير الحج في كتابى تاريخ الإسلام السياسى ( الطبعة السابعة ١٩٦٤ )

ص ٤٤٠ — ٤٤١ .

(٣) المسجد المسبوك في سيرة الخلفاء والملوك ، مخطوطة مصورة بمكتبة المجمع العلمى العراق

رقم ٥٥ ، ٣ أجزاء ، ورقة ١٦١ .

(٤) جمع سبيل ، ويراد بذلك أن ينسب شخص آخر ليحج عنه نظير اجر معين ، والسبيل أيضا السقاية .

وفي هذه السنة نفسها عازمت أم الخليفة المستنصر على الحج . ففي اليوم الثالث والعشرين من شهر شوال خرجت المحفطان (١) والشمسة (٢) ، وقد ألبست إحدهما في باب الحجر ، وبين يديها أستاذ الدار ووكيل الخليفة وجماعة من الخدم ، وحاشية دار الخلافة مشاة . ثم خرجت جمال باب الحجر ، وهي تروى على ألف جمل تحمل مختلف المواد من بغداد إلى مكة . وقد خصص لكل مادة من المواد التي نقلت معهم عدد معين من هذه الجمال نقل عليها صناديق التشريفات والخيم والسراقات والملابس المعدة للصدقة ، والكسوة والأطعمة والأشربة والحلوى والأبلوج (٣) وجرار الخبز والأواني الزجاجية والنخاز وحوايج المطبخ وآلة الخلاويين والقصابين والخبازين وقرب الماء العذب وعلق الجمال .

وبما ذكره المقرئ نرى أن نفقات قافلة الحج بلغت في عهد وزارة أمير الجيوش بدر الجمالي ١٢٠٠٠٠ دينار ، منها ثمن طيب وحلواء وشمع ١٠٠٠٠٠ دينار ، ونفقة الذين يرافقون الكسوة ٤٠٠٠٠ دينار ، وما يدفع لحماية القافلة وأجر الجمال وحفر الآبار في طريق قافلة الحج ٦٠٠٠٠ دينار . وقد ذكر المقرئ أن نفقات قافلة الحج بلغت في عهد وزارة البازوري ٢٠٠٠٠٠ دينار (٤) .

### ( ٥ ) الحفلات : الزواج

اقرنت حفلات الزواج بالبخ والإسراف وحب الظهور . فإن السلطان طغرل بك الذي تقدمت به السن خطب بعد موت زوجته سنة ٤٥٤ هـ ( ١٠٦١ - ١٠٦٢ م ) ابنة الخليفة العباسي القائم ( وقيل أخته ) . ومع أن هذا الطلب لم يلق قبولا من الخليفة أول الأمر لم يسمعه إلا القبول ، وعقد الزواج في مدينة تبريز على صداق قدره ثلثمائة ألف دينار ، بالإضافة إلى خراج واسط وأعمالها . ثم غادر طغرل بك بغداد إلى بلاد الجبل ( جنوبي بحر الخزر ) ، فوصل إلى الري ومعه ابنة أخيه أرسلان خاتون التي تزوج منها

(١) وتشبه اليهودج : سميت بذلك لأن الجند كانوا يحفون بالخليفة وهو راكب في المناسبات المختلفة .  
(٢) الشمسة الحففة كاليهودج ، والشمسة هي المظلة ، وهي عبارة عن قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب تحمل على رأس الخليفة أو السلطان في العيدين . راجع صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ . والشمسة هي الستور التي تسمى بها الكعبة . وهي أيضاً نافذة مربعة في أعلى الحيطان ، تترك مفتوحة عادة أو تزين بالزجاج لمرور الهواء أو الضوء فقط . انظر ما ذكرته عن هذا اللفظ في كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ( الطبعة الثالثة ص ٥٤١ - ٥٤٢ ) هامش رقم (٤) .

(٣) يضم ألف المهموزة ، ويسميه الناس سكر الثنبات .

(٤) خطب ج ١ ص ٤٥٠ . انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٦٥ .

الخليفة ، فرض السلطان وهو في الطريق ومات في شهر رمضان سنة ٤٥٥ هـ (١).

وقد وصف ابن الأثير (٢) عند كلامه على حوادث سنة ٤٨٠ هـ زواج ابنة السلطان ملكشاه السلجوقي إلى الخليفة العباسي المقتدى (٤٦٧ — ٤٨٧ هـ) والحفلات التي أقيمت بمناسبة هذا الزواج . ففي شهر المحرم من هذه السنة نقل جهاز ابنة السلطان إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي وأربعة وسبعين بفلاً مجللة (مكسوة) بأنواع الديباج ، وعلى ستة منها اثنا عشر صندوقاً من الفضة لا يقدر ماتحويه من الجواهر والحلى بثمن ، كما اشتمل الجهاز على مهد عظيم مزين بطبقة سميكه من الذهب . وقد أرسل الخليفة الوزير أبا شجاع إلى ترکان خانون زوجة السلطان ملكشاه (وكان قد خرج عن بغداد للصيد) ، يحمل التحف والمشاعل ومحفة بلغت غاية الحسن . وقال الوزير لترکان خانون إن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين يذكرنا بقوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) (٣) ، وقد أذن في نقل الوديعة إلى داره ، فأجابت بالسمع والطاعة ، وحضر الوزير نظام الملك ومن معه من أعيان الدولة ، ومع كل منهم عدد كبير من الشمع والمشاعل ، وجاء نساء الأمراء ومن دونهن كل واحدة منهن منفردة في جماعتها وبين أيديهن الشمع والمشاعل يحملها الفرسان . ثم جاءت « الخانن » ابنة السلطان في محفة مزينة بالذهب والجواهر . وقد أحاط بها ماتنا جارية من الأتراك في المراكب الجميلة التي سارت إلى دار الخلافة . وكانت ليلة مشهودة لم يُر ببغداد مثلها . فلما كان الغد دعا الخليفة أمراء السلطان إلى السباط ، وخلع عليهم وعلى كبار القواد ، وأرسل الخلع إلى زوجة السلطان وإلى سائر الأميرات .

وفي سنة ٥٠٢ هـ تزوج الخليفة المستنصر (٤٨٧ — ٥١٢ هـ) أخت السلطان محمد بن ملكشاه بأصبهان على صداق قدره ١٠٠٠٠٠ دينار ، وتولى كتابة العقد القاضي أبو العلاء صاعد النيسابوري . وكان الوزير أحمد بن نظام الملك وكيلًا عن الخليفة . ونثرت الجواهر والدنانير على الحاضرين (٤).

(١) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨ — ٢١ . ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٧ ،

٩ — ١٠ .

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٥٩ — ٦٠ .

(٣) مقتبسة من سورة النحل .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٧٨ و ١٨٣ .

وفي سنة ٥٣١ هـ خطب الخليفة المقتدى (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ) فاطمة ابنة محمد بن ملكشاه . وكان الوزير أبو القاسم الزينبي وكيلًا عن الخليفة في عقد الزواج . وحضر العقد أيضاً أخوها السلطان مسعود ، وقد زُفت فاطمة إلى الخليفة في سنة ٥٣٤ هـ . ويذكر ابن خلكان<sup>(١)</sup> أن فاطمة اشتهرت بحسن التدبير ، ولكنها لم تعمر طويلاً مع الخليفة ، إذ توفيت في ٢٢ ربيع الآخر سنة ٥٤٢ هـ .

وقد أمدنا الخزرجي (ت ٨١٢) <sup>(٢)</sup> بمعلومات قيمة عن زواج مجاهد الدين أيبك الدويدار المستنصرى . ففي ليلة زفاف مجاهد الدين ، أرسل إلى داره كثير من أواني الذهب والفضة والثياب والجواهر يزيد ثمنها على ثلثمائة ألف دينار . وقد عُرِضت الهدايا والتحف على الأمير مجاهد الدين . وكانت تتألف من ممالك الترك والخدم والأحباش والثياب والطيب والخيل وغيرها مما قدمه الزعماء وكبار رجال الدولة ، كما أرسل إليه الخليفة المستنصر (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ) ثلثمائة ألف دينار عينا .

#### ٨ - أوقات الفراغ :

كان الناس يقضون أوقات فراغهم في الاستماع إلى الغناء أو الموسيقى أو في حضور مجالس الوعظ ومجالس القصص أو مشاهدة حفلات سباق الخيل أو اللعب بالطيور وغير ذلك . .

ومجالس الوعظ كالمدارس الشعبية . وقد ظلت المساجد تؤدي مهمة الوعظ حتى أنشئت المدارس ، كالمدرسة النظامية التي أسست في سنة ٤٥٧/١٠٦٤ ، ومدرسة أبي حنيفة (٤٥٩/١٠٦٦) . وتمتاز مجالس الوعظ عن مجالس الثقافة بحضور الناس فيها دون شرط أو قيد . وهي تعالج مسائل الدين والدنيا . ولا شك أنه كان لمجالس الوعظ أثر ملحوظ في حفظ بعض التراث الإسلامي ولا سيما ما يتعلق منه بالقيم والمثل الإسلامية العليا .

ومجالس القصص تستهوي العامة عادة . فهي تعقد في الطرقات وفي المنازل وفي المساجد . ويختلف القاص عن الواعظ في أنه يقص حكايات الأقدمين وما تطوى عليه من شجاعة أو صفات عالية كالنجدة والكرم والوفاء ونحوها . وعمل الواعظ يتطوى على تخويف

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٥ .

(٢) كتاب المسجد المسبوك في سيرة الخلفاء والملوك ، انظر ناجي معروف كتاب المجالس

الشرايية ص ٣١ - ٣٢ .

الناس من عذاب الله وبحض على التمسك بأحكام الدين . ومجالس القصص هي تراث شعبي أصيل ، ورثه العرب عن آباؤهم الأقدمين . لذلك فإن مادة القصص تقوم على ذكر أيام العرب وأخبار الأمم المجاورة .

وقد ذكر القرآن الكريم كلمة « قَصَصَ » في مواضع كثيرة (١) . وهذا دليل واضح على مدى شيوع القصص عند العرب .

وقد تمتع رجال القصص الديني باحترام العامة ورجال الحكم ، على حين وقف الفقهاء من القصاصين العامين موقفا عدائيا ورموهم بالجهل وتضليل العامة .

وقد ذكر نظامي عروضي (٢) أن الأمير طغانشاه بن ألب أرسلان حاكم هراة في عهد أبيه كان ذات يوم يلعب النرد (٣) مع البديهي الشاعر . وكان اللعب على عشرة آلاف دينار . ولما أوشك اللعب على الانتهاء « كان عند الأمير حجران في بيت (٤) » « الشيش » ولأحمد البديهي حجران (٥) في بيت « اليك » واللعب للأمر . فاحتاط كثيراً ، ثم رمى ليأتي « بالدش » فجاء الزهر « هَبَيْكَ » . فغضب الأمير غضبا شديداً وخرج عن طبعه ، واشتد به الغضب ، فكان يمسك السيف كل لحظة ، وارتعدت فرائص الندماء . فقد كان أميراً حدثاً ومَقْمُوراً (٦) محرّجاً (٧) . فنهض أبو بكر الأزرق واقترّب من المطربين وأنشد هذا الدوبيت (٨) .

إذا طلب دوش يأتي الهبيك

حتى لا تظن أن الزهر لا يعدل

فإن هذه « الضربة » التي ضربها هي مقصد الملك

جاءت على الخدمة ساجدة على الأرض (٩) .

(١) أنظر سورة القصص ٢٨ : ٢٥ ، وسورة الأعراف ٧ : ١٠١ ، وسورة يوسف ١٢ : ٣ .

(٢) جهمار مقالته ، ترجمه س ٥١ — ٥٢ .

(٣) وتسمى هذه اللعبة عند جمهور المصريين « الضننة » .

(٤) يعني لأحدى خانات لوحه هذه اللعبة .

(٥) هو حجر من أحجار النرد عليه علامتان .

(٦) أي أنه يلعب القمار .

(٧) أنا في يجب أن يخرج زميله .

(٨) نوع من أوزان الشعر يجري على خلاف محور الشعر التي أفرها العرب وهي ثمانية عشر بحراً .

(٩) يقصد أن الدش قد جاء كما أراد الأمير ، إلا أنه احتراما للأمير قد وضع وجهه على الأرض

فظهر الهبيك . وهذا يدل على مبلغ استهتار الأمراء بالشعوب وأنانيتهم وجهمهم للسيطرة .

وكان السلطان ملكشاه الساجوقى مولما بلعب الجوكان ولعبة اليولو . وكان كثيراً ما يخرج للصيد (١) . اصطاد ذات مرة طيراً كثيراً ، فأمر بعده ، فسكان ، كما قيل ، عشرة آلاف ، فتصدق بعشرة آلاف دينار ، وقال لئنى أخاف من الله كيف ازهدت أرواح هذه الحيوانات دون سبب يدعو لاستعمالها فى الطعام ، وفرق كثيراً من اثياب والاموال بين أصحابه . وكان كلما صاد شيئاً من الطير أو الحيوان تصدق بعدده دنائير (٢) . وقد ضرب المثل بمهارة ملكشاه فى الصيد ، حتى قيل إنه كان يحتفل ببناء المآذن من جماجم وقرور الحيوانات التى اصطادها . وقد بلغ من ولعه بالصيد أنه أمر بأن يحتفظ بسجل خاص لكل ما كان يصيده فى كل مرة ، حتى قيل إن ما صاده بلغ سبعين غزالاً فى اليوم . وقد رأى مؤلف كتاب « راحة الصدور » نفسه أحد هذه السجلات بخط الشاعر أبى طاهر الخاتونى الذى نظم ديواناً يعد من أقدم دواوين الشعر الفارسى ، عنوانه « مناقب الشعراء » (٣) . وليس لهذا الديوان وجود الآن .

وقد سارت مهارة السلطان ملكشاه فى الصيد على كل لسان ، حتى إنه بنى فى السبعينى بطريق مكة منارة من جماجم الحيوانات التى اصطادها بنفسه ، كما بنى منارة أخرى بمائلة ببلاد ما وراء النهر (٤) .

ومن أنواع التسلية للعب بالطيور ويقصد بها الحمام ، وتربيته هواية محببة إلى كثير من الناس (٥) . ولم يكن اللعب بالطيور مقصوراً على العامة ، فقد شاركهم فى ذلك الطبقات الأخرى على اختلاف مستوياتها الاجتماعية . واستمر اللعب بالطيور والاهتمام بها طوال العصر العباسى الثانى . ولكن أكثر الناس كلفاً هم الخصيان . وقد عنى الخلفاء بالطيور فاستخدموها فى المراسلة ، فاقتنوا أجودها وحسنوا سلالتها (٦) .

وقد عملت بعض الحكومات على محاربة هذه الهواية ، لأن بعض الشبان اتخذوها وسيلة للنظر إلى نساء الجيران وإفلاق راحة الناس وما يستتبع ذلك من الصياح ورمى الأحجار وتساقطها على سطوح المنازل المجاورة (٧) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٥٨ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٧٩ .

(٣) Browne, II, 183—184 .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٧٩ .

(٥) الدميرى : حياة الحيوان الكبرى ج ١ ص ٣٢٧ .

(٦) الغزولى : مطلع البدور فى منازل السرور ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٧) الدميرى ج ١ ص ٣٢٧ ، ٣٣٣ .

وكان سباق الخيل من أحب ألوان التسلية عند الخلفاء والامراء والولاة وكبار رجال الدولة . وقد أباح الفقهاء هذه الرياضة على ألا تكون وسيلة للحصول على المال ، لما فيها من إعداد الجنيد لركوب الخيل عند نشوب الحرب . وقد بلغ من شغف الناس بالسباق أن كان السابق يستولى في بعض الأحيان على الحصان المسبوق<sup>(١)</sup> .

وسباق الخيل هواية قديمة في بلاد العراق ، وكان الخلفاء يحرصون على مشاهدة هذه الرياضة . ومن الخلفاء الذين عنوا بها المقتدر ( ت ٣٢٠ هـ ) . كما كان العامة يحرصون على مشاهدة سباق الخيل ويبادرون إلى تهيئة الفائز . وكانت الفروسية ، شأنها في كل زمان ، تستهوى نفوس الشباب ، وأصبح من الشائع التدريب على الرمي<sup>(٢)</sup> .

وقد وصف الفقيه القضاعي ( ت ٤٥٤ هـ ) عرض الخيل فقال إنه من عجائب الإسلام الأربعة ، وهى هذا العرض ورمضان بمكة والعيد بطرسوس والجمعة ببغداد . وقد أضاف هذا الفقيه المؤرخ أنه بقي منها في أيامه شهر رمضان بمكة والجمعة ببغداد<sup>(٣)</sup> .

وكانت حلبة السباق بمثابة الأعياد لما كان يصحبها من إقامة معالم الزينة وركوب الغلمان والعساكر على كثرتهم بالعدد الكاملة والأسلحة التامة . وفي هذه الحلبات يجلس الناس لمشاهدة السباق ، كما جرت عاداتهم بمثل ذلك في الاحتفال بالأعياد .

وقد عنى الخلفاء الفاطميون بعرض الخيل قبل سيرها في الموكب ، فيجلس الخليفة على مرتبة عالية في الشباك<sup>(٤)</sup> .

(١) متر : الحضارة الإسلامية : ترجمة ج ٢ ص ٢١٥ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ج ٩ ص ٤٩ .

(٣) المقرئى : خططه . ج ١ ص ٣١٨ — ٣١٩ .

(٤) وهو بناء مقلق من ثلاث جهات ومفتوح من الجهة الرابعة التي قد يوضع فيها حاجز من

الحديد . المقرئى : خططه ج ١ ص ٤٧٧ .



## مصادر الكتاب

### أولاً - المصادر العربية والفارسية

- ابن الأثير ( ت ٦٣٠ / ١٢٣٢ ) : علي بن أحمد  
١ - السكامل في التاريخ ، ١٢ جزءاً ( القاهرة ١٢٩٠ هـ )  
٢ - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، ج ٢ من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ،  
المؤرخون الشرقيون .  
الإدرسي ( ت ٦٤٩ / ١٢٥١ ) : الشريف محمد بن عبد العزيز  
٣ - نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان ( رومة ١٥٩٢ )  
٤ - المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ( ليدن ١٨٩٤ )  
خريطة الإدريسي ( طبعها كثراد ميلر ١٩٢٦ ) والمجمع العلمي العراقي .  
الإدنى ( ت ٧٤٨ / ١٣٤٧ )  
٥ - الطالع السعيد الجامع أسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ( القاهرة ١٣٣٣ / ١٩١٤ )  
ابن اسفنديار ( ت ٦١٧ / ١٢٢٠ ) : محمد بن الحسن  
٦ - تاريخ طبرستان ، انتهى من تاريخه سنة ٦٠٦ هـ ، ثم أكمله مؤرخ آخر إلى سنة ٧٥٠ هـ  
( ١٣٤٩ م ) . حققه عباس إقبال ( القاهرة ١٣٢٠ هـ )  
ابن لباس ( ت ٩٣٠ / ١٥٢٣ ) محمد بن أحمد  
٧ - بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ويعرف بتاريخ مصر .  
٣ أجزاء ( بولاق ١٣١١ - ١٣١٢ هـ )  
ابن بسام ( ت ٥٤٢ / ١١٤٧ ) : أبو الحسن علي  
٨ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٤ أجزاء ( القاهرة ١٣٥٨ هـ - ١٣٦٣ م )  
ابن بطوطة ( ت ٧٧٩ / ١٣٧٨ ) أبو عبد الله محمد  
٩ - تحفة النظار في غرائب الأمصار ، ٤ أجزاء ، طبعه وترجمه إلى الفرنسية ديفرغيميري  
وسانجويني ( باريس ١٨٦٩ - ١٨٧٩ ) ، والقاهرة ، جزآن ( ١٣٤٦ / ١٩٢٨ ) .  
البقداوي ( ت ٤٦٣ / ١٠٧٠ ) : الحافظ أبو بكر الخطيب  
١٠ - تاريخ بغداد ، ١٤ جزءاً ( القاهرة ١٣٤٩ / ١٩٣١ )  
السكري ( ت ٤٨٧ / ١٠٩٧ ) : عبید الله الأندلسي  
١١ - كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، طبعة دي سلان والطبعة الثانية  
( الجزائر ١٩١١ ) .  
دي بور : ت . ج .  
١٢ - تاريخ الفلسفة في الإسلام ( الترجمة بالانجليزية ، لندن ١٩٣٣ ) ، ترجمة أبي ريذة  
( الطبعة الثانية ، القاهرة )  
البيروني ( ت ٤٤٠ / ١٠٤٨ ) : أبو الريحان محمد  
( م ٤٢ - تاريخ الإسلام ج ٤ )

- ١٣ — الآثار الباقية عن القرون الخالية ، طبعة أ . سخاو ( لندن ١٨٧٩ )  
وليزج ( ١٨٧٨ — ١٨٧٩ ) .
- ١٤ — تاريخ الهند ليزج ( ١٩٢٥ ) ترجمه لى الانجليزية أ . سخاو لندن ( ١٨٨٧ ) .  
التطيلي ( ت ٥٦٩ / ١١٧٣ ) بنيامين التبارى الأندلسى
- ١٥ — رحلة بنيامين ، ترجمة عزرا حداد ( بغداد ١٩٤٥ ) .  
جب : سير هاملتون
- ١٦ — دراسات في حضارة الإسلام ، ترجمه عن الانجليزية لإحسان عباس ، ومحمد نجم ، ومحمود زايد ( بيروت ١٩٦٤ ) .
- ابن جبير ( ت ٦١٤ / ١٢١٧ ) : أبو الحسن محمد
- ١٧ — رحلة ابن جبير ، طبعة و . رايت ( ليدن ١٨٥٢ ) ، ترجمها لى الانجليزية برود هيرست ( لندن ١٨٥٢ ) .
- جرجيس المسكين ( ت ٦٨٠ / ١٢٧٣ ) عبد الله .
- ١٨ — المجموع المبارك ، نشره المستشرق أربليوس مع ترجمته اللاتينية ( ليدن ١٦٢٦ ) ،  
وترجمه فانيير لى الفرنسية ( ١٦٥٧ ) .  
الجزائرى : أبو الحسن على
- ١٩ — زهرة الآس في بناء مدينة فاس ( تلمسان ١٩٢٢ ) ، ( فاس ١٩٢٢ )  
الجمدى : عمر بن على ( ألفه سنة ٥٨٦ هـ )
- ٢٠ — طبقات فقهاء اليمن ، حققه فؤاد سيد ( القاهرة ١٩٥٧ ) .  
الجوزجاني
- ٢١ — كتاب طبقاتى ناصرى ، طبعه نساو ليز ، وترجمه رافيرنى فى سلسلة مكتبة الهند ، ويتناول  
الدول المتصلة بالهند . ألفه بعد فتح بغداد ( ٦٥٦ هـ ) بسنتين
- ابن الجوزى ( ت ٥٩٧ / ١٢٠٠ — ١٢٠١ ) : أبو الفرج عبد الرحمن .
- ٢٢ — المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ( الهند ١٣٥٨ هـ ) .  
الجوينى ( ت ٦٨١ / ١٢٨٣ ) : علاء الدين عطا ملك
- ٢٣ — تاريخ جهان كشا ( أو تاريخ فاتح العالم ) ٣ أجزاء سلسلة مجموعة جب التذكارية  
حققه الأستاذ محمد عبد الوهاب القزوينى ، نشر المستشرق هوتسما الفصلين الثالث والأخير  
من هذا الكتاب .  
شلى : أحمد
- ٢٤ — التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ٣ أجزاء ( القاهرة ١٩٦٠ — ١٩٦٤ )
- ٢٥ — المجتمع الإسلامى ( القاهرة ١٩٦٣ ) .  
حاجى خليفة ( ت ١٠٦٧ / ١٦٥٧ ) : مصطفى
- ٢٦ — كشف الظنون عن أسامى الكتب والقنون ، طبعة فلوجل ، ٧ أجزاء ( ليزج ولندن  
١٨٥٣ — ١٨٥٨ ) .
- ابن حزم ( ت ٤٥٦ / ١٠٦٤ ) أبو محمد على
- ٢٧ — الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ٥ أجزاء ( القاهرة ١٣١٧ هـ ) .

حسين أمين

- ٢٨ - تاريخ العراق في العصر الساجوني ( بغداد ١٣٨٥ / ١٩٦٥ ) .  
ابن خلدون ( ت ٨٠٨ / ١٤٠٥ ) : عبد الرحمن بن محمد  
٢٩ - العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء ( القاهرة ١٢٧٤ هـ ، بيروت ١٨٨٦ م ) .  
٣٠ - مقدمه ابن خلدون ( بيروت ١٩٠٠ ) ، وترجمها لى الفرنسية دى سلان ولى الانجليزية  
روذنتال .  
ابن خلكان ( ت ٦٨١ / ١٢٨١ ) : شمس الدين أحمد .  
٣١ - وفيات الأعيان ، مجلدان ( القاهرة ١٣١٠ هـ ) . ٦٠ مجلدات ( القاهرة ١٩٤٨ ) .  
ترجمه لى الإنجليزية البارون دى سلان .  
الديباغ ( ت ٦٩٦ / ١٢٩٦ ) : عبد الرحمن .  
٣٢ - معالم الإيمان في معرفة أهل الفيوان ، ٤ أجزاء ( تونس ١٣٢٠ هـ ) .  
ابن دقان ( ت ٨٠٩ / ١٤٠٦ ) : إبراهيم بن محمد المصري  
٣٣ - الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ، ٥ ( القاهرة ١٣٠٩ / ١٨٩٣ ) .  
ابن أبى دينار ( ت ١١١٠ / ١٦٩٨ ) : محمد بن أبى القاسم القيروانى  
٣٤ - المونس في ذكر بلاد إفريقية وتونس ( تونس ١٢٨٦ هـ )  
الدورى : عبد العزيز  
٣٥ - النظم الإسلامية ( بغداد ١٩٥٠ )  
٣٦ - دراسات في العصور الإسلامية المتأخرة ( بغداد ١٩٤٥ )  
رشيد الدين ( ت ٧١٨ / ١٣١٨ ) : فضل الله الهمداني  
٣٧ - جامع التواريخ ويتناول تاريخ المغول ، سلسلة جب التذكارية ( لندن ١٩١٠ ) ترجمه  
لى الفرنسية « كترمير » .  
الحريري ( ت ٥١٥ / ١١٢١ ) : أبو محمد القاسم البصري  
٣٨ - مقامات الحريري ( المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة )  
ابن حزم ( ٤٥٦ / ١٠٦٤ ) : أبو محمد على  
٣٩ - الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ٥ أجزاء ( القاهرة ١٣١٧ هـ )  
٤٠ - جبهة أنساب العرب ، طبعة عبد السلام هارون ، دار المعارف ( القاهرة ١٩٦٢ ) .  
حسن إبراهيم حسن  
٤١ - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي الاجتماعي ط ٧ جزء أول ( القاهرة ١٩٦٤ ) ،  
جزء ثان ( القاهرة ١٩٦٤ ) ، جزء ثالث ( القاهرة ١٩٦٥ ) ترجمه لى الفارسية والأردية .  
٤٢ - تاريخ الدولة الفاطمية ، الطبعة الثالثة ( القاهرة ١٩٦٤ ) .  
٤٣ - النظم الإسلامية بالاشتراك ، الطبعة الثالثة ( القاهرة ١٩٦٢ ) .  
٤٤ - اليمن البلاد السعيدة ( القاهرة ١٩٥٨ ) .  
٤٥ - انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ، الطبعة الثانية ( القاهرة ١٩٦٤ ) .  
الراوندى ( ت ٥٩٩ / ١٢٠٢ ) : محمد بن على  
٤٦ - راحة الصدور وآية السرور ، ترجمه إبراهيم أمين ، ونشر النص محمد إقبال ، سلسلة  
جب التذكارية ( لندن ١٩٢١ ) .

زامباور : لإدوارد فون

٤٧ — معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، أخرجه الدكتور زكي محمد حسن ، وحسن أحمد

محمود ، جزآن ( القاهرة ١٩٥١ )

ابن أبي زرع ( ت ٧٢٦ / ١٣٢٦ ) : أبو الحسن علي

٤٨ — الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ( الرباط

( ١٩٣٦ )

زهير ( ت ٦٥٦ / ١٢٥٨ ) : أبو الفضل البهاء

٤٩ — البهاء زهير ( تأليف الشيخ مصطفى عبد الرازق ) القاهرة ١٣٤٨ / ١٩٣٠

زيادة : نيقولا

٥٠ — الحسبة والمحتسب في الإسلام ( بيروت ١٩٦٢ ) .

زيدان : جرجي

٥١ — تاريخ التمدن الإسلامي ، ٥ أجزاء ( القاهرة ١٩٠٢ — ١٩٠٥ ) .

زيدان : عبد الرحمن

٢٢ — إتحاف أعلام الناس بجمال مدينة مكناس ، ٥ أجزاء ( الرباط ١٩٢٩ ) .

٥٣ — العز والصوتة في معالم الرتبة ( الرباط ١٣٨١ / ١٩٦١ ) .

السبكي ( ت ٧٧١ / ١٣٦٩ ) : عبد الوهاب تاج الدين

٥٤ — طبقات الشافعية ، ٦ أجزاء ( القاهرة ١٣٢٤ هـ )

سترينج : جي في

٥٥ — بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمه بشير فرئيس ، مطبعة الرابطة ( بغداد

( ١٣٧٣ / ١٩٥٤ ) .

٥٦ — بلدان الخلافة الشرقية ، مطبعة الرابطة ( بغداد ١٣٧٣ / ١٩٥٤ ) .

السخاوي ( ت ٩٠٢ / ١٤٩٦ ) : أبو الحسن علي

٥٧ — تحفة الأجيال وبغية الطلاب في المخطوط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات ( القاهرة

( ١٣٥٦ / ١٩٣٧ ) .

ابن سعيد ( ت ٦٧٣ / ١٢٧٥ ) : علي بن موسى الأندلسي

٥٨ — كتاب المغرب في حلل المغرب والمشرق في حلل المشرق ( ليدن ١٨٩٨ — ١٨٩٩ ) ،

الساوي : أبو العباس أحمد

٥٩ — الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٤ مجلدات ( القاهرة ١٩١٠ — ١٩١٢ ) .

١٠ مجلدات ( الدار البيضاء ١٩٥٤ ) .

السميرتدي : أحمد بن عمر نظامي عروضي

٦٠ — جهاز مقالة ( ليدن ١٣٢٧ هـ ) ترجمه إلى الإنجليزية لإدوارد براون ، ولى العربية

عزام والحشاب ، مع تعليقات ميرزا محمد .

السماعني ( ت ٥٦٢ / ١١٦٦ — ١١٦٧ ) : القاضي أبو سعيد عبد الكريم .

٦١ — كتاب الأنساب ، سلسلة جب التذكارية ، ج ٢٠ ( لندن ١٩١٢ ) .

ابن سيده ( ت ٤٥٨ / ١٠٦٥ ) : أبو الحسن علي الأندلسي

- ٦٢ — كتاب المختص ، ٢٠ جزء ( القاهرة ١٣٢١ هـ ) .  
السيوطي ( ت ٩١١ / ١٥٠٥ ) : جلال الدين عبد الرحمن  
٦٣ — حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، جزآن ( القاهرة ١٢٣٧ هـ ) ، ترجمه إلى  
الانجليزية هـ . جاريت ( كلكتا ١٨٨١ ) .  
٦٤ — تاريخ الخلفاء ( القاهرة ١٣٥١ هـ ) .  
أبو شامة ( ت ١٢٦٧ / ٦٦٥ ) .  
٦٥ — الروضتين في أخبار الدولتين ، مجموعة تواريخ الحروب الصليبية ، المؤرخون الشرقيون ،  
المجلد الثالث ، ( القاهرة ١٢٨٧ هـ )  
أبو شجاع ( ت ٤٨٨ / ١٠٩٥ ) : محمد بن الحسين الروذراودي  
٦٦ — ذيل كتاب تجارب الأمم لسكويه ، طبعة أمدرود ، ترجمه إلى الإنجليزية أمدرود ، ( أكسفورد  
١٩٢١ ) .  
ابن شداد ( ت ٦٣٢ / ١٢٣٤ ) .  
٦٧ — النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، مجموعة تواريخ الحروب الصليبية ، المؤرخون  
الشرقيون ، المجلد الثالث ، ( القاهرة ١٣١٧ ) .  
الشيزري ( ت - حول ٥٨٩ / ١١٩٣ ) : عبد الرحمن بن نصر  
٦٨ — نهاية الرتبة في طالب الحسبة ، طبعة السيد البياز العريبي ( القاهرة ١٣٦٥ / ١٩٤٦ )  
أبو صالح ( ت ٦٠٥ / ١٢٠٨ ) : الأرمي .  
٦٩ — كتاب كنائس وأديرة مصر ، طبعة ب . إيفيس ( أكسفورد ١٨٩٥ ) .  
الطرطوشي ( ت ٥٢٠ / ١١٢٦ ) : أبو بكر محمد .  
٧٠ — سراج الملوك ( القاهرة ١٢٨٩ هـ ) .  
ابن مطاطبا ( ت ٧٠٩ / ١٣٠٩ ) : محمد بن علي ويعرف بابن اللفطلي .  
٧١ — الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ( القاهرة ١٣٤٥ / ١٩٢٧ ) ، ترجمه  
إلى الإنجليزية هوينج ( لندن ١٩٤٧ ) .  
الطوسي ( ت ٤٦٠ / ١٠٦٧ ) : محمد بن الحسن  
٧٢ — فهرست الشيعة ( كلكتا ١٨٥٥ ) ، النجف ( ١٣٨٠ / ١٩٦١ ) .  
ابن أبي طي ( ت ٦٣٠ / ١٢٣٢ ) : يحيى بن حميدة  
٧٣ — شرح لامية العرب للشنفرى  
ابن عبد الحق ( ت ٧٣٩ / ١٣٣٨ ) .  
٧٤ — مرصد الاطلاع ، أربعة أجزاء ( لندن ١٨٥٣ ) .  
العماد الأصفهاني ( ت ٥٩٧ / ١٢٠٠ - ١٢٠١ ) : أبو عبد الله محمد  
٧٥ — زبدة النصر ونخبة العصرة ، طبعة هوتسا ( آيدن ١٨٨٦ م ) .  
عبد اللطيف ( ت ٦٢٩ / ١٢٣١ ) : موفق الدين البغدادي  
٧٦ — الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر ، نشره وترجمه  
دى سامي ( باريس ١٨١٠ )  
٧٧ — مختصر تاريخ مصر ، ترجمه ج . هوايت ( أكسفورد ١٨٠٠ )

- ٧٨ — سلاجقة إيران والعراق ( القاهرة ١٩٥٩ ) .  
العنبي ( ت ٤٢٨ / ١٠٣٧ ) : أبو نصر
- ٧٩ — حياة السلطان محمود الغزنوي المسمى تاريخ اليميني . جزآن ( القاهرة ١٢٨٦ هـ )  
ابن عذاري ( ت القرن السابع الهجري ) : أبو عبد الله محمد المرزا كشي .
- ٨٠ — البيان المغرب في أخبار المغرب ، ٣ أجزاء ، طبعة دوزي ( لندن ١٨٤٨ - ١٨٥١ ) .  
ابن عربي ( ت ٦٣٨ / ١٢٤٠ ) : عبي الدين
- ٨١ — كتاب فصوص الحكم ( نشره الدكتور أبو الملا عفيفي ( القاهرة ١٩٤٦ ) .  
الغزولي ( ت ٨١٥ / ١٤١٢ ) : علاء الدين الدمشقي
- ٨٢ — مطالع البدور في منازل السرور ( القاهرة ١٣٠٠ هـ )  
علام : عبد الله
- ٨٣ — الدعوة الموحدية بالمغرب ( القاهرة ١٩٦٤ ) .  
العلی : صالح أحمد
- ٨٤ — المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز ( بحث مستقل من المجلد الحادي عشر لمجلة المجمع  
العلمي العراقي ، بغداد ١٣٨٣ / ١٩٦٤ ) .  
عمارة اليميني ( ت ٥٦٩ / ١١٧٤ ) .
- ٨٥ — تاريخ اليمن ( طبعة هنري كاسيل ، لندن ١٨٩٢ ) .  
الغزالي ( ت ٥٠٥ / ١١١١ ) : الإمام أبو حامد
- ٨٦ — لإحياء علوم الدين ، ٤ أجزاء ( القاهرة ١٣٤٨ هـ )
- ٨٧ — المنقذ من الضلال ( دمشق ١٣٥٣ / ١٩٣٤ )
- ٨٨ — بداية النهاية ، ومنه نسخ خطية ، بمكتبات باريس وبرلين والجزائر .
- ٨٩ — فضائح الباطنية ، النص العربي والترجمة الألمانية ( طبعة أ . جولدسيهر ) لندن ١٩١٦ .
- ٩٠ — التجريد في علم التوحيد ، مخطوط بمكتبة الاسكوريال
- ٩١ — تهافت الفلاسفة ، طبع في القاهرة غير مرة ( بمباي ١٣٠٤ هـ )
- أبو الفدا ( ت ٧٣٢ / ١٣٣١ ) : اسماعيل عماد الدين
- ٩٢ — المختصر في أخبار البشر ، ٤ أجزاء ( القسطنطينية ١٢٨٦ هـ ) وجزآن ( القاهرة  
١٣٥١ هـ )
- أبو الفرج ( ت ٦٨٥ / ١٢٨٦ ) : غريغورس أبو الفرج المعروف بابن العبري .
- ٩٣ — مختصر تاريخ الدول ، طبع أكثر من مرة ( بيروت ١٨٩٠ )
- ابن القوطي ( ت ٧٢٣ / ١٣٢٣ ) عبد الرزاق أحمد الصابوني
- ٩٤ — الحوادث الجامعة .  
ابن القاضي : أحمد بن محمد للسكناسي
- ٩٥ — جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس ، مخطوط رقم ١٢٤٢ ( الرباط ) .  
الغزوي ( ت ٦٨٢ / ١٢٨٣ ) : أبو عبد الله زكريا
- ٩٦ — عجائب المخلوقات ( لايبسك ١٨٤٨ - ١٨٤٩ )
- ابن الفلانسى ( ت ٥٥٥ / ١١٦٠ ) : أبو يعلى حمزة

- ٩٧ — ذيل تاريخ دمشق ( بيروت ١٩٠٨ ) .  
الكتبي ( ت ٧٦٤ / ١٣٦٢ ) محمد بن شاكر الحلبي  
٩٨ — فوات الوفيات ، مجلدان ( القاهرة ١٩٥١ )  
ابن كثير ( ت ٧٧٤ / ١٣٧٢ ) : عماد الدين اسماعيل الدمشقي  
٩٩ — البداية والنهاية ، ١٤ جزءاً ( القاهرة ١٣٥١ / ١٩٣٢ )  
ماجد : عبد النعم  
١٠٠ — نظم الفاطميين ورسومهم جزآن ( القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٥ ) .  
الماوردي ( ت ٤٥٠ / ١٠٥٧ ) : أبو الحسن علي البصري  
١٠١ — الأحكام السلطانية ( القاهرة ١٢٩٨ هـ ) وترجم إلى الإنجليزية ك . ا . ج . هويتنج  
( لندن ١٩٤٧ ) .  
١٠٢ — أدب الوزير ، ويعرف بقوانين الوزارة وسياسة الملك ( القاهرة ١٣٤٨ / ١٩٢٩ )  
متر : آدم  
١٠٣ — الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ( ترجمه عن الألمانية والإنجليزية محمد  
عبد الهادي أبو رييدة ، جزآن ( القاهرة ١٩٤٠ - ١٩٤١ )  
المراكشي ( ت ٦٦٩ / ١٢٧٠ ) : عبد الواحد  
١٠٤ — كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، طبعة دوزي ( ليدن ١٨٨١ ) ، وترجمه إلى  
الفرنسية فانيان ( الجزائر ١٨٩٣ ) ، ( القاهرة ١٩٤٩ ) .  
المقدسي ( ت ٣٨٧ / ٩٩٧ ) شمس الدين أبو عبد الله  
١٠٥ — أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ( ليدن ١٨٧٧ ) .  
المقري ( ت ١٠٤١ / ١٦٣٣ ) : أحمد بن محمد التلساني  
١٠٦ — فتح الطيب من غصن الأندلسي الرطيب ، ٤ أجزاء ( القاهرة ١٢٧٩ / ١٨٦٢ ) ،  
١٠ أجزاء ( القاهرة ١٣٦٩ / ١٩٤٩ )  
١٠٧ — أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، ٣ أجزاء ( القاهرة ١٣٥٨ - ١٣٦٠ ) .  
المقريزي ( ت ٨٤٥ / ١٤٤١ ) : تقى الدين أحمد .  
١٠٨ — المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، جزآن ( القاهرة ١٢٧٠ هـ ) .  
١٠٩ — اتعاط الخنفا بأخبار الأئمة الخلفاء ( الفاطميين ) [ بيت المقدس ١٩٠٨ ] ، [ القاهرة  
١٩٤٨ / ١٣٦٧ ] .  
ابن القلانسي ( ت ٥٥٥ / ١١٦٠ ) أبو يعلى حمزة  
١١٠ — ذيل كتاب تاريخ دمشق ( بيروت ١٩٠٨ )  
أبو المحاسن ( ت ٨٧٤ / ١٤٦٩ ) : جمال الدين بن تفرى بردى .  
١١١ — النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٢ جزءاً [ القاهرة ١٣٢٨ - ١٣٧٥ ] .  
ابن ممتا ( ت ٦٠٦ / ١٢٠٩ ) : شرف الدين  
١١٢ — كتاب قوانين الدواوين طبعة عزيز سورريل عطية ( القاهرة ١٩٤٣ ) .  
المؤيد في الدين ( ت ٤٧٠ / ١٠٧٧ ) : الداعي علم الإسلام هبة الله

- ١١٣ — ديوان المؤيد ، نشره محمد كامل حسين ( القاهرة ١٩٤٩ )  
١١٤ — السيرة المؤيدية ، ( القاهرة ١٩٤٩ )  
١١٥ — كتاب المجالس المستنصرية ، نشره محمد كامل حسين  
١١٦ — نبذة تاريخية جامعة في أخبار البربر في القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى  
كتاب « مفاخر البربر » لمؤلف مجهول الاسم ألفه سنة ٧١٢ / ١٣١٢ : نشره بروفنسال  
( الرباط ١٩٣٤ )  
النسوى ( ت قرن ١٣ م ) شهاب الدين محمد .  
١١٧ — سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ( نشره وحققه حافظ أحمد حمدي ) ( القاهرة  
١٩٥٣ ) .  
النسوى ( ت ١٢٧٦ / ١٢٧٧ ) : أبو زكريا بن شرف  
١١٨ — تهذيب الأسماء واللغات ، جزآن [ القاهرة بدون تاريخ ] .  
هلال الصافي ( ت ٤٤٨ / ١٠٥٦ ) : أبو الحسن بن الحسن  
١١٩ — تاريخ ج ٨ [ ٣٨٩ - ٣٩٣ هـ ] . ذيل لكتاب تجارب الأمم لمسكويه ، وترجمه  
مرجليوث .  
١٢٠ — تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، طبعة أمدرود  
الهي : محمد بن أحمد  
١٢١ — المورد الهي ، مخطوط بالخزانة العامة ، الرباط  
ابن واصل — [ ت ٦٩٧ / ١٢٩٧ ] : جمال الدين  
١٢٢ ت مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . طبعة جمال الشيال ، جزآن [ القاهرة ١٩٥٣ -  
١٩٥٧ )  
وصاف الحضرة [ ولد ٦٦٣ هـ ] : عبد الله بن فضل الله مؤرخ حياة غازان  
١٢٣ — تجزئة الأمصار أو « تاريخي وصف »  
ياقوت [ ت ٦٢٦ / ١٢٢٩ ] : شهاب الدين الروي  
١٢٤ — معجم البلدان ، ١٠ أجزاء [ القاهرة ١٣٢٣ / ١٩٠٦ ] .  
١٢٥ — إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، ويعرف باسم معجم الأدباء طبعة سلسلة  
جب التذكارية ، ٧ أجزاء [ القاهرة ١٩٠٧ - ١٩١١ ] .



### ثانياً - المصادر الأفرنجية

- Amari, M.
- 1 — Storia dei musulmani di Sicilia (Firenze, 1854 - 72).  
Amedroz, H.F.
  - 2 — The Office of the *cadi* in the *Ahkâm Sultâniyya* of *Mâwardî* (J.R.A.S., July, 1910).
  - 3 — The *Mazâlîm* jurisdiction in the *Ahkâm Sultâniyya* of *Mâwardî* (J.R.A.S., July, 1911).
  - 4 — The *Hisba* jurisdiction (J.R.A.S., 1916).  
Arnold, Sir T.W.
  - 5 — The Preaching of Islam, a history of the Propagation of the muslim Faith, 3rd ed. by Reynold Nicholson (London, 1935).
  - 6 — The Caliphate, Oxford at the Clarendon Press (1924).
  - 7 — The Legacy of Islam (edited by T.W. Arnold and A. Guillaume) (Oxford, 1931).  
Barker, E.
  - 8 — The Crusades (London, 1925).  
Brockelmann, Carl.
  - 9 — Geschichte der Arabischen Litteratur, 2 vols. (Weimar, 1898-1902).  
Browne : E.
  - 10 — Literary History of Persia  
1. From the Earliest Times until *Firdawsi* (London, 1909). 2. From *Firdawsi* to *Sa'dî* (London, 1906). 3. Persian Literature under Tartar Dominion (1265 - 1502 A.D.). 4. Modern Times (1500 - 1924), (Cambridge, 1930).
  - 11 — An Account of a Rare manuscript History of the Seljuks (London, 1906).  
Cahun
  - 12 — Pan Turanian Movement.  
مقدمة لتاريخ آسيا والأترك والمغول الى سنة ١٤٠٥ م .  
Darmesteter, James
  - 13 — Le Mahdi depuis les origines de l'Islam jusqu' à nos jours (Paris, 1885).  
Dozy, R.
  - 14 — Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu' à la conquête de l'Andalusie par les Almoravides (711 - 1110 A.D.), 4 vols. (Leyden, 1861). Translated into English under the title Spanish Islam by F. G. Stokes (London, 1913).
  - 15 — Histoire des Musulmans d'Espagne (Leyden, 1861).

- 16 — Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes (Amsterdam, 1845).  
Supplément aux Dictionnaires Arabes, 2 vols. (Leyden, 1881).  
Fage, J.D.
- 17 — An Introduction to the History of West Africa (Cambridge at the University Press, 1955).  
Fagnan, E.H.
- 18 — Additions aux dictionnaires arabes (Algier, 1923).
- 19 — L'Afrique Septentrionale au XII siècle de notre ère (Constantine, 1900).  
Fayzee, Asaf A.A.
- 20 — Outlines of Muhammadaw Law (Oxford University Press, 1955).  
Finlay, George
- 21 — History of the Byzantine Empire (716 - 1500), (London, 1856).  
Fischel, Walter J.
- 22 — The Origin of Banking in Mediaeval Islam : A Contribution to the Economic history of the Jews of Baghdad in the tenth century (J.R.A.S., April, 1933).
- 23 — Jews in the Economic and political life of mediaeval Islam (London, 1937).  
Friedlaender, Israël.
- 24 — The Heterodoxies of the Shi'ites in the Presentaion of Ibn Hazm, Journal of the American Society, vols. 28 and 29 (New Haven, 1907 and 1909).  
Gardet.
- 25 — La Cité musulmane (Paris, 1954).  
Gobineau, De
- 26 — Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale (Paris, 1865).  
Goldziher, I.
- 27 — Mohammed anische Studien (Halle, 1888 - 90).
- 28 — Le Aogme et la Loi de l'Islam, trans. by Felix Aren (Paris, 1920),  
Grunebaum, G.E. von.
- 29 — Medieval Islam, A Study in the Cultural Orientation, 2nd ed. The University of Chicago Press (Chicago, Illinois, 1953).
- 30 — Islam, Essays in the Nature and Growth of a Cultural Tradition, Rutledge and Kegan Paul Ltd., London (Chicago, 1955).  
Guyard, S.
- 31 — Unity and Variety in Muslim Civilization (ed. by), The University of Chicago Press (Chicago, 1955).  
Guyard, S.

- 32 — Fragments relatifs à la doctrine des Ismaélis (Paris, 1874).  
Haines, Grove.
- 33 — Africa To Day, ed. by. (Baltimore, 1955).  
Hamdâni, H.
- 34 — Some Unknown Ismâ'ili Authors (J.R.A.S.), 1933.  
Heyd. W.
- 35 — Histoire du Commerce du Levant au Moyen - Age, 2 vols.  
(Leipsiz, 1923).  
Hitti, Philip K.
- 36 — History of the Arabs (5th ed. London, 1953).
- 37 — The Origin of the Islamic State (New York, 1916).  
Houtsma
- 38 — Receuil de textes relatifs à l'Histoire des Seldjoucides (Leyden,  
1889).  
Howorth, Sir Henry
- 39 — History of the Mongols, 3 vols. in 4 parts. (London, 1876 - 1888).  
Huart, C. L.
- 40 — Histoire des Arabes, 2 vols. (Paris, 1912).  
Hughes, Thomas Patrick
- 41 — A Dictionary of Islam (London, 1885).  
Kremer, Von A.
- 42 — Orient Under the Caliphs, translated by Khuda Bukhsh (Calcutta,  
1920 - 1927).  
Lane, Edward W.
- 43 — Arabian Society in the Middle Ages, ed. by Stanley Lane - Poole,  
(London, 1883).
- 44 — Arabic - English Lexicon, 8 parts (London, 1863 - 1893).  
Lane - Poole, Stanley
- 45 — The Story of Cairo (London, 1912).  
ترجمه حسن ابراهيم حسن وآخرون الى العربية بعنوان سيرة القاهرة.
- 46 — History of Egypt in the Middle Ages (London, 1901).
- 47 — Coins and Medals (London, 1892).
- 48 — Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem (London, 1893).
- 49 — The Muhammadaw Dynasties (Paris, 1925).
- 50 — The Moors in Spain (London, 1887).
- 51 — Catalogue of the Collection of Arabia Coins Preserved in the  
Khedivial Library at Cairo (London, 1897).

- 52 — Coinage of Egypt A. H. 358 - 922, Collection of the British Museum, Oriental Coins (1892).  
Lavoix, H.
- 53 — Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale de Paris, Dccoxoi.  
Léon l'Africain, Jean.
- 54 — Description de l'Afrique, trans. by A. Epaulard, 2 vols. (Paris, 1955). English translation under the title : The History and Description of Africa by J. Pory, 3 vols. (London, 1846).  
Levy, Reuben.
- 55 — A Baghdad Chronicle (Cambridge, 1929).
- 56 — The Social Structure of Islam, 2nd ed. (Cambridge at the University Press (1957).  
Lewis, Bernard.
- 57 — The Origins of Ismâilism (Cambridge, 1940).  
Isma'ili Notes Reprinted from the B. S. O. F. S. (University of London), vol. XII, Parts 3 and 4 (1948).
- 58 — The Arabs in History, Hutchison's University Library History (Oxford, 1950).
- 59 — The Fatimids and the Route to India, Extrait de la Revue de la Faculté des Sciences Economiques de l'Université D'Istanbul, 11e année, No. 1 — 4 (Istanbul, 1952).  
Mann, J.
- 60 — The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliph 2 vols. (Oxford, 1920, 1922).  
Migeon, G.
- 61 — Manuel d'Art Musulman, 2 vols. (Paris, 1927).  
Nâsir Khosrau (d. 481/1088).
- 62 — Relation du voyage de Nasiri Khosrau en Syrie, en Palestine, en Egypte, en Arabie et en Perse, Persian Text and Translation by Charles Schefer (Paris, 1881).  
Nicholson, Reynold A.
- 63 — Literary History of the Arabs (Cambridge, 1930).  
Nizâm al - Mulk (d. 485/1092), Hassan al - Tûsî
- 64 — Siasset Naméh, French translation from Persian by C. Schefer, 3 vols. (Paris, 1891 - 97), English translation by Robert Darke (The Book of Government or Rules of Kings) (London, 1960).  
O'Leary, De Lacy.

- 65 — A Short History of the Fatimid Khalifate (London, 1923).  
Pauty, E.
- 66 — Villes spontanées et Villes créées en Islam, Annales de l' Institut  
d'Etudes Orientales, Université d'Alger, IX (1951).  
Provençal, Lévi
- 67 — L'Espagne musulmane au Xe siècle, Institutions et vie sociale  
(Paris, 1932).
- 68 — La Civilisation arabe en Espagne (Paris, 1948).
- 69 — Histoire de l'Espagne musulmane, Tome III C L'Espagne du  
Califat de Cordow (Paris Editions G. P. maisonneuve v Co.,  
1957).  
الشرق الاسلامي والحضارة العربية الأندلسية (تطوان ١٩٥١)  
De Reinaud, M.
- 70 — De l'Art militaire chez les Arabes au Moyen Age, IX/12 (Journal  
Asiatique, 1848).
- 71 — Relations Politiques et commerciales de l'Empire romain avec  
l'Asie Orientale (Journal Asiatique, 1863).  
Ross, D.
- 72 — The Empire of the Seljuk Turks (The Universal History of the  
World, Vol. V.  
De Sacy, Silvestre
- 73 — Exposé de la Religion des Druzes, 2 vols. (Paris, 1838).  
Sanaullah, M. F.
- 74 — The Decline of the Seljukid Empire (Calcutta, 1938).  
De Slane, M.
- 75 — Histoire des Berbères et des dynasties Musulmanes de l'Afrique  
Septentrionale, Introduction (Algiers, 1852).  
Steingass : F.
- 76 — Persian - English Dictionary (London, 1930).  
Stern, G.H.
- 77 — The Succession to the Fatimid imam al - Amir, the claims of the  
later Fatimids to the imamate, and the rise of the Tayyibi  
Ismailism, in Oriens, vol. 4, No. 2 (December, 1951), pp. 193-255.
- 78 — Marriage in Early Islam (London, 1939).  
De Sacy, Silvestre,
- 79 — Crestomathie Arabe, 3 vols., 2nd. ed. (Paris, 1826 - 1827).  
Vasiliev, Alexander A.

- 80 — History of the Byzantine Empire (324 - 1453). (Wisconsin, 1952).  
Whishaw, Bernard
- 81 — Arabic Spain (London, 1912).  
Wiet, Gaston
- 82 — Précis d'Histoire musulmane d'Egypte, 4 vols. (Le Caire - Rome, 1932 - 35), ed. by G. Wiet.
- 83 — Histoire de la Nation Egyptienne, 7 vols. (Paris, 1931 - 40), vol. IV (1939) : L'Egypte Arabe, par G. Wiet (ed. by Hanoutau).  
Wüstenfeld, F.
- 84 — Genealogische Tabellen der Arabischen Stämme und familion (Gottingen, 1852 - 3).
- 85 — Geschichte der Fatimiden Chalifen (Gottingen, 1881).
- 86 — Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke (Gottingen, 1882).  
Sacy, Silvestre de
- 87 — Exposé de la Religion des Druzes, 2 vols. (Paris, 1838).
-

## فهرست

- إبراهيم بن شاه رخ ٩٤  
 إبراهيم النبي ٢٥٥ ، ٤٦٥  
 أبق - معز الدين ٦٣  
 أمين ٤٥٥  
 أنسز ٢٣ ، ٣٥ ، ٥٨ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧  
 ابن الأثير ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٩ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٨ ،  
 ١٩ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٣٨ ، ٤٥ ،  
 ٤٧ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٩٦ ، ٩٩ ،  
 ١٠٢ ، ١١٩ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٤٢ ،  
 ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،  
 ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٩٥ ،  
 ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ،  
 ٣١٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٦٥ ، ٣٧٨ ،  
 ٣٨٤ ، ٤٢٥ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ،  
 ٥٥٣ - ٥٥٦ ، ٥٦٦ ، ٦٢٦ ، ٦٣٢ ،  
 ٦٣٥ ، ٦٤٢ ، ٦٥٤  
 أحمد بن ملكشاه ٢٩  
 الأخرم - الحسن بن حيدر ٢٥٩  
 الأخفش - أبو الحسن علي ٤٨٤  
 أخلاط ٨٥ ، ٨٦ ، ٢٣٤  
 الأدارسة ١٢٥ ، ١٧٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ،  
 ٣١١ ، ٥٨٩  
 الإدريسي ٣٧٥ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٨ ،  
 ٥٨٧ - ٥٨٨ ، ٥٩٥ ، ٦٣٠  
 آران ٨٥ ، ٨٧  
 آرانيا ٤٢ ، ٥١  
 أرييل ٧١ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٥٠ ، ٥٥٥ ،  
 ٥٦٤  
 أرغون ٣١٢ ، ٥٦٠ ، ٥٦٧  
 أرسلان خاتون ١٩ ، ٦٥١  
 أرسلان بن أرغون ٢٤ ، ٣٩  
 أرسلان بن سلجوق ٢ ، ٤ ، ١٠
- أبان بن عثمان ٤٤٠  
 إبراهيم بن عبد الملك ٢٢٣  
 إبراهيم بن يعقوب ٢١٧  
 لبرو - نهر ٣٨٨  
 أنابك - أنابكا ٢٦ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦١ ،  
 ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٧ ،  
 ٨٦ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٠٨ ،  
 ١٥٧ ، ١٨٤ ، ٢٠٩ ، ٣٠٩ ، ٣٢٢ ،  
 ٣٢٣ ، ٣٢٧ ، ٤٢٦ ، ٤٤٨ ، ٥٢٥ ،  
 ٥٥٨  
 أجتاي - أغطاي ٩٢ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ،  
 الجويني ٥١٦  
 الأحباس ٣٥٩ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ ،  
 الأحباس ٢٠٥ ، ٢١١ ، ٦٥٣ ،  
 الأحياء - الحسا ٢٠ ، ٢٤٢ ، ٢٥٧ ،  
 ٣٥٨ ، ٤٠٤  
 أحمد خان ٣٥  
 أحمد بن المدير ٣٢٢  
 أحمد بن يوسف - الكاتب ٣٢٢  
 الإخشيدون ٣٤٣ ، ٣٧٣ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ،  
 ٥٧١ ، ٦٢٨ ، ٥٧٣  
 إخوان الصفا ٣٠٥  
 إدريس الأول ١٢٥ ، ٢٩٣ ، ٣١٠ ،  
 إدريس الثاني ٢٩٠  
 أفريجان ٤ ، ١٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٥٢ ،  
 ٥٣ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٧ ،  
 ٦٨ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٤٥ ،  
 ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ٥٥٩  
 أريان الثاني - البابا ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ،  
 أرتق بن أكسب ٦٣ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٠٤ ،  
 الأرجاني ٤٩٩

١١١ ، ١٢٥ ، ١٥٠ ، ١٨٣ ،  
٢٩٣ ، ٥٩٥ .

أروى الصليحية ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٤٢

الري ١٤ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٧ ،

٥٣ ، ٦٨ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٤ ، ٩٨ ،

١١٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ٢٦٩ ،

٣٢٥ ، ٤٢٠ ، ٥٧٥ ، ٦٥١

أسامة بن منقذ ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٣ ،

٥٥٥ ، ٥٧٤

لمسحاق بن حنين ٥١٥

الأسطول ٤٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ،

٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ،

٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٥ ، ٣٩٤ ،

٤٠٠ ، ٤٠٩

الأسطول البيزنطي ٢٣٥

الأسطول الموحدى ٢٢٩

الأسطول المصرى ٢٢٩

الإسماعيلية ١٣ ، ٣٥ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،

١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٩٧ ،

١٩٨ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ،

٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ،

٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،

٢٧٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٢ ،

٢٧٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٢ ،

٢٧٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٢ ،

٢٧٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٢ ،

٦٢٩ ، ٦٢٩

آسيا ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٧ ،

١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ٢٥٠ ، ٢٤٨ ،

٣٠٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٥٦٩

أشباخ ١٢٢

أشبوته - لشبوته ١٢٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ،

الأشرف - الملك ٧٨ ، ٨٦ ، ١٣٥ ، ١٤٥ ،

الأشعري - الحسين ٥٦٣

أرسوف ١٠٩ ، ١١٠

الأرك - موقعة ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ،

٢٣٠ ، ٦٠١ ، ٦٢٤

الأرمن - أرمني ٢٢ ، ٢٤ ، ٨٥ ، ١٨٠ ،

١٨٣ ، ١٨٤ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ،

الرها ٢٨ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨١ ،

٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٣٦١ ، ٦٠٩ ،

الأزهر ٣٨٥ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٩ ،

٦٠٢ ، ٦٠٨ ، ٦١٦ ، ٦١٩ - ٦٣٨ ،

٦٤٥ ، ٦٤٦

أسامة بن زيد ٣٩٠

أستراخان ١٣١

أسد آباد ٤١

أسماء بنت شهاب زوجة الصليحي ٢٠٠ ،

٢٠٤ ، ٢٠٥

إسماعيل بن جعفر ٥٧٥ ، ٥٧٧

إسماعيل بن طغتكين ٢١٤

إسماعيل بن لؤلؤ ٦٤

إسماعيل بن نور الدين ٧٧ ، ٧٨ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ،

الإسكندرية ١٢٤ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،

١٨٦ ، ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٨ ،

٢٢٩ ، ٢٩٥ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٧٣ ،

٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ،

٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ،

٤٠٩ ، ٤٣٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٣ ، ٤٨٢ ،

٤٨٦ ، ٥٣٦ ، ٥٦٤ ، ٥٨٤ ، ٦١٩ ،

٦٢٨

إسوان ٣٩٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٦٢٠ ،

آسيا الصغرى ١ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٦٧ ، ٨٥ ،

٨٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٥٤ ، ٢٣٤ ،

٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ،

٣٠٩ ، ٣٨٨ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٥٨٧ ،

أرسطو ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،

٥٤٣ ، ٥٤٥ ، ٥٤٧

أرمينية ٤٢ ، ٦١ ، ٧٥ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ،





السكيس ٢٥١

أيوب بن طفتكين ٢١٤

الأيوبيون ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٧ ، ٧٨ ،

٨٢ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٤ - ١١٥ ،

١٩٧ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ،

٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،

٢٢٨ ، ٢٤٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٢٧٥ ،

٣٨٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ،

٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ،

٥٧٩ ، ٥٩١ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٢٧ ،

٦٢٨ ، ٦٣٨ ، ٦٤٢

أورشليم ١١٣ ، ٢٤٧

أونك خان ١٣٦

إيران - فارس ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،

١٠٤ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،

٥٨٦

أينال - إبراهيم ٥ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ،

الأوزاعي ٤٥٠

أيك - عز الدين ٣٢٢ ، ٣٢٧ ،

أيل أرسلان ٩٨

اياغازي ٤١ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٣٦٦ ،

السكيس - الامبراطور ٢٤٦

ب

باب الأبواب ٤٢ ، ٣٤١

البابا ١٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ،

ابن باشا ٤٧٣

باب كلواذي ١٥٩

البابين - موقعة ١٩١

باتون جوجي ١٥١ ، ١٥٢ ،

ابن باجه ٢٤٤ ، ٢٤٧ - ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،

باجو ١٥٧ ، ١٥٨ ،

باريس ١٢٢ ، ٥٤٧ ، ٥٧١ ، ٥٨٠ ،

باشر - تل ٦٨ ، ١٨٣

٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ،

٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ،

٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٣ ،

٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ،

٥٣٧ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ،

٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ،

٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ،

٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ،

٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ،

٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ،

أنوسنت الثالث - البابا ٢٥١

أنوشكين ٢٦ ، ٩٥ ، ٩٧ ،

أنوشروان - كسرى ٤٢٧

الأهواز ١٤ ، ٢١٦ ، ٤٥٢ ،

أوتو - الامبراطور ٣٣٢

أورال - جبال ٩٦

الأنبار ٣٢٤

إندونيسيا ٤٠١

أنطاكيا ٢٩ ، ١١٠ ، ١٨١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،

٢٤٩ ، ٢٧٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ،

٤٠٨ ، ٤١٩ ،

أنوشروان - خالد ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ،

٥٥٨ ، ٥٥٩ ،

أوال - جزيرة ٢٥٦ ، ٢٥٨ ،

أودغشت ٣١٢

أوربة - قبيلة بربرية ١٢٥ ، ٢٢٢ ، ٢٩٠ ،

أوزون حسن ٣١٩

أوغنده ٢ ، ٤

أوباز ٢٤ ، ٢٦ ، ٤٣ ،

أيك - قطب الدين ١٧١

إيطاليا ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٧٣ ،

٣٧٥ ، ٤٠٨ ، ٥٤٦ ، ٦٣٩ ،

أيسلة ٤٠٧

إيلك خان ٤

- الباطنية ١٣ ، ٢١ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ،  
 ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ،  
 ، ٧٤ ، ٧٣ ، ١٨٢ ، في فارس والشام  
 ، ٢٦٨ - ٢٧٩ ، ٣٢٤ ، ٣٤٤ ، ٤٤٢ ،  
 - ٤٤٥ ، ٤٦٣ ، في رأى المؤيد ٤٦٤ -  
 ٥٣٦ ، ٤٦٦
- باميان ١٠٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ،  
 ١٧٧
- باناس ٥٢
- بايزيد الثاني العثماني ١٣٠
- بجاية ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٩٥ ،  
 ٤١٧ ، ٣٧٦
- البحيرة - موقعة بالمغرب ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٧٠ ،  
 البحرين ٩٤ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩
- بخارى ١ ، ٢ ، ٢٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ،  
 ، ١٤٤ ، ٣٤٤ ، ٤٠٥ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ،  
 ٥٧٥ ، ٥٦٣ ، ٥٢٦
- البخارى ٣٦ ، ٤٤٦ - ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٧٩ ،  
 بغير الجمالى ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ٢٠٦ ،  
 ، ٣٣٠ ، ٣٢٩ ، ٣٢١ ، ٣١٣ ، ٢٦٨ ،  
 ، ٣٨٠ ، ٣٧٩ ، ٣٥٧ ، ٣٥٦ ، ٣٥٥ ،  
 ، ٥٩٤ ، ٥٩٢ ، ٤٨٤ ، ٤٥٣ ، ٤٣٢ ،  
 ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦٢٠ ، ٦٣٥ ،  
 ٦٥١
- البيعية ١٨٢
- براك حاجب ٩٢
- البرامكة ٣٠ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٢٢ ،  
 ٥٦٤ ، ٣٣٥
- البرانس - جبال ١١٩
- البرانس - قبيلة مغربية ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،  
 البربر ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٢١ ،  
 ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٩ ، ٣١١ ،  
 ، ٣٨٢ ، ٤٠٠ ، ٤١٢ ، ٥٢٩ ، ٥٩٥ ،  
 ٦٣٠ ، ٦٢٨ ، ٦٢٥ ، ٦٠٠
- البرتغال ١٢٨
- برغواطة - البرغواطيين ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ،  
 ٢٩١ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩
- البقوى - الفراء ٣٦ ، ٤٤٧
- بركياروق بن ملكشاه ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٥ ،  
 ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ - ٤٣ ، ٦٣ ، ٦٨ ،  
 ٦٤٢ ، ٢٢٨ ، ٣٢٧ ، ٩٥
- بروقانس - مقاطعة بفرنسا ٤٠٤ ، ٤٠٥ ،  
 ابن برى النحوى ٤٧٣ - ٤٧٦
- البريد ٣٤٣
- البياسيرى - أبو الحارث ١١ - ١٧ ، ١٤١ ،  
 ٢٣٧ ، ٤٥٢ ، ٥٧٨ ، ٦٣٣
- بست ١٠ ، ١٠١ ، ١٥٢ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ،  
 ابن بسطام - التبريزى اللغوى ٣٦ ، ٤٧٥ ،  
 ابن بشكوال ٤٤١ ، ٥٨٣
- البصرة ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٩ ، ٧٠ ،  
 ، ٢١٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٦ ، ٤٠٥ ،  
 ، ٤٠٦ ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤٥٣ ،  
 ٤٧٤ ، ٥٠٤ ، ٥٦٤ ، ٦٠٥ ، ٦٤٩
- البطائح ٤٢
- ابن البطائحي - الوزير المأمون ٣٣٠ ، ٣٨٠ ،  
 بطرس الناسك ٢٤٤ ، ٤٢٥
- ابن بطلان - الطبيب ٥١٩
- البطليوسى النحوى الأندلسى ٤٧٣
- ابن بطوطة ٥٦٧
- بعقوبا - درب شرق بغداد ١٥٩
- بعليك ١٠٤ ، ١٠٨ ، ٣٤٤
- بغداد البياسيرى يهدد بغداد ١١ - ١٩ ، ٢١ ،  
 في عهد ملكشاه ٢٧ - ٢٩
- المدرسة النظامية في بغداد ٣١ ، ٣٧ ، ٣٨ ،  
 ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ،  
 ٥٠ في عهد مسعود بن محمد بن ملكشاه  
 ٥٢ - ٥٨ ، علاقة عماد الدين زنكى  
 ببغداد ٦٩ - ٧٣ ، ١١٧ سقوط بغداد  
 ، ١٥٤ - ١٦٣ ، ٢١٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،  
 ، ٢٩٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ،

٢٣١ بمبلونه  
بهاء الدين سام الغوري ١٤٦ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ،  
١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥  
البهاء زهير ٤٨٩ - ٤٩١  
البهائية ٥٤٨  
بهرام الأرمي ١٨٣ ، ١٨٤  
بهرام شاه ٣٥ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦  
البهيرة ٢٤٢ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧  
البهنسا ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٥٧٢  
البوذية ١٣٤ ، ١٥٢  
البوسفور ٢٤٦  
بولنده ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٢  
البويهون - بنو بويه - في أواخر عهدهم  
١٠ - ١٧ ، ٣١ ، ٤١ ، ٢٣٥ ،  
٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٤٣ ، ٤٢٠ ، ٥٥٤ ،  
٦٢٦  
بيبرس ١١٤ ، ١١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ،  
٣٢٤ ، ٤٠٨ ، ٥٣٨  
بيت المال ٤٠ ، ٥٠ ، ١٠٥ ، ١٨٦ ، ١٩٥ ،  
٣٤٠ ، ٣٤٦ - ٣٥٩ ، ٣٧٧ ،  
٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٤٢٨ ، ٤٣٧ ، ٦٠٦ ،  
٦١٣ ، ٦٤٦  
بيت المقدس ٢٣ ، ٤٥ ، ٨١ ، ١١٠ ، ١١٥ ،  
١١٦ ، ١٨٩ ، ١٨٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ،  
٢٤٧ ، ٣١٢ ، ٤٠٨ ، ٤٥٣ ، ٥٠٨ ،  
٥٣٢ ، ٥٥٤ ، ٥٨٤ ، ٥٩١  
بيدار - التتاري ١٥١ ، ١٥٢  
البيدق - أبو بكر الصنهاجي ٢٩٣ ، ٢٩٥ ،  
٣٠٢  
بيروت ٥٦٠ ، ٥٧٣  
البيروني ٣٠٣ ، ٥٢٤ ، ٥٥٢ - ٥٥٣ ،  
٥٦٦ ، ٥٨٣  
بيزه ٢٤٤  
البيزنطيون ٢١ ، ٢٢ ، ٨٥ ، ١٦٤ ، ٢٣٤ ،  
٢٣٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤

٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ،  
٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٤٣ ،  
٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ،  
٣٦٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٩٧ ،  
٤٠٠ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤١٦ ، ٤٢١ ،  
٤٢٥ ، ٤٣٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٨ ، ٤٥٢ ،  
٤٥٣ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ،  
٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، ٤٩٤ ، ٥١٩ ،  
٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٣٢ ، ٥٤٧ ، ٥٥٥ ،  
٥٥٧ ، ٥٥٦ ، ٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٥٧٤ ،  
٥٧٨ ، ٥٨١ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٩ ،  
٥٩٠ ، ٥٩٧ ، ٦٠٥ ، ٦٢٢ ، ٦٢٥ ،  
٦٢٦ ، ٦٣٢ ، ٦٤٤ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ،  
٦٥١ ، ٦٥٦  
البغدادى - الخطيب ١٥ ، ٢٧ ، ٥٥٣ ،  
٥٥٦ ، ٥٦٦  
البغدادى - عبد اللطيف ١١٢  
بغراخان - ملك تركستان ٢ ، ٤  
ابن بطوطة ٥٦٧  
البغوى - الفراء ٣٦ ، ٤٤٧  
بقراط - أبقراط ٥١٧ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٣١ ،  
أبو بكر بن عمر ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٦٤٢  
أبو بكر - الصديق ٢٠٢ ، ٥٥٧ ، ٥٨٤  
البكبرى - أبو عبيد ٥٦٥ ، ٥٨٠ ، ٥٨٤  
بكين ١٣٤ ، ١٥٤  
بلال بن نجاح اليمى ٢٠٦  
بلبيس ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢  
بلخ ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ٥٨ ، ٩٦ ، ١٤٠ ،  
١٤٣ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ،  
٥٢٦  
الباغى - سيد الدين أبو بكر ٣٦ ، ٥٠٨ ،  
بلدوين - ملك بيت المقدس ٤٥ ، ٨١ ، ٢٤٧ ،  
بلنسية ١٢٤ ، ٢٢٥ ، ٤٥٣ ، ٤٧٣ ، ٥١٢ ،  
٥٨٤ ، ٦٣٠  
البليار - جزائر ٣٧٥

٥٧٠ ، ٥٦٩  
نفس ٢٤ ، ٣٩ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٨٠  
التجنجنية - لإحدى فرق النصرية ٢٦٧  
تركان خاتون - زوجة ملكشاه ٢٩ ، ٣٢ ،  
٦٥٢ ، ٦٤١ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ٣٧ ، ٣٣  
تركان ٩٨ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،  
٢٦٧ ، ١٥٤  
التركان ٦٧ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ١٠٣ ، ١٣١ ،  
١٤٥ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،  
٣٦٢ ، ١٩٥  
تركيا ٢٦٧ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٦٢٦ ،  
٦٤٢ ، ٦٢٧  
ترمد - الترمذى ٢٦ ، ٩٦ ، ٤٤٧  
آستر - أشهر مدن خوزستان ٣٩٣  
القسرى - نوع من الحرير ٣٩٣  
تغر بالين ٢١٦  
التفسير ٣٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢ - ٤٤٦ ،  
٥٥٧  
تقليس ٨٧ ، ١٤٥ ، ١٥٠  
تقاق أبو ساجوق ٣  
تكريت ٤٢ ، ٤٣ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٨٠ ،  
١٠٤ ، ١٣٤  
تكش بن ملكشاه ٢٤ ، ٩٧ ، ٦٨  
تلسان - مدينة بالجزائر ١٢٩ ، ٢١٩ ،  
٢٢٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٣١١ ،  
٣٧٦ ، ٤١٧ ، ٥٨٩  
تيمكتو - قرب نهر النيجر ٣١١  
تيم بن يوسف بن ناشفين ١٢٧  
تيس - جزيره وبلدة بمصر ٣٧٣ ، ٣٩٢ ،  
٣٩٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٦  
تهامه ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٤٨٢ ، ٤٨٦ ،  
٨٧ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ٢٠٩ ،  
٢١٤ ، ٣٢٣  
ابن تومرت - المهدي محمد ١٢٥ ، ٢١٩ ،

٤١٨ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٥٧٦ ، ٦٠١ ،  
٦٤٤ ، ٦١٥  
بيسان ٥٠٨  
البيسانى - القاضى القاضل ٣٣٤ ، ٤٢٦ ،  
٤٣٢ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠  
ابن البيطار ٣٨٨  
بيغو ٢ ، ٤ ، ١٠  
بيارستان ٥٢٢ ، ٥٢٣  
بيهق - البيهقية ٥٨ ، ٤٢٥ ، ٦٠٦ ،

( ت )

تاجه - نهر بالأندلس ٢٣٨  
تارودانت - مدينة بالمغرب ١١٨ ، ٢٨٨  
تازا - مدينة بالمغرب ٢٢٢  
ابن ناشفين - يوسف ١١٨ - ١٢٥ ، ١٢٦ ،  
٢٨٧ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ،  
ابن ناشفين - على ١٢٥ - ١٢٩ ، ٣٠٢ ،  
٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٣٦ ،  
٣٣٩ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٥ ، ٤٠٣ ،  
٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٤١ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ،  
٤٨٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ،  
٥١٤ ، ٥٢٩ ، ٥٣٣ ، ٥٣٨ ، ٥٨٠ ،  
٥٨٩ ، ٥٩٧ ، ٦٢٨ ، ٦٣٥ ، ٦٤٢ ،  
٦٤٣  
تاتكرد - أحد قواد الصليبيين ٢٤٧  
تايلاند ٤٠١  
تبريز ٥٣ ، ٥٤ ، ٨٧ ، ١٤٥ ، ٣٩١ ،  
٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٦٥١  
التبت ٥٤ ، ٤٠٠  
التتار - المقول ١ ، ١٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٩٤ ،  
١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٠ - ١٦٣ ،  
٢٦٤ ، ٣٠٩ ، ٣١٧ ، ٣٦٣ ، ٤٢١ ،  
٤٣٠ ، ٤٥٤ ، ٤٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٦١ ،  
٥٦٢ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ،





٤٣٩ ٤٤٥ ٤٤٥ ٤٥٥ ٤٥٧٥  
 ٦٥٣ ٤٥٧٧ ٤٥٧٦  
 أبو حنيفة النعمان المغربي ٤٢٨ ٤٤٥١  
 ٥٧٧ - ٥٧٥  
 ابن حوشب - الداعي اليميني ١٩٧ ٤١٩٨  
 ٥٢٨ ٤٤٥٥ ٤٢٤١  
 ابن حوقل ٥٩١  
 حيدرآباد - موقعة ٢٠٣ ٢٣٩  
 ابن حيوس ١٢٤

(خ)

خازن ديوان الحكم ٣٧٨  
 خازن بيت المال ٣٥٩  
 خاصبك بن بنكري - أحد أمراء السلاجقة ٥٨  
 خان - خانات ٦٢  
 خانقاه - خوانق ٣٤٧  
 خاقين - بالمعراق ١٥٨  
 ختكين - داعي دعاة الاسماعيلية ٢٦١  
 الخراج ٢ ٤٢٣٠ ٤١٨٩ ٤١٥٩ ٤٢٥ ٤٣٥  
 ٤٣٩ ٤٢٤٦ - ٣٤٧ ٤٢٣٩  
 ٣٥٧ ٣٥٦ ٣٥٥ ٣٥٠ ٣٤٩  
 ٤١٧ ٤٣٩٠ ٤٣٨٣ ٤٣٧٧ ٤٣٧٦  
 ٦٥١ ٤٥٧٣ ٤٥٦٢ ٤٤٨٩  
 خراسان ٤ ٤١٠ ٤٢٨ ٤٣٠ ٤٣١  
 ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢  
 ٤٤٧ ٤٥١ ٤٥٩ ٤٥٣ ٤٥١  
 ٤٩٨ ٤٩٥ ٤١٠٠ ٤١٠١ ٤١٠٢  
 ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨  
 ١٦٩ ١٧٠ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٧  
 ٢٥٩ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧٢ ٢٧٣  
 ٣٦٠ ٣٦٢ ٣٦٤ ٣٩١  
 ٤٠٥ ٤٢١ ٤٢٥ ٤٢٣  
 ٤٧٨ ٤٥٦ ٥٦٢ ٥٦٣  
 ٥٦٥ ٥٧٥ ٥٨٤ ٥٨٥

الحسين المختب ٢٩٦ ٣٤٥ ٣٧٧ ٣٨٤  
 ٣٨٦ ٤٥٧٣ ٤٦٠ ٤٦١  
 الحسين بن علي ٢٨ ٤٤٦  
 الحسين بن القاسم الرسي ٢١٦  
 الحشاشين - الباطنية ١٠٣ ٢٧٠ ٢٧٣  
 ٢٧٥ ٥٥٧  
 الحضري - أبو الحسن علي ٤٩٨ - ٥٠١  
 حضرموت ٢١٥ ٤٠٢  
 ابن الحضري - أبو الربيع سليمان ٣٠٠  
 حطين - موقعة ١٠٩ ١١١  
 أبو حفص الصنهاجي ٣٠٠  
 الحفصيون ٣١٩  
 حلب ٢٢ ٢٨ ٤٩ ٦٢ ٦٣ ٦٧  
 ٦٨ ٧٠ ٧٤ ٧٦ ٧٨ ٨١  
 ١٠٤ ١٠٨ ١٠٩ ١١٣ ١٤٦  
 ١٨٨ ٢٦٥ ٣٢٢ ٣٤٤ ٣٤٩  
 ٣٧٤ ٣٩٤ ٤٢١ ٤٢٧ ٤٤٧  
 ٤٨٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٦٢ ٥٦٤  
 ٥٧٢ ٥٧٣ ٦٠٦ ٦١٣  
 الحلة ٤٠ ٤٣ ٤٤ ٤٩ ٦٩ ٧٠  
 ٧٢ ٧٣ ٥٨٦ ٥٢٨ ٢٦٥  
 حلوان ١٦ ١٣٤ ٣٤٤ ٣٩٠  
 حمام - حمامات ٣٨ ٣٨٥ ٦٠٣ ٦٠٦  
 ٦١٣ ٦٣٤ ٦٣٢ ٦٤٠  
 حمام الزاجل ٣٤٣ ٣٤٤ ٦١٣  
 حمام ٦٧ ١٠٨ ١١٣ ٢٦٥ ٣٤٤  
 ٥٨٥  
 ابن حمد بن ٤٥٦  
 حمزة بن علي الدرزي ٢٦١ - ٢٦٤  
 حمص ٢٨ ٦٧ ٧١ ٧٤ ١٠٨ ١٠٤  
 ١١٣ ٢٦٥ ٣٤٤ ٤٨٥  
 ابن حنبل - الحنابلة ٢٨ ٤٤٧ ٤٤٦  
 ٤٧٢ ٦٠٧ ٦٢٦ ٦٣١  
 أبو حنيفة الإمام الأعظم - الحنفية ٢٨ ١٧٣  
 ١٨٢ ٢٢٦ ٢٢٨ ٢٩٤ ٣٧٧



الحوارزمية - الدولة ٤٨١ ٤٣٩ ٤٢٦ ٤١  
١٣٤ ٤١٣٣ ٤١٠٤ ٤٩٤ ٤٨٧  
خوزستان ٤٢ ٤٩٦ ٤٣٨٤ ٤٣٨٧  
٤٢٧ ٤٣٩٣ ٤٣٩١  
خبوه - بيلاد خوارزم ٤٢٠

( د )

دار الإسلام ٢ ٤٣٤٨ ٤٣٥٣ ٤٣٥٤  
دار الإمارة ٤ ٤١٧٥ ٤٣٤٨ ٤٣٥٤  
دار الحديث - المدرسة السكلمية ٦٠٨  
دار الحرب ٢ ٤٣٤٨ ٤٣٥٣ ٤٣٥٤  
دار المحكمة ٢٥٩ ٤٢٧ ٤٤٣٠ ٤٤٣١ ٤٥١

دار السلطنة ٥٤  
دار العلم ١٨٢ ٤٣١  
دار الضرب ٣٤١ - ٣٤٢ ٦١٦  
دار النيابة ٦١٣  
داعي الدماء ١٢ ٤١٩٨ ٤٢٤١ ٤٢٦٩  
٤٢٧٢ ٤٣٤٠ ٤٣٤١ ٤٢٧٢ - ٤٤٣٠  
٤٥٢ ٤٤٦٢ ٤٥٧٦ ٤٥٧٨ ٦٤٨

دامغان ١٠ ٢٦٩  
دانية الجزائر ١٢٤ ٤٧٧ ٦٣٠  
الدانبارك ٥٨٨  
داهستان ٤  
داود بن سلجوق ٢ ٤٤٤ ٤٥٠ ٤١٠ ٢٠  
داود بن علي ١٢ ١٨

ديس بن صدقة ٤٤ ٤٧ - ٤٩ ٤٥١ ٦٩ -  
٧٣ ٣٢٦ ٣٢٨ ٣٦٥ ٣٦٦  
دجلة - نهر ٣٨ ٤٩ ٤١٤ ١٣٤  
١٥٨ ٣٠٩ ٣٤٤ ٣٦٥ ٤٤٠ -  
٤٠٠ ٤٧١ ٤٨٩

دجيل ١٥٨  
أبو الدرداء ٤٤٠  
الدرزية - الدرروز ٢٥٧ ٢٥٨ ٤٤٤٤  
٢٥٩ - ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٧ ٤٥١

٦٥٠ ٦٠٦ ٦٢٥ ٦٢٧ ٦٤٩  
خزانة المدرسة الأفضلية ٤٨٢  
الخرز - قزوين ٢٢ ٤٠٥ ٥٧٠  
خسروشاه بن بهرام شاه ١٦٦ ١٦٨  
ابن المشاب البغدادي ٤٤١ ٤٧١ ٤٧٢  
الحشي - مؤسس التصيرية ٢٦٦  
ابن أبي الحصال - من كتاب النثر بالمغرب  
٥١١ - ٥١٣

الخطا ٩٢ ٤٩٨ ٤١٠١ ١٣٤ ١٦٩ -  
١٧٣ ١٧٧  
ابن خلدون ١١٦ ٢٢٨ ٢٨٩ ٢٩٠  
٢٩٣ ٢٩٥ ٢٩٨ ٣٠٦ ٣٠٥  
٣١١ ٣١٤ ٣١٦ ٣٣٦ ٣٣٥  
٣٤٦ ٤٣٤ ٤٤٠ ٤٤٩ ٤٥٠  
٤٦٧ ٤٧٧ ٥٣٢ ٥٥٧ ٥٦٧

٥٩٨  
ابن خلكان ١ ٢٩ ٣٠ ٤٣ ٤٦  
٥١ ٥٩ ١١٢ ١١٤ ١٤٦  
١٨٥ ٣٢٥ ٣٢٧ ٤٢٥  
٤٣٤ ٤٤٢ ٤٤٤ ٤٤٧ ٤٤٥  
٤٧٤ ٤٧٦ ٤٨٩ ٥٢٨ ٥٢٠  
٥٣٣ ٥٥٤ ٥٥٧ ٥٦٢ ٥٦٤  
٥٦٧ ٥٧٢ ٦٣٣ ٦٥٣

الحليل بن أحمد ٤٧٤ ٤٧٥  
الحنديق - موقعة شمالي الأحساء ٢٥٨ ٢٥٩  
الحوارج ٣٠٦ ٤٦٨  
خوارزم - خوارزمشاه ١٥ ٣٥ ٤٧  
٥٣ ٥٨ ٦١ ٦٢ ٨٧ ٨١  
٩٤ ٩٦ ٩٨ ١٠٢ ١٣٠  
١٣٤ ١٣٥ ١٣٩ ١٤١ ١٤١  
١٤٧ ١٥٠ ١٥١ ١٦٨ -  
١٧٠ ١٧٥ ١٧٦ ٣٠٩ ٤٢٠  
٤٢١ ٥٥٧ ٥٥٩ ٥٦١ ٥٦٥  
٥٨١ ٥٦٦  
خوارزمشاه - علاء الدين محمد ٥٨ ٩٤  
٩٨ ١٠٢ ١٠٣ ١٤١ ١٤٤ ١٧٦

ديوان - دواوين ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٧ ،

٣٨٣ ، ٤٣٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٨ ،

ديوان الأحباس ٣٤٠

ديوان الأسطول ٣٧٤

ديوان الانشاء ٢٠٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ،

٣٣٤ ، ٤٥٢ ، ٤٧٦ ، ٤٨٢ ، ٥٠٠٨ ،

٥٦١ ، ٥٧٨ ، ٦٠٣ ، ٦٤٧ ،

ديوان الترتيب ٥٧٢

ديوان الجيش ٢٩ ، ٣٤٠ ، ٣٦١ ، ٦١٣ ،

ديوان الحجاز ٣٤٠

ديوان الخاصة ٣٣٥

ديوان خزائن الكسوة ٣٤٠

ديوان الرسائل ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ،

٥١٠

ديوان الرواب ٣٤٠

ديوان الزمام ٣٢٤

ديوان الشام ٣٤٠

ديوان الضرب ٣٧٧

ديوان العامة ٣٣٥

ديوان قاضي القضاة ٣٧٨

ديوان الماء ٣٨٧

ديوان المال ٢١٥

ديوان المجلس ٣٨٠

ديوان المضالم ٣٨٣

ديوان النظار ٦١٦

ديوان الوزارة ٣٢٦

ديوجينيس ٢٢ ، ٢٣٤ ،

( ذ )

أهل الذمة ٣٨٢ ، ٥٢١ ، ٦٢٧ ،

ذو النون بطايطلة ٦٣٠

( ر )

الرازي - أبو بكر ٥٣١

الرازي - أبو حاتم داعي الاسماعيلية في الري ٥٧٥

الرازي - نجر الدين المفسر ١٧٣

الراشد العباسي ٧٣ ، ٧٤ ،

الرافضة ٣١

درعة ٢٢١ ، ٢٨٧ ، ٤٢٤ ،

الدركزيني - وزير طغرل ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ،

درن - جبل بالمغرب ٢٨٨ ، ٣٠٢ ، ٥٩٦ ،

٥٩٨ ، ٥٩٩ ،

الدرز ١٠٠ - ١٠١ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ،

ابن دقاق ٣٩٥ ، ٦٠٢ ،

دقاق بن طفتكين ٦٢ ، ٦٣ ،

الدقهلية ٣٣٨

دهلي ٣٠٩

دمشق ٢٧ ، ٤٥ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧١ ،

٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ١٠٤ -

١٠٨ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ،

١٨٩ ، ١٩٢ ، ٢١٠ ، ٢٦١ ، ٣٤١ ،

٣٤٤ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٥ - ٤٠٦ ،

٤٢٦ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٧ ، ٤٨٢ ،

٤٨٣ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ،

٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٧٣ ، ٥٧٩ ، ٥٨٦ ،

٥٩٨ ، ٦٠٦ ، ٦١٣ -

دمياط ١٠٤ ، ١١٣ - ١١٥ ، ١٩٤ -

١٩٥ ، ٣٢٣ ، ٣٤٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ،

٣٩١ ، ٣٩٢ - ٣٩٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ،

٤١٦ ، ٤٣٨ ،

دندره ٣٩٠

ابن الدهان النحوي ٤٧١ - ٤٧٢ ،

دهقان ٤

دوسون ١٤٠ ، ١٤١ ، ٥٦٩ ،

الدون - شهر ال ٤٠٧

الدويني - أبو إسحاق ٤٩٧

الديبل ٤٠٠

ديار بكر ١٠ ، ١١ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٥٩ ، ٦٣ ،

٦٣ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١٥٠ ، ٢٦٩ ، ٦٠٦ ،

ديار ربيعة ٥٩

ديروط ٣٩٥

الديلم ٩ ، ١٠ ، ١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،

٢٦٩ ، ٣٦٦ ، ٤٥١ ، ٤٧٣ ، ٥٧٥ ،

٦٠٦

دينور ١٥٧

ربنولد ١٠٩

( ز )

زيد ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢

الزبير بن بكار ٥٦٩

الزباد شقيه ٢٥٤

ابن أبي زرع ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٩٣ ، ٥٩٨

زرياب المعنى ٦٣٣ - ٦٣٤ ، ٦٣٨

بنو زريع باليمن ٢٠٩ ، ٢١٣ - ٢١٤

زغبة - الزغبية ٢٢٩

الزكاه ٣٤٦ ، ٣٥٠ - ٣٥٢ ، ٥٤٩

الزنج ٦٢٦

الزلاقة - موقعة بالأندلس ١٢١ ، ٥٣٣

ابن زللو ٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١

زليخة خانون ٢٩

الزمام ٣٣٤

الزعمشري ٣٦ ، ٤٤٤

زفاته - الزفانيون ١٢٥ ، ١٢٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٣

٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٣١٢ ، ٣١٤

الزنادقة ٢٦٧

الزنج ٦٢٦

زنجان ١٠ ، ٤٧ ، ١٤٥

زنجبار ٦٠٥

زنسكي - أبو بكر سعد ١٥٧

زنسكي - عماد الدين ٥٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤

٦٤ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ١٠٤ ، ١٨٤

١٨٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٣٤٩ ، ٣٦١ ، ٥٥٢ - ٥٥٤

ابن زهر - أبو بكر ٢٢٤ ، ٥٨٠

الزهراء ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٥٩١ ، قصر ال ٦٣٠

الزواج - حفلات ال ٦٥١ - ٦٥٣

الزواحي ١٩٨ ، ٢٠٦ ، ٢٤١

الزوزني ٣٦ ، ٢٥٩

الراوندية ٢٥٥

الرباط ١٢٩ ، ٢٢٩ ، ٢٨٩ ، ٤٣٦ - ٤٣٩

٥٩٠ ، ٦٠٠ - ٦٠١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣

٦٢٤

الرحامنة - قبيلة بالمغرب ٦٠٠

ابن رزيك - الوزير الفاطمي ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠

١٩٠ ، ٢٥٠ ، ٦٠٩

روسم بن شهر يار ٥٦٥

بنو الرسي ٢١٥ - ٢١٧

ابن رشد ٢٢٤ ، ٢٤٠ ، ٥٤٢ - ٥٤٧

رشيد الدين الهمداني ٥٦٨

رضوان بن الوخشي الوزير الفاطمي ١٨٣ ، ١٨٤

الرضي - الشريف ٢٣٦

الرفاق ٢٧٢

رفادة بالمغرب ٥٨٩

الرقه ٢٩

الرقيق ٦٢٥ ، ٦٢٦ - ٦٢٨ ، ٦٣٠ ، ٦٤٦

الركاز ٣٥٢

الرماني بالمغرب ٢٨٩

الرملة ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ٣٤٤

روبرت دوق ترمنده ٢٤٦

روبرت كونت شارتر ٢٤٦

رودجر الترمندى ١٧٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٩

الروس ٢٢

الروم ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٤٩

الرميلة ٦١٤

رومانوس ٢٢

الرها ٧٦ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨

الري ١٤ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٥٣

٥٣ ، ٦٨ ، ٨٥ ، ٨٧

الرياحية ٢٣٩

ريازان ١٥١

الرياضيات ٥٣٠ - ٥٣١ ، ٥٣٨ ، ٦٠٨

رئيس الرؤساء ١٤ ، ١٨

ريتشارد قلب الأسد ١١٠ ، ١٩٥ ، ٢٠٠

ريغوند كونت تولوز ٤٧ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧



الشامى ١٨٢ ، ١٨٦ ، ٢١٥ ، ٣٧٧  
الشام ١ ، ١٦ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٥٢ ،  
٥٩ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ،  
٧٤ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٨ ،  
١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ،  
١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،  
١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،  
٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ،  
٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ،  
٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٩٥ ،  
٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٤٢ ،  
٣٤٤ ، ٣٤٩ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٥٥٤ ،  
٥٥٦ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٩ ، ٥٨١ ،  
٥٨٣ ، ٥٩١ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦٢٧ ،  
الشامية ١٣٣ ، ١٣٧  
أبو شامة ٥٧٩  
شاوور ١٠٥ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،  
١٩٣ ، ٢٥٠ ، ٣٣٠  
الشاوى - عبد الله ١٩٧ ، ٢١٢  
ابن شبه ٥٦٤  
ابن شيروط - حسداى ٣٣٢  
أبو شجاع - الوزير المؤرخ ٣٥ ، ٤٣ ، ٣٢٥ -  
٣٢٦ ، ٣٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٧٤ ،  
٦٥٢  
شحنة بغداد ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢  
شجر الدر ٣٢٣ ، ٦٤٢  
ابن شداد - يهاه الدين ٥٥٥ ، ٥٧٩  
الشراب - صاحب ال ٥١  
الشرطه ٣٤٥ - ٣٤٦  
ششتر ٥٦٥  
الشعرانى ٥٤٨ ، ٥٥٠  
شغرى بك داود ٢ ، ١٠  
الشقيف ٢٦٤  
شمس الدين الغورى ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،  
١٧٢  
الشوبك ١٩٤

السنه ١٥ ، ١٩٧ ، ٢١٠ ، ٢٧١ ، ٢٩١  
سنج خان ملك التتار ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،  
١٣٤ ، ١٥٠  
سنجار ١٠ ، ١٢ ، ٤٨ ، ٤٨ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ،  
٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٣٤٤  
سنجر بن ملكشاه ٢٧ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ،  
٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٨ ،  
٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ -  
٥٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٩٥ -  
٩٦ ، ١٦٤  
السند ١٠٠ ، ١٩٧  
السنكريتيه - لغه ٥٥٢ ، ٥٨٣  
السنغال - نهر ال ١٢٥  
سنقر بن مودود السلجوقى ٩٤  
السواد ٢٠١ ، ٢٣٩ ، ٣٧٨  
السودان - السودانون ١١٩ ، ١٨٤ ، ١٩٤ ،  
٢٠٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٦٦ ، ٦٢٨  
سور - أسوار ٦٠٩ - ٦١١  
سوريه - انظر الشام  
السوس - بلاد ال ٢٢١ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ،  
٢٩٤ ، ٦٠٠  
سوق - اسواق ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤١٨ -  
سوخ - اسره صينييه ١٥١  
السهروردى - شهاب الدين ٣٠٥  
بنو سهل ٣٢٧  
سبيريا ١٣١  
سيتيا - سكيثيا ١٣٠  
ابن سيده الاندلسى ٤٧٧ ، ٥٨٢  
سبرى بن أبى بكر اللبتونى ١٢٣ ، ١٢٤ ،  
سيف الدين غازى - بن زرنكى ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٩ -  
ابن سينا ٢٧ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٥٠ -  
السيوطى - جلال الدين ٥٧٢ ، ٥٨٥  
(ش)  
الشابشقى - صاحب كتاب الديارات ٥٧٢  
شاطبه ١٢٤

صعدة باليمن ٢١٧، ٢١٦، ٢١٤  
 الصعيد بمصر ١٨٣، ١٨٥، ١٨٨، ١٩١،  
 ٢٣٩، ١٩٤  
 صفانان ٢١  
 الصفارية ٥٥٩  
 الصفاعي - صاحب ذيل وفيات الأعيان ٥٦٤  
 صفد ٦١٣  
 الصقالبة ٣٧١، ٦٣٠  
 الصقلي - انظر جوهر  
 سقلية ١٧٧، ١٧٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١،  
 ٢٤٤، ٢٤٩، ٢٤١، ٣٤٢، ٣٧٦  
 صلاح الدين الأيوبي ٦٣، ٦٤، ٧٢، ٧٧،  
 ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٦، ١٠٤، ١١٣،  
 ١٣٥، ١٧٧، ١٨٩، ١٩١، ١٩٧،  
 ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٨، ٢٢٩،  
 ٢٥٠، ٢٥٩، ٣٠٩، ٣٢٢، ٣٢٤،  
 ٣٥٨، ٣٦٧، ٣٧٢، ٥٥٢، ٥٦٣،  
 ٥٩٤، ٦٠٣، ٦٠٥، ٦١١، ٦١٤،  
 ٦١٥، ٦١٦، ٦١٩، ٦٢٨، ٦٢٩  
 صلاح الدين يوسف بن السكامل ٢١٥  
 صلح الرملة ١٠٧  
 الصليبيون ١، ٤٠، ٥٣، ٦٣، ٦٨ -  
 ٧١، ٧٤، ٨١، ١٠٥، ١٠٧ -  
 ١١٥، ١١٩، ١٨١، ١٨٥ -  
 ١٩٥، ٢١٠، ٢١٤، ٢٢٨،  
 ٢٤٣، ٢٥٣، ٢٦٤، ٢٧٠،  
 ٢٧١، ٣١٢، ٣١٩، ٣٢٣،  
 ٣٦٢، ٣٧٤، ٣٧٥  
 الصليبيون ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٧، ٢١٣،  
 ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٤  
 الصليحي - علي بن محمد ١٩٨، ٢٠٠،  
 ٢٠٣، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١١، ٤٨١  
 صمصام الدولة ٢٤٠، ٢٥٧  
 الصناعة ٣٧٣ - ٣٧٤  
 صنعا ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢١٠،  
 ٢١٤، ٢١٦، ٢١٧  
 صنهاجة - قبيلة مغربية ١١٦، ١١٧، ١١٩،

شهاب الدين محمد الغوري ١٦٦، ١٦٧،  
 ١٦٨، ١٦٩ - ١٧٧  
 الشهرستاني ٣٠٤  
 شيخ الجبل ٢٧١، ٢٧٢  
 شيراز ١٣، ٩٤، ١٥٧، ٥٦٥، ٥٧٨  
 الشيرازي - انظر المؤيد هبة الله  
 شير زاد ١٦٣  
 شيركوه - أسد الدين الوزير الفاطمي ٧٦،  
 ١٠٤، ١٠٥، ١٨٩ - ١٩٣، ٢٥٠،  
 ٣٣٠، ٥٧٢  
 شيرز - قلعة بفلسطين ٦٧، ٥٧٤  
 الشيرزي ٣٨٥  
 الشيعة - الشيعيون ١٤، ١٥، ٣١، ١٦٢،  
 ١٨٣، ١٨٥، ١٩٥، ١٩٧، ٢١٠،  
 ٢١٧، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٥، ٢٦٧،  
 ٢٩١، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣١١، ٣٢٠،  
 ٣٧٨، ٣٧٩، ٥٤٧، ٥٤٩، ٥٧٣،  
 ٦١٩، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٤٤، ٦٤٥،  
 ٦٤٦

(ص)

صاحب الباب ٣٣٥، ٣٤٠  
 صاحب الندية ٣٥٩  
 صاحب الرسالة ٣٤٠  
 صاحب الشراب ٥١  
 صاحب الصلاة ٣٨٣، ٥٤٩، ٥٩٧  
 صاحب القلم الجليل ٣٣٣  
 صاحب القلم الدقيق ٣٣٣  
 الصالح إسماعيل بن نور الدين ٧٨، ١٠٨، ١٠٩  
 الصباح - الحسن ٢٦٩ - ٢٧٢  
 الصدقة ٣٥٢  
 ابن صدقه - بدران ٤٤  
 ابن صدقة - ديبس ٤٤، ٤٧، ٤٨ - ٥٠،  
 ٥١، ٥٢، ٦٩ - ٧٣، ٣٢٦،  
 ٣٢٨، ٣٦٥  
 صدقه بن مزيد ٤٠، ٤١، ٤٣ - ٤٥، ٦٢٦  
 صرخند ١٨٣

٥٨٢ ، ٥٣٣ ، ٤٥٣ ، ٣٨٠

طغانشاه - الأمير ٦٥٤

الطغرائى ٤٨١ - ٤٨٠ ، ٣٩

طغرلبك السلجوقى ٢ ، ٤ ، ٣ ، ٤ ، ٩ - ٢٠ ،

٣٥ ، ٣١ ، ٢٥

طغرل بن محمد بن ملكشاه ٥٤

ابن طفيل ٥٣٩ - ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٨٠ ،

طلطلطة ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٢٦ ، ٥٣٦ ، ٦٣٠ ،

طهران ٦٦

الطوائف - ملوك ال ٦٣٠

طوس ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٦ ،

ابن طولون - مسجد ٦٠٩

الطولونيون ١٢٨ ، ٦٢٨ ،

ابن أبي طى المؤرخ ٥٧٣

الطيبية فى اليمن ٢٧٩ - ٢٨٢

الظاهر الفاطمى ٦٢٨

(ع)

العادل الأيوبي ٦٤ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ،

١٠٦ ، ١١٣ ، ١٣٥ ، ١٨٨ ، ٢٣٣ ،

العادل بن السلار الفاطمى ٢٤٨

العاضد الفاطمى ١٠٥ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ،

١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٣٢٢ ،

٣٣٠ ، ٣٧٤ ، ٤٨٥ ، ٦٠٩ ،

عبادة القزاز البطليوسى الشاعر ٤٩٦

ابن أبى عامر الحاجب ٣٣٢ ، ٦٣٠ ،

عامر بن عبد الله الزواحى باليمن ١٩٨ ، ٢٤٠ ،

٢٤١ ، ٦٣٠ ،

العامة ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٤٠ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ،

٦٤٤ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ،

عانه ٨١

ابن عباد - المعتد ١٢٠ - ١٢١ ، ١٢٣ ،

١٤٤ ، ٦٣٠ ،

العباس بن الأحنف ٤٩٩

ابن عباس - عبد الله ٤٢٠

عباس عم علاء الدين الغورى ١٧٦ ، ١٨٦ ،

١٨٧

١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ ،

٢٤٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠٠ ،

٣١٢

الصيمرى - أبو عبد الله ٢٣٦

الصين - الصينيون ٢٩ ، ١٣٩ ، ١٥٤ ،

١٦٢ ، ٣٢٩ ، ٣٦٣ ،

(ض)

الضرائب ٣٤٦ - ٣٤٧ ضريبة الاقطاع ٣٤٧ -

٣٤٨ ، فى العصر العباسى الثانى ٣٥٤ -

٣٥٥ فى العصر الفاطمى ٣٥٥ - ٣٥٨

فى الأندلس ٣٥٩

(ط)

أبو طاهر النحوى ٤٧٣

الظاهر يون ٥٥٩

الطب فى العصر العباسى الثانى ٥١٥ - ٥٢٠

فى العصر الفاطمى ٥٢٠ فى المغرب والأندلس

٥٢١ - ٥٢٢ المدارس الطبيه ٥٢٢ -

٥٢٣

ابن مطاطيا صاحب الفخرى ١٥٩ ، ١٦٢ ،

٣٢٩ ، ٥٦٧ ، ٦٧٧ ،

طبرستان ٥ ، ٩٩ ، ٥٥٢ ، ٥٦٥ ، ٥٧٥ ،

٥٨٣

الطبرى ٤٤٢ ، ٥٥١ ، ٥٥٤ ، ٥٦٤ ،

طبقات الحكماء لابن أبى أصيبه ٥٦٣

طبقاتى ناصرى للجوزجاني ٥٥٨ - ٥٥٩ ،

٥٦٨

طبقات الشعب - فى عهد العباسيين ٦٢٥ -

٦٢٧ فى عهد الفاطميين والايوبيين ٦٢٧ -

٦٢٨ ، فى المغرب ٦٢٨ - ٦٢٩ ، فى

الأندلس ٦٢٩ - ٦٣١

طار ابلس الشام ٧٧

طر سوس ٦٥٦

طرطوشه - مدينة بالأندلس ٣٧٦

الطرطوشى - أبو بكر صاحب سراج الملوك

عبيد الله المهدي ١١٨، ١٩٧، ٣٢٠، ٤٠٩،  
٤٢٧، ٥٧٥، ٥٧٦  
عثمان - جمال الدين والي مرو ٣٢  
عثمان بن عفان ٣٥٩، ٤٤٠  
العثمانيون - الأتراك ٩٠، ١٣١  
عجائب المقدور في أخبار تيمور لابن عربشاه  
٥٧٠ - ٥٧١  
ابن عذارى المراكشي المؤرخ ٥٨٢  
العراق ١٠، ١٢، ١٤، ١٥، ٤٠، ٤٧ -  
٤٩، ٥٢، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٩،  
٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٩، ٨١،  
٨٦، ٩٤، ٩٨، ١٣٣، ١٣٤،  
١٤٤، ١٤٥، ١٦٢، ١٧٧، ٢١٠،  
٣٠٩، ٣٢٨، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٧٧،  
٣٨٧، ٤٠٤، ٤١٥، ٥٦٥، ٥٨٣،  
٦٠٦، ٦٣٢، ٦٣٧، ٦٤٠، ٦٤٩،  
٦٥٦  
العراقيين ٥٩، ١٠٥  
عز الدين قيقاوس الثاني ٩  
العزير القاطمي ١٧٨، ١٧٩، ٢٥٧، ٣٠٦،  
٣٢٠، ٥٧١، ٦٠٢، ٦١٧، ٦١٨  
ابن عساكر صاحب الأنساب ٥٤٧  
العسكر - مدينة ال ٥٩٢، ٦٠٠، ٦٠٥  
العشور ٣٥٤  
عسقلان ١٠٩، ١١٠، ١٨١، ١٨٥،  
٢٥٦، ٣٤٢، ٤٣٨، ٥٠٨  
عضد الدولة البويهى ٢٣٥، ٢٥٧، ٣٤٣،  
٤٢٧، ٥٢٣  
العطار - الشيخ فريد الدين ٣٦  
العقاب - موقعة بالمغرب ٢٣١  
عقبة بن نافع ١١٦، ٤٣٨  
العقد الفريد ٢٧، ٤٩٦  
العقيليون ٦٧  
عكا ١٠٩، ٢٠٦، ٢٤٩، ٢٥٠، ٣٢٩،  
٤٣٨  
علاء الدين حسين القورى ١٦٤، ١٦٦، ١٦٧

العباسيون ١٢، ١٤، ١٧، ٥٢، ٥٥،  
٦٢، ٨٥، ١٢٥، ١٤١، ١٤٥،  
١٦١، ١٧٧، ٢١١، ٢٢٥، ٢٢٨،  
٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٩  
ابن عبد البر صاحب الاستيعاب ٥٥٣  
عبد الجبار المعافرى ٢٧٦  
ابن عبد ربه صاحب العقد ٤٩٦  
عبد الرحمن بن عوف ٥٦٣  
ابن العبرى صاحب مختصر تاريخ الدول ٥٥٩ -  
٥٦٠، ٥٦٢، ٥٦٧  
عبد الرحيم بن لياس داعى دعاة الدروز ٢٦١  
عبد الرحمن الناصر ٣١٠، ٣٣٢، ٣٧٧،  
٣٨٢، ٣٨٣، ٤٣٣، ٤٣٨، ٤٧٦،  
٥٨٩، ٥٩١، ٦٣٠  
العتي صاحب تاريخ البيهقي ٥٥، ٥٦٦  
عبد القادر الجرجاني ٤٧١  
عبد الله بن أبي الوحش المقدسى اللغوى ٤٧٦  
عبد الله الانصارى - شيخ الإسلام فى العصر  
السايق ٤٦١ - ٤٦٢  
عبد الله بن بلسكين ١٢٣  
عبد الله بن محمد المروانى - شاعر اندلسى ٤٩٦  
عبد الله بن على العلوى - أمير الأحساء ٢٤٢  
عبد الله بن مسعود الصحابى ٢٤٠  
عبد الله بن ميمون القداح ٣٤٤، ٣٧٦  
عبد الله بن ياسين ٢٨٣ - ٢٩٢، ٣١٢،  
٣١٥، ٤٤٨، ٤٥٦  
عبد المؤمن الموحدى ٢١٩ - ٢٢٢، ٢٢٩ -  
٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٩، ٣٠٠،  
٣١٦، ٣٧٠، ٣٧٥، ٣٧٦، ٥١١،  
٥٩٩، ٦٢١، ٦٢٣، ٦٢٨، ٦٤٢  
عبد المؤمن بن عبد الحق الجفراقى ١٦١، ٥٦٧  
عبد النبي بن على بن مهدي باليمن ٢١٢ - ٢١٤،  
٢٨١  
العبيد بالاندلس ١٢٨، ٢٠٤ - ٢٠٥،  
٢١٢، ٢٢٦



عيزاب ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩  
عيسى - نهر ١٥٨  
عيد - أعياد ٢٦٥ ، ٣٣٩ ، ٣٧٧ ، ٣٨٣  
٢٤٣ ، ٦٠٨ ، ٦٠٣ ، ٣٨٤ ، ٦١٥  
عين جالوت - موقعة

(غ)

غازان - محمود ٤٤ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ٣٠٨ ، ٣١٩ ، ٤٠٥ ، ٤٢٠ ، ٤٣١ ، ٥٥١ ، ٥٦٨ ، ٥٦٦ ، ٥٥٢  
غازي بن جشتكين  
غائه ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢  
غانية بافريقية ٢٢٧  
ابن غانية - صاحب إفريقيا في عهد الموحدين  
٢٣٠ - ٢٣١  
غرناطة ٣١ ، ٣١٩ ، ٣٦٨ ، ٣٨٨ ، ٥٣٨ ، ٦٣٥ ، ٥٨٤  
الغز - الأتراك ٢ ، ١٤ ، ٢٢ ، ٥٨ ، ٨٨ ، ١٦٧ ، ٣٦٦ ، ٤٢٥  
الغزالي - الإمام أبو حامد ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٦ ، ٣١٦ ، ٤٤٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩ ، ٥٣١ ، ٥٣٦ ، ٥٥٠  
الغزنويون البيت ال ٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٤٥٤ ، ١٠ ، ٣٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ٤٢٠  
الغزنوي - مسعود الأول ٤ ، ٤٥ ، ١٠  
الغزنوي - مسعود الثاني ٢٩  
غزته - ٦ ، ٣٥ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٤  
الغسانة ٢١٥  
الغنيمة ٣٥٣ - ٣٥٤  
الغور - بلاد ال ٣٥ ، ٥٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٤١ ، ١٦٨ ، ١٥٧ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ٥١٧  
الغوريون ١٠٠ ، ١٦٣ ، ١٧٧

علاء الدين خوارزمشاه ٨٢  
الغلاف - أبو الهذيل المعتزلي ٤٥٧  
علاء الدين قيباذا الأول ٨٩  
علاء الدين قيباذا الثاني ٩٠  
ابن العلقمي الوزير ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ٣٢٩ ، ٣٢٤ ، ٤٣١  
علاء الدين محمود الغوري ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦  
علي بن أبي طالب ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٣٢٠ ، ٣٤٥ ، ٤٢٤ ، ٤٣١ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥  
علي الداعي في أئين ١٩٩  
علي بن سبأ ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٥٧٨ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩  
علي بن محمد الصليحي باليمن ٢٤١  
علي بن مهدي صاحب زبير باليمن ٢١٢  
علي بن النعمان داعي دعاة الإسمالية ٤٢٩  
علي بن يوسف بن ناشفين ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٥٩ ، ٤٤١  
عماد الدين الاصفهاني ٤٣٣ ، ٤٥٧ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢  
عمارة النبي ١٨٨ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٤٨٦ ، ٤٨٥ ، ٥٧٤ ، ٤٨٩  
عمان ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٤٢  
عمر بن الخطاب ٣٣٦ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٨ ، ٣٨٢  
عمر بن عبد العزيز ٣٣٦ ، ٤٣٧  
عمرو بن العاص ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٩٠ ، ٥٩٢  
مسجد عمرو ٦٠٧ ، ٦١٧ ، ٦١٨  
عموري - ملك بيت المقدس ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣  
عمورية ٤٣١  
عوق صاحب لب الباب أو جوامع الحكايات ٥٦٣  
عميد الدولة بن نضر الدولة ٦٧ ، ٥٦٣  
عيان - القاضي ٤٥٦

الفتح بن خاقان ٥١٣ - ٥١٤ ، ٥٣٧  
 نغر الملك الوزير ٥٣٣  
 أبو القدا ٥٦٢  
 الفداوية - الفداويون ٢٧١ - ٢٧٦  
 القرات - نهر ال ١٢ ، ٤٥ ، ٧٥ ، ٩٦ ،  
 ٥٠٩ ، ٤٨٩ ، ٤٠٥ ، ٤٠٠ ، ٤٣٤٤

ابن القرات - الوزير ٣٨١  
 فردريك بربروسا ١١٠ ، ١١٣  
 الفردوسي الشاعر ٥٥٨ ، ٥٨٦ ، ٦٢٥  
 فرس - فارسي ١ ، ١٣ ، ٢١ ، ٢٥ ،  
 ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٩٢ ،  
 ٩٤ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٢٤ ، ٤٤١ ،  
 ١٥٤ ، ٢٧٨ ، ٢٧٠ ، ٢٥٩ ، ٣١٠ ،  
 ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٩ ، ٣٨٧ ، ٣٩١ ،  
 ٣٩٢ ، ٤٣٩ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ،  
 ٥٢٢ ، ٥٢٦ ، ٥٤١ ، ٥٥٣ ، ٥٦١ ،  
 ٥٦٣ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ،  
 ٥٧٠ ، ٥٧٨ ، ٥٨٣ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ،  
 ٥٩٤ ، ٦٠٧ ، ٦١٩ ، ٦٢٥ ، ٦٤٩ ،  
 فرشابور - مهد القور ١٧١ ، ١٧٢ ، ٥٧٠ ،  
 الفرما ٤٠٤ - ٤٠٦

الفرنجية ٧٢ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٨١ ، ١٠٥ ،  
 ١٠٧ ، ١١٠ ، ١٣١ ، ١٨١ ، ١٨٨ ،  
 ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٣٧٤ ، ٤٣٨  
 فروخ شاه الخفاجي بن ملكشاه ٧٠ - ٧١  
 القسطاط ١٩٢ ، ٢٥٠ ، ٣٥٧ ، ٣٧٣ ،  
 ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ،  
 ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٥ ،  
 ٤١٦ ، ٤٢١ ، ٤٣٨ ، ٤٥٥ ، ٥٨٩ ،  
 ٥٩٢ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٦٠٢ ، ٦٠٥ ،  
 ٦١١

ابن فضل الله العمري ٦١٣  
 فقه ، فقهاء - فقه الشيعة ٤٥٠ - ٤٥٣  
 الفقه في الدين ٤٥٤ - ٤٥٧ ، ٥٣٢ ، ٥٣٧ ،  
 ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٣ ، ٥٤٦ ، ٥٥٣ ،  
 ٥٥٦ ، ٥٨٥ ، ٦٠٧ ، ٦١٨ ،

الغوري - علاء الدين حسين ١٦٤ ، ١٦٥ -  
 ١٦٧ ، ١٧٥ ، ٥١٧ ، ٥٥٨  
 الغوري - غياث الدين محمد ١٦٧ - ١٦٨  
 الغوري - غياث الدين محمود ١٧٤ ، ١٧٥ -  
 ١٧٧

( ف )

فانك الثاني ٢١٢  
 فانك الثالث ٢١٢  
 الفانكي - أنيس ٢١١ ، ٢١٢  
 الفارابي - أبو نصر ٣٠٤ ، ٥٣١ ، ٥٣٨ ،  
 ٥٤٨  
 فارسكور ١١٥ ، ٢٢٣  
 فاس ١٢٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٦ ، ٤١٧ ، ٤٢٣ ،  
 ٥٣٨ ، ٥٨٠ ، ٥٨٩ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ،  
 ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٩ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ،  
 الفاضلية - المدرسة ال ٦٠٨  
 فاطمة الزهراء ٣٢٠ ، ٣٢١  
 الفاطميون ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ،  
 ٢٢ ، ٢٣ ، ٨٠ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ،  
 ١١٨ ، ١١٩ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٥ ،  
 ١٨٧ ، ١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٧ -  
 ٢٠٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٣١٠ ، ٣١٣ ،  
 ٣٢٠ ، ٤٦٢ ، علاقتهم بالبيزنطيين ٢٣٥ -  
 ٢٣٧ ، علاقتهم بالحجاز ٢٣٧ - ٢٣٨ ،  
 علاقتهم بالمغرب ٢٣٨ - ٢٣٩ ، علاقتهم  
 بصقلية ٢٤٠ - ٢٤١ ، الخلافة الفاطمية  
 ٣١٧ - ٣٢٠ ، مصادر الفاطميين  
 ٥٧١ ، ٥٧٩ ، ٥٨٦ ، ٥٩٤ ، ٦٠٣ ،  
 سمات الفاطميين ٦٠٤ - ٦٠٥ ، ٦٠٩ ،  
 ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٦ ، مساجد الفاطميين  
 ٦١٦ - ٦٢٠ ، ٦٢٢ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ،  
 ٦٣٤ ، ٦٣٨ ، ٦٤٠ ، ٦٤٢ ، ٦٤٤ ،  
 الاعياد والمواسم والموكب وعهد الفاطميين  
 ٦٤٤ - ٦٤٩ ، ٦٥٦ ،  
 الفائر الفاطمي ١٨٧ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ،

قانسوه الغورى ٣١٩  
 القاهرة ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،  
 ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،  
 ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢١٠ ،  
 ، ٢٥٠ ، ٣١٢ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ،  
 ، ٣٤٤ ، ٣٩١ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ،  
 ، ٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤١٦ ، ٤٢١ ، ٤٢٣ ،  
 ، ٤٢٧ ، ٤٣١ ، ٤٨٢ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ،  
 ، ٥٢٩ ، ٥٥١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ،  
 ، ٥٧٢ ، ٥٧٧ ، ٥٨٨ ، ٥٩٢ ، ٥٩٥ ،  
 ٦٠٢ ، ٦٠٣  
 مدارس القاهرة ٦٠٦ - ٦٠٨ ، المنشآت الحربية  
 في ال ٦٠٩ - ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٩ ،  
 ٦٢٢ ، ٦٣٣ ، ٦٤٠

قايىباى ٣١٩  
 قايىن ٢٤٨  
 القيامة - كنيسة ال ٢٣٥  
 القدورى - أبو الحسين الفقيه ٢٣٦  
 القراءات - علم ال ٤٤٠ - ٤٤٦  
 قرقوش - بهاء الدين ١٠٨ ، ٢٢٥  
 قراقبولى ٨١  
 القرامطة ٢٥٤ - ٢٥٩ ، ٢٥٩ - ٦٠٩ ، ٦٢٥  
 قرسقة - جزيرة ٣٧٤  
 قرطبة ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ،  
 ، ٣٦٨ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٤٠٩ ، ٤٢١ ،  
 ، ٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٥٦ ،  
 ، ٤٦٧ ، ٤٧٤ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ ،  
 ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٤٢ ،  
 ، ٥٤٣ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٦٠٥ ، ٦٠٧ ،  
 ٦٣٠ ، ٦٣٣  
 القرطبي للمؤرخ ٥٧٣  
 قرمونه - بالاندلس ١٢٤  
 قرواش بن المقلد العقيلي ٥٥٢  
 قره خطاي - بلاد الخطا السوداء ١٤١  
 قره قورم ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٥٤  
 القرويين جامع ال ٦٢٠ - ٦٢١  
 قريش بن بدران ١٨

٦٢٨ ، ٦٣١ ، ٦٤٠ ، ٦٥٠ ، ٦٥٤ ،  
 ٦٥٦  
 فلسطين ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٣٠٩ ،  
 ٣٤٢ ، ٤١٢ ، ٦١٣  
 الغلين ٤٠١  
 الفلجا - نهر ال ١٣١ ، ١٥١  
 الفلاسفة ٥٣١ - ٥٥٠ ، ٥٥٢ ، ٥٥٩ ،  
 ، ٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٨٠ ، ٥٨٥ ، ٦٠٨ ،  
 ٦٣٠  
 الفلك - النجوم - في العصر العباسي ٥٢٤ -  
 ، ٥٢٨ ، ٥٦٢ ، في مصر والمغرب ٥٢٨ -  
 ٥٣٠  
 قوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ٥٦٤ ،  
 ٥٦٧  
 الفونس السادس ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،  
 ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٣١٤ ،  
 ٣١٥ ، ٤٥٧ ، ٤٩٤  
 الفتي ٣٥٣ - ٣٥٤  
 فيروزكوه حاضرة الغور ٥٨ ، ٩٩ ، ١٦٣ ،  
 ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦  
 فيليب الثاني ١١٠  
 الفينيقيون ٥٣٠

(ق)

قايوس بن وشمكير ٥٥٢ ، ٥٠٥ ،  
 قانس ٥٤٠  
 القاسم الرسي ٢١٦ ، ٢١٧  
 القاسم بن محمد الجمحي ٤٥٤  
 القاضي الفاضل ٥٠٨ - ٥١٠  
 قاضي القضاء ٤٢٧ - ٤٣٠  
 القائم العباسي ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٨ ،  
 ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،  
 ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٢٥٦ ، ٢٣٢ ،  
 ٦٤١ ، ٦٥١  
 القائل - أبو علي اللقوي ٤٧٥ ، ٤٧٦

القلزم - بحر ال ٤٠٤ - ٤٠٥  
الفاقشندي - صاحب صبح الأعشى ٥٦٧ ، ٦١٦ ،  
قلورية بإيطاليا ٣٧٣  
القلم الجليل ٣٣٣  
القلم الدقيق ٣٣٣  
قلنج أرسلان ٨٩ ، ٢٤٦ ،  
قم ٥٦٥  
القمحية - مدرسة آل ٦٠٨ ، ٦١٩ ،

(ك)

كاشفر ١٣١ ، ١٤١  
الكاظم - الإمام موسى ٢٨ ، ٦٢٦ ،  
كانور الإخشيد ٥٧١ ، ٦٢٨ ،  
أبو كاليجار ٥ ، ١٢ ، ١٣ ،  
الكامل الأيوبي ١١٣ ، ١١٤ ، ٦٠٨ ، ٦١٢ ،  
الكاملية - المدرسة ٤٢٦  
كاهون - صاحب كتاب مقدمة لتاريخ آسيا  
والأترك والمغول ٥٦٩ - ٥٧٠  
كبادوكيا ٨٥  
الكتابة ٣٣٢ - ٣٣٤  
كتامة قبيلة مغربية ٦٤٩  
الكتني - ابن شاكر ٥٦٤ ، ٥٦٧ ،  
الكتنية - مسجد بمرآكش ٥٩٩ ، ٦٠١ ،  
٦٢٠ - ٦٢٣  
كتخدا - عبد الرحمن ٦١٧  
ابن كثير - صاحب البداية والنهاية ٥٦٧  
الكرج ٨٥ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٣٩١ ، ٦٢٥ ،  
٦٣٢  
الكرخ ١٦٢  
كرد - أكراد ٥٠ ، ٨٦ ، ١٣٥ ، ١٤٥ ،  
٣٦٢ ، ٥٦١ ، ٥٧٢ ، ٦٢٥ ،  
٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩  
الكرك ٧٧ ، ١١٤ ، ١١٤ ، ١٩٥ ، ٣٠٩ ،  
٣٦٧ ، ٥٠٩ ، ٦١٣

قروين - الخزر ١٠٢ ، ١٣٥ ، ١٤٥ ، ٢١٦ ،  
٤٢٠ ، ٤٢٦٩  
القزويني الجغرافي ٥٨٦ ، ٥٥٨  
قسطنطين التاسع ٢٣٥  
القسطنطينية ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٥١٨ ،  
قشتاله ١٢١  
قصب السكر - صناعة ٣٩٥  
قصة حي بن يقظان ٤٤٠ - ٥٤٢  
قصر - قصور ٦٠٢ - ٦٠٣ ، ٦٠٤ ،  
قصر الزهراء ٦٣٠ ، ٦٣٤ - ٦٣٦ ،  
٦٤٨  
القضاء في العصر العباسي الثاني ٣٧٧ - ٣٧٨  
في عهد الفاطميين والأيوبيين ٣٧٨ - ٣٧٩  
قانون الوراثة في عهد الفاطميين ٣٧٩ -  
٣٨٢ القضاء في الأندلس ٣٨٢ - ٣٨٣ ،  
٥٤٣ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٨٦ ،  
القضاعي - الفقيه المؤرخ ٣٣٤ ، ٤٣٥ ، ٥٧٢ ،  
٥٧٣ ، ٦٥٦  
القطائع - مدينة ابن طولون ٥٩٢ ، ٦٠٥ ،  
قطب الدين أيك ١٧١ ، ١٧٢ ،  
قطب الدين ملكشاه الثاني من سلاجقة الروم ٨٩  
قاعة الجبل بالقاهرة ٦١١ - ٦١٥  
قطلع خاتون أرملة قطب الدين محمد ٩١  
قطلع خان - لقب براك حاجب أنابك كرمان ٩٢  
القطلعيون ٦٢  
قطلمش عم أرسلان السلجوقي ٢٠  
القطيف ٢٥٧  
القطيقي ٦٠ ، ٦٢ ،  
قفط ٥٦٢  
القفطي - مؤلف تاريخ الحكماء ١٤٦ ، ٥٢٠ ،  
٥٦٢  
قلامش - ابن ( الشاعر ) ٢١٣ ، ٤٨٢  
ابن القلانسي ٥٥٢  
قلاوون - السلطان ٢١٥ ، ٥٩٤ ، ٦٠٢ ،  
٦١٢ ، ٦٠٦

( ل )

لاهور - بالباكستان ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٧  
أبياب الألباب - محمد عوف ٥٦٣  
لغه - علم ال ٤٧٤ - ٤٧٧  
لمبارديا - بإيطاليا ٣٧٣  
لبنونة - قبيلة بالمغرب ١١٨ ، ١٢٠ ، ٣١٢ ،  
٥٩٦ ، ٥٩٧  
اللمتوني - يحيى بن إبراهيم ١١٨  
لمطه - قبائل مغربية ٤١١  
ملك بن مالك ٢٨٠  
لؤلؤ - وزير بيت زنتكي ٧٦  
لويس السابع - ملك فرنسا ٢٤٩ ، ٣٢٣  
ليبيا ٦١٦  
لينبول ٥٧١ ، ٦١٦  
ليورقة ١٢٣  
ليسط - حصن بالأندلس ١٢٣  
ليون الأفريقي ٦٠١ ، ٦٢١ ، ٦٢٤

( م )

ماردين ٨١  
مارستان - بيارستان في الشرق ٤٢٦ - ٤٢٧ ،  
٥٢٢ - ٥٢٣  
مالك بن وهيب ٥٢٩  
مالكولم - سير جون - صاحب تاريخ فارس  
٥٧١  
مأمون بن مأمون - أمير خوارزم ٥٥٢  
المأمون البطامحي - الوزير الفاطمي ٢٠٨  
المأمون العباسي ٦٤٢  
المأمون بن الناصر الموحدى ٢٣٣ ، ٥٣٠  
مانجو خان بن تولوى بن جنكيزخان ٤٨ ، ١٥٣ ،  
١٥٤ -  
المالوردى - صاحب الأحكام السلطانية ٢٠  
المتوكل العباسي ٦٤٢  
المجالس والمسائر لأبي حنيفة النعمان المغربي  
٥٧٦

كرمان ٥ ، ١٠ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٨٧ - ٨٨  
أنايسكية كerman ٩٣ - ٩٤ ، ١٠٠ ،  
١٠٣ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢٦٨ ،  
٢٧٨  
كرمانشاه - مدينة بفارس ٥٠  
الكرمانى - حميد الدين داعى دعاة الفاطميين  
في فارس ٥٧٦ ، ٥٧٧  
السلام - علم ال ٤٥٧ - التوحيد في الإسلام  
٤٥٨ - ٤٦٧ علم السلام في المغرب  
٤٦٧ - ٤٧٠  
ابن كلث - يعقوب ٦١٧ - ٦١٨  
كليرمنت - مدينة بفرنسا ومهد الدعوة للحروب  
الصليبية ٢٤٥  
الكنندرى - عميد الملك الوزير ١٩ - ٢١ ،  
٢٨  
الكنندرى - محمد بن عميد الملك ١١ ، ١٤ ،  
٣٢٦ - ٣٢٧  
كنراد الثالث - امراطور ألمانيا ٢٤٩  
كوبيلاي - ابن تولوى بن جنكيزخان ١٤٩  
سقوط بغداد ١٥٤ - ١٦٢  
كوريا ١٥١  
السكرافة ٢٥٤ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٥ ،  
٤٧٤ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ،  
٦٠٥ ، ٦٤٩  
كوكر - السكوكرية ١٧١ - ١٧٣  
السكوت بالأندلس ٦٣٠  
كيسرو - غياث الدين ٨٩ ، ٩٠  
كيدو ١٥١ - ١٥٢  
الكيسانية ٢٥٤  
كيفا ٨٢ - ٨٤ ، ١١٤ ، ١٤٨  
كيلسكيا ١٥٠  
كين - امراطورية بالصين ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٥٠  
كيوك - ابن أجتاي ١٤٩ ، ١٥٢ - ١٥٣  
كينا ٤٠٢  
كينف - بالروسيا ١٥١

مجاهد العامري حاكم دانية الجزائر ٦٣٠  
أبو المحاسن ٥٧٠  
المختب - الحسبة ٣٨٦ - ٣٨٤  
محمد صلى الله عليه وسلم ٦١٨، ٥٤٢  
محمد علي ٦١٤ ، ٦١٦  
محمد بن ملكشاه ٤٣ - ٤٦ ، ٨١ ، ٦٢٦ ،  
٦٥٣ ، ٦٥٢  
محمود بن محمد بن ملكشاه ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ -  
المدائني ٥٦٤  
مدرسة - مدارس ٤٢٤ - ٤٢٦ ، ٦٠٦ -  
٦٠٨ ، ٦١٠ ، ٦١٣ ، المدارس الطبية  
٥٢٢ - ٥٢٣ ، ٦٥٣  
المرابطون - بالمغرب ١٢٠ الدولة ال ١١٥ -  
١٢٩ الدعوة المرابطية ٢٨٢ - ٢٩٣  
المرابطون والخلافة العباسية ٣١٠ - ٣١٦ ،  
٦٢٨ ، ٦٣١  
المرأة ٦٤٠ - ٦٤١ ، ٦٤٤ ، ٦٥٠ ،  
٦٥١  
مراكش - مدينة ٥٤٣ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ،  
٥٩٥ - ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣  
المراكشي - عبد الواحد صاحب المعجب في تلخيص  
أخبار المغرب ٥٨٢ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ،  
٦٠١  
المرتضى - الشريف ٦٥٠  
مرداويج بن زيار الديلمي ٥٧٥  
مرسية - مدينة بالأندلس ١٢٣ ، ٥٤٧ ،  
٥٥٦ ، ٥٦٥ ، ٥٨٥  
المرينيون ٣١٨ ، ٣١٩  
المسبحي - صاحب كتاب تاريخ مصر ٥٧٢  
المسترشد العباسي ٣٠٧ ، ٥٥٨  
المستظهر العباسي ٣٠٧ ، ٦٥٢  
المستعربين بالأندلس ٦٣٠  
المستعصم العباسي ٥٦٧ ، ٥٨٦ ، ٦٢٥ ،  
٦٥١ ، ٦٥٠  
مسجد - جامع ، وظيفة ال ٣٣٦ - ٣٣٧ ،  
٤٢١ - ٤٢٣ الأزهر ٦١٦ - ٦٢٠

مساجد العصر الفاطمي الأخير ٦١٩ -  
٦٢٠ مسجد المكتبية بمراكش ٦٢١ -  
٦٢٤ مسجد القرويين بفاس ٦٢٠ -  
٦٢١ مسجد و منارة حسان بالرباط ٦٢٣ -  
٦٢٤ .  
المستعل الفاطمي ١٨٠ ، ١٨١  
المستنصر الفاطمي ١٧٧ - ١٨٠ ، ٦٠٢ ،  
٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦٢٠ ، ٦٢٨ ، ٦٣٠ ،  
٦٣٣  
مسعود الأول ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٧ ، ٧٩  
مسعود الثاني ٦٤ ، ٦٥  
مسعود بن محمد بن ملكشاه ٥٢ - ٥٨ ، ٦٠ ،  
٣٠٨ ، ٤٩٥  
المسعودي ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٦٦  
مسفيوه - قبيلة مغربية ٦٠٠  
مصموده - قبيلة مغربية ٣٧٦ ، ٥٩٥  
مصر ١٣ ، ٢٤١ ، ٥٣٢ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ،  
٥٥٠ ، ٥٦٢ ، ٥٦٥ ، ٥٨١ ، ٥٨٣ ،  
٥٨٤ ، ٥٨٧ ، ٥٩٢ ، ٥٩٤ ، ٦٠٢ ،  
٦٠٤ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦١١ ، ٦١٢ ،  
٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٦ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ،  
٦٢٥ ، ٦٣٨ ، ٦٤٠ ، ٦٤٢ ، ٦٤٤ ،  
٦٤٦  
المصحفي - جعفر ٣٢٢  
مصعب بن الزبير ٦٢٦  
المطبيع العباسي ٦٤٢  
المفالم ٣٨٣ - ٣٨٤  
المعزله ١٢٧  
المعتصم العباسي ٥٥١ ، ٦٢٥ ، ٦٤٢  
المعتضد العباسي ٥٨٩  
المعز الفاطمي ٥٧١ ، ٥٧٦ ، ٥٩٤ ، ٦٠٢ ،  
٦١٨ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩  
المغرب - بلاد ال ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٣ ، ٥٣٨ ،  
٥٤٠ ، ٥٦٥ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٩ ،  
٥٨٠ ، ٥٨٤ ، ٥٨٧ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ،  
٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٦ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ،

النصور - أبو جعفر ٥٥٣  
النصور - أبو يوسف يعقوب ٢٢٧ ، ٥٤٣ ،  
٦٢٢ ، ٦٠١ ، ٦٠٠ ، ٥٩٩ ، ٥٨٠  
٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩

منقوليا ٥٦٨

ابن منقذ - اسامه صاحب كتاب الاعتبار ٥٧٤  
المنقذ من الضلال للغزالي ١٥٠ ، ٥٣٥ - ٥٣٦  
منكبرني - جلال الدين آخر سلاطين خوارزم ٥٦١  
منهاج السراج للجوزجاني ٥٥٨  
المهدية ٣٧٦ ، ٥٩٠

المواعظ والاعتبار للمقرئزي ٥٦٧ ، ٥٧٣  
الموحدون بالمغرب - الدولة الموحدية ٢١٩ - ٢٢٣  
- الدعوة الموحدية ٢٩٢ - ٣٠٢ ، الخلافة  
الموحدية ٣١٦ - ٣١٧ ، ٥٩٩ ، ٦٢٨

مودود - قتل الدين ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٧

الموشحات - الزجل ٤٩٤ - ٤٩٨

الموصل ٤٤٥ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ،  
٥٤٧ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦  
٥٥٩ ، ٥٨٥

المؤيد هبة الله الشيرازي داعي الاسماعيلية ١٢ ،  
١٤ - ١٥ ، ٢٣٧ ، ٤٦٢ - ٤٦٧

٥٧٨ - ٥٧٩

مؤيد الدولة بن نظام الملك ٢٢٨

مؤيد الملك بن نظام الملك ٤٠ ، ٤١

ميفارقين ٨١

ابن ميسر المؤرخ صاحب كتاب أخبار مصر  
٥٧٢ ، ٥٧٤ ، ٦٣٥

( ن )

ناصر خسرو ٥٦٣ ، ٥٧٣ - ٥٨٤ ، ٥٨٦  
٥٩٤ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣

الناصر العباسي ٥٨١ ، ٩٥٠

الناصر - عيد الرحمن الثالث ٥٩١ ، ٦٣٠

الناصر بن يعقوب بن النصور الموحدى ٢٣٠ -

٢٣١ موقعة العقاب ٢٣١ - ٢٣٢

٦٢٣ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٥ ،

٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٢

النفول - انظر التتار - التتار ٦٢٥ ، ٦٢٧ ،  
٦٢٨ ، ٦٢٩

المنتقد العباسي ٦٤٢ ، ٦٥٦

المنتقى العباسي ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٥٥١ ، ٦٣٢ ، ٦٥٢

المنتقى العباسي ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٦٥٣

المقدسي - صاحب أحسن التقاسيم ٥٨٣ ، ٦٠٥

المقرئ ٥٣٨ ، ٥٤٧ ، ٥٥٠ ، ٥٦٦ ، ٥٨٣ ،

٦٠٥ ، ٦٣٠ ، ٦٣٩

المقرئزي ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ،

٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٥ ، ٦١٢ ، ٦١٥ ،

٦١٦ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٣٣ ، ٦٥١

القس - ميناء مصر ٦٠٣ ، ٦١٠

القطم - جبل بمصر ٥٢٩ ، ٥٩٤ ، ٦٠٢ ،

٦٠٩ ، ٦١١

مكتبة - مكتبات ٤٣٠ - ٤٣٣ ، ٥٩٤

المكرم بن علي الصليحي ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ -

٢٤٢

مكة ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٨٤ ، ٦٥١ ، ٦٥٥ ،

٦٥٦

المسكين - جرجيس صاحب المجموع المبارك

٥٥٩

ملازكرد - موقعة ٢٢ ، ٦٤٤

الملايو ٦٠٥

ملبار ٤٠٠

ماطية - بارمينية الصغرى ٥٥٩

ملكشاه الساجوقى ٢٢ ، ٢٥ - ٣٣ ، ٣٥ ،

٣٦ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٩٥ ، ٥٣٢ ،

٦٠٦ ، ٦٤١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٥

الماليك ٥٧٩ ، ٥٩٤ ، ٦٠٨ ، ٦١٢ ،

٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦٢٨

النثر ٦٠٧ ، ٦١٢ ، ٦١٧ ، ٦٢٣ ، ٦٤٦ ،

٦٤٧ ، ٦٤٩

ابن منده - مؤرخ أصبهان ٣٦

٥٥٧٦ ، ٥٧١ ، ٥٧٠ ، ٥٦٣ ، ٥٥٩  
٥٨٣

بنو هود ملوك سرقسطة بالأندلس ٦٣٠  
هولاكو — سقوط بغداد ١٥٤ — ١٦٢  
٥٧١ ، ٥٦٨ ، ٥٦٦ ، ٥٥٧  
هوورث — هنري صاحب تاريخ المغول ٥٦٩  
هيلانة — قبيلة بالمغرب ٥٩٥ ، ٥٩٦

( و )

واسط ٤٩ ، ٦٤٩ ، ٦٥١  
ابن واصل — جمال الدين صاحب مفرج الكروب  
في أخبار بني أيوب ٥٧٩  
الوزان — الحسن — انظر ليون الافريقي  
وركة — قبيلة بالمغرب ٥٩٥  
وزير — وزارة ، في عهد السلاجقة ٣٢٤ —  
٣٢٩ في مصر ٣٢٩ — ٣٣١ في الأندلس  
٣٣١ — ٣٣٢ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ ،  
٥٥١ ، ٥٥٣ ، ٥٥٨ ، ٥٦٢ ، ٥٧٤ ،  
٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٤ ، ٦٠٤ ، ٦٠٦ ، ٦٠٩ ،  
٦١٠ ، ٦١٧ ، ٦٢٥ ، ٦٢٧ ، ٦٣٤ ،  
٦٣٥ ، ٦٤١ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥١ ،  
٦٥٢ ، ٦٥٣  
الوساطة ٣٣٣  
وصاف الحضرة — عبد الله بن فضل الله صاحب  
تاريخي وصاف ٥٦٨  
وفيات الاعيان ٥٦٤ ، ٥٥٧  
الوليد ٥٥١

( ي )

ابن ياسين — عبد الله الفقيه المالكي ٦٣٠  
ياقوت الحموي ٥٦٢ ، ٥٦٧ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦  
يزدي — شرف الدين صاحب كتاب ظفر نامة  
٥٧٠  
اليساق ١٣٦ — ١٣٩  
اليقوي ٥٩٥ ، ٦٠٥

الناصرية — مدرسة ال ٦٠٧

النبط ٦٥٥  
النثر ٥٠١ — ٥١٣  
نجم الدين أيوب ١١٤ ، ١١٥ ، ٣٢٣ ، ٦٢٨  
نحو ٤٧٠ — ٤٧٤  
النزارية في فارس والشام ٢٦٨ — ٢٧٩  
النسفي — أبو عبد الله داعي الاسمايلية ٥٧٥  
النسوي — شهاب الدين صاحب سيرة منكبرتي ٥٦١  
النسيج ٣٩١ — ٣٩٤  
النصاري ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، نصاري الأندلس  
٦٣٠  
النصرية ٢٦٥ — ٢٦٧  
نظام الملك الوزير ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٣ ،  
٥٣٢ ، ٦٠٦  
النظامية — المدرسة ال ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٦٣٣  
نظامي مروزي ٣٦ ، ٤٤ ، ٥٦ ، ١٦٦ ،  
٣٠١  
النظام المعتزلي ٤٥٧ — ٤٥٨  
نفيس — وادي بالمغرب ٥٩٦  
نقيسة — مشهد السيدة ٦١١  
النميري — عمر بن علي ٤٥٥  
نور الدين محمود بن زنكي ٦٣ ، ٢٠٩ ، ٣٣٠ ،  
٣٤٩ ، ٦٠٦  
ذو النون — أسرة حاكمة بضليطة ٦٣٠  
نيسابور ٥٣٢ ، ٦٠٦ ، ٥٣٣  
النيل — نهر ال ٥٩٤ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ،  
٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦٢٨ ، ٦٣٥ ، ٦٤١ ،  
٦٤٥

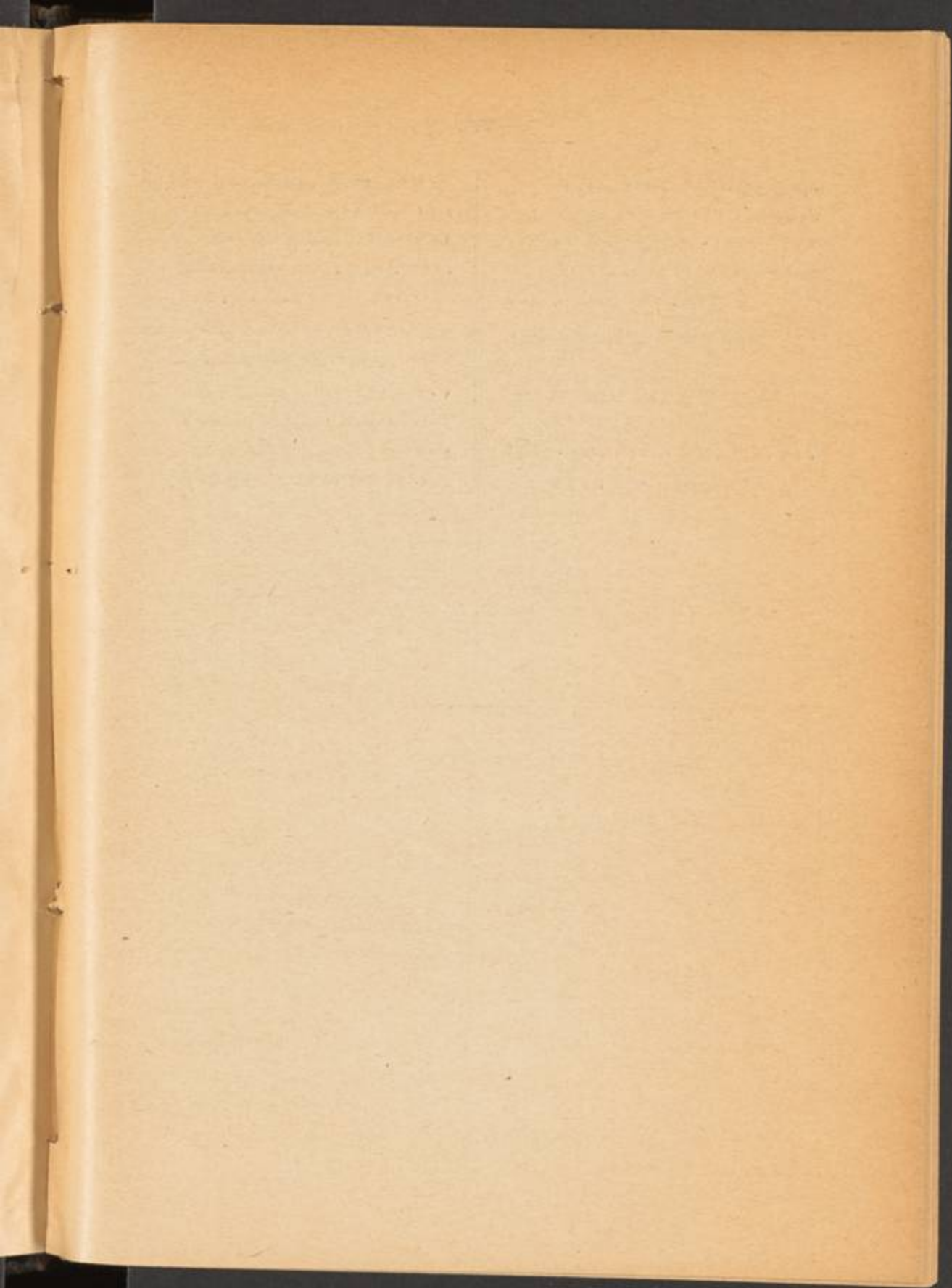
( هـ )

ابن هبيرة — عون الدولة ٤٨٣  
هراة ١٧٦ ، ٥٦٥ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥  
بنو هلال ٦٢٨  
هلال الصابي ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٧٤  
الهمة وفضل الأئمة لأبي حنيفة النعمان المغربي ٥٧٧  
همذان ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٥٦ ، ٦٠٥  
الهند ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٤١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٨



بنو زريع في عدن ٢١٣ ، اليمن في عهد  
الأيوبيين ٢١٤ — ٢١٥ ، بنو رسول  
و بنو الرسي في اليمن ٢١٥ — ٢١٩  
الدعوة الصليبية في اليمن ٢٧٩ — ٢٨٢  
يوسف بن تاشفين ٥٩٧ ، ٦٢٨  
يوسف بن عبد المؤمن أبو يعقوب المنصور ٦٢٣ ،  
٦٢٤  
اليهود — اليهودية ٥٤٦ ، ٥٥٩ ، ٦٢٦ ،  
٦٢٧ ، ٦٣٠  
اليونان ٥٣٠ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٤ ، ٥٥٣ ،  
٥٥٩ ، ٥٦٢ ، ٥٨٧ ، ٥٩١

أبو يعقوب يوسف المنصور الموحدى ٢٢٤ —  
٢٢٥ ، موقعة الارك ٢٢٥ — ٢٢٧ ،  
أبو يعقوب وصلاح الدين ٢٢٨ — ٢٢٩  
إصلاحات يعقوب ٢٢٩ ، ٥٤٣ ، ٥٩٩ ،  
٦٠١ ، ٦٢١ ، ٦٢٣ — ٦٢٤  
يلبغا — الأمير ٦١٩ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩  
يلبوشسى مستشار جنكيزخان ١٤٧  
اليمن - الدولة الصليبية في اليمن ١٩٧ — ٢٠٧  
الاسماعيلية في اليمن بعد المستنصر ٢٠٨ —  
٢١٠ بنو نجاح في زبيد ٢١٠ — ٢١٢  
بنو مهدي في زبيد ٢١٢ — ٢١٣ ،



## تصويب

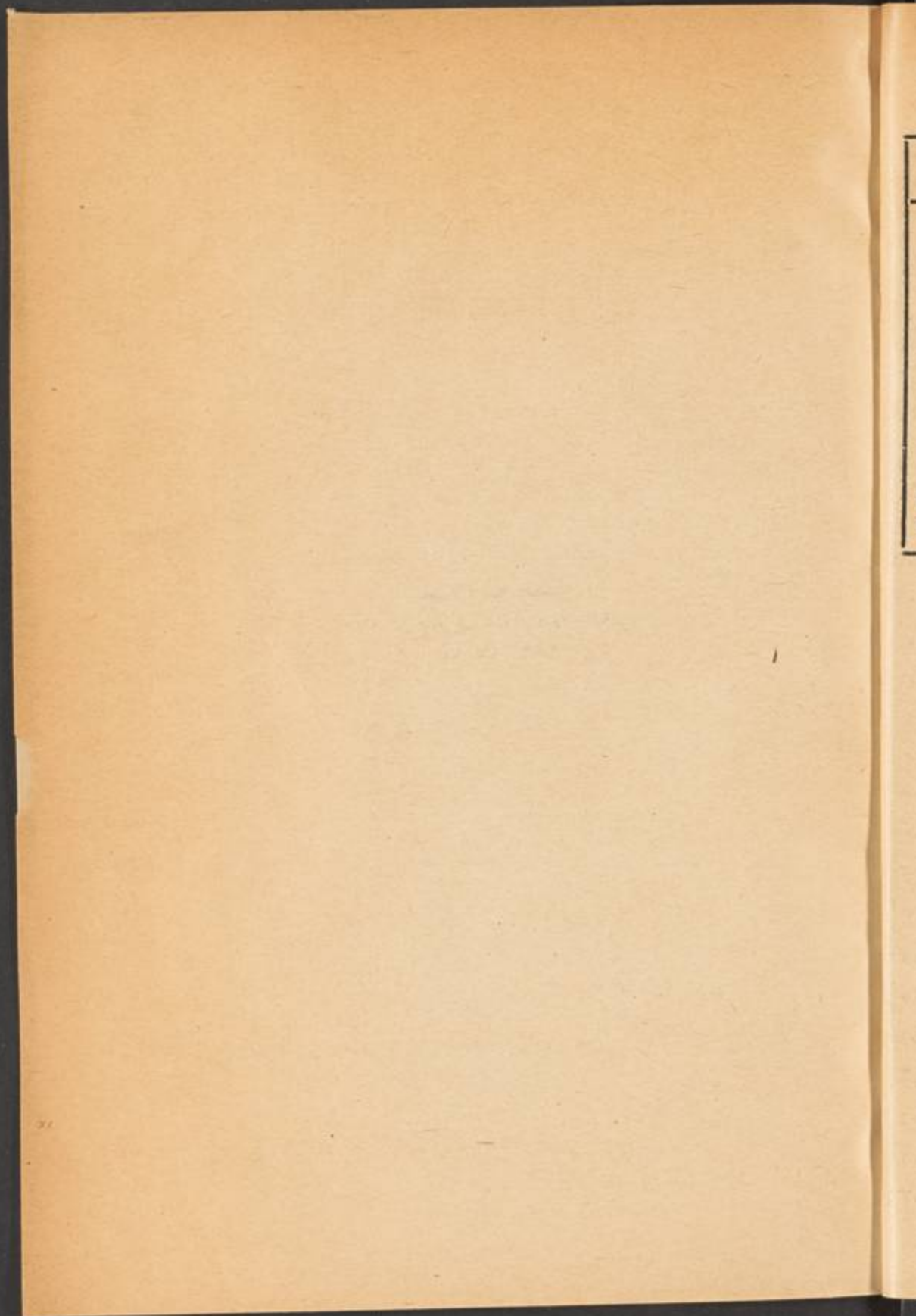
اعتذر للقارىء الكريم عن وقوع أغلاط مطبعية ترجع إلى طبع الكتاب أثناء غيابه عن القاهرة حتى اضطرت إلى إعادة جمع وطبع كثير من الم لازم ، راجيا التفضل بإصلاح هذه الأغلاط قبل قراءة الكتاب . وقد يجد القارىء بعض أغلاط أخرى لم تثبت في هذا الثبت واسكنها لا تخفى على فطنته .

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
ك	٦	الفاطمين	الفاطمين	٧١	٢٤	أربل	أربيل
ن	٢	إمرة الجيش	الجيش في مصر	٨١	٢٣	الصليبين	الصليبيين (١)
١	١١	بسلطين	لسلاطين	٩١	١٤	براك	براك
٣	٥	أرسلان بيغو	موسى أرسلان بيغو	٩٢	٤٠ ٣	بران	براك
٣	٥	موسى	تخذف	٩٢	٩٠ ٦	براق	براك
٤	٢٥	ج ٥	ج ٩	٩٦	٩	واطووه	واضطروه
١٣	١١	naméh	nâmeh	١٠٠	٢٦	ويتخرها	ويتخرها
١٣	٢٥	ص	ورقة	١٠١	٢١	أو نزار	أو نزار
٢٠	١٣	١٦٠٣	١٠٦٣	١٠٢	٩	توكان	ركان
٢٠	١٤	داود	شعري داود	١٠٢	٢١	بروان	براون
٢١	١٤	٤٦٣	٤٦٥	١٠٢	١٥	ج ١٢	ج ٢
٢٢	١٢	سعد الدين	سعد الدولة	١٠٣	٧	النهر	النهر
٣٢	٢	أين	أن	١٠٣	١٩	المكان	المطاف
٣٤	١٧	راحة الصدور	راحة الصدور (٢)	١٠٣	٢٥	هوداس	هوداس
٤٢	١٣	المعتدة	المعتدة من	١٠٣	٢٠	٦٢٩	٦٢٨
٥٢	١٩	وخلف	وخلفه	١٠٩	٨	السكرنك	السكرنك
٥٨	٢٢	أمر	أسر	١٠٩	١٦	تبق	تبق
٥٩	١	إرشاد	إرشاء	١٠٩	٢١	صور في	صور و
٦١	٤ ٥	طفنتسكين	طفنتسكين	١١٠	٣	المقدس	المقدس (١)

صواب	خطأ	سطر	صفحة	صواب	خطأ	سطر	صفحة
Ed.	Ied	١٥	١٧٨	مخالفة	مخالفة	٢٠	١١١
الظافر	الظاهر	١٤	١٧٩	وناشدته	وناشدته	٥	١١٢
Laud.	Land	٢٥	١٩٣	يحيى بن إبراهيم	يحيى بن إبراهيم	٦٠٥	١١٨
كثيراً	كثيرة	١٥	١٩٤	ولم يقف	ولا يقف	١٤	١١٩
تحذف	بندعاب في	٢٠	١٩٤	الثأر	النار	١٦	١٢٢
وأن	لأن	٥	١٩٦	ليورقة	ليورقة	٨	١٢٣
أمره (٢)	أمره	١٠	١٩٦	مالقة	مالقة	٢٠	١٢٣
الطواشي	للطواشي	٢٣	١٩٦	المسلمين	المؤمنين	٩	١٢٤
١٤٧	١٥٧	١٥	١٩٦	وفي النصف	في النصف	١٩	١٢٣
٧٩	٨٩	١٥	٢٠٥	Pool	Pool	١٥	١٢٣
يعز	يعز	١٩	٢٠٧	١٢٣١	١١٢٣	١٨	١٣٥
ثفته	ثفة	١١	٢٠٨	أونك	أونك	١	١٢٧
البطاشي	البطائي	١٣	٢٠٨	بعث إليه السلطان	بعث إليه	٨	١٣٨
البيي	البيين	٢٥	٢٠٨	في بلاد	بلاد	١٧	١٣٩
تادلا	نارلا	٢	٢١١	أربعون ألفاً	أربعون	٦	١٤٠
بن	ابن	١٦	٢١٣	بعقوبا	يعقوبا	١	١٥٩
عبد النبي بن	عبد النبي	٧	٢١٤	Strange	Strang	١٥	١٦١
محمد بن علي	بن مهدي	٤	٢٢٠	الشيوعيون	الشيوعيون	٦	١٦٢
وحسن	وحب	٤	٢٢٠	ويتنقل	ويتنقل	٩	١٦٤
٥٥٧	٥٥٩	١٥	٢٧٧	سوزي	سوري	١٥٤٩ ١٨	١٦٤
وخليفته	وخليفته	١٩	٢٧٧	تحذف	الكامل	٢٥	١٦٤
يكشف	يكشف	١٢	٢٧٨	أهلها (١)	أهلها	٤	١٧٦
وبتولي	وبتولي	١٤	٢٧٨	وأن يلقيه	وتلقبه	١٠	١٧٦
439	489	٢٦	٢٧٩	خوارزم شاه	خوارزم	١٧	١٧٦
يقاومون	يقاومون	٥	٢٨٠	خرميل	خربل	١٨	١٧٦
داعيا	داعب	١٩	٢٨٠				
authors	author	٢٦	٢٨٠				

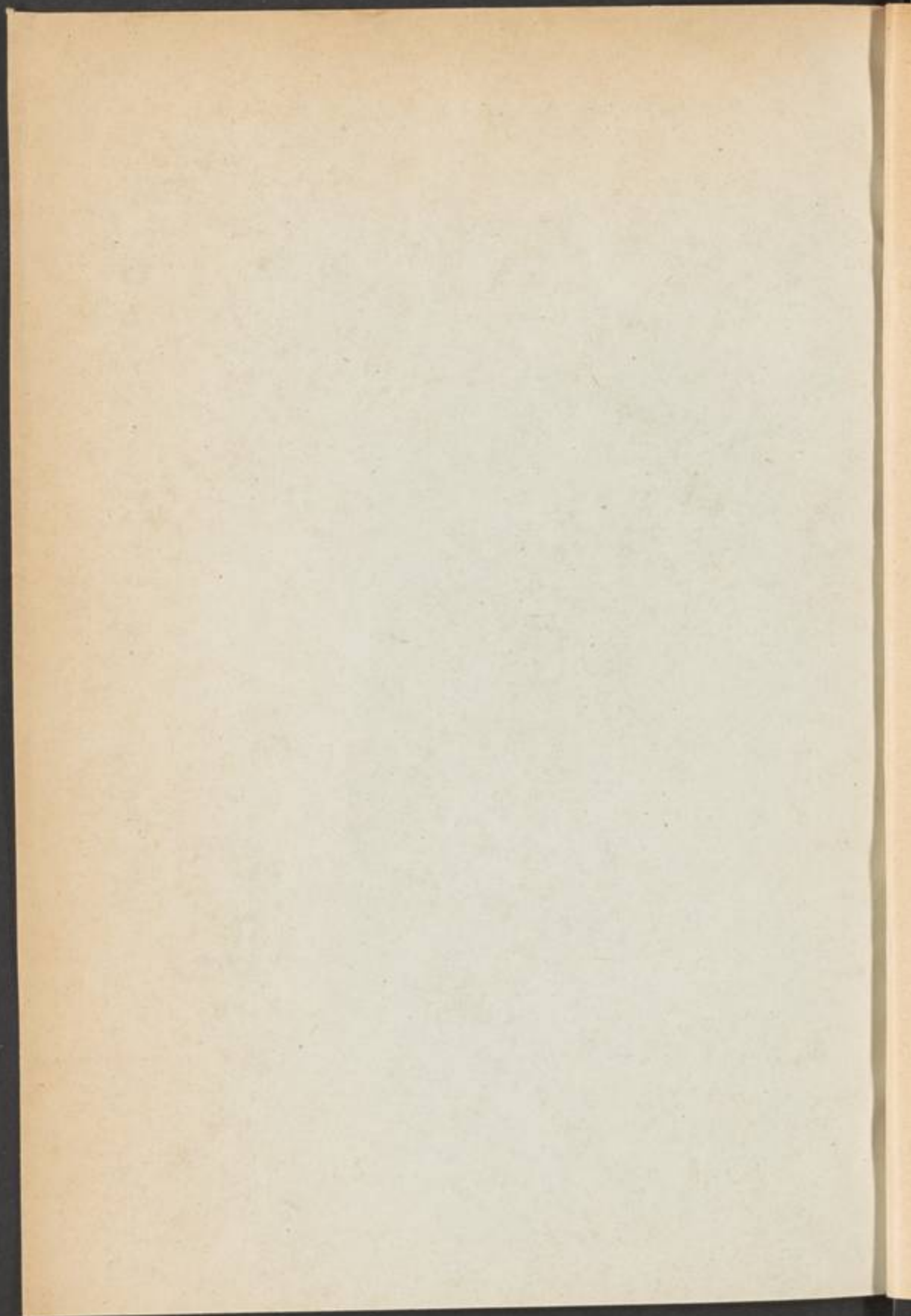
صواب	خطأ	سطر	صفحة	صواب	خطأ	سطر	صفحة
والخاص	والخالص	٧	٣٨١	esoterics	esoteric	٢٤	٢٨١
والكتاب	الكتاب	٢٠	٣٨٣	تخذف	ولم يكون	٢٦	٢٨١
ويقومون	يقومون	١	٣٩١	الفاسى	الفارسى	١٧	٢٨٢
السادس عشر	السادس	١	٣٩١	مهدي	قهدي	١٦	٢٨٣
الفدر	الفدر	٢٥	٣٩٣	ونصرتهم	ونفذتم	٢٢	٢٨٣
والصليبين	والصليبن	٩	٣٩٤	يفرأ - نهر	يفرأ - نهر	٩	٢٨٤
أو	أو	١٠	٣٩٦	وحث من حسن	وحث من حسن	٨	٢٨٥
دكا كين... أحياء	ركا كين. حياة	١٠	٣٩٦	أمرؤها سلطانهم	أمرؤها	١٤	٣٠٩
الشمع	الشمع	١٧	٣٩٦	المستعصم	المعصم	٢٣	٣٠٩
وأنخذت	وأنخذ	١٩	٣٩٦	يقوم	يقدم	١٠	٣١١
والدروع	والدرع	٦	٣٩٩	القرية	الغربية	٢٦	٣١١
الأبلة	الأبلة	٥	٤٠٥	الصنهاجين	الصنهاجين	٢٠	٣١٢
مسيحين	المسيحين	٩	٤٠٥	رجلهم	رجلهم	١٨	٣١٣
وأكبر	وأكثر	١٤	٤٠٦	وإنما لجأ	لجأ	٣	٣١٤
القصر	القصر	٢	٤٠٧	يتصد	يتعد	١٦	٣١٤
الحر	الحرارة	١٣	٤٠٧	على أن	على بن	٢٢	٣١٤
تفرغ	تفرغ	٢٠	٤٠٧	أن	أو	١٣	٣١٦
بالفسطاط	الفسطاط	١٩	٤٠٨	عزائم	غرايم	١٧	٣٢٢
تنقطع	تقطع	١	٤٠٩	فقتلنها	فقتلها	٢٠	٣٢٣
المفازة	المغارة	٣	٤١١	في المعارك الحربية فقد	في	١٤	٣٦٥
المدنية	للمدينة	٩	٤١٢	طراد	طواد	٢٠	٣٦٥
خصصت	حققت	١٧	٤١٢	وجميع	وجمع	٩	٣٦٦
أثر قيام كثير	أثر كثير	٤	٤٢٠	نشر	نشر	١٠	٣٦٦
بمعنى	وبمعنى	٨	٤٢٢	للموحدين	لله حدين	١٣	٣٧١
أوقات	أوفات	١٥	٤٨٩	موظفا آخر	موظف أخرى	١٩	٣٧٢
فذاك	فذك	١٣	٤٩٠	المسائل الشرعية	المسائل	١٩	٣٧٣
بنتم	بتم	٦	٤٩٢				
حجات	حجات	٣	٤٩٧				

صواب	خطأ	سطر	صفحة	صواب	خطأ	سطر	صفحة
بأن	أن	١٦	٥١٥	ويمن	ومن	٢٠	٤٩٧
انقسمت إلى	انقسمت	٢	٥٣٧	الحصري	الحصر	١٨	٤٩٨
كتابه	كتابة	١٥	٥٨٧	لا ينفد	لا ينقد	٥	٥٠٢
٥٥٤١	٥٥٤٠	٧	٦٠٠	أبا نصر	أنا نصر	١٠	٥٠٢
محمد بن الحسن	محمد بن	٧	٦٣٦	المعاني	المعاني	٦	٥٠٥
بن عبد	عبد الكريم						
بينها	بينهما	١١	٦٤٣	Seldjoucides	Seldjouc- iies	٢٧	٥٠٨
البولو	اليولو	١	٦٥٥	المنشودة	المنشورة	١٣	٥٠٨
Silvestre	Silvester	٢١	٦٦٩	المقرى	المقرى	٧	٥١٣
Caliphs	Caliph	١٤	٦٧٠				

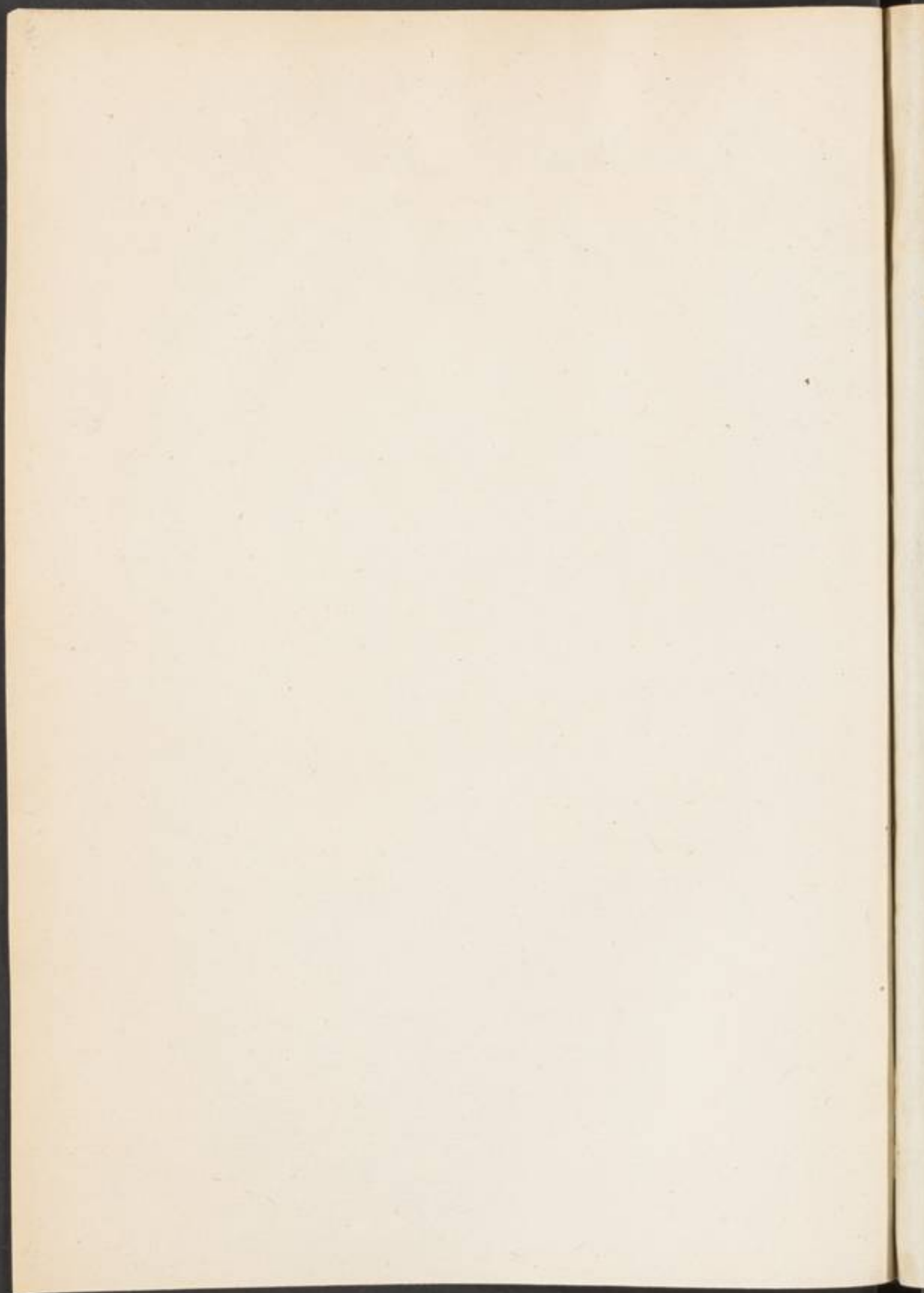


مطبعة السنة المحمدية  
١٧ شارع شريف باشا الكبير - عابدين  
ت ٩٠٦٠١٧





طبعة السنة المحمدية  
١٧ شارع شريف باشا الكبير - عابدين  
ت ٩٠٦٠١٧



461 8 Date Due

133612 NOV 29 74

Demo 38-297

